



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



رسالة  
عليكم يا صابرين

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

مكتبة  
الملك

# الاحاديث المكية

الجزء ١-٣

ترجمته الشيخ  
الملك

مكتبة  
الملك

بمطبعة  
الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الايخلاق فى القرآن

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى (دام ظله)

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (ع)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٣٢	الاخلاق فى القرآن
٣٢	اشارة
٣٢	الجزء الأول
٣٢	المقدمة:
٣٣	١ أهمية الأبحاث الأخلاقية
٣٣	تنويه:
٣٤	النتيجة:
٣٤	أهمية الأخلاق فى الروايات الإسلامية:
٣٥	إشارات مهمة:
٣٥	١- تعريف علم الأخلاق
٣٦	٢- علاقة الأخلاق بالفلسفة
٣٦	٣- علاقة الأخلاق بالعرفان
٣٧	٤- علاقة العلم بالأخلاق
٣٨	٥- هل أن الأخلاق قابلة للتغيير؟
٣٨	اشارة
٣٩	الآيات و الروايات التى يستدل بها، على إمكانية تغير الأخلاق:
٤٠	أدلة مؤيدى نظرية ثبات الأخلاق، و عدم تغيرها:
٤٠	الجواب:
٤١	٦- المسار التاريخى لعلم الأخلاق
٤٢	دور الأخلاق فى الحياة والحضارة الإنسانية
٤٢	اشارة
٤٣	تفسير و إستنتاج:

- ٤٦ ..... النتيجة:
- ٤٧ ..... علاقة الحياة المادية بالمسائل الأخلاقية في الروايات الإسلامية:
- ٤٧ ..... المذاهب الأخلاقية
- ٤٧ ..... اشارة
- ٤٨ ..... ١- الأخلاق في مدرسة الموحدين:
- ٤٨ ..... ٢- الأخلاق المادية:
- ٤٩ ..... ٣- الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقلانيين:
- ٤٩ ..... ٤- الأخلاق في مذهب محورية الغير:
- ٤٩ ..... ٥- الأخلاق في المذهب الوجداني:
- ٤٩ ..... اشارة
- ٤٩ ..... النتيجة:
- ٥٠ ..... ملاحظات:
- ٥٠ ..... ١- الأخلاق والنسبية
- ٥٠ ..... اشارة
- ٥٠ ..... الإسلام ينفي نسبية الأخلاق:
- ٥١ ..... سؤال:
- ٥١ ..... الجواب:
- ٥٢ ..... ٢- التأثير المتقابل بين (الأخلاق و (السلوك)
- ٥٢ ..... اشارة
- ٥٣ ..... التأثير المتقابل للأخلاق والعمل في الأحاديث الإسلامية:
- ٥٤ ..... ٣- الأخلاق الفرديّة و الإجتماعية
- ٥٤ ..... دعائم الأخلاق
- ٥٤ ..... اشارة
- ٥٥ ..... ١- دَعامة الإنتفاع

- ٢- الدعامة العقلية ..... ٥٥
- ٣- دعامة الشخصية ..... ٥٦
- ٤- الدعامة الإلهية ..... ٥٦
- اشارة ..... ٥٦
- ملاحظة: ..... ٥٩
- الأخلاق والحرية ..... ٥٩
- اشارة ..... ٥٩
- الإعتقاد بالجبر، و بالمسائل الأخلاقية: ..... ٦٠
- اصول المسائل الأخلاقية في القرآن الكريم ..... ٦٢
- اشارة ..... ٦٢
- نقد وتحليل: ..... ٦٣
- العودة للأصول الأخلاقية في القرآن الكريم: ..... ٦٤
- اصول الأخلاق الإسلامية في الروايات: ..... ٦٥
- إرتباط المسائل الأخلاقية مع بعضها ..... ٦٧
- تنويه: ..... ٦٧
- من أين نبدأ؟ ..... ٦٨
- اشارة ..... ٦٨
- ثلاث نظريات في كيفية التعامل مع المسائل الأخلاقية: ..... ٦٨
- النظرية الأولى ..... ٦٨
- النظرية الثانية: نظرية الطب الروحاني ..... ٦٩
- النظرية الثالثة: نظرية السير و السلوك ..... ٧٠
- تنوع الطرق لأرباب السير و السلوك ..... ٧١
- اشارة ..... ٧١
- ١- السير و السلوك المنسوب: «للسيد بحر العلوم» ..... ٧١

- ٧١ ..... اشارة
- ٧٢ ..... كيفية السير و السلوك في هذه الطريقة:
- ٧٣ ..... ٢- طريقة المرحوم الملكى التبريزى
- ٧٤ ..... ٣- طريقة اخرى
- ٧٤ ..... اشارة
- ٧٥ ..... خلاصة ما تقدم من مذاهب السير و السلوك:
- ٧٥ ..... هل يلزم وجود المرشد في كل مرحلة؟
- ٧٥ ..... اشارة
- ٧٦ ..... دور الواعظ الداخلى (الباطنى):
- ٧٧ ..... العناصر اللازمة لتربية الفضائل الأخلاقية
- ٧٧ ..... اشارة
- ٧٧ ..... ١- طهارة و صفاء المحيط
- ٧٧ ..... اشارة
- ٧٧ ..... تفسير و إستنتاج:
- ٧٩ ..... ٢- دور الأصدقاء والعشرة
- ٧٩ ..... اشارة
- ٨٠ ..... تفسير و إستنتاج:
- ٨١ ..... دور الأهلآ في الروايات الإسلامية:
- ٨١ ..... تأثير العشرة في التحليلات المنطقية:
- ٨٢ ..... ٣- تأثير الاسرة والوراثه في الأخلاق
- ٨٢ ..... اشارة
- ٨٣ ..... تفسير و استنتاج:
- ٨٤ ..... الأخلاق والتربية في الأحايث الإسلامية:
- ٨٥ ..... ٤- معطيات العلم و المعرفة في التربية



- ٨٥ ..... اشارة
- ٨٦ ..... ١- الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف
- ٨٦ ..... ٢- الجهل سبب للإنفلات و التحلل الجنسى
- ٨٦ ..... ٣- الجهل أحد عوامل الحسد
- ٨٧ ..... ٤- الجهل مصدر التعصب و العناد و اللؤم
- ٨٧ ..... ٥- علاقة الجهل بالذرائع
- ٨٧ ..... ٦- علاقة سوء الظن مع الجهل
- ٨٧ ..... ٧- الجهل مصدر لسوء الأدب
- ٨٧ ..... ٨- أصحاب التار لا يفقهون
- ٨٧ ..... ٩- الصبر من معطيات العلم
- ٨٨ ..... ١٠- التفاق والفرقة ينشأن من الجهل
- ٨٨ ..... النتيجة:
- ٨٨ ..... علاقة «العلم» و «الأخلاق» فى الأحاديث الإسلاميه:
- ٩٠ ..... ٥- دور الثقافة الإجتماعيه فى تربية الفضائل والردائل:
- ٩٠ ..... اشارة
- ٩٠ ..... تفسير و إستنتاج:
- ٩٢ ..... علاقة الآداب و السنن بالأخلاق فى الروايات الإسلاميه:
- ٩٣ ..... ٦- علاقة العمل بالأخلاق
- ٩٣ ..... اشارة
- ٩٣ ..... تفسير و إستنتاج:
- ٩٦ ..... النتيجة:
- ٩٦ ..... كيفيه تأثير «العمل»، فى «الأخلاق» فى الروايات الإسلاميه:
- ٩٧ ..... ٧- علاقة «الأخلاق» و «التغذية»
- ٩٧ ..... اشارة

- ٩٨ ..... علاقة التغذية بالأخلاق في الروايات الإسلامية: .....
- ٩٩ ..... النتيجة: .....
- ١٠٠ ..... الصفات و الأعمال الأخلاقية: .....
- ١٠٠ ..... الخُطى العملية في طريق التهذيب الأخلاقي .....
- ١٠٠ ..... اشارة .....
- ١٠٠ ..... الخطوة الاولى: التوبة .....
- ١٠٠ ..... اشارة .....
- ١٠١ ..... ١- حقيقة التوبة .....
- ١٠٢ ..... ٢- وجوب التوبة .....
- ١٠٢ ..... ٣- عمومية التوبة .....
- ١٠٤ ..... ٤- أركان التوبة .....
- ١٠٥ ..... ٥- قبول التوبة: هل هو عقلى أم نقلى؟ .....
- ١٠٦ ..... ٦- التبعض في التوبة .....
- ١٠٧ ..... ٧- دوام التوبة .....
- ١٠٨ ..... ٨- مراتب التوبة .....
- ١٠٨ ..... ٩- معطيات و بركات التوبة .....
- ١٠٩ ..... الخطوة الثانية: المشاركة .....
- ١١٠ ..... الخطوة الثالثة: المراقبة .....
- ١١١ ..... الخطوة الرابعة: المحاسبة .....
- ١١١ ..... اشارة .....
- ١١٣ ..... ١- كيفية محاسبة النفس و إستنطاقها .....
- ١١٣ ..... ٢- ما هي معطيات محاسبة النفس؟ .....
- ١١٣ ..... الخطوة الخامسة: المعاتبه والمعاقبه .....
- ١١٥ ..... الخطوة السادسة: «النية» و «إخلاص النية» .....

- ١١٥ ..... اشارة
- ١١٦ ..... الإخلاص:
- ١١٨ ..... الإخلاص فى الروايات الإسلاميّة:
- ١١٨ ..... حقيقة الإخلاص:
- ١١٩ ..... موانع الإخلاص:
- ١١٩ ..... معطيات الإخلاص:
- ١٢٠ ..... الرّياء:
- ١٢٠ ..... تفسير و إستنتاج:
- ١٢١ ..... الرّياء فى الروايات الإسلاميّة:
- ١٢٢ ..... فلسفة تحريم الرّياء:
- ١٢٣ ..... علامات المرّائى:
- ١٢٤ ..... علاج الرّياء:
- ١٢٤ ..... هل التّشاط فى العبادة ينافى الإخلاص؟
- ١٢٥ ..... ما الفرق بين الرّياء و السّمعة:
- ١٢٦ ..... الخطوة السّابعة: الشكوت و إصلاح اللّسان
- ١٢٦ ..... اشارة
- ١٢٦ ..... الشكوت فى الآيات القرآنيّة الكريمة:
- ١٢٧ ..... الشكوت فى الروايات الإسلاميّة:
- ١٢٨ ..... إزالة وهم:
- ١٢٨ ..... إصلاح اللّسان:
- ١٣٠ ..... علاقة اللّسان بالفكر والأخلاق:
- ١٣١ ..... آفات اللّسان:
- ١٣٢ ..... الاسس الكلّيّة للوقاية من أخطار اللّسان:
- ١٣٢ ..... اشارة

- ١٣٢ ..... ١- الإنتباه الحقيقي لأخطار اللسان
- ١٣٢ ..... ٢- السكوت
- ١٣٣ ..... ٣- حفظ اللسان: «التفكر أولاً ثم الكلام»
- ١٣٣ ..... الخُطوة الثامنة: معرفة الله تعالى و معرفة النفس
- ١٣٣ ..... اشارة
- ١٣٣ ..... ١- علاقة معرفة النفس بتهذيبها
- ١٣٤ ..... ٢- معرفة النفس في الروايات الإسلامية
- ١٣٥ ..... ٣- معرفة النفس طريق لمعرفة الرب
- ١٣٦ ..... التفاسير المتبعة، لحديث من عرف نفسه:
- ١٣٧ ..... موانع معرفة النفس:
- ١٣٨ ..... الخُطوة التاسعة: العبادة و الدعاء تصقل مرآة القلب:
- ١٣٨ ..... اشارة
- ١٣٩ ..... تفسير و إستنتاج:
- ١٤٠ ..... النتيجة:
- ١٤١ ..... تأثير العبادة في صقل الروح في الروايات الإسلامية:
- ١٤٢ ..... النتيجة:
- ١٤٢ ..... ذكر الله و تربية الزوج:
- ١٤٣ ..... تفسير و إستنتاج:
- ١٤٤ ..... كيف يكون ذكر الله؟
- ١٤٦ ..... النتيجة:
- ١٤٦ ..... علاقة ذكر الله، بتهذيب النفوس في الأحاديث الإسلامية:
- ١٤٦ ..... اشارة
- ١٤٧ ..... ١- ما هي حقيقة الذكر
- ١٤٧ ..... ٢- مراتب الذكر

- ١٤٨ ..... ٣- موانع الذكر
- ١٤٨ ..... القدوات في خط الإستقامة
- ١٤٨ ..... إشارة:
- ١٤٩ ..... تفسير و إستنتاج:
- ١٥٢ ..... النتيجة:
- ١٥٢ ..... التولى و التبرى في الروايات الإسلامية:
- ١٥٤ ..... قصة موسى و الخضر عليهما السلام:
- ١٥٥ ..... الوجه الآخر للولاية، و دوره في تهذيب النفوس
- ١٥٥ ..... اشارة
- ١٥٧ ..... كلام العلامة الشهيد المطهرى:
- ١٥٨ ..... الاستغلال السىء:
- ١٦٠ ..... الجزء الثانى
- ١٦٠ ..... الأخلاق الحسنة والسيئة فى القرآن
- ١٦٠ ..... مقدّمة (منهج البحث):
- ١٦١ ..... التكبر والاستكبار
- ١٦١ ..... تنويه:
- ١٦٢ ..... تفسير و استنتاج:
- ١٦٢ ..... البلاء العظيم على طول التاريخ البشرى:
- ١٦٧ ..... النتيجة النهائية:
- ١٦٨ ..... التكبر فى الروايات الإسلامية:
- ١٦٨ ..... التكبر فى منطق العقل:
- ١٦٩ ..... ملاحظات:
- ١٦٩ ..... اشارة
- ١٦٩ ..... ١- تعريف التكبر وحقيقته

- ١٧٠ ..... ٢- أقسام التكبر
- ١٧٠ ..... ٣- التكبر على مَنْ؟
- ١٧١ ..... ٤- دوافع التكبر
- ١٧٣ ..... ٥- جذور التكبر
- ١٧٤ ..... ٦- النتائج والعلام
- ١٧٤ ..... ٧- مفسد التكبر وعواقبه الوخيمة
- ١٧٦ ..... ٨- علاج التكبر
- ١٧٨ ..... ٩- الاختبارات العلاجية
- ١٧٩ ..... التواضع
- ١٧٩ ..... تنويه:
- ١٧٩ ..... تفسير واستنتاج:
- ١٨١ ..... التواضع في الروايات الإسلامية:
- ١٨١ ..... اشارة
- ١٨٢ ..... ١- تعريف التواضع
- ١٨٢ ..... ٢- التواضع وكرامة الإنسان
- ١٨٣ ..... الحرص والقناعة
- ١٨٣ ..... تنويه:
- ١٨٣ ..... تفسير واستنتاج:
- ١٨٧ ..... النتيجة النهائية:
- ١٨٧ ..... الحرص وحبّ الدنيا في الأحاديث الإسلامية:
- ١٨٧ ..... اشارة
- ١٨٨ ..... ١- تعريف الحرص
- ١٨٩ ..... ٢- النتائج السلبية للحرص في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية
- ١٨٩ ..... ٣- غنى النفس

- ١٩٠ ..... ٤- الحرص المذموم والممدوح
- ١٩٠ ..... ٥- علاج الحرص
- ١٩١ ..... ٦- إجابة عن شبهة
- ١٩٢ ..... حب الدنيا
- ١٩٢ ..... تنويه:
- ١٩٤ ..... حب الدنيا في الأحاديث الإسلامية:
- ١٩٤ ..... الدنيا المطلوبة والدنيا المذمومة:
- ١٩٦ ..... الحسد
- ١٩٦ ..... تنويه:
- ١٩٧ ..... تفسير واستنتاج:
- ١٩٧ ..... نار الحسد المحرقة
- ٢٠٠ ..... النتيجة:
- ٢٠١ ..... الحسد في الروايات الإسلامية:
- ٢٠١ ..... امور مهمة:
- ٢٠١ ..... اشارة
- ٢٠١ ..... ١- مفهوم الحسد والغبطة
- ٢٠٢ ..... ٢- دوافع الحسد
- ٢٠٣ ..... ٣- علامات الحسد
- ٢٠٣ ..... ٤- النتائج السلبية للحسد
- ٢٠٥ ..... ٥- مراتب الحسد:
- ٢٠٥ ..... ٦- علاج الحسد:
- ٢٠٧ ..... ٧- التُّصح وحب الخير للآخرين
- ٢٠٧ ..... الغرور والعُجب
- ٢٠٧ ..... تنويه:

- ٢٠٨ ..... ١- مفهوم الغرور
- ٢٠٨ ..... الغرور فى القرآن الكرىم:
- ٢٠٩ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢١١ ..... النتيجة النهائية:
- ٢١١ ..... اشارة
- ٢١٢ ..... ١- الغرور فى الروايات الإسلامية
- ٢١٢ ..... ٢- أسباب الغرور
- ٢١٣ ..... ٣- علائم الغرور
- ٢١٤ ..... ٤- المعطيات الفردية والإجتماعية للغرور
- ٢١٤ ..... ٥- طرق علاج الغرور
- ٢١٥ ..... طول الأمل
- ٢١٥ ..... تنويه:
- ٢١٦ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢١٦ ..... منابع طول الأمل
- ٢١٨ ..... طول الأمل فى الروايات الإسلامية:
- ٢١٩ ..... الآثار السلبية لطول الأمل:
- ٢١٩ ..... اشارة
- ٢٢٠ ..... ١- طول الأمل مصدر الكثر من الذنوب
- ٢٢٠ ..... ٢- طول الأمل وقساوة القلب
- ٢٢٠ ..... ٣- طول الأمل ونسيان الأجل
- ٢٢٠ ..... ٤- طول الأمل والعسر فى الحياة
- ٢٢٠ ..... ٥- طول الأمل والذلة فى الحياة
- ٢٢١ ..... ٦- الحرمان من النعم والمواهب
- ٢٢١ ..... ٧- طول الأمل وعدم إدراك الحقائق



- ٢٢١ ..... ٨- طول الأمل وكفران النعمة
- ٢٢١ ..... دوافع طول الأمل وأسبابه:
- ٢٢٢ ..... علاج طول الأمل:
- ٢٢٣ ..... وهنا نقطتان:
- ٢٢٤ ..... الآمال والتمنيات الإيجابية والبناءة:
- ٢٢٤ ..... التعصب والعناد
- ٢٢٤ ..... تنويه
- ٢٢٥ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٢٥ ..... المنهج العام للأقوام المنحرفين
- ٢٢٨ ..... النتيجة النهائية:
- ٢٢٩ ..... التعصب والعناد في الأحاديث الإسلامية:
- ٢٢٩ ..... اشارة
- ٢٢٩ ..... ١- مفهوم التعصب ودوافعه
- ٢٣٠ ..... ٢- الآثار السلبية للتعصب والعناد
- ٢٣١ ..... ٣- التعصب الإيجابي والسلبي
- ٢٣٢ ..... ٤- التقليد البناء والأعمى
- ٢٣٣ ..... ٥- طرق العلاج
- ٢٣٤ ..... ٦- التسليم مقابل الحق
- ٢٣٤ ..... الجبن والشجاعة
- ٢٣٤ ..... تنويه:
- ٢٣٥ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٣٥ ..... الأنبياء والشجاعة
- ٢٣٩ ..... النتيجة النهائية:
- ٢٣٩ ..... الجبن والخوف في الروايات الإسلامية:

- ٢٣٩ ..... اشارة
- ٢٣٩ ..... ١- الخوف المعقول وغير المعقول
- ٢٤٠ ..... ٢- الآثار السلبية للجبن في حركة الحياة الفردية والاجتماعية
- ٢٤١ ..... ٣- دوافع الجبن
- ٢٤١ ..... ٤- طرق العلاج والوقاية
- ٢٤٢ ..... ٥- معطيات الشجاعة في حياة الإنسان
- ٢٤٣ ..... ضعف النفس والتوكل على الله
- ٢٤٣ ..... تنويه:
- ٢٤٤ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٤٤ ..... معطيات التوكل في حياة الأنبياء
- ٢٤٨ ..... النتيجة النهائية:
- ٢٤٨ ..... التوكل في الأحاديث الإسلامية:
- ٢٤٨ ..... اشارة
- ٢٤٩ ..... ١- حقيقة التوكل
- ٢٥١ ..... ٢- معطيات التوكل وآثاره الإيجابية
- ٢٥١ ..... ٣- أسباب التوكل
- ٢٥٢ ..... ٤- درجات التوكل
- ٢٥٣ ..... ٥- طرق تحصيل التوكل
- ٢٥٣ ..... الشهوة والعفاف
- ٢٥٣ ..... تنويه:
- ٢٥٤ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٥٤ ..... آثار اتباع الشهوات في التاريخ البشرى
- ٢٥٧ ..... اتباع الشهوات في الروايات الإسلامية:
- ٢٥٨ ..... عواقب اتباع الشهوة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام:

- ٢٥٨ ..... النتائج الوخيمة لاتباع الشهوة: .....
- ٢٥٨ ..... اشارة .....
- ٢٥٩ ..... ١- التلوث بالذنب .....
- ٢٥٩ ..... ٢- فساد العقل .....
- ٢٥٩ ..... ٣- تحقير شخصية الإنسان الاجتماعية .....
- ٢٦٠ ..... ٤- اسر النفس .....
- ٢٦٠ ..... ٥- الفضيحة والعار .....
- ٢٦٠ ..... عوامل وأسباب عبادة الشهوة: .....
- ٢٦٠ ..... اشارة .....
- ٢٦١ ..... ١- ضعف الإيمان .....
- ٢٦١ ..... ٢- عدم الاهتمام بالكرامة الاجتماعية والشخصية الإنسانية .....
- ٢٦١ ..... ٣- الغفلة والجهل .....
- ٢٦٢ ..... ٤- المعاشرة مع رفاق السوء .....
- ٢٦٢ ..... طرق علاج اتباع الشهوات: .....
- ٢٦٢ ..... اشارة .....
- ٢٦٢ ..... ألف) الطريق العلمي .....
- ٢٦٣ ..... ب) الطريق العملى .....
- ٢٦٤ ..... شهوة الأكل والجنس: .....
- ٢٦٥ ..... العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية .....
- ٢٦٥ ..... تنويه: .....
- ٢٦٦ ..... التفسير: .....
- ٢٦٦ ..... الفقير المتعطش .....
- ٢٦٨ ..... العفة السمة الأخلاقية للمؤمن: .....
- ٢٦٨ ..... العفة مفتاح النجاة: .....

- ٢٦٨ ..... العفة فى الروايات الإسلامية: .....
- ٢٦٨ ..... النتيجة: .....
- ٢٦٩ ..... طرق الوقاية من التحلل الأخلاقى: .....
- ٢٦٩ ..... اشارة .....
- ٢٦٩ ..... ١- الحجاب وترك الزينة أمام الأجانب .....
- ٢٧٠ ..... ٢- عدم اختلاط الرجل والمرأة .....
- ٢٧٠ ..... ٣- رؤية التصاوير الخليعة والأفلام الرخيصة .....
- ٢٧٠ ..... عامل الغفلة .....
- ٢٧٠ ..... تنويه: .....
- ٢٧١ ..... تفسير واستنتاج: .....
- ٢٧١ ..... «الغفلة» المنبع الأصلى للمشكلات .....
- ٢٧٥ ..... النتيجة: .....
- ٢٧٥ ..... الغفلة فى الروايات الإسلامية: .....
- ٢٧٦ ..... النتيجة: .....
- ٢٧٦ ..... ملاحظات مهمة حول الغفلة: .....
- ٢٧٦ ..... اشارة .....
- ٢٧٦ ..... ١- عوامل الغفلة .....
- ٢٧٧ ..... ٢- العواقب المشؤومة للغفلة .....
- ٢٧٨ ..... ٣- علائم الغفلة .....
- ٢٧٨ ..... ٤- الطرق الكفيلة بمكافحة الغفلة .....
- ٢٨٠ ..... ٥- اليقظة والانتباه .....
- ٢٨١ ..... التغافل الإيجابى: .....
- ٢٨٢ ..... التغافل فى كلمات المعصومين عليهم السلام: .....
- ٢٨٢ ..... البخل والشح .....

- ٢٨٢ ..... تنويه:
- ٢٨٣ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٨٣ ..... مصير البخلاء
- ٢٨٨ ..... النتيجة:
- ٢٨٨ ..... البخل في منظور الروايات الإسلامية:
- ٢٨٩ ..... جذور البخل وعلائمه:
- ٢٩٠ ..... آثار ونتائج البخل:
- ٢٩١ ..... درجات البخل:
- ٢٩١ ..... الوقاية من البخل وعلاجه:
- ٢٩٢ ..... الجود والسخاء
- ٢٩٢ ..... تنويه:
- ٢٩٣ ..... تفسير واستنتاج:
- ٢٩٣ ..... سيماء الكرماء في القرآن
- ٢٩٤ ..... السخاء في الروايات الإسلامية:
- ٢٩٥ ..... معطيات السخاء:
- ٢٩٦ ..... حدود السخاء:
- ٢٩٦ ..... طرق تحصيل ملكة السخاء:
- ٢٩٧ ..... العجلة والتسرع
- ٢٩٧ ..... تلويح:
- ٢٩٨ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٠٢ ..... النتيجة:
- ٣٠٢ ..... العجلة والتسرع في الروايات الإسلامية:
- ٣٠٣ ..... ملاحظات مهمة:
- ٣٠٣ ..... ١- مفهوم العجلة والتسرع

- ٣٠٣ ..... ٢- المسارعة في الخيرات
- ٣٠٤ ..... الآثار السلبية للعجلة والتسرع:
- ٣٠٤ ..... ١- اتلاف الوقت والطاقات
- ٣٠٤ ..... ٢- اليأس
- ٣٠٥ ..... ٣- الندامة
- ٣٠٥ ..... ٤- الحزن والغم
- ٣٠٥ ..... ٥- زيادة الخطأ
- ٣٠٥ ..... ٦- كثرة الزلل
- ٣٠٥ ..... جذور هذه الصفة الذميمة:
- ٣٠٥ ..... ١- اتباع الهوى
- ٣٠٦ ..... ٢- حب الدنيا والتعلق بها
- ٣٠٦ ..... ٣- ضيق الصدر وسعته
- ٣٠٦ ..... ٤- الجهل
- ٣٠٦ ..... طرق العلاج:
- ٣٠٧ ..... الصبر والتأني
- ٣٠٧ ..... تنويه:
- ٣٠٧ ..... آيات الصبر:
- ٣٠٨ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٠٨ ..... اسوة الصبر والمقاومة
- ٣١٤ ..... الصبر في الأحاديث الإسلامية:
- ٣١٥ ..... معطيات الصبر ونتائجه:
- ٣١٦ ..... أقسام الصبر:
- ٣١٧ ..... دوافع الصبر والاستقامة:
- ٣١٩ ..... علاج الجزع وقلة الصبر:

- ٣١٩ ..... اشارة
- ٣١٩ ..... ١- تشخيص المرض
- ٣١٩ ..... ٢- التفكير بالعواقب السلبية للجزع وقلّة الصبر
- ٣٢٠ ..... ٣- مطالعة الآيات والروايات الواردة في هذا الباب
- ٣٢٠ ..... ٤- مطالعة حالات الأنبياء والأولياء
- ٣٢٠ ..... ٥- تلقين الاعتماد على النفس في تحمّل الصعاب
- ٣٢١ ..... الفرق بين الجزع والعواطف المعقولة:
- ٣٢١ ..... نهاية الجزء الثاني:
- ٣٢١ ..... الجزء الثالث
- ٣٢١ ..... الإعراض عن الأخلاق إعراض عن كل شيء
- ٣٢١ ..... مقدمة:
- ٣٢٢ ..... حبّ الجاه
- ٣٢٢ ..... تنويه:
- ٣٢٣ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٢٣ ..... ذم طلاب الجاه
- ٣٢٥ ..... حبّ الجاه في الروايات الإسلامية:
- ٣٢٦ ..... الرئاسة بالحق والرئاسة بالباطل:
- ٣٢٦ ..... علامات حبّ الجاه:
- ٣٢٧ ..... أسباب ومقاصد حبّ الجاه:
- ٣٢٧ ..... علاج حبّ الجاه:
- ٣٢٩ ..... التبرير والعناد
- ٣٢٩ ..... تنويه:
- ٣٣٠ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٣٣ ..... اللجاج والممارسة في الروايات الإسلامية:

- ٣٣٤ ..... دوافع وعواقب اللجاج والمماراة: .....
- ٣٣٥ ..... الفرق بين الإستقامة واللجاج: .....
- ٣٣٥ ..... طريقة العلاج: .....
- ٣٣٦ ..... الشكر وكفران النعمة .....
- ٣٣٦ ..... تنويه: .....
- ٣٣٦ ..... تفسير واستنتاج: .....
- ٣٣٩ ..... كفران النعم في الروايات الإسلامية: .....
- ٣٣٩ ..... اشارة .....
- ٣٤٠ ..... ١- معنى كفران النعمة .....
- ٣٤٠ ..... ٢- عواقب الكفران .....
- ٣٤١ ..... أسباب ودوافع الكفران وطرق علاجه: .....
- ٣٤٢ ..... الشكر قناة موصلة للنعم الإلهية: .....
- ٣٤٣ ..... فلسفة الشكر: .....
- ٣٤٣ ..... الشكر في مصادر الحديث .....
- ٣٤٤ ..... الشكر في سيرة المعصومين عليهم السلام: .....
- ٣٤٤ ..... كيف يتم الشكر: .....
- ٣٤٥ ..... دوافع الشكر: .....
- ٣٤٦ ..... شكر الخالق وشكر المخلوق: .....
- ٣٤٧ ..... الغيبة، التنايز بالألقاب وحفظ الغيب .....
- ٣٤٧ ..... تنويه: .....
- ٣٤٨ ..... تفسير واستنتاج: .....
- ٣٥٠ ..... الغيبة في الروايات الإسلامية: .....
- ٣٥١ ..... تعريف الغيبة: .....
- ٣٥٢ ..... أقسام الغيبة: .....



- ٣٥٣ ..... دوافع الغيبة:
- ٣٥٣ ..... العواقب السلبية للغيبة:
- ٣٥٤ ..... علاج الغيبة:
- ٣٥٤ ..... اشارة
- ٣٥٦ ..... ١- استماع الغيبة
- ٣٥٦ ..... ٢- الغيبة حق الناس أو حق الله؟
- ٣٥٨ ..... ٣- مستثنيات الغيبة
- ٣٥٨ ..... ٤- حكم المتجاهر بالفسق
- ٣٦٠ ..... ٥- شمول دائرة الغيبة
- ٣٦٠ ..... ٦- الغيبة العامة والخاصة
- ٣٦١ ..... ٧- الدفاع في مقابل الغيبة
- ٣٦٢ ..... ٨- غيبة الأموات
- ٣٦٢ ..... حسن الخلق وسوء الخلق
- ٣٦٢ ..... تنويه:
- ٣٦٢ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٦٥ ..... أهمية حسن الخلق في الروايات الإسلامية:
- ٣٦٦ ..... تعريف حسن الخلق:
- ٣٦٦ ..... النتائج المترتبة على حسن الخلق:
- ٣٦٧ ..... منابع حسن الخلق:
- ٣٦٨ ..... سيرة الأولياء:
- ٣٧٣ ..... نتائج سوء الخلق:
- ٣٧٤ ..... علاج سوء الخلق:
- ٣٧٤ ..... المزاح:
- ٣٧٦ ..... الأمانة والخيانة

- ٣٧٤ ..... تنويه:
- ٣٧٧ ..... تفسير وإستنتاج:
- ٣٧٩ ..... الأمانة والخيانة فى الروايات الإسلامية:
- ٣٨٠ ..... فروع الأمانة:
- ٣٨١ ..... معطيات الخيانة والأمانة:
- ٣٨٣ ..... دوافع الأمانة والخيانة:
- ٣٨٤ ..... طرق الوقاية والعلاج:
- ٣٨٤ ..... الأمانة والخيانة فى بيت المال:
- ٣٨٤ ..... الصدق
- ٣٨٤ ..... تنويه:
- ٣٨٤ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٨٩ ..... الصدق فى الروايات الإسلامية:
- ٣٨٩ ..... اشارة
- ٣٩٠ ..... ١- تأثير الصدق فى حياة الإنسان
- ٣٩١ ..... ٢- دوافع الصدق
- ٣٩١ ..... ٣- مفهوم الصدق
- ٣٩٢ ..... الكذب وآثاره وعواقبه
- ٣٩٢ ..... تنويه:
- ٣٩٢ ..... تفسير واستنتاج:
- ٣٩٥ ..... الكذب فى الروايات الإسلامية:
- ٣٩٦ ..... الآثار السلبية للكذب:
- ٣٩٧ ..... دوافع الكذب:
- ٣٩٨ ..... طرق علاج الكذب:
- ٣٩٩ ..... إستثناءات الكذب:

- ٣٩٩ ..... طريق الفرار من الكذب (التورية):
- ٤٠١ ..... الوفاء بالعهد ونقض العهد
- ٤٠١ ..... تنويه:
- ٤٠١ ..... تفسير وإستنتاج:
- ٤٠٤ ..... الوفاء بالعهد فى الروايات الإسلامية:
- ٤٠٤ ..... اشارة
- ٤٠٦ ..... ١- المعطيات الفردية والاجتماعية للوفاء بالعهد
- ٤٠٦ ..... ٢- دوافع الوفاء بالعهد ونقضه
- ٤٠٧ ..... علاج نقض العهد:
- ٤٠٧ ..... أقسام العهد:
- ٤٠٨ ..... إلتزام المسلمين بالعهد والمواثيق:
- ٤٠٩ ..... البحث المنطقى والجدال والمرء
- ٤٠٩ ..... تنويه:
- ٤١٠ ..... تفسير واستنتاج:
- ٤١٣ ..... الفرق بين الجدال والمرء والخصومة:
- ٤١٣ ..... الجدال والمرء فى الروايات الإسلامية:
- ٤١٤ ..... الآثار السلبية للجدال والمرء:
- ٤١٥ ..... دوافع الجدال والمرء:
- ٤١٦ ..... أقسام المرء والجدال:
- ٤١٧ ..... طرق علاج هذه الرذيلة الأخلاقية:
- ٤١٨ ..... الإنصاف فى الكلام:
- ٤١٩ ..... النميمة وإصلاح ذات البين
- ٤١٩ ..... تنويه:
- ٤١٩ ..... تفسير واستنتاج:

- ٤٢٢ ..... النميمة في الروايات الإسلامية:
- ٤٢٢ ..... النتائج السلبية للنميمة:
- ٤٢٣ ..... دوافع النميمة:
- ٤٢٤ ..... طرق العلاج:
- ٤٢٥ ..... موارد الاستثناء:
- ٤٢٦ ..... طرق إصلاح ذات البين:
- ٤٢٧ ..... سوء الظنّ وحسن الظنّ -
- ٤٢٧ ..... تنويه:
- ٤٢٨ ..... تفسير واستنتاج:
- ٤٣٠ ..... سوء الظنّ في الروايات الإسلامية:
- ٤٣١ ..... حسن الظنّ في الروايات الإسلامية:
- ٤٣٢ ..... تعريف سوء الظنّ وحسن الظنّ:
- ٤٣٢ ..... الآثار السلبية لسوء الظنّ
- ٤٣٤ ..... الآثار السلبية لسوء الظنّ بالله:
- ٤٣٤ ..... أسباب ودوافع سوء الظنّ:
- ٤٣٤ ..... اشارة
- ٤٣٤ ..... ١- التلوث الظاهري والباطني:
- ٤٣٤ ..... ٢- المعاشرة مع رفاق السوء:
- ٤٣٥ ..... ٣- المحيط الفاسد:
- ٤٣٥ ..... ٤- الحسد والحقد والتكبر والغرور:
- ٤٣٥ ..... مراتب سوء الظنّ:
- ٤٣٦ ..... موارد الاستثناء:
- ٤٣٧ ..... التجسس في الحالات الخاصة للناس -
- ٤٣٧ ..... تنويه:

- ٤٣٨ ..... التجسس فى الروايات الإسلاميه: .....
- ٤٣٩ ..... الأثار والعواقب السلبيه للتجسس: .....
- ٤٤٠ ..... استثناءات: .....
- ٤٤٠ ..... اشارة .....
- ٤٤٠ ..... ١- الأجهزة الأمنيته .....
- ٤٤١ ..... ٢- منظمات التفتيش والتحقيق .....
- ٤٤٢ ..... ٣- التجسس فى المسائل المصيريه .....
- ٤٤٢ ..... طرق العلاج: .....
- ٤٤٣ ..... حفظ السر وإفشائه: .....
- ٤٤٤ ..... حفظ السر فى الروايات الإسلاميه: .....
- ٤٤٥ ..... أقسام حفظ السر: .....
- ٤٤٦ ..... معطيات حفظ السر وإفشائه: .....
- ٤٤٧ ..... الضرورات: .....
- ٤٤٨ ..... دوافع إفشاء السر وعلاجها: .....
- ٤٤٨ ..... أما العلاج: .....
- ٤٤٩ ..... الحلم والغضب .....
- ٤٤٩ ..... تنويه: .....
- ٤٤٩ ..... تفسير واستنتاج: .....
- ٤٥٢ ..... الغضب فى الروايات الإسلاميه: .....
- ٤٥٢ ..... الأثار السلبيه والمخزبه للغضب: .....
- ٤٥٣ ..... أسباب ودوافع الغضب: .....
- ٤٥٣ ..... اشارة .....
- ٤٥٤ ..... ١- التسرع فى الحكم: .....
- ٤٥٤ ..... ٢- ضيق الافق: .....

- ٣- التكبر والغرور: ..... ٤٥٤
- ٤- الحسد والحقد: ..... ٤٥٤
- ٥- الحرص وحبّ الدنيا: ..... ٤٥٤
- علاج الغضب: ..... ٤٥٥
- أقسام الغضب: ..... ٤٥٦
- اشارة ..... ٤٥٦
- ١- غضب الله تعالى: ..... ٤٥٦
- ٢- الغضب السلبي والمخرب، ..... ٤٥٧
- ٣- الغضب الإيجابي للإنسان: ..... ٤٥٧
- الحلم وسعة الصدر: ..... ٤٥٩
- العفو والانتقام ..... ٤٦١
- تنويه: ..... ٤٦١
- تفسير واستنتاج: ..... ٤٦٢
- العفو والانتقام في الروايات الإسلامية: ..... ٤٦٦
- أقسام العفو: ..... ٤٦٧
- الآثار الإيجابية والثمار الطيبة للعفو والصفح: ..... ٤٦٧
- طرق علاج الانتقام وكسب فضيلة العفو: ..... ٤٦٨
- الغيرة وعدم الغيرة ..... ٤٦٩
- تنويه: ..... ٤٦٩
- تفسير واستنتاج: ..... ٤٦٩
- الغيرة في الروايات الإسلامية: ..... ٤٧٠
- تعريف أقسام الغيرة: ..... ٤٧١
- آثار الغيرة في حركة الحياة: ..... ٤٧١
- الألفة والانفرادية ..... ٤٧٢

- ٤٧٢ ..... تنويه:
- ٤٧٣ ..... تفسير واستنتاج:
- ٤٧٥ ..... المعاشرة والعزلة فى الروايات الإسلامية:
- ٤٧٧ ..... الأحاديث المتعارضة:
- ٤٧٧ ..... طريق الجمع بين الآيات والروايات:
- ٤٧٨ ..... أسباب ونتائج الاجتماع والانزواء:
- ٤٨٠ ..... تعريف المركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

## الاخلاق فى القرآن

## اشاره

سرشناسه : مكارم شيرازى ناصر، ١٣٠٥ - عنوان و نام پديدآور : الاخلاق فى القرآن/ناصر مكارم شيرازى ؛ لمساعدته مجموعه من الفضلاء ؛ تعريب الموسسه الاسلاميه للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب (ع) ١٤٢٥ ق ١٣٨٤. مشخصات ظاهري : ج٣. فروست : نفحات القرآن؛ الدور الثانيه. شابك : ٩٠٠٠٠ ريال: دوره ٩٦٤-٨١٣٩-٢٧-X ؛ ج١. ٩٦٤-٨١٣٩-٠٥-٩ ؛ ج٢. ٩٦٤-٨١٣٩-٢٦-١ ؛ ج٣. ٩٦٤-٨١٣٩-٢٥-٣ ؛ ٨٠٠٠٠ ريال (دوره، چاپ دوم) يادداشت : عربى. يادداشت : عنوان اصلى: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربى. يادداشت : ج٣. (چاپ سوم: ١٤٢٨ ق=١٣٨٦). يادداشت : ج١ - ٣ (چاپ دوم: ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٥). يادداشت : كتابنامه. مندرجات : ج١. اصول المسائل الاخلاقيه. ج٢-٣. فروع المسائل الاخلاقيه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامى موضوع : احاديث اخلاقى -- قرن ١٤ شناسه افزوده : موسسه اسلامى ترجمه شناسه افزوده : مدرسه الامام على بن ابى طالب (ع). رده بندي كنگره : BP١٠٣/٣ م٧٧٠٤٣ ٩٠٤٣ ١٣٨٣ رده بندي ديويى : ٢٩٧/١٥٩ شماره كتابشناسى ملي : ١١٥٣٤٠٩

## الجزء الأول

## المقدمه:

لا يخفى أن المسائل الأخلاقية، تخطى بأهميته كبيره في كل زمان، ولكن في عصرنا الحاضر، إكتسبت أهمية خاصة، وذلك: ١- إن قوى الإنحراف و عناصر الشرّ و الفساد، قد إزدادت في هذا العصر، أكثر من جميع العصور السالفه، فإذا كان التّحرك في الماضى فى خطّ الباطل و الإنحراف، يكلف الإنسان مبلغاً من المال، أو شيئاً من الجهد، ففي هذا الزّمان و بسبب التّفقدم العلمى و التّطور الحضارى، أصبحت أدوات الفساد فى متناول الجميع، هذا من جهه: ٢- ومن جهه اخرى، إننا نعيش فى هذا العصر ضخامه المقاييس، فبينما كانت المقاييس و الموازين محدوده فى الماضى، و تتبع ذلك نرى محدوديه المفاسد الإجتماعيه و الأخلاقيه، فإنّ القتل فى هذا الزّمان بسبب أسلحه الدّمار الشّامل، و الفساد الأخلاقى بسبب انتشار أشرطة الفيديو و السيّما الخليعه، و كذلك ما يفرزه «الأتترنت» من معلوماتٍ فاسده، و يضعها فى متناول الجميع، كلّ ذلك يحكى عن إنفجار فى دائره الفساد و الإنحراف، و كسر القوالب الضيقه التى كانت تحدد قوى الباطل فى الماضى، ليسرى إلى خارج الحدود، و يصل إلى أقصى بقعه فى العالم. وإذا كان إنتاج المواد المخدّره فى السابق، ينحصر بقرية أو منطقه محدوده، و لا يتجاوز ضرره سوى المناطق المجاوره، فاليوم نرى أنّ الابتلاء بمرض الإدمان، و من خلال عمليه التّهريب الواسعه لعصابات الموت، قد غطى أجواء العالم أجمع. ٣- ومن جهه ثالثه، إننا نشاهد توسّعاً هائلاً فى العلوم النافعه للبشر، فى مختلف جوانب الحياه فى علوم الطّب و الفضاء، و الإتصالات و المواصلات و أمثال ذلك، و كذلك الحال فى الاخلاق فى القرآن، ج١، ص: ٦ العلوم الشّيطانيه و وسائل الفساد و الإنحراف، حيث تطورت بشكل مذهل، الى حدّ إنّ القوى الشّيطانيه التى تقف وراء إنتاج أدوات الإفساد الإجتماعى، يتوصلون إلى تحقيق أهدافهم بطرق ملتويه كثيره و سيره، و مثل هذه الظروف و الأجواء تحتم علينا الإهتمام بالمسائل الأخلاقيه أكثر من أى وقت مضى، وإلّا فعلينا أن نتوقع الكارثه، أو الكوارث التى تشلّ فى الناس إرادته المواجهه، و تحولهم إلى كيانات مهزوزه أمام حالات الخطر. و يجب على العلماء الواعين و المفكرين المخلصين، أن يتحركوا من موقع التّكاتف فيما بينهم، لتعميق الأخلاق فى قلوب الناس، و تفعيل عناصر الخير فى وجدانهم، و الإلتباه إلى الخطر المحيط بالأخلاق، بحيث إنّ البعض أنكر فائدتها من الأساس، أو ذهب إلى أنّها غير ضروريه، و البعض الآخر تعامل معها من موقع



المصلحة و البر اجماتية، للوصول إلى مطامعه السياسية. ولحسن الحظ فإننا كمسلمين، نمتلك مصدراً عظيماً للمعارف الأخلاقية، وهو القرآن الكريم، الذي لا يُدانيه أي مصدر ديني آخر في العالم. ورغم أن العلماء والمفسرين، قد تناولوا البحوث القرآنية في دائرة الأخلاق، بالبحث والدراسة، إلا أن هذه الأبحاث والدراسات جاءت متفرقة ولا تفي بالغرض، ولهذا إفتقرت الساحة الثقافية والتفسيرية، إلى كتاب أو كُتب لدراسة هذا الموضوع، بالاستيعاء من الآيات القرآنية، فكان هذا الكتاب الذي بين أيديكم و باسم: (الأخلاق في القرآن)، إستجابةً علميةً لهذه الحاجة الماسة في حركة الواقع الثقافي والديني، لسد هذه الثغرة في صرح البناء الثقافي والحضاري للإسلام. وجاء هذا الكتاب، بعد بحوث و دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم شملت المعارف والعقائد الإسلامية في دورته الاولى، و لتكون الدورة الثانية، مختصةً ببحوث الأخلاق الإسلامية في القرآن الكريم. وبحمد الله فقد إنتهينا من هذه الأبحاث الأخلاقية في ثلاث أجزاء، تناول الجزء الأول منها، دراسة المسائل الأخلاقية الكلية في دائرة الأخلاق، وهذا هو الكتاب الذي بين أيديكم، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧ حيث يمكن الإستفادة منه بعنوان كتاب درسي للراغبين، ويتكفل الجزء الثاني و الثالث، ببيان تفاصيل هذه المسائل الكلية و جزئياتها ومصاديقها. نأمل أن تكون هذه الأبحاث الأخلاقية، المستوحاة من أجواء القرآن الكريم، خطوة أخرى على طريق حل المشاكل الأخلاقية و الثقافية للإنسان، في حركة الحياة والواقع الإجتماعي، ونسأل الله تعالى أن ينظر إليها بنظرة القبول، و يجعلها ذخيرة لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، ونرجو من الاخوة أن يفضلوا علينا بإرشادنا إلى موضع النقص إن وجد. والحمد لله رب العالمين ربيع الأول ١٤١٩ هـ. ق

## ١ أهمية الأبحاث الأخلاقية

### تنويه:

هذا البحث يعدّ من أهم الأبحاث القرآنية، ويعتبر من أهم أهداف الأنبياء كذلك، إذ لولا- الأخلاق، لما فهم الناس الدين و لما إستقامت دنياهم: و كما قال الشاعر: وإنما الامم الأخلاق ما بقيت فإن هُم ذهب أخلاقهم ذهبوا فلا يُعتبر الإنسان إنساناً إلا باخلاقه، و لآسوف يصبح حيواناً ضارياً كاسراً، يحطم و يكتسح كلّ شيء، و خصوصاً و هو يتمتع بالذكاء الخارق، فيثير الحروب الطاحنة، لغرض الوصول لأهدافه المادية غير المشروعة، ولأجل أن يبيع سلاحه الفتياك، يزرع بذور الفرقة و التناق و يقتل الأبرياء! نعم، يمكن أن يكون متمدناً في الظاهر، إلا أنه لا يقوم له شيء، و لا يميز الحلال من الحرام، و لا يفترق بين الظلم و العدل، و لا الظالم و المظلوم! بعد هذه الإشارة نعرّج على القرآن الكريم لنستوحى من آياته الكريمة التالية، تلك الحقيقة: ١- «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْاِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١٠ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١). ٢- «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢). ٣- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» (٣). ٤- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٤). ٥- «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا\* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (٥). ٦- «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» (٦). ٧- «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ» (٧). الآيات الأربع الأولى: تقرّر حقيقةً واحدة، ألا و هي، أن إحدى الأهداف المهمة، لبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، هو تزكية النفوس و تربيته الإنسان، و بلورة الأخلاق الحسنة، في واقعه الوجداني، بحيث يمكن أن يقال: إن تلاوة الآيات و تعليم الكتاب و الحكمة التي أشارت إليها الآية المباركة الاولى يُعدّ مقدمة لمسألة تزكية النفوس و تربيته الإنسان، والذي بدوره يشكّل الغاية الأساسية لعلم الأخلاق. ولأجل ذلك يمكن تعليل تقدم كلمة: «التزكية»، على: «التعليم»، في الآيات الثلاث، من حيث إن «التزكية» هي الهدف والغاية النهائية، وإن كان «التعليم» من الناحية العملية مقدّم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١ عليها. وإن نظرنا

«للآية الرابعة»: من بحثنا هذا، و تقديمها لكلمة التعليم على التزكية، فهي ناظرة إلى المسألة من حيث الترتب العملى الطبعى لها، باعتبار أن التعليم مقدمة «للتربية و التزكية». ولهذا نرى أن الآيات الأربع الأولى كل منها تنظر إلى المسألة من منظارها الخاص. وليس بعيداً احتمال رأى آخر، من التفسير فى الآيات المباركة الأربع، وهو أن الغرض، من التقديم و التأخير الحاصل لهذين الكلمتين: (التربية و التعليم)، باعتبار أن إحداها تؤثر فى الاخرى يعنى كما أن التعليم الصحيح يكون سبباً فى الصعود بالأخلاق، و تزكية النفوس، تكون تزكية النفوس هى الاخرى مؤثرة فى رفع المستوى العلمى، لأن الإنسان بوصوله للحقيقة العلمىة، يكون قد تطهر من «العناد» و «الكبر» و «التعصب الأعمى» ، حيث تكون الأخيرة مانع من التقدم العلمى، ومعها سوف يُران على قلبه على حد تعبير القرآن الكريم، ولن يرى الحقيقة كما هى فى الواقع. ويمكن الإشارة الى نكات اخرى فى الآيات الكريمة الأربع: الآية الأولى تشير إلى أن بعث رسول يُعلم الأخلاق، هى من علامات حضور البارى تعالى فى واقع الإنسان لتفعيل عناصر الخير فى وجدانه، و أن النقطة المعاكسة (للتربية و التعليم) هى الضلال المبين، فهى تبين مدى إهتمام القرآن الكريم بالسلوك الأخلاقى للإنسان فى حركة الحياة. الآية الثانية: نجد فيها أن إرسال رسول يُزكّيهم و يُعلمهم الكتاب و الحكمة، هى من المن و المواهب الإلهية العظيمة، التى من الله بها علينا، وهى دليل آخر على أهمية الأخلاق. الآية الثالثة: وهى الآية التى نزلت بعد آيات تغيير القبلة، من القدس الشريف إلى الكعبة المشرفة، حيث عدّ هذا التغيير من النعم الإلهية الكبرى و أن هذه النعمة هى كإرسال الرسول للتعليم و التزكية و تعليم الإنسان اموراً لم يكن يعلمها ولن يتمكن من الوصول إليها إلا عن طريق الوحي الإلهى «١». الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٢ الآية الرابعة: تتحدث عن أن إبراهيم الخليل عليه السلام، و بعد إكماله لبناء الكعبة، طلب من البارى تعالى أن يخلق من ذريته أمة مسلمة؛ و أن يبعث فيهم رسولاً من ذريته، ليزكّيهم فى دائرة التربية الأخلاقية، و يعلمهم الكتاب و الحكمة. الآية الخامسة: نجد أن القرآن الكريم، و بعد ذكر أحد عشر قسماً مهماً، وهى من أطول الأقسام فى القرآن، -قسماً بالشمس و القمر و النجوم و النفس الإنسانية- و بعد ذلك قال: «قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دساها». وهذا التأكيد المتكرر و الشديد فى هذه الآيات، يدل على أن القرآن الكريم، يولى أهمية بالغة لمسألة الأخلاق، و أن التزكية هى الهدف الأهم للإنسان، و تكمن فيها كل القيم الإنسانية، بحيث تكون نجاه الإنسان بها. و نفس المعنى أعلاه ورد فى: «الآية السادسة»، و اللطيف فيها أن ذكر التزكية جاء قبل الصلاة، و ذكر الله تعالى، إذ لولا التزكية و صفاء الروح لا يكون للصلاة معنى و لا لذكر الله. وجاء فى «الآية الأخيرة»، ذكر لقمان الحكيم، حيث عبر عن علم الأخلاق بالحكمة، فقال: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ». و بالنظر للآيات الشريفة، نرى أن خصوصية: «لقمان الحكيم»، هى تربية النفوس و الأخلاق، و منها يتضح أن المقصود من الحكمة هنا، هو الحكمة العملية و تعاليمها المؤدية إليها، و عبارة اخرى يعنى: «التعليم» لأجل «التربية». و يجب الإنتباه و كما ذكرنا مراراً، إلى أن أصل معنى «الحكمة» هو لجام الفرس، و بعدها أطلقت على كل شىء رادع، و باعتبار أن العلوم و الفضائل الأخلاقية، تردع الإنسان عن الرذائل فأطلقت عليها هذه الكلمة.

### النتيجة:

نستوحى من هذه الآيات، الإهتمام الكبير للقرآن الكريم بالمسائل الأخلاقية و تهذيب الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٣ النفوس، باعتبارها مسألة أساسية، تنشأ منها و تبتنى عليها جميع الأحكام و القوانين الإسلامية، فهى بمثابة القاعدة الرصينة و البناء التحتى، الذى يقوم عليه صرح الشريعة الإسلامية. نعم إن التكامل الأخلاقى للفرد و المجتمع، هو أهم الأهداف التى تعتمد عليه جميع الأديان السماوية، إذ هو أساس كل صلاح فى المجتمع، و وسيلة رادعة لمحاربة كل أنواع الفساد و الانحراف، فى واقع الإنسان و المجتمع البشرى فى حركة الحياة. و الآن نعطف نظرنا إلى الروايات الإسلامية، لنرى أهمية هذه المسألة فيها:

### أهمية الأخلاق فى الروايات الإسلامية:

لقد أولت الأحاديث الشريفة لهذه المسألة أهمية بالغه سواء كانت في الروايات الواردة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، أم عن طريق الأئمة المعصومين عليهم السلام، ونورد بعضاً منها: ١- الحديث المعروف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» (١). وجاء في حديث آخر: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ» (٢). وجاء في آخر: «بُعِثْتُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِهَا» (٣). ونرى أن كلمة «إِنَّمَا» تفيد الحصر، يعنى أن كل أهداف بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، تتلخص في التكامل الأخلاقي. ٢- وجاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «لَوْ كُنَّا لَا نَرْجُو جَنَّةً وَلَا نَارًا وَلَا ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا، لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُطَالِبَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ النِّجَاحِ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤ يبين لنا هذا الحديث أهمية الاخلاق وفضائلها، إذ هي ليست سبباً في النجاة في الاخرى فقط، بل هي سبب لصلاح الدنيا أيضاً، (وستتناول هذا البحث مفصلاً في القريب العاجل إن شاء الله تعالى . ٣- الحديث الآخر الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال: «جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ صِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فَحَسَبَ أَحَدِكُمْ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِخُلُقٍ مُتَّصِلٍ بِاللَّهِ» (١). وعبارة اخرى: أن الباري تعالى هو المعلم الأكبر للأخلاق، و هو مربى النفوس، ومصدر لكل الفضائل، والقرب منه تعالى لا يتم إلا بالتحلى بالأخلاق الإلهية. وعلى هذا نرى أن كل فضيلة يتحلى بها الإنسان، تؤدي إلى تعميق العلاقة بينه وبين ربه، وتقربه من الذات المقدسة أكثر فأكثر. وحياء المعصومين عليهم السلام كلها تبين هذه المسألة، فإنهم كانوا دائماً يدعون إلى الأخلاق، و التحلى بالفضائل، و هم القدوة الحسنة في سلوك هذا الطريق، وستتطرق في المستقبل إلى نماذج من أخلاقياتهم عليهم السلام، ويكفي شرفاً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أن الله تعالى نعتة في سورة القلم: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ». (٢)

## إشارات مهمة:

### ١- تعريف علم الأخلاق

أخلاق جمع خلق (على وزن قفل)، وخلق على وزن أفق، وعلى حد تعبير الزاغب في كتابه المفردات، أن هاتين الكلمتين ترجعان إلى أصل واحد، و هو «خلق» بمعنى الهيئة والشكل الذي يراه الإنسان بعينه، والخلق بمعنى القوى و السجيا الذاتية للإنسان. ولذا يمكن القول بأن: «الأخلاق هي مجموعة الكمالات المعنوية و السجيا الباطنية الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥ للإنسان»، و قال بعض العلماء: إن الأخلاق أحياناً تطلق على العمل و السلوك، الذي ينشأ من الملكات النفسانية للإنسان أيضاً، (فالأولى الأخلاق الصفاتية والثانية السلوكية). ويمكن تعريف الأخلاق من آثارها الخارجية أيضاً، حيث يصدر أحياناً من الإنسان فعل إعتباطي ولكن عندما يتكرر ذلك العمل منه: (مثل البخل وعدم مساعدة الآخرين)، يكون دليلاً على أن ذلك الفعل يمد جذوره في أعماق روح ذلك الإنسان، تلك الجذور تسمى بالخلق والأخلاق. وفي ذلك قال «ابن مسكويه»، في كتاب «تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق»: «إن الخلق هو تلك الحالة النفسانية التي تدعو الإنسان، لأفعال لا تحتاج إلى تفكير و تدبر» (١). وهو نفس ما أشار إليه المرحوم الفيض الكاشاني في كتاب «الحقائق»، حيث يقول: «إعلم أن الخلق هو عبارة عن هيئة قائمة في النفس، تصدر منها الأفعال بسهولة من دون الحاجة إلى تدبر و تفكير» (٢). وعليه قسموا الأخلاق إلى قسمين: الملكات التي تنبع منها الأعمال و السلوكيات الحسنة وتسمى «الفضائل»، و اخرى تكون مصدراً للأعمال و السلوكيات السيئة و تسمى الرذائل. ومن هنا يمكن أن نعرف علم الأخلاق بأنه: «علم يبحث فيه عن الملكات و الصفات الحسنة و السيئة و آثارها و جذورها». وعبارة اخرى «علم يبحث فيه عن اسس اكتساب هذه الصفات الحسنة، و طرق محاربة الصفات السيئة، و آثارها على الفرد و المجتمع». طبعاً و كما ذكرنا سابقاً، يُطلق على الأعمال و الأفعال التابعة من هذه الصفات أحياناً «الأخلاق»، فمثلاً الشخص الذي يعيش في حالة من الغضب و الحدة دائماً، يقال عنه بأنه ذو أخلاق رديئة، وبالعكس عندما يكون الشخص كريماً، فيقولون أن الشخص الفلاني يتحلى بأخلاق طيبة، وفي الحقيقة أن هذين الإيتين هما علة و معلول للآخر، بحيث، يطلق

إسم أحدهما على الآخر. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦ وعرف بعض الغربيين الأخلاق بما يُوافق تعاريفنا لها، فمثلاً في كتاب: «فلسفة الأخلاق»، لشخص يدعى (جكسون)، وهو أحد فلاسفة الغرب، عرف الأخلاق فيه بقوله: (علم الأخلاق عبارة عن التحقيق في سلوك الإنسان على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها) «١». وللبعض مثل «فولكيه»، رأى آخر في المسألة، حيث عرفوا علم الأخلاق بأنه: (مجموعة قوانين السلوك التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يصل إلى هدفه) «٢». هذا هو كلام اناس لا يعيرون للقيم الإنسانية أهميّة، والمهم عندهم الوصول إلى الهدف كيفما كان وكيفما إتفق، إذ الأخلاق عندهم ليست إلا وسيلة تُمكن الإنسان من الوصول إلى الهدف!.

## ٢- علاقة الأخلاق بالفلسفة

الفلسفة في معناها ومفهومها الكلي، تعني: معرفة العالم بما لدى الإنسان من قدرة، وبهذا المعنى يمكن أن تدخل جميع العلوم تحت هذا المفهوم الكلي، بحيث نرى في الأعصار السابقة والقديمه، عندما كانت العلوم محصورة ومعدودة كانت الفلسفة تلقي الضوء عليها جميعاً، والفيلسوف كان له الباع الطويل في جميع العلوم، وفي ذلك الوقت قسّمت الفلسفة إلى قسمين: أ- الامور التي لا دخل للإنسان فيها، و التي تستوعب جميع العالم، عدا أفعال الإنسان. ب- الامور التي تنضوي تحت إختيار الإنسان وله دخل فيها، يعنى أفعال الإنسان. فالقسم الأول يسمّى بالحكمة النظرية، وتقسّم إلى ثلاثة أقسام: الفلسفة الاولى أو الحكمة الالهية: وهي التي تتناول الأحكام الكلية للوجود والمبدأ والمعاد. ٢- الطبيعيات: وفيها أقسام مختلفة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧ ٣- الرياضيات: وهي أيضاً لها فروع متعددة. وأما التي تتعلق بأفعال الإنسان، فتسمى بالحكمة العملية، وهي بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ١- الأخلاق والأفعال: التي تكون سبباً في سعادة أو ضلال الإنسان، و تكون جذورها ومصدرها النفس الإنسانية. ٢- تدبير المنزل: وكل ما يتعلق بالائلة. ٣- سياسة وتدبير المدن: والتي تتناول طرق إدارة المجتمعات البشرية. و هكذا فقد أفردوا للأخلاق حقلها الخاص بها، في مقابل (تدبير البيت) و (سياسة المدن). وعليه يمكن القول بأن علم الأخلاق هو فرع من: «الفلسفة العملية» أو «الحكمة العملية». ولكن تعدد العلوم في عصرنا الحاضر دعى للفصل بينها، وغالباً ما تأتي الفلسفة والحكمة، و الفلسفة بمعنى الحكمة النظرية من نوعها الأول، وهي الامور التي تتعلق بالعالم والكون وكذلك المبدأ والمعاد. ويوجد اختلاف بين الفلاسفة، في أيهما أفضل: الحكمة النظرية أم الحكمة العملية، فقسم إدعى الأفضلية للأولى، وقسم آخر إدعى الأفضلية للثانية، وعند التدقيق في مدعاهم نرى أن الإثنين على حق و هذا ليس بحثنا الآن. وسنتعرض لعلاقة الأخلاق بالفلسفة، في موارد اخرى في المستقبل، إن شاء الله تعالى.

## ٣- علاقة الأخلاق بالعرفان

أما بالنسبة لعلاقة (الأخلاق) ب (العرفان) و (السير و السلوك إلى الله)؛ فيمكن القول أن العرفان أكثر ما ينظر للمعارف الإلهية، ولكن ليس عن طريق العلم و الاستدلال، بل عن طريق الشهود الباطني، بمعنى أن قلب الإنسان يجب أن يكون كالمرآة الصافية، لدرجة يستطيع فيها أن يرى الحقيقة لتزول عنه الحجب، ويرى بقلبه الذات الإلهية و أسمائه و صفاته، ومنها يصل إلى العشق الإلهي الحق. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨ وبما أن علم الأخلاق، له اليد الطولى في المساعدة على دفع ورفع الرذائل، و التي هي بمثابة الحجب على القلوب، فمن البديهي أن تكون الأخلاق من اساس ومقدمات العرفان الإلهي وأما «السير والسلوك إلى الله»، والذي يكون هدفه النهائي هو معرفة الله والقرب منه، فهو في الحقيقة مجموعة من «العرفان» و «الأخلاق»، فما كان من «السير والسلوك الباطني»، فهو نوع من «العرفان»، الذي يوصل الإنسان يوماً بعد يوم للذات الإلهية، ويرفع عن قلبه الحجب والأدران، ويمهد الطريق إليه؛ وما كان من «السير و السلوك الخارجي»: فهو نفس الأخلاق التي تهدف لتهديب النفوس، و ليس فقط لأجل الحياة المادية

المرفهة.

## ٤ - علاقة العلم بالأخلاق

بالنسبة للآيات السابقة و كما ذكرنا أن القرآن الكريم، أتى ب: «تعليم الكتاب والحكمة» إلى جانب: «التزكية والتهديب الأخلاقي»، فتارةً يقدّم «التزكية» على «التعليم»، و أخرى يقدّم «التعليم» على التزكية، و هو أمر يُبين مدى العلاقة الوثيقة التي تربط بين الإثنين. وهذا يعني أن الإنسان، عندما يفتح على المعرفة، و تكون لديه خبرة بالأعمال الحسنة والسيئة، ويعرف عواقب «الفضيلة» و «الرديلة»، فمما لا شك فيه أنها ستؤثر في تربيته، بحيث يمكن القول أن كثيراً من الرذائل ناتجة من عدم الإطلاع والفهم. ومن ذلك يمكن القول؛ أنه إذا ما إستطعنا أن ننهض بالمستوى العلمى للأفراد، وبعبارة أخرى: إذا أمكننا نشر الثقافة بين الناس، فستحل الفضائل مكان الرذائل، وإن كان هذا الأمر ليس كلياً. ومع الأسف الشديد، نرى أن البعض بالغوا فيها لدرجة الإفراط والتفريط. فبعض إتبعوا الحكيم سقراط اليونانى، حيث كان يعتقد بأن العلم والحكمة هي منشأ الأخلاق الحميدة، والرذائل الأخلاقية منشؤها الجهل، ولذلك فإنه كان يعتقد أيضاً أنه ولأجل محاربة الفساد والرذائل الأخلاقية وإحلال الفضائل الأخلاقية محلها، يجب العمل على رفع المستوى العلمى للمجتمع، وبالتالي تتساوى (الفضيلة) مع (المعرفة). الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٩ هؤلاء يدعون أنه لا يوجد إنسان يتجه نحو الرذيلة وهو على علم بها، وإذا ما شخّص الإنسان الفضيلة فسوف لن يتركها، ولذلك يتوجب علينا كسب العلم، ومعرفة الخير وتمييزه من الشر لنا وغيرنا، كى تزرع فى نفوسنا بذور الفضائل الأخلاقية! وفى المقابل يوجد من ينفى هذه العلاقة بين الإثنين بالكامل، لأن العلم والذكاء للإنسان المجرم سيكون عاملاً مساعداً له فى إرتكاب جرائم أخطر، وعلى حدّ تعبير المثل الذى يقول: (إذا كان مع اللص مصباحاً فانه سوف ينتفى البضائع الجيدة). ولكن الحق والإنصاف أنه ليس بإمكاننا نفى تأثير العلم بالكامل، و لا- نفى معلولية أحدهما للآخر. والشاهد على ذلك المثل الحية التي نراها فى المجتمع، فكثيراً ما شاهدنا اناساً كانوا يفعلون الرذائل، و عندما أدركوا قبح فعالهم ونتائجها السيئة، أفلعوا عنها و إتجهوا نحو الفضائل، ووجدنا هذا الأمر حتى فى وقتنا الحاضر هذا. وفى المقابل نعرف أشخاصاً عندهم المعرفة التامة بالخير والشر، ولكنهم يُصرون على الشرّ و هو متأصل فى نفوسهم. و كلّ ذلك لأن الإنسان لديه بُعدان: بعد العلم و الادراك و بُعد عملى، وهو الميول والغرائز والشهوات، و لأجل ذلك فساعةٌ يميل الى هذا، و ساعةٌ يُرجح ذلك. والذى يقول بأحد القولين، فانه يفترض أن الإنسان فيه بُعدٌ واحد لا أكثر، ويغفل عن وجود البعد الآخر. ونشير هنا إلى الآيات القرآنية التي وردت فى هذا الباب، و التي أكدت على التأثير المتبادل بين عُصر الجهل وسوء العمل، قال تعالى: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «١». و يوجد شبيه لهذا المعنى فى سورة النساء: الآية (١٧)، و سورة النحل: الآية (١١٩). ومن البديهي أن الجهل المذكور ليس هو الجهل المطلق الذى لا يوائم التوبة، بل هو مرتبةٌ من مراتب الجهل، فإذا إرتفع فسوف يهتدى الإنسان بعدها للطريق القويم. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٠ و ذكرنا فى الجزء الأول من دورة نفحات القرآن أن الجهل هو السبب لكثير من الضلالات، فهو- الجهل- سبب للكفر وإشاعة الفساد والتعصب والعناد والتقليد الأعمى والفرقة وسوء الظن والجساره و قلة الأدب، و فى واحدةٍ يمكن القول، أن الجهل عامل لإفساد كثير من القيم «١». ومن جهةٍ اخرى تُصرّح الآيات الشريفة بوجود حالة العناد فى الإنسان، مع علمه بأنه يتحرك فى طريق الظلم والطغيان، مثل آل فرعون، حيث يتحدث عنهم القرآن الكريم: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» «٢». وكذلك ما ورد بالنسبة إلى بعض أهل الكتاب، كما قال البارى تعالى: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «٣». وورد هذا المعنى فى ما بعدها من الآيات «٤». وقد يكون المراد من الآية هو موضوع الكذب، ولكنه أيضاً يؤيد مدّعانا، لأن قبح الكذب حكم به العقل و الشرع، وهو من الامور الواضحة التي لا تخفى على أحد. فالحقائق والتجارب أثبتت، أن المعرفة والعلم بنتائج الأخلاق الرذيلة على الفرد والمجتمع، يمكنه أن يكون فى كثير من الموارد، عاملاً مهماً فى ردع الإنسان عن غيّه و الرجوع إلى ساحة الصواب، ولكن ومن جهةٍ اخرى أيضاً نجد أن هناك من يعرف الرذيلة حقّ معرفتها؛ ولكنه يُصرّ عليها ويعاند

على سلوك طريق الإنحراف، والطريقة الوسطى في الحقيقة هي الجادة وتنطبق على الواقع أكثر.

## ٥- هل أن الأخلاق قابلة للتغيير؟

### إشارة

إنّ مصير علم الأخلاق وكلّ الأبحاث الأخلاقية، يتوقف على الإجابة عن هذا السؤال، إذ لولا-قابليتها للتغيير لأصبحت كلّ برامج الأنبياء التربويّة و الكتب السماويّة، و وضع القوانين و العقوبات الرّادعة، لا فائدة و لا معنى لها. فنفس وجود تلك البرامج التربويّة و تعاليم الكتب السماويّة، و وضع القوانين في المجتمعات البشريّة، هو خير دليل على قابليّة التغيير في الملكات والسلوكيات الأخلاقية لدى الإنسان، وهذه الحقيقة لا يعتمدها الأنبياء عليهم السلام فحسب، بل هي مقبولة لدى جميع العقلاء في العالم. والأعجب من هذا، و الغريب فيه؛ أنّ علماء الأخلاق والفلاسفة ألفوا الكتب الكثيرة حول هذا السؤال: «هل أن الأخلاق قابلة للتغيير أم لا؟»! فالبعض يقول: إنّ الأخلاق غير قابلة للتغيير، فمن كانت ذاته ملوثة في الأصل يكون مجبوراً على الشرّ، وعلى فرض قبوله لعملية التغيير، فإنّه تغيير سطحي، وسرعان ما يعود إلى حالته السابقة. ودليلهم على ذلك، بأنّ الأخلاق لها علاقة وثيقة مع الرّوح و الجسد، و أخلاق كلّ شخص تابعة لكيفيّة وجود روجه و جسمه، وبما أنّ روجه و جسد الإنسان لا يتبدلان، فالأخلاق كذلك لا تتبدل ولا تتغير. وفي ذلك يقول الشاعر أيضاً: إذا كان الطّباع طباعٍ سوءٍ فلا- أدبٌ يفيد ولا- أديبٌ واستدلوا على ذلك أيضاً، بمقولة تأثر الأخلاق بالعوامل الخارجية؛ و أنّ الأخلاق تخضع لمؤثراتٍ خارجيّةٍ من قبيل الوعظ و النّصيحة و التأديب، فبزوال هذه العوامل، تعود الأخلاق لحالتها الأولى، فهي بالضبط كالماء البارد، الذي يتأثر بعوامل الحرارة، فعند زوال المؤثر، يعود الماء لحالته السابقة. و مما يؤسف له وجود هذا النمط من التفكير و الإستدلال، حيث أفضى لتردى المجتمعات البشريّة و سُقوطها! الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢ أمّا المؤيدون لتغيير الأخلاق، فقد أجابوا على الدليلين السابقين وقالوا: ١- لا يمكن إنكار علاقة الأخلاق وارتباطها بالرّوح و الجسم، ولكنه في حدّ (المقتضى)؛ وليس (العلة الثامة) لها، و بعبارة أخرى يمكن أن تهيبّ الأرضيّة لذلك، لكن ذلك لا يعنى بالضرورة أنّها ستؤثر تأثيراً قطعياً فيها، من قبيل من يولد من أبوين مريضين، فإنّ فيه قابليّة على الابتلاء بذلك المرض، ولكن وبالوقاية الصّحيحة، يمكن أن يتلافى ذلك المرض من خلال التّصدي للعوامل الوراثية المتجذرة في بدن الإنسان. فالأفراد الضّعاف البنية يمكن أن يصبحوا أشداء، بالالتزام بقواعد الصّحة و ممارسة الرياضة البدنيّة، وبالعكس يمكن للأشداء، أن يصيهم الضّعف و الهزال، إذا لم يلتزموا بالأمور المذكورة أعلاه. و علاوة على ذلك يمكن القول؛ أنّ روجه و جسم الإنسان قابلان للتغيير، فكيف بالأخلاق التي تعتبر من معطياتهما؟ نحن نعلم، أنّ كلّ الحيوانات الأهليّة اليوم، كانت في يوم ما بريّة و وحشيّة، فأخذها الإنسان ورؤضها و جعل منها أهليّة مطيعة له، وكذلك كثير من النباتات والأشجار المثمرة، فالذي يستطيع أن يُغيّر صفات و خصوصيات النبات و الحيوان، ألا يستطيع أن يغيّر نفسه و أخلاقه؟ بل توجد حيوانات روّضت، للقيام بأعمالٍ مخالفة لطبيعتها، و هي تُؤدّبها بأحسن وجه! ٢- وممّا ذكر أعلاه، يتبين جواب دليلهم الثّاني، لأنّ العوامل الخارجيّة قد يكون لها تأثيرها القوي جداً، ممّا يؤدّي إلى تغيير خصوصياتها الذاتيّة بالكامل، و ستؤثر على الأجيال القادمة أيضاً، من خلال العوامل الوراثيّة، كما رأينا في مثال: الحيوانات الأهليّة. ويقصّ علينا التّاريخ قصصاً، لأناس كانوا لا يراعون إلّا ولا ذمّة، ولكن بالتربية و التّعليم تغيّروا تغيّراً جذريّاً، فمنهم من كان سارقاً محترفاً؛ فأصبح عابداً متّسبباً مشهوراً بين الناس. إنّ التعرّف على كيفيّة نشوء الملكات الأخلاقية السّيئة يعطينا القُدرة و الفرصة لإزالتها، والمسألة هي كالتالي: إنّ كلّ فعلٍ سيّءٍ أو حسنٍ يخلف تأثيره الإيجابي أو السّلبى في الرّوح الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣ الإنسانيّة، بحيث يجذب الرّوح نحوه تدريجياً، و بالتكرار سوف يتكرس ذلك الفعل في باطن الإنسان، ويتحول إلى كيفيّة تسمى: (بالعادة)، وإذا إستمرت تلك العادة تحوّلت إلى

(مَلَكَه). وعلى هذا، وبما أن المَلَكَات والعادات الأخلاقية السيئة، تنشأ من تكرر العمل، فإنه يمكن مُحاربتها بواسطة نفس الطريقة، طبعاً لا. يمكننا أن ننكر تأثير التعليم الصَّحيح والمحيط السَّالم، في إيجاد المَلَكَات الحسنه، والأخلاق الصَّالحه، في واقع الإنسان وروحه. وهناك «قول ثالث»: وهو أن بعض الصِّفات الأخلاقية قابلة للتغيير، وبعضها غير قابل، فالصِّفات الطبيعيه والفطريه غير قابله للتغيير، ولكن الصِّفات التي تتأثر بالعوامل الخارجيه يمكن تغييرها (١). وهذا القول لا دليل عليه، لأن التفصيل بين هذه الصِّفات، مدعاة لقبول مقوله الأخلاق الفطريه والطبيعيه، والحال أنه لم يثبت ذلك، وعلى فرض ثبوته، فمن قال بأن الصِّفات الفطريه غير قابله للتغيير والتبدل؟ ألم يتمكن الإنسان من تغيير طباع الحيوانات البريه؟ ألا يمكن للتربية والتعليم، أن تتجدر في أعماق الإنسان وتغيره؟.

### الآيات والزوايات التي يستدل بها، على إمكانية تغيير الأخلاق:

ما ذكرناه آنفاً كان على مستوى الأدلة العقلية والتاريخية، وعند رجوعنا للأدلة النقلية، يعني ما وصل إلينا من مبدأ الوحي وأحاديث المعصومين عليهم السلام، سوف تتبين لنا المسألة من خلاله بصورة أفضل لأنه: ١- إن الهدف من بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب السماوية، إنما هو لأجل تربيته وهداية الإنسان، وهذا أقوى دليل على إمكان التربية، و ترشيد الفضائل الأخلاقية لدى جميع أفراد البشر، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْإِقْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٤ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١). وأمثالها من الآيات الكريمة التي تبين لنا أن الهدف من بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو تعليم وتركيب كل أولئك الذي كانوا في ضلال مبين. ٢- كل الآيات التي توجه الخطاب الإلهي إلى الإنسان، مثل: «يا بني آدم» و «يا أيها الناس» و «يا أيها الإنسان» و «يا عبادي»، تشمل أوامر ونواهي تتعلق بتهديب النفوس، وإكتساب الفضائل الأخلاقية، وهي بدورها خير دليل على إمكانية تغيير «الأخلاق الرذيلة»، وإصلاح الصِّفات القبيحة في واقع الإنسان، وإلا ففي غير هذه الصورة تنتفي عموميتها هذه الخطابات الإلهية، فتصبح لغواً بدون فائدة. وقد يقال: إن هذه الآيات، غالباً ما تشتمل على الأحكام الشرعية، وهذه الأحكام تتعلق بالجوانب العمليّة والسلوكية في حياة الإنسان، بينما نجد أن الأخلاق ناظرة للصفات الباطنية؟ ولكن يجب أن لا ننسى أن العلاقة بين «الأخلاق» و «العمل»، هي علاقة اللّازم والمُلزوم للآخر، وبمنزلة العلة والمعلول، فالأخلاق الحسنه تُعتبر مصدراً للأعمال الحسنه، والأخلاق الرذيلة مصدراً للأعمال القبيحة، وكذلك الحال في الأعمال، فإنها من خلال التكرار تتحول بالتدريج، إلى ملكات و صفات أخلاقية في واقع الإنسان الداخلي. ٣- القول والإعتقاد بعدم إمكان التغيير للأخلاق، مدعاة للقول والإعتقاد بالجبر؛ لأن مفهومها هو: أن صاحب الخلق السَّيء و الخلق الحسن، ليسا بقادرين على تغيير أخلاقهم، وبما أن الأعمال والسلوكيات تعتبر إنعكاساً للصفات والملكات الأخلاقية، ولذا فمثل هؤلاء يتحرَّكون في سلوكياتهم من موقع الجبر، لكننا نرى أنهم مكلفين بفعل الخيرات وترك الخباث، وعليه يترتب على هذا القول جميع المفسدات التي تترتب على مقوله الجبر (٢). ٤- الآيات الصَّريحة التي ترغّب الإنسان في تهذيب أخلاقه، وتُحذّره من الرذائل، هي أيضاً دليل محكم على إمكانية تغيير الصفات والطباع الإنسانية، مثل قوله تعالى: «فَدَأَفْصَحَ الْإِقْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٥ مِنْ زَكَاةٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (١). فالتعبير بكلمة دَسَّاهَا، والتي هي في الأصل بمعنى: خلط الشيء بشيء آخر غير مرغوب فيه من غير جنسه، مثل «دس الحنطة بالتراب»، يبين لنا أن الطبيعة الإنسانية مجبولة على الصفاء والتقاوة والتقوى، والتلوّث، والرذائل تعرض عليها من الخارج وتنفذ فيها، والإثنان قابلان للتغيير والتبدل. نقرأ في الآية (٣٤) من سورة فضيلت: «إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». تبين لنا هذه الآية أن العداوات المتأصلة والمتجذرة في الإنسان: بالمحبة والسلوك السليم، يمكن أن تتغير وتبدل إلى صداقة حميمة بالتحرك في طريق المحبة والسلوكيات السليمة، ولو كانت الأخلاق غير قابله للتغيير، لما أمكن الأمر بذلك. ونجد في هذا المجال أحاديث إسلامية، تؤكد هذا المعنى أيضاً، من قبيل الأحاديث التالية: ١- الحديث المعروف الذي يقول: «إنما بُعثت لأتمم مكارم

الإخلاق» (٢) هو دليل ساطع على إمكانية تغيير الصفات الأخلاقية. ٢- الأحاديث الكثيرة التي تحث الإنسان على حسن الخلق، كالحديث النبوي الشريف الآتي: «لَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ مَا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ لَعَلِمَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ لَهُ خُلُقٌ حَسَنٌ» (٣). ٣- وكذلك الحديث النبوي الشريف الآخر حيث يقول: «الْخُلُقُ الْحَسَنُ نِصْفُ الدِّينِ» (٤). ٤- نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الْخُلُقُ الْمَحْمُودُ مِنْ ثَمَارِ الْعَقْلِ وَالْخُلُقُ الْمَذْمُومُ مِنْ ثَمَارِ الْجَهْلِ» (٥). الإخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦ وبما أن كلاً من «العلم» و «الجهل» قابلان للتغيير؛ فتتبعها الأخلاق في ذلك أيضاً. ٥- وفي حديث آخر، جاء عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفِ الْمَنَازِلِ وَأَنَّهُ لَصَّ عَيْفُ الْعِبَادَةِ» (١). حيث نجد في هذا الحديث، مقارنةً بين حسن الأخلاق والعبادة، هذا أولاً. وثانياً: إن الدرجات العلى في الآخرة تتعلق بالأعمال الإختيارية. وثالثاً: التَّغْيِيبُ لِكَسْبِ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، كل ذلك يدل على أن الأخلاق أمرٌ إكتسابي، وغير خارجة عن عنصر الإرادة في الإنسان. مثل هذه الروايات والمعاني القيمة كثير، في مضامين أحاديث أهل البيت عليهم السلام، وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على إمكانية تغيير الأخلاق، وإلا فستكون لغواً وبلا فائدة (٢). ٦- وفي حديث آخر ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، نقرأ فيه أنه قال لأحد أصحابه وأسمه جرير بن عبد الله: «إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ خَلْقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ» (٣). وخلاصة القول أن روايتنا مليئة بهذا المضمون، حيث تدل جميعها على أن الإنسان قادر على تغيير أخلاقه (٤). ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام على عليه السلام، يحثنا فيه على حسن الخلق، حيث قال عليه السلام: «الكَرَمُ حُسْنُ السَّجِيَّةِ وَاجْتِنَابُ الدَّنِيَّةِ» (٥).

### أدلة مؤيدي نظرية ثبات الأخلاق، و عدم تغيرها:

وفي مقابل ما ذكرناه آنفاً، إستدل البعض بروايات يظهر منها أن الأخلاق غير قابلة للتغيير، ومنها: ١- الحديث المعروف الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث قال: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ». ٢- الحديث الآخر الوارد أيضاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِذَا سَمِعْتُمْ أَنَّ جَبَلًا زَالَ عَنْ مَكَانِهِ فَصَدَّقُوهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بَرَجُلٍ زَالَ عَنْ خُلُقِهِ فَلَا تُصَدِّقُوهُ! فَإِنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى مَا جَبَلَ عَلَيْهِ» (١).

### الجواب:

إن تفسير مثل هذه الروايات، وبالنظر للأدلة السابقة، و الروايات التي تصرح بإمكانية تغير الأخلاق، ليس بالأمر العسير، لأن التلقطة المهمة والمقبولة في المسألة، أن نفوس الناس بالطبع متفاوتة، فبعضها من ذهب والبعض الآخر من فضة، ولكن هذا لا يدل على عدم إمكانية تغيير هذه النفوس والطبائع. وبعبارة أخرى إن مثل هذه الصفات النفسية في حد المقتضى: ليس علمة تامة، ولذلك رأينا وبالتجربة أشخاصاً تغيرت أخلاقهم بالكامل، ويعود الفضل في ذلك للتربية والتعليم. و علاوة على ذلك، إننا إذا أردنا أن نعتم الحكم، في الحديث الشريف، على جميع الناس، فهذا يعني أنهم كلهم ذوا خلق حسن. فبعضهم حسن والبعض الآخر أحسن، (كما هو الحال في الذهب والفضة). و عليه فلن يبقى مكاناً للأخلاق السيئة في طبع الإنسان. (فتأمل). وبالتسبب للحديث الثاني، نرى أن المسألة أيضاً هي من باب المقتضى، وليس علمة تامة، أو بعبارة أخرى إن الحديث ناظرٌ لأغلبية الناس، وليس جميعهم، وإلا لخالف مضمون الحديث، صريح التاريخ، الذي حكى لنا قصصاً حقيقية عن أفراد استطاعوا تغيير أنفسهم الإخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨ وبقوا على ذلك حتى الممات. ولخالف أيضاً التجارب اليومية، التي رأينا فيها الكثير من الأشخاص الفاسدين، غيروا طريقة حياتهم بسبب التعليم والتربية، وإستمروا يسرون في خط الهداية والصفحة الملاح حتى الممات. وخلاصة القول: أنه وفي نفس الوقت الذي



تختلف فيه سجايا الناس، لا يوجد أحد مجبور على الرذائل والأخلاق السيئة، وكذلك الحال بالنسبة للأخلاق الحسنة، فدووا السجايا الطيبة إذا ما تبعوا هواهم، سيسقطون إلى الحضيض، ودووا السجايا الخبيثة، قادرون على بناء أنفسهم وذاتهم، من موقع التهذيب التزكية، والوصول إلى أعلى درجات الكمال الروحي. ويجب التنويه إلى أن بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين، ولأجل توجيه أعمالهم المخالفة للطريق السليم، يتذرعون بحجج واهية من هذا القبيل؛ وأن الله تعالى قد جبلنا على ذلك الخلق السيء. وإن شاء أن يُغيرنا لفضل؟! .... وعلى كل حال، فإن الاعتقاد بعدم إمكانية تغيير الأخلاق، ليس له نتيجة إلا الوقوع في وادي الاعتقاد بالجبر، ورفض ما دعا إليه الأنبياء، والقول بأن سعى علماء الأخلاق وأطباء النفس في إصلاح النفوس، هو سعي غير مثمر، ويترتب على ذلك بالتالي فساد المجتمعات البشرية.

## ٦- المسار التاريخي لعلم الأخلاق

نختم البحث أعلاه، بشرح مقتضب للمسار التاريخي لعلم الأخلاق: فمما لا شك فيه أن الأبحاث الأخلاقية، ولدت مع أول قدم وضعها الإنسان على الأرض، لأن النبي آدم عليه السلام لم يعلم أبناءه الأخلاق فقط، بل إن الباري تعالى، عندما خلقه وأسكنه الجنة، أفهمه المسائل الأخلاقية والأوامر والنواهي، في دائرة السلوك الأخلاقي مع الآخرين. و اتخذ سائر الأنبياء عليهم السلام طريق تهذيب النفوس والأخلاق، والتي تكمن فيها سعادة الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩ الإنسان، حتى وصل الأمر إلى السيد المسيح عليه السلام، حيث كان القسم الأعظم من تعاليمه، هو أبحاث أخلاقية، فغته حواريوه وأصحابه بالمعلم الأكبر للأخلاق. ولكن أعظم معلم الأخلاق، هو: رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه رفع شعار: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقال عنه الباري تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (١). ويوجد قديماً بعض الفلاسفة، من لقب بمعلم الأخلاق، مثل: إفلاطون، وأرسطو، وسقراط، وجمع آخر من فلاسفة اليونان. وعلى كل حال، فإنه وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن الأئمة عليهم السلام هم أكبر معلم الأخلاق، وذلك بشهادة الأحاديث التي نقلت عنهم، حيث رويوا أشخاصاً بارزين يمكن أن يعتبر كل واحد منهم معلماً لعصره. فحياة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم، هي خير دليل على سيمو نفوسهم، ورفع أخلاقهم، في حركة الواقع. ويبقى السؤال في أنه متى تأسس علم الأخلاق في الإسلام، ومن هم مشاهيره؟. وهذا البحث مذكور بالتفصيل في الكتاب القيم: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بقلم آية الله الشهيد الصدر قدس سره. ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما جاء فيه، حيث قسم السيد الصدر الموضوع إلى ثلاثة أقسام: أ- يقول إن أول من أسس علم الأخلاق، هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، (وذلك من خلال الرسالة التي كتبها لابنه الإمام الحسن عليه السلام) بعد رجوعه من صفين، حيث بين الاسس الأخلاقية، وتطرق للملكات الفاضلة والصفات الرذيلة، وحللها بأحسن وجه (٢). ونقل هذه الرسالة، بالإضافة إلى السيد الرضى في نهج البلاغة، الكثير من علماء الشيعة أيضاً. ونقلها كذلك بعض علماء أهل السنة، مثل: أبو أحمد بن عبد الله العسكري، في كتابه الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠ الزواجر والمواعظ، حيث أوردتها كلها وقال: (لو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بالذهب لكانت هذه). ب- أول من كتب كتاباً في دائرة (علم الأخلاق)، هو: إسماعيل بن مهران أبو النصر السكوني، وهو من علماء القرن الثاني، وأسماء: المؤمن والفاجر، (و هو أول كتاب أخلاقي عُرف في الإسلام). ج- بعدها يذكر بعض من أسماء أكابر العلماء في هذا المجال، (وإن كانوا لم يألّفوا كتباً فيها) مثل: «سلمان الفارسي»، حيث قال في حقه الإمام علي عليه السلام: «سلمان الفارسي مثل لقمان الحكيم، علم علم الأول والآخر، بحر لا ينزف، وهو من أهل البيت» (١). ٢- «أبودر الغفاري»، والذي بقي طويلاً يروج للأخلاق الإسلامية، وهو النموذج الحي لها، والمشاحنات التي كانت بينه وبين الخليفة الثالث «عثمان»، و «معاوية»، في المسائل الأخلاقية معروفة لدى الجميع، حيث أودت بحياته، ومات في سبيل ذلك الطريق القويم. ٣- «عمار بن ياسر»، وقد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في حقه وحق إخوانه وأصحابه المخلصين، يبين منزلتهم الأخلاقية السامية، فقال: «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق، أين عمار ... ثم ضرب يده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء، ثم قال: أوه على

إخواني الَّذِينَ تَلُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَتَدَّبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ» (٢). ٤- «نوف البكالي»، كان مثال الزهد و العبادة و حسن الأخلاق، و توفى بعد السنة (٩٠) للهجرة. ٥- «محمد بن أبي بكر»، كان من خلص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، و يحذو حذو الإمام الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١ في الزهد والعبادة و الأخلاق. ٦- «الجارود بن المنذر»، كان من أصحاب الأئمة الرابع والخامس والسادس عليهم السلام، و من كبار العلماء في العلم و العمل، وله مقام رفيع جداً. ٧- «حذيفة بن المنصور»، كان من أصحاب الأئمة: الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، وقيل عنه: (أنه أخذ عن اولئك العظام، وقد نبغ في مكارم الأخلاق وتهذيب النفس). ٨- «عثمان بن سعيد العمري»، هو أحد الوكلاء الأربعة للإمام المهدي عليه السلام، و من أحفاد عمار بن ياسر رحمه الله، وقالوا فيه: (ليس له ثاب في المعارف والأخلاق والفقهاء والأحكام). و كثير من العظام الذين يطول ذكرهم. ونود الإشارة إلى أن كثيراً من الكتب الأخلاقية، و على مدى التاريخ الإسلامي، قد كتبت، و نذكر منها: ١- من القرن الثالث، كتاب: «المانعات من دخول الجنة»، بقلم جعفر بن أحمد القمي، و هو من كبار العلماء في عصره. ٢- من القرن الرابع، كتاب: «الآداب» و كتاب «مكارم الأخلاق»، بقلم علي بن أحمد الكوفي. ٣- كتاب: «طهارة النفس» أو «تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق»، بقلم ابن مسكويه، و المتوفى في القرن الخامس، فهو من الكتب المعروفة في هذا المجال، وله كتاب آخر في علم الأخلاق، و اسمه «آداب العرب و الفرس»، ولكن شهرته ليست كشهرة الكتاب المذكور آنفاً. ٤- كتاب: «تنبيه الخاطر و زهه الناظر»، والذي عُرف ب: «مجموعه ورام»، أحد الكتب المعروفة أيضاً في هذا المجال و كاتبه «ورام بن أبي الفوارس»، من علماء القرن السادس الهجري. ٥- و نرى في القرن السابع كتابي: «الأخلاق التاصرية و أوصاف الأشراف و آداب المتعلمين»، للشيخ خواجه نصير الطوسي رحمه الله، فكل واحد منها معلّم من معالم التصنيف في هذا المجال، في ذلك القرن. ٦- وفي باقي القرون نرى كتباً مثل: «إرشاد الديلمي»، «مصايح القلوب للسبزواري»، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢ «مكارم الأخلاق لحسن بن أمين الدين»، و «الآداب الدينية لأمين الدين الطبرسي»، و «المحجّه البيضاء للفيض الكاشاني»، و هو كتاب قيم جداً في هذا العلم، و: «جامع السعادات» و «معراج السعاده»، و كتاب: «أخلاق شبر»، و كثير من الكتب الاخرى (١). و المرحوم العلامة الطهراني، أورد عشرات التصنيفات في كتابه المعروف ب: «الذريعة» (٢). و يجب الإشارة إلى أن كثيراً من الكتب الأخلاقية، طُبعت بعنوان كتب: السير والسلوك إلى الله، والبعض الآخر طُبعت بعنوان: الكتب العرفانية، و تطرق البعض الآخر لمسائل الأخلاق في فصل أو فصلين، ككتاب: «بحار الأنوار» و «اصول الكافي»، حيث يُعدّان من أفضل مصادر هذا العلم.

## دور الأخلاق في الحياة والحضارة الإنسانية

### إشارة

يعتقد البعض من غير المطلعين، أن المسائل الأخلاقية تمثل أمراً خاصاً في حدود الحياة الشخصية للإنسان، أو أنها مسائل مقدسة معنوية، لا تفيد إلّا في الحياة الاخرية، وهو اشتباه محظ، لأن أكثر المسائل الاخلاقية لها أثرها في واقع الحياة الإجتماعية للإنسان، سواء كانت مادية أم معنوية، فالمجتمع البشري بلا أخلاق، سينقلب إلى حديقة حيوانات لا يُجدي معها إلّا الأقفاس، لردع أفعال الحيوانات البشرية عن أفعالها الضارة، و ستهدر فيها الطاقات، و تحطم فيها الإستعدادات، وسيكون الأمان والحرية لعبة بيد ذوى الأهواء، و ستفقد الحياة الإنسانية مفهومها الواقعي. و عندما نتحرى التاريخ، نرى أن كثيراً من الأقوام البشرية قد حلّ بهم البوار، و تمزقوا شرّ ممزق نتيجة لانحرافاتهم الأخلاقية. و كم رأينا في التاريخ حكماً، عرّضوا شعوبهم لمصائب أليمه و ويلات، نتيجة لضعفهم الأخلاقي!! و كم يوجد من امراء فاسدين و قيادات عسكرية متعنته، عرّضوا حياة جنودهم للخطر الفادح، بسبب استبدادهم بالرأى و عدم المشورة. و الحقيقة أن الحياة الفردية للإنسان، لا لطافة ولا شفافية لها بدون الأخلاق. و لن تصل العوائل إلى بر الأمان من دونها، ولكن الأهم من ذلك هو الحياة الإجتماعية للبشر، فما لم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٤ يتمسك أفراد المجتمع بالأخلاق،

فستكون نهاية المجتمع أليمه وموحشه جداً. ولرب قائل يقول: إن السعادة والتكامل في واقع المجتمع البشري، يمكن أن يتحققا في ظل العمل بالقوانين والأحكام الصيحيحة، من دون الاعتماد على مبادئ الأخلاق في الفرد. ونقول له: إن العمل بالقوانين، من دون وجود قاعدة متماسكة من القيم الأخلاقية لدى الفرد غير ممكن، لأنه إذا لم يتوفر الداعي الذاتي للإنسان، فالسعى الظاهري لن يجدي نفعاً. فالقوة والصَّغَط من أسوأ الأدوات لتنفيذ القوانين والصواب، ولا يصح استعمالها إلأى الضرورات، وبالعكس فإن الإيمان والأخلاق، يُعتبران من أفضل الأساليب لتنفيذ أيَّة قرارات. بعد هذه الإشارة، نعود للآيات القرآنية الناظرة إلى هذه المسألة المهمة، لنستوحى منها بعض المعاني في هذا المجال: ١- «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١). ٢- «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ» (٢). ٣- «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (٣). ٤- «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (٤). ٥- «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا... يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (٥). ٦- «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا- وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (٦). ٧- «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» (٧). ٨- «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٨). ٩- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» (٩). ١٠- «وَلَا تَنَارَعُوا فِي تَقْضُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ» (١٠).

### تفسير وإستنتاج:

«الآية الاولى: تكلمت عن الزابطه بين بركات الأرض والسما و بين التقوى حيث يُصرح فيها بأن التقوى سبب البركات التي تنزل من السماء على الناس، وبالعكس فإن عدم التقوى والتكذيب بآيات الله، سبب لنزول العذاب: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». فبركات الأرض والسماء لها معنى وسيع جداً، بحيث يشمل: نزول الأمطار، وإنبات النباتات، وكثرة الخيرات، وكثرة القوى البشرية. «البركة»: أصلها الثبات والإستقرار، وبعدها اطلقت على كل نعمة وموهبة تبقى ثابتة لا تتغير، ولذلك فإن الموجودات غير المبارك فيها، تكون غير ثابتة وتفتنى بسرعة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٦ إن الكثير من الامم لديها إمكانات مادية كبيرة، ومعادن ومصادر للثروة تحت الأرض، وكذلك لديها أنواع الصناعات، ولكن بسبب أعمالهم السيئة والتي لها علاقة مباشرة بإنحطاطهم الأخلاقي، فإن تلك المواهب واليمن الإلهية، ستعرض للاهتزاز وتفقد البركة في مضمونها الإجتماعي، حيث تُستعمل تلك النعم الإلهية في الغالب، لتعجيل فنائهم وزوال نعيمهم من موقع النعمة الإلهية. وقد صرح القرآن الكريم بذلك، حيث قال في سورة التوبة في الآية (٨٥): «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ» نعم إن هذه النعم إذا اقترنت بفساد الأخلاق، فستكون سبباً لعذاب الدنيا وحُسران السعادة في الآخرة!. وعبارة أخرى إذا اقترنت هذه المواهب الإلهية، بالإيمان والأخلاق والقيم الإنسانية، فستجلب الرفاه والسعادة والعمران للمجتمع البشري، وهذا هو الشيء الذي تُشير إليه الآية الأنفة الذكر. وبالعكس فيما لو سلك الإنسان معها، اسلوب البخل والظلم والإستبداد، وسوء الخلق وإتباع الأهواء، فستكون من وسائل الإنحطاط والفساد والإنحراف!. «الآية الثانية»: تتحرك في إطار بيان طريقة مهمية ومؤثرة جداً لدفع العداوات والصغائن، وتوضح أيضاً دور الأخلاق في إزالتها: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». ويضيف قائلاً: إن هذا الأمر، أى سماعه الصدر، أمر لا يقدر عليه كل أحد، بل يخص بها من

أوتى حظاً عظيماً من الإيمان و التقوى، فيقول: «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». إنَّ إحدى المشاكل الكبيرة للمجتمعات البشرية، هي تراكم الحقد و الكراهية في النفوس، وفي حال وصولها للدروة، فإنَّ من شأنها أن تفضي إلى إشعال نيران الحروب، التي تحرق معها الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٧ كلَّ شيء وتحوّله إلى رماد. ومع تحرك الإنسان من موقع: «إدفع بالتّي هي أحسن»، فستذوب الأحقاد و الكراهية كالتلج في الصّيف، وستتخلص المجتمعات البشرية من خطر الحروب، و تقلّ الجنايات، و تفتح البشرية على أجواء المحبّة و التعاون و التكامل الإجتماعي. وكما يقول القرآن الكريم: إنَّ هذا المستوى الأخلاقي لا يصدر من كائن من يكن، حيث يتطلب قوّة الإيمان و التقوى و التربية الأخلاقية. ومن الطبيعي أنّ الخشونة إذا ما قابلتها الخشونة، و السيئة دُفعت بالسيئة، فستطرد هذه السليبيات و تتوسع يوماً بعد يوم، و بالتالي ستجر الولايات و المآسى على المجتمع البشري. ومن البديهي أن: (مسألة إدفع بالتّي هي أحسن)، لها شروط و حدود و إستثناءات، سنشرحها بالتفصيل في المستقبل إن شاء الله. «الآية الثالثة»: تحدثت عن تأثير حسن الخلق في جلب و جذب الناس، و بينت أنّ المدير المتخلق بالأخلاق الإلهية إلى أي حدّ يكون موفقاً في عمله، و كيف يجمع القلوب المتنافرة و يوحدّها التوحيد الذي يصعد بها إلى الرقي و الكمال الإجتماعي: «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لِمَأْنَفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». ففي هذه الآية، نرى التأثير العميق لحسن الأخلاق في تقدّم أمر الإدارة، و جلب و جذب القلوب و وحدة الصّفوف، و النّجاح على مُستوى التفاعل الإجتماعي لأفراد المجتمع؛ فأثر حسن الأخلاق لا يتحدّد بحدود البعد الإلهي و المعنوي فقط، بل له آثاره الوسيعة في حياة الإنسان الماديّة. و الأوامر الثلاثة التي جاءت في ذيل الآية، يعنى مسألة: «العفو عن الخطأ» و «طلب المغفرة من البارئ تعالى» و «المشورة في الامور»، هي أيضاً تصبّ في دائرة تفعيل عناصر الأخلاق في النفس، لأنّ تلك الأخلاق النابعة من الرّحمة و التواضع، تكون سبباً للعفو و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٨ الإستغفار و تصحيح الأخطاء السابقة، و إحترام شخصيّة و وجود الإنسان أيضاً. «الآية الرابعة»: تبين الآثار السلبية لبعض الأخلاق السيئة، حيث يقف في مقابل الأنبياء الإلهيين، جماعة من المترفين، و هم المنعمين الذين ملأ الكبر و الأنانية أنفسهم و وجودهم: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ». وبعدها يعقب قائلاً: أنّ الغرور و وصل بهم إلى درجة كبيرة، فقالوا: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ». فمثل هذه الأخلاق القبيحة، تُعدّ سبباً في التصدي للإصلاح الإجتماعي، على مُستوى قتل رجال الحق، و خنق أصوات طلب الحقيقة، و بالتالي زرع بذور الفساد و الظلم و الطغيان في المجتمعات، و هنا يتّضح نموذج آخر من آثار الأخلاق السيئة في المجتمعات البشرية. والعجيب في الأمر، أنّ رويّة الإستكبار الناشئة من الرّفاه المادي و سبوغ النعمة، هي السبب في التورط في مُستنقع الخطيئة و ارتكاب أخطاء فاضحة جدّاً، فإعتقدوا بأنّ و فور النعمة و كثرتها، هو دليل للقرب الإلهي، وقالوا: لولا قربنا من الله تعالى لما آتانا تلك النعم؟! و بذلك أنكروا جميع القيم الأخلاقية و المعنوية، ولكنّ القرآن الكريم في الآية التالية يُفند منطقهم الواهي، و يجعل المعيار هو الإيمان و العمل الصالح. فلم يكن موقف المترفين المشركين من قريش بالوحيد في عصرهم، فهذا هو موقف جميع المترفين في الأقوام السالفة مع الأنبياء و المصلحين. «الآية الخامسة»: تنظر لوجه آخر من المسألة، و تبين قصّة «قارون» الغني المغرور و الأناني و هو من بني إسرائيل. فعندما نصحه أهل العلم و المعرفة من قومه، و قالوا له: «وَأَبْتَغِ فِيمَا أُنكَرَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ»، ج ١، ص: ٣٩ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» و قال و بكلّ تكبر و غرور: «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي». يعنى أنّ الله لا دخل له في و فور النعمة عليّ، ولكنّ علمي و درايتي بالامور هي السبب في ذلك؛ وهكذا أودى به الكبر و الغرور إلى السقوط في وادي إنكار الآيات الإلهية، و بالتالي التحرك من موقع التعاون مع أعداء الحقّ و العدالة، و في لحظة وحادثة عجيبة، حسيّفت به و بأمواله الأرض. و هنا نرى كيف أنّ الرذائل الأخلاقية، بإمكانها تغيير وجوه الأشخاص و المجتمعات، و منهم من الوصول إلى الخير و السعادة. و الطريف في الأمر، أنّنا نقرأ في الآيات التي قبلها، بأنّ قومه قالوا له: «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ». و من البديهي أنّ الإسلام لا يعارض الفرح و السرور، ولكنّ المقصود هنا الفرح الناشئ من

الغفلة والغرور ونسيان الله تعالى، و المقترون بالظلم والفساد و ممارسة الخطيئة والذي بدوره يجز الإنسان للعريضة و الجموح والفساد، وكل ذلك منشؤه الصيغات القبيحة التي تضرب بجرائها في القلب. «الآية السادسة»: نقرأ فيها شكوى النبي نوح عليه السلام إلى الباري تعالى، فنرى في طياتها معانٍ تشير إلى تأثير أعمال الإنسان، و الأخلاق التي تدعم تلك الأعمال، في الحياة الفردية و الإجتماعية للإنسان، فيقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا\* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا\* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ\* وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا». وفي الإستمرار في قراءة تلك الآيات، نرى عصيانهم وتمردهم على الأوامر الإلهية، وكذلك تبين الآيات صفاتهم القبيحة، و التي هي بمثابة المنبع الآسن الذي يمدهم بالذنوب. ويمكن القول أن ما ذكر آنفًا، هو العلاقة المعنوية و الإلهية بين الإستغفار وترك الذنوب، و بين زيادة النعم، و لا يوجد منع من سراية هذه العلاقة لتشمل البعد الظاهري و البعد المعنوي، لذلك نقرأ في آية أخرى من القرآن الكريم: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤٠ وقد ورد هذا المعنى في سورة هود بشكل آخر على لسان الرسول صلى الله عليه و آله، في خطابه لمشركي مكة: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» (١). لا- شك أن التمتع «بالممتع الحسن»، لأجل مُسمى، هو إشارة إلى المواهب المادية الدنيوية، فهي رهينة الإستغفار و التوبة من الذنب، و العودة إلى الباري تعالى، و التخلق بالأخلاق الحسنة. و لا شك أن الصفات القبيحة هي الأساس والأصل لأنواع الذنوب، و الذنوب بدورها سبب لنشر الفساد في المجتمع وتفكيك لعرى الوحدة، و أواصر الصداقة و الاخوة و الإعتماد بين الناس، و بالتالي التأخر في العمران و النمو الإقتصادي و الرفاه المادي، و التكامل المعنوي و سلامة النفوس. وفي «الآية السابعة»: إشارة إلى حالة أهل الكتاب وعصيانهم وطغيانهم، فيقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالنَّجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ». ونرى هنا أيضاً تقريراً، للعلاقة الوطيدة بين العمل الصالح و التقوى من جهة، و نزول البركة السماوية والأرضية من جهة أخرى، وهذه العلاقة يمكن أن تحمل الجانب المعنوي أو الطبيعي، أو بالأحرى الإثنين معاً. نعم فإن الفيوضات الإلهية لا حد لها، و يتوجب علينا تحصيل الأهلية و القابلية، لنتصل بالمصدر الأصلي للفيض، ولكن الإفراط و التفريط و العُدول عن جادة الاعتدال و التوازن، سؤدت وجه الحياة الإنسانية، و سلبت منها الراحة. فالحروب المدمرة تعزى النفوس الإنسانية من الفضيلة و الصلاح، و ترهق الثروات المادية و المعنوية، و تفضي بالإنسان إلى الزوال. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤١ و جملة: «وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ»، تعني كل الكتب السماوية، و من جملتها القرآن الكريم، وذلك لأن أصولها في الواقع واحدة، رغم أنه بمرور الزمان، و حركة المجتمع الإسلامي في خط التكامل و التطور، نزلت أوامر و أحكام أكثر تطوراً من السابق. «الآية الثامنة»: نستوحى منها تعبيراً جديداً عن علاقة الحياة الطيبة بالأعمال الصالحة، (و الصيغات التي هي منشأ لتلك الأعمال)، فتقول الآية: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». الآيات السابقة، كانت تؤكد على تأثير الأخلاق على آفاق و أبعاد حركة الإنسان في الحياة الإجتماعية، وفي الآية هذه نجد أنها تتناول الحياة الفردية، فيذكر فيها أن كل إنسان من ذكر و أنثى، إذا ما آمن و عمل صالحاً فسيحى حياة طيبة. و لا نرى في هذه الآية أية إشارة إلى أن «الحياة الطيبة» محدودة بيوم القيامة فقط، بل تشير ظاهراً إلى (الحياة الطيبة) في الدنيا، أو تستوعب المفهوم العام للحياة في الدنيا والآخرة. ولكن ما هي الحياة الطيبة؟ إختلف المفسرون في تفسير معنى الحياة الطيبة، فبعض فسرها باللحمة الحلال، وقال آخر أنها القناعة و الرضا بما قسمه الله تعالى، وقال البعض أنها العبادة مع لقمه الحلال، وقال آخرون أنها التوفيق لطاعة الله تعالى، و تبني آخرون تفسيرها بالنظافة من جميع الأوساخ والأدران، مثل الظلم و الخيانة و العدوان و الذل و الطهارة و النظافة و الراحة، فكلها تدرج تحت ذلك المفهوم، ولكن بالنظر إلى جملة: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ»، الناظرة للأجر الاخرى، يتبين أن المقصود من كلمة «الحياة الطيبة»، هو الإشارة للحياة السليمة في هذه الدنيا. «الآية التاسعة»: تقرر أن الإعراض عن ذكر الله تعالى و الغفلة عنه، هو السبب في ضنك العيش و صعوبة الحياة، فيقول الله تعالى «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤٢ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» و نعلم أن ذكر الله و معرفه اسمائه و صفاته المقدسة، هو منبع لكل الكمالات، بل هو عين

الكمال، فذكره سبب لتربيته وترشيد الفضائل الأخلاقية في واقع الإنسان، والصعود به إلى آفاقٍ معنوية سامية، في عالم التخلق بالأسماء والصفات الإلهية، وهذا الخلق هو مصدر الأعمال الصالحة، وهو السبب في الإفتتاح على الحياة السعيدة وتطهيرها، وبالعكس، فإن الإعراض عن ذكر الله تعالى، يبعده عن مصدر النور الإلهي، ويقرب به من الخلق الشيطاني والجو الظلماني، مما يؤدي بالإنسان إلى أن يعيش ضنك العيش، وينحدر في مُنزلق النهاية المأساوية في حركة الحياة، وهذه هي آية أخرى تبين بصراحة، علاقة الإيمان والأخلاق مع الحياة الفردية والاجتماعية للبشر. وقد فسّر بعض أرباب اللغة، كلمة «معيشة ضنكا»: بالحياة والمعيشة التي يتكسب فيها من الحرام، لأن مثل هذه المعيشة، هي سبب القلق والإضطراب الروحي في كثير من الامور. وعلى حدّ تعبير بعض المفسرين: إن الأفراد غير المؤمنين، يغلب عليهم الحرص الشديد في امور الدنيا، وعندهم عطشٌ مادي لا ينفذ، وخوف من زوال النعمة، ولأجل ذلك يغلب عليهم البخل، والصفات الذميمة الاخرى التي تضعهم في نارٍ محرقة من الآلام الروحية والضغوط النفسية، بالرغم من توفر الإمكانيات المادية الكثيرة عندهم). وعندما يعيشون العمى في الآخرة؛ فإنما هو بسبب العمى في هذه الدنيا عن السير في طريق الحق والسعادة، وغرقهم في ظلمات الشهوات المادية. وسنشرح في نهاية هذا القسم هذه المسألة شرحاً وافياً. «الآية العاشرة»: تنطرق لأحد الآثار السيئة للعداوة والتزاع، الموجب لتدمير عرى الوحدة ومصادرة القوة والقدرة، فتقول: «ولا- تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم». ومن البديهي أن المنازعات والاختلافات في حركة الواقع الإجتماعي، إنما هي من إفرزات الأخلاق الرذيلة المنحطة الكامنة في أعماق النفس البشرية مثل: الأنانية، التكبر، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤٣ الحرص، الحقد، الحسد، وأمثال ذلك من عناصر الشر والانحراف، و يترتب على ذلك توكيد عناصر الفشل والانحطاط، وزوال عناصر العزة والقوة من واقع المجتمع البشري. والجدير بالذكر، أن القرآن عبّر هنا ب: «تذهب ريحكم». «الريح» في الأصل بمعنى «الهواء»، وهي كناية عن: «القوة والغلبة»، ويمكن إستيعاب هذا المعنى من أن الرّيح عندما تُحرّك رايات القبيلة؛ فإنه يُعدّ مظهراً للقوة والغلبة، وعليه يكون مفهوم الجملة؛ أن الاختلاف هو سبب زوال قوتكم وعظمتكم وقدرتكم. أو أن المفهوم مقتبس من هبوب الرّيح الموافقة، والتي هي سبب في سرعة حركة السفن للوصول إلى المكان المقصود، ومع إنعدامها تتوقف الحركة. ويقول صاحب «التحقيق»: يوجد علاقة بين الروح والريح، فالروح ما يحدث في ما وراء الطبيعة، والريح بمعنى الحدوث في الطبيعة. وجاءت كلمة «ريح» في بعض الموارد، بمعنى العطر الجميل، مثل: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» (١). وعلى هذا يمكن القول أن معنى الجملة هو: أن الإتحاد يفضي إلى إنتشار نفوذكم ورائحتكم في العالم، وإذا ما اختلفتم، فستفقدون نفوذكم في العالم. وعلى أية حال فأياً كان السبب في الاختلاف، سواء كان: (الأنانية، الإنتفاعيّة، الحسد، البخل، والحقد وغيرها)، فسيكون له الأثر السلبى في الحياة الإجتماعية وتخلّفها، ومن هنا تتجلى علاقة المسائل الأخلاقية بالمسائل الإجتماعية في حركة الواقع الإجتماعي للبشر.

### النتيجة:

نستوحى من الآيات الأنفة الذكر، أن الخلق السامى الإنسانى، لا يقتصر تأثيره على السلوك المعنوي والاخرى للإنسان فحسب، بل له الأثر الكبير في الحياة المادية والدينية الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤٤ للبشر، وعليه لا- ينبغى أن نتصور أن المسائل الأخلاقية، مُنحصرة بالفرد وحده على حساب الحياة الإجتماعية، بل العكس صحيح؛ فالأخلاق على علاقة قوية وطيبة مع الحياة الإجتماعية، و أى تحوّل إجتماعى في واقع الحياة البشرية، لا يمكن أن يحصل إلا على أساس التحول الأخلاقى. وبتعبير آخر: إن الناس الذين يعيشون في مجتمع كبير، و يرغبون في حياة سعيدة مقرونة بالسلم والتعاون المشترك، يجب عليهم على الأقل أن يصتلموا إلى رُشد أخلاقى، يدركون معه الحقائق المتعلقة باختلاف أفراد الإنسان فكراً وروحاً وعاطفة، لأن الأفراد يختلفون عن بعضهم البعض، فلا نتوقع أبداً من الآخرين أن يتبعونا في كل شىء، والمهم في المسألة هو السعى في الحفاظ على الاصول المشتركة بين المجتمع، و إختلاف الأذواق والأفكار يجب التّجاوز عنه، إلى حيث اللبونة والحلم و سبعة الصّيدر والنظر إلى المستقبل، فلا يمكن لنفرين أن يجسدا بينهما تعاوناً

حقيقياً في حركة الحياة ولمدةٍ طويلةٍ، إلّا بعد التحلّي بأحد الاصول الأخلاقية الآنفه الذكر. ومن البديهي أن التهيؤ الأخلاقي لهضم نقاط الإختلاف، و الوصول إلى الوحدة والقدرة والعظمة، هو أمر لازم وضروري، وهو أمر لا يتحقق بالكلام فقط، بل يحتاج إلى تهذيبٍ وتعليمٍ وتربيةٍ لنفوس الأفراد، كي يصل المجتمع إلى النمو والتكامل في المجالات الأخلاقية.

### علاقة الحياة المادية بالمسائل الأخلاقية في الروايات الإسلامية:

ما إستفدناه من الآيات القرآنية في الموضوع الآنف الذكر، له أصداء واسعة في الروايات الإسلامية أيضاً؛ حيث يحكى عن التأثير العميق للصفات الأخلاقية في الحياة الفردية والاجتماعية، ونشير إلى قسم منها: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٥-١- نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «في سبعة الأخلاق كُنُوزُ الأرزاق» (١). ٢- ورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «حَسُنَ الخُلُقُ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ» (٢). ٣- ورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: كيف أن الأخلاق الحسنة تُؤثّر في جلب النَّاسِ و تحكيم أوامر الصداقة بينهم: «مَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ كَثُرَ مُجِبُّوهُ وَانْسَتِ النَّفُوسُ بِهِ» (٣). ٤- ورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، يتطرّق فيه إلى هذا المعنى بصراحة أكثر، فيقول: «إِنَّ البرَّ وَحَسَنَ الخُلُقِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ» (٤). ولا شك أن تصاعد العمران وتماسك المجتمعات، يكون من خلال الإتحاد والتعاون بين أفراد المجتمع وطوائفه المختلفة، وكل ما يؤدي إلى تقوية روح الإتحاد والتعاون بين الناس، يُعتبر من العوامل المهمة في تحكيم المرتكزات الأساسية لبقاء المجتمع، و تفعيل حركة العمران فيه، وبالنسبة إلى طول العمر، نجد أنه معلول غالباً، إلى الحياة الهادئة والبعيدة عن حالات القلق والإضطراب، و في ظلّ التعاون المشترك بين الأفراد. و كل هذه الامور تُعدّ من معطيات الأخلاق الحسنة في حركة الإنسان والحياة. ٥- وفي هذا المضمون ورد في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قال: «حَسُنَ الخُلُقُ يُبَيِّتُ المَوَدَّةَ» (٥). وتوجد أيضاً أحاديث متعدّدة، تحكى عن تأثير سوء الخلق في إيجاد الكراهية في النفوس، و توهين الروابط بين الأفراد، و أنه يورث النفور والتشتت و ضنك المعيشة و سلب الرّاحة و الطمأنينة. ٦- ورد في حديث عن الإمام علي عليه السلام: «مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ ضَاقَ رِزْقُهُ» (٦). ٧- وجاء في حديث آخر أيضاً عن علي عليه السلام، أنه قال: «مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ أَعْوَزَهُ الصَّدِيقُ وَالرَّفِيقُ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٦-٨- وجاء أيضاً عن علي عليه السلام: «سُوءُ الخُلُقِ نَكَدُ العَيْشِ وَ عَذَابُ النَّفْسِ» (٨). ٩- سأل الإمام علي عليه السلام: مَنْ أَدومُ النَّاسِ عَمّاً، قال: «أَسْوَوْهُمْ خُلُقاً» (٩). ١٠- وأخيراً نورد نصيحة لقمان الحكيم لابنه، و هي: «وَإِيَّاكَ وَالصَّبْرَ وَسُوءَ الخُلُقِ وَقِلَّةَ الصَّبْرِ فَلَا يَسْتَقِيمُ عَلَيَّ هَذِهِ الخِصَالِ صَاحِبٌ» (١٠)

(٣)

### المذاهب الأخلاقية

#### إشارة

يوجد في علم الأخلاق مذاهب كثيرة، إنحرف أكثرها، و آل بها الأمر إلى مخالفة الأخلاق، فمعرفة ليس بالأمر الصّعب و خصوصاً في ظلّ الهدى القرآني؛ فيقول القرآن الكريم: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١). فأتت هذه الآيه، بعد ذكر قسم مهم من العقائد والبرامج العملية والأخلاقية في الإسلام، و قد تضمّنت عشرة أوامر إسلامية، جاءت لتوصي المسلمين بأن يتحركوا في العقيدة في خط الإستقامة، بعيداً عن السبيل الأخرى التي تورثهم الفرقة و الإنحراف، عن خطّ الإيمان بالله تعالى. المذاهب الأخلاقية مثلها مثل سائر المناهج الفردية الاجتماعية، فهي تستمد اصولها من النظرة الكلية لمفهوم العالم، وهذان المفهومان: «الأخلاق والنظرة الكونية»، منسجمان و مرتبطان مع بعضهما بصورة وثيقة جداً، فالذين يفصلون: «معرفة العالم»، النظرية عن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٤٨ الاخلاق والأوامر والنواهي الأخلاقية للعقل العملي، وينكرون

أية علاقة بينهما، إنطلاقاً من أن معرفة العالم و الكائنات الطبيعيّة تعتمد على الدلائل المنطقيّة و التجريبيّة، والحال أن «الأوامر» و «النواهي» الأخلاقيّة، هي سلسلة من القضايا تحكم السلوك، فهؤلاء أغفلوا نقطة مهمة، ألا وهي أن الأوامر الأخلاقيّة تصبح حكمية، إذا ما كوّنت لها علاقةً بالعالم الخارجي، و إلفستكون اموراً اعتباريةً فارغةً و غير مقبولة، و يوجد هنا أمثلة واضحة تبيّن المطلب بصورة جيّدة: عندما يُصدر الإسلام حكماً ب: «حرمة شرب الخمر»، أو في القوانين الدوليّة: حول «خطر المخدرات»، فهذه أوامر إلهية أو بشريّة إستمدت اصولها من سلسلة الكائنات الواقعيّة، لأنّ الحقيقة المحضة؛ أن الشرب و المخدرات لها أثر تخريبي خطر على روح و جسم الإنسان، فلا يسلم من تأثير هذه المواد الضارة و المدمرة أي إنسان، وهذه الحقيقة هي سبب لذلك (الأمر)، و (النهى). وعندما نقول أن الأحكام الإلهية ناشئة من المصالح و المفاسد؛ فإننا بالضبط نستوحي ذلك من خلال القاعدة التي تقول: «كلما حكم به العقل حكم به الشّرع»، وهي أيضاً تُقرر وجود علاقة وثيقة بين الواقع و الأحكام: (الأوامر و النواهي). فما يُشرع من قوانين في المجالس التشريعيّة البشريّة، و دراسة عواقبها الفرديّة و الاجتماعيّة و وضع القوانين على أساسها، يصب في نفس ذلك المصعب بالضبط. و خلاصة القول: أنه من المحال على الحكيم أن يصدر حكماً بعيداً عن الواقعيّات في حياة البشر، وإلا فلن يكون قانوناً بل هو لغو في لغو، ولأنّ الواقع هو واحد لا- أكثر، فمن الطبيعي أن يكون الطريق الصّحيح و المستقيم و القانون الأمثل واحد لا- غير، ممّا يدعونا للسّعي الحثيث لإصابة الحق و الواقع و الأحكام و القوانين التي نشأت عنها. إن ما ذكر آنفاً يبيّن علاقة التّظريّات الكلّيّة، في مجموعة الوجود و خلق الإنسان بالمسائل الأخلاقيّة، و من هنا فإنّ نشوء المذاهب الأخلاقيّة و تنوعها، يكمن في هذا السبب بالذات. و بالنظر إلى ما ذكر أعلاه، نستعرض الآن المذاهب الأخلاقيّة:

### ١- الأخلاق في مدرسة الموحّدين:

هؤلاء يذهبون إلى أن الله تعالى خالق الكائنات كلّها، فنحن منه ونعود إليه. والهدف من خلق الإنسان، هو التّكامل في الجوانب المعنويّة و الروحيّة، و مادام التّقدم المادي و التّطور الحضاري للبشريّة، يتحرك في خطّ التّكامل المعنوي، فهو يُعتبر هدفاً معنوياً أيضاً. ويمكن تعريف التّكامل المعنوي بأنّه: «القرب من الله تعالى، والسّير على الطّريق الذي يقرب الإنسان لصفات الكمال الإلهيّة». و اعتماداً على هذا المعيار، فإنّ الأخلاق من وجهه نظر هذا المذهب، هي كلّ صفات الأفعال التي تساعد الإنسان في سيره على هذا الطريق، و التّقييم الأخلاقي في هذا المذهب، يدور حول القيم و المثل و الكّمالات الرّوحيّة و المعنويّة و القرب من الله تعالى.

### ٢- الأخلاق الماديّة:

من المعلوم أن المادّيين لهم مذاهب متعدّدة، و المعروف منها الشيوعيّة، حيث يرون كلّ شيء من خلال منظار المادّة، ولا يؤمنون بالله و المسائل الروحيّة و المعنويّة، ويقولون بأصالة الإقتصاد، و يعطون للتأريخ ماهيّة ماديّة و إقتصاديّة، فكلّ شيء يؤدي إلى تقوية الإقتصاد الشّيعي في المجتمع، فإنّه يعتبر من الأخلاق أو على حدّ تعبيرهم: «كلّ شيء يعجّل في الثورة الشيوعيّة، فهو الأخلاق»، فمثلاً المعيار الأخلاقي للكذب و الصدق، يقاس بمدى تأثير ذلك السلوك الأخلاقي على الثورة، فإذا أدى الكذب إلى التّسريع بالثورة فهو أمر أخلاقي، وإذا أضرّ الصدق بالثورة، فهو أمر غير أخلاقي! و المذاهب الماديّة الأخرى كذلك، فكلّ مذهب يُفسّر الأخلاق حسب ما يرتئيه مسلكه، فالذين يقولون بأصالة اللذّة، و الإستفادة من اللذائد الماديّة، لا يوجد شيء عندهم باسم الأخلاق، أو بالأحرى أن الأخلاق عندهم، هي الصّيفات و الأفعال التي تمهد الطّريق للوصول إلى اللذّة. وأمّا الذين أعطوا الأصالة للفرد و المصالح الشخصية، و المجتمع محترم عندهم مادام الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٠ منسجماً مع منافع الفرد الشّخصيّة، (كما هو الحال في المذاهب الغربيّة الرأسماليّة)، فهم يفسّرون الأخلاق بالامور التي توصلهم إلى مصالحهم الماديّة و الشخصية، و يضحون بكلّ شيء لأجل هذه الغاية.



### ٣- الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقليين:

أما الفلاسفة الذين يقولون بأصالة العقل، ويذهبون إلى أن غاية الفلسفة هي: (صيرورة الإنسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني)، ففي مجال الأخلاق، يفسِّرون الأخلاق بالصفات والأعمال التي تساعد الإنسان على تحكيم العقل، و سيطرته على القوى و التوازن البدنية، بعيداً عن الخضوع للشهوات و الطباع الحيوانية، و الأهواء النفسية في حركة الحياة.

### ٤- الأخلاق في مذهب محورية الغير:

جماعة اخرى من الفلاسفة أعطت الأصالة للمجتمع، وقالوا أن الأصالة للجماعة لا للفرد، فهم يفسِّرون الأخلاق بالأفعال التي يكون الغير فيها هو الهدف، وكل فعل يعود بالنفع للإنسان نفسه، فهو فعل غير أخلاقي، والأفعال التي يكون محورها نفع الغير تكون أخلاقية.

### ٥- الأخلاق في المذهب الوجداني:

#### إشارة

قسم من الفلاسفة قالوا بأصالة الوجدان لا العقل، ويمكن تسميتهم ب: «الوجدانيين»، أو بمؤيدي: «الحسن والقبح العقلي»، و قصدهم من ذلك العقل العملي لا النظري، فالأخلاق عندهم عبارة عن سلسلة من الامور الوجدانية غير البرهانية، أي أنها تُدرك بدون حاجة إلى منطقي و استدلال، فمثلاً الإنسان يدرك أن العدل حسن، و الظلم قبيح، و يُشخص أن الإيثار و الشجاعة أمران جيدان، الأنانية و الظلم و البخل امورٌ قبيحة، و لا يحتاج في إدراك هذا المعنى، إلى إستدلال عقلي من خلال دراسة تأثير هذه الأفعال و السلوكيات في واقع الفرد و المجتمع. وعليه يجب أن نتحرك من موقع تقوية الوجدان الأخلاقي في الإنسان، و نُزيل من الطريق كل ما يُضعف الوجدان، وبعدها سنرى أن الوجدان قاض و حاكمٌ جيدٌ لتشخيص الأخلاق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥١ الحسنه من القبيحة. المؤيدون: «للحسن و القبح العقليين»، رغم أنهم يتكلمون دائماً عن العقل، ولكن ومن الواضح أنهم يقصدون العقل الوجداني، لا العقل الإستدلالي، فهم يقولون إنَّ حُسن الإحسان، و قبح الظلم في الدائرة الأخلاقية لا يحتاج فيهما إلى دليل وبرهان، فالإنسان السليم النفس يعيش هذه المفاهيم الأخلاقية، من موقع الوضوح في الرؤية و البدهة، وعلى هذا فإنهم يقولون بالأصالة للوجدان في دائرة الأخلاق. ولكن الكثير منهم لا ينكرون سكوت الوجدان عن بعض الامور، و عدم إدراكه لها، وهنا يجب الإستعانة بالشريعة و الوحي لفصل الامور الأخلاقية عن غيرها، و بالإضافة إلى ذلك، إذا ورد تأييد من الشرع لما حكم به العقل، فإن ذلك سيكون عاملاً مهماً في ترسيخ هذه المفاهيم في عالم الوجدان، و ترجمتها على مستوى الممارسة والعمل.

#### النتيجة:

بعد الإشارة إلى أهم المذاهب الأخلاقية في هذا الفصل، تتبين خصوصيات المذهب الأخلاقي للإسلام بصورة كاملة، حيث يرى أن: (أساس هذا المذهب الأخلاقي، هو الإيمان بربوبية الله تعالى، الذي هو الكمال المطلق و مُطلق الكمال و أوامره سارية و جارية على جميع العالم، و كمال الإنسان في تطبيق صفاته الجليلية و الجمالية، و القرب من الله تعالى أكثر فأكثر). وهذا لا- يعني أنه لا- أثر للصفات الأخلاقية في إنقاذ الإنسان و المجتمع البشري، من عناصر الشر و قوى الإنحراف، ولكن وفي نظرة إسلامية عالمية صحيحة، أن العالم عبارة عن وحدة متماسكة، و أن واجب الوجود هو قُطب هذه الدائرة، و ما عداه مُتصل به و مُعتمد عليه، و في الوقت نفسه هناك علاقة و إنسجام تام بين المخلوقات، فكل شيء يساعد على إصلاح المجتمع البشري و تطهيره من البؤر و أشكال الخلل الأخلاقي،

فسيكون عاملاً مؤثراً في الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٢ إصلاح الفرد في دائرة السيلوك الأخلاقي، وبالعكس. وبعبارة اخرى: إنَّ القيم الأخلاقية لها إزدواجية في التأثير، فتصنع الفرد والمجتمع على السواء، و الذين يتصورون أنَّ المسائل الأخلاقية هدفها الغير وليس النفس على اشتباه كبير، لأنَّ مصلحة الإثنين في الواقع واحدة، لا تتجزأ إلَّا في مراحل مقطعية محدودة وقصيرة، و قد تقدّم الحديث عن هذا المفهوم، و سيأتي في المستقبل إن شاء الله تعالى.

## ملاحظات:

### ١- الأخلاق والنسبية

#### إشارة

هل أنَّ الأخلاق الحسنة و القبيحة، و الرذائل و الفضائل، جيدة أو قبيحة ذات أبعاد مطلقة في كلِّ مكان و زمان، أم أنَّ هذه الصفات نسبية؛ فربما تكون في مكان و زمان آخر جيدة أو سيئة؟ الذين يقولون أنَّ الأخلاق نسبية ينقسمون إلى قسمين: الفئة الاولى: هم الذين يقولون بنسبية عالم الوجود كلاً، فإذا كان الوجود والعدم نسبيين، فإنَّ الأخلاق تدخل في هذه الدائرة أيضاً. الفئة الثانية: هم الذين لا يرون أنَّ هناك علاقة بين عالم الوجود وبين الأخلاق، فالمعيار عندهم لمعرفة الأخلاق الجيدة من غيرها هو المجتمع، و قبوله و عدم قبوله لها، وهذا يعني أنَّ الشجاعة ربما تكون فضيلة عند مجتمع، في ما لو كانت مقبولة، و قد تكون نفس تلك الفضيلة رذيلة في مجتمع آخر. وهذه الفئة، لا تعتقد بالحسن و القبح الذاتي للأفعال أيضاً، والمعيار هو قبول و عدم قبول المجتمع لها. وقد رأينا في البحث السابق، أنَّ المسائل الأخلاقية تعتمد على معايير للقياس، تكون وليدة النظرات الكونية، فالمذهب الذي يعتبر المجتمع هو الأصل والأساس لقبول الامور، و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٣ بشكلها المادي، فان أفراده لا وسيلة لهم إلَّا القبول بنسبية الأخلاق، لأنَّ المجتمع البشري يكون دائماً في حالة تغيير و تحوّل، وعلى هذا فليس من العجيب في أمر هذه الجماعة أنَّهم جعلوا الرأي العام للمجتمع، هو المرجع لتشخيص الحسن و القبيح من الأخلاق. و نتيجة مثل هذه العقيدة، معلومة و واضحة قبل أن تظهر للوجود؛ لأنها تُسبب في تبعية القيم الأخلاقية للمجتمعات البشرية، و التوافق مع الظروف و متغيرات و أحوال ذلك المجتمع، والحال أنَّ المجتمع هو الذي يجب أن يتبع الاصول الأخلاقية: لتُصلح مفاسده. فمن وجهة نظر هذه الجماعة، أنَّ وأد البنات و هنَّ أحياء، في زمن المجتمع الجاهلي العربي القديم، هو أمر أخلاقي، و كذلك الغارات التي كانت تشنها القبائل على بعضها البعض، و تعتبر عندهم من المفاخر، و لأجلها كانوا يُحبون الأولاد و يقدرونهم، حتى يكبروا و يحملوا السلاح ليحاربوا مع آبائهم، فهي أيضاً أمر أخلاقي، و كذلك الجنسية المثلية المتفشية في الغرب، تُعتبر من وجهة نظرهم أمراً أخلاقياً؟! فالعواقب الخطيرة التي تحملها أفكار هذه المذاهب في حركة الواقع الإجتماعي، لا تخفى على عاقل طبعاً. ولكن في الإسلام، فإن المعيار الأخلاقي و الفضائل و الرذائل، تُعين من قبل الباري تعالى وذاته ثابتة لا تتغير، فالمثل و القيم الأخلاقية ستكون ثابتة و لا تتغير، و يجب أن تكون هي القاعدة الأصل للأفراد و المجتمع في سلوكهم الأخلاقي، لا- أن تكون الأخلاق تابعة لرغبات و ميول المجتمع. الموحدون يعتقدون أنَّ الفطرة و الوجدان الإنساني إذا لم تتلوث؛ فستبقى ثابتة أيضاً، باعتبارها تمثل الثور المنعكس عن الذات المقدسة للباري تعالى وعلى هذا فإنَّ الأخلاقيات تعتمد على الوجدان، و بعبارة اخرى فإنَّ القبح و الحسن العقليان: (المقصود العقل العملي لا النظري)، يثبتان أيضاً.

### الإسلام ينفي نسبية الأخلاق:

طرح القرآن الكريم في آياتٍ عديدةٍ كلمة «الطيب والخيث» بصورةٍ مطلقةٍ، ولم يجعل الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٤ للمجتمعات البشرية دور في صياغة القيم في هذا المجال، فنقرأ في الآية (١٠٠) من سورة المائدة: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ». وفي الآية (١٥٧) من سورة الأعراف في وضعها للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَيَجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ». وفي سورة البقرة الآية (٢٤٣) يقول الله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ». وفي الآية (١٠٣) من سورة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى «وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ». في هذه الآيات يُعتبر الإيمان والطهارة والشكر، من القيم والمثل وإن كان أكثر الناس يخالفون ذلك، والكفر والخبث وكفران النعمة، تعتبر في مقابل القيم، رغم أن الأ-كثريّة تتحرك في هذا الخط. وقد ذكر أميرالمؤمنين عليه السلام، هذا المعنى كثيراً في خطبه في نهج البلاغة. وأن قبول وعدم قبول الأ-كثريّة لخلق أو عمل ما، لا يكون معياراً للفضيلة والرذيلة وكذلك الحُسن والقبح. فقال الإمام عليه السلام في خطبة: «يا أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لِقَلَّةِ أَهْلِهَا فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَانِدَةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ وَجُوعَهَا طَوِيلٌ». (١) وقال في خطبة أخرى «حَقُّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلِّ أَهْلِ؛ فَلَا يَنْ أَمْرَ الْبَاطِلِ لِقَدِيمًا فَعَلَّ وَإِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ» (٢). فكل هذه النصوص الإسلامية تنفي النسبيّة في الأخلاق، ولا- تعتبر قبول الأ-كثريّة في المجتمع معياراً لها. ويوجد في القرآن الكريم والروايات الإسلامية، شواهد كثيرة على هذه المسألة، لو جمعت لبلغت كتاباً كبيراً.

### سؤال:

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: إن النسبيّة في الأخلاق قد تكون مقبولة في بعض الموارد في الشرائع السيماوية، (وخصوصاً الإسلام)؛ فمثلاً يعتبر الكذب ضد القيم والمثل وعملاً غير أخلاقي، لكن الكذب لغرض الإصلاح بين الناس أو في مقام المشورة، يعتبر عملاً أخلاقياً، وهذه المسألة ليست بقليلة الموارد في التعاليم الإسلامية، فيعتبر هذا نوعاً من قبول النسبيّة للأخلاق.

### الجواب:

إن نسبيّة الأخلاق والحُسن والقبح مطلب، والاستثناء مطلب آخر. وبعبارة أخرى لا يوجد أصل ثابت في النسبيّة، فالكذب لا هو حسن ولا هو قبيح، وكذلك العدل والإحسان أو الظلم والطغيان، فحُسنها وقبحها لا يتبين للإنسان إلا إذا قبلتها الأ-كثريّة من موقع القيم أو رفضتها كذلك. ولكن في الإسلام والتعاليم السيماوية، فالكذب والظلم والبخل والحسد والحقد، كلها تعتبر ضد القيم والمثل، سواء قبلتها أ-كثريّة الناس أم لا، وبالعكس، فالإحسان والعدالة والصدق والأمانة، قيم ومثل رفيعة سواء قبلها المجتمع، أم لا. فهذا هو الأصل الكلي للمسألة، ولا مانع من وجود الاستثناء له، فالأصل كما هو واضح من إسمه أساس وجذر الشيء، والاستثناء بمنزلة بعض الفروع والأوراق الزائدة، ووجود بعض الاستثناءات في كل قاعدة لا يمكن أن يكون دليلاً على نسبيّتها، فإذا تجلّى لنا هذا الفرق بين هذين الإثنين، أمكننا تجنب الوقوع في كثير من الأخطاء. ويجب الالتفات أيضاً إلى أن الموضوعات يمكن أن تتغير بمرور الزمان أيضاً، فالأحكام التابعة للموضوعات تتغير أيضاً، وهذا الأمر لا يمكن أن يُعتبر دليلاً على النسبيّة. بيان ذلك: إن لكل حكم موضوعه الخاص؛ العدو على الآخرين يعتبر جنايةً قابلةً للقصاص والتعقيب، ولكن يمكن أن يتغير الموضوع، في يد الطبيب والجراح الذي يمسك الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٦ الموضع لينقذ حياة المرضى فيفتح بمشرطه القلب ويخرج الغدد الخبيثة، فالموضوع يتغير هنا، فلا يمثل هذا العمل جنايةً، بل يستحق عمله التقدير والجائزة. فلا يمكن لأحد أن يعتبر تغيير الأحكام والموضوعات دليلاً على النسبيّة، والنسبيّة تقوم على أساس تبدل الأحكام، بالرغم من عدم تحوّل وتغير الموضوع الماهوي، والموضوعي بالنسبة للأشخاص أو

الأزمان المختلفة. وأحكام الشّرع كذلك، فالخمر حرام ونجس، ولكن من الممكن وبعد مرور عدّة أيام، أو بإضافته مادّة ما يمكن تحويله إلى خلّ طاهر محلّل، فلا يمكن لأحدٍ أن يعتبر هذه من نسيبته الأحكام، والنسيبته هنا أن يكون الخمر حلال عند مُستحلّيه وحرام عند مانعيه، من دون أن يتغيّر شيء في ماهية الخمر. في المسائل الأخلاقية أيضاً، يمكن أن نصادف موضوعات، تكون للوهلة الأولى من الفضائل، ولكن وبالتحول في دائرة الموضوع، يمكن أن تتغيّر إلى رذيلة؛ فعدم الخوف مثلاً وإلى حد الاعتدال يُعتبر شجاعته وفضيلته، ولكن إذا تعدّى الحدود، فيكون تهوراً ويدخل في حيز الرذائل. وكذلك في الأمور الأخرى التي تُشابهها، فالكذب يعتبر منشأ للمفاسد الكثيرة، وسبباً لزوال الثقة بين الناس، ولكن إذا كان لغرض الإصلاح بين الناس، فهو حلالٌ وفضيلةٌ. ويمكن أن يعتبر البعض، هذه الأمور والتغيرات في المواضيع من النسيبته، ولا نزاع فيما بيننا في التسمية، ومثل هذا النزاع يعتبر لفظياً، لأنه مثل هذه الموارد تعتبر من قبيل التغيّر في الموضوع و ماهية، وإذا كان قصد أصحاب النسيبته هذا، فلا بأس، ولكن المشكلة في أن يكون المعيار: للفضيلة والرذيلة والحسن والقبح الأخلاقيين، هو قبول أكثرية المجتمع. ومن مجموع ما تقدم، نستنتج أن نسيبته الأخلاق مردودة، من وجهة نظر الإسلام والقرآن والمنطق والعقل، وطرح مسألة النسيبته تلك تُعتبر أو تُساوى عدم الأخلاق، لأنه وطبقاً للنظرية النسيبته للأخلاق، فإنّ كلّ رذيلة إنتشرت في المجتمع فهي فضيلة، وكلّ مرض أخلاقي تفشى بين الناس؛ فهو صحّة وسلامة، وبدلاً من أن تكون الأخلاق عاملاً لرقى المجتمع في خطّ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٧ التكامل الحضاري، فستتحول إلى عامل لنشر الفساد والانحطاط.

## ٢- التأثير المتقابل بين (الأخلاق و السلوك)

### إشارة

علاقة الأخلاق والعمل، وتأثير الأخلاق في السلوك أمر لا يخفى على أحد، لأن الأعمال عادةً تنبع من الصّفات الداخليّة في النفس الإنسانيّة، فالشخص الذي تسيطر حالة البخل والحسد والكبر على قلبه وفكره و روحه، فمن الطبيعي أن تكون أعماله على نفس الشّاكله، فالحسود يتحرك في أعماله دائماً من موضع هذه الخصلة الذميمة، التي هي كالدّعة المتقدّة في روحه، تسلب الرّاحة منه، وكذلك الأفراد المتكبرين، مشيتهم وكلامهم وقيامهم وقعودهم، كلّها تعطى حالة الغرور فيهم، وتشير إلى روح التّكبر في نفوسهم، وهذا الحكم يشمل الصفات، والأخلاقية الصّالحة والطّالحة على السّواء. ولأجل ذلك، يعتبر بعض المحقّقين مثل هذه الأعمال، أعمالاً أخلاقية، يعنى أعمال تنشأ من الأخلاق الصّالحة والطّالحة بصوره بحتة، وفي مقابل الأعمال التي تصدر أحياناً من الإنسان، تحت تأثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإرشاد والنصح مثلاً، من دون أن يكون لها جذر أخلاقي، وطبعاً مثل هذه الأعمال تعتبر أقلّ بالنسبة للأعمال الأخلاقية. وهنا يمكن أن نستنتج، أنّه ولأجل إصلاح المجتمع وإصلاح أعمال الناس، يتوجب علينا إصلاح جذور الأعمال الأخلاقية، لأنّ أغلب الأعمال تعتمد على الجذور الأخلاقية، وعلى هذا كان أكثر سعي الأنبياء عليهم السلام والمصلحين الاجتماعيين الإسلاميين، يصبّ في هذا السبيل، لأنه وبالتربية الصّحيحة، تنمو وتتلور الفضائل الأخلاقية في كلّ فرد من أفراد المجتمع، وتصل الرذائل إلى أدنى الحدود، وبذلك يمكن إصلاح الأعمال التي تترشح من الصّفات الأخلاقية، والإشارة في بعض الآيات القرآنية إلى «التزكية»، تصبّ في هذا المصّب أيضاً، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، أنّ التكرار لفعل ما يمكن أن يكون له الأثر في تكوين الأخلاق، لأنّ كلّ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٨ فعل يفعله الإنسان سيؤثر في روحه ونفسه، وسيعمّق ذلك الأثر حتى يصبح عادةً، وإذا تكرّر بصورة أكبر فسيتعدّى مرحلة العادة، ويتبدّل إلى «ملكه» و «حاله»، تدخل في الخصوصيات الأخلاقية للإنسان. وعلى ذلك، فإنّ العمل والأخلاق لهما تأثير متقابل، ويمكن أن يكون أحدهما سبباً للآخر. ولهذه المسألة شواهد

كثيرة في القرآن الكريم منها: ١- في الآية (١٤) من سورة «المطففين»، وبعد الإشارة إلى الصفات القبيحة لطائفة من أهل النار، و المعذنين، قال الله تعالى «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». وهذه الآية دليل على أن الأعمال القبيحة تجثم على القلب، كما يجثم الصدا على الحديد، وتزيل الثور و الصفاء الفطري الداخلي للإنسان و تطفئه، وتصوغه بقلبها. ٢- في الآية (٨١) من سورة البقرة قال الله تعالى «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». والقصد من الإحاطة للخطيئة، هو تراكم إفرازات الخطيئة في نفس الإنسان حتى تصل النفس إلى مرحلة الختم، و الطبع، و تتطبع بالذنوب، فلا يُفِيد فيها التصح و الموعظة و لا الإرشاد، و كأنه قد تغيرت ماهيته ذلك الإنسان، و صفاته الإخلاقية في واقعه النفسي، بل و بالإصرار على الذنوب، فإن المعتقدات الدينيّة للفرد ستطالها يد التغيير أيضاً. كما وأشارت الآية (٧) من سورة البقرة الواردة في بعض الكفار المعاندين، إلى هذا المعنى أيضاً، حيث تقول: «حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». ومن الواضح أن البارئ تعالى شأنه: لا يتعامل مع أحد من الناس من موقع العداوة و الخصومة، ولكن الواقع أن آثار أعمال الناس هي التي تضع الحُجب و الحواجز على الحواس، فلا تُدرك الحقيقة، (و نسبة هذه الامور للبارئ تعالى، إنما هو لأجل أن الله تعالى هو مُسبب الأسباب و كل شيء إنما يصدر عن ذاته المقدسة). و في الآية (١٠) من سورة «الزوم» يتعدى ذلك و يقول الله تعالى إن الأفعال السيئة تغير الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٥٩ عقيدة الإنسان و تؤدي به إلى الحضيض: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». و منها يتبين أن الأعمال و الصِّفات القبيحة و إرتكاب الذنوب، إذا ما أصرَّ و إستمرَّ عليها الإنسان، ستمتد إلى أعماق نفس الإنسان، و لا تؤثر على أخلاقه فحسب، بل تقلب عقائده رأساً على عقب أيضاً. و نقرأ في آية أخرى من القرآن الكريم: أن الإصرار على الذنب و تكراره و سوء العمل، يُميت عند الإنسان حسَّ التمييز و التشخيص، بحيث يرى الحسن قبيحاً و القبيح حسناً، فنقرأ في الآية (١٠٣ و ١٠٤) من سورة الكهف حيث تقول: «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا». ٣- و في آية أخرى يصرح القرآن الكريم بأن الإصرار على الكذب و خُلف الوعد مع الله سبحانه، سيورث الإنسان صفة النفاق في قلبه، فيقول الله تعالى: «فَاعْقَبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْفَوْا لِلَّهِ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». و يعلم القارى الكريم أن «يكذبون»: هو فعل مضارع و يدل على الإستمرار، حيث يبين تأثير هذا العمل السيء و هو الكذب في ظهور روح النفاق؛ لأننا نعلم أن الكذب و خاصة في لباس الإنسان الصادق، ليس هو إلا إختلاف الظاهر و الباطن، و النفاق الباطنى هو تبديل هذه الحالة إلى ملكة.

### التأثير المتقابل للأخلاق والعمل في الأحاديث الإسلامية:

الحقيقة أن الأعمال الصالحة و الطالحة تؤثر في روح الإنسان و تبلورها، و تحكّم الخلق السيء، و الحسن فيها، و لهذا الأمر صدق واسعاً في الأحاديث الإسلامية، و نذكر منها هذه الأحاديث الثلاثة الآتية: ١- نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: كان أبى يقول: «ما من شيء أفسد للقلب من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٠ خطيئة، إن القلب ليوافق الخبيثة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله» ١. طبعاً هذا الحديث، أكثر ما ينظر إلى تحول و تغيير الأفكار و تأثرها بالذنوب، ولكن و بصورة كلية، فهو يبين تأثير الذنوب في تغيير روح الإنسان. ٢- في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكته سوداء، فإن تاب إنمحت وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه، فلا يفلاح بعدها أبداً» ٢. و لأجل ذلك تبته الأحاديث الإسلامية على خطورة الإصرار على الذنب، و أن الإصرار على الذنوب الصغيرة يتحول إلى الكبائر ٣. وجاء هذا المعنى في الحديث المعروف، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، في معرض جوابه للمأمون، و فيه تبيان كلى حول مسائل الحلال و الحرام، و الفرائض و السنن، فمن المسائل التي أكد عليها الإمام عليه السلام، هو أنه جعل الأصرار على الذنب، من الذنوب الكبيرة ٤. ٣- جاء في كتاب (الخصال)،

عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: «أربع خصال يُمِثَّنُ الْقَلْبُ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ...». «٥» وجاء مُشابه لهذا المعنى في تفسير «الدُّر المنثور» «٦». هذه التعبيرات توضِّح جيِّداً أنَّ تكرار عملٍ ما، له تأثير في قلب وروح الإنسان بصورةٍ قطعيةً، ويصبح مصدراً لتكوين الصِّفات: الرَّذيلة والقبیحة، ولأجل ذلك جاءت الأوامر للمؤمن إذا ما أذنب وأخطأ، بالتَّوبة السَّريعة، ليمحى آثارها من القلب، ولئلاَّ تصبح عنده على شكل «حالةٍ» و«ملكه» وصفةٍ باطنيةٍ، فجاء في الأحاديث الشَّريفة، أنَّه يتوجب على الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦١ الإنسان أن يجلو الصِّدأ من على قلبه، كما نقرأ في الحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَرَيْنُ كَمَا يَرِينُ السَّيْفُ، وَجَلَاؤُهَا الْحَدِيثُ» «١».

### ٣- الأخلاق الفردية و الاجتماعية

المسألة الأخرى التي يتوجب ذكرها هنا هي: هل أن المسائل الأخلاقية تتشكل من خلال علاقة الناس بالآخرين، بحيث أن الإنسان إذا ما عاش وحيداً فريداً لا يكون لديه مفهوم حول الأخلاق، أو أن بعض المفاهيم الأخلاقية لها موارد في سلوك الإنسان حتى لو عاش لوحده، بالرغم من أن أعظم المسائل الأخلاقية، تتجلى أكثر في عملية علاقة الأشخاص مع بعضهم البعض، ولهذا يمكن تقسيم الأخلاق إلى قسمين: فردية و اجتماعية؟. للجواب عن هذا السؤال، يجب أن نلفت أنظاركم، إلى البحث الذي جاء في كتاب «زندگی در پرتو أخلاق»، «الحياة على ضوء الاخلاق» و سنورده بالكامل هنا: (يعتقد البعض أن كل الاسس الأخلاقية، تعود إلى العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، فلو إنعدم المجتمع وعاش الإنسان وحيداً فريداً، أو أن كل إنسان عاش مستقلاً عن الآخر، لا يعرف عنه شيء، فلن يكون هناك مفهوم للأخلاق أصلاً!، لأنَّ الحسد و التواضع والكبر، و حُسن الظن، والعدالة والجور والعفة والكرم، كلُّها من المسائل التي لا- يتجلى مفهومها إلما بوجود المجتمع خاصيةً، وتعامل الناس مع بعضهم البعض، وبناءً على هذا، فإنَّ الإنسان بدون المجتمع، يساوى الإنسان من دون أخلاق). (ولكن بعقيدتنا، وعلى الرغم من الاعتراف، بأنَّ كثيراً من الفضائل والرذائل الأخلاقية، لها علاقة مباشرة بالحياة الاجتماعية، ولكنها ليست بصورةٍ مطلقةً، فكثيرٌ من الأخلاق لها جوانب فردية، و تصدق على الإنسان الوحيد بصورةٍ خاصةً، فمثلاً الصَّبر والجزع، والشَّجاعة والخوف، والمشاجرة والكسل، وأمثال ذلك من الحالات والصِّفات النفسية التي تفرزها حالات الصِّراع مع الطَّبيعة، وكذلك الغفلة والشَّعور تجاه الخالق الكريم، و الشُّكر والكفران الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٢ لنعمه التي لا- تُحصى وما شابه تلك الامور، التي بحثها علماء الأخلاق في كتبهم، وعدوها من الفضائل أو الرذائل، فكلُّ تلك الامور يمكن أن تدخل في الإطار الفردي للسلوك، و تصدق على الإنسان المعزول عن المجتمع ومن هنا يتبين أن الأخلاق على قسمين: «أخلاق فردية» و «أخلاق اجتماعية». و من المعلوم أن الأخلاق الاجتماعية، التي لها الثقل الأكبر في علم الأخلاق، وصياغة شخصية الإنسان: تدور حول هذا المحور، وإن كنا لا ننسى أيضاً أن الأخلاق الفردية لها وزنها، و وضعها الخاص بها) «١». ولا شك أن هذا التقسيم، لا يقلل من قيمة المسائل الأخلاقية، ولكنه يُقسَّم المباحث الأخلاقية إلى درجاتٍ من حيث الأهمية، ولا داعي لإتلاف الوقت في معرفته وتمييز الأخلاق، هل أنها فردية أم اجتماعية، وما أشرنا إليه آنفاً، يكفي للإحاطة بمعرفةٍ إجماليةٍ حول هذا الموضوع. ولا يمكن انكار أن الأخلاق الفردية، لها تأثيرها غير المباشر في القضايا الاجتماعية أيضاً.

### دعائم الأخلاق

#### إشارة

إذا شَبَّهنا الأخلاق بشجرةٍ باسقةٍ مثمرةٍ، معرضةٍ للآفات والأخطار، فدعامتها الأخلاقية يمكن أن تُشَبَّهها بالفلاح، أو الماء الذي يجري من تحتها، ولولا- الماء والفلاح لبيست تلك الشجرة، أو لأصببت بأنواع الآفات والأمراض، حتى تموت أو يغدو ثمرها قليلاً. وقد

إختلف علماء الأخلاق والفلاسفة، في صياغة الدّعائم الأساسية للأخلاق بشكل كبير، فكل مجموعة تذكر آرائها ونظراتها حول المسألة، تبعاً لرأيها ونظرتها في مسألة معرفة العالم. ونشير هنا إلى عدّة نماذج مهمّة:

### ١- دعامة الإنتفاع

يوصى البعض بالأخلاق، لأنها تعود على الإنسان بالنفع المادى المباشر، فمثلاً تُراعى إحدى المؤسّسات الإقتصادية، أصل الأمانة والصدق بشكلٍ دقيقٍ جدّاً، وتعطى المعلومات الواقعيّة لزبائنها بدون أى تلاعب، فمثل هذه المؤسّسة ستكون بعد سنوات، مورد ثقة الناس و محلّ اعتمادهم، مما سيعود عليها بالنفع الكبير الطائل. وبناءً على ذلك، قد يتحرك الأشخاص في سلوكهم الأخلاقى، كل حسب موقعه. فمثلاً عندما يكون موظّفاً في المصرف أو البنك، فهو يُراعى منتهى الأمانة والدّقة، لكي يعود على الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٤ البنك بالنفع الكبير، ولكن يمكن أن يتحول إلى خائن، بمجرد أن يضع قدمه خارج المصرف، لأنّ فائدته ستكون في الخيانة حينها. وقد نرى تاجراً، يحرص أن يكون في منتهى الأدب و اللطف و اللياقة مع زبائنه، لأجل كسب المزيد منهم، ولكنّه مع عائلته و أولاده، يكون في منتهى الفضاضة، لا لشيء إلّا لأنّ الأخلاق الحسنه محلّها في محلّ عمله، وستعود عليه بالنفع المادى الأكثر. فمثل هذه الأخلاق لا دعامة لها، إلّا النّفع و الإستغلال، وأهمّ عيب في المسألة، هو أنّه لا يعير للأخلاق أهميّة ولا أصالة، لأنّه يستمر في إستغلاله، سواء كان عن طريق الأخلاق، أم بعقيدته التي هي ضدّ الأخلاق. وذهب البعض الآخر إلى صياغة حكمه معدّله لهذا النمط من الأخلاق، و نادوا بالأخلاق لا من أجل المصالح الشخصيّة، ولكن لتعود على مصلحة البشر جميعاً، لإعتقادهم بأنّ الأسس الأخلاقيّة إذا تزلزلت في المجتمع، فستتحول الحياة إلى جهنّم تحرق كلّ شيء، وستتحول أدوات الإلفه والتعاون في المجتمع، إلى حطب يُبقى النار مشتعلّة، في حركة الواقع الإجتماعى المضطرب. هذا النوع من التفكير يعتبر أرقى من سابقه، ولكنّ الأخلاق هنا مجرد وسيلة لجلب النّفع و الرّاحة و الرّفاه، ولا أساس للفضائل الأخلاقيّة فيها. فالماديّون لا يمكنهم أن يتجنبوا مثل هذا النوع من التفكير، لأنّهم لا يعتقدون بالوحي ولا نبوة الأنبياء، وينزلون بالأخلاق من السّماء إلى الأرض، و يجعلونها مجرد وسيلة للإنتفاع والرّاحة والإستغلال لا أكثر. ولا شكّ ولا ريب، في أنّ الأخلاق لها مثل هذه المعطيات الماديّة الإيجابية، في وعى الناس كما أشرنا سابقاً، و لكن السّؤال هو: هل أنّ أسس ودعائم الأخلاق، تنحصر في هذه المرتكزات الماديّة، أو أنّ مثل هذه المرتكزات والمعطيات، يجب أن تُدرس على أساس أنّها من المسائل الجانيّة، و المتفرّعة على علم الأخلاق؟. و على أيّة حال، فإنّ الإيمان بالأخلاق التي يكون أساسها النّفع و الإستغلال، يخدش الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٥ أصالة الأخلاق، و يقلل من قيمتها و قدسيّتها، و من ناحية اخرى فإنّ الإنسان في حالة تقاطع مصلحته مع الأخلاق، فإنّه سيضرب بالأخلاق عرض الحائط، و يتبع مصلحته الشخصيّة، التي اعتبرها دعامة و أساسه، في حركة السّلوكة الإجتماعى والأخلاقي.

### ٢- الدعامة العقليّة

الفلاسفة الذين يعتقدون بحكومة العقل و لزوم اتّباعه في كلّ شيء، يعتبرون دعامة الأخلاق هي إدراك العقل: للقيح والحسن من الأفعال والصفات الأخلاقيّة، فمثلاً يقولون أنّ العقل يُدرك جيّداً أنّ الشّجاعة فضيلة و الجبن رذيلة، و الأمانة و الصدق فضيلة و كمال، و الخيانة و الكذب نقصان، و نفس إدراك العقل لها، هو الباعث و المحرّك لإتباع الفضائل و ترك الرذائل. وقال البعض الآخر، إنّ إدراك الوجدان هو الأساس، فيقولون: أنّ الوجدان وهو العقل العملى، أهمّ شيء في الإنسان، لأنّ العقل النظريّ يمكن أن يُخطئ، ولكن الوجدان و الضّمير ليس كذلك، و بإمكانه أن يقود البشريّة إلى ساحل الأمن والسّعادة. و عليه، و بما أنّ الوجدان يقول: إنّ الأمانة و الصّدق و الإيثار، و السّخاء، و الشّجاعة هي أمور حسنة و جيّدة، فهو بمفرده يكون دافعاً و محرّكاً، نحو نيل تلك الأهداف والفضائل. وكذلك بالنّسبة للبخل، و الأنانيّة و أمثالها، فإنّ الوجدان يقول أنّها قبيحة، و ذلك يكفي في الإرتداد عنها و تركها. وهنا

تتحد الدعامة العقلية والوجدانية، فهما تعبيران مختلفان لحقيقة واحدة. ولا شك أن وجود هذا الأساس والدعامة للأخلاق، لا يخلو من حقيقة، وهو في حد ذاته دافع حسن للتسعى إلى تربية النفوس، و ترشيد الفضائل الأخلاقية، في واقع الإنسان والمجتمع. ولكن و بالنظر إلى ما ذكرناه في بحث الوجدان «١»، فإن الوجدان يمكن أن يُخدع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الوجدان و بالتكرار لفعل القبائح و الرذائل، فإنه سيأنس بها الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٦ ويتعود عليها، بل قد يفقد الحساسةً بالكامل تجاه هذه الامور، أو يتحرك في إدراكه لها، من موقع التأييد للرذائل على حساب إهتزاز الفضائل. و من جهةٍ ثالثة، إن الوجدان أو العقل العملي، رغم أهميته و قداسته، فإنه كالعقل النظري قابل للخطأ، ولا يمكن الإعتماد عليه وحده، بل يحتاج إلى أسس و دعامات أقوى، يُطمأن إليها في تشخيص الحُسن و القُبْح، بحيث لا- يمكن خُداعها و لا تخطئها، و لا تتأثر بالتكرار، و لا تتغير أو تتحول. و خلاصة الأمر: أن الوجدان الأخلاقي، أو العقل الفطري و العقل العملي، أو أيّ تعبيرٍ آخر يُعبّر عنه، هو أساس و دعامةٌ جيّدة، و لا بأس بها لنيل الفضائل الأخلاقية، ولكن و كما أشرنا آنفاً، تعوزه بعض الأمور، و لا يُكفني به وحده.

### ٣- دعامة الشخصية

يتحلّى البعض بالقيم الأخلاقية، لأنها دليل و علامةٌ للشخصية أو الرجولة و المروءة، و كلّ إنسانٍ عند ما يرى أن شخصيته بين الناس متوقفة على الصدق و الأمانة، فسيتحرك على مستوى التحلى بها و مراعاتها، و كذلك عندما يرى أن الناس يحترمون الشجاع و الوفي و الرّحيم، فسيكون طالب الشخصية و الإحترام، أول المطبّقين لها على نفسه، حتى يمدحُ الناس. و العكس صحيح، فإنه عندما يرى أن الناس لا- يحترمون الجبان، و لا- البخيل، و لا الخائن، و لا ضعيف الإرادة، و لا قيمة لهم في نظر المجتمع، فسوف يسعى لهجر هذه الرذائل، و تطهير نفسه منها. و عليه يتحصّل لدينا: دعامةٌ و أساسٌ آخر للمسائل الأخلاقية. ولكن و بالتدقيق و التحقيق، نرى أن هذا الأساس و الدعامة، يعود إلى مسألة الوجدان، غاية الأمر، أن المطروح هنا هو وجدان المجتمع، لا الوجدان الفردي، يعني أن ما يوافق الوجدان العام للمجتمع، فهو فضيلةٌ و علامةٌ للشخصية، و من الأخلاق الفاضلة و عكسه الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٧ يدخل في الرذائل، و ما يُقرّه الرأي العام للمجتمع، يكون هو الدافع للفضائل و الزادع عن الرذائل. و نحن لا ننكر أن الوجدان العمومي للمجتمع، يمكن أن يشخص القيم من اللّاقيم، و يحثّ الأفراد للإهتمام بالمسائل الأخلاقية في خطّ التربية و التّكامل. ولكن ما ذكر من نواقص و إشكالات، حول الوجدان الفردي، هو نفسه يصدق على وجدان المجتمع. فيمكن للمجتمع أن يُخطأ، و إذا ما وقع هذا الأساس للأخلاق، تحت طائلة الدعاية و الإعلام القوي من قبل الحكومات، فبالإمكان أن ينقلب رأساً على عقب، و تكون الفضائل رذائل في منظومة القيم و المثل الأخلاقية، كما حدّثنا التاريخ عن نماذج كثيرة من هذا القبيل، ففي عصر الجاهلية مثلاً كان يُعتبر وادّ البنات من المكرمات، عند شريحة كبيرة من المجتمع آنذاك، و يُعتبر فضيلةً أخلاقيةً، (وذلك للمفهوم السائد في ذلك الوقت وقت، من أنه الطريق للنّجاة من العار و الشّنار، و الحيلولة دون وقوع النّساء في الأسر في الحروب) «١». و نرى في عصرنا الحاضر، و في المجتمعات البشرية المتقدّمة و المتطوّرة، أن المتمولين و لأجل الوصول لأهدافهم غير المشروعة، و بالدعاية يخدعون الوجدان العمومي للمجتمع، و يقبلون القيم الأخلاقية الإيجابية، إلى مُضاداتها في دائرة السلوك الأخلاقي. بالإضافة إلى أن الوجدان و الضّمير في الإنسان، هو من بوارق الرّحمة الإلهية، و نموذج لمحكمة العدل الإلهي العظيمة، عند الإنسان في هذا العالم، ولكن ومع ذلك، فالضّمير ليس بمعصوم عن الخطأ، و يمكن أن ينحرف، و إذا لم يتخذ الإنسان تدابير لازمة لإصلاحه و تزكيته، فلعله يبقى على خطئه لسنين طويلة.

### ٤- الدعامة الإلهية



من المعلوم أن ما ذكر من الدعامات والأسس، لا يخلو من واقعية على مستوى دفع الإنسان نحو الفضائل الأخلاقية، ولكن وكما أشرنا إليه سابقاً أنها لا تخلو ولا تسلم من الخطأ والانحراف، مثل دعامة الإنتفاع والإستغلال التي تأخذ طريقها في أي وقت وزمان، فتارةً تسير مع الأخلاق واخرى تُعارضها. والبعض الآخر من الدعامات له قدرةٌ محدودةٌ في تحريك الإنسان، و مشوبةٌ بالتقص والقصور ولربما أخطأت واشتبهت. و الدافع الوحيد الخالي عن الخطأ والإشتباه، والعارى من كل نقص في دائرة المسائل الأخلاقية، هو الدافع الإلهي الذي يكون مصدره الله تعالى و الوحي، في إطار التعاليم الدينيّة. وهنا لا تعتبر الفضائل الأخلاقية وسيلةً للإنتفاع والإستغلال، و لا هي وسيلةٌ للرفاه الإجتماعي، (وإن كانت الأخلاق قطعاً، وسيلةً للرفاه والعمران والهدوء، وتؤمن المنافع الماديةً أيضاً). فالأصل هنا للدوافع الروحية و المعنوية، أو بعبارةٍ اخرى أن الذات الإلهية المتزّهة، و التي هي الكمال المطلق، و مُطلق الكمال، وجميع صفاته الجمالية و الجلالية، تكون هي المحور الأصلي للمسألة، و كل إنسان يسعى في المضي قدماً، للوصول إلى الكمال المطلق، و يتحرك في حياته المعنوية، من موقع تفعيل نور أسماء الصّيفات الإلهية في نفسه، ليشبهه ويتقرب إليه أكثر و أكثر يوماً، بعد يوم (وإن كانت ذاته المقدسة منزّهة عن الشبيه الحقيقي)، ويصل إلى الكمال المطلق، فلا حدّ للكمال هناك، و بذلك يعيش بكل وجوده، حالة الإستغراق من الحب لله تعالى، و الكمال المطلق، و تثير وجوده و باطنه، أنوار و صفات الذات المقدسة، بحيث يطلب الكمال والرقي، في الدرجات العليا في كل لحظة، فلا يتقيد بالمنافع المادية، ولا يطلب الأخلاق للشخصية والإحترام، ولا يكون هدفه الضمير وحده، بل لديه هدفٌ أسمى وأعلى من كل تلك الامور. فلا يأخذ معلوماته من العقل والوجدان فقط، بل يستعين بالوحي أيضاً، ليميز في ظلّه القيم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٦٩ الحقيقية من الكاذبة، و ليمشى بخطى ثابتة مع إيمان و يقين كاملين في هذا الطريق، والقرآن الكريم، هو خير دليل في هذا المضمار، و يُصرح القرآن الكريم، بأن الأعمال الأخلاقية هي وليدة الإيمان بالله واليوم الآخر، ودائماً ما يردف: (العمل الصالح) بالإيمان، وعرف العمل الصالح، بالثمره لشجرة الإيمان. و مثل الإيمان، بالشجرة الطيبة، و جذورها ثابتة في روح و أعماق الإنسان، و فروعها و أوراقها وارفه، تؤتي بشمارها كل حين، و أشار إشارة جميلة فقال الله تعالى «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» (١). و من البديهي، أن الشجرة التي تمد جذورها في أعماق القلوب، و تتفرع أغصانها من جميع أعضاء الإنسان، و ترتفع في سماء حياته، هي شجرة وارفه لا يؤثر فيها جفاف الخريف، و لا تقلعها العواصف أبداً. (٢) وجاء أيضاً في سورة «والعصر»، نفس هذا المعنى ولكن بتعبير آخر، فالقاعدة ولكن الكلية هو الخسران و التضييع للإنسان، والمستثنون من ذلك هم المؤمنون، في أول الأمر، ثم الذين يعملون الصالحات ويتواصون بالحق و الصبر: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر». وجاء نفس هذا المعنى و بتعبير جميل آخر، في الآية (٢١) من سورة النور، فيقول الله الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٠ «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء...» و عليه، فإن سمو الأخلاق و العمل و التزكية الكاملة لا تتم، إلا بالإيمان بالله ورحمته الواسعة. وجاء نفس هذا المعنى في سورة (الأعلى) فيقول الله تعالى «فقد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى» (١). فطبقاً لهذه الآيات، فإن التزكية الأخلاقية و العملية، لها علاقة وثيقة باسم الله تعالى و الصلوة والدعاء، هذا إذا ما إستمدت أسسها منه سبحانه و تعالى وحينها ستكون عميقة و دائمة، وإذا ما إعتمدت على أسس اخرى فستكون واهية و عديمة المحتوى في الآية (٩٣) من سورة المائدة، جاء وصف جميل، للعلاقة الوثيقة بين التقوى والأعمال الأخلاقية بالإيمان: فقال الله تعالى «ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح في ما طعموا إذا ما اتقوا و آمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا و آمنوا ثم اتقوا و أحسنوا والله يحب المحسنين». في هذه الآية الشريفة، تقدمت التقوى مرة على الإيمان والعمل الصالح، و تأخرت اخرى و تقدمت مرة على الإحسان، لأن التقوى الأخلاقية و العملية تتقدم على الإيمان في مرحلة ما، و هي التحضير لقبول الحق والإحساس بالمسؤولية للبحث عنه. ثم إن الإنسان عندما يعرف الحق و يؤمن به، فستكون في نفسه مرحلة أعلى و أقوى من التقوى و تكون مصدراً لأنواع الخيرات. وبهذا الترتيب، تتبين العلاقة الوثيقة بين الإيمان و التقوى و خلاصة القول: إن أقوى وأفضل الدعائم للأخلاق، هو الإيمان بالله، والإحساس

بالمسؤولية تجاهه، ومثل هذا الإيمان هو أبعد مدى وأرحب أفقاً من المسائل المادية، ولا يبدل ولا يعرض بشيء، فهو يرافق الإنسان في كل مكان ولا ينفصل عنه أبداً، ولا يوجد شيء أفضل منه. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧١ ولذلك فإننا نرى أن أقوى مظاهر الأخلاق، كالأيثار والتضحية تتجسد في حياة أولياء الله تعالى. ونرى أيضاً، في المجتمعات المادية التي توزن كل شيء بمعيار النفع، أن الأخلاق فيها ضعيفة جداً، وفي الأغلب أن المعترف به رسمياً عند الجميع، هو النفع الشخصي المادي، فالصدق والأمانة والوفاء وما شابه ذلك، هي أخلاق حسنة و سلوكيات جيدة، ما دامت تعود بالنفع على الفرد، وعند تعرض النفع المادي للخطر، فستفقد لونها وقيمتها!! فالأبوان العجوزان، و لعدم نفعهما، فمصيرهما أن يعيشا في زاوية النسيان، ويتم نقلهما إلى مراكز و دور العجزة، لينتظرا أجلهما المحتوم. و بمجرد أن يبلغ الأطفال مرحلة الرشد والمراهقة، فإن مصيرهم الانفصال عن أسرهم، لا لكي يستقلوا إقتصادياً، بل لكي ينسوا إلى الأبد. و كذلك الأزواج، فهم شركاء في الحياة مادام في الحياة الزوجية نفع ولذة، و إلا فلا حاجة إلى العلاقة الزوجية و لا ضرورة للإلتزام بتبعاتها، ولذلك فإننا نرى أن الطلاق هناك كأيسر ما يكون، و شايح إلى درجة خطيرة، ففي المذاهب المادية التي لا تقوم على أساس إلهي في دائرة الأخلاق، يكون الإستشهاد لديهم لنيل المقاصد السامية، هو الإنتحار بعينه، والكرم الذي يؤدي إلى تبذير الأموال، ليس هو إلا نوع من الجنون، و العفة و الإستقامة على طريق الفضيلة، ليست هي إلا ضعف في النفس، و الزهد بالعالم المادي، ليس هو إلا ساذجة و جهلاً بالحياة. وما نراه اليوم من التنافس المحموم على الماديات، و مراكز القدرة في هذه المجتمعات، و رؤساء تلك الدول، هو أفضل و خير نموذج يعبر عما لديهم من معايير للأخلاق المادية. و الشاهد على ذلك، ما يصدر من الإنتهازية و التعامل المزدوج للقوى الإستعمارية تجاه (حقوق الإنسان)، فعندما تكون حقوق الإنسان، سبباً لتعرض منافعهم للخطر، فسوف يتجاهلونها ويجعلونها وراء ظهورهم، و يذبحون القيم الإنسانية على مذبح المصالح المادية. فأخطر المجرمين و المعتدين على حقوق الإنسان، يصبحون مسالمين و مصلحين، و بالعكس الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٢ فإن الشخص الذي يريد أن يدافع عن حقه في مقابلهم، يكون هو الشيطان بعينه، و يجب أن يُقمع بأي وسيلة كانت. فنراهم يدافعون عن الديمقراطية و حكومة الشعب، دافعاً مُستميماً، و في نفس الوقت نراهم و في زاوية أخرى من العالم، يدافعون عن أسوأ و أظلم المستبدّين الديكتاتوريين لا لشيء، إلا لأن الأخلاق عندهم ليست هي: إلا النفع في بُعد المادي و الشخصي. و الإنسان المادي لا يمتلك صورة واضحة عن الأخلاق في دائرة التعامل مع الآخرين، بل مفاهيم ضبابية و صورة قاتمة. و الملاحظة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها، أن الماديين لا يرون في سلوكهم الأخلاقي، غير زمانهم و مكانهم الذي هم فيه الآن، و لا أهمية عندهم لما فعل الماضون، و لا ما سيفعله اللماحقون، إلا أن يكون له علاقة بحاضرهم، و منطقتهم يتمثل به قول الشاعر، حيث يقول: إن أنا متُّ فلا طلعت شمس الصّحى على أحدٍ ولكن الموحدين المعتقدين بالحياة الآخرة، و محكمه العدل الإلهي في يوم القيامة، يعتقدون أن معطيات الأخلاق و بركات المعنوية، جارية حتى بعد الممات، ولو إمتدت لآلاف السنين، و سيثاب الإنسان عليها في الأخرى و لذلك لا يتعاملون مع الواقع الدنيوي، من موقع الزمان الحاضر فقط، بل من موقع التفكير في الغد البعيد و الحياة الخالدة. و قد جاء في الحديث المعروف عن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله، أنه قال: «إذا مات المؤمن إنقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية - أي الوقف - أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» (١). فالإيمان بالآخرة دافع و حافظ آخر، للحث على الأعمال، الأخلاقية المهمة، مثل الصدقة الجارية و الآثار العلمية المفيدة و تربية الأولاد الصالحين، و الحال أن لا مفهوم لهذه الأمور لدى الماديين. و قد قسم المرحوم الشهيد (مطهرى)، في كتاب «فلسفة الأخلاق»، الأناثية إلى ثلاثة أقسام: (للنفس، و للعائلة، و للقومية)، وعدّها كلّها من الأناثية، التي تقف في الطرف المقابل الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٣ للأخلاق، و نقل كلاماً عن «كوستاف لوبون»، في كتابه المعروف (حضارة الإسلام و العرب)، و رأينا أن نقله هنا إكمالاً للفائدة. فقد ذكر هذا الكاتب الغربي، في معرض حديثه عن الشعوب الشرقية، و أنهم لماذا وقفوا من الحضارة الغربية موقفاً سلبياً؟ فعلاً ذلك بالقول: (أولاً: لعدم القابلية لديهم لإستقبال هذه الثقافة، و ثانياً: إن حياتهم و معيشتهم تختلف عن حياتنا و معيشتنا، فحياتهم بسيطة و ساذجة، بخلاف ما نحن عليه من التعقيد الحضارى في واقع الحياة، ثم يردف قائلاً: و لا يخفى مدى الظلم الذي إرتكبه الشعوب الغربية في حقهم.

(وهو عامل مهم آخر). وبعدها أشار إلى الظلم الذي إرتكبه الغربيون، في أمريكا والهند والصين، وخصوصاً كان يؤكد على قصيدة الحرب المعروفة، ب: (حرب الترياك)، التي شنتها الإنجليز على شعب الصين، لأجل السيطرة عليهم، فنشروا إستعمال الترياك بين الشعب، لأجل التسلط عليهم، ولإيميتوا فيهم روح المقاومة، و يكسروا شوكتهم، ولكن الصيبيين توجهوا للخدعة، و تحركوا للتصدي للإنجليز، الذين صوبوا مدافعهم، وانتصروا عليهم بقوة السلاح الفتياك، و إنتشر بين الأهالي إستعمال الترياك، بحيث جاءت الإحصائيات: (في ذلك الزمان)، أنه في كل سنة يموت حوالي ال (٦٠٠) ألف نفر، جزاء إستعمالهم للترياك. «١» نعم فعندما لا تقوم الأخلاق على قاعدة متماسكة، من الإيمان و القيم المعنوية في واقع الإنسان، فسوف تأخذ بالذبول و التراجع، لصالح المنافع الشخصية و التنازع الدنيوية العاجلة.

### ملاحظة:

ما ذكرناه آنفاً حول دعامة الأخلاق، من وجهة نظر الإيمان بالمبدأ والمعاد، لا يعني إنكار الدور الفعال، ل: «العقل الفطري» في تعميق المسائل الأخلاقية، فالضمير والوجدان في الحقيقة، هو رسول الله في أعماق البشر، و من جهة أخرى له الأثر الكبير في تحكيم المباني الأخلاقية، بشرط أن يصاحبها عنصر الإيمان، وتتخلص من حجب الأنانية و هوى النفس. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٤ وأكد القرآن الكريم، على هذه المسألة مرات عديدة، ففي الآية (١٠٠) من سورة «يونس»، يقول الله تعالى «وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ». و في الآية (٢٢) من سورة «الأنفال»، نقرأ: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ». و يقول الله سبحانه، عن الذين يستهزئون بالصلاة: في سورة (المائدة) الآية (٥٨): «اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ». وهكذا يتبين من خلال ما ذكر آنفاً، خلاصة رؤية القرآن المجيد للمسائل الأخلاقية.

## الأخلاق والحرية

### إشارة

هناك أبحاث كثيرة، في مسألة الأخلاق و الحرية، و هل أن الأخلاق تُحدّد و تُقيّد حرية الإنسان؟ وهل أن هذا التقيّد هو في صالح الإنسان أم لا؟ فباعتقادنا أن هذه الأبحاث، ناشئة من التفسير الخاطيء لمعنى الحرية، ومنها: ١- يُقال: أن الأخلاق تقوم بتحديد حرية الإنسان، وتعمل على كبت القابليات في المحتوى الداخلي للإنسان. ٢- وتارة يقولون: إن الأخلاق تقمع الغرائز، و تمنع من تحقّق السعادة الواقعية للفرد، ولو لم يكن في الغرائز فائدة، فلماذا خلقها الله تعالى. ٣- وتارة أخرى يقولون: إن البرامج الأخلاقية، تخالف فلسفة أصالة اللذة، ونحن نعلم أن الهدف من الخلق، هو «اللذة» التي يريد أن يصل إليها الإنسان. ٤- واخرى يقولون، و في النقطة المعاكسة لها: أساساً إن البشر ليس حراً في سلوكه الأخلاقي، بل هو مجبور وواقع تحت تأثير عوامل كثيرة، ولذلك فلا تصل النوبة للوصايا الأخلاقية. ٥- وأخيراً يقولون: إن الأخلاق مبنية على أساس إطاعة الله تعالى وهي لا تخلو من الخوف أو الطمع، وكل هذه الامور تتقاطع مع الأخلاق! الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٦ هذا التناقض في الأقوال، إن دلّ على شيء، فهو دليل على عدم التقييم الصحيح لمفهوم الحرية، هذا من جهة، و من جهة أخرى لم تُدرس الأخلاق الديتية، و خصوصاً الأخلاق الإسلامية، دراسة كافية و وافية. ولذلك يجب أن ندرس في بادى الأمر، مسألة الحرية. و لماذا يطلب الإنسان الحرية بكل وجوده؟، و لماذا يجب أن يكون الإنسان حراً؟، و ما هو دور الحرية في تربية الجسم و الروح؟، و بكلمة واحدة: ما هي «فلسفة الحرية»؟. إن الجواب على كل هذه الأسئلة يتلخص في ما يلي: يوجد في داخل الإنسان قابليات و ملكات و قوى خفية، لا تخرج من القوة إلى الفعل إلا بالحرية، والإنسان يسعى للتكامل، و يتحرك على مستوى ترشيد إستعداداته و قدراته، فهو يطلب الحرية لأجل ذلك. ولكن هل أن الحرية التي تساعد

على تفعيل قدرات الإنسان، هي حرية بلا قيد ولا شرط، أم أنها الحرية المتحركة في إطار من التنظير العقلي والديني؟. ويمكن تبيان هذا المطلب مع ذكر مثالين: إفترضوا أن هناك فلاحاً، قرّر أن يزرع أنواع الورد والفواكه في بستانه، و تحرك لتحقيق هذا الغرض، على مستوى حرث الأرض و غرس النباتات وسقيها في موعدها في كل مرّة، فمن البدهي أن تكون الشجرة مغروسة في الفضاء الحرّ، لتأخذ قسطها من الثور و الهواء و المطر، و ستمد جذورها في الأرض بحريّة، و إذا لم تتوفر لها تلك العوامل، فلن تثمر ولن يحصل الفلاح على ثمن أتعابه، وبناءً على ذلك، فإنّ حرّيّة الجذور و الأوراق، ضروريّة لكي تعطى الثمر، ولكن من الممكن أن ينحرف عُصن من الأغصان في تلك الشجرة، فيقطعه الفلاح بلا رحمة و لا رافه، لأنّ هذا العُصن يستهلك قوّة الشجرة، فلا أحد له الحقّ في الإعتراض على الفلاح، بسبب هذا العمل. و يمكن أن يُقوّم الفلاح الشجرة المائلة، أو الفرع المعوجّ، بشدّه إلى خشبيّة مستقيمة، فكذلك لا حقّ لأحد أن يعترض عليه في ذلك، و يقول له: لماذا قيدت الشجرة بهذا القيد، ولم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٧ تركها حرّة، لأنّه سيقول: إنّ الشجرة يجب أن تكون حرّة لكي تُثمر، لا أن معوّجه فتذهب بأعابى سُدى. وكذلك بالنسبة للإنسان، فلديه ملكات و قابليات مُتنوّعة و مهميّة، و إذا ما نُظرت تنظيراً صحيحاً، فستصعد به إلى أعلى درجات الرقي والكمال المادّي والمعنوي، فهو حرّ في الإستفادة من قابلياته في الطّريق السليم، لا أن يُهدر هذه القابليات في الطرق المنحرفة. فالذين فسروا الحرّيّة، بمعناها العام الشامل بلا قيد ولا شرط، ففي الحقيقة لم يفهموا معنى الحرّيّة، فالحرّيّة هي الإستفادة من الطّاقات في الطّريق الصّحيح، الذي يوصله للأهداف العُليا: (مادّيّة كانت أم معنويّة). و مثال آخر، حرّيّة المرور و العبور في الطّرق الواسعة و الضّيقة، فالغرض هو وصول الإنسان لمقصده، ولكن هذا لا يعنى أبداً، عدم الإلتزام بقوانين المرور، حيث يؤدي إلى الهرج و المرج، و الفوضى في حركة المرور. فلا يوجد إنسان عاقل يقول: إنّ التقيّد بقوانين المرور ورعايتها، مثل التوقف عند الصّوء الأحمر، أو عدم المرور في طريق ما، أو السّير على الجانب الأيمن، وما شابهها من الامور، التي توجب تحديد حرّيّة السائق، فالكّل سوف يستهزى بمثل هذا الكلام، حيث يقال له، إنّ الحرّيّة يجب أن تكون؛ ضمن المقررات و القوانين التي تراعى من أجل سلامة الإنسان و أموال و ممتلكات الآخرين و لا تسبب في الهرج و المرج، و قتل الأبرياء دون مُبرّر، أو تفضي إلى عدم الوصول بسلامة للمقصد والغاية. فكثير من هذه الحرّيات هي كاذبة، و نوع من التقيّد الحقيقي. فالشاب الذي يسىء الإستفادة من حرّيته، و يستعمل المخدّر المميت، فهو في الواقع يكون قد أمضى حُكم أسره و تسلّط الغير عليه، فالحرّيّة التي تُصاحب الإلتزام بالموازن الأخلاقيّة، هي التي تُعطى للإنسان الحرّيّة الحقيقيّة و تجعله متمكناً من نفسه و مسيطراً على أهوائه و نوازعه التّفسيّة، و كم هو جميل كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٧٨ «إنّ تقوى الله مفتاح سداد، و ذخيرة معاد، و عتق من كلّ ملكة، و نجاه من كلّ هلكة» (١). و ممّا ذكر آنفاً، تتجلى الحرّيّة الحقيقيّة من الكاذبة، و يتمّ منع إستغلال هذا المفهوم المقدّس في طريق الإنحراف و الزّيف، فلا يحقّ لأحد أن يتدّرع، بكبت الاخلاق لطاقت الإنسان، و يستشكّل على القيم الأخلاقيّة. و ممّا تقدّم أيضاً، تتضح الإجابة على من يدعى، قمع الاخلاق للغرائز، و أنّ الله تعالى خلق الغرائز في الإنسان، لتحقيق الغرض منها، وأشباعها بأدوات الحرّيّة و التحرر من قيود الاخلاق. فالغرائز في الإنسان، مثلها كمثل قطرات المطر، تنزل من السّماء بقدر لتحيى الأرض، و لولا فائدتها، لما أنزلها البارى تعالى ولكن هذا لا يعنى فسح المجال لتلك القطرات لتتجمّع، و تكوّن السيول لإهلاك الحرث و النّسل، بل يجب أن تُقام السدود في طريقتها، و فتح منافذ صغيرة منها لتمد الحياة البشريّة بالماء، و تكون الفائدة فيها أعمّ و أشمل، فيما لو سيطر عليها الإنسان، و أخضعها لضوابط معيّنة، وكذلك الحال بالنسبة لغرائز الإنسان، فإذا اطلق لها العنان، فستبيد كلّ شيء أمامها، و تدمر كلّ شيء في حركة الحياة الفرديّة و الإجتماعيّة للإنسان. و يُستنتج مما ذكر سابقاً، أنّ الاخلاق لا تقف سداً في طريق الإنسان، و لا تمنعه من ترشيد قابلياته و ملكاته، و لا تقمع الغرائز في واقعه، بل إنّ الاخلاق وسيلة للوصول للكمال المنشود، في حركة الإنسان والحياة. و من خلال التفسير الصّحيح للحرّيّة، الذي ذكرناه آنفاً تتضح الإجابة على أسئلة المخالفين للأخلاق.

لا شك أنه يوجد إرتباطٌ وعلاقةٌ وثيقةٌ، بين الإعتقاد بحريّة الإرادة للإنسان، و «المسائل الأخلاقية»، و كما أشرنا سابقاً، أنّ نفى حريّة الإنسان، هو نفىٌ وتعطيلٌ لجميع المفاهيم الأخلاقية. وبناءً على هذا نجد، أنّ الأديان الإلهية المتعمّدة بتريية وتهذيب النفوس والأخلاق، من أقوى المدافعين عن حريّة الإنسان! وبناءً على هذا أيضاً، نجد في القرآن الكريم آياتٌ عديدةٌ وكثيرةٌ تبلغ المئات، تثبت الإختيار و حريّة الإرادة للإنسان، و تنفى الجبر عنه، و قد ذُكرت في مباحث الجبر و الإختيار «١». فالأمر و النهي و التكاليف الأخرى و الدّعوة إلى الثّواب و العقاب، و الحساب و المحاكم و القوانين و العقوبات، كلها أمور تؤكّد على مسألة الإختيار، و حريّة الإرادة عند الإنسان. وإذا ما شاهدنا بعض الآيات تُوافق مذهب الجبر، فهي ناشئةٌ من عدم الإنباه و التّوجه الصحيح لتفسير تلك الآيات، فتلك الآيات ناظرةٌ إلى نفى التّفويض، و لا تثبت الجبر، و الشّاهد عليها هو القرآن الكريم نفسه، و قد أشرنا إليها سابقاً، و ليس هنا محلّ للبحث فيها. فالإعتقاد بالجبر، و سلب حريّة الإنسان، يمكن أن يكون عاملاً مهمّاً، لكلّ تحلّل أخلاقي، فالمجرم و لتبرير أفعاله المشينة يتذرّع بالجبر، وأنّه لا- يستطيع أن يُغيّر مصيره المحتوم عليه، و لذلك يتحرّك في خطّ الإنحراف، و ينحدر في مُنزلقات المعاصي أكثر، فالتاريخ يُحدثنا، عن مجرمين خاضوا غمار الجريمة، استناداً إلى مُبررات مذهب الجبر، و كانوا يعذرون أنفسهم، في إرتكابهم لتلك الأعمال و الذّنوب، و يقولون: (إذا كنّا صالحين أو طالحين، فليس لنا من الأمر شيء، فالْمُبدع الأزلّي هو الذي زرع فينا ذلك، و جعل مصيرنا أن نكون من أهل الشّقاء!، فلا المحسنين لهم الحق بالإفتخار بإحسانهم، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٠ و لا على المسيئين ملامة!). وبناءً على ذلك، فقد تحرّك الأنبياء عليهم السلام، قبل كلّ شيء لتوكيد الإرادة الإنسانيّة، و خصوصاً نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، و لأجل تحكيم الاسس الأخلاقية و تهذيب النفوس. و على كلّ حال، فبحث الجبر و الإختيار، و المسائل الأخرى مثل القضاء و القدر، و الهداية و الضّلالة، و السّعادة و الشّقاء، من وجهة نظر القرآن الكريم، هو بحثٌ مستقلٌ و سيع، سننتظر لتفسيره الموضوعي في المستقبل إن شاء الله، و الهدف هنا هو الإشارة لهذه المسألة، و تأثيرها في المسائل الأخلاقية، و ليس الدخول في تفاصيلها فعلاً. أمّا الذين يتحركون من موقع اللذّة، و يعتبرونها من أهمّ القيم، فهؤلاء لا- يعتبرون الأخلاق من المُثل السّيلة و السّيلوكيات الحسنّة، لأنّها لا- تُوافق اصولهم، و كما قال «آريس تيب»، الذي وُلد قبل الميلاد: الخير هو اللذّة، و لا شرّ سوى الألم، و الهدف النهائي للإنسان في الحياة: هو التّمتع بلذات الدنيا، و لا يجب التّفكير بنتائجها الصّالحة أو السيئة «١». هذا وقد غاب عن اولئك، أنّنا و على فرض حصرنا اللذات في الماديات فقط، و تركنا اللذات المعنويّة التي هي أعلى و أسمى لذّة للروح، فلا يمكن الوصول للذات الماديّة إلّا برعاية الأخلاق، و ذلك لأنّ التّمتع و الإلتذاد بالشّيء، من دون قيد أو شرط، يعقبه ألم شديد على مستوى النّفس و البدن، و لأجله يجب أن نصرف النّظر عن تلك اللذّة التي يعقبها ألم أقوى و أشد. وهذا الكلام وإن كان قد صدر، ممّن يُعتبرون في عداد الفلاسفة، و لكنّه في الحقيقة يشبه كلام المعتاد على الأفيون، الذي إذا نصحوه قالوا له: إنّ لذتك هذه ستسبب لك المتاعب و الآلام العظام، فيجب: إنّ اللذّة الحاضرة هي الأصل، و لا يعلم ماذا سيكون في الغد، ولكن الذي ينتظره في الغد، ليس سوى المرض العصبي، و الإرهاق و القلق، و ما إلى ذلك الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨١ من إفرازات الإدمان على تلك المواد المخدّرة، و سيعيش النّدم الشديد في تلك الحال، و يتأسف على ما إقترفته يده، و لكن أنّي للتأسف أن يحلّ المشكلة، و قد اغلق عليه سبيل العودة، إلى الحرّيّة و الكرامة كما هو الغالب. فالوصايا الأخلاقية، للحثّ على العفّة و الأمانة و الصّيدق و الرجولة، كلّها من هذا القبيل، و المجتمع الذي تنفّش فيه الخطيئة و الخيانة، كيف يعيش أفرادُه حالة اللذّة المعنويّة و السّعادة، في حركة الحياة و الواقع الإجتماعي؟ فالناس المذنبين ملأ- البخل و جودهم، و يطلبون كلّ شيءٍ لنفعهم و لذتهم السّخسيّة، لا- تكون لديهم حصانةٌ أمام المشكلات، و سيكونون عرضةً للتمزق و التشرذم، لأدنى أزمةٍ على مستوى الحياة الدنيويّة، لأنّ الفرد في ذلك المجتمع يكون وحيداً فريداً، و الصّمود أمام المشكلات، لمن يعيش الوحدة و الإنفراد، أمرٌ في غاية الصّعوبة، و لكن إذا تفشّت روح التّعاون و السّخاء و الرجولة في المجتمع، فسينطلق الناس من موقع مساعدة بعضهم البعض، و عندما يقع أحد الناس في مأزقٍ، فسيعينه الآخرون، فلا يشعر

الفرد بالوحدة هناك، بل سيجد في نفسه عنصر المقاومة والصمود أمام المشكلات والأزمات. وهذا ما أشرنا إليه سابقاً بالتفصيل، و بالإعتماد على الآيات القرآنية الكريمة، بأن الاصول الأخلاقية عند تطبيقها، لها بُعدان و فائدتان: معنوية و مادية، و مع غرض النظر عن البعد المعنوي، فالبعد المادي فيها له شمولية واسعة، و يستحق معها التمسك بكل الاصول الأخلاقية، كي نعمة ديانا و نجعل منها جنّة مليئة باللذة، و نتجنب النار المحرقة، المتولدة من الوقوع في و حلّ المفسدات الأخلاقية. و الآن نبحث في المذهب القائل: بأن الأخلاق الدينيّة على مستوى الممارسة و التطبيق، و التي تنشأ في الحقيقة من طاعة الله تعالى خوفاً أو طمعاً. و هذه الامور تُعتبر مضادّة للأخلاق؟ «١». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٢ و يمكن أن يُنتقد هذا الكلام من جهتين: ١- التعبير بالخوف و الطمع، تعبير غير صحيح، و الصّحيح أن يُقال، بأن بعض أتباع الأديان، و لأجل نيل السعادة الآخروية، و النجاة من العقوبات الناشئة من العدل الإلهي، يتخلّقون بالأخلاق الحسنه، لكنّه ليس أمراً يخالف الأخلاق، لأنّه يُبدّل لذّة الحياة الفانية بلذّة الآخرة الباقية، و يُفدى المصادر الصغيرة بالموهب الكبيرة. ٢- هل يرتكب الشخص أمراً مخالفاً للأخلاق، لأنّه لا يكذب ولا يخون، بدافع من خشيته من فضيحة الكذب و الخيانة؟، أو ذاك الذي يمتنع من الشرب، و يتجنب المادة المخدرة، ليحافظ على صحته و سلامته، هل يكون عمله هذا منافياً للقيم الأخلاقية؟ و كذلك الشخص الذي يُدارى الناس و يتواضع لهم و يعاملهم بأدب و إحترام، لئلا يفقدهم ولا يبقى وحيداً فريداً في هذه الدنيا، فهل يرتكب بذلك عملاً مخالفاً للأخلاق؟. و الخلاصة: إن كل عمل أخلاقي، له آثار و منافع مادية في حركة الإنسان و الحياة، و لا يمكن تسمية تلك الآثار بالطمع، و كذلك الحال في الإمتناع، عن بعض السيولوكيات المشينة و الأفعال القبيحة، لا يمكن أن يعبر عنه، بالخوف و الجبن في دائرة الصفات الأخلاقية.

## اصول المسائل الأخلاقية في القرآن الكريم

### إشارة

قبل الخوض في هذا البحث، يتحتم علينا إلقاء نظرة على اصول المسائل الأخلاقية في المذاهب الأخرى ١- جَمْع من الفلاسفة القدماء، الذين يُعتبرون من المؤسسين لعلم الأخلاق، جعلوا للأخلاق أربعة اسس، أو بالأحرى لخصوا الفضائل الأخلاقية في أربعة اصول، هي: ١- الحكمة. ٢- العفة. ٣- الشجاعة. ٤- العدالة. و أحياناً يضمون إليها العبودية لله تعالى، و يجعلونها خمسة اصول. و يعتبر المؤسس لهذا المذهب هو «سقراط»، فكان يعتقد أن: (الأخلاق تعتمد على معرفة الحسن و القبيح من الأفعال، و الفضيلة بصورة مطلقة ليست هي إلّا العلم و الحكمة؛ أمّا العلم في مورد الخوف أو الإقدام، يعني العلم و الإطلاع على الشئ الذي يتوجب على الإنسان الخوف منه، أو عدم الخوف من شئ ما يعتبر من «الشجاعة»، و إذا كان في صدد الثمنى النفسية، فيدعى ب: «العفة»، و إذا كان العلم بالقواعد الحاكمة على ملاقات الناس و روابطهم مع بعضهم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٤ البعض، فالمقصود منه هو «العدالة»، و إذا كان العلم في دائرة وظائف الإنسان مع خالقه هو «التدين و العبودية»، فهذه الفضائل الخمسة، يعني: الحكمة، و الشجاعة، و العفة، و العدالة، و العبودية، هي الاصول الاولي للأخلاق السقراطية) «١». و كثير من علماء الإسلام الذين كتبوا و بحثوا في علم الأخلاق، قبلوا هذه الاصول الأربعة أو الخمسة، و دققوا فيها أكثر، و بنوا لها اصولاً أقوى و أفضل من سابقتها، و جعلوها أساساً لرؤاهم الأخلاقية في كل المجالات. يقولون في نظرتهم الجديدة لهذه الاصول: إن نفس و روح الإنسان فيها ثلاثة قوى هي: ١- قوّة «الإدراك» و تشخيص الحقائق. ٢- قوّة جلب المنفعة أو بتعبير آخر «الشهوة»، (بمعناها الواسع، لا الجنسي فقط و تشمل كل طلب و إرادة). ٣- القوّة الدافعة أو بتعبير آخر «الغضب». و بعدها إعتبروا الاعتدال في كل قوّة، هو إحدى الفضائل الأخلاقية، و أطلقوا على الفضائل المنبعثة من هذه القوى ب: «الحكمة» و «العفة» و «الشجاعة»، بالترتيب. و أضافوا أيضاً: كلّمّا أصبحت قوّة الشهوة و الغضب خاضعة لسلطة القوّة المدركة، و تمييز الحق من الباطل، فسوف ينتج عندنا الأصل الرابع وهو «العدالة». و بعبارة أخرى: إن تحقيق الاعتدال في كل من القوى الثلاثة، يعتبر فضيلةً، و

هذا الاعتدال يسمّى ب: «الحكمة» أو «العفة» أو «الشجاعة»، وتركيبها مع بعضها البعض، يعنى تبعية الشهوة والغضب للقوة المدركة، يعتبر فضيلة أخرى تسمى «العدالة»، وكثيراً ما نرى أن الإنسان لديه الشجاعة و في حدّ اعتدال قوة الغضب، لكنّه لا يوجهها التوجيه الصحيح، و لا يستعملها الإستعمال الصحيح، «كما لو إستعملها في الحروب غير الهادفة»، فهنا قد تكون لديه شجاعة ولكنها لا تعنى العدالة، أما لو إستعمل صفه (الشجاعة) في نطاق الأهداف السامية الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٥ العقلية، أى مزجها مع الحكمة، فيحقق عندها حالة «العدالة». وعليه، فإنّ هذه الفئة من علماء الإسلام، جعلوا كلّ الفضائل و الصفات الإنسانية البارزة، تحت أحد هذه الاصول، و بإعتقادهم أنّه لا- توجد فضيلة، إلّا وتندرج تحت أحد هذه العناوين الأربعة، وبالعكس فإنّ الرذائل دائماً، تأخذ طريق الإفراط و التفريط لهذه الفضائل الأربعة. ومن أراد التفصيل والإطلاع على هذا المذهب الأخلاقي؛ فليراجع كتاب: «إحياء العلوم» و كتاب «المحجّة البيضاء» (١).

### نقد وتحليل:

إنّ التقسيم الرباعي المذكور، ليس وكما يبدو أنّه شيء مبتكر من قبل حكماء الإسلام، بل هو نتيجة تحليلات علماء الإسلام لكلمات حكماء اليونان، و إسترفادهم من نظرياتهم وآرائهم بعد تنقيحها، رغم وجود إشارات لها في مصادرنا الروائية، كما جاء في الرواية المرسلّة المنسوبة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «الفضائل الأربعة أجناس: أحدهما: الحكمة وقوامها في الفكر، والثاني: العفة وقوامها في الشهوة، والثالث: القوة وقوامها في الغضب، والرابع: العدل وقوامه في إعتدال قوى النفس» (٢). فكما ترون، أنّ هذا الحديث لا يوافق بصورة كاملة، تلك التقسيمات الأربعة التي ذكرها علماء الأخلاق، بل هو قريب منها، وكما أشرنا سابقاً أنّ الحديث مُرسلٌ و سنده لا يخلو من إشكال. و على كلّ حال فإنّ هذه الاطروحة، التي ذكرها علماء الأخلاق، أو حكماء الإغريق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٦ واليونان، ترد عليها هذه المآخذ: ١- بعض الملكات الأخلاقية، «والتي هي جزء من الفضائل الأخلاقية قطعاً»، نلاقي صيغوبة في إدخالها تحت أحد هذه الاصول الأربعة، فمثلاً (حسن الظن)، يُعتبر من الفضائل، و يقابله (سوء الظن)، فإذا أردنا إدخاله تحت أحد هذه الاصول، فيجب أن ينضوي في دائرة الحكمة، والحال أنّنا لا يمكننا أن نجعله من فروع الحكمة، لأنّ حسن الظن شيء آخر غير التشخيص الصحيح للواقعات، و ربّما ينفصل عنه بوضوح، بمعنى أنّ القرائن الظنيّة تشير إلى صدور الذنب و الخطأ من شخص ما، لكن و بحسن الظن يتجاوز عنها. و كذلك الصبر على النوائب، و الشكر على النعمة، فهو بلا شك يُعتبر من الفضائل، لكننا لا نستطيع أن نجعله في دائرة قوة التشخيص والإدراك، ولا في مسألة جلب المنافع ولا دفع المضار، خصوصاً إذا كان الشخص الصابر و الشاكر، لا يرتجى منها نفعاً مستقبلياً، و تمسّكه بها إنّما كان لقيمتها الذاتية، (أى: الصبر و الشكر). وقد يوجد غير قليل من أمثال هذه الفضائل، التي لا يمكن أن نجعلها و ندرجها تحت أحد هذه العناوين. ٢- «الحكمة» تعتبر من اصول الفضائل الأخلاقية، و الإفراط و التفريط فيها تُعتبر من الرذائل الأخلاقية، والحال أنّ الحكمة ترجع إلى تشخيص الحقائق و الوقائع، و تعود الأخلاق للعواطف والغرائز والملكات النفسية، و لا- تعود لإدراكات العقل، و عليه لا- يُقال إنّ المُفتّح الذهن هو حسن الأخلاق، فالأخلاق يمكن أن تكون وسيلةً و أداةً للعقل، و لا تُعتبر قوة العقل والإدراك من الأخلاق، أو بعبارة أخرى: أنّ العقل و قوة الإدراك هي الموجهة لعواطف وغرائز الإنسان، في حركة الحياة و السيلوك، و تعطيتها شكلها الأوفق، والأخلاق هي كيفية تعرض على الغرائز و الميول الإنسانية. ٣- الإصرار على أنّ الفضائل الأخلاقية دائماً، هو الحدّ الأوسط بين الإفراط و التفريط: لا يبدو سليماً، و إن كان في الأغلب هو كذلك، لأننا نجد موارد لا يتحقّق فيها الإفراط، فمثلاً القوة العقلية، كلّما كانت أقوى كانت أفضل، و لا يُتصوّر فيها إفراط، فليس من الصحيح جعل الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٧ «الدّهاء والمكر»، هو الإفراط في القوة العقلية، لأنّ «الدّهاء والمكر» لا ينشأ من الذكاء والفهم، بل هو نوعٌ من الإنحراف و الإشتباه في المسائل، للعجلة في الحكم على الامور و ما يُشابهها. فالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وصل إلى درجة في العقل و الفكر، بحيث اطلق عليه العقل الكُلّ، فهل هذا مخالفتٌ للفضيلة؟! و صحيح أنّ العقل و

الذكاء المفرط، يسبب آلاماً ومصاعب لا يلاقيها الغافلون، غير المطلعين، ولكنه مع ذلك يعتبر من الفضائل والكمالات. وكذلك «العدالة»، حسبها من الفضائل الأخلاقية، والإفراط والتفريط فيها هو «الظلم» و«الإنظلام»، أي (قبول الظلم)، والحال أن قبول الظلم والإنصياح له لا يمكن أن يُعتبر من التفريط في العدالة أبداً، بل هو مقولتهُ أخرى. وبناءً على ذلك، فمسألة الاعتدال في صفات الفضيلة، في مقابل الإفراط والتفريط للصفات الرذيلة، يمكن أن يكون مقبولاً في أغلب الموارد، ولكن لا يمكن أن يُعتبر حكماً عاماً، وأصلاً أساسياً في البحوث الأخلاقية. النتيجة: أن الأصول الأربعة التي أعدها القدماء للأخلاق، هي في الواقع إكمال لما جاء به فلاسفة اليونان القدماء، لكنها لا يمكن أن تكون نموذجاً ومقسماً جامعاً للصفات الأخلاقية، وإن كانت تصدق على كثير من المسائل الأخلاقية.

### العودة للأصول الأخلاقية في القرآن الكريم:

نعود لتحليل الأصول الأخلاقية التي نستوحيها من القرآن الكريم، فنحن نعلم أن القرآن الكريم لم يُنظم ككتاب تقليدي، في أبواب وفصول، كما هو المتعارف اليوم، بل هو مجموعة من القاءات الوحي السّماوي، نزل بالتدريج على حسب الحاجة والضرورة، ولكن بالاستفادة من طريقته التفسير الموضوعي، يمكن وضعه في مثل هذه القوالب. ومن التقسيمات التي يمكن إستيعاؤها وإستفادتها من مجموع الآيات القرآنية، هو تقسيم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٨ اصول الأخلاق إلى أربعة أقسام: ١- المسائل الأخلاقية المتعلقة بالخالق. ٢- المسائل الأخلاقية المتعلقة بالخلق. ٣- المسائل الأخلاقية المتعلقة بالنفس. ٤- المسائل الأخلاقية المتعلقة بالكون والطبيعة. فمسألة شكر المنعم والخضوع أمام الباري تعالى، والرّضا والتسليم لأوامره، وما شابهها، يُعتبر من المجموعة الاولى. والتواضع، والإيثار، والمحبة، وحسن الخلق، والمؤاساة، تدخل في دائرة المجموعة الثانية. تزكية النفس وتطهير القلب من الأدران، وتفعيل عناصر الخير، لمقاومة الضّغط والتحديات التي يواجهها الإنسان في حركة الواقع والحياة، تدخل في نطاق المجموعة الثالثة. أمّا عدم الإسراف والتبذير، وإتلاف المواهب الإلهية؛ فإنه يُعتبر من القسم الرابع. كلّ هذه الأصول الأربعة، لها جذور واصول في القرآن الكريم، وسنشير إلى كلّ واحد منها في المباحث الموضوعية الآتية. وبالطبع فإنّ هذه الشعب الأربعة، تختلف عما جاء في كتاب «الأسفار» للفيلسوف المعروف: «ملما صدرا الشيرازي»، وأتباع مذهبه، فهؤلاء وطبقاً لطريقته العرفاء، شبهوا الإنسان وحركته التكاملية: ب: (المسافر)، وعبروا عن مسائل بناء الذات وصياغة الشخصية بالسّير والسلوك، وجعلوا للإنسان أربعة أسفار، هي مطمح السّالكين والعرفاء، وأولياء الله: ١- السّيفر من الخلق إلى الحق. ٢- السّيفر بالحق في الحق. ٣- السّيفر من الحق إلى الخلق بالحق. ٤- السّفر بالحق في الخلق. ومن المعلوم أنّ هذه الأسفار أو المراحل الأربعة لبناء الذات، والسّير والسلوك إلى الله تعالى، تتحرك باتجاه آخر غير ما نحن بصدد، وإن كانت تتشابه في بعض أقسام الفروع الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٨٩ الأربعة، للأخلاق الأنفة الذّكر. وتوجد في القرآن الكريم آيات، نعتقد أنّها رسمت الأصول الكلية للأخلاق، ومن هذه الآيات، الآيات الواردة في (سورة لقمان) والتي تبدأ من هذه الآية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ» (١). إنّ أول ما يشرع فيه الإنسان في مضمار العقائد والمعارف، هو شكر المنعم، وأول خطوة في طريق معرفة الله تعالى، هي مسألة شكر المنعم، أو بعبارتهُ أخرى، كما صرّح علماء العقائد والكلام: إنّ الدافع للحركة إلى الله تعالى هو شكر النعمة، لأنّ الإنسان عندما يفتح عينه، يرى نفسه غارقاً في بحر النعم، فيدعوه الضّمير مباشرة إلى معرفة المنعم، وهذا هو بداية الطريق لمعرفة الله تعالى. وبعدها تتطرق الآية لمسألة التوحيد وتقول: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». وفي المرحلة الأخرى، يتناول القرآن الكريم مسألة المعاد، وهي الأساس الثاني والمهم للمعارف الدينية ويقول: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْكُتُبَ مَثَاقِلَ حَبِيَّةً مِّنْ حَزْدٍ لِّمَن يَخْزَىٰ فِي حَزْدِهِ أَوْ فِي سَمَوَاتٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِهَا بِأَنفُسِكُمْ فَزَكَاةً يُؤْتُونَ فِيهَا وَلَئِنِ لَّمْ يَفْعَلُوا لَلْأَنفُسِ يُؤْسِسُونَ» (٢). ثم يتطرق للأصول الأساسية للأخلاق والحكمة العملية، ويشير للأمر التالية: ١- مسألة إحترام الوالدين وشكرهم بعد شكر الخالق: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِذَا بَلَغَ الْهُدَىٰ... أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ» (٣). ٢- إعطاء الأهمية للصلاة، وعلاقته بالله والدعاء والخضوع له: «أَقِمِ الصَّلَاةَ» (٤). ٣- الأمر



بالمعروف و انتهى عن المنكر: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنه عَنِ الْمُنْكَرِ» «٥» ٤- الصبر على نوائب الدهر: «وَأصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» «٦». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٠ ٥- حُسن الخلق مع النَّاس: «وَلَا تُصَيِّرْ كُفْرًا لِلنَّاسِ» «١». ٦- التواضع و ترك الكبر مع النَّاس و الخلق: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» «٢». ٧- الإعتدال في المشى و في كل شيء: «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» «٣». و على هذا الترتيب، نرى أن القسم الأكبر من الفضائل الأخلاقية، جاءت في الآيات القرآنية تحت عنوان: «حكمة لقمان»، التي تشمل الشكر والصبر و حُسن الخلق و التواضع و الإعتدال و الدعوة للإحسان، و مقاومة التواضع و الأهواء النفسانية، كل ذلك في ضمن سبع آيات، من الآية (١٣ إلى ١٩). وجاء في الآيات الثلاث من سورة الأنعام، التي تبدأ بالآية (١٥١) و تنتهي بالآية (١٥٣)، عشرة أوامر مهمة، تناولت مبادئ مهمة من الاصول الأخلاقية، و من جملتها: ترك الظلم للأولاد، و رعاية الأيتام، و مراعاة العدالة مع الجميع، و ترك العصيَّة للأقارب والأصدقاء والقبيلة، في دائرة نقض اصول العدالة، وكذلك الإجتنب من القبائح و الرذائل الظاهرية و الباطنية، و إحترام حقوق الوالدين، و الإجتنب عن كل ما يُسبب التفرقة و الابتعاد عن كل شرك «٤».

### اصول الأخلاق الإسلامية في الزوايات:

إستعرضت الأحاديث و الزوايات الإسلامية، الاصول الأخلاقية الحسنة والسيئة، بطريقتها الخاصة، لا كما جاء في كتب حكماء اليونان و من جملتها: ١- في الحديث المعروف الذي جاء في كتاب: (اصول الكافي)، عن الإمام الصادق عليه السلام: أن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩١ أحد أصحاب الإمام عليه السلام و إسمه «سماعة بن مهران»، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام وجماعته من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إعرفوا العقل و جنده، و الجهل و جنده تهتدوا»، فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلما عزفتنا، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله عزوجل، خلق العقل، و هو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش، من نوره فقال له: أدبر فأدبر؛ ثم قال له: أقبل فأقبل؛ فقال الله تبارك و تعالی: خلقتك خلقاً عظيماً و كرمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل، من البحر الاجاج ظلمانياً، فقال له: أدبر فأدبر؛ ثم قال له: أقبل فلم يقبل فقال له: إستكبرت، فلعنه. ثم جعل للعقل خمسة و سبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل، و ما أعطاه أضمَر له العداوة، فقال الجهل: يا رب هذا خلق مثلي، خلقتة و كرمته و قوته، و أنا ضده ولا- قوة لي به، فأعطى من الجند مثل ما أعطيته، فقال الله تعالی نعم، فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي. قال: قد رضيت. فأعطاه خمسة و سبعين جنداً. فكان مما أعطى العقل من الخمسة و السبعين الجند: الخير هو وزير العقل، و جعل ضده الشر وهو وزير الجهل؛ والإيمان و ضده الكفر؛ والتصديق و ضده الحُجود؛ و الرجاء و ضده القنوط؛ والعدل و ضده الجور؛ و الرضا و ضده السخط؛ والشكر و ضده الكُفران؛ والطعم و ضده اليأس؛ والتوكل و ضده الحرص؛ والرأفة و ضده القسوة؛ والرَّحمة و ضدها الغضب؛ والعلم و ضده الجهل؛ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٢ والفهم و الحمق؛ والعفة و ضدها التهتك؛ والزهد و ضده الرغبة؛ و الرِّفق و ضده الخرق؛ والرَّهبة و ضدها الجرأة؛ والتواضع و ضده الكبر؛ والتؤدة و ضدها التسرع؛ والحلم و ضده السِّفه؛ والصِّمت و ضده الهدر؛ والإستسلام و ضده الإستكبار؛ والتسليم و ضده الشك؛ والصبر و ضده الجزع؛ والصِّفح و ضده الإنتقام؛ والغنى و ضده الفقر؛ والتذكُّر و ضده السِّهْو؛ والحفظ و ضده النسيان؛ والتعطف و ضده القطيعة؛ والقنوع و ضده الحرص؛ والمؤاساة و ضدها المنع؛ والمودة و ضدها العداوة؛ والوفاء و ضده الغدر؛ والطاعة و ضدها المعصية؛ والخُضوع و ضده التَّطاول؛ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٣ والسِّلامه و ضدها البلاء؛ والحب و ضده البغض؛ والصِّدق و ضده الكذب؛ والحق و ضده الباطل؛ والأمانة و ضدها الخيانة؛ والإخلاص و ضده الشُّوب؛ والشَّهامة و ضدها البلاءة؛ والفهم و ضده الغباوة؛ والمعرفة و ضدها الإنكار؛ والمداراة و ضدها المكاشفة؛ وسلامة الغيب و ضده المماكرة؛ والكتمان و ضده الإفشاء؛ والصلاة و ضدها الإضاعة؛ والصوم و ضده الإفطار؛ والجهد و ضده النكول؛ والحج و ضده نبذ الميثاق؛ و صون الحديث و ضده النَّميمة؛ و يرِّ الوالدين و ضده العقوق؛ والحقيقة و ضدها الرِّياء؛ والمعروف و ضده المنكر؛ والستر و ضده التبرج؛ والتقية و ضدها الإذاعة؛ والإنصاف و ضده الحمية؛ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٤ والتهيهة و ضدها البغي؛ والنظافة

وضدّها القدر؛ والحياء وضدّه الجلع؛ والقصد وضدّه العدوان؛ والزّاحة وضدّها التعب؛ والسّهولة وضدّها الصّعبوبة؛ والبركة وضدّها المحق؛ والعافية وضدّها البلاء؛ والقوام وضدّه المكاثرة؛ والحكمة وضدّها الهوء؛ والوقار وضدّه الخفّة؛ والسّعادة وضدّها الشقاوة؛ والتوبة وضدّها الإصرار؛ والإستغفار وضدّه الإعتار؛ والمحافظه وضدّها التّهاون؛ والدّعاء وضدّه الإستنكاف؛ والنشاط وضدّه الكسل؛ والفرح وضدّه الحزن؛ والالفه وضدّها الفرقه؛ والسخاء وضدّه البخل؛ فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل، إلّا في نبيّ أو وصيّ نبي، أو مؤمن قد إمتحن الله قلبه للإيمان، وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل، وينفى من جنود الجهل. فعند ذلك يكون في الدرجه الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٥ العليا مع الأنبياء والأوصياء؛ و إنّما يُدرك ذلك بمعرفة العقل وجوده، وبمجانبة الجهل وجوده. وقفنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته» (١). فالحديث أعلاه، حديث جامع لأصول وفروع الأخلاق الإسلامية، وبحثها بعض المؤلفين والكتّاب في كتبٍ مستقلة. ٢- نقرأ في الكلمات القصار للإمام علي عليه السلام، في نهج البلاغه، عندما سُئل الإمام عليه السلام عن الإيمان، (يتبين من ذيل الحديث، أنّ المقصود من الإيمان هو الإيمان العلمى والعملى، الذى يشمل الاصول الأخلاقية). أجاب الإمام عليه السلام: «الإيمان على أربع دعائم، على الصّبر واليقين والعدل والجهد». ثم أضاف قائلاً: «والصّبر منها على أربع شعب، على الشوق والشفق والرّهد والترقب». (الإشتياق للجنّة والمنح الإلهية، و الخوف من العقاب و النار، دافعٌ للأعمال الصّالحة و رادع عن السيئات). و الرهد بالدنيا وزبرجها يهون المصائب، و إنتظار الموت و نهاية الحياء، تحثّ الإنسان لِفعل الأعمال الصّالحة. وبعدها يضيف عليه السلام: «واليقين منها على أربع شعب، على تبصّره الفطنه وتأوّل الحكمة وموعظته العبره وسنة الأولين». ثم أضاف عليه السلام: «والعدل منها على أربع شعب، على غايب الفهم، و غور العلم، وزهره الحكم، ورساخه الحلم». وقال عليه السلام ختاماً: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٦ «والجهد منها على أربع شعب، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشدان الفاسقين». وبعدها يبيّن شعب الكفر، و يشرحها واحداً تلو الآخر (١). فكما تلاحظون أنّ الإمام علي عليه السلام، رسم الاصول الإسلامية للإيمان والكفر، بدقّة متناهية، و آثارها في المحتوى الداخلى للإنسان و على سلوكه الخارجى، و التى تشمل الأخلاق العمليّة، فذكر لكلّ فرع، فرعاً آخر، وتحليل هذه الجزئيات يتطلب كتابة مقالة اخرى. ٣- نقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام: «أربع من أعطيهن فقد أوتى خير الدنيا والآخرة، صدق حديث وأداء أمانه، وعفة بطن وحسن خلقي» (٢). ٤- وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، في نفس هذا المعنى، بتلخيص أكثر، حيث جاء إليه أحد الأشخاص، و طلب منه أن يُعلّمه أمراً يكون فيه خير الدنيا والآخرة، و بشكلٍ موجز، فقال الإمام عليه السلام في معرض جوابه: «لا تكذب تكذب» (٣). و الحقيقة هي كذلك، لأنّ جذور كلّ الفضائل تمتد إلى حديث الصدق، فالإنسان لا يكذب على الناس ولا على نفسه ولا على الله تعالى، وعندما يقول في صلاته: «إياك نعبد وإياك نستعين»، ينبغي أن لا يكون فيها كاذباً أبداً، بل يبتعد عن كلّ ما هو شيطاني، و هوى النفس، و تكون حركته في دائرة خضوعه وتسليمه لله فقط، ولا يعتمد على المال والجاه والقدرة والمقام، و يترك ما سوى الله تعالى و يكون إعماده الأوّل و الأخير على لطف الله تعالى ومعونته، فإذا أصبح الإنسان كذلك، فسوف يعيش الحياة المعنوية في جميع فروع و اصول الأخلاق. ٥- ونقرأ في الروايات الإسلامية تعابير مثل: «أفضل الأخلاق»، أو «أكرم الأخلاق»، أو «أحسن الأخلاق»، أو «أجمل الأخلاق»، وفي هذه إشارة اخرى لأقسام مهمّة من الاصول الأخلاقية، منها: سئل الباقر عليه السلام عن أفضل الأخلاق، فقال: «الصبر والسماحة» (١). و في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام، قال: «أكرم الأخلاق السخاء وأعمّها نفعاً العدل» (٢). و في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أيضاً، قال: «أشرف الخلائق التواضع والحلم ولين الجانب» (٣). و في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث سئل: «أى الخصال بالمرء أجمل فقال: وقار بلا مهانة، و سماح بلا طلب مكافاة، و تشاغل بغير متاع الدنيا» (٤). ٦- أيضاً في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، بين فيه اصول الأخلاق السنيّة، وعبر عنها باصول الكفر، فقال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والإستكبار والحسد». وأردف قائلاً في بيان وتوضيح الاصول الثلاثة: «فأما الحرص فإنّ آدم حين نُهي عن الشجرة حملته الحرص أن أكل منها، وأمّا الإستكبار فإبليس حين أمر بسجود لآدم إستكبر، وأمّا الحسد فإبنا آدم

حَيْثُ قَتَلَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ» (٥) الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٩٨ و على هذا الأساس فإنَّ مصدر جميع المصائب الكبرى، التي حدثت في عالم الإنسانية، منذ صدر الخليفة، هي هذه الصِّفات الثلاثة، فالحرص: طرد آدم من الجنة، والإستكبار: طرد إبليس عن ساحة القدس إلى الأبد، والحسد: هو أساس كلِّ قتل و جناية حدثت في العالم ٧- ونختم كلامنا هذا بحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قال، الإمام الصادق عليه السلام، أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَحُبُّ الرِّيَاسِيَّةِ، وَحُبُّ الطَّعَامِ، وَحُبُّ التَّوَمِّ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ، وَحُبُّ النَّسَاءِ». لقد تبين من مجموع ما ذكر آنفاً، أصول الفضائل و الرذائل الأخلاقية، ولكن وكما يُستفاد من مجموع الروايات، أنه لا يوجد عدد خاص و معين، لهذه القيم والمبادئ الأخلاقية، لأنَّ الأخلاق الحسنة والقيحة، لها دوافع ومقاصد متعدّدة و متنوعة ومختلفة، أو بعبارة أخرى: كما أنّ الصِّفات الجسميّة للإنسان، لا عدد ولا حصر لها، فكذلك الصِّفات الروحيّة، و الملكات الأخلاقية الصّالحة و الطّالحة، لا عدد ولا حصر لها.

## إرتباط المسائل الأخلاقية مع بعضها

### تنويه:

غالباً ما تكون الفضائل الأخلاقية، مترابطة في ما بينها برابطة وثيقة، كما هو الحال في الرذائل وعلاقتها الوثيقة مع بعضها، وعلى هذا يصعب التفكيك والفصل بينها في الغالب. و هذا الترابط قد يكون بسبب الجذور المشتركة بينها، وربما يكون بسبب الثمرات المترتبة عليها ونتائجها في حركة الإنسان والحياة. و في القسم الأول، وهو البحث في الجذور المشتركة بين القيم في المنظومة الأخلاقية، لدينا أمثلة واضحة، ففي كثير من الموارد، تكون الغيبة وليدة الحسد، ويسعى الحسود دائماً لفضح وتعريه محسوده، و الإستهانة بشخصيته من موقع التهمة والإفتراف والتكبر، و التحرك على مستوى تحقير و تهमيش الآخرين، فكلّ هذه الرذائل يمكن أن تكون من إفرازات الحسد أيضاً. و بالعكس، فمن كان يعيش علو الهمة، و سمو الطبع، فسوف لا يقف في مقابل الشهوات الرخيصة والطمع فيها فحسب، بل تكون لديه حصانة ضدّ الحسد والكبر والغرور والتملق، أيضاً. و بالنسبة للنتائج و الثمرات، نرى هذا الارتباط بصورة أوضح، فالكذب يمكن أن يكون مصدراً للكاذب الأخرى، و ربما لتوجيه أخطائه و ذنوبه، يرتكب الشخص أخطاءً أخرى، و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠٠ يتحرك لممارسة جرائم عديدة في عمليّة التغطية على جرمه الأول، وبالعكس، فإنّ العمل الأخلاقي مثل الأمانة، من شأنه أن يولّد المحبّة و الصّدقة والتعاون والارتباط الوثيق بين أفراد المجتمع. و يوجد لدينا في الروايات إشارات إلى هذا المعنى، فنقرأ في حديث عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «إِذَا كَانَ فِي الرَّجُلِ خَلَّةٌ رَائِعَةٌ فَاَنْتَظِرْ أَخَوَاتِهَا» (١). و في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ خِصَالَ الْمَكَارِمِ بَعْضُهَا مُقْتَدِّدٌ بَعْضُهَا». وأشار في ذيل هذا الحديث: «صِدْقُ الْحَدِيثِ وَصِدْقُ الزَّيَّاسِ وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ وَالْمُكَافَأَاتُ بِالصَّنَائِعِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَصِلْمَةُ الرَّحِمِ وَالتَّوَدُّدُ إِلَى الْجَارِ وَالصَّاحِبِ وَقِرَى الضَّيْفِ وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ» (٢) وفي الواقع فإنّ الحياء، و هو روح الثفور من الذنب و القبائح، يمكن أن يكون مصدراً لجميع الأفعال الأخلاقية المذكورة أعلاه، كما أنّ الصّدق يقرب الإنسان للأمانة، و يعمق فيه روح التّصدي للقبائح، ويشير في أعماق وجدانه، عناصر الخير و المحبّة مع الأقارب والأصدقاء والجيران. ونقرأ في حديث ثالث عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ الشَّرَابِ، وَالْكَذْبُ شَرُّ مِنَ الشَّرَابِ» (٣). وفيه إشارة إلى أنّ الكذب، يمكن أن يكون مصدراً لأنواع كثيرة من الآثام و الذنوب. و جاء ما يشبه هذا المعنى، في حديث عن الإمام العسكري عليه السلام، فقال: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠١ «جُعِلَتِ الْحَيَاثُ فِي بَيْتٍ وَجُعِلَ مِفْتَاحُهَا الْكَذْبُ» (١). ونختم هذا الموضوع، بحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: يا رسول الله إنني إرتكبت في السّر أربع ذنوب، الزّنا و شرب الخمر و السّرقه والكذب، فأيتهنّ شئت تركتها لك، (لم يكن يريد أن يقلع عنها أجمع، وإكرماً للرسول؛ يريد أن يقلع عن واحدة فقط؟! فقال

له الرسول صلى الله عليه وآله: «دَعِ الْكُذِبَ». فذهب الرجل، وكلما أراد أن يهَمَّ بالخطيئة، يتذكر عهده مع الرسول صلى الله عليه وآله، ويقول ربما سألتني، وعلى أن أكون صادقاً في الجواب، فيجري على الحد، وإن كذبت فقد نقضت العهد مع الرسول صلى الله عليه وآله، ومما اضطَّره أخيراً لتركها أجمع. فرجع ذلك الرجل للرسول صلى الله عليه وآله، وقال له: «فَدَّ أَخَذَت عَلَيَّ السَّبِيلَ كُلَّهُ فَفَدَّ تَرَكْتَهُنَّ أَجْمَعُ» (٢). ونستنتج ممَّا ذُكر آنفاً: أنه في كثيرٍ من الموارد، ولأجل تربيته وتهذيب النفوس والأخلاق، أو لإصلاح بعضها، يجب أن نبدأ من الجُذور، وكذلك الإستعانة بالمقارنات والأخلاق الأخرى المتعلقة بها.

## من أين نبدأ؟

### إشارة

تعرفنا على كليات علم الأخلاق، و نتائجه وآثاره ومقاصده وفروعه، والآن آن الأوان، وبما لدينا من المعلومات والمعارف الكلية، البداء في طريق تهذيب النفس، أو الإنتقال من المسائل الذهنية إلى ميدان الممارسة والتطبيق، ومن الكليات إلى الجزئيات. ويجب التوقف هنا، لتهيئة لوازم سفرنا الروحاني، حتى لا نصاب في سلوكنا لذلك الطريق بالحيرة والضلالة وعدم التنظيم والتنظير، وعليه فلا بد من الإلتفات إلى امور: ١- ثلاثة رؤى في كيفية التعامل مع المسائل الأخلاقية. ٢- هل يحتاج الإنسان في كل مرحلة إلى استاذٍ ومرشدٍ؟ ٣- دور الواعظ الخارجي والواعظ الداخلي. ٤- الامور التي تُساعد الإنسان في عملية الوصول إلى هذا الهدف؛ مثل ذكر الله والعبادة والأدعية، الزيارات، النصائح المتكررة، التلقين. ٥- طهارة المحيط.

## ثلاث نظريات في كيفية التعامل مع المسائل الأخلاقية:

### النظرية الأولى

رأى يقول: إنَّ تهذيب النفس، نوع من الجهاد ومحاربة أعداء الداخل، الذين يتحرَّكون الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠٤ لإيقاع الإنسان في مستنقع الرذيلة، و شراك الخطيئة. هذا الرأي مقتبس في الأصل، من حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، المعروف، عندما خاطب الرسول صلى الله عليه وآله، قومه من المجاهدين، رجعوا لتوهم من الغزو فقال: «مَرَحِباً بِقَوْمٍ قَضَوْا الْجِهَادَ الْأَصْعَرَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ، قَالَ: جِهَادُ النَّفْسِ» (١). وجاء في البحار في ذيل هذا الحديث: ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ» (٢). هذا وقد فسرت بعض الآيات التي وردت في دائرة الجهاد، بالجهاد الأكبر، إمَّا لأنها تخصَّ الجهاد مع النفس، أو لمدلولها العام في حركة السياق القرآني، الذي يتناول القسمين للجهاد. وجاء في تفسير القمي، في ذيل الآية (٦) من سورة العنكبوت: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَالْمَعَاصِي» (٣). ويمكن أن نستوحى هذا المعنى من هذه الآية، من حيث إنَّ فائدة الجهاد تعود على الإنسان نفسه، ويتضح ويتجلى أكثر في الجهاد مع النفس، وخصوصاً أنَّ الآية التي جاءت قبلها، تكلمت عن لقاء الله: «وَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ...»، ونعلم أنَّ لقاء الله، والشهود والقرب منه، هو الهدف الأصلي للجهاد مع النفس. وكذلك جاء في آخر آية من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ». وهذه الآية أيضاً ناظرة حسب الظاهر إلى الجهاد الأكبر، وذلك لقريته: (فيها)، و جملة: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»، أو تتضمن مفهوماً عاماً يستوعب كلا التحوين من الجهاد. وجاء أيضاً في الآية (٧٨) من سورة الحج: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا لِيَأْخُذَ فِي الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١٠٥ جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». فقد فسّر أغلب المفسرين كلمة الجهاد بمعناها ومفهومها العام، الذي يشمل الجهاد الأصغر والأكبر، أو بخصوص معنى الجهاد الأكبر، وكما قال المرحوم العلامة الطبرسي في كتابه مجمع البيان، أنَّ أكثر المفسرين ذهبوا إلى أنَّ المقصود من حق

الجهاد، هو إخلاص النية والأعمال والطاعات لله تعالى (١). وقد ذكر العلامة المجلسي رحمه الله هذه الآية، في زمرة الآيات الناظرة للجهاد الأكبر (٢) كذلك. وجاء في الحديث المعروف عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: قلت يا رسول الله أئى الجهاد أفضل؟ فقال صلى الله عليه وآله: «أن يُجاهد الرجل نفسه وهواه» (٣). وكما ورد في حديث: جنود العقل و جنود الجهل، هذا المعنى أيضاً، إذ يشبه حياة الإنسان بساحة حرب، العقل جنوده في جهه، والجهل وهوى النفس و جنودهما في الجهه المقابله، فهذان المعسكران، يعيشان دائماً في حالة حرب سجال، و من خلال هذا النزاع، و معطيات حالات الصّراع في أعماق النفس، تتولد الكمالات المعنوية للإنسان، وذلك عندما ينتصر العقل و جنوده، و النصر الآنى، هو السبب في التّقدم النسبي للكمالات الإنسانيّة.

### النظرية الثانية: نظرية الطب الروحاني

فقد ذهبوا إلى أن الروح كجسم الإنسان، تُصاب بأنواع الأمراض، و لأجل الشفاء يتوجب اللجوء إلى أطباء النفس و الروح، والاستعانة بأدوية الأخلاق الخاصّة، حتى تبقى الروح سالمة و نشطة و فعالة. و الجدير بالذكر، أن القرآن الكريم أشار إلى الأمراض الأخلاقية و الروحية، في إثني عشر موضعاً، و عبر عنها بالمرض (٤)، و منها الآية (١٠) من سورة البقرة، إعتبرت النفاق من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠٦ زمرة الأمراض الروحية، فقالت: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا»؛ بسبب إصرارهم على النفاق. وفي الآية (٣٢) من سورة الأحزاب، و صفت عبيد الشهوة بمرضى القلوب، الذين يتحنون الفرص لإصطياد النساء العفيفات، حيث خاطب البارئ تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله، فقال: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ». وجاء في الآيات الاخرى نفس هذا المعنى، أو أوسع منه، بحيث تناولت الآيات، جميع الإنحرافات الأخلاقية و العقائدية. و في معنى عميق آخر، عبر القرآن الكريم، عن القلوب المليئة بنور المعرفة والأخلاق و التقوى: بالقلوب السليمة. و جاء ذلك على لسان النبي إبراهيم عليه السلام، حيث قال: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ \* يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (١). «السليم» من مادة «السلامة»، و تقع في مقابل الفساد و الإنحراف و المرض، و «القلب السليم» كما جاء في الروايات عن المعصومين عليهم السلام، في تفسير هذه الآية، أنه القلب الذي خلا من غير الله تعالى، (منزه من كل مرض أخلاقي و روحى). و قال القرآن الكريم في مكان آخر: إن إبراهيم عليه السلام عندما طلب من البارئ تعالى: القلب السليم، (كما أشارت الآيات الآنفه الذكر)، تحقّق له ما يريد، و شملته رحمته و لطف الله تعالى، و أصبح ذا قلب سليم، فنقرأ في الآيات (٨٣ و ٨٤) من سورة الصافات: «وإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ \* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ». نعم، فإن إبراهيم عليه السلام كان يتمنى أن يكون ذا قلب سليم، و بالسعي و الإيثار و محاربة الشرك، و هو النفس من موقع عبادة الله، إستطاع أن يصل بالنهاية إلى ذلك المقام. و نجد في الأحاديث الإسلامية، إشارات كثيرة حول هذا الموضوع، ومنها: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠٧-١ يصف الإمام على عليه السلام، الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في نهج البلاغه، فيقول: «طَيْبٌ دَوَّارٌ بِطَبِئِهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمَى و آذَانٍ صُمٌّ وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٌ، مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْعَفَلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ» (١). ٢- ورد في تفسير القلب السليم، الذي ذكر في الايتين الشريفتين أعلاه، روايات كثيرة، فنقرأ أن رسول الله صلى الله عليه وآله، سئل: ما القلب السليم. فقال صلى الله عليه وآله: «دِينٌ بِلَا شَكٍّ وَهُوَى، وَعَمَلٌ بِلَا سِمْعَةٍ وَرِيَاءٍ» (٢). ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «لَا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَلَا سِلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ» (٣). وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا رَزَقَهُ قَلْبًا سَلِيمًا وَخُلُقًا قَوِيمًا» (٤). ٣- وقد ورد التعبير عن الأخلاق الرذيلة، في الروايات بأمراض القلب. فورد في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْمَرَاءَ وَالْخُصُومِيَةَ فَإِنَّهُمَا يُمْرِضَانِ الْقُلُوبَ عَلَى الْإِحْوَانِ، وَيَتَّبِعُ عَلَيْهِمَا النَّفَاقَ» (٥). وجاء أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَطِيئَتِهِ» (٦). ٤- ونقرأ عن الإمام على عليه السلام أيضاً: «أَلَا وَمِنَ الْبِلَاءِ الْفَاقَهُ، وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقِهِ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٠٨-٥ وجاء أيضاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، في معرض حديثه عن الحسد، و أنه كان ولا يزال على طول التاريخ

مرضٌ نفسى عضال، فقال: «ألا إنه قد دبَّ إليك داءُ الأمم من قبلكم وهو الحسدُ، ليس بحالقِ الشَّعرِ، لَكِنَّهُ حالقُ الدِّينِ، ويُنجي فيه أن يكفَّ الإنسانُ يدهُ ويحزُنَ لسانَهُ ولا يكونَ ذا غَمزٍ على أخيه المؤمنِ» (١). ٦- وقد ورد في التعبير عن الرذائل الأخلاقية، في كثير من الروايات ب: «الدَّاء» ومفهومها المرض، وجاء مثلاً في الخطبة (١٧٦) من نهج البلاغة، حيث يصف الإمام عليه السلام فيها القرآن الكريم: «فإستشفوه من أدوائكم ... فإن فيه شفاءً من أكبر الداء وهو الكفرُ والنفاقُ والغنى والضلالُ». ونرى أيضاً هذا التعبير في روايات كثيرة أخرى. و خلاصة القول، إن الفضائل والرذائل، وطبقاً لهذه النظرية والرؤية، علامةٌ لسلامة ومرض الروح عند الإنسان، والأنبياء عليهم السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام، كانوا معلمى أخلاق، وأطباء نفسيين، و تعاليمهم تجسّد في مضمونها الدواء النافع والعلاج الشافى. وعلى هذا، فكما هو الحال فى الطب المادى، ولأجل الوصول إلى الشفاء الكامل، يحتاج المريض إلى الدواء، و يحتاج إلى الحمية من بعض الأكلات، فكذلك فى الطب النفسى و الروحى الأخلاقى، يحتاج إلى الإمتناع عن أصدقاء السوء، و المحيط الملوّث بالمفساد الأخلاقية، و كذلك الإمتناع عن كل ما يساعد على تفشى الفساد، فى واقع الإنسان النفسى، و محتواه الداخلى. فالطب المادى جعل العمليّة الجراحية كعلاج لبعض الحالات، و كذلك جعل الطب الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٠٩ الروحى الحدود و التعزيرات و العقوبات كوسيلة، ودواء رادع، عن الأعمال المنافية للأخلاق، و هى بمنزلة إجراء العمليّة الجراحية فى الطب المادى. و كما نرى فى الطب المادى، أنه جعل العلاج فى مرحلتين، مرحلة الوقاية: و هى المحافظة على الصّحة البدنية، و الثانية: مرحلة العلاج للمريض، فكذلك فى الطب الروحى و الأخلاقى، يمرّ بمرحلتين: مرحلة الإرشاد والتعليم من قبل معلمى الأخلاق، للمحافظة على نفوس الناس من التلوّث بالرذائل، و الثانية: مرحلة العلاج للمذنبين الملوّثين بالرذائل. و ما جاء فى الخطبة (١٠٨) من نهج البلاغة، فى وصف الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و معالجاته بالمرامهم والكفى للجروح، يبين مدى التنوع فى الطب الروحى، كما هو الحال فى الطب المادى. ففى الطب المادى (الجسمانى)، توجد مجموعة إرشادات و أوامر كليّة لعلاج الأمراض، و قسم من الأوامر التى تخص كل مرض بذاته، فكذلك الطب الروحى، فالتوبة و ذكر الله و العبادات الاخرى، و المحاسبة و المراقبة للنفس، هى اصول كليّة للعلاج، و كل مرض أخلاقى، نجد الأوامر و الإرشادات الخاصة به، مذكورة فى الكتب الإسلامية و الأخلاقية.

### النظرية الثالثة: نظرية السير و السلوك

وقد شبه الإنسان فى هذه النظرية، بمسافر إنطلق من نقطة العدم، إلى لقاء الله تعالى، و يتحرك فى سلوكه بهدف لقاء الله، و القرب من الذات المقدسة اللامتناهية. ففى هذا السير، و كما هو الحال بالنسبة لأسفارنا المادية، يجب تحضير المركب و المتاع، و إزالة الموانع التى تقف فى الطريق، و التفكير فى كيفية التصدى للصوص و قطاع الطريق و الأعداء، للمحافظة على المال والأرواح، فهذا السير الروحانى و المعنوى، فيه منازل و طرق ملتوية و صعبة العبور، و مطبات خطيرة، و لا يمكن العبور منه بسلامة، إلا بمعونة الدليل المطلع و العارف بالطريق، و العبور منها واحداً بعد واحد حتى الوصول إلى محط الرحال و منزل المقصود. و يصير البعض أن السير و السلوك إلى الله تعالى، و معرفته و منازلها، و زاده و أدلّائه، و الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١١٠ الطريق الموصل إليه، هو علم غير علم الأخلاق، و منفصل عنه، ولكن و بنظره أوسع، نرى أن السير و السلوك الروحى، يلتقى فى نفس الطريق التى تهدف إليه التربية الأخلاقية، و تحصيل الفضائل فى خط التكامل المعنوى، أو على الأقل أن الاخلاق الإلهية هى أحد أبعاد السير و السلوك الروحانى. وعلى أية حال، فإن الآيات و الروايات، أشارت إلى هذه النظرية أيضاً، ومنها: الآية (١٥٦) من سورة البقرة، حيث تقول: «الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون». فمن جهة، يرى الإنسان نفسه أنه ملك لله تعالى، و من جهة أخرى، يرى نفسه أنه مسافر، و يتحرك باتجاه الله تعالى شأنه. و نقرأ أيضاً فى سورة العلق: «إن إلى ربك الرجعى» (١). و جاء فى سورة الإنشقاق: «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه» (٢). و جاء فى سورة الرعد: «رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» (٣). و يوجد أكثر من (٢٠ آية)، تحدثت عن أن لقاء الله تعالى، فى الواقع هو مقصود السالكين إلى الله و العارفين

به، و يعنى اللقاء المعنوى و الرّوحى مع المحبوب، و المقصود الذى لا- مثل له. و صحيح أنّ هذه الآيات، و آيات الرجوع إلى الله تعالى، تستوعب جميع هذه المعانى، ولكن هذا لا يمنع من أن سير وسلوك المؤمن و الكافر، من ناحية الفطرة و الخلق، هو يتّجاه البارى تعالى، فبعض ينحرف عن طريق الفطرة، فيسقط في وادٍ سحيق، ولكن أولياء الله و مع إختلافهم بالمراتب، يصلون إلى المقصود، مثل الحيامن التى تسير جميعاً فى عالم الرّحم لتكوين الجنين، فبعضها تموت فى المراحل الأولى بسبب بعض الآفات، و تتوقف عن الحركة، و بعضها يستمر فى طريقه، ليصل أحدها إلى الهدف. و أفضل و أوضح من هذه التّعابير، هو تعبير القرآن الكريم، حيث يقول: «إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الاخْتِلاَقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١١١ التّقوى، (وعادةً كلمة: الزّاد، تقال للطعام الذى يحمله المسافر معه، ولكنها فى الأصل موضوعة لمعنى أشمل: بحيث تشمل كلّ ذخيرة). و على هذا الأساس يقول: إِنَّ التّقوى هى خيرُ الزّاد، و هى إشارة إلى سير الإنسان فى طريق التّوحيد الخالص، و على كلّ حال فإنّ هذا السّيفر الرّوحانى يحتاج إلى زاد، وزاده لا يبدّ و أن يكون معنوياً أيضاً. و نرى مثل هذا التعبير، واردٌ بكثرة فى الزوايات الإسلاميّة. و فى موارد متعدّدة من نهج البلاغة، أتى ذكر التّزود للآخرة: ففى الخطبة (١٥٧) يقول الإمام عليه السلام: «فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ». و فى الخطبة (١٣٢) نرى تعبيراً أوضح، فيقول عليه السلام: «إِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مَقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ». وجاء فى الخطبة (١٣٣)، تعبير أَلطّف و أدقّ، فقال عليه السلام: «وَالْبَصِيرَةُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ». و هناك آيات فى القرآن الكريم، يمكن أن تحمل فى مضمونها إشارات لهذه النظريّة، و منها: «صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» «١»، و «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمَ» «٢»، و «سَبِيلِ اللَّهِ»، موجودة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، و «لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» «٣»، و أمثالها يمكن الإشارة بها إلى هذه النظريّة.

## تنوع الطرق لأرباب السّير و السّلوک

### إشارة

من الجدير بالذكر، أنّ أرباب السّير و السّلوک، و العلماء الذين سلكوا هذا الطريق، و اتخذوا من القرآن الكريم و السنّة الشّريفة دليلاً لهم، (لا الصّوفيين الذين تأثروا بالمذاهب غير الإسلاميّة الأجنبيّة)، فكلّ واحد من اولئك الأفاضل اقترح طريقته تختص به، أو بتعبير أدقّ، إتخذوا منازل و مراحل، سنأتى بها بصورة ملخّصة، حتّى يكتمل البحث، و يكون أكثر فائدة:

## ١- السّير و السّلوک المنسوب: «السّيد بحر العلوم»

### إشارة

هناك كتاب منسوب للعلامة الفقيه العالم: «السّيد بحر العلوم»، و رغم أنّ بعض أبحاثه لا- يمكن القول بصدورها منه، إلّا أنّ بعض أقسامه و الحقّ يقال، فى غاية الأهميّة، فقد ذكر السّيد فى هذا الكتاب أربعة عوالم و منازل، مهمّة للسّير و السّلوک إلى الله تعالى، و القرب منه، وهى: ١- الإسلام. ٢- الإيمان. ٣- الهجرة. ٤- الجهاد. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١١٤ و كلّ واحد من هذه العوالم الأربعة، ذكر له ثلاث مراحل، فيصبح المجموع إثني عشرة مرحلة، و بعد تجاوز هذه المراحل الإثني عشر، يصل السّالك إلى الله، و إلى عالم الخلوص و الفناء، و المراحل أو المنازل الإثني عشر هى: المنزل الأول: الإسلام الأصغر، و القصد منه هو إظهار الشّهادتين و التّصديق بهما فى الظاهر، و أداء الوظائف الدينيّة. المنزل الثانى: الإيمان الأصغر، و هو عبارة عن التّصديق القلبى و الاعتقاد الباطنى بكلّ المعارف الإسلاميّة. المنزل الثالث: الإسلام الأكبر، و هو عبارة عن التّسليم فى مقابل كلّ حقائق الإسلام، و الأوامر و التّواهى الإلهيّة. المنزل الرابع: الإيمان الأكبر، و هو عبارة عن روح و معنى الإسلام الأكبر، و الّذى ينتقل من مرتبة الطاعة، إلى مرتبة الشّوق و الرّضا و الرّغبة. المنزل الخامس: الهجرة الصّغرى، و هى الانتقال من «دار الكفر»، إلى «دار الإسلام»، و هى شبيهة بهجرة المسلمين، من مكّة

التي كانت مقرّاً للكفار إلى المدينة. المنزل السادس: الهجرة الكبرى، وهي الهجرة والابتعاد عن أهل الذنوب والعصيان، وعدم الجلوس مع الظالمين والمؤثمين. المنزل السابع: الجهاد الأكبر، وهو عبارة عن محاربة جنود الشيطان، بالاستمداد من جنود الرحمان، وهي جنود العقل. المنزل الثامن: منزل الفتح والظفر على جنود الشيطان، والتحرر من سلطتهم، والخروج من عالم الجهل والطبيعة. المنزل التاسع: الإسلام الأعظم، وهو عبارة عن الغلبة على جنود الشهوة والآمال البعيدة، فتنتصر العوامل الموقظة الخارجية، على العوامل الانحرافية الداخلية، وهنا يكون القلب، مركزاً للأنوار الإلهية، والإضافات الربانية. المنزل العاشر: الإيمان الأعظم، وهو الفناء في الله تعالى، ومرحلة الدخول في عالم: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١٥ «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي»، وعندها تظهر حقيقة العبودية لله تعالى في واقع النفس. المنزل الحادي عشر: الهجرة العظمى، وهي هجرة الذات ونسيانها، والسيفر إلى عالم الوجود المطلق، والتوجه الكامل للذات المقدسة للباري تعالى، وهي التي تدخل في جملة خطاب: «وادْخُلِي جَنَّتِي». المنزل الثاني عشر: الجهاد الأعظم، فبعد هجرة الذات، يتوسل بالله تعالى أن يمنح كل آثار الأنا، ويضع القدم على بساط التوحيد المطلق. فبعد أن تطوى هذه العوالم الإثنا عشر، يدخل في عالم الخلوص، ويكون مصداقاً لقوله تعالى «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». (١)

### كيفية السير والسلوك في هذه الطريقة:

في رسالة السير والسلوك المنسوبة للعلامة بحر العلوم، وبعد ذكره للعوالم والمنازل المذكورة آنفاً، يتطرق إلى كيفية السير في هذا الطريق الصعب، والملء بالمفاخر، ويذكر (٢٥) أمراً للوصول إلى المقاصد العليا، ونذكرها بشكل مختصر: فالسالك إلى الله تعالى، والمريد للقرب منه، لأجل الوصول إلى هذه العوالم، وبعد إطلاعه الكامل على اصول الدين وفروعه، وأحكامه الإسلامية من الطرق المعتمدة، يشد الرحال ويأخذ طريقه في عملية السلوك، من خلال الإلتزام بالمراحل ال (٢٥)، ليصل إلى المقصود: أولاً: ترك الآداب والزسوم والعادات التي تقف عقبة في الطريق، وتغرقه في بحر الآثام. ثانياً: العزم القاطع للسير في هذا الطريق، فلا يخاف شيئاً، ولا يتردد، وليعتمد على لطف الله تعالى. ثالثاً: الرفق ومداواة النفس، فلا يحملها أكثر من طاقتها، كي لا تنفر ولا تنطفئ جذوتها، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١٦ ولثلاً تنقطع عن المسير. رابعاً: الوفاء، وهو الوفاء بالبقاء على العهد في التوبة، وتركه للذنوب وعدم العودة إليها، ويكون وقياً مع استاذة أيضاً. خامساً: الثبات والديموم، يعني الديموم على ما إختاره من برامج لنفسه، حتى تصبح عادةً عنده، وليغلق طريق العودة على نفسه. سادساً: المراقبة، وهي عبارة عن الإنتباه لنفسه في كل الامور والأحوال، ولثلاً تصدر منه المخالفة. سابعاً: المحاسبة، كما جاء في حديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ كُلَّ يَوْمٍ» (١). ثامناً: المؤاخذه، حيث يوآخذ نفسه في كل خطأ يصدر منه ويعاقبها. تاسعاً: المسارعة، يعني يعمل بمقتضى أمر: «سَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (٢)، الوارد في القرآن الكريم، فيسارع في كل خير، لئلا يسبقه الشيطان ويوسوس له في تركه. عاشراً: خلوص الباطن، وهو تطهير الباطن، بحيث لا يكون أدنى غش في قلبه، والحب التام لرسول الله صلى الله عليه وآله وأله أصحاب الشريعة، والأوصياء المعصومين عليهم السلام. الحادي عشر: الأدب، حفظ حرمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأله، وأوصياءه المعصومين عليهم السلام، بحيث لا يلفظ بلفظ يدل على عدم الرضا منهم، والإعتراض عليهم عليهم السلام، وحفظ حرمة الأكبر، وليبان حاجته في الدعاء لا يستعمل ألفاظاً تدل على الأمر والنهي. الثاني عشر: التيقن، وتعني إخلاص القصد في هذا المسير والحركة، وجميع الأعمال لله تعالى. الثالث عشر: الصية، ويعني الإكتفاء بالمقدار اللآزم من الكلام. الرابع عشر: الجوع وقلمة الأكل، وهو من الشروط المهمة لسلوك هذا الطريق، ولكن ليس للحد الذي يبعث على الضعف وعدم القدرة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١٧ الخامس عشر: الخلو، وهي عبارة عن العزلة عن أهل العصيان، وطلب الدنيا وأصحاب العقول الناقصة، والتوجه الخالص لله عند العبادة والذكر، والابتعاد عن الضوضاء وعناصر التشويش الذهني. السادس عشر: السير، وخصوصاً في الثلث الأخير من الليل، الذي أكدت عليه الآيات والزوايات. السابع عشر: الديموم على الطهارة، وهو أن يكون على وضوء دائماً، حيث ينور الباطن بأنوار خاصية. الثامن عشر: التضرع لله تعالى، والتحرك على مستوى اظهار الخضوع



له، أكثر وأكثر. التاسع عشر: عدم إعطاء النفس ما تريد وإن كان مُباحاً، بالقدر الذي يستطيع. العشرون: كتمان السر، وهو من أهم الشروط، وهو ما يؤكد عليه أساتذة هذا الأمر، حتى لا يجزّ الإنسان للرياء والتظاهر، وإذا ما حصلت له المكاشفة، يجب أن لا يخبر أحد لئلا يُصاب بالعجب. الواحد والعشرون: يجب الإلتزام في عمليته السلوك المعنوي باستاذ، سواء كان الأستاذ عامّاً للسير والسلوك أو خاصّاً، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام. ويجب على السالك الإلتباه إلى أنّ هذه المرحلة، هي مرحلة دقيقة جداً، حتى لا يختبر أحداً ولا يطلع على صلاحيته العلمية والدينية، ولا يعتمد على إرشاداته بصورة كلية، لأنه يوجد بعض الشياطين يتلبسون بلباس الأساتذة، وذئاب تلبس ثوب الزاعي، فتحرف السالك عن الجادة. ويقول المرحوم العلامة الطباطبائي في هذا المجال: إنّ الإطلاع على العلوم والأسرار الغريبة، وما وراء الطبيعة وأسرار الإنسان، والمشى على الماء والنار والإخبار بالمغيبات، كلّها لا تؤكد أنّ ذلك الإنسان قد وصل إلى مرحلة الكمال، لأنّ كلّ تلك الأمور تحصل في مرتبة المكاشفة الروحية، والطريق طويل حتى الوصول إلى الكمال. الثاني والعشرون: «الأوراد»، وهي عبارة عن الأذكار التي تفتح للسالك الطريق والمرور الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١٨ من المطبات الصعبة، وتعينه في المسير إلى الله تعالى. الثالث والعشرون: نفى الخواطر، وهو تسخير القلب، والحكومة عليه والتمركز الفكري، بحيث لا يمر من خاطره شيء، إلا باختياره وإذنه، أو بتعبير آخر، لا يشغل تفكيره الأفكار المشوشة، وهو من الأمور الصعبة. الرابع والعشرون: التفكير، والقصد منه أنّ السالك يسعى من خلال التفكير الصحيح، والعميق، في إكتساب المعرفة الحقة، ويحصر تفكيره في عالم الصفات، والأسماء الإلهية وتجلياته وأفعاله. الخامس والعشرون: الذكر، والمراد منه التوجه القلبي للذات المقدسة للباري تعالى، وليس الذكر اللساني الذي يسمّى بالورد، أو بعبارة أخرى، يكون كلّ نظره جمال الإله، ولا يرى شيئاً غيره. هذه هي خلاصة ما نسب للعلامة بحر العلوم في دائرة السير والسلوك، وتبعه في ذلك مع إختلاف يسير، العلامة الطباطبائي، وذلك كما جاء في رسالته «لبّ الباب».

## ٢- طريقة المرحوم الملكي التبريزي

وهو المرحوم «الحاج ميرزا جواد الآقا تبريزي»، وهو من الاساتذة المعروفين في السير والسلوك إلى الله، وقد إنتهج في رسالته (لقاء الله)، نهجاً يختلف عما جاء به في الرسالة المنسوبة للعلامة بحر العلوم. فهو يُذكر في البداية، أنّ لقاء الله هو الغاية القصوى، والهدف الأعلى، للسير والسلوك، ويستشهد لذلك بآيات متعدّدة من القرآن الكريم، وكذلك بالروايات الكثيرة لمُدّعه، ويصرّح بأنّ لقاء الله تعالى ليس هو المشاهدة العينية، لأنّ الباري تعالى منزّه عن الكيفيات التي توجب رؤيته بالبصر، ولا هو لقاء النعيم والثواب في يوم القيامة، بل هو نوع من «الشهود»، واللقاء القلبي والروحي والمشاهدة بالبصيرة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١١٩ وبعدها يقترح برنامجاً للسير في هذا الطريق الطويل، والمحفوف بالمخاطر، ويتلخص في عدّة أمور: ١- العزم والنية لسلوك هذا الطريق. ٢- التوبة التصوح من الأعمال السالفة، وهي التوبة التي تنفذ في أعماق الوجدان والوعي، في واقع النفس، وتعمل على تغييره، وغسل آثار الذنوب وأدران الخطايا من جسمه وورحه. ٣- حمل الزاد للطريق، وذكر له عدّة برامج: الف: صباحاً، المشاركة: (يشرط على نفسه أن لا يمضي إلّا في طريق الحق)، وفي النهار المراقبة: (الإلتباه لئلا يحيد عن الطريق)، ومساءً المحاسبة: (لنفسه على ما فعله في النهار). ب- التوجه للأوراد والأذكار، ووظائف اليقظة والمنام. ج- التوجه لصلاة الليل، والخلوّة بالله تعالى، وإحياء الليل وترويض النفس في حالات النوم والأكل، بحيث لا يتجاوز عن الحد الضروري. ٤- الإستفادة من سوط السلوك، وهو عبارة عن مؤاخذة النفس وتوبيخها، لتوجّهها للدنيا وتقصيرها في طلب الحق، وعدم وفائها، وإطاعة الشيطان في معصية الله تعالى، ويستغفر الله على كلّ ذلك ويعزم على السير في طريق الإخلاص والإيمان والصلاح. ٥- عند التحول، وفي هذه المرحلة، وقبل كلّ شيء، يجب أن يفكر في الموت، ليميت حبّ الدنيا في قلبه ويصلح الصّفات القبيحة عنده، وهو دواء نافع في هذا المجال، (وبعدها يفكر في عظمة الله وأسماءه و صفاته، ويذكر أولياء الحق، وليسعى بأن يُشابههم في صفاتهم). ٦- عند القرب من منزل المقصود، يشير إلى أنّ الإنسان

لديه ثلاثة عوالم: ١- عالم الحس والطبيعة. ٢- عالم الخيال والمثال. ٣- عالم العقل والحقيقة. فعالم الحس والطبيعة كله ظلمات، وإذا لم يعبره فلن يستطيع الوصول لعالم المثال، وهو العالم الذي تكون فيه الحقائق لها صوراً عاريةً عن المادة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٢٠ وما دام يراوح في عالم المثال، فلن يستطيع الوصول إلى عالم العقل، الذي هو عالم الحقيقة والأصل للنفس الإنسانية، الذي لا- صورة ولا- مادة فيه، فإذا وصل لعالم العقل، و أدرك نفسه خاليةً عن المادة والصورة، فسيصل إلى معرفة الباري تعالى، و يكون مصداق لقوله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» (١)»

### ٣- طريقة أخرى

#### إشارة

في رسالة «لقاء الله» للعالم والمحقق الكبير، الآقا المصطفوي، أشار إلى برنامج آخر للسير والسيلوك، في رسالته الجامعة والغنية، و المعتمدة على الآيات والأخبار، حيث أشار أولاً إلى الآيات المتعلقة بلقاء الله، وبعدها شرع في تفسير معنى اللقاء؛ أن المراد منه اللقاء المعنوي والزوحي، وأضاف أن الإنسان ولأجل وصوله للقاء الله تعالى في هذا السير المعنوي، عليه أن يكسر حدود المادة والمكان والزمان، وكذلك الحدود الذاتية لكل الممكنات، و يفنى في عالم اللاهوت، و يكون المخاطب لقوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي» (٣). و أقترح خمسة مراحل للوصول إلى المقصود الأكبر: المرحلة الأولى: التحرك على مستوى تكميل وتقوية الاعتقادات، و التوجه الخاص لأصول الدين. المرحلة الثانية: التوبة من الذنوب، و التحرك من هذا الموقع للإتيان بالأعمال الصالحة وأداء الواجبات. المرحلة الثالثة: السعي الجاد لتطهير النفس من الرذائل، و تحليلتها بالفضائل الأخلاقية. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٢١ المرحلة الرابعة: محو الأنانية، و الفناء في مقابل عظمة الحق. و في هذه المرحلة التي ينقطع الإنسان فيها عن التعلقات المادية، من الأهل والأموال والأولاد واللذات، تكون الشهوات المادية والخيالية قد تغيرت و تبدلت، إلى تعلقي و إرتباطٍ روحي و معنوي، والذي يبقى هو التعلق بالذات و النفس، و هذا التعلق متجذّر و قوى لدرجة كبيرة جداً، ولشدة ظهوره: خفي، و تبقى ملاحظة واحدة و هي، أن هدف السالك في جميع هذه المراحل هو الوصول إلى لقاء الله، و في الواقع والباطن أن كل عمل يكون قد أداه هو له و لنفسه. و بعبارة أخرى: كان يُريد الوصول إلى المقامات العليا، و القرب من الله تعالى، و الحصول على الكمالات المعنوية و الروحية، فكل ذلك كان بدافع النفس و الذات، و ليس للهدف الأصلي، و لذلك فهو عند وصوله لمثل هذا المقام يفرح غاية الفرح، ولكن إذا وصل غيره إلى هذا المقام، فسوف لن يكون فرحاً لهذا الحد، و هنا يجب أن تُحذف «الأنانية» و تُنسى و يكون المحبوب للسالك هو تجلّي الله سبحانه، لا من خلال حب الذات، أو بعبارة أوضح، يجب أن تُمحي «الأنانية»، و هي الحجاب الأكبر و المانع الأقوى، و آخر الحجب للوصول إلى الله تعالى و لقاءه. ولإزالة هذا المانع، توجد عدّة طرق: ١- طريق التوجه القلبي لله تعالى، و التوحيد الذاتي و الصّفاتى والأفعالى، و منه يفهم أن غيره لا شيء في مقابله. ٢- التفكير و الإستدلال للوقوف بوجه «الأنانية» و حجاب النفس، بمعنى أن يرى أن الله تعالى غير محدودٍ بحد، و هو الأزلي و الحق المطلق، و النفس هي الموجود المحدود في كل شيء، و في منتهى الضعف و العجز و الفقر والحاجة إلى الله تعالى، و من دون المدد الإلهي فإنها لا تستطيع الصمود و لا للحظة واحدة. ٣- المعالجة بالأضداد، بمعنى أنه كلما أحس بوجود «الأنانية» في وعيه، يعالج هذا الموقف بالتوجه لله و الصّالحين من عباده، لكي يعيش في الحضور الدائم مع الباري تعالى. المرحلة الخامسة: في هذه المرحلة يصبح السالك إنساناً ملكوتياً، و يدخل في عالم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٢٢ الجبروت!. و القصد من الدخول في مرحلة الجبروت، هو أن الإنسان يصل إلى مرحلة من الصفاء و الإخلاص، يكون فيها مندكاً في ذات الله تعالى، وله نفوذ و سلطة على الامور، فيتحرك في أداء وظائفه الإلهية، و إرشاد الناس، و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من موقع المسؤولية و الإنضباط في خط الرسالة، و يكون على بصيرة

كامله من أمره. أو الأحرى، ينسى نفسه، ويكون على علم بكلّ المسائل والوظائف والأحكام والآداب الشرعية، وطرق السير والسلوك، ويكون تشخيصه للأمراض والأدوية دقيقاً جداً، كالطبيب الحاذق الذي يعرف الداء والدواء ويشخصه جيداً «١». والجدير بالذكر أنه قد استدلل لكلّ هذه المطالب في كتابه، بالآيات والروايات الإسلامية، كشاهد على مدّعاها.

### خلاصة ما تقدم من مذاهب السير والسلوك:

يُستفاد مما تقدّم من تعليمات أرباب هذا الفن، والطريق: (الذين مشوا في نهج الإسلام الأصيل وطريق أهل البيت عليهم السلام لا المتصوفة)، أصولاً مشتركة في عمليّة السير والسلوك إلى الله وهي: ١- أن الهدف الأصلي، هو لقاء الله وشهود ذاته المقدسة، بالبصيرة والحضور الروحي المعنوي عنده. ٢- للوصول لهذا الهدف، ينبغي التحرك أولاً من موقع التوبة من جميع الذنوب والردائل الأخلاقية، والتحلّي بالفضائل. ٣- في هذا الطريق يجب أن لا ينسى الآداب الأربعة: المشاركة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاقبة، يعنى يُشترط في الصّباح على نفسه، أن لا يذنب ولا يخالف رضا البارئ تعالى، ويراقب نفسه في طول النهار وفي الليل وعند النوم، يجلس للمحاسبة، وإذا ما صدرت منه مخالفة يعاقب نفسه بتركه لأنواع اللذائذ. ٤- التصدي لهوى النفس من موقع المخالفة، لأنّ الهوى هو من أكبر السيّدود في هذا الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٢٣ الطريق، ومخالفته هي من أوجب الواجبات. ٥- التوجه لأذكار وأوراد وردت في الشرع المقدس، وأمثال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، و ذكر «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، وذكر «يا الله» و «يا حيّ» «يا قيوم» وهي الزاد في هذا الطريق والسبب للقوة. ٦- التوجه القلبي لحقيقته التوحيد للذات والصّفات والأفعال لله تعالى، والغرق في صفات كماله وجماله، وهي زاد آخر لهذا الطريق الوعر المليء بالمطبات والتحديات الصعبة. ٧- كسر أكبر الأصنام، وهو صنم الأنانية والذات الفردية، وهو من أهم الشروط للوصول للمقصود. ٨- وقد إشرط البعض الاستعانة بالاستاذ، والسير في هذا الطريق تحت إشرافه، فيكون كالطبيب الذي يعمل على معالجته، والبعض لا يعتمدون على الاستاذ، وحصل في كثير من الموارد، وللأسف الشديد، الوقوع في حبال الشيطان، وذلك بسبب الإعتماد على الاستاذ، حيث يعتبرونه كالملاك، فيذهب دينهم وإيمانهم وأخلاقهم إدراج الرياح! ويرى البعض الآخر، أنّ وظيفة الإرشاد والسير على هدى الأنبياء والأولياء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي آخر المراحل، ولكن كثيراً منهم لم يذكروا شيئاً، وتركوا السالك بحاله. والغرض من الإتيان بهذا البحث، في المباحث الأخلاقية، في هذا الكتاب، هو: أولاً: سرد عصارة من التفكرات التي لها علاقة بالمباحث الأخلاقية، حتى يتنور القارئ ويتحرك في طريق التهذيب وإصلاح الذات. ثانياً: نحذّر طلاب الحقيقة، أنّ الحدّ بين الحقّ والباطل ضئيل جداً، فكثير من الشباب من ذوى القلوب النقية، كان هدفهم الوصول إلى الحقّ والعين الصّافية، ولكنهم إنجرفوا في طريق الضلاله، وتركوا طريق العقل والشرع، ولذلك تاهوا في وادي الحيرة، وغرقوا في مستنقع الخبيثة، ولم يسلموا من مخالب الذئاب الصّارية، الذين يرتدون مسوح الزهد والقداسة، فأضاعوا وفقدوا كلّ ما لديهم.

### هل يلزم وجود المرشد في كلّ مرحلة؟

#### إشارة

يعتقد كثير من أرباب السير والسلوك، أنّ السائر في طريق الكمال والفضيلة، والتقوى والأخلاق، والقرب إلى الله تعالى، يجب أن يكونوا تحت إشراف الاستاذ والمرشد، كما ذكر في رسالة السير والسلوك للعلامة بحر العلوم، ورسالة لبّ الألباب للمرحوم العلامة الطباطبائي، في الفصل الحادي والعشرون من وظائف السائر إلى الله، هو التعليم والتعلم تحت نظر وإشراف الاستاذ، سواء كان الاستاذ عالم كالعالم الذين مشوا في هذا الطريق، أم الأساتذة الخصوصيين، وهم الأنبياء الأئمة والمعصومين عليهم السلام. ولكن المطلعين

من أهل الفن، يُحذرون السائرين على طريق التقوى و التهذيب، من عدم الإلتجاء بسهولة لأى كان، وإذا لم يطمئنا إطمئناناً كافياً، ولم يختبروا صلاحيتهم العلمية والدينية، فلا يسلموهم أنفسهم، ولا يكتفوا حتى بإخبارهم للمستقبلات، ولا أعمالهم غير الطبيعية، ولا حتى مرورهم على الماء والنار، لأن صدور هذه الأعمال ممكن من المتراضين غير المهذبين أيضاً. وقال البعض الآخر: إن الرجوع للأستاذ لازم في المراحل الأولية، وأما بعد السير و عبور عدّة مراحل، فلا يحتاج إلى الاستاذ، و الرجوع للأستاذ الخصوصى و هو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام، حتى نهاية المراحل، يكون لازماً و ضرورياً. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٢٦ و قد إستدلوا على لزوم الرجوع للأستاذ تارةً، بهذه الآية الشريفة، التى تقول: «فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (١). فرغم أنها تتناول التعليم لا التربية، ولكن الحقيقة أن التربية تعتمد على التعليم فى كثير من الموارد، فلذلك يجب الرجوع للمطلعين فى مثل هذه الموارد، وهذا المعنى يختلف إختلافاً واضحاً عن إختيار شخص خاص ليكون ناظراً على أعمال وأخلاق الإنسان. ويستشهد القائلون بضرورة المرشد تارةً اخرى؛ بحكاية موسى مع الخضر عليهما السلام، فقد كان موسى عليه السلام بحاجة للخضر، مع ما أنه كان من الأنبياء وأولى العزم، وقطع قسماً من الطريق بمساعدته عليه السلام. ولكن و بالقاء نظرة فاحصة على قصّة موسى والخضر عليهما السلام، نرى أن موسى عليه السلام عندما تعلم من الخضر عليه السلام، إنما كان بأمر من الله تعالى لأجل الإطلاع على أسرار الحكمة الإلهية بالنسبة للحوادث التى تحدث فى هذا العالم، والاخرى أن علم موسى عليه السلام كان عملاً ظاهرياً، «ويتعلق بدائرة التكليف»، و علم الخضر عليه السلام علماً باطنياً، (خارج عن دائرة التكليف) (٢)، وهذا الأمر يختلف عن مسألة إختيار الاستاذ و المرشد، فى كل مراحل التهذيب للنفس و السير فى طريق التقوى، وإن كان يشير ولو بالإجمال إلى أهميته كسب الفضيلة، فى محضر الاستاذ فى خط التكامل المعنوى. وقد يستشهد لذلك أيضاً بحكاية لقمان الحكيم و ابنه، فهو استاذ إلهى أخذ بيد ابنه و ساعده فى سلوك ذلك الطريق (٣). ونقل العلامة المجلسى فى بحار الانوار، عن الإمام السجّاد عليه السلام أنه قال: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يَرشُدُهُ» (٤). ولكن و من مجموع ما ذكر، لا يمكن إستفادة لزوم المرشد فى دائرة السلوك الأخلاقى و الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٢٧ تهذيب النفس، بحيث إذا لم يكن تحرك الإنسان فى خط التهذيب النفسى و التزكية الأخلاقية، تحت إشراف المرشد، فسوف يختل برنامج التربية و الأخلاق و التقوى، و يتعطل السير و السلوك فى حركة الواقع النفسى و المعنوى لدى الفرد، لأن الكثير من الأشخاص إلتزموا بالروايات والآيات والأحاديث الإسلامية، و عملوا بها، و وصلوا إلى مقامات عالية و درجات كبيرة دون الإستعانة بمرشد أو معلّم خاص على مستوى التربية الأخلاقية، و طبعاً لا يمكن إنكار فائدة الأساتذة و المرشدين و توجيهاتهم القيمة، فهم عناصر جيّدة للوصول إلى المقصود من أقرب الطرق، و معدّات فاعلة لمواجهة المشاكل الأخلاقية لتحديات الواقع، و حلّها وفق مستجدات الواقع و مستلزمات العقيدة. و جاء فى نهج البلاغة أيضاً: «أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شَعْلَةِ مِصْبَاحٍ، وَاعْظُ مُتَعَطِّئًا» (١). ولكن وللأسف نجد فى كثير من الموارد، أن النتيجة كانت عكسية، فكثير من الأشخاص عرّفوا أنفسهم بأنهم مرشدون للناس فى سلوك سبيل التربية و التهذيب، ولكن اتضح بأنهم قطاع طرق، وكم من الأشخاص الطاهرين الطالبين للحق إنخدعوا بهم، و ساروا فى طريق التصوف أو الإنحراف، و سقطوا فى منحدر الرذيلة، و ارتكبوا مفاسد أخلاقية كبيرة؛ و عليه فنحن بدورنا نحذّر السائرين على هذا الطريق، إذا ما أرادوا الإستفادة من الحضور، عند استاذ و مرشد فى المسائل الأخلاقية، فيجب أن يتوخّوا جانب الحذر و الإحتياط، و ليتأكدوا من حقيقة الأمر، و لا- يغتروا بالمظاهر الخادعة، بل ليتفحصوا عن سوابقهم، وليشاوروا أصحاب الفن فى هذا المجال، كى يصلوا إلى غايتهم المنشودة.

### دور الواعظ الداخلى (الباطنى):

تكلمنا عن دور الواعظ الخارجى بصورة كافية، و الآن جاء دور الواعظ الداخلى؛ حيث يستفاد من بعض الأخبار و الروايات الإسلامية أن الصّمير الحى هو الواعظ الداخلى و الباطنى للإنسان، و له دور مهم فى السير على طريق التكامل الأخلاقى و التقوى، و بالأحرى

الإخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٢٨ لا يمكن السير بدونه، في مواجهة التحديات الصعبة وقوى الإنحراف. فقد جاء في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، أنه قال: «يا ابن آدم إنك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كانت المحاسبة من همك» (١). و نقل أيضاً عنه عليه السلام، مشابه لهذا المعنى، مع قليل من الاختلاف (٢). وجاء في نهج البلاغة أيضاً، أن: «واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ» (٣). ومن البديهي أن الإنسان في هذا الطريق يحتاج إلى واعظ قبل كل شيء، ليكون معه في كل حال: ويعلم أسراره الداخلية، ويكون رقيباً عليه ومعه دائماً، وأي عامل أفضل من الواعظ الداخلي وهو الوجدان، يتولى القيام بهذا الدور، ويتبه الإنسان إلى منزلقات الطريق، وتعقيدات المسير، ويصدّه عن الإنحراف والسيقوت في الهاوية. ونقرأ في حديث عن الإمام علي عليه السلام: «اجعل من نفسك على نفسك رقيباً» (٤). وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام: «يتبعني أن يكون الرجل مهيمناً على نفسه مراقباً قلبه، حافظاً لسانه» (٥). ١١

## العناصر اللازمة لتربية الفضائل الأخلاقية

### إشارة

إضافة لما ذكرنا من برنامج للعودة بالإنسان في أجواء التربية الأخلاقية، يوجد هناك عناصر أخرى، لها أثرها الكبير في منح الإنسان قوة التصدي، لحالات الضعف أمام الرذائل الأخلاقية، وتقوية أصول الفضائل في واقع الإنسان، و حركته التكاملية في الحياة، و منها:

### ١- طهارة و صفاء المحيط

### إشارة

مما لا شك فيه أن المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، يعكس أثره الكبير على سلوكيات و روحيات ذلك الإنسان، حيث يسترفد كثيراً من صفاته وأفعاله من المحيط الاجتماعي و الثقافي، فالمحيط النظيف و الطاهر غالباً ما يفرز انساناً طاهرين، والعكس صحيح. و رغم أن الإنسان يمكن أن يعيش نظيفاً و طاهراً في الوسط الملوث، وبالعكس يمكنه أن يسير في طريق الرذيلة و الإثم في المحيط الطاهر، و بعبارة أخرى إن الظروف الاجتماعية و الثقافية التي يعيش فيها الإنسان، ليست العلة التامة في صلاح و إنحراف الإنسان، ولكنها يمكن أن تهيء الأرضية لذلك قطعاً، وهذا مما لا يقبل الإنكار. و قد يقول البعض، بأن الإنسان يخضع لإجبار المحيط و المجتمع، «فيبقى الإنسان كما هو الموجود فعلاً»، ولكننا ننكره جملة و تفصيلاً، من دون أن ننكر دور العوامل القوية في عملية الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٠ إخضاع الفرد لمتطلبات الواقع و تحدياته، في أجواء التفاعل الاجتماعي. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، و نقرأ الآيات التي تؤيد تأثير المحيط في شخصيته الإنسان، بالدلالة الإلزامية، أو المطابقيه للكلام، لنستوحى منها المفهوم القرآني في هذا الإطار: ١- «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» (١). ٢- «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (٢). ٣- «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا» (٣). ٤- «يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاي فَاعْبُدُون» (٤). ٥- «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (٥).

### تفسير و إستنتاج:

«الآية الأولى» تحدّثت عن تأثير المحيط في أعمال وأفعال الإنسان، بيانٍ لطيفٍ و جذّابٍ، وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية، و ذهب كلّ واحدٍ منهم إلى رأى ... فبعضهم قال: إنّ المراد منها، أنّ ماء الوحي الرّزقاق كقطرات المطر، ينزل على أرض الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣١ القلوب فترتوى منه القلوب الطاهرة، و تنبتُ ورود المعرفة وفواكه التّقوى و الطّاعة اللّذيذة، ولكن القلوب السّوداء والملوثة، لا- تتأثر به من موقع الإستفادة في حركة الحياة، وعندما نرى أنّ ردود الفعل، قبال دعوات الأنبياء، و تعاليم الوحي ليست متساوية عند الجميع، فهذا لا يدلّ على وجود النقص والخلل في فاعليته الفاعل، بل أنّ الإشكال إنّما هو في قابليته القابل «١». و الأمر الآخر أنّ الغرض من بيان هذا المثال، هو أنّ يكون طلب الفضائل والمحاسن من محلّها المناسب، لأنّ السّعى في المحل غير المناسب ليس هو إلّا إهدار و تضييع للطاقات «٢». الإحتمال الثالث، في تفسير هذه الآية و يمكن الإستفادة منه هنا، هو أنّ في هذا المثال شبه الإنسان بالنبات، ولكن الأرض التي تنبت فيها النباتات إمّا حلوة أو سبخة، ممّا تنعكس تأثيراته على الثّبات أيضاً، و في المحيط الملوّث، لا يمكن تربية الإنسان في إطار التعاليم الإلهية والقيم الأخلاقية، مهما كانت التعليمات وأساليب التربية قويّة و مؤثّرة، فكما أنّ قطرات المطر الموجهة لبعث الحياة للأرض، لا- يمكن أن تؤثر في الأرض السّبخة، فكذلك الحال في عناصر التربية في المحيط الملوّث، و بناءً عليه، يجب علينا أن نهتم بإصلاح المحيط الإجتماعي، و الثّقافي، الذي نعيشه و نتفاعل معه دائماً، للتوصل إلى تهذيب النفوس، و تحكيم الأخلاق الصالحة، في واقع الإنسان والحياة. و بالطبع لا يوجد تقاطع بين التفسيرات الثلاثة المتقدّمة، و المثال الآنف الذّكر، يمكن أن يكون ناظراً لهذه التفسيرات الثلاثة على السّواء. نعم، فإنّ المحيط الإجتماعي الملوّث بالرديلة، هو عدوّ للفضائل الأخلاقية، و الحال أنّ المحيط السّالم و الطّاهر، يهيبه أحسن و أفضل الفرص، لغرض تهذيب النفوس، في معارج الكمال الرّوحي والمعنوي. و قد ورد في الحديث المعروف عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله مخاطباً أصحابه: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءِ الدَّمَنِ»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ خَضْرَاءِ الدَّمَنِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الْمَرَأَةُ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١٣٢ الْحَسَنَاءُ فِي مُنْتَبِ السُّوء» «١». هذا التّشبيه البليغ، يمكن أن يكون إشارةً، لتأثير المحيط الصّالح و السّيء في شخصية الإنسان، على المستوى الإيجابي و السّلبى، أو هو إشارةٌ لمسألة الوراثة، و تأثيرها على مُجمل الشخصية، أو إشارةٌ للإثنين معاً. وفي «الآية الثانية»: إشارةٌ لقوم بنى إسرائيل، الذين بقوا لسنواتٍ طويلةً، تحت إشراف و تعليمات النّبي موسى عليه السلام، في عمليّة الهداية الرّوحية و المعنوية، و في مجال التوحيد و سائر الاصول الدينيّة، و رأوا بأنّ أعينهم المعجزات الإلهية، كإفلاق البحر لهم، و نجاتهم من براثن فرعون و جنوده، ولكن وبمجرد أن صادفوا في طريقهم للشام و الأرض المقدّسة، قوماً يعبدون الأصنام، تأثروا بهم و بمحيطهم الملوّث، وقالوا: «يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». فتعجّب موسى عليه السلام من هذا الانقلاب، و غضب غضباً شديداً، من قولهم هذا وقال لهم: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». و أخذ يبيّن لهم مفاصد عبادة الأصنام. و العجيب أنّ قوم بنى إسرائيل، و بعد التّوضيحات الصّريحة و المكثّرة لموسى عليه السلام، بقوا تحت تأثير هذا المحيط المسموم السّلبى، بحيث إستطاع السّامرى أن يتحرك من موقع إغوائهم، و تفعيل عناصر الإنحراف لديهم في غيبة موسى عليه السلام، و التي إستغرقت عدّة أيام، حيث صنع لهم صنماً من ذهب، و تبعه الغالبية من هؤلاء القوم، و تحوّلوا من أجواء التوحيد إلى أجواء الشّرك. فهذا الأمر يمثل علامةً واضحةً على تأثير المحيط السّلبى، في صياغة السّيلوك الإنساني، من موقع الانحراف و الزيف في دائرة المسائل الأخلاقية، بل و حتّى العقائديّة أيضاً، ولا شك أنّ بنى إسرائيل و قبل مرورهم باولئك القوم، كانت لديهم الأرضيّة المساعدة لعبادة الأصنام، و ذلك إثر بقائهم مع الوثنيين المصريين لمدةً طويلةً، فعندما رأوا ذلك المنظر، عادوا في دائرة الذّكرة إلى ذلك الماضى الأسود، و على كل حال فإنّ كلّ هذه الامور، هي دليل واضح على تأثير الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٣ المحيط الإجتماعي، في أخلاق و عقائد الإنسان في حركة الواقع النّفسى. وفي «الآية الثالثة»: نجد شاهداً آخر على تأثير المحيط على أفكار و أفعال الإنسان، و هو ما نراه في سلوك نوح عليه السلام، و دعاؤه على قومه الكفّار بالفناء و المحق. إنّ نوحاً عليه السلام لم ينطلق في دعائه عليهم من موقع الذات و الانفعال، بل من موقع العقل و البرهان، فقال الله تعالى في القرآن الكريم، على لسان نوح: «إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِئُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا». فهم في الحال الحاضر كفّار و منحرفون، و في حالة إستمرارهم

في التكاثر و التناسل فسوف يؤثرون على أولادهم في عملية الإيحاء لهم بالكفر، و يربوهم تربية منحرفة. و من «الآيتين الرابعة والخامسة»، نستوحى لزوم الهجرة من المجتمع والمحيط المنحرف، حيث يخاطب الباري تعالى عباده في الآية الرابعة، يقول: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ». وفي الآية الخامسة، يحذّر المؤمنين من البقاء في المجتمع الغارق في الضلالة، و يؤكد لهم لزوم الهجرة، و أنّ عذرهم غير مقبول في حالة البقاء والتكاسل، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا». وفي الحقيقة إنّ مسألة الهجرة هي من الاصول الأساسية في الإسلام، و قد شيّد الإسلام دعائمها عليها، حيث تتضمن عملية الهجرة، حكم و غايات عديدة و أهمها الهروب و الفرار من المحيط الملوّث، و النجاة من تأثيراته السيئة على واقع الإنسان و محتواه الداخلي. و ليست الهجرة مختصة بزمان صدر الإسلام، كما يعتقد البعض، بل هي جارية في كلّ عصر و زمانٍ يتعرض فيها المسلمون لضغوط قوى الشرك و الفساد و الكفر، التي تشكّل عناصر ضغطٍ على الزوج المنفتحة على الله والخير، وليفروا بدينهم وأخلاقهم وعقائدهم من أجواء المحيط الملوّث، فجاء في الحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَإِنْ كَانَ شَيْبَرًا مِنَ الْأَرْضِ اسْتَوَجَبَ الْجَنَّةَ وَكَانَ الْإِحْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١٣٤ رَفِيقٌ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» (١). فالتأكيد على مقدار الشبر، إنّما يدلّ على أهميّة المسألة في دائرة الإحتفاظ بالإيمان؛ فلو تسنى للإنسان ذلك، و بأيّ مقدارٍ وأيّ زمانٍ و مكانٍ، فمعناه التوافق مع رسول الله صلى الله عليه و آله و إبراهيم عليه السلام في خطّ الرّسالة و الدّين. و الخلاصة، أنّ المحيط والمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، كان ولا- يزال عاملاً مهمّاً في تكوين و صياغة شخصية الإنسان، و أخلاقه و مؤثراً فيها، وإن كان الأمر ليس على وجه الجبر، و بناءً على ذلك فإنّ تطهير أجواء المحيط الاجتماعي من أهم العوامل لتهديب الأخلاق و تربية الملكات الفاضلة في المحتوى الداخلي للإنسان. و إذا لم يستطع أن يغيّر الإنسان من أجواء المحيط شيئاً، فيجب عليه أن يهاجر و يترك ذلك المحيط الغارق في الزّيف و الضّلاله، و كما أنّ الإنسان، و عندما تتعرض حياته المادية للخطر، يتحرك من موقع الإبتعاد والهجرة من أرضه، فكذلك عليه أن يهاجر منها، عندما تتعرض قيمه الأخلاقية و حياته المعنوية، التي هي أهم من حياته المادية، للخطر... و لا ينبغي أن يتذرّع بأنواع الحجج و الأعذار، ليبقى فيها بحجة أنّها أرضى و أرض آباءى... و غير ذلك من الأعذار و التبريرات الواهية، و يستسلم لعناصر التلوّث و الانحراف التي تؤثر عليه و على أولاده، في الدائرة السّلمية و لا يهاجر منها؟ فيتوجب على جميع علماء الأخلاق، أن يتحركوا في عملية التربية، لغرض إحياء الفضائل الأخلاقية، و تفعيل عناصر الخير و الإيمان، من خلال إصلاح المحيط والمجتمع، و بدون ذلك، فإنّ السعى الفردي و الآنى في هذا الخط، سيكون أثره ضعيفاً في حركة التربية و التّهديب.

## ٢- دور الأصدقاء والعشرة

### إشارة

و الموضوع الآخر، الذي أثبتت التجربة تأثيره العميق على السلوك الأخلاقي، و إتفق عليه جميع علماء الأخلاق و التربية و التعليم، هو عنصر الأصدقاء و دور المعاشرة معهم، ففي الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٥ حال كون الصديق فاسداً و منحرفاً، في دائرة السلوك الأخلاقي، فسيؤثر على صديقه السليم، من موقع الانحراف كذلك، والعكس صحيح أيضاً، فالكثير من المؤمنين، و الأقوياء الإرادة، استطاعوا أن يؤثروا على زملائهم الفاسدين، على مستوى الهداية و الإصلاح، بحيث جعلوا منهم اناساً أتقياء، و ملتزمين في دائرة السلوك الدّيني و الأخلاقي. و نعود للقرآن الكريم، و الآيات التي تتناول هذا الموضوع: ١- «وَمِنْ يَعْشُرْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ \* حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» (١). ٢- «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \* يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ \* أَتَدَّأ مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّا لَمَدِينُونَ \* قَالَ

هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ \* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَزِدِنِي \* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٢﴾. ٣- «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا \* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا \* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعِيدٍ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣﴾».

### تفسير وإنتاج:

الآيات الأولى، التي وردت في محل البحث، تحدثت عن جلوس الشيطان، مع الغافلين عن ذكر الله، من منطلق العوايه، وتوضح تأثير قرين السوء، في السلوك الأخلاقي للإنسان ومستقبله، فتقول أولها: «وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٦ وبعدها يبين القرآن الكريم، دور قرين السوء في حركة الإنسان والحياء، فإن الشياطين يوصدون طريق الهداية والحركة إلى الله تعالى، أمام الإنسان، ويقفوا عقبه في طريق الوصول إلى الهدف المقدس، والأنكى من ذلك، أن هؤلاء المنخدعين يحسبون أنهم مهتدون: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ». وبعدها يتطرق القرآن الكريم إلى النتيجة، فيقول: إن هذا الإنسان عندما يرد في عرصات القيامة، وعند حضور الجميع عند الله تبارك وتعالى، وكشف الأسرار والحقائق، يقول لقرينه الشيطاني: «حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ». حيث نستوحى من هذه التعبيرات، بأن قرين السوء، يمكن أن يحرف الإنسان من موقع الأغواء، عن طريق الباري تعالى، ويصده عن سبيل الهداية والصيلاح، فيهدم عليه دعائم الأخلاق، ويشوه الواقع النفسى والفكرى له، فينخدع هذا المسكين ويحسب أنه على هدى، فأرجاعه عن غيئه، و العودة به إلى الصراط المستقيم، سيكون ضرباً من المحال، ولن يستيقظ من أوهام الغفلة، إلا وقد فات الأوان، وبعد غلق طريق العودة عليه. وكذلك يستفاد من الآية الشريفة، أن قرين السوء يبقى دائماً مع الإنسان في حياته الاخروية الأبدية، وكم هو مؤلم، أن يرى الشخص المسبب في بؤسه وهلاكه، يعيش معه دوماً، ولن تنفع معه اليوم الأمانى والآمال بالانفصال عنه ومفارقتها، فيقول: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» (١). وفي مضمون الآيات الآتية الذكر، الآية (٢٥) من سورة فصّلت، فتقول: «وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ». «الآية الثانية»: من هذه الآيات محل البحث، تتحدث عن الأشخاص الذين عاشوا مع الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٧ أصحاب السوء، و كانوا يتحركون معهم في أجواء الضلالة والانحراف، ولكن اللطف الإلهى شملهم، وإستطاعوا بسعيهم وجدهم في التّحرك بعيداً عن وساوس الشيطان، وأنقذوا أنفسهم من الوقوع في برائته، بعد أن كانوا قد وصلوا إلى حافة الهاوية، فهنا يتحدث القرآن الكريم عن تأثير قرين السوء في تكوين عقائد الإنسان وأخلاقه، ولكن ليس بالشكل الذى يكون فيه الإنسان مجبوراً وغير قادر على إنقاذ نفسه من شركاء الزيف فقال: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \* يَقُولُ أَتُنكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ \* أَنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَدِيُونٌ» (١). وفي هذا الأثناء يذكر قرينه القديم، ويشرع بالبحث عنه، فينظر من أعالي الجنة، فإذا به يراه فى أعماق الجحيم: «فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ». فقال له: «قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَزِدِنِي \* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ». فنرى من هذه الآيات، أن قرين السوء بإمكانه أن يودى بالإنسان إلى الجحيم، لولا الإيمان والتقوى ولطف الله تعالى فى واقع الإنسان. وفي «الآية الثالثة»: نرى التأسف الشديد والتأثر العميق، الذى يعيشه الظالمون فى يوم القيامة، بسبب إختيارهم ومصاحبتهم لأصدقاء السوء، لأنهم كانوا العامل الأساس فى محتهم الفعلية: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا \* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا \* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعِيدٍ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا». وبناءً على ذلك فإن الظالم فى يوم القيامة، أول ما يتأسف على تركه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقطعه للعلاقة معه، وبعدها يتأسف على توثيق العلاقة مع أصدقاء السوء، وبعدها يصرح، أن الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٣٨ العامل الأسمى لضلاله، هو نفس هؤلاء الأصدقاء المنحرفين، ومرضى القلوب، وأن تأثيرهم عليه كان أشد من تأثير النداءات الإلهية: (طبعاً عند المنحرفين فقط). و أما «الآية



الأخيرة»: فقد تحدثت عن أصدقاء السوء، وعبّرت عنهم بجنود الشيطان و أنّهم من شياطين الإنس، والجدير بالذكر، أنّ التعبير عن تأسّف هذه الجماعة، ورد بجملة: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ...»، و هي أعلى مراحل التأسّف، ففي البداية، يعضّ الإنسان إصبعه بدافع الندم، و في مرحلة أقوى يعضّ باطن كفه، و في مرحلة أشدّ يعضّ على يديه الإثنتين، وهو في الحقيقة نوع من الإنتقام من نفسه، و أنّه لماذا قصير في حقّ نفسه ورمائها في التهلكة؟ فما يُستفاد من الآيات الآنفه الذكر، هو أنّ الأصدقاء و الأصحاب، لهم أثرهم الكبير في سعادة أو شقاء الإنسان، ليس على مستوى التأثير في السلوك الأخلاقي فحسب، بل وعلى مستوى العقائد أيضاً، فهنا يجب على المرشد أن يهتم في عمليته صيانة الأفراد من الزيغ و الإنحراف، و يراهم بتوجيهاته بعيداً عن أجواء التلوّث، و خصوصاً في عصرنا الحاضر، الذي إنتشرت فيه وسائل الفساد، عن طريق رفاق السوء بصورةٍ مخيفه، و أصبحت سبباً من أسباب الإنحراف و السير في خطّ الباطل.

### دور الأخلاء في الروايات الإسلامية:

وردت روايات وأحاديث مستفيضة في هذا المضمار عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، و الأئمة الأطهار عليهم السلام، تعكس أهميّة هذه المسألة، ففي حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «المرء على دين خليله وقرينه» (١). وجاء هذا المعنى أيضاً في حديث آخر، نقل عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «ولأ تصحبوا أهل البدع ولأ تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحدٍ منهم». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٣٩ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله وقرينه» (١). و نفس هذا المعنى ورد عن الإمام على عليه السلام أيضاً، وفيه تصوير عن حالة التأثير المتقابل، في دائرة التفاعل المشترك بين الأفراد فقال: «مجالسة الأخيار تلحق الأشرار بالأخيار ومجالسة الأبرار للفجار تلحق الأبرار بالفجار». وجاء في ذيل هذا الحديث، عبارة في غاية الأهميّة، حيث يقول: «من إشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه» (٢). وفي بعض الروايات، ورد هذا المعنى في دائرة التمثيل، فقال: «صحبته الأشرار تكسب الشر كالريح إذا مرّت بالبتن حملت نبتاً» (٣). و يُستفاد من هذه التعبيرات: أنّه و كما أنّ المعاشرة و الصّحبة للأراذل، تهيب الأرضية لحركة الإنسان نحو الانزلاق في طريق الشر، فإنّ المعاشرة مع الأخيار تنير قلب الإنسان بضياء الهدى، و تحيي فيه عناصر الخير. ونقرأ هذا المعنى في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «عمارَةُ القلوبِ في مُعاشرةِ ذوى العُقُولِ». و جاء في حديث آخر عنه عليه السلام، أنّه قال: «مُعاشرةِ ذوى الفِضائلِ حياءُ القلوبِ» (٤). فتأثير المجالسة على قدر من الأهميّة، بحيث قال فيه النبي سليمان عليه السلام: «لا تحكّموا على رجلٍ بشيءٍ حتّى تنظروا إلى من يصاحبُ فإنّما يعرفُ الرجلُ بأشكاله وأقرانه؛ ويُنسبُ إلى أصحابه وأخذانه» (٥). ونقرأ في حديث جاء عن لقمان الحكيم، في نصائحه لابنه، فقال له: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٠ «يا بُنَيَّ صاحبِ العلماءِ، وأقربِ منهم، وجالسهم وزرهم في بيوتهم، فلعلّك تشبههم فتكون معهم» (١). و على كلّ حال، فإنّ الروايات الشريفة، مليئة بمثل هذه النصائح، في دائرة الإهتمام بالرفقة و أثر الصديق في أخلاق و سلوك الإنسان، ولو جمعت في إطار واحد لأمكن تأليف بحثٍ شاملٍ كاملٍ في هذا المضمار. و نختم الكلام بحديث عن الإمام على عليه السلام، في وصاياها لابنه الحسن المُجتبى عليه السلام: «قارنْ أهلَ الخيرِ، تَكُنْ مِنْهُمْ، وباينْ أهلَ الشرِّ تَبْ مِنْهُمْ» (٢).

### تأثير العشرة في التحليلات المنطقيّة:

يقولون: إنّ أحسن وأفضل دليلٍ لإمكان الشيء، هو وقوعه، و في موضوع بحثنا، فإنّ رؤية نماذج عينيّة من معاشرته بعض الأفراد للأراذل، و كيف أنّها أصبحت مصدراً لأنواع المفاسد و الإنحرافات الخلقية لهم، و بالعكس، فإنّ مصاحبة الأخيار، ساهمت لدى البعض، على تطهير أنفسهم، من شوائب الرذيلة و الزيغ، و هذه الموارد هي خير دليلٍ على بحثنا هذا. فالتشبيه القديم القائل: إنّ

الأخلاق القبيحة، مثل الأمراض السارية، تنتشر بين الأصدقاء والأقارب بسرعة فائقة، هو تشبيه صحيح، خصوصاً في الموارد التي يكون فيها الشخص، حدث السن أو ضعيف الاعتقاد والإيمان، وتكون نفسه مستعدة لقبول أخلاق الآخرين، فالمعاشرة لمثل هؤلاء الأفراد، مع أصدقاء السوء، تكون بمثابة سهم مهلك وقاتل في دائرة الإيمان، وعناصر الخير في الشخصية، وقد شاهدنا الكثير من الأفراد والأشخاص من الطيبين، الذين تغيروا بالكامل بسبب معاشرتهم لرفقاء السوء، وتحوّل مجرى حياتهم من أجواء الخير إلى أجواء الشر، وهناك إشارات وأدلة مختلفة من تقرير هذه الحالة في واقع الإنسان من الناحية النفسية والروحية: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤١-١ من جملة الامور التي توصل إليها علماء النفس، هو وجود روح المحاكاة في الإنسان، يعني أنّ الأفراد ينطلقون في حركة الحياة، من موقع الشعور أو اللأشعور، بمحاكاة أصدقائهم وأقاربهم، فالأشخاص الذين يعيشون حالة الفرح والسرور، ينشدون الفرح والخبور من حوالهم، والعكس صحيح. فالأفراد المتشائمين، الذين يعيشون اليأس وسوء الظن، يؤثرون على أصحابهم، ويجعلونهم يعيشون حالة سوء الظن، وهذا الأمر يبين لنا السبب في تأثير الأصدقاء بعضهم البعض الآخر بسرعة. ٢- مشاهدة القبائح وتكرارها، يقلل من قبورها في نظر المشاهد، وبالتدرج تصبح أمراً عادياً، ونحن نعلم أنّ إحدى العوامل المؤثرة في ترك الذنوب والقبائح، هو الإحساس بقبحها في الواقع النفسي للإنسان. ٣- تأثير التلقين في الإنسان غير قابل للإنكار، وأصدقاء السوء يؤثرون دائماً على رفقاءهم في دائرة الفكر والسلوك من خلال عمليّة التلقين والايحاء، فيقبلون عناصر الشر في إعتقادهم إلى عناصر الخير، ويغيرون حسّ التشخيص لديهم لعناصر الخير والشر في منظومة القيم، فتختلط عليهم الامور، في خطّ المستقبل وكيفية التعامل مع الغير. ٤- المعاشرة لرفاق السوء، يشدّد سوء الظن في الإنسان مع الجميع، وتفرض به هذه الحالة النفسية السلبية إلى السقوط في وادي الذنوب والفساد الأخلاقي، فنقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار» (١). وجاء في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّ معاشرته رفاق السوء تميمت القلب، فقال: «أربع يمتن القلب... ومجالسة الموتى فليل لهُ يا رسول الله وما الموتى، قال صلى الله عليه وآله: كُلُّ غَنِيٍّ مُشْرِفٍ» (٢). وهذا الموضوع، يعني سريان الحُسن والقبح الأخلاقي بين الأصدقاء، في أجواء المعاشرة إلى درجة من الوضوح، ممّا حدى بالشعراء إلى نظم الشعر في هذا المضمار، من قبيل قولهم: عن المرء لا تسلّ وسلّ عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدى

### ٣- تأثير الاسرة والوراثة في الأخلاق

#### إشارة

من المعلوم أنّ أول مدرسة لتعليم القيم الأخلاقية، يدخلها الإنسان هي الاسرة، فكثيراً من اسس الأخلاق، تنمو في واقع الإنسان هناك، فالمحيط السليم أو الملوّث للأسرة، له الأثر العميق في صياغة السلوك الأخلاقي، لأفراد الاسرة، إنّ على مستوى الأخلاق الحسنه أو السيئه، فالحجر الأساس للأخلاق في واقع الإنسان يوضع هناك. وتبين أهميّة الموضوع، عندما يتّضح أنّ الطفل في حركته التكاملية، ومسيرته في خط التربية: أولاً: يتقبّل ويتأثر بالمحيط بسرعة كبيرة. ثانياً: إنّ ما يتعلمه الطفل في صغره، سوف ينفذ إلى أعماق نفسه وروحه، وقد سمعنا الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام، يقول فيه: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» (١). فالطفل يستلمه كثيراً من سجايا أبيه وأمه وأخوته وأخواته، فالشجاعة والسخاء والصدق والوفاء، وغيرها من الصفات والسجايا الأخلاقية الحميدة، يأخذها ويكسبها الطفل من الكبار بسهولة، وكذلك الحال في الرذائل، حيث يكسبها الطفل من الكبار بسهولة أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الطفل يكسب الصفات من أبويه عن طريق آخر، وهو الوراثة، فالكروموسومات لا تنقل الصفات الجسمانية فحسب، بل تنقل الصفات الأخلاقية أيضاً، ولكن من دون تدخل عنصر الإجبار، حيث تكون هذه الصفات قابلة للتغيير، ولا تسلب المسؤولية من الأولاد أيضاً. وبعبارة أخرى، أنّ الأبوين يؤثران على الطفل أخلاقياً من طريقين، طريق التكوين، والاخلاق في القرآن،

ج ١، ص: ١٤٣ طريق التشريع، و المراد من التكوين هو الصفات و السِّجَايا المِزاجِيَّة و الأخلاقِيَّة المتوفرة في الكروموسومات و الجينات، و التي تنتقل لا إرادياً للطفل في عمليَّة الوراثة. و الطريق التشريعي يتمثل في إرشاد الأبناء، من خلال أساليب التَّعليم و التَّربية للصفات الأخلاقِيَّة، التي يكتسبها الطفل من الأبوين بوعي و شعور. و من المعلوم أن آياً من هذين الطَّريقين، لا يكون على مستوى الإِجبار، بل كلُّ منهما يُهيِّئ الأَرْضِيَّة لنمو و رشد الأخلاق في واقع الإنسان، و رأينا في كثيرٍ من الحالات أفراداً صالحين و طاهرين، لأنَّ بيئتهم كانت طاهرةً و سليمةً، و العكس صحيح أيضاً. و لا شك من وجود إستثناءات في الحالتين تبين أن تأثير هذين العاملين، و هي: «التربية و الوراثة»، لا يكون تأثيراً على مستوى جبر، بل يخضع لأدوات التَّغيير و عنصر الإختيار. و نعود بعد هذه الإشارة إلى أجواء القرآن الكريم، لنستوحى من آياته الكريمة ما يرشدنا إلى الحقيقة: ١- «إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (١). ٢- «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» (٢). ٣- «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ \* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٣). ٤- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» (٤). ٥- «يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا» (٥).

### تفسير و استنتاج:

«الآية الاولى»: تتحدث عن نوح و دعائه على قومه بالهلاك، حيث إستدلَّ على ذلك الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٤ بقوله: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا». فهذا الكلام يدلُّ على أن الفجار و المنحرفين، لا يلدون إِلَّا الفجَّار و المنحرفين، و لا يستحقون الحياة الكريمة من موقع الرِّحمة، بل يجب أن ينزل عليهم العذاب أينما وجدوا و حلَّوا، و الحقيقة أن البيئَة، و تربية الاسرة و كذلك الوراثة، كلُّها عوامل تؤثر في الأخلاق و العقيدة، في حركة الحياة و الإنسان، و المهم في الأمر أن نوحاً عليه السلام، قطع بكفر و فساد أولادهم اللّاحقين، لأنَّ الفساد إنتشر في المجتمع بصورة كبيرة جداً، فلا يمكن لأحدٍ أن يفلت منه بسهولة، و طبعاً وجود مثل هذه العوامل، لا يعنى سلب الإرادة من الإنسان، و قد ذهب البعض إلى أن نوح عليه السلام، توجه لهذه الملاحظة عن طريق الوحي الإلهي، عندما قال له البارئ تعالى: «إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ آمَنَ» (١). و من الواضح، أن هذه الآية لا تشمل الأجيال القادمة، لكنّه لا يُستبعد أنه عليه السلام حكم عليهم بالإعتماد على الامور الثلاثة السابقة الذِّكر، و هي: (البيئَة، و تربية الاسرة، و عامل الوراثة). و قد ورد في بعض الروايات أن الكفَّار من القوم، كانوا يأتون بصبيانهم المميزين عند نوح عليه السلام، و يقول الأب لابنه؛ أترى هذا الشَّيخ يا بُني؟ إنه شيخٌ كذاب، فلا تقترب منه، هكذا أوصانى أبي، «وإفعل أنت ذلك مع ابنك أيضاً». و ظلَّ الأمر على هذا المنوال على تعاقب الأجيال (٢). و في «الآية الثانية»: يحدثنا القرآن الكريم عن السيِّدة مريم عليها السلام، و التي تعتبر من أهم و أبرز الشخصيات النسائية في العالم، و قد ورد في التَّصوص الدينيَّة، ما يبيِّن أن مسألة التربية و الوراثة و البيئَة، لها أهميَّة كبيرة في رسم و صياغة شخصيَّة الإنسان، في خطِّ الحقِّ أو الباطل، و لأجل تربية أفراد صالحين، يجب علينا التَّوجه لتلك الامور. و من جملتها، حالة الام في زمان الحمل، فترى أن ام مريم كانت تستعيد بالله تعالى من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٥ الشَّيطان الرجيم، و كانت تتمنى دائماً أن يكون من خُدَّام بيت الله، بل نذرت أن يكون وليدها كذلك. فتقول الآية الكريمة: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا». تشبيه الإنسان الطَّاهر بالنبات الحسن، هو في الحقيقة إشارة إلى أن الإنسان كالنبات، يجب ملاحظته ملاحظة دقيقةً، فالنبات و لأجل أن ينبت نباتاً حسناً مثمراً، يجب في بادئ الأمر الإستفادة من البذور الصَّالحة، و الإعتناء به من قبل الفلاح في كل مراحل رشده، إلى أن يصبح شجرةً مثمرةً، فكذلك الطفل في عمليَّة التربية، حيث ينبغي التَّعامل معه من منطلق الرِّعاية و العناية، و تربيته تربيةً صحيحةً، لأنَّ عامل الوراثة يؤثر في نفسه و روحه، و الاسرة التي يعيش فيها، و كذلك البيئَة و المحيط الذي يتعايش معه، كلُّها تمثل عناصر ضاغطة في واقعه النَّفساني و المِزاجي. و الجدير بالذِّكر، أن الله سبحانه جاء بجملة: «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» في ذيل الآية، و هي الكفالة لمريم عليها السلام (١)، و معلوم حال من يتربى على يد نبيٍّ من أنبياء الله تعالى، بل الله تعالى هو الذي إختاره لكفالتها

ورعايتها. فلا غرابة والحال هذه، أن تصل مريم عليها السلام لدرجات سامية، من الإيمان والتقوى، والأخلاق والتربية، ففي ذيل هذه الآية، يقول القرآن الكريم: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». نعم فإن التربية الإلهية: تُثمر الأخلاق الإلهية، والرزق من الله في طريق التكامل المعنوي للإنسان. وقد ورد في «الآية الثالثة»: مقدمة لقضية مريم عليها السلام، و كفالته زكريا عليه السلام لها، وفيها الكلام عن تأثير العامل الوراثي، و عامل التربية في تكريس الطهارة والتقوى والفضيلة، في مضمون الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٦ الإنسان و محتواه الداخلي، فقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ \* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». فالذرية التي بعضها من بعض، إشارة لعامل الوراثة أو التربية الاسرية، أو كلاهما وهو شاهد حتى يؤيد مدعانا من تأثير عناصر الوراثة و التربية، في الشخصية و معطياتها في خط التقوى و الفضيلة. و أشارت الروايات التي نقلت في ذيل هذه الآية، لذلك المعنى «١» أيضا، وعلى كل حال، فإن الآيات الآتية الذكر، تدل على مدى تأثير معطيات التربية والبيئة والوراثة، في نفسية الإنسان، و أثرها العميق في صياغة قابلياته، و الإرتفاع به للتصدي لمقام الرئاسة المعنوية على الخلق، ولا يمكن إنكار تلك المعطيات، و لا يمكن أبداً مقياسه هؤلاء الأطهار الذين عاشوا أجواء الفضيلة، بالذنين ورثوا الكفر و الفساد و التفارق من آبائهم وأجدادهم. و في «الآية الرابعة»: خاطب الباري تعالى المؤمنين وقال لهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وقد تلت هذه الآية، الآيات التي جاءت في بداية سورة التحريم، و التي حذرت فيها نساء النبي صلى الله عليه و آله من أعمالهن، وبعدها ذكر المطلب بصورة حكم عام شمل كل المؤمنين. و من المعلوم أن المقصود من هذه النار، هي نار الآخرة، و لا يمكن الإنقضاء من تلك النار، إلا بالإهتمام بعملية التعليم و التربية السليمة في واقع الاسرة، و التي بدورها توجب ترك المعاصي، و الإقبال على الطاعة و تقوى الله تعالى. و بناء على ذلك فإن هذه الآية تعين و تبين وظيفة رب الاسرة، و دوره في التربية والتعليم، و كذلك تبين أهميته و تأثير عنصر التربية و التعليم، في ترشيد الفضائل و الأخلاق الحميدة، و السيرة الحسنة. و يجب الإهتمام في ترجمة هذا البرنامج، إلى عالم الممارسة و التطبيق، من أول لبنه توضع في بناء الاسرة، أي منذ إجراء عقد الزواج و الزباط المقدس، و يجب الإهتمام بأسلوب التربية، من أول لحظة يولد فيها الطفل، و يستمر البرنامج التربوي في كل المراحل التي تعقبها. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٧ فنقرأ في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنه عندما نزلت هذه الآية الشريفة، سأله أحد أصحابه، عن كيفية الوقاية من النار، له و لعياله، فقال له الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «تَأْمُرُهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ إِنْ أَطَاعُوكَ كُنْتَ قَدًّا وَقَيْتَهُمْ وَإِنْ عَصَوْكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ» «١». و يجب أن يكون معلوماً، أن الأمر بالمعروف يعد من الوسائل الناجعة لوقاية الاسرة من الانحراف و السقوط في هاوية الجحيم، و لأجل الوصول إلى هذا الهدف، علينا الإستعانة بكل الوسائل المتاحة لدينا، و كذلك الإستعانة بالجوانب العملية و النفسية و الكلامية، و لا يستبعد شمول الآية لمسألة الوراثة، فمثلاً أكل لقمة الحلال عند إنقضاء النطفة و ذكر الله، يؤثر إيجابياً في تكوين النطفة، و تنشئة الطفل و حركته في المستقبل في خط الإيمان. «الآية الخامسة والأخيرة»: تشير إلى قصة مريم عليها السلام و ولادتها للمسيح عليه السلام، الذي وُلد من دون أب، و تعجب قومها من ذلك الأمر الفظيع بنظرهم، فقال الباري تعالى على لسان قومها: «يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا». فهذا التعبير، (و خصوصاً نقل القرآن الكريم من موقع الإمضاء و التأييد)، إن دل على شيء فهو يدل على معطيات عوامل الوراثة من الأب و الام، و كذلك تربية الاسرة و تأثيرها في أخلاق الطفل، و كل الناس لمسوا هذه الأمر بالتجربة، فإذا شاهدوا أمراً مخالفاً للمعهود، إستغربوا و تعجبوا. و من مجموع ما تقدم، يمكننا أن نستوحي هذه الحقيقة، وهي أن الوراثة و التربية، من العوامل المهمة، في رسم و غرس القيم الأخلاقية في حركة الواقع النفسي للإنسان، إن على مستوى الأخلاق الحسنة أو السيئة.

لا شك أن المدرسة الأولى للإنسان، هي واقع الأسرة، فمنها يتعلم الإنسان الدروس الأولى للفضيلة أو الرذيلة. وإذا ما تناولنا مفهوم التربية بشكله العام: «التكوين والتشريع»، فإن أول مدرسة يدخلها الإنسان، هي رحم الام و صلب الأب، و التي تؤتى معطياتها بصورة غير مباشرة على الطفل، و تهيب الأرضية للفضيلة، أو الرذيلة في حركته المستقبلية. و قد ورد في الأحاديث الإسلامية، تعبيرات لطيفة و دقيقة جداً في هذا المجال، نشير إلى قسم منها: ١- قال علي عليه السلام: «حُسنُ الأخلاق بُرهانُ كرمِ الأعراقِ» (١). و بناءً عليه فإن الاسر الفاضلة، غالباً ما تقدم للمجتمع أفراداً متميزين على مستوى الأخلاق الحسنة، و بالعكس فإن الأفراد الطالحين، ينشؤون غالباً من عوائل فاسدة. ٢- ورد في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «عليكم في طلب الحوائج بأشراف النفوس وذوى الاصول الطيبة، فإنها عندهم أفضى وهي لديهم أزكى» (٢). ٣- و في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله، ووصياه له في اختيار الضباط للجيش الإسلامي، قال له: «ثم الصق بذوى الثروات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف» (٣). ٤- وورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حديث يبين تأثير الآباء الفاسدين على شخصية الأطفال و سلوكهم الأخلاقي، فقال: «أيما امرأة أطاعت زوجها و هو شارب للخمر، كان لها من الخطايا بعدي نجوم السماء وكل مولود يولد يولد منه فهو نجس» (٤). ٥- الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٤٩ وقد ورد النهي الأكيد، في روايات اخرى كثيرة عن تزويج الشارب للخمر، و السيء الأخلاق (١). ٥- و قد ورد في الحديث النبوي المشهور، بالنسبة إلى تأثير تربية الأب والام على الأولاد، أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه ويصّرانه» (٢). ٦- فالتربية التي تعمل على تغيير إيمان و عقيدة الطفل، كيف لا تعمل على تغيير سلوكه الأخلاقي في الدائرة الإجتماعية؟ ٦- و هذا الأمر جعل مسألة التربية الصالحة، من أهم حقوق الطفل على الوالدين، فنقرأ في الحديث النبوي الشريف: «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه» (٣). فمن الواضح أن مداليل الأسماء، لها أثرها الأكيد على نفسيته و روحية الطفل، فأسماء الشخصيات الكبيرة من أهل التقوى والفضيلة، تجذب الإنسان المسمى بأسمائهم إليهم، و تدعوه للتقرب إليهم، و بالعكس، فإن أسماء الفسقة و الكفار، تقرب من يتسمى بأسمائهم منهم أيضاً (٤). ٧- و نقرأ في النبوي الشريف أيضاً: «ما نحل وإلئد ولئد أفضل من أدب حسن» (٥). ٨- وقال الإمام السجاد عليه السلام، بتعبير أوضح: «وإنك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة له على طاعته» (٦). ٩- الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٠ ٩- و قال الإمام علي عليه السلام، بأن أخلاق الأبوين، هي عبارة عن ميراث الأبناء منهما، فيقول عليه السلام: «خير ما ورث الآباء الأبناء الأدب» (١). ١٠- و نختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام علي عليه السلام، حيث بين الإمام عليه السلام، شخصيته للجهال الذين يقيسونه بغيره، فقال: «وقد علمتم موضعى من رسول الله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصية، و صنعنى فى حجره وأنا وليد يضمنى إلى صيدره... يرفع لى كحل يوم علماً من أخلاقه و يأمرنى بالإقتداء...». و اللطيف فى الأمر، أن الإمام عليه السلام و فى أثناء حديثه، بين قسماً من أخلاق الرسول صلى الله عليه و آله، فقال: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه و آله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره» (٢). ١١- و صحيح أن الصفات النفسية و الأخلاقية، سواء كانت سيئة أم حسنة، فهي تنبع من باطن الإنسان وإرادته، ولكن لا يمكن إنكار معطيات البيئة وأجواء المحيط، فى تكوين و ترشيد الأخلاق الحسنة والسيئة، و كذلك عنصر الوراثة من الوالدين والاسرة بصورة أعم، و توجد شواهد عينية كثيرة، و أدلة قطعية على ذلك، ترفع الشك و التردد فى المسألة. و بناءً على ذلك، و لأجل بناء مجتمع صالح و أفراد سالمين، علينا الإهتمام بتربية الطفل تربية سليمة، و الإنتباه لعوامل الوراثة و أخذها بنظر الإعتبار، فى واقع الحياة الفردية و الإجتماعية.

#### ٤- معطيات العلم و المعرفة فى التربية

ومن العوامل الاخرى، في عمليّة تهذيب الأخلاق وترشيدها، هو الصعود بالمستوى الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥١ العلمى والمعرفى للأفراد، فإنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان، كلّما ارتقى مستواه في دائرة العلوم والمعارف الإلهيّة، أينعت سجايه الإنسانية، و تفتحت فضائله الأخلاقية، و العكس صحيح، فإنّ الجهل وفقدان المعارف الإلهيّة، يؤثّر تأثيراً شديداً على دعوات و اسس الفضيلة، و يهبط بالمستوى الأخلاقى للفرد، في خطّ الإنحراف و الباطل. و في بداية هذا الكتاب، في مبحث علاقة العلم بالإخلاق، ذكرنا أبحاثاً مختصرةً عن الأواصر الحاكمة بين هذين العاملين، و أشرنا إلى أنّ بعض الفلاسفة و العلماء، بالغوا في الأمر و إدعوا أنّ: «العلم يساوى الأخلاق». وعبارة اخرى: أنّ العلم أو الحكمة و المعرفة، هي المنبع الرئيسي للأخلاق، «كما نُقل عن سقراط الحكيم»، و أنّ الرذائل الأخلاقية سببها الجهل. فمثلاً المتكبر و الحاسد، إنّما يتلى بهذين الرذيلتين، بسبب عدم علمه بواقع الحال، فلا توجد عنده صورة واضحة عن أضرارهما و تبعاتهما السلبيّة، على واقع الإنسان الداخلي، ويقولون أنّه لا يوجد إنسان يخطو خطوة نحو القبائح عن وعي و علم بها. و بناءً على ذلك، إذا تمّ الصّعود بالمستوى العلمى لدى أفراد المجتمع، فإنّ ذلك بإمكانه، أن يكون عاملاً مساعداً، لتشديد صرح الهيكل الأخلاقى السليم فى المجتمع. و بالطبع فإنّ هذا الكلام فيه نوع من المغالاة و المُبالغة، و يُنظر للمسألة من زوايه خاصّة، رغم أنّنا لا ننكر أنّ العلم يُعدّ من العوامل المهمّة لتهيئة الأرضيّة، و خلق الأجواء الملائمة لسيادة الأخلاق، بناءً على ذلك فإنّ الأفراد الاميين و الجهلة، يكونون أقرب إلى منحدر الضلالة و الخطيئة، و أمّا العلماء الواعون، فيكونون على بصيرةٍ من أمرهم و يتعدون عن الرذيلة، من موقع الوضوح فى الرؤية، ولا ننسى أنّ لكلّ قاعدة شواذ. و قد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى، فى بيان الهدف من البعثة: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١). الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ١٥٢ و بناءً على ذلك، فإنّ النجاة من الضلال المبين، و الطهارة من الأخلاق الرذيلة و الذنوب، تأتي بعد تلاوة الكتاب المجيد، و تعليم الكتاب و الحكمة، و هو دليل واضح على وجود العلاقة و الإرتباط بين الإثنين. و قد أوردنا فى الجزء الأوّل من الدّورة الاولى من نفحات القرآن الكريم، شواهد حيّة و كثيرة من الآيات القرآنية، حول علاقة العلم و المعرفة بالفضائل الأخلاقية، و كذلك علاقة الجهل بالرذائل الأخلاقية، و نشير هنا بشكل مختصرٍ إلى عشرة نماذج منها:

### ١- الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف

نقرأ فى الآية (٥٥) من سورة النمل: «أَنْتُمْ لَتَيَأْتُونَ الرَّحَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». فقرن هنا الجهل، بالإنحراف الجنسى و الفساد الأخلاقى.

### ٢- الجهل سبب للإنفلات و التحلل الجنسى

ورد فى الآية (٣٣) من سورة يوسف على لسان يوسف عليه السلام، فى أنّ الجهل قرينٌ للتحلل الجنسى، فقال تعالى: (قَالَ رَبِّ السُّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

### ٣- الجهل أحد عوامل الحسد

ورد فى الآية (٨٩) من سورة يوسف عليه السلام، أنّه عندما جلس يوسف عليه السلام على عرش مصر، و تحدّث مع إخوانه الذين جاءوا من كنعان إلى مصر، لاستلام الحنطة منه، فقال: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ». أى أنّ جهلكم هو السبب فى وقوعكم فى أسر الحسد، الذى دفعكم إلى تعذيبه، و السعى لقتله، و القائه فى البئر.

#### ٤- الجهل مصدر التعصب و العناد و اللؤم

في الآية (٢٦) من سورة الفتح، نرى أن تعصب مشركي العرب في الجاهلية، كان بسبب جهلهم و ضلالهم: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

#### ٥- علاقة الجهل بالذرائع

تاريخ الأنبياء مليء بمظاهر التبرير، و خلق الذرائع من قبل الأقوام السالفة، في مواجهة أنبيائهم، وقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه الظاهرة، و مرة أخرى يشير إلى علاقة الجهل بها، فنقرأ في الآية (١١٨) من سورة البقرة: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ». فالتأكيد هنا على أن عدم العلم أو الجهل، هو الذي يتولى خلق الأرضية للتدريج، و تبين الآية الكريمه، العلاقة الوثيقة بين هذا الانحراف الأخلاقي مع الجهل، و كما أثبتته التجارب أيضاً.

#### ٦- علاقة سوء الظن مع الجهل

ورد في الآية (١٥٤) من سورة آل عمران، الكلام عن مقاتلي احد: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ». ولا شك في أن سوء الظن، هو من المفسدات الأخلاقية، و مصدر لكثير من الرذائل الفردية و الإجتماعية في حركة الواقع والحياة، وهذه الآية تبين علاقة الظن بالجهل بصورة واضحة.

#### ٧- الجهل مصدر لسوء الأدب

ورد في الآية (٤) من سورة الحجرات، إشارة للذين لا يحترمون مقام النبوة، و قال إنهم قوم لا يعقلون: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٤ «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». فقد كانوا يزاحمون الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، في أوقات الراحة، و في بيوت أزواجه، و ينادونه بأعلى أصواتهم قائلين: يا مُحَمَّد! يا مُحَمَّد! اخرج إلينا. فكان الرسول صلى الله عليه و آله ينزع كثيراً من سوء أدبهم و قلبه حيائهم، و لكن حياؤه يمنعه من البوح لهم، وبقى كذلك يتعامل معهم من موقع الحياء، حتى نزلت الآية، و تبهتهم لضرورة التأدب أمام الرسول صلى الله عليه و آله، و شرحت لهم كيف يتعاملون معه صلى الله عليه و آله، من موقع الأدب و الإحترام. و في تعبير: «أكثرهم لا يعقلون»، إشارة لطيفة للسبب الكامن وراء سوء تعاملهم، و قلبه أدبهم و جسارتهم، وهو في الغالب عبارة عن هبوط المستوى العلمي، و الوعي الثقافي لدى الأفراد.

#### ٨- أصحاب النار لا يفقهون

لا شك أن أصحاب النار هم أصحاب الرذائل، و الملوئين بألوان القبائح، و قد نوه إليهم القرآن الكريم، و عرّفهم بالجهال، و عدم التفقه، و يتضح منه العلاقة بين الجهل و ارتكاب القبائح، فنقرأ في الآية (١٧٩) من سورة الأعراف: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَمَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ يَلُؤْهُمُ أَضْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ». فقد بينت هذه الآية و آيات كثيرة أخرى، العلاقة الوطيدة بين الجهل، و بين أعمال السوء و ارتكاب الرذائل.

#### ٩- الصبر من معطيات العلم

الآية (٦٥) من سورة الأنفال، تتبّه المسلمين على أن الصبر الذي يقوم على أساس الإيمان و المعرفة، بإمكانه أن يمنح المسلمين قوة للوقوف بوجه الكفار، الذين يفوقون المسلمين عدداً وعدة، تقول الآية: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٥ «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَقْتَهُونَ». نعم فإن جهل الكافرين، هو السبب في عدم استطاعتهم في الصمود بوجه المؤمنين، و في مقابل ذلك فإن وعى المؤمنين هو السبب في صمودهم، بحيث يُعادل كل واحدٍ منهم عشرة أنفارٍ من جيش الكفار.

## ١٠- التفاق والفرقة ينشآن من الجهل

أشار القرآن الكريم في الآية (١٤) من سورة الحشر إلى يهود (بنى النضير)، الذين عجزوا عن مقاومة المسلمين، لأنهم كانوا مختلفين و متفرقين، رغم أن ظاهرهم يحكى الوحدة و الإتفاق، فقال: «لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حُدُودٍ بِأَسْرِهِنَّ بِأَنَّهُمْ شَدِيدٌ تَحَسُّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَعْقِلُونَ». وبناءً على ذلك فإن التفاق والفرقة و التشتت، وغيرها من الرذائل الأخلاقية، الناشئة من جهلهم و عدم إطلاعهم على حقائق الامور.

## النتيجة:

تبين ممّا جاء في أجواء تلك العناوين العشرة السابقة، التي وردت في سياق بعض الآيات القرآنية، علاقة الفضيحة بالعلم من جهة و علاقة الرذيلة بالجهل، من جهة أخرى، و قد ثبت لنا بالتجربة و من خلال المشاهدة، أن أشخاصاً كانوا منحرفين بسبب جهلهم، و كانوا يرتكبون القبيح و يمارسون الرذيلة في السابق، ولكنهم إستقاموا بعد أن وقفوا على خطئهم، و تبهوا إلى جهلهم، و أقبلوا عن فعل القبائح و الرذائل، أو قللوا إلى أدنى حد. و الدليل المنطقي لهذا الأمر واضح جداً، و ذلك لأن حركة الإنسان نحو التحلي بالصّفات و الكمالات الإلهية، يحتاج إلى دافع و قصد، و أفضل الدوافع هو العلم بفوائد الأعمال الصالحة و مضار القبائح، و كذلك الإطلاع و التعرف على المبدأ و المعاد، و سلوكيات الأنبياء و الأولياء الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٦ و مذاهبهم الأخلاقية، فكل ذلك بإمكانه أن يكون عاملاً مساعداً، يسوق الإنسان للصّلاح و الفلاح، و الابتعاد عن الفساد و الباطل في حركة الحياة و الواقع. و بالطبع المراد من العلم هنا، ليس هو الفنون و العلوم المادية، لأنه يوجد الكثير من العلماء في دائرة العلوم الدنيوية، ولكنهم فاسدين و مفسدين و يتحركون في خط الباطل و الإنحراف، ولكن المقصود هو العلم و الإطلاع على القيم الإنسانية، و التعاليم و المعارف الإلهية العالية، التي تصعد بالإنسان في مدارج الكمال المعنوي و الأخلاقي، في مسيرته المعنوية.

## علاقة «العلم» و «الأخلاق» في الأحاديث الإسلامية:

الأحاديث الإسلامية من جهتها، مشحونة بالعبارات الحكيمة التي تبين العلاقة الوثيقة بين العلم و المعرفة من جهة، و بين الفضائل الأخلاقية من جهة أخرى، و كذلك علاقة الجهل بالرذائل أيضاً. و هنا نستعرض بعضاً منها: ١- بين الإمام علي عليه السلام علاقة المعرفة بالزهد، الذي يُعد من أهم الفضائل الأخلاقية، فقال: «تَمَرَةُ الْمَعْرِفَةِ الْعُرُوفُ عَنِ الدُّنْيَا» «١». ٢- و ورد في حديث آخر عنه عليه السلام، قال: «يَسِيرُ الْمَعْرِفَةِ يُوجِبُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا». و المعرفة هنا يمكن أن تكون إشارة لمعرفة الباري تعالى، فكل شيء في مقابل ذاته المقدسة لا قيمة له، فما قيمة القطرة بالنسبة للبحر، و نفس هذا المعنى يمثل أحد أسباب الزهد في الدنيا و زبرجها، أو هو إشارة لعدم ثبات الحياة في الدنيا، و فناء الأقسام السابقة، و هذا المعنى أيضاً يحث الإنسان على التحرك في سلوكه و أفكاره، من موقع الزهد، و يوجهه نحو الآخرة و النعيم المقيم، أو هو إشارة لجميع ما ذكر آنفاً. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٧ ٣- و ورد عنه عليه



السلام في حديث آخر، بيان علاقة الغنى الذاتي، و ترك الحرص على الامور الدنيوية، بالعلم والمعرفة، فقال: «مَنْ سَيَكُنْ قَلْبُهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ سَكَنَهُ الْغِنَى عَنِ الْخَلْقِ» (١). و من الواضح أن الذي يعيش المعرفة، بالصِّفات الجمالية والجلالية للباري تعالى، و يرى أن العالم كله، هو إنعكاسه أو ومضة، من شمس ذاته الأزليّة الغتية بالذات، فيتوكل عليه فقط، و يرى نفسه غنياً عن الناس أجمعين، في إطار هذا التوكّل والإعتماد المطلق على الله تعالى. ٤- وجاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حول معرفة الله وعلاقتها بحفظ اللسان من الكلام البذيء، و البطن من الحرام، فقال صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَظَّمَتْهُ مَنَعَ فَاهُ مِنْ الْكَلَامِ وَبَطْنَهُ مِنَ الْحَرَامِ» (٢). ٥- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، علاقة المعرفة بالخوف منه تبارك و تعالى، الذي هو بدوره مصدر لكل أنواع الفضائل، فقال: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ خَافَ اللَّهَ وَمَنْ خَافَ اللَّهَ سَيَخَتَ نَفْسَهُ عَنِ الدُّنْيَا» (٣). ٦- بالنسبة للعفو وقبول العذر من الناس، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَعْرِفُ النَّاسَ بِاللَّهِ أَعَدَّرَهُمْ لِلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ عُذْرًا» (٤). (و من البديهي أن هذا الحديث ناظرٌ إلى المسائل الشخصية، لا المسائل الإجتماعية). ٧- حول معرفة الله و ترك التكبر، قال عليه السلام: «وَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمُ» (٥). ٨- حول العلم والعمل، قال عليه السلام: «لَنْ يُزَكِيَ الْعَمَلُ حَتَّى يُقَارِنَهُ الْعِلْمُ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٨ و من المعلوم أن طهارة العمل لا تنفك عن طهارة الأخلاق. ٩- و نقرأ في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حول هذا الموضوع: «بِالْعِلْمِ يُطَاعُ اللَّهُ وَيُعَيَّدُ وَبِالْعِلْمِ يُعْرَفُ اللَّهُ وَيُوَحَّدُ وَبِهِ تَوْصَلُ الْأَرْحَامُ وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَالْعِلْمُ إِمَامٌ الْعَمَلِ». (١) ففي هذا الحديث، إعتبر كثيراً من السلوكيات الأخلاقية الإيجابية، هي ثمرة من ثمار العلم و المعرفة. ١٠- ورد نفس هذا المعنى بصراحة أقوى عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «تَمَرَةُ الْعَقْلِ مُدَارَةُ النَّاسِ» (٢). و في مقابل الأحاديث التي تتحدث عن العلم و المعرفة، و علاقتها بالفضائل الأخلاقية توجد أحاديث شريفة أخرى، وردت في المصادر الإسلامية حول علاقة الجهل بالذاتل، و هي تأكيد آخر لموضوع بحثنا هذا ومنها: ١- في حديث عن علي عليه السلام قال: «الْجَهْلُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ» (٣). ٢- و ورد أيضاً عنه عليه السلام: «الْحِرْصُ وَالشَّرُّ وَالبُخْلُ نَتِيجَةُ الْجَهْلِ» (٤). لأن الحريص أو الطماع، غالباً ما يتحرك في طلب امور زائدة عن احتياجه، و في الحقيقة فإن ولعه بالمال و الثروة و المواهب المادية، ولع غير منطقي و غير عقلائي، وهكذا حال البخيل أيضاً فيبخله يحرص، و يحافظ على أشياء لن يستفيد منها في حياته، بل يتركها لغيره بعد موته. ٣- و نقل عنه عليه السلام في تعبير جميل: «الْجَاهِلُ صَيْحَرَةٌ لَا يَنْفَجِرُ مَائِهَا! وَشَجَرَةٌ لَا يَخْضَرُ عُوْدُهَا! وَأَرْضٌ لَا يَظْهَرُ عُشْبُهَا!» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٥٩ ٤- و ورد عنه عليه السلام أيضاً، في إشارة إلى أن الجاهل يعيش دائماً في حالة إفراط أو تفريط، فقال: «لَا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرَطًا أَوْ مُفْرَطًا» (١). فطبقاً للرأى المعروف عن علماء الأخلاق، أن الفضائل الأخلاقية هي الحد الأوسط بين الإفراط و التفريط، الذي ينتهي إلى السقوط في الرذائل، و يُستفاد من الحديث أعلاه، أن العلاقة بين الجهل من جهة و الرذائل الأخلاقية، من جهة أخرى، هي علاقة و طيدة جداً. ٥- يقول كثير من علماء الأخلاق، أن الخطوة الاولى لإصلاح الأخلاق، و تهذيب النفس، هي المحافظة على اللسان و الإهتمام بإصلاحه، وقد ورد في الأحاديث الإسلامية، تأكيد على علاقة الجهل ببذاءة اللسان، فنقرأ في حديث عن الإمام الهادي عليه السلام: «الْجَاهِلُ أَسِيرٌ لِلسَّانِ» (٢). و خلاصة القول، أن الروايات الإسلامية الكثيرة أكدت على علاقة العلم بالأخلاق الحسنة، و الجهل بالأخلاق السيئة، و كلها تؤيد هذه الحقيقة، و هي أن إحدى الطرق المؤثرة لتهذيب النفوس، هو الصِّعود بالمستوى العلمي و المعرفي للأفراد، و معرفة المبدأ و المعاد، و العلم بمعطيات الفضائل و الرذائل الأخلاقية، في واقع الإنسان و المجتمع. هذا الصعود بالمستوى العلمي للأفراد على نحوين: النحو الأول: زيادة المعرفة بسلبات السلوك المنحرف، و الإطلاع على أضرار الرذائل الأخلاقية بالنسبة للفرد و المجتمع، فمثلاً عندما يُحيط الإنسان علماً، بأضرار المواد المخدرة أو المشروبات الكحولية، و أن أضرارها لا يمكن اصلاحها على المستوى القريب، فذلك العلم سيهيئ الأرضية في روح الإنسان، للإقلاع عن تلك السلوكيات المضرة، و بناءً عليه فكما أنه يجب تعريف الناس بمضرات المخدرات، و المشروبات الكحولية، وعلينا تعريف الناس بطرق مُحاربة الرذائل و إحصاء عُيوبها، و أساليب تنمية الفضائل، و إستجلاء محاسنها، و رغم أن ذلك لا يُمثل العلة التامة لإحداث حالة التغيير، و التحول في الإنسان، ولكنه بلا شك يمهد الاخلاق في القرآن،

ج ١، ص: ١٦٠ ويهيب الأراضية المساعدة لذلك. القسم الثاني: الصيغ عود بالمستوى العلمي بصورة عامية، فعندما يطلع الإنسان على المعارف الإلهية، ومنها المبدأ والمعاد، وأقوال الأنبياء والأولياء، وما شابه ذلك، فإن الإنسان سيجد في نفسه ميلاً نحو الفضائل، و رغبة في الابتعاد عن الرذائل. و بعبارة أخرى: إن تدنى المستوى العلمي بالأمور العقائدية، كفيل بخلق محيط مناسب لنمو الرذائل، والعكس صحيح فإن زيادة المعرفة تبعث في روح الإنسان الرغبة والشوق نحو ممارسة الفضيلة.

## ٥- دور الثقافة الاجتماعية في تربية الفضائل والرذائل:

### إشارة

الثقافة عبارة عن مجموعة من الأمور، التي تبني فكر وروح الإنسان، و تمنحه الدافع الأصلي للتحرك نحو المسائل المختلفة. وعلى مستوى المصداق، تمثل الثقافة مجموعة من العقائد، و التاريخ و الأدب و الفن، و الآداب و الرسوم لمجتمع ما. و قد تكلمنا في السابق عن بعض معطيات البيئة و المحيط و المعرفة، و دورها في إيجاد الفضائل و الرذائل، و نتطرق الآن لباقي أقسام الثقافة الاجتماعية، و دورها في تحكيم و تقوية عناصر الخير، و دعوات الفضائل في واقع النفس، أو تعميق عناصر الرذيلة فيها. و أحد هذه الأمور، العادات و التقاليد و السنين لقوم من الأقسام، فإذا استوتحت مقوماتها من الفضائل، فستكون مؤثرة في خلق الأجواء المناسبة لتربية و تهذيب النفوس، و أما لو استرفدت قوتها و حياتها من الرذائل الأخلاقية، فستكون البيئة مهينة لتقبل أنواع القبائح أيضاً. و ورد في القرآن الكريم إشارات واضحة في هذا المجال، تبين كيفية انحراف الأقسام السابقة، بسبب الثقافة المنحرفة و التقاليد والأعراف المنحطة لديهم، و التي أدت بهم إلى السقوط في الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦١ منزلقات الخطيئة، و الإنحدار في هاوية الرذائل الأخلاقية، ومنها:

١- «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَأَمَرٌ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (١). ٢- «وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (٢). ٣- «إِذْ قَالَ لِبَلِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ\* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» (٣). ٤- «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (٤). ٥- «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغُونَ» (٥). ٦- «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ\* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (٦). ٧- «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (٧).

### تفسير و إستنتاج:

ما نستوحيه من الآيات الكريمة محل البحث، هو أن ثقافة الأقسام والامم السالفه، لها دور الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٢ فاعل في تربية و نمو الصفات الأخلاقية، أيًا كانت، فإذا كانت الثقافة السائدة بمستوى مرموق، فمن شأنها أن تفرز لنا أفراداً ذوي صفات حميدة و أخلاق عالية، والعكس صحيح، والآيات الكريمة السابقة الذكر، تشير إلى المعنيين أعلاه. ففي «الآية الاولى»: نقرأ قول الأقسام السالفه، الذين يعيشون الانحراف، و يمارسون الخطيئة من موقع الوضوح في الرؤية، فإذا سئلوا عن الدافع لمثل هذه التصرفات الشائنة، و السلوكيات المنحرفة، قالوا بلغة التبرير: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا...». ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا الحدود، و قالوا: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا». بناءً على ذلك، فإنهم إتخذوا سيئة الذين مضوا من قبلهم دليلاً على حسن أعمالهم، ولم ينجسوا من أفعالهم القبيحة، على مستوى التمدد و الإحساس بالمسؤولية، بل كانوا يعطوها الصيغة الشرعية أيضاً. «الآية الثانية»: طرحت نفس المعنى ولكن بشكل آخر، فعندما كان الأنبياء يدعون أقوامهم إلى الشريعة الإلهية التازلة من عند الله تعالى، كانوا يتحركون في المقابل من موقع العناد و

التكبر، ويقولون بغيرور: (ستتبع سنة آبائنا). ولم يكن سبب ذلك، إلا لأنهم وجدوا آباؤهم يؤمنون بها ويتبعونها، وبذلك لبست ثياب القداسة و اعتبروها ديناً في حركة الحياة والواقع، فهي عندهم أفضل من آيات القرآن الكريم، و شرائع الباري تعالى: «وإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»، وعليه، فلماذا فضّلوا العمل بسنة الجهلاء، على إتباع آيات الوحي الإلهي؟ و يضيف القرآن الكريم قائلاً: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ». وورد في «الآية الثالثة»: الكلام عن السنين وعادات الأقوام أيضاً، و دور الثقافة الخاطئة في صياغة الأعمال المتقاطعة مع الأخلاق، ففي بيان يشابه الآيات الماضية، نقرأ قصة إبراهيم الخليل في القرآن، ج ١، ص: ١٦٣ و عبدة الأصنام في بابل، فعندما كان يلومهم إبراهيم عليه السلام لعبادتهم الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، كانوا يقولون بصراحة: وجدنا آباءنا لها عاكفين: «إِذْ قَالَ لِأبيه وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ\* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ». فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأشدّ الكلام و أغلظه، بقوله: «وَقَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». ولكن وللأسف الشديد، إنتقل هذا الضلال المبين إلى الأجيال، جيلاً بعد جيل، فأصبح جزءاً من ثقافتهم، و أكسبه توالي الزمن عليه مسوح القداسة، فلم يمح قبحه فحسب، بل أصبح من إفتخاراتهم على المستوى الحضاري و الدّيني. «الآية الرابعة»: توحى لنا نفس المعنى، ولكن بشكل آخر، ففي معرض جوابهم على السؤال القائل: لماذا تعبدون هذه الأصنام رغم أنّكم تعيشون سلامة العقل؟، تقول الآية على لسانهم: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ». فليس أنّهم لم يعتبروا هذه الحماقة، ضلالة فحسب، بل اعتبروها هداية و فلاحاً، و رثوه عن آباؤهم الماضين، و ذكرت «الآية التي بعدها» أنّ هذا هو طريق و منطق كلّ المترفين على طول التاريخ، و قالت: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ». و من البديهي أنّ ذلك التقليد الأعمى، الذي كان يظهر جميلاً في ظلّ تلك القبائح، له أسباب كثيرة و أهمّها تبدل ذلك القبح إلى سيئته و ثقافته بمرور الزمن. و ورد نفس هذا المعنى في الآية (١٠٣ و ١٠٤) من سورة المائدة، فقد إبتدع عرب الجاهلية بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان، فكانوا يحلون الطعام الحرام و يحرمون الطعام الحلال، و كانوا يتمسكون بالخرافات و العادات السيئة، و لا يقلعون عنها أبداً، و يقولون: «حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا». و يتبين ممّا تقدم من الآيات الكريمة، تأثير العادات الخاطئة و السنين البائدة، في قلب الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٤ الامور رأساً على عقب، بحيث يضحى الخطأ صواباً في الواقع الأخلاقي و الفكري لدى الناس. و في «الآية الخامسة»: يوجد موضوع جديد بالنسبة لدور العادات و السنن في تحول القيم الأخلاقية، و هو: أنّ قوم لوط الذين سؤدوا وجه التآريخ بأفعالهم الشنيعة، (و للأسف الشديد، نرى في عصرنا الحاضر، أنّ الحضارة الغربية أقرت تلك الأفعال على مستوى القانون أيضاً)، فعندما دعاهم لوط عليه السلام، و القلمة من أصحابه، إلى التحلى بالتقوى و الطهارة في ممارساتهم و أفعالهم، تقول الآية أنّهم إغتاضوا من ذلك بشدة: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ». فالبيئة الملوثة، و السنين الخاطئة و الثقافة المنحطّة أثرت فيهم تأثيراً سلبياً، ممّا حدى بهم إلى إعتبار الطهارة و التقوى جناية، و الرذيلة و القبائح من عناصر العزة و الإفتخار، و من الطّبيعي، فإنّ الرذائل تنتشر بسرعة في مثل هذه البيئة، التي تعيش أجواء الإنحطاط و الخطيئة، و تدرس فيها الفضائل كذلك. «الآية السادسة»: نقص علينا قصّة و أد البنات المريعة في العصر الجاهلي، ولم يكن سبب ذلك سوى تحكيم الخرافات و السنين الخاطئة في واقع الفكر والسلوك لدى الأفراد، فقد كانت ولادة البنت في الجاهلية عاراً على المرء، و إذا ما بُشّر أحدهم بالانثى يظلّ وجهه مسوداً من فرط الألم، و الخجل، على حدّ تعبير القرآن الكريم (١): «وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ\* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». و لا شك أنّ القتل من أقبح الجرائم، و خصوصاً إذا كان القتل طفلاً وليداً جديداً، ولكن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٥ السنين الخاطئة و التقاليد الزائفة، التي كانوا عليها محقت القبح من هذه الجريمة النكراء، و جعلت منها فضيلة. و بالنسبة لواد البنات الفضيع، جاء في بعض التفاسير: أنّ البعض من هؤلاء الجاهلين، كانوا يستخدمون اسلوب الدفن للبنات، و بعض يغرقونهن، و البعض الآخر يفضّلون رميهنّ من أعلى الجبل، و قسم آخر كانوا يذبحون بناتهم (١)، و أمّا بالنسبة لظهور هذا الأمر عند العرب، و تأريخه و الدافع الأصلي له، فقد وردت أبحاث مفصّلة

لا يسع المقام لذكرها الآن «٢». والكلام في كيفية تمهيد الطريق للردائل الأخلاقية، من خلال تلك السنين الخاطئة، و العادات الزائفة، وكيف تحلّ الردائل مكان الفضائل، هو دليلٌ وشاهدٌ آخر على أنّ الثقافة تُعتبر من الدواعي المهمة لتفعيل عناصر الفضيلة، أو تقوية قوى الانحراف و الرذيلة، في واقع الإنسان، و بالتالي فإنّ أول ما يتوجب على المصلحين، في حركتهم الإصلاحية، هو إصلاح ثقافة المجتمع والسير بها في خط العقل و الدّين. و نرى في عصرنا الحاضر ثقافات زائفة، لا تتحرك بعيداً عما كان في عهد الجاهلية، حيث أضحّت مصدراً لأنواع الردائل الأخلاقية في حركة الحياة الاجتماعية، و قد إنعقد في السنين الأخيرة مؤتمراً عالمياً في بكين عاصمة الصين، و شارك فيه أغلب دول العالم، و نادى فيه المشاركون بالعمل لتثبيت ثلاثة اصول، و أصرّوا عليها من موقع احترام حقّ الإنسان وهي: ١- حرية العلاقات الجنسية للمرأة. ٢- الجنسية المثلية. ٣- حرية إسقاط الجنين. و قد واجهت هذه الامور معارضةً شديدةً من قبل بعض الدول الإسلامية، و منها الجمهورية الإسلامية. و من الطبيعي، عندما يُدافع نواب الدّول المتحضّرة عن مثل هذه الامور الشنيعة، تحت الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٦ ذريعة الدفاع عن حقوق المرأة، فأية ثقافة سوف تظهر للوجود؟، و أية ردائل ستنتشر في المجتمع؟، الردائل التي لا تضرّ بالمسائل الأخلاقية للناس فحسب، بل و ستؤثر أيضاً على حياتهم الاجتماعية و الاقتصادية، من موقع إهتزاز المبادئ الإنسانية في منظومة القيم. «الآية السابعة»: تستعرض علاقة الفضائل بثقافة المحيط والبيئة، فما وردنا من أحاديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، تبين مدى الرقي الأخلاقي الذي حصل في المجتمع المظلم آنذاك، نتيجة النهضة الفكرية و الأخلاقية التي جاء بها الإسلام إلى ذلك المجتمع، فيقول القرآن الكريم: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». و عبارة: «فالذين معه»، لا تحصر هذه المعية في زمانٍ خاصّ، و مكانٍ معيّن، بل تمتد إلى المعية في القيم الأخلاقية، و الأفكار الإنسانية، فكلّ من يقبل تلك الثقافة الإلهية المحمدية يكون من مصاديق الآية.

### علاقة الآداب و السنن بالأخلاق في الروايات الإسلامية:

أعطى الإسلام أهمية كبيرة لهذه المسألة، ألا و هي، سنّ السنن الصالحة، و الابتعاد عن السنن السيئة، و للمسألة انعكاسات و أصداء كبيرة في الأحاديث الإسلامية، و يستفاد من مجموع تلك الأحاديث، أنّ الهدف هو سنّ العادات الصالحة، كي تنهت الأَرْضِيَّة اللّازمة للتخلّي بالأخلاق الحميدة، و إزالة الردائل الأخلاقية من واقع النفس و السلوك، و منها: ١- ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «خَمْسٌ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى الْمَمَاتِ الْأَكْمَلُ عَلَى الْحَضِيضِ مَعَ الْعَبِيدِ ... وَحَلْبُ الْعَنْزِ بِيَدِي وَلَبْسُ الصُّوفِ وَالتَّسْلِيمُ عَلَى الصَّبِيَانِ، لَتَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي» (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٧ و الهدف من كلّ ذلك، هو إيجاد روح التواضع عند الناس من خلال الإقتداء بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، في حركة السلوك الاجتماعي. ٢- و جاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله. أنّه قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً شَرًّا فَعَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ وَزْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» (١). و ورد في بحار الأنوار نفس هذا المضمون. و نقل هذا الحديث بتعابير مختلفة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السلام، و هو يبيّن أهمية التمهيد للأعمال الأخلاقية، و أنّ التابع و المتبوع هما شريكان في الثواب و العقاب، و الهداية و الضلال. ٣- ولذلك أكّد الإمام على عليه السلام، على مالك الأشتر هذا المفهوم أيضاً، لحفظ السنن الصالحة، و الوقوف في وجه من يريد أن يكسر حرمتها، فيقول: «لَا تَنْقُصْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأَلْفَةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلَا تُحَدِثَنَّ سُنَّةً تُضَرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا» (٢). و بما أنّ السنين الحسنة تساعد على تعميق عناصر الخير، و نشر الفضائل الأخلاقية في واقع المجتمع، فهي تدخل في مصاديق الإعانة على الخير و نشر السنن الحميدة، و أمّا إحياء السنن القبيحة و الردائل الأخلاقية، فتدخل في مصاديق الإعانة على الإثم و العدوان، و نعلم أنّ فاعل الخير و الدال عليه شريكان في الأجر، وكذلك

فاعل الشر و الدال عليه شريكان في العقاب أيضاً، من دون أن يقل من ثواب العاملين، أو عقابهم شيء. و السينة الحسنه بدرجه من الأهمية، بحيث قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، في الروايه المعروفة في الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٨ حق جدّه الكريم: «كَانَتْ لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ خَمْسًا مِنَ السُّنَنِ أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْإِسْلَامِ: حَرَّمَ نَسَاءَ الْأَبَاءِ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَ سَنَّ الدِّيَةَ فِي الْقَتْلِ مَاءَهُ مِنَ الْإِبْلِ، وَ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ، وَ وَجَدَ كَنْزًا فَأَخْرَجَ مِنْهُ الْخُمْسَ، وَ سَمِيَ زَمْرَمَ حِينَ حَفَرَهَا سِقَايَةُ الْحَاجِّ». ويستخلص من مجموع ما تقدم أن الآداب و السنين و العادات، لها معطيات مهمه، على مستوى إيجاد الفضائل أو تكريس الرذائل على حد سواء، ولذلك أكد عليها الإسلام تأكيداً شديداً و جعل الثواب لمن يسنّ السنين الصالحه، و العقاب لمن يسنّ السنين الرذيله، و اعتبرها من الذنوب الكبيره.

## ٦- علاقة العمل بالأخلاق

### إشارة

صحيح أن أعمال الإنسان تتبع أخلاقه الظاهريه و الباطنيه، بحيث يمكن القول أن الإنسان يتأثر في سلوكه العملي، بأخلاقه الباطنيه الكامنه في عالم اللاشعور، ولكن من جهه اخرى، يمكن لأعمال الشخص أن تؤثر في أخلاقه، من خلال صياغه المضمون للصفات الأخلاقية في واقع الإنسان و محتواه الباطني، ومعناه أن عمليته الممارسه المستمره، لعمل ما حسناً كان أو قبيحاً، سيؤثر في نفسيته الإنسان، و يحول ذلك العمل إلى حاله باطنيه، و بالإستمرار يصبح من ملكات الإنسان الأخلاقية الحسنه، أو القبيحه، و بناءً عليه فإن من الطرق المؤثره لتهديب النفوس، هو تهديب الأعمال في حركه الواقع الخارجي، فمن مارس الأعمال القبيحه، فسوف تتحول على أثر التكرار إلى ملكه سيئه في أعماق روحه، و تكون السبب في ظهور الرذائل الأخلاقية في دائرة السلوك و الممارسه. و بناءً على ذلك نرى التأكيد في الروايات على أن يستغفر الناس بسرعه عند الخطأ، و يغسلوا تلك الآثار بماء التوبه، كي لا تخلف آثارها السلبيه على القلب، و تتحول إلى ملكات أخلاقية قبيحه. و بعكسها نجد التأكيد على تكرار الأعمال الصالحه، بشكل مستمر كي تصبح عادة عند الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٦٩ الإنسان، في واقعه النفسي و الروحي. بعد هذه الإشاره نعود إلى القرآن الكريم، و نستعرض الآيات الشريفه التي تشير إلى هذا المعنى: ١- «كَلَّا يَلِ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١). ٢- «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٢). ٣- «أَفَرَأَيْتَ لِمَ سِوَاءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسِينًا» (٣). ٤- «وَ جَدَّتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْتَجِدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» (٤). ٥- «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا\* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (٥). ٦- «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» (٧). ٧- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا» (٧).

### تفسير و إستنتاج:

في «الآيه الاولى»: نجد إشاره إلى معطيات الذنوب السلبيه على قلب روح الإنسان، فهي تسلب الصفاء و التورانيه منه، و تحل الظلمه مكانه، فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: «كَلَّا يَلِ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». فجملة: «مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، جاءت بصيغه الفعل المضارع، الذي يدل على الإستمرار، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٠ بمعنى أن الأعمال القبيحه، بإمكانها أن توجد تغييرات و تحولات كبيره، في قلب الإنسان و روحه، فهي كالصيد الذي يحجب نورانيه و صفاء المرآة و يكدرها. فالرذيله تقسى القلب و تسلبه الحياء، في مقابل الذنب، فيغلب عليه الشقاء و الظلمه، أما «الرین» على وزن «عين»، فهو الصدا يعلو على الأشياء الثمينه، نتيجة لرطوبه الجوّ، فيكون طبقه حمراء تغطي ذلك الشيء، و هو علامه على فساد ذلك الفلز. فإختيار هذا التعبير هو إختيار مناسب جداً، حيث

أكدت عليه الروايات الإسلامية، مراراً وتكراراً، وبحثنا الآتى سيكون حول هذا الموضوع. و في «الآية الثانية»: تعدت مرحلة الزين وأشارت إلى مرحلة «التزيين»، وبناءً عليه فالتكرار لعملٍ ما، يبعث على تزيينه في عين الإنسان ونظرة، و تتوافق معه النفس الإنسانية، لدرجةٍ يعتبره الإنسان من المواهب و الإفتخارات التي يتميز بها على الآخرين، فيقول الله تعالى: «كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُشْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فجملة: «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، و كذلك «المسرفين»، هي دليلٌ واضحٌ على تكرار الذنب من قبلهم، فالتكرار لها، لا يمحو قبورها فقط، بل و بالتدرج ستتحول الخطيئة إلى فضيلة في نظرهم، و هذا يعني في الحقيقة المسخ لشخصية الإنسان، و هو من النتائج المشؤومة لتكرار الذنوب. و هناك خلافٌ حول الفاعل، الذي يزین لهؤلاء الأفراد أعمالهم القبيحة ... فقد ورد في بعض الآيات الكريمة، إنتساب ذلك الفعل إلى البارئ تعالى، و اعتبره كعقاب لهم، لأنهم أصروا على الذنوب، فالتزيين هو إستدراج لهم، وليذوقوا وبال أعمالهم فقال الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَالُهُمْ» (١). و في الآية (٤٣) من سورة الأنعام، نسب ذلك الفعل للشيطان الرجيم، فيقول عن الكفار الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧١ المعاندين، الذين لا يحبون الناصحين: «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». و مرةً اخرى نسب ذلك الفعل للأصنام، فيقول الله تعالى «وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ» (١). و اخرى (و كما ورد في الآية التي هي مورد بحثنا الآن)، ورد بصورة الفعل المبني للمجهول: «أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا». و بنظرة فاحصة نرى، أن هذه التعبيرات لا تتقاطع فيما بينها، بل أحدها يكمل الآخر، فمرة تكون الزينة عاملاً على تكرار العمل، فالتكرار يقلل من قبح العمل، و يصل إلى مرحلة لا يحس معها بالذنب، و بالإستمرار يحسن في نظر صاحبه، فيقتيده و لا يستطيع التحرر من ذلك الفخ، الذي نُصب له، و هي حقيقةٌ يمكن للإنسان أن يلمسها، بالتسبب و النظر لحال المجرمين. و في موارد اخرى، فإن الوسواس الشيطانية الخارجية، و الوسواس الباطنية النفسية، تزین للإنسان سوء عمله، و يصل الأمر به إلى ارتكاب الكبائر، بحجة أنه يؤدي واجبه الديني فيغتاب شخصاً ما، بدون ذنب و هو يتصور أنه على حق، ولكن الحسد في الواقع هو الذي يدفعه الى ذلك، و التأريخ مليءٌ بمثل هذه الجنايات الفظيعة، فوسواس النفس و الشيطان لا تعمل على التستر على قبح العمل فقط، بل تجعله من إفتخاراته. و ربما يعاقب البارئ تعالى، أشخاصاً لعنادهم، و عدم قبولهم النصيحة، و لا يكون العقاب إلا بتزيين سوء عمل الإنسان، لتشتد عقوبته و يفتضح أكثر فأكثر. و يجب التنويه، إلى أنه و طبقاً للتوحيد الأفعالي، فإن كل عملٍ و أثرٍ موجودٍ في هذا العالم، يمكن أن يُنسب إلى الله تعالى، لأن ذاته المقدسة هي علّة العلل، و لا يعني هذا الأمر أن الأفراد قد اجبروا على أفعالهم، فالحمد لله الذي جعل القوة و القدرة على الفعل و منحه لعباده، و اللعنة على الذين يستعملون تلك القوة في دائرة الشر و الذنوب. و ربما تقتضى طبيعة الأشياء، التزيين و الزخرفة، فنقرأ في الآية (١٤) من سورة آل عمران: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٢ «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ...». و إحدى العوامل لتزيين الأعمال القبيحة في نظر الشخص، التكرار لها، فهو يؤثر في نفس و روح الإنسان، و يغير أخلاقه، و العكس صحيح، فإن تكرار الأعمال الحسنة يصبح ملكةً بالتدرج عند الإنسان، و يبدله إلى أخلاقٍ فاضلة، و لذلك و لأجل تهذيب النفوس و نمو الفضائل الأخلاقية، نوصي السالكين في هذا الطريق، بالإستعانة بتكرار الأعمال الصالحة، و أن يحذروا من تكرار الأعمال السيئة، فالأول هو المعين الناصح للإنسان، و الثاني عدوٌّ غدار. و «الآية الثالثة»: تتحدث عن تزيين سوء أعمال الإنسان أيضاً، فيقول تعالى: «أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا». فكما جاء في تفسير الآية السابقة: فإن من العوامل لتزيين سوء الأعمال هو التكرار، و التطبيع عليها، و التدرج يؤدي إلى أن يفقد الإنسان، الإحساس بقبحها، و سوف يولع بها و يفترح أيضاً. و اللطيف أن القرآن الكريم، عندما يسأل ذلك السؤال، لا يذكر النقطة المقابلة لها، بصورة مباشرة، و يفسح المجال للسمع، أن يتصور النقطة المقابلة بنفسه، و يفهمها أكثر، فهو يريد أن يقول: هل أن هذا الفرد، يتساوى مع من يميز الحق من الباطل في حركة الحياة؟، أو هل أن هؤلاء الأفراد، يشبهون الأفراد من ذوى القلوب الطاهرة، الذين يعيشون حالة الإهتمام بمحاسبة أنفسهم، و البعد عن القبائح...؟. و يجب الإنتباه، الى أن الله تعالى يقول، في ذيل الآية مخاطباً رسوله الكريم: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». و هو في الحقيقة عقابٌ للذين يفعلون القبائح،

فيجب أن تكون عاقبتهم كذلك. وقد جاء في تفسير، «في ظلال القرآن»: أن الباري تعالى إذا أراد أن يهدي الإنسان للخير، «بسبب نيته وعمله»، فيجد في قلبه الحساسية والتوجه الخاص لسوء الأعمال، فهو دائماً على حذرٍ من الشيطان والخطأ والزيف ولا يأمن الإختبار، و ينتظر المِدد الإلهي دائماً، وهنا يكون الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٣ الفصل بين طريق الهداية والفلاح، وبين خطّ الضلال والهلاك «١». وقد ورد، أن أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، (أو أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام)، قال: سألت الإمام عليه السلام ما هو العجب الذي يبطل عمل الإنسان؟ فقال عليه السلام: «العجبُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا أَنْ يُزَيِّنَ لِلْعَبْدِ سُوءَ عَمَلِهِ فَيَرَاهُ حَسِينًا فَيَعِجِبُهُ وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا» «٢». و «الآية الرابعة»: تتحدث عن مَلَكة سَبَأ، وعاقبتها والأخبار التي جاء بها الهدهد لسليمان عليه السلام، من تلك الأرض واولئك القوم: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ». فالشمس مع نورها الوهاج، وعظمتها وفائدتها؛ لكن طلوها وغروبها، وإنحبابها بالغيوم، تبين أنها هي بدورها أيضاً تابعة لقوانين الكون، ولا إرادة لها أبداً، ولا تستحق التقدير. ولكن الآباء علمت الأبناء، والتربية الخاطئة والسنة الضالة، و تكرار العمل، حدث بالناس لتصور القبيح في صورة حسنة، وفي بعض البلدان، يعبدون البقر، ويؤدون الطقوس أمامها، وهو مدعاة للسخرية والضحك، ولكنهم يفتخرون بذلك. ومن العوامل المهمة لذلك، هو التكرار لذلك العمل الذي عود الإنسان على القبيح وجعله حسناً. وقد يُنسب هذا الفعل للشيطان، ولكن في الحقيقة، الشيطان له وسائل متعددة للغواية، ومنها التكرار للقبيح والتعود عليه. «الآية الخامسة»: لها نفس المحتوى الوارد في الآيات السابقة، ولكن بتعبيرات جديدة، حيث قال تعالى، مخاطباً رسوله الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا\* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٤ فالكلام عن المتضرر الأول في المعركة، وهو الذي يصرف عمره وفكره وطاقته في الطريق الغلط، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وهو فرح ومسرور ويفتخر بذلك. فلماذا يتلى الإنسان بهذه المصائب؟، ليس ذلك إلا لأنه تعود على القبائح، وإتباع هوى النفس، والأنانية والعجب، فتجعل الحجب على قلبه وعقله، فلا يرى الحقيقة واضحة صائبة كما هي. والنتيجة لهذا الأمر، جاءت في الآية التي بعدها فقال تعالى «اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه وحيطت أعمالهم». وفسرت الروايات الإسلامية، هذه الآية بتفسير وتعبيرات متعددة، وكل منها هو في الحقيقة مصداق للآية، فبعضها فسرت الآية بالمنكرين لولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وبعضها فسرت الآية بالزهبان المسيحيين، فهم الذين يتركون الدنيا بالكامل ولذاتها، وهم في الحقيقة مخطئون، ويتحرّكون في دائرة الفكر والعمل في الطريق المنحرف. والبعض الآخر من الروايات، ذكرت في تفسيرها أنهم أهل البدع من المسلمين؛ وأخرى فسروها، بخوارج النهران، وقال آخرون: أنها نزلت في أهل البدع من اليهود والنصارى، فكل هؤلاء الأشخاص على خطأ وأعمالهم مليئة بالإجرام والظلم، ولكنهم كانوا يحسبون أنهم على صواب. وتجدر الإشارة إلى أن، جملة: «حبطت أعمالهم»، التي جاءت في ذيل الآية، هي من مادة «حبط»، ومن معانيها المعروفة هو البعير أو حيوان آخر، يأكل العلف بشراهة، حتى العلف الشام والصار بحيث يؤدي إلى إنتفاخ بطنه، وقد يؤدي به في بعض الأحيان للموت، فالبعض يتصور أن ذلك هو دليل على قوته وقدرته، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، بل هو المرض بعينه، أو مقدمة لموته، ولكن الجهال يعتبرونها من القوة والقدرة. وقسم من الناس يبتلون بمثل هذه العاقبة، فيكون كل سعيهم وقوتهم لهلاك أنفسهم، وهم يتصورون أنهم سلكوا طريق السعادة والرفاه. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٥ «الآية السادسة»: تتناول مسألة قبول التوبة من قبل الله تعالى، لمن تتوفر فيهم بعض الشرائط: ١- الذين يعملون السوء بجهالة ولا يعرفون عواقب الذنوب على نحو الحقيقة. ٢- الذين تابوا بسرعة من أعمالهم القبيحة، فاولئك الذين تشملهم الرحمة الإلهية، ويقبل الله تعالى توبتهم، فقال: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا». والمراد من كلمة «الجهالة»، التي وردت في الآية، ليس هو الجهل المطلق الذي يوجب العذر؛ لأن العمل في حالات الجهل المطلق، لا يعتبر من الذنوب، بل هو الجهل النسبي الذي لا يعلم معه عواقب ومعطيات الذنوب في حركة الواقع والحياة. وأما جملة: «يتوبون من قريب»، فقال البعض أنها قبل الموت، ولكن إطلاق كلمة «قريب»، على فترة ما قبل الموت، التي ربما تستغرق (٥٠) سنة أو أكثر، لا

تكون مناسبة لهذا النوع من التفسير، وإستدل مؤيدوا هذه النظرية، بروايات لا تشير إلى هذا التفسير، ولكنها بيان مستقل ومنفصل عنه. وقال البعض الآخر، إنها الزمان القريب لإرتكاب الذنب، حتى تسمح التوبة الآثار السيئة للذنب في روح و نفس الإنسان، وفي غير هذه الصورة، فستبقى الآثار في القلب، وهو ما يناسب كلمة القريب عرفاً ولغةً. «الآية السابعة»: تناولت مسألة الزكاة ومعطياتها، فجاء الأمر للرسول الكريم: «تُحَذُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَهُ». ويتحدث القرآن الكريم عن الزكاة، وبيان معطياتها الأخلاقية والمعنوية، في خطب التريية، ويقول: «تَطَهَّرُوهُمْ وَزَكَّيْهِمْ بِهَا». نعم، فإن دفع الزكاة يحد من الزكون إلى الدنيا وزخارفها، ويقمع البخل في واقع النفس الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٦ البشرية، ويحث الإنسان على مراعاة حقوق الآخرين، ويغرس فيه حب السخاء والإنسانية. و علاوة على ذلك، فإن دفع الزكاة يقف بوجه المفسد الناشئة عن الفقر والحرمان، وبأداء تلك الفريضة الإلهية، نكون قد شاركنا في إزالتها نهائياً، من واقع المجتمع، لذلك فإن الزكاة تسهم في رفع الرذيلة والفقر في حركة الإنسان والحياة، وتُحلّي الإنسان بالفضائل الأخلاقية، وهذا الأخير هو موضوع بحثنا، وهو دور العمل الصالح والطالح، في تحريك عناصر الخير والشر، والفضائل والرذائل الأخلاقية، في واقع الإنسان والمجتمع. وجاء نفس هذا التعبير بشكل آخر في آية الحجاب فيقول تعال «إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» «١». فهذه الآية الشريفة، تبين بوضوح أن التعفف في العمل يبعث على طهارة ونظافة القلب، وبالعكس فإن الجرأة على ارتكاب المنكر وعدم الحياء، يلوث روح و قلب الإنسان، ويعمق في نفسه الميل إلى الرذائل الأخلاقية.

### النتيجة:

كان الهدف من شرح الآيات الآنفه الذكر، هو معرفة تأثير الأعمال في الأخلاق، وبلورتها لروح الإنسان، فلأجل بناء الذات وتهذيب النفس، يتوجب مراقبة أعمالنا من موقع الحذر والانضباط والمسؤولية، لأن تكرار الذنب والإثم يذهب بقبحه من جهة، ومن جهة أخرى يمنح الإنسان التعود عليه، وبالتدرج يصبح ذلك العمل ملكة لديه، ولا يزعجه فقط، بل ويتحول إلى عنصر فخر من افتخاراته.

### كيفية تأثير «العمل» في «الأخلاق» في الروايات الإسلامية:

تعكس الأحاديث الإسلامية بوضوح، ما تقدم من علاقة العمل بالأخلاق في الآيات الكريمة، ذلك المطلوب بوضوح، و من تلك الأحاديث: ١- نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بِيضَاءٌ فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نِكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ، وَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتَّى يُغَطِّيَ الْبِيضَ، فَإِذَا غَطَّى الْبِيضَ لَمْ يَزَعْجْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «١». فهذه الرواية، تبين بوضوح، أن تراكم الذنوب يفضي إلى ظهور الرذائل في سلوكيات الإنسان، ويدفعه باتجاه الابتعاد عن الفضائل، مما يورث النفس الإنسانية الغرق في الظلام الكامل، و عندها لا يجد الإنسان فرصة للرجوع إلى طريق الخير، والافتتاح على الله والإيمان. ٢- الوصية المعروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام، حيث قال له: «إِنَّ الْخَيْرَ عَادَةٌ» «٢». و ورد نفس هذا المضمون، في كثر العميال، في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: «الْخَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ» «٣». و أيضاً نقل نفس هذا الحديث، وبشكل آخر، عن الإمام السجاد عليه السلام، أنه قال: «أُحِبُّ لِمَنْ عَوَّدَ مِنْكُمْ نَفْسَهُ عَادَةً مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَدُومَ عَلَيْهَا» «٤». فيستفاد من هذه الروايات، أن تكرار العمل، سواء كان صالحاً أم طالحاً، يسبب في وجود حالة الخير أو الشر عند الإنسان، فإذا كان خيراً فسيشكل مبادئ الخير في نفسه، وإن كان شراً فكذلك، وبكلمة واحدة هو التأثير المتقابل للأعمال، والأخلاق في حركة الحياة، والأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٨ الواقع النفسي للإنسان. ٣- ورد في حديث آخر، عن علي عليه السلام في وصيته المعروفة، للإمام الحسن عليه السلام: «وَعَوَّدُ



نَفْسِكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ» (١) ويتبين هنا أيضاً، أن «العادة» هي وليدها، التكرار، للعمل مع الصبر على صعوبات الحياة، من موقع الحق والمسؤولية. ٤- ورد في الروايات، التعجيل بالتوبة وعدم التسويف، لئلا تبقى آثار الذنوب فاعلة في القلب، ممّا يؤدي إلى تحولها إلى ملكة أخلاقية راسخة في النفس، فنقرأ في حديث عن الإمام الجواد عليه السلام، أنه قال: «تَأْخِيرُ التَّوْبَةِ إِغْتِرَارٌ، وَطُولُ التَّسْوِيفِ حَيْرَةٌ... وَالْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ آمَنٌ لِمَكْرِ اللَّهِ» (٢). وجاء في النبوي الشريف حديث آخر، لطيف عن التوبة وتأثيرها الإيجابي، في تلاشي الذنوب من واقع النفس، فقال: «مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَتْ جَوَارِحُهُ أَنْ تَسْتُرَ عَلَيْهِ، وَبِقَاعِ الْأَرْضِ أَنْ تَكْتُمَ عَلَيْهِ وَأُنْسِيَتِ الْحَفَظَةُ مَا كَانَتْ تَكْتُمُ عَلَيْهِ» (٣). فهذا الحديث يبين أن التوبة، تغسل الذنوب وتعيد الصفاء والقداسة الأخلاقية للإنسان. وجاء هذا المعنى بصورة أوضح، في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «التَّوْبَةُ تَطَهَّرُ الْقُلُوبَ وَتَغْسِلُ الذُّنُوبَ» (٤). فهذا الحديث يبين أن الذنب يترك آثاره في القلب، في عملية تطبيع نفسى لعناصر المزاج، ولكن التوبة تزيل هذه الآثار، ولا تفسح المجال لتشكّل تلك الأخلاق السلبية، في المحتوى الداخلي للفرد. وورد في التعبير عن التوبة بأنها «طهور»، في روايات عديدة، وهو يحكى عن علاقة الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٧٩ الذنب بظهور الحالات الباطنية القبيحة «١». وورد في المناجاة: الخمسة عشر، المعروفة للإمام السجاد عليه السلام، في القسم الأول منها، و هي مناجاة التائبين: «وَأَمَاتَ قَلْبِي عَظِيمَ جِنَاتِي فَأَحْيِهِ بِتَوْبَةٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي وَبُعَيْتِي» (٢). نعم! فإنّ الذنب يكدر القلب ويلوث النفس الإنسانية، وبتكرار الذنب فإن القلب يذبل ويموت، ولكن التوبة بإمكانها، أن تعيد النشاط والحياة للقلوب، لتعيش جو الإيمان والظهور. وبناءً عليه، فإنه يتوجب على السائرين إلى الله تعالى، تحكيم دعائم الفضائل الأخلاقية، في وجدانهم وسلوكياتهم، ولتنبهوا لمعطيات وتبعات أعمالهم الإيجابية والسلبية، فكل واحد من تلك الأعمال سيؤثر في القلب، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

## ٧- علاقة «الأخلاق» و «التغذية»

### إشارة

ربما سيتعجب البعض من هذا العنوان، و ما هي علاقة الأخلاق والروحيات والملكات النفسية بالغذاء، فالأولى للروح والثانية للجسم، ولكن بالنظر للعلاقة الوثيقة، بين الجسم والروح في حركة الحياة والواقع، فلن يبقى مجالاً للتعجب، فكثيراً ما تسبب الأزمات الروحية في الإصابة بأمراض جسدية، تضعف جسم الإنسان وتشل عناصر القوة فيه، فيبيض الشعر، وتظلم العين، وتخور القوى عند الإنسان والعكس صحيح أيضاً، فإن الفرح وحالات الراحة التي يمر بها الإنسان، تنمي جسمه وتقوى فكره، و قديماً توجه العلماء لتأثير الغذاء على روحية الإنسان وسلوكه المعنوي، وتغلّلت هذه المسألة في ثقافات الناس، على مستوى الموروث الفكري والوعى الاجتماعي، فمثلاً شرب الدم يبعث على قساوة القلب، والعقيدة السائدة هي أن العقل السليم في الجسم السليم. ولدينا آيات و روايات تشير إلى هذا المعنى، و منها الآية (٤١) من سورة المائدة، فقد الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٠ أشارت إلى فئة من اليهود الذين مارسوا أنواعاً كثيرة من الجرائم بحق الإسلام والمسلمين من قبيل التجسس و تحريف الحقائق الواردة في الكتب السماوية، فقال الباري تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ». و يعقب مباشرة قائلاً: «سَيَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلشُّحِّ». وهذا التعبير يبين أن عدم طهارة قلوبهم، إنما كان نتيجة لأعمالهم، التي منها تكذيب الرّسول والآيات الإلهية، وأكلهم للحرام بصورة دائمة، ومن البعيد في خطّ البلاغة والفصاحة، أن يأتي بأوصاف لا علاقة لها بجملة: «لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ». و منها يعلم أن أكل السّحت يسود القلب ويُميته، و يكون سبباً لنفوذ عناصر الرذيلة، و الزيف، و الإبتعاد عن الخير والفضائل. وفي الآية (٩١) من سورة المائدة، ورد الحديث عن شرب الخمر ولعب القمار، فقال عزّ من قائل: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ». و لا شك فإنّ العداوة والبغضاء، هي من الحالات الباطنية، التي ترتبط برابطة وثيقة مع شرب الخمر ولعب القمار، كما ورد في الآية الشريفة، وهو

دليل على أن أكل السِّحْتِ و الشَّرَابِ الحرام يساعد على بروز الرذائل الأخلاقية، و تكريس حالات العداء و الخصومة بين الأفراد، في خط الشيطان. و نقرأ في الآية (٥١) من سورة المؤمنون، قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا». و يعتقد بعض المفسِّرين أن تقارن ذكر هذين الأمرين: وهما «أكل الطَّيِّبَاتِ و العمل الصالح»، هو خير دليل على وثاقه العلاقة بينهما، و هي إشارة إلى أن إختلاف و تنوع الأكلات و الأطعمة، له معطيات أخلاقية مختلفة و متنوعه أيضاً، فأكل الطَّيِّبَاتِ، يطيب الرُّوح و يصلح العمل، و بالعكس فإنَّ الأكل الحرام يُظلم الرُّوح، و يخبث العمل «١». و قد إستدلَّ في تفسير «روح البيان»، و بعد إشارته لعلاقة العمل الصالح بأكل الطَّيِّبَاتِ، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨١ بالأشعار التالية: و أشار في تفسير: «الإثنى عشرى»، في ذيل هذه الآية، إلى علاقة نوراتية القلب و صفائه، و الأعمال الصالحة بأكل الحلال «١».

### علاقة التَّغْذِيَّة بِالْأَخْلَاقِ فِي الرِّوَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

هذه العلاقة لم ترد في الآيات القرآنية بصورة واضحة، ولا يوجد لها سوى إشارات خفيفة، ولكن هذا الأمر: «علاقة التَّغْذِيَّة بِالْأَخْلَاقِ»، له صدق واسع في الرِّوَايَاتِ، و نورد منها: ١- نقرأ في الرِّوَايَاتِ الوارده، أن من شروط إستجابة الدَّعاء هو الإمتناع عن أكل الحرام، حيث جاء شخص إلى رسول الله صلى الله عليه و آله، و قال له: احبُّ أن يُسْتَجَابَ دُعَائِي، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: «طَهَّرْ مَا مَأْكَلَكَ وَ لَا تَدْخُلْ بَطْنَكَ الْحَرَامَ» «٢». و جاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله، أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيُطِيبْ مَطْعَمَهُ وَ مَكْسِبَهُ» «٣». و نقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ بَظْهِرِ قَلْبٍ قَاسٍ» «٤». و يستنتج من ذلك، أن الأكل الحرام يُقْسِي القلب، و لأجله لا يستجاب دعاء آكلي الحرام، و تتوضح العلاقة الوثيقة بين خبث الباطن و أكل الحرام، في ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام، في حديثه المعروف في يوم عاشوراء، ذلك الحديث المليء بالمعاني البليغة، أمام اولئك القوم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٢ المعاندين للحق من أهل الكوفة، فعندما آيس من تحولهم إلى دائرة الحق و الإيمان، و إستيقن أنهم لن يستجيبوا له في خط الرسالة قال لهم: إنكم لا تسمعون إلى الحق لأنه قد: «مِلْتُمْ بَطُونَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِكُمْ» «١». ٢- و يبين حديث آخر، علاقة الأكل الحرام بعدم قبول الصلوة و الصيام و العبادة، و منها ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ أَكَلَ لُقْمَةً حَرَامًا لَنْ تُقْبَلَ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَ لَمْ تُسْتَجَبْ لَهُ دَعْوَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَ كُلُّ لَحْمٍ يُنْبِتُهُ الْحَرَامَ فَالْتَّارُ أَوْلَى بِهِ، وَ إِنَّ اللَّقْمَةَ الْوَاحِدَةَ تُنْبِتُ اللَّحْمَ» «٢». و من الطبيعي فإن قبول الصلوة له شروط عديدة، و منها: حضور القلب و طهارته من الدرن و الغفلة، و الحرام يسلب منه تلك الطهارة و الصفاء، و يخرج من أجواء النور و الإيمان. ٣- نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمة عليهم السلام، أن: «مَنْ تَرَكَ اللَّحْمَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا سَاءَ خُلُقُهُ» «٣». و هذا الحديث يبين نصيحة طبيئة مهممة، و هي أن الإنسان إذا ترك أكل اللحم، لمدة طويلة، فسيورثه سوء الخلق و الانقباض في النفس، في دائرة التفاعل مع الآخرين، و ورد في مقابله العكس أيضاً، وهو ذم الإفراط في تناول اللحم و الإكثار منه، فإن من شأنه أن يورثه نفس الأعراض و الأمراض الخلقية. ٤- و قد ورد في كتاب: «الأطعمة و الأشرية»، روايات ذكرت العلاقة بين الأطعمة و الأخلاق الحسنه و السيئه و منها: ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالزَّيْتِ فَإِنَّهُ يَكْشِفُ الْمُرَّةَ ... وَ يُحَسِّنُ الْخُلُقَ» «٤». ٥- في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ سَيَّرَهُ أَنْ يَقِلَّ غَيْظُهُ فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ الدَّرَاجِ» «٥». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٣ وهذا الحديث يبين بصورة جيدة علاقة الغذاء بالغضب و الصبر. ٦- في رواية مفصلة وردت في تفسير العياشي، نقلها عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث سئل عن علمه تحريم الدم، فقال عليه السلام: «وَأَمَّا الدَّمُ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْكَلْبَ وَ قَسْوَةَ الْقَلْبِ وَ قَلَّةَ الرَّأْفَةِ وَ الرَّحْمَةَ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يُقْتَلَ وَ لَمَدُهُ وَ الْإِدَّةُ». و في القسم الآخر من نفس الرواية، قال عليه السلام: «وَأَمَّا الْخَمْرُ فَإِنَّهُ حَرَّمَهَا لِغَلْبِهَا وَ فَسَادِهَا وَ قَالَ إِنَّ مِيدَمَانَ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَتَنِ، وَ يُورِثُ إِرْتِعَاشًا وَ يُذْهِبُ بِنُورِهِ وَ يَهْدِمُ مَرْوَتَهُ» «١». ٧- و نقل في الكافي روايات متعددة، عن العنب و علاقته بإزالة الغم، و منها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «شَكَى نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْغَمَّ فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَكْلِ الْعِنَبِ» «٢».

فلاحظ تأكيداً أشدّ على علاقة التغذية بالمسائل الأخلاقية، التي تعكس الحالة النفسية للفرد. ٨- الأحاديث التي وردت في أكل الرمان كثيرة، و أنها تنور القلب وتدفع وساوس الشيطان، فجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَكَلَ رُمَانَةً عَلَى الرَّيْقِ أَنْارَتْ قَلْبَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً» (٣). ٩- وردت روايات متعددة في باب «الأكل»، نرى فيها العلاقة المطردة بين التغذية والمسائل الأخلاقية، في دائرة الصّفات والحالات النفسية، ومنها الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، في وصيته لجعفر بن أبي طالب رضی الله عنه، فقال له: «يَا جَعْفَرُ كُلِّ السَّفَرِجَلِ فَإِنَّهُ يُقَوِّ الْقَلْبَ وَيُشْجِعُ الْجَبَانَ» (٤). ١٠- ونقل عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، حديث يروى علاقة فضول الطعام بقساوة القلب، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٤ فنقل عنه صلى الله عليه وآله في كتاب «أعلام الدّين»: «إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالقَسْوَةِ وَيُبْطِئُ بِالجَوَارِحِ عَنِ الطَّاعِيَةِ وَيُضْمُّ الْهِمَمَ عَنِ سَمَاعِ المَوْعِظَةِ». «فضول الطعام»: يمكن أن تكون إشارة لإدخال الطعام على الطعام، والأكل الزائد عن الحاجة، أو أنها تدل على تناول الطعام المتبقى من الوجبات السابقة، أي بقايا الطعام الفاسد، وعلى أية حال، فإنّ الحديث يدل على علاقة التغذية بالمسائل الأخلاقية، التي تُؤطر سلوك الإنسان في حركة الحياة. وورد هذا المعنى أيضاً في بحار الأنوار الذي نقل الحديث عن رواة أهل السنّة، ونقلوه أيضاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (١). ويستفاد من هذا الحديث ثلاثة أمور: ١- إنّ الأكل الزائد يُقسى القلب. ٢- ويقعد الإنسان عن العبادة في دائرة الكسل والإسترخاء. ٣- يُصم آذانه في مقابل الوعظ، فلا تؤثر فيه النصيحة والموعظة في خطّ التريّة، وهذا الأمر ملموس فعلاً، فإنّ الإنسان يثقل عند الأكل الكثير، ولا يكاد أن يؤدي عبادته من موقع الشوق والرغبة، ولا يبقى لديه نشاط في خطّ العبادة، وبالعكس في حالة ما إذا تناول طعاماً خفيفاً، فسيكون دائماً على نشاط في حركة الإيمان، ويؤدي عباداته ووظائفه في وقتها المعين لها. وكذلك بالنسبة للصّيام، فهو يرقق القلب ويهيئ الإنسان لقبول المواعظ، وبالعكس عندما يكون الإنسان مليء البطن، فإنه لا يكاد يفكر في شيء من عوالم الغيب، ولا يعيش في أجواء الملكوت. ١١- وقد بينت الأحاديث الشريفة أيضاً، علاقة العسل بصفاء القلب، فنقل عن أمير الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٥ المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «العَسَلُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَلَا دَاءَ فِيهِ يُقَلُّ البُلْغَمَ وَيُجَلِّي الْقَلْبَ».

### النتيجة:

تبيّن مما ذكر آنفاً، العلاقة الوثيقة بين الغذاء والروحيات والأخلاق، ونحن لا ندعي أبداً أنّ الأكل والغذاء هو العلة التامة لبورة الأخلاق، ولكنّه يمثل عاملاً مساعداً في ذلك، بحلاله وحرّامه، وأنواعه. ويقول علماء العصر الحاضر، أنّ السلوكيات الأخلاقية عند الإنسان، تنطلق من خلال ترشّح بعض الهرمونات من الغدد الموجودة في جسم الإنسان، والغدد بدورها، تتأثر مباشرة بما يأكله الإنسان، وعلى هذا الأساس، فإنّ لحوم، الحيوانات تحمل نفس الصّفات النفسية الموجودة في الحيوان، فالصّواري تفعل فعل عناصر التوحش في الإنسان، والخنزير يذهب بالغيرة عند الإنسان، وهكذا فإنّ لحم أيّ حيوان، يخلف بصماته على روح آكله مباشرة، وينقل إليه صفاته. هذا من الناحية الماديّة الطبيعيّة، وأمّا من الناحية المعنويّة، فإنّ أكل الحرام يُظلم الروح والقلب، ويُضعف الفضائل الأخلاقية كما تقدم. وأخيراً نختم هذا البحث، بنقل قصّة تاريخية نقلها المسعودي في موجه، فقال: نقل عن الفضل بن الرّبيع أنّ «شريك بن عبدالله»، دخل يوماً على «المهدي»، الخليفة العبّاسي في وقتها فقال له المهدي العبّاسي: «أي شريك»، أعرض عليك ثلاثة أمور، عليك أن تختار إحداها، فقال ما هي؟، فقال له: إمّا أن تقبل منصب القضاء، أو أن تتعلّم إبنّي، أو تأكل معنا على مائدتنا، ففكر شريك قليلاً، وقال إنّ الأخيرة أسهلها، فحجزه المهدي، وقال لطباخه، حضّر له أنواعاً من أطباق أمخاخ الحيوانات، المخلوطة بالسّكر والعسل. فعندما أكل شريك من ذلك الطعام اللذيذ، «وطبعاً الحرام»، قال الطباخ للمهدي، إنّ هذا الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٦ الشّيخ لن يُفْلح أبداً بعد هذا الطّعام، فقال الرّبيع: وفعلاً قد صدقت نبوءة الطباخ، فإنّ شريك بعدها قبل منصب القضاء، وعلم أبناء المهدي أيضاً (١).

## الصفات والأعمال الأخلاقية:

من المعلوم أنّ كلّ فعلٍ يفعلهُ الإنسان له أصلٌ وأساسٌ في باطنه و محتواه الداخلي، أو بعبارةٍ أخرى، إنّ الأعمال هي مرآة باطن الإنسان، فإحدهما بمنزلة الجذر، والآخرى بمنزلة الساق والأوراق والثمر. وبناءً عليه: فإنّ الأعمال الأخلاقية، لا تنفك عن الصفات الأخلاقية، فمثلاً التّفاق، له جذوره في روح الإنسان، ويحكي عن ازدواجيّة ذلك الشخص، و عدم توحيده في دائرة الإيمان، فهذه الصّفة الباطنيّة تحثّ الإنسان على سلوك طريق التّفاق والرّياء مع الغير. الحسد أيضاً من الصفات الباطنيّة السليبيّة، حيث يتمنى معه الشّخص الحاسد، زوال النّعم التي أعطاهها البارئ تعالى لغيره، و تتجلى هذه الصّفة الدّميمة في أعماله وأفعاله، التي يريد بها التّصدي لسعادة ذلك المحسود من موقع العداوة والخصومة. الكبر والعُزور، هي صفاتٌ باطنيّة كذلك، نشأت من جهل الإنسان لقدره و مقامه، و هي ناشئة من عدم تحمل الإنسان لثقل المواهب الإلهية، التي يُعطيها البارئ له، و يتبيّن هذا الأمر من تصرفاته، و عدم إعتائه بالغير، و بذاءة لسانه و تحقيره للآخرين. و ربّما، ولأجل ذلك لم يفرق علماء الأخلاق بين هذين الإثنين في كتبهم الأخلاقية، فمرةً يعرّجون على الصفات الداخلية للإنسان، و أخرى يتطرّقون للأعمال الخارجيّة، التي تستمد مقوماتها من عالم الصفات الباطنيّة، فيطلق على الأول: «الصفات الأخلاقية»، و على الثاني: «الأعمال الأخلاقية». و طبعاً الأعمال الأخلاقية، هي موضوع المباحث الفقهيّة لدى الفقهاء، ولكن و مع ذلك، فإنّ علماء الأخلاق قد تناولوها بالبحث في دائرة السّيلوك الأخلاقي للفرد، و من الطّبيعي فإنّ نظرة عالم الأخلاق، تختلف عن نظرة الفقيه، فالفقيه يبحث المسألة في إطار الأحكام الخمسة: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٨٧ (الحُرمة، الوجوب، و الإستحباب، و الكراهة، و الإباحة)، و لربّما تطرّق للشّباب و العقاب، للأعمال في نطاق الحياة الآخرة، ولكن عالم الأخلاق ينظر إليها من منظار كمال الرّوح و النّفس، أو إنحطاطها و تسافلها في خطّ الانحراف، و بهذا يتبيّن الفرق بين الصفات و الأفعال الأخلاقية، و يتمّ من خلالها تمييز نظر الفقيه عن نظر عالم الأخلاق. ١٢

## الخطى العمليّة في طريق التّهذيب الأخلاقي

### إشارة

نتطرّق في هذا الفصل للعوامل التي تساعد على تربيته، و نمو «الفضائل الأخلاقية»، و تقرب الإنسان من الله تعالى خطوةً خطوةً، و هذا البحث، غاية الأهميّة في علم الأخلاق، و يتناول أموراً عديدة:

### الخطوة الأولى: التّوبة

### إشارة

يقول كثير من علماء الأخلاق، إنّ الخطوة الأولى لتّهذيب الأخلاق و السّير إلى الله، هي «التّوبة»، التّوبة التي تمحو الذّنوب من القلب و تبيّض صفحته و تجعله يتحرك في دائرة النور، و تنقله من دائرة الظلمة، و تخفف ثقل الذّنوب من خزينة النّفساني، و رصيده الباطني، و تمهّد الطّريق للسّير و السّلوك إلى الله تعالى، في خط الإيمان و تهذيب النّفس. يقول المرحوم: «الفيض الكاشاني»، في بداية الجزء السابع من كتابه: «المحجّة البيضاء»، الذي هو في الواقع، بداية الأبحاث الأخلاقية: (فإنّ التّوبة من الذّنوب، و الرّجوع إلى ستار العيوب و علّام الغيوب، مبدأ طريق السّالكين، و رأس مال الفائزين، و أوّل إقدام المريرين، و مفتاح إستقامة المائلين و مطلع الإصطفاء و الاجتباء للمقرّبين!). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٠ و بعدها يشير إلى حقيقة مهمّة، و هي أنّ أغلب بني آدم يتورطون غالباً

بالمعاصي، ويشير إلى معصية آدم: (التي هي في الواقع، من ترك الأولى)، و توبته منها، ويقول: «وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالأباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي و إجتزم، فهي شنشنة يعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه، فما ظلم، ولكن الأب إذا جبر بعد كسر، و عمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي، التفي و الإثبات و الوجود والعدم، ولقد قلع آدم سنّ الندم، و تندّم على ما سبق منه و تقدّم، فمن إتخذة قدوةً في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرّد للشرّ دون التلافي، سجيّة الشياطين، و الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرّ ضرورة الآدميين، فالمتجرّد للخير ملك مقرب، عند الملك الديان، والمتجرّد للشرّ شيطان، والمتلافي للشرّ بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. والمصرّ على الطغيان، مسجّل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب بالتجرّد لمحض الخير إلى الملائكة، فخارج عن حيز الإمكان، فإنّ الشرّ معجون مع الخير، في طينه آدم، عجنًا محكمًا لا يخلصه إلّا إلى إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم» (١). أو بعبارة أخرى: أنّ الإنسان غالبًا ما يُخطيء، و خصوصًا في بداية سيره إلى الله تعالى، فإذا ما وجد أنّ أبواب العودة موصدة في وجهه، فسيورثه اليأس الكامل، و يبقى يرواح في مكانه، ولذلك فإنّ التوبة تعتبر من الاصول المهمّة في الإسلام، فهي تدعو كلّ المذنبين إلى العمل لإصلاح أنفسهم، و الدخول في دائرة الرّحمة الإلهيّة، و السّعي لجبران ما مضى. و قد بيّن الإمام السيّد جاد عليه السلام، في مناجاته: «مناجاة التائبين» أفضل وأحلى صورة لها، فقال: «إلهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سميته التوبة فقلت توبوا إلى الله توبه نصوحاً، فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه» (٢). و الجدير بالذكر أنّ البارئ تعالى يحبّ التائبين، لأنّ التوبة تعتبر الخطوة الأولى لكي الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩١ يعيش الإنسان في أجواء السّعادة و الحياة الكريمة. وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبته عبده، من رجل أضلّ راحلته و زاده، في ليلته ظلّماء فوجدها» (١). فهذا الحديث مزج بكنايات خاصّة و عبارات جذابة، ليبين أنّ التوبة في الواقع، الرّاد و الرّاحلة لعبور الإنسان من وادي الظلمات، ليصل إلى معدن الثور و الرّحمة، و يعيش حالات الكرامة في الصفات الإنسانيّة. و على أيّة حال، فإنّ ما يطرح في مبحث التوبة أمورٌ عديدة، أهمّها هي: ١- حقيقة التوبة. ٢- وجوب التوبة. ٣- عمومية التوبة. ٤- أركان التوبة. ٥- قبول التوبة، هل عقلي أو نقلی؟ ٦- تقسيم التوبة و تجزئتها. ٧- دوام التوبة. ٨- مراتب التوبة. ٩- معطيات و بركات التوبة.

### ١- حقيقة التوبة

«التوبة» في الأصل، هي الرجوع عن الذنب «هذا إذا ما نسبت للمذنبين»، ولكن الآيات القرآنية و الروايات نسبتها إلى البارئ تعالى، و عليه فيصبح معناها: الرجوع إلى الرّحمة الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٢ الإلهيّة، تلك الرّحمة التي سُلبت من الإنسان إثر ارتكابه للمعصية و الذنب، فبعد عودته لموقع العبوديّة و العبادة، تمتد إليه الرّحمة الإلهيّة من جديد، و بناءً على ذلك فإنّ أحد أسماء البارئ تعالى، هو (التواب). و «التوبة» في الحقيقة: هي مشترك لفظي أو معنوي بين الله و عباده، (ولكن إذا ما نُسبت للعبد، تتعدى بكلمة «إلى»، وإذا ما نُسبت للبارئ تعالى، فهي تتعدى بكلمة «على») (١). و ورد في «المحجّة البيضاء»، عن حقيقة التوبة فقال: «إعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم و يلتزم، من ثلاثة أمورٍ مرتبّة: علم و حال و فعل، فالعلم أوّل و الحال ثان و الفعل ثالث، أمّا العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، و كونها حجاباً بين العبد و بين كلّ محبوب، فإذا عرفت ذلك معرفةً محقّقةً ييقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة، تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعلة تأسّف على الفعل المفوّت، فيسمّى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندمًا، فإذا غلب هذا الألم على القلب و إستولى؛ إنبعث من هذا الألم في القلب، حالةً أخرى تسمّى إرادةً و قصدًا إلى فعل له تعلق بالحال و بالماضي و الإستقبال. فثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب، نار الندم فيتألم به القلب، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّ صار محجوباً عن محبوبه» (٢). و هو الشئ الذي يدعو البعض: بالثورة الروحيّة و النفسيّة، و يعتبرون التوبة نوعاً من الانقلاب الروحي، في باطن الإنسان على كلّ شيء، و تحته هذه الحالة على إتخاذ موقف جديد، حيال أعماله و برامج الآتيّة، من موقع الوضوح في الرّؤية لعناصر الخير و الشرّ.

## ٢- وجوب التوبة

اتفق علماء الإسلام على وجوب التوبة، وكذلك فإن القرآن قد صرح بها في الآية (٨) الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٣ من سورة التحريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». إن كل الأنبياء عندما يتقلدون أعباء الرساله، فأول شيء يدعون إليه هو التوبة، لأنه بدون التوبة و تقيئه القلب، لا يوجد مكان للتوحيد والفضائل في أجواء النفس و واقع الإنسان. فالنبي هود عليه السلام، أول ما دعى قومه: إلى التوبة و الاستغفار، فقال تعالى «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» (١) و كذلك النبي صالح عليه السلام، جعل التوبة أساساً لعمله و دعوته، فقال تعالى «فَاَسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» (٢). ثم النبي شعيب عليه السلام، الذي تحرك في دعوته من هذا المنطلق، فقال تعالى «وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» (٣). و دعمت الروايات ذلك الأمر، و أكدت على وجوب التوبة الفورية، ومنها: ١- وصية الإمام على عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «وإن قارفت سيئته فعجل محوها بالتوبة» (٤). طبعاً حاشا للإمام أن يقترف الذنوب، ولكن قصد الإمام على عليه السلام هنا، تنبيه الآخرين إلى هذا المعنى. ٢- قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لابن مسعود: «يا بن مسعود لا تقدم الذنب ولا تؤخر التوبة، ولكن قدم التوبة وأخر الذنب» (٥). ٣- وفي حديث آخر، قال الإمام على عليه السلام: «مُسَوِّفُ نَفْسِهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ هُجُومِ الْأَحْيَالِ عَلَىٰ أَعْظَمِ الْخَطَرِ». (٦) الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٤ ٤- وقال الإمام الرضا عليه السلام نقلًا عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ تَائِبَةٍ» (١). و يمكن أن يكون هذا الحديث دليلاً على وجوب التوبة، لأنها أحب الأشياء إلى الله تعالى في دائرة السلوك البشري. مضافاً إلى ذلك، هناك دليل عقلي على وجوب التوبة، وهو أن العقل يحكم، بوجوب دفع الضرر المحتمل أو المتيقن، و تحضير وسائل للنجاة من العذاب الإلهي، و بما أن التوبة هي أفضل وسيلة للنجاة من العذاب، فلذلك يحكم العقل السليم بوجوبها، فالعاصمين أتى لهم الخلاص، من العذاب الدنيوي والاخروي، و لما يتوبوا بعد؟! نعم، فإن التوبة واجبة، بدليل القرآن و الروايات و العقل، إضافة إلى قبول المسلمين لها أجمع، و بناءً عليه فإن الأدلة الأربعة تحكم بوجوب التوبة، و وجوبها فوري، و قد تطرق علم الاصول لهذا الأمر، على أساس أن الأوامر كلها ظاهرة في الوجوب ما لم يثبت العكس.

## ٣- عمومية التوبة

لا تختص التوبة بذنوب من الذنوب، أو شخص من الأشخاص، ولا تتحدد بزمانٍ و لا مكانٍ و لا عمرٍ محدد. و عليه فإن التوبة تشمل جميع الذنوب و تستوعب كل فردٍ في أي مكانٍ أو زمانٍ كان، وإذا ما احتوت على كل الشروط، فستقبل من قبل الباري تعالى، والاستثناء الوحيد الذي لا تقبل فيه التوبة، والذي أشار إلى القرآن الكريم، هو: التوبة عند حضور الموت، أو نزول العذاب الإلهي، (كما تاب فرعون في آخر لحظات عمره)، فعندها لن تقبل توبته، لأن التوبة عندها ليست توبة حقيقية، و لا هي صادرة من الشخص من موقع الإختيار، فيقول الباري تعالى: «وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ١٩٥ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (١). و نقرأ في قصة فرعون: عندما إنفلق البحر لموسى عليه السلام، و تبعه فرعون و جنوده، و اغرق فرعون، فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٢). ولكنه سمع الجواب مباشرة، فقال تعالى: «الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (٣). وأما بالنسبة للآدم السابقة، فقال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهٖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ». فأجابهم القرآن الكريم: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» (٤) و كذلك بالنسبة للحدود الإلهية، عندما يقع المجرم في أيدي العدالة، فلن

تقبل توبته، لأنه لم يتب واقعاً بل خوفاً من العقاب لا غير. فالتوبة التي لا تقبل من البارئ تعالى، هي التوبة التي تخرج من شكلها الإختياري في مسيرة الإنسان. وقال البعض: توجد ثلاثة موارد أخرى لا تقبل فيها التوبة: الأول: «الشرك»، حيث يقول القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يَعْفُزُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُزُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (٥). ولكن هذا الأمر يتعد عن الصواب والصحة، بل أن الآية لم تتكلم عن التوبة، ولكنها تحدثت عن العفو عن المشرك من دون توبته، وإلا فإن كل الأشخاص قبل الإسلام، تابوا من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٦ شركهم وقبلت توبتهم، وكذلك كل من يدخل في الإسلام في عصرنا الحاضر، فتوبته مقبولة عند جميع علماء المسلمين، ولكن إذا مات المشرك وهو على شركه، فلن يتوب الله تعالى عليه، أمياً في حالة أن يموت على التوحيد، ولكنه قد ارتكب ذنوباً في سالف حياته، فمن الممكن أن يعفو عنه الله تعالى، وهذا ما نستوحيه من مفهوم الآية الكريمة. وخلاصة القول، أن المشركين لن يشملهم العفو الإلهي المنفتح على الخلق، بل هو للمؤمنين الموحدين، والتوبة تغفر كل الذنوب حتى الشرك. ثانياً و ثالثاً: يجب أن تكون التوبة مباشرة بعد الذنب، ولا تؤخر إلى وقت بعيد، وكذلك يجب أن يكون ارتكاب الذنب عن جهالة لا عن عناد، ونقرأ في الآية (١٧) من سورة النساء: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا». والجدير بالملاحظة، أن كثيراً من المفسرين، حملوا هذه الآية على التوبة الكاملة، لأنه من الطبيعي، عندما يُذنب الإنسان من موقع العناد والغنى، ثم يتوجه لحقيقته الحال، ويندم على أفعاله السابقة، فإن البارئ تعالى يتوب عليه، وقد حدثنا التاريخ عن نماذج كثيرة وأفراداً كانوا في صفوف المعاندين والأعداء، ثم رجعوا عن غيهم وتابوا، وعادوا إلى حضيرة الإيمان والصلاح. ومن المعلوم حتماً، لو أن الإنسان أمضى عمره بالذنوب والعصيان، ولكن تاب بعدها توبةً نصوحاً، وتحول من دائرة المعصية والإثم، إلى دائرة الطاعة والإيمان، فإن الله تعالى سيقبل توبته لا محالة. ونقرأ في الحديث المشهور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا وَسَنَةٌ كَثِيرٌ، مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: شَهْرٌ كَثِيرٌ، مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمُعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ: وَجُمُعَةٌ كَثِيرٌ، مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَاعَةٍ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: وَسَاعَةٌ كَثِيرٌ، مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُغْرَغَ بِالمَوْتِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٧ وطبعاً القصد منه، التوبة بجميع شرائطها، فمثلاً إذا كان في عنقه حقوق الناس فعليه أن يوصى بها لمن هو بعده، ثم يتوب بعدها. وتوجد آيات كثيرة، تدل على شمولية التوبة لجميع الذنوب، ومنها: ١- نقرأ في الآية (٥٣) من سورة الزمر: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». ٢- نقرأ في الآية (٣٩) من سورة المائدة: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ٣- نقرأ في الآية (٥٤) من سورة الأنعام: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ففي هذه الآية نرى، أن سوء العمل مطلق ويشمل كل الذنوب، ومع ذلك فلا تُحجب عنه التوبة وطريق العودة. ٤- نقرأ في الآية (١٣٥) من سورة آل عمران: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». وهنا الظلم أيضاً يشمل جميع الذنوب، لأن الظلم مرّة يقع على الغير واخرى على النفس، ووعدت هذه الآية، جميع المذنبين بالتوبة عن جميع ذنوبهم وآثامهم، في أطار الذكر والإستغفار. ٥- نقرأ في الآية (٣١) من سورة التور، حيث خاطبت جميع المؤمنين: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». فكلمة «جميعاً» تدعو جميع المذنبين للتوبة، ولولا شمولية وعمومية التوبة، لما صحت هذه الدعوة القرآنية. والجدير بالملاحظة، أن الآيات المذكورة آنفاً، مرّة تؤكد على الإسراف، واخرى على الظلم، ومرّة على سوء العمل، والوعد الإلهي بالمغفرة لجميع هذه العناوين، في حال إنصوائها الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٨ تحت عنوان التوبة، عن كل سوء وظلم وإسرافٍ يقترفه الإنسان ويتوب منه، فإن الله تعالى سيتوب عليه. ووردت روايات كثيرة في هذا المجال، في مصادر الفريقين، السنة والشيعه، وأن باب التوبة مفتوح حتى اللحظات الأخيرة من العمر، ما لم يرى الإنسان الموت بعينه. ويمكن الرجوع إلى الروايات في كتب، مثل: بحار الأنوار (١)، واصل الكافي (٢)، والدر المنثور (٣)، وكنز العمال (٤)، وتفسير الفخر الرازي (٥)، وتفسير القرطبي (٦)، وتفسير روح البيان

«٧»، و تفسير روح المعاني «٨». وكتب اخرى، ويمكن القول أن هذا الحديث هو من الأحاديث المتواترة.

#### ٤- أركان التوبة

كما نعلم، أن حقيقة التوبة هو الرجوع إلى ساحة البارئ تعالى، و الإفلاق عن العصيان، في ما لو كان ناشئاً من الندم على ما سبق من الأعمال السيئة، و لازلزم الندم هو العلم بأن الذنب يحيل بين المذنب والمحبوب الحقيقي، و يترتب عليه العزم و التصميم على عدم العودة، و على التحرك لجبران ما فات، و محو آثار الذنوب السابقة من باطن وجوده و خارجه، و يتحرك كذلك في دائرة إعادة الحقوق الباقية في ذمته، و أكد القرآن الكريم، في كثير من الآيات على هذا المعنى، و جعل التوبة مقارناً للإصلاح: ١- الآية (١٦٠) من سورة البقرة، و بعد الإشارة إلى ذنب كتمان الآيات الإلهية و العقاب الذي يترتب على ذلك قالت: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ١٩٩ ٢- الآية (٨٩) من سورة آل عمران، و بعد إشارتها لمسألة الإرتداد و عقابها، يقول تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ٣- الآية (١٤٦) من سورة النساء، و بعد إشارتها للمنافقين، و عاقبة أمرهم السيئة، تذكر: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ». ٤- و في الآية (٥) من سورة التور، و بعد ذكرها للعقوبة الشديدة المترتبة على الصدف، في الدنيا و الآخرة، ذكرت: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ٥- و بالتالي نرى عنصر التوبة، بمثابة قانون كلى يستوعب في نطاقه جميع الذنوب، فقال تعالى في الآية (١١٩) من سورة النحل: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». ٦- و ورد شبيه لهذا المعنى، في الآية (٨٢) من سورة طه: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى». و أشارت الآية الكريمة هنا، بالإضافة إلى ركني التوبة الأساسيين، و هما: العودة إلى الله، و العمل الصالح، و جبران الماضي، ذكرت مسألة الإيمان و الهداية. و الحقيقة أن الذنوب تقلل نور الإيمان في قلب الإنسان، و تحرفه عن الطريق، و عليه فإنه بالتوبة يجدد إيمانه و هدايته، في نطاق إصلاح الباطن. ٧- و ورد في سورة الأنعام، الآية (٤٥)، معنى مشابه أيضاً: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهَا وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». و مما ذكر من الآيات الآنفه، تتضح لنا مسألة التوبة بصورة كاملة، فالتوبة الحقيقية ليست بلفظ الإستغفار وحده، و الندم على ما مضى، و الإفلاق عنه في المستقبل، بل تتعدى إلى دائرة الإنفتاح على العمل، لإصلاح كل التقصيرات و المفاسد التي صدرت منه في السالف، و محو آثارها من نفسه و ورحة و من المجتمع، لتحصيل الطهارة الكاملة في واقع الإنسان و الحياة، و طبعاً بالقدر الممكن. فهذه هي التوبة الحقيقية، وليس الإستغفار وحده! الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٠ و الجدير بالذكر أن كلمة «الإصلاح»، ورد ذكرها دائماً بعد ذكر التوبة، كالأيات الآنفه الذكر، و معناها واسع يشمل كل ما فات، من قصور و تقصير يُبعد الإنسان عن خط الإيمان، ومنها: ١- التائب يجب أن يؤدي جميع الحقوق لمستحقيها، فإن كانوا أحياء فبها، و إلفلورتهم. ٢- إذا كان قد تعامل مع الآخرين، من موقع الإهانة و الغيبة، و غيرها من الامور السلبية في دائرة السلوك، فيجب عليه طلب الحلية منه و ردّ إعتباره مادام الآخر يعيش في هذه الدنيا، وإن كان قد وافاه الأجل، فعليه أن يتحرك على مستوى إرسال الثواب لروحه، كى ترضى ٣- أن يقضى ما فاتته من العبادات: كالصلاة و الصيام و دفع الكفارات. ٤- نعلم أن ممارسة الخطيئة و الوقوع في منحدر الذنوب، يُظلم الروح و يسود القلب، فعلى التائب السعى لتنوير قلبه بالطاعة و العبادة، لتنتفح روحه على الله تعالى، في أجواء الإيمان. و أفضل و أكمل تفسير ورد لمعنى الإستغفار، هو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، في كلماته القصار في نهج البلاغة: قال عليه السلام لقائل قال بحضرتة: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»- و كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يعرف سوابقه و أعماله- «ثَكَلَتْكَ أُمَّكَ أَتَدْرِي مَا الْأَسْتِغْفَارُ؟ الْأَسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعَلِيِّنَ، وَهُوَ إِسْمٌ وَقَعَ عَلَى سِتِّهِ مَعَانٍ». أولها الندم على ما مضى و الثاني العزم على ترك العود إليه أبداً. و الثالث أن تُؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أَمَلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ. الرابع أن تعمد إلى كمال فريضة عليك ضيغتها فتؤدى حقها. الخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على الشح فتذيبه بالأحران حتى تلتصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد.



و السَّادِسَ أَنْ تُدِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمُعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠١ ونقل نفس هذا المعنى في و روايته اخرى، عن كميل بن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين العبدُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَسْتَعْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ فَمَا حُدَّ الْإِسْتِعْفَارُ؟ فقال الإمام عليه السلام: «يا ابنَ زيادِ التَّوْبَةُ». قلت: بس. قال عليه السلام: «لا». قلت: فكيف؟ قال عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَصَابَ ذَنْبًا يَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِالتَّحْرِيكِ». قلت: وما التَّحْرِيكِ؟ قال عليه السلام: «الشَّفَتَانِ وَاللِّسَانِ يُرِيدُ أَنْ يُتَبَعَ ذَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ». قلت: وما الحَقِيقَةُ؟ قال عليه السلام: «تُصَدِّقُ فِي الْقَلْبِ وَإِضْمَارًا أَنْ لَا يُعْوَدَ إِلَى الذَّنْبِ الَّذِي اسْتَعْفَرَ مِنْهُ». فقلت: «فإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ». قال عليه السلام: «لا». فقال كميل رحمه الله، قلت: فكيف ذاك. فقال الإمام عليه السلام: «لِأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْأَصْلِ بَعْدَهُ». فقال كميل رحمه الله: فَأَصِلِ الْإِسْتِعْفَارَ مَا هُوَ؟ فقال الإمام عليه السلام: «الرُّجُوعُ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي اسْتَعْفَرْتَ مِنْهُ وَهِيَ أَوْلُ دَرَجَةِ الْعَابِدِينَ». ثم قال الإمام عليه السلام: «وَتَرَكَ الذَّنْبَ وَالْإِسْتِعْفَارَ اسْمٌ وَقَعَ لِمَعَانٍ سِتٍّ». ثم ذكر نفس المراحل السَّيِّئَةِ، المذكورة في قصار الكلمات لتهج البلاغة، مع قليل من الاختلاف (١). و يمكن أن يقال: إنَّ التَّوْبَةَ إِذَا كَانَتْ كَمَا ذَكَرَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَنْ يَوْجَدَ تَائِبٌ حَقِيقِي الْأَخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٠٢ أبدأ. ولكن يجب التَّوْبَةُ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الشَّرُوطِ السَّيِّئَةِ، هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ كَمَالِ التَّوْبَةِ، كَمَا فِي الشَّرْطِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ، أَمَّا الشَّرُوطُ الْأَرْبَعَةُ الْآخَرَى، فَهِيَ مِنَ الشَّرُوطِ الْوَاجِبَةِ وَاللَّازِمَةِ، أَوْ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: إِنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ، وَالثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ التَّوْبَةِ، وَالثَّلَاثَ وَالرَّابِعَ هُمَا مِنَ الشَّرُوطِ اللَّازِمَةِ، وَالْخَامِسَ وَالسَّادِسَ مِنْ شُرُوطِ الْكَمَالِ (١). وجاء في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «أَمَّا عَلَامَةُ التَّائِبِ فَأَرْبَعَةٌ: النَّصِيحَةُ لِلَّهِ فِي عَمَلِهِ وَتَرْكُ الْبَاطِلِ وَكُزُومِ الْحَقِّ وَالْحِرْصُ عَلَى الْخَيْرِ» (٢). ويجب الإلتباه، أن الذَّنْبَ إِذَا تَسَبَّبَ فِي إِضْلَالِ الْآخَرِينَ، مِثْلَ الدَّعَايَةِ الْمُضَلَّةِ، وَالبِدْعَةِ فِي الدِّينِ، سِوَا مَا كَانَ عَنْ طَرِيقِ الْبَيَانِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْكِتَابَةِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ إِرْشَادُ الضَّالِّينَ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ، وَإِلَّا فَلَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُ. وَ مِنْهُ يَتَّضِحُ صَعُوبَةُ سُلُوكِ طَرِيقِ التَّوْبَةِ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُحَرِّفِينَ لِلآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَ الْمُبْتَدِعِينَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ الَّذِينَ يَتَحَرَّكُونَ عَلَى مَسْتَوَى إِضْلَالِ النَّاسِ، وَ سَوْقِهِمْ إِلَى الْإِنْحِرَافِ. فَلَيْسَ مِنَ الصَّحِيحِ، أَنْ يُضَلَّ شَخْصٌ عَدَدًا غَيْرًا مِنَ النَّاسِ، فِي الْمَلَأِ الْعَامِ، أَوْ بِكُتَابَاتِهِ وَمَقَالَاتِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ، وَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِيَعْفُو عَنْهُ، فَمِثْلُ هَذِهِ التَّوْبَةِ، لَنْ تُقْبَلَ أبدأ. وَ كَذَلِكَ الَّذِي يَهْتَكُ حَرَمَهُ أَحَدَ الْأَشْخَاصِ أَمَامَ الْمَلَأِ، ثُمَّ يَسْتَحَلُّ مِنْهُ عَلَى إِفْرَادٍ، أَوْ يَتُوبُ فِي خَلْوَتِهِ، فَلَنْ تُقْبَلَ مِثْلُ هَذِهِ التَّوْبَةِ، مَا لَمْ يَرِدْ إِعْتَابَرُ ذَلِكَ الشَّخْصِ، أَمَامَ الْمَلَأِ الْعَامِ. وَ بِنَاءً عَلَى هَذَا، فَإِنَّا نَقْرَأُ فِي الرِّوَايَاتِ عَنْ أَشْخَاصٍ هَتَكُوا حَرَمَهُ الْغَيْرِ، وَ اجْرَى عَلَيْهِمُ الْحَيْدُ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُمْ لَنْ تُقْبَلَ، إِذَا رَجَعُوا عَنْ غِيهِمْ وَكَلَامِهِمْ. وَ قَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ مُعْتَبَرٍ، عَنْ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ الرِّوَايُ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمَحْدُودِ إِذَا تَابَ، أَتُقْبَلُ شَهَادَتُهُ؟ فَقَالَ: «إِذَا تَابَ وَتَوْبَتُهُ أَنْ يَرْجَعَ مِمَّا قَالَ وَيُكْذِبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ وَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا فَعَلَ الْأَخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٠٣ فَإِنَّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْبَلَ شَهَادَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ». وَ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَوْصَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، قُلْ لِفُلَانٍ وَعِزَّتِي لَوْ دَعَوْتَنِي حَتَّى تَنْقَطِعَ أَوْصَالُكَ، مَا اسْتَجَبْتُ لَكَ، حَتَّى تَرُدَّ مَنْ مَاتَ إِلَى مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ فَيَرْجِعَ عَنْهُ» (٢). فبهذا الحديث يبين أهميته مسألة الإصلاح، و السعي لجبران الخلل من موقع التَّوْبَةِ، وَ إِلَى أَى حَدٍّ يَمْتَدُّ فِي آفَاقِ الْمَمَارَسَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَ بَدُونَ ذَلِكَ سَتَكُونُ التَّوْبَةُ صُورِيَّةً أَوْ مَقْطِئِيَّةً. وَ آخِرُ مَا يَمْكَنُ أَنْ يَقَالَ فِي هَذَا الْمَجَالِ، أَنْ مَنْ يَقْنَعُ مِنَ الْإِسْتِعْفَارِ بِالْإِسْمِ، مُقَابِلَ كَثْرَةِ الذَّنُوبِ وَ الْمَعَاصِي، وَ لَا يَسْعَى فِي تَحْصِيلِ أَرْكَانِهِ وَ شُرُوطِهِ، فَكَأَنَّهُ قَدْ اسْتَهْزَأَ بِنَفْسِهِ، وَ بِالتَّوْبَةِ وَ بِالْإِسْتِعْفَارِ. وَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَ الْمُقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ مُسْتَعْفِرٌ مِنْهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ» (٣).

##### ٥- قبول التوبة: هل هو عقلي أم نقلي؟

يتفق علماء الأخلاق أن التوبة الجامعة للشرائط، مقبولة عند الله تعالى، و يدل على ذلك الآيات و الروايات، ولكن يوجد نقاش حول قبول التوبة، هل هو عقلي أم عقلائي، أم نقلي؟ و يعتقد جماعة، أن سقوط العقاب الإلهي، هو تفضل من البارئ تعالى، فبعد تحقق

التوبة من العبد، يمكن للباري تعالى أن يتوب على عبده ويغفر له، أو لا- يغفر له، كما هو المتعارف بين الناس، عندما يقوم أحد الأشخاص بظلم الغير، فللمظلوم أن يغفر له، أو لا يعفو عنه. و ترى جماعةً أخرى، أن العقاب يسقط حتماً بعد التوبة، وعدم قبول عذر المجرم، من الله الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٤ تعالى، بعيدٌ و قبيحٌ، و لا يصدر منه تعالى. و هنا يمكن قبول رأى ثالث، وهو أن قبول التوبة أمر عقلائي، يعنى أن العقل وإن لم يوجب قبول التوبة و العذر، ولكن بناء العقلاء في العالم كله، مبنئ على قبول عذر الخاطيء، و إقاله عثرته، إذا ما عاد عن غيئه، و أصلح أعماله السيئه، و جبر ما كسره، و أرضى خصمائه بطرقٍ مختلفه، فهذا الموقف هو بناء العقلاء في العالم أجمع، فلو أصرَّ شخص على نفي هذا المبدأ العقلائي، ولم يقبله في سلوكه إتجاه المعتذر، فسيعتبر حقوداً وخارجاً عن موازين الإنسانية والأخلاق. و لا شك أن الله تعالى، و هو القادر و الغنى عن العالمين، أولى وأجدد من عباده بالعفو و المغفرة، و قبول عذر التائب، و عدم إنزال العقاب عليه. و يمكن القول بأكثر من ذلك، و هو وجوب قبول التوبة، لدى العقل الذى يعتمد على قاعدة: «فَبِح نَقْضِ الْغَرَضِ». و توضيح ذلك: نحن نعلم أن الباري تعالى، غنى عن عباده و طاعة العالمين، وإن كلفنا بشيءٍ فهو لطفٌ منه، للسير في خط التكامل و التريبه، فالصلاة و الصيام تُربى النفس و تُقرب الإنسان من الله تعالى، وكذلك سائر الواجبات، فلها قسطٌ في عمليته التكامل الإنساني. فنقرأ عن الحج: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» (١). و نقرأ في الآيات الأخرى، أن الصيام لئلا تنهى عن الفحشاء والمنكر (٢)، و الصوم سبب للتقوى (٣)، و الزكاة لتطهير الأفراد و المجتمع من الرذائل الأخلاقية و الانحرافات (٤). و إعتبرت الروايات الإيمان، سبباً للطهارة من الشرك، و الصلاة لدرء الكبر عن الإنسان، و الحج سبباً لوحدة المسلمين، و الجهاد لِعزة المسلمين .... (٥) و عليه فإن كل التكليف الإلهية، هي من أسباب سعادة الإنسان، و تكامله في خط الإيمان الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٥ و الحق و التكامل، هذا هو الهدف الأصلي للإنسان، في دائرة الوصول لمرتبة القرب الإلهي، و العبودية الحقة، قال الباري تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (١). و لا- شك فإن وجوب التوبة، و قبولها من قبل الباري تعالى، يشكّل إحدى حلقات التكامل المعنوي للإنسان، لأن الإنسان من طبيعته الخطأ، فإذا أوصد الباب دونه، فلن يتكامل أبداً. و إذا ما احيط الإنسان علماً بالتوبة، و أن الباري فتح الباب أمامه بشرط إصلاح ما مضى، فمثل هذا الإنسان يكون أقرب للسعادة و التكامل، و يبتعد عن الانحراف و الخطأ في مسيرة الحياة. و النتيجة: أن عدم قبول التوبة يؤدي إلى نقض الغرض، لأن الهدف من التكليف و الطاعة، هو تربية و تكامل الإنسان، و عدم قبولها لا ينسجم مع هذا الغرض، و من البعيد عقلاً على الحكيم، أن ينقض غرضه. و على كل حال، فإن التوبة و قبولها لها علاقة وثيقة بالتكامل الإنساني، و بدونها سينتفى الدافع و القصد للتكامل، و سيكون الإنسان في غاية اليأس من النجاة، مما يشجعه على التمادي في إرتكاب المعاصي و ممارسة الجريمة، و لذلك فإن كل المرئين، سواء كانوا إلهيين أم ماديين، يؤكدون على مسألة التوبة، و يجعلون الطريق مفتوحاً دائماً أمام الخاطئين، كي يُحرّكوا فيهم روح الأنابه، و دافع الإصلاح و الحركة نحو الكمال المطلق. و عليه فإن التوبة بشرائها، لم تحكم بها الآيات و الروايات فقط، بل هي ثابتة بحكم العقل و سيرة العقلاء، و هذا أمرٌ لا يمكن تجاهله البتة.

## ٦- التبعض في التوبة

هل يمكن للإنسان أن يقيم على بعض الذنوب، و يتوب عن البعض الآخر؟؛ فمثلاً إذا كان يشرب الخمر و يغتاب الناس، فهل يصح منه الإقلاع عن الخمر فقط، بينما يستمر في خط الغيبة؟ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٦ يقول البعض: إن التوبة يجب أن تكون شاملةً لكل الذنوب، لأن المسألة تعود إلى عصيان الباري تعالى، و هتك حرمة، فالتادم يجب أن يترك كل الذنوب، لا أن يُصِرَّ عليها. لكن هذا الكلام مُجانب للصواب، حيث يمكن القول بصحة التجزئه في عمليته التوبة، (و صرح بها بعض العلماء، مثل المرحوم التراقي في «معراج السعادة»، و قد نقلها عن أبيه رحمه الله)، لأنه ربما يكون الإنسان، على إطلاق كامل على آثار بعض الذنوب و عواقبها السيئه، أو هو عند الله أشد وأقبح، ولأجل ذلك فإنه يتركه على مستوى الممارسة و يتوب منه، أما بالنسبة للذنوب التي هي أقل قبحاً، أو أقل عقاباً، أو لأن علمه بها و إطلاعه على ما يترتب عليها من المفاسد، ليس كافياً بالدرجة التي تردعه عنه، فإنه يستمر في ممارستها. فأكثر

التائبين هم كذلك، فغالباً ما يقلعون عن بعض الذنوب، و يبقون على البعض، ولم يردنا شيئاً من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أو الأئمة الأطهار عليهم السلام، أو علماء الإسلام، ينفي قبول مثل هذه التوبة، ويؤكد على التوبة الكاملة الشاملة لكل الذنوب التي يرتكبها الإنسان. و نرى في الآيات الشريفة، إشارات واضحة على معنى التجزئة في التوبة، و صحة القول بالتفكيك، فمثلاً بالنسبة للمرابين، يقول تعالى «وَإِنْ تَبُتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ» (١). و بالنسبة للمرتدين بعد الإيمان، يقول تعالى «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢). و بالنسبة للمحاربين والمتسببين في ضلال الناس و المجتمع، فبعد ذكر ما يستحقون من العقاب الشديد، يقول تعالى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٣). و أما بالنسبة للأعمال المنافية للعفة، فيقول تعالى «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً» (٤). و في مكان آخر أشار إلى الذنوب، مثل: الشرك، و قتل النفس، و الزنا، و عقوباتها، فقال: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٧ «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» (١). و رغم أن بعض الآيات، تناولت بعض العقوبات الدنيوية، و العفو عنها بالتوبة، لكن الحقيقة أنه لا يوجد فرق من هذا اللحاظ، فإذا ما غفرت في الدنيا فستغفر في الآخرة قطعاً. و الخلاصة: أنه لا يوجد مانع من التفكيك و التفريق، بين الذنوب من جهاتها المختلفة، مثل: (الفرق في ميزان المعلومات، الدوافع، و قبح الذنوب)، ولكن التوبة الكاملة الشاملة، هي التوبة التي تستوعب جميع الذنوب، بدون التفريق بينها في خط العودة إلى الله تعالى.

## ٧- دوام التوبة

التوبة يجب أن تكون مستمرة و دائمة، هذا من جهة، فعندما يُخطئ الإنسان إثر وساوس النفسية «النفس الأمارة»، عليه أن يُقدم على التوبة لتدخل في مرحلة: «النفس اللوامة»، و بعدها تصل إلى مرحلة: «النفس المطمئنة»، لتقلع جذور الوسوس من أساسها. و من جهة أخرى: و بعد توبته من الذنب، عليه أن يُراقب نفسه باستمرار، و ليحذر من نقض العهد مع البارئ تعالى، في المستقبل أو بعبارة أخرى: إذا وجد في نفسه بقايا للميل إلى الذنب، و الرغبة في الإثم، عليه أن يُجاهد نفسه، و يتحرك في مجال تهذيبها من هذه الشوائب، ليكون في صف التائبين و المجاهدين. بعض علماء الأخلاق، تطرّقوا لبحوث لا طائل لها، و هو هل: مقام التائب و مجاهدته و ممارسته لعناصر الذنوب في الخارج أفضل، أم التائب الذي يقلع جذور الذنب من قلبه «٢»؟ و ليس من المهم الأفضلية، بل المهم هو العمل على تكريس حالة الإنضباط، في جو المسؤولية و عدم العودة لممارسة الذنب، و لرعاية هذا الأمر يتوجب اتباع أمور، منها: ١- الابتعاد عن أجواء الذنب، و عدم مُجالسة أهل المعاصي، لأنّ التائب يكون في البداية ضعيف القلب جداً، كالمريض في بداية شفائه من مرضه، فأدنى شيء، بإمكانه أن يثير في نفسه الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٨ مشاعر الخطيئة، بالمستوى الذي يشلّ فيه إرادة الصمود، و يحوله إلى كيان مهزوز، أمام حالات المرض، و يُشدّده عليه، و كالمعتاد على الأفيون، التيارك له للتو أيضاً، يتأثر بالأجواء الملوثة بسرعة. ٢- عليه هجر أصدقاء السيء، و تجديد النظر في علاقته معهم، و الفرار منهم كالفرار من الوحوش الضارية. ٣- في حالات وقوعه في دائرة و سوسة الشيطان، يشتغل بذكر الله تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (١). ٤- ليفكر دائماً بالذنب الذي تاب منه، و إفرازاته، و يجعلها نصب عينه، لئلا يغفل و ينسى مضرّاته، و إلا ستهجم عليه الوسوس و الدوافع لإيقاعه في هوة الخطيئة مرة أخرى. ٥- ليتعظ بقصص الماضين و السابقين و من وقعوا في المهالك، جزاء معاصيهم، و حتى الأنبياء المعصومين، و لتركهم الأولى أحياناً، مثلاً، يُفكر في قصة آدم عليه السلام، و السبب الذي أدّى إلى خسارته، ذلك المقام السامي و طرده من الجنة، أو حكاية يونس النبي عليه السلام، الذي حُبس في بطن الحوت، و يعقوب الذي ابتلى بفراق ولده. فكل ذلك يؤثر إيجابياً، في تفعيل عناصر الإرادة و الصمود، في خط الإيمان و الإنفتاح على الله تعالى. ٦- التفكير بالعقوبات التي وضعها البارئ للعاصين، و يجعل هذه الحقيقة أمام عينه دائماً، و هي أن معاودته لإرتكاب الذنوب، يمكن أن يؤدي به إلى إستحقاق عقوبة أشدّ و أقوى. و في المقابل، ليفكر برحمته الله تعالى و لطفه، و هو اللطيف الخبير الغفور، فرحمته بانتظار التوابين العائدين إلى خط الإستقامة و الإيمان، و ليحدّث نفسه بعدم تضييع هذا

المقام، الذي وصل إليه بعد تعبٍ و عناءٍ، في واقع العمل و المثابرة. ٧- ليشغل وقته بالبرامج الصحيحة السليمة، و التمتع بغير المحرم، و لا يدع فراغاً في أوقاته، يفرضى به أن يعيش التخبط في الوسوس الشيطانية مرةً أخرى. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٠٩ و قد سُئل أحد العلماء، عن قوله صلى الله عليه و آله: «التائبُ حبيبُ الله»، فقال: إنما يكون التائب حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكره في قوله تعالى: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

## ٨- مراتب التوبة

ذكر علماء الأخلاق، درجات و مراتب مختلفة للتوبة و التائبين. و يمكن تقسيم التائبين من جهة، إلى أربعة أقسام: القسم الأول: اولئك التائبون الذين لا يقلعون عن الذنوب، ولا يتأسفون على ما فعلوا، حيث وقفوا عند مرحلة النفس الأمارة، و عاقبتهم غير معلومة أصلاً، فمن الممكن أن يعيش حالة التوبة في آخر أيام حياته، و تكون عاقبته الحسنى، ولكن الطامة الكبرى، عندما يتفق موتهم مع معاودتهم للذنوب، و هناك ستكون عاقبتهم السوأى، و فيها الخسران الأبدى. القسم الثاني: التائبون بحق الذين يستمرون في طريق الحق و الطاعة، و يتحرّكون في خط الاستقامة، ولكن الشهوات تغلبهم أحياناً، فيكسرون طوق التوبة، و يرتكبون بعض الذنوب، من موقع الشعور بالضعف أمامها، ولكنهم لا يقعون في هذا الخطأ، من موقع التمرد و الجحود و العناد، على وعى الموقف، بل من موقع الغفلة و الإندفاع العفوى في حالات الضعف، التي تفرزها حالات الصيراع مع النفس الأمارة، و لهذا يحدثون أنفسهم بالتوبة من قريب، هؤلاء الأشخاص وصلوا إلى مرحلة النفس اللوامة، و الأمل بنجاتهم أقوى. القسم الثالث: التوابون الذين يجتنبون كبائر الإثم، و يتمسكون بأصول الطاعات، ولكنهم قد يقعون في حبال المعصية، لا عن قصدٍ و عمدٍ، ولذلك يتوبون مباشرة عن الذنب، فيلومون أنفسهم و يعزمون على التوبة و العودة إلى خط الاستقامة باستمرار، و يعيشون حالة الابتعاد عن الذنب دائماً. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٠ النفس اللوامة لهذه المجموعة، مهمته عليهم، و يعيشون على مقربة من النفس المطمئنة، و الأمل بنجاتهم أكبر. القسم الرابع: التوابون بعزم و قوة إرادة، في طريق الطاعة لله تعالى، فلا تهزهم العواصف التي تفرضها حالات الصيراع مع الخطيئة، و لا يخرجون من أجواء التقوى، صحيح أنهم ليسوا بمعصومين، و لربما فكروا بالمعصية، ولكنهم محصنين مُبْعَدِينَ عنها، فقوى الإيمان و العقل عندهم، سلبت هوى النفس فاعليته في واقعهم الباطني، و كبلته بالسيلاسل الغلاظ، في خط التركية و الجهاد الأكبر، فلا سبيل للشيطان و الأهواء عليهم. فاولئك هم أصحاب: «النفوس المطمئنة»، الذين نعتهم الآيات (٢٧ الى ٣٠) من سورة الفجر، و حُوطُوا بِأَبْلَغِ خِطَابٍ، فقال عز من قائل: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً». فدخلت يافتخار في أجواء التور و القرب الإلهي: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي». و من جهة أخرى، فإن للتوبة مراحل على مستوى المصاديق أيضاً: المرحلة الأولى: التوبة من الكفر إلى الإيمان. المرحلة الثانية: التوبة من الإيمان الموروث التقليدي، و التحرك نحو الإيمان الحقيقي المُستحکم. المرحلة الثالثة: التوبة من الذنوب الكبيرة الخطرة. المرحلة الرابعة: التوبة من الذنوب الصغرى. المرحلة الخامسة: التوبة من التفكير بالذنب، و الخواطر المشوبة بالمعصية، و إن لم يرتكب المخالفة في دائرة الفعل و الممارسة. فكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السير، (في كل لحظة لم يتوجهوا فيها إلى الله تعالى بالباطن والسر). و توبة الأصفياء من كل تنفس بغير ذكر الله (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١١ و توبة الأولياء من تلوين الخطرات. و الخواص من الإشتغال بغير الله. و توبة العوام من الذنوب. و كل واحد منهم، يشتمل على نوع من المعرفة و العلم، في أصل توبته، و مُنتهى أمره (١).

## ٩- معطيات و بركات التوبة

إذا كانت التوبة توبة حقيقيةً وواقعيةً ونابعةً من الأعماق، فلا بد من أن تقع مورد القبول من قبل الله تعالى، العفو الغفور، و تنتشر خيرها بركاتها على صاحبها في حركة الحياة، و تُغطى على ما صدر منه من معاصي، أدت به إلى السقوط في منحدر الضلال و الزيغ. مثل هذا الإنسان، يعيش أجواء الحذر الدائم من مجالس السوء و العصيان، و من كل عوامل الذنب و الوسوس، و التداعيات الأخرى، التي توقعه في و حل المعصية مرةً أخرى. و يعيش حالة الخجل و التدم، و يدأب باستمرار لتحقيق رضا الله تعالى، و جبران ما فاته من الطاعات. هذه هي العلاقات الفارقة لهم، عن المتظاهرين و المرائين. قال قسم من المفسرين، في معرض تفسيرهم للآية الشريفة: «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً» (٢). قالوا: إن المراد من التوبة النصوح، هي تلك التوبة التي تفعل في الإنسان عناصر الخير من موقع النصيحة، و تتجلى في روح التائب على مستوى حثها له، للقضاء على جذور العصيان في باطنه، قضاءً تاماً بلا رجعة بعدها. و فسرها قسم آخر، بالتوبة الخالصة، و قال آخرون إن: «النصوح» من مادة «التصاحه»، و هي بمعنى الخياطة و الترقيع، لما حدث من تمزيق، و بما أن الذنوب: الإيمان و الدين فتقوم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٢ التوبة بتوصيلها ببعض، و تعيد التائب إلى حضيرة الأولياء، كما تجمع الخياطة بين قطع الثوب «١». إن بركات و فوائد التوبة جمّة لا تُحصى، و قد أشارت إليها الروايات و الآيات العديدة، و منها: ١- تمحو و تُفنى الذنوب، كما ورد في ذيل الآية: «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً»، ورد «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم» (٢). ٢- تمنح التائب بركات الأرض و السماء، كما ورد في الآيات (١٠ و ١١ و ١٢) من سورة نوح عليه السلام: «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً\* يُرسل السماء عليكم مدراراً\* ويمددكم بأموال و بينين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً». ٣- تبدل التوبة السيئات حسناً، كما ورد في سورة الفرقان الآية (٧٠): «إلا من تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات». ٤- يتعامل الله مع هذا الإنسان، من موقع الشتر على الذنوب، و ينسى الملائكة الكاتبين ذنبه، و يأمر أعضاء بدنه بالستر عليه يوم القيامة، و كتمان أمره، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أحبّه الله و ستر عليه في الدنيا و الآخرة»، فقلت: وكيف يشتر؟ قال: «ينسى ملكيه ما كتب عليه من الذنوب، و يوحى إلى جوارحه: اكنمى عليه ذنوبه، و يوحى إلى بقاع الأرض: اكنمى ما يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه و ليس عليه شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب» (٣). ٥- التائب الحقيقي، يحبّه الله تعالى، لدرجة أن ورد في الحديث: «إن الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال، لو أعطى خصله منها جميع أهل السموات و الأرض لنجوا بها». و بعدها يشير إلى الآية الشريفة: «إن الله يحبّ التوابين و يحبّ المتطهرين» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٣ و قال: «من أحبّه الله لم يعدّبه». ثم يعرج على الآية: «الذين يحملون العرش و من حوله يسبحون بحمدي ربهم و يؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا ربنا و سمعت كل شيء رحمةً و علماً فأغفر للذين تابوا و اتبعوا سبيلك و قهّم عذاب الجحيم\* ربنا و أدخلهم جنات عدن التي وعدّهم و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم\* و قهّم السيئات و من تق السيئات يومئذ فقد رحمته و ذلك هو الفوز العظيم» (١) «٢». إلى هنا نصل إلى خاتمة بحثنا، في الخطوة الأولى لتهديب الأخلاق، و هي التوبة، و توجد مطالب أخرى في هذا المجال، يمكن الاستفادة منها في بحوثٍ مستقلة. نعم، فإنه ما لم ينجل عن القلب و الروح صدأ الذنوب، و يتحرك الإنسان لتطهير النفس من مخلفات المعصية بماء التوبة، فلن يشرق القلب بنور ربه، ولن يتمكن هذا الإنسان من السير على خطّ الإيمان، و السيلوك إلى الله تعالى و الفوز بجواره، ولن يذوق طعم التجليات العرفانية، في حركة الحياة المعنوية. هذا هو أول محطّ للرحال، و أهمها، و لا يمكن تخطيه إلا بعزم صادق و إرادة راسخة، يدعمها لطف إلهي و توفيق رباني، و لا يُلقبها إلا ذو حظّ عظيم.

### الخطوة الثانية: المشارطة

تكلّمنا سابقاً بصورة مقتضية، عن بعض برامج وخطى السير و السيلوك، المشتركة بين كبار العلماء و السائرين على ذلك الدرب، و يصل البحث بنا عن التوبة، إلى واقع التفصيل لتلك المباحث، مدعوم بالآيات و الروايات الشريفة: الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٤

الخطوة التالية التي ذكرها علماء الأخلاق، في خط الإلتزام الديني بعد التوبة: «المشارطة»: والقصد منها هو الإشتراط على النفس وتذكيرها وتنبهها، وأفضل الأوقات لها هو بعد صلاة الفجر، والتنور بأنوار هذه العبادة الإلهية، الكبيرة العظيمة عند الله تعالى، فيذكر نفسه ويوصيها بأن تتحرك في طريق الخير والصيلاح، فإذا ما إنقضى العمر فلن يفيد الندم، ولا يمكن الإستدراك، وليجعل نصب عينيه هذه الآية الشريفة: «وَالْعَصِيرُ\* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» (١)، فإذا ما ضاع العمر، فلن ينفع شيء بعده: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ» (٢). وعليه أن يحدث نفسه، ويقول لها: تصوّري أن العمر قد إنقضى، وزالت الحُجب وتجلت الحقائق المرّة، وبرزت معالم العذاب، وهول المطّلع، ومُنكر ونكير، فحينئذ تشعرين بحالة الندم على ما عملت، وتقولين: «رَبِّ ارْجِعُونِي\* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (٣). وعلى فرض إنك لم تسمعي جواب: «كلّا»، وأعادوك الى الدنيا فهل ستتعتظين وتُكفّرين عما قصرت في جنب الله؟؟ ثم يوصي نفسه بجوارحه السبعة: العين والاذن واللسان واليد والرجل والبطن والفرج، فهذه الجوارح مُنصّاعة لك اليوم وفي خدمتك، فلا تقحميها في المعاصي، فإنّ لجهنم سبعة أبواب، لكل باب جماعة خاصة من الناس، يدخلون جهنم منها، فعليك بالسيطرة الدقيقة على الجوارح لئلا تنحرف عن الطريق القويم، والهدف المرسوم لها، وبذلك توصد أبواب جهنم دونها، وتفتح أبواب الجنان لها؟. ويوصي النفس بالمراقبة لجوارحه، للاستعانة بها في طريق الطاعة لا المعصية، فهي نعم كبيرة مُحاسب عليها الإنسان غداً. ونجد في أدعية الإمام السجاد عليه السلام، تأكيداً لمسألة المُشارطة في حركة الإنسان المنفتح على الله. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٥ ففي الدعاء، رقم (٣١) المعروف بدعاء التوبة، يقول الإمام عليه السلام «وَلَكَ يَا رَبِّ شَرِي أَلَّا أَعُودَ فِي مَكْرُوهِكَ، وَضَمَانِي أَنْ لَا أَرْجِعَ فِي مَذْمُومِكَ وَعَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعْصِيكَ». وكذلك الحال في الآيات القرآنية، فإن أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، كانوا من خلال إرتباطهم مع الله تعالى، بنحو من العهد والميثاق، يُطبّقون نوعاً من المُشارطة على أنفسهم، في خط الرسالة والمسؤولية، ففي الآية (٢٣) من سورة الأحزاب، نقرأ: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ... (١). وكان البعض الآخر، ينقضون العهد مع الباري تعالى، بعد توكيدها، فورد في سورة الأحزاب، الآية (١٥): «وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِعَهْدِنَا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ لَأَيُّوْلُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا». وورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَعْهَدْ النَّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي نَقْصِ فَاَلْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ» (٢). «فالمُشارطة» إذن: هي من الخُطى المهمة لتَهذيب الأخلاق، ولولاها لتراكت سُحب الغفلة والغرور، على قلب وروح الإنسان، لحدّات به عن الطريق القويم، والجادة المستقيمة.

### الخطوة الثالثة: المراقبة

«المُراقبة» من مادة: «الرَقَبَةُ»، وبما أنّ الإنسان يحنى رقبتة عند مراقبة الأشياء والأوضاع، فاطلقت على كلّ أمر يُحتاج فيه إلى المواظبة والتحقيق. وهذا المُصطلح عند علماء الأخلاق، يُطلق على «مراقبة النفس»، وهي مرحلة تالية لمرحلة المُشارطة، يعني أنّه يتوجّب على الإنسان، وبعد مُعاهدته ومُشارطته لنفسه بالطاعة الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢١٦ للأوامر الإلهية، والإجتناب عن الذنوب، عليه المُراقبة والمواظبة على طهارته المعنوية، لأنّه في أدنى غفلة، فإنّ النفس ستنتفض كلّ العهود والمواثيق، وتسلّك به في خطّ المعصية مرّة اخرى. وطبعاً يجب أن لا ننسى أنّ الإنسان وقبل مراقبته لنفسه، فإنّ الملائكة تراقب أعماله، فيقول القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ» (١). فالحافظون هنا هم الذين يتولون عملية المراقبة لأعمال الإنسان، وذلك بقرينة الآيات التي تردّ بعدها، فنقول: «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ». وفي الآية (١٨) من سورة (ق) يقول تعالى «مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». و فوق هذا و ذاك، فإنّ الله تعالى من ورائهم محيط بكلّ شيء، وفي الآية (١) من سورة النساء، نقرأ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا». وكذلك في سورة الأحزاب، الآية (٥٢): «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا». وفي الآية (١٤) من سورة العلق: «أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ». و الآية (٢١) من سورة سبأ: «وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ». ولكن المحلّقين في أجواء التقوى وتهذيب النفس، يراقبون أفعالهم وسلوكياتهم، قبل مراقبة الله تعالى لهم، و

يعيشون الوَجَلِ والخوف من أعمالهم وفعالهم، وفي مراقبته دائمة، لئلا يصدر منهم ما يسلب تلك النعمة، والحالة العرفانية التي يعيشونها مع الله تعالى شأنه. أو بعبارة أخرى: الرقيب الباطني يعيش معهم وعلى يقظة دائماً، بالإضافة إلى الرقابة الخارجية، وخوف الله تعالى. وفي الحقيقة، فإن الإنسان في هذه الدنيا، حاله حال الذي يمتلك جوهرةً ثمينةً، يريد أن يقايسها بمتاع له ولعِياله، ومن حوَالِيهِ السَّرَاقِ وقطاع الطريق، ويخاف عليها من السرقة أو البيع بئس بئس، وإن غفل عنها للحظة فسيضيعها، وتذهب نفسه عليها حَسْرَاتٍ. الاخلاق في القرآن، ج 1، ص: 217 والسائر في خط التوبة والمراقبة، يعيش الحالة هذه أيضاً، فإن الشياطين من الجن والإنس مُترصدون لغوايته، هذا بالإضافة إلى النفس الأمارة، وهوى النفس، فإذا لم يُراقب نفسه وأعماله، فلا يأمن معها، من أن تسرق جوهرة الإيمان والتقوى، وينتقل من هذه الدنيا، خالي الوفاض وصفر اليدين، وفي الآيات والروايات إشارات كثيرة، وتلميحات متنوعة حول هذه المرحلة، ومنها: 1- الآية (14) من سورة العلق: «أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى . فَبِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَرَاقِبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَعَلَيْهِ مَرَاقِبَةُ أَعْمَالِهِ أَيْضاً. وَوَجَّهَ فِي آيَةٍ أُخْرَى الْخَطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَآتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (1). فجملة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...»، تبين لنا في الحقيقة مفهوم المراقبة للنفس، على مستوى السلوك والعمل. وَوَرَدَ نَفْسَ الْمَعْنَى، وَلَكِنْ بِشَكْلِ مُقْتَضِبٍ، فِي سُورَةِ عَبَسَ، الْآيَةَ (24): «فَلْيَنْظُرْ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»، (من الحلال والحرام) «2. 2- ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في تفسير الإحسان في الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ»، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (3). و من الطبيعي فإن المعاشية مع هذه الحقيقة، وهي أن الباري تعالى معنا أينما كنا، والرقيب علينا، من شأنه أن يخلق فينا روح الرقابة، ونكون معها دائبين على الإنسجام، مع خط الرسالة من موقع الالتزام. 3- ورد حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «يَتَّبَعِي أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُهَيِّمًا عَلَى الْإِحْسَانِ»، ج 1، ص: 218 نَفْسِهِ مُرَاقِبًا قَلْبَهُ، حَافِظًا لِسَانَهُ» (1). 4- جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنِ الْعَفْلَةِ وَنَفْسَهُ عَنِ الشَّهْوَةِ وَعَقْلَهُ عَنِ الْجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُسْتَبْهِينِ ثُمَّ مَنْ رَعَى عَمَلَهُ عَنِ الْهَوَى وَدِينَهُ عَنِ الْبِدْعَةِ وَمَالَهُ عَنِ الْحَرَامِ؛ فَهُوَ مِنْ جَمَلَةِ الصَّالِحِينَ» (2). 5- ما ورد في الحديث القدسي: «بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَلَمْ يُرَاقِبْنِي» (3). 6- جاء في إحدى خطب أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «فَرَحِمَ اللَّهُ إِمْرَاءَ رَاقِبٍ رَبَّهُ وَتَنَكَّبَ ذَنْبَهُ، وَكَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مَنَاهُ» (4). 7- وقد ورد في نهج البلاغة أيضاً: «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةً ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرَ قَلْبَهُ... وَرَاقِبَ فِي يَوْمِهِ عَدَهُ» (5). نعم فإن «الرقابة» على النفس أو المراقبة لله تعالى، أو ليوم القيامة، كلها تعكس حقيقةً واحدة، ألا- وهي النظارة والرقابة الفاحصة الدقيقة الشديدة للإنسان على أعماله، في كل حالٍ وزمانٍ ومكانٍ. و خلاصة القول: إن السائر إلى الله تعالى، وبعد «المشاركة» مع نفسه وربّه، وبعد تهذيب النفس وتربيتها على طاعة الله وعبوديته، عليه المراقبة والمداومة على العهد الذي قطعه على نفسه في خط التوبة، كالدائن الذي يطلب من مدينه وفاء ديونه، فأى غفلة عن مخاطر المسير، ستعود عليه بالضرر الفاحش، وتؤخره عن الركب كثيراً.

### الخطوة الرابعة: المحاسبة

#### إشارة

رابع خطوة ذكرها العلماء والسالكون في هذا المجال، هي: «المحاسبة» للنفس، في كل يوم أو كل شهر أو كل سنة، فلينظر الإنسان ماذا قدم من أعمالٍ حسنة، أو ارتكب من أعمالٍ قبيحة، ويفكر في ما يدر منه، من طاعة أو عصيانٍ لله تعالى، أو لهوى النفس. فيحاسب نفسه حساباً عسيراً، كالتاجر الذي يحسب فوائده وعوائده من تجارته التي إتجر بها، وهل عادت عليه بالنفع أم الضرر؟. فكذلك السائر إلى الله تعالى في خط الإيمان والتوبة، عليه أن يحاسب نفسه بأدق مما يفعل التاجر مع أمواله وتجارته. والمحاسبة للدين أو للدنيا، لا تخلو من فائدتين: إذا بينت الفاتورة، الربح الوفير، فهو دليل على صحة العمل والدوام عليه، وإذا ما بينت العكس،

فهو الدليل على الخطأ والخطر، فربما تلاعب أحد موظفيه، أو خاناه بالإختلاس وما شابهها من الأمور، فعليه الإسراع في التثبت و التّفحص والإصلاح. و تخبرنا الآيات الكريمة، عن وجود النّظم و الحسابات الدقيقة في عالم الوجود، وتدعو الإنسان للتّفكر فيها جيداً، ومنها: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ \* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ» (١). ونقرأ في آيةٍ أخرى: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (٢). وكذلك: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» (٣). و من جهةٍ أخرى، نجد أنّ القرآن الكريم، قد أخبر في آياتٍ متعددة، عن وجود حسابٍ دقيقٍ في يوم القيامة، كما ذكر على لسان لقمان الحكيم لابنه: «يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِنْتَقَالَ حَبَّةٌ مِنْ خَزْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (٤). وكذلك: «وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» (٥). الإفلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٠ ومسألة الحساب هذه مهمّة، لدرجة أنّ أحد أسماء يوم القيامة، هو: «يوم الحساب»: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْتَلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (١). و يكون الإنسان هو الحاسب على نفسه: «أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (٢). و بالنظر لهذه الأمور و الظروف، فإنّ كلّ شيءٍ في الدنيا والآخرة يكون بحساب، فكيف يمكن للإنسان أن يغفل عن مُحاسبة نفسه، و من وراءه يومٌ ثقيلٌ، و كلّ شيءٍ بميزانٍ و مقدارٍ: و من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، و من يعمل مثقال ذرّة شراً يره) فكلّ ما ذكر آنفاً، يحمل إلينا رسالةً و دعوة، لإثارة عناصر الإنتباه و عدم الغفلة عن الحساب و المحاسبة، فأنت إذا أردت أن تكون مُحفّفاً في يوم الحساب، عليك الإسراع بمحاسبة نفسك هنا في الدنيا، قبل أن تحاسب في الآخرة، و يقال فيها: ولات حين مناص. أما الروايات، فقد أشبعت الأمر بحثاً، و منها: ١- ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، في حديثه المعروف: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَ زِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا وَ تَجْهَرُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ» (٣). ٢- و عنه صلى الله عليه و آله مخاطباً أبا ذر رحمه الله: «يَا أَبَا ذَرٍّ حَاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبَ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ لِحِسَابِكَ عَدَاً وَ زَنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ» (٤). ٣- و ورد عن علي عليه السلام أنّه قال: «مَا أَحَقُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَةٌ لَا يَشْغُلُهُ شَاغِلٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، فَيَنْظُرَ فِيهَا إِنْ كَتَسَبَ لَهَا وَ عَلَيْهَا فِي لَيْلِهَا وَ نَهَارِهَا» (٥). فهذا الحديث يبيّن لنا بوضوح، مسألة المحاسبة في ساعات الفراغ، و هي من الأمور الجديرة بالإنسان الكامل، الذي يعيش هم المسؤولية، في دائرة حركته المنفتحة على الله تعالى. ٤- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، بنفس المعنى ولكن بشكلٍ آخر، فيقول عليه السلام: «حَقٌّ عَلَى الْإِفْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٢١ كُتِبَ مُسَلِّمٌ يَغْرِفُنَا، أَنْ يُعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَ لَيْلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَرَادَ مِنْهَا وَ إِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَعْفَرَ مِنْهَا لِنَلَّا يُخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). ٥- ما نقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «يَا هُشَامُ لَيْسَ مِنْ مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَنَةً اسْتَرَادَ مِنْهَا وَ إِنْ عَمِلَ سَيِّئَةً اسْتَعْفَرَ اللَّهُ مِنْهَا وَ تَابَ» (٢). فالروايات جمة في هذا المجال و من أراد الإكتثار، عليه مراجعته مستدرك الوسائل: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس (٣). هذه الروايات كلّها تبين أهميّة المسألة في الإسلام، و أنّ مَنْ لم يحاسب نفسه فهو ليس من أتباع الأئمة عليهم السلام، الحقيقيين! و كما أشارت الروايات إلى فلسفة و حكمه هذا الأمر، فهو يزيد من الحسنات، و يمنع الإنسان من السقوط في وادي الهلاك و القبائح، و يُساعده في إنقاذه من بحر الغفلة و الضياع، و هلاً ساوينا الأمور الماديّة بالمعنويّة الروحيّة، ففي الماديّات يُحسب حساب كلّ شيءٍ، و لكلّ دفتره الخاص به، دفتر: يومي، و سنوي، و شهري، و للمخزن ... و و. ولسنا مُستعدّين من وضع ولو ورقهٍ واحدهٍ نحاسب فيها أنفسنا، على ما فعلت في دائرة الطاعة و المعصية، لله تعالى!! هذا مع وجود فرق كبير بين الأمرين، و لا يُقاس أحدهما بالآخر، أو كما يقال شتان ما بين الثرى و الثرى، فنقرأ حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، يقول: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِناً حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحَاسِبَةِ الشَّرِيكِ شَرِيكِهِ، وَ السَّيِّدِ عَبْدَهُ» (٤). فهذا الموضوع مهم للغاية، إلى درجة أنّ العلماء كتبوا فيه كتباً عديدة، و منهم السيد ابن طاووس الحلي رحمه الله المتوفى في سنة (٦٦٤ للهجرة) في كتابه محاسبة النفس، و كتاب محاسبة النفس في إصلاح عمل اليوم و الاعتذار من الأَمْس، للمرحوم الحاج ميرزا علي الحائري الإفلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٢ المرعشى، (المتوفى في سنة ١٣٤٤ للهجرة)، و محاسبة النفس للسيد علي المرعشى، المتوفى في سنة (١٠٨٠ للهجرة) (١). و يجدر هنا الإشارة إلى عدّة ملاحظات:



## ١- كيفية محاسبة النفس و إستنطاقها

و أفضل طريقٍ لذلك، ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، نقلًا عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فقال: «أَكْبَسَ الْكَيْسِيَّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ...» فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَيْفَ يُحَاسَبُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: إِذَا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمْسَى رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: يَا نَفْسُ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَضَى عَلَيْكَ لَا يَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَاللَّهِ سَأُثَلِّقُكَ عَنْهُ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ، فَمَا الَّذِي عَمِلْتَ فِيهِ؟ أَذَكَّرْتَ اللَّهَ أَمْ حَمَدْتَهُ؟ أَقَضَيْتِ حَقَّ أَخٍ مُؤْمِنٍ؟ أَنْفَسْتِ عَنْهُ كُرْبَتَهُ؟ أَحْفَظْتِيهِ بظَهْرِ الْعَيْبِ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ؟ أَحْفَظْتِيهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُخْلِطِيهِ؟ أَكَفَفْتِ عَنْهُ عَيْبَهُ أَخٍ مُؤْمِنٍ بِفَضْلِ جَاهِك؟ أَعَنْتِ مُسْلِمًا؟ مَا الَّذِي صَنَعْتَ فِيهِ؟ فَيَذَكُرُ مَا كَانَ مِنْهُ، فَإِنْ ذَكَرَ أَنَّهُ جَرَى مِنْهُ خَيْرٌ حَمَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أَوْ تَقْصِيرًا أَسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَزَمَ عَلَى تَرْكِ مَعَاوِدَتِهِ وَمَحَا ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِتَجْدِيدِ الصِّيَالَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ وَعَرْضَ بَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَبُولَهَا، وَإِعَادَةَ لَعْنِ شَانِيئِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَدَفْعِهِ عَنْ حُقُوقِهِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَسْتُ أَنْاقِشَكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ مَعَ مُوَالَاتِكَ أَوْ لِيَائِي وَمُعَادَاتِكَ أَعْدَائِي» (٢). نعم فإنها أفضل طريقة لمحاسبة النفس، و إجماعها عن التماذي في خط العصيان و التمرد.

## ٢- ما هي معطيات محاسبة النفس؟

الإجابة على هذا السؤال، ظهرت جليةً في طيات بحوثنا السابقة، و الحرى بنا هنا الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٣ الإستعانة بالأحاديث التي وردت عنهم عليهم السلام، منها: ما ورد عن الإمام على عليه السلام: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَقَفَّ عَلَى عُيُوبِهِ، وَ أَحَاطَ بِذُنُوبِهِ، وَ اسْتَقَالَ الذُّنُوبَ وَأَصْلَحَ الْعُيُوبَ» (١). و أيضاً عنه عليه السلام: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ سَيَّئِدَ» (٢). و عنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ الْمُحَاسَبَةِ صِلَاحُ النَّفْسِ» (٣). و يقول بعض العلماء في هذا الفن، إنَّ المحاسبة يجب أن تكون شبيهة، بالمحاسبة بين الشريكين، فإذا ما وجد النفع إستمر معه وبارك في خطاه، وإلا فسيكون ضامناً للخسارة في الحاضر والمستقبل. و أهم رأسمال عند الإنسان: هو عمره، فإذا ما قضاه بالخير والمنفعة، فهو الفائز، ولكنه سوف يعيش الخسارة في إرتكابه للذنوب، فموسم هذه التجارة هي أيامه، و شريكه في المعاملة هو النفس الأمارة. فأول ما يطالبها بالفرائض، فإذا ما أدتها فليشكر الباري تعالى، وليبارك خطاه، و إذا ما ضيقت فريضة ما، فليطالبها بقضائها وإذا كان فيها نقص، فليجبرها بالتواضع، وعند المعصية يطالبها بالتكفير عنها، كما يفعل التاجر مع شريكه، في أتفه الامور و المبالغ التي لا قيمة لها، كى لا يُغبن في المعاملة، وخصوصاً أن الإنسان، يواجه عدواً لدوداً مخادعاً، و هو النفس الأمارة، و ليحاسب نفسه كما تحاسبه الملائكة، في تداعيات أفكاره، وخواطر نفسه في قيامه و في قعوده، ولماذا تكلم، ولماذا سكن؟، وهكذا في كل ساعة و كل يوم، و على كل فعل و عمل، و إذا ما تهاون في الأمر، فسوف تتراكم على قلبه و روحه الذنوب و العيوب، و الأنكى من ذلك أن الإنسان ينسى ما يفعله بسهولة، ولكن الكرام الكاتبين، لا يغفلون ولا يفترون في عملهم، فقال الباري تعالى: «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٤ ومسك الختام، نورد حديثاً يبين كيفية الحساب في يوم القيامة، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبَدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْتَمَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمرِهِ فِي مَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِي مَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ وَفِي مَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ» (١).

## الخطوة الخامسة: المعاتبه و المعاقبة

بعد «المحاسبة»، يأتي دور المَعاتبَة و المُعاقبَة للنفس على أخطائها و أغلاطها، فالحساب بدون إظهار ردّ الفعل، لا فائدة فيه ولا ثمره، و نتيجته ستكون عكسية، بل تحمل النفس على الجرأة و الجسارة و العناد، في حركة الحياة و الواقع، فكما يحاسب الرئيس موظفيه عن تقصيرهم، و يعاقبهم بنوع ما، و كل حسب حجم تقصيره، فكذلك يفعل السائرون في طريق الباري، فإذا ما جمحت بهم أنفسهم يوماً،

فسوف يعاقبونها لجرأتها على سيدها ومولاها. و أكد القرآن الكريم على هذه المسألة، فأقسم بالنفس اللوامة، لأهميتها: «لا أقسمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ» «٢»، «٣». ونحن نعلم أن النفس اللوامة، هي الضمير الحي الذي يردع صاحبه عن ارتكاب المعاصي، وهو نوع من العقاب للنفس. ومن الواضح أن العقاب للنفس له درجات و مراتب، و أول ما يبدأ من حالة الملامة، ثم يشدد العقاب، وذلك بحرمان النفس من بعض اللذائذ الدنيوية لفترة من الزمن. و أشار القرآن الكريم، لنموذج رائع حول هذا الموضوع، و ذلك بالنسبة للثلاثة الذين الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٥ تخلّفوا في غزوة تبوك، و أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، الناس بمقاطعتهم في كل شيء، فضاعت عليهم الأرض بما رحبت، فعاقبوا أنفسهم على فعلتهم، و إنشغلوا بالتوبة، و إنزلوا عن الناس بالكامل، و بعد مدة تاب الله تعالى عليهم، و نزلت الآية الكريمة: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا خِثْيَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَمَلَحُوا مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «١». فجملة: «وضاقت عليهم أنفسهم»، ربما تكون إشارة إلى مسألة: «معاقبة النفس»، بالعزلة التي إختاروها لأنفسهم، فقبلها البارئ تعالى منهم، و ورد في شأن النزول للآية (١٠٢) من سورة التوبة: «وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». فهي تشير إلى قصة: «أبو لبابة الأنصاري»، و هو أحد أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنه تهاون عن نصره رسول الله صلى الله عليه و آله و ربط و آله، في غزوة تبوك، و بعدها ندم أشد الندم، فأراد أن يكفر عن فعلته، فذهب إلى مسجد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، و ربط نفسه إلى أحد أعمدته، و أقسم أن لا يطلق نفسه إلا بموافقة الله و رسوله، أو يتوب الله تعالى عليه، فبقى على هذه الصورة حتى تاب الله تعالى عليه، و نزلت الآية، و صرحت بقبول الله تعالى لتوبته. و من الواضح، أن أبا لبابة كان قد تحرك من موقع مُحاسبة النفس، و مُعاقبتها على فعلتها، و هو دليل على أن السير و السلوك إلى الله تعالى، كان موجوداً على عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله. و أما جملة: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا»، فهي أيضاً ربما تكون إشارة لذلك المعنى أيضاً، و أتحدثنا الروايات أيضاً، و أرشدتنا إلى موضوع بحثنا، و منها: ١- ما ورد عن علي عليه السلام، أن قال في أوصاف المتقين، في نهج البلاغة: «إِنْ اسْتَضِيَّعَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي مَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِي مَا تُحِبُّ» «٢». و المقصود منه، أن يمنع نفسه في حالة جموحها، من النوم و الزاحة و الأكل و الشرب، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٦ لتأذّب و لتنصاع إليه. ٢- ما ورد في غرر الحکم، عن ذلك الإمام عليه السلام الهمام، أنه قال: «إِذَا صَعِبَتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَاصْعَبْ لَهَا تَذَلُّ لَكَ». ٣- و عنه عليه السلام: «مَنْ دَمَّ نَفْسَهُ أَصْلَحَهَا، وَمَنْ مَدَحَ نَفْسَهُ ذَبَحَهَا» «١» ٤- و عنه عليه السلام، قال: «دَوَاءُ النَّفْسِ الصَّوْمُ عَنِ الْهَوَى وَالْحَمِيَّةِ عَنِ لَذَاتِ الدُّنْيَا» «٢». و يحدثنا التأريخ عن نماذج كثيرة من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، و العلماء الكبار، و المؤمنين المخلصين، الذين إذا مسّهم إغواء الشيطان، و ارتكبوا بعض الذنوب، كانوا يسارعون في وضع أنفسهم تحت طائلة العقاب، لئلا يتكرّر هذا العمل منهم مرّة اخرى في المستقبل، و منها: ١- ورد أن أحد أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، و اسمه «ثعلبة» «٣»، كان من الأنصار، و كان يواخي «سعيد بن عبد الرحمن»، و هو من المهاجرين، و صاحب سعيد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و خلف ثعلبة في المدينة، مُعتمداً عليه في حلّ مشاكل بيته و عائلته، و ما يحتاجونه من باقى الامور المعيشية، و في يوم ما، إحتاجت امرأة «سعيد» إلى شيء، فوفقت خلف الباب، تتحدّث مع ثعلبة في ذلك الأمر، فوسوس له الشيطان في ممارسة الإثم، فكشف عن حجابها، فرآها جميلة جداً، فأراد أن يضمّها إلى صدره، ولكنها نهرته قائلة له: ما تفعل يا ثعلبة، أمّن الحق أن يكون أخوك في الجهاد، و أنت تُريد بأهله السوء؟! إنتبه ثعلبة من نومته و غفلته، و أيقظه هذا النداء من غيّه، فصاح و فرّ على وجهه في البيداء باكياً، و هو يقول: «إِلَهِي أَنْتَ الْمَعْرُوفُ بِالْغُفْرَانِ وَأَنَا الْمَوْصُوفُ بِالْعِصْيَانِ» «٤». فبقى في الصحراء مدةً طويلةً معاقباً نفسه، مضيّقاً عليها لما صدر منه، و في قصةٍ طويلةٍ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٧ تحكى أنه عاد بعدها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و تاب على يده، فنزلت الآية أدناه لتوكيد قبول توبته، و هي الآية (١٣٥) من سورة آل عمران: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرِحُوا وَاللَّهُ وَكَمٌ يُصِرُّوهُ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». ٢- نقل عن حالات الفقيه الكبير، المرحوم آية الله، البروجردى قدس سره، عندما كان يجلس للدرس مع طلابه، فربما

يَدْر منه أثناء التَّقاش، أن يرفع صوته بالتَّوْيِخ لأحد طلبائه، ولم يكن ذلك منه إلَّا من باب المحيَّة، و علاقة الأب مع ابنه، فكان يندم مباشرةً و يعتذر، و يندر للصوم في غَدِه ليكفِّر عن فعله، رغم أنه لم يصدر منه ما يخالف الشَّرْع. ٣- نقل أحد كبار علماء الأخلاق، عن أحد الوعاظ، أنه عندما كان يصعد على المنبر للوعظ و الخطابة، و قبل الشُّروع كان يُسَلِّم على الحسين عليه السلام، و لا يبدأ بكلامه حتى يسمع الجواب منه عليه السلام، هذه الحالة المعنوية، لم تحصل لديه إلَّا بعد حادثه حدثت له مع أحد الوعاظ، حيث قرَّر في يوم من الأيام مع نفسه، يكسر مجلس ذلك الواعظ المعروف، بإيراده كلاماً أبلغ و أحلى من كلام ذلك الشَّيخ، فتبته لِحَظْته، و أخذ على نفسه بعدم إرتقاء المنبر لمدَّة (٤٠) يوماً، عقاباً لنفسه على فعلتها تلك، فالقى في قلبه ذلك التور و تلك الحالة الإلهيَّة. «١» و زبده الكلام، أنه وللحصول على النتائج و المعطيات، المرجوَّة من المراقبة و المحاسبة، أن يتحرك الشَّخص في عمليَّة التزكية، من موقع معاقبة النفس عند زلَّها و جُموحها عن الطريق، وإلَّا فلا يمكن تَوَخِّي النتائج المطلوبة في نطاق التَّهذيب و التزكية، و هذا لا يعني أننا نُمضى أعمال و فعال بعض الصَّوفيين المنحرفين، كما أورد بعضها الغزالي في كتابه: «إحياء العلوم»، فما يفعلوه من أعمال خَسَنَةٍ مُتَهَوِّرَةٍ، و سلوكيات شاذَّة، في دائرة معاقبة النفس و جُبران تقصيرها، لا- تُمَّت إلى الدِّين بصلَّة، و قصدنا من المعاقبة، هي أعمالٌ مشروعةٌ في دائرة المفاهيم الإسلاميَّة، كالصَّوم، و مخالفة الهوى، و حرمان النفس من بعض لذاتها الماديَّة، التي لا تخدش في سماحة الدِّين و رافته، بل هي من أسسه. الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٨ و كما يقول المرحوم التَّراقي، في «معراج السَّعادة»: إذا صدرت من الشَّخص مخالفةٌ؛ ما فعله تأديب نفسه و ترويضها، بالعبادات الثَّقيلة مثلاً، أو يانفاق الأموال التي يحبها و يجمعها، أو يقوم بتجويج نفسه عند أكله لِّلْقَمَّة الحرام، أو يؤدب نفسه بالسَّكوت، و يمدح الشَّخص الذي يغبته، أو يجبرها بذكر الله تعالى، و إذا إستهان أو استصغر أحداً من الناس لفقره، فليكرمه بالمال الكثير، و كذلك الحال في بقيَّة المعاصي، و الموبقات التي صدرت منه، ولكلِّ بحسبه» «١».

### الخطوة السادسة: «التَّيَّة» و «إخلاص التَّيَّة»

#### إشارة

تناول العلماء في بداية مباحثهم الأخلاقية، مسألة «التَّيَّة» و «إخلاص التَّيَّة»، و فرَّقوا بينهما وقالوا: إنَّ «التَّيَّة» شَيْءٌ، و «إخلاص التَّيَّة» شَيْءٌ آخر، لكنهم لم يذكروا فروقاً واضحةً و مشخصَّةً، فأدخلوا إخلاص التَّيَّة في مبحث التَّيَّة، بحيث يصعب التَّمييز بينهما. و لأجل التَّفريق و التَّمييز بينهما، يمكن القول: إنَّ المقصود من «التَّيَّة»: هو العزمُ و الإرادةُ الرَّاسخين لفعلٍ ما، بقطع النَّظر عن الدَّافع الإلهي، أو المادى الذي يقف خلفها. بالطبع إذا أراد الإنسان أن يرى ثمره عمله، في دائرة الواقع و حركة الحياة، فعليه أن يدخل إلى ساحة العمل و السِّلوك، بإرادة قويَّة، و عزم راسخ، لا تُزلزله التَّحديات، و لا تهزّه الصَّعاب، سواءً في نطاق تحصيل العلم، أو في الزَّراعة و التجارة و السِّياسة. و الخُلاصة: إنَّ كلَّ عملٍ إيجابي، نريد أن نصل به إلى النتائج المرجوَّة، علينا في البداية، أن نتقدم نحو ميدان العمل و الممارسة، بقلبٍ ثابتٍ و إرادةٍ بعيدةٍ عن التَّردد، و بالطبع فإنَّ هذا الأمر لا يتمُّ إلَّا بالتَّنظير له، في مرحلةٍ سابقية، و دراسةٍ كلِّ جوانبه و الامور المحيطة به، من عوائد و نتائج إيجابية أو سلبية، و العقبات التي يمكن أن تقف بوجهه، و بعدها المُضى قُدماً بخطى ثابتةٍ نحو الهدف، في خطِّ العمل و التَّطبيق. الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٢٩ و لأجل السَّير في طريق تهذيب الأخلاق و السلوك إلى الله تعالى، نحتاج إلى نيَّة جادَّة، و إرادة حاسمة، لأنَّ ضعف الإرادة، يمثِّل أكبر عائقٍ أمام تحقيق ما يطمح إليه الإنسان، في دائرة التَّكامل الأخلاقي، فأى مانع يقف بوجهه، سُرعان ما يُولَّى دُبْرَه و يعود أدراجه، فالضعف في عنصر الإرادة، بإمكانه أن يتسرَّب إلى سائر القوى الباطنيَّة، و بالعكس، فإنَّ القوى الإرادة، سيقوم بتوظيف قواه، و ملكاته الداخليَّة، و يدفعها بقوةٍ نحو الهدف المنشود. و هذا هو الأمر، الذي عبَّر عنه القرآن الكريم ب: «العزم»، و قد سُمِّي الأنبياء العظام، لعزمهم القوى، و إرادتهم الحديديَّة، ب الأنبياء أولو العزم) «١»

فخاطب القرآن الكريم، الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قائلاً: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» (٢). و بالنسبة لآدم عليه السلام، قال: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (٣)، حيث تناول من الشجرة الممنوعة، ولم تكن لديه إرادة قوية في خط الطاعة. أما في دائرة الزوايات الشريفة، فبرى أنها توجهت إلى عنصر العزم، و أكددت عليه من موقع الأهمية. ومنها: ما نقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، في أديه رجب، نقرأ: «وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ زَادِ الرَّاحِلِ إِلَيْكَ عَزْمُ إِرَادَةِ يَخْتَارُكَ بِهَا وَقَدْ نَاجَاكَ بِعَزْمِ الْإِرَادَةِ قَلْبِي» (٤). و في حديث آخر عن الصادق عليه السلام، قال: «إِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ عَوْنَ الْعِبَادِ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ، وَمَنْ قَصُرَتْ نِيَّتُهُ قَصُرَ عَوْنُهُ بِقَدْرِ الَّذِي قَصَرَهُ» (٥). و في حديث آخر، عنه عليه السلام: «مَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النَّيَّةُ» (٦). فهذا الحديث، يبين لنا فاعلية الإرادة، و دورها في الصعود بالقوى الجسمانية، إلى أبعده الحدود والمراتب في حركة الإنسان. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٠ و من المعاني الاخرى «للنية»، هو اختلاف الدوافع، بالنسبة للأعمال التي تكون على هينه واحدة في الظاهر، فالذهاب للجهاد، يمكن أن يكون الباعث له هو كسب الغنائم، أو الإستعلاء على الناس، أو يكون دافعه نصره الحق، و دفع الظلم، و إطفاء نار الفتن، و أمثال ذلك. فالذهاب للحرب، واحد في الشكل و الظاهر، ولكن شتان بين النوايا السليمة، و بين النوايا المغرضة. و لأجل ذلك، أتت الأوامر بإصلاح النية، و تنقيتها من الشوائب، قبل السلوك في أي طريق، و ما السالك في خط الله، و الكمال المعنوي بمستثنى عن ذلك، فهل أن هدفه من سلوك سبيل التهذيب والرياضة، هو التكمال المعنوي، و الوصال الحقيقي، أم أنه يريد كسب عنصر القوة في عالم النفس، و التسلط على ما وراء الطبيعة، ليشار إليه بالبنان؟! و ما وردنا من حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، هو إشارة لهذا المعنى، و ورد الحديث في موسوعة: بحار الأنوار، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَ إِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» (١). و كذلك الحديث الوارد عن علي عليه السلام، حيث يقول: «عَلَى قَدْرِ النَّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ عَطِيَّةً» (٢). فهو إشارة إلى نفس المعنى الآنف الذكر. و يُستفاد مما تقدم، أنه ولأجل الوصول إلى المقاصد والأهداف المنشودة، في أي أمر و عمل، و خصوصاً المصيرية منها، علينا أن نتحرك في دائرة العمل، بإرادة قوية و عزم راسخ، في مواجهة التحديات الصعبة، لتحقيق الأهداف المرسومة، و بدون ذلك، سيحل فينا عنصر اليأس والحيرة والضياء. وكذلك هو حال السائر في طريق تهذيب النفس، و إصلاح الخلل في واقعه الداخلي، عليه البدء بإرادة حديدية، و يدعمها بالتوكل على البارئ تعالى، في عملية السلوك المعنوي، و يمكن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣١ أن يتساءل المرء عن كيفية تحصيل هذه الإرادة القوية، في واقعه الداخلي و النفسى. و الجواب واضح جداً، فنفس الهدف المنشود، هو الحافز الأصلي الذي يدفع الإنسان نحوه، فكلما كان الهدف سامياً، كان السير إليه أقوى وأشد، والخطى نحوه أثبت. فإذا أذعن الإنسان لهدف الحقيقة، و هي: أن وجوده، و الهدف من خلقته، ليس هو إلا تهذيب الأخلاق و القرب من الله تعالى، و بغفلة أو تعافله عنها، سيقع في مستنقع الرذائل، و ينحدر في وادي الظلمات، فإذا صدق تلك الحقيقة، و تعمق فيها، أكثر و أكثر، فسوف يسير على بصيرة من أمره، ثابت الخطى، هادىء البال، مرتاح الضمير، رابط الجأش، بل وأكثر من ذلك، سيفدى روحه في هذا السبيل، و يكون مصداقاً ل: «عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى». و يمكن القول في جملة واحدة، أن الإرادة القوية منشؤها المعرفة الكاملة، من موقع الوضوح في الرؤية و سمو الهدف، في وعى الإنسان.

### الإخلاص:

المراد من «الإخلاص»، هو: إخلاص النية، و أن يكون الهدف، في دائرة الفكر و السلوك: هو الله تعالى فقط. و قد يكون هناك أشخاص من ذوى الإرادة القوية، تمنحهم القوة للوصول إلى أهدافهم، إلما أن الدافع الحقيقي لهم، هو: التمتع المادى و المصلحة الذاتية، ولكن أولياء الله و السالكين في خط الحق و الإيمان، يتمتعون بإخلاص النية لله تعالى، إلى جانب الإرادة القوية. و نرى في القرآن الكريم و الزوايات الإسلامية، أن عنصر: «الإخلاص»، إلى درجة من الأهمية، بحيث يعد العامل الأساس في حركة الإنسان

الحياة، للفوز في الدنيا والآخرة، وكل عمل في الإسلام، لا يقبل إلا إذا توفّر عنصر الإخلاص لله تعالى، هذا من جهة. ومن جهة أخرى: نرى أن الإخلاص يعدّ من أصعب الأمور، ولا يصل إلى الدرّجة العليا من الإخلاص إلا المقربون، رغم أن حالة الإخلاص محمودة في أيّ مرحلة ومرتبة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٢ و لترجع الآن للقرآن الكريم، لنستوحي من آياته مسألة الإخلاص. فبعض الآيات تتحدث عن المخلصين، والبعض الآخر عن المخلصين من موقع الثناء، والتمجيد بهم، ومنها: ١- في الآية (٥) من سورة البينة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ». حيث تتبين أهميّة هذا الموضوع، بالنظر إلى أن الدين له مفهوم واسع يستوعب في إطاره، كلّ العقائد والأعمال الباطنية والخارجية، فالضمير في: وما امرؤا، يعود على جميع أتباع المذاهب الإلهية والأديان السماوية، والإخلاص والصلاة والزكاة، تمثّل: عناصر مشتركة بين الجميع، فهذا التعبير في الآية، يبيّن حقيقة واحدة ألا- وهي أن جميع الأوامر الإلهية مستقاة من حقيقة التوحيد والإخلاص، في خطّ الطاعة والعبودية. ٢- وفي آية أخرى، نجد أن القرآن الكريم يوجّه خطابه إلى جميع المسلمين، ويقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (١). ٣- وفي مكان آخر، يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ويقول: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» (٢). ويُستشف من هذه الآيات وآيات أخرى، أن الإخلاص هو أساس الدين ودعامته، التي يتركز عليها في عملية تثبيت الإنسان، في خطّ الإيمان والإفتتاح على الله تعالى. و سنتعرّض لشرح معنى المخلصين والمخلصين، والفرق بينهما في ما بعد، ولكن توجد هنا عبارات على درجته من الأهميّة، على مستوى المفاهيم القرآنية: ١- الآية: (٣٩ و ٤٠) من سورة الحجر، تتحدثان عن الشيطان، بعد ما طرد من رحمته الله سبحانه إلى الأبد، فقال بعناد: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ». فتبين هذه الآية، حالة المخلصين من عباده، وأنها إلى درجته من القوّة والإستحكام، حتى الشيطان قد يأس منهم. ٢- الآية: (٣٩ و ٤٠) من سورة الصافات، تتحدثان عن وعد الله تعالى لعباده المخلصين، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٣ بثواب لا- يعلمه إلا الباري تعالى، فيقول: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ». ٣- الآية: (١٢٧ و ١٢٨) من سورة الصافات، أيضاً صعدت بمقام المخلصين، إلى درجته أنهم معفون من الحساب والحضور في المحكّمة الإلهية، ويدخلون الجنة مباشرة. ٤- الآية: (١٥٩ و ١٦٠) من نفس السورة، وصفت المخلصين، بأنهم الوحيدون الذين يصحّ منهم وصف الذات المقدسة، ممّا يدلّ على عمق معرفتهم الحقيقة بحقيقة الألوهية: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ». فوصفهم لله، لا إشكال فيه. ٥- الآية: (٢٤) من سورة يوسف، تحدّثت عن الحصانة الإلهية للنبي يوسف عليه السلام، في مقابل وساوس امرأة العزيز الشيطانية، فقال: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ». أمّا ما الفرق بين المخلصين والمخلصين؟، هنا نجد تفسيرات كثيرة، ويمكن القول أن أفضل هذه التفسيرات، هو الذي يقول: أن «المخلص» هو الذي يتحرك في طريق الإخلاص لله تعالى، بعيداً عن كلّ الشوائب والأدران والمقاصد غير الإلهية، في دائرة الفكر والنية، ويتحرك بعيداً عن الرذائل والقبائح، في دائرة الفعل والممارسة، أمّا «المخلصين»، فهو الذي تحضره العناية الربانية، والمدد الإلهي، لرفع آخر شائبة من قلبه، ويشمله لطف الرب لتخليصه من كلّ ما لا يحب ويرضى. وتوضيح ذلك: إنّ الشوائب التي تصيب قلب الإنسان ووجوده على نوعين: نوع يكون الإنسان منها على بصيرة، ويسعى لإزالتها من واقع وجوده، بإخلاص النية والعقيدة والعمل، ويوفّق في مسعاه. أمّا النوع الآخر، فهو خفي لا يحسّ به الإنسان في مسارب النفس والروح، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ الشُّرَكَ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَخْرَةٍ سَوْدَاءٍ فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءٍ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٤ فهنا لا- يمكن العبور من هذه المطبّيات، إلّا بتوفيق من الباري تعالى، وتسديد إلهي يشمل حال السائر إلى إلهه، وبدونه ستبقى الشوائب عالقة في القلب والنفس، وكأنّ الباري تعالى يريد أن يُتحف هؤلاء المخلصين، الذين لم يتخلّصوا تماماً من علق الشوائب، وصلوا بالقرب من النّهاية، بأن يبدل شوائبهم باليقين، بلطفه وعنايته، ويجعلهم في عداد المخلصين. فعند وصول الإنسان إلى هذه المرحلة، يكون في مأمن من الأهواء، ومن الوسوس الشيطانية، بما يمثّل من تحدّيات صعبة في طريق التّكامل، وبالتالي ينقطع طمع الشيطان فيه، ويظهر عجزه عن إغوائه بصورة رسمية. وهنا يستقر المخلصين في النعيم الخالد، ويرتعون بالموهب الإلهية، ويكون

ثناؤهم و توصيفهم، للذات المقدسة بالصفات الجمالية والجلالية الإلهية، قد صبغت بصبغة التوحيد الخالص، وبما أنهم صفوا حساباتهم في هذه الدنيا، فستكون عاقبتهم أنهم سيدخلون الجنة بغير حساب. و يصف الإمام على عليه السلام في بعض خطبه، التي وردت في نهج البلاغة، واثك المخلصين، فيقول: «قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَ» (١). و قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «فَعِنْدَ ذَلِكَ إِسْتَخْلَصَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِنُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَشْرُوفَةِ الطَّيِّبَةِ ... مُحَمَّدًا اخْتَصَّهُ لِلنُّبُوَّةِ وَاصْطَفَاهُ بِالرِّسَالَةِ» (٢). و في حديث آخر عن أحد المعصومين عليهم السلام أنه قال: «وَجَدْتُ ابْنَ آدَمَ بَيْنَ الشَّيْطَانِ فَإِنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَائُهُ، خَلَصَهُ وَاسْتَخْلَصَهُ وَإِلَّا خَلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ» (٣). و الخلاصة، إن الإخلاص في التوبة و الفكر و العمل، هو من أهم الخطى في عملية التهذيب و التربية و السير إلى الله تعالى.

### الإخلاص في الروايات الإسلامية:

و أتحدثنا الروايات بزخم كبير من المفاهيم، التي تدور حول محور الإخلاص، و نشير إلى بعض منها: ١- ما جاءنا عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «ثَلَاثٌ لَا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ، قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَ النَّصِيحَةُ لِأَنْثَمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَ اللَّزُومُ لِجَمَاعَتِهِمْ» (١). ٢- ما ورد عنه صلى الله عليه وآله، في حديث آخر: «الإخلاص سرٌّ من أسرارِ استودعه قلب من أحببته من عبادي» (٢). ٣- قال الإمام على عليه السلام: «الإخلاص أشرفُ نهايه» (٣). ٤- في حديث آخر عنه عليه السلام، قال: «الإخلاص أعلى الإيمان» (٤). ٥- وعنه عليه السلام: «في إخلاص الأعمال تنافس أولوا النهي والألباب» (٥). ٦- ما ورد في أهميته الإخلاص بحيث أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قسم المؤمنين وفق درجات إخلاصهم، فقال: «بالإخلاص تتفاضل مراتب المؤمنين» (٦). ٧- و في بيان أن آخر مرحلة من مراحل اليقين، هو الإخلاص، قال الإمام على عليه السلام: «غاية اليقين الإخلاص» (٧). ٨- ما ورد من معطيات الإخلاص على مستوى العمل، لدرجة أن قليلاً منه يكفي للنجاة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَخْلَصَ قَلْبَكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ» (٨). ٩- وقال على عليه السلام: «الإخلاص عبادة المُقَرَّبِينَ» (٩). ١٠- و نختتم هذه الأحاديث، بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال عليه السلام: «طُوبَى لِمَنْ إِخْلَصَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٣٦ أَخْلَصَ لِلَّهِ الْعِبَادَةَ وَالِدُعَاءِ، وَ لَمْ يَشْغَلْ قَلْبُهُ بِمَا تَرَى عَيْنَاهُ، وَ لَمْ يَنْسَ ذِكْرَ اللَّهِ بِمَا تَسْمَعُ أذْنَاهُ وَ لَمْ يَخْزَنْ صَدْرُهُ بِمَا أُعْطِيَ غَيْرُهُ».

### حقيقة الإخلاص:

يقول المرحوم الفيض الكاشاني، في المحجزة البيضاء حول هذا الموضوع: «إعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه، و خلص عنه سمي خالصاً و سمي الفعل المصفي، المخلص إخلاصاً، قال الله تعالى: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَوْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» (٢)، فإنما خلوص اللبن، أن لا يكون فيه شوب من الدم و الفرث، و من كل ما يمكن أن يتمزج به و الإخلاص، يضادّه الإشراك، فمن لا يكون مخلصاً فهو مشرك، إلا أن للشرك درجات، و الإخلاص في التوحيد يضادّه الشرك في الإلهية، و الشرك منه خفي و منه جلي و كذلك الإخلاص» (٣). و كذلك ما ورد من تعبيرات لطيفة في الروايات، تبين الإخلاص الحقيقي و المخلصين الحقيقيين، منها: ١- الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «إِنَّ لِكُلِّ حَقِّ حَقِيقَةً، وَ مَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِخْلَاصِ، حَتَّى لَا يُحِبَّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ لِلَّهِ» (٤). ٢- نقل عنه صلى الله عليه وآله: «أَمَا عَلَامَةُ الْمُخْلِصِ فَارْبَعَةٌ، يُسَلِّمُ قَلْبَهُ وَتُسَلِّمُ جَوَارِحُهُ، وَبَدَلُ خَيْرِهِ وَكَفَّ شَرَّهُ» (٥). ٣- في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ عَابِدًا لِلَّهِ حَقَّ عِبَادَتِهِ إِخْلَاقًا فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٣٧ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنِ الْخَلْقِ كُلِّهِ إِلَيْهِ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُ هَذَا خَالِصٌ لِي فَيَتَقَبَّلُهُ بِكَرَمِهِ» (١). ٤- و أخيراً يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى عَبْدٍ أَجَلٌ مِنْ أَنْ لَا يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَعَ

اللَّهِ غَيْرُهُ» (٢). الآن بعدما عرفنا أهمية الإخلاص، ودوره العميق في سلوك طريق الحق و القرب من الله، و السير في حركة الإنسان في خط الإيمان والتوحيد، يبقى هنا سؤال يفرض علينا نفسه، وهو كيف يمكننا تحصيل الإخلاص؟ لا شك أن الإخلاص في التَّيَّة، هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهية، و كلياً كان الإنسان متيقناً على مستوى التوحيد الأفعالي، وأن كل شيء في عالم الوجود يبدأ من الله تعالى ويعود إليه، وهو المؤثر الأول وعلّة العلل وأن الأسباب و العلل الجلئية والخفية خاضعة لأمره وتديره، فحينئذ يكون سلوك هذا الإنسان مُنسجماً مع هذه العقيدة، بالمستوى الذي يكون فيه عمله في غاية الخُلوص، لأنه لا يرى مؤثراً في الوجود غير الله، يثير في نفسه الدوافع المضادة للإخلاص، و الحركة في غير طريق التوحيد. و عكست الروايات هذه الحقيقة، فقال الإمام علي عليه السلام: «الإخلاصُ ثَمَرَةُ اليقين» (٣). و عنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ العِلْمِ إِخْلَاصُ العَمَلِ» (٤). وأخيراً تناول الإمام علي عليه السلام المسألة بشيء من التفصيل، فقال: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَ كَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِّيقُ بِهِ، وَ كَمَالُ التَّصَدِّيقِ بِهِ، تَوْحِيدُهُ، وَ كَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ» (٥).

### موانع الإخلاص:

أشار علماء الأخلاق الأفاضل إلى هذه المسألة إشارات دقيقة وواضحة، فقال البعض، إن الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٨ موانع الإخلاص وآفاته على نحوين: جلئية، و خفية. فبعضها خطر جداً، و البعض الآخر أضعف، و الشيطان و النفس الأمارة، يسعيان لتكدير صفاء القلب، و تلوينه بالرياء، بالمستوى الذي يحول الإنسان إلى كيان مهزوز، أمام حالات الخطر، و يشل فيه إرادة المواجهة. فبعض من مراحل الرياء واضحة للعيان، بحيث يمكن لكل فرد التوجه إليها، مثلما يأمر الشيطان المصلي بالتوءد بصلاته، كي يراه الناس ويقولوا هذا إنسان مؤمن، فلا يتحرّكون من موقع الغيبة له و الوقيعة فيه. فهذه من حيل الشيطان الجلئية. و يمكن أن تكون وساوس الشيطان بصورة أخفى حيث تتلبس بلباس الطاعة، فمثلاً، يلقي في نفسك: أنك إنسان معروف، و الناس تشير إليك بالبنان، و يجب أن تكون طاعتك و عبادتك على أتم الصيحة، لكي يقتدى بك الناس في أعمالهم، و ستكون شريكاً معهم في ثوابهم، فهنا ستستسلم لأحباب الرياء من دون أن تشعر. أو تكون الخدع و الحيل أشد و أقوى و أخفى فمثلاً يقول للمصلي إن العبادة في السر يجب أن تكون مثلاً في العلانية، و الذي تكون عبادته في السر، أدنى مستوى من العلانية، يعتبر من المرئيين، و بهذه الصورة يدفعه ليحسن صلاته و ينمق عبادته في الخفاء، ليكون كذلك في صلاته أمام الناس، و هذا نوع من الرياء الخفي، و يمكن أن يغفل عنه الكثيرون، و كذلك المراحل الأخفى والأشد (١). نعم فإن آفات الإخلاص كثيرة، و لا يستطيع أي إنسان العبور منها، إلا بتوفيق رباني، و لطف إلهي. و نجد هذا المعنى كذلك في الروايات الإسلامية، حيث أتحدثنا بما يلزم، للتنبه على آفات الإخلاص ومنها: الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٣٩ ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الإِخْلَاصُ مَنْ يَغْلِبُهُ الهوى» (١). و في الواقع فإن ما ذكر في الحديث، أنفأ، هو أهم و أقوى آفات الإخلاص، نعم فإن هوى النفس، يكدر عين الإخلاص و يُظلمها. و عنه عليه السلام، قال: «قَلْبُ الآمَالِ تَخْلُصُ لِمَكَ الأعمال» (٢). و الجدير بالذكر، أن الوسواس يمكن أن تأتي بشكل آخر، فتقول للمصلي لا تذهب لصلاة الجماعة، لأن بيتك يمكن أن تتلوث بالرياء أمام الناس، و عليك بإقامة الصلاة في بيتك، لكي تعيش أجواء الإخلاص في خط العبادة و الصلاة، و تتخلص من براثن الرياء!! أو يدعوه لترك المستحبات لنفس السبب، ليحرمه من ثوابها. ولعل هذا هو السبب في دعوة القرآن الكريم، للإففاق بالسر و العلانية: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٣). و نختم بحثنا بملاحظة مهمة، ألا و هي، أن الإخلاص في السر، ليس بتلك الدرجة من الصعوبة والأهمية، بل المهم هو أن يعيش الإنسان، حالة الإخلاص في العلانية، و أمام مرأى و مسمع من الناس.

### معطيات الإخلاص:

بما أنّ حالة الإخلاص، تُمثّل أعلى جوهره تُحفظ في خزانه الرّوح، و ما يترتّب على هذه الحالة من معطيات إيجابيه مهمه، فقد أوردت الروايات تلك المسأله، بصورة بليغه جميله، و منها: «ما أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا إِلَّا جَرَتْ يَنْبِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٤٠. و في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «عِنْدَ تَحَقُّقِ الْإِخْلَاصِ تَسْتَبِيرُ الْبَصَائِرِ» (١). و ورد عنه عليه السلام أيضاً: «فِي إِخْلَاصِ التِّيَّاتِ نَجَاحُ الْأُمُورِ» (٢). و يتضح من ملاحظه هذا الحديث، أنّ التّيه كلاً ما أخلصت، كان الإهتمام بباطن الأعمال أقوى، أو بتعبير أدق: إنّ الجوده و الدقه على مستوى السّيلوك و العمل، ستكون في ذروتها، و نجاح العمل سيكون مضموناً، و العكس صحيح، فإذا كان الهدف يتركز على معالم الظاهر فقط، دون أن يولّى أهميه للمحتوى، فسيكون مصير العمل إلى الفشل و الخيبه. و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَوْ خُلِصَتِ التِّيَّاتُ لَزَكَّتِ الْأَعْمَالُ» (٣).

## الزّياء:

النقطة المقابله للإخلاص هي: «الزّياء»، و قد ورد ذمه بكثرة في الآيات و الروايات الشريفه، التي نهرت الناس من هذا العمل المُشين، و اعتبرته من أوضح مصاديق الشّرك الخفي، و علّه بطلان الأعمال، و علامه من علامات النّفاق. و نجد فيها أنّ الزّياء يهدم الفضائل، و يزرع بذور الرذائل في روح الإنسان، و يشغله عن الهدف الأساسى الحقيقى، في خطّ الرّساله و الإستقامه. و هو أداة قويه مؤثره بيد الشّيطان الرّجيم، لإضلال و صرف الناس عن الطّريق الصّحيح، و تحويلهم من دائرة الإيمان، إلى دائرة الكفر و الإنحراف. و نعود هنا للآيات القرآنيه الكريمه، التي ترينا وجه المرائى القبيح، و التّناجى السّلبيه المترتبه على الزّياء: ١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْمَأْذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ لِإِخْلَاقٍ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٤١ النَّاسِ وَلَا يَأْمُرُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (١). ٢- «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (٢). ٣- «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (٣). ٤- «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» (٤). ٥- «وَلَمَّا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصِيَّدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» (٥). ٦- «قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ \* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» (٦).

## تفسير و إستنتاج:

«الآية الاولى»: تبين أنّ المنّ بالصدقات و إيذاء الآخرين، يدخل في عداد الزّياء و يحرق أعمال الخير، و تبين أنّ المرائى لا يعيش الإيمان بالله ولا باليوم الآخر، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْمَأْذَىٰ...»، وبعدها يشبه هؤلاء الناس بمنّ الذي يُنفق أمواله من موقع الزّياء: «كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...». وجاء في ذيل الآية: تشبيه جميل جداً لأعمالهم العقيمه، التي لا- تثمر في نطاق المعنويات و ترتب الثّواب، فأعمالهم كالصّخر الذي يعلوه التراب، فيشتبه الفلاح في أمره، فيبذر فيه البذور بأمل الخصب و الرّزق، فيأتى المطر ويزيل كلّ شيء، فقال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٤٢ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا». و من المؤكد أنّ مثل هذا العمل و الزرع، لن يثمر أو يورق، فكذلك سبحانه و تعالى، لا يهدى من ينطلق في تعامله مع الله تعالى من موقع الزّياء و الكفر، «لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». فعرفت الآية مثل هؤلاء الأفراد بالمرائين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، و مرّه اخرى عرفتهم بالكافرين، الذين تتحرك أعمالهم كالسّراب المخادع، الذي لا قيمه له، لأنهم بذروا أعمالهم في أرض الزّياء السّبخه التي لا تصلح للزراعة، و يوجد احتمال آخر في تفسير الآية، و هو أنّ المرائى نفسه بمثابة قطعة الصّخر، التي لا يثبت عليها التراب، ولا يفيد معه أيّ بذر من بذور الخير و الصّلاح. نعم! فأرواحهم مريضه و



أعمالهم عقيمة، لا تقوم على أساس من الخير، و نياتهم مشوبة بدران الرياء و الشرك الخفى. و اللطيف: أن الآية التى تلتها فى سورة البقرة، شبهت أعمال المخلصين، بجنيته لا بذور فيها إلا بذور الصيلاح، فأصابها وابل فنبت نباتاً حسناً، فأثمرت ثمراً مضاعفاً و مباركاً فيها. «الآية الثانية»: خاطبت الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و أمرته بإيصال التوحيد الخالص للناس، إنسجاماً مع خط الرسالة، و باعتبار أن التوحيد أصل أساسى فى الإسلام: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ». و بذلك يستوحى المؤمن من جو الآية الكريمة، أن الأعمال يجب أن تكون خالصةً و منزّهةً من أدران الشرك: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا». و عليه فإن الشرك فى العبادة، يهدم أساس التوحيد، و الاعتقاد بالمعاد فى حركة الإنسان و الحياة، أو بتعبير أدق: فإن جواز السفر إلى الجنة الخالدة، يتمثل بخلوص العمل فى دائرة السلوك و التيقن. و جاء فى شأن نزول الآية: قال ابن عباس: أنها نزلت فى جندب بن زهير العامرى، قال: يا الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٤٣ رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى، و اريد به وجه الله تعالى، إلا أنه إذا إطلع عليه أحد من الناس سرنى؛ فقال النبى صلى الله عليه و آله: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ مَا شُورِكَ فِيهِ» «١». و جاء فى شأن نزول الآية أيضاً، قال طاووس: قال رجل: يا رسول الله! إني احبّ الجهاد فى سبيل الله تعالى واحبّ أن يرى مكانى، فنزلت الآية. «٢» و ورد مثل هذا المضمون بالنسبة للإففاق و صلبه الرّحم «٣»، و تبين أن الآية الآنفه: نزلت بعد الأسئلة المختلفة، فى الأعمال المشوبة بغير الأهداف الإلهية، و قد إعتبرت المرائى على حدّ من يعيش حالة الشرك بالله و الشخص الذى لا إيمان له بالآخرة. و نقرأ فى حديث آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ صَيَّمْ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، ثُمَّ قَرَأَ: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...» «٤». «الآية الثالثة»: بينت أن الرياء هو من فعل المنافقين: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا». و الجدير بالذكر أن التفاف عبارة عن إزدواجية الظاهر و الباطن، و كذلك الرياء فهو إزدواجية الظاهر و الباطن، حيث يتحرك المرائى فى أعماله لجلب الأنظار، فمن الطبعى أن يكون الرياء من برامج المنافقين. «الآية الرابعة»: إعتبرت الأعمال التى ينطلق بها الإنسان من موقع الرياء، مساوية لعدم الإيمان بالله تعالى و اليوم الآخر: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنُ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا». و عليه فإن المرائين هم أصحاب الشيطان، الذين يفتقدون الإيمان الحقيقى بالمبدأ و المعاد. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٤٤ «الآية الخامسة»: تنهى المسلمين من التشبه بأعمال المشركين الكفار، الذين لا يفعلون شيئاً إلا للرياء و التفاخر فقط: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصِيَّدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ». فطبقاً للقرائن و الشواهد الموجودة، و تصديق المفسرين، فإن هذه تشير إلى خروج المشركين من قريش فى يوم بدر، بحليهم وزييتهم و قد جلبوا معهم آلات الطرب و اللّعب و اللّهو و التّبيذ، و هم يقصدون جلب أنظار أصحابهم من المشركين الوثنيين. و جاء فى بعض التفاسير، أن منطقة بدر، كانت تعتبر من المراكز التجارية لعرب الجاهلية فى وقتها، و أن أبا جهل جاء بوسائل الطرب و الجوارى، لغرض مراءاة الناس، و فقاً العيون كما يقول المثل الشائع. و على كل حال، فإن القرآن الكريم قد نهى المؤمنين من أمثال هذه الأعمال الشائنة، و دعاهم إلى ترويض النفس بالإخلاص و التقوى، للتغلب على تلك الحالات النفسية الخطرة، و أن لا- ينسوا مصير المرائين و أتباع الشيطان فى معركة بدر. «و الآية الأخيرة»: من الآيات مورد البحث، نجدها تدمّ الرياء ولكن بصورة اخرى فتقول: «قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ \* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ». فقد جاءت كلمة «الويل»، فى (٢٧) مورداً من القرآن، و إختصت فى الأغلب بالدنوب الكبيرة الخطرة جداً، و هنا تحكى عن شدة قبح ذلك العمل فى واقع الإنسان و روحه. إن ما ورد فى الآيات الآنفه الذكر، يوضح إلى درجة كبيرة، قبح هذه الخطيئة، و أخطارها و آثارها السلبية على سعادة الإنسان فى حركة الحياة، و من الواضح فإن الرياء يقف حجر عثرته فى طريق تهذيب النفس، و طهارة القلب و الروح للإنسان المؤمن.

تطرت الروايات لهذا الأمر بقوة وأهميته بالغه، وعرفت الرياء بأنه من أخطر الذنوب، ومنها: ١- ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية» (١). ويمكن أن يكون المراد من الشهوة الخفية، هو المقاصد الخفية للرياء. ٢- وأيضاً ما نقل عنه صلى الله عليه وآله: «أدنى الرياء شرك» (٢). ٣- وأيضاً عنه صلى الله عليه وآله: «لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء» (٣). ٤- وعنه صلى الله عليه وآله: «إن المرائي يُنادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضلّ عملك وحبط أجرك إذ هب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له» (٤). ٥- وقال أحد أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم ما باكياً، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: «إني تخوّفت على أمّتي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً، ولكنهم يراؤون بأعمالهم» (٥). ٦- وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «إن الملك ليصعد بعمل العبد مُبْتَهَجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل إجعلوها في سجين إنه ليس إيتى أراد بها» (٦). ٧- وأيضاً عنه صلى الله عليه وآله: «يقول الله سبحانه إنى أغنى الشركاء فمن عمل عملاً ثم أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك به دوني» (٧). هذه الأحاديث السبعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بينت أن إثم الرياء بدرجته من الشدة، بحيث لا الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٤٦ يضاويه شيء من الذنوب والخطايا، وما ذلك إلا للنتائج السيئة للرياء في نفس وروح الإنسان، وكذلك على مستوى الفرد والمجتمع. أما ما ورد عن الأئمة عليهم السلام: ٨- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، ينقل عن جدّه عليه السلام: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَحَبُّتُ فِيهِ سِرَائِرُهُمْ وَتَحَسُنُ فِيهِ عِلَاقَتُهُمْ، طَمَعاً فِي الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَكُونُ دِينُهُمْ رِيَاءً، لَا يُخَالِطُهُمْ خَوْفٌ، يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ فَيَدْعُوهُ دُعَاءَ الْغَرِيقِ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ» (١). ٩- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «كلُّ رياءٍ شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه للناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله» (٢). ١٠- وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «المرائي ظاهره جميلٌ وباطنه عليلٌ» (٣). وقال أيضاً: «ما أقبح بالإنسان باطناً عليلاً وظاهراً جميلاً» (٤). وما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن الأئمة الهداة، في هذا المجال كثير.

### فلسفة تحريم الرياء:

قد يتعجب البعض الذين يعيشون السذاجة الفكرية، عند نظرهم ولله الأولى، للروايات التي تتعرض لمسألة الرياء، ونتائج المرعبة، ويتصورون أن عمل الإنسان إذا كان سليماً ومنتجاً في واقعه الخارجي، فأياً كانت التية والدافع، فلن يؤثر ذلك في تغيير العمل، فالذي يبني مُسْتَشْفِئاً أو مسجداً أو يعيد الطرق والجسور.. وغيرها من الأمور التي تصب في الصالح العام للناس، فعمله صحيحٌ وحسنٌ مهما كانت نيته، فلندع الناس يفعلوا الخير، وما لنا والتية!! الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٤٧ ولكن الخطأ الفادح يكمن هنا لأنه: أولاً: إن كل عملٍ يفعل يترتب عليه نوعان من ردود الفعل، أحدهما ما ينعكس أثره في نفس الإنسان، والآخر ما يترتب على الفعل في الخارج، فالمرائي يحطم نفسه من الداخل ويُبْعِدُهَا عن التوحيد والدين الحنيف، ويوقعها في وادي الشرك، ويعتبر عزته واحترامه رهناً بيد الناس، وينسى قُدْرَةَ الْبَارِي تعالي في دائرة التصرف في عالم الوجود، وبهذا يكون الرياء نوعاً من الشرك بالله تعالي، ويُفْضِي إلى نتائج وخيمة على مستوى الأخلاق والقيم الإنسانية. وثانياً: بالنسبة للعمل الخارجي، الذي يقصد به الرياء والسيمعة، فالمجتمع هو الخاسر الأول في هذا المضمار، لأن المرائي يسعى لتحسين عمله، على مستوى الظاهر فحسب دون الاهتمام بالباطن، مما يُفْضِي إلى تحويل العمل، إلى إنحراف وإفساد على المستوى الاجتماعي. وبعبارة أخرى: إن المجتمع الذي يتخذ من الرياء مركباً، في ممارسات الأفراد، سيكون كل شيء فيه بلا محتوي، ك: (الثقافة، الإقتصاد، السياسة، الصحة والنظام والقوى الدفاعية) وكلها ستهم بالظاهر فقط، ولا يكون الهدف منها نيل السعادة الحقيقية للأفراد، بل سيركضون وراء كل شيء براقٍ وجميلٍ الظاهر، وأما باطنه، فالله العالم. وهذا النوع من الإتجاه، يورد صدمات و ضربات ومضرات في حركة الواقع الاجتماعي، لا تخفى على ذهن الفطن الكيس.

## علامات المرائي:

قد يصاب بعض الأشخاص، لدى مطالعتهم لتلك الأحاديث التي تُشدد على المرائي بالسوسنة الناشئة من الإبهام في تشخيص موضوع الرياء، ورغم أن الجدير بالإنسان التشديد في مسألة الرياء، لأن نفوذه خفي جداً، وكم حَدَث للإنسان، أن يعمل عملاً ويبقى لفترةٍ طويلةٍ غير ملتفتٍ لأصابته بالرياء، كالقصة المعروفة عن أحد المؤمنين السابقين، حيث نقل عنه، أنه قضى صلوات جماعته كلها، التي صلّاها في سنوات من عمره الطويل، ولما سأله عن السبب قال: إني كنت دائماً أصلي الجماعة في الصّف الأول، وفي يوم من الأيام تأخّرت الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٤٨ بعض الشيء، فلم أجد مكاناً في الصّف المقدم، فإضطرت للوقوف خلف الجميع، فشعرت في نفسي بالأذى من ذلك، و تتبّعت لهذه المسألة، فأعدت جميع الصّلوات لأنها كانت رياء؟! بالطبع، الإفراط والتفريط في هذه المسألة، مثله كمثل بقية المسائل، غير محمودٍ، و خطأ محضٌ، و المفروض التّبّع للرياء من خلال تتبع مقدماته و علاماته، و لا ندع مجالاً للوساوس في إطار إكتشاف هذه الحالة السلبية، في دائرة السلوك الخارجي، و الواقع النفسي، و لعلماء الأخلاق الأفاضل أبحاثٌ لطيفةٌ في هذا المضمار، و منهم العلامة المرحوم الفيض الكاشاني؛ فقد طرح سؤالاً في كتابه: «المحجّة البيضاء»، و قال: فبأي علامة يُعرف العالم و الواقع، أنه صادق مخلصٌ في وعظه، غير مريدٍ رياء الناس؟. قال في جواب هذا السؤال: «فاعلم أن لذلك علاماتٍ، إحداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه و عظماً و أغزُرُ منه علماً، و الناس له أشدّ قبولاً، فرح به و لم يحسده، نعم لا بأس بالغبطة، و هي: أن يتمنى لنفسه مثل عمله، و الأخرى أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه، بل يبقى كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعينٍ واحدةٍ، و الأخرى: أن لا يحبّ إتباع الناس له في الطريق، و المشى خلفه في الأسواق، و لذلك علاماتٌ كثيرةٌ يطول إحصاؤها» (١). و أفضل المعايير لمعرفة المرائي من غيره، هو ما وردنا عن الأئمة الأطهار، و من جملة الأحاديث: ١- في حديثٍ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قال: «أما علامة المرائي فأربعة: يَحْرُصُ في العَمَلِ لِلَّهِ إِذَا كَانَ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَيَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ وَيَحْرُصُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ عَلَى الْمَحْمَدَةِ وَيُحْسِنُ سِيَمَتَهُ بِجُهْدِهِ» (٢). ٢- و ورد في نفس هذا المعنى في حديثٍ عن أمير المؤمنين، بألفاظٍ جميلة، فقال: «للمرائي أربعة علامات: يَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ، وَيَنْشُطُ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ، الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٢٤٩ وَيَزِيدُ فِي الْعَمَلِ إِذَا اثْنَى عَلَيْهِ، وَيَنْقُصُ مِنْهُ إِذَا لَمْ يَثْنَنَّ عَلَيْهِ» (١). و ورد نفس هذا المعنى عن لقمان الحكيم أيضاً (٢). و خلاصة القول: إن كل عملٍ، كان القصد منه المباهاة للناس، فهو دليلٌ على الرياء، و مهما كان هذا القصد غامضاً و خفياً في دائرة الوعي، فهو دليلٌ على إزدواجية شخصية الإنسان في التعامل مع نفسه، في الخلاء و الملاء. و هذا الأمر في الحقيقة بالغ في الدقّة و الغموض، لدرجة أن الإنسان يخدع وجدانه و ضميره، بإتيان نفس الأعمال التي يأتي بها في الملاء و بدرجة عالية من الجودة و الحسن، في خلوته ليقنع نفسه أنه لا- يرأى، لأنه يساوى بأعماله في الظاهر و الباطن، ولكن الحقيقة هي إزدواجية ذلك الشخص، ففي كلا الحالتين يكون مرئياً. بالطبع يجب إجتناّب الإفراط و التفريط في هذه المسائل، لأننا وجدنا اناساً إمتنعوا من أداء كثيرٍ من الواجبات و حرموا من الثواب حذراً أو خوفاً من الرياء، فلم يؤلّفوا كتاباً، ولم يرشدوا أحداً من الناس، ولم يصعدوا المنابر، لا لشيءٍ إلا لأنهم كانوا يعيشون الخوف من الوقوع في الرياء؟! و قد ورد في الروايات، أن من يقصد القربة إلى الله تعالى، إذا أتى بعملٍ ما علانيةً، و عرف به الناس و فرح هو من ذلك، ما دام قصده هو التقرب إلى الله سبحانه و تعالى، فلن يؤثر ذلك على عمله (٣). و لا يخفى على القارئ الكريم، أن القصد من هذا الأمر، هو تشجيع الناس إلى سلوك طريق الخير و الصّلاح، و إمضاء أعمالهم المتقرب بها إلى الله تعالى، في السرّ و العلانية، و المهم هو قصد القربة و إخلاص النيّة فقط. و جاءت الآيات و الروايات، مؤكدة لهذا المعنى، وحثّت الإنسان على الإنفاق و التصدق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٠ في السرّ و العلانية، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنه يدلّ على إمكانيّة الإتيان بالأعمال علانيةً، و بدوافع إلهية بعيداً عن الرياء. و يوجد خمس آياتٍ شجعت على الإنفاق سرّاً و علانيةً، أو سِرّاً و جهراً (١). مضافاً إلى أن قسماً كبيراً من العبادات، يؤدّى في العلانية، فإذا مالم يتسلط الإنسان على نفسه في خط الإلتزام الديني، و يُمسك بزمامها في دائرة التوازن الذاتية، فسبخسر هو و المجتمع كثيراً

من أشكال الثواب والخير، وستختل أركان بعض العبادات في خط الممارسة والعمل.

## علاج الرياء:

يوجد طريقان لمعالجة حالة الرياء، فالرياء مثله كمثل سائر الأخلاق السلبية والسلوكيات الذميمة، ففي بادئ الأمر، علينا التركيز على معرفه العلة، و جذور هذه الحالة السلبية في الواقع النفسي، لأجل القضاء عليها، ثم التحرك نحو دراسة عواقبها المؤلمة، والكشف عنها في عملية التصدي لها، وتوخي جانب الخذر منها. بالطبع لقد أشرنا آنفاً، أن الرياء هو: «الشرك الأفعالي»، والغفلة عن حقيقة التوحيد، فإذا ما تأصلت حقيقة التوحيد الأفعالي في قلوبنا، وإستحكمت في نفوسنا، وإستيقنا أن العزة لله جميعاً، من موقع المشاهدة الوجدانية، ورأينا أن الرزق والضّر والنفع بيده وهو المسخر للقلوب، فسوف لن نختار سواه بدلاً، ولن نندس أنفسنا وأفعالنا بحالة الرياء الشنيعة، التي لا تنسجم مع خط التوحيد في دائرة الأفعال، فالذي يعيش اليقين الراسخ بهذه الحقيقة، وهي أن من يكون مع الله تعالى، يكون كل شيء معه، وبدونه فهو لا شيء، ويرى بعين البصيرة، مصداق قوله تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥١ وإذا أدركنا هذه الحقيقة القرآنية التي تقرر أن العزة لله تعالى: «أَيَّبَتُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (١). أجل إذا ترسّخ الإيمان بهذه الحقائق الإيمانية في أعماق الروح، فلا يجد الإنسان في نفسه باعثاً على الرياء والتفاق، وكسب الجاه والمقام لدى الناس والمفاخرة والمباهاة. وقال بعض علماء الأخلاق، إن دعامة الرياء وأساسه هو حبّ الجاه والمقام، وعند تحليلنا لمفهوم الرياء، نجد أنه يتكون من ثلاثة أركان: «حبّ الثناء والمدح من الناس»، و «الفرار من مذمتهم»، و «الطمع لما في أيديهم». ثم يضرب لذلك مثلاً وهو المجاهد في سبيل الله، فتارةً يكون قصده المباهاة والمفاخرة، وإظهار شجاعته وبطولاته للناس، وأخرى خوفاً من أن يتهمه الناس بالجبن والخوف، وثالثةً يكون دافعه الحصول على الغنائم، والفائز الوحيد، هو الذي يدافع عن الحقّ والدين لا غير. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، عندما يتأمل الإنسان في سلبيات الرياء وأضراره ونتائجها القاتلة، نرى أنه كالتار التي تقع على عبادات الإنسان وطاعته، فتحولها إلى رماد تذروه الرياح، ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل هو ذنبٌ عظيمٌ يسود وجه صاحبه في الدنيا والآخرة... الرياء: حشرة الأرضة التي تنخر دعائم بيت سعادة الإنسان، لينهار به في وادٍ سحيقٍ من الشقاء والظلام.. والرياء بدوره نوعٌ من أنواع الكفر والتفاق والشرك... والرياء يسحق الشخصية والحريّة والكرامة، وأشدّ الناس بؤساً يوم القيامة، المرأون. فهذه حقائق تردع الإنسان، وتبعده عن ذلك الأمر الشنيع. ولا ننسى أن المرأى سيفتضح، إن عاجلاً أو آجلاً في هذه الدنيا، وستظهر حقيقته الزائفة على فلتات لسانه و شطحات كلماته، وهذا العامل له قسطٌ من التأثير في عملية الردع النفسي، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٢ لحالة الرياء في واقع الإنسان، مضافاً إلى أن لذّة العمل الصالح، والنتيجة الطيبة التي تطرأ على الإنسان، لا تقاس بشيء، وهو أمرٌ يكفي لإخلاص التية. ويعتقد البعض، أن إحدى طرق المعالجة، هي السعي إلى إخفاء العبادات والحسنات، ولا يمارسها في العلن، ليتخلص تدريجياً من هذه العقدة المستعصية في الذات المرأية. ولكن هذا لا يعنى، عدم الحضور في صلاة الجماعة والجمعة والحج، لأنها تعدّ أيضاً خسارةً كبرى لا تُعوّض.

## هل النشاط في العبادة يُنافي الإخلاص؟

يُراود هذا السؤال أذهان الكثيرين، وهو أنهم يشعرون بنشاطٍ روحي، بعد الإتيان بالعبادة بالمستوى المطلوب، فهل أن هذا الشعور بالنشاط، يتقاطع مع الإخلاص، أو أنه علامة على الرياء؟. والجواب: أن النشاط إذا إستمدّ اصوله، من التوفيق الإلهي والنور المعنوي المستقى من العبادة، ومعطياتها على روح الإنسان، فلا- تثير ولا ضير، ولا يُنافي الإخلاص في التية، أما لو كان النشاط ينشأ من

مشاهدة الناس له، فإنه يُنافى الإخلاص، رغم أنه لا يكون سبباً في بطلان الأعمال، شريطة أن لا يتغير مقدار و كَيْفِيَّةُ العمل بسبب مشاهدة الناس له. وَورد هذا المعنى في الروايات الإسلامية: منها ما ورد عن أحد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: سألت الإمام عليه السلام، عن الرجل يعمل الشيء من الخير، فيراه إنسانٌ فيسره ذلك. قال عليه السلام: «لا بأس، ما من أحدٍ إلا وهو يُحبُّ أن يُظهِرَ له في الناسِ الخيرُ، إذا لم يكنْ صِنْعَ ذَلِكَ لِدَلِكِ» (١). وفي حديثٍ آخر عن أبي ذر رحمه الله، - عندما سأل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله - قال: قلت يا رسول الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٣: الله: الرجل يعمل العمل لنفسه و يحبه الناس. قال صلى الله عليه وآله: «تلك عاجل بشرى المؤمن» (١).

### ما الفرق بين الرياء و السمعة:

هذا سؤال يفرض نفسه أيضاً، فهل يوجد فرق بين الرياء و السمعة؟، و هل أنهما يتنافيان مع إخلاص التَّيَّة، و يوجبان بطلان العمل؟. الجواب: الرياء: هو فعل الخير أمام مرآى و مسمع من الناس، لكسب الواجهة لديهم، و ليشار إليه بالبنان من موقع المدح و الثناء. و أمَّا السِّمعةُ، فهي أداء أفعال الخير بعيداً عن أنظار الناس، ولكن ليُفهمهم لاحقاً أنه هو الذى فعل هذه الامور، ليكتسب بذلك و جاهةً لديهم، و الحقيقة أن الدافع لِكلا الإثنين غير إلهي، فالأول يؤدى عمل الخير أمام مرآى الناس، و الثانى بصوره غير مباشرة و عن طريق السِّماع، و لا فرق بينهما فى دائرة فساد التَّيَّة، و بطلان العمل و فقدان قصد القربة. ولكن إذا فسّرنا السمعة بأنها أداء الفعل بقصد القربة، ولكن إذا علم الناس فى الآجل و مدحوه و أثنوا عليه، فإنه يفرح بذلك، فلا شك بأن هذه الحالة لا توجب بطلان العمل. و يمكن أن يتحرك الإنسان فى سلوكياته و أعماله، بقصد القربة المطلقة، ولكنه يرويه للناس بعد ذلك ليحتل مكانةً بينهم، «و هذا العمل يُسمى بالرياء اللّاحق»، فهذا السلوك أيضاً لا يُبطل العمل، لكنه يُقلل من قيمته إلى أدنى حدّ، و خصوصاً من الناحية الأخلاقية. و قد تحدّث بعض من كبار الفقهاء، عن كَيْفِيَّةُ نفوذ و توغّل الرياء فى أعمال الإنسان، و قالوا أنها على عَشْرِ صُورٍ: الصّورة الاولى: أن يكون قصده من الفعل: مشاهدة الناس له، و لا- شك بطلانها. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٥٤ الصورة الثانية: أن يكون الهدف فيها البارئ تعالى، و الرياء معاً، و هذه الحالة أيضاً موجبةً للبطلان و الإحباط. الثالثة: أن يُرائى فى جزءٍ من الأعمال الواجبة، كما لو مارس الرياء فى الرّكوع، أو السّجود وحده فى الصّلاة الواجبة، و لا شك فى كونه يستوجب البطلان، حتى لو كان هناك مجالاً للإستدراك، و حاله حال ما لو فقد وضوءه و هو فى أثناء الصّلاة، و إن كان الأحوط أن يأتى بالجزء الذى وقع فيه الرياء، ثم إعادة الصّلاة بعد الإنتهاء. الصّورة الرابعة: الرياء فى الجزء المستحب، كما فى القنوت، فهو أيضاً من دواعى البطلان. الخامسة: أصل العمل و القصد، يكون لله تعالى، ولكنه يؤدّيه فى مكانٍ عام: (كالمسجد)، من دون قصد ربانى فيه، وهو باطلٌ أيضاً. السادسة: أن يُرائى فى وقت العمل، فأصل الصّلاة لله تعالى، و لكنه يُرائى فى أدائها فى أوّل وقتها، فعمله باطلٌ أيضاً. السابعة: أن يُرائى فى بعض خصوصيات و أوصاف العمل، كما لو صلّى الجماعة، و هو فى حالةٍ من الخشوع و الخضوع المُفتعله، وهو باطلٌ أيضاً، فالموصوف يتبع الأوصاف فى هذه الحالة. الثامنة: أن تأتى بالعمل قربةً إلى الله، ولكنه يرائى فى مقدّمات العمل، فيذهب إلى المسجد بقصد الصّلاة و الثواب، ولكن حركته نحو المسجد بقصد الرياء. فالكثير من الفقهاء لا يرون بطلان العمل لمثل هذا النوع من الرياء، لأنّ مقدّمات الرياء حدثت بعيداً عن العمل، وهو ما تقتضيه القاعدة الفقهيّة. التاسعة: أن يؤدّى بعض الأوصاف الخارجيّة بتيئة الرياء، كما لو صلّى لله تعالى، ولكنه يحنك نفسه رياءً، فالبرغم من قبح هذا العمل، ولكنه لا يُبطل الصّلاة. «١» عاشراً و أخيراً: أن يتحرّك فى إتيانه بالعمل، من موقع القربة المطلقة لله تعالى، ولكن إذا الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٥٥ شاهدته الناس، فإنه يشعر فى قرارة نفسه بالفرح، من دون أن يؤثر ذلك على كَيْفِيَّةُ العمل، فهذا القسم لا يوجب البطلان أيضاً، لأنه لا يعدّ من الرياء. و نصل هنا إلى نهاية بحثنا حول الرياء، و إن كنّا قد أعرضنا عن كثيرٍ من الامور، إجتناهاً للتطويل.

## الخطوة السابعة: الشكوت و إصلاح اللسان

## إشارة

تناولت الروايات الإسلامية هاتين المسألتين، بمزيد من الإهتمام، وكذلك علماء الأخلاق، أكدوا عليهما في أبحاثهم التربوية، لإعتقادهم أن السير والسلوك إلى الله تعالى، لن يتحقق في واقع الإنسان إلا بالشكوت، وحفظ اللسان من الذنوب التي قد يقع الإنسان فيها من خلال الكلام، وإن كان، قد أتعب نفسه في الرياضات الروحانية وأنواع العبادات. أو بتعبير أدق: إن مفتاح مسيرة التهذيب والسلوك إلى الله تعالى هو الإلتزام بحدائقك الأمرين، ومن لم يستطع السيطرة على لسانه، فلن يفلح في الوصول، إلى الأهداف السامية والمقاصد العلية. وبعد هذه الإشارة نعود إلى بحثنا الأساسي، ودراسة الآيات والروايات التي وردت في هذا المصمار.

## الشكوت في الآيات القرآنية الكريمة:

في كلا الموردين، إعتبر القرآن الكريم، هذه المسألة من القيم السامية، في خط الإيمان والأخلاق، ففي بادئ الأمر، إستعرض قصيدة مريم عليها السلام، فعندما كانت في وضعها المتأزم، وتفكيرها في حملها وحالة الطلق التي أصابتها، وحدثها في تلك الصبحاء المريعة، وقد هومت نحوها الهوموم من كل جانب، وأشدّها إفتراءات بنى إسرائيل عليها، فتمنت الموت في تلك الساعة من بارئها، ولكن جاءها النداء، أن لا تحزن ولا تغتم، فإن الله معها وهو الذي يتكفل الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٦ أمرها، وهذا ما تحدثنا به الآيات التالية: «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا» فنأذاها من تحتها ألا تخزني قد جعل ربك تحتك سرياً\* وهزى إليك بجدع النخلة تساقطعليك رطباً جياً\* فكلى وأشربى وقوى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمان صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» (١). وإختلف المفسرون في الذي نادى مريم عليها السلام، فقال بعضهم: إنه جبرائيل عليه السلام، و سياق الآية قرينه على هذا المعنى، وقال البعض الآخر، كالعلماء الطباطبائي رحمه الله، إنه ابنها عيسى عليه السلام، وكلمة: «من تحتها»، تناسب هذا المعنى، لأنه كان بين أقدامها، علاوة على أن أغلب الضمائر في الآية الشريفة، تعود على المسيح عليه السلام، وتتناسب أيضاً مع كلمة «نادى»، وعلى كل فإن محط نظرنا، هو الأمر بنذر الشكوت، فأياً كان المنادى، جبرائيل عليه السلام، أو المسيح عليه السلام، فإن المهم هو، أن ذلك النذر، يفضله ويرجحه الباري تعالى، وخصوصاً أن ذلك الأمر، كان سائداً في وقتها، وهو من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، فلذلك لم يعترض على مريم عليها السلام أحد، بالنسبة إلى هذا العمل بالذات. ويوجد احتمال آخر لصوم مريم عليها السلام، وهو الصوم عن الطعام والشراب، بالإضافة لصوم الشكوت. أما في الشريعة الإسلامية، فإن صوم الشكوت حرام، لتغير الظروف المكاتبية والزمانية، وقد ورد عن الإمام على بن الحسين السجاد عليه السلام، أنه قال: «وَصَوْمُ الصَّيْتِ حَرَامٌ» (٢). وورد في نفس هذا المعنى في حديث آخر، في وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلى الإمام على عليه السلام (٣). وورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «وَلَا صِيَمْتَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ» (٤). والطبع، فإن من آداب الصوم عندنا، هو المحافظة على اللسان وباقي الجوارح من الذنوب، قال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد: «إِنَّ الصَّوْمَ لَيْسَ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَخِدَّةِ إِنْ مَرِمَ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٧ قالت إني نذرت للرحمان صوماً أى صمتاً فأحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم» (١). ومن هذه الآية والروايات الشريفة، التي وردت في تفسيرها، تتبين أهميته وقيمة الشكوت، في خط التربية والتهذيب. وفي الآية (١٠) من نفس السورة، توجد إشارة أخرى لفضيلة الشكوت، وذلك عندما وهب الباري تعالى يحيى عليه السلام، لنبيه الكريم زكريا عليه السلام، فخاطب الباري تعالى، وقال: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً»، فقال له: «قَالَ آيَتِكَ أَلَّا تَكَلَّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، ولا تحركه إلا بذكر الله. و صحيح أن هذه الآية لم تحمد ولم تدم السكوت، ولكن قيمة السكوت تتضح، من جعله: آية النبي زكريا عليه السلام. وورد نفس هذا المعنى، في الآية (٤١) من سورة آل عمران، فبعد تلقيه البشارة من الباري تعالى، طلب أن يجعل له آية في دائرة تقديم الشكر للباري تعالى، فقال له: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا». و احتمال بعض المفسرين، أن إمتناع زكريا عليه السلام عن الكلام، كان بإختياره ولم يكن مجبوراً عليه، والحقيقة أنه كان مأموراً بالسكوت لمدة ثلاثة أيام. يقول الفخر الرازي، نقلًا عن «أبي مسلم»: أن هذا النحو من التفسير جميلٌ و معقولٌ، لكنّه مخالفٌ لسباق الآية، فزكريا عليه السلام طلب آيةً لَمَّا بُشِّرَ بِيحْيَى و السكوت الإختياري لا- يكون دليلًا على هذا المعنى، إلبتكالٌ وتحميلٌ على المفهوم من الآية الشريفة. و على أيّ حال فإنّ هذا الاختلاف في تفسير الآية، لا يُؤثر على ما نحن فيه، لأنّ غرضنا من إيراد هذه الآيات، هو التّويه بقيمة السكوت في القرآن الكريم، بإعتباره آيةً من الآيات الإلهية.

### السكوت في الروايات الإسلامية:

ما ورد عن: «الصّمت»، في الروايات الإسلامية، أكثر من أن يُحصى فقد أشارت الروايات إلى عدّة نقاطٍ وملاحظاتٍ دقيقة وهامة جدًّا في هذا الصّدد، و بينت ثمرات جميلة للصّمت، ومنها: ١- دور السكوت في تعميق التفكير، و ثبات العقل، فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقَى الْحِكْمَةَ، وَالْمُؤْمِنُ قَلِيلُ الْكَلَامِ كَثِيرُ الْعَمَلِ وَالْمُنَافِقُ كَثِيرُ الْكَلَامِ قَلِيلُ الْعَمَلِ» (١). ٢- و جاء عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «دَلِيلُ الْعَاقِلِ التَّفَكُّرُ وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمْتُ» (٢). ٣- ما ورد عن الإمام على عليه السلام، أنه قال: «أَكْثَرُ صَمْتِكَ يَتَوَفَّرُ فَكْرُكَ وَ يَسْتَنْبِرُ قَلْبُكَ وَ يَسْلَمُ النَّاسُ مِنْ يَدِكَ» (٣). فيظهر من هذه الروايات، العلاقة الوثيقة الدقيقة، التي تربط التفكير بالسكوت، و دليله واضح، لأنّ القوى الفكرية سوف تفقد التوحد و الإنسجام، و تصيبها حالة من التشتت و الانفلات، في حالات الكلام الزائد، و عندما يتخذ الإنسان السكوت جلابًا له، فسستمرّز قواه الفكرية، ممّا يعينه على التفكير الصّحيح، و بالتالي إنفتاح أبواب الحكمة بوجهه، ولا- يُلقى الحكمة إلّادو حِظٌ عظيم. ٤- يستشّف من بعض الأخبار، أن السكوت هو أهمّ العبادات، فنقرأ في مواضع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، لأبي ذر رحمه الله، قال: «أَرْبَعٌ لَا يَصِيْبُهُنَّ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، الصَّمْتُ وَهُوَ أَوْلُ الْعِبَادَةِ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٥٩ ٥- و يُستفاد من الروايات الواردة، أن كثرة الكلام تزرع القساوة في القلب، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حديثٌ يقول فيه: «كَانَ الْمَسِيْحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لَا تَكْثُرُوا الْكَلَامَ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ الْكَلَامَ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَاسِيَةٌ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» (١). ٦- ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ الصَّمْتَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْحِكْمَةِ، إِنَّ الصَّمْتَ يَكْسِبُ الْمَحَبَّةَ إِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ» (٢). فقولُه إن السكوت يكسب المحبة، لأنّ أكثر المشاحنات و الملاحاة، تصدر عن اللسان، و السكوت يسدّ أبواب الشر. ٧- السكوت نجاهٌ من الذنوب، و مفتاح دخول الجنة، فقد ورد في حديثٍ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قال لِرَجُلٍ أَتَاهُ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ يُدْخِلُكَ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «... فَاصْبِرْ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، أَمَا يَسِّرُكَ أَنْ تَكُونَ فِيكَ خِصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ تَجْرُكَ إِلَى الْجَنَّةِ» (٣). ٨- و السكوت علامة الوقار، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام: «الصَّمْتُ يَكْسِبُكَ الْوَقَارَ، وَبِكْفِيكَ مَوْوَنَةَ الْإِعْتِدَارِ» (٤). فالثرثار كثير الخطأ، كثير الاعتذار و التّدم، لما يصدر منه من شطحات، من موقع الغفلة و الإندفاع العاطفي و الإنفعال التّفنسي. ٩- و عنه عليه السلام، في حديثٍ أوضح وأجلى فقال: «إِنْ كَانَ فِي الْكَلَامِ بَلَاغَةٌ فَفِي الصَّمْتِ سَلَامَةٌ مِنَ الْعِتَارِ» (٥). فالصمت قد يكون، أبلغ من أيّ كلام في بعض الموارد! ١٠- ما ورد عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، أنه قال: «نِعْمَ الْعَوْنُ الصَّمْتُ فِي مَوَاطِنٍ كَثِيرَةٍ وَ إِنْ كُنْتَ فَصِيْحًا». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٠ و هناك روايات كثيرة في هذا المجال، لم نذكرها هنا، خوفًا من الإطالة و الخروج عن محور البحث.

## إزالة وهم:

إنَّ كلَّ ما ورد في الآيات و الأحاديث الشريفة، من معطيات الصِّمت الإيجابية في حياة الإنسان وواقعه، من قبيل تعميق الفكر و منع الإنسان من الوقوع في الخطأ، و صيانتته من كثيرٍ من الذنوب، و حفظ و قاره و شخصيته، و عدم الحاجة إلى الإعتذار المُكْرَر، و أمثال ذلك، كلُّ هذا لا يعني أن السكوت، يمكن أن يتخذ الإنسان قاعدةً على الدوام، فالسكوت المطلق مذمومٌ بدوره، و خسارةً أخرى لا تُعوّض. و الغاية ممّا تقدم، في مدح السكوت و الصِّمت في الآيات و الروايات الإسلامية، هي منع اللسان عن التثرثر و فضول الكلام، في خط التربية و مصداق، أن: «قلَّ خيراً و إلا فاسدك»، و إلفالسكوت في كثيرٍ من الامور، حرامٌ مسلّمٌ. ألم يذكر القرآن الكريم في سورة الرحمن نعمة البيان باعتبارها من أسمى إفتخارات البشر؟ ألا تقام أكثر و أغلب العبادات كالصلاة و تلاوة القرآن الكريم و مراسم الحج و الذكر باللسان؟ ولولا اللسان، فكيف سيتمكن المؤمن من إقامة فريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و كيف سيكون دور الإرشاد و التربية و التعليم، و كيف سيتمكن العلماء و المصلحين من أداء دورهم في عملية هداية الناس و إرشادهم إلى طريق الحق و السعادة؟! فالمذموم هو الإفراط و التفريط و الطريق الوسطى هي الجادة! و ما صدر من إمامنا السجاد عليه السلام في هذا المضممار هو خير مرشد و دليل في هذا المجال، حيث سأله شخص عن أيهما الأفضل: الكلام أو السكوت؟ فقال عليه السلام: «لكل واحدٍ منهما آفاتٌ فإذا سئلما من الآفاتِ فَالكلامُ أَفْضَلُ مِنَ السُّكُوتِ، قِيلَ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦١ كَيْفَ ذَلِكَ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ مَا بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْصِيَاءَ بِالسُّكُوتِ، إِنَّمَا بَعَثَهُمْ بِالْكَلامِ، وَلَا اسْتَحَقَّتِ الْجَنَّةُ بِالسُّكُوتِ وَلَا اسْتَوْجِبَتْ وَلَايَةٌ بِالسُّكُوتِ وَلَا- تَوَقَّيْتُ النَّارَ بِالسُّكُوتِ إِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْكَلامِ، وَمَا كُنْتُ لِأَعْدِلَ الْقَمَرِ بِالشَّمْسِ إِنَّكَ تَصِفُ فَضْلَ السُّكُوتِ بِالْكَلامِ وَ لَسْتُ تَصِفُ فَضْلَ الْكَلَامِ بِالسُّكُوتِ» (١). أجل لا شك أن لكل من الصِّمت و الكلام، محاسنه و مساويه، و الحق أن إيجابيات الكلام أكثر، و لكن متى؟، فقط: عندما يصل الإنسان، إلى مراحل سامية من التهذيب للنفس، في معراج الكمال المعنوي، و أمّا من كان في بداية الطريق، فعليه التحلي بالسكوت ريثما تتعمق في نفسه تلك الملكات الروحانية، التي يكتسبها الإنسان في حركة الانفتاح على الله، أو كما يُقال، ريثما يملك السالك لسانه عن ممارسة اللغو و الكلام الباطل، و بعدها يجلس للوعظ و الإرشاد. و بالإمكان بيان معيارٍ جيّدٍ لهذه الحالة، فنحن إذا أردنا في يوم من الأيام، تسجيل ما يصدر منّا من كلمات و ألفاظٍ على آلة التسجيل، ثم أصغينا لهذه الأحاديث و الكلمات، من موقع الإنصاف و بعيداً عن التعصب، فسَ نرى الشريط مليءً بالتفاهات و الترهات، و لن يبقى من الكلام المفيد إلّا كلماتٌ أو جملاً قليلةً، تتعلق بالغايات الإلهية و الحاجات الضرورية، في حركة الحياة و الواقع العملي. و يبقى أمرٌ أخير، تجدر الإشارة إليه، ألا هو، أن «الصِّمت» و «السكوت» و رداً بمعنى واحد في معاجم اللغة، و لكن بعض علماء الأخلاق ذهب إلى وجود فرق بينهما، فإن السكوت هو التترك المطلق للكلام، و الصِّمت هو التترك المقصود للكلام الزائد و اللغو، أي: «تركك ما لا يُعينك»، و هدف السالك الحقيقي في إطار تهذيب النفس، و السلوك المعنوي ينسجم مع: [الصِّمت لا] السكوت.

## إصلاح اللسان:

ما تقدم آنفاً من أهمية السكوت أو الصِّمت، و دوره في تهذيب النفوس، و الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٢ خطّ السير و السلوك إلى الله، هو في الحقيقة من الطرق الحياتية للوقاية من آفات اللسان، لأن اللسان في الحقيقة، هو المفتاح للعلوم و الثقافة و العقيدة و الأخلاق، و إصلاحه يُعدّ أساساً لكل الإصلاحات الأخلاقية في واقع الإنسان، و العكس صحيح، و لأجله فإن الحديث عن إصلاح اللسان، أوسع من مبحث السكوت و أشمل. و قد إكتسب مبحث إصلاح اللسان، أهميةً بالغةً في الأبحاث الأخلاقية باعتبارها، تُرجمان القلب و رسول العقل، و مفتاح شخصيته الإنسان، و نافذة الروح على آفاق الواقع. و بعبارة أخرى: إن ما يرتسم على صفحات الروح و النفس، يظهر قبل كل شيء على فلتات اللسان، و اللطيف في الأمر أن قدامى الأطباء، كانوا يُشخصون



المرض، و يتعزفون على سلامة الشخص و مزاجه عن طريق اللسان، فلم تكن عندهم هذه الإمكانيات المعقدة التي بأيدينا اليوم، فالطبيب الحاذق، كان يتحرك في عمليته تشخيصه، لأمراض الباطن عن طريق اللسان، حيث ينكشف له من خلال ظاهر اللسان ولونه، الأمراض الكامنة في حبايا جسم صاحبه. و هكذا الحال بالنسبة لأمراض الروح و العقل و الأخلاق، فيمكن للسان أن يكشف لنا المفاسد الأخلاقية، و السلبيات النفسية و التعقيدات الروحانية، التي تعتلج في صدر وروح الإنسان أيضاً. و عليه، فإن علماء الأخلاق يرون، أن همهم الأول والأخير حفظ و إصلاح اللسان، و يعتبرونها خطوة مهمة و مؤثرة في طريق التكامل الروحي و الأخلاقي، و قد عكس لنا أمير المؤمنين عليه السلام، ذلك الأمر في حديثه الذي قال فيه: «تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ» (١). و جاء في حديث آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَ لَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» (٢).

الإفلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٣ و نعود بعد هذه الإشارة إلى أصل بحثنا، و نقسّمه إلى أربعة محاور. ١- أهمية اللسان باعتباره نعمة إلهية كبيرة. ٢- العلاقة الوثيقة بين إصلاح اللسان، و إصلاح روح و فكر الإنسان و أخلاقه. ٣- آفات اللسان. ٤- الأصول والأسس الكلية، لعلاج آفات اللسان. في المحور الأول: تحدّث القرآن الكريم، في آيتين من سورة «البلد» و «الرحمان»، بأبلغ الكلام. فنقرأ في سورة البلد، الآيات (٨- ١٠): «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ». فبيّنت هذه الآيات الشريفة، النعم و المواهب الإلهية الكبيرة على الإنسان في الحياة، من قبيل نعمة العين و اللسان و الشفتان، كأدوات و جوارح يستخدمها الإنسان لمعرفة الخير و الشر. نعم، فإن الحقيقة، أن أعجب جوارح الإنسان هي اللسان، قطعة من البدن، حملت و حملت أثقل الوظائف، فاللسان علاوة على دوره في بلع الطعام و مضغّه، فإنه يؤدي واجباً بمهارة فائقة من دون أيّ إشتباه، في أداء هذه المهمة الكبيرة، ولولا مهارته في تقلاب اللقمة بين الأسنان، فماذا سيكون حالنا! و بعد الأكل يقوم بعملية تنظيف الفم و الأسنان أيضاً. و الأهم من ذلك و الأعجب، هو كيفية الكلام، بواسطة حركات اللسان السريعة، و المرتبة و المنظمة في جميع الجهات. و اللطيف في الأمر، أن الله سبحانه و تعالى، قد سهّل عمليته الكلام، بصورة كبيرة بحيث أن اللسان لا- يملّ ولا يكلّ من التطق و التحدث إلى هذا و ذاك، و من دون تكلف و نفقة، و الأعجب من ذلك، قابلية الإنسان للكلام، و تكوين الجمل و الكلمات المختلفة، كموهبة إلهية، و ملكة أصلية في روح الإنسان و فطرته، بالإضافة إلى إستعداده و قدرته، لتكوين و تأليف اللغات المختلفة، و تعددها إلى الآلاف، و كلما مرّ الزمان إزداد عددها و تنوعها بتنوع الأقسام الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٤ و الجماعات البشرية. فليس عجباً عندما يتحدث عنها القرآن الكريم، و يقول أنها أعظم النعم؟ و الجدير بالذكر، أن الآية الكريمة ذكرت الشفتين إلى جانب اللسان، فهما في الحقيقة يُساعدان اللسان في التلفظ بالكثير من الحروف، و تنظيم الأصوات و الكلمات في عمليته التكلّم. و من جهة أخرى فإن الشفتين، أفضل وسيلة للسيطرة على اللسان، كما حدّثنا بذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، عن الباري تعالى، أنه قال: «يَا بَنَ آدَمَ إِنَّ نَارِعَكَ لِسَانُكَ فِي مَا حَرَمَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ أَعْتَكَّ بِطَبَقَتَيْنِ فَأَطِيقْ» (١). و في بداية سورة الرحمان: (الآيات ١- ٤)، يشير سبحانه إلى نعمة البيان، التي هي ثمرة من ثمرات اللسان، و بعد ذكر إسم «الرحمان»، التي وسعت رحمته كلّ شيء، يشير سبحانه إلى أهمّ و أفضل المواهب الإلهية، يعنى القرآن الكريم، ثم خلقه الإنسان، ثم يعزّج على موهبة البيان لدى الإنسان: «الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». و بناءً عليه فإن نعمة البيان، هي أهمّ موهبة أعطها الله سبحانه، لعباده بعد خلقهم. و إذا ما أردنا أن نستعرض دور البيان، في تكامل و رقى الإنسان، و دوره الفاعل في بناء الحضارة الإنسانية، عندها سنكون على يقين بأنّه لولا تلك النعمة الإلهية، و الموهبة الربانية، لما إستطاع الإنسان أن ينقل خبراته و تجاربه للأجيال المتعاقبة، و لما تقدّم العلم، و لما إنتشر الدين و الأخلاق و الحضارات بين الامم السابقة و اللاحقة. و لتتصور أن الإنسان، في يوم من الأيام، سيفقد هذه الموهبة، فمما لا شك فيه أن المجتمع البشري، سيعود في ذلك اليوم إلى أجواء التخلف الحضاري، و الانحطاط في جميع الصعد. عنصر «البيان»، تتوفر فيه أداة و نتيجة، و بما أننا إعتدنا عليه، فلذلك نتعامل مع هذه الظاهرة من موقع اللامبالاة و عدم الإهتمام، لكن الحقيقة هي غير ذلك، فهو عمل دقيق معقد فتى لا مثيل له ولا نظير. لأنّه من جهة، تتعاون الأجهزة الصوتية فيما بينها، من الرئة إلى الهواء الداخل إلى الأوتار الصوتية، و التي بدورها تتعاون، مع: اللسان و الشفتان

و الأسنان و الحلق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٥ و الفم، لتكوين و تأليف الأصوات بسرعة فائقة دقيقة جداً، حتى يصل إلى الحنجرة، التي تقوم بتقطيعه و تقسيمه حسب الحاجة. ثم إن قصه وضع اللغات البشرية، و تعددها و تنوعها هي قصة عجيبة و معقدة، و تزيد من أهميته الموضوع، «يقول بعض العلماء: أن عدد لغات العالم، وصل إلى حوالي (٣٠٠٠) لغة». و نحن نعلم أن هذا العدد لن يتوقف عند هذا الحد، و أن عدد اللغات في تزايد مستمر. فهذه النعمة الإلهية، هي من أهم و أغرب و أطف النعم، و التي لها دور فاعل في حياة الإنسان و تكامله و رقيه، و هي الوسيلة، لتقارب البشر و توطيد العلاقات فيما بينهم، على جميع المستويات. و قد انعكست هذه المسألة، في الروايات بصورة واسعة، و منها ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مَهْمَلَةٌ» (١). و الحق ما قاله الإمام عليه السلام، لأنه لولا اللسان فعلاً لما إمتاز الإنسان عن الحيوان، و ورد في حديث آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «الجمال في اللسان» (٢). و نقل هذا الحديث بصورة أخرى، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الجمال في اللسان و الكمال في العقل» (٣). و نختتم بحديث آخر عن الإمام على عليه السلام، فقال: «إن في الإنسان عشرين خصال يظهرها لسانه، شاهد يُخبر عن الضمير، و حاكم يُفصل بين الخطاب، و ناطق يُرَدُّ به الجواب، و شافع يُدرك به الحاجة، و واصل يعرف به الأشياء، و أمير يأمر بالحسن، و واعظ ينهي عن القبيح، و معز تسكن به الأحران، و حاضِرٌ (حامدٌ) تُجلى به الضغائن، و موق تلدُّ به الأسماع» (٤). و لحسن الختام، نرجع على كتاب: «المحجزة البيضاء» في «تهذيب الأحياء». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٦ ففي بداية الكلام، و تحت عنوان: «كتاب آفات اللسان»، يقول: (فإن اللسان من نعم الله العظيمة، و من لطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته و جرمه، إذ لا يستبين الكفر و الإيمان، إلا بشهادة اللسان، و هما غاية الطاعة و الطغيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم إلا و اللسان يتناولها، و يتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم، يُعرب عنه اللسان، إما بحق أو باطل، و لا شيء إلا و العلم متناول له، و هذه خاصيته لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان و الصور، و الأذن لا تصل إلى غير الأصوات، و اليد لا تصل إلى غير الأجسام، و كذا سائر الأعضاء، و اللسان رَحَب المِيدان، ليس له مرد ولا لمجاله منتهى و لا حد، فله في الخير مجال رَحَب، و له في الشر مجرى سحب، فمن أطلق عذبة اللسان و أهمله مرخي العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، و ساقه إلى شفا جرف هار). (١)

### علاقة اللسان بالفكر والأخلاق:

لا شك أن اللسان هو نافذة الروح، و هو يعني أن شخصية الإنسان مخبوءة تحت لسانه، و بالعكس فإن كلمات كل إنسان لها دور في بلورة و صياغة روحه و نفسيته، فالتأثير بين الكلام و شخصية المتكلم، هو تأثير متقابل. و الآية الوحيدة التي تناولت، علاقة اللسان بالفكر و الأخلاق، هي الآية (٣٠) من سورة محمد صلى الله عليه و آله، بالشكل الذي يشخص معها الإنسان، ما يدور في خلد طرفه المقابل، عن طريق حديثه و كلامه معه، و لذلك فإن الإنسان، سعى قديماً و حديثاً للتركيز على هذا الأمر، لمعرفة خبايا و بواطن الرجال عن طريق المحادثة و الطب النفسي، فنقرأ في هذه الآية، التي نزلت لتفضح المنافقين، قوله تعالى: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَى الْكُفْمِ». و على حد تعريف الزاغب، في: «مفردات القرآن»، أن معنى «اللحن»، هو الخطأ في الإعراب، أو الانحراف عن قواعد اللغة، أو قلب الكلام من الصراحة إلى الكناية، و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٧ الإشارات، «ولحن القول» المقصود في الآية، هو المعنى الأخير، و هي الكنايات و التعبيرات ذات المعاني المتعددة، و الحماله لوجوه. ففي حديث عن أبي سعيد الخدري قال: (لحن القول بغيرهم على بن أبي طالب، و كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله بغيرهم على بن أبي طالب) (١). و لم تنس الروايات حظها في هذا المجال، فقد ورد: ١- «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه و صفحات وجهه» (٢). فهذا الحديث يمكن أن يكون أساس الطب و العلوم النفسية، و الحقيقة أن اللسان هو مرآة الروح. ٢- و عنه عليه السلام أيضاً: «الإنسان بُنِيَ لسانه» (٣). ٣- و عنه عليه السلام أيضاً: «قلت أربعا، أنزل الله تصديقي بها في كتابه، قلت المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) «٤»، قُلْتُ فَمَنْ جَهْلٌ شَيْئاً عَادَاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ؛ (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ) «٥»، وَقُلْتُ قِيَمَةٌ كُلُّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، فِي قِصَّةِ طَالُوتَ (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسِيطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) «٦»، وَقُلْتُ الْقَتْلُ يُقَالُ الْقَتْلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (٧) «٨». ٤- وفي حديثٍ آخرٍ عنه عليه السلام أيضاً قال: «يُشِيدُ تَدَلُّ عَلَى عَقْلِ كُلِّ امْرِئٍ بِمَا يَجْرَى عَلَى لِسَانِهِ» «٩». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٨ وقال عليه السلام أيضاً: «إِيَّاكَ وَالْكَلامَ فِي مَا لَا تَعْرِفُ طَرِيقَتَهُ وَلَا تَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ فَإِنَّ قَوْلَكَ يَدُلُّ عَلَى عَقْلِكَ وَعِبَادَتِكَ تُبَيِّنُ عَنْ مَعْرِفَتِكَ» «١٠». والحقيقة أن اللسان له دور حيوي وفعال، في حياة الإنسان وبناء شخصيته، وهو أمر لا يخفى على أحد، وله أصداء واسعة في الروايات الإسلامية، وما ورد آنفاً ليس إلا نزر قليل من ذاك الكم الكثير. وبالطبع فإن النعم الإلهية العظيمة، هي رأسماً عظيماً لبناء الذات في طريق التكامل المعنوي، وكلما ازدادت النعم الإلهية، وتوسعت، ازداد الأمر خطورةً، للحفاظ عليه من الآفات والأخطار في دائرة التحديات الصعبة، التي تحاول القضاء على شخصيته الإنسان. والمعروف: «أنه إلى جانب كل جبلٍ عظيمٍ وادٍ سحيقٍ»، ففي جانب كل نعمٍ وموهبةٍ، هناك خطرٌ محققٌ، فالطاقة الذرية مثلاً إذا استعملت في الأغراض السلمية، والإعمار، فستبني وتعمّر دنيا الإنسان، وإذا ما استعملت في الشر فستفني العالم في دقائق معدودة. ومنها نفتح باب الحديث، على آفات اللسان.

### آفات اللسان:

كما أشرنا أن فوائد اللسان وبركاته البناءة عديده، وكذلك آثاره السلبية، وما يترتب عليه من ذنوبٍ وآثام، ونتائج مخزبة على مستوى الفرد والمجتمع، وقد ذكر العلامة المرحوم الفيض الكاشاني رحمه الله، في كتابه: «المحجّة البيضاء»، والغزالي في كتابه: «إحياء العلوم»، بحثاً مطوّلاً، فذكر الغزالي عشرين نوعاً من أنواع الانحرافات والأخطار للسان: ١- الكلام في ما لا يعنى الإنسان، وليس له أثر مادي ولا معنوي في حياة الإنسان. ٢- الثثرة والكلام اللغو. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٦٩ ٣- الجدال والمراء. ٤- الخصومة والتزاع واللجاج في الكلام. ٥- التكلم حول المنكرات، مثل الشراب والقمار وما شابهه. ٦- التكلف في الكلام، والتصنع في السجع والقافية. ٧- البذاءة ٨- اللعن لغير مستحقه. ٩- الغناء. ١٠- المزاح الزككيك. ١١- السخريه والاستهزاء بالآخرين. ١٢- إفشاء أسرار الناس. ١٣- الوعود الكاذبة. ١٤- الكذب والأخبار الكاذبة. ١٥- الغيبة. ١٦- النميمة. ١٧- التفاف في اللسان، «أو كما يقال ذواللسانين». ١٨- المدح لغير مستحقه. ١٩- الكلام والتحدث بدون تفكير وتدبر، حيث يصاحبه الوقوع في الخطأ والاشتباه عادة. ٢٠- التساؤل عن الامور المعقدة والغامضة، التي تخرج عن قدرة المسؤول، هذا وإن الدقة في البحث، أثبتت لنا أن الآفات لا تنحصر بهذه الامور فقط، فالمرحوم الكاشاني والغزالي، ربما لم يكن قصدهما، إحصاء جميع عناصر الخلل والزيف في اللسان، ولذلك فإننا نضيف إلى هذه الموارد العشرين، موارد أخرى، وهي: ١- التهمة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٠ ٢- الشهادة بالباطل. ٣- مدح النفس. ٤- نشر الشائعات والأكاذيب، التي لا تعتمد على أساس، وإشاعة الفحشاء والمنكر، وإن كان من باب الإحتمال. ٥- البذاءة والخشونة في الكلام. ٦- الإصرار العقيم: (كما أصر أصحاب بقره بنى إسرائيل). ٧- إيذاء الآخرين بالكلام الجارح. ٨- المذمة لغير مستحقها. ٩- الكفران وعدم الشكر باللسان. ١٠- الدعاية للباطل، والترغيب على الذنب، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف. و غنى عن البيان، أن ما تقدّم آنفاً لا يشكل جميع خطايا اللسان، بل يمكن القول أن هذه الموارد الثلاثين، من امهات الموارد في هذا الصدد. والجدير بالذكر، أن البعض أفرطوا في هذا المجال، ونسبوا إلى اللسان ذنوباً هو برىء منها، كإظهار الفقر والمسكنة والبدعة في الدين، والتفسير بالرأى والجاسوسية ما شابهها، فكل منها يعتبر ذنباً مستقلاً، وربما ارتكبت باللسان أو بالقلم، أو بوسائل أخرى، وتصنيفها في عداد ذنوب اللسان، ليس بالشئ المناسب، لأنه على هذا الأساس، يمكن تصنيف جميع الذنوب في قائمة ذنوب اللسان، حيث إنها ترتكب بنوع ما، بواسطة اللسان، أو أن لها علاقة به، كالزبىء والحسد والتكبر والقتل والزنا. والبعض أقدم على كل خطيئة من خطايا اللسان، وقسمها إلى أقسام عديده، وجعل كل قسم منها، في فرع خاص وعنوان مستقل، مثل الجسارة مع الأستاذ أو

الوالدين، أو تلقيهم باللقاب نايبة. وعلى كل حال، علينا إتخاذ جانب الاعتدال في كل شيء، وإن كانت هذه التقسيمات، في الحقيقة لا تؤثر في أصل البحث.

## الاسس الكلية للوقاية من أخطار اللسان:

### إشارة

تبين مما سبق، أن اللسان في الوقت الذي يعد فيه نعمة إلهية عظيمة، هو في نفس الوقت، خطرٌ جداً إلى درجة أن بإمكانه، أن يكون مصدر الخطايا والذنوب، وأن يهبط بالإنسان في خط الباطل، إلى أسفل السافلين ويجره إلى الخيض. ولأجله علينا التفكير، في الاصول التي تعيننا في تجنب أخطاره الكبيرة، أو تقليلها إلى أقصى حد. ونستعين في دائرة الكشف عن أخطار اللسان، بتوجيهات أئمتنا العظام عليهم السلام ورواياتهم، وكذلك نستعين ببعض من كلمات علماء الأخلاق، حيث وضعوا لنا اصولاً و اسماً و خطوطاً عامة، عليها التعويل في حركتنا المعنوية المتجهة نحو الله تعالى، ومنها:

### ١- الإنباه الحقيقي لأخطار اللسان

للوفاية من أخطار أى موجودٍ خطرٍ علينا، في البداية نلتزم حالة الإنباه و التوجه التام، لما يترتب عليه من أخطار، فعندما يستيقظ الإنسان كل يوم صباحاً، عليه أن يوصى نفسه و معها على مستوى الحذر، من شطحات لسانه وأفكاره، لأن هذا العضو من البدن إذا تعامل معه الإنسان، من موقع الإنضباط في خط المسؤولية، فسوف يصعد به إلى أوج السعادة و الكمال، و إذا أطلق له العنان، فسيورد صاحبه في المهالك، فهو وحش ضار لا هم له إلا التدمير و التخريب، وقد ورد هذا المعنى بصورة جميلة و تعبيرات مؤثرة في رواياتنا الشريفة، منها ما ورد عن سعيد بن جبير، عن رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث قال: «إذا أصبح ابن آدم أصبَحَ الأَعْضاءُ كُلُّها تَشْتَكِي اللِّسانَ أَى تَقُولُ إِتِّقِ اللّهَ فِينا فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ إِعْوَجَجْتَ إِعْوَجَجْنَا» (١). و جاء عن إمامنا السَّجاد عليه السلام: «إِنَّ لِسَانَ إِبْنِ آدَمَ يَشْرِفُ عَلَى جَمِيعِ جَوَارِحِهِ كُلِّ صَبَاحٍ فَيَقُولُ كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟! الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٢ فَيَقُولُونَ بِخَيْرٍ إِنْ تَرَكْتَنَا وَيَقُولُونَ اللّهُ اللّهُ فِينا، وَيُنَادُونَهُ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا نُنَابُ وَنُعاقِبُ بِكَ». (١)

### ٢- السكوت

تطرقتنا سابقاً لمباحث السكوت، بصورة وافية، و نقلنا آيات و روايات كثيرة في هذا الصدد، فكلما كان الكلام أقل، كان الزلل كذلك، وكلما كان السكوت أكثر، كانت السلامة تحيط بالإنسان في حركة الحياة والواقع، علاوة على ذلك فإن إلتزام السكوت في أغلب الحالات، يعود الإنسان للسيطرة على لسانه والحد من جموحه، و الوصول في هذه الحالة النفسية، إلى درجة لا يقول إلا الحق، و لا يتكلم إلا بما يرضى الله تعالى. و يجب الإنباه إلى أن المراد من السكوت، ليس هو السكوت المطلق، فكثير من امورنا الحياتية لا يتحقق إلا بالكلام، من قبيل كثير من الطاعات و العبادات، و نشر العلوم و الفضائل، و إصلاح ذات البين، و أمثال ذلك، فالمقصود قلة الكلام و الإجتنب عن فضوله، فقد قال الإمام على عليه السلام: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ، مَنْ كَثُرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ» (٢). و نقل هذا التعبير، بصورة اخرى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و

آله «٣». و في حديث آخر عن الإمام على عليه السلام، أنه قال: «الكلام كالدواء قليله ينفع وكثيره قاتل» «٤».

### ٣- حفظ اللسان: «التفكر أولاً ثم الكلام»

إذا فكر الإنسان في مضمون كلامه، و دوافعه و نتائجه، فسيكون بإمكانه أن يتجنب كثيراً من الشدّطات، و الذنوب التي تنطلق من موقع الغفلة، نعم فإن إطلاق العنان للسان من موقع اللامبالاة و الإستهانة، بإمكانه أن يوقعه في أنواع الذنوب و المهالك في حركة الحياة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٣ و ورد في حديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه و آله، أنه قال: «إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه و إن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه و لم يتدبره بقلبه» «١». و ورد نفس هذا المعنى، مع بعض الاختلاف في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، في الخطبة (١٧٦) من نهج البلاغة. و نقرأ في تعبير آخر ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنه قال: «قلب الأحمق في فيه، و فم الحكيم في قلبه» «٢». فمن البديهي، أن المراد من القلب هنا هو العقل والفكر، و وجود اللسان في موقع الأمام أو الخلف، هو كناية عن التدبر و التفكير في محتوى الكلمات و الألفاظ، قبل التطق بها، و بالفعل كم يكون جميلاً، لو أننا حسبنا لكلامنا حسابه، و فكرنا في كل كلمة نريد أن نقولها، و الدوافع و النتائج التي ستعقبها، و هل أنها من اللغو أو مميًا يفضى إلى إيذاء مؤمن، أو إلى تأييد ظالم و أمثال ذلك، أو أنها تنطلق من موقع الدوافع الإلهية، و لغرض حماية المظلوم، و في طريق الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و كسب مرضاء الله تعالى؟! و نختم هذا الكلام، بحديث جامع لجميع الموارد المذكورة آنفاً، يمنح قلب الإنسان نوراً و صفاءً، و قد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن أحببت سلامة نفسك و ستر معاييك، فأقلل كلامك و أكثر صمتك، يتوفّر فكرك و يستتر قلبك». «٣» هذه هي خلاصة دور اللسان في تهذيب النفس، و طهارة الأخلاق و الاصول الكلية لحفظ اللسان، و بالطبع سوف نقدم شرحاً وافياً، لتفاصيل أهم الانحرافات و الذنوب اللسانية، كالغيبه و التهمة و الكذب و النميمه و نشر الأكاذيب و إشاعة الفحشاء، و ذلك في المجلد الثاني من الكتاب، إن شاء الله تعالى، بعد الإنتهاء من بيان الاصول الكلية للقيم الأخلاقية.

### الخطوة الثامنة: معرفة الله تعالى و معرفة النفس

#### إشارة

من الخطوات الأولى في طريق إصلاح النفس، و التهذيب الروحي، و بلورة الأخلاق و الملكات الأخلاقية الشامية، في واقع الإنسان هي: «معرفة النفس». فكيف يمكن للإنسان أن يرقى في درجات الكمال الروحي و يتحرك على مستوى إصلاح عيوبه، و التخلص من رذائله الأخلاقية، و الحال أنه لا يعرف نفسه من موقع الوعي لذاته؟ و هل للمريض أن يذهب إلى الطبيب، و لمّا يعرف أنه مصاب بالمرض؟ و هل للتائه الضال عن الطريق، أن يعرف وجهته، و يتحرك في طريق العثور على الجادة الصّحيحة، قبل أن يعرف أنه ضال عن الطريق؟ و هل للإنسان أن يهتبيء أسباب و وسائل الدفاع عن نفسه، و هو لا يعرف أن العدو قد كمن له على باب داره؟ من الطبيعي، أن الإجابة عن هذه الأسئلة هو بالنفي، فكذلك من لا يعرف نفسه ولا عيوبه فإنه لن يستطيع أن يتحرك في عملية إصلاح نفسه، ولن يستفيد من أطباء الزوج، في خط التربية و التهذيب. و بهذه الإشارة نعود إلى صلب الموضوع، لنبين علاقة معرفة النفس بتهديبها، و كذلك العلاقة بين: معرفة الله و تهذيب النفس.

### ١- علاقة معرفة النفس بتهديبها

كيف يُمكن لمعرفة النفس أن تكون سبباً في تهذيب النفس؟ دليلاً واضحاً وبيّن، لأنه: أولاً: إن الإنسان عن طريق معرفة نفسه، سوف يعي كرامته نفسه، و شرف ذاته، وعظمة الصنيع الإلهي في هذه الخلق، وبالتالي سيُدرِك، أهميّة الروح الإنسانيّة، التي هي نفحة من نفحات قُدسه، نعم فإنّه سيُدرِك أنّ الجوهر الثمين، التي منحه الله تعالى إياها، عليه ألماً يُضيعها ولا يبيعها بأبخس الأثمان، فلن يُضيعها إلمن كان يعيش الرذائل الأخلاقيّة، و من غرق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٥ بوحل الذنوب، و مستنقع الخطيئة. ثانياً: الإنسان بمعرفته لنفسه، سيطلع على الأخطار التي تحدق به، جرّاء ميوله النفسية، وعنصر الهوى و دوافع الشهوة، التي تقع في خطّ التقابل، مع سعادته و تكامله المعنوي في حركة الواقع النفساني، و سيكون بإمكانه التحرك في دائرة المواجهة الواعية، للوقوف بوجهها و التصدي لها. و من البديهي، أنّ الإنسان الذي لا يخبر نفسه لن يكون على إحاطة بوجود تلك الدوافع، ويبقى كالغافل عمّا يدور حوله، بينما يكون الأعداء قد احتشوه من كلّ جانب، و هو لا يحرك ساكناً، و بالطبع فإنّ هذا الشخص، سيتلقّى ضربات قاصمة من عدوّه، وبعدها يخضع لواقع السيطرة من قبل العدو، و أنّى له ساعتها، التدبير و التفكير من موقع الشعور الهادي، و البعيد عن الإنفعال و التوتر!! ثالثاً: بمعرفة النفس، ستظهر له حبايا نفسه، و إستعداداتها المختلفة، و لأجل رقيها و كمالها و السير بها إلى الله، سيسعى الإنسان في خطّ التربيّة و التهذيب، لبلورة تلك الإستعدادات و الكمالات، و يستخرج كنوزها من واقعه الذاتى، ليقترب بواسطتها من آفاق السّماء. و حال الشخص الذي لا يتعامل مع ذاته، من موقع المعرفة و الوعى، كحال الذي دفن في بيته كنوزاً، و هو لا يعلم بها، و هو بأمس الحاجة إليها لفقره المِدقع، فيموت جوعاً بدون أن يجد في نفسه باعثاً على الانتفاع بها، في واقع الحياة. رابعاً: إنّ كلّ واحدٍ من المفاسد الأخلاقيّة، لها جذورها في النفس الإنسانيّة، و بمعرفة النفس، سيسعى الإنسان في عمليّة قلع تلك الجذور، من واقع النفس و غلق تلك الروافد التي تمدّها بالماء الآسن، و معالجة هذا الواقع السّلبى، بفتح روافد الماء الصّافى الزقراق الذي يمدّها بالحياة و الوصال الحقيقي المنفتح على الإيمان و الصفاء النفسى. خامساً: والأهم من هذا وذاك، فإنّ معرفة النفس، تؤدى إلى معرفة الربّ، و معرفة صفاته الجليليّة و الجماليّة، و التي هي من أقوى الدوافع الذاتية، لتربية المملكات الأخلاقيّة، و الكمالات الإنسانيّة، و طريق قويّ للنجاة من الإنحطاط و الرذيلة، و الصّعود بها إلى أعلى الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٦ مراتب الكمال المعنوي، و آفاق المثل الإنسانيّة. و إذا أضفنا إلى ذلك كلّ هذه الحقيقة، و هي أنّ الرذائل تقلب حلاوة السعادة إلى مرارة الشقاء، و تجرّ البشريّة إلى حيث الويلات و الدمار، فعندها ستّضح مدى الأهميّة القُصوى، لمعرفة النفس في حياة الإنسان و المجتمع البشرى. و قد ورد في كتاب: «عجاز الطبّ النفسى»، للكاتب «كارل مينجر»: (معرفة النفس عبارة عن الإحاطة بقوى الخير و المحبّة، و معرفة عناصر الشّر و الكراهيّة في النفس الإنسانيّة، و أىّ تجاهل و تغافل عن وجود هذه القوى و العناصر في أنفسنا، و فى الغير، بإمكانه أن يُعرض أسس الحياة للإهتزاز و الخلل) (١). و فى كتاب: «الإنسان ذلك المجهول»، وردت جملةٌ تعتبر شاهداً حياً على مدّعانا، فيقول: (لسوء الحظ فإنّ الإنسان المعاصر، لم يتحرّك على مستوى التعرف على نفسه، إلى جانب التّقدم الصّناعى و التّطور العلمى، و لم يوفّق برنامج الحياة، وفق واقعه الطّبيعى، و الفطرى، لذلك فَمع ما فى الحياة العصريّة من زينة و تفاخر، لكنّها لم توصل الإنسان للسّعادة المنشودة، فالتّقدم الذى حصل على مستوى العلم و التّكنولوجيا، لم يحصل بتدبير و تفكير، بل حصل عن طريق الصدفة المَحضة ..، فلو ركّز: «غاليلو» و «نيوتن» و «لافوازيه»، وغيرهم من العلماء على جسم وروح الإنسان، لربّما تغيّرت الدنيا، ولما أصبحت كما هي عليه الآن» (٢). و بناءً عليه، فإنّ إحدى العقوبات التي أعدّها البارى تعالى، للمُعرضين عن الله من موقع التّمرّد على الحقّ، و حدّر البارى تعالى، المسلمين من الوقوع فيها، هي نسيان النفس، و الغفلة عن الذات: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (٣).

## ٢- معرفة النفس في الروايات الإسلاميّة

و قد أغنتنا الروايات الشّريفة، الواردة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله، و الائمة الهداة عليهم السلام، فى هذا الاخلاق فى القرآن،

ج ١، ص: ٢٧٧ المجال، ومنحتنا زخماً معرفياً كبيراً، على مستوى بيان معطيات معرفة النفس، و أثرها الإيجابي في حركة الإنسان، في خط التكامل المعنوي، و الأخلاقي، و منها: ١- ما ورد عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: «نال الفوز الأكبر، من طفر بمعرفة النفس» (١). ٢- و يقول عليه السلام، في النقطة المُقابلة لهذا: «من لم يعرف نفسه بعد عن سبيل النجاة، و خبط في الضلال و الجهالات» (٣). ٣- و ورد في حديث آخر، عن هذا الإمام الهمام عليه السلام: «العارف من عرف نفسه فأعتقها و نزهها عن كل ما يُبعدها» (٣). و يُستفاد من هذا التعبير، أن معرفة النفس سببٌ للتحرر من قيود الأهواء، و أسر الشهوات، و تطهير النفس من الرذائل الأخلاقية. ٤- و نقرأ في حديث آخر، عن هذا الإمام الكبير عليه السلام: «أكثر الناس معرفةً لنفسه، أخوفهم لربه» (٤). و نستوحى من هذا الحديث الشريف، العلاقة الوثيقة بين الإحساس بالمسؤولية، من موقع الخوف من الله تعالى الذي يعدّ منطلقاً لتهديب النفس في خط التقوى، و بين معرفة النفس. ٥- و ورد في حديث آخر، عن الإمام نفسه، يقول: «من عرف نفسه جاهداً و من جهل نفسه أهملها» (٥). فطبقاً لهذا الحديث الشريف، فإن الدعامة الأصلية لجهاد النفس، أو الجهاد الأكبر، كما ورد التعبير عنه في الروايات الإسلامية، هي معرفة النفس. ٦- وجاء في نهج البلاغة، في قصار الكلمات لأبي الميراثين عليه السلام: «من كرمته عليه نفسه الأخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٨ هانت عليه شهواته» (١). فالشخص الذي عرف نفسه، على مستوى كرامتها الذاتية، لا يعيش الدلة في إطار الخضوع للشهوات، و الإستسلام للأهواء و التواضع النفسية. ٧- كما أن معرفة النفس، تعتبر ركناً مهماً في تهديب النفس، في خط التكامل الأخلاقي و المعنوي، فالجهل بكرامة النفس، سبب للإبتعاد عن الله تعالى، و لئذا ورد في حديث آخر، عن الإمام العاشر: (الإمام الهادي عليه السلام): «من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره» (٢). و من مضمون ما تقدّم، يتبين بوضوح، أن من الدعائم الأساسية للفضائل الأخلاقية، و التكامل المعنوي، هو معرفة النفس، ولن يصل الإنسان إلى غايته المنشودة، إلا بعد عبور ذلك الممر الصّعب، و لذلك أكد علماء الأخلاق، كثيراً على هذه المسألة، لكي لا يغفل عنها السائر في الطريق إلى الله تعالى.

### ٣- معرفة النفس طريق لمعرفة الرب

يقول الباري تعالى: «سئرتهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (٣). و ورد في آية أخرى، قوله تعالى: «و في أنفسكم أفلا تبصرون» (٤). و إستدل بعض المحققين، بالآية الشريفة، التي تتحدث عن عالم الذر، على هذه الحقيقة أيضاً، و هي أن: «معرفة النفس»، تعتبر الأساس والقاعدة: «لمعرفة الله تعالى حيث تقول الآية الكريمة: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» (٥). و نقرأ في تفسير الميزان: «فالإنسان وإن بلغ من التكبر و الخيلاء ما بلغ، و غرته مساعدة الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٧٩ الأسباب ما غرته و إستهوته، لا يسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه، و لا يستقل بتدبير أمره، ولو ملك نفسه،- لوقاها مما يكرهه من الموت، و سائر آلام الحياة مصائبها، و لإستقل بتدبير أمره، لم يفتقر إلى الخضوع، قبال الأسباب الكونية. فالحاجة إلى رب: - ملك مدبر؛ حقيقة الإنسان، و الفقر مكتوب على نفسه، و الضعف مطبوع على ناصيته، لا يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني، و العالم و الجاهل، و الصّغير و الكبير، و الشريف و الوضيع، في ذلك سواء. فالإنسان في أي منزل من منازل الإنسانية نزل، يشاهد من نفسه أن له رباً يملكه و يدبر أمره، و كيف لا يشاهد ربه، و هو يشهد حاجته الذاتية؟ و لذا قيل: إن الآية تشير إلى ما يشاهده الإنسان في حياته الدنيا. أنه محتاج في جميع جهات حياته، من وجوده و ما يتعلق به وجوده من اللوازم و الأحكام، و معنى الآية أننا خلقنا بنى آدم في الأرض، و فرقناهم، و ميزنا بعضهم من بعض بالتناسل و التوالد، و أوقفناهم على إحتياجهم و مربوبيتهم لنا، فاعترفوا بذلك قائلين، بلى شهدنا أنك ربنا» (١). و بناءً على ذلك، ثبت لنا أن التعرف على حقيقة الإنسانية، بخصوصياتها و صفاتها، هي السبب و الأساس لمعرفة الباري تعالى شأنه. و الحديث المعروف، الذي يقول: «من عرف نفسه عرف ربه»، ناظر إلى هذه المسألة بالذات. و قد نقل هذا الحديث مرة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و مرة أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، و مرة نقل عن صحف إدريس عليه السلام. فجاء في بحار الأنوار نقلاً عن صحف إدريس

عليه السلام، في الصَّحِيفَةُ الرَّابِعَةُ، و التي هي صحيفَةُ المعرفة: «مَنْ عَرَفَ الْخَلْقَ عَرَفَ الْخَالِقَ، وَمَنْ عَرَفَ الرَّزْقَ عَرَفَ الرَّازِقَ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٠ و على كلِّ حالٍ، فَإِنَّ مضمون هذا الحديث قد ورد بطرق متعدّدة، في كتاب بحار الأنوار، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أو أحد المعصومين عليهم السلام، أو إدريس النبي عليه السلام، وكذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام، في: «غُرر الحِكَم» (١). و قال العَلَمَةُ الطَّباطبائي، في تفسيره: «أَنَّ الشَّيْعَةَ وَالسَّنَةَ قَدْ نَقَلُوا هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ» (٢).

### التفسير السبعة، لحديث من عرف نفسه:

و قد وردت تفاسيرٌ عديدةٌ لهذا الحديث، و منها: ١- يشير هذا الحديث إلى: «بُرهان النّظم»، فكلّ إنسانٍ يتعرف على عجائب الخِلقَةِ، في روحه و جسمه، و ما تتضمّن من النّظم المعقد والمخبر في تفاصيلها الدقيقة، فسوف يفتتح له طريق إلى الله تعالى، فإن هذا النّظم و الإنِتنظام و الدّقة في الخِلقَةِ، لا يمكن أن ينشأ، إلّا بتدبير عالم قادر مبدىء معيد. ٢- و يمكن أن يكون هذا الحديث، إشارةً إلى بُرهان: «الوجود والإمكان»، فعندما ينظر الإنسان و يُدقّق في تفاصيل وجوده و نشأته، يرى أنّه وجودٌ مستقلٌّ، من علمه و قُدرته و ذكائه و سلامته، فكلّها تحتاج إلى وجوده سبحانه، و من دونه، فهو لا شيء و سينتهى وجوده، وفي الحقيقة هو كالمعاني الحرفية، التي بدون المعاني الإسمية، لن يكتمل لها معنى، كجملة: «ذهبْتُ إلى المسجد»، فكلمة «إلى»، وحدها لا مفهوم لها إطلاقاً، من دون إرتكازها على كلمتي: «ذهبْتُ» و «المسجد»، وكذلك الحال في وجودنا بالنسبة إلى الله تعالى، فكلّ شخصٍ يحسّ في نفسه هذا الإحساس، سيعرف ربّه من موقع الإعتماد و الإيمان أكثر، لأنّ وجود الممكن محال، بدون وجود الواجب. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨١

٣- و يمكن لهذا الحديث، أن يدلّنا على: «برهان العلّة والمعلول»، فكلّ إنسان يتفكر في نفسه، قليلاً فسوف يعرف أنّه معلول، لعلّةٍ اخرى منذ وجوده، و عندما ينظر لأبيه سيراه هو أيضاً معلولاً لعلّةٍ اخرى، و هكذا حتى يصلَ إلى علّة العِلل، و إلّا يلزم التسلسل، و بطلان التسلسل، أمرٌ مفروغٌ عنه لدى الحكماء (١). و عليه، يجب أن تصل العِلل إلى العلّة الاولى، التي لا تحتاج إلى علّة، فعلّة العِلل: وجوده في ذاته، فعندما يرى الإنسان نفسه بهذا الوصف، فإنّه سيصل إلى الباري سبحانه و تعالى، من خلال هذا القانون العقلي. ٤- و يمكن أن يكون هذا الحديث، إشارةً إلى «بُرهان الفطرة»، فعندما يعرف الإنسان في تأمل حنايا نفسه، و جوانب فطرته، فسوف يتجلّى له نورٌ التوحيد، و يفتتح على الله تعالى، و يصل من «معرفة النفس»، إلى «معرفة الله»، ولن يحتاج إلى دليلٍ آخر يقوده إلى الله تعالى. ٥- و يمكن أن يكون الحديث، ناظراً إلى مسألة: «صفات الله تعالى»، بمعنى أن الإنسان عندما يرى محدوديته، في دائرة حالاته و صفاته في عامل الإمكان، سيصل إلى نقاطٍ ضعفه و يُدرك من خلال محدوديته في مجال الصفات البشرية، لا محدودية الله تعالى، لأنّه لو كان مخلوقاً مثله، لكان محدوداً أيضاً، و من فنائه إلى بقائه تبارك و تعالى، لأنّه لو كان مخلوقاً أيضاً لكان فناياً، و كذلك يُدرك من خلال إحتياجاته و فقره، إستغناء الله و عدم حاجته عمّا سواه، و يُدرك قوّة الباري من خلال فقره و حاجته هو ... وهكذا، وهذا ما يشير إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، في أوّل خطبة، حيث يقول: «وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِدْقٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَ شَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنََّّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ» (٢). ٦- و نقل العَلَمَةُ المجلسي رحمه الله، تفسيراً آخر لهذا الحديث، عن بعض العلماء، أنّه قال: (الرّوح لطيفةٌ لاهوتيةٌ في صفةٍ ناسوتيةٍ: دالّةٌ من عشرة أوجه، على وحدانيّة الله و ربّانيّته: ١- لما حرّكت التهيكل و دبّرته، علمنا أنّه لا بدّ للعالم من مُحَرِّكٍ و مُدَبِّرٍ. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٢ ٢- دلّت وحدتها على وحدته. ٣- دلّ تحريكها للجسد على قدرته. ٤- دلّ إطلاعها على ما في الجسد على علمه. ٥- دلّ إستواؤها إلى الأعضاء على إستوائه إلى خلقه. ٦- دلّ تقدّمها عليه وبقاؤها بعده، على أزله و أبده. ٧- دلّ عدم العلم بكيفيتها، على عدم الإحاطة به. ٨- دلّ عدم العلم بمحلّها من الجسد، على عدم أيّنته. ٩- دلّ عدم مسيّها على إمتناع مسّه. ١٠- دلّ عدم إبصارها على إستحالة رؤيته) (١). ٧- التفسير الآخر لهذا الحديث، هو أن جملة: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، هي من قبيل التعلّق بالمحال، يعني بما أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه، فهو لن يعرف ربّه



بصوره حقيقيه. ولكن التفسير الأخير هذا غير مناسب، و التفاسير السابقة أنسب لسياق الحديث، ولا ضمير من إحتواء ذلك الحديث الشريف، لكل تلك المعاني الجليله. نعم، فإن كل إنسان يعرف نفسه، سيعرف ربه، و معرفة النفس هي طريق لمعرفة الرب، و هي أهم وسيلة لتهديب الأخلاق، و طهارة النفس و الروح، فذاته المقدسه هي مصدر لكل الكمالات و الفضائل، و أهم طريق للسير و السلوك في خط بناء الذات، و تهديب الأخلاق، هو معرفة النفس، ولكن معرفة النفس تقف دونها موانع كثيرة، لابد من إستعراضها و بحثها.

### موانع معرفة النفس:

أول خطوة تتخذ، لعلاج الأمراض البدنيه هي معرفتها، و عليه ففي وقتنا الحاضر، يمكن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٣ تشخيص أغلب الأمراض، بالأشعة السيتيه، و السونار، و المختبرات المختلفه لتحليل الدم و البول، و ما شابهها من الامور، حيث يستطيع الطبيب بمعونتها، من تشخيص مواضع الخلل البدني بدقة، و بالتالي يكون بإمكانه، وضع الأدوية و العلاجات لذلك المرض، و كذلك الحال في الأمراض الروحيه و النفسيه على مستوى التشخيص و المعالجه، فإننا إن لم نشخص أمراضنا الروحيه، بمساعدة الطبيب الحقيقي للنفس، و لم نتمكن من العثور على جذور الرذائل الأخلاقيه، في واقعنا النفسى، فسوف لا يمكننا الوصول إلى طريقه لعلاج هذه الأمراض، و جبران مواضع الخلل في عالم النفس. ولكن أغلب الناس، يتجاهلون الأعراض الخطيره للأمراض، و ذلك لعلبه الأنانيه عليهم و حب الذات، الذى لا يسمح لهم برؤيه النقص على حقيقته، و هذا الهروب من الحقيقه، غالباً ما ينتهى إلى عواقب غير حميده، و لا يتوجه إليها الإنسان إلا بعد فوات الأوان، و بعد تجاوز المرض مرحله العلاج، ففي الأمراض الأخلاقيه، و الإنحرافات النفسيه، غالباً ما يكون حب الذات و الأنانيه، مانعاً قوياً للناس، يحول دون معرفه صفاتهم الرذيله، و عيوبهم الأخلاقيه و الإعتراف بها، بل و يتذرعون بالأعذار المختلفه، فى عمليه التغطيه اللاشعوريه، على تشوهات الأنا ليكون الشخص متعالياً عن النقد و النقص، و بذلك يعيش مثل هذا الإنسان، حاله الوهم فى ثياب الواقع. و الحقيقه أن الأعتراف بالخطأ فضيله، و يحتاج إلى عزم جدى، و إراده راسخه، و إلفان الإنسان سيتحرك على مستوى تغطيه عيوبه، و يُدرجها فى طي النسيان، ليخدع بها نفسه و من حوالبه، بالظواهر الخادعه و العناوين الزائفه. نعم فإن الوقوف على العيوب و النقص، فى واقع الذات أمر مرعب و مريع، و غالبية الناس يهربون من واقعهم فى حركه الحياه، و لا يريدون أن يعترفوا بأخطائهم من موقع تحمّل المسؤوليه، لكن الهروب من الحقيقه، سيعود بالضرر الكبير على صاحبه، و سيدفع الإنسان الثمن غالباً على المستوى البعيد، جزاء ذلك!. و على كل حال، فإن المانع الحقيقى، و الحجاب الأصيل لمعرفة الذات، هو حجاب حب الذات، و الأنانيه و التكبر، و ما لم تنقش هذه الحجب، الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٨٤ و تلك الغشاوات عن النفس، فلن يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته، و نوازعها و ستغلق دونه أبواب المعرفه الاخرى، التى تريد به التهوض و الوصول إلى الحق، فى خط التكامل المعنوى، و التحذيرات التى صدرت من رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، شاهد حتى على مدعانا، منها: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين و زهده فى الدنيا و بصره عيوبه» (١). و قال أمير المؤمنين عليه السلام، فى حديث آخر: «جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه» (٢). و يفرض علينا هذا السؤال نفسه، و هو أنه كيف يستطيع الإنسان، أن يُزيل تلك الغشاوات و الحجب، التى ترين على نفسه و روحه؟. هنا أتحننا الفيض الكاشانى فى هذا المجال، بنصائح قيمه، فقال: (اعلم أن الله تعالى، إذا أراد بعبد خيراً بصيره بعيوب نفسه، فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه، و إذا عرف العيوب أمكنه العلاج، و لكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه و لا يرى الجذع فى عينه هو، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه، فله أربع طرق: الأول: أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات، و يحكمه على نفسه، و يتبع إشارته فى مجاهداته، و هذا قد عزّ فى هذا الزمان وجوده. الثانى: أن يطلب: صديقاً صدوقاً بصيراً امتديناً، فينصبه رقيباً على نفسه، ليراقب أحواله و أفعاله، فما يكرهه من أخلاقه و أفعاله و عيوبه الباطنه و الظاهره، يتبته عليها. فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين، كان بعضهم يقول: «رحم الله إمرء أهدى إلى عيوبى» (٣)، و كل من كان أوفر عقلاً و أعلى منصباً، كان أقل إعجاباً و أعظم اتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضاً قد عزّ، فقل فى الأصدقاء من

يترك المُداهنة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب، فلا يخلو أصدقاؤك عن حَسودٍ، أو صاحب غرض، يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٥ مُداهنٌ يُخفي عنك بعض عُيوبك، لهذا كان داوود الطائي قد اعتزل عن الناس، فقيل له: لِمَ لا- تُخالط الناس؟، قال: ماذا أصنع بأقوام يخفون عني ذنوبي. ان أهل الدين يحبون أن يُتبهوا على عُيوبهم، بنصيحة غيرهم، وقد آل الأمر إلى أمثالنا، بأن وأبغضُ الخلق إلينا من ينصحنا، ويُعرفنا عيوبنا، ويكاد أن يكون هذا مُفصِّحاً عن ضعف الإيمان، فإنَّ الأخلاق السيئة: حياتٌ و عقاربٌ لداعية، ولو تبهنا متبه على أن تحت ثوبنا عقرباً، لشكرنا له ذلك وفرحنا به، و اشتغلنا بإبعاد العقرب وقتلها، وإنما أذى العقرب على البدن، و يدوم ألمها يوماً أو بعض يوم، و نكايَةُ الأخلاق الرديئة على صميم القلب، وعسى أن يدوم بعد الموت، أبداً أو آفاً من السنين، ثم إننا لا نفرح بمن يتبهنا عليها، و لا تشتغل العداوة معه عن الإنتفاع بنصحه. الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه، من لسان أعدائه، فإنَّ عين السِّخَط تُبدي المساوي، و لعلَّ إنتفاع الإنسان بعدوِّ مشاحن، يذكّر عيوبه، أكثر من إنتفاعه بصديقٍ مداهنٍ، يُثنى عليه و يمدحه، و يخفي عنه عُيوبه. الطريق الرابع: أن يخالط الناس، فكلَّ ما يراه مذموماً، فيما بين الخلق فيطالب نفسه بتركه، و ما يراه محموداً يطالب نفسه به و ينسب نفسه، إليه، فإنَّ المؤمن مرآة المؤمن، فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه، و يعلم أنَّ الطَّبَاع مُتقاربة في إتباع الهوى، فما يتَّصف به واحد من الأقران أعظم منه، أو عن شيء منه، فيتفقد نفسه و يطهرها عن كلِّ ما يذمه من غيره، و ناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك النَّاس كلَّهم ما يكرهونه من غيرهم، لإستغنوا عن المؤدِّب، قيل لِعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ فقال: «ما أدَّبني أحد، رأيت جهلَ الجاهل فجانبته» (١).

### الخطوة التاسعة: العبادة و الدعاء تصقل مرآة القلب:

#### إشارة

الخطوة الاخرى، هي العبادة و الدعاء، و لأجل التعرف على دور، العبادة و الدعاء في بناء و تهذيب النفوس، علينا أولاً التعرف، على حقيقة و مفهوم العبادة و الدعاء. الواقع أن الحديث عن هذا الموضوع، طويلٌ و عريضٌ، و قد تناوله العلماء، العظماء، في كتبهم الأخلاقية و التفسيرية و الفقهية، بصورة مُفصِّلة و وافية، ولكن يمكن القول و باختصارٍ شديد: علينا قبل معرفة حقيقة العبادة و مفهومها، أولاً أن ندرس مفهوم كلمة «عبد»، و هي الأصل و الجذر اللغوي، لكلمة: «العبادة». «العبد» لغة تُطلق على الإنسان، الذي لا حول له ولا قوة، في مقابل مولاه، فأرادته تابعة لإرادة مولاه، ولا يملك شيئاً في عرض ما يملكه مولاه، و لا حق له في التصدير في طاعة سيده. و عليه فإنَّ العبودية، هي آخر و أقصى مراحل الخُضوع و الخُشوع، في مقابل السيد، حيث إنَّ كلَّ شيء في حياته يراه من هبته و إنعامه و إكرامه، و من هنا يتبين لنا بوضوح، أنه لا أحد يستحق هذه الدرجة من العبادة، و يكون معبوداً سوى الله تعالى، فهو الفيض اللامتناهي الذي لا ينقطع أبداً. و من بُعدٍ آخر، أن «العبودية»: هي قيمة و نهاية التكامل المعنوي، للروح في حركة التكامل المعنوي للإنسان، و غاية ما يطمح إليه الإنسان، من حالة القرب من الله تعالى، و التسليم المطلق للذات المقدسة، فالعبادة لا تنحصر بالركوع و السجود و القيام و القعود، بل إنَّ روح العبادة هي التسليم المطلق لله تعالى، و لذاته المقدسة و المنزهة من كلِّ عيب و نقص. و من البديهي أن العبادة، هي أفضل وسيلة للزقي المعنوي، و تحصيل الكمال المطلق، في حركة الإنسان و الحياة، و تقف حائلاً أمام كلِّ رذيلة، فإنَّ الإنسان يسعى للقرب من معبوده، لتتجلى في نفسه إشعاعات من نور قدسه و جلاله و جماله، و يكون مظهرراً و مرآة لصفات الجمال و الكمال الإلهية، في واقعه النفسي و سلوكه العملي. و في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «العبودية جوهرة كنهها الرُّبوبيَّة» (١).

الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٧ و هو إشارة لتلك الإنعكاسة الربانية، التي تتجلى في العبد جزاء العبادة الخالصة، المنفتحة على الله، حيث يصل بواسطتها إلى درجات من الرقي و الكمال، بحيث يمكنه معها السيطرة على الكون، و يكون صاحب بالولاية التكوينية، أو هو: كالحديد الأسود، الذي يحمر جزاء مجاورته للنار، و هذه الحرارة و النورانية ليست من ذاته، لكنها من معطيات تلك

النار. ومنها نعود للقرآن الكريم، لنستوحى مما فيه من آياتٍ حول العبادَةِ، وما لها من دورٍ في تنمية الفضائل الأخلاقية: ١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١). ٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٢). ٣- «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٣). ٤- «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا\* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا\* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا\* إِلَّا الْمُصَلِّينَ\* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» (٤). ٥- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» (٥). ٦- «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٦). ٧- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (٧).

### تفسير وإستنتاج:

تتحرك الآيات الآنفه الذكر، لتؤكد لنا حقيقةً واحدةً، ألا وهي، أن كل إنسانٍ يريد الإخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٨ الوصول إلى الكمال المطلق ويتحرك على مستوى تهذيب النفس، عليه أن يسلك طريق العبادَةِ، فالسائر في خط الإستقامة والتربية، ولأجل أن يبني نفسه، ويحصل على ملكة التقوى، عليه أن يعبد ويدعو الله تعالى، من موقع العشق والشوق ليوافقه في ذلك، ويطلب منه العون، لإزالة شوائب نفسه، لتتصل النقطة بالبحر، ولتندك ذاته بالذات الأزلية، ويتحول نحاس وجوده، في بوتقة العشق، إلى ذهب خالص. هنا تحركت «الآية الأولى»، لتخاطب جميع الناس بدون إستثناء، أن يسلكوا إلى الله من موقع العبادَةِ، وأرشدتهم لطريق التقوى، فقال تعالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». والتأكيد على مسألة الخلق للأولين، لعلها تقع في دائرة تبيينه العرب الجاهلين، الذين كانوا يستدلون بعبادتهم للأصنام، بسنة آباهم، فيقول الباري: إننا خلقناكم والجيلة الأولين، نعم فهو الخالق والمالك لكل شيء ولا يستحق العبادَة أحدٌ إلأهو، وإذا ما توجه الإنسان، حقيقةً نحو الباري تعالى، فستفتح في جوانحه عناصر الخير والتقوى، لأن ما يوجد من الشوائب في النفس، إنما هو بسبب التوجه لغير الله، من موقع العبادَة الزائفة. فهذه الآية تبيين معالم الرابطة والعلاقة الوثيقة، بين العبادَة التقوى. وتطرت «الآية الثانية»، للحديث عن عبادَة مهمّة، وهي الصوم وعلاقته بالتقوى، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». ومن المعلوم أن الصوم يُنور القلب ويجلوه، بحيث يحس معه الإنسان أنه يعيش القرب من الحسنات، والبعد عن السيئات والقبايح، والإحصائيات التي ترد في هذا الشهر من المصادر المختصّة عن الجرائم، تشير إلى أنها تصل إلى أدنى مستوى، في شهر رمضان، وأن الشرط في هذا الشهر المبارك، يتفرغون للأهتمام بأمور أخرى، إدارية عالقة بالأشهر الماضية!! وهذا الأمر إن دل على شيء، فهو يدل على أن الإنسان، كلما اقترب من الله تعالى، في خط العبوديّة والطاعة، فإنه يتعد عن الموبقات والآثام، والقبايح بنفس المقدار. الإخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٨٩ وأشارت «الآية الثالثة»، إلى علاقة الصيام بالتهني عن الفحشاء والمنكر، وخاطبت الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، بإعتباره قدوة وأسوة للآخرين، فقالت: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». «فالفحشاء والمنكر»، عبارة عن مجموعة الأفعال غير الأخلاقية، التي تنبع وتنشأ من الصّفات الأخلاقية، والتزعات الشريرة الموجودة في مطاوى النفس البشرية، حيث تؤثر بدورها في سلوك الإنسان، وتفرض الأخلاق الظاهرية له، و«الصّلاة» تمثل أداة ردع لتلك الأخلاق المنحرفة، في دائرة السلوك، لأن الأذكار والأدعية، تعمل على تهذيب النفس، وترويضها وتطويعها في طريق الخير والصّلاح، وحالة القرب من الباري تعالى، هذه هي التي تتولى إبعاد الإنسان عن منبع الشرّ والرذيلة، الذي هو عبارة عن هوى النفس وحب الدنيا، من خلال الإنفتاح على آفاق الملكوت، لتعرف نفسه من أنوار القدس، وترتفع به إلى عالم الخلود والكمال المطلق. فالمصلّي الحقيقي سيتعد عن الفحشاء والمنكر لا محالة، لأن الصّلاة والعبادَة تصون النفس من المنكرات، وتحوّل دون إختراق الرذائل للنفس الإنسانية، وتعمل على تفعيل عناصر الخير، في أعماق الوجدان. وتحدثت «الآية الرابعة» عن حالة الجزع والبخل، اللذان هما من السجاي الوضعية في واقع الإنسان، وخصوصاً الجزع في حالة سيطرة المشكلات والشرور، والبخل في حالة إنفتاح أبواب الثراء أمام الإنسان، وإستثت الآية المصلين، وقالت: «إِنَّ

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا \* إِلَّا الْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ ذَائِعُونَ». فهذه الآيات الكريمة، تبين لنا بصورة جيدة، أن التوجه لله تعالى، والسَّير في خطَّ العبادة والدُّعاء والمناجات، له دور هام في محو الرذائل الأخلاقية، من قبيل البخل والجزع من واقع النفس. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٠ و تشير «الآية الخامسة»، إلى تطهير النفس، بواسطة «الزكاة»، والتي بدورها تُعتبر، من العبادات الإسلامية المهمة، في ديننا الحنيف، فتقول: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا». و جُملة: «تُزَكِّيهِمْ بِهَا»، هي دليل واضح على هذه الحقيقة، وهي أن الزكاة تعمل على تطهير النفس، من البخل والحِرص و حُبِّ الدنيا، وتزرع في نفسه صفة الكرم، و حبَّ الخير للناس، وتثير في نفسه الحركة، على مستوى حماية الفقراء والمحتاجين. و ما ورد من روايات في هذا الصدد، تبين هذه الحقيقة أيضاً، ومنها الحديث النبوي الشريف: «ما تصدَّق أحدكم بصدقَةٍ من طيبٍ - ولا يقبل الله إلا الطيبَ-، إلا أخذها الرَّحمانُ بيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمَرَةً فَتَرْتُبُو مِنْ كَفِّ الرَّحْمَانِ فِي الْجَنَانِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ» (١). هذا الحديث الشريف يبيِّن تلك العلاقة الوثيقة المباشرة، بين هذه العبادة المهمة و بين توطيد العلاقة مع الله تعالى، و تفعيل الحالات المعنوية في واقع الإنسان ومحتواه الداخلي. و تتحرك «الآية السادسة»، من موقع الإشارة إلى عبادة مهمَّة اخرى و هي عبادة: «الذكر»، لله تعالى، و ما لها من دور في بعث الطمأنينة، في واقع الرُّوح فتقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فالطمأنينة تقترن دائماً مع التوكل على الباري تعالى؛ و عدم الوقوع في أسر الماديَّات والامور الدنيويَّة، من الإنخداع بِيريق الدنيا، والطَّمع و البخل و الحسد و ما شابها من الامور، فَمَع وجود هذه الحالات السيئة في واقع النفس، فسوف لن يذوق الإنسان معها الرَّاحة و الطمأنينة. و عليه، فإن ذكر الله تعالى بإمكانه إزالة هذه الصِّفات السَّلبية عن القلب، و تطهير النفس منها لِتَهْيَأ الأَرْضِيَّة المساعدة، في تَفَتِّح براعم السِّكينة و الطمأنينة في واقع القلب و الرُّوح. أو بتعبير أدق، إنَّ جميع الاضطرابات الرُّوحية، و أشكال القلق النَّفسي، في واقع الذات الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩١ البشريَّة، ناشئة من هذه الرذائل الأخلاقية، وستزول وتقلع جذورها بذكر الله، الذي يعمل على تسكين روح الإنسان، و تخفيف مصادر القلق هذه، لِتَحُل محلَّها السِّكينة والهدوء النَّفسي (١). و أخيراً تناولت «الآية السابعة»، دور الصَّلاة و الصَّيام في رفع المعنويات، و تقوية عناصر الخير في وجدان الإنسان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ». و قد فسَّرت بعض الروايات الإسلامية الصَّبر بالصَّيام (٢)، من حيث كون الصَّوم أحد المصايد البارزة للصَّبر، و إلابالصَّبر له مفهومٌ وسَّعٌ يشمل كلَّ أنواع المُقاومة، و التَّحدى للأهواء النَّفسانية و الوسوس الشيطانية، في طريق طاعة الله تعالى، وكذلك تَسْتَوْعِب الآيَة حالة الصَّبر على المصائب و المحن، التي تصيب الإنسان في حركة الواقع. و قد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه كلما أهمَّه شيءٌ إندفع مُسرِعاً نحو الصَّلاة، وبعدها يتلو هذه الآية ثلاث مرَّاتٍ: «كَانَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَحَالَهُ أَمْرٌ فَزِعَ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: «و اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (٣). نعم فإنَّ العبادة ترسخ في النَّفس محاسنها، و تصقلها و تعمل على تفعيل عناصر الخير فيها، من: التَّوَكُّل و الشَّهامة و الصَّبر و الإستقامة، و تستأصل الرذائل الأخلاقية من قبيل: الجبن و الشُّك و الاضطراب و التَّوتر النَّاشيء من حالات الصَّراع، و حبِّ الدنيا وتزيحها عن واقع النَّفس، و بهذا تحيي العبادة في واقع النَّفس، شطراً مُهمَّاً من الفضائل الأخلاقية، وكذلك تقوم بإلغاء الكثير من عناصر الشُّر، و قوى الإنحراف و الرذيلة من وجود الإنسان.

### النتيجة:

نستنتج ممَّا ذكر آنفاً: أن العبادة لها دورها الفاعل، والعميق في تهذيب الأخلاق، و يمكن تلخيص هذا المعنى في عدَّة نقاط: ١- إنَّ التوجه للمبدأ، والإحساس بحضور الله تعالى، مع الإنسان في كلِّ وقتٍ و مكانٍ، يدفع الإنسان نحو المزيد من مراقبة أعماله وحركاته وسكناته، و يُساعده على السَّيطرة على ميوله الدَّاتية، و أهوائه النَّفسيَّة، لأنَّ العالم محضر الله، والمعصية في حال الحضور، تمثِّل الإنحراف عن خطِّ الحقِّ، و بالتالي فهي عين الوقوع في لُجَّة الكُفْران للنعمه. ٢- إنَّ التوجه لصفات جلاله و جماله، التي وردت في

العبادات والأدعية، يثير في نفس الإنسان حالةً من لزوم الإقتباس، من تلك الأنوار القدسيّة، ويعيشها في واقعه الروحي، ليسير في طريق التكامل الأخلاقي. ٣- التوجه للمعاد والمحكمة الإلهية العظيمة في يوم القيامة، يمثل أداةً فاعلةً لتطهير و تركية النفس، خوفاً من العقاب والحساب في غد. ٤- العبادة والدعاء، تضيء على الإنسان هالات من النور لا توصف، فلا تستطيع معها ظلمات الرذيلة أن تقف أمامها، فيحس الإنسان بالقرب الإلهي، و صفاء الضمير بعد كل عبادة، شريطة أن تكون مقرونة بحضور القلب. ٥- إن مضامين العبادات والأدعية، غنيّة جداً بالتعاليم والآداب الأخلاقية، فهي ترسم الطريق للسالك نحو الله تعالى، و هي في الحقيقة دروس قيمة، توصل الإنسان السالك لهدفه السامي، من أقصر طريق، و بدون العبادة والمناجاة، و خاصةً في حالات الخلو مع الله، تعالى و لا سيما في وقت السحر، فسوف لن يصل الإنسان إلى غايته المنشودة.

### تأثير العبادة في صفل الروح في الروايات الإسلامية:

لهذه المسألة، صدأً واسعاً في الروايات الإسلامية، و نشير إلى بعض منها، تاركين التفاصيل الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٣ إلى البحوث الموسّعة: ١- أشارت جميع الروايات الإسلامية، التي تناولت فلسفة الأحكام، إلى دور العبادة في تهذيب النفوس و صفاء القلوب، فقال الإمام علي عليه السلام، في قصار كلماته: «فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشَّرِكِ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ وَالزَّكَاةَ تَسْبِيهاً لِلرِّزْقِ وَالصِّيَامَ إِبْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ». و ورد نفس هذا المعنى، مع اختلاف بسيط في خطبة الزهراء عليها السلام فإنها تقول: «فَجَعَلَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشَّرِكِ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ وَالزَّكَاةَ تَرْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَمَاءً فِي الرِّزْقِ وَالصِّيَامَ تَثْبِيهاً لِلْإِخْلَاصِ» (٢). ٢- و يشبه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الصلوة بنهر جارى، يتولى تطهير البدن كل يوم خمس مرات، حيث يقول: «إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ فِيكُمْ كَمَثَلِ السَّرِيِّ - وَهُوَ النَّهْرُ - عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ حَمْسُ مَرَاتٍ، فَلَا يَبْقَى الدَّرَنُ عَلَى الْغَسْلِ حَمْسُ مَرَاتٍ، وَلَمْ تَبْقَ الدُّنُوبُ عَلَى الصَّلَاةِ حَمْسُ مَرَاتٍ» (٣). و عليه فقد ذكرت هذه الروايات، لكل عبادة: دوراً خاصاً في عملية تهذيب النفوس الإنسانية. ٣- و ورد في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام، يشرح فيه السبب، الذي شرع الله تعالى بسببه العبادة، فيقول: «فَإِنْ قَالَ فَلِمَ تَعْبُدُهُمْ؟ قِيلَ لِئَلَّا يَكُونُوا نَاسِيْنَ لِذِكْرِهِ وَلَا تَارِكِيْنَ لِأَدْبِهِ وَلَا لَاهِيْنَ عَنِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ إِذَا كَانَ فِيهِ صِيحَابٌ لَاحِظُهُمْ وَقَوْمُهُمْ، فَلَوْ تَرَكُوا بَغِيْرَ تَعْبُدٍ لَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمِيْدُ فَفَسَسَتْ قُلُوبُهُمْ» (٤). فيتضح من ذلك أن العبادة، تجلو القلب و تبلور الروح و تحث على ذكر الله تعالى، الذي هو الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٤ مدعاة لإصلاح الظاهر والباطن. ٤- و ورد في حديث آخر، عن الإمام الرضا عليه السلام، و في معرض حديثه لإحصاء فوائد الصلوة، أنه قال: «مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِيجَابِ وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِئَلَّا يَنْسِيَ الْعَبْدُ سَيِّدَهُ وَمُدْبِرَهُ وَخَالِقَهُ، فَيَبْطُرَ وَيَطْغَى وَيَكُونَ فِي ذِكْرِهِ لَرْبِهِ وَقِيَامِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ زَاجِراً لَهُ عَنِ الْمَعَاصِي وَمَانِعاً لَهُ عَنِ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ» (١). ٥- و ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، في دور الصلوة و ميزان قبولها، أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ قُبُلَتُ صَلَاتِهِ أَمْ لَمْ تُقْبَلْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَيَقْدَرِ مَا مَنَعَتْهُ قُبُلَتُ» (٢). فهذا الحديث يبين بوضوح، أن صلوة الصلوة و قبولها، لها علاقة طردية بالأخلاق و الدعوة إلى الخير و ترك الشر، و من لم تؤثر صلواته، في تفعيل عناصر الخير و الصلاح في وجدانه، فعليه أن يعيد النظر فيها حتماً، لأنها وإن كانت مسقطه للتكليف، إلا أنها غير مقبولة لدى الباري تعالى. ٦- و في فلسفة الصيام، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إِنَّ الصَّوْمَ يُمِيتُ مُرَادَ النَّفْسِ وَشَهْوَةَ الطَّبْعِ الْحَيَوَانِي، وَفِيهِ صِيحَابُ الْقَلْبِ وَطَهَارَةُ الْجَوَاحِرِ وَعِمَارَةُ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعَمِ، وَالإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ، وَزِيَادَةُ التَّصَرُّعِ وَالْحُشُوعِ، وَالبُكَاءِ وَجَعَلَ الْإِتِّجَاءَ إِلَى اللَّهِ، وَسَبَبَ إِنْكَسَارِ الْهَيْمَةِ، وَتَخْفِيفِ السَّيِّئَاتِ، وَتَضْعِيفِ الْحَسَنَاتِ وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يُحْصَى» (٣). فقد ذكر هذا الحديث الشريف، أربعة عشر صفة إيجابية للصوم في واقع النفس، و هي مجموعة من الفضائل والأفعال الأخلاقية، تصعد بالإنسان في مدارج الكمال المعنوي و الإلهي. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٥ ٧- و نختم هذا البحث الواسع، بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «دَوَامُ الْعِبَادَةِ بُرْهَانُ الظَّفَرِ بِالسَّعَادَةِ» (١). و من أراد التفصيل أكثر فليراجع: «وسائل الشيعة»، الأبواب الاولى من العبادات، و كذلك ما ورد

فى: «بحار الأنوار». نعم فإن كل من يطلب السعادة، عليه أن يتحرك بإتجاه توثيق العلاقة مع الله تعالى، من موقع الدعاء و العبادة.

### النتيجة:

نستنتج من هذه الروايات الشريفة التي أوردناها، و الأخرى التي أعرضنا عنها للإختصار، أن علاقة العبادة بصفاء الروح، و تهذيب النفوس، و تفعيل القيم الأخلاقية فى واقع الإنسان، علاقةً طرديةً، و كلما تحرك الإنسان فى عبادته، من موقع الإخلاص لله تعالى، كان أثرها فى نفسه أقوى و أشد. و هذا الأمر محسوس جدًّا، فالمخلص الذى يؤدى عبادته بحضور قلب، فإنه يحس بالتور و الصفاء فى قلبه، و الميل إلى الخير و التزوع عن الشر، و يجد فى روحه العبوديةً و الخشوع و الخضوع الحقيقى، بإتجاه خالقه و بارئه. و هذا الأخير فى الحقيقة هو العامل المشترك بين جميع العبادات، و إن كان لكل منها تأثير خاص على النفس، فالصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر، و الصيام يقوى الإرادة و ينشط العقل، لىسيطر على جميع نوازع النفس، و الحج يمنح الإنسان بُعداً معنوياً، يجعله بعيداً عن زخارف الدنيا و زبرجها، و الزكاة تقمع البخل فى واقع النفس، و تقضى على أشكال الطمع و الحرص على الدنيا. و ذكر الله يهدى الروح، و يمنحها الطمأنينة و الراحة، و كل ذكر من الأذكار، تتجلى فيه الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٩٦ صفةً من صفات جلاله و جماله سبحانه و تعالى، التى تتولى ترغيب الإنسان فى السلوك إلى الله، و الإنسجام مع خط الرسالة. و عليه فإن الشخص الذى يؤدى العبادة على أتم وجه، سينتفع من فوائدها فى دائرة المعطيات العامة، و كذلك تمنحه العبادات آثارها الإيجابية الخاصة، بما يحقق له بلورة فضائله الأخلاقية، و ملكاته النفسانية فى واقع وجوده، فالعبادة تشكل الخطوة و الحجر الأساس، لبناء النفس، فى خط التقوى و الإيمان، و الإفتتاح على الله، شريطة الانس بمثل هذه المعانى الروحية، و التعرف على فلسفة العبادة، فلا ينبغى أن نقنع بالمحافظة على قوى الجسم وحده، و لأهمية مبحث الذكر خصصنا له بحثاً مستقلاً عن باقى البحوث.

### ذكر الله و تربية الروح:

أعطى علماء الأخلاق، الأهمية القصوى للذكر، و ذلك تبعاً لما ورد، فى الروايات الإسلامية و القرآن الكريم، و اعتبروه من العناصر المهمة فى خط العبادة، و تطهير النفس و تهذيبها، و ذكروا لكل مرحلة من مراحل السير و السلوك، الذكر الخاص بها. فمثلاً فى مرحلة التوبة، ينبغى للسالك فى طريق الحق، الإهتمام بذكر: «ياغفار»، و فى مرحلة محاسبة النفس: «ياحسيب»، و فى مرحلة إستنزال الرحمة: «يا رحمان» و «يا رحيم» ... و هلم جراً. و هذه الأذكار تتناسب و حالات الإنسان، و السلوك الذى يسلكه الإنسان فى خط الإستقامة، و الإلتزام بها على كل حال حسن، و لا تختص بعنوان: قصد الورد إلى ساحة الرحمة الإلهية. نعم فإن ذكر الله تعالى، من أكبر العبادات و أفضل الحسنات، فى عملية التصدى للتحديات النفسية الصعبة، و تحقيق الصيانة من الوسوس الشيطانية. ذكر الله، يخرق حجب الأنانية و الغرور و التواضع النفسانية، التى تعد من أقوى العوامل، لهدم سعادة الإنسان، و يمنح الإنسان وعياً فى أجواء السلوك إلى الله تعالى، من الأخطار التى الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٩٧ تهدد سعادته، و يرسم له معالم مسيرته فى حركة الحياة و الواقع. ذكر الله تعالى: هو المطر الذى ينزل على أرض القلب، لىسقى بذور التقوى و الفضيلة، و يعمل على تقويتها و تنميتها. و الحقيقة أن المحاولة للإحاطة بعظمة هذه العبادة، و إحصاء معطياتها على مستوى تهذيب النفس، لا تفى بالغرض، و لا تحيط بأهميتها فى خط السلوك المعنوى للإنسان. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، لنستوحى من آياته، أهمية ذكر الله تعالى: ١- «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (١). ٢- «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» (٢). ٣- «إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى» (٣). ٤- «إِذْ هَبْنَا نُبَّتِي وَ لَا تَنبِيَا فِى ذِكْرِى» (٤). ٥- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» (٥). ٦- «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (٦). ٧- «فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» (٧). ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* هُوَ الَّذِي يُصَيِّبُ لِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» (٨). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٨ ٩- «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَعْضَاءَ فِي الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ» (١). ١٠- «رِجَالٌ لَاتُلهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» (٢).

### تفسير و إستنتاج:

«الآية الاولى»: تطرقت للحديث عن دور ذكر الله تعالى، في خلق حالة الطمأنينة في القلوب؛ لتتولى إنقاذ الإنسان من حالات الزلل و التوتر، وتوجهه فيها إلى تحقيق الفضائل الأخلاقية في واقع النفس، فيقول تعالى «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ». ثم يبين قاعدة كلية، تقول: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فما يجول في خاطر الإنسان و خُلده، من الحزن من المستقبل و التفكير بالرزق، و الموت و الحياة و المرض و ما شابهها من امور الدنيا، كلها تدفع الإنسان للتفكير الجاد في مصيره، وتسلب منه الراحة النفسية، و تورثه القلق الحقيقي نحو المستقبل المجهول. و كذلك عناصر: البخل و الطمع، و الحرص، هي أيضاً من الامور التي تزرع القلق و التوتر في نفس الإنسان، ولكن عندما يتجسد ذكر الله الكريم، الغنى القوي، الرحمن الرحيم، الرزاق في وعى الإنسان، ويعيش الإيمان بأن الله تعالى، هو الواهب و المانع الحقيقي، فعندما تتجسد هذه المعاني و المفاهيم، و تتفاعل مع بعضها في واقع الإنسان في حركة الحياة، فسوف يعيش الإطمئنان، و السكينة أمام تحديات الواقع، فكل شيء يراه مسيراً لقدرة الله تعالى و إرادته المطلقة، و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. و بهذا سيطمن الإنسان، و يسلم أمره إلى بارئه، و سترزع في نفسه حالة التقوى و حب الفضائل، و هو ما نقرأه في الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً \* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَادْخُلِي جَنَّتِي» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٢٩٩ و تحركت «الآية الثانية»، بعد ذكرها لمعطيات الصلوة، على مستوى النهي عن الفحشاء و المنكر: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»، إلى تقرير هذه الحقيقة و هي: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ». نعم، فإن ذكر الله هو روح الصلوة، و الروح أشرف شيء في عالم الوجود، فإذا ما منعت الصلوة عن الفحشاء و المنكر، فإنما ذلك بسبب تضمنها لذكر الله، لأن ذكر الله هو الذي يذكر الإنسان بالنعم، التي غرق بها الإنسان في واقع الحياة، و تذكر نعم الله، بدوره يمنع الإنسان من العصيان و الطغيان، و سيخجل من إرتكاب الذنوب، هذا من جهة. و من جهة أخرى، سيدعو الإنسان للتفكير بيوم القيامة، الذي لا ينفع فيه مالٌ و لا بنون، و يوم تنشر الصلح و تطاير الكتب، و يعيش المسيئون الفضيحة و العار، في إنتظار ملائكة العذاب التي تأخذهم إلى الجحيم، و يكتب الفوز و النصر للمحسنين، و سيكون في إستقبالهم ملائكة الرحمة الذين يقولون لهم، ادخلوها بسلام آمين، فذكر هذه الامور، و تجسيدها في وعى الإنسان، سيدفع إلى التوجه نحو الفضائل، و يمنعه من ممارسة الرذيلة و الإثم. و قال بعض المفسرين، إن جملة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»، إشارة إلى أن ذكر الله تعالى، هو أسمى و أرقى العبادات، في مسيرة الإنسان المعنوية. و يوجد احتمال آخر، و هو أن المقصود من: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ»، هو ذكر الله لعبده، (و ذلك في مقابل ذكر العبد لله تعالى) (١). حيث يصعد ذكر الله تعالى به، إلى أسمى و أعلى درجات العبودية، في آفاقها الواسعة، و لا شيء أفضل من هذه الحالة المعنوية للإنسان، ولكن الإحتمال الأول، يتناسب مع معنى الآية أكثر. «الآية الثالثة»: ذكرت أول كلام لله تعالى، مع نبيه موسى عليه السلام، في وادي الطور الأيمن، في البقعة المباركة عند الشجرة، فسمع موسى عليه السلام النداء قائلاً: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٠ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي». و الحقيقة أن الآية ذكرت، أن الهدف و الفلسفة الأصلية للصلوة، هي ذكر الله تعالى، و ما ذلك إلا لأهمية الذكر، في حركة الإنسان المنفتحة على الله تعالى، و خصوصاً أنها ذكرت مسألة الصلوة، و ذكر الله بعد بحث التوحيد مباشرة. «الآية الرابعة» خاطبت الأخوين موسى و هارون عليهما السلام، من موقع نصبهما لمقام النبوة و السفارة الإلهية، و أمرتهما بمحاربة قوى الإنحراف و الزيف، و التصدي لفرعون و

أعوانه: «أذهب أنت وأخوك بآياتي ولآتيآ في ذكري». فالأمر بذكر الله تعالى و عدم التواني فيه، لوقوف بوجه طاغية: مثل فرعون، هو أمرٌ يحكى عن دور الذكر و أبعاده الوسيعة، و أهميته الكبيرة في عملية السلوك إلى الله تعالى، فذكر الله يمنح الإنسان عناصر القوة و الشجاعة، في عملية مواجهة التحديات الصعبة، للواقع المنحرف. و ورد في تفسير: «في ظلال القرآن»، في معرض تفسيره لهذه الآية، قوله: (إن الله تعالى أمر موسى و هارون عليهما السلام، أن اذكروني، فإن ذكري، هو سلاحكم و وسيلتكم للنجاة) (١). و بعض المفسيرين فسروا كلمة «الذكر»، الواردة في الآية، بإبلاغ الرسالة، و قال البعض الآخر، أنها مطلق الأمر بالذكر، و قال آخرون: إنها ذكر الله تعالى خاصة، و الحقيقة أنه لا- فرق بين التفسيرات الثلاثة، و يمكن أن تجتمع كلها في مفهوم الآية. و من المعلوم أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و لاجل أن يستمر في إبلاغ الرسالة، و التحرك في خط الطاعة و التصدي لقوى الباطل و الانحراف، عليه أن يستمد القوة و القدرة من ذكر الله تعالى، و التوجه إليه في واقع النفس و القلب. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠١ و تناولت «الآية الخامسة»، إفرات و نتائج، الإعراض عن ذكر الله تعالى في حركة الإنسان، قال تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . فعذابهم بالدنيا أنهم يعيشون ضنك العيش، و في الآخرة العمى، و فقد البصر! . فضنك العيش، ربما يكون بتضييق الرزق على من يعيش الغفلة عن ذكر الله تعالى، أو ربما بإلقاء الحرص على قلب الغنى، فيتحرك في تعامله مع الآخرين، من موقع الطمع و البخل، فلا- يكاد يُنْفِقُ درهماً في سبيل الله، ولا- يعين فقيراً ولو بشق تمر، فيكون مصداق حديث أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول: «يعيش في الدنيا عيش الفقراء و يحاسب في الآخرة حساب الأغنياء» (١). ففي الحقيقة أن أغلب الأغنياء و بسبب حرصهم الشديد على النفع المادي، يعيشون في حالة قلق دائمة، و لا ينتفعون من أموالهم بالقدر الكافي، و تكون عليهم حسرات في الدنيا و الآخرة. ولكن لماذا يحشر أعمى؟ و لربما لتشابه الأحداث هناك، مع الأحداث في الدنيا، فالغافل عن ذكر الله تعالى في الدنيا، و لإعراضه عن الحقيقة و آيات الله تعالى، و تجاهله لدواعي الحق و الخير في باطنه، فإنه لا يرى الحق بعين البصيرة، في حركة الحياة و الواقع، و لذلك سوف يحشر أعمى في عرصات القيامة.

### كيف يكون ذكر الله؟

فسرت الكثير من الروايات الإسلامية، ذكر البارى تعالى: «بالحج»، و ورد في البعض الآخر، أن الذكر هنا: بمعنى الولاية لأمر المؤمنين عليه السلام. و الحق أن الإثنين هما مصداقان من مصاديق ذكر الله تعالى، فالحج هو مجموعة من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٢ الأعمال و السلوكيات، تذكر بالله تعالى، و كذلك على عليه السلام، فذكره و النظر إليه عبادة، تعمق في الإنسان روح الإيمان، و تذكره بالله تعالى. «الآية السادسة»: خاطبت الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، من موقع النهي عن طاعة الأشخاص الذين يعيشون في غفلة، و حثته على معاشره الذين يذكرون ربهم، صباحاً و بالعداء و العشي، و لا يريدون إلا الله تعالى، فقال تعالى «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». و من المعلوم أن الله سبحانه و تعالى، ما كان ليعذب أحداً بالغفلة عن ذكره، بل لأن مثل هؤلاء الأشخاص، ينطلقون في تعاملهم مع الحق، من موقع العناد و التمرد و التكبر و التعصب للباطل. و بناءً عليه، فإن القصد من الإغفال هو سلب نعمة الذكر منه، ليلقى جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، و لهذا، فإن ذلك لا يستلزم الجبر. و لا نرى أحداً من هذه الجماعة، إلا متبعاً لهواه، متخذاً سبيل الإفراط و التفریط في كل فعالة، لذلك تعقب الآية قائلة: «وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». و يُستفاد من هذه الآية، أن الغفلة عن ذكر الله تعالى، تؤثر سلباً في أخلاق و روح الإنسان، و تؤدي به إلى وادى الأهواء، و تجره إلى منحدر الأنانية. نعم، فإن روح و قلب الإنسان، لا يسع إثنان، فإما «الله تعالى»، و إما «هوى النفس»، و لا يمكن الجمع بينهما. فالهوى هو مصدر الغفلة عن الله تعالى، و خلقه، و سيحق جميع القيم و الاصول الأخلاقية، و بالتالى فإن هوى النفس، يغرق الإنسان في عتمته ذاته الضيقة، و يعمي بصره عن كل شىء يدور حوله في واقع الحياة، و الإنسان الذى يتحرك من موقع الهوى، لا يرى إلا إشباع شهواته، الاخلاق في القرآن، ج ١، ص:



٣٠٣ ولا مفهوم عنده لمفاهيم أخلاقية، مثل: صلة الرحم و المروءة والإيثار. «الآية السابعة»: خاطبت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً، من موقع التحذير، عن مخالطة المعرض عن ذكر الله تعالى، فقالت: «فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا». في تفسير «ذكر الله»، قال البعض: أن المراد منها في هذه الآية، هو القرآن الكريم، وإعتبرها البعض الآخر، إشارةً للأدلة العقلية والمنطقية، وقال آخرون، أنها الإيمان، والظاهر أن ذكر الله تعالى، له مفهوم واسع يشمل كل ما ذكر آنفاً. وذكر آخرون، أن هذه الآية تدعو لترك جهاد هؤلاء، ولهذا السبب، نسخت آيات الجهاد التي نزلت بعدها، والحق أنه لا نسخ في التبيين، وكل ما في الأمر، أنها تمنع من مجالسة الغافلين عن ذكر الله تعالى، ولا منافاة بينها وبين مسألة الجهاد بشرائطها الخاصة. وأخيراً تبين هذه الآية، العلاقة والزبطة الوثيقة بين: «حب الدنيا» و «الغفلة عن ذكر الله»، فكما أن ذكر الله تعالى له خصائصه، ومعطياته الإيجابية على الإنسان، على مستوى تقوية عناصر الفضيلة و ترشيد القيم الأخلاقية، فكذلك الغفلة لها آثارها، و نتائجها السلبية على روح الإنسان، على مستوى تقوية عناصر الشر و الرذيلة فيها. «الآية الثامنة»: خاطبت جميع المؤمنين، ودعتهم إلى ذكر الله تعالى، و الخروج من دائرة الظلمات إلى دائرة النور، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا». و الجدير بالذكر في هذا الأمر، أن الآية الكريمة، بعد الأمر بالذكر الكثير، و التسيب له بكرةً و أصيلاً، تخبرنا عن أن الله تعالى، سيصلي هو و ملائكته علينا، و يخرجنا من الظلمات إلى النور، أليس ذلك هو هدفنا في حركة الحياة، أليس ذلك هو مُبتغانا من الالتزام في خط الرسالة، و كل ما نريده هو، أن الذكر و صلاة الرب و الملائكة علينا، سيزرع فينا روح التوفيق الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٤ للطاعة و التبرير في طريق الخير، و يقلع من واقعنا بذور الشر، و جذور الفساد، و لتحل محلها عناصر الفضيلة و التسك و الأخلاق الحميدة؟! و قد ورد في تفسير الميزان، أن ذيل الآية الكريمة، هو بمنزلة التبيين لعل الأمر، ب: «الذكر الكثير»، و هو يؤيد ما أشرنا إليه آنفاً (١). و قد وردت تفاسير مختلفة، و آراء متغايرة لعبارة: «الذكر الكثير»، فقال بعضهم، أن لا ينسى الله تعالى في كل وقت و مكان. و قال بعض آخر أنه الذكر و التسيب، بأسماء و صفات الله الحسنى. و ذكرت روايات اخرى، أن المقصود به، هو التسيب الأربعة، أو تسيب الزهراء عليها السلام. و قال ابن عباس: كل أوامر الله تعالى تنتهي إلى غاية ما، إلا الذكر فلا حد له أبداً، و لا عُذر لتاركه أبداً. و على كل حال، فإن «الذكر الكثير»، له مفهوم واسع، و يمكن أن يجمع بين طياته كل ما ذكر آنفاً. أما ما ذكر من، «الظلمات» و «النور» في هذه الآية، فما المقصود منه؟. اختلفوا في تفسيرها أيضاً، فقال البعض أنها الخروج من ظلمات الكفر إلى الإيمان، و قال الآخرون، أنها الخروج من ظلمات عالم المادة، إلى نور الأجواء المعنوية و الروحانية، و قال بعض آخر، إنها الخروج من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، و لا تنافي في التبين هنا. إضافةً إلى أنها، تشمل الخروج من ظلمات الرذائل الأخلاقية إلى نور فضائلها، و هي أهم معطيات ذكر الله جل شأنه. «الآية التاسعة»: حذرت المؤمنين من نتائج مُعاقرة الخمر و القمار، فقال تعالى «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِّدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ». فذكرت هذه الآية، ثلاثة مفسدات لشرب الخمر و المقامرة: إيقاع العداوة بين الناس، و الردع و الصد عن ذكر الله، و عن الصلاة، و يستفاد من ذلك أن الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٥ ذكر الله، كالصلاة و المحبة بين الناس، أمرٌ ضروري و حياتي للإنسان في واقعه النفسى، و الحرمان منه، يعتبر خسارةً كبرى لا تُعوض. بالإضافة إلى أنه يستفاد من جو الآية، وجود علاقة بين: «الغفلة عن ذكر الله، و الصلاة»، و «ظهور العداوة و الشحنة و المفسدات الأخلاقية الأخرى»، و هذا هو بيت القصيد، و ما تُريد التوصل إليه. و في «الآية العاشرة»: و الأخيرة، إشارةً إلى رجال، أحاطهم الله تعالى بأنوار قُدسه، في بيوت ليس فيها إلا ذكره و تسيبُه و التقديس له، و هي الآية: (٣٦ و ٣٧) من سورة النور، فقالت: «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...». و بناءً عليه، فإن أول خصوصيات الرجال الإلهيين: هو المُداومة على ذكر الله في أى وقت و في كل مكان، حيث لا تغرهم الدنيا، بغرورها و زخارفها و ملاهيها الجميلة الخداعة، و هو أسمى إفتخار يعيشونه في واقعهم. ثم تذكر الآية، خصوصيات اخرى، لهؤلاء المؤمنين في دائرة السلوك الدينى، من قبيل إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة.

## النتيجة:

نستنتج ممّا ذكر آنفاً من الآيات الكريمة، والآيات الاخرى التي لم نذكرها تجنباً للأطالء، أن ذكر الله تعالى يورث الإنسان إطمئنان القلب، وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويؤود النفس بالقدره والقوة اللازمة، في مقابل التحديات الصعبة للعدو الداخلي والخارجي، ويميت الرذائل الأخلاقية في قلب الإنسان، كالحرص والبخل وحب الدنيا، الذي هو رأس كل خطيئة. فلا ينبغي للسائر في خط التقوى والإيمان، أن يغفل عن هذا السلاح الفعال، فهو الدرع الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٦ الحصين لكل من يريد أن يتحرك، على مستوى تهذيب النفس وتربية عناصر الفضيلة فيها، وهو السد المنيع للمؤمنين، مقابل قوى الشر والانحراف، و سلاحهم الذي يمدّهم بالقوة والعزيمة، في مقابل الأعداء، والأخطار التي تحدد بهم في هذه الدنيا، المليئة بالوحوش الضارية الكاسرة، التي لا تعرف الرحمة والشفقة، وليكن ذكركم لله كذكرهم لأنفسهم، بل أشد وأقوى.

## علاقة ذكر الله، بتهذيب النفوس في الأحاديث الإسلامية:

## إشارة

إن إستعراض الكلام، عن أهميّة ذكر الله في الأحاديث الإسلامية، لا يتسع له هذا المختصر، و ما نبتغيه في هذا المجال، هو أن ذكر الله، يعدّ من العوامل المهمّة في تهذيب النفوس و تشذيب الأخلاق و بناء الروح، و قد أغنتنا الروايات في هذا المجال، و ما ورد عن المعصومين الأربعة عشر، إلى ما شاء الله، ولكننا نختار منها ما يلي: ١- نقرأ في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «مَنْ عَمَرَ قَلْبَهُ بِدَوَامِ الذِّكْرِ حَسِبَتْ أَعْمَالُهُ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ» (١). فقد بين الحديث الشريف، هذه العلاقة و الرابطة بوضوح تام. ٢- نقرأ في حديث آخر عن الإمام عليه السلام نفسه، حيث قال: «مُدَاوِمَةُ الذِّكْرِ قُوَّةُ الْأَرْوَاحِ وَمِفْتَاحُ الصَّلَاحِ» (٢). ٣- و عنه عليه السلام أيضاً، قال: «أصل صلاح القلب إستغاله بذكر الله» (٣). ٤- و أيضاً في حديث آخر عنه عليه السلام، قال: «ذَكَرَ اللَّهُ دَوَاءً أَعْلَلِ النَّفْسَ» (٤). ٥- و عنه عليه السلام، قال: «ذَكَرَ اللَّهُ رَأْسَ مَالِ مُؤْمِنٍ، وَرَبِجُهُ السَّلَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٧ ٦- و أيضاً عن هذا الإمام الهمام عليه السلام، أنّه قال: «الذِّكْرُ جَلَاءُ الْبَصَائِرِ وَنُورُ السَّرَائِرِ» (٦). ٧- و أيضاً عن إمام المتقين عليه السلام، قال: «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَحْيَى قَلْبَهُ وَنَوَّرَ عَقْلَهُ وَكَبَّرَهُ» (٢). ٨- و أيضاً عن الإمام نفسه عليه السلام، أنّه قال: «إِسْتِدْيَمُوا الذِّكْرَ فَإِنَّهُ يُبَيِّرُ الْقَلْبَ وَهُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ» (٣). ٩- و ورد في «مِيزَانِ الْحِكْمَةِ»، عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا خَالِصًا، تَحْيُوا بِهِ أَفْضَلَ الْحَيَاةِ وَتَسْلُكُوا بِهِ طُرُقَ النَّجَاةِ» (٤). ١٠- و ورد عن الإمام على عليه السلام في نهج البلاغة، في وصيته المعروفة لابنه الإمام الحسن عليه السلام، أنّه قال: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ يَا بَنِيَّ! وَتُرُومِ أَمْرِهِ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ». ١١- و ورد في غرر الحكم، عن مولى الموحدين أمير المؤمنين على عليه السلام، قال: «ذَكَرَ اللَّهُ مَطْرَدَةً لِلشَّيْطَانِ». ١٢- وَلِحَسَنِ الْخِتَامِ، نَخْتَمُ هَذَا الْبَحْثَ بِحَدِيثٍ عَنِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ رَوَايَاتٌ وَأَفْرَادٌ لَا يَسَعُهَا هَذَا الْمَخْتَصَرُ، قَالَ: «ذَكَرَ اللَّهُ شِفَاءً الْقُلُوبِ» (٦). و نستلهم ممّا ذكر آنفاً، أن ذكر الله تعالى، له علاقة وثيقة وقريبة جداً بتهذيب النفوس، فهو ينور القلب، و يجلو الروح من عناصر الكبر و الغرور و البخل و الحسد، و الأهم من ذلك أنّه يطرد الشيطان الرجيم، من واقع الإنسان الداخلي، و يعيد للنفس ثقتها. و على حدّ تعبير بعض العلماء الأكارم، أنّ القلب لا يخلو من أمرين، لا يجتمعان في مكان واحد، فإمّا أن يتجه لذكر الله سبحانه و تعالى و يغذيه بنوره و يطرد منه الظلمات و الشيطان، و إمّا أن يكون مرتعاً و ملجأً للشيطان الرجيم و وساوسه، يوجهه حيث يشاء. و من جهة أخرى، فإنّ الدّات المقدسة هي مصدر لكلّ الكمالات، و ذكر الله تعالى يؤدّي الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٠٨ إلى أنّ الإنسان يقترب من ذلك المصدر في كلّ يوم، و بالتالي يتحرك في طريق الإبتعاد عن الرذائل الأخلاقية و الأهواء النفسانية، التي تنبع من

التقص المعنوي في واقع النفس. و بناءً على ذلك يجب الإستعانة بهذا السلاح الماضي، و النور المخترق للظلمات، ليعبر من متاهات هذا الطريق الموحش المُظلم، المحفوف بالأخطار الجسيمة، إلى جادة السلام، و الكمال الإلهي في عالم النفس، مما يورث إستقرارها و إتصالها ببارئها. و نُكَمِّل بحثنا بثلاث نقاطٍ، و ملاحظاتٍ، لا تخلو من فائدة:

## ١- ما هي حقيقة الذكر

يقول «الزَّاعِب» في كتاب «المُفردات»: إنَّ الذِّكْرَ له مَعْنَيانِ، فمَرَّةً حُضُورُ الشَّيْءِ فِي الذَّهْنِ، وَ مَرَّةً بِمَعْنَى حِفْظِ الْمَعَارِفِ وَ الْإِعْتِقَادَاتِ الْحَقِّقَةِ فِي بَاطِنِ الرُّوحِ. وَ قَالَ الْأَعْظَمُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ: «إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى»، لَيْسَ هُوَ لِقَلْقَسُهُ لِلسَّانِ، أَوْ مَجْرَدُ التَّسْبِيحِ وَ التَّحْمِيدِ وَ التَّهْلِيلِ وَ التَّكْبِيرِ، فِي دَائِرَةِ الْأَلْفَاظِ وَ الْكَلِمَاتِ، بَلْ هُوَ التَّوَجُّهُ الْحَقِيقِيُّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَ الْإِذْعَانُ لِقُدْرَتِهِ وَ الْإِحْسَاسُ بِوُجُودِهِ أَيْنَمَا كُنَّا. وَ لَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الذِّكْرِ هُوَ الْمَطْلُوبُ، وَ هُوَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى وَ الدَّافِعُ لِلِإِتِّجَاهِ نَحْوَ الْحَسَنَاتِ، وَ الْإِعْرَاضِ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ الْقَبَائِحِ. وَ لِذَلِكَ نَقَرُّ عَنْ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فِي حَدِيثٍ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ: «وَلَيْسَ هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اللَّهُ أَكْبَرُ، وَ لَكِنْ إِذَا وَرَدَ عَلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ، خَافَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ وَ تَرَكَهُ» (١). وَ نَقَلَ مَا يَقْرَبُ لِهَذَا الْمَعْنَى فِي حَدِيثٍ عَنِ الْإِمَامِينَ: الصَّادِقِ وَ الْبَاقِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (٢). وَ نَقَلَ حَدِيثَ آخَرَ عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: «الذِّكْرُ ذِكْرَانِ: ذِكْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، حَسَنٌ جَمِيلٌ وَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ حَاجِزًا» (٣). الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٣٠٩ وَ نَسْتَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ الذِّكْرَ الْحَقِيقِيَّ، هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي يَتْرَكَ أَثْرَهُ الْإِيجَابِيَّ فِي أَعْمَاقِ رُوحِ الْإِنْسَانِ، وَ يَفْعَلُ إِتِّجَاهَاتِهِ الْفِكْرِيَّةَ وَ الْعَمَلِيَّةَ فِي خَطِّ التَّقْوَى وَ الْإِلْتِمَازِ الدِّينِيِّ، وَ يَرْبِي فِي النَّفْسِ وَ الرُّوحِ، عُنَاصِرَ الْخَيْرِ وَ الصَّيْلَاحِ، وَ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. وَ مِنْ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَسْتَوَى اللِّسَانِ، وَ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ عَلَى مَسْتَوَى الْمُمَارَسَةِ وَ الْعَمَلِ، فَهُوَ لَيْسَ بِذَاكِرٍ حَقِيقِيٍّ، وَ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ مِنْ مَوْجِعِ الْإِخْلَاصِ، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ الذِّكْرُ وَلَمْ يَسْتَبِقْ إِلَى لِقَائِهِ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِنَفْسِهِ» (٤).

## ٢- مراتب الذكر

ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ، أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى مَرَاتِبٍ وَ مَرَاكِلٍ: الْمَرَحَلَةُ الْأُولَى: الذِّكْرُ اللَّفْظِيُّ، حَيْثُ يَجْرِي فِيهَا الْإِنْسَانُ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَى، وَ صِفَاتِ جَمَالِهِ وَ جَلَالِهِ، عَلَى لِسَانِهِ، مِنْ دُونِ التَّوَجُّهِ إِلَى مَعَانِيهَا وَ مُحْتَوَاهَا، كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَصْلُحِينَ الشَّاهِدِينَ فِي صَلَاتِهِمْ، وَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الذِّكْرِ، وَ لَهُ تَأْثِيرُهُ الْمَحْدُودُ عَلَى آفَاقِ النَّفْسِ وَ الْفِكْرِ! وَلَكِنْ لِمَاذَا؟. لِأَنَّهُ أَوْلَى: يُعْتَبَرُ مَقْدَمَةً لِلْمَرَاكِلِ التَّالِيَةِ. وَ ثَانِيًا: أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنَ التَّوَجُّهِ الْإِجْمَالِيِّ نَحْوَ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الْمَصْلُحِيَّ وَ عَلَى أَيْتِهِ حَالٍ، يَعْلَمُ أَنَّهُ يَصَلِّي وَ هُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَوَجَّهُ لِمَا يَقُولُ بِصُورَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الذِّكْرِ، لَا يُوَثِّرُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، عَلَى مَسْتَوَى تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَ تَرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِ. الْمَرَحَلَةُ الثَّانِيَّةُ: الذِّكْرُ الْمَعْنَوِيُّ، وَ هُوَ أَنْ يَلْتَفِتَ الْإِنْسَانُ لِمَعَانِي الْأَذْكَارِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ، وَ مِنْ الْبَدِيهِ أَنْ التَّوَجُّهُ لِمَعَانِي الْأَذْكَارِ، وَ خُصُوصِيَّةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، سَيَعْتَمِدُ الْإِمْتِدَادَ الْمَعْنَوِيَّ لِمُضَامِينِ الذِّكْرِ فِي وَاقِعِ الْإِنْسَانِ، وَ بِالِاسْتِمْرَارِ وَ الْمَدَاوِمَةِ سَيَحْسِسُ الذَّاكِرُ، بِمَعْطِيَّاتِ هَذَا الذِّكْرِ فِي نَفْسِهِ وَ رُوحِهِ. الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٣١٠ الْمَرَحَلَةُ الثَّلَاثَةُ: الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ، وَ قَالُوا فِي تَفْسِيرِهِ، إِنَّهُ الْإِحْسَاسُ الْوُجْدَانِيُّ بِحُضُورِ اللَّهِ تَعَالَى، فِي أَجْوَاءِ الْقَلْبِ، ثُمَّ جَرِيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى اللِّسَانِ، فَعِنْدَمَا يَرَى عَجَائِبَ خَلْقَتِهِ، وَ دَقَائِقَ صَنْعَتِهِ، مِنْ أَرْضٍ وَ سَمَاءٍ وَ مَخْلُوقَاتٍ، وَ مَا بَثَّ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ، سَيَقُولُ: «الْعَظْمَةُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». فَهَذَا الذِّكْرُ نَابِعٌ مِنَ الْقَلْبِ، وَ يَنْبِئُ عَنْ حَالِهِ بَاطِنِيَّةٍ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ. وَ مَرَّةً يَشْهَدُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، نَوْعًا مِنَ الْحُضُورِ الْمَعْنَوِيِّ لِلَّهِ تَعَالَى، مِنْ دُونِ وَاسِطَةٍ، فَيَتَرَنَّمُ بِأَذْكَارٍ، مِثْلَ «يَا سُبُّوحٌ وَ يَا قُدُّوسٌ» أَوْ «سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». وَ هَذَا الْأَذْكَارُ الْقَلْبِيَّةُ، لَهَا دَوْرُهَا الْفَاعِلُ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ

وتربية الفضائل الأخلاقية، كما عاشت الملائكة هذا النوع من الذكر، عندما شاهدوا آدم عليه السلام، وسَمِعَهُ علمه و إطلاعاه على الأسماء الإلهية، فقالوا: «سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (١). وأشار القرآن الكريم، إلى مراحل من الذكر، فقال: «وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» (٢). و في مكانٍ آخر، يقول: «وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْعُدُوِّ وَالْإِصْطِاقِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ» (٣). ففي الآية الأولى، نجد تقريراً على مستوى التوجه للذكر اللفظي العميق، ثم التبتل و الإنقطاع إلى الله تعالى، أي: التحرك من موقع الإبتعاد عن الناس، و الإتصال بالله تعالى في خطّ العبادة و الذكر. و الآية الثانية: تتحدث عن الذكر القلبي، الذي يؤدي إلى أن يعيش الإنسان، حالة التضرع و الخوف من البارئ تعالى، في أجواء الذكر الخفي، فتتحرك عمليته الذكر بشكل بطيء من الباطن و تجري على اللسان.

### ٣- موانع الذكر

لا توجد موانع تقف في طريق الذكر اللفظي، فيمكن للإنسان أن يذكر أسماء و صفات الله الجمالية و الجلالية، و يجريها على لسانه في أي وقت شاء، إلا أن يكون الإنسان مُشغلاً و غارقاً في الدنيا، لدرجة لا يبقى وقتٌ للذكر اللفظي. أما الذكر القلبي و المعنوي، فتقف دونه موانع و سدودٌ كثيرة، أهمها ما يكمن في واقع الإنسان نفسه، فبالرغم من أن الله تبارك و تعالى، مع الإنسان في كل مكان و زمان، و أقرب إلينا من كل شيء: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١). أو كما ورد في الحديث العلوي المشهور: «ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله قبله وبعده و معه». ولكن مع ذلك، فإن كثيراً من أعمال الإنسان و صفاته الشيطانية، تضع الحُجب على عينه، فلا يحس بوجود الله تعالى أبداً، من موقع الحضور و الشهود القلبي، و كما يقول الإمام السجاد عليه السلام، في دعاء أبي حمزة الثمالي: «وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك»، و أهم تلك الحُجب، هي «الأنانية» التي تذهل الإنسان عن ذكر ربه. فالأناني لا يعيش مع الله تعالى من موقع الوضوح في الرؤية، لأن الأنانية من أنواع الشرك التي لا تتناسب مع حقيقة التوحيد! و نقرأ في حديث عن علي عليه السلام أنه قال: «كلُّ ما ألهى من ذكرِ الله فهو من إبليس» (٢). و في حديث آخر عن علي عليه السلام أنه قال: «كلُّ ما ألهى عن ذكرِ الله فهو من الميسر» (٣). و نعلم أن الميسر، جعل في القرآن الكريم، رديفاً لعبادة الأوثان (٤). و نختم هذا الكلام عن موقع الذكر، بحديث عن الرسول الأكرم، و قد جاء في معرض تفسيره للآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا، لا تلهيكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكرِ الله، و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٢ من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون» (١). قال صلى الله عليه و آله: «هم عباد من أمتي، الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكرِ الله و عن الصلاة المفروضة الخمس» (٢). نعم فإنهم في كل حركاتهم و سكناتهم، يبتغون وجه الله تعالى، و لا غير.

### القُدوات في خط الاستقامة

#### إشارة:

كل إنسان يسعى للتغيير قُدماً، تبعاً للأسوة التي يتأسى بها، ليواكب معها و يعيش في رحابها، و في آفاقها الواسعة و لتنعكس صفاتها في نفسه و ذاته. و بعبارة أخرى، فإنه يوجد في قلب كل إنسان، مكاناً فارغاً لا يشغله إلا الأبطال و القُدوات و المُثل، و لهذا السبب فإن الأمم البشرية تفتخر بأبطالها الحقيقيين أو تخرع لنفسها أبطالاً من افق خيالها، بحيث تُشكل قسماً من ثقافة الأمم و الشعوب، و أنساقاً تحتية تبنى عليها تاريخها، تفتخر ببطلانهم و تشيد بهم في معطياتهم، و تسعى دائماً للاقتداء بهم في صفاتهم و بطولاتهم. علاوةً على أن (المحاكاة)، هي أصلٌ مُسَلَّم به، من الاصول النفسية في واقع الإنسان و حركته في الحياة، و طبقاً لهذا الأصل و الأساس، فإن الإنسان

يسعى ليصنع نفسه بصتة بغيره الآخرين، و يحاكيهم على مستوى الممارسة و السلوك، (خصوصاً الأبطال، و يجذب لأعمالهم وصفاتهم التي تمثل قيمة مطلقه في وعيه وثقافته. و هذا التأثير و التأثير و الجذب و الإنجذاب، بالنسبة إلى الأفراد الذين يؤمنون بالقُدوة و الرمز أقوى و أشد. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٤ و بناء على ذلك، نجد في الإسلام أصليين مهمين، في دائرة المفاهيم الدينيّة، باسم «التوّلى» و «التبّرى». أو بعبارة أخرى: «الحب في الله» و «البغض في الله»، وكلّ منهما، يحكى لنا عن حقيقة مهمّة في واقع الإنسان، و تماشياً مع هذا الأصل المهمّ في دائرة المعتقد، فإنّه يتوجب على الإنسان المسلم، أن يُحبّ من يحبّه الله، و يكره من يُبغضه الله تعالى، و أن يتّخذ من الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمّة المعصومين عليه السلام، أسوة له في حركته المنفتحة على الله و الحقّ. و هذا الأمر بدرجته من الأهمية، بحيث ورد في القرآن الكريم، أنّه من علامات الإيمان، و في الروايات الشريفة عرّف بأنّه: «أو ثق عرى الإيمان» و أنّ حركة الإنسان في خطّ الإيمان، لا تكون مثمرة بدون: «التوّلى» و «التبّرى»، و معه سوف تقبل منه سائر العبادات و الطاعات. و هذين الأمرين، يعنى التوّلى و التبّرى، أو الحب في الله و البغض في الله، هما من أهمّ الخطى المؤثّرة، على مستوى تهذيب النفوس و القلوب، و السّير إلى الله تعالى في خطّ الإستقامة. و على هذا الأساس، نرى أنّ كثيراً من علماء الأخلاق، و أرباب السّير و السّيلوك، يؤكّدون على ضرورة اتخاذا الاستاذ و المرشد في خطّ التّربية و التّهديب، و سنتناوله في المستقبل إن شاء الله تعالى، بصورة وافية. و الآن نرجع على الآيات القرآنية، لنستوحى منها ما يتعلق بمسألة التوّلى و التبّرى، و دورهما في صياغة السلوك الدّيني للإنسان: الآيات: ١- «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (١). ٢- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٣١٥ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ» (١). ٣- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (٢). ٤- «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣). ٥- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» (٤). ٦- «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٥). ٧- «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٦). ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» (٧).

### تفسير و إستنتاج:

يتّضح من آيات سورة الممتحنه، أنّ بعض المؤمنين السّذج، و خلافاً لأوامر الشريعة و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٦ تعليمات الإسلام، كانوا على علاقة سريّة بالأعداء. و قد جاء في شأن النزول للآيات الاولى من هذه السورة الشريفة، و قبل فتح مكة المشرفة أنّه كتب أحد الأشخاص، اسمه «حاطب بن أبي بلتعة»، لكفار قريش رسالة سلّمها بيد امرأة، اسمها «ساره»، حدّتهم فيها، من أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله، يعدّ العدة لفتح مكة، فعليهم أن يستعدّوا للقتال، فإنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قادم. حدث هذا الأمر، و الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، يتهيأ و يعدّ العدة، و هو يسعى حثيثاً لئلا يصل هذا الخبر إلى المشركين، حرصاً منه على أن لا تُراق في ذلك دماء كثيرة، و أن يتمّ الفتح بدون مقاومة، فأخذت هذه المرأة الرّسالة، و أخفتها في جدرانها، و تحرّكت مسرعة نحو مكة. فأخبر الأمين جبرائيل عليه السلام، الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالخبر، فأرسل على أثرها الإمام على صلى الله عليه و آله، و قال لها: أخرجي ما عندك، فأنكرت في البداية، ولكنها إستسلمت أخيراً تحت واقع التّهديد بالقتل، و سلّمت الرّسالة لعلّى عليه السلام، و هو بدوره سلّمها للرّسول الكريم صلى الله عليه و آله. فأمر صلى الله عليه و آله بإحضار حاطب و وبّخه كثيراً، فأعتر حاطب عن فعلته بأعذار واهية، لكنّ الرّسول صلى الله عليه و آله قبلها صورياً، فما ورد في الآيات الاولى، من السورة هو تحذير للمسلمين،

لإجتنا ب مثل هذه الأعمال، و بيان واحدٍ من الاصول والمبادئ الإسلامية المهمة، على مستوى التبرى من الأعداء وموالاة الأولياء، أو كما قيل: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ». و في بداية السورة، تحرّكت الآية الكريمة لتخاطب جميع المؤمنين، من موقع التحذير، من إقامة العلاقة الودية والعاطفية مع الأعداء، و قالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ». و نعلم أنه عندما تتقاطع أواصر «المحبة و الصداقة» مع أواصر «العقائد و القيم»، فالتصر سيكون حليف أواصر المحبة و الصداقة، على حساب إهتزاز العقيدة، و بذلك ينحدر الإنسان في خطّ الباطل، فما نراه من التأكيد على: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»، أو تولّى الأولياء و التبرى من الأعداء، نابع من هذا الأساس. ثم تستمر الآيات، «و بالذات في الآية الرابعة»، على حثّ المسلمين على الإقتداء بإبراهيم الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٧ النبي عليه السلام، و أصحابه المخلصين، و أنهم اسوة حسنة للمؤمنين، الذين يتحرّكون من موقع الرسالة: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالدِّينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». الاسوة «على وزن لقمه»، تحمل معنًا مصدرياً، بمعنى التأسى والإتباع للآخرين، و بمعنى آخر هو الإقتداء بالآخرين. و من البديهي أنّ هذا الأمر، يمكن أن يكون على مستوى الفضيلة أو الرذيلة، و لذلك فإنّ الآية الشريفة، عبّرت عن إبراهيم عليه السلام بأنّه قدوة حسنة، لأنّه قطع كلّ أواصر المحبة و وشائج المؤدّة، التي كانت بينه و بين قومه، في سبيل عقيدته و توحده لله تعالى. يقول «الراغب» في «مفرداته»، إنّ كلمة «الأسى» على وزن (عصا)، وهى بمعنى الغمّ و الألم، فلكلمة اسوة أخذت من هذه المادة، و يقال للمصاب بمصيبة: «لَكَ بِفُلَانٍ اسْوَةٌ». ولكنّ بعض أرباب اللّغة، مثل: ابن فارس في «المقاييس»، فضيّل بين المعنيين، فقال: «أَنَّ الْأَوَّلَ نَاقِضٌ (واوى)، و الثَّانِي نَاقِضٌ (يائى)»، و على كلّ حال فإنّ القرآن المجيد، حثّ المسلمين على مسألة: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»، و جعل لهم إبراهيم عليه السلام قدوةً، لأنّ إختيار القدوة الصالحة لحركة الإنسان، في خطّ التقوى و الإيمان، له دور عميق في طهارة روح الإنسان، و أفكاره و سلوكياته. و هذا هو ما يؤكّد عليه علماء و الأخلاق، في عمليّة السير و السيلوك إلى الله، فإنّ إختيار القدوة يُعدّ أهمّ خطوة لحركة الإنسان في طريق الرقى. «الآية الثانية»: إستمراراً لبحثنا الأنف الذكر، نتحدث عن إبراهيم عليه السلام و صحبه، فتقول: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ». و فرق هذه الآية عن التي قبلها، في أمرين: الأوّل: إنّ هذه الآية أكّدت على مسألة: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»، بأنّها من الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٨ علامات الإيمان بالله و المعاد. الثاني: إنّ التأكيد على هذا الأمر، لا ينبع من حاجة البارى إليه، بل هو من حاجة الإنسان إليه، في مساره التكاملى و المعنوى إلى الله تعالى، و لحفظ سيّامة المجتمع البشرى في حركة الواقع و الحياة. «الآية الثالثة»: نظرة إلى غزوة الأحزاب، وهى في الحقيقة تشير إلى ملاحظة مهمّة جدّاً، ألا وهى: أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و بالرغم من الأزمات النفسية و التحديات الصعبة في تلك الظروف، و سوء ظنّ بعض المسلمين الجدد، بالوعد الإلهى بالنصر في ميادين الوعى فإنّه بقى صامداً ينظر للحرب، و يستخدم أفضل التكتيكات العسكرية، إنتظاراً للحظة الحاسمة، و كان ينتظر الفرصة للإنقضاض على عدوّه، فكان يمزح مع أصحابه ليقوى من معنوياتهم، و أخذ المعول بنفسه ليحفّر الخندق بيده، و يشجع أصحابه و يذكّرهم بالله تعالى و ثوابه، و يبشّرهم بالفتوحات المقبلة العظيمة. و هذا الأمر تسبّب في تماسك المسلمين، و مقاومتهم أمام عدوّهم، و جيشه الجرار المتفوق عليهم بالعدّة و العدد، بالتالى الإنتصار عليهم، فقال تعالى «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا». فالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لا يتأسى به فقط في ميادين الجهاد الأصغر، بل وكذلك في ميادين الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النفس و التصدى للأهواء المضلّة، من موقع المحاربة، فمن يتّخذ اسوة حسنة في هذا المضمار، فإنّه سيصل من أقرب الطرق و أسرعها، إلى غايته و هدفه المنشود. و الجدير بالذكر، أنّ هذه الآية، علاوة على ذكرها لمسألة الإيمان بالله و اليوم الآخر: «لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الْآخِرَ...»، أكّدت على ذكر الله تعالى بجملة: «وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا». فهم يقتدون بقائدهم الربانى و يستلهمون منه الإيمان، و ذكر الله كثيراً حيث يحرك فيهم الدكّر الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣١٩ الكثير، عنصر الإهتمام للمسؤوليات التي القيت على عاتقهم، و من أفضل من الرسول الأكرم صلى

الله عليه وآله، ليكون لهم اسوةً و قدوةً، في خطّ الإلتزام الديني والأخلاقي و الإفتتاح على الله؟ «الآية الرابعة»: نوهت إلى النقطة المقابلة، ألا وهي: البغض في الله تعالى في خطّ الحق، فتقول: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». فهذه الآية الشريفة، صرحت و أرشدت، إلى الطريق التي يجب على المؤمن سلوكها، عند تقاطع الطرق، و تضارب «العلاقة الإلهية» مع «العلاقات الاسرية»، فلو أنّ الآباء و الإخوة و الأقرباء، تحرّكوا في خطّ الباطل و الإنحراف و الكفر، فإنّ طريق الله هي الجادة الحقيقية، للإلتحاق بالركب الإلهي المقدس. و ما ورد في هذه الآية، من قوله تعالى: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ». ليس إلتأكيداً على المعنى المتقدم، و تشجيعاً لذلك الأمر المهم الحياتي، أي أنّ «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»، نابع من الإيمان، و طريق التّكامل الحقيقي في خطّ الإيمان، السيلوك المعنوي، و بعبارة أخرى: إنّ هذين الأمرين، يؤثّر أحدهما في الآخر بصورة متقابلة، مع فارق واحد، و هو أنّه يجب الإبتداء في عمليّة السيلوك المعنوي، بالإيمان بالمبدأ و المعاد، و التّكامل المعنوي يكون، من حصّة: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ». «الآية السادسة»: تطرقت لأواصر المحبّة المعنويّة بين المؤمنين، و قالت: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْأَخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٣٢٠ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فهذا الرّباط المعنوي، يتخذ من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و إقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة، و طاعة الله و رسوله، أساساً و دعامةً في صياغة السيلوك، حيث يعين الفرد، على إستلهاام الأخلاق الحسنه و الأعمال النّافعة، من الآخرين، فيكون كلّ واحد منهم اسوةً للآخر، و من أراد الإلتحاق بهذه الجماعة، عليه أن يكون مُشابهاً لها في دائرة الفكر و السيلوك، دون الجماعات المنحرفة الضّالة المضلّة، التي يجب عليه البراءة منها و الإبتعاد عنها. و في الحقيقة، فإنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، الذي يُعدّ عاملاً مُساعداً و فعّالاً، في عمليّة تهذيب و تربية النفوس، يدعوهم إلى الإلتزام بالإنضباط الديني و الأخلاقي، من موقع النّصيحة و التّواصي بالحقّ. «الآية السابعة»: فرّقت بين المؤمنين و الكافرين، على مستوى السيلوك في واقع الحياة، فالؤمنون يتخذون من صفات جماله و جلاله، اسوةً لهم في مسيرتهم المعنويّة و الأخلاقيّة، و الكافرون اسوتهم الطّاغوت، حيث تكون أعمالهم و صفاتهم إنعكاس لأعمال و صفات الطّاغوت، فقالت: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». فالخروج من الظلمات إلى النور، يعتبر نتيجةً و ثمرةً للإيمان بالله تعالى و ولايته، و الخروج من النور إلى الظلمات، هو من معطيات الطّاغوت و ولايته. و النور و الظلمة هنا، لهما مفهوم واسع جدّاً، بحيث يستوعبان، جميع الفضائل و القبائح و الحسنات و السيئات. نعم، فإنّ الشّخص الذي يعيش في أجواء الملكوت، و في ظلّ ولايته «الله»، فإنّه سيبدأ رحلته و هجرته، من الرذائل إلى الفضائل و من القبائح إلى الجمال الروحي، و من السيئات إلى الحسنات، لأنّ صفات جماله و جلاله، هي اسوته الحقة في رحلته المعنويّة. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢١ فذاته المقدّسة، منزّهة عن كلّ عيب و نقص، و هو الرّؤوف الرّحيم، الجواد الكريم، و هكذا يتحرّك نحو التّحلي بالفضائل الأخلاقيّة الاخرى، لأنّ هدفه هو وصال المحبوب و المعبود. و العكس صحيح، فإنّ الحركة من الفضائل إلى الرذائل هي من شأن عبده الطّاغوت و الأوثان، التي لا تنفع في شيء أبداً. «الآية الثامنة»: خاطبت المؤمنين من موقع النّصيحة، بالإلتزام طريق التقوى و صحبة المؤمنين، و قالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ». في الحقيقة أنّ الجملة الثانية، في الآية الشريفة: «كُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ»، هي إكمال للجملة الاولى: «اتَّقُوا اللَّهَ...». نعم، فإنّه يتوجب على السالك لطريق التقوى و الزهد و الطهارة، أن يكون مع الصّٰدِقِينَ و تحت ظلّهم، و قد ورد في الروايات من الطرفين: السنّة و الشيعة، و في الكتب المُعتبرة، أنّ المصداق الأكمل لهذه الآية، هو الإمام على عليه السلام، أو أهل بيته عليهم السلام. و هذه الروايات، موجودة في كتب، مثل: «الدّر المنثور للسّيوطي» و «المناقب للخوارزمي» و «دُرر السّيمطين للزرندي» و «شواهد التنزيل للحسيني»، و غيرها من الكتب الاخرى «١». و كذلك أوردها: «الحافظ

سليمان القندوزي» في «بنايع المودة»، و «العلامة الحموي» في «فرائد السيمطين»، و «الشيخ ابو الحسن الكازروني» في «شرف النبي» (٢). و قد ورد في بعض الأحاديث، و بعد نزول الآية الآنفه الذكر، أن سلمان الفارسي رحمه الله، سأل الرسول الأكرم صلى الله عليه و قال له: هل أن هذه الآية عامية أو خاصة؟ فأجاب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله: «أما المأمورون فعامّة المؤمنين وأما الصادقون فخاصّة أخي عليّ و أوصيائه من بعده إلى يوم القيامة» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٢ و من الطبيعي فإن إتباع الإمام على عليه السلام و أوصيائه، جارية و مستمرة إلى يوم القيامة، للاهتداء بهديهم، و الاقتداء بفعالهم و أخلاقهم في حركة الحياة.

### النتيجة:

يُستفاد مما ذكر آنفاً، من الآيات التي إستعرضت مسألة «التوّلّي و التبرّي»، أن مسألة الوصول إلى مرتبة القرب من الذات المقدّسة، و تولّي أولياءه من عباده الصالحين، و التبرّي من الظالمين و الغاوين، و في كلمة واحدة: «الحُبُّ في الله و البُغْضُ في الله»، تعدّ من أهمّ المسائل و المفاهيم، في دائرة التعليمات القرآنية، و لها دورها الكبير و أثرها العميق، في مُجمل المسائل الأخلاقية، في حركة الإنسان المعنوية. و هذا الأساس القرآني و المفهوم الإسلامي، له دوره المُباشر في جميع المسائل الحياتية، إن على المستوى الفردي أو الاجتماعي، الدينوي أو الاخرى، لا سيما في المسائل الأخلاقية و السبلوك الأخلاقي للأفراد، في تعاملهم و تفاعلهم مع الآخرين، في حركة الحياة و المجتمع. فهذه المفردة العقائدية، في دائرة المفاهيم الإسلامية، بإمكانها أن تبنى نفوس المؤمنين على إتباع الصالحين و الطاهرين، و إتخاذهم أسوة حسنة، خصوصاً الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و أهل بيته عليهم السلام، في كلّ خطوة يخطوها الإنسان المؤمن في خطّ الإيمان، و بذلك تكون من العوامل المهمة، للوصول إلى الهدف الحقيقي من وراء خلقه الإنسان، ألا و هي تهذيب النفوس و تربية الفضائل الأخلاقية في واقع النفس البشرية.

### التوّلّي و التبرّي في الروايات الإسلامية:

وردت أحاديثٌ مستفيضة في هذا الصدد، سواء عن طريق أهل السنة أو الشيعة، و طرحت موضوع التبرّي و التوّلّي بقوة، و أكّدت عليه بصورة شديدة، قلما نجد لها نظيراً، بالنسبة إلى المواضيع الاخرى الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٣ ولا شك أن هذه الأهمية، نابعة من المعطيات الإيجابية الكثيرة، لمسألة التوّلّي لأولياء الله، و البراءة من أعدائه تعالى، حيث توثق عُرى الإيمان و أوصار المحيية و الصداقة، مع أولياء الله تعالى، و تعمق حالة الإبتعاد و التّفور من الظالمين الفاسقين، و تنعكس هذه النتائج على إيمان الشخص و أخلاقه و تقواه، من موقع القوة و الصّفاء و الإمتداد في واقع الإنسان و محتواه الداخلي، و تحثّ هذه الأحاديث الناس، على إختيار القدوة الصالحة في عمليته السير و السبلوك، في طريق الله سبحانه و تعالى. و نُشير هنا إلى مجموعة من الأحاديث الشريفة، في هذا المجال، جمعت من كتب مُختلفة: ١- قال عليّ عليه السلام في خطبته القاصعة، و في وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُوكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَ نَهَارُهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ إِتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ امِّهِ يَزْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ» (١). و يبين هذا الحديث، أن رسول الله صلى الله عليه و آله نفسه كان له من يرشده و يهديه، و لديه القدوة الحسنة على شكل ملك من ملائكة الله العظيم. و كذلك الإمام على عليه السلام، جعل من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قدوة له، فكان يتبعه في كلّ اموره و حركاته و سكناته، فيتعلم منه كلّ يوم أمراً جديداً، علماً مفيداً، و أخلاقاً نبيلة. فلما كان كلّ من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و على عليه السلام، يحتاجان إلى القدوة الحسنة، في بداية المسير إلى الله، فكيف بحال الباقيين؟ ٢- الحديث المعروف: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ...»، الذي ورد من طرق متعدّدة عن المعصومين، و منها ما ورد عن زرارة عن الباقر عليه السلام، أنه قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ: عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوَلَايَةِ»، قال زرارة، فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟، فقال: «الْوَلَايَةُ أَفْضَلُ لَأَنَّهَا مِفْتَاحُهَا وَالْوَالِي هُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِنَّ» (٢). الاخلاق



في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٤ ومن هذا الحديث يُستفاد، أن الإقتداء بالقُدوة الصالحة، يعين الإنسان على إحياء سائر البرامح، الدينية والمسائل العبادية الفردية والاجتماعية، وهي إشادة واضحة بدور الولاية، في مسألة تهذيب النفوس وتحصيل مكارم الأخلاق. ٣- عن الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: «أى عرى الإيمان أوثق؟»، فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم الصلاة، وقال بعضهم الزكاة، وقال بعضهم الصيام، وقال بعضهم الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكن ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتولي أولياء الله والتبري من أعداء الله» (١). وقد حرك الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أذهان أصحابه بهذا السؤال. وهكذا كانت سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، عندما كان يريد أن يطرح موضوعاً مهماً، فبعض منهم أبدى جهله، وبعض منهم قال الصيام و... ولكن في نفس الوقت، الذي أكد رسول الله على أهميته تلك الأمور في الإسلام، قال: «الحب في الله والبغض في الله». والتعبير بكلمة: «عري جمع «عروة»، هي بمثابة حلقة الوصل للقرب من الله تعالى، وإشارة إلى أن السيلوك إلى الله، لا يتم إلا من خلال التمسك بهذه العروة، والصي عود بواسطتها إلى مراتب سامية من الكمال المعنوي، وليس ذلك إلا لأن الحب في الله والإقتداء بأولياء الله، عامل مهم في تسهيل الحركة في جميع إتجاهات الخير والصيلاح. وياحياء هذا الأصل، سوف تنتعش بقيته الأصول الدينية، ولكن مع إهماله وترك العمل به، فإن سائر الأصول ستضعف وتموت. ٤- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال لجابر الجعفي رحمه الله: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصية الله، فبيك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصية الله، فليس فيك خير، والله يبغضك والمرء مع من أحب» (١). وجملة: «المرء مع من أحب»، هي إشارة جميلة ولطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه العلاقة ستمتد وتستمر إلى يوم القيامة، وهي دليل واضح على أهميته مسألة «الولاية»، في المباحث الأخلاقية. ٥- في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «وُدُّ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شَعَبِ الْإِيمَانِ، إِلَّا - وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ وَأَعْطَى فِي اللَّهِ وَمَنَعَ فِي اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ» (٢). ٦- في حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوْلِيَّ وَالْآخِرِينَ، قَامَ مُنَادٍ فَنَادَى يُسْمِعُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ، قَالَ: فَيَقُومُ عُتُقُ مِنَ النَّاسِ، فَيَقَالُ لَهُمْ إِذْهَبُوا إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالَ: فَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ إِلَى أَيْنَ؟ فَيَقُولُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالَ: فَيَقُولُونَ فَمَا أُضْرِبُ أَنْتُمْ مِنَ النَّاسِ؟، فَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ، قَالَ: فَيَقُولُونَ وَأَيُّ شَيْءٍ كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ؟، قَالُوا كُنَّا نَحِبُّ فِي اللَّهِ وَنُبْغِضُ فِي اللَّهِ، قَالَ فَيَقُولُونَ، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» (٣). و تعبير «نعم أجر العاملين» يبين أن المحبة لأولياء الله والبغض لأعداء الله هو أكبر مصدر للخير في واقع الإنسان والحياة والمانع عن الشر والانحراف في مسيرة التكامل الأخلاقي. ٧- ورد في حديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ حَوْلَ الْعَرْشِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَلَيْهَا قَوْمٌ لِبَاسِهِمْ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ يَبْغِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَلِّ لَنَا، قَالَ: هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ وَالْمُتَجَالِسُونَ فِي الْأَخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ١، ص: ٣٢٦ وَالْمُتَزَاوِرُونَ فِي اللَّهِ» (٤). ٨- وإكمالاً للحديث أعلاه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَوْ أَنَّ عِبْدَيْنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ أَحَدُهُمَا بِالْمَشْرِقِ وَالْآخَرُ بِالْمَغْرِبِ لَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» (٥). و يبين هذا الحديث، أن أوثق العرى والأواصر في دائرة العلاقات الاجتماعية، هي آصرة الدين التي تحقق التوافق والوئام بين الأفراد، وتدفعهم للمحبة لله وفي الله، وهذه الحالة تؤثر في النفوس، من موقع التزكية والتهذيب. ٩- نقرأ في الحديث القدسي، قال الله تعالى لموسى عليه السلام: «هَلْ عَمِلْتَ لِي عَمَالًا؟!»، قَالَ صَلَّى لَكَ وَصِيْمْتُ وَتَصَدَّقْتُ لَكَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَ أَمَا الصِّيْلَةُ فَلكَ بُرْهَانٌ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ ظِلٌّ، وَالذِّكْرُ نُورٌ، فَأَيُّ عَمَلٍ عَمِلْتَ لِي؟!، قَالَ مُوسَى دُنِّي عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي هُوَ لَكَ، قَالَ يَا مُوسَى هَلْ وَالَيْتَ لِي وَلِيًّا وَ هَلْ عَادَيْتَ لِي عَدُوًّا قَطُّ، فَعَلِمَ مُوسَى أَنَّ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ، الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» (٣). ١٠- ونختم هذا البحث، بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، (رغم وجود الكثير من الأحاديث الشريفة في هذا الموضوع، أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَهُوَ مِمَّنْ كَمَّلَ إِيْمَانَهُ»

«٤». و نستوحى من الأحاديث العشرة الآنفه الذكر، أن الإسلام قد أعطى الأهميّة القصوى، لمسألة الحُب في الله والبغض في الله، و إعتبرها أفضل الأعمال، و علامة كمال الدين، و أسمى من: الصلوة و الزكاة و الصيام والحج والإنفاق في سبيل الله تعالى، و من يتحلّى بهذه الصّفة، يكون مع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله في الجنّة، بحيث يغطه فيها الأنبياء و الشهداء و الصّديقين. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٧ فهذه التعبيرات و غيرها، تبين لنا دور و فعاليته مسألة التبرّي و التولّي، في جميع البرامج الدنيوية و الإلهية، و دليل هذا الأمر واضح جداً، لأنّ الإنسان المؤمن، عندما يُحبّ القدوة الإلهية و الإنسان الكامل، لتقواه وإيمانه وفضائله الأخلاقية، فإنّ ذلك من شأنه، أن ينعكس على روحه و سلوكه صفات و سلوك هذه القدوة، و يدفعه للتأسّي بها في أعماله و حركاته و سكناته! و هذا هو بالفعل، ما يصبو و يدعو إليه علماء الأخلاق، بإعتباره أصلاً أساسياً في تهذيب و تربية النفوس، و أنّ الإقتداء بالقدوة الصالحة، من شأنه أن يكون شرطاً أساسياً، لأن يسلك بالإنسان طريق الهداية و الصّلاح، في خطّ الإيمان و الإنفتاح على الله تعالى. و من الأدلّة المهمّة، التي أوردها القرآن الكريم، و أكّد عليها رسوله الكريم صلى الله عليه و آله، هو التّذكير بأنبياء الله تعالى و أفعالهم و تأريخهم و حياتهم، و العرّض من ذلك كلّ، الإقتداء بهم و إتباع سيرتهم. جيّدٌ بالذكر، أنّ كلّ إنسانٍ يحبّ البطولات و الأبطال، و يحبّ أن يقتدى بأحد الأبطال، ليجعله أسوةً و قدوةً في حياته في جميع أبعاده المختلفة. عمليّة إنتخاب مثل هؤلاء الأبطال، يؤثر على حياة الإنسان، من موقع صياغة الشّخصية و كفيته السلوك، و على فرض حدوثٍ تغيّر في نظرة الإنسان نحو القدوة، فسستغير حياته بالكامل، تبعاً لها. و الكثير من الأفراد أو الشعوب، لما لم يُسعفهم الحظّ في إتخاذ القدوة الصالحة، توتّسّلوا بأبطالٍ مزيفين، كى يُعوضوا النقص الحاصل لديهم في هذا المجال، و أدخلوهم في ثقافتهم و تأريخهم، و ألقوا في سيرتهم الأساطير و الحكايات، و البطولات الخيالية. و البيئه و الدعاية السّليمة أو المغرضه، لها دورها في إختيار اولئك الأبطال، فيمكن أن يكونوا من رجال الدين، و السّياسه، أو وجوه رياضيه أو تمثيلية. و هذا الميل البشري للأبطال، و التمدّوات الإنسانيه، يمكن أن يوجّه بالصّورة الصّحيحة، و يفعل دوره في تربية الفضائل الأخلاقية و السّلو كيات الحسنه، في الحياة الفرديّة و الإجتماعية. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٨ و بناءً على ذلك، فإنّ الآيات و الروايات أكّدت على هذه الصّور، و هي مسألة التولّي و التبرّي، و إتخاذ أولياء الله قدوةً و اسوةً حسنه، و بدونها ستبقى برامج التربية و التّهذيب، ناقصه المحتوى و المضمون.

### قصه موسى و الخضر عليهما السلام:

إتخذ المعلم و الدليل، في طريق السّير و السّلو ك إلى الله تعالى، من الأهميّة بمكان، بحيث أمر بعض الأنبياء، في برهه من الزّمن، للحضور عند الاستاذ أو المرشد. و من ذلك قصه موسى عليهما السلام و الخضر، المليئه بالمفاهيم و المضامين العميقة، و التي وردت في سورة الكهف، من القرآن المجيد. فقد أمر موسى عليه السلام، لأجل إسترفاد بعض العلوم، التي تحمل الجانب العملي و الأخلاقي أكثر من الجانب النظري، أمر بالذهاب إلى عالم زمانه، ليستقى منه العلم، و قد عرّفه القرآن الكريم، بأنّه: «عبداً من عبادنا آتيناها رحمةً من عندنا و علمناها من لدنا علماً». فشّد موسى عليه السلام، الرّحال فعلاً مع أحد أصحابه، متّجهاً نحو المكان الذي يتواجد فيه الخضر عليه السلام، و مع غصّ النّظر عمّا صادفاه في الطّريق إليه، و وصل موسى عليه السلام إلى المكان الموعود، فقال له الخضر عليه السلام: «إنك لئن تشّيتطيع معي صبراً»، ولكنّ موسى عليه السلام وعده بالصّبر. توالى الأحداث الثلاثة، واحده بعد الاخرى، المعروفه و الوارده في القرآن الكريم: أولها حرق السّفينه التي كانوا عليها، فإعترض موسى عليه السلام، و ذكره بخطر الغرق للسّفينه بمن فيها، فقال له الخضر: «ألم أقل لك إنك لئن تشّيتطيع معي صبراً» فندم و إختار عليه السلام السّكوت، حتى يوضّح له ملابسات الأمر. و لم يمض قليلاً، حتى صادفوا صبيّاً قتلته، الخضر عليه السلام مباشرةً من دون توضيح و دليل، فهذا الأمر المريع أثار موسى عليه السلام مرّة اخرى، و نسّى ما تعهّد به، و إعترض على استاذه بأشدّ من التي قبلها، فقال: «أقتلت نفساً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً إمرأاً». و للمرّة الثانيه، ذكر الخضر موسى عليه السلام بالعهد الذي قطعه على نفسه، و قال له: إذا تكرّر الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٢٩ منك هذا العمل للمرّة

الثالثة، فسوف تنقطع العلاقة بيني وبينك، و نفضل في هذا السير، فعلم موسى عليه السلام، أن في قتل الغلام سراً مهماً، فأثر السيكون، ليتضح له السر فيما بعد. و تلتها الحادثة الثالثة، و قد وردوا في قرية، فلم يضيفوها ولم يعبوا بهما، فوجد الخضر عليه السلام جداراً يريد أن ينقض، فأقامه عليه السلام، و طلب العون من موسى عليه السلام في هذا الأمر، فرمى الجدار، فضاق موسى ذرعاً بالأمر، فصاح: «لو شئت لنتخذت عليه أجراً». فأين يكون موضع التعامل مع هؤلاء من موقع الرحمة، مع كل تلك المساواة التي واجهوها من أهل تلك القرية؟. و هنا أعلن الخضر عليه السلام إنفصاله عن موسى عليه السلام، لأنه نقض العهد ثلاث مرات، ولكنه و قبل الفراق، أعلمه بالأسرار لتلك الحوادث الثلاثة، فقال له: إن السفينة كانت لمساكين، و كان عندهم ملك يأخذ كل سفينة سليمة غصباً، فأعيتها كنى لا- يأخذها منهم، و الشّاب المقتول، كان يستحق الإعدام، لأنه كافر و مرتد، و كان الخوف على أوبه من موقع التأثير عليهما، و لئلا يحملهما على الكفر. و الجدار كان ليتيمين في المدينة، و كان تحته كنز لهما، و كان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يستخرجا كنزهما فيما بعد، ليعيشا بذلك المال، ثم أكد عليه أن كل ذلك كان بأمر الله تعالى، وليس تصرفاً من وحي أفكارى «١». رجع بعدها موسى عليه السلام، محملاً بمعارف و علوم في غاية الأهمية. و نحن بدورنا نستلهم من تلك القصة، عدّة دروس، منها: ١- العثور على معلّم مطلع حكيم للتعلّم عنده، و الإستتار من نور علمه، أمر من الأهمية بمكان، بحيث امر رسول من رسل اولى العزم بذلك، و قد قطع المسافات الطويلة كى يدرس عنده، و يقتبس من فيض علمه. ٢- عدم تعجل الامور، و إنتظار الفرصة المناسبة، أو كما يُقال: «إن الامور مزهونة بأوقاتها». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٠-٣ الحوادث الجارية حولنا، ربما تحمل ظاهراً و باطناً، و علينا عدم النظر إلى الظاهر فقط، لئلا نخطأ في الحكم على الامور، من موقع العجلة و عدم التأني، و علينا الأخذ بنظر الاعتبار بواطنها. ٤- عدم الإنضباط و الإلتزام بالعهود، ربما يحرم الإنسان من بعض البركات المعنوية إلى الأبد. ٥- الدفاع عن الأيتام و المستضعفين، و الوقوف في وجه الظالمين و الكفار، يُعتبر واجباً على المؤمنين، الذين يتحرّكون في خطّ الرّسالة و المسؤولية، و قد تدفع في سبيل ذلك الأثمان الباهظة. ٦- أينما وصل الإنسان في مراحل العلم و الرقى، عليه أن لا يتغتر بعلمه، و لا يتصور أنه وصل إلى حدّ الكمال، لأنه قد يتسبب هذا التصور، في تجميد حركة الإنسان الصاعدة، و القناعة بما عنده من العلم. ٧- إن لله تعالى جنوداً و أطافاً خفية تنصر المظلوم، بطرقه المختلفة، و كل إنسان مؤمن، عليه أن يتوقعها في كل لحظة. و هناك نقاط مفيدة اخرى أيضاً. و هذه القصّة سواء كانت تحمل أهدافاً حقيقية لتعليم موسى عليه السلام، أم أنها تحمل نداءات للناس؛ لكي يتعلموا و يقتدوا بالأعظم من البشر، لا تختلف عما نحن بصددده. و الخلاصة: أن القدوة و الدليل و الاسوة، هو أمر لا بد منه للاستزادة من العلوم، و تهذيب النفوس في خطّ التكامل المعنوي و بناء الذات. ١٤

## الوجه الآخر للولاية، و دوره في تهذيب النفوس

### إشارة

لا- ينحصر دور الاعتقاد بالولاية، في المسائل الأخلاقية و تهذيب النفوس و السير إلى الله تعالى، على إتخاذ القصدات الصالحة و الإقتداء بكلامهم و فعالهم، بل و بحسب اعتقاد بعض الأعظم و العلماء، يوجد هناك نوع آخر من الولاية، هو فرع من الولاية التكوينية، يستطيع معها القادة الإلهيون، و بواسطة نفوذهم الروحي المباشر، في عالم الوجود و التكوين، من معرفة النفوس المستعدة للتربية و الإصلاح، و التصرف المعنوي المباشر، في المستوى الروحي للإنسان في خطّ التربية. و توضيح ذلك: إن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و الأنبياء المعصومين عليهم السلام، هم القلب النابض للامة الإسلامية، و كل عضو من الأعضاء، يكون له ارتباط وثيق بالقلب، سيتسنى لذلك العضو أن يسترشد من المنبع منافع أكثر، أو أنهم بمنزلة الشمس المشرقة، فكلما إنقشعت سحب الأنانية عن القلب، فإن تلك الأشعة ستتولى تربية عناصر الخير في النفس، فتورق و تثمر، و تنعكس آثارها على شخصية الإنسان، في إطار

السيلوك والفكر. وهنا تأخذ الولاية شكلاً آخر، وتنحى منحاً يختلف عن السابق، وسيكون الكلام فيها عن المعطيات الخفية الغامضة، في دائرة التأثير التربوي، غير التي نعرفها سابقاً، في دائرة التصرفات الظاهرية. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٢ يقول القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً\* وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَيِّراً مُبِيراً». فهذه الشمس المنيرة، وهذا السراج المنير، يتولى وظيفتين، فمن جهه أنه يُضِيء للإنسان الطريق إلى الله تعالى، ليعرف الطريق الصحيح والجادة المؤدية إلى الحق والصيلاح، ويتعد عن حافة الهاوية. ومن جهه أخرى، فإن هذا التور الإلهي، يؤثر لا شعورياً في واقع الإنسان، ويتولى إصلاح النفس في خط التربية الأخلاقية، ويساعدها في عملية التكامل والرقى. وكنموذج على ذلك، ما نقرأه في الحديث المرفوع عن هشام بن الحكم، و مناظرته مع «عمرو بن عبيد»، العالم بعلم الكلام السني، عندما ذهب هشام إلى البصرة، وأجره بيان لطيف ومنطقي، على الإعراف بلزوم وجود الإمام في كل عصر وزمان. قال هشام: بلغني ما فيه عمرو بن عبيد، و جلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك علي، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأثيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقه كبيرة فيها عمرو بن عبيد، و عليه شملة سوداء، متزراً بها، من صوف و شملة مرتدياً بها، و الناس يسألونه، فاستفرت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم، على ركبتى، ثم قلت: أيها العالم، إني رجل غريب تأذن، لي في مسألة! فقال لي: نعم. فقلت له: ألك عين؟ فقال: يا بني أي شيء هذا السؤال، و شيء تراه كيف تسأل عنه. فقلت: هكذا مسألتي. فقال: يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء. قلت: أجبني فيها. قال لي: سل. قلت: ألك عين؟ الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٣ قال: نعم. قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص. قلت: ألك أنف؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة. قلت: ألك فم؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعام. قلت: ألك أذن؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت. قلت: ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كلما ورد على هذه الجوارح و الحواس. قلت: أو ليس في هذه الجوارح غناً عن القلب؟ فقال: لا. قلت: و كيف ذلك، و هي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني إن الجوارح إذا شككت في شيء، شمته أو رآته أو ذاقته أو سمعته، رذته إلى القلب الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٤ فيستيقن اليقين و يُبطل الشك. فقلت له: فإنما أقام الله القلب؛ لشك الجوارح؟ قال: نعم. قلت: لا بد من القلب، و إلام تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت له: يا أبا مروان، فالله تبارك و تعالى، لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً، يُصحح لها الصحيح، و يتيقن له ما شك فيه، و يترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم و شكهم و اختلافهم، لا يُقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم و حيرتهم، و يُقيم لك إماماً لجوارحك، ترد إليه حيرتك و شكك؟ قال: فسكت ولم يقل شيئاً، ثم إلتفت إلي، فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟، فقلت: لا. قال من جلسائه؟، قلت: لا. قال: فمن أنت، فقلت: من أهل الكوفة. قال: فأنت إذا هو، ثم ضمني إليه، و أقعدني في مجلسه، و زال عن مجلسه، و ما نطق حتى قُمت. قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام، و قال: يا هشام من علمك هذا؟. قلت: شيء أخذته منك، و ألفتة. فقال الإمام: «هذا والله مكتوب في صحيف إبراهيم و موسى». (١) نعم، فإن الإمام بمنزلة القلب، لعالم الإنساني، و هذا الحديث يمكن أن يكون إشارة، للولاية و الهداية التشريعية أو التكوينية، أو الإثنين معاً. و كذلك ما ورد، في حديث أبي بصير و جاره التواب، هو شاهد آخر على هذا المطلب: قال أبو بصير: كان لي جار يتبع السلطان، فأصاب مالمًا فاتخذ قياناً، و كان يجمع الجموع و يشرب المسكر و يؤذيني، فشكوته إلى نفسه غير مرة، فلم يَنْتَه، فلما ألححت عليه، قال: يا هذا أنا رجل مُبتلى، و أنت رجل معافى، فلو عرفتني لصاحبك رجوت أن يستقذني الله بك، فوقع ذلك في قلبي، فلما صرت إلى أبي عبد الله عليه السلام، ذكرت له حاله. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٥ فقال لي: «إذا رجعت إلى الكوفة، فإنه سيأتيك، فقل له: يقول لك جعفر بن محمد: دع ما أنت عليه، و أضمن لك على الله الجنة». قال أبو بصير: فلما رجعت إلى الكوفة، أتاني فيمن أتى، فاخبتته حتى خلا منزلي. فقلت: يا هذا، إني ذكرت لك لأبي عبد الله عليه السلام، فقال: «أقرأه السلام و قل له: يترك ما هو عليه، و أضمن له على الله الجنة». فبكي، ثم قال: الله، قال لك جعفر عليه السلام هذا؟ قال: فحلفت له، أن قال لي ما قلت لك. فقال لي: حسبك و مضي، فلما كان بعد أيام بعث إلي و دعاني، فإذا هو خلف باب داره عُريان. فقال: يا أبا بصير، ما بقي في منزلي شيء، إلا و خرجت عنه، و أنا كما ترى. فمشيت إلى إخواني، فجمعت

له ما كسوته به، ثم لم يأت عليه إلا أياماً يسيرةً، حتى بعث إلى: أنى عليل فأتتني، فجعلت أختلف إليه، و اعالجه حتى نزل به الموت. فكنت عنده جالساً و هو يوجد بنفسه، ثم غشى عليه غشيةً ثم أفاق، فقال: يا أبا بصير، قد و في صاحبك لنا، ثم مات، فحجبت فأتيت أبا عبد الله عليه السلام، فاستأذنت عليه، فلما دخلت قال مبتدئاً من داخل البيت، وإحدى رجلتي في الصحن والاخرى في دهليز داره: «يا أبا بصير قد وفينا لصاحبك». «١» بالطبع يمكن أن يقال: إن هذا الحديث حمل في طياته، جانب التوبة العادية المعروفة بين الناس، ولكننا نقول: إن ذلك الرجل المذنب والملىء بالمعاصي، من رأسه إلى أخمص قدمه، لم يكن ليغير طريقه حياته، واتخاذ جانب الصلاح و الفلاح، و على حدّ إعترافه هو، بأنه لولا الإمام عليه السلام و عنايته، لم يكن له أن يتحول من دائرة الظلمة و المعصية، إلى دائرة النور والهداية. و يوجد احتمال قوي، و هو أن هذا الانقلاب و التحول، في روح و سلوك هذا الرجل المذنب المستعد للتوبة، كان بسبب التدخل الروحي للإمام عليه السلام، و تصرفه في محتواه النفسي، و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٦ ذلك لوجود نقطة مضيئة و بصيص من الأمل في أعماق قلبه، و هو تمسكه بالولاية، حيث أدى إلى أن يتحرك الإمام عليه السلام إلى نجاته و إنقاذه، في آخر لحظات حياته و أيام عمره. و النموذج الآخر لهذا التأثير المعنوي، و الولاية التكوينية في تهذيب النفوس المستعدة، هو ما نقله العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار، عن الإمام الكاظم عليه السلام، و الجارية التي أرسلها هارون إليه. فقد ورد أن هارون الرشيد، أنفذ إلى موسى بن جعفر عليه السلام جارية خصيفة، لها جمال و وضاء لتخدمه في السجن، فقال له: «بل أنتم بهديتكم تفرحون» «١»، لا حاجة لي في هذه و لا في أمثالها، قال: إستطار هارون غضباً، و قال: إرجع إليه و قل له: ليس برضاك حبسناك، و لا برضاك أخذناك، و إترك الجارية عنده و إنصرف. قال: فمضى و رجع، ثم قام هارون عن مجلسه، و أنفذ الخادم إليه ليتفحص عن حالها، فرآها ساجدة لرّبها لا ترفع رأسها، تقول: قدوس سبيحانك سبحانك. فقال هارون: سحرها و الله موسى بن جعفر بسحره، على بها، فأتى بها و هي ترتعد، شاخصة نحو السماء بصرها، فقال: ما شأنك؟ قالت: شأنى الشأن البديع، إنى كنت عنده واقفة، و هو قائم يصلى ليله و نهاره، فلما إنصرف عن صلاته بوجهه، و هو يستبح الله و يقده، قلت: ياسيدى هل لك حاجة اعطيكها؟ قال: وما حاجتى إليك؟ قلت: إنى ادخلت عليك لحوائجك. قال: ما بال هؤلاء؟ قالت: فآلتفت فإذا روضة مزهرة، لا أبلغ آخرها من أوله بنظري، و لا أولها من آخرها، فيها مجالس مفروشة بالوشى و الديباج، و عليها و صفاً و وصائف، لم أر مثل وجوههم حسناً، و لا مثل لباسهم لباساً، عليهم الحرير الأخضر، و الأكليل و الدر و الياقوت، و فى أيديهم الأباريق و المناديل، و من كل الطعام، فخررت ساجدة حتى أقامنى هذا الخادم؛ فرأيت نفسى حيث كنت. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٧ فقال هارون: يا خبيثة، لعلك سجدت فمنت فرأيت هذا فى منامك؟ قالت: لا والله ياسيدى، إلابل سجدتى، رأيت فسجدت من أجل ذلك. فقال هارون: إقبض هذه الخبيثة إليك، فلا يسمع هذا منها أحد، فأقبلت فى الصيلة، فإذا قيل لها فى ذلك، قالت: هكذا رأيت العبد الصالح عليه السلام، فسئلت عن قولها، قالت: إنى لما عيّت من الأمر نادتنى الجوارى، يا فلانة أبعدى عن العبد الصالح، حتى ندخل عليه، فنحن له دونك، فما زالت كذلك حتى ماتت، و ذلك قبل موت موسى عليه السلام بأيام يسيرة «١». و فى هذه القصيدة، نشاهد نموذجاً آخر من تأثير الإمام عليه السلام، فى روح تلك الجارية المستعدة للتربية و الإصلاح الروحي، و الهداية فى طريق الحق و العودة إلى الله تعالى. و الخلاصة: أن تاريخ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمة الهداة عليهم السلام، حافل بمثل هذه الحوادث، حيث يتفق لبعض الأشخاص، أن يلتقوا مع النبى أو الإمام، فينقلب مساره فى حركة الحياة و الواقع و يتغير كلياً، و يتحول إلى النقطة المقابلة، فى حين أن هذا التغيير، ما كان ليحصل بواسطة الأسباب العادية، بحسب الظاهر، و هذا الأمر يدل على أن الإنسان الكامل، هو الذى تولى هذه العملية التغييرية، فى هؤلاء الأشخاص من خلال التصرف و التدخل فى النفوس، و هو ما نسميه بالولاية التكوينية. و من المؤكد أن هذه العناية، و اللطف و التوجه، لم يكن إعتباطاً، بل هو لوجود نقاط قوة فى شخصيته الفرد المعنى به، لتشمله العناية الإلهية، بواسطة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

نترك الكلام والقلم هنا، للعلامة الشهيد المطهري قدس سره، حيث يقول في كتابه: «ولاءها و الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٨ ولايتها»: (تستعمل هاتين الكلمتين عادة في أربع موارد: و لاء المحبة: (أى المحبة لأهل البيت) عليهم السلام، و ولاء الإمامة، بمعنى التأسي بالأئمة عليهم السلام، و جعلهم القدوة لأعمالنا و سلوكياتنا، و ولاء الزعامة، بمعنى حق القيادة الاجتماعية و السياسية للأئمة عليهم السلام، و ولاء التصرف، أو الولاء الزوحي و هو أسمى هذه المراحل). و بعدها يوضح الأول و الثاني و الثالث، ثم يعرج على المعنى الرابع، الذى هو مورد بحثنا و يقول: (إن التصرف الزوحي و المعنوي، هو نوع من القدرة و التسلط الخارق للتكوين، بمعنى أن الإنسان و من خلال عبوديته الحق لله تعالى، يحصل على مقام القرب الإلهي المعنوي و الزوحي، و نتيجة لهذا القرب، يصبح إنساناً كاملاً، يتحرك في طريق هداية الناس نحو المعنويات، و يتسلط على الضمائر، و تكون له قدرة الشهود على الأعمال، و بالتالى يصير حجة الله في زمانه! فمن وجهه نظر الشيعة، أن كل زمان لا يخلو من إنسان كامل، يتمتع بقدرة التصرف الغيبي في العالم و الإنسان، و ناظر و شاهد على الأرواح و القلوب، و هذا الإنسان هو حجة الله على الأرض. و المقصود من التصرف، أو الولاية التكوينية، ليس كما يعتقد بعض الجهال، من أن يتولى الإنسان الكامل، مسألة القيومية و التدبير في العالم، بحيث يكون الخالق و الزايق و المفوض، من جانب الله تعالى. و هذا الاعتقاد، رغم أنه لا يعتبر شركاً، بل هو كما ورد في القرآن، بالنسبة إلى الملائكة: «الْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا وَ الْمُقْسِمَاتُ أَمْرًا»، فهو بإذن الله تعالى، و القرآن يُخبرنا أن لا ننسب مسائل الخلق و الرزق و الموت و الحياة، إلى غير الله تعالى. ولكن المقصود، هو أن الإنسان الكامل، و لقربه من الله تعالى، يصل إلى مرحلة تكون له الولاية في التصرف فى: (بعض امور) العالم. ثم يضيف قائلاً: و يكفى هنا أن نشير إشارةً إجماليةً إلى هذا المطلب، و توضيح اسسه بالإعتماد و على المفاهيم و المعانى القرآنية، لئلا يعتقد البعض، أن هذا جزافاً من الكلام. الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٣٩ فلا شك أن مسألة الولاية، بمعناها الرابع، هى من المسائل العرفانية، و مجرد كونها عرفانية، لا يعنى نكرانها بالكامل. ثم يشرح بإسهاب، معطيات القرب من الله تعالى، و يستنتج منها، ما يلى: فعلى هذا الأساس، من المحال على الإنسان، و بعد قربه و طاعته لله تعالى، ألا يصل إلى مقام الملائكة، بل و أرقى، أو على الأقل يساوى الملائكة فى مقامهم، الملائكة التى تدبر و تتصرف فى عالم الوجود، بإذن الله تعالى «١». و يمكن أن نخرج من هذا الحديث بنتيجة، و هى أن العلاقة المعنوية، و الإرتباط بالإنسان الكامل، يمكن أن يساعد الإنسان فى عمله التصرف، و النفوذ فى حياة الناس المستعدين و المتقبلين للإصلاح، و سوقهم تدريجياً فى خط التهديب الأخلاقى، و إبعادهم من جو الرذائل إلى جو الفضائل الأخلاقية و الكمالات الروحية.

### الاستغلال السىء:

تعرض المفاهيم البناءة و الصريحة، للامم و الشعوب فى كل زمان و مكان للإستغلال و التحريف دائماً، و هذا الإستغلال فى الحقيقة لا يؤثر على صحته و قداسه أصل المسألة. ولم تكن مسألة القدوة الأخلاقية فى خط التربية و التهديب، و لزوم الإستفادة من الاستاذ العام و الخاص، لأجل السبلوك إلى الله و تهذيب الأخلاق، مستثناء من هذا الأمر، فجماعة من الصوفية طرخوا أنفسهم، بعنوان: «مرشد» أو «شيخ الطريقة» و «القُطب»، و دعوا الناس لإتباعهم و التسليم المطلق إليهم، بل و تعدوا الحُدود، و قالوا إذا ما شاهدتم سلوكاً يصدر من الشيخ، مخالفاً للشريعة، فلا عليك و لا ينبغي عليك الإعتراض، لأن ذلك يخالف روح التسليم المطلق للمرشد. و يُستفاد و من كلمات «الغزالي»، المؤيد للصوفية، فى فصول متعددة من كتابه «إحياء العلوم»، هذا المعنى أيضاً، حيث يُشم منها رائحة الصوفية، و الحقيقة أن فرقاً من الصوفية، الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٣٤٠ تعتبره من كبار أعلامها، فقد قال فى الفصل (٥١) من الجزء الخامس، الباب الخامس: (نظراً للصوفية إن أدب المريدين فى مقابل شيوخهم هو، أن يجلس المريد مقابل الشيخ مسلوب الإختيار، فلا يتصرف فى نفسه و ماله إلا بأمره ... و أفضل أدب المريد أمام الشيخ: هو السكوت و الخمود و الجمود، إلى أن يملى عليه

شيخه، ما يراه له صلاحاً في أعماله و أفعاله ... و كلما رأى من شيخه خلافاً، و عسّر عليه فهمه، تذكر حكاية موسى و الخضر عليهما السلام، فإن الخضر قد عمل أعمالاً أنكرها موسى، ولكن عندما كشف له الخضر أسرارها إنتبه موسى، و عليه فكلما فعل الشيخ، كان له عُذراً بلسان العلم و الحكمة (١). و يقول العارف العطار، في أحوال يوسف بن حسين الرّازي، عندما أمره ذو النون المصري: (مرشده)، الخروج من بلده و العودة إلى دياره، طلب يوسف منه برنامجاً يعمل به، فقال له ذو النون: عليك بنسيان ما قرأته، و امح كل ما كتبته، ليُزال الحجاب! و نقل عن أبي سعيد، قوله للمريدين: «رأس هذا الأمر، كَبَسُ المحابرِ وَ خَرَقُ الدَّفَاتِرِ وَ نَسْيَانِ العِلْمِ» (٢). و نقل عن أحوال و حالات «أبو سعيد الكندي»، أنه كان قد نزل في الخانقاه، و اجتمع عنده جمعٌ من الدّراويش، و كان يطلب العلم سراً، و في يوم من الأيام سقطت من جيبه محرّبة، فإنكشف سرّه: «و هو أنّه من هواة تحصيل العلم»، فقال له أحد الصّوفيين: (استر عليك عورتك) (٣). و لا شك فإنّ الجو الحاكم هناك، كان نتيجةً لتعاليم مرشدهم في هذا الأمر، ولكن الحقيقة أنّ الاسلام قد أكد على خلاف هذا المسلك، ففي الحديث الوارد عن الصّادق عليه السلام، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «وَزَنّ مِتَادُ العُلَمَاءِ بِدَمَاءِ الشُّهَدَاءِ، فَرُجِحَ مِدَادُ العُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ» (٤). فانظر إلى الفرق بين المسلكين!! الإفلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٤١ و لأجل الإفلاق على كيفية التحريف و الإنزلاق في منحدر الإفراط و التفريط، و كيف تنحرف مسألة معينة عن المنطق و الشرع، لدى وقوعها بأيدي من لا أهلية له، على التنظير في امور الدين؟، و كيف تتعرض للإستغلال و التثويه، علينا إلقاء نظرة على كلام: «كيوان القزويني الملقب ب منصور على شاه»، حيث يُعتبر من أقطاب الصّوفية، فقد بيّن حدود و صلاحيات القطب، و قال: «للقب أن يدعى عشرة خصوصيات: ١- أنّ عندي باطن الولاية التي كانت عند الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ... مع فرق واحد هو، أنّه المؤسس و أنا المروج و المدير و الحارس! ٢- عندي القدرة على تربية الأفراد، و تهذيب نفوسهم، و إزالة العناصر الخبيثة و الخصائص الشريرة، في واقعهم و نزعها و نقلها إلى الكفار. ٣- أنا حرّ من قيود الطبع و النفس. ٤- يجب أن تؤدى جميع عبادات و معاملات المريدين، بإجازة و موافقة متى. ٥- كلّ إسم القته للمريدين، و أجزهم بذكره في القلب أو اللسان، يكون هو ذلك الإسم فقط هو الله، و يسقط الباقي من درجة الإعتبار. ٦- كلّ المعارف الدينيّة و العقائديّة، إن كانت قد حصلت بموافقتي، فهي صحيحة، و إلّا فهي عين الزيف، و محض الخطأ. ٧- أنا مفترض الطاعة، و لازم الخدمة، و لازم الحفظ. ٨- أنا حرّ في عقائدي. ٩- أنا ناظرٌ للأحوال القلبية لمريدي دائماً. ١٠- أنا قسيم النار و الجنة (١). هذا الكلام أشبه بالهذيان منه إلى البحث المنطقي، رغم أنّه قد لا يقبله أغلب الصّوفيين، ولكن مجرد أنّه يرى نفسه بعنوان: «قطب»، و ادّعائه أنّ للأقطاب، إختيارات و صلاحيات لم الإفلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٤٢ يدعيها حتى الأنبياء لأنفسهم، فإن ذلك يكفي، في تبيان مدى إستغلال هؤلاء المدّعين، لمثل هذه العناوين الضّبابية و حاجة الناس للمعلم، في أمر السير و السلوك إلى الله تعالى، و ما يمكن أن يترتب على ذلك، من عواقب سلبية على مستوى، سوق الناس في خطّ الباطل. فهذه الإدعاءات، بعض منها من خواص الأنبياء، و الأخرى لم يجرء على ادّعائها أحد من الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام، و أي شخص له قليل من الإلمام بالدين، سيتوجه إلى فضاء الأمر و خطورته. و إذا ما رجعنا إلى كتب أهل التّصوف، مثل، «تذكرة الأولياء» للشيخ العطار، و «تاريخ التّصوف»، و «نفحات الانس»، و بعض أبحاث «إحياء العلوم»، نرى أنّ الإدعاءات و الخصوصيات التي يضعوها للأقطاب، و شيخ طريقتهم: فضيحة، و لذلك فإنّ بعض مُحققي الشيعة وفقهائهم، و قفوا بشدّة و قوّة، مقابل هذه الطائفه، حتى أنّ هذا الموقف تسبّب بإيذاء بعض الذين يتعاملون مع المفاهيم الدينيّة، من موقع الجهل و السطحية، لكن الحقيقة أنّ المثقفين و المطلعين، يعلمون أنّ إطلاق العنان لمثل هذه الأفكار المنحرفة من شأنه أن يقضى، على فروع و اصول الدين الحنيف بصوره كامله. نصل هنا و إياكم إلى نهاية أبحاثنا، عن كليات المسائل الأخلاقية، في ظل الآيات القرآنية، أبحاث تعتبر الأساس و القاعدة التي يقوم عليها صيرح الأخلاق و تهذيب النفوس، و تفتح أمامنا أبواب المباحث المستقبلية، حول مصاديق الرذائل و الفضائل، واحده بعد اخرى. إلهنا: «إنّ الوصول إلى أوج الفضائل الأخلاقية و الحياة، في أجواء القرب منك، لا تُستطاع إلّا بتوفيقك و تسديدك، فأعنا بعونك، و جُد علينا بفضلك، و قربنا منك، و اجعلنا من أصحاب النفوس المطمئنة، لندخل فيمن يقعون مورداً لخطابك»: «فادخل في عبادي\* و ادخل

جَتَّتِي». الاخلاق في القرآن، ج ١، ص: ٣٤٣ رَبَّنَا! إِنَّ حَبَائِلَ الشَّيْطَانِ قَوِيَّةٌ، وَ سَهَامَهُ مَهْلِكَةٌ، وَ هُوَ النَّفْسُ عَدُوٌّ لَا يَرْحَمُ، وَ رِذَائِلَ النَّفْسِ كَالْأَشْوَاكِ تُؤَخِزُ الرُّوحَ وَ تُؤْذِيهَا، وَ لَا يُجِينُنَا مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا عِنَايَتُكَ الْخَاصَّةُ وَ لَطْفُكَ الْخَفِيُّ. رَبَّنَا! إِنَّا نُسَلِّمُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فِي خِتَامِ حَدِيثِنَا، وَ نَقْرَأُ الدَّعَاءَ الْمَعْرُوفَ الْوَارِدَ عَنِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ نَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا» (١). تمّ والحمد لله الجزء الأول من كتاب الأخلاق في القرآن في ٢٤/٣/١٣٧٦ هـ. ش المصادف ٨/ صفر ١٤١٨ هـ. ق

## الجزء الثاني

### الأخلاق الحسنة والسيئة في القرآن

#### مقدمة (منهج البحث):

تعرضنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (الأخلاق في القرآن) إلى الاصول العامة في المسائل الأخلاقية والمناهج المختلفة لتهديب النفس، والمذاهب الأخلاقية، والدوافع والنتائج وقد بحثنا هذه المواضيع والمسائل بالتفصيل على ضوء ارشادات وتعاليم القرآن الكريم على شكل تفسير موضوعي. ونرى الآن أنّ الوقت قد حان لبحث جزئيات الفضائل والريذائل الأخلاقية بالاستفادة من تلك الاصول العامة واستعراض مواردها على ضوء تعليمات الوحي والآيات القرآنية. ومن ذلك ستعرض في هذا المجال للفضائل والريذائل الأخلاقية على مستوى الآثار والنتائج والعواقب الإيجابية والسلبية لكل واحدة منها، وبالتالي طرق الوقاية من الريذائل الأخلاقية ومعالجتها وكيفية كسب الفضائل والملكات الأخلاقية الحميدة. ولدى ورودنا في هذا الموضوع وهذه الدراسة تأملنا كثيراً في المناهج والنظم الدراسية والعلمية التي يمكن الاستفادة منها في هذا البحث العميق، فهل ينبغي البحث على مستوى المناهج اليونانية في تقسيم الأخلاق إلى أربعة أقسام (الحكمة، العدالة، الشهوة، الغضب)؟ في حين أنّ هذا التقسيم لا يتلاءم ولا ينسجم مع الآيات القرآنية التي نريد دخول هذا البحث من خلالها وعلى ضوءها، ولا- أنّ هذا المنهج خال من العيوب والنقائص التي تمت الإشارة إليها في الجزء الأول. أم أنّ ترتيب الفضائل والريذائل ينبغي أن يكون على مستوى ترتيب حروف الالفباء، في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦ حين أنّ هذا المنهج يختلف كثيراً عن منهج الدراسة المنطقية ولا ينسجم معها كثيراً. أم ينبغي أن نقرر هذه الدراسة وفق منهج المذاهب الشرقية والغربية في المسائل الأخلاقية في حين أنّ كلّ واحدة من هذه المذاهب لا تخلو من مشكلة أو مشكلات منهجية، مضافاً إلى أنّها لا تتناغم مع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم والذي نزمع دراسة القيم الأخلاقية على ضوءه. وفجأة وبلطف الله والالهام الباطني تجلّى لنا منهج جديد في استيعاب المفاهيم الأخلاقية من القرآن الكريم، وهو أننا نعلم أنّ القرآن الكريم خصّص قسماً مهماً من أبحاثه الأخلاقية والسلوكية في ضمن دراسته لسلوكيات الأقسام السالفة وتاريخ المجتمعات البشرية الماضية وما ترجمه الأوائل على المستوى العملي من أخلاق وقيم وفضائل كانت تتحرك في تلك المجتمعات الإنسانية وبالتالي الكشف عن عواقب تلك السلوكيات وعرض نتائج تلك الأعمال والممارسات الأخلاقية، وللانصاف فإن القرآن الكريم بحث المسائل الأخلاقية في دائرة التجربة العينية والخارجية في اطار ممارسة الأقسام السالفة لتتضح النتائج المترتبة عليها لكل قارئ ومستمع إلى هذا التاريخ الغابر، ويخرج منها بنتائج عملية وعميقة. ولهذا السبب رأينا أنّ من الأفضل في معيار نظم المباحث الأخلاقية وبالنظر إلى السياق الذي يحكم دراساتنا الماضية فإننا سوف نجعل من هذه الدراسة التاريخية للقرآن الكريم معياراً حاكماً في هذه المباحث العلمية والأخلاقية. وبعبارة أخرى إننا بحثنا هذه المواضيع من قصة آدم وحواء ووسوسة آدم وهبوطهما من الجنة وما ترتب على ذلك من سلوكيات سلبية أدت إلى هذه الواقعة التاريخية من طرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهي وحرمان آدم وحواء من الجنة وأمثال ذلك، ونعلم أنّ الشيطان قد طرد من الجنة والمرتبة السامية بسبب (الاستكبار) و (الإنانية) و (العجب) وبالتالي بسبب (العناد والتعصب) حيث رفض السجود لآدم، وكذلك وقع آدم وحواء في مصيدة الشيطان بسبب (الحرص) وحيث أكلا من ثمرة الشجرة الممنوعة بدوافع من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص:



٧ وساوس الشيطان، ثم تصل النبوة إلى قصة (هابيل) و (قاييل) وما تضمنت هذه القصة من صفات قبيحة كانت هي الدافع على قتل هابيل، ثم نصل إلى قصة نوح وما جرى على الأقوام البشرية من الطوفان وكذلك الحوادث التي جرت على قوم بنى إسرائيل ونبينهم موسى وما تضمنته من سيرة الأنبياء من الفضائل والمكارم الأخلاقية في ذلك الوسط المنحرف والذي تسبب بأنواع الأذى والعقوبات الإلهية على هؤلاء القوم. هذا المنهج مضافاً إلى كونه جذاباً ومشوقاً فإنه يتناغم مع سياق البحوث القرآنية وتتجلى فيه الفضائل والردائل الأخلاقية في صورة تجسيد عيني لها في حركة الإنسان والواقع الاجتماعي على مستوى الحس والتجربة. نسأل الله تعالى توفيقنا وجميع أفراد المجتمع للتخلص من آثار الرذائل الأخلاقية التي تبدل المجتمع إلى جهنم وإلى نار محرقة، ونسأله تعالى أن يهب لنا التوفيق للتحرك من موقع الفضائل والمكارم الأخلاقية التي تصبغ قلوبنا بالصفاء والطمأنينة وتهب لنا السعادة والمراتب المعنوية السامية في حركة الإنسان التكاملية، أي مرتبة القرب من الله تعالى. (آمين يا رب العالمين). ربيع الأول ١٤٢٠ هـ. ق قم - ناصر مكارم الشيرازي

## التكبر والاستكبار

### تنويه:

إن أول صفة من الصفات الأخلاقية الذميمة وأول رذيلة نقرأها في تاريخ الأنبياء وبداية خلقه الإنسان، وكما يعتقد أكثر علماء الأخلاق أنها أم المفساد والرذائل الأخلاقية وأصل جميع أنواع الشقاء الإنساني، هي (التكبر والاستكبار) والتي وردت في قصة إبليس عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة وكذلك إبليس بالسجود له. هذه القصة المثيرة والمعبرة هي قصة محذرة ومليئة بالعبر لجميع الأفراد والمجتمعات البشرية، والجدير بالذكر أن النتائج والعواقب الوخيمة للتكبر والاستكبار لا تتجلى في قصة خلق آدم فحسب، بل نراها متجلية على طول الخط في سيرة الأقوام السالفة من تاريخ الأنبياء ومدى الدور المخرب والمدمر لهذه الصفة الذميمة في حركة الإنسان والمجتمع البشري. واليوم نرى أن مسألة الاستكبار لها الدور الأول في خلق الأجواء الفاسدة وزيادة المفساد الأخلاقية والاجتماعية في العالم والمجتمعات البشرية المعاصرة وتعد بحق البلاء الكبير على واقع الإنسانية المعاصرة والحضارة البشرية الفعلية والتي لا نجد صدىً واسعاً وتجاوباً من قبل المفكرين والمصلحين في إصلاح هذا الخلل الكبير الذي يتعرض له الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠ المجتمع البشري من جراء هذه الصفة الرذيلة. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما يرشدنا ويُلقي بالضوء على هذا البحث، أي الآيات المتعلقة بسيرة آدم إلى سيرة نبينا الأكرم في دائرة آثار ودوافع هذه الصفة الأخلاقية الذميمة. ١- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (١). ٢- «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ» (٢). ٣- «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لِئَاسِي تَغْشُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» (٣). ٤- «فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» (٤). ٥- «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» (٥). ٦- «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمِمَّا كَانُوا سَابِقِينَ» (٦). ٧- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيينَ وَرُهْنَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١-٨- «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى» (١). ٩- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (٢). ١٠- «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» (٣). ١١- «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا

وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (٤). ١٢- «لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَأَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» (٥). ١٣- «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا» ١٤- «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأَتَفَتَّحَ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَيَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» (٦).

## تفسير واستنتاج:

### البلاء العظيم على طول التاريخ البشري:

إن الآيات القرآنية الكريمة مليئة ببيان مفاصد الاستكبار والعواقب الوخيمة المترتبة على التكبر وكذلك المشكلات البشرية التي تزامنت وترتبت على هذه الصفة الذميمة على طول التاريخ البشري وتأثير هذه الصفة الرذيلة السلبية في تقدم وتكامل الإنسان في أبعاده الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢ المعنوية والمادية حيث لا تخفى على أحد، وما قرأنا في الآيات أعلاه إنما هو في الحقيقة ناظرٌ إلى هذا الموضوع. «الآية الاولى والثانية» تتحدث عن إبليس والقصة المعروفة لسجود الملائكة عندما أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم تعظيماً له وقد كان إبليس في ذلك الوقت في صف الملائكة بسبب علو مرتبته ومقامه، وقد سجد جميع الملائكة إلا إبليس لأنه آثر عصيان الأمر الإلهي وتكبر على الحق وعلى الله، وبالتالي تم طرده من ذلك المقام السامي بسبب رفضه الصريح للسجود وحتى اعتراضه على أصل الأمر الإلهي له، ولذلك أمره الله تعالى بالخروج من ذلك المقام وتلك المرتبة إلى أسفل السافلين حيث تقول الآية: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (١). «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاتَّخِذْ مِنْ الصَّغِيرِينَ» (٢). وفي الحقيقة أن هذه أول معصية وقعت في عالم الوجود هذه المعصية هي التي أدت بمخلوق مثل إبليس والذي كان قد عبد الله ستة آلاف سنة (كما ورد في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة) وأخرج من ذلك المقام بسبب تكبر ساعه فحبطت أعماله وعباداته وطاعاته وسقط من ذلك المقام الذي كان يعد فيه مع الملائكة حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذْ أَحْيَيْتَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَيَّدَ اللَّهُ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ... عَنْ كَثِيرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» (٣). وفي هذه القصة المثيرة والمعبرة نقرأ دقائق ونكات مهمة جداً حول عواقب التكبر ونستوحى منها أن هذه الصفة الرذيلة يمكن أن تؤدي إلى واقع الكفر والخروج من الإيمان تماماً كما ورد في الآيات محل البحث «أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣ وهكذا يتجلى في هذه القصة أن إبليس وبسبب حجاب الكبر والغرور قد تعامل مع الواقع من موقع الجهل التام حيث خاطب الله تعالى من موقع الاعتراض والرفض للأمر الإلهي وقال: «قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَاجِدٍ لِيَبْشُرَ خَلْقَتَهُ مِنْ صِيْلَصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (١). في حين أن من الواضح أن شرف آدم لم يكن لأنه مخلوق من الطين بل بسبب تلك النفخة الإلهية والروح الإلهي التي نفخها الله تعالى في آدم: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٢)، وحتى إبليس لم يكن ليدرك أفضلية التراب على النار، التراب الذي صار مصدر جميع البركات في واقع الخلق وظهور الحياة وأنواع المعادن والذخائر الطبيعية من الماء والنباتات وسائر المواد الاخرى التي تتولد منها النار ولذلك قال بمنتهى الغرور «خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٣). مضافاً إلى أن الكثير من الأشخاص الذين يقعون في الخطيئة والزيف فإنهم قد يعودون إلى مسارهم الفطري والسليم بعد أن يدرکوا خطئهم ويتحركوا من موقع إصلاح الخلل والتوبة، ولكن حالة التكبر والاستكبار هي من الامور التي لا تفسح المجال للإنسان المخطيء في سلوك طريق التوبة بعد الانتباه وإدراك الخطأ، ولهذا السبب فإن الشيطان عندما التفت إلى خطئه لم يتب منه، لأن الكبر والغرور لم يسوغ له أن يتحرك من موقع التسليم والتعظيم لجوهر الخلق (أي الإنسان) بل إنه زاد من تكبره وعناده وأقسم على إضلال جميع الناس (إلا عباد الله المخلصين) وطلب من الله تعالى العمر المديد ليستمر في غيبه ونصب شركائه وفخاخه لئلا يضلهم عن سبيل الله وعن سلوك طريق الحق. وبهذا فإن التكبر والأناية والعجب وأمثال ذلك تعد مصدراً من مصادر الحالات السلبية والصفات الذميمة الاخرى من

قبيل الحسد، الكفر، الإفساد، ارتكاب الفحشاء والمنكر. وبهذا يكون الشيطان كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة القاصعة قد وضع أساس الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤ التكبر والتعصب في الأرض وعمل على التصدي للقدرة الإلهية المطلقة من موقع العناد واللجاجة: «فَعَدُّوا لِلَّهِ أَمَامَ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَيَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِيَّاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّنَدُّلِ» (١). وبسبب هذه الحالة الدنيئة والفعل الدنيء فإن الله تعالى قد جعل الشيطان ذليلاً وألبسه لباس الهوان والحقارة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة: «أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبَرِهِ وَوَضَعَهُ بِتَرْفُعِهِ فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْجُوراً، وَاعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعيراً» (٢). والخلاصة أنه كلما تدبرنا في قصة إبليس وافرازات التكبر والغرور فإننا نستجلى دقائق مهمية وكثيرة عن أخطار التكبر والاستكبار. «الآية الثالثة» تتحرك حول استعراض قصة نوح أول أنبياء اولى العزم وصاحب الشريعة، هذه القصة توضح لنا أن المصدر الأساسي للكفر وعناد قوم نوح مع نبيهم يمتد إلى حيث صفة التكبر والاستكبار. فعندما نقرأ الشكوى التي تقدم بها نوح إلى الله تعالى من قومه نجد أنه يؤكد على هذه المسألة وهي أن مخالفتهم نابعة من شدة استكبارهم حيث تقول الآية: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا» (٣). فهنا نرى أيضاً أن التكبر ورؤية الذات من موقع الغرور والعجب والتفوق على الآخرين يمثل منبع الكفر والعناد مع الحق. لقد كان تكبرهم إلى درجة أنهم لم يتحملوا حتى سماع كلام الحق والذي يمكن أن يؤثر في تبيهم وإيقاضهم من ضلالهم ولذلك كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥ ثيابهم على رؤوسهم لكي لا يصل إليهم صوت نوح ويتأثروا بهذا الكلام الإلهي الصادر من أعماق الفطرة الإنسانية، فهذا العداء وهذه الكراهية لكلام الحق ليس لها مسوغ ودافع سوى حالة التكبر الشديد الذي كان يعيشه هؤلاء القوم الظالمون. هؤلاء كانوا يتعرضون لنوح ودعوته ويتساءلون من موقع الاعتراض أن نوح كان يحيط به الأراذل من الناس والفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الضعيفة من المجتمع، فلذلك قرروا عدم الاقتراب من نوح والجلوس معه ما دام هؤلاء الأراذل والضعفاء بحسب تعبيرهم مع نوح. أجل فإن التكبر والأناية العجيبة التي كان يعيشها هؤلاء الناس كانت قد أحرقت الفضائل الأخلاقية في واقعهم وحولتها إلى رماد. وفي الحقيقة فإن هذه الرذيلة الأخلاقية وهي التكبر تعد عاملاً أساسياً لعنادهم وإصرارهم على الكفر إلى درجة أنهم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويغطون رؤوسهم بثيابهم خوفاً من تأثير كلام نوح في أنفسهم. ومن الملفت للنظر أن هذا العمل إنما يدل على أنهم كانوا يعترفون في قرارة أنفسهم بحقانية دعوة نوح ويعتقدون به ويدل على ذلك وضعهم أصابعهم في آذانهم وتغطيتهم رؤوسهم بثيابهم. ويحتمل أيضاً أنهم كانوا يغطون رؤوسهم بثيابهم لكيلا يروا نوح ولا يراهم نوح فلعل رؤيتهم له توجب الأناة به والرغبة والميل لسماع كلماته. وأخيراً فإن حالة العجب والغرور ورثتهم الجهل وعدم سماع انذارات نوح عليه السلام في آخر لحظات العمر حيث كانت هناك فرصة للنجاء فلم يكونوا يحتملون صدقه في هذا الانذار لذلك عندما كان نوح عليه السلام يصنع السفينة فإن هؤلاء القوم الظالمين كانوا يمزون عليه ويهزءون به ويسخرون منه ولكن نوح كان قد حذرهم بقوله: «... أَنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» (١)، ولكن في ذلك اليوم سوف لا تكون لكم فرصة للتبته حيث تحيط الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦ بكم أمواج البلاء والطوفان فلا ملجأ. وأساساً فإن أحد علامات المستكبرين هو أنهم لا يتعاملون مع المسائل التي لا تدور في دائرة مصلحتهم ومنفعتهم من موقع الجدئية بل يتخذونها وسيلة للعب واللهو ويتحركون دائماً من موقع الاستهزاء والسخرية بالمستضعفين حيث يمثل ذلك جزءاً من سلوكهم وديندهم في حياتهم، وكم رأينا أنهم في مجالسهم ينطلقون للعثور على مؤمن مستضعف ليجعلونه محور سخريتهم وضحكهم، وبذلك يكون هذا السلوك منشأاً للترفيه عن أنفسهم، فهؤلاء وبسبب هذه الروح الاستكبارية يرون أنهم العقل الكلي ويتصورون أن الثروة التي اكتسبوها من الطريق الحرام هي علامة وآية لكائهم ولياقتهم التي تبيح لهم أن يتعاملوا مع الآخرين من موقع التحقير والتهميش. وفي «الآية الرابعة» نتجاوز عصر نوح عليه السلام لنصل إلى عصر (قوم عاد) ونبيهم هود عليه السلام، وهنا نرى أن السبب الأساس لشقاء هؤلاء القوم الظالمين هو عامل التكبر وروح الاستكبار المترسخة في نفوسهم حيث تقول الآية: «فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» (١).

وهنا نرى أيضاً أنّ هذه الصفة الأخلاقية الذميمة وهي صفة التكبر والاستكبار كانت سبباً بأن يتصوروا أنفسهم أقوى الموجودات في عالم الخلق وحتى أنهم نسوا قدرة الله تعالى وبالتالي تعاملوا مع الآيات الإلهية من موقع الإنكار وأوجدوا جداراً سميكاً بينهم وبين الحق. والملفت للنظر أنّ الآية التي تليها (الآية ١٦ من سورة فصلت) تشير إلى أنّ الله تعالى ولأجل تحقير هؤلاء المتكبرين المعاندين قد سلط عليهم اعصاراً شديداً ومهولاً في أيام نحسات بحيث جعلت من أجسادهم كالرماد المبتوث وكالريشة في مهب الريح. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧ أجل فإنّ التكبر يعدّ حجاباً على بصيرة الإنسان يمنعه من رؤية أيّة قدرة فوق قدرته حتى أنّه لا يرى قدرة الله تعالى على نفسه وأفعاله. وتعبير «بغير الحق» هو في الواقع قيد توضيحي، لأنّ التكبر والاستكبار بالنسبة للإنسان هو بغير حق دائماً وبأية حالة، فلا يليق بالإنسان أن يتصرّف من موقع التكبر ويلبس هذا الرداء الذي لا يليق إلا بالقدرة الإلهية المطلقة. «الآية الخامسة» تتحدّث عن زمان شعيب وقومه، وهنا نرى أيضاً أنّ السبب الأساسي لشقاء قوم شعيب وضلالهم هو الاستكبار حيث تقول الآية: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «١». لماذا يجب على شعيب والذين آمنوا معه وسلكوا طريق التقوى والانفتاح على الله أن يخرجوا من ديارهم ومدنهم؟ هل هناك دليل آخر غير تحرّك الأثرياء والمتكبرين من قوم شعيب في التصدي للدعوة الإلهية والرسالة السماوية ونظرتهم إلى الذين آمنوا من موقع الاستصغار والاستحقار وبالتالي الانطلاق في سبيل الغنائم وفيهم وإبعادهم عن ديارهم؟ أما قولهم «أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا» فلا يعني أنّ الذين آمنوا مع شعيب كانوا على ملّة هؤلاء المستكبرين ودينهم، بل بسبب أنّهم كانوا منسويين إليهم وإلى هذه المدينة، ونعلم أنّ التكبر وحبّ الذات يوجب على الإنسان المتصف بهذه الصفة أن يرى كلّ شيء متعلّقاً به ومن ممتلكاته. «الآية السادسة» ناظرة إلى عصر موسى وفرعون وقارون، حيث تتحدّث هذه الآية عن قصة هؤلاء وترى أنّ العامل الأساس لانحراف وضلال وشقاء قوم فرعون هو حاله التكبر فتقول: «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ الْاِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٨ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ» «١»، ولهذا السبب فإنّهم لم يدعوا للحقّ وبالتالي فقد أصابهم عذاب الله وأهلكهم ولن يستطيعوا الفرار منه. (قارون) ذلك الرجل الثرى الذي كان يرى أنّ ثروته العظيمة دليلاً على مقامه ومنزلته السامية عند الله تعالى وكان يرى أنّ هذه الثروة العظيمة إنّما حصل عليها بسبب لياقته وذكائه، ولذلك تملكه الغرور والفرح والفخر، فكان يخرج على قومه من فقراء بنى إسرائيل بعظيم الزينة ومظاهر الثروة إصراراً منه على تحقيرهم وإذلالهم، وكلّما نصحوه بأن يستخدم هذه الثروة لنيل الدرجات العليا في الآخرة والسعادة المعنوية في حركة الحياة والمجتمع، فإنّ هذه النصائح لن تؤثر فيه وذهبت أدراج الرياح، لأنّ الغرور والتكبر منعه من إدراك حقائق الأمور وصدّه عن دفع هذه الأمانة الإلهية التي بيده لأيام معدودة لأصحابها الواقعيين. أمّا «فرعون» الذي جلس على عرش السلطنة والقدرة فإنّه قد أصابه الغرور والتكبر بأشد من صاحبه حتى أنّه لم يقنع من الناس بعبوديتهم له بل كان يرى نفسه أنّه (ربّهم الأعلى). أمّا «هامان» الوزير المقرب لفرعون والذي كان شريكاً له في جميع جرائمه ومظالمه بل إنّ جميع إدارة أمور المملكة كانت بيده فإنّ القرآن الكريم صرّح أيضاً بأنّه ابتلى بالكبر والغرور الشديد. هؤلاء الثلاثة اتّحدوا في مقابل موسى عليه السلام ودعوته الإلهية وانطلقوا في الأرض فساداً وأمعنوا فيها اضلالاً للناس وإذلالاً لهم إلى أن شملهم العذاب الإلهي الشديد، فأغرق فرعون وهامان في أمواج النيل الهادرة حيث كانوا يعدون النيل مصدراً لقدرتهم وأساساً لملكهم، أمّا قارون فقد ابتلعه الأرض بكنوزه وثرواته الطائلة. «الآية السابعة» تتحدّث عن قوم عيسى بن مريم عليه السلام والفرق بينهم وبين اليهود حيث الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٩ تقول: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عِدَاً وَهُنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّةً وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» «١». ثم تذكر الدليل والعلمة لهذا التفاوت والفرق بين هاتين الطائفتين وتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّةً وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ». ومن هذه العبارة يتضح جيداً أنّ أحد العوامل الأصلية لعداء اليهود للذين آمنوا هو حالة التكبر والاستكبار تجاه الحقّ في حين أنّ أحد أدلّة تعامل النصارى مع المؤمنين من موقع المحبّة واللطف هو عدم وجود هذه الصفة الذميمة في أنفسهم. إنّ الأشخاص الذين يعيشون التكبر والاستكبار يريدون أن يقف الآخرون أمامهم موقف الذلّة والحقارة والعجز،

ولهذا السبب فإنهم إذا رأوا يوماً نعمته قد أنعم الله بها على الآخرين فإنهم يجدون في أنفسهم عداءً وكرهية شديدة تجاه هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، أجل فإن الاستكبار هو سبب الحسد والحقد والعداء تجاه الحقّ والناس. صحيح أن هذه الآية لا تتحدث عن جميع النصارى بل ناظرة إلى النجاشى وقومه فى الحبشة الذين استقبلوا المسلمين المهاجرين إليهم أحسن استقبال ولم يلتفتوا إلى وسوس أزلام قريش الذين أرسلتهم قريش ليحركوا النجاشى على طرد المسلمين من الحبشة وتسليمهم إلى المشركين، وهذا الأمر هو الذى تسبب فى أن يجد المسلمون فى أرض الحبشة ملجأً وملاذاً لهم من شر المشركين الذين كانوا ينصبون لهم أشد العداوة والكرهية، ولكن الآية على أية حال تقرر أن الاستكبار هو العامل الأساس للعداوة والبغضاء للحقّ وأهل الحقّ فى حين أن التواضع يعد أساساً للمحبة وتعميق أو اصر العلاقة والعاطفة مع أهل الإيمان والخضوع مقابل الحقّ. «الآية الثامنة» تتحرّك من موقع التأكيد على هذا المعنى وتقرير هذه الحقيقة المهمة، الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٠ وهى أن الاستكبار هو سبب (الكفر والعداوة وعدم المرونة مقابل الحقّ)، وهنا تستعرض الآية حالة (الوليد بن المغيرة المخزومي) الذى كان يعيش فى عصر نزول القرآن وتصف حالته فى مقابل الحقّ والآيات القرآنية وتقول: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ\* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ\* فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُؤْتِرُ\*» (١). كلمة «سحر» توضح جيداً أن الوليد قد أقرّ واذعن بهذه الحقيقة وهى أن القرآن الكريم له تأثير عجيب على الأفكار والقلوب ويتمتع بجاذبية كبيرة لعواطف الناس، فلو أن الوليد نظر إلى هذه الآيات نظر المنصف والطالب للحقّ فإنه سوف يعد هذا التأثير الغريب للقرآن دليلاً على إعجازه، وبالتالي سوف يؤمن به، ولكن بما أنه كان ينظر إليه من خلال حجاب الغرور والتكبر فإنه كان يرى فيه سحراً كبيراً كسحر الأقوام السالفة، أجل فكلما تراكم حجاب التكبر على بصيرة الإنسان وقلبه فإنه سينظر إلى آيات الحقّ بنظر الباطل وينقلب الباطل فى نظره إلى حقّ. والمشهور أن الوليد كان يعيش الغرور إلى درجة أنه كان يقول: «أَنَا الْوَحِيدُ بْنُ الْوَحِيدِ، لَيْسَ لِي فِي الْعَرَبِ نَظِيرٌ، وَلَا لِأَبِي نَظِيرٌ!» فى حين أن الوليد كان يُعتبر بالنسبة إلى الناس فى ذلك الزمان رجلاً عالمياً وقد أدرك عظمة القرآن جيداً وقال فيه عبارة عجيبة مخاطباً بنى مخزوم: «إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاءَهُ لَمُثَمَّرَةٌ وَإِنَّ اسْفَلَهُ لَمُعَدَّقٌ، وَأَنَّهُ لَيُعْلَوُ وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ». هذا التعبير يقرب بوضوح إلى أن الوليد أدرك عظمة القرآن أكثر من أى شخص آخر من قومه ولكن التكبر والغرور منعه من رؤية شمس الحقيقة والإذعان لنور الحقّ. وتأتى «الآية التاسعة» لتستعرض فى سياقها خطاب مؤمن آل فرعون لقومه ويحتمل أن تكون هذه الآية جزءاً من خطابه أو جملة مستقلة معترضة من الآيات القرآنية الكريمة حيث نقرأ فيها قوله تعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَّقْتًا لِاخْتِلَافِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢١ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَّكِبٍ جَبَّارٍ» (١). «يطبع» من مادة «طبع» وتأتى فى هذه الموارد بمعنى الختم، وتشير إلى عمل تم فى الماضى والحال ويراد به الشيء الذى يُراد بقائه دون استخدام وتصرف فيغلق عليه ويُسد بابه ويوضع عليها مادة لاصقة إما من الطين أو الشمع أو ما شابه ذلك ويختم عليها بختم معين بحيث إذا أراد شخص فتحه سيضطر إلى كسر هذا الختم وبالتالي سيُضح ويتبين أنه تصرف فيه فيحال إلى المحكمة. وعلى هذا الأساس فإن عملية الطبع والختم على قلوب المتكبرين يشير إلى أن عناد هؤلاء وعدائهم للحقّ قد أسدل على قلوبهم وأفكارهم حجاباً ظلامياً بحيث لا يقدرّون معه على إدراك حقائق عالم الوجود، ولا يرون سوى أنفسهم ومصالحهم وأهوائهم النفسية ونوازعهم الدنيوية، فكانت أذهانهم وعقولهم بمثابة ظروف مغلقة لا يمكن معها من إفراغ محتواها الفاسد ولا ملئها بالمحتوى السليم والفكر الصحيح، وهذا فى الواقع هو نتيجة التكبر وحالة الجبارية التى يعيشها هؤلاء الاشخاص، وفى الواقع فإنّ الصفة الثانية متولدة من الصفة الاولى لأنّ (جبار) تأتى فى هذه الموارد بمعنى الشخص الذى يعاقب وينتقم من مخالفيه من موقع الغضب الشديد والنقمة لا- من موقع العقل والحكمة، وبعبارة اخرى: أنّ الجبار هو الشخص الذى لا يرى إلمان نفسه وأهوائه ولا يرى للآخرين محلاً من الإعراب سوى أنهم اتباع له. وبالطبع فإنّ هذه المفردة «الجبار» تطلق أحياناً على الله تعالى أيضاً ويراد بها مفهوم خاص وهو الشخص الذى يُجبر نقائص الآخرين ويصلحها. وتطلق «الآية العاشرة» لتشير إلى أصل كل لا يختص بطائفة معينة، وهو أنّ الكافرين عندما يقتربون من حافة جهنم يُقال لهم إنّ هذا العذاب هو بسبب أنّكم تتصفون بصفة التكبر الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٢ فتقول الآية: «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى ا

لَمُتَكَبِّرِينَ» (١). وشبه هذا المعنى قد ورد فى آيات متعددة اخرى من القرآن الكريم منها ما ورد فى الآية ٦٠ من سورة الزمر: «الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ». ومن الملفت للنظر أن من بين جميع الصفات الأخلاقية الذميمة لأصحاب النار قد أكدت الآية على مسألة التكبر مما يقرر هذه الحقيقة، وهى أن هذه الصفة الذميمة هى الأساس فى سقوط هؤلاء فى هذا المصير المؤلم بحيث تكون جهنم هى مقرهم النهائى ومصيرهم الخالد. ومما يلاحظ فى هذه الآية أن كلمة «مثنوى» من مادة «ثوى تعنى المحل الدائم والمقر الذى يستقر فيه الإنسان فى نهاية المطاف، وهو إشارة إلى أن هؤلاء لا نجاه لهم من العذاب الأليم فى الآخرة. «الآية الحادية عشر» تتحدث أيضاً عن المتكبرين بشكل عام وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (٢). هذه العبارات المثيرة الواردة فى هذه الآية الكريمة تخبر عن عمق المصيبة التى يبتلى بها هؤلاء المتكبرون، فإن الله تعالى سيجازى هؤلاء الأشخاص ويعاقبهم من موقع أنهم لا يجدون فى أنفسهم قبولاً للحق بحيث إنهم لو رأوا جميع آيات الله ومعجزاته المتنوعة فإنهم لا يفتحون على الإيمان ولا يسلكون خط الصلاح والهدى ولو أنهم وجدوا الصراط المستقيم مفتوحاً أمامهم فإنهم لا يسلكونه بل إذا وجدوا طريق الغى والضلال فإنهم يسلكونه من فورهم ويتحركون فى خط الضلالة والباطل والانحراف. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٣

وعبارة «بغير الحق» هى فى الواقع قيد توضيحي لأن العظمة والكبرياء مختصان بالله تعالى وقدرته المطلقة، وأما بالنسبة للإنسان الذى ليس سوى ذرة صغيرة من ذرات عالم الوجود الواسع، فإن رداء العظمة والكبرياء بالنسبة له ليس حقاً وليس من حقه أن يرتدى هذا الرداء. بعض المفسرين ذهبوا إلى أن هذا القيد هو قيد احترازي وقالوا: إن التكبر على قسمين: تكبر فى مقابل أولياء الله فهو (بغير الحق) وفى مقابل ذلك التكبر فى مقابل أعداء الله وهو (بالحق) ولكن مع الالتفات إلى جملة «يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ» يتضح جيداً أن هذا التفسير غير منسجم مع سياق الآية لأن التكبر فى الأرض وفى مقابل البشر جميعاً هو خلق مذموم وقبيح بصورة مطلقة. وعلى أية حال فإن الآية الشريفة تشير فى سياقها إلى أهم آثار وعواقب التكبر الوخيمة، وهى أن مثل هذا الإنسان لا يدعن أمام آيات الحق ولا يؤمن بها بل على العكس من ذلك، فإنه وبسبب هذه الصفة الذميمة سيدخل أبواب الضلالة، ويسلك سبيل الغى لدى مشاهدته فوراً. أجل فإن صفة الكبر والغرور تمثل حجاباً على قلب الإنسان وروحه مما يتسبب أن يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وبذلك يحجب عن الإنسان أبواب السعادة والنجاه ويفتح له أبواب الضلالة وعلى أساس أنها أبواب السعادة، فما أعظم شقاء الإنسان الذى لا يرى علامات الحق ويتغافل عنها ويسلك طريق الضلالة والزيغ والانحراف ويتصور أن هذا المسير هو الذى يؤدى به إلى السعادة والنجاه!! «الآية الثانية عشر» تقول: «لَمَّا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُؤُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَأُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» (١). وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى القرآن الكريم مرات عديدة من قبيل قوله: الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٤ «وَاللَّهُ لَأُحِبُّ الظَّالِمِينَ» (١). «وَاللَّهُ لَأُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» (٢). «إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (٣). «إِنَّهُ لَأُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (٤). «إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْخَائِنِينَ» (٥). «إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْفَرِحِينَ» (٦). ويقول فى الآية محل البحث: «أَنَّهُ لَأُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». إن التدقيق فى مثل هذه العبارات يوضح وجود رابطة خاصة بين هذه الامور المذكورة فى هذه الآيات، بحيث يمكن القول أن القدر المشترك بين الصفات الرذيلة فى هذه الآيات السبعة المذكورة آنفاً هو حب الذات والغرور والعجب أو التكبر الذى يعد منبعا للظلم والفساد والإسراف والفخر على الآخرين. وهنا تقول الآية: إن الله تعالى لا يحب أيّاً من هذه الطوائف السبعة، ومفهومها أن من يتصف بهذه الصفات ويكون مصداقاً لأحد هذه الطوائف فإنه مطرود من ساحة الربوبية والرحمة الإلهية الواسعة، لأنه متصف بأخطر الرذائل الأخلاقية، وهى التكبر المانع من القرب إلى الله تعالى. «الآية الثالثة عشر» من الآيات محل البحث وكما ورد فى الروايات فى شأن نزولها أنها تتحدث عن طائفة من نصارى نجران وتقول: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ... الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٥ لَمَلِكَةً أَلْمَقْرُبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» (١). وتقول الآية التى تليها مؤكدة على أصل مهم ومصيرى فى حياة الإنسان والمجتمع البشرى: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» (٢). هذه

الآيات ناظرة إلى دعوى واهية لطائفة من النصارى الذين ذهبوا إلى إلهية المسيح وتصوروا أنهم لو أنزلوا المسيح من هذا المقام وأنه عبد الله فإن ذلك سيكون هتكاً لحرمة وإهانة لساحته ومقامه السامى. وأما القرآن فيقول لهم أنه ليس المسيح ولا أى واحد من الملائكة أو من المقرّبين له هذا المقام، ولا يتصور أحد منهم ذلك بل يرون أنفسهم عباد الله ويدعون أمام هذه الحقيقة الناصعة، ويأتون بطقوس العبودية له، ثم يذكر القرآن أصلاً كلياً ويقول: إذا تحرك أى واحد من المخلوقين حتى الأنبياء الإلهيين أو الملائكة المقرّبين مبتعداً عن خط العبودية ومتلبساً بلباس الاستكبار أمام الحق تعالى واستنكف عن عبادته وتكبر فإنه سوف لا يستطيع انقاذ نفسه من العذاب الإلهى ولا- يستطيع أحد انقاذه من خالق العقاب الأليم المقرّر له. والملفت للنظر أن الآية الأخيرة تقرّر أن الإيمان والعمل الصالح يقعان فى النقطة المقابلة، للاستكبار والأنانية ورؤية الذات أعلى من الواقع، وبالتالي يمكننا أن نستوحى منها هذه النتيجة، وهى أن من يسلك طريق الاستكبار وينطلق فى فكره وسلوكه من موقع التكبر فليس له إيمان حقيقى ولا- عمل صالح. «الاستنكاف» فى الأصل من مادّة «نكف» على وزن «نصر» وهى فى الأصل بمعنى مسح قطرات الدموع على الوجه بالأصابع، وعليه فىكون الاستنكاف من عبودية الله تعالى الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٦ يعنى الابتعاد عنه وذلك بسبب أحد العوامل المختلفة من قبيل الجهل أو الكسل وحب الراحة وغير ذلك، ولكن عندما وردت جملة «استكبروا» بعد هذه العبارة فإن ذلك يشير إلى الاستنكاف البذى يقع من موقع الكبر والغرور ويكون معلوماً لهما، وبذلك يكون ذكر هذه الجملة بعد تلك العبارة فى الواقع إشارة إلى هذه النكتة الدقيقة. وعلى آية حال فإن التعبيرات المثيرة فى هذه الآيات تدلّ على أهمية هذه المسألة وأن هذه الصفة الذميمة وهى الاستكبار تنتج هذه العواقب الوخيمة لدى كل إنسان يتصف بها. وفى «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات محل البحث نقرأ نتيجة أخرى من النتائج الخطيرة والإليمة المترتبة على حالة الاستكبار حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأُفَتِّحَنَّ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَيَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» (١). وفى هذه الآية الشريفة ورد أولاً (التكذيب بآيات الله) إلى جانب (الاستكبار) وكما ذكرنا سابقاً أن أحد العلل المهمة لإنكار آيات الله والتصدى لدعوة الأنبياء هى حالة الاستكبار التى يعيشها الأقسام البشرية، فأحياناً كانوا يقولون: ما هو امتياز هذا النبى عنا؟ ولماذا نزلت عليه آيات الله دوننا؟ ويقولون أحياناً أخرى: إن الاراذل والفقراء من الناس إلتفوا حوله ونحن أعلى شأنًا من أن نكون كأحدهم، ولو أن هذا النبى قد طرد هؤلاء المؤمنين به من حوله فسوف يفسح لنا المجال للدخول فى مجلسه والمشاركة فى الاستماع لكلماته ومواعظه، وهكذا من خلال هذه التبريرات والذرائع الواهية كانوا يعرضون عن الإيمان بالله والتحرّك فى خط المسؤولية. عبارة: «وَلَيَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» التى وردت فى القرآن الكريم فى هذه الآية فقط هى تأكيد واضح على عظمة هذه الخطيئة وهذا الاتصاف السلبي والخطير فى حركة الإنسان فى الحياة، أى كما أن عبور الجمال (أو طبقاً لتفسير آخر: الحبل الضخم) غير ممكن ومستحيل من ثقب أبرة فإن دخول المتكبرين إلى الجنة والنعيم الإلهى الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٧ محال أيضاً، ولعل ذلك يشير إلى أن طريق الجنة إلى درجة من الدقمة بحيث يشبه ثقب الأبرة ولا- يمر من خلاله إلا من تحلى بصفة التواضع ورأى نفسه من واقع حاله. وجملة: «لَمَّا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» هى إشارة إلى ما ورد فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهو أن المؤمنين عندما ينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الاخرى أن روحهم وأعمالهم تصعد إلى السماء وتفتح لهم أبواب السماء ويستقبلهم الملائكة، ولكن عندما يصعد بروح الكفار والمتكبرين وأعمالهم إلى السماء فسوف توصل أبواب السماء أمامهم وينادى المنادى أنه أذهبوا بها إلى جهنم وبئس المصير.

### النتيجة النهائية:

ونستنتج من مفهوم الآيات المذكورة آنفاً أن القرآن الكريم يعتبر (التكبر والاستكبار) من أقبح الصفات والأعمال على مستوى السلوك البشرى، وأن هذه الصفة الذميمة يمكنها أن تكون مصدراً للكثير من الذنوب العظيمة وحتى أنها قد تورث الإنسان حالة

الكفر بالله تعالى والأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة لا يتسنى لهم إدراك معنى السعادة الحقيقية والطريق إلى مرتبة القرب الإلهي موحد أمامهم، وعليه فإن على السالكين طريق الحق لا بد لهم قبل كل شيء من تطهير أنفسهم وقلوبهم من تلوثات هذه الصفة الأخلاقية القبيحة بأن لا يروا لأنفسهم تفوقاً في وجودهم على الآخرين ولا ينطلقوا في تعاملهم مع الناس من موقع التكبر والأنانية، فإن هذه الحالة من أكبر موانع الوصول إلى الله تعالى والقرب المعنوي من الكمال المطلق.

### التكبر في الروايات الإسلامية:

وقد ورد في المصادر الروائية أحاديث كثيرة على مستوى ذم التكبر وبيان حقيقته ونتائجه الوخيمة على الفرد في حركة الحياة والواقع وطرق علاجها ولا يسعنا ذكر هذه الروايات بأجمعها في هذا المختصر، ولكننا نكتفي منها بما يلي: ١- ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْكِبْرَ فَإِنَّ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ الْكِبْرُ عَلَى أَنْ لَا يَسِيْرَ جَدَّ لَأَدَمَ» (١). ٢- وهذا المعنى نفسه ورد بتعبير آخر في خطب نهج البلاغة حيث نقرأ في الخطبة القاصعة كلاماً كثيراً عن (تكبر إبليس) والنتائج المترتبة على ذلك حيث يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهَّدَهُ الْجَهِيدَ ... عَنْ كِبْرِ سَاعِيَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ ذَا بَعْدِ إِبْلِيسَ يَسِيْرُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ» (٢). إن العبارات المثيرة أعلاه تبين جيداً أن التكبر والأنانية وحالة الفوقية التي يعيشها إبليس والإنسان بإمكانها أن تفضي، ولو في لحظات قليلة، إلى أخطر العواقب الوخيمة وكيف أنها كالنار المحرقة التي تأتي على الأخضر واليابس من الأعمال الصالحة فتحرقها وتجعلها رماداً منشوراً وتتسبب في الشقاء الأبدي والعذاب الخالد لصاحبها. ٣- وفي حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِحْدَرِ الْكِبْرَ فَإِنَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةٌ لِلرَّحْمَنِ» (٣). وهذا الحديث الشريف يبين هذه الحقيقة، وهي أن مصدر الكثير من الذنوب والخطايا هي حالة الكبر والفوقية التي يعيشها الإنسان بالنسبة إلى الآخرين. ٤- وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَا دَخَلَ قَلْبٌ أَمْرِي شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلُ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ! قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ» (٤). ٥- وفي أصول الكافي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أُصُولُ الْكُفْرِ ثَلَاثَةٌ، الْإِحْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٩ الْحِرْصُ وَالْأَسِيْرَتِ كِبَارُ وَالْحَسِيْدُ، فَمَا مَّا الْحِرْصُ فَإِنَّ آدَمَ حِينَ نُهِيَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الْحِرْصُ عَلَى أَنْ أَكَلَ مِنْهَا، وَمَا الْأَسِيْرَتِ كِبَارُ فَاِبْلِيسُ حَيْثُ أَمَرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَابِي، وَمَا الْحَسِيْدُ فَاِبْنُ آدَمَ، حَيْثُ قَتَلَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ» (١). وعليه فإن أول الذنوب التي نشأت على الأرض كان مصدرها هذه الثلاثة من الصفات الأخلاقية الذميمة. ٦- وفي حديث آخر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» (٢). ٧- وفي حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «أَقْبَحُ الْخُلُقِ التَّكْبَرُ». إن الأحاديث الإسلامية الواردة في المصادر الروائية كثيرة في هذا الباب ولكن هذا المقدار المحدود من هذه الأحاديث يكفي لبيان شدة قبح هذه الرذيلة. فقد قرأنا في الأحاديث المذكورة آنفاً أن الكبر هو مصدر الذنوب الأخرى، وعلامة على نقصان العقل، وسبباً لإهدار طاقات الإنسان وقواه المعنوية، ويعتبر من أقبح الرذائل الأخلاقية بحيث إنه يتسبب في حرمان الإنسان من دخول الجنة في نهاية المطاف، وكل واحد من هذه الأمور بحد ذاته يمكن أن يكون عاملاً مؤثراً في ردع الإنسان عن التحرك في هذا الاتجاه وسلوك طريق التكبر، فكيف بأن يتصف بمثل هذه الصفة الذميمة التي تؤدي إلى سقوطه من مقام الإنسانية ومرتبة الإيمان في حركة التكامل المعنوي؟

### التكبر في منطق العقل:

ومضافاً إلى الآيات والروايات الشريفة فإن (التكبر والاستكبار) يُعتبر مذموماً في منطق العقل بشدة، لأن العقل يرى أن جميع أفراد البشر هم عباد الله تعالى وكل إنسان يجد في نفسه نقاط إيجابية وقابليات وملكات في طريق الكمال، وكلهم من أب واحد وأم واحدة، فهم سواسية في ميزان الخلق، فلا دليل على أن يرى أي إنسان نفسه أعلى من الآخرين ويفتخر على غيره ويسعى لتحقيره،



وحتى لو رأى في نفسه موهبة من الله تعالى لم تكن لدى الآخرين، فمثل هذه الموهبة يجب أن تكون سبباً ليتحرك في خط الشكر لله تعالى والتواضع لا في خط الكبر والغرور. إن قباحة هذه الصفة الذميمة يعد من البديهيات التي يشعر بها كل إنسان في وجدانه ويعترف بها، ولهذا فإن الأشخاص الذين لا يعتقدون أي دين ومذهب يذمون حالة التكبر والأناية أيضاً ويرون أنها من أقيح الصفات والسلوكيات في دائرة السلوك الإنساني. وفي الواقع فإنّ قسماً مهماً من مسألة (حقوق الإنسان) التي تم تدوينها من قبل مجموعة من المفكرين غير المؤمنين ناظرة إلى مسألة التصدي لحالة الاستكابر الدولي، ومع أننا قد نرى من الناحية العملية نتائج معكوسة على هذا القرار الدولي بحيث أصبح أداة طيعة بيد المستكبرين للتحرّك من موقع إدانة الآخرين لا العمل على تطبيق هذه المقررات الأخلاقية بإنصاف على جميع الدول والمجتمعات البشرية المعاصرة. وأساساً كيف يرتدى الإنسان رداء التكبر في حين إنه وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام كان في البدايه نطفة حقيرة، ثم جيفة تنته، ثم هو فيما بينهما يحمل العذرة؟ الإنسان ضعيف وعاجز إلى درجة أن البعوضة تؤذيه وحتى أقل من البعوضة، أي المكروب والفيروس الّذي لا يرى بالعين المجردة قد يوقعه في حبال المرض الشديد ويؤدى به إلى أن يرقد على سرير المرضى لمدة طويلة، والإنسان الّذي يتالم من حرارة الهواء أو برودته ولو انقطع المطر مدة عنه لشعر بالهلاك والتلف ولو أن المطر زاد قليلاً عن المألوف لوقع في مصيبة أدهى ولو أنه قد ارتفع ضغطه قليلاً لوقع في خطر الموت وكذلك لو انخفض ضغطه أيضاً، وهو لا يعلم مصيره ومستقبله حتى لمدى ساعة من المستقبل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١ القريب ولا يعلم متى يحين أجله وقد يكون أقرب الناس إليه هو الّذي يقتله ويذهب بحياته، وقد يكون الماء الّذي يروى حياته موجباً لموته أيضاً، وكذلك الهواء الّذي يتنّسّمه ويستنشقه قد يتحول إلى إعصار مدمر في حركة سريعة فيتحول بيته ومأواه إلى خرائب وبذلك يفقد كل شيء لأتفه الأسباب. ومن الامور التي تمثل علامة من علامات عجز الإنسان هي الأمراض التي تأخذ ب حياة الإنسان وسعادته وسلامته والتي غالباً ما تكون بسبب المكروبات والفيروسات الصغيرة جداً بحيث لا ترى إلا بأقوى المجاهر والمكروسكوبات وبإمكانها أن تصرع أقوى الناس واغناهم وأشدهم قوة وقدرة. إن مرض السرطان الموحش الّذي يُعدّ مرض العصر في هذا الزمان ويحصد أكثر الضحايا على الرغم من سعي آلاف الأطباء والعلماء في كل يوم وصرف مليارات من الأموال لعلاجها وإيقافه عند حدّه هذا المرض كيف يحدث؟ أنه يحدث بسبب طغيان واستكبار وتضخم خلية واحدة من خلايا البدن التي لا ترى إلا بالمجهر العظيم حيث تشرع هذه الخلية بالتكثّر من دون وازع أو نظم معين، وهكذا تتضخم هذه الخلايا وتصبح على شكل غدة سرطانية في زمن قليل. إن الكثير من القادة العسكريين ورؤساء العالم الّذين يقودون الجيوش العظيمة قد صُرعوا بهذا الداء الوبيّل، أي أن جيوشهم العظيمة لم تقدر على التصدي لخلية صغيرة جداً من خلايا الجسد. أجل فمثل هذا الضعف والعجز الذاتى للإنسان كيف يسوغ له إدعاء العظمة والكبرياء بحيث يرتدى لباس العزة والعظمة على المخلوقين في حين أن العظمة والكبرياء مختصّتان بالله تعالى وليس لسواه من المخلوقات سوى العجز والفاقة والفقر. ونختم هذا البحث بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام يبين فيه خلاصة لهذا البحث المنطقي ببيان جميل حيث يقول: «مَشِيكِيْنُ بِنُ آدَمَ مَكْتُوْمُ الْآخِيْلِ، مَكْنُوْنُ الْعَلِيْلِ، مَحْفُوْظُ الْعَمَلِ، الْاِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٢ تُوْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتَلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «١». فهل مع هذا الحال يليق بالإنسان أن يرى لنفسه تفوقاً وتكبراً على الآخرين ويفتخر عليهم من موقع رؤية العظمة للذات والأنا؟

#### ملاحظات:

#### إشارة

وقد بقيت هنا مسائل وامور مهمة لا بد من بيانها وهي كما يلي:

#### ١- تعريف التكبر وحقيقته

قال علماء الأخلاق: إن أساس التكبر وتعريفه هو أن يرى الإنسان علواً وتفوقاً على غيره، وعليه فالتكبر يتكون من ثلاثة أركان: الأول أن يرى لنفسه مقاماً ومرتبته معينة، الثاني أن يرى لغيره أيضاً مقاماً معيناً، والركن الثالث أن يرى مقامه أعلى من مقام الآخر ويشعر بالراحة والفرح لأجل ذلك. وعلى هذا الأساس قالوا: إن التكبر يختلف عن العجب، ففي العجب لا توجد مقارنة مع الآخر، بل إن الإنسان يتملكه حالة من رؤية العظمة في نفسه بسبب العلم أو الثروة أو القدرة أو حتى العبادة حتى لو لم يكن إنسان آخر على وجه الأرض، ولكن في حالة التكبر هناك مقارنة مع الآخرين حتماً بحيث يرى نفسه أعلى منهم. إن مفردة «الكبر والتكبر» تارة تطلق على الحالة النفسية التي ذكرناها آنفاً، وتارة أخرى تطلق على العمل أو الحركة الناشئة من تلك الحالة النفسانية، مثلاً أن يجلس الإنسان أو يسير بخطوات أو يتحدث بحديث يظهر منه انه يرى لنفسه تفوقاً على أقرانه وجلسائه، فمثل هذه الأعمال والسلوكيات تسمى بالتكبر أيضاً والتي تمتد في جذورها وأصلها إلى تلك الحالة الباطنية والنفسانية الذميمة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٣ إن علائم التكبر كثيرة، منها أن المتكبر يتوقع اموراً كثيرة من الناس مثل أن يتوقع منهم أن يسلموا عليه، وأن لا يدخل أحداً إلى المجلس قبله، وأن يجلس في صدر المجلس دائماً، والناس لا يرون لأنفسهم شخصية أمامه ولا يتكلمون معه من موقع الانتقاد والنقد بل حتى من موقع النصيحة والموعظة فيحفظون احترامه وحرمة دائماً ويقفون أمامه موقف الخاضع الخاشع ويتحدثون بعظمتهم ومقامه السامي دائماً. ومن البديهي أن ظهور و بروز هذه الحالات في ممارسات الإنسان وسلوكياته تابع لدرجة شدة وضعف حالة التكبر في واقعه النفساني، ففي بعض الموارد تتجلى هذه العلامات جميعاً، وفي بعضها الآخر يتجلى قسم منها. هذه الحالات والسلوكيات في الواقع الخارجي لها جذور باطنية وأحياناً تكون ضعيفة وخفية إلى درجة إن الإنسان نفسه لا يشعر بوجودها بل قد يتصور هذه الصفة الذميمة من موقع نقطة القوة (من قبيل الاعتماد على النفس وتوكيد الذات والشخصية) فتختلط عليه الحالة، وأحياناً تكون ظاهرة إلى درجة أن الآخرين أيضاً يدركون وجودها في هذا الإنسان.

## ٢- أقسام التكبر

هناك مفاهيم متعددة تحكى عن هذه الحالة النفسانية حيث يتصور البعض أنها مترادفة وبمعنى واحد، والحال أن هناك اختلاف دقيق فيما بينها رغم أنها تمتد جميعاً إلى أصل «التكبر» ولكنها تتجلى في زوايا ووجوه مختلفة. (حالة الفوقية)، (الأناية)، (الذاتية)، (عظمة الشخصية)، (التفاخر)، كل هذه المفاهيم تمد جذورها إلى أصل «التكبر» رغم أنها تعنى مفاهيم مختلفة وناظرة إلى سلوكيات متنوعة في حركة الإنسان الإجتماعية والنفسية. فقد تحكى الكلمة عن رؤية الذات أعلى من الآخرين وهي (النظرة الفوقية). وقد يرى الإنسان نفسه هو الأجدر بسبب هذه الفوقية فيتحرك ليستلم زمام الامور في جميع المناحى الإجتماعية والمناصب السياسية فهي (النظرة الأناية). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤ والشخص الذي يسعى في المسائل الإجتماعية وخاصة عند بروز المشكلات والأزمات أن يؤمن منافعه الشخصية ولا يهتم بمصالح الآخرين ومنافعهم فهي (الأناية). والشخص الذي يسعى إلى تحكيم سلطته على الآخرين وجعل الآخرين طوع إرادته فهو مبتلى بحالة (السلطوية)، وأخيراً فإن الشخص الذي يسعى لإظهار ما لديه من مقام أو ثروة أمام الآخرين ويتعزز بها فهي حالة (التفاخر). وعلى هذا الأساس فإن هذه الصفات والحالات تشترك جميعاً في أصل «التكبر» رغم أنها تظهر وتتجلى بأشكال مختلفة.

## ٣- التكبر على من؟

يقسم علماء الأخلاق التكبر إلى ثلاث أقسام: ١- التكبر أمام الله. ٢- التكبر مقابل الأنبياء. ٣- التكبر على خلق الله. والمراد من التكبر مقابل الله تعالى والمذى يُعد من أسوأ أنواع التكبر وناشئاً من غاية الجهل هو أن الإنسان الضعيف يدعى الإلهوية، وليس فقط أنه لا

يرى نفسه عبداً لله بل يسعى إلى دعوة الناس لعبادته أيضاً، أو يقول كما قال فرعون «... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» (١) أو يقول «... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...» (٢). ومن البعيد جداً أن يرى الإنسان مثل «فرعون» الذي حكم أرض مصر سنين متمادية أنه واقعاً «الرب الأعلى للناس وأنه معبود الناس جميعاً حتى لو كان على درجة شديدة من قلة العقل وقلة الذكاء، إذن فالمراد حسب الظاهر أن فرعون وأمثاله ولغرض تحميق عامة الناس واستحمار السذج منهم أن يدعوا هذا الأذعاء لتثبيت أركان حكومتهم وسيطرتهم. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥ الشكل الآخر من التكبر أمام الله هو ما نجده من تكبر إبليس وأتباعه حيث استكبروا ورفضوا إطاعة الله تعالى من موقع الأفضلية لأنفسهم والاعتراض على الحكم الإلهي وأمره حيث قالوا: إن إبليس الذي خلق من النار لا ينبغي له السجود لمخلوق من تراب كما تقول الآية على لسان إبليس: «... لَمْ أَكُنْ لِسَائِدٍ لِّبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (١)، أو تقول الآية: «... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٢). أجل فإن الحجاب العظيم للكبر والغرور قد يصل إلى درجة أن يحجب عقل الإنسان وبصيرته عن رؤية حقائق الأمور وأنه موجود ضعيف فيرى انه أعلم من الله تعالى. القسم الآخر للتكبر هو التكبر في مقابل الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله تعالى إلى أقوامهم كما نرى هذه الحالة في طوائف المستكبرين من الأقوام السالفة أمام أنبيائهم اذ رفضوا طاعة الأنبياء من موقع التكبر والغرور وقالوا: «... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ...» (٣) أي موسى وهارون، وتارة كانوا يقولون مثل مقولة قوم نوح عليه السلام: «وَلَيْسَ اطِّعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ أَنْكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ» (٤). وتارة اخرى يتذرعون بذرائع طفولية ويقولون من موقع العناد واللجاجة: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا» (٥). القرآن الكريم يقول في سياق هذه الآيات الشريفة: «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا» (٦). القسم الثالث من أقسام التكبر هو التكبر في مقابل عباد الله بحيث يرى نفسه أعلى منهم ويرى الآخرين من موقع الحقارة والدناءة وأنهم لا قيمة لهم أمامه وبالتالي فلا يرى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦ للآخرين حقاً عليه بل يتوقع من الآخرين أن يحترمونه ويعترفون بعظمته ويدعونون لأوامره ومطالبه. وهذا النوع من التكبر له نماذج كثيرة في حياتنا الإجتماعية فلا حاجة للإطالة في شرحه وبيان مصاديقه وموارده، وقد يمتد هذا النوع من التكبر ويصل إلى درجة في أعماق النفس إلى التكبر في مقابل الأنبياء ثم التكبر أمام الله تعالى. أجل فإن نار التكبر والغرور تنشأ من التكبر في مقابل عباد الله عادة ثم يتدرج الإنسان ويتمادي في هذه الحالة حتى يتكبر أمام دعوة الأنبياء ويرفض إطاعتهم وبالتالي يصل به الأمر إلى التكبر أمام الله تعالى.

#### ٤- دوافع التكبر

للتكبر أسباب ودوافع كثيرة تعود كلها إلى أن الإنسان يتصور لنفسه كماألم معيناً، وبسبب حبه لذاته فإنه يرى نفسه أكبر من واقعها ويحتقر الآخرين كذلك. بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفيض الكاشاني) في كتابه المحجزة البيضاء يذكرون في مسأله دوافع الكبر وأسبابه سبعة أسباب: الأول: الأسباب الدينية من العلم والعمل، والآخرى الأسباب الدنيوية من النسب والجمال والقوة والثروة وكثرة الأعوان والأصحاب، ثم ذكر الفيض الكاشاني لكل واحدة من هذه الأسباب شرحاً وافياً نذكره بشكل مختصر، حيث يقول: الأول: العلم، وما اسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «آفة العلم الخيلاء» فلا يلبث أن يتعزز بعز العلم، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام. العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربّه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذه العلوم تزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ويقتضى أن يرى أن كل الناس خير منه لعظم حجة الله تعالى عليه الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧ بالعلم وتقديره في القيام بشكر نعمه العلم ولهذا قال أبو الدرداء: «من إزداد علماً إزداد خوفاً» وهو كما قال. الثاني: العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة الغرور والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدنيا والدين. أما الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم

والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس من الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منه على الخلق، وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»، وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدل على أنه لخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم» وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى الله بالدنو منه وهو يتمت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم كأنه مرتفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدر إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال. وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها العباد وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر والافتقار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة لبعضهم إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه، وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إللشفاء علة والانتقام له. فما أعظم الفرق بين مثل هذا الجاهل وبين بعض ما ورد عن أحد العباد الذي قال بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨ الرجلين. ونختم هذا البحث بحديث شريف عن النبي الأكرم حيث ورد في الروايات أنه تحدث بعض الأصحاب عن رجل وذكره بخير للنبي صلى الله عليه وآله فأقبل ذات يوم فقالوا: يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك، فقال: إني أرى في وجهه سفة من الشيطان فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك؟ فقال: اللهم نعم» (١)، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله بنور النبوة ما استكن في قلبه سفة في وجهه. الثالث: التكبر بالنسب والحسب فالله الذي له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موالٍ وعبيد ويأنف من مجالستهم ومخالطتهم، والحال أن الإسلام ليس فيه تفاضل بالحسب والنسب، كما روى عن أبي ذر أنه قال: قاوت رجلاً عند النبي صلى الله عليه وآله فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر طف الصياع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل». قال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي» فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وآله أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وإن ذلك خطأ وجهل فانظر كيف تاب وكيف قلع من نفسه شجرة الكبرياء خمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يحميه إلا الذل (٢). وعلى أي حال فقد قرأنا كثيراً من النصوص الشريفة في القرآن والروايات تؤكد لنا أن لا فضل للإنسان على آخر بالنسب والعرق وأمثال ذلك، فهذه كلها أمور اعتبارية تعرض على الإنسان من الخارج، بينما تتقوم شخصية الإنسان وقيمه بما يتضمنه من امتيازات معنوية في محتواه الباطني، وعلى فرض أن ارتباطه مع بعض العظماء بالنسب يوجب له فضيلةً وامتيازاً على غيره، فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً للاحساس بالغرور والتكبر والتفاخر على الآخرين. وعندما نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، أو الإمام زين العابدين عليه السلام في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩ خطبته المعروفة في الشام يفتخران بنسبهما فذلك ليس من قبيل حبّ التفوق والتفاخر، بل بدافع آخر، حيث أرادا إظهار إمامتهما ورسالتهما الدينية الإلهية لبعض المغفلين والجهلاء، مثل ما يقوم به قائد الجيش من تعريف نفسه للجنود وبيان مكانته ومقامه بهدف دعوتهم إلى اطاعته وامتثال أوامره. الرابع: التفاخر بالجمال وذلك يجري أكثره بين النساء ويدعو ذلك التنقص والتلب والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روى عن عائشة أنها قالت: دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وآله فلما خرجت فقلت بيدي - هكذا - أي أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «قد اغتبتها» وهذا مشوه خفي الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت. الخامس: الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في الخزانة، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومرائبهم فيستحقرون الغنى الفقير

ويقول له أنت مكّد ومسكين وأنا لو أردت لا شترت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك. ومن ذلك تكبير قارون اذ قال تعالى «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَكُدُو حَظٌّ عَظِيمٌ» (١) وقد ورد في التواريخ أنه كان يخرج على قومه من بنى إسرائيل بجميع خدمه وحشمه البالغ عددهم أربعة آلاف نفر وهم يركبون الجياد المزينة بالحلى وملابس الزينة ويصحبون معهم الجوارى الجميلات وهنّ في كامل الزينة من الجواهر والذهب، ولكن كل ذلك ينتهي في لحظة حيث خسفت به الأرض بأمر الله وابتلعت ما كان له من ثروات وقصور ودفن قارون معها أيضاً وصار عبرة لمن اعتبر (٢). السادس: القوة والقدرة البدنية وشدة البطش أو الموقع السياسي أو الاجتماعي، والتكبر الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٠ به على أهل الضعف، وغالباً ما يتوفر هذا الحال لدى الامراء والأقوياء وأصحاب السلطة من الناس حيث يرون أنفسهم «ظل الله في الأرضين» ويتوقعون من الآخرين أن يتعاملوا معهم من موقع التعظيم والتكريم كما يفعل الغلمان والعبيد. ولو صدرت منهم أقل حركة أو كلمة خاطئة لا تتفق ومقامهم العالى وشأنهم الكبير فسوف لا ينجو صاحبها من العقاب. وقد ذكر في بعض حالات السلاطين القدماء أنه كلما أراد الناس الدخول عليه في مجلسه فيجب عليهم تكميم أفواههم بمنديل أو أى شىء آخر لئلا يتلوث معطف السلطان بخار أفواه الرعايا ورائحة فمهم الكريهة، وهذا هو السبب في تفعيل عنصر الكبر والغرور في نفوس هؤلاء وما يتولد منه من أخطاء كبيرة ومآثم شنيعة تؤدي إلى الإسراع في زوال حكمهم وإنهيار دولتهم. السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والعلماء والعشيرة والأقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمتنفذين، وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى أن المخنث يتكبر على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته في صنعة المخنثين لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه (١). هذه الامور السبعة هي امور قد يصاب الأشخاص بجميعها أو ببعض منها ويتناولون على الآخرين بالفخر والتكبر، وبالطبع لا تنحصر الدوافع بهذه السبعة، فإن كل صفة كمال أو نقطة قوة معنوية أو مادية سواء واقعية أو خيالية يمكن أن تسبب الغرور وتدفع بصاحبها إلى التكبر على الآخرين. وهذا الكلام لا- يعنى أن الإنسان يجب عليه للتوقى من التكبر والغرور أن يتعد عن أسباب الكمال ولا- يتحرك باتجاه المعنويات والكمالات الإنسانية ويقتل في نفسه عناصر الخير والصلاح لكي لا تكون منشأ للغرور والفخر، بل الغرض من ذلك إن الإنسان كلما الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١ إزداد في علمه وعبادته وقوته وقدرته وثروته فعليه أن يسعى ليكون أكثر تواضعاً وخشياً وخضوعاً للحق، ويتفكر في أن هذه الكمالات والمواهب ليست ثابتة له بالذات وكلها لا تعد شيئاً مقابل قدرة الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى

## ٥- جذور التكبر

إن حالة التكبر الذميمة لها جذور كما هو الحال في سائر الرذائل الأخلاقية، فينبغي البحث عنها بدقة ومعرفة، وفي غير هذه الصورة فإن قلع هذه الصفة من أعماق النفس وتطهير القلب منها يكون أمراً محالاً. ويذكر بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفيض الكاشاني) في كتابه المحجزة البيضاء أربعة جذور واصل للتكبر وهي: العجب، الحقد، الحسد، الرياء. ويرى الفيض الكاشاني أن جذور التكبر الباطنية تتمثل في (العجب) فهذه الحالة من رؤية الذات والإعجاب بها وتعظيمها هي السبب في أن يرى الإنسان نفسه أعلى من الآخرين وأفضل منهم وبالتالي يتحرك في التعامل معهم من موقع التفاخر والتعالى، وهناك أصل آخر وهو (الحقد) والكراهية التي يشعر بها الإنسان تجاه الشخص الآخر حيث يتسبب ذلك في أن يتظاهر بمواهبه وامتيازاته أمام ذلك الشخص، والثالث (الحسد) الذي يتسبب في إيجاد هذه الرذيلة الأخلاقية، والرابع (الرياء) الذي يؤدي إلى أن يتظاهر الإنسان بامتيازاته أمام الآخرين فيورثه ذلك حالة من التكبر عليهم. هذه الجذور الأربع تشكل الاصول والاسس لصفة التكبر، ولكن حسب الظاهر أن جذور التكبر لا

تنحصر في هذه الصفات الأربع بل هناك امور اخرى يمكنها أن تكون منشأً ومصدراً للتكبر.

## ٦- النتائج والعلام

إن الأمراض الأخلاقية هي مثل الأمراض النفسية والبدنية تكون مصحوبة دائماً بآثار وعلامات ظاهرة، فكما أن الإنسان إذا اشتكى مرضاً في الكبد ظهرت عليه آثار هذا المرض الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢ بصور مختلفة على جلده ووجهه ولون عينه ولسانه وأمثال ذلك، فهكذا إذا ابتلى الشخص بمرض أخلاقي مزمن فتظهر آثاره وعلامته في أعماله وسلوكياته وكلماته. وقد أورد الكبار من علماء الأخلاق آثار الكبر وعلامته في كتبهم المفصلة، وهذه الآثار والعلامات قد تظهر على الوجه أحياناً مثل أن يقطب المتكبر وجهه في مقابل الآخرين وينظر إليهم بنظرة الاستحقار والمهانة بل قد لا يكون مستعداً لأن يقابلهم بجميع وجهه. وأحياناً أخرى تظهر علامت هذا الخلق الذميم على كلمات الشخص، فيتحدث بعبارات فيها نوع من المبالغة عن نفسه ويذكر نفسه بضمير الجمع بل قد يتغير لحن صوته لدى تحدّثه عن نفسه وعن الآخرين بما يحكى عن حالة الغرور والتكبر التي تعتمل في نفسه. فتارة يتجلى الكبر في أن يُسبح لنفسه التحدث وقطع كلام الآخرين حيثما شاء ولا يسمح للآخرين بالحديث ولا يُصغى لحديثهم ويتوقع منهم الاصغاء لحديثه وكلامه فقط، ويرى أن كلام الآخرين طويلاً مهما قصر وكلامه الطويل والفارغ قصيراً وضرورياً. وأحياناً يتجلى التكبر على حركاته وأعماله وسلوكياته فيجب أن يقف الآخرون تعظيماً له بينما يجلس هو أمامهم ولا يقوم لأحد عندما يرد عليه. ونقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى رَجُلٍ قَاعِدٍ وَيَتَنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ قِيَامٌ» (١). وكذلك يجب أن لا يكون وحيداً عندما يمشى في الشارع وأمام الناس بل يسير معه وخلفه جماعة، فقد ورد في الحديث الشريف «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ يَمْشِي مَعَ الْأَصْحَابِ قِيَامُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ وَيَمْشِي فِي غِمَارِهِمْ» (٢). وكذلك يجب المتكبر أن يأتي الآخرون لرؤيته دون أن يذهب هو لرؤية الآخرين، ويجتنب الجلوس مع الفقراء والمحتاجين ومن يظهر عليه انه من أهل المستويات الدانية في المجتمع، ولو انه اتفق له أن سار معه مثل هؤلاء الأشخاص فإنه يسعى جاهداً للتخلص الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣ منهم في أقرب فرصة أو يوحى لهم بالإبتعاد عنه. ويجب أيضاً أن لا يعمل لأهل بيته شيئاً من السوق بيده ولا يقوم بعمل من أعمال البيت وتقوم زوجته وأولاده وخادمه بإظهار مراتب الخضوع أمامه والسعي لتلبية حوائجه وأطاعه وأوامره. وأحياناً تظهر آثار التكبر على طريقة لباسه وكيفيته وخاصة في الألبسة الغالية التي تجلب الإنتباه أو في مركبه وسيارته أو في ظاهر بيته ووسائل معيشته، أو في مكان كسبه ومحله وتجارته بل حتى في لباس أولاده وأقربائه والمنتسبين إليه وطريقة حياتهم حيث يكون هدفه من كل ذلك أن يتفاخر على الآخرين بثروته ويبرز إليهم بنقاط قوته ليثبت لهم انه أفضل منهم وأكثر امتيازاً وعنواناً. وبالطبع فإن هذا الكلام لا يعني أن يمتنع الإنسان من لبس الجيد من الثياب ويلبس الرث منها بل كما ورد في الحديث النبوي الشريف «كُلُّوا وَأَشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سِرْفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» (١). وخالصة الكلام أن ظهور هذا الخلق الذميم أي (التكبر) يمكن أن يستوعب جميع مناحي وشؤون حياة الإنسان ولا يمكن أن يبتلى الإنسان بهذه الصفة الرذيلة مهما كانت طفيفة إلا وظهرت على سمات وجهه وفي طي كلماته وأعماله وسلوكياته.

## ٧- مفاصد التكبر وعواقبه الوخيمة

إن هذا الخلق الذميم كما سبقت الإشارة إليه له آثار مخربة جداً وعواقب وخيمة تعرض على روح الإنسان ومعتقداته وأفكاره، وكذلك تعرض على المجتمع البشري أيضاً بحيث يمكن القول انه ليس هناك جهة من جهات حياة الإنسان الفردية والاجتماعية تقع في أمان من عواقب هذه الصفة الأخلاقية السلبية، ويمكن الإشارة إلى عدّة موارد منها فيما يلي: الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٤-١ التلوث بالشرك والكفر إن أول مفسده وأخطرها هو أن يورث التكبر صاحبه التلوث بالشرك والكفر، فهل لكفر إبليس وانحرافه من

مسير التوحيد بل حتى اعتراضه على حكمة الله تعالى وأمره، له أصل ومصدر غير الكبر في نفس إبليس؟ وهل أن الفراعنة والنمروديين وغيرهم من الأقوام الطاغية الذين رفضوا دعوة الأنبياء كان لهم دافع غير التكبر؟ أن التكبر لا يبيح للإنسان أن يستسلم ويدعن أمام الحق، لأن التكبر والغرور هو في الحقيقة حجاب سميكة على بصيرة الإنسان فيحجبه عن رؤية جمال الحق بل أحياناً يرى ملائكة الحق على شكل موجود مخيف وموحش، وهذا من أعظم الضرر الذي يلحق بالإنسان من جراء التكبر، ولعله لهذا السبب ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله الراوي عن أقل درجة الإلحاد فقال له الإمام «إِنَّ الْكِبْرَ إِذْنَاءُ» (١). ٢- الحرمان من العلم والمعرفة وأحد العواقب المشؤومة للتكبر هو أن الإنسان يحرم نفسه من العلم والمعرفة ويعيش حالة الجهل المركب دائماً لأن الإنسان إنما يصل إلى حقيقة العلم والمعرفة فيما لو سعى لتحصيلها من أي شخص وأي طريق كما يبحث الشخص عن جوهره ثمينه والحال أن المتكبر لا يكون مستعداً لتحصيل العلوم والمعارف من الأشخاص الذين يراهم دونه أو في مرتبه. الأشخاص الذين يتحركون في سبيل طلب العلم والمعرفة هم الذين يعيشون التحرر في أفكارهم من القوالب النفسانية في حين أن صفة الكبر والغرور لا تسمح للإنسان أن يستوعب مطلباً مهماً. ولهذا نقرأ في الحديث المعروف عن الإمام الكاظم عليه السلام في كلامه لهشام بن الحكم يقول: «إِنَّ الرَّزَّعَ يَثْبُتُ فِي السَّهْلِ وَلَمَّا يَثْبُتْ فِي الصَّفَا فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ الْإِحْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٤٥ وَلَمَّا تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ، لِإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ التَّوَّاضِعَ آلَهُ الْعَقْلَ وَجَعَلَ التَّكَبُّرَ مِنْ آلِهِ الْجَهْلَ» (١). ٣- التكبر المصدر الأساسي للكثير من الذنوب لو تأملنا في حالات الأشخاص الذين يعيشون الحسد، الحرص، بذاءة اللسان، والذنوب الأخرى لرأينا أن الأصل ومصدر جميع هذه الرذائل الأخلاقية تنشأ من صفة التكبر، فهؤلاء لا يجدون في أنفسهم رغبة لرؤية من هو أفضل منهم، ولهذا فإن أية نعمة وموهبة وموقفية تكون من نصيب الآخرين فسوف يتعاملون معهم من موقع الحسد. إن هؤلاء ولغرض توطيد أركان حالة الفوقية لشخصياتهم فإنهم يحرصون على جمع الأموال والثروات. ولغرض إظهار العلو على الآخرين يبيحون لأنفسهم تحقيرهم ويلوثون ألسنتهم بأنواع البذاءة في الكلام والسب والشتم والتهتك لإشباع هذه الحاجة والنقص في أنفسهم ولإطفاء هذه النار المستعرة في وجودهم. ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين قوله «الْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ أَلَى تَقْحُمِ الذُّنُوبِ» (٢). ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنه قال: «التَّكَبُّرُ يُظْهِرُ الرَّذِيلَةَ» (٣). ٤- التكبر مصدر النفرة والفرقة إن من البلايا المهمة التي ترد على المتكبرين هو الإنزواء الاجتماعي وتفترق الناس من حولهم لأن شرف الإنسان وعزته الذاتية لا تسمح له بالخضوع أمام الأشخاص المغرورين والمتكبرين والانصياع لأوامرهم، ولهذا السبب فإن الناس وحتى المقرين سوف يتحركون بعيداً عن هؤلاء المتكبرين، وعلى فرض أن الآخرين يجدون أنفسهم مضطرين لمعاشرتهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٦ بسبب الروابط الاجتماعية وبعض الضرورات المعيشية فإنهم يجدون في أنفسهم التنفر والكرهية لهؤلاء. ونقرأ في حديث عن الإمام أمير المؤمنين أنه قال: «مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلٌّ» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «امْقَتِ النَّاسَ الْمُتَكَبِّرِينَ» (٢). وفي حديث آخر عن الإمام علي أنه قال: «تَمَرَةُ الْكِبْرِ الْمَسْبُةُ» (٣). وهذا المضمون ورد أيضاً في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَيْسَ لِلْمُتَكَبِّرِ صِدْقٌ» (٤). وقال أيضاً في حديث آخر: «مَا اجْتَلَبَ الْمُقْتَبِمُ الْكِبْرَ» (٥). ٥- التكبر سبب هدر المواهب الدنيوية إن كل إنسان لا يكون موفقاً في حياته إلا إذا استطاع جذب تعاون الآخرين وانسجامهم معه من موقع توطيد أواصر المحبة والتعاون المشترك بين الأفراد، أما الشخص الذي يعيش الإنزواء ويسلك في حياته ومعيشته الوحدة فإما أن يفشل في اطار المعيشة الكريمة أو يكون له نصيب قليل من الموقفية في حركة الحياة، وبما أن التكبر يدفع بالإنسان إلى زاوية الإنزواء والعزلة فإن توفيقاته في حركة الحياة الاجتماعية ستكون قليلة بالتبع. ونقرأ في حديث عن الإمام أمير المؤمنين أنه قال «بِكَثْرَةِ التَّكَبُّرِ يَكُونُ التَّلَفُّ» (٦) أي تلف وهدر عوامل التوفيق وعناصر النجاح في الحياة. ويمكن تفسير هذا الحديث بشكل آخر وهو أن يقال بأن الكثير من الحروب الدامية والنزاعات المدمرة تنشأ من حالة التكبر والاستكبار، فالبعض يستلم زمام الامور في دول الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٧ العالم ويريد أن يتحكم ويتسلط على الآخرين من موقع القوة والقدرة وهذا بدوره يكون سبباً في حصول النزاعات الدموية الكثيرة فتهدر

الطاقات وتُسفك الدماء الكثيرة في هذا الطريق وتحول الديار إلى الخراب الشامل. وأحياناً يتجلى التكبر من خلال القومية والعرقية حيث يرى البعض أنهم أظهر عرقاً وأسمى قومية من الأقوام الأخرى وهذه النظرة المتعالية تمثل أحد الأسباب المهمة للحروب طيلة التاريخ البشرى. فالنظرة الفوقية والاستعلائية للجنس الآرى هو أحد العلل المهمة في حدوث الحروب العالمية التي خلفت ملايين القتلى والمجروحين وأتلفت مليارات الثروات والأموال وخلفت اضراراً لا تحصى وخلاصة الكلام أنه: إذا درسنا الخسائر التي تسبب بواسطة التكبر على روح وجسم الإنسان وفي حياته الفردية والإجتماعية لرأينا أنه ليس هناك صفة من الصفات الذميمة تكون هدامة ومخربة إلى هذه الدرجة التي تنتجها حالة التكبر في الإنسان.

## ٨- علاج التكبر

لقد بحث علماء الأخلاق علاج التكبر في دراسات مفصلة تدور أغلبها حول محور العلاج بطريقتين: العلم والعمل. أما الطريق (العلمي) فيمكن تصويره بأن يتفكر الأشخاص المتكبرين في أنفسهم أنهم من هم وأين كانوا وإلى أين يذهبون وما هو مصيرهم في النهاية؟ ويتفكرون كذلك في عظمة الله ويشاهدون أنفسهم أمام قدرة الله المطلقة ورحمته الواسعة. إن التاريخ مليء بالعبر والحوادث المثيرة عن مصير الفراعنة والنمروديين والجبابرة من الأكاسرة والقياسرة وأمثالهم بحيث لو أن الإنسان قرأ قليلاً من هذه الحوادث والوقائع التاريخية لعلم أن الانتصارات والملاذات الدنيوية لا تعد شيئاً يمكن الاعتماد عليه على الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٨ مستوى بيان عظمة الإنسان. عندما يكون الإنسان في أوله نطفة مهينة وفي آخره جيفة تنته ويعيش بين هذين عدّة أيام فلا يعد ذلك شيئاً يستحق الفخر والتكبر والغرور. إن الإنسان في بداية تولده ليس سوى طفل ضعيف جداً وعاجز عن كل شيء وحتى انه لا يتمكن من حفظ الماء الملقى في فمه بشفاهه، وكذلك عندما يبلغ سن الشيخوخة يكون ضعيفاً إلى درجة أنه إذا أراد المسير عدّة خطوات وكان يتمتع بأقدام سالمة فإنه لا يتمكن من ذلك إلا بأن يستريح كلما قطع كل عدّة خطوات ويجدد طاقته ثم ينهض ليكمل مسيره متوكأً على عصاه وقد احنى الدهر قامته، ولو لم يكن ذا أقدام سليمة فإمّا أن يكون قد ابتلى ببعض عوارض الشيخوخة التي يبتلى بها أكثر الأشخاص فيجب أن يُنقل من جهة إلى أخرى بواسطة الكرسي المتحرك. ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر أنه قال «عَجَباً لِلْمُخْتَالِ الْفُخُورِ وَأَنَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يَعُودُ جِيفَةً وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَأَيْدِرِي مَا يُصَيِّعُ بِهِ» (١). إذا ذهبنا يوماً إلى المستشفيات ورأينا الكثير من الأقوياء والأصحاء يرقدون على أسرة المستشفى بسبب حادثة اصطدام أو مرض معين حيث لا قدرة لهم على الحراك، فندرك حينذاك مقدار قوة الإنسان وقدرته البدنية التي يفخر بها. ولو نظرنا إلى الأثرياء المعروفين الذين قد استولى عليهم حالة الإنهيار الاقتصادي والإفلاس المادي بتغير بسيط فتحول حالهم من أعلى المقامات إلى أسفل السافلين وحينئذٍ نعلم أن الثروة الطائلة ليست شيئاً يعتمد عليه الإنسان ويفتخر به. ولو نظرنا إلى أصحاب القدرة والسلطة في العالم وكيف أنهم مع حدوث التغير في الوضع السياسي يسقطون من كراسيهم وعروشهم ويفقدون قدرتهم أو يقعون خلف قضبان السجن أو يحكم عليهم بالأعدام لرأينا القدرة الظاهرية ليست قابلة للاعتماد والفخر. إذاً فبأي شيء يفخر الإنسان؟ وكيف يستولى عليه الغرور ويباهي الآخرين ويفتخر عليهم. الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٩ لقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام زين العابدين عليه السلام انه عندما وقع نزاع بين سلمان الفارسي وبين شخص مغرور ومتكبر، فقال ذلك الشخص لسلمان: مَنْ أنت؟ فقال له سلمان: أما اولاي واولاك فطفة قدرة، وأما اخراي واخراك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ووضعت الموازين، فمن ثقل ميزانه فهو كريم، ومن خف ميزانه فهو اللئيم» (١). والخلاصة أن الإنسان كلما تفكر وتأمل في هذه الامور أكثر هبط من مركب الغرور والكبر ووجد نفسه من موقع الحقيقة الشاخصة وبعيداً عن الأوهام النفسانية والحالات الشيطانية. وأما علاج التكبر على المستوى (العملي) فهو أن يسعى الإنسان في دراسة سلوكيات المتواضعين ويتحرك مثلهم في تعامله الاجتماعي حتى تترسخ هذه الفضيلة في أعماق وجوده وتتجذر في واقعه النفساني فيكون متواضعاً أمام الله والناس فيسجد على التراب قائلاً: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا حَقًّا سَجَدْتُ لَكَ تَعْبُدًا وَرِقًّا لَأَمْسَتَنِي كَفًّا وَلَا مُسْتَكْبِرًا». وأمثال هذه العبارات. وكذلك



يلبس الملابس البسيطة ويأكل الأطعمة غير الممنوعة ويجلس مع عماله أو خدامه على مائدة واحدة ويتقدم بالسلام على الآخرين ولا يجلس صدر المجلس ولا يتقدم على الغير في مشيه. أن يتعامل في علاقاته مع الصغير والكبير من موقع العاطفة الجياشة والمحبة الصميمية ويجتنب مجالسة المتكبرين والمغرورين ولا يرى لنفسه أى امتياز على الآخرين، والخلاصة أن يتحرك في سلوكه بعلاقات التواضع أو يسعى للتظاهر بمظاهر التواضع في البداية في عمله وكلامه وحالاته الأخرى حتى تصير لديه عادة ثم ملكة التواضع. وجاء في حالات نبي الإسلام أنه كان يجلس على الأرض ويأكل الطعام ويقول: «إنما الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٥٠. أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ» (١). وقد سمعنا الحديث المعروف عن الإمام على أنه كان لديه يوماً قميصان اشترى أحدهما بأربعة دراهم والآخر بثلاث دراهم ثم قال لغلامه قنبر: اختر أحدهما، فاختر قنبر القميص الذى قيمته أربعة دراهم وأختار الإمام ما كان بثلاث دراهم (٢). وجاء في خطبة ١٦٠ من نهج البلاغة أن الإمام كان يتحدث عن نبي الإسلام ويقول: «وَلَقَدْ كَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ جُلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْفَعُ بِيَدِهِ تَوْبَهُ وَيَزَكُّ الْجِمَارَ الْعَارِيَّ وَيُزِدُّ خَلْفَهُ». وطبعاً هذه الامور وبسبب تغير الظروف الزمانية والمكانية لا تعتبر معمولاً بها في هذا العصر ولا يوصى باتباعها وسلوكها، ولكن الهدف هو أننا بمطالعة حالات هؤلاء العظام والتوجه إلى مقامهم السامى نتعلم التواضع من سلوكياتهم ونبعد بذلك الكبر والغرور عن ذاتنا وأفعالنا. هذا كله من جهة، ومن جهة أخرى: بما أن التكبر له أسباب وعلل مختلفة تمت الإشارة سابقاً إلى سبع علل منها ذكرها علماء الأخلاق، فلأجل إزالة كل واحدة من هذه العلل والأسباب هناك طرق وخطوات عملية وعلمية للتغلب عليها ومعالجتها منها: الأشخاص الذين يجدون في أنفسهم افتخاراً على الناس بسبب نسبهم وعراقتهم الاسريه يجب أن يتأملوا في هذه الحقيقة وهى أولاً: إن افتخارهم بكمالات الآخرين من الآباء والأجداد هو عين الجهل، فلو أن الأب كان إنساناً فاضلاً ولكن الابن يفتقد إلى أدنى فضل وكمال فلا ينتقل كمال الأب وفضله إلى الابن ولا يوجد في الابن قيمة مشهودة، الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٥١. ثانياً: إذا تأمل جيداً وجد أن أباه نطفة وجدّه الأعلى تراباً وهذه الامور ليست ذات قيمة يفخر بها الإنسان ويرى لنفسه امتيازاً على الآخرين. وقد ورد في الحديث الشريف أن لقمان الحكيم قال لابنه «يَا بُنَيَّ وَبِئْسَ لِمَنْ تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، كَيْفَ يَتَعَزَّزُ مِنْ خُلُقٍ مِنْ طِينٍ، وَالْيَ طِينِ يَعُودُ؟ لَأَيُّ دَرِيٍّ أَلَى مَآذَا يَصِيرُ؟ أَلَى الْجَنَّةِ فَقَدْ فَازَ أَوْ أَلَى النَّارِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا». وأما الأشخاص الذين يملكهم الغرور والتكبر بسبب جمالهم الظاهري فيجب أن يتأملوا جيداً أنهم وبسبب مرض بسيط يصيب الجلد والوجه سيتحول جمالهم الباهر إلى وجه مشوه وقبيح وحتى لو لم يصيبهم ذلك المرض فإنهم بعد أعوام قليلة سيصلون إلى مرحلة الشيخوخة حيث يتراكم غبار السنين على وجوههم ويغير من ملامحه الجميلة ويحنى قامتهم المستقيمة ويدب في مفاصلهم العجز والضعف فإذا كان ذلك الشيء المورث للفخر زائلاً بهذه السرعة، فكيف يكون سبباً للغرور والتفوق والتكبر على الآخرين؟ وإذا كان سبب التكبر هو قوته البدنية وقدرته الجسمانية فيجب أن لا ينسى انه قد يصاب أحياناً بعارضة قلبية صغيرة أو سكتة دماغية تكون نتيجتها أن يصاب قسم من بدنه بالشلل والعجز عن الحركة تماماً بحيث لا يتمكن من دفع حتى ويتوقف الذباب عن نفسه ولو أصابه شوكة أو وخزته ابرة لا يتمكن من إخراجها أو التخلص منها لوحده. وأما لو كان سبب التكبر هو الثروة وكثرة المال والأعوان والأنصار فيجب أن يعلم أولاً: أن هذه الامور خارجة عن وجود الإنسان ولا تمثل شيئاً من ذاته وحينئذ لا تكون من عناصر الفخر والمباهاة، فكيف يفخر الإنسان بشخصيته وعزته الذاتية بامور من قبيل السيارة أو البيت أو الحصان وأمثال ذلك؟ وكيف يتصور شرفه وكرامته في مثل هذه الامور المادية والأجنبية عن ذاته؟ هذه الامور يمكنها أن يمتلكها اللثيم من الناس وواضعهم نسباً وشرفاً، الامور التي يستطيع اللصوص بكل سهولة سرقتها منه فما أهون الشرف الذي يستطيع اللصوص سرقة فيفتقده صاحبه بين عشية وضحاها. ومضافاً إلى ذلك فنحن نعلم أن الأموال والثروات الدنيوية تنتقل من يد إلى يد دائماً فالثروات الطائلة لدى الأغنياء قد تكون يوماً من نصيب الفقراء ويسكن أصحاب القصور الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٥٢. يوماً في الأكواخ. فمثل هذا الشيء يمثل هذا القدر من التزلزل والاهتزاز كيف يمكنه أن يكون عنصر الافتخار للإنسان وسبباً لغفلة عن مصيره وكمالاته المعنوية في حركة الإنسان والحياة؟ وإذا كان سبب الكبر والغرور هو العلم الكثير ومع الأسف يُعتبر هذا من أقبح الآفات النفسانية التي تصيب الإنسان وبهذه النسبة يكون

علاجه أصعب وأعقد من العلل الأخرى وخاصة مع ورود الكثير من الآيات والروايات في فضل العلم والتعلم حيث يمكن أن يصاب الإنسان بالغرور والكبر بعد قرائتها ومطالعتها، فيجب أن يتفكر أصحاب العلم والمعرفة أن القرآن الكريم وفي الآية (٥) من سورة الجمعة قد شبه العلماء الذين لا يتحركون على مستوى تطبيق علمهم في ممارساتهم وسلوكياتهم، شبههم بالحمار الذي يحمل الكتب والأسفار على ظهره «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا». وأيضاً يتفكر في أن الشخص العالم ستكون مسؤوليته ثقيلة بنفس نسبة علمه إلى الآخرين ويمكن أن يغفر الله تعالى للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد كما ورد في الروايات الشريفة. ولا ينبغي أن ننسى أن حسابهم يوم القيامة أصعب وأشد من حساب الآخرين، فكيف والحال هذه يكون العلم هذا سبباً للمباهات والافتخار على الغير؟ وأخيراً إذا كان سبب التكبر هو العبادة وطاعة الله تعالى فيجب على هذا الإنسان أن يتفكر في أن الله لا يقبل من العبادة ما كان خليطاً بالعجب والكبر ويعلم أن الجاهل النادم أقرب إلى النجاة من العابد المغرور. هذا ولا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن قبول العبادة مشروط بأن يرى الإنسان في نفسه الحقارة والدونية مقابل عظمة الله وقدرته وفضله على العباد ولو انه جاء بجميع عبادات الجن والأنس لوجد أن عليه أن يعيش الخوف والخشية من الله تعالى ولا يغفل عن ذلك طرفه عين.

### ٩- الاختبارات العلاجية

سبق وأن قلنا إن الأمراض الأخلاقية تشبه إلى حد كبير الأمراض البدنية وأن المقارنة بين هاتين الظاهرتين كفيلاً بحل الكثير من المشاكل، ومنها أن الطبيب في الأمراض البدنية وبعد معالجة المريض يرسله مرة أخرى إلى المختبر ليتأكد من شفائه الكامل، ولو انه رأى بعض آثار المرض لازالت في بدنه فإنه يستمر في علاجه حتى يحصل المريض على الشفاء الكامل. وقد استخدم علماء الأخلاق في مناهجهم وتعليماتهم الأخلاقية لعلاج الأمراض الخطرة مثل (التكبر) هذا المنهج أيضاً بحيث إن الإنسان عندما يتحرك في سبيل علاج التكبر ولأجل الاطمئنان من قلعه تماماً من وجوده ونفسه يجب أن يعرض على نفسه بعض الأمور ويمتحنها لكي يطمئن إلى زوال جذور هذا المرض من أعماق نفسه. وقد ذكر الفيض الكاشاني بالاستفادة من (احياء العلوم) للغزالي تجارب في هذا المجال ملفتة للنظر: الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً. الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايه الكبر، وهاهنا للشيطان مكيدة وهي أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم إنما تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس تحتهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن. الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٥٤ النفس عنها ليس إلابخبت في الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر. الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر فإن كان يثقل إلاً عند مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وملله المهلكة له إن لم تتدارك. أقول ليس كل رياء مذموماً بل قد يكون مستحباً بل واجباً إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يلبق بذوى المروات أن يرتكبوا الأمور السيئة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم في الخلوة إلبان ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلدان والأشخاص فلا بد من مراعاة ذلك، روى في الكافي عن الصادق عليه السلام: «أنه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمل، فلما رآه الرجل استحي منه، فقال عليه السلام: اشتريت لعيالك وحملتة إليهم أما والله لولا

أهل المدينة لأحبيت أن أشتري لعيالى الشئ ثم أحمله إليهم». أراد عليه السلام لولا- مخافة أن يعيبوا على ذلك، مع أن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام كان يفعل مثله إلماً أنه لما لم يعيبوا عليه بمثله فى زمانه وفى شأنه جاز له أن يرتكبه وكان منقبه له وتعليماً. الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة فإنّ نفور النفس عن ذلك فى الملاء رياء وفى الخلو كبر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «ومن اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر». ولكن لا- ينبغى أن يكون الدافع لذلك هو التظاهر بالتواضع فإنّ ذلك بنفسه نوع من الكبر المقترن مع الرياء والشرك الخفى. ونكرر مرةً اخرى بأن هذه الامور تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والاشخاص. ولا بدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جميع هذه الظروف والعمل طبق مقتضياتها وما يناسبها من دون التورط فى حبال النفس وخذع الشيطان، ولذلك ينبغى الاستفادة أيضاً من حكم الآخرين وآرائهم. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٥٥ وهنا نثير هذا السؤال وهو أنه لماذا يهتم الناس كثيراً بالصحة البدنية والطب الجسماني ويتحركون فى طلب الدواء والعلاجات ليطمئنوا على سلامتهم البدنية. والحال أنّهم لا يعيشون ذلك الاهتمام بأمر الطب الروحاني والأخلاقى الذى يضمن لهم سعادتهم الاخروية فى الحياة الباقية كما هو مدلول الآية الشريفة: «إلأمن أتى الله بقلب سليم». الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٥٦

## التواضع

### تنويه:

من الواضح أنّ التواضع يشكل النقطة المقابلة للتكبر والغرور، ومن العسير الفصل الكامل بين هذين البحثين، ولذلك نجد أنّ هذين البحثين متلازمين فى الآيات والروايات الإسلامية وكذلك فى كلمات علماء الأخلاق، فإنّ ذم أحدهما يلازم مدح الآخر، وكذلك العكس فإنّ عملية التمجيد والثناء على التواضع يستلزم كذلك ذم التكبر، وهذا من قبيل مدح العلم والثناء على العالم والمتعلم الذى يقترن دائماً مع ذمّ الجاهل وتوبيخ الجاهل. وعلى كلّ حال فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّ بحثنا المتعلق بالتواضع هذا سيكون فى زاوية النسيان ونكتفى بدم التكبر وبيان قبائح وعواقب هذه الصفة الذميمة لا سيما أن بين التكبر والتواضع نسبة الضدين. لا النقيضين أى أنّ التكبر كما انه صفة وجودية فكذلك التواضع صفة وجودية نفسانية أيضاً ويقعان على الضد من الآخر فى واقع الإنسان ونفسه، وليس من قبيل الوجود والعدم الذى يستلزم بالضرورة وجود أحدهما عدم الآخر بالتبع. وفى الروايات الإسلامية نجد إشارة إلى هذا المعنى أيضاً ومن ذلك قول الإمام على عليه السلام: «صَادُوا الْكِبْرَ بِالتَّوَّاضِعِ» (١). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٥٨ مع هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته ما يتعلق بمسألة التواضع ونختار منها ما يلقى الضوء على هذا البحث المهم رغم وجود آيات كثيرة تبحث هذا الموضوع بالكناية أو بالملازمة. ١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ إِذْ لَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اعْرَءٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...» (١) ٢- «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (٢). ٣- «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٣).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» من الآيات مورد البحث تتحدّث عن مجموعة من المؤمنين الذين شملتهم رعاية الله وعنايته فكانوا يحبون الله ويحبهم، وإحدى الصفات البارزة لهؤلاء أنّهم يتعاملون مع أخوانهم المؤمنين من موقع التواضع والموودة (إذله على المؤمنين) وكذلك فى المقابل (اعزّه على الكافرين). (إذله) جمع «ذلول» و «ذليل»، ومن مادة «ذُل» على وزن حُر، وهى فى الأصل بمعنى الملازمة والتسليم والليونة والإنعطاف فى حين أنّ كلمة «اعزّه» جمع «عزيز» ومن مادة «عزّه» وتأتى بمعنى الشدّة والصلابة، ويقال للحوانات المطيعة «ذلول» لأنها ملازمة ومسلّمة للإنسان، و «تذليل» فى الآية الشريفة «ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا» إشارة إلى هذا المعنى، وهو سهولة اقتطاف

ثمارها ثمار الجنة، وأحياناً تُستخدم كلمة «ذلة» في موارد سلبية وذلك إذا واجه الإنسان موقفاً يُجبر فيه على شيء من غيره، وإلا فإنّ المعنى السلبي لهذه الكلمة لا- الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٥٩ يوجد في بطنها ومفهومها في الأصل. وعلى أيّة حال فإنّ الآية الشريفة تدل بوضوح على أهمية التواضع وسمو مقام المتواضعين، ذلك التواضع الذي ينبع من أعماق الإنسان ويمتد إلى وجدانه ليذيع في النفس احترام الطرف الآخر المؤمن ويتحرّك معه من موقع المودّة والتسليم والانعطاف مع الطرف الآخر. في «الآية الثانية» نجد إشارة أيضاً إلى الصفات البارزة والفضائل الأخلاقية لجماعة من عباد الله تعالى الذين وصلوا في سلوكهم المعنوي إلى مرتبة عالية من الكمال الإنساني والإلهي، حيث نقرأ في آيات سورة الفرقان من الآية ٦٣ إلى الآية ٧٤ اثنا عشر فضيلة مهمة وكبيرة لهؤلاء الأشخاص، والملفت للنظر أنّ أول صفة تذكرها الآية لهؤلاء هي صفة التواضع، وهذا يدلّ على أنّ التكبر كما يمثل أخطر الرذائل الأخلاقية فكذلك التواضع يمثل أهم الفضائل الأخلاقية في واقع الإنسان وحركته الإجتماعية والمعنوية حيث تقول الآية «وَعَبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا». (هون) مصدر بمعنى الهدوء والليونة والتواضع، واستعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل هنا لغرض التأكيد، أي أنّهم يعيشون التواضع والهدوء إلى درجة وكأنهم عين التواضع، ولهذا السبب تستمر الآية في سياقها بالقول «وَأَذًا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»؛ أي لو واجههم الجهلاء والأراذل من الناس من موقع الشتم والكلام الباطل فإنّ جوابهم لا يكون إلّا بعدم الاعتناء وغيض الطرف من موقع عظمة شخصيتهم وكبر نفوسهم. وفي الآية التي تليها وبعد أن يتم الحديث عن التواضع مع الآخرين من الناس يتحدّث القرآن الكريم عن تواضعهم أمام الله تعالى ويقول «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا». ويقول الراغب في كتابه «مفردات القرآن»: الهوان على وجهين، أحدهما: تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به (ثم يورد الآية محل البحث) ونحو ما روى عن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٠ النبي صلى الله عليه وآله: «المؤمن هين لئين» (١). الثاني: أن يكون عن جهة متسلّط مستخف به فيذمّ به (٢). ولا يخفى أنّ المقصود بقوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» ليس هو المشي في حالة التواضع فحسب، بل المقصود نفي كلّ نوع من التكبر والأنانية والسلوكيات السلبية النابعة من حالة التكبر السلبية والتي تتجلّى في أعمال الإنسان وأفعاله الأخرى، وذكرت الآية المشي باعتباره نموذج عملي للدلالة على وجود التواضع كملكة نفسانية لدى هؤلاء، لأنّ الملكات الأخلاقية تتجلّى دائماً على كلمات الإنسان وحركاته الخارجية إلى درجة أنّه في الكثير من الحالات يُستدل على وجود أنواع من الصفات الأخلاقية في الشخص بواسطة المشي. أجل فإنّ أول صفة لعباد الرحمان هي التواضع الذي يملأ وجودهم وينفذ إلى أعمال نفوسهم فيتجلّى ويظهر على حركاتهم وسكناتهم وكلماتهم، وعندما نرى أنّ الله تعالى في الآية ٣٧ من سورة الإسراء يأمر نبيه الكريم بالقول «وَلَمَّا تَمَشَّى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» فالمقصود ليس هو النهي عن حالة المشي بصورة معينة، فحسب بل الهدف هو غرس التواضع في جميع الحالات والسلوكيات الأخرى والذي يُعد علامة على عبودية الله تعالى. «الآية الثالثة» تخاطب النبي الأكرم وتقول «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «خفض» على وزن «كرب» هو في الأصل بمعنى السحب إلى الأسفل، وعليه فجملة «وَإِخْفِضْ جَنَاحَ» كناية عن التواضع المقرون بالمحبة والحنان كما هو حال الطائر الذي يفتح جناحه ويضم إليه فراخه إظهاراً للمحبة وبدافع الحنان ولصونهم من الأخطار المحتملة وحفظهم من التفرّق، وعلى هذا الأساس فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمور بأن يتحرّك من هذا الموقع ليحفظ المؤمنين تحت جناحه وظلّه. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦١ وهذا التعبير جميل جداً وملء بالمعاني والنكات الدقيقة التي جُمعت في جملة واحدة. وعندما يُؤمر نبي الإسلام بالتواضع وإظهار المحبة للمؤمنين فإنّ وظيفة المؤمنين وتكليفهم الأخلاقي تجاه بعضهم البعض واضح، لأنّ النبي الأكرم يُعتبر قدوةً وأسوةً لجميع أفراد الامّة الإسلامية. وقد ورد هذا المضمون أيضاً في الآية ٨٨ من سورة الحجر حيث يقول تعالى «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» وهنا نرى أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبي الأكرم أيضاً حيث أمره الله تعالى بخفض جناحه للمؤمنين أي بالتواضع المقرون بالمحبة في تعامله مع اتباعه من المؤمنين. وشبهه هذه العبارة مع تفاوت بسيط ورد في سورة الإسراء كتكليف للمسلم تجاه والديه حيث تقول الآية «وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه نستوحي جيداً أنّ القرآن الكريم لم يكتف بدم التكبر والاستكبار في مجمل السلوك

الأخلاقى للإنسان بل أكد على النقطة المقابلة له أى التواضع والانعطاف واثنى عليه بتعبيرات مختلفة.

## التواضع فى الروايات الإسلامية:

### إشارة

لقد ورد فى المصادر الروائية لدى الشيعة وأهل السنة أحاديث كثيرة فى باب التواضع تبين أهميته هذه الصفة الأخلاقية فى حركة الإنسان التكاملية والاجتماعية، وورد فى بعضها علامات المتواضعين ونتائج وثمار التواضع وحدوده وآدابه. أما عن أهمية التواضع فقد وردت تعبيرات جميلة وجذابة فى الروايات الشريفة منها: ١- ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله قال يوماً مخاطباً أصحابه: «ما لى لمارى عليكم حلاوة العباد؟! قالوا: وما حلاوة العباد؟ قال: التواضع!» (١). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٦٢. ولا يخفى أن حقيقة العبادة هى غاية الخضوع امام الله تعالى فالشخص الذى ذاق حلاوة الخضوع والتواضع مقابل حقيقة اللوهمية والذات المقدسة فإنه سيتحلى أيضاً بالتواضع مع الخلق. ٢- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العباد» (١). ٣- ورد عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام: «التواضع نعمة لا تحصى عليها» (٢). ومن الطبيعى أن كل نعمة تصيب الإنسان فإنه سيتعرض فى الجهة المقابلة لأذى الحساد حيث تتحرك فيه عناصر الحسد والكراهية أكثر بحيث يضيق الفضاء على صاحب النعمة ويعيش فى حالة من التوتر الذى يفرزه حالة الحسد فى الطرف المقابل ولكن التواضع مستثنى من هذه القاعدة فهو نعمة لا تتغير بحسد الحساد. ونختم هذا البحث المفصل بحديث آخر عن النبي الأكرم: ٤- «ياهى الله تعالى الملائكة بخمسة: بالمجاهدين، والفقراء، والذين يتواضعون لله تعالى، والغنى الذى يعطى الفقراء ولما يمتن عليهم، ورجل يبكى فى الخلوة من خشية الله عز وجل» (٣). وعن ثمرات التواضع ونتائجه الإيجابية وردت روايات كثيرة عن المعصومين نكتفى بذكر نماذج منها: فى حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين: «ثمره التواضع المحبة وثمره الكبر المسببه» (٤). وفى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً: «يخفف الجناح تنتظم الأمور» (٥). ومن الواضح أن عملية تنظيم امور المجتمع لا تستنى إلا بالتعاون والتكاتف الاجتماعى الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٦٣ والعاطفى بين الأفراد، وهذا التعاون والتكاتف لا يكون إلا بأن يكون المدير والمدبر والقائم على امور المجتمع لا يتعامل مع الأفراد بالضغط والإجبار أو بأن يتباهى ويتفاخر على الآخرين ويرى نفسه أفضل منهم، فإن المدير الموفق فى عمله هو من يعيش حالة الحزم والقاطعية فى عين التواضع والمحبة مع الآخرين. ونقرأ فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «التواضع لا يزيد العبد إلا رغبة فتواضعوا يرفعكم الله» (١). أحياناً يتصور الإنسان أن التواضع يقلل من قيمة الشخصية ويصغر شخصيه الفرد فى نظر الآخرين، فى حين أن هذا التصور ساذج ومجانب للصواب، فإننا نرى أن الأشخاص المتواضعين فى المجتمع يتمتعون بالاحترام البالغ من قبل الآخرين، وتواضعهم لا يزيدهم إلا احتراماً وعزّة فى نفوس الناس. ويستفاد من الأحاديث الإسلامية أن التواضع شرط فى قبول العبادات والطاعات ومن ذلك ما ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «التواضع اضل كل خير نفيس ومزتيه ريفعه... ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عياده... وليس لله عز وجل عيادة يقبلها ويرضها إلا وبأبها التواضع، ولا يعرف ما فى معنى حقيقة التواضع إلا الموقنون المتيقنين بوحدانيته، قال الله عز وجل وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» (٢). ونختم هذا البحث بحديث عن السيد المسيح عليه السلام حيث قال: «بالتواضع تعمُر الحكمة لا بالتكبر، كذلك فى السهل يثبت الزرع لما فى الجبل» (٣). والخلاصة أن التواضع فى حركة الحياة العلمية والثقافية يؤثر إيجابياً فى حياة الإنسان (لأن الشخص المتكبر يكون محجوباً عن رؤيته حقائق الامور بسبب تكبره) وكذلك يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فى حركة الإنسان الاجتماعية (لأن الشخص المتواضع يزيده الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٦٤ تواضعه محبة فى قلوب الناس ويحترمه الجميع لأخلاقه الحسنة والطيبة) وكذلك يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فى علاقه الإنسان بخالقه لأن التواضع يمثل روح العبادة ومفتاح قبول الأعمال والطاعات. وبالنسبة

إلى علامات التواضع فقد وردت روايات لطيفة وجميلة في الروايات الإسلامية، ففي حديث عن الإمام علي بن أبي طالب نقراً: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَأْسُ التَّوَّاضِعِ: أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مَنْ لَقِيَهُ، وَيَرْضَى بِالذُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَيَكْرَهُ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ» (١). وفي بعض الروايات نقراً علامات أخرى أيضاً للتواضع منها ترك المراء والجدال، أي أن الإنسان لا يدخل في مناقشة وجدل فكري من أجل اشباع رغبة التفوق على الآخرين واطهار فضله عليهم، ومن العلامات الأخرى عدم الرغبة في ثناء الناس عليه ومدحهم له (٢).

## ١- تعريف التواضع

«التواضع» من مادّة «وضع»، وهي في الأصل بمعنى وضع الشيء إلى الأسفل. وهذا التعبير ورد بالنسبة إلى النساء الحوامل اللاتي يلدن حملهن فيقال «وضعت حملها» وكذلك بالنسبة إلى الخسارة والضرر الذي قد يتحملة الإنسان فيقال «وضيعه»، وعندما تُطلق هذه الكلمة ويُراد بها صفة أخلاقية في الإنسان فإن مفهومها أن الإنسان ينخفض بنفسه عن مكانته الاجتماعية، بعكس حالة التكبر التي يفهم منها استعلاء الإنسان عن واقعه الاجتماعي وطلب التفوق على الآخرين. ويرى البعض من أهل اللغة أن «التواضع» بمعنى «التذلل» والمقصود من التذلل هنا الخضوع والتسليم. وذكر المرحوم النراقي في «معراج السعادة» في تعريف التواضع أنه قال (التواضع عبارة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٥ عن الإنكسار النفسى الذى لا يرى معه الإنسان نفسه أعلى من الآخرين ولازمه أن يتحرك الشخص تجاه الآخرين من موقع الاحترام والتعظيم لهم بكلماته وأفعاله) (١). وفي حديث آخر عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال عندما سئل: «مَا حَيْدُ التَّوَّاضِعِ الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ مُتَوَاضِعاً؟ فَقَالَ: التَّوَّاضِعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا أَنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيَتَرْتَّلَهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبِ سَلِيمٍ لِمَا يُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى أَحَدٍ أَلَا مِثْلُ مَا يُؤْتَى إِلَيْهِ، أَنْ رَأَى سَيِّئَةً دَرَاهَا بِالْحَسَنِ، كَاطْمِ الْعُغَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (٢). ومما ورد في هذه الرواية الشريفة والمهمة هو في الحقيقة علامات التواضع حيث يمكننا من خلالها التوصل إلى تعريف التواضع. وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «التَّوَّاضِعُ الرِّضَا بِالْمَجْلِسِ دُونَ شَرَفِهِ وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيَتْ وَأَنْ تَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَأَنْ كُنْتَ مُحِقّاً» (٣). والحقيقة هي أن تعريف التواضع لا ينفصل عن علامات التواضع لأن من أفضل التعاريف للمفردات اللغوية والأخلاقية هو التعريف المشتمل على علامات ذلك الموضوع المراد تعريفه.

## ٢- التواضع وكرامة الإنسان

عادة نرى في مثل هذه المباحث الأخلاقية أن البعض يسلك فيها مسلك الافراط والبعض الآخر مسلك التفريط، مثلاً يتصور البعض أن حقيقة التواضع هي أن الإنسان يستذل نفسه أمام الناس ولا يرى لنفسه مقداراً وشأناً من الشؤون، وقد يقوم بأعمال واهنة يسقط بسببها من أنظار الناس فيساء الظن به كما ذكر في حالات الصوفية هذا المعنى أيضاً وأنهم عندما يشتهرون في منطقتهم بالصلاح والفضل فإنهم يرتكبون أعمال قبيحة ومنافية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٦ للمروءة ليسقطوا في أنظار الناس، مثلاً لا يهتمون بأمر العبادة وقد يرتكبون الخيانة في أمانات الناس بحيث يتركهم الناس، وبهذه الطريقة يتصورون أن هذا الاسلوب هو نوع من التواضع ورياضة النفس. بينما نجد أن الإسلام لا يبيح للإنسان تحقير نفسه وإذلالها باسم التواضع ولا يرضى بأن يتحرك الإنسان لإسقاط شخصيته وكرامته وسحقها، فالمهم أن الإنسان في عين ممارسته التواضع يحفظ شخصيته الاجتماعية ولا يذل نفسه، فلو أن الإنسان سعى للتخلي بالتواضع بصورته الصحيحة فليس لا يجد هذه الآثار السلبية فحسب بل على العكس من ذلك، فإن احترامه وشخصيته ستزداد وتعمق في أنظار الناس، ولهذا ورد في الروايات الإسلامية عن أمير المؤمنين أنه قال «بِالتَّوَّاضِعِ تَكُونُ الرَّفْعَةُ» (١). ويقول الفيض الكاشاني تحت عنوان غاية الرياضة في خلق التواضع: «اعلم إن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسماً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً، والمحمود أن يتواضع في غير مذلة

ومن غير تخاسس، فإنّ كلا طرفي قصد الامور ذميم، وأحب إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي أنه وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه، والعالم إذا دخل عليه اسكاف فتحنى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذي حقّ حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن بقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقى بالقيام والبشرى في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعى في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره وخاتمته» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٧ و ٣ و ٤

## الحرص والقناعة

### تنويه:

سبق وأن قرأنا في الفصل السابق الحديث الوارد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين يذكر فيه أنّ أول مصدر للمعصية هو التكبر حيث تكبر إبليس ورفض السجود لآدم بسبب تكبره وطغيانه، ثم ذكر الإمام زين العابدين (الحرص) بعنوان انه المصدر الثاني للمعصية حيث ذكر فيه ما صدر من الترك للأولى من قبل آدم وحواء وأكلهما من الشجرة الممنوعة بدافع من الحرص، ثم ذكر (الحسد) الذي يتمثل في حسد قابيل لأخيه هابيل وقتله. إن افرازات الحرص السلبية لم تتجلى فقط في قصة آدم بل في قصص الأنبياء وتصديهم لسلوكيات أقوامهم المنحرفة طيلة التاريخ البشري، فنحن نرى في قصص الأقسام البشرية السالفة والمجتمعات المختلفة أنّ الحرص والطمع كان يمثل المصدر للكثير من الجرائم والحروب الدموية والغارات الوحشية وسحق المبادئ الإنسانية والفضائل الأخلاقية في حركة الحياة البشرية والمجتمعات الإنسانية. والنقطة المقابلة لهذه الرذيلة الأخلاقية هي (القناعة) التي تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسي، العدالة، الصلح، الاخوة والصفاء في دائرة العلاقات الإجتماعية، وبالنظر الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٨ إلى المنهج المتبع لترتيب الفضائل والرذائل الأخلاقية (المنهج الذي يبتدى في دراسته واستعراض حالات الأنبياء من آدم إلى نبينا الكريم الواردة في القرآن المجيد) فإنّ ثاني صفة من الصفات الرذيلة هي الحرص المتمثل في قصة آدم، وكذلك قصة شعيب وداود وبشكل عام اليهود، وستعرض كذلك ما ورد من الحوادث المتعلقة بالمسلمين والمشركين العرب في عصر النزول أيضاً. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما ورد في هذا المضمون الأخلاقي: ١- «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّيْلِي \* فَآكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِمَا عَلَىٰ هَمَامٍ مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ» (١). ٢- «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنذَرْتُمْ كُفْرًا فَاسْتَأْذِنُوا فَمَن بَدَأَ فَلْيَبْذُحْهُ وَغَدَا لَهَا آيَاتُ اللَّهِ لِيُبَيِّنَ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (٢). ٣- «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِيَةً وَلِيَ نَعِيَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ \* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيَّتِكَ إلی نَعَايِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ الْآلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» (٣). ٤- «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّزَجٍ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٦٩ ٥- «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» (١). ٦- «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (٢). ٧- «وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ \* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ \* يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» (٣)

### تفسير واستنتاج:

تتحدث «الآية الأولى» من الآيات المذكورة آنفاً عن قصة آدم وزوجته حواء وما جرى لهما مع الشيطان الرجيم، فطبقاً للآيات القرآنية فإن الله تعالى قد اسكن آدم وحواء الجنة ونهاهما عن الاقتراب من الشجرة الممنوعة وحذرهما من إغواء إبليس ووسوسته، ولكن الشيطان افلح في إغوائه ووسوسته وارتكب آدم ترك الأولى وأكل من الشجرة الممنوعة، وبذلك طرد من الجنة وغرق في دوامة البلايا والمشاكل الدنيوية في هذه الحياة. الآيات أعلاه تشير إلى هذه الحادثة التاريخية وتقول: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى \* فَآكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . وفي الواقع فإن الشيطان ذكر لآدم عن الشجرة الممنوعة بأن كل من يأكل منها سوف يحظى بطول العمر ويغرق في النعمة والسعادة الخالدة. ما هو السبب الذي دفع آدم إلى قبول وسوسة الشيطان والاعتماد على كلماته ووعوده ونسيان الأمر الإلهي ونهيه عن تناول ثمرة الشجرة الممنوعة؟ أليس الحرص والطمع هو الذي حجب عن رؤية حقائق الامور؟ وبهذا نرى أن حالة التكبر هي التي أدت إلى ضلال الشيطان وعصيانه لأوامر الله تعالى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٠ في بداية الخلق، وترتب على ذلك أعظم المفسد في عالم الوجود، وهكذا نرى أن حالة الحرص والطمع والرغبة في الملذات المادية والدنيوية هي العامل الآخر لشقاء الإنسان وغرقه في وحل المفسد والمشاكل الكثيرة في حياته، ولهذا السبب فقد ورد في النصوص الدينية أن اصول الكفر ثلاثة: «التكبر» الذي أدى إلى ضلال إبليس وانحرافه عن طريق الحق، «الحرص» الذي تسبب في انحراف آدم وخروجه من الجنة، و «الحسد» الذي تسبب في قتل هابيل على يد أخيه قابيل. وصحيح أن النهي الإلهي المتوجه لآدم لم يكن نهياً تحريمياً ولذلك لم تكن مخالفته معصية مطلقة بل كان من قبيل (الترك للأولى ، أو بتعبير آخر كان نوعاً من النهي الإرشادي كما في نهى الطبيب للمريض عن تناول بعض الأطعمة غير الملائمة لصحته ومزاجه ولكن على أية حال فقد كان المتوقع من آدم أن لا يرتكب هذا الترك الأولى، لكن صفة الحرص والطمع قد دفعت بآدم إلى هذا المنزل الخطير، وبالتالي أوقع نفسه وذريته من البشر في دوامة من المشاكل والشدائد والمصائب في حركة الحياة.

«الآية الثانية» تتحدث عن قصبة قوم شعيب الذين دفعهم الحرص على المزيد من الملذات الدنيوية والطمع في التكاثر في الأموال والثروات المادية أن يديروا ظهورهم عن الحق ويتركوا دعوة نبيهم شعيب وإنكار التعليمات السماوية التي جاء بها هذا النبي الكريم لتهديدهم وتخليصهم من أدران الشهوات المادية الرخيصة حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ مَدَّيْنِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». وطبقاً لهذه الآية فإن انحراف قوم شعيب كان يتمثل أولاً في الشرك وعبادة الأوثان ثم التطفيف في الميزان وأكل أموال الناس بالباطل والغش والإفساد في الأرض، وهكذا نرى أن هؤلاء القوم كانوا حريصين على الدنيا إلى درجة أنهم قالوا لشعيب كما تصرّح الآية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧١ «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلمَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ...» (١). هذا والحال أن غضب حقوق الناس والتطفيف في الميزان لم يكن ليؤدي إلى عدم زيادة ثروتهم وأموالهم فحسب، بل كما أشار القرآن الكريم أدى إلى فساد المجتمع وإيجاد الخلل والارتباك في مفاصله وزوال الثقة بين الأفراد في عملية التفاعل الاجتماعي واهدار الطاقات واتلاف الأموال وأمثال ذلك، وعليه فإن صفة الحرص أدت إلى نتائج معكوسة في مسيرتهم الاجتماعية والدنيوية. «الآية الثالثة» من الآيات محل البحث تستعرض الحادثة التي حدثت لداود والتي تعكس في مضمونها الصفة الذميمة للحرص وابعادها السلبية في حياة الإنسان وعلاقته مع الآخرين، وتتلخص هذه القصة في أخوين جاء إلى النبي داود فقال أحدهما «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِي نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» (٢) وهكذا نجد أن صاحب التسع وتسعين نعجة طمع في ضم نعجة أخيه الواحدة إلى نعاجه وأصرّ عليه بقبول هذا العرض والطلب، وعندما سمع داود هذا الكلام تأثر كثيراً و «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ» ثم ذكر داود لهذين الأخوين أن هذه الحالة تكاد تكون طبيعية لدى بني البشر وخاصة في حالة الشركة مع بعضهم فيتحرك بعضهم من موقع الظلم والاجهاد بحق البعض الآخر، باستثناء المؤمنين الذين يمنعونهم إيمانهم من سلوك طريق الباطل وقال لهما «وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا



هُم». ونقرأ في ذيل الآية الكريمة «وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٢ ولكن ماذا حدث لداود في هذه الفتنة وهذا الامتحان الإلهي؟ هناك كلام كثير بين المفسرين، وأما ما ورد في التوراة المحرّفة الحالية فيتلخص في أن داود كان قد طمع في زوجة أحد قاداته العسكريين ويدعى «اورياى حتى» والذي كانت له زوجة جميلة جداً فعشقها داود واحتال لتحريرها من قيد زوجيتها مع اوريا ليمكن من الزواج بها مع انه كانت له أزواج عديدة، وهكذا نرى أن هذه القصة المفتعلة لا- تتناسب مطلقاً مع قداسة الأنبياء الإلهيين بل لا تتناسب مع الأخلاق الإنسانية لدى أى إنسان في المستوى المتوسط من الأخلاق، فإن كل إنسان يستقبح هذه الحالة في نفسه وفي غيره من البشر. والمشهور بين المفسرين الإسلاميين هو أن امتحان داود كان يتعلق بمسألة القضاء وانه استعجل في حكمه وقبل أن يسمع حجة الطرف الآخر حكم بينهما وقضى للأول على الثانى، وبالرغم من أن حكمه وقضائه كان مصيباً للحق فإن الله تعالى ويخه على تركه للأولى في هذه القضية، ثم إن داود التفت إلى ذنبه وتاب منه. وعلى أية حال فمقصودنا من استعراض هذه القصة هو أن الإنسان عندما يستولى عليه الحرص والطمع فإنه يتحرك من موقع ارتكاب الظلم والجور حتى بالنسبة إلى أخيه الضعيف والمسكين ولا يأبى عن غضب حقه وحرمانه من أبسط لوازم الحياة والمعيشة. أجل فإن الحرص على الدنيا وملذاتها لا يعرف حداً وحدوداً بل يجزّ الإنسان إلى ارتكاب أشنع الظلم والجور في حق الآخرين. «الآية الرابعة» من الآيات التي جاءت في البحث وتشير إلى حرص اليهود على الحياة الدنيا، وتنطلق الآية من موقع الذم لهؤلاء فتقول: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا». هؤلاء حريصون على جمع الأموال والثروات، حريصون على الملك والتسلط على الدنيا، حريصون على التمسك بزمام الامور، والعجيب أنهم احرص من المشركين الذين لا يلتزمون بأى دين ولا يعتقدون بأية شريعة سماوية في حين أن التعليمات السماوية تدم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٣ هذه الحالة الأخلاقية السلبية والمفروض بالإنسان الملتزم بالدين والشريعة أن تؤثر فيه هذه التعليمات السماوية وتحدد من حرصه على الدنيا وزخارفها الزائلة ولكننا نجد أن اليهود كانوا أحرص من المشركين عليها. وكما تقول الآية «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ». فهؤلاء و من أجل جمع الثروات وبدافع الخوف من العذاب الإلهي الذي ينتظرهم بسبب ظلمهم وعدوانهم وغضبهم لحقوق الآخرين وسفكهم لدماء الأبرياء فإنهم كانوا يتمنون هذا العمر الطويل. والملفت للنظر أن حالة اليهود في هذا العصر لم تختلف عنها في العصور السابقة فزاهم يعيشون حالة الحرص الشديد هذه بل وأشد من السابق، فإن التاريخ المعاصر يشهد بأن اليهود لا يمتنعون من ارتكاب أية جناية في سبيل المزيد من جمع الثروات والأموال، فما أكثر الحروب الدامية التي أشعلوها بين المجتمعات البشرية، وما أكثر دماء الأبرياء التي سفكوها، وما أكثر الفتن التي أوقدوا نيرانها بين الشعوب، وما أكثر الأسلحة والمواد المخدرة التي تاجروا بها لإفساد وتدمير العلاقات الإجتماعية بين أبناء البشر، كل ذلك من أجل تحكيم اركان سيطرتهم على مقدرات الامم والشعوب، وما أكثر الكذب والدجل والذي يروجونه بين الناس من الإذاعات العالمية التي يقف الصهاينة واليهود من ورائها. إذا أردنا أن نستعرض النتائج السلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص والطمع وحب الدنيا على الإنسان فينبغى أن نستعرض أعمال هؤلاء على هذا المستوى وتعبير «حياة» الذي جاء في الآية بصورة نكرة لعله إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن هؤلاء القوم يريدون ويطلبون الحياة لأجل اللذة فقط ولكن أية حياة؟ هل هي حياة إنسانية، أو حياة حيوانية، أو حياة الوحوش في البرارى والغابات؟ كل ذلك غير مهم في نظر هؤلاء. وكما قال بعض المفسرين أن هذه الآية لا تتحدث عن اليهود فقط بل تمثل تحذيراً لجميع أفراد البشر تحذرهم من الحرص وعواقب حب الدنيا لكيلا يبتلوا بما ابتلى به اليهود في حياتهم الدنيوية وسلوكياتهم الأخلاقية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٤ وقد ورد في الآيات القرآنية والروايات الشريفة عن اليهود أنهم قتلوا الكثير من الأنبياء الإلهيين لمجرد مخالفتهم لهم ونهيههم عن سلوكياتهم المنحرفة ورغباتهم اللامشروعة في هذه الحياة، وكذلك تحريفهم لآيات الله وكتبه السماوية وكل ذلك كان بسبب حرصهم وحبهم للدنيا. «الآية الخامسة» تتحرك على مستوى استعراض صفات الإنسان وحالاته السلبية من الحرص والجزع والبخل وأمثال ذلك وتقول: «أَنَّ الْأَنْسِيَانَ خُلِقَ هَلُوعًا» إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً. وقد ذكر المفسرون وأرباب اللغة لكلمة «هلوع» معان كثيرة، وفي الواقع أكثرها من باب اللزوم والملزوم ومقاربة المعنى،

ومن ذلك ما ذكره صاحب لسان العرب من المعاني الأربعة لهذه الكلمة وهي: الحرص، الجزع، الضجر، وقله الصبر، وأورد في «مجمع البيان» أيضاً لمعنى الهلوع: «ضجور» و«شحيح» و«جزع» و«شديد الحرص». وذهب صاحب كتاب التحقيق أن الجذر الأصلي لهذه الكلمة هو رغبة الإنسان في الاستمتاع بالنعم والملذات، أما الجزع والحرص وقله الصبر فكلها من آثار هذه الكلمة ومعناها الأصلي. ومن مجموع ما تقدم يظهر أن هذه الكلمة تتضمن ثلاث نقاط سلبية في دائرة الأخلاق وهي: الحرص، الجزع والبخل. وفي الواقع فإن تفسير كلمة «هلوع» ورد في نفس السورة بعد هذه الآية حيث يمكن استفادة المفهوم الواقعي لها بحيث تتضمن هذه المعاني الثلاثة لأن «جزوع» من مادة «جزع» و«منوع» من مادة «منع»، ويدخل في معناها البخل والحرص. وعلى أية حال فإن الآيات المذكورة وردت في مقام ذم الأشخاص الذين يستولى عليهم الحرص والبخل والجزع. ويمكن القول أن «الحرص» هو المصدر الأساس للبخل، لأن الحرص يريد الاحتفاظ بالأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٥ بكل شيء لنفسه ومنه ينشأ البخل، وكذلك فإن الحرص أحياناً يسبب الجزع وقله الصبر، لأن الحرص إذا فقد بعض ممتلكاته وممتلكاته فسوف يتألم كثيراً ويتعامل مع الأمور من موقع الجزع والحدة. فالآية الشريفة تقرر بأن الإنسان قد خلق بهذه الصفات، ولكن قد يثار في الذهن هذا التساؤل، وهو أن الله تعالى قد خلق الإنسان من أجل السعادة الخالدة ونيل المقامات والكمالات المعنوية، فكيف يخلقه بهذه النقائص ونقاط الضعف التي تحجبه عن سلوك طريق الحق وتصده عن السير في طريق الكمال والسعادة؟ وقد أجاب البعض على هذا السؤال بأن هذه الصفات السلبية تتعلق بالإنسان الفاقد للإيمان، فإن طبع الإنسان المؤمن يتناغم مع الصبر والمثابرة والكرم وأمثال ذلك ولكن عندما يفصل عن دائرة الإيمان، فمن الطبيعي أن يجزع مقابل أقل مشكلة وأدنى شدة لأنه يفقد السند والدعامة الأساسية في حياته العملية ويجد نفسه وحيداً في مقابل تحديات الواقع الصعبة، فلذلك يتعامل مع الحياة من موقع الحرص والبخل ولا يجد في نفسه اعتماداً وتوكلاً على الله تعالى الذي بيده مفاتيح الغيب وبالتالي لا يطمئن إلى غده وما سيواجهه في المستقبل من حوادث وأزمات. والشاهد على هذا هو أن الآيات التي جاءت بعد هذه الآية استثنت المصلين من هذا الحكم العام على الإنسان، ويحتمل أيضاً أن الآيات محل البحث كما هو الحال في كثير من الآيات الشريفة التي تصف الإنسان بأنه «ظلوم» و«جهول» و«يؤوس» و«كفور» و«طغي» وأمثال ذلك، فتشير هذه الآيات إلى وجود بُعدين في كيان الإنسان: البعد الذي يأخذ بالإنسان ويصعد به إلى أعلى عُلين، وهو ما يصطلح عليه بقوس الصعود، والبعد الآخر ما يجره إلى أسفل السافلين وهو قوس النزول. ويرى العلامة الطباطبائي في «الميزان» رأياً آخر في هذا الصدد، فيقول بأن الحرص صفة من الصفات الذاتية للإنسان ومتفرعة على حب الذات، وهي في الأصل ليست من الرذائل لأن حب الذات الذي تتولد منه هذه الصفات هو المحور الأساس الذي يسوق الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٧٦ الإنسان إلى الكمال المعنوي ويدفعه نحو طريق السعادة الخالدة، فهذه الصفات إنما تكون ذميمة وقبيحة فيما لو لم يستخدمها الإنسان في الطريق الصحيح واللائق، وفي الحقيقة أن هذه الصفات مثل سائر الصفات النفسانية التي إذا لزمته حد الاعتدال تعد فضيلة وإذا تجاوزت إلى جهة الإفراط أو التفريط فإنها تكون من الرذائل. وعلى أية حال فالآيات أعلاه تبين أن القرآن الكريم دعا جميع الناس إلى الإيمان والصلاة والدعاء والإنفاق في سبيل الله لإطفاء نار الحرص والبخل والجزع في وجوده وواقعه النفساني. «الآية السادسة» تستعرض واقعة من الوقائع التي جرت في زمان صدر الإسلام حينما كان المسلمون يعيشون القحط والجوع وغلاء الأسعار، وهناك وردت قافلة إلى المدينة محملة بالبضائع والمواد الغذائية من الشام وقد صادف دخول هذه القافلة الظهر من يوم الجمعة حيث كان النبي يخطب في الناس خطبتي الجمعة. وقد كان المتعارف في ذلك الزمان أنه عندما ترد قافلة إلى مدينة معينة تُدق الطبول ويُعزف على آلات الموسيقى حتى يجتمع الناس بسرعة لشراء ما يحتاجونه من هذه القافلة، وعندما سمع المصلون صوت القافلة الواردة إلى المدينة ترك بعضهم من الذين أسلموا حديثاً صلاة الجمعة وتوجهوا إلى السوق لشراء البضاعة من القافلة في حين لم يكن لذلك ضرورة لازمة وكان من الممكن التوجه إلى القافلة بعد إتمام صلاة الجمعة، وعلى أية حال فلم يبق في المسجد سوى اثنا عشر رجلاً وامرأة واحدة، فنزلت الآيات أعلاه تدم هؤلاء الذين تركوا صلاة الجمعة بدافع الحرص على زخارف الدنيا، وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي قال حينها: لو لم يبق هؤلاء نفر لأمرت

السماء حجارة على الناس. ويُستفاد من سياق الآية أعلاه أن التوجه إلى السوق والقفلة لم يكن بدافع من تأمين الحاجات الضرورية للمعيشة بل بدافع من الهوى وشياع الألعان الموسيقية لدى البعض، وقد يكون بدافع من التجارة والربح المادى لدى البعض الآخر. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٧٧ وعلى أى حال فإن القرآن الكريم يبين هذه الواقعة بهذه العبارة «وَأَذًا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا». ثم يخاطب النبى الكريم بالقول «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». ويحتمل أن البعض ترك الصلاة والنبى الأكرم وتوجه إلى السوق والقفلة لتأمين حاجاته الضرورية للحياة (بالرغم من وجود الوقت الكافى لتهيئتها بعد الصلاة) ولكن التعبير أعلاه يبين بوضوح أن فته من هؤلاء توجهوا إلى القافلة بدافع من الحرص على شراء السع والبضائع بقيمة زهيدة ثم بيعها بأعلى الأثمان طمعاً فى الثروة والمال الكثير، وجماعة توجهوا إلى القافلة بوحى الأهواء والنوازع النفسانية وبذلك حرموا أنفسهم من السعادة العظمى فى حضور الصلاة مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله. وجاءت الآية السابعة، والأخيرة من الآيات محل البحث لتتحدث عن الأشخاص الذين يتحركون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع السخرية والاستهزاء وذلك بدافع من الغرور لما يعيشونه من حالة الثراء ويتصورون أن ذلك يسوغ لهم الاستهزاء بالمؤمنين الفقراء. فتقول الآية «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ\* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ\* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» فمثل هذا الشخص الذى يجمع الأموال بدون حساب للحلال والحرام ويتصور أن هذه الأموال تؤدى إلى بقائه وخلوده وابتعاد الموت عنه أن هذه الثروة تبيح له السخرية بالآخرين من الفقراء والمُعتمدين. جملة «عَدَّدَهُ» الناظرة إلى حساب الأموال من قبل أصحاب الثروة تشير إلى شدة حرصهم ولعهم بهذه الأموال والثروات بحيث إنه كلما ازدادت أموالهم ازدادوا حباً وشغفاً بها ولذلك فهم يعدّدونها دائماً ويجدون فى ذلك لذّة كبيرة. وجملة «الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» هى فى الواقع بمثابة العلة للهمز واللمز المذكور فى الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٧٨ الآية الاولى، أى أن الثروة الدنيوية الطائفة أدت بهم إلى درجة من الغرور والسكر بحيث إنهم كانوا ينطلقون من موقع السخرية والاستهزاء بفقراء المؤمنين وكانوا يتصورون انه ليس فقط هذه الأموال والثروات هى الخالدة مدى الدهر بل أصحاب الثروة كذلك. إن دراسة حال أصحاب الدنيا العجيب وتعاملهم الغريب مع الواقع يرشدنا إلى ما يحير العقول من عجيب سلوكياتهم، فترى البعض منهم رغم احاطتهم الوافرة بالعلوم المادية والطبيعية ليس لهم هدف سوى جمع الأموال والثروات، وعندما يُسألون هؤلاء عن هدفهم من جمع المال رغم أنهم لا- يمتلكون عائلة ولا- ينطلقون فى سفرات ترفيهية وسياحية، فيجيبون بأننا نفرح بإضافة صفر أمام أرقام الأموال المؤدعة لنا فى البنوك!

### النتيجة النهائية:

من مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة وما ذكر لها من تفسير نستنتج أن مسألة الحرص والطمع وحبّ الدنيا والشغف بجمع الأموال والثروات أمر خطير جداً فى دائرة المفاهيم القرآنية، وهو مصدر لكثير من أشكال الشر والفساد ويُعد من أقوى الموانع فى مسيرة تهذيب النفس وفى خط التكامل الأخلاقى والمعنوى.

### الحرص وحبّ الدنيا فى الأحاديث الإسلامية:

#### إشارة

إن مفردة «الحرص» والكلمات المرادفة لها وردت فى الأحاديث الإسلامية بشكل واسع على مستوى أبعادها ودوافعها ونتائجها السلبية حيث نختار منها نماذج معدودة: ١- نقرأ فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم يخاطب فيه أمير المؤمنين فيقول: «اعلم يا علي! أن الجبن والبخل والحرص غريزة واحدة يُجمَعُها سوء الظن» (١). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٧٩-٢ وهذا المعنى والمضمون نجده بصورة اخرى فى نهج البلاغة فى عهد أمير المؤمنين لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام أن يحذر ويتجنب من استشارة البخلاء والجبناة

وأهل الحرص والطمع فقال «أَنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ عَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ» (١). فالشخص الذى يحسن الظن بالله تعالى وقدرته المطلقة على الوفاء بالعهد وتأمين الرزق للعباد فإنه سوف لا يحرص أبداً على جمع الأموال والثروات. الإنسان الذى يعيش حالة التوكل على الله ويؤمن بألطافه وعناياته فإنه لا يخشى غيره ولا يخاف أية قوة غير قوته المطلقة. والإنسان الذى يأمل دائماً برحمته الله تعالى ولطفه فإنه لا يجد فى نفسه بخلاً اطلاقاً. أجل فإن المؤمن الكامل فى توحيده وإيمانه بالله تعالى وبأسمائه وصفاته الحسنى فإنه لا يمكن أن يتلوث بهذه الخصال الثلاثة القبيحة والذليلة رغم انها تشترك فى الباطل بأصل واحد (ولهذا السبب نجد أحياناً انها تسمى باسم غريزة واحدة وأحياناً اخرى بأسماء مختلفة لأنها متعددة فى الظاهر ولكنها متحدة فى الباطن). ٣- إن الحرص على الدنيا وملذاتها وزخارفها بإمكانه أن يورث الإنسان التعب والشقاء ويورطه فى السعى الدائب لتأمين رغباته الوهمية، وقد ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين أنه قال «الْحِرْصُ مَطِيئَةُ التَّعَبِ» (٢). ٤- وفى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين أيضاً أنه قال: «الْحِرْصُ عَنَاءٌ مُؤَبَّدٌ» (٣). وعندما ندرس حالات الذين يعيشون الحرص والطمع فى حركة الحياة نرى مدى التعب والشقاء الذى يعيشه هؤلاء ليل نهار فى سبيل جمع الأموال والزخارف الدنيوية من دون الاستفادة منها، وهذا شاهد صدق على الحديث المذكور آنفاً. ٥- الإنسان الحريص لا يجد طعم الشبع أبداً، ولهذا السبب فهو دائماً يسعى لجمع الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٨٠ الأموال واكتناز الثروات حتى لو لم ينتفع بها، ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الْحَرِيصُ فَقِيرٌ وَلَوْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا» (١). ٦- وقد ورد فى الأحاديث الشريفة أن الأشخاص الذين يتخلصون من شراك الحرص ولا- يقعون اسرى الطمع هم الذين يتمتعون بالغنى الباطنى، ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث آخر «اغْنَى الْعِنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِرْصِ أَسِيرًا» (٢). ٧- الحرص على جمع الأموال والماديات يُفضى بالإنسان إلى الوقوع فى الهلكة، وليست الهلكة المعنوية فقط بل فى كثير من الأحيان تكون مصحوبة بالهلكة المادية أيضاً، حيث نقرأ فى الحديث الشريف عن رسول الله قوله: «أَنَّ الدَّيْنَارَ وَالذَّرْهَمَ أَهْلَكَمَا مَنْ كَانَ قَبْلُكُمُ وَهُمَا مُهْلِكَاكُمُ» (٣). ٨- إن الإنسان الحريص يُكبيل نفسه بالقيود يوماً بعد آخر إلى أن يوصد أمامه طريق النجاة والفلاح، كما نقرأ فى المثال الذى ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا مَثَلُ دُودَةِ الْقَرْزِ، كُلَّمَا ازْدَادَتْ مِنَ الْقَرْزِ عَلَى نَفْسِهَا لَفًا كَانَ ابْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ! حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا!» (٤). ٩- إن الحرص والطمع يهدم شخصية الإنسان ويسحق كل قيمة له فى أنظار الناس كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام «الْحِرْصُ يَنْقُصُ قَدْرَ الرَّجُلِ، فَلَا يَزِيدُ فِي رِزْقِهِ!» (٥). ١٠- إن الحرص من الامور التى تؤدى إلى الكثير من الذنوب والخطايا والقبايح منها عدم مراعاة الحلال والحرام وترك احترام حقوق الآخرين والتلوث بأنواع الظلم والجور والعدوان، ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من جملة ما أوصى به مالك الأشر فى عهده الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٨١ المعروف أنه قال «لَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجُورِ» (١). وعلى هذا الأساس فإن عواقب الحرص وتناججه وخيمه جداً فى حياة الإنسان حيث يورثه البعد عن الله تعالى ويهدم مروثته ويكسر شخصيته ويسلب منه الراحة والطمأنينة وبالتالي يُفضى به الحرص إلى الوقوع فى وحل الذنوب الكبيرة الاخرى فيتعد يوماً بعد آخر عن السعادة والكمال المعنوى ويغدو أسيراً وذليلاً فى قيود النفس الأمارة وأحابيل الشيطان، وبكلمة واحدة انه يفقد دينه ودنياه.

## ١- تعريف الحرص

بالرغم من أن معنى ومفهوم (الحرص) واضح للجميع إجمالاً، ولكن الدقة والتوجه إلى مضمونه العميق يكشف لنا نقاط جديدة فى دائرة هذا المفهوم. يقول الراغب فى مفرداته فى تعريف الحرص بأنه بمعنى شدة الرغبة والميل إلى شىء معين، ويرى أن هذه الكلمة فى الأصل تأتى بمعنى الضغط على اللباس عند غسله بالماء بواسطة ضربه بالخشبة وأمثال ذلك. وقد ورد عن أمير المؤمنين تعبير جميل جداً فى تعريف الحرص عندما سئل: ما هو الحرص؟ فقال «هُوَ طَلَبُ الْقَلِيلِ بِأَصَاعِيهِ الْكَثِيرِ» (٢) ويرى علماء الأخلاق أن الحرص من الرذائل الأخلاقية المتعلقة بقوة الشهوة وذكرها فى تعريفه (أن الحرص صفة من الصفات النفسانية تدفع الإنسان إلى جمع

ما هو أكثر من حاجته، وهو من شُعب حبِّ الدنيا ومن الصفات المهلكة والأخلاق الفاسدة) ويمثلون للحرص بأنه كالصحراء المترامية الأطراف وكالأرض الموحشة التي لا حدود لها فكلمًا سار فيها الحريص لا يصل إلى غايتها ومنتهاها. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٢ (الحريص) يُقال لشخص مبتلياً بمرض، مثل مرض الاستسقاء حيث كلما شرب من الماء فإنَّ عطشه لا ينطفأ. إنَّ الشخص الحريص لا يقبل أي دليل منطقي على سلوكياته، فلو قيل له مثلاً إنك بلغت من العمر ثمانين سنة ولم يبق من عمرك إلا القليل، فلماذا هذا الوله والشوق لجمع الأموال والثروات؟ وبالرغم من انه يفتقد الجواب الصحيح لهذا السؤال ولكنه يستمر في سلوكه الطفولي ولا ينتهي منه، بل على العكس من ذلك حيث نرى أن بعض الناس يزداد حرصاً وطمعاً كلما ازداد سناً وأوغل في مرحلة الشيخوخة، كما ورد في الحديث المعروف عن النبي الأكرم أنه قال: «يُشِيبُ بُنَّ آدَمَ وَيَشْبُ فِيهِ خَصَلَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الْأَمَلِ» (١).

## ٢- النتائج السلبية للحرص في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية

رأينا في الآيات والروايات الشريفة المذكورة سابقاً مدى النتائج السلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص في واقع الإنسان، ولذلك فإنَّ مطالعتها تغنيننا عن أي شرح وتفسير آخر في هذا المجال ومن ذلك: ١- إنَّ الحريص مُبتلى في التعب المستمر والعسر والحرَج في حركة الحياة. ٢- إنَّ الحريص لا يشبع أبداً، ولهذا فإنه لو ملك الدنيا بأجمعها فإنه يعيش عيشة الفقراء أيضاً. ٣- إنَّ الحريص يعيش عيش الفقراء ويموت موت الفقراء ولكنه يحاسب في الآخرة حساب الأغنياء. ٤- إنَّ الحرص يفضي بالإنسان إلى الهلكة لأن الإنسان الحريص وبسبب عشقه للدنيا ولزخارفها فإنه لا يرى آفاق الخطر المحيطة بها بل يسارع إليها بكلَّ عجلة وهلع. ٥- إنَّ الإنسان الحريص يكبل نفسه بقيود الماديات وأحاييلها ويزداد قربه من هذه القيود يوماً بعد آخر حتى يوصل أمامه سبيل النجاة. ٦- إنَّ الحرص يذهب بشرف الإنسان وماء وجهه ويسقط حرمة ومروءته في أنظار الناس، لأن الحريص ولغرض الحصول على مقصوده لا يلتزم بالاعراف الاجتماعية ولا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٣ يتقيد بالقيم والمثل والسلوكيات المعتبرة في المجتمع الانساني بل يعيش كالأسير المقيد بسلسلة من رقبته يقوده الحرص من هنا إلى هناك. ٧- إنَّ الحرص يؤدي بالإنسان إلى التلوث بأنواع الذنوب كالكذب، الخيانة، الظلم والعدوان وغصب حقوق الآخرين وأمثال ذلك، لأنه إذا أراد مراعاة الحلال والحرام فإنه سوف لن يصل إلى مقصوده في حياته الدنيوية. ٨- إنَّ الحرص يتسبب في إبعاد الإنسان عن الله تعالى ويورثه الصغار في أنظار عباده ويسلبه الطمأنينة والسكينة والهدوء النفسي فيعيش حياته مع العذاب الروحي والقلق المزمن. ٩- إنَّ الحريص يجمع الأموال والثروات التي يتحمل مسؤوليتها فقط بينما ينتفع بها الآخرون. ١٠- إنَّ الحرص إنما هو نتيجة من نتائج سوء الظن بالله وفي نفس الوقت يعمق هذه الحالة لدى الإنسان ويؤكد في نفسه سوء الظن هذا

## ٣- غنى النفس

والملفت للنظر أنَّ الإنسان الحريص يطلب الغنى من خارج ذاته ووجوده في حين أنَّ أصل الغنى وحقيقته يجب أن يحصل عليها الإنسان من داخله. وقد سُئل أحد العلماء عن حقيقة الغنى وعدم الحاجة والفقير فقال: أن تقصر من آمالك وترضى بما قسم لك. وفي الحديث الشريف الوارد عن رسول الله وكذلك عن أمير المؤمنين أيضاً نقرأ هذا المضمون السامي في دائرة القيم الأخلاقية والمعنوية «خَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» (١). وفي رواية أخرى عن رسول الله أنه قال: «الْغِنَى فِي الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فِي الْقَلْبِ» (٢). أجل فإذا كانت روح الإنسان تعيش الجوع المعنوي بسبب الحرص فإنه لو ملك هذا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٤ الإنسان الدنيا بحذافيرها فإنه يعيش فقيراً كذلك، ولو أنَّ روحه كانت تعيش الغنى الذاتي ولم يجد في نفسه الحاجة والطمع فإنه لو سلب منه جميع ما في الدنيا فإنه يعيش الغنى كذلك.

## ٤- الحرص المذموم والمدح

إن مفردة (الحرص) تأتي في الموارد السلبية فعندما تُطلق هذه الكلمة يراد منها الحرص على الأموال والثروة والمقام وسائر الشهوات المادية والدنيوية، وذلك بسبب أن هذه الكلمة تستعمل غالباً في هذه الموارد المذمومة والقيحة. ولكن أحياناً تستخدم هذه الكلمة في موارد إيجابية ونافعة وبذلك تستحق المدح ولا تكون من الأخلاق الرذيلة بل تُعد من الفضائل أيضاً وذلك عندما تتحكم هذه الصفة في الإنسان في موارد الشوق والرغبة الشديدة في أعمال الخير والصلاح. ومن جملة ما ذكر القرآن الكريم من فضائل نبي الإسلام هو حرصه على هداية الناس وانقاذهم من الضلال حيث يقول: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (١). ويقول في مكان آخر: «أَنْ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَيَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» (٢). وقد ورد ما يشبه هذا المعنى والمضمون في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضاً (٣). وطبعاً وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مصاديق سلبية أيضاً. أما في الروايات الإسلامية فإن كلمة «الحرص» وردت في موارد كثيرة إيجابية وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة في بيان صفات المتقين مخاطباً لهمام الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٥ «فَمَنْ عَلَّامَةٌ أَحَدِهِمْ أَنْكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ» (١). وورد في الروايات الشريفة موارد متعددة أن من علامات المؤمن هو حرصه على التفقه في الدين أو حرصه على الجهاد في سبيل الله أو الحرص على التقوى وأمثال ذلك (٢). ونختم هذا البحث بحديث شريف عن الإمام الباقر يقول «لَا حِرْصَ كَالْمُنَافِسَةِ فِي الدَّرَجَاتِ» (٣). وعلى هذا فإن للحرص مفهوم واسع ويأتي بمعنى شدة العلاقة والرغبة بشيء معين بحيث يسعى جاهداً لتحقيقه، فلو وقع هذا الشيء في طريق الخير والسعادة والصلاح لكان ممدوحاً، ولكن إذا وقع في طريق الدنيا وتحصيل المال والثروة والملذات الرخيصة فإنه يكون مذموماً كذلك، ولكن الغالب في استعمال هذه الكلمة هو في الموارد السلبية والسلوكيات الذميمة.

## ٥- علاج الحرص

من المعلوم أنه وفي علاج الأمراض البدنية لزوم الرجوع إلى الأسباب والجذور، لأن العلاج بدون قطع جذور المرض لا ينفذ على المدى الطويل وستبقى النتائج والآثار السلبية في وجوده، وحتى لو تم العلاج من خلال استخدام المهدئات والعلاجات المؤقتة فإن المرض سوف يتجلى ويظهر بعد مدة. وهكذا الحال في الأمراض الأخلاقية، فلا بد أولاً من التوغل لمعرفة جذور المرض ثم قطعها من الأساس. وكما تقدمت الإشارة إليه، (وورد في الأحاديث الإسلامية أيضاً) أن أحد جذور الحرص هو سوء الظن بالله وعدم التوكل عليه، وكل ذلك يعود إلى اهتزاز أركان التوحيد الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٦ الأفعالي لدى الإنسان. فالشخص الذي يعتقد بأن الله قادر ورازق وأن مفتاح الخيرات بيده فقط «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١) فسوف لا يجد في نفسه حالة الحرص على جمع الأموال والنعم المادية الأخرى. إن الشخص الذي يعيش الإيمان الكامل بوعده الله تعالى وقوله: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...» (٢) فبدلاً من الحرص على جمع الأموال فإنه سيحرص على انفاقها في سبيل الله. وعندما تهتز أركان الإيمان في وجود الإنسان وخاصية التوحيد الأفعالي فإن الصفات الرذيلة سوف تتجذر في نفس الإنسان وأخطرها الحرص، وحينئذ فلا بد من تقوية أركان الإيمان لمنع تفشى هذه الصفة ورسوخ هذه الحالة السلبية في باطن الإنسان. وأحد الأسباب الأخرى للحرص هو الجهل وعدم الاطلاع على حقائق الأمور وما يترتب عليها من نتائج وآثار في الواقع العملي. فإذا علم الإنسان أن الحرص يتسبب في سلب طمأنينته وهدوئه في حركة الحياة وأنه سيوقعه في العسر والشقاء والتعب الدائم، وأن الحرص سوف يهدم مروءته ويحطم شخصيته ويسقطه في أنظار الناس، وأن الحرص يتسبب في أن يعيش عيشة الفقراء بالرغم من غناه الظاهري وأن ما جمعه من الأموال والثروات سينتفع به الآخرين ولكنه سيُسأل عنها يوم القيامة بالرغم من أن الآخرين هم الذين ينتفعون بها في الدنيا. أجل فإن الحريص إذا فكر في هذه النتائج

والعواقب الوخيمة فإن ذلك سيؤثر في نفسه وروحه تأثيراً ايجابياً. ويقول الفيض الكاشاني في المحيية البيضاء: «علم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان «الصبر» و «العلم» و «العمل» ومجموع ذلك خمسة أمور: الأول وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق، فإن هذا القدر يتيسر بأدنى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٧ جهد ويمكن معه الإجمال في الطلب، فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة ونعني به الرزق في الإنفاق وترك الفرق فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله، ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله» (١). الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، قال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» (٢). الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل فإذا تحقق له ذلك ازدادت رغبته في القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل، قال النبي صلى الله عليه وآله: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» (٣). الرابع: أن يكثر تأمله في تاريخ بعض اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصحابه والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويقارن بينهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير. الخامس: أن يفكر في مخاطر جمع المال والثروة من دون قيد أو شرط، وكذلك في عواقب هذا العمل في الدنيا والآخرة، وكذلك عليه أن يفكر في العواقب الحميدة التي تأتي من القناعة. وعليه أن يفكر دائماً في أمور دنياه وينظر الى مادونه من الحق، لا أن ينظر الى من هم أعلى منه في الغنى لأن الشيطان يسوّل للإنسان دائماً ويدعوه للنظر الى ما فوقه، ويقول له في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٨ وساوسه: ماذا ينقصك حتى يكون فلاناً أغنى منك؟ لماذا لا تسعى لكي تصل الى ما هم فيه؟ أنظر الى هؤلاء وقد غرقوا بالخير والنعمة وتمتعوا بلذائذ الدنيا؟! وأنت تفكر فقط في الخوف من الله، وقد ضيقت على نفسك بالترامك المستمر بالحلال والحرام، هل أنت أكثر تدنياً من هؤلاء ام أنت أخوف منهم من الله؟! قال أبوذر: «أوصاني خليلي أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقى - أي في الدنيا».

## ٦- إجابة عن شبهة

وهنا يمكن أن يتصور البعض أن الإسلام ومن خلال هذه الآيات والروايات المذكورة في هذا الباب لا يتلائم مع تطور الحياة المادية والدينيوية للناس أو أنه ينظر إلى اصول التمدن المادى والتطور العلمى على مستوى الطبيعة بنظرة سلبية، من خلال دعوته لاتباعه إلى التجرد عن الدنيا وعدم التعلق بها، في حين أن هذا التصور اشتباه كبير، فالإسلام يتصدى لمحاربة الحالات الأخلاقية السلبية في واقع الإنسان التي تنطلق من الحرص وحب الدنيا والتضحية بالقيم الأخلاقية والإنسانية من أجل الرفاهية الدينيوية واشباع الملذات الرخيصة، لأنه يقف أمام استخدام الطاقات الفكرية والمواهب الطبيعية في عملية التطور العلمى في خط الكرامة الإنسانية وتوكيد حرية الإنسان من النوازع والأهواء النفسانية وتقوية القيم المعنوية. وتوضيح ذلك: أن المواهب المادية في حد ذاتها هي أدوات ووسائل للوصول إلى المقاصد الاخرى وتحقيق طموحات الإنسان في حركة الحياة وليستفيد منها في الصعود في مدارج الكمال المعنوى والإنسانى، فلو انه استخدمها في غير هذا الغرض وتحرك معها من موقع الأهواء والشهوات الرخيصة فسوف يبتعد بذلك عن الهدف من الخلقة ويسقط في مهاوى الرذيلة والانحطاط والتسافل الأخلاقى، وهذه الامور تتقاطع مع التعاليم الإسلامية. ومثلها كمثل الأدوات الصناعية والمنتجات المادية التي يمكن الاستفادة منها بوجهين، فالطائرة يمكن الاستفادة منها للتنقل السريع وتسهيل وصول الإنسان إلى مقصده والتوسع الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٨٩ في العمران وتأمين المعيشة ومساعدة الفقراء والمحتاجين وأمثال ذلك، كما يمكن الاستفادة منها بطريقة اخرى وذلك بجعلها أداة حرية لقتل البشر وإلقاء القنابل على الأبرياء وتخريب المدن والقرى وإحراق الأخضر واليابس وإتلاف مواهب الطبيعة. وعليه فلا ينبغي النظر إلى موقف الإسلام السلبى من حالة الحرص والطمع وحب الدنيا لدى الإنسان

كذريعة لترك النشاطات الاقتصادية والتطور العلمي والصناعي وبالتالي يتحول معها الإنسان إلى شخص خامل وكسول ويتعامل مع الأحداث والمجتمع من موقع الانزواء والعزلة كما نلاحظ ذلك لدى بعض المتصوفة حيث يسلكون هذا المسلك بالتوسل بأمثال هذه المفاهيم الدينية والنصوص الإسلامية.

## حُب الدنيا

### تنويه:

إنَّ أحد جذور (الحرص) وما يترتب عليه من عواقب وخيمة سبق أن ذكرناها في الفصل السابق، هو حُب الدنيا والتعلق بزخارفها وزبارجها. فعندما نتقد نار هذا الحب الدنيوي في أعماق الإنسان فسوف تقوده إلى أنواع الحرص والولع بالنسبة إلى المواهب المادية والدنيوية من قبيل سائر أنواع العشق الذي يغطي على فكر الإنسان وعقله ويسوقه يوماً بعد آخر إلى السقوط في لجة التلوث بالخطايا والاتصاق بالعالم السفلي. ولهذا السبب فإنَّ القرآن الكريم ومن أجل قطع جذور الحرص والولع قد تحرَّك في آياته الكريمة من موقع ذمَّ حُب الدنيا والافراط في التوغل في ملذاتها والتشبُّث بزخارفها والذى يمثل الجذور الأصلية للحرص والطمع في بعدهما السلبي، ونقرأ في المفاهيم القرآنية تعبيرات مختلفة تحط من قدر الدنيا وقيمتها لكي يخفف ذلك من حب أهل الدنيا لها ويتحركوا بعيداً عن أجوائها ويتخلصوا بذلك من الحرص والطمع ولا يضحوا بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية على مذبحها. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحى من تعبيراتها الدقيقة ما يضيء لنا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٩٢ الطريق لدراسة هذه المبادئ والمواقف الأخلاقية المهمة: ١- إنَّ القرآن الكريم يرى أنَّ الدنيا ما هي إلَّا لعب ولهو كما يلهو ويلعب الأطفال، وقد ورد وصف ذلك في آيات متعددة، ففي قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...» (١). وفي آية أخرى قوله تعالى «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ...» (٢). وفي الحقيقة أنَّ هذه الآيات الكريمة تشبه أصحاب الدنيا بأنهم كالأطفال الذين يعيشون الغفلة والجهل عمّا يدور حولهم ولا هم لهم إلَّا الاشتغال بالتوافه والسفاسف من الامور فلا يرون حتّى الخطر القريب المحقق بهم. بعض المفسرين قسّم حياة الإنسان إلى خمس مراحل (من الطفولة إلى أن يبلغ مرحلة الكهولة في سن الأربعين) وذكر أنَّ لكلِّ مرحلة ثمان سنوات وقال: إنَّ السنوات الثمانية الاولى من عمر الإنسان هي مرحلة اللعب، والسنوات الثمانية الثانية هي مرحلة اللهو، والسنوات الثمانية الثالثة حيث يعيش الإنسان في فترة الشباب فإنه يتجه إلى الزينة والالتذاذ بالجمال، والسنوات الثمانية الرابعة يقضى وقته وطاقاته في التفاخر، وأخيراً في السنوات الثمانية الخامسة يهتم بالتكاثر في الأموال والأولاد، وهنا يثبت شخصية الإنسان ويستمر على هذه الحالة إلى آخر عمره، وبالتالي فإنَّ أصحاب الدنيا لا يبقى لهم مجال للتفكير في الحياة المعنوية والقيم الإنسانية السامية. ٢- ومن الآيات الأخرى في هذا المجال نرى مفهوم «متاع الغرور» بالنسبة إلى الحياة الدنيا حيث يقول تعالى «... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٩٣ ويقول في مكان آخر «... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» (١). وهذه التعبيرات تدلّ على أنَّ زخارف الدنيا وبريقها الخادع يُعد أحد الموانع المهمة للتكامل المعنوي والصعود في درجات الكمال الإلهي للإنسان وما دام هذا المانع موجوداً فإنه لا يصل إلى شيء من هذه الكمالات المعنوية. إنَّ الحياة الدنيا مثلها كمثل السراب الذي يجذب العطاشى نحوه في الصحراء المحرقة ولكنهم لا يحصلون على شيء منه أخيراً، وهكذا حال التعلقات المادية الدنيوية فإنها تجذب أصحاب الدنيا نحوها طمعاً في إرواء ظمأهم وعطشهم إلَّا أنهم لا يجدون ما يطلبونه في هذا المسير المنحرف بل يزدادون ظمأً وحرقاً، وكما أنَّ السراب يتعد عن الإنسان كلما مشى نحوه وهكذا يظل يركض وراء السراب حتّى يهلك، فكذلك الدنيا تتعد عن الإنسان كلما اتجه نحوها فتزیده عطشاً لها وارهاقاً حتّى يهلك. ونرى هذه الحالة في الكثير من أصحاب الدنيا الذين يركضون وراء متاع الدنيا وزخارفها سنوات مديدة من عمرهم وعندما يحصلوا على شيء منها فانهم يصرّحون



بأنهم لم يجدوا ضالّتهم إلّا وهى (الهدوء النفسى والطمأنينة الروحية) بل يعيشون الجفاف الروحى أكثر ويجدون أنّ ملذات الحياة الدنيا تقترن دائماً مع الاشواك والمنغصات وبدلاً من أن تورثهم الهدوء والطمأنينة فإنّها تعمل على إذكاء حالة القلق والاضطراب فى جوانحهم وأعماق وجودهم وبذلك لا يجدون مبتغاهم فيها. ٣- وهناك طائفة اخرى من الآيات الكريمة التى تقرر لنا هذه الحقيقة، وهى أنّ الانجذاب نحو زخارف الدنيا وزبارجها يؤدى إلى أن يعيش الإنسان الغفلة عن الآخرة، أى أن يكون الشغل الشاغل له وهمه الوحيد هو تحصيل هذه الزخارف الخادعة، فتقول الآية الشريفة: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (٢). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٩٤ فهؤلاء يجهلون حتى الحياة الدنيا أيضاً وبدلاً من أن يجعلونها مزرعة الآخرة وقنطرة للوصول إلى الحياة الخالدة ونيل المقامات المعنوية وميداناً لممارسة السلوكيات التى تصعد بهم فى سُلّم الفضائل الأخلاقية ومدارج الإنسانية، يتخذون الدنيا بعنوان انها الهدف النهائى والمطلوب الحقيقى والمعبود الواقعى لهم، ومن الطبيعى أن مثل هؤلاء الأشخاص يعيشون الغفلة عن الحياة الاخرى. ويقول القرآن الكريم فى آية اخرى: «ارْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» ثم تضيف الآية «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (٢) أجل فإنّ الأشخاص الذين يعيشون ضيق الافق ومحدودية الفكر فانهم يرون الدنيا كبيرة وواسعة وخالدة وينسون الحياة الاخرى الأبدية التى قرّرها الله تعالى لحياة الإنسان الكريمة والمليئة بالموهب الإلهية والنعيم الخالد. ٤- ونقرأ فى قسم آخر من الآيات الكريمة أنّ الدنيا هى (عرض) على وزن (غرض) بمعنى الموجود المترلزل والذى يعيش الاهتزاز والتغير والتبدل فى جميع جوانبه وحالاته، ومن ذلك قوله تعالى «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَبَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً» (٣). وتقول الآيات فى مكان آخر مخاطبة لأصحاب النبى الأكرم «... يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...» (٤). وفى آيات اخرى نجد هذا التعبير أيضاً حيث يدلّ على أنّ جماعة من المسلمين أو غير المسلمين وبدافع من الحرص والطمع تركوا الاهتمام بالموهب الإلهية الخالدة والحياة الاخرى والقيم الإنسانية العالية واشتغلوا فى جمع زخارف الدنيا الزائلة واشباع الملذات الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٩٥ الرخيصة فى حركة الحياة الدنيا. أجل فان النعمة الحقيقية هى ما عند الله تعالى وما بقى فكلها (عرض) يقبل الزوال والانذار. وهذا التعبير هو فى الحقيقة انذار لجميع طلاب الدنيا بأنهم ينبغى عليهم الاهتمام بما لديهم من طاقات ورأس مال عظيم وبإمكانهم استخدامها فى سبيل حياة كريمة وخالدة فلا يضيعونها فى الامور الرخيصة والزائلة. ٥- ونقرأ فى قسم آخر من الآيات التعبير عن الموهب المادية بأنها «زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١). ووردت تعبيرات مشابهة لهذه الآية فى آيات اخرى أيضاً فى قوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَأُبْتِخَسُونَ» (٢). وفى مكان آخر يخاطب القرآن الكريم نساء النبى صلى الله عليه وآله ويقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا» (٣). وهذه التعبيرات توضح بصورة جيدة أنّ هذا البريق لزخارف الحياة الدنيا ما هو إلّا زينة للحياة المادية، وبديهي أنّ الإنسان لا يُعبّر عن الامور الحياتية والمصيرية بتعبير (زينة) أو (زينة الحياة الدنيا) أى الحياة السفلى والتافهة. ومن الجدير بالذكر انه حتى أنّ مفهوم (الزينة) نجده فى آيات اخرى مبنياً للمجهول حيث ورد تعبير (زِين) وهذا يدلّ على أنّ هذه الزينة غير حقيقية بل خيالية ووهمية. مثلاً نقرأ فى سورة البقرة الآية ٢١٢ قوله تعالى: «زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...». ونقرأ فى سورة آل عمران الآية ١٤ قوله تعالى: «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٩٦ هذه التعبيرات وتعبيرات اخرى مماثلة تشير إلى أنّه حتى مفهوم (الزينة) فى مثل هذه الموارد ما هى إلّا زينة وهمية وخيالية حيث يتوهم الناس من طلاب الدنيا انها زينة حقيقية وواقعية. وهنا يتبادر سؤال مهم، وهو انه لماذا جعل الله تعالى مثل هذه الامور زينة فى أنظار الناس؟ ومن المعلوم أنّ الدنيا إنما جعلت لتربية الإنسان واختباره وامتحانه لأن الإنسان إذا ترك مثل هذه الزينة الجميلة والخادعة والتى تكون مقرونة بالحرام والإثم غالباً من أجل الله تعالى والسير فى خط التقوى والإيمان فإنّ ذلك من شأنه أن يعمق فى نفسه روح التقوى والقيم الأخلاقية ويصعد به فى مدارج الكمال المعنوى وإلّا فإنّ صرف النظر عن هذه الامور المخادعة بمجرده لا يُعدّ افتخاراً ومكرمة للإنسان. وبعبارة أدق فإنّ التمايلات والرغبات الباطنية والأهواء النفسانية تزين للإنسان الامور المادية بزينة جميلة لكى تدعوه إلى ارتكاب الاثم وممارسة الحرام، وعليه فإنّ هذه

الزينة تنبع من ذات الإنسان ومن باطنه، وعندما نرى فى الآيات الكريمة نسبة التزين إلى الله تعالى فذلك بسبب أن الله تعالى هو الذى خلق هذه التمايلات والرغبات والأهواء الطاغية، وعندما نقرأ فى بعض الآيات نسبتها إلى الشيطان الرجيم فى قوله تعالى: «... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...» (١) فذلك بسبب أن عملية التزيين هذه بالرغم من انها من جهة منسوبة إلى الله تعالى بسبب القانون العام فى عالم الخلق، إلا أن إتباع هذه الأهواء والشهوات من جهة هو عمل الشيطان الرجيم الذى يسؤل للإنسان هذه الامور الخاطئة ليوقعها فى الاثم والذنب. وعلى أية حال فإن المستفاد من مجموع الآيات المذكورة أعلاه أن «حب الدنيا» إذا استقر فى قلب الإنسان وبصورة مفرطة فإنه سيؤدى به إلى الابتعاد عن الله تعالى والغفلة عن الآخرة.

### حب الدنيا فى الأحاديث الإسلامية:

وقد ورد ذم الدنيا وحبها فى الروايات الإسلامية كثيراً ولاسيما ما ورد فى كلمات النبى الأكرم وخطب نهج البلاغة بصورة واسعة ومفصلة ومن ذلك: ١- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما سئل عن سبب تسمية الدنيا بالدنيا فقال: «لأن الدنيا دنيئة خلقت من دون الآخرة» (١). ٢- وفى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «أكبر الكبائر حُبُّ الدُّنْيَا» (٢). ٣- ونفس هذا المعنى ورد فى كلمات أمير المؤمنين حيث قال: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ الْفِتَنِ وَأَصْلُ الْمِحْنِ» (٣). ٤- ونقرأ فى حديث آخر أيضاً عن الإمام على عليه السلام قوله: «أَنَّ الدُّنْيَا لَمُفْسِدَةٌ الدِّينِ وَمُسِيلِبَةٌ الْيَقِينِ» (٤). ٥- وورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أَنَّ أَوَّلَ مَا عُصِيَ اللّهُ بِهِ سِتُّ: حُبُّ الدُّنْيَا وَحُبُّ الرَّئِيسَةِ وَحُبُّ الطَّعَامِ وَحُبُّ النَّوْمِ وَحُبُّ الرَّاحَةِ» (٥). واغلب هذه الامور الستة أو جميعها نجدها متوفرة فى قصة طغيان الشيطان الرجيم ومعصيته وترك الأولى لآدم ومعصية قابيل، ولذا ذكرت بأنها أول الخطايا والمعاصي. ٦- ونقرأ فى حديث آخر أنه سئل الإمام على بن الحسين عليهما السلام: «أى الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟» قال: «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَمَعْرِفَةِ رَسُوْلِهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الدُّنْيَا وَإِنَّ لِدَلِكَ لَشُعْبًا كَثِيرَةً وَلِلْمَعَاصِي شُعْبًا». ثم يذكر الإمام عليه السلام اصول المعاصي الثلاث وهى «الكبر» لدى إبليس، و «الحرص» الذى سبب فى اخراج آدم وحواء من الجنة، و «الحسد» الذى دفع قابيل لأن يقتل أخاه، ثم أضاف: «فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا وحب الرئاسة وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن فى «حب الدنيا» فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». ثم إن الإمام ومن أجل التمييز بين الدنيا الممدوحة والمذمومة ذكر فى نهاية الحديث «وَالدُّنْيَا دُنْيَا بَلَاغٌ وَدُنْيَا مَلْعُونَةٌ» (١). ٧- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على بن أبى طالب قوله «ارْفُضِ الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيُصِمُّ وَيُكْمِ وَيُدِلُّ الرَّقَابَ» (٢). ومن الطبيعى انه عندما يتجذر العشق لشيء من الأشياء فى وجود الإنسان فانه يجعله غافلاً عن أوضاع الأشياء، فتراه يتمتع بعين ولكنه لا يرى الوقائع، وله اذن ولكنه لا يسمع، وله لسان ولكنه لا يتحرك إلا بما يهيم فى قلبه من العشق لذلك الشىء، فتراه ومن أجل الوصول إلى محبوه أى الدنيا فانه مستعد لأن يخضع إلى كل ذلة ومهانة. ٨- وأيضاً نقرأ فى الحديث الشريف بالنسبة إلى بيان الموارد السلبية لحب الدنيا قول أمير المؤمنين عليه السلام فى الحكمة من هذا الحكم الإلهى «حُبُّ الدُّنْيَا يُفْسِدُ الْعَقْلَ، وَيُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سَمَاعِ الْحِكْمَةِ وَيُوجِبُ الِيمَ الْعِقَابِ» (٣). ٩- ونقرأ فى حديث آخر فى بيان الآثار الضارة والمفاسد الكثيرة لحب الدنيا ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَنَّ الدُّنْيَا مُشْغَلَةٌ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ» (٤). ١٠- ونختم هذه البحث بحديث شريف آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو: «أَنَّ مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ أَلَا التَّاطُّ بِتَلَاتٍ: شُغْلٌ لَأَيْتَفُدَّ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٌ لَأَيْدُرَكَ غِنَاؤُهُ، وَأَمَلٌ لَأَيْتَالَ مُتْنَهَا» (٥).

### الدنيا المطلوبة والدنيا المذمومة:

قلنا كرراً أن المقصود من حب الدنيا فى هذا البحث هو ما يساوى العشق للدنيا لا الاستفادة المعقولة من المواهب المادية والطبيعية للتوصل بها إلى الكمال المعنوى فإن ذلك ليس من حب الدنيا قطعاً بل من حب الآخرة، وبعبارة اخرى أن الكثير من البرامج المعنوية

للسير في خط التكامل الإنساني لا تتسنى بدون الامكانيات المادية، وفي الواقع أن هذه الامكانيات المادية من قبيل مقدمة الواجب التي إذا أتى بها الإنسان بنية مقدمة الواجب، فمضافاً إلى أنها لا تكون عيباً فإنها تكون مشمولة بالثواب الإلهي أيضاً. ولهذا السبب نجد في الآيات القرآنية الكثيرة تعبيرات ايجابية عن مواهب الدنيا، ومن ذلك: ما ورد في آية الوصية من التعبير عن مال الدنيا به «خير» أي الخير المطلق حيث تقول الآية: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ أَنْ تَرَكَ خَيْرًا لِّلْوَالِدَيْنِ وَلِلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ» (١). ٢- ويقول في مكان آخر «بركات السماء والأرض» عن مواهب الطبيعة التي فتحها الله تعالى للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...» (٢). ٣- ونقرأ في مكان آخر التعبير عن المال والثروة بأنها «فضل الله» كما ورد في سورة الجمعة: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...» (٣). ٤- وفي آية أخرى ورد أن كثرة الأموال والثروات بأنها ثواب من الله تعالى للتائبين كما ورد في قصة نوح: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا\* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠٠ وفي مكان آخر يقرر أن الأموال هي وسيلة للحياة ومحور للنشاطات الدنيوية للأقوام البشرية وتؤكد الآيات على عدم وضعها بيد السفهاء وتقول: «وَلَا تَوَلَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» (١). ٥- وفي مورد آخر يتحدث القرآن الكريم عن وعد الله تعالى للمجاهدين في سبيله بالغنائم الكثيرة ويعدها من أنواع الثواب الإلهي لهم ويقول: «وَعِدْكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ...» (٢). ٦- وفي موضع آخر من الآيات القرآنية الكريمة يتحدث القرآن عن النعم المادية الدنيوية ويعبر عنها ب (الطيبات) كما نقرأ في سورة الأعراف الآية ٣٢ قوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...». وفي مورد آخر يقول: «وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصِيرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٣). هذه التعبيرات العميقة وأمثالها من تعبيرات القرآن الكريم يُستفاد منها جيداً أن المواهب المادية والدنيوية في ظل ظروف خاصة وأجواء متناسبة ليست فقط غير مطلوبة بل هي طيبة وظاهرة وباعثه على طيب البشر وطهارتهم. ٧- ونقرأ في آيات أخرى عبارات تقرر أن الامكانيات المادية مضافاً إلى انها من فضل الله على الإنسان يمكنها أن تكون سبباً للصعود بالإنسان إلى مرتبة الصالحين كما ورد في الآية ٧٥ من سورة التوبة: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ». هذه الآية الشريفة وبالنظر إلى شأن نزولها كما ورد في التفاسير انها نزلت في أحد الأنصار يُدعى «ثعلبة بن حاطب» الذي طلب من النبي صلى الله عليه وآله أن يدعو له بكثرة المال لينفق الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠١ منه في سبيل الله وليكون من الصالحين ففي البداية لم يستجب النبي لطلبه لما يعرف من مزاجه وروحته ولكن بعد إصراره دعا له النبي بذلك وكانت النتيجة معروفة، فهذه الآية توضح على أن الامكانيات المادية يمكنها أن تكون وسيلة للصعود بالإنسان في مدارج الكمال المعنوي ونيل السعادة الحقيقية والوصول إلى مرتبة الصالحين والمقربين. ومن مجموع العناوين السبعة الواردة بالآيات أعلاه يتضح جيداً أن النعم المادية والمواهب الدنيوية ليست مذمومة وقبيحة بالذات بل هي تابعة لكيفية استخدامها واستعمالها والطريقة التي يسلك بها الإنسان في الاستفادة منها، فلو انه استفاد منها بصورة صحيحة لأضحت مطلوبة وجميلة ونيّة وطاهرة، وفي غير هذه الصورة فهي ذميمة وسلبية ومضرة. والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الروايات الكثيرة في كتاب وسائل الشيعة في باب (استجاب الاستعانة بالدنيا على الآخرة) (١). وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملي في هذا الباب إحدى عشر رواية كلها شاهدة على انه يمكن الاستفادة من المواهب المادية والدنيوية في سبيل تحقيق السعادة الأخروية ومن جملة ما أورده العاملي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْعُنَى» (٢). وفي حديث آخر في هذا الباب عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «غِنًا يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فِقْرٍ يَحْمِلُكَ عَلَى الأَثْمِ» وورد في حديث آخر عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للإمام: والله إنا نطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال عليه السلام: «تحب أن تصنع بها ماذا؟» قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ليس هذا طلب الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠٢ الدنيا، هذا طلب الآخرة» (١). ونختم هذا البحث بكلام لأمير المؤمنين في الخطبة ٢٠٩ من نهج البلاغة حيث يقول عندما

دخل مع جماعة لعيادة «العلاء بن زياد الحارثي» وهو من الشخصيات المعروفة في البصرة ومن أصحاب الإمام حيث كان قد اشترى داراً وسيعه فقال له الإمام «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْيَهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ اخْوَجُ». ثم إن الإمام أكمل كلامه بهذه العبارة «وَبَلَى أَنْ شِئْتَ بَلَعْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تُقْرِى فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصَلُّ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطَلِّعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَعْتَ بِهَا الْآخِرَةَ» (٢) النتيجة: هي أن المواهب المادية والدينية متى ما أصبحت وسيلة للوصول إلى الكمال المعنوي وبناء الآخرة ومساعدة الضعفاء وحماية المحرومين وترويح وتقوية دعائم الحق والعدالة فليس هناك أفضل منها، وإذا سلك بها الإنسان في مسير الذنوب والحرص والتكاثف بدون ملاحظة الحلال والحرام فليس هناك شيء أسوأ منها، أجل فمثل هؤلاء الناس من أتباع الدنيا الذين يتحركون في استخدام هذه النعم والمواهب في طريق اشباع الغرائز المادية فإنهم يجمعون في واقعهم النفساني مجموعة من الصفات الرذيلة والرغبات القبيحة والدينئة. ويروي أحد أصحاب الإمام على بن موسى الرضا ويُدعى محمد بن إسماعيل بن بزيع حيث يقول: سمعت من الإمام الرضا أنه قال: «لَا يَجْتَمِعُ الْمَالُ إِلَّا بِخِصَالٍ خَمْسٍ بِيُحْلِلُ شَدِيدٍ وَأَمَلٍ طَوِيلٍ وَحِرْصٍ غَالِبٍ وَقَطِيعَةٍ الرَّحِمِ وَإِيَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» (٣).

## الحسد

### تنويه:

إن أحد الرذائل الأخلاقية الأخرى التي اقترنت مع نتائج سلبية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع هي صفة (الحسد) ويعنى كما ذكر علماء الأخلاق (الحزن على رؤية النعمة لدى الآخرين وتمنى زوالها بل السعى في طريق رفعها عن الطرف الآخر). إن الحسد يملأ أجواء الروح الإنسانية بالظلمة ويشوه معالم النفس ويثير في المجتمع البشري عدم الأمن والقلق والتوتر الناشئ من حالات الصراع النفسى بسبب دوافع الحسد. إن الحسد ليس له راحة في الدنيا ولا يتنعم في الآخرة، وبما أن سعيه في حركة الحياة هو إزالة آثار النعمة عن الطرف المحسود فسوف يتلوث بأنواع الجرائم النفسية والعملية ومن بين ذلك: الكذب، الغيبة، ارتكاب أنواع الظلم والعدوان بل قد يؤدي به الأمر في حالات الحسد الشديدة إلى القتل وسفك الدماء أيضاً. وفي الحقيقة يمكن القول إن الحسد هو أحد الجذور الأصلية لجميع أنواع الفساد والسيئات ومن أشنع فحاح الشيطان وأخطر شراكه وهو المصيدة التي وقع فيها الإنسان الأول المتمثل بآدم (قاييل) حيث تلوث يده بدم أخيه (هابيل) بدافع من الحسد، ولهذا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠٤ السبب نجد في الروايات الإسلامية والمفاهيم الدينئة أن الحسد يُعد أحد الاصول الثلاثة للكفر أى (التكبر، الحرص، الحسد). إن الشخص الحسود في الواقع يعترض على حكمه الله تعالى، ولهذا السبب فالحسد نوع من الكفر والشرك الخفى. والنقطة المقابلة للحسد هو (حب الخير) للآخرين، أى أن يحب الإنسان أن يرى نعمة الله تصيب الآخرين من أفراد المجتمع ويلتذ بذلك ويسعى لحفظها ويرى أن سعادته مقرونة بسعادة الآخرين ومصالحه في خط واحد مع مصالح الآخرين ومنافعهم. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنقرأ في أجوائها معطيات هذه المسألة: ١- «وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ \* لئن بَسِطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ \* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ لِكَبْرِ مَا جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ \* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (١). ٢- «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ \* قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُتَّخَذَ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ». (٢) ٣- «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا». ٤- «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢،

ص: ١٠٥-٥ «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» (١) «٦- «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (٢) «٧- «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» (٣).

## تفسير واستنتاج:

### نار الحسد المحرقة

«الطائفة الأولى من الآيات محل البحث تتحدث عن قصة ابني آدم وأن أحدهما قد ملكه الحسد على الآخر بحيث أدى به إلى أن يقتل أخاه، وبذلك وقعت أول جريمة قتل على الأرض وكانت في الحقيقة بداية للجرائم البشرية الأخرى. تقول الآية الكريمة «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» (٤). أى اننى لم أقصد أن اسىء إليك لتصمم على قتلى فإن مشكلتك هي من باطنك لأن عملك غير خالص ولم يقترب بالتقوى، ولذلك لم يتقبل الله منك لأن الله تعالى لا يتقبل إلا ما كان طاهراً نقياً. ثم تقول الآية «لَئِن بَسَّطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» (٥). ثم إن قابيل وبسبب نار الحقد والحسد المتأججه في قلبه صمم على قتل أخيه هابيل وتمزيق أواصر الاخوة بينهما بحيث إن الحقد والحسد حجبا عن عينه كل القيم الأخلاقية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠٦ والمثل الإنسانية وارتكب تلك الجناية الشنيعة كما تقول الآية «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (١). أجل لقد أصبح من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فقد خسر اخوه وخسر نعمة الأمن والاستقرار النفسى والهدوء الروحى، لأن القاتل لو بقيت له ذرة من الوجدان فسوف يعيش عذاب الوجدان باستمرار ولا يجد طعم الهدوء والراحة في الدنيا، وكذلك حاله في الآخرة حيث يستقر في جهنم وبئس المصير. وقد ورد في الروايات انه قتل أخاه وهو نائم (٢)، وتعد هذه جناية مضاعفة تدل على أن الحسد إذا ما استعر في قلب الإنسان فسوف يحول كل نعيم إلى رماد تذرره الرياح. ولكن قابيل ندم بسرعة على فعلته الشنيعة وملكه الحزن العميق، وكلما نظر إلى جسد أخيه الدامى سرت في نفسه قشعريرة وتملكه الخوف والقلق، فما كان منه إلا أن حمل جسد أخيه ولم يعلم ما يصنع به واين يذهب به بحيث يغطى على آثار جنايته؟ مضافاً إلى أن هذا المنظر الموحش يقلقه ويزعجه فلم يكن يدرى ما يصنع في هذه اللحظة، وعلى رغم جنايته العظيمة وذنبة الكبير فإن لطف الله قد شمله كما تقول الآية «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَهُ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْغُرَابِ فَأُورِى سَوْءَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» (٣). وقد جاء في بعض الروايات أن قابيل رأى أمام عينه غرابين يتقاتلان فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة في الأرض ودفن فيها جسد الغراب المقتول. وقال بعض إن غراباً جاء بجسد غراب ميت ودفنه، وقيل أيضاً أن قابيل رأى غراباً يدفن بعض المواد الغذائية ليحفظها كما هو ديدن الغربان فتعلم من ذلك دفن الموتى (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٠٧ وعلى أية حال فقد ندم قابيل بشدة ولكن ندمه لم يكن مستقراً ومن موقع التوبة والانابة إلى الله تعالى حتى يكون من شأنه تطهيره من الذنوب. وهنا يطرح سؤالان، الأول: ما المقصود من «الغراب» في قوله تعالى «إذ قربا قرباناً»؟ والآخر: هو انه من اين علما أن الله تعالى تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل؟ ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى جواب عن هذين السؤالين، واما الروايات فهي مختلفة على مستوى السند أو المتن والدلالة، ولكن ما يتطابق مع المنطق والعقل ويتلائم مع القرائن الموجودة هو ما ورد في الرواية عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك إن الناس يزعمون أن آدم زوج ابنته من ابنه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «قد قال الناس في ذلك ولكن يا سليمان أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لو علمت أن آدم زوج ابنته من ابنه لزوجت زينب من القاسم، وما كنت لارغب عن دين آدم. فقلت جعلت فداك إنهم يزعمون أن قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تغايرا على اختهما، فقال له: يا سليمان تقول هذا! أما تستحي أن تروى هذا على نبي الله آدم؟ فقلت: جعلت فداك فبم قتل قابيل هابيل؟ فقال: في الوصية ثم قال لى: يا سليمان أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر منه، فبلغ ذلك قابيل، فغضب فقال: أنا

أولى بالكرامة والوصية. فأمرهما أن يقربا قرباناً بوحى من الله إليه، ففعلا فقبل الله قربان هابيل فحسده قابيل فقتله» (١). وعلى أية حال فإن قابيل وجد نفسه فى مفترق طريقين لإنهاء حالة القلق والإضطراب التى يعيش فيها: أحدهما التوبة إلى الله تعالى والسعى لجبران ما صدر منه من الاثم بالعمل الصالح والخالص والتحرك فى خط التقوى والاستقامة والانفتاح على الله (وهو العمل الذى يسميه علماء الأخلاق بـ «الغبطة» وهى حالة ممدوحه وبناءة) ولكن قابيل اختار الطريق الآخر، أى السعى لإزالة النعمة من أخيه، وبذلك أوقع نفسه فى أسوء طريق وانتخب أشنع وسيلةً بذلك وتلوث يده بدم أخيه البرىء ليطفىء نار الحسد فى قلبه. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٠٨ إذا تسبب «تكبر» إبليس لأن يقع طريد رحمة الله إلى الأبد، وتسبب «الحرص» فى أن يحرم آدم من الجنة، فإن «الحسد» قد جعل قابيل ملعوناً ومطروداً من رحمة الله إلى الأبد بسبب قتله لأخيه، وكلّ قتل يقع فى الدنيا فإن قابيل له سهم من تلك الجناية باعتباره المؤسس لها. فالتاريخ البشرى ملئ بالجنایات والفجائع المختلفة التى تنطلق بدافع من (الحسد). «الطائفة الثانية» من الآيات الكريمة التى تحدثت عن جانب آخر من هذه الصفة الذميمة فى حالات الإنسان وهى «الحسد» وآثارها المدمرة فى حياة الفرد والمجتمع، وتستعرض فى ذلك قصة النبى يوسف واخوته. «النبى يوسف» لم يكن صاحب الجمال فى وجهه وملامحه البدنية فحسب بل كان يتمتع بمتهى الجمال فى أخلاقه وسيرته الحميدة، وهذا الأمر هو الذى اخبر عن مستقبله العظيم كما توقع له أبوه يعقوب وأحبه ذلك الحب الشديد، وكان هو السبب فى غرس عامل (الحسد) فى قلوب أخوته الذين كانوا أكبر منه سناً. وهذا الموضوع تجلّى بوضوح عندما حكى يوسف لأبيه حلاًماً كان قد رآه حيث تقول الآية: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ» (١). وكان النبى يعقوب يعلم أن مثل هذه الرؤيا ليست رؤيا عادية ومن افرازات الخيال للأطفال بل هى علامة على مستقبل مشرق ينتظر ابنه يوسف فقال له كما تتحدث الآية: «قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (٢). ولكن هل أن اخوة يوسف علموا بمضمون رؤيا يوسف العجيبة التى تتحدث عن الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٠٩ مستقبله الزاهر أم لا؟ لا نعلم بذلك على وجه الدقة، ولو أنهم كانوا قد علموا بذلك لكانت هذه بمثابة البذرة الثانية لحالة (الحسد) التى اعتمرت قلوبهم، ولكن على أية حال فإن الأب كان يعلم انه إذا علم الاخوة بمضمون هذه الرؤيا العجيبة فانهم سوف يتحركون ضد أخيهم يوسف من موقع العداوة والخصومة، ولهذا أصرّ عليه بكتمان هذا الخبر عنهم. وجاء فى بعض الروايات أن يعقوب ومن فرط فرحه وسروره بهذه الرؤيا قد أخبر زوجته بذلك على أساس انها تكتم الخبر، ولكن بما أن السر إذا تجاوز الـ اثنين فشا، فإن هذه الحكاية انتشرت وعلم بها اخوة يوسف، وجاء فى رواية اخرى أن يوسف لم يستطع كتمان خبر هذه الرؤيا، (فتصوّر أن نهى أبية هو نهى ارشادى لا نهى تحريمى) فعندما علم اخوته بخبر الرؤيا قالوا أن يوسف يطمح أن يكون ملكاً (١). ولكن إذا لم يعلم الاخوة بخبر الرؤيا فانهم على الأقل كانوا يرون تعامل أبيهم مع يوسف وسلوكه الذى ينبىء عن عظيم حبه له وخاصة انه كان بقيه امه راحيل التى ماتت وهو فى طفولته. القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد «إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢). وبهذه الصورة اصدروا حكمهم بضلالة أبيهم، وبعد ذلك صمّموا على رفع هذا المانع الكبير، أى يوسف، من طريقهم ليقى لهم حب أبيهم ومودته، وضمن البحث فى (جلسة شيطانية) قرروا ما يلى «أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» (٣). وكما نعلم انه لم يتم لهم قتل أخيهم يوسف بل قد توسط أحد الاخوة فى ذلك وتم القرار الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١١٠ بإبعاده إلى أرض بعيدة ومنطقة نائية، وبالرغم من أن هذا النفى والتباعد ليوسف قد سبب الحزن الشديد لأبيه يعقوب بحيث ابيضت عيناه من الحزن وصار بصيراً من كثرة البكاء، ولكن هذا العمل وعلى خلاف توقع الاخوة اصبح مقدمة لينال يوسف مقام القدرة والسلطنة على بلاد مصر التى كانت تعتبر من أعظم البلدان فى ذلك الزمان وكذلك لم يحظوا بحب أبيهم أيضاً. أجل فإن الامواج الخطيرة للحسد قوية وعظيمة إلى درجة أنها دفعت الاخوة إلى قتل أخيهم وتسببت فى أن يحملوا أوزاراً كبيرة اخرى منها الكذب وكتمان الجريمة ونسبت أبيهم إلى الضلالة واهانة نبى من الأنبياء وأمثال ذلك. «الآية الثالثة» تشير إلى قصة اليهود وتحدثت عن سلوكياتهم الذميمة، ونعلم أن طائفة عظيمة من بنى إسرائيل قد قرأوا علامات النبى فى آخر الزمان

ومنطقة ظهوره، فرحلوا من (الشامات) إلى (المدينة) ليحظوا بصحبة ذلك النبي ويؤمنوا به، ولذلك كانوا ينتظرونه دائماً. ولكن بعد ظهور هذا النبي فإن الكثير منهم لم يبقوا على تعهدهم والتزامهم المسبق بحمايته ونصرته والإيمان به، بل أصبحوا في صف المخالفين له والمحاربين لدعوته، والسبب الأهم في ذلك هو عنصر «الحسد» والآخر هو ما توهموا من وقوع منافعهم ومصالحهم في الخطر. القرآن الكريم يتحدث لنا عن هذه الحالة لليهود فيقول «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَأَلْحِكْمَهُمْ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» (١). أجل فإن المشيئة الإلهية قد تعلقت في أن يملك آل إبراهيم والذين كان اليهود من ذريتهم وأن تكون لهم النبوة والعلم، ولكن المشيئة الإلهية قررت في زمان لاحق أن تتعلق النبوة والعلم بمحمّد وآله الكرام وكل ذلك وفقاً للمصالح التي تتعلق بها المشيئة الإلهية، فهل أن اليهود كانوا يقبلون أن يحسداهم الناس على ما آتاهم الله من فضله في الزمان السالف؟ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١١ إذن فلماذا استعرت في قلوبهم نيران الحسد عندما يرون أن نعمة الله قد صارت من نصيب آخرين وبذلك تحركوا في خط الباطل. «الآية الرابعة» تتحدث عن طائفة من أهل الكتاب الذين يتعاملون مع المسلمين من موقع الحسد، والظاهر انها ناظرة إلى اليهود وتقول «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسِداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١). إن الحسد قد يصل بالإنسان إلى درجة أن لا ينحصر تأثيره في الامور المادية مورد التنازع بين الناس عادة فحسب بل قد يتجاوز ذلك إلى الامور المعنوية التي لا تتزاحم بطبعها في تواجدتها بين أفراد البشر كافة بخلاف حال الامور المادية التي تتزاحم بالذات بين الأفراد، وهؤلاء يحسدون المؤمنين من موقع العناد والاصرار ويسحقون على سعادتهم ويديرون ظهورهم للحق بسبب امور موهومة، ونفس هذا الحسد يتسبب أن يضعف في الآخرين أيضاً الدافع لسلوك طريق السعادة والتحرّك في خط الإيمان والتقوى، وهذا من عجائب الحسد. وقد ذكر الكثير من المفسرين أن جملة «حَسِداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» إشارة إلى أن العامل لهذه الحالة في نفوسهم هو عنصر الحسد المتجذر في باطنهم والذي يتفرع من جهلهم وعدم اطلاعهم على حقائق الامور بل حتى بعد اطلاعهم على الحقيقة يسلكون هذا المسلك المنحرف كما تقول الآية بعد ذلك «مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ». ولكن القرآن الكريم يخاطب المسلمين من موقع الأمر إلى أن يتركوا هؤلاء الحساد لحالهم (لأن نار الحسد المستعرة في قلوبهم هي أفضل جزاء لهم) ولكن لا يتصوروا أن هذا العفو والصفح من قبل المسلمين يستمر إلى ما لا نهاية وأنهم أحرار في سلوك أي عدوان واضرار بالآخرين، كلاً. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٢ إن الزمان سوف يُثبت على أن العذاب الإلهي سوف يُحيط بهؤلاء المنحرفين والظالمين إما في الدنيا بواسطة جيش الحق فيعذبهم الله ويريبهم جزاء مؤامراتهم الخبيثة وممارساتهم المنحرفة تجاه أصحاب الحق، أو يذيقهم العذاب في الآخرة. وعلى أي حال فهذه الآية تشير إلى أن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً عليهم أن لا يستسلموا لوساوس اليهود وغيرهم من المنحرفين وقوى الضلال لأنهم ينطلقون في تعاملهم مع المسلمين من موقع الحسد ولا يريدون سعادتهم بل يتألمون لما يروا من سعادة المسلمين في ظل التقوى والإيمان. «الآية الخامسة» وهي الآية الخامسة من سورة الفلق تشير إلى شرّ الحاسدين وتخاطب النبي بأن يتعوذ بالله تعالى من شرّ كلّ حاسد وتقول «وَمِنَ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» (١). وفي بداية هذه السورة تخاطب النبي بالقول «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ \* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ». ثم تقسم المخلوقات الشريرة إلى ثلاثة أقسام وتقرر أن أساس الشرّ والعامل الأصلي له في العالم هي هذه الامور الثلاثة: الأول: المخلوقات الشريرة التي تستغل ظلمة الليل وتهجم على الإنسان في حال نومه ويقظته، والتعبير بكلمة (غاسق) (ويعنى الموجود الشرير الذي يهجم في الليل) وذلك لأن الحيوانات الوحشية والحشرات المؤذية تخرج ليلاً من آجامها وجورها بل إن الأشخاص من أهل الشرّ والخبث والدنائة يستغلون ظلمة الليل غالباً للوصول إلى مقاصدهم الشريرة. ولكن الظلام هنا يمكن أن يكون له معنى واسع بحيث يشمل كل أنواع الجهل والغفلة والمؤامرات الخبيثة وأمثال ذلك لأن قطاع طريق الحق يستغلون جهل الناس عادة ويهجمون على المؤمنين واصفياء القلوب من موقع التآمر عليهم. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٣ ثم تشير السورة إلى الأشرار الذين ينفخون في العقد، وهو تعبير يشير إلى النساء اللواتي يسلكن طريق الانحراف كما هو حال الساحرات اللواتي يقرأن بعض الأوراد والتمائم في

حال عملية السحر ثم ينفخ في العُقد ويقرأ على البسطاء والسدج من الناس مطالب وكلمات غير مفهومة، وبهذه الوسوس يسعين إلى إيجاد عنصر الخذلان في إرادتهم ويجزؤونهم إلى حال التردد والتشكيك، فعندما تضعف الإرادة في الإنسان يتسنى حينئذٍ لجيش الشيطان أن يهجم ويتسلط عليه. ثم تشير الآيات إلى الطائفة الثالثة والأخيرة من طوائف الشر وتقول «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ». وهنا يتضح أن أحد عوامل التخريب والفساد في العالم هو عامل الحسد والتخريب الذي ينشأ من فعل الحساد، وعليه فالآية في حديثها عن منابع الثلاثة للشر والفساد (وهي: المهاجمون في ظلمة الليل، والموسوسون الذين يتحركون من خلال الإعلام لهدف تضعيف عقائد الناس وإيمانهم وإيجاد الخلل في العلاقات الاجتماعية، والحاسدون الذين يتحركون بين الناس من موقع التخريب) فهذه الآيات شاهد ناطق على المراد أي الأضرار الوخيمة للحسد. أما ما ورد في الآية من هذه السورة من الصفة الإلهية (بِرَبِّ الْفَلَقِ) يمكن أن يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه الطوائف الشريرة الثلاثة تستغل دائماً الظلمة والجهل والاختلاف والكفر، فلو أن هذه الظلمات تبدلت إلى نور العلم والاتحاد والإيمان فإن قوى الانحراف هذه سوف لا تستطيع أن تعمل شيئاً. «الآية السادسة» من الآيات مورد البحث بعد أن مدحت الأنصار مدحاً بليغاً (وهم الذين دعوا نبي الإسلام إلى يثرب ونصروه واستقبلوه أحسن استقبال وجعلوا جميع ما لديهم من امكانات تحت اختياره) تحدت عن (التابعين) وهم الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار والتمروا خط الإيمان واعتنقوا الإسلام واستمروا في خط الإيمان، تقول الآية «وَالَّذِينَ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١١٤ حَيَّاءُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (١). وعلى هذا الأساس يقول هؤلاء بعد طلبهم المغفرة لهم ولمن تقدمهم في الإيمان (المهاجرين والأنصار) حيث يطلبون من الله تعالى أن يُزيل أي شكل من أشكال (الغل) والحقد والحسد) في قلوبهم بالنسبة إلى المؤمنين، لأنهم يعلمون أنه مادامت هذه الأمور تعيش في قلب الإنسان فإن روابط المحبة والأخوة والاتحاد لا يمكن أن تؤثر أثراً وبالتالي لا ينال الفرد التوفيق في حركته الدينية والاجتماعية. كلمة (غل) المأخوذة من مادة (غلل) وكما يقول الراغب في كتابه (المفردات) هي في الأصل بمعنى الشيء الخفي الذي ينفذ تدريجياً وبخفاء، ولهذا يُقال للماء الجاري (غلل) لأنه ينفذ إلى الأشجار تدريجياً. ثم استعمل الغلول في (الخيانة) لأنها تنفذ بخفاء وتدرج، وكذلك استعملت في (الحقد والحسد) حيث ينفذان إلى القلب بشكل خفي وتدرجي. وجاء في (لسان العرب) أن الحسد نوع من (الغل) كما أن من مصاديقه هو الحقد والعداوة أيضاً. والكثير من المفسرين يرون في تفسير العتَل بمعنى الحسد كالفخر الرازي في (التفسير الكبير) والمراغي في تفسيره والقرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) في ذيل هذه الآية محل البحث. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث تتحدث عن صفات أهل الجنة وتقول بعد تصريحها باستقبال الملائكة لهم في القيامة ودعائهم لهم بالسلامة والأمن «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٥ أجل فإن أهل الجنة طاهرون من كل أشكال الحسد والحقد والعداوة التي يتصف بها أهل النار، وإذا رأينا أنهم يعيشون حالة الأخوة والسلامة والأمن في الجنة فإنما هو بسبب زوال هذه الأمور السلبية من وجودهم وقلوبهم (وذلك بلطف الله وبركته أعمالهم الصالحة في الدنيا). ولا شك أن الناس في الدنيا لو عاشوا حياة خالية من الحقد والعداوة والحسد في تفاعلهم الاجتماعي فيما بينهم لأضححت حياتهم الدنيوية كحياة أهل الجنة حيث يعيشون الأمن والأمان والأخوة والصفاء أيضاً.

### النتيجة:

ومن مجموع ما تقدم من الآيات المذكورة آنفاً تتضح الآثار السلبية الوخيمة لحالة الحسد في حركة الحياة الفردية والاجتماعية، ويتضح كذلك موقف القرآن السلبي والشديد من هذه الصفة الأخلاقية الذميمة، فالحسد هو الذي تسبب في أن يقتل الإنسان أخاه وأن يُغمض عينه عن رؤية الحق ويُسدل على عقله حجاباً كثيفاً يمنعه عن رؤية الحقيقة ويثير في أجواء المجتمع الظلمة، ويقطع أواصر المحبة والود بين الأفراد، ويحول المجتمع البشري إلى جهنم محرقة تحرق المتلوثين بهذه الصفة الذميمة.



## الحسد في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الروايات الإسلامية الذم الشديد لحاله الحسد بحيث قلما نجد صفة من الصفات الرذيلة قد ورد ذمها بهذه الشدة في النصوص الدينية، وعلى سبيل المثال وكنماذج وعينات من ذلك نكتفي بإستعراض عدّة روايات تتحدّث حول هذا الموضوع: الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٦-١ ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» (١). والتعبير أعلاه يشير إشارة واضحة إلى أنّ نار الحسد يمكنها أن تأتي على جميع عناصر السعادة لدى الإنسان وتتحرق حسناته وأتعبه طيله عمره وتهدر ثمرات اتعبه بحيث يخرج من الدنيا صفر اليدين. ٢- وهذا المعنى ورد بصورة أشد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام حيث قالوا: «انَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» (٢). أجل فإنّ الصفة الرذيلة للحسد لا تحرق الحسنات فقط بل تحرق الإيمان أيضاً وتبدله إلى رمد، وسيأتي تفصيل الكلام في شرح هذا الحديث الشريف. ٣- وفي حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْحَسَدُ شَرُّ الْأَمْرَاضِ» (٣). وطبقاً لهذا الحديث فإنه ليس هناك من الأمراض الأخلاقية أسوأ وأشر من الحسد. ٤- وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «رَأْسُ الرَّذَائِلِ الْحَسَدُ» (٤). ٥- وكذلك ورد عن هذا الإمام في تعبيره الكنائى عن الحسد «لِلَّهِ دُرُّ الْحَسَدِ مَا اغْدَلَهُ بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَفَتَلَهُ» (٥). ٦- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «تَمَرَةُ الْحَسَدِ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (٦). ٧- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أَفْهُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفُحْرُ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٧-٨ وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: عندما كان موسى بن عمران يناجى الله عزّ وجلّ إذ نظر إلى رجل في ظلّ العرش، فقال: «يَا رَبِّ مَنْ هَذَا الَّذِي قَدْ اظْلَمَهُ عَوْشُكَ» (١) فقال: «يَا مُوسَى هَذَا مِمَّنْ لَمْ يَحْسُدْ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ». ٩- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «سِتُّهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسِتِّتِهِ». «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟» «قَالَ: الْأَمْرَاءُ بِالْجُورِ، وَالْعَرَبُ بِالْعَصِيَّةِ، وَالذَّهَاقِينُ بِالتَّكْبِيرِ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرُّشْتَاقِ بِالْجَهَالَةِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ» (٢). وعليه فإنّ الحسد يمثل بلاء العلماء بالدرجة الأولى. ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب) أنه قال: «أَنَّهُ سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأَمَمِ! قَالُوا: وَمَاذَا دَاءُ الْأَمَمِ؟! قَالَ: الْأَشْرُ وَالْبَطْرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاعُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبُغْيُ، ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ!» (٣).

## امور مهمة:

## إشارة

بعد أن اتضح موقف القرآن الكريم والروايات الإسلامية من هذه الرذيلة الأخلاقية (الحسد) وعمق الفاجعة المترتبة عليه في حياة الإنسان والمجتمع البشرى بقيت عدّة نقاط مهمّة في هذا البحث لابدّ من استعراضها لتتضح الأبعاد المختلفة لموضوع الحسد وهي عبارة عن: ١- معنى ومفهوم الحسد. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٨-٢ دوافع الحسد. ٣- علامات وآثار الحسد. ٤- المعطيات الفردية والاجتماعية للحسد. ٥- طرق الوقاية من الحسد وعلاجه.

## ١- مفهوم الحسد والغبطة

ذكر علماء الأخلاق في تعريف الحسد انه: تمنى زوال النعمة عن الآخرين سواء وصلت هذه النعمة إلى الحاسد أم لا. وعليه فإنّ عمل الحسد هو التخريب أو تمّنى التخريب وزوال آثار النعم والمواهب الإلهية عن الآخرين سواء انتقلت إليه تلك النعمة أم لا. وعلى هذا الأساس فإنّ أشد أنواع الحسد هو أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن الآخر ويتحرّك في هذا المسير أيضاً سواء عن طريق إيجاد سوء

الظن بالنسبة إلى المحسود، أو عن طريق إيجاد الموانع لعمله في حركة الحياة والمعيشة، وهذا النوع من الحسد يحكى عن خبث الباطن الشديد للحسود. والمرتبة الأدنى منها هي أن يكون هدف الحاسد هو تحصيل تلك النعمة عن طريق سلبها من الآخرين، وبالرغم من أن هذه الحالة هي من الرذائل الأخلاقية ولكنها ليست في الشدة كما رأينا في المرتبة الأولى منها. وهناك مرتبة أدنى من ذلك أيضاً حيث يتمنى فيها الحاسد زوال النعمة عن الآخر بدون أن يتحرك في هذا السبيل على مستوى الكلام أو الخطوات العملية الأخرى. وهذه الحالة الذميمة إذا حصلت للإنسان بدون اختيار منه كما قد يحصل لدى الكثير، فلا يترتب عليها إثم، ولكن إذا كانت بمحض ارادته بحيث حصلت له بسبب بعض المقدمات الاختيارية وبإمكانه إزالة هذه المقدمات، فبلاشك تعتبر هذه من الرذائل الأخلاقية أيضاً ولكن هل يترتب على ذلك إثم أم لا؟ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١١٩ وهنا تأمل في هذا الموضوع ناشئ من هذه الحقيقة، وهي هل أن الصفات الباطنية حتى لو كانت اختيارية هي محرمة حتى لو لم تظهر في عمل الإنسان وفعله، أو تعتبر صفة أخلاقية تكشف عن انحطاط أخلاقي لذلك الشخص بدون أن تستتبعها حرمة في البين؟ وعلى أية حال فإن النقطة المقابلة للحسد هي (الغبطة) وهي أن يتمنى الإنسان أن تكون له نعمة مثلما للآخرين أو أكثر منها بدون أن يتمنى زوال تلك النعمة عن الآخر. ولكن البعض يرى أن (الغبطة) نوع من الحسد أيضاً ويستشهد لذلك بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً. ولكن من الواضح أن هذا المعنى ينسجم مع تفسيرنا للحسد بمفهومه الواسع بحيث يشمل كل مقارنة لما لدى الفرد من النعم مع ما لدى الآخرين منها، وهو في الواقع نزاع لفظي، والمعروف هو ما تقدم آنفاً من تعريف الحسد. وعلى أية حال فالحسد صفة ذميمة وقيحة في دائرة الأخلاق، في حين أن (الغبطة) ليس فقط غير مذمومة، بل محمودة ومطلوبة أيضاً، وتعتبر سبباً لترقى المجتمع والصعود به في مدارج الكمال كما ذكر ذلك الطريحي في (مجمع البحرين) في مادة (حَسَدًا). ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْظُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَعْظُ» (٢).

## ٢- دوافع الحسد

من المعلوم أن الكثير من الصفات الرذيلة تتناغم مع بعضها وبينها تأثير متقابل، والحسد أيضاً من هذه الصفات حيث ينشأ من صفات قبيحة أخرى، وهو بنفسه يُعد منبعاً ومصدراً لرذائل كثيرة أيضاً. ويذكر علماء الأخلاق للحسد منابع كثيرة منها: العداوة والحقد بالنسبة إلى الآخرين الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٠ حيث يتسبب في أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن الطرف الآخر الذي يحمل له العداوة ويبطن له الحقد. والآخر هو الكبر والغرور، ولهذا إذا رأى المتكبر غيره يتمتع بنعم أكثر منه فإنه يتمنى زوالها بل يسعى في إزالتها أيضاً لكي يُحرز تفوقه على الآخرين. الثالث: حب الرئاسة حيث يتسبب في أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الآخرين لكي يستطيع بذلك من تحكيم سيطرته وحكومته عليهم، لأنه إذا لم تكن قدرته وثروته وامكاناته الأخرى أكثر من الآخرين فإنه قد لا يستطيع أن يثبت أركان حكومته عليهم. الرابع من أسباب الحسد: الخوف من عدم الوصول إلى المقاصد الدنيوية، لأن الإنسان يتصور أحياناً أن النعم الإلهية محدودة فلو أن الآخرين حصلوا عليها فيمكن أن يُحرم منها أو لا يصل إليه منها إلا القليل. الخامس: الاحساس بالحقارة والدونية، فالأشخاص الذين لا يجدون في أنفسهم اللياقة للوصول إلى المقامات العليا وحيازة المراتب السامية فإن ذلك يتسبب في ابتلائهم بعقدة الحقارة التي تدفعهم إلى تمنى زوال النعمة من الآخرين وأن لا ينال الآخرون مكانة اجتماعية مهمة ليكونوا معهم سواء. السادس: من أسباب الحسد هو البخل وخبث الباطن لأن البخيل ليس فقط غير مستعد لأن يبذل ما في يده إلى الآخرين، بل يتألم عندما يرى نعم الله تعالى تصل إلى غيره، أجل فإن ضيق الافق ودنائه الطبع وخساسة النفس تقود الإنسان إلى أن يعيش الحسد في واقع النفس، وأحياناً تتوفر جميع هذه الأسباب والدوافع الستة للحسد لدى الفرد، وأحياناً أخرى اثنان أو ثلاثة منها، فتشتد خطورة الحسد بنفس النسبة. ولكن الأهم من ذلك فإن الحسد يمكن أن يمتد بجذوره إلى عنصر العقيدة ومكانم الدين، فمن كان يؤمن بالله تعالى وقدرته ولطفه ورحمته وعدالته وحكمته، كيف يمكنه أن يجد في نفسه حالة الحسد للآخرين؟ إن الشخص الحسود يكاد

يعترض على الله تعالى بلسان حاله وأنه لماذا رزقت فلاناً الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢١ تلك النعمة؟ وأين العدالة؟ وأين الحكمة؟ ولماذا لا تعطيني مثله؟ بل قد يتصور نسبة العجز إلى الله تعالى عندما يعطى غيره ولا يعطيه هو ولهذا يفضل أن تسلب تلك النعمة من ذلك الشخص وتصل إليه. وعلى هذا الأساس فالحاسد في الحقيقة يعيش في حالة من اهتزاز دعائم الإيمان والتوحيد الأفعالي في واقعه الروحي، لأن الإنسان المؤمن بأصل التوحيد الأفعالي يعلم جيداً أن تقسيم النعم الإلهية على العباد لا يكون اعتبارياً، بل وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، ويعلم كذلك أن الله تعالى يملك القدرة في أن يرزقه أكثر وافضل من ذلك الشخص فيما لو كان يتمتع باللياقة لمثل هذه النعم والمواهب، إذن عليه أن يسعى لتحصيل القابلية واللياقة لذلك. ولهذا نقرأ في الحديث القدسي حيث يخاطب الله تعالى نبيه زكريا: «الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي، غَيْرُ رَاضٍ لِقِسْمَتِي الَّتِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي» (١). وقد ورد شبيه هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ: «لَا تَحْسَدَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى ذَلِكِ، وَلَا تَتَّبِعْهُ نَفْسَكَ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعْمِي، ضَادٌّ لِقِسْمِي الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي وَمَنْ يَكُ كَذَلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنِّي!» (٢). والخلاصة أن الحسود لا يتمتع في الحقيقة بدعائم إيمانية وعقائدية راسخة وإلا فإنه يعلم أن حسده ما هو إلا نوع من أنواع الانحراف عن خط التوحيد وعن الحق. ويقول الشاعر في هذا المجال: الاقل لمن كان لي حاسداً اتردى على من اسأت الأدب؟! اسأت على الله في فعله إذا أنت لم ترض لي ما وهب! (٣)

### ٣- علامات الحسد

إن هذه الصفة الرذيلة كسائر الصفات الأخلاقية الذميمة الاخرى تارة تكون صريحة واخرى خفية، ولهذا لا بد من تتبع كلمات علماء الأخلاق وعلماء النفس في استعراضهم لحالات الحسد وعلاماته أو ما استفدناه بالتجربة، فلا بد من معرفة الحسد ووجوده في مراحلها الأولية قبل أن يتجذر في باطن الإنسان وتستحكم دعائمه ويصعب علاجه حينئذ. ومن جملة العلامات التي ذكرت للحسد امور: ١- أن الحاسد يحزن ويتألم عندما يسمع بنعمة تصيب الآخر حتى لو لم تظهر آثار الحزن على محياه. ٢- أحياناً يتجاوز هذه المرحلة وينطلق لسانه بالتعرض للطرف الآخر بذكر معايبه وانتقاده من موقع التنقيص والتسقيط. ٣- وأحياناً يتجاوز هذه المرحلة أيضاً ويتحرك في تعامله مع الآخر من موقع الخصومة والعداوة. ٤- وأحياناً يكتفى هذا الشخص بإظهار عدم اهتمامه للطرف الآخر أو يقطع رابطته وعلاقته معه ويسعى إلى اجتنابه وعدم رؤيته وأن لا يسمع شيئاً عنه، فلو اتفق وأن دار الحديث عنه سعى لتغيير موضوع الحديث وقطع على القائل مقولته، وإذا اجبر يوماً على التحدث عنه بأمر من الامور فإنه يسعى لإخفاء صفاته البارزة ونقاط قوته أو اكتفى بالسكوت. وكل واحدة من هذه الامور تدل على وجود حالة الحسد الخبيثة. وفي الأحاديث الشريفة الواردة، من مصادر أهل بيت العصمة والطهارة اشارات واضحة على هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام قوله «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِكَ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٣ وبعكس ذلك عندما يواجه الطرف الآخر ضرراً أو يقع في مشكلة فإن الشخص الحسود سيفرح لذلك كما ورد في الآية ٥٠ من سورة التوبة «إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ». وهناك آيات متعددة اخرى تشير إلى هذا التصرف السلبي والسلوك الذميمة من قبل الكفار الذين يواجهون ما أنعم الله تعالى على المؤمنين من موقع الحسد والكراهية. وقد وردت في الأحاديث الشريفة اشارات مكررة إلى هذه المسألة وأن الحاسد يفرح من زوال النعمة على المحسود ويغتم لما يصيبه من النعم، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْحَاسِدُ يَفْرَحُ بِالسُّرُورِ وَيَغْتَمُّ بِالسُّرُورِ» (١).

### ٤- النتائج السلبية للحسد

إن الحسد يتميز بنتائج سلبية كثيرة على المستوى الفردي والاجتماعي والمادي والمعنوي في حركة حياة الإنسان، بحيث يقل نظيره من الصفات الأخلاقية السلبية التي تترتب عليها مثل هذه النتائج السلبية والأضرار الكثيرة، وأهمها: الأول: إن الحسود يعيش الغم والهم دائماً، وهذا الأمر يتسبب في أن يبتلى بالأمراض الجسمية والنفسية. فكلما ينال الطرف الآخر من التوفيق والنعمة أكثر فإن الحاسد يتألم لذلك أكثر حتى قد يناله الأرق الشديد ويسلبه ذلك هدوئه واستقراره وبالتالي تضعف بنيته ويغدو نحيفاً مريضاً، في حين انه يتمتع بإمكانات مادية جيّدة ولو انه أبعده هذه الصفة الرذيلة عن نفسه لأنه أن يعيش عيشة طيبة ومرفهة. وقد ورد في الأحاديث الشريفة إشارة إلى هذه النكته بالذات حيث حذر الأئمة المعصومين من هذه الحالة، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «اسوءُ النَّاسِ عَيْشاً الْحُسُودُ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٤ ونفس هذا المعنى ورد في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام حيث قال: «لَا رَاحَةَ لِحُسُودٍ» (١). ونجد هذا التعبير أيضاً في حديث آخر عنه عليه السلام «الْحَسَدُ شَرُّ الْأَمْرَاضِ» (٢). وجاء في تعبير آخر: «الْعُجْبُ لِعِفْلَمَةِ الْحُسَادِ عَنْ سَلَامَةِ الْأَجْسَادِ» (٣). ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن هذا الإمام رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب حيث قال «الْحَسَدُ لَا يَجْلِبُ إِلَّا مَضْرَّةً وَغَيْظاً، يُوهِنُ قَلْبَكَ، وَيَمْرُضُ جِسْمَكَ» (٤). والآخر: أن الأضرار المعنوية للحسد أكثر بمراتب من الأضرار المادية والبدنية للإنسان، لأن الحسد يأكل دعائم الإيمان ويمزق علاقة الإنسان مع ربه بحيث يجعل الإنسان يُسئ الظن بالله تعالى وحكمته، لأن الحسود في أعماق قلبه يعترض على الله تعالى على ما وهب للآخرين من نعمه ورزقهم من فضله. ونقرأ في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لَمَّا تُحَاسِدُوا فَإِنَّ الْحَسِيدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْخَطْبَ» (٥). ونفس هذا المعنى ورد عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أيضاً وعن حفيده الإمام الباقر عليه السلام كذلك. وقد أورد المرحوم الكليني في الكافي حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «آفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» (٦). وورد عن هذا الإمام أيضاً قوله «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْجَبُ وَلَمَّا يَحْسُدْ، وَالْمُتَأَفِّقُ يَحْسُدُ وَلَا يَعْجَبُ» (٧). ويستفاد جيداً من هذا الحديث أن الحسد يتقاطع مع روح الإيمان ويتناغم مع الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٥ النفاق في واقع الإنسان. وقد سبق وإن ذكرنا في الأبحاث الماضية الحديث القدسي الشريف حيث خاطب الله تعالى نبيه زكريا وقال: «الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض لقسمتي التي قسمت بين عبادي». الثالث: من الآثار السلبية والنتائج المضرّة للحسد هو انه يسدل على عقل الإنسان وبصيرته حجاباً سميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ومعرفة الواقعات، لأن الحسود لا يستطيع أن يرى نقاط القوة في المحسود حتى لو كان استاذاً كبيراً ومصلحاً اجتماعياً جليلاً بل انه يبحث دائماً عن نقاط ضعفه وعيوبه، وأحياناً يرى نقاط قوته بمنظار نقاط ضعفه ويشاهد ايجابياته من موقع النظر السلبي، ولهذا السبب قال أمير المؤمنين عليه السلام «الْحَسَدُ حَبْسُ الرُّوحِ» (٨) فإن الإنسان يحبس روحه في حالة الحسد عن إدراك حقائق الامور. الرابع: من أضرار الحسد هو انه يسلب الإنسان اصدقائه ورفاقه، لأن كل فرد من الأفراد يتمتع بنعمه أو نعم خاصة قد لا تكون لدى الآخرين، فلو عاش الإنسان هذه الحالة الرذيلة وهي الحسد بالنسبة إلى ما يراه من نعمه على الآخرين فانه سيحسد جميع الناس، وهذا الأمر يتسبب في أن يتعد الناس عنه ويعمل على تمزيق روابط المحبة والمودة معهم. والشاهد على هذا الكلام ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْحُسُودُ لَأَخْلَهُ لَهُ» (٩). الخامس: من الآثار السيئة للحسد هي أن الحسد يمنع الإنسان من الوصول إلى المقامات العالية والمراتب السامية في حركة التكامل الأخلاقي والمعنوي والاجتماعي، بحيث إن الشخص الحسود لا يستطيع أبداً أن يحصل على منصب خطير من المناصب والمقامات الاجتماعية، لأنه بحسده هذا سيعمل على تفريق الآخرين وإبعادهم من حوله، والشخص الذي تقوى فيه القوة الدافعة لا ينال مرتبة عالية في الدائرة الاجتماعية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٦ والشاهد على ذلك هو قول أمير المؤمنين عليه السلام «الْحُسُودُ لَا يَسُودُ» (١٠). السادس: هو أن الحسد يؤدي إلى تلوث صاحبه بأنواع الذنوب الاخرى، لأن الحسود ولغرض الوصول إلى مقصده وهدفه أي إزالة النعمة عن الآخرين يستخدم كل الوسائل ويرتكب أنواع الظلم والعدوان من الغيبة والتهمة والكذب والنميمة وغيرها لتسقيط الطرف الآخر، وبذلك يفتح الحسد له أبواب السلوكيات الخاطئة والتحرّك في خط الظلم والباطل. وهنا يوجد شاهد آخر على هذا الكلام وهو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه

السلام «الْحَسُودُ كَثِيرُ الْحَسَرَاتِ، وَمُضَاعَفُ السَّيِّئَاتِ» (٢). السابع: إن من شقاء الحسود انه يضر بنفسه أكثر مما يضر الطرف الآخر لأنه يعيش حالة من العذاب النفسى والروحى فى حياته الدنيا بغض النظر عما يترتب على ذلك من العذاب الأخرى يوم القيامة. وقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلى هذه الحقيقة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْحَاسِدُ مُضَرٌّ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَضُرَّ بِالْمَحْسُودِ، كَأَنْ يَلْبَسَ أَوْ يَرِثَ بِحَسَدِهِ بِنَفْسِهِ اللَّعْنَةَ، وَلِأَدَمَ الْأَجْتِبَاءِ وَالْهُدَى» (٣).

## ٥- مراتب الحسد:

لقد ذكر علماء الأخلاق للحسد مراتب ومراحل مختلفة، ومن ذلك أن الحسد يمرّ بمرحلتين متميزتين تماماً: ١- وجود الحسد فى أعماق النفس بحيث يسيطر عليه الإنسان فلا يظهر فى كلماته وأفعاله وسلوكياته. ٢- وجود الحسد فى أعماق النفس بحيث يخرج عن سيطرة الإنسان ويظهر فى أقواله الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٢٧ وأفعاله من موقع السعى للانتقام من المحسود وإزالة النعمة التى عليه. ويستفاد من بعض الروايات أن جميع الناس (أو غالبيتهم) يعيشون الحسد فى نفوسهم، ولكن ما لم يظهر على أقوالهم وأفعالهم فإنه لا يترتب على ذلك إثم ومعصية. ومن ذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ثَلَاثٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الظَّنُّ، وَالطَّيْرَةُ، وَالْحَسَدُ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحَقِّقْ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَبْغِ» (١). وورد فى حديث آخر قوله: «قَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ» (٢). ويستفاد من هذا التعبير أن هذا الحكم ليس عاماً ولا يشمل الأنبياء والأولياء، لأنهم ما لم يظهر ظاهرهم وباطنهم من الحسد فإنهم لا يصلوا إلى المقامات السامية ولا يصعدون فى معارج الكمالات المعنوية، ولذلك ورد فى تفسير الحديث الشريف الذى يقول (إن الحسد لا يخلو منه أى إنسان حتى الأنبياء) فقد فسّر بعنوان (محسود) أى إن الحساد يحسدون كل شخص حتى الأنبياء الإلهيين فيحسدونهم على مقامهم العالى ومررتهم المعنوية السامية لدى الله تعالى. وعلى أية حال فلا شك فى أن صفة الحسد هى من الرذائل الأخلاقية سواء وصلت إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا، والكلام هنا فى انه هل يترتب على الحسد إثم وعقوبة فيما لو لم يصل إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا؟ والظاهر انه لا دليل على كون هذه الحالة من الإثم والذنب رغم انها من الصفات الذميمة. ولكن المرحوم النراقى فى (معراج السعادة) يقول: (إذا دفع الحسد صاحبه لأن يرتكب بعض الأفعال والأقوال الذميمة من قبيل الغيبة والشتم للطرف الآخر فإنه يرتكب بذلك إثمًا، وكذلك إذا امتنع من إظهار مثل هذه السلوكيات وتجنب الأفعال التى تدل على الحسد ولكنه كان طالباً فى باطنه زوال نعمة المحسود وراغباً فى ذلك ولم يشعر بالامتعاض من الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٢٨ وجود هذه الحالة فى نفسه ولم يغضب عليها فإنه مذنب أيضاً) (١). ولكن الظاهر انه لا دليل على حرمة القسم الثانى من حالات الحسد هذه. وعليه فإن مرحلة عدم الظهور والبروز بدورها لها حالتين: الاولى الحالة التى لا يشعر الشخص فيها بالتأثر والانتزاع من وجود هذه الحالة فى نفسه ولا يسعى لرفعها بل ينسجم معها أيضاً، والثانية: أن لا يكون كذلك. ولا يبعد أن يأثم الشخص فى الحالة الاولى رغم عدم وجود الدليل القاطع على ذلك.

## ٦- علاج الحسد:

رأينا فى الأبحاث السابقة أن (الحسد) عبارة عن مرض أخلاقى خطير بحيث انه لو لم يتحرك الإنسان لعلاجه فإنه سيتلف ويدمر دينه ودينه. وعلاج هذا المرض الأخلاقى كسائر علاج الصفات الرذيلة الاخرى يقوم على دعامتين: ١- الطريق العلمى. ٢- الطريق العملى. أما بالنسبة إلى الطريق (العلمى) فينبغى للشخص الحسود أن يتأمل جيداً فى أمرين: أحدهما النتائج السلبية والعواقب الضارة للحسد على المستوى الروحى والجسدى، والآخر يتأمل فى جذور ودوافع حصول هذه الحالة فى النفس. إن على الحاسد أن يرى نفسه كالشخص المعتاد على المخدرات والمدمن على الهيروئين، فعليه أن يتدبر فى أمر هؤلاء المدمنين وكيف أنهم فقدوا سلامتهم البدنية

والنفسية وفقدوا حيثيتهم الاجتماعية واسرتهن وانباءهم، وكيف أنهم يعيشون في أسوأ الحالات النفسية ويموتون في سن الشباب ولا يحزن عليهم أى شخص لموتهم بل إن موتهم يتسبب في سعادة أسرتهن واصدقائهم، فكذلك يجب على الحسود أن يعلم أن هذا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٢٩ المرض الأخلاقي سوف يعمل على إهلاكه، فإكل معنوياته ويُحرق نقاط قوته وصفاته الايجابية ويسلب منه راحته ونومه ويهيمن بسحابه من الحزن على قلبه وروحه، بل سيؤدى به إلى ما هو اشنع من ذلك حيث يكون طريد رحمة الله ويكون مصيره مصير إبليس وقابيل، وبالتالي مع كل ذلك فسوف لن يصل إلى هدفه ومقصوده وهو زوال النعمة عن المحسود. ولاشك أن التفكير بهذه الآثار والعواقب السلبية ومشاهدة الحوادث ذات العبرة وقراءة الأحاديث الشريفة في هذا الباب، والتي مرّت الإشارة إليها آنفاً، سيكون له تأثير ايجابي كبير في علاج هذا المرض الأخلاقي. إن (الحسود) يجب أن يعلم أنه إذا كانت المواد المخدرة كالهروئين تهدد سلامة الروح والجسم للشخص وتُسرّع في أجله، فهو أيضاً يمرّ في هذه الحالة الذميمة ويورثه الحسد الأمراض الجسمية والنفسية ويخسر بذلك دينه وآخرته، لانه يعترض عملاً على حكمه الله تعالى، وبذلك يسقط في وادى الشرك والكفر، هذا من جهة. ومن جهة اخرى عليه أن يتفكر في بواعث الحسد وجذوره ويسعى إلى قطعها وإزالتها، فلو كان من ذلك اختلاطه ومجالسته مع رفاق السوء وتأثره بوساوسهم، فعليه أن يقطع الإرتباط معهم، وإذا كان الباعث لذلك حالة البخل وضيق النظر فعليه أن يسعى لعلاج هذه الحالة في نفسه، وإذا كان السبب هو ضعف الإيمان بالله وعدم معرفته بالتوحيد الأفعالي فعليه أن يتحرّك من موقع تقوية مبانى الإيمان وتعميق أسس التوحيد في قلبه، وإذا كان الباعث لذلك انه يعيش بالجهل بطاقاته وامكانياته الذاتية وبالتالي فإنه يعيش عقدة الحقايرة والدونية التي من شأنها أن تفضى به إلى الحسد فعليه أن يسعى لعلاج ذلك في ظلّ التوكل على الله تعالى والاعتماد على النفس والقضاء على عقدة الحقايرة هذه، وبذلك سيتحرّك بعيداً عن حالة الحسد تجاه الآخرين. والأفضل أن يسجل الحسود خلاصة هذه الامور على صفحة أو صفحات ويحاول قراءتها كل يوم مرّة واحدة، بل يقرأها بصوت عالٍ عبارة عبارة ويتفكر في كل عبارة منها الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٠ ويمعن النظر خاصة في الروايات الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام في هذا الباب والتي سبقت الإشارة إلى جملة منها، ولا شك أن كل إنسان يعيش حالة الحسد في نفسه إذا تابع هذا السلوك والبرنامج بشكل جدّى فإنه سيرى آثاره الإيجابية في مدّة قصيرة، وستخلص روحه وجسمه من شر الحسد تدريجياً، وتفتح أمامه افق السلامة والسعادة في حركة الحياة والواقع. وينبغي على الحسود خاصية التفكير في هذه النقطة بالذات، وهي أنه لو صرف وقته وطاقاته التي يهدرها بالحسد في ترميم شخصيته وتقوية بُنيته النفسية والاهتمام بموقفته وتكامله فإنه من المحتمل جداً أن يتساوى أو يتفوق على المحسود وينال بذلك الراحة والرضا. وبتعبير آخر: يجب عليه أن يستبدل دوافع الحسد بدوافع الغبطة ويعمل على تبديل القوى المخربة إلى قوى بناءة في حركة الذات والشخصية. وقد ورد هذا المضمون في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «اخترسوا من سورة البخل والحقد والغضب والحسد واعدوا لكل شئ من ذلك عدّة تجاهدون بها من الفكر في العاقبة ومنع الرذيلة وطلب الفضيلة»<sup>١</sup>. أما من الناحية (العملية) فتعلم أن تكرار العمل المعين يؤدي تدريجياً إلى صيورته عادة في النفس، والاستمرار على العادة يبدّلها إلى ملكة وصفة باطنية، فلو أن الحسود وبدلاً من سعيه إلى تسقيط اعتبار وشخصية الغير تحرك على مستوى تقوية شخصيته هو، وبدلاً من التحدّث بالغيبة وذم الطرف الآخر يسعى إلى ذكر صفاته الإيجابية ومدحه أمام الآخرين، وبدلاً من السعي في تخريب حياة الطرف الآخر المادية يسعى إلى بذل المعونة والمساعدة له ويذكره بالخير ما أمكنه ذلك، أو يتحرّك من موقع المحبة والمودة تجاه ذلك الشخص ويريد له الخير والسعادة ويدعو له بالموفقية ويوصى الآخرين بذلك أيضاً، فمن المعلوم أن تكرار مثل هذه الأعمال والسلوكيات بإمكانه إزالة آثار الحسد من واقع النفس الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣١ والروح وتثبيت النقطة المقابلة لها وهي حالة (حب الخير للآخرين) فيعيش الإنسان في أجواء النور والصفاء والمعنويات الإنسانية. علماء الأخلاق يوصون الشخص الجبان بأن يتحرّك لإزالة هذه الرذيلة الأخلاقية من نفسه من موقع التواجد في ميدان الخطر ليكتسب بذلك حالة الشجاعة ويحمّل نفسه هذه الصفة الإيجابية حتى ترتفع من نفسه حالة الخوف والجبن وتكون الشجاعة بصفة عادة وحالة

في نفسه وبالتالي تكون ملكة. فكذاك الحسود يجب عليه الاستفادة لعلاج هذه الحالة من ضدها، فكل حالة معينة تُعالج بضدها. وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله «إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» (١). وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَشِيءُ تَعْمَلُ حَسَدَهُ» (٢). ومن جملة الامور المؤثرة كثيراً في علاج الحسد هو أن يرضى العبد برضى الله تعالى ويسلم لمشيئته ويقنع من حياته بما أنعم الله عليه، فقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَضِيَ بِحَالِهِ لَمْ يَعْتَوِرْهُ الْحَسَدُ» (٣).

## ٧- النصح وحب الخير للآخرين

النقطة المقابلة للحسد هي (النصح وحب الخير للآخرين) بمعنى أن الإنسان ليس فقط لا يحب زوال النعمة من الآخر بل يطلب بقائها وزيادته عليه وعلى جميع الناس الأخيار والصالحين، أو بتعبير آخر: إن ما يحبه لنفسه ويطلبه لذاته من السعادة والخير المعنوي والمادي يريده ويحبه للآخرين، وهذه الصفة والحالة النفسية تعد من الفضائل الأخلاقية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٢ المعروفة والتي وردت الإشارة إليها في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إن الأنبياء كانوا ناصحين مشفقين على أقوامهم وكانوا يحبون الخير لهم، وهذه الحالة تعتبر من صفاتهم البارزة كما يقول القرآن الكريم على لسان (نوح) شيخ الأنبياء: «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصِيحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (١). فهنا نرى انه بعد مسألة إبلاغ الرسالة تتحدث الآية الكريمة عن النصح وحب الخير للامة وهي النقطة المقابلة للحسد والبخل والخيانة. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير ورد عن النبي هود عليه السلام حيث يقول: «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» (٢). وهذا المعنى ورد أيضاً عن النبي صالح (الأعراف الآية ٧٩) والنبي شعيب (الأعراف الآية ٩٣). ومن البديهي أن حب الخير للآخرين لا ينحصر بهؤلاء الأنبياء الأربعة، بل يشمل جميع الأنبياء الإلهيين والأولياء المعصومين الذين كانوا يتصفون بهذه الصفة الإيجابية، وكذلك يجب على أتباعهم أيضاً أن يكونوا من محبي الخير للآخرين ويظهرون أنفسهم من الحسد والبخل. وفي حديث شريف عميق المضمون ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال عن رجل من الأنصار انه من أهل الجنة، وعندما تحققوا في سيرته وعمله فلم يروا انه كان كثير العبادة مثلاً، بل كان حينما يأخذ مضجعه في منامه يذكر الله تعالى ثم ينام حتى صلاة الصبح، فأثار فيهم حاله هذا التساؤل والاستغراب، فسألوا منه عن السبب في أنه صار من أهل الجنة فقال «مَا هُوَ إِلَّا مَا تَرَوْنَ غَيْرَ أَنِّي لَأَجِدُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي نَفْسِي غِشًّا وَلَا حَسَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ آيَةً» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٣ وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ أَكْبَرَ النَّاسِ مَنَزَلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْلُ الْوَدْعِ بِالنِّصَةِ يَحِبُّ لِحَلْقِهِ» (١). وفي رواية اخرى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً ذكر فيها المعيار لحب الخير للناس وأنه أن يرى منافع الآخرين كمنافع نفسه ويدافع عنها كما يدافع عن منافعها حيث قال «لَيَنْصِيحُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ إِخَاهُ كَنَصِيحَةِ لِنَفْسِهِ» (٢). ويقول الراغب في كتابه (مفردات القرآن): النصح، تحرى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، وهو من قولهم نصحت له الود، أى أخلصته، وناصح العسل أى خالسه أو من قولهم: نصحت الجلد خطته، والناصح يقال للخياط. (لأنه يصلح القماش ويخيطه) وبما أن الشخص الخير يسعى إلى اصلاح عمل الآخرين من موقع الاخلاص والخلوص استعملت في حق هذه المفردة، وأساساً فإن كل شيء خالص من الشوائب سواءً في الامور المادية أو المعنوية، في الكلام أو العمل، يقال له: ناصح. وعلى هذا الأساس فعندما يرد بحث النصيحة في أجواء البحوث الأخلاقية فإن المقصود منه ترك أى شكل من أشكال الحسد والحقد والبخل والخيانة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٤

## الغرور والعجب

إن أحد الرذائل الأخلاقية المشهورة ليس عند علماء الأخلاق فحسب بل عند سائر أفراد الناس هي (الغرور)، وهذه الصفة الرذيلة تتسبب في انفصام الشخصية والجهل بالنسبة إلى الذات والآخرين والغفلة عن مكانته الفردية والاجتماعية والتخبط في دوامة الجهل والعجب وعدم الإطلاع على حقائق الأمور. إن الغرور يفضي بالإنسان أن يتعد عن الله تعالى ويسير في خط الشيطان، ويقلب الواقعات في نظره، وهذا الأمر يتسبب في اضرار كثيرة على المستوى المادى والمعنوى للإنسان. الشخص المغرور يعيش في المجتمع مكروهاً من الآخرين حيث يتعامل معهم من موقع التوقعات الكثيرة التي تُفرض به إلى الإنزواء والعزلة الاجتماعية. والغرور يُعتبر من الدوافع والمصادر لصفات رذيلة أخرى من قبيل التكبر والانانية والعجب والحقد والحسد بالنسبة إلى الآخرين والتعامل معهم من موقع التحقير والإزدراء. ونعلم أن أحد العوامل الأصلية لطرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهي هو (الغرور) الذي كان يعيشه الشيطان، وأحد الأسباب في عدم انقياد الكثير من الأقوام السالفة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٦ لدعوات الأنبياء السماوية وجود هذه الصفة الذميمة في واقعهم وأنفسهم. إن الفراعنة والماردة ابتعدوا عن الله تعالى بسبب غرورهم وبالتالي أصبح مصيرهم الأسود عبرة للبشرية. (الغرور) أحياناً يتجلى في فرد معين، وأخرى في قوم ومجتمع أو عرق بشري، ولا شك أن القسم الثاني اخطر على واقع الإنسان والمجتمع لأنه قد يدمر بلد كامل أو يحرق العالم بناره، كما حصل في الحرب العالمية الاولى والثانية حيث كان الغرور والتعصب العرقي للألمان على الأقل أحد العوامل المهمة لنشوب هذين الحربين وبهذه الإشارة نستعرض أولاً تفسير مفردة (الغرور) ومفهومها في منابع اللغة وكتب علماء الأخلاق، ثم نعود إلى الآيات والروايات الشريفة لإستجلاء أسباب الغرور وآثاره وافرازاته وطرق علاجه والوقاية منه.

### ١- مفهوم الغرور

إن هذه المفردة وردت بشكل واسع في كلمات العرب ولاسيما في الآيات القرآنية الكريمة والروايات الإسلامية. يقول الراغب في مفرداته عن هذه الكلمة: فالغرور (بفتح الغين ليتضمن معنىً وصفيًا) كل ما يغرر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين. وفي (صحاح اللغة) عن كلمة (غرور) انها بمعنى الأمور التي تجعل الإنسان غافلاً (سواءً المال والثروة أو الجاه والمقام أو العلم والمعرفة). ويقول بعض أرباب اللغة كما يذكر الطريحي في (مجمع البحرين): إن الغرور هو ما كان جذاباً وجميلاً في ظاهره ولكنه مظلم ومجهول في باطنه. وجاء في كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) بعد نقل كلمات أرباب اللغة: أن الجذر الأصلي لهذه المفردة هي بمعنى اصول الغفلة بسبب التأثير بشيء آخر لدى الإنسان ومن لوازمها وآثارها الجهل والغفلة والنقصان والإنخداع و... الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٧ وجاء في (المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء) الذي يُعتبر من أفضل كتب الأخلاق وعبارة عن تهذيب لكتاب (إحياء العلوم) للغزالي: «فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم» «١». وجاء في (التفسير الأمثل) في معنى هذه المفردة أن (غرور) على وزن (جسور)، صيغة مبالغة بمعنى الموجود الشديد الخُداع والحيلة والمكر ولذلك سُمى الشيطان ب (غرور) حيث يوسوس للإنسان ويخدعه ويستغفله، وفي الحقيقة هو من قبيل بيان المصداق الواضح، وإلا فإن كل إنسان أو كتاب يمكن أن يقع في مقام الوسوسة وكل موجود إذا عمل على إضلال الإنسان فإنه يدخل في مصاديق كلمة (غرور).

### الغرور في القرآن الكريم:

لقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم مرّات عديدة، وكذلك ورد مضمونها في آيات أخرى أيضاً: ١- «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» «٢». ٢- «فَقَالَ لَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَتْرِكَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ



الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرْكُمْ كَادِبِينَ .... قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَا لَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»  
 (٣). ٣- «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ الْإِحْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٣٨ لَرَجَمْنَاكَ  
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» (١). ٤- «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ\* أَمْ  
 أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» (٢). ٥- «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا  
 يَفْتُرُونَ» (٣). ٦- «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (٤). ٧- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ  
 مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ» (٥). ٨- «هُمُ الَّذِينَ  
 يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفُسُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ\* يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا  
 إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (٦). ٩- «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ  
 رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» (٧). ١٠- «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ\* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». (٨) ١١- «وَدَرَّ الَّذِينَ  
 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» (٩). الإخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٣٩ ١٢- «يَأْتِيهَا النَّاسُ .... إِنْ وَعِدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا  
 تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» (١٠).

### تفسير واستنتاج:

إن أول شرارة للغرور كما أشرنا إلى ذلك سابقاً كانت في بداية خلق الإنسان وتجلت في إبليس كما تتحدث عن هذه الواقعة «الآية الأولى» من الآيات مورد البحث عندما سأل الله تعالى إبليس عن السبب في امتناعه عن السجود لآدم «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أُمِرْتُكَ ...» (٢). قال الشيطان الذي تملكه الغرور والعجب «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٣). أجل فإن حجاب الغرور والعجب قد أسدل على عين بصيرته حجاباً سميكاً إلى درجة أنه لم يسوغ له سلوك طريق السعادة وامتثال الأمر الإلهي الصريح، فسقط في هوة العصيان والتمرد وأصبح مطروداً وملعوناً إلى الأبد، وعلى هذا يمكن القول انه كما أن قائد المستكبرين في العالم هو إبليس، فكذلك قائد المغرورين في العالم إبليس أيضاً، وهذان المفهومان أي الغرور والإستكبار بمثابة اللزوم والملازم. إن إبليس وبسبب الغرور والإستكبار لم يستطع أن يرى حقيقة كرامته التراب على النار وأفضلية التوبة على العناد والإصرار على الذنب، فكان من ذلك أن سلك في خط الضلال والتهيه وبقى كذلك إلى الأبد. «الآية الثانية» تتحدث عن قصة نوح أي أول أنبياء اولو العزم وتوضح جيداً أن أحد العوامل المهمة في عناد قومه ووقوفهم ضد دعوته وارشاداته المخلصة من موقع الغرور هو الإخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٠ هذه الصفة الرذيلة (الغرور) حيث تقول الآية «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِهِمْ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرْكُمْ كَادِبِينَ» (١). وبعد عدة آيات يستعرض القرآن الكريم حالة الغرور والعجب أكثر لدى هؤلاء الضالين حيث قالوا لنوح بصراحة «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَا لَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٢). عادة يتخذ الإنسان طريقاً يبعده عن الأضرار المحتملة بحكم العقل ويتجنب عن سلوك الطريق الذي يُحتمل أن يواجه الخطر فيه، ولكن هؤلاء القوم المغرورين وبالرغم من مشاهدتهم لآثار حقانية دعوة هذا النبي الكريم من خلال معجزاته ووجود احتمال نزول العذاب الإلهي فإنهم لم يكتفوا بعدم الإهتمام والإعتناء بدعوته بل تحركوا مع دعوة نوح من موقع طلبهم لنزول العذاب الإلهي. أجل فإن ذلك الغرور الذي صار حجاباً على بصيرة الشيطان قد أصبح حجاباً لقوم نوح عن رؤية الحقيقة، وبالتالي ذاقوا العذاب الإلهي الشديد وهلكوا عن آخرهم، وهذا هو مصير المغرورين على طول التاريخ. وتأتي «الآية الثالثة» لتتحدث عن قوم شعيب الذين جاءوا بعد قوم نوح وتورطوا في الغرور والعجب أيضاً فكان مصيرهم هو نفس ذلك المصير المؤلم حيث تقول الآية «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» (٣). هؤلاء في الحقيقة لن يجدوا جواباً منطقياً أمام البراهين العقلية والدعوة السماوية الحكيمة والمعجزات الإلهية التي جاء بها شعيب، ولكن غرورهم وأنفتهم لم تبح

لهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤١ الإستسلام أمام دعوة الحقّ وبالتالي غشيمهم العذاب الإلهي وأصابتهم الصاعقة السماوية والصيحة المهولة، فدمرت كلّ ما لديهم في طرفة عين، ولم تبق لهم سوى أجساد متمزقة وآثار خاوية. «الآية الرابعة» ناظرة إلى قصة فرعون وتستعرض بعداً آخر من أبعاد هذه الصفة الرذيلة، وتشير إلى أنّ الغرور والعجب قد يمتد إلى باطن الإنسان ويستولى على عقله وروحه بحيث انه ليس فقط لا يهتم بالأدلة الواضحة على نبوة موسى عليه السلام بل يواجهها بكلمات طفولية تنطلق من موقع العناد والغرور حيث تقول الآية «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ\* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» (١). ثمّ تمادى فرعون في مواجهته لموسى وتمسك بكلمات واهية وغير منطقية من قبيل أنّ موسى إذا كان صادقاً فلماذا لا يلبس الأسورة من الذهب؟ ولماذا لم تنزل الملائكة معه؟ وهكذا نجد أنّ الأشخاص المغرورين كالفراعنة والنمروديين وبسبب إهمالهم لدعوة الحقّ وغرورهم لا يدركون جيداً ماذا يقولون ولا يهتمون لذلك حيث نجد كثيراً أنّ مثل هؤلاء يتكلمون بكلمات سخيفة بحيث يسخر منها حتى المقربون منهم في أنفسهم، ومن المعلوم أنّ هذه الحالة تتسبب في غلق جميع نوافذ المعرفة الإلهية أمام الإنسان، وايضاً جميع الطرق لسلوك سبيل الكمال المعنوي والتعالى الأخلاقي. واللطف أنّ موسى اللذى كان يشكو من لُكنة في لسانه تتعلق بمرحلة الطفولة ولكنه عندما بُعث إلى النبوة وطلب من الله تعالى أن يحلّ عقده من لسانه فإنّ الله تعالى استجاب له ذلك ولكن فرعون لم يهتم لهذه الظاهرة العجيبة وبقي مصرّاً على وضعه السابق حيث أشار في كلامه إلى تلك اللكنة التي كانت لدى موسى في الصغر. «الآية الخامسة» تشير إلى اليهود الذين كانوا يرون في أنفسهم حالة من التشخص الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٢ والغرور والعجب بتصورهم مميزات مختصة بهم تجعلهم يتفوقون ويمتازون على غيرهم من أفراد البشر، وهذا التفكير الخاطيء هو السبب في ضلالهم وطغيانهم حيث تقول الآية «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ» (١). أى أنّ الله إذا أراد أن يعذبنا فإنّ عذابه سيكون خفيفاً ولأيام معدودة وذلك بسبب اننا قوم ممتازون. إن تاريخ بنى إسرائيل يشير إلى أنّ هؤلاء القوم كانوا أكثر الأقوام والشعوب طغياناً وذنباً، وأحد العوامل والأسباب المهمة في سلوكهم الخاطيء هذا هو الغرور والعجب لديهم. ومع الأسف إنّنا نجد أنّ طائفة منهم باسم (الصهاينة) يرتكبون كلّ يوم جرائم بشعة ضدّ الشعوب البشرية بسبب ما دخلهم من الغرور الكبير بعرقهم وامتيازاتهم الزائفة، وفي ذلك شوّهوا تاريخهم السيء أكثر من السابق. هؤلاء يريدون كلّ شيء لهم ولا يرون للآخرين الحقّ في أيّ شيء، فهم يرون أنّهم قوم متميزون على سائر البشر وينظرون إلى الآخرين نظر الاحتقار والدونية. «الآية السادسة» ناظرة إلى قوم صالح، الذين قد أسكرهم الغرور إلى درجة أنّهم طلبوا من نبيهم نزول العذاب الإلهي عليهم، بالرغم من رؤيتهم المعجزات الإلهية على يد نبيهم صالح فتقول الآية «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (٢). ويتابع القرآن الكريم ما حدث لهؤلاء القوم الظالمين ويتحدّث عن مصيرهم المأساوي ويقول: «فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثمين» وهكذا كانت عاقبة القوم المغرورين. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٣ «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل النار الذين يعيشون العذاب والظلمة الشديدة يوم القيامة في حين يعيش المؤمنون بنور الإيمان ويردون عرصات المحشر مسرعين، فيناديهم هؤلاء المنافقون وأهل النار: «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» (١). ثمّ تقول الآية التي بعدها بصراحة انه يُقال لهم «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير». وهنا يتجلّى بصورة واضحة أنّ أحد الصفات البارزة لهؤلاء المنافقين من أهل النار هي الغرور والإبتلاء بحبال الأمانى الطويلة والتوهّمات الزائفة في حركة الحياة الدنيوية. وكما ذكرنا في بداية البحث أنّ كلمة (غرور) تتضمن معنى الخداع والمكر، ولكن أحياناً يخدع الإنسان نفسه أيضاً ويكون مغروراً بذلك، وأحياناً اخرى يخدع بوساوس الشيطان أو الأفراد الذين يعيشون حالة الشيطنة والمكر. «الآية الثامنة» تتحدّث عن المنافقين المغرورين في هذه الدنيا وكيف أنّهم ينظرون إلى فقراء المؤمنين الحقيقيين من موقع الحقارة والإزدراء ويتظاهرون أمامهم بالثروة والمال حيث تقول الآية متحدّثه عنهم وعن حالة الغرور المسيطرة عليهم «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفُسُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» (٢). ثم يصل بهم الغرور إلى ذروته بحيث يصرحون بأنه إذا رجعنا من ميدان الحرب إلى المدينة فسوف نثبت لهؤلاء الفقراء والمعدمين من نحن «يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٤٤ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (١). إذا لم يكن المنافقون يعيشون حالة (الغرور) فلا داعي لأن يتبجحوا بثروتهم وأموالهم أمام المؤمنين وينظروا إليهم نظر الاحتقار والإزدراء وبالتالي ينزلون في وادي الكفر والنفاق والضلال. «الآية التاسعة» تتحدث عن طبيعة الإنسان، أو بعبارة أخرى: طبيعة الإنسان الذي لم يتكامل في مدارج الكمال الأخلاقي بل بقي في حالة عدم النضج النفسي والروحي، فمثل هذا الإنسان عندما يجد الله قد أنعم عليه نعمه فإنه يملكه الغرور والطغيان بسبب ضيق افقه وتفكيره فتقول الآية «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» (٢). إذا كان هذا الكلام صادراً من موقع الشكر والثناء لله تعالى فإنه يدل على التواضع قطعاً ويدفع الإنسان بالتالي إلى مساعدة الأيتام والمساكين، ولكن كما هو الظاهر من جَوِّ الآيات أن هذا الإنسان بعد ذلك يتحدث من موقع الغرور والعجب، وبهذا فإن هذا الكلام ليس فقط لا يترتب عليه أثراً إيجابياً ومطلوباً بل سيكون مصدراً لطغيانه وتكبره على الحق. «الآية العاشرة» تتحدث عن المشركين الأنايين والمغرورين في مكه وتقول «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ» (٣). ولكن الله تعالى بعد ذلك يحذر هؤلاء المغرورين وينذرهم بالعذاب القريب ويقول «سَيُهِزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (٤). وفي جميع هذه الموارد نلاحظ جيداً أن الغرور يمثل عاملاً مهماً في تورط الإنسان في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٥ دَوَامَةُ الذنوب والشقاء والتعاسة، والقرآن الكريم يُخبرنا بخبر إعجازي عن إنهزام هؤلاء المغرورين وسرعان ما تلتحق بهم الهزيمة والدمار ويكونون عبرة للآخرين. «الآية الحادية عشر» تتحدث عن المشركين الذين اتخذوا الدين السماوي لعباً ولهواً بسبب الغرور الذي أصابهم والذي أدى بهم إلى الكفر والعناد مع الحق فتقول الآية «وَدَّرَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...» (١). ولعل هذا التعبير يشير إلى أن هؤلاء لا يقبلون الهداية وغير جديرين بها، لأن الغرور قد اسكرهم إلى درجة أنهم خدعوا بزخارف الدنيا وبريقها المادي، فهم لا يجدون في أنفسهم استعداداً للتسليم والإذعان للحق ولا يواجهون الحق إلا على مستوى السخرية والاستهزاء، وهذا يعني عمق الفاجعة التي تورطوا فيها بسبب غرورهم وعجبهم. وعبارة (دينهم) هي إشارة إلى فطرية الدين الإلهي حيث يشترك فيه جميع أفراد البشر حتى المشركين، أو هو إشارة إلى الأشخاص الذين اتخذوا دينهم الوثني سخرية بسبب الغرور، فلا يجدون في أنفسهم التزاماً بأحكام الوثنية ولا يتحركون مع الأوثان من موقع الانضباط والالتزام، أو إشارة إلى الدين الإسلامي الذي أنزله الله تعالى من أجلهم ولمصلحتهم. «الآية الثانية عشر» تتحرك من موقع التحذير لجميع الناس بأن لا ينخدعوا بالحياة الدنيا وبزخارفها ولا يغتروا بجمالها المادي ولا يقفوا في مصائد الشيطان وتقول «يَأْتِيهَا النَّاسُ... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» (٢). واللطف أن هذه الآية ذكرت من أسباب الغرور سببين: أحدهما زخارف الدنيا، والثاني الشيطان، وهذا التعبير يدل على أن الإنسان أحياناً يغتر بالأوهام وبالتصورات الواهية بدون الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٦ أن يحظى بشيء من الحياة المادية المرفهة ويتصور لنفسه مقاماً ومنزلة غير واقعية، وبذلك يطغى أمام الحق ويواجه الله والدين من موقع الطغيان والتكبر ويقع في شرك الشيطان، وصحيح أن زخارف الدنيا وجمالها وبريقها هو أحد مصائد الشيطان، ولكن أحياناً يكون الخيال والتصورات الذهنية نافذة يعبر منها الشيطان ويستقر في فكره ويوسوس له ما يغتر به.

### النتيجة النهائية:

### إشارة

ومن مجموع ما تقدم من الآيات الكريمة وتفسيرها تتبين لنا هذه الحقيقة، وهي أن مسألة الغرور والعجب والأنفة كانت من العوامل الأصلية للفساد والانحراف والكفر والنفاق منذ أن وضع آدم قدمه على هذه الكرة الأرضية وحتى في جميع أدوار التاريخ البشري

وعصور الأنبياء والأقوام السالفة وإلى هذا اليوم، وقراءة هذه الشواهد ومطالعة هذه الآيات يشير إلى أية درجة كانت هذه الصفة الرذيلة مصدر شقاء طائفه عظيمه من الشعوب والمجتمعات البشرية، ولو لم يكن دليلاً على قبح هذه الرذيلة الأخلاقية سوى هذه الآيات لكفى ذلك.

### ١- الغرور في الروايات الإسلامية

إنّ الموقف السلبي والشديد من الغرور في الروايات الإسلامية ينعكس في أبواب كثيرة وطوائف متعددة من الروايات: ١- ففي حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «سُكِرَ الْعُقْلُ وَالْعُرْوَرِ ابْعُدْ أَفَاقَهُ مِنْ سُكْرِ الْخَمُورِ» (١). ٢- وفي حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «جَمَاعُ الشَّرِّ فِي الْأَعْرَازِ بِالْمَهَلِ وَالْآتِكَالِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٤٧ عَلَى الْعَمَلِ» (١). فالإنسان المغرور هو الذي يأتي بعمل بسيط ويتصور بذلك أنه من أهل النجاة يوم القيامة ويتحرّك في حياته الدنيا بكامل الحرية بسبب هذا الغرور، أو أنه يكون قد ارتكب بعض الذنوب والمعاصي ولكنه يجد في امهال الله تعالى له امتيازاً لنفسه وبذلك يغتر بهذا الإمهال. ٣- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أنّ الغرور يتقاطع مع العقل حيث يقول «لَا يُلْقَى الْعَاقِلُ مَغْرُورًا» (٢). ٤- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً أنّ الغرور يوقع الإنسان في دوامة من الخيالات والتصورات الزائفة ويقطع عنه أسباب النجاة حيث يقول: «مَنْ عَرَّهَ السَّرَابُ تَقَطَّعَتْ بِهِ الْأَسْبَابُ» (٣). ٥- ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في تعبير جميل حول طائفه من المنحرفين: «رَزَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْعُرْوَرِ وَحَصِيدُوا الثُّبُورَ» (٤). ٦- وفي حديث آخر عن هذا الإمام أنّه يعدّ الغرور والعجب أحد الموانع لقبول الإنسان للموعظة والنصيحة ويقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْعُرْوَرِ» (٥). ٧- وورد في الحديث الشريف عن هذا الإمام أيضاً في جملة قصيرة وعميقة المحتوى «طُوبَى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلَاتِ الْعُرْوَرِ» (٦). إن ما ورد أعلاه من الروايات الشريفة لا يُعَدُّ إلّا نماذج قليلة مما ورد من النصوص الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٨ الكثيرة حول بيان أخطار الغرور والعجب، ولكن مطالعة هذه النماذج القليلة من الروايات في هذا الباب يكفي لبيان الأضرار الوخيمة والآفاق السلبية للغرور.

### ٢- أسباب الغرور

ذكر بعض علماء الأخلاق أنّ الغرور من الصفات القبيحة التي يتلى بها كلّ طائفه من الناس بشكل من الأشكال رغم تعدّد أسبابه ومراتبه ودرجاته. فقد ذكروا أنّ أسباب الغرور والعجب كثيرة جداً، وقد سَمَّوا المغرورين إلى طوائف مختلفة: طائفه المغرورين بالعلم والمعرفة وهم الأشخاص الذين يملكهم الغرور عندما يصلوا إلى مرتبة معينة من العلم، فيتصورون أنّهم ملكوا الحقيقة فلا يرون سوى أفكارهم وعلومهم ولا يهتمون بأفكار الآخرين ولا يعتبرون لها قيمة، وأحياناً يرون أنفسهم من المقربين عند الله تعالى ومن أهل النجاة قطعاً، ولو أنّ البعض واجههم بقليل من النقد فإنّهم سوف يجدون الألم يعتصر قلوبهم لأنّهم يتوقعون من الجميع احترامهم وقبول كلامهم. وأحياناً يصيب الغرور بعض الأشخاص الضيقى الأفق الذين تعلّموا عدّة كلمات وقرأوا عدّة كتب وتصوّروا أنّهم فتحوا بلاد الصين وحلّوا المشكلات العويصة في العلم لمجرد أنّهم قرأوا الكتاب الفلاني، وهذا من أسوأ أنواع الغرور المذمى يجر العالم إلى منزلقات السقوط والانحطاط العلمي والاجتماعي. ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لابن مسعود: «يَا بَنِي مَسْعُودٍ! لَمَّا تَعَتَّرَنَ بِاللَّهِ وَلَمَّا تَعَتَّرَنَ بِصِيْلِمَاحِكْ وَعِلْمِكْ وَعَمَلِكْ وَبِرِّكْ وَعِبَادَتِكْ» (١). فنرى في هذا الحديث الشريف إشارة لعوامل وأسباب اخرى للغرور منها: الأعمال الصالحة، الإنفاق في سبيل الله، العبادات، والتي يمثل كلّ واحدٍ منها عاملاً من عوامل الغرور. وقد نرى بعض الأشخاص الصالحين الذين عندما يُوقَفون لأداء بعض العبادات أو الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٤٩ الأعمال الصالحة يملكهم الشعور بالغرور بسبب ضيق افقهم وصغر نفوسهم فيتصوّرون أنّهم من أهل النجاة والسعادة ويرون سائر الناس بمنظار

الإستهانة والتصغير، وهذا قد يؤدي بهم إلى الهلاك والسقوط في وادي الضلالة والانحراف. وأحد العوامل الأخرى للغرور هو أن يغتر الإنسان بلطف الله وكرمه ومغفرته، حيث نجد بعض الأشخاص يرتكبون الذنوب بجرأة وبدون أي تردد، وعندما يُسأل منهم عن سبب ارتكابهم لهذه الأعمال القبيحة، يقولون: الله كريم وغفور ورحيم، فنحن نعرف أن الله أكبر وأسمى من أن يؤاخذ بهذه الذنوب ويعاقبنا بسبب هذه التصرفات، وأساساً فنحن لو لم نُذنب فلا معنى لعفو الله ومغفرته. إن مثل هذه الأفكار المنحرفة والكلمات غير المنطقية تزيد من جرأتهم على ارتكاب الذنوب وبالتالي تؤدي بهم إلى السقوط والهلاك. ولهذا نجد أن القرآن الكريم والروايات الإسلامية قد ذمّت هذا النوع من الغرور بشدة ونهت عنه نهياً مؤكداً كما نقرأ في الآية السادسة من سورة الإنفطار قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ». ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا جَرَّكَ عَلَى ذَنْبِكَ؟ وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ؟ وَمَا أَنْسَكَ بِهَلِكَةِ نَفْسِكَ؟!» (١) و فرق بين الشخص الذي يرتكب الذنب ولكنه مع ذلك يعيش الجراءة ولا يجد في نفسه غضاضة لذلك وكأنه يطلب الله شيئاً، وبين الشخص الذي يرتكب الذنب ولكنه يعيش الخجل والندم ويأمل أن يشمل الله تعالى برحمته وعطفه، فالأول قد ركب مَطِيئَةَ الغرور، والثاني هو المَتَّصِلُ بِحَبْلِ من الله ولطفه والأمل برحمته الواسعة. ومن العوامل والأسباب الأخرى للغرور هو الجهل وعدم الإطلاع والمعرفة، كما أن العلم والمعرفة أحياناً يكون سبباً للغرور، فكذلك عدم المعرفة أيضاً قد يسبب الغرور في الكثير من الأشخاص الجهال، ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٠ قوله «مَنْ جَهَلَ اعْرَبَ بِنَفْسِهِ وَكَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ امْسِيهِ» (١). والآخر من أسباب الغرور والذى يبتلى به الكثير من الناس هو الإغترار بزخارف الدنيا وبريقها من المال والمقام والشباب والجمال والقدرة وأمثال ذلك. إن بعض الأشخاص الذين يعيشون ضيق الافق وصغر النفس إذا وجدوا أحياناً أنهم على شيء من الثروة والمال أو المقام، فسوف ينسون أن هذه عارية بأيديهم وأنها في معرض الزوال والفناء، وهذا النسيان يتسبب لهم في العجب والوقوع في دوامة الغرور، وهذا الغرور يتسبب لهم في الابتعاد عن الله تعالى والاقتراب من الشيطان والتلوث بكثير من الذنوب. ونقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «الدُّنْيَا حُلْمٌ وَالْآخِرَةُ بَهَا نَدْمٌ» (٢). وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «لَمَّا تَعَرَّكَ الْعَاجِلَةُ بِزُورِ الْمَلَاهِي، فَمَنَّ اللَّهُو يَنْقَطِعُ، وَيَلْزِمُكَ مَا اكْتَسَبْتَ مِنَ الْمَآئِمِ» (٣). ومن العجائب أن جميع الناس يرون بأم أعينهم ظاهرة الزوال السريع للنعم المادية والديوية وتلاشى الأموال والثروات وسقوط الحكومات والقدرات الدنيوية كل يوم، ولكن عندما تصل النوبة إليهم يملكهم الغرور الشديد بحيث يتصورون أن ما يتعلق بهم مخلد وسيبقى إلى الأبد ولا يزول عنهم إطلاقاً. أجل فإن أسباب الغرور متنوعة بشكل كبير، والخلاص من هذه المصيدة صعب جداً ولا يتسنى للإنسان إلّا في إطار التقوى والتوكل على الله والإلتفات إلى أن جميع هذه الامور سريعة الزوال وفانية.

### ٣- علامات الغرور

إن علامات الغرور تارة تكون واضحة جداً بحيث إن الإنسان يدركها فوراً وفي أول الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥١ بادرة ويدرك أن الشخص الفلاني مصاب بداء الغرور والعجب، من قبيل عدم اهتمامه بالآخرين، عدم اهتمامه بالحلال والحرام والأحكام الشرعية، عدم مراعاة الأدب مع الكبار وترك المودة والمحبة مع الأصدقاء والأقرباء، التعامل مع الأقل منه شأنًا من موقع المساواة والخشونة، التحدّث بكلام مرتبك وبعيد عن الأدب، الضحك العالي والقهقهة، قطع كلام الآخرين، النظر إلى الصالحين والأخيار والعلماء بعين الحقارة والإزدراء، وكذلك المشى بصورة غير متعارفة، ضرب الأقدام على الأرض عند المشى، تحريك الكتفين، النظرات غير المتعارفة إلى الأرض والسماء، وحتى أحياناً يصدر منه بعض سلوكيات المجانين والسفهاء من الناس، وكل ذلك من علامات الغرور والفخر. ولكن أحياناً أخرى تكون علامات الغرور خفية ومستورة، فلا يمكن إدراكها بسهولة بل تحتاج إلى دقّة وتأمل للعثور على هذه الصفة في واقع النفس أو لدى الآخرين، من قبيل أن بعض الأشخاص وبعد مدة قصيرة من الدرس يتركون استاذهم ويرون أنهم مستغنون عن الدرس والاستاذ، أو من قبيل الشخص الذي يجد في نفسه علاقة شديدة للإنزواء والعزلة عن الناس، ويمكن

أن يبرّر ذلك بعدم حضور مجالس الغيبة والتلوث بالذنوب وأمثال ذلك، في حين أنه مع قليل من الدقة نجد أن السبب الحقيقي لذلك هو الغرور والفخر والعجب حيث يرى نفسه طاهراً ومؤمناً ويرى الآخرين أقل من ذلك شأنًا لتلوّثهم وجهلهم. أجل ليس فقط صفة الغرور هي التي تختفي أحياناً في زوايا النفس، بل هناك الكثير من الصفات الرذيلة تعيش في واقع الإنسان في حالة كمون وخفاء ولا يعلم بها الشخص بل قد تظهر هذه الصفات الرذيلة بمظهر حسن وتلبس لباس الفضيلة بحيث يعتقد صاحبها بأنها فضائل ولا يستطيع تشخيص ذلك إلا للأساتذة والأساطين من علماء الأخلاق وأصحاب السلوك وأرباب المعرفة.

#### ٤- المعطيات الفردية والاجتماعية للغرور

قلّمنا نجد لسائر الصفات الرذيلة من الآثار السيئة والنتائج السلبية والمضرة مثلما نجد في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٢ في الغرور والفخر. إن افرازات الغرور السلبية تكاد تستوعب جميع حياة الإنسان الدنيوية والآخروية على مستوى الضرر والفساد، ومن بين الأضرار المترتبة على الغرور ما يلي: ١- إن الغرور يسدّ على عقل الإنسان وبصيرته حجاباً سميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ولا يسمح له برؤية نفسه والآخرين كما هو الواقع ولا يسمح له أن يقيم الحوادث الاجتماعية تقيماً سليماً ويتخذ منها موقفاً صحيحاً. وقد سبق أن ذكرنا الحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سُكْرُ الْعَفْلَةِ وَالْغُرُورُ أُنْعَدُ إِفَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ». ٢- إن الغرور يُعد عاملاً مهماً للفشل والتخلّف الفكري والجفاء النفسى في حركة الحياة. فالجيش المغرور من السهل أن يقع في حبال الهزيمة والفشل الذريع، والسياسى المغرور من اليسير أن يسقط في حركته السياسيه ويخسر نفوذه الاجتماعى ومقامه السياسى، والطالب المغرور يفشل في الامتحان، والرياضى المغرور سوف يخسر اللعبة مع الطرف المقابل، وأخيراً فالمسلم المغرور سيكون مورد الغضب الإلهى، والتعبير بقوله (قاتلات الغرور) في الروايات الإسلامية يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى. ٣- إن الغرور يعمل على توقف حركة الإنسان التكاملية بل قد يؤدي به إلى الانحطاط والتخلّف، لأن الإنسان عندما يُصاب بالغرور فإنه لا يرى نقائصه ومعاييه، وبالتالي فالشخص الذى لا يشعر بالنقصان فسوف لا يتحرّك باتجاه الكمال وإصلاح الخلل. وهذا ما نقرأه في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ جَهَلَ أَعْرَبَ نَفْسِهِ وَكَانَ يَوْمَهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ». ٤- إن الغرور يتسبب في حبط الأعمال وفساد الطاعات، لأنه لا يسمح للإنسان بأعمال الدقة في عمله وبالتالي يتسبب في خراب العمل، فالطبيب المغرور يمكن أن يبعث بمريضه إلى الموت أو يؤدي به إلى تلف أحد الأعضاء، والسائق المغرور سيبتلى بالحوادث الخطرة، وهكذا المؤمن المغرور قد يبتلى بالرياء والعجب وسائر الامور التي تفسد العمل وتحبط الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٣ الحسنات كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال «عَرُورُ الْأَمَلِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ» (١). ٥- إن الغرور يمنع من التفكير في عواقب الامور كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «لَمْ يُفَكِّرْ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ مَنْ وَثِقَ بِزُورِ الْعُرُورِ» (٢). ٦- إن الغرور غالباً ما يتسبب في الندم وذلك لأن الإنسان المغرور لا يستطيع التقييم الصحيح للحوادث بالنسبة له وللآخرين وسيقع في محاسباته الفردية والاجتماعية في الخطأ والاشتباه، وهذا الأمر يُفضى به إلى الندم، وفي هذا المجال يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الدنيا حلم والأعترار بها ندم» (٣). ٧- ويمكن القول في جملة واحدة: إن الأشخاص الذين يعيشون حالة الغرور هم في الواقع فقراء ومساكين في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام «الْمَغْرُورُ فِي الدُّنْيَا مِسْكِينٌ وَفِي الآخِرَةِ، مَعْبُودٌ لِأَنَّهُ بَاعَ الْأَفْضَلَ بِالْأَذْنَى» (٤).

#### ٥- طرق علاج الغرور

بما أن الغرور ينشأ غالباً من الجهل وعدم المعرفة بالنفس وعدم تقييم الذات بشكل صحيح فإنّ أول خطوة لعلاج هذا المرض الأخلاقي هو معرفة النفس ومعرفة الله تعالى وكذلك معرفة الاستعدادات والقابليات لدى الأشخاص الآخرين. إذا رجع الإنسان في

ذكرياته إلى مرحلة الطفولة وجد نفسه عاجزاً عن كل شيء، وإذا تفكر الإنسان في المراحل المتقدمة من عمره وجد نفسه عاجزاً أيضاً عن عمل أي شيء، وإذا تفكر فيما لديه من القدرة والمال والثروة والشباب والجمال، لوجد أن جميع هذه الامور الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٤ تتعرض للتلف والزوال وتصيبها الآفات المختلفة. وكذلك إذا عاد لينظر في تاريخ الأقسام السالفة والمجتمعات البشرية الماضية وسرعة زوال قدراتها وتلف أموالها وثرواتها وإندثار ما تبقى من امكاناتها وحضارتها وشموخها، لما أصابه الغرور. كيف يغتر الإنسان بعلمه والحال انه من المحتمل أن يُصاب بضربه على رأسه فينسى جميع علومه بل ينسى حتى اسمه؟ وكيف يغتر الإنسان بأمواله في حين أن تغييراً بسيطاً في السوق أو وقوع حادثة مهمة اجتماعية أو سياسية أو عسكرية بإمكانها أن تُبدي جميع أمواله بل قد يغرق في الدين والقرض أيضاً. وعلى أية حال فإنّ ما يزيل عن الإنسان حالة الغرور والفخر والسكر بزخارف الدنيا وبريقها هو معرفة النفس وأوضاع العالم الديني المتحركة وعدم ثباتها وكثرة تغييرها وتبدلها. والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء المغرورين من موقع التحذير والإنذار ويقول: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةً وأتاروا الأرض وعمرؤها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (١). وشبه هذا المعنى ورد في سورة غافر الآية ٢١ و ٨٢ أيضاً إذا تفكر الإنسان جيداً في معالم وأعضاء جسمه وكوامن روحه ونفسه لوجد الضعف مهيمناً على أجواء كيانه وكيف أن الحوادث الجزئية والتوافه بإمكانها أن تهدم حياته وتشل حركته فسوف لا يصاب بسكر الغرور أبداً كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مسيكين بن آدم مكتوم الأجل، مكنون العليل محفوظ العمل، تؤلمه البقة وتقتله الشرقفة وتنتنه العرقفة» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٥ ونقرأ في حالات (عياض) الوزير المعروف والمقتدر للسلطان محمود الغزنوي حيث ورد انه كان يدخل كل يوم في غرفة خاصية ويعلق الباب من ورائه وبعد لحظات يخرج منها، فلفت هذا السلوك نظر البعض وتعجبوا من هذا السلوك وتصوروا أن سرّاً خطيراً كامناً في هذه الغرفة، وبعد التحقيق اتضح لهم انه اخفى ملابسه التي كان يلبسها أيام كان راعياً للغنم في هذه الغرفة، وكل يوم يدخل إلى هذه الغرفة لينظر إلى تلك الملابس الرثة ويقول لنفسه: لقد كنت يا عياض راعياً للغنم والآن سلمك الله مقام الوزارة، فلا تغتر بذلك وعليك أن تخشى غداً عندما تفقد هذا المقام وعليك دينٌ ولا تستطيع الوفاء به. ولو أن جميع أرباب القدرة والسلطة سلخوا هذا المسلك في تربية نفوسهم فإنّ الغرور لا يجد طريقاً للنفوذ إلى قلوبهم، ولكن مع الأسف فإنّ كل إنسان لا يكون مثل عياض.

## طول الأمل

### تنويه:

إن (طول الأمل) يُعد من أهم الرذائل الأخلاقية التي تجر الإنسان إلى ارتكاب أنواع الذنوب والخطايا وتبعده عن الله تعالى وتسلك به في خط الشيطان وبالتالي يترتب على ذلك الكثير من العواقب الوخيمة. وبالطبع فإنّ أصل (الأمل) ليس فقط غير مدموم بل له دور مهم في إدامة حركة الحياة والتطور البشري في الأبعاد المادية والمعنوية. إذا سلب الأمل من قلب (الأم) فإنها لا تجد دافعاً لإرضاع طفلها وتحمل أنواع المشقة والألم بتربيته وتنشئته كما ورد هذا المعنى في الحديث النبوي الشريف «الأمل رَحْمَةٌ لِمَتِي وَلَوْ لَأَمَلُ مَارَضِعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا عَرَسٌ عَارِسٌ شَجَرَهَا» (١). إن من يعلم مثلاً بأن هذا اليوم هو آخر يوم من حياته أو أنه سيموت بعد أيام قليلة ويغادر الدنيا فإنه سيتحرك جميع ما في يده من أعمال ونشاطات في دائرة المعيشة والعلاقات الاجتماعية، وفي الحقيقة فإنّ ذلك يعني انطفاء شعله الحياة ولعلّ أحد الأسباب لخفاء الأجل هو أن يبقى الإنسان في حالة الأمل والرجاء ويعيش الحركة الطبيعية في امور المعيشة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٥٨ كما نقرأ هذا المعنى في ما ورد عن المسيح عليه السلام (انه كان جالساً يوماً في مكان وشاهد شيخاً كبيراً يحرق الأرض بمسحاته ويعمل على سقى الأرض وزراعتها، فطلب المسيح عليه السلام من الله تعالى أن يسلب منه

الأمل في الحياة: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم أردد إليه الأمل فقام وجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي واللّه لا بد لك من عيشٍ ما بقيت ففقت إلى مسحاتي «١». ولهذا السبب فإن الأمل ضروري في إيجاد التحرك أكثر لدى أفراد المجتمع من موقع النظر إلى المستقبل في حركة الحياة. ولكن نفس هذا الأمل الذي يُعدّ رمز حركة الإنسان وسعيه في حياته الدنيوية والماء الذي يسقي أرض حياته الميته ويُعش احساساته وعواطفه بغد أفضل، نفس هذا الأمل إذا تجاوز عن حدّه المرسوم أصبح على شكل سيل مدمر يأتي على الأخضر واليابس ويُغرق الإنسان في وحل حب الدنيا والظلم والجريمة والإثم. ولهذا نجد أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يرى في (طول الأمل) أحد العدوين الشرسين للإنسان ويقول: «إنّ أشد ما أخاف عليكم خضيمتان أتباع الهوى وطول الأمل، فأما أتباع الهوى فإنه يغيدل عن الحق، أما طول الأمل فإنه يُحب الدنيا» «٢». وشبهه هذا المعنى بتفاوت سير ورد أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحي منها نتيجة طول الأمل وأثره في مصير الأقوام السالفة والمجتمعات البشرية بشكل عام: ١- «وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عِبَادِ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٥٩ قُصُورًا وَتَتَّخِذُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» «١». ٢- «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ\* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» «٢». ٣- «يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ اللَّامَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» «٣». ٤- «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» «٤». ٥- «ذَرَاهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» «٥». ٦- «أَمْ لِلنَّاسِ إِنْ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ» «٦». ٧- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ\* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ\* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» «٧». ٨- «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» «٨».

### تفسير واستنتاج:

### منابع طول الأمل

«الآية الأولى والثانية» تتحدثان عن قوم عادٍ وثمود حيث بعث الله لهم (هود) و (صالح) وكانوا يعيشون الوضع الاقتصادي المزدهر في زراعتهم وصناعتهم وبالتالي تسبب ذلك في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٠ تعلقهم الشديد بالدنيا وعاشوا طول الأمل فيها ممّا أورثهم ذلك الغرور والكبر والفخر إلى درجة أنّهم ليس فقط لم يهتموا لدعوة أنبيائهم هود وصالح، بل إنهم تصدوا لهم بالمخالفة والعدوان. القرآن الكريم يذكر في الآيات الأولى على لسان النبي صالح عليه السلام مخاطباً لقومه «وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عِبَادِ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَتَّخِذُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» «١». وفي «الآية الثانية» يستعرض القرآن حالة قوم (عاد) والذي سبقت الإشارة إليها في الآية السابقة في الحديث عن قوم ثمود. وتحدثت الآية الكريمة على لسان النبي هود عليه السلام مخاطباً قومه «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ\* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» «٢». وهنا أراد هو بهذا الكلام أن يفهم قومه أنّ أحد العلل المهمّة لانحرافهم عن جادة الصواب وسلوكهم في خطّ الباطل هو اتباعهم للأهواء واعتمادهم على الآمال العريضة والطويلة والتي أدت بهم إلى الغفلة عن الله تعالى والفرق في زخارف الدنيا والإبتلاء بزبارجها. (مصانع) جمع مصنع، بمعنى البناء العظيم والقصر الشامخ والمستحکم، والأصل لهذه المفردة هي مادّة (صَنَعَ) والتي تأتي بمعنى أداء العمل الحسن، وعليه فإنّ (صنع) لا- يقال لكل عمل، بل يُطلق على الأعمال التي لها امتياز خاص. إن قوم عاد وثمود تصوّروا بأنهم وبسبب هذه الأبنية القوية والمجلّلة والقصور الفخمة التي أوجدوها في قلب الجبال أنّهم بإمكانهم أن يصونوا أنفسهم من الآفات والحوادث الطبيعية ويخلدوا فيها لسنوات متمادية بعيداً عن كلّ اشكال الشقاء والبؤس. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦١ ونفس هذا



المعنى ورد عن قوم ثمود في آيات اخرى أيضاً حيث نقرأ على لسان صالح عليه السلام قوله «أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّآءَ آمِنِينَ\* فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ\* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ\* وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي تُدْعَى فَارِهِينَ» (١). ولاشك أن الغرور والغفلة التي حصلت لهم من طول الأمل لا تنحصر بقوم عاد وثمود، ولكن القرآن الكريم يذكر هذه الصفة والحالة النفسية لهؤلاء القوم كصفة بارزة من صفاتهم الأخلاقية. «الآية الثالثة» تحدت عن جدال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة حيث يجد المنافقون أنفسهم يعيشون في ظلمة المحشر في حين أن المؤمنين يتحركون نحو الجنة بنور الإيمان، وهنا يطلب المنافقون من المؤمنين أن يستفيدوا من نورهم وينتفعوا من ضياءهم، ولكنه يُقام حاجز بينهما يحجب كل طائفة عن الاخرى. وهنا يصرخ المنافقون «... أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ...» (٢) إذن فلماذا انفصلتم عنا؟ فيجيب المؤمنون «... قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ...» (٣). وعليه فالآية أعلاه تبين أربع عوامل لشقاء المنافقين، والرابع منها طول الأمل والإغترار بالأمان الطويلة والعريضة. (اماني) جمع (أمنية)، وهي من مادة (مَنَى على وزن (مَغَز) وهي في الأصل بمعنى المقياس والميزان، لأن الإنسان في عالم الخيال وأحلام اليقظة يقيس الامور لنفسه وما يترتب عليها من معطيات، ولهذا السبب يُقال للخيالات الباطلة والكلام الزائف والآمال العريضة (امنية) وجمعها (أمانى). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٢ وورد في تفسير منهج الصادقين وتفسير القرطبي في ذيل هذه الآية حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن رسول الله كان أحد الأيام يعظ أصحابه فرسم لهم خطوط متوازية على الأرض ثم خط لهم خطاً عمودياً ثم قال: اتعلمون ما معنى هذه الخطوط؟ فقالوا: لا يا رسول الله! فقال: هذه الخطوط هي من قبيل الآمال والتمنيات للناس (والتي لا حد لها ولا حصر) وأما ذلك الخط العمودي فهو الموت ونهاية الحياة الدنيا الذي خط على بنى آدم جميعاً والذي سوف يُبطل جميع هذه الآمال والتمنيات. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير نقله (ابن مسعود) عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وآله خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغيراً، فقال: هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» (١). «الآية الرابعة» تخاطب المؤمنين بصورة غير مباشرة وتحذرهم بأن يكونوا على وعي كامل بوضعهم وحالهم لكي لا تأخذهم الآمال والتمنيات وتفضي بهم إلى المصير المؤلم للأقوام السالفة وتقول «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٢). والمفهوم من هذه الآية أن ما يبعث على لين قلب الإنسان وانعطافه وتوجهه إلى الحق وتحركه في خط الإيمان والانفتاح على الله هو ذكر الله تعالى، أجل فإن ذكر الله من شأنه أن يُزيل جميع الآمال الطويلة والعريضة ويجعل الإنسان ملتفتاً إلى مسؤولياته وواقعه ويُجلى قلب الإنسان ويضيئه، ويتسبب في أن يتحرك الإنسان في تصورات وتفكيره من رؤية الواقع وحقيقته الحياة الدنيا فيرى عدم ثباتها وعدم استقرارها جلياً أمام ناظره. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٣ «الآية الخامسة» تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله مشيرة إلى الكفار والمشركين وتقول «ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (١). أجل أن هؤلاء مثلهم كمثل الدواب والأنعام لا يفهمون من الحياة الدنيا سوى المأكل والمشرب والتمتع بإشباع الشهوات البدنية، وعليه فهم أضل من الأنعام واسوأ حالاً بسبب أنهم يعيشون طول الأمل في حياتهم وأفكارهم بحيث إن طول الأمل هذا يمنعهم من التفكير بمستقبلهم وما ينتظرهم في الغد حتى ينشب الموت مخالبه في أرواحهم. وهنا نجد أن الآية توضح الأثر السلبي للآمال الطويلة على حياة الإنسان وتبين إلى أيّة درجة تجعل هذه الآمال الإنسان مشغولاً بنفسه ودنياه وغافلاً عن الله تعالى. وجملة (ذرهم) تبين بوضوح انه لا أمل في هداية هؤلاء وإلا فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله في الأصل مأمورٌ بهداية جميع الناس فلا معنى لأن يتركهم مع احتمال الهداية فيهم. وكيف يصح توقع الهداية من طائفة من الناس في حين أن هدفها النهائي في حركة الحياة هو الأكل والشرب والنوم والحياة في الدنيا كما تعيش الحيوانات، لأن هذه الآمال الطويلة لا تدعهم يفكرون لحظة في نهاية هذه الحياة وخالقها والواهب لكل هذه المواهب في عالم الوجود وما هي الغاية من هذا الخلق العظيم؟ «الآية السادسة» من الآيات مورد البحث والتي تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الآمال الطويلة التي لا يحصل عليها الإنسان غالباً تحيط بالإنسان وتؤسر

جميع امكاناته وقابلياته وتحجزه عن سلوك طريق السعادة وبالتالي ستمنعه من سلوك طريق الكمال المعنوي والإنساني وتقول: «أم لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» (٢). وهذا الاستفهام في الحقيقة هو نوع من الاستفهام الإنكارى، فكيف يمكن أن يعيش الإنسان كل هذه الآمال والتمنيات وينالها ويصل إلى مقاصده في حين أن طول هذه الآمال الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٤ يستغرق أحياناً عشرات أو مئات الأضعاف من عمر الإنسان الطبيعي، وأحياناً تقع هذه التمنيات في خط اللانهاية بحيث كلما وصل الإنسان في حركة الحياة إلى مقدار معين منها تجلت له آمال اخرى تدعوه إلى مواصلة الحركة. ويجب الانتباه إلى أن هذه الآية وردت بعد آيات تشير إلى اصنام المشركين الذين كانوا يعيشون الأمل بشفاعتها والقرب من الله تعالى بواسطتها، فالقرآن يقول: إِنَّ هَذَا الْأَمَلُ لَا يَتَحَقَّقُ إِطْلَاقًا، ولكن مع ذلك فإن مفهوم الآية عام، وكما في الإصطلاح أن المورد لا يخص الوارد. «الآية السابعة» تتحدث عن أهل الدنيا الذين يعيشون الآمال الطويلة والتمنيات العريضة وتقول: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ \* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ \*» (١) \* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ \*» (٢). وفي الواقع أن هذه الآيات الثلاثة بمثابة العلة والمعلول، لأن الإنسان الأناني والإنتهازي سوف يتحرك في تعامله مع الآخرين من موقع الإستهزاء بسبب الثروة الكبيرة والمال الكثير عنده والذي جمعه بطرق غير مشروعة، لأنه جمع مثل هذه الثروة بدافع من تصوّره أن هذه الثروة من شأنها أن تكتب له الخلود في هذه الحياة، فهذا التصور المصحوب ب (طول الأمل) وكثرة التمنيات الدنيوية تسبب لهذا الشخص الغرور والإستعلاء والعجب، وهذا بدوره يتسبب في أن يتحرك مع الآخرين من موقع الإستهزاء والسخرية (٣). ويُستفاد جيداً من هذه الآية أن الآمال والتمنيات الطويلة والعريضة تارة تصل إلى حد ينسى الإنسان معها الموت تماماً ويتصور انه مخلص أبداً الدهر، وهذا الأمر يؤدي به إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٥ الطغيان ويقوى فيه حالة الإستكبار والفوقية وبالتالي تورثه هذه الحالة الوقوع في الكثير من الذنوب الاخرى. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث: تتحدث عن طائفة من الأشخاص الذين عرفوا الحق من موقع الوعي ولكنهم أداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه بعد ذلك وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْيَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» (١). (أملى لهم) من مادة إملاء، بمعنى ظهور الآمال البعيدة والطويلة التي تشغل الإنسان بنفسه. وهذه الآية في الحقيقة ناظرة إلى هذا المعنى وهو انه كيف يمكن أن يكون الإنسان عارفاً للحق ومصداقاً به في البداية ثم يتجاهل هذه العقيدة ويعرض عنها ويوصل أبواب النجاة أمامه ويسلك في خط الإنحراف والزيغ. هل يمكن للإنسان العاقل أن يسلك هذا المسلك؟ أجل فعندما تحيط الوسوس الشيطانية بالإنسان وتصور له القبائح حسنة وتوقعه في منزلقات الآمال والتمنيات الطويلة فلا يبعد أن ينسى ما كان عليه من الحق ويعرض عنه بسبب ذلك. ومن هنا يمكن إدراك البلاء العظيم الذي تنزله الآمال الطويلة على الإنسان وكيف أن الإنسان العاقل يفقد عقله معها تماماً ويصبح غريباً عن ذاته ويترك عقله لمجموعة من الأوهام والخيالات التي تقوده في خط الباطل وتبتعد به عن الله تعالى. ومن مجموع الآيات المذكورة آنفاً والتي تحدثت عن مصير بعض الأقوام الماضين وبعض المعاصرين لعصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبعض الآيات تحدثت بشكل قانون عام الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٦ يمكن استخلاص هذه النتيجة، وهي ان طول الأمل وكثرة التمنيات تُعد من أخطر أعداء الإنسان في صياغته حياته السعيدة، وبإمكانها أن توقع أفراد البشر بل المجتمعات البشرية في هوة السقوط والإندثار والشقاء.

### طول الأمل في الروايات الإسلامية:

بما أن طول الأمل له تأثير مخرب جداً على حياة الإنسان المعنوية والأخلاقية وحتى الدنيوية والمادية أيضاً، فإن الروايات الإسلامية قد ذمت هذه الخصلة بتعبيرات مختلفة، وأشارت إلى أسباب منطقية لذلك، وعلى سبيل المثال نشير إلى نماذج من هذه الروايات: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «ارْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ وَطُولُ الْأَمَلِ وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ اطَّالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ» (٢). وهذا المعنى ورد بصورة أوضح في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال «اطْوَلَ النَّاسِ أَمَلًا اسْوُؤُهُمْ عَمَلًا» (٣). ٣- وورد في نهج البلاغة

في الخطبة ١٤٧ تعبيراً عميقاً في هذا المجال قال: «أَنَا هَلَكْتُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْتِيبِ آجَالِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرِدُّ عَنْهُ الْمَعْدِرَةُ وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ». ٤- وفي حديث آخر عن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام عن أبيها الإمام الحسين عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَنَّ صِلَاخَ أَوَّلِ هَيْدِهِ النَّامَةِ بِالزُّهَيْدِ وَالْيَقِينِ وَهَلَاكَ آخِرِهَا بِالشَّحِّ (بِالشُّكِّ) وَالْأَمَلِ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٧ وبديهي أن من العوامل المهمة لانتصار المسلمين في صدر الإسلام هو الإيمان واليقين الراسخ بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بزخارف الدنيا وبريقها، حيث تسبب ذلك في أن يرد المسلمون الأوائل إلى ميدان القتال والجهاد بشجاعة فائقة وشوق بالغ فلم يكونوا يرون إلا الله تعالى ولا يتحركون إلا في خط الطاعة والتقوى ولا يديرون ظهورهم إلى الأعداء من موقع الهزيمة والتخاذل. ولكن عندما امتدت إليهم الآمال الطويلة وملكتهم العلائق الدنيوية وخذعتهم ظواهر الدنيا حلّ الشك والترديد محلّ اليقين، والشغف بأمور الدنيا محلّ الزهد، وبدأوا يتراجعون أمام أعدائهم ويسلكون سبيل التخلف والانحطاط الحضاري والثقافي، فلا سبيل لهم اليوم لتجديد عظمتهم الاولى سوى احياء تينك الأصيلين الرئيسيين. ٥- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْأَمَلُ سُلْطَانُ الشَّيَاطِينِ عَلَى قُلُوبِ الْغَافِلِينَ» (١). ٦- وجاء في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً انه وصف مثل هؤلاء الأشخاص بعنوان شرّ الناس وقال: «شَرُّ النَّاسِ الطَّوِيلُ الْأَمَلِ، السَّيِّئُ الْعَمَلِ» (٢). وكذلك ورد في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً قوله: «أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْطَعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ، فَسَيَبْحَثُ اللَّهُ لَأَمَلٍ يُدْرِكُ وَلَمَّا مَوَّمَلٌ يُتْرَكُ» (٣). ٧- وفي حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اشْرَفُ الْغَنِيِّ تَرْكُ الْمُنَى» (٤). لأن التمنيات الطويلة والعريضة تتسبب في أن يعيش الإنسان الحاجة والفقر في نفسه دائماً ويمدّ يده في سبيل إشباع هذه الحاجة إلى أي شخص وبذلك يحقق شخصيته ويسحق حيثيته الإنسانية من أجل هدف لن يصل إليه أبداً. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٨-٨- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «كَذَّبَ مَنْ ادَّعَى الْإِيمَانَ وَهُوَ مَشْغُوفٌ مِنَ الدُّنْيَا بِخَدَعِ الْأَمَانِيِّ وَزُورِ الْمَلَاهِي» (١). ومن الواضح أن المتعلق بالدنيا والمشغوف بزخارفها وملذاتها فإنه من أجل الوصول إلى كل شيء منها لا بد له أن ينسى كل شيء يشده إلى الحقيقة والواقع ومن ذلك سوف يُصاب الإيمان بالاهتزاز والضعف. ٩- وكذلك ورد عن هذا الإمام في حديث قصير وملء بالمعنى أنه قال: «الْأَمَانِيُّ تَعَمَّى عُيُونَ الْبَصَائِرِ» (٢). ١٠- وورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً لأصحابه «أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟». «قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ» قال: «فَصَرُّوا مِنَ الْأَمَلِ وَاجْعَلُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ ابْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» (٣). ١١- وأيضاً نقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَنَّ الْأَمَلَ يُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَيُكَذِّبُ الْوَعْدَ، وَيَحْتُّ عَلَى الْعُقْلَةِ وَيُورِثُ الْحَشِيرَةَ» (٤). ١٢- ونختم هذا البحث برواية اخرى عن رسول الله بعنوان (مسك الختام)، فقد ورد في هذا الحديث أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخذ ثلاثة أعواد فغرس عوداً بين يديه والآخر إلى جانبه وأما الثالث فأبعده وقال: هلا تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا الْأَنْسَانُ! وَهَذَا الْأَجَلُ! وَهَذَا الْأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الْأَجَلُ دُونَ الْأَمَلِ!» (٥). الأحاديث الشريفة أعلاه والتي هي غيض من فيض الروايات المذكورة في المصادر الإسلامية في باب طول الأمل تبين بوضوح سعة دائرة الخطر وعمق الفاجعة المترتبة على الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٦٩ هذه الرذيلة الأخلاقية، وتؤكد على أن الآمال الطويلة والتمنيات العريضة تعد من أشد أعداء سعادة الإنسان والمانع القوي أمام حركته في خط القرب الإلهي والإيمان والانفتاح على الله.

### الآثار السلبية لطول الأمل:

#### إشارة

إن للآمال والتمنيات الواسعة آثار مخربة كثيرة في حياة الإنسان المعنوية والمادية والتي اشارت إليها الروايات المذكورة آنفاً، وكذلك ما ورد في الآيات القرآنية المذكورة في صدر البحث، وبشكل عام يمكن القول: أن طول الأمل يترتب عليه آثار مخربة

ونتائج مدمرة كالتالي:

### ١- طول الأمل مصدر الكثير من الذنوب

إن أحد أسوأ الآثار السلبية لطول الأمل والتمنيات العريضة هي أنها تدعو الإنسان للتورط بأنواع الذنوب لأن الحصول على متعلقات هذه الآمال والتمنيات لا تتسنى عادة إلا بطرق غير مشروعة، وعليه فإن من يعيش هذه الرذيلة الأخلاقية يجد نفسه مضطراً إلى الغضب عن الكثير من مسائل الحلال والحرام في سبيل تحقيق أمنياته وأن لا يُراعى في ذلك حقوق الآخرين ولا ممنوعات الشريعة المقدسة، فيتحرك من موقع غضب حقوق الناس، أكل أموال اليتامى التطفيف في الميزان، أكل الربا، الرشوة وأمثال ذلك. ولهذا السبب فقد ورد في الحديث المعروف في (غرر الحكم) «مَنْ طَالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ» (١). وورد أيضاً «اطْوَلَ النَّاسِ أَمَلًا اسْوَأُهُمْ عَمَلًا» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٠ وجاء في النقطة المقابلة لذلك: «مَنْ قَصَرَ أَمَلُهُ حَسَنَ عَمَلُهُ» (١). وكل من هذه الأحاديث الثلاثة وردت عن مولانا أميرالمؤمنين الذي نفديه بأنفسنا ونفدى كلامه النوراني البناء.

### ٢- طول الأمل وقساوة القلب

وكما رأينا في الآيات القرآنية المذكورة في بداية البحث انها تتحدث عن أحد الأقوام الماضية وتقول: «فطال عليهم الأمد فقسفت قلوبهم». والسبب في ذلك واضح، لأن طول الأمل يورث الإنسان الغفلة عن الله تعالى ويقوى فيه عنصر الحرص ويُبعدة عن الآخرة، وكل هذه من الأسباب المهمة لقساوة القلب. ولهذا السبب ورد في الحديث الشريف أن الله تعالى خاطب موسى وقال: «يَا مُوسَى لَأُطَوِّلَ فِي الدُّنْيَا أَمَلَكَ فَيَقْسُوا قَلْبَكَ، وَالْقَاسِي الْقَلْبَ مَنِّي بَعِيدٌ» (٢). ونفس هذا المعنى ورد في حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ يَأْمُلُ أَنْ يَعْيشَ أَبَدًا يَقْسُو قَلْبَهُ وَيَزْغَبُ فِي الدُّنْيَا» (٣).

### ٣- طول الأمل ونسيان الأجل

وهذا الأثر السلبي لا يحتاج إلى مزيد شرح وبسط، ويمكن فهمه بوضوح على مستوى الأشخاص الذين يعيشون هذه الرذيلة الأخلاقية حيث لا تجدهم يذكرون الموت أبداً ويفكرون بالآخرة بل يعيشون الغفلة التامة عن هذه الامور المصيرية. وقد جاء في الحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن أميرالمؤمنين عليه السلام القول: «طُولُ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ» (٤). «أَكْثَرُ النَّاسِ أَمَلًا أَقْلُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا» (٥).

### ٤- طول الأمل والعسر في الحياة

ومن البديهي انه كلما امتدت آمال الإنسان وقويت جذورها في واقع النفس فإنها تتطلب موارد ومقدمات أكثر، وكذلك تدعو صاحبها للإقتصاد أكثر في الأموال والثروات لغرض التوصل إلى تحقيق تلك الآمال والتمنيات، ونتيجة هذين الأمرين هي أن يعيش الإنسان في ضنك من العيش وتعب من زحمة العمل وصعوبة المشكلات التي يواجهها هو وعائلته حيث يجد نفسه مضطراً إلى العمل ليل نهار وبدون توقف. وفي ذلك وردت أحاديث عن أميرالمؤمنين تقول: «مَنْ كَثُرَ مَنَاهُ كَثُرَ عَنَائِهِ». وقال أيضاً: «مَنْ اسْتَعَانَ بِالْأَمَانِيِّ أَفْلَسَ». (حتى لو عاش حياة الأغنياء في كثرة المال والثروة). وقال أيضاً: «الرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ» (١).

### ٥- طول الأمل والذلة في الحياة

إنَّ الأشخاص الذين يعيشون الآمال الطويلة مضافاً إلى كدحهم وتعبهم الدائم فإنَّهم يعيشون في شخصيتهم الإنسانية الشعور بالذلة والحقارة حيث يضطرون إلى سحق حيثيتهم لغرض التوصل إلى هدفهم الموهوم والخيالي ويدعون ويخضعون أمام كلِّ أحد ويمدوا أيديهم لأيِّ شخص كما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ذُلُّ الرَّجَالِ فِي خَيْبَةِ الْأَمَالِ» (٢).

## ٦- الحرمان من النعم والمواهب

وكما تقدّمت الإشارة إليه في الأشخاص المتورطون في دوامة الأمل ومستنقع التمنيات فإنَّهم يجدون أنفسهم مضطرون إلى الاقتصاد والتقتير على أنفسهم في الحياة وعدم الاستفادة من المواهب الكثيرة والنعم الوفيرة التي لديهم كلِّ ذلك من أجل تحقيق تلك الآمال البعيدة، ولهذا السبب فإنَّهم يقترون ويقتصدون في كلِّ شيء حتّى على أنفسهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٢ وعائلتهم، وهذا هو البخل أو الشح الذي يحرم الإنسان من النعم والمواهب الإلهية في عين تملكه للإمكانات والثروات الوفيرة فيعيش عيشة الفقراء وهو غنى. وقد نرى في زماننا هذا بعض الأشخاص الذين يتلون بطول الأمل ويتحركون في سبيل تأمين حياتهم وأبناءهم تحت عنوان (التأمين على الحياة) ويحرموا بذلك أنفسهم وأبناءهم من المواهب والنعم الإلهية الكثيرة!!

## ٧- طول الأمل وعدم إدراك الحقائق

إنَّ الآمال والتمنيات البعيدة حالها حال السراب الذي يخدع الضمآن في الصحراء المحرقة ويجرّه إليه ليعيش الضماً والعطش أكثر دون أن يصل إلى مقصوده، فهذه الآمال والتمنيات تُظهر الامور الواقعية بأفئدة مزيفة ولذلك لا يُدرك الإنسان أين يذهب وإلى أين يتجه؟ وما هي وظيفته في قبال الامور المصيرية؟ ومن ذلك ورد في الحديث الشريف الذي سبقت الإشارة إليه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «الْأَمَانِيُّ تُعْمِي عُيُونَ الْبَصَائِرِ» (١). وخلاصة الكلام انَّ الشخص الذي يمكنه إدراك وجه الحقيقة الجميل كما هو عليه هو الشخص الذي لا يغطي عقله بحجاب الآمال والتمنيات ولا يعيش وسط السُحْب المظلمة والمظلمة لطول الأمل.

## ٨- طول الأمل وكفران النعمة

ومن البديهي أن طول الأمل يقود الإنسان لأن يتعلق قلبه بما لا يحصل عليه أبداً ولهذا فإنه يرى نعمة الله عليه قليلة ومواهبه حقيرة فلا يتعامل مع ما لديه من هذه المواهب العظيمة من موقع الإهتمام والعناية وهذا هو عين كفران النعمة ممّا يترتب عليه عواقب سيئة في الدنيا والآخرة. وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «تَجَبَّبُوا الْمُنَى فَإِنَّهَا تُدْهِبُ بِنَهْجِهِ نِعْمَ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، وَتُلْزِمُ اسْتِضْغَارَهَا لَدَيْكُمْ، وَعَلَى قَلْبِ الشُّكْرِ مِنْكُمْ» (٢).

## دوافع طول الأمل وأسبابه:

إن العمدة في دوافع طول الأمل هو الجهل وعدم الإطلاع على حال الدنيا وما فيها من التغيرات والإبتلاءات وعناصر التضاد في حركة الحياة، وكذلك الجهل بقدره الله ولطفه وثوابه العظيم في الآخرة، فمجموع هذه الجهالات تدفع الإنسان إلى منزلقات طول الأمل والتمنيات العريضة. وتوضيح ذلك: إن الإنسان وبسبب جهله بنفسه وعدم الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهي أنه قد يحين أجله في كلِّ لحظة ويرحل عن هذه الدنيا، فقد تعترض جلطة من الدم في شرايين قلبه أو دماغه فيصاب بالسكتة القلبية أو الدماغية أو يُصاب بزلزلة أو حريق أو حادثه سيارة وأمثال ذلك ممّا يُنهى حياته الدنيوية، نعم وبسبب جهله بهذه الامور فإنه يتورط في شراك الآمال والتمنيات

البعيدة ويحسب أن عمره طويل جداً ثم يحيط نفسه بطائفه من التصورات الواهية والآمال البعيدة التي لا تسمح له أن يفكر بالواقع وبالحقائق المحيطة حوله في واقع الحياة. وهكذا بالنسبة إلى جهله بحال الدنيا وعدم وفائها لا بالصغير ولا بالكبير، ولا بالشباب ولا بالشيخ، فزى أحياناً أن مئات الصبيان يموتون قبل أن يموت شيخ واحد، وأخرى قبل أن يموت المريض بالسرطان يموت عشرات الأشخاص السالمين. وأحياناً تجر السلاطين إلى أن يعيشوا الذل والمهانة ويستبدلوا عروشهم وقصورهم بزنايات السجن، وقد يصبح الثرى الغارق في النعمة بين عشية وضحاها فقيراً معدماً لا يجد عشاء يومه، أجل فالجهل بهذه الامور من شأنه أن يوقع الإنسان في دوامة طول الأمل. وهنا يقول سلمان الفارسي التلميذ الكبير لمدرسه الوحي: «ثَلَاثٌ أَعْجَبْنِي حَتَّى اضْحَكْتَنِي: مُؤَمِّلُ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بَمَلٍ فِيهِ لَمَّا يَدْرِي اسَاخِطُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ أَمْ رَاضٍ عَنْهُ» (١). وفي الروايات الإسلامية اشارات واضحة على هذا المعنى حيث يقول الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٤ أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ أَيَّقَنَ أَنَّهُ يُفَارِقُ الْأَحْبَابَ وَيَسْكُنُ التُّرَابَ وَيُوجِهُ الْحِسَابَ وَيَسْتَعْنِي عَمَّا خَلَّفَ، وَيَقْتَرِ إِلَى مَا قَدَّمَ كَانَ حَرِيّاً بِقَصِيرِ الْأَمَلِ وَطُولِ الْعَمَلِ» (١). وجاء في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً: «اتَّقُوا خِدَاعَ الْأَمَالِ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ يَوْمَ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَبَانِي بِنَاءٍ لَمْ يَسْكُنْهُ، وَجَامِعٍ مَالٍ لَمْ يَأْكُلْهُ» (٢). وأحياناً يكون الجهل بالآخرة والثواب العظيم الخالد الذي أعدّه الله للمؤمنين سبباً في أن يتصور الإنسان الخلود لهذه الحياة الدنيا ويغرق في الأوهام والتمنيات والآمال الدنيوية وأحياناً يتسبب جهله بالسعادة الكامنة في الزهد والتحرر من أسر الشهوات والنوازع الدنيوية إلى أن يحرق نفسه بنار طول الأمل. وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «اشْتَجَلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقَصِيرِ الْأَمَلِ» (٣). وأحياناً يغفل الإنسان عن قدرة الله تعالى وينسى هذه الحقيقة الحاسمة في واقع الحياة أو يكون جاهلاً بها ولا يعلم أن الله تعالى ومنذ انعقاد نطقه في رحم أمه فإنه بعين الله ومحط عنايته ورعايته في كل أموره في حين انه كان يعيش الضعف بمنتهاه ولا تصل إليه يد أحد من الناس لتعنيه وتوصل إليه رزقه في ظلمات الرحم، وتستمر عنايه الله به إلى آخر حياته، وكذلك حال أولاده إذا كانوا يسرون في خط الإيمان والصلاح فإن الله تعالى لا يتركهم لوحدهم، وإن كانوا من أعداء الله فلا مسوغ لأن يتعب الإنسان نفسه في سبيلهم وخدمتهم. أجل فإن الجهل بهذه الامور يؤدي بالإنسان إلى أن يسجل اسمه في دائرة (التأمين على الحياة له ولأبناءه) وهكذا يتورط بمصيده طول الأمل. إن جميع حالات الجهل هذه (جهل الإنسان بنفسه، جهله بالدنيا، جهله بقدرة الله الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٥ تعالى، جهله بالآخرة ونعيمها الخالد) يتسبب في أن يعيش الإنسان الحيرة والضياع في صحراء الحياة المحرقة أسير الآمال والتمنيات العريضة.

### علاج طول الأمل:

لابد في علاج الأمراض من التوجه إلى الجذور وقلعها من الأساس ليتسنى للإنسان التخلص من المرض بشكل حاسم، كما لم يقطع جذور المرض فإن العلاج السطحي والظاهري سوف لا ينفعه على المدى الطويل، وبعبارة أخرى: انه حالة من حالات التسكين للمرض لا علاجه. وبالنظر إلى هذا الأصل الأساس ومع الالتفات إلى جذور الآمال والتمنيات في واقع الإنسان يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة، وهي أنه لابد من التفكير والتأمل بجديّة في جذور هذا المرض الأخلاقي. فمن جهة يجب على الإنسان أن يعلم بأنه كائن مُعْرَضٌ للتلف والموت وأن الفاصلة بينه وبين الموت قليلة جداً، فهذا اليوم يعيش السلامة والصحة والنشاط ولكن قد نجده غداً وهو متورط بأنواع الأمراض الصعبة أو المصائب المحزنة، واليوم هو قوى وغنى و متمكن، وغداً يمكن أن يبدو ضعيفاً ومن أفقر الناس، والنماذج على ذلك كثيرة في صفحات تاريخ البشرية. ومن جهة أخرى يجب أن يتفكر في إهتزاز الدنيا وتغيرها الدائم وعدم اعتبارها. أجل فإنها لا تثبت لأحد من الناس إطلاقاً. ومن جهة ثالثة عليه أن يتدبر ويتأمل بهذه الحقيقة، وهي اننا نعتقد بالمعاد واليوم الآخر والحساب الإلهي في عرصات المحشر والثواب والعقاب على الأعمال والأفعال في الدنيا وأن هذا العالم ما هو إلا قنطرة وجسر يعبر عليه الإنسان إلى تلك الحياة الخالدة فعليه أن يتزود من هذه الحياة ولا يتصور أنها حياة خالدة وانها هي الأصل والهدف من الخلق. وكذلك

يتفكر في أن الحرص على جمع الأموال والثروات واكتنازها لغرض تحقيق تلك الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٦ الآمال والتمنيات الواسعة في الحياة الدنيا لا يجلب له السعادة أبداً، بل سيزيده شقاءً ومحنةً أيضاً، ويتفكر أيضاً في أن أهم حالات الهدوء والطمأنينة هي هدوء الروح وسعادة الوجدان التي لم يحصل عليها الإنسان، إنما إذا سار في خط التقوى والتوكل على الله من موقع الإيمان به ومعرفة حال الدنيا لا من موقع الحرص والولع في تحصيل نعيمها الفاني وإمكاناتها المادية. وأن أفضل الطرق للوصول لهذا الهدف هو ما ورد في الحديث النبوي المعروف: «خُذْ مِنْ دُنْيَاكَ لِإِخْرَاجِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صِيحَتِكَ لِسِقْمِكَ، فَانْكَ لَا تَدْرِي مَا اسْمُكَ غَدًا» (١). أى ماذا يحصل لك في الغد وهل أنت من الأموات أم الأحياء، من المرضى أم الأصحاء؟ والعامل الآخر الذي يُربّي الآمال والتمنيات ويقوى جذورها في نفس الإنسان هو الأهواء النفسية والعشق للدنيا والتعلق بها، فكلما سعى المرء في التقليل من تعلقاته الدنيوية فإنّ أمله في الحياة سيكون أقصر، وعلى العكس من ذلك كلما تعلق الإنسان بالدنيا أكثر كلما ازدادت آماله وكثرت تمنياته. ولغرض تحصيل هذا الهدف أى تقصير الأمل في الدنيا فإنّ من أقوى العوامل المؤثرة في ذلك هو ذكر الموت الذي يُزيل عن بصيرة الإنسان حُجُب الغفلة فيرى حقائق الأمور كما هي ويُشاهد الواقعيات الكامنة خلف المظاهر البراقة والظواهر الزائفة. ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة ٩٩ في نهج البلاغة قوله: «أَلَا فَادُّكُرُوا هَادِمَ اللَّذَاتِ، وَمُنْغَصَّ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الْأُمِّيَّاتِ». ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ضمن خطبة له: «عُدَّ نَفْسَكَ فِي أَصْحَابِ الْقُبُورِ» (٢). وذلك لكى لا تبلى بطول الأمل. ونقرأ في النقطة المقابلة لذلك ما ورد عن أمير المؤمنين أنه قال: «أَكْثَرُ النَّاسِ أَمَلًا أَقْلُهُمْ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٧ لِلْمَيُوتِ ذِكْرًا» (١). والطريق الآخر للتصدى لطول الأمل وتضعيفه في واقع النفس هو مطالعة الآثار السلبية المترتبة عليه. أجل فالإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهى أن طول الأمل يُعد مصدراً للكثير من الذنوب والرذائل الأخلاقية، ومن الأسباب المهمة لقساوة القلب ونسيان الآخرة، وأن يعيش الإنسان حياة التعب والذلّة والحرمان من النعم والمواهب الإلهية، وتسدل على بصيرته وعقله حجاباً سميكاً لا يدعه يرى الحقيقة من موقع الوضوح في الرؤية، كل ذلك يتسبب في أن يتحرك الإنسان على مستوى التفكير الجدى في علاج هذه الحالة السلبية قبل أن يدمر سيل الأمل بيت سعادته وبذلك يقوم بتحديد آماله وتهذيب تمنياته ليعود إلى صف العقلاء والسعداء الذين يعيشون الأمل بشكل معقول ومنطقي. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك: «حَاصِلُ الْمَنَى الْأَسْفُ وَتَمَرُّهُ التَّلْفُ» (٢). أى تلف إمكانات الإنسان وعمره الثمين. ويقول عليه السلام في حديث آخر: «اخْذَرُوا الْأَمَانِيَّ فَإِنَّهَا مَنَائِمًا مُحَقَّقَةٌ» (٣).

### وهنا نقطن:

الاولى: إن الطلب المادى يتحرك في اسلوبه العلاجى للأمراض الجسمية والنفسية من موقع ايجاد البديل، أى انه يستبدل رغبات الإنسان التي تقوده إلى المرض برغبات اخرى أقوى منها تجره إلى ساحل السلامة والصحة، مثلاً الشخص الذى يعيش الرغبة الشديدة فى تناول الأطعمة الدسمة والسكريات بحيث تسبب له أمراض مختلفة، فيوصى بتناول مقدار كبير من الفاكهة والخضروات، أو الأشخاص المدمنين على المواد المخدرة فإن الأطباء يوصونهم باستبدال هذه العادة بعبادات اخرى سليمة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٨ وهذه النقطة صادقة أيضاً فى الأمراض الأخلاقية، وذلك بأن يقوم معلم الأخلاق باستبدال الآمال الطويلة فى الامور المادية بالآمال الطويلة المعنوية فى دائرة الثواب الإلهي فى الآخرة أو الرغبة الشديدة إلى العلم والمعرفة والتقرب إلى الله تعالى بدلاً من العشق للمال والجاه و.... وأمثال ذلك. النقطة الاخرى أن للآمال بدورها مراتب، فأحياناً يتمنى الإنسان أن يكون له عمراً طويلاً أو مخلدًا، كما يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من اليهود ويقول: «... يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...» (١). وهذا الطلب لعدد ألف سنة إذا كان المراد به هو هذا المقدار بالذات فيدل على طلبهم للعمر الطويل جداً، ولو كان المراد منه بيان الكثرة فيدل على طلبهم للعمر اللامتناهى واللامحدود. بعض الناس يعيشون التمنيات والآمال فى مراحل أدنى من ذلك، كأن يتمنى أن يعيش مائة سنة، أو خمسين سنة، أو عشر سنوات أو أقل، ويُستفاد من الروايات ان كل هذه تُعد من الآمال الطويلة (وطبعاً إذا كان الهدف من ذلك هو نيل المتع

المادية وتحصيل الامكانات الدنيوية فحسب لا الأبعاد المعنوية والإلهية والتحرّك في خطّ تقدّم البشرية وخدمة الناس). ومن جهة اخرى فإنّ الآمال والتمنيات لها أنواع مختلفة، فأحياناً يكون الهدف منها هو الجهة المادية، واخرى المقام، وثالثة الشهوات، ورابعة جميع ذلك. وجميع هذه الأقسام للآمال والتمنيات الطويلة والعريضة مذمومة في الدائرة الأخلاقية رغم أن بعضها أفتح من البعض الآخر.

### الآمال والتمنيات الإيجابية والبناءة:

وآخر ما يمكن أن يُقال في بحث طول الأمل هو أنّ الآمال والتمنيات ليست بأجمعها الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٧٩ سلبية وعلامة انحطاط الشخصية والسقوط الأخلاقي، لأن هذه الآمال والتمنيات إذا كانت متجهة نحو القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية الرفيعة، أو تصب في دائرة الخدمة الإجتماعية وتحرّك في خطّ تكامل المجتمع وتطوره الحضاري في مراتب الكمال وتقود الإنسان إلى السعي وبذل الجهد أكثر في هذه المسائل، فلا شكّ في أنّ مثل هذه الآمال والتمنيات حتّى لو كانت طويلة وعريضة فإنّها ليست فقط غير مذمومة بل من علامات الكمال الإنساني للفرد. وأساساً كما تقدّم في بداية البحث أنّ الأمل بالمستقبل يمثل القوّة المحركة للإنسان لبذل الجهد والسعي في حركة الحياة الفردية والاجتماعية فإذا انطفأ نور الأمل والرجاء في قلب الإنسان فإنه يصبح كالدمية بلا روح ويتلاشى عنه عنصر النشاط والحركة ويتحول الإنسان إلى كائن جاف وبارد ومن دون هدف معيّن. وفي الواقع فإنّ الآمال على قسمين: أحدها (الآمال الكاذبة) والتي هي كالسراب في صحراء الحياة حيث تدعو العطاشى إليها وتجزم نحوها دون أن ينالون شيئاً بل يزدادون عطشاً إلى أن تهلكهم. والآخر (الآمال الصادقة) والإيجابية والبناءة والتي هي كالماء البدي يسقى كلّ حي ويقوّى في الإنسان روح الحياة والسعي والنشاط، وكلّما ازداد نشاطاً وحركة ازدادت معنويته وصعد في معراج الكمال. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «لَمَالٌ وَابْتُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَابْقِيَاتُ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» (١). وقد اشارت هذه الآية إلى كلا القسمين من الآمال: الإيجابية والسلبية. وهناك اشارات دقيقة في الروايات الإسلامية إلى الآمال الإيجابية والبناءة ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ لَيَقُولُ يَا رَبِّ ارزُقْنِي حَتَّى أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهُ الْخَيْرِ، فَأَذَا عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ بَيْتِهِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٨٠ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَمَوْعِمَلُهُ، أَنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ» (١). وأساساً فإنّ عزم الإنسان وهمته بمقدار آماله الإيجابية، فكلّما اتسعت دائرة هذه الآمال فإنّ عزمه وهمته ستزداد أيضاً، واللطف انه يُستفاد من الروايات الإسلامية جيداً أنّ الله تعالى يُعطي الثواب للأشخاص المؤمنين بمقدار ما لديهم من الأمل والرجاء، لأن ذلك من علامات قابلية الروح والجسم لأداء الأعمال الصالحة أكثر، وحتّى انه يُستفاد من الروايات أنّ الإنسان إذا كان يرجو ويأمل أملاً جميلاً وإيجابياً لغرض تحصيل رضا الله تعالى فإنه لا يرحل من هذه الدنيا إلّا ويوفّق لنيل هذا الأمل وتحقيقه كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ تَمَنَّى شَيْئًا وَهُوَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ رِضًا، لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُعْطَاهُ» (٢). وطبعاً يمكن أن تكون هناك بعض الموارد التي تستوجب المصلحة أن لا يصل الإنسان إلى ذلك الأمل ولا يناله، لأنّه إذا حصل عليه فسوف تترتب على ذلك بعض الآثار السلبية من قبيل الغرور والغفلة والعشق للدنيا وأمثال ذلك ولذلك فإنّ الله تعالى بالطفاه الخفية لا- يوفقه للوصول إلى هذه الآمال والتمنيات. ونختم هذا البحث بالإشارة إلى نكته اخرى وهي أنّ التمنيات الإيجابية تدعو الإنسان إلى بناء شخصيته وتتسبب في تكامله المعنوي والروحي، لأنّه يعلم أنّ الشخصيات الكبيرة لن تبلغ هذا المبلغ من الكمال إلّا من خلال تهيئه أسباب الكمال هذا وكما يقول الشاعر: اعْلَلُّ النَّفْسَ بِالْآمَالِ ادْرُكُهَا مَا اضْيَقَّ الْعَيْشَ لَوْ لَأَفْسَحَهُ الْأَمَلِ

### التعصّب والعناد



لاشك أن أساس العبودية والطاعة لله تعالى يكمن في عنصر التسليم والتواضع والخضوع مقابل الحق، وعلى العكس من ذلك فإن كل أشكال (التعصب واللجاجه) تورث الإنسان البعد عن الحق والحرمان من السعادة. (التعصب) بمعنى الإرتباط غير المنطقي بشيء معين إلى درجة أن الإنسان يضحى بالحق من أجل ذلك، أما (العناد) فيعني الإصرار على شيء معين بحيث يسحق تعليمات العقل والمنطق تحت قدمه من أجل ذلك، والثمره لهاتين الشجرتين الخبيثتين هو (التقليد الأعمى) الذي يُعد من أقوى الموانع والسدود أمام تكامل الإنسان وحركته في خط المعنويات والإيمان والكمال الأخلاقي. عندما نراجع سيرة الأنبياء العظام وأسباب انحراف الأقسام السالفه عن سلوك طريق الحق والدعوة الإلهية يتضح لنا جيداً أن هذه الامور الثلاثة (التعصب والعناد والتقليد الأعمى لها دور أساس في عملية الانحراف هذه، وفي القرآن الكريم اشارات كثيرة إلى هذه المسأله بالذات حيث ينبغي دراستها والتدبر فيها: ونبدأ من قوم نوح عليه السلام حيث يقول القرآن الكريم: الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٢ ١- «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» (١). ٢- «وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» (٢). ثم يورد القرآن الكريم قصه هود ويقول: ٣- «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْزِدَ اللَّهَ وَوَحِيدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٣). ثم تصل النبوه إلى قصه إبراهيم عليه السلام حيث يقول القرآن الكريم: ٤- «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ \* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» (٤). ٥- «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ \* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ \* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» (٥). ثم تصل النبوه إلى قوم موسى وفرعون فيقول: ٦- «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» (٦). ثم يصل إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث نرى نفس الأعمال والسلوكيات تصدر من أعدائه حيث يقول عنهم القرآن الكريم: ٧- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُو كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٣ ٨- «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ آلِ إِهْلِيلِيَّةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (٨). ٩- وكذلك يقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ \* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» (٩). وأحياناً يذكر تعصب الأقسام السالفه بعضها ضد البعض الآخر ويقول: ١٠- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (١٠). وفي مكان آخر يستعرض مسأله التقليد الأعمى والتعصب واللجاجه بعنوانها برنامج عام لجميع الأقسام الذين يتحركون في خط الضلاله والباطل ويقول: ١١- «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (١١). ١٢- «وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ» (١٢).

### تفسير واستنتاج:

### المنهج العام للأقسام المنحرفين

كما تقدم فإن هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث، (أى التعصب والعناد والتقليد الأعمى تُعد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٤ منهجاً عاماً في سلوك جميع الأقسام الذين يتحركون في خط الانحراف والضلال والزيغ، فهؤلاء وبسبب تعصبهم الشديد للأفكار الخرافية والتقاليد الزائفة، وعنادهم وإصرارهم على اعتناقها وعدم التخلي عنها، وبالتالي اتباعهم لآبائهم وأسلافهم إبتاعاً أعمى وبذلك انتقلت الخرافات والعقائد الزائفة جيلاً بعد جيل حيث ضاعت دعوة رجال الحق والأنبياء الإلهيين الذين جاءوا لهدايتهم في زحمة النعرات الجاهلية لهؤلاء الأقسام المنحرفين. ونبدأ قبل كل شيء بقصه نوح مع قومه لئلا نرى أن هؤلاء الذين كانوا يعبدون الأوثان كانوا إلى درجة من التعصب والعناد في مقابل دعوة نبي عظيم من اولى العزم حتى أنهم كانوا يستوحشون من سماع صوته ودعوته إلى الله كما

تحدثت «الآية الأولى من الآيات مورد البحث على لسان نوح فتقول: «وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» (١). أجل فإن تعصّبهم وعنادهم كان من الشدة والقوة إلى درجة أنهم لن يسمحوا لآذانهم أن تسمع صوت نوح الحامل للنداء الإلهي، وكذلك لم يسمحوا لعيونهم أن ترى وجهه وسيماءه، وبهذه الطريقة العجيبة كانوا يتهربون من الحقيقة، فما أخطر هذه الحالة التي يعيشها الإنسان الجاهل والمتعصب!! وتأتي «الآية الثانية» لتكشف عن بُعد آخر من هذه الرذائل الأخلاقية المتجذرة في قوم نوح وتقول: «وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» (٢). أما لماذا لم يكونوا على استعداد لترك هذه الأصنام التي صنعوها بأيديهم، بل كانوا يرون أنها حاكمة على مصيرهم ومصير العالم؟ لا دليل لذلك سوى التعصب والتقليد الأعمى للتقاليد الزائفة والعقائد البالية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٥ وفي «الآية الثالثة» يتحدث القرآن الكريم عن قوم عاد وجدالهم مع نبيهم هود ويقول: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَخَدَعَنَا مَا كَانَ يُعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١). فهؤلاء كانوا إلى درجة من العناد والجهل والتعصب بحيث أنهم لم يطبقوا دعوة هذا النبي إلى التوحيد الخالص واعترضوا عليه في دعوته لترك ما كانوا يعبدونه من الأوثان حتى أنهم كانوا مستعدين لاستقبال امواج البلاء بدلًا من التنازل عن عقائدهم المنحرفة. وعلى هذا الأساس وبسبب التعصب والاصرار والتقليد الأعمى فإن التوحيد الخالص الذي هو روح عالم الوجود كان في نظرهم أمراً موحشاً وغريباً، وبالعكس فإن عبادة الأوثان التي لا عقل لها ولا شعور كان أمراً معتبراً ومعقولاً لديهم، بل حتى أنهم سلكوا على خلاف مقتضى قانون دفع الضرر المحتمل الذي يحكم به العقل حيث لم يهتموا أدنى اهتمام باحتمال نزول العذاب الإلهي عليهم وكانوا يصرون على نبيهم أن يدعو ربه بتعجيل نزول العذاب عليهم، وهذه الحماسة من هؤلاء ليست سوى حصيلة للتعصب والعناد. أجل فهؤلاء ولأجل الفرار من الحق والاستمرار على سلوكهم الجاهلي في تقليدهم الأعمى للآباء كانوا يسرعون نحو هلاكهم والعقاب الإلهي عليهم وبالتالي تحقق ما كانوا يطلبونه من نبيهم واحترقوا بأجمعهم في عذاب الله، وهذه هي نتيجة العناد والتعصب الجاف والتقليد الخاطيء. وتعرض «الآية الرابعة» إلى إحدى الإفرازات المشؤومة لهذه الرذائل الأخلاقية على الإنسان، وتحدث عن (نمرود) وقومه وتقول عن النبي إبراهيم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» (٢). ولكنه لم يسمع جواباً منهم على كلامه إلا أنهم قالوا: «قَالُوا وَخَدَعْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٦ وعندما قال لهم إبراهيم بصراحة حاسمة: إنكم أنتم وآبائكم في ضلال مبين، لم يستيقظوا من غفلتهم، فلم يكن من إبراهيم إلا أن بين لهم تفاهة هذه التماثيل والأصنام من موقع العمل والممارسة، فحطم هذه الأصنام لكي يثوبوا إلى عقولهم، ولكنهم بدلًا من الانتباه من سكرتهم وجهالتهم وبدلًا من أن يمزقوا حجب الجهل والتعصب واللجاجة فقد هددوا إبراهيم بالحرق بالنار، وألبسوا تهديدتهم لباس الفعل وترجموه على أرض الواقع، وقذفوا بإبراهيم وسطاً امواج النيران الملتهبة، وعندما رأوا أن هذه النار تحوّلت إلى نعيم وجنة وكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وشاهدوا أكبر معجزة إلهية بأم أعينهم استمروا مع ذلك في سلوكهم الأحق بتأثير قيود الجهل والتعصب والاصرار، وادّعوا أن ذلك كان من قبيل السحر. كل ذلك يدل على أن هذه الرذائل الأخلاقية إلى أية درجة هي خطيرة على الإنسان ومانعة من التحزّر في الفكر والوصول إلى الحق، وأن الأشخاص الذين يقعون أسرى في براثن هذه الرذائل فإنهم يعيشون الذلّة والحقارة إلى غايتها وبذلك يحطمون عزّتهم الإنسانية ويهبطون من مقام الإنسانية الشامخ ويقبلون بكل ذلك بدلًا من التسليم والإذعان إلى الحق. وتشير «الآية الخامسة» أيضاً إلى عبادة الأوثان لدى قوم (نمرود) عندما واجههم إبراهيم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على سخافة هذه العقيدة من خلال الحوار العقلي والمنطقي حيث تقول الآية: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ\* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ» (١). ولكن هؤلاء لم يكن لديهم أيّ جواب منطقي في مقابل هذه التساؤلات الحاسمة إلا أنهم لاذوا بكهف التقليد الأعمى كما تقول الآية: «قَالُوا بَلْ وَخَدَعْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٧ في حين أن الإنسان إذا أراد أن يسلك في خطّ التقليد فعلى الأقل يجب أن يقلد ويتبع العالم والخير بالوقائع ليشير عليه ما ينفعه في هذا السبيل لا أن يقلد الجاهل والأحمق، ولكن حجاب التعصب واللجاجة كان سميكا إلى درجة انه لن يسمح لأقل شعاع من نور شمس الهداية والمنطق والدليل

العقل في النفوذ إلى أعماقهم ووجدانهم ليضئ باطنهم بنور الحق. «الآية السادسة» تتحدث عن لجاجة الفراعنة وعنادهم في مقابل المعجزات الواضحة والآيات البينة لموسى حيث فضّلوا البقاء على عقائدهم الوثنية التي ورثوها من أسلافهم بدافع من اللجاجة والإصرار والعناد حيث تقول الآية: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» (١). هؤلاء لم يسألوا من أنفسهم عن دين موسى هل هو حق أم باطل، وماذا يمتاز على دين الأسلاف؟ بل كان كلامهم يدور فقط في اننا يجب أن نحفظ دين الآباء والأجداد سواءً كان حقاً أم باطلاً، فالقيمة الواقعية لنا تكمن في هذا المنهج فقط، ثم قالوا مع كثير من سوء الظن أن ما جاء به موسى من الدين الإلهي هو في الواقع مقدّمه لتحصيل مقاصده السياسية وبسط سيطرته وحكومته على الناس، فلا- إله في البين ولا- الوحي الإلهي، وهكذا كانوا يتحركون من موقع سوء الظن هذا وبسبب ذلك التعصب والعناد في طريق الابتعاد عن الحق والاعتذار بتبريرات واهية في سبيل تحكيم موقعتهم مقابل دعوة موسى ولعلهم كانوا يخافون من أنه إذا تجلّى نور الهداية الإلهية لشعب مصر عن طريق شريعته موسى فإنهم سيفقدون بذلك دينهم الخرافي الذي ورثوه من الآباء وكذلك يفقدون حكومتهم المبنية على هذا الأساس، ولهذا فإنهم تصدّوا لموسى ودعوته بكل ما اوتوا من قوة وتحركوا من موقع تشجيع الناس وتعميق حالة التعصب والعناد فيهم، وبما أن الملام من الفراعنة كانوا يريدون كل شيء في سبيل تعزيز حكومتهم وسيطرتهم على الناس فتصوّروا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٨٨ أن موسى وهارون كذلك يريدون الدين كوسيلة واداة للتوصل إلى الحكومة والسيطرة. وهذا المرض الأخلاقي يستمر مع البشر على طول التاريخ إلى أن نصل إلى زمن الإسلام وعصر رسول الله صلى الله عليه وآله. وفي «الآية السابعة» نرى أيضاً أن العامل الأساس في انحراف المشركين العرب هو التقليد الأعمى والتعصب لتراث الآباء والأجداد والذي يوصد أبواب المعرفة من كل جانب على أصحاب هذه الصفة الرذيلة فتقول الآية: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا...» (١). ولكن القرآن الكريم يجيبهم على هذا التصور الباطل بجواب حاسم وقاطع ويقول: «... أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (٢). ويتضح من سياق هذه الآية أن هؤلاء المشركين لم يُنكروا على النبي صلى الله عليه وآله دعوته السماوية وأنه يتحدث من قبل الله تعالى (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)، ولكنهم كانوا غارقين في مستنقع التعصب والعناد والجهل إلى درجة أنهم يفضلون دينهم الذي ورثوه عن الآباء والأجداد على دين الله وهم يعلمون بأن أسلافهم كانوا يعيشون الجهل والضلالة. وبهذا نجد أن الجهل والتعصب يتسبب في أن الإنسان يترك بسهولة (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) ويدير له ظهره ويتجه نحو الباطل رغم انه يميز بين الحق والباطل من موقع الوضوح في الرؤية. وتستعرض «الآية الثامنة» قصة الحديدية حيث يذكر الله تعالى المسلمين بما جرى من حوادث مهمة وأن الكفار رغم رؤيتهم لعلائم حقايقه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبسبب التعصبات الجاهلية لم يتحركوا في خط الإيمان، وكانت هذه الرذيلة الأخلاقية قد منعتهم من سلوك طريق السعادة العظمى فتقول الآية: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ١٨٩ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (١). (الحمية) من مادة (حمى) (على وزن حَمَد) بمعنى الحرارة التي يشعر بها الإنسان في بدنه بسبب العوامل الخارجية أو الأشياء الأخرى، ولهذا السبب اطلقت على الحمى أيضاً وهي حرارة المرض. ثم اطلقت هذه المفردة على الحالات الروحية والأخلاقية من قبيل: الغضب والتكبر والتعصب وأمثال ذلك وأنها بمثابة حالات يعيشها الإنسان في حرارة باطنية كالنار المستعرة في قلب الإنسان. والملفت للنظر أن هذه الآية أضافت الحمية إلى الجاهلية، وذلك للإشارة إلى التعصبات المنطلقة من موقع الجهل وعدم العلم، وفي نفس الوقت اضافت السكينة التي تقع في النقطة المقابلة لها إلى الله تعالى، وهي الحالة من الهدوء والراحة النفسية التي يعيشها الإنسان من موقع الإيمان والوضوح والإنسياف مع الحقيقة. وسيأتي في البحوث اللاحقة الكلام حول التعصب الإيجابي والسلبي وحول إضافة الحمية إلى الجاهلية. «الآية التاسعة» تشير إلى نكتة أخرى في هذا المجال، وتكشف النقاب عن جانب آخر من التعصب الشديد للعرب في عصر الجاهلية وتقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» (٢). يعني أن التعصب القومي والعرقى لهؤلاء العرب كان إلى درجة من الشدة بحيث إن القرآن مع جميع المعارف السامية

والفصاحة والبلاغة والمضامين العظيمة لو كان قد نزل على غير العرب فإنَّ تعصّبهم العرقي يمنعهم من الإيمان به ويسدل عليهم حجاباً يُبعدهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٩٠ عن إدراك الحقيقة والوصول إلى المقصود. ورغم أن بعض المفسرين قد ذكر لهذه الآية تفسيرات اخرى، ولكن أوضح التفاسير وأنسبها لسياق هذه الآية هو ما ذكر آنفاً. وعلى هذا الأساس ورد في بعض الروايات الإسلامية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن الأشخاص الذين يعيشون التعصّب والعناد هم شركاء لأعراب الجاهلية حيث يقول: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» (١). وحجته من خردل يُضرب بها المثل بالصغر لدى العرب. وتأتي «الآية العاشرة» لتكشف النقاب عن هذه الرذيلة الأخلاقية في أقوام بشرية اخرى وأنَّ كلَّ قوم وطائفة يرون أنفسهم أنهم الأفضل بدافع التعصّب واللجاجة ويتحركوا في تعاملهم مع الآخرين من موقع الإبعاد والنفى ويحسبون أنفسهم أنهم عباد الله المتميزون على سائر الأقوام والشعوب البشرية، وهذا الأمر هو الذي تسبب في نزاعات مستمرة وصراعات دائمة بين الأقوام البشرية حيث تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (٢). ويُستفاد من سياق هذه الآية أن هذا اللون من التعصبات وأشكال الغرور ينبع من الجهل وعدم المعرفة وأنَّ كلَّ فئة من الناس تعيش الجهل وعدم المعرفة سوف يتورطون في هذه الرذيلة الأخلاقية. وعبارة (الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) لها مفهوم واسع وأحد مصاديقها هم المشركون العرب، ولذلك فسرها بعض المفسرين بأنهم قوم نوح، أو ذكروا في تفسيرها أن المراد منها جميع الامم البشرية التي عاشت التعصّب والعناد بسبب الجهل وعدم المعرفة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٩١ «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن أصل كلّي وعام وتبين أنَّ حالة التعصّب والاصرار على طول التاريخ البشرى كان لها الدور المهم في استمرار الأقوام البشرية في سلوكهم في خطّ الكفر ومحاربة التوحيد وتقول: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» (١). وسياق الآية يوحي إلى أنَّ أهم مانع في مقابل الإيمان واتباع الأنبياء الإلهيين هو التعصّب والتقليد الأعمى الناشئ من حالة الجهل التي يعيشها الإنسان. وهنا تتضح الأبعاد الخطيرة لهذه الرذيلة الأخلاقية. ونقرأ في «الآية الثانية عشر» والأخيرة أن الجاهلين وبسبب حالة التعصّب واللجاجة كانوا يتهمون أكبر الأنبياء الإلهيين بالجنون ويجعلون ذلك ذريعة لمخالفتهم للدعوات السماوية وتقول: «وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» (٢). والعجيب أن هؤلاء كانوا غارقين في دوامة الجهل والتعصّب الأعمى إلى درجة أنهم لم يكونوا يدركون أن كلامهم هذا متناقض، فإنَّ كونه (شاعراً) يدلُّ على الذوق السليم والقريحة والتأمل والتفكير والإطلاع الوافي على دقائق الكلام (والملاحظ أن كلمة الشاعر من مادّة الشعور) وهذا ما يتقاطع مع كونه مجنوناً كما هو واضح. وأحياناً يتهمون الأنبياء بالسحر والجنون كلاهما في حين أن السحر يحتاج إلى الإطلاع الواسع على بعض العلوم والمعارف ويستتبع ذكاءً خاصاً، وكلُّ هذا يتقاطع مع الجنون، وهذا يوضح أن كلام هؤلاء المتناقض لم يكن بوحى من العقل والتفكير الهادئ والمنسجم بل بدافع من الجهل والتعصّب والعقده.

### النتيجة النهائية:

وبمرور إجمالى على الآيات الكريمة المذكورة آنفاً والتي هي نموذج من كثير من الآيات القرآنية في هذا المجال تتضح هذه الحقيقة وهي ان أهم موانع المعرفة والوصول إلى الحقيقة هو حالة التقليد الأعمى الناشئ من التعصّب واللجاجة والتحرّك من موقع الرغبات النفسية وبدافع من الأهواء والنوازع الباطنية التي تحبس الإنسان في سجن مظلم من الجهل المطبق. إن الأضرار والخسائر الكثيرة المترتبة على هذه الرذيلة الأخلاقية قد سوّدت صفحات التاريخ البشرى وواجه الأنبياء الإلهيين بسببها مشاكل كثيرة في طريق هداية الناس إلى الله والحقّ وسيفكت بسببها الكثير من الدماء، وهذا يكفي في إدراك شناعة هذه الحالة الذميمة في السلوك الإنساني. ولولم تكن هذه الرذيلة الأخلاقية موجودة في باطن الإنسان فإنَّ تاريخ البشرية سيلبس ثوباً آخر ويسطع بوجه جديد في حركة التكامل الحضارى والتقدّم العلمى ولُفُتحت الأبواب أمام البشرية للصعود إلى مدارج عالية من الكمال المعنوى وبدلاً من أن تتحوّل طاقاته

وامكانياته الكبيرة إلى سيلٍ مخربٍ بسبب الجهل والتعصب فإنَّ من شأنها أن تتحول إلى منظومة واسعة من المعارف الإلهية والسلوكيات الأخلاقية الحميدة والمثل الإنسانية التي تقود الإنسان في كلِّ بُعدٍ من أبعاد حياته الدنيوية إلى العمران والتكامل المادى والمعنوى.

## التعصب والعناد فى الأحاديث الإسلامية:

### إشارة

وقبل أن نستعرض فى بحثنا هذا مفهوم التعصب ودوافعه ونتائجه الوخيمة على حياة الإنسان نرى من اللازم أولاً استعراض الأحاديث الإسلامية فى هذا الباب لأنها تتضمن الكثير من الامور المتعلقة بهذا الموضوع بصورة إجمالية. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٩٣ والأحاديث الشريفة فى هذا الموضوع كثيرة ونشير إلى نماذج منها: ١- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ عَصِيْبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَغْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» (١). وهذا التعبير يشير إلى أن هذه الرذيلة الأخلاقية إلى درجة من الخطورة بحيث إن أدنى درجة منها تتقاطع مع الإيمان الخالص. ٢- وورد فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ السُّتَّةَ بِالسُّتَّةِ، الْعَرَبَ بِالْعَصِيْبِيَّةِ، وَالِدَّهَاقِينَ بِالْكِبْرِ، وَالْأَمْرَاءَ بِالْجَوْرِ، وَالْفُقَهَاءَ بِالْحَسِيْدِ، وَالْتُّجَّارَ بِالْخِيَانَةِ، وَاهْلَ الرِّسَاتِيْقِ بِالْجَهْلِ» (٢). والملفت للنظر أن هذا الحديث الشريف يذكر التعصب على رأس هذه الامور الستة فى حين أنها جميعاً من الذنوب الكبيرة. ٣- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيْبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصِيْبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصِيْبِيَّةٍ» (٣). ٤- وجاء فى الخطبة المعروفة بالقاصعة عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نفى التكبر والتعصب وأن هذه الحالات هى السبب الأساس فى إنحراف إبليس وشقائه وأن الله تعالى عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلماً إبليس فإنه يقول: «اعْتَرَضْتُهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَحَرَّ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِاصِلِهِ. فَعِيدُو اللَّهَ اِمَامَ الْمُتَعَصِّبِيْنَ، وَسَيَلْفُ الْمُسْتَكْبِرِيْنَ، الَّذِي وَضَعَ اَسَاسَ الْعَصِيْبِيَّةِ» (٤). ٥- وفى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَ الْاِيْمَانِ مِنْ عُنُقِهِ» (٥). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٩٤ ونعلم أن التعصب والعناد هما لازم وملزوم، ولهذا السبب أوردناهما تحت عنوان واحد، وأما بالنسبة إلى حالة العناد والاصرار فى السلوك البشرى وآثارها السلبية فلدينا الكثير من الروايات فى هذا الباب، منها: ١- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ، فَإِنَّ اَوَّلَهَا جَهْلٌ وَآخِرُهَا نَدَامَةٌ» (١). ٢- وجاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «اللَّجَاجُ اَكْثَرُ الْأَشْيَاءِ مَضْرُوءَةً فِي الْعَاجِلِ وَالْأَجَلِ» (٢). ٣- وفى حديث آخر عن هذا الإمام أنه قال: «اللَّجَاجُ بَدْرُ الشَّرِّ» (٣). ٤- وجاء فى نهج البلاغة قوله: «اللَّجَاجَةُ تُسَلُّ الرُّؤْيَى» (٤). ٥- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «لَيْسَ لِلْجُوجِ تَدْبِيْرٌ» (٥). ومع ملاحظة هذه الروايات الشريفة يتضح التأثير المخرب لهاتين الرذيلتين الأخلاقيتين (التعصب واللجاجة) فى الحياة الفردية والاجتماعية للناس بحيث إنهما يدفعان الإنسان بعيداً عن الإيمان والإسلام ويجعلانه غريباً عن الأجواء الروحية المنفتحة على الله تعالى ويقودانه إلى الكفر والشرك والإقتداء بالشيطان وترك حبل الإيمان، وسوف يأتى لاحقاً الدوافع الكامنة فى هذه الحالة الأخلاقية.

### ١- مفهوم التعصب ودوافعه

(التعصب) من مادّة (عَصَب) وهى فى الأصل بمعنى الخيوط العصبية والعضلية التى تربط بين مفاصل العظام والعضلات، ثم استعملت هذه الكلمة ليراد بها كل نوع من الارتباط الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٩٥ الشديد الفكرى والعملى والذى يستبطن غالباً معنى ومفهوماً سلبياً رغم وجود بعض العلائق الإيجابية أيضاً فى مفهومها حيث سيأتى تفصيل ذلك فى الأبحاث اللاحقة إن شاء الله.

وبديهى أن التعلقات غير المنطقية بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معينة أو شىء من الأشياء فإنه يقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشىء أو الشخص، وبالتالي سيكون العامل المهم فى بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر. وكلما تحرك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنسانى فإنّ الناس سوف يتعاملون فى ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادىء والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيم على المجتمع الإنسانى ويعيش الإنسان فى حركته الإجتماعية بكل أشكال الطمأنينة والمحبة والاخوة. إن مثل هذا التعصب الذى يتولد مباشرة من حالة اللجاجة والتقليد الأعمى ينبع من الامور التالية: ١- حبّ الذات والتعلق الشديد بالأسلاف إن الإفراط فى حبّ الذات يتسبب فى أن يتعلّق الإنسان بالامور المنسوبة إليه بشدّة ويعتبرها جزءاً من شخصيته وكيانه ومن ذلك الرابطة مع الآباء والأجداد والتقاليد المرسومة فى مجتمعه. إنّ هذا التعلّق الشديد يؤدى إلى نقل الكثير من الخرافات والقبايح إلى الأجيال الاخرى بذريعة حفظ الآداب والسنن والرسوم الإجتماعية وبالتالي فسيفخلق حجاباً يصدّ الإنسان عن أية معرفة جديدة وارتباط بالحقائق والواقعات. إن الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أن أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة فى هذه القبيلة تتحول فى نظر الأشخاص المتعصبين إلى الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٩٦ إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، فى حين أن أفضل أفراد القبيلة الاخرى وأسمى الآداب والسنن فى تلك القبيلة تكون هى الأسوأ والأقبح فى نظر هذا الإنسان. ٢- انخفاض المستوى الثقافى والفكرى وكلما انخفض المستوى الثقافى للناس وعاش أفراد المجتمع فى اهتزاز على مستوى الفكر والثقافة فإنّ التعصبات الجاهلية وأشكال العناد والتقليد الأعمى ستكون حاکمة على هؤلاء الأشخاص، بخلاف إذا ارتفع المستوى الثقافى فى المجتمع وعاش الناس فى علاقاتهم المنطق والعقل والالتزام الفكرى، فإنّ ذلك من شأنه أن ينفى التعصّب واللجاجة وتستبد حالة التقليد الأعمى بالتحقيق والدراسة والحوار الفكرى النافع للوصول إلى الحقيقة. ٣- ضعف الشخصية والعامل الآخر للتعصّب والتقليد الأعمى هو أن الإنسان يعيش أحياناً ضعف الشخصية بالنسبة إلى بعض الشخصيات الذين يوحون إليه بالقداسة فى أفعالهم وأقوالهم وبذلك يصعدون عن مستوى دائرة النقد حتّى لو كان النقد علمياً وأخلاقياً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يتبعهم بعض العوام بعيون مُغمضة وأذان صمّاء ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الدفاع عن هؤلاء الذين يرتدون لباس القداسة الزائفة بدون أن يتفكر الإنسان فى مضمون كلامهم وبياطن أفعالهم وسلوكياتهم وآثارها على المدى البعيد. ٤- الإنزواء الإجتماعى والفكرى: والعامل الآخر من عوامل التعصّب هو أن الإنسان عندما ينفرد بأفكاره أو بمحيطة الإجتماعى الخاصّ ويفصل عن الجماعات الاخرى والأفكار المخالفة والمتنوعة ويعيش الجهل بالنسبة إلى سائر التيارات الفكرية والثقافية فى المجتمعات البشرية الاخرى، فإنّ ذلك من شأنه أن يُفعل حالة التعصّب والالتزام الشديد بما لديه من أفكار وعقائد، فى حين انه لو انفتح على الآخرين وتلاقح فكره مع أفكارهم وقارن بين هذه الأفكار من موضع استكشاف نقاط الضعف والقوّة واستجلاء العناصر الإيجابية والسلبية الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ١٩٧ فى كلّ منها، فإنّ ذلك يقوده إلى انتخاب الأفضل منها من موقع الوضوح والإختيار الحرّ.

## ٢- الآثار السلبية للتعصّب والعناد

إن الآثار السلبية والنتائج المخربة للتعصّب والاصرار فى حركة حياة الإنسان المتعصّب تتجلّى فى الكثير من الموارد: ١- إن التعصّب يعنى الإرتباط غير المنطقى بشخص معين أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة فى الامور وبالتالي يُحرمه من العثور على طريق للحل والنجاء. ولهذا رأينا فى الأحاديث السابقة أنّ اللجوج لا يتمتع بمديرية سليمة، ورأينا أيضاً فى حالات الشيطان انه لم يتمكن من إدراك البديهيات ووضح الحقائق بسبب تعصبه وعناده، ولذلك قطع عن رقبته طوق العبودية لله تعالى فطرد من ساحة القرب الإلهى إلى الأبد. ٢- إن العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة التى من شأنها تمزيق العلاقات الإجتماعية فى المجتمع وتسلب

منه روح الوحدة والالفة وتنتشر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البناء التي يجب أن تُصرف في سبيل إعمار المجتمع في حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتى فيما بينها، كما نقرأ هذا المعنى في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اللجاج يُنتج الحُروبَ وَيُوغِرُ القلوبَ» (١). ٣- إن التعصّب والعناد يتسببان في ابتعاد الأحنبة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد. ٤- إن التعصّب والعناد من الأسباب والعوامل المهمة للكفر، وانطلاقاً من هذه الحالة نجد أن أكثر الشعوب والامم السالفة وبسبب التعصّب والعناد كانت تسير في خطّ الباطل والكفر برسالات السماء والإمتناع عن قبول الحقّ بدافع من المحافظة على السنن البالية والتقاليد الزائفة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٩٨ (وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآيات السابقة). ٥- إنهما يورثان صاحبهما الألم والتعب والوقوع في زحمة المشاكل الكثيرة، لأنهما يتسببان بالإنسان أن يعيش مدّة طويلة ولسنوات عديدة أحياناً في حالة من الحيرة والضلال، وعندما يصل إلى طريق مسدود فإنه عند ذاك يشعر بالتعب واليأس من هذا الطريق الموحش. ومن هذا الموقع نقرأ في الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «تَمَرَةُ اللِّجَاجِ العُطْبُ» (١). ولهذا السبب فإننا نجد أن التعصّب غالباً ما يورث الندم كما تقدّمت الإشارة إليه في الأحاديث السابقة. ٦- إنهما يُفقدان الشخص توازنه في اختيار الامور ويجرانه إلى مواقع لن يرغب الولوج فيها، ولهذا ورد في بعض الأحاديث الإسلامية عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لَا مَرْكَبَ اجْمَعَ مِنَ اللِّجَاجِ» (٢). ٧- وأخيراً فإنّ التعصّب واللجاجه يحولان حياة الإنسان في دنياه وآخريته إلى دمار وخراب، لأنهما يورثانه في حياته الدنيا العداوة والفرقة والاختفاء الكثيرة وفقدان الراحة والهدوء والإستقرار، وفي الآخرة يتسببان في ابتعاده عن رحمة الله، وهذا هو ما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «اللِّجَاجُ أَكْثَرُ الأَشْيَاءِ مَضَرَّةً فِي العَاجِلِ وَالأَجَلِ» ومرة اخرى نرى من الضروري الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث (التعصّب واللجاجه والتقليد الأعمى رغم أنّها تختلف في دائرة المفهوم والمحتوى إلّا أنّها تتحد في دائرة المصداق وترتبط برابطة وثيقة، وفي الإصطلاح: بينهما علاقة اللازم والملزوم، ولذلك أوردناها جميعاً في بحث واحد. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ١٩٩ أمّا الدوافع على التعصّب واللجاجه فواضحة أيضاً، لأن أشكال التعصّب الأعمى والمخزّب ينطلق قبل كلّ شيء من الجهل بالامور، ولهذا السبب فإنّ كلّ طائفة تعيش الجهل أكثر فإنها تعيش حالة التعصّب والتقليد الأعمى أكثر إلى درجة أنّ الإنسان على هذا المستوى غير مستعد لإيجاد التحول والتغيير نحو الأفضل في وضعه وحالته النفسية والاجتماعية، ولذلك كانت العصبية دائماً سبباً للتخلف الحضارى والاجتماعى. وقد قرأنا في الأخبار السابقة أيضاً ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إياك واللجاجه، فإنّ أولها جهل وآخرها ندامه». والعامل الآخر الذى يدفع الإنسان باتجاه التعصّب واللجاج هو الأنانية وحبّ الذات، لأن الشخص الأنانى يحبّ كلّما لديه من العلائق والامور التي تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الاصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائد ويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أى تحرك فكري واستقلال عقلى. وأحياناً يكون التقاعس وحبّ الراحة من الدوافع الاخرى التي تقود الإنسان للتعصّب واللجاجه، لأن الانتقال من حالة إلى اخرى يحتاج في كثير من الأحيان إلى بذل الجهد والسعى ومواجهة الموانع والتحديات التي يفرضها الواقع، وأنّى للكسول والمتعاس أن يتحرك في هذا السبيل، ولهذا السبب نجده يتمسك دائماً بما لديه من الأفكار والعقائد والأوهام المختلفة.

### ٣- التعصّب الإيجابى والسلبى

هناك ثلاث مفاهيم متقاربة في المعنى وهي: التعصّب، الحميّة، التقليد، وكلّ واحدٍ من هذه الامور تنقسم إلى: إيجابى وسلبى. أو: ممدوح ومذموم، الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٠ رغم أنّ مفردة (التعصّب) ترد غالباً في المعنى المذموم والسلبى. وبشكل عام فإنّ الإنسان إذا ارتبط بالامور غير المنطقية وتحرك في سلوكه من موقع قبولها والدفاع عنها فهو من التعصّب المذموم، وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم بعنوان (العصبية الجاهلية) ولكن إذا خضعت علاقة الإنسان مع هذه الامور للمنطق والعقل وكانت النتائج

المرتبة عليها مفيدة وبناءة وتعصب لها الإنسان فهو من التعصب الممدوح والإيجابي. ونقرأ في نهج البلاغة في الخطبة (القاصعة) لأمر المؤمنين عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول: «فَأَطِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نَيْرَانِ الْعَصِيَّةِ، وَاحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تَلَمَّكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَاتِهِ» (١). فنجد في هذه الخطبة انها تقوم على أساس من ذم الكبر والغرور والتعصب واللجاجه، ويقول الإمام في مكان آخر أيضاً: «فَإِنْ كَانَ لَا يَدَّ مِنْ الْعَصِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَّاءُ وَالْتَجَدَّاءُ مِنْ يُبُوتَاتِ الْعَرَبِ ... فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلرَّبِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبِيرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ» (٢). فعليه فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشير في هذه الخطبة إلى (التعصب) بكلا قسميه، وعندما سأل الإمام زين العابدين عليه السلام عن معنى العصية ذكر كلا القسمين أيضاً وقال: «الْعَصِيَّةُ الَّتِي يَأْتُمُّ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا أَنْ يَرَى الرَّجُلُ شَرَارَ قَوْمِهِ خَيْرًا مِنْ خِيَارِ قَوْمٍ آخَرِينَ! وَلَيْسَ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَكِنْ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ» (٣). وطبقاً لهذا الحديث فإن العصية التي يعيشها أفراد القوم أو القبيلة مادامت تسير في خط الخير والصلاح فهي إيجابية وممدوحة، لأن هذه العصية والارتباط الشديد لا يدفع الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠١ الإنسان إلى ارتكاب الممنوعات ولا يقوده نحو الخطيئات بل يعمق فيه أواصر المحيية ويؤكد وشائج المودة بين الأفراد، أما التعصب المذموم فهو أن يسحق العدالة والحق تحت قدمه من أجل قومه ويضحى بالقيم الأخلاقية والشرعية للحفاظ على القيم الخرافية والتقاليد الزائفة. وورد في حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً قوله «لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ حَمِيَّةٌ غَيْرُ حَمِيَّةِ حَمْزَةَ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَذَلِكَ حِينَ اسْلَمَ غَضَبًا لِلنَّبِيِّ فِي حَدِيثِ السَّلَا الَّذِي أَلْفَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١). وبدهي أن تعصب حمزة في الدفاع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مقابل المشركين الذين يعيشون العصية الحمقاء والجاهلية الزائفة لم يكن تعصباً خارجاً عن حدود العقل والمنطق والعدالة، ولذلك فهو من التعصب الممدوح، ولو أن حمزة قد سلك في تعصبه هذا في خط الباطل وارتكب ما يخالف الحق والعدالة فإن ذلك يقع في دائرة التعصب المذموم والسلبى أيضاً.

#### ٤- التقليد البناء والأعمى

إن (التقليد) ينقسم كالتعصب إلى قسمين: إيجابي وسلبى. وبعبارة أدق، يمكن تقسيم التقليد إلى أربعة أنحاء وأشكال، ثلاثة منها سلبية وواحد ايجابي. الأول: (تقليد الجاهل للجاهل) وهو أن يتحرك بعض الجهلاء والسذج من الناس في أفكارهم وسلوكياتهم بدافع من تقليد طائفة أخرى من الجهال ويستوحون منهم اعتقاداتهم وسننهم وتقاليدهم، فمثل هذا التقليد هو الذي ورد الذم والتوبيخ عليه بشدة في القرآن الكريم حيث يُعد من أسباب الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٢ التعصب واللجاجه وأحياناً من نتائجها المترتبة عليهما، وهذا هو العامل المهم في انتقال الخرافات من قوم إلى قوم آخرين، وهذا هو ما تصدى له الأنبياء والدعاة إلى الحق من موقع إبطاله ودحوه. الثاني: (تقليد العالم للجاهل) وهو أشنع أنواع التقليد، وهو أن يتحرك الإنسان بالرغم من علمه ومعرفته في السير في خط الباطل ويتبع الجهلاء في ذلك بسبب ما علق على قلبه من حالات التعصب الذميمة. إن مسألة (الاستعوا) واستسلام العلماء أمام أفكار الجهال والعامية من الناس هو نوع من تقليد العالم للجاهل. الثالث: (تقليد العالم للعالم) ويكون بصورة أن يتقاعس العالم عن البحث والتحقيق في أمر من الامور ويستسلم للنتائج التي توصل إليها عالم آخر من دون دراسة ونظر فاحص، ومن الواضح أن هذا النوع من التقليد مذموم أيضاً رغم انه ليس بشناعة القسم الأول والثاني، لأنه ينبغى على العلماء وأهل المعرفة في كل قوم وامية أن يبذلوا ما لديهم من الجهود في دائرة التحقيق والبحث العلمي في كل مسألة لاستخلاص النتائج الذي يفرضها البحث العلمي، ومع توفر الاستعداد والقابلية للتحقيق والبحث فإن الاستسلام الأعمى إلى الآخرين ليس من شأن العالم، ولهذا ورد في الفقه الإسلامي أن التقليد حرام على المجتهد. وقد ورد في التعبيرات المعروفة في اجازات الاجتهاد هذه العبارة (يُحرم عليه التقليد)، إلا أن يكونا متخصصين في مجال التخصص العلمي (كالطبيب المتخصص في أمراض القلب مثلاً يراجع الطبيب المتخصص بأمراض العين في هذا المورد بالذات)



أو يرجع المتخصّص لاستاذة، فهو في الواقع من قبيل القسم الرابع الذي ستأتى الإشارة إليه. الرابع: (تقليد الجاهل للعالم) بما يتعلق بعلمه، وبعبارة اخرى: أن يراجع غير المتخصص إلى المتخصص في كل فن، وبعبارة ثالثة أيضاً: إن ما لا يحيط به الإنسان علماً عليه أن يرجع في ذلك لأهل العلم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٣ والخبرة ليقبّس منهم (كما في رجوع المرضى إلى الأطباء في الأمراض المختلفة) وهذه المسألة تُعد من الاسس والدعائم للحياة الفردية والاجتماعية للإنسان. وتوضيح ذلك: أن العلوم والفنون والمعارف البشرية إلى درجة من السعة والكثرة بحيث إن كل واحد من البشر لا يمكنه الإحاطة بها جميعاً، وقد كان هذا الحال من قديم الأيام وقد تجلّى هذا المعنى أكثر في عصرنا الحاضر حيث تشعبت العلوم والمعارف وتطوّرت بشكل كبير جداً بحيث إن كل إنسان لا يستطيع حتى في الإحاطة بجميع فروع علم واحد من العلوم كالطب مثلاً أو الهندسة فكيف الحال بالعلوم الاخرى ومع هذا الحال فلا مفر أمام الناس إلاّ بأن يرجع الجاهل منهم إلى العالم، وهذا أصل مسلم في حركة الحياة وقد بنيت عليه سيرة العقلاء في جميع العالم، والسير بخلاف هذا المنهج يؤدي قطعاً إلى تخلخل مفاصل المجتمع واهتزاز أركانه وبالتالي انحطاط الحضارى والثقافى. وهكذا الحال في المسائل المعنوية والأخلاقية والعلوم الدينية، فلا يمكن أن يتوقع من جميع الناس أن يكونوا أصحاب فكر واجتهاد في جميع العلوم والمعارف الإسلامية، فبعض هذه الفروع العلمية إلى درجة من السعة بحيث تحتاج لدراستها والإحاطة بها إلى خمسين سنة من البحث والتحقيق (من قبيل علم الفقه). فمن الطبيعى أن يرجع الأشخاص المنشغلين عن هذه العلوم والجاهلين بها إلى العالم والخبير بها، ولكن بالنسبة إلى اصول الدين والعقائد المذهبية التي تشكّل دعائم المنظومة في الفكر الدينى فإنّ على كل إنسان أن يحيط بها بمقدار ما يمكنه ذلك منها ولا يقبل من العقائد إلاّ ما كان مستنداً إلى دليل وبرهان، فالتقليد في مثل هذه الامور غير جائز، بل لابدّ من التحقيق والفحص وعدم قبول المعتقدات الدينية الأساسية إلاّ عن دليل وبرهان. وعلى أيّ حال فإنّ مثل هذا التقليد لا يُعد من القسم المذموم ولا يدخل في دائرة التقليد السلبي بل هو مصداق قوله تعالى: «... فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لِتَعْلَمُونَ» (١). وليس من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٤ قبيل قوله تعالى «... إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (١). وهذا لا يرتبط بمسألة التعصّب المذموم الذي هو الدافع للإنسان إلى سلوك طريق اللجاجة والتقليد الأعمى

## ٥- طرق العلاج

إن الطريق لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية هو كسائر علاج الرذائل الأخلاقية الاخرى فإنه يتطلب في المرتبة الاولى الإنلثفات إلى الدوافع والجدور والسعى لإزالتها من واقع الإنسان وباطنه، ومع العلم بأن جذور التعصّب هو ما تقدّم من الانانية والافراط في حبّ الذات، انخفاض المستوى الثقافى، ضعف الشخصية، العزلة الاجتماعية والفكرية، وأمثال ذلك. ولا بدّ لإزالة هذه الصفة الرذيلة وتطهير النفس منها من الصعود بالمستوى العلمى والثقافى للأفراد والسعى للتعرف على الأقوام والشعوب الاخرى والاطلاع على أفكارهم وعقائدهم، وكذلك تعديل حبّ الذات في شخصية الإنسان وقلع الميول والاتجاهات المضرة في نفسه والتي تورثه التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى وكذلك يجب الإنلثفات إلى الآثار السلبية لهذه الحالات الذميمة من أجل إصلاح النفس وتهذيبها وتطهير القلب من هذه الشوائب والأدران المحيطة بها. وعندما يدرك الإنسان أنّ التعصّب واللجاجة تسدل على فكره وعقله حجاباً وستاراً مضمراً يمنع من إدراك الحقائق وفهم الواقعيات وكذلك من شأنه أن يمزق العلائق الاجتماعية بين أفراد المجتمع ويذر بذور النفاق والاختلاف والفرقة بينهم، ويُفضى إلى الشقاء والتعاسة ويورث الإنسان التعب والدرك وحتى انه قد يؤدي به إلى الإنزلاق في دوامة من المشاكل لم يكن يتوقعها أبداً. فمطالعة هذه الامور من شأنها أن تقلّل من شدّة العصبية والعداوت وتساعد الإنسان في النزول عن مركب الغرور والتعصّب والتقليد الأعمى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٥ وأن يسلك بالتالى في خطّ السعادة والإنصاف ويسلك المنهج العقلانى في التفكير والمعتقد. وأحد الامور الاخرى في طريق علاج هذه الرذائل الأخلاقية هو تغيير شكلها ومحتواها، بمعنى أنّ الإنسان يقوم بعملية استبدال الدوافع السلبية بدوافع اخرى ايجابية. مثلاً: الشخص الذي يعيش التعصّب الشديد بالنسبة إلى الامور غير

المنطقية أو الخرافية، فبدلاً من أن يسعى إلى قتل الدافع لهذا التعصب في نفسه يقوم بتحويله إلى الجهة الإيجابية فيتعصب للأمر الحقة. وهذا هو ما قرأناه في الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور» (١). وإذا كان المفروض على الإنسان أن يتعصب لشيء في علاقاته وتفاعله مع الآخرين فالأفضل أن يكون تعصبه للقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

## ٦- التسليم مقابل الحق

النقطة المقابلة للتعصب واللجاجه والتقليد الأعمى هو التسليم مقابل الحق الذي يُعد من الفضائل المهمة الأخلاقية، أي أن الإنسان يقبل بالحق من أي شخص كان حتى لو رآه أبعد الناس وأصغرهم فيسلم له. وهذه الفضيلة الأخلاقية هي السبب في التقدم العلمي والتطور الحضاري للبشرية وتورث الإنسان الحصانة من الوقوع في الضلالة وسلوك طريق الباطل. ولا يتحلى بهذه الصفة الأخلاقية الحميدة إلا أهل الإيمان والصالحون من الناس والذين يتعدون عن الإفراط في حب الذات والتعلقات القومية الذميمة ويجتنبون الميول الذاتية في دائرة الفضيلة والمعتقد. إن التسليم مقابل الحق هو من علامات الإيمان، وسلامة الفكر والروح، وارتفاع الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٦ المستوى الثقافي لدى الإنسان، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الخصلة الحميدة مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيماً» (١). ويقول في مكان آخر: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» (٢). وطبعاً فإن التسليم (بعنوان فضيلة أخلاقية) يستعمل على معنيين: أحدهما: التسليم مقابل الحق والذي يقع في النقطة المقابلة للتعصب واللجاجه والتقليد الأعمى والآخر: هو التسليم مقابل القضاء والقدر الإلهيين فيعيش الإنسان في حالة الشكر والرضا بما قسم الله ولا يعيش السخط والكفران. وموضع البحث في هذا الفصل هو ما يتعلق بالمعنى الأول، أما المعنى الثاني فسوف يأتي الكلام عنه في بحث (الرضا والتسليم). ١٠ و ١١

## الجبن والشجاعة

### تنويه:

ومن الرذائل الأخلاقية الاخرى في منظومة القيم هي صفة (الجبن) والخوف غير المنطقي والذي يورث الإنسان الذل والمهانة والسقوط ويحط من قدر صاحبه ويتلف طاقاته ما كان منها بالفعل أو بالقوة ويفضي به إلى أن يتسلط عدوه عليه. والنقطة المقابلة لهذه الصفة الذميمة هي (الشجاعة) والشهامة والجرأة والتي تُعد مفتاحاً للنصر والفلاح في حركة الإنسان الاجتماعية وعنصر العزة والعظمة للمجتمع البشري سواءً في ميدان الحرب والجهاد أو في ميدان السياسة والاجتماع وحتى في الميادين العلمية فإن الشجاعة تُعتبر مفتاحاً للورود إلى هذه الميادين، ومن هذا المنطلق نجد أن علماء الأخلاق أطنبوا في ذكر هاتين الصفتين (الجبن والشجاعة) وبيّنوا أسبابها ونتائجها وآثارها على حياة الفرد والمجتمع. وورد في كتب القدماء من علماء الأخلاق أن الشجاعة هي أحد الأركان للفضائل الأربعة، وبالمقابل ذكروا الجبن باعتباره أحد الرذائل الأربع أيضاً. وورد في سيرة الأنبياء العظام واتباعهم الحقيقيين ما يجسد هذه الصفة وأن هؤلاء العظماء كانوا مظهرًا من مظاهر الشجاعة واسطورة للمقاومة والتصدي للباطل وقوى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٨ الانحراف وخير قدوة لجميع الناس في هذا الطريق. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم نستوحي دروساً في هذه الفضيلة الأخلاقية وما يترتب من الآثار السلبية على صفة الجبن أيضاً. ١- نقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ \* قَالُوا وَجِدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ \* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ \* قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى

ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ \* فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ «١». ٢- وبالنسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام نقرأ قوله تعالى: «يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» «٢». ٣- ونقرأ عن طالوت وجنوده الشجعان: «... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَطَافَةٌ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ عَلَبْتَ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «٣». ٤- وبالنسبة إلى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والفتنة الشجاعة من المؤمنين معه وكذلك من يدعى الإيمان نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْرَاقُوا \* ... وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٠٩ لَأَحْزَابٌ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «١». ٥- ونقرأ في مكان آخر قوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسِيِّينَ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» «٢». ٦- وحول جماعة من انصار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ \* ... إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» «٣». ٧- «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «٤».

### تفسير واستنتاج:

### الأنبياء والشجاعة

تحدثت «الطائفة الأولى من الآيات محل البحث عن شجاعة النبي إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد مقابل عبدة الأصنام من قومه الذين كانوا يعيشون التعصب واللجاجة والخشونة، وتشير الآيات إلى هذا النبي العظيم وكيف انه تصدى لأقوى سلطة في تلك الفترة لوحده ومن دون أن يكون له ناصر من قومه، في مقابل كثرة الأعداء الغاضبين والذين كانوا يمثلون خطراً عليه حيث كانوا يتمتعون بدعم الحكومة والسلطة في ذلك الزمان. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٠ وقد عبرت الآيات الكريمة عن ذلك بقولها: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» «١». وفي الواقع فإن الله تعالى قد وهب لإبراهيم مؤهلات كثيرة تمنحه القدرة على تحمل تلك المسؤولية العظيمة والاستفادة من هذه المواهب والقابليات في خطّ تقوية دعائم الإيمان والتوحيد والتصدي للعامل الأساس في شقاء البشرية، أي عبادة الأصنام والأوثان، وكما سيأتي في سياق هذه الآيات الشريفة أن إبراهيم ابتداءً أولاً بدعوة عمه آزر للإيمان بصراحة للهِجَة وتمام القوة وقال له: «مِآ هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاقِفُونَ». وعندما أجابه آزر بالقول: «قَالُوا وَحَيْدَنَا ءَابَاؤَنَا لَهَا عَابِدِينَ». فأجابه إبراهيم عليه السلام: «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». إن آزر لم يكن يصدق لحد الآن أن إبراهيم سوف يتصدي بهذه الصراحة والجديّة لمقاومة هذه الأصنام التي يعبدها الجميع ولذلك سأله: «قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ». ولكن إبراهيم عليه السلام أجابه أنه جاد في كلامه هذا وقال: «قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ». ثم أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» «٢». وهكذا ترجم إبراهيم عليه السلام قوله في ميدان العمل بعد أن استغل الفرصة المناسبة لذلك، فكسّر الأصنام جميعها إلا الصنم الأكبر لعلهم يثوبون إلى رُشدهم أو يرجعون إلى الصنم الأكبر المسبب لهذه الحادثة ليسألوه كما تقول الآية: «فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» «٣». وهناك اختلاف بين المفسرين في مرجع الضمير في قوله (إليه) في ذيل الآية، وقد أورد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١١ المفسرون احتمالات عديدة، فذهب البعض إلى أنه يعود إلى (كبيرهم) أي يرجعون إلى الصنم الكبير ويسألونه عن سبب تحطّم وانهدام هذه الأصنام والسبب في نجاته هو من بينهم، وطبعاً أن هذا الصنم سيعجز عن الجواب، ومن هنا يتضح لهم خواء معتقدتهم. والاحتمال الآخر هو أن الضمير يعود إلى (إبراهيم) يعني أن الوثنيين يرجعون إلى إبراهيم ويسألونه عن الدافع الذي حمله على هذا التصرف، فيوضح لهم الحقائق (وطبعاً في هذه الآية

تكون جملة (إلا كبيراً لهم) عديمة التأثير في مفهوم الآية بخلاف الاحتمال السابق). الاحتمال الثالث: أن يعود الضمير إلى الله تعالى، أي أن مشاهدة ضعف هذه الأصنام وذلتها في مقابل إنسان واحد سيؤدي إلى أن يثوب الوثنيون إلى رشدهم ويتركوا عبادة الأصنام ويتجهوا إلى الله تعالى ويسلكوا خطّ العبادة والتوحيد. (وهذا التفسير أيضاً يرد عليه الإشكال السابق). ولكن الأنسب من الجميع لسياق الآيات هو التفسير الأول. وعلى أية حال فإنّ هذه الآيات تشير إلى أن أحد الفضائل الأخلاقية للأنبياء أولى العزم هو شجاعتهم المنقطعة النظير، وأنهم لم يكونوا يشعرون بالخوف إلّا في دائرة الإيمان بالله تعالى وفي مقابل الذات المقدسة، وفي هذا الطريق لم يكونوا يعيشون التردد والخوف والضعف بأي شكل من الأشكال، وبالتالي فهم منزّهون ومطهّرون عن حالة الجبن والخوف الذي يُعدّ ذليلة أخلاقية كبيرة، ولهذا نجد إبراهيم عليه السلام وهو يتصدّى لجماعات الوثنيين وقوى الانحراف والأعداء الشرسين لوحده ويتنصر عليهم أخيراً، ولاشكّ أنّ الأنبياء العظام لو كانوا يعيشون حالة الخوف والجبن في حركة الحياة فإنهم لم يكونوا قادرين على أداء مهمّتهم الرسالية والانتصار على الأعداء. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع توجيه الخطاب للنبي موسى بن عمران، وذلك لما نزل عليه الوحي لأول مرّة وقد صدر له الأمر بأن يُلقى عصاه التي تحوّلت بإعجاز إلهي إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٢ ثعبان عظيم، فخاف موسى من هذه الظاهرة العجيبة وقَرّر الفرار، إلّا أنّ الخطاب الإلهي جاءه ليعلمه أوّل درس أخلاقي تجاه الحوادث وقال: «يَا مُوسَى لَاتَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» (١). ونظراً إلى أنّ جميع أنحاء العالم هي في محضر الله تعالى وإن كلّ زاوية من زوايا الكون هي محلّ حضور ذاته المقدسة وعلمه وقدرته، ولذلك على المؤمنين أن لا يخافوا بأية حال وفي كلّ الظروف بل عليهم أن يعيشوا حالة التوكل على الله تعالى ويواجهوا تحديات الواقع بشجاعة وشهامة، ويسيروا بهذه الروح المعنوية في خطّ الرسالة وتحقيق الأهداف المقدسة. وطبقاً لما ورد في سورة القصص في الآية (٣١) أنه قيل لموسى «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ». ف شعر موسى بهذا الخطاب الإلهي بالطمأنينة والسكينة تدغدغ أعماق قلبه واستعاد قوته ورباطة جأشه، وهنا جاء النداء الإلهي يحمل دستوراً أكبر وأهم، وهو أنّ لا- يكتفى بعدم الخوف من هذا الثعبان العظيم بل يجب أن يتجه إليه ويأخذه بيده حتّى يعود إلى حالته الأولى! «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى» (٢). ومن المعلوم أنّ هذا العمل كان يمثل لموسى الصعوبة البالغة، ولكنه نجح أخيراً في الإمتثال والإذعان لهذا الأمر الإلهي. أجل فإنّ على موسى أن يستوعب التجربة الكبيرة في محضر الذات المقدسة ليقف أمام ثعبان أكبر وأخطر من هذا، أي فرعون والملاّء- من قومه وحكومته الجبارة التي يجب أن يأخذها موسى منهم كما يأخذ عصاه. الكثير من المفسيّرين ذهبوا في تفسير كلمة (جان) في الآية أعلاه تعني صغار الحيات التي تهجم على الشخص بسرعه، في حين أنّه في مكان آخر تتحدّث الآيات عن عصي الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٣ موسى التي ألقاها أمام الفراعنة بكلمة (ثعبان) بمعنى الحية العظيمة، ولهذا السبب فقد احتل البعض أنّ العصي في بداية أمرها تبدّلت إلى حية صغيرة وتدرجياً تحوّلت إلى ثعبان عظيم. وذهب آخرون إلى أنّ (العصا) تبدلت إلى حية عظيمة، ولكنها من جهة سرعة الحركة فهي كالحية الصغيرة السريعة. والملفت للنظر أنّ جملة (لا تخف) وردت في القرآن الكريم تسع مرّات، وفي خمسة موارد كان المخاطب فيها موسى بن عمران، ولعلّ ذلك بسبب أنّ موسى كان يعيش بين أعداء كثرة وشديدي الخطورة كفرعون وهامان والملاّء، ويجب أن يعدّ العدة بمثل هذا الخطاب الإلهي لمواجهة هؤلاء الأعداء. وتستعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات الكريمة قصة (طالوت) وقومه من بني إسرائيل والذي انتخبه نبيهم في ذلك الوقت (إسموئيل) بعنوان قائد جيش بني إسرائيل لمواجهة (جالوت) وجيشه الظالم. وعندما أراد طالوت مواجهة جالوت وقتاله قام بعملية اختبارية لجيشه ليظهره من الشوائب وضعفاء النفوس والجنباء، الذين قد يُفضى وجودهم في جيشه إلى سريان الجبن والضعف في سائر مفاصل جيش بني إسرائيل. أجل فعندما كان جيش طالوت يشعر بالعطش الشديد وصلوا إلى نهر، فأراد طالوت أن يختبر جنوده العطاشى هناك وقال: كلّ من يشرب من هذا الماء فليس منّا، وأما من قاوم العطش ولم يشرب إلّا رشقات فهو منّا، ولكن أغلب أفراد الجيش الذين كانوا من الجنباء وضعفاء النفوس لم ينجحوا في هذا الامتحان والاختبار وشربوا من الماء إلّا عدة قليلة بقوا أوفياء لطلوت، فهؤلاء كانوا يعيشون روح الشجاعة والقوة والبسالة حيث قالوا في دعائهم: «... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَبَسِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (١). الإفلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٤ وهكذا أنزل الله تعالى نصره وعنايته ورحمته على هذه الفئة القليلة من المؤمنين ونصرهم على جيش جالوت العظيم ببركة شجاعتهم وثباتهم في مواجهة التحديات والاختبارات الصعبة. ونقرأ في «الآيات التالية» أن القرآن الكريم يتحدث عن جبن طائفة من المنافقين وضعفاء الإيمان في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفي حرب الأحزاب، ويتحدث كذلك عن شجاعة بعض المؤمنين الحقيقيين وثبات قدمهم في مواجهة الأعداء الشرسين حيث تقول الآية: «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَأْمَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» (١). وطبعاً فإن ميدان القتال في معركة الأحزاب كان يغص بجيوش الأعداء وكثرة عددهم وعُدتهم بحيث يستوحش من هذا المنظر الرهيب كل الأشخاص الذين يعيشون الاهتزاز في شخصيتهم والخوف والرعب في واقعهم. ولكن كما تقول الآية (٢٢) من هذه السورة أن المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون الطمأنينة والثقة بوعدهم الله إيماناً: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» (٢). واللطف انه يُستفاد من بعض الروايات أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أجاز للمنافقين وضعفاء الإيمان والجنباء بأن يعودوا إلى المدينة، لأن بقائهم في تلك الظروف العصيبة مع جيش الإسلام لا ينفع شيئاً سوى بث الرعب والضعف والتخاذل في قلوب الآخرين. ولهذا السبب نقرأ في الآية (٤٧) من سورة التوبة في حديثها عن جماعة من هذه الطائفة: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا». ومعلوم أن كلمته (خَبَالٌ) و (خَبَالٌ) تعني الإضطراب والترديد الناشيء من ضعف العقل الإفلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٥ وعدم القدرة على اتخاذ الموقف والعزم على شيء، وكل ذلك ناشيء من الخوف والجبن الذي يقود الإنسان إلى ارتباك الفكر وعدم التوازن في اتخاذ الموقف. وفي «الآية الخامسة» نواجه منظراً جديداً من شجاعة أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الشجاعة التي تنطلق من موقع الإيمان بالله تعالى، حيث أن هؤلاء المؤمنين يرون أنفسهم في ميدان الحرب على مفترق طريقيين وكليهما يؤديان بهما إلى الجنة ورضا الله تعالى: طريق يؤدي إلى الشهادة وبالتالي السعادة العظمى في الحياة الآخرة، والآخر يقودهم إلى النصر على العدو، وهو أيضاً مبعث الفخر والاعتزاز لهم في الدنيا والآخرة، في حين أن العدو محكوم بالهزيمة والخسران بأيّة حال، فإما الموت الذليل والمهين في هذه الدنيا، أو عذاب الله في الآخرة. وبديهي أن الشخص الذي يعيش هذه الرؤية فإنه سوف لا يدع أي خوف وضعف يتسرب إلى قلبه، وبذلك يتخلص الإنسان من هذه الرذيلة الأخلاقية الكبيرة، وفي ذلك تقول الآية: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِيَّاهُ الْإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصَِّبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ» (١). وقد ذهب بعض العلماء إلى أن العامل الأساس للانتصار للمسلمين في حروبهم الحاسمة في ذلك العصر هو الشجاعة المنطلقة من الإيمان بالله والمنطق الرصين: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِيَّاهُ الْإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ». وتأتي «الآية السادسة» لتستعرض وجهاً آخر من شجاعة هؤلاء المؤمنين في معركة احد، ونعلم أن المسلمين في معركة احد قد أصابتهم الهزيمة النكراء بسبب غفلة طائفة من المسلمين الطامعين بحطام الدنيا الذين تركوا مواقعهم الحساسة واشتغلوا بجمع الغنائم، وهكذا أصيب المسلمون في هذه المعركة بخسائر كبيرة، وطبقاً لما ورد في التواريخ أن الإفلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٦ الأعداء المنتصرين في أثناء عودتهم من ميدان القتال إلى مكة ندموا على رجوعهم هذا واتفقوا مرة أخرى أن يعودوا إلى المدينة ليستفيدوا من هذه الفرصة الثمينة ويُجهزوا على الإسلام والمسلمين ويتخلصوا منهم إلى الأبد. فعندما سمع نبي الإسلام بذلك اتخذ موقفاً مهماً جداً، حيث أمر جيش الإسلام بالخروج لمواجهة جيوش الأعداء ولم يستثن أحداً من المسلمين حتى من به جراحه بسبب المعركة الدامية التي جرت قبل قليل. هذا الأمر النبوي أثر أثره بشكل كبير وأحلّ الرعب والخوف والاضطراب في صفوف الأعداء بحيث إنهم رجحوا الاكتفاء بالانتصار النسبي والعودة إلى مكة على الهجوم الثاني على المسلمين، وهكذا تخلص المسلمون من شرهم. والآية محل البحث تشير إلى هذا المعنى وتثني على شجاعة المسلمين وتقول: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ» (١). ثم تتحدث عن إيمانهم وشجاعتهم واصفة حالهم المتماسكة في مقابل الارهاب الاعلامي للأعداء الذي يتحرك من موقع التهويل والتخويف وتقول: «الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ يَا نَسِ إِذَا نَسَّ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (٢). وهذه هي الحادثة الأولى من نوعها في تاريخ الحروب البشرية حيث لم يشاهد في تاريخ البشرية أن المجروحين يعودون فوراً إلى ميادين القتال ليساهموا في دفع خطر الأعداء، أجل إن هذه الشجاعة والشهامة الفريدة هي التي اجهضت مؤامرة العدو، وهذا الحضور القوي والسريع إلى الميدان هو الذي زرع اليأس في قلبه. وعلى أية حال فإن واقعة «حمراء الأسد» كانت ظاهرة عجيبة بدلت حلاوة النصر لدى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٧ قريش إلى مرارة، وبيئت لهم أن المسلمين بالرغم من هزيمتهم بسبب زيغ جماعة منهم، إلما أنهم مازالوا ثابتين في الميدان وأن على العدو أن يتوقع ضربات المسلمين في المستقبل. وبهذا أثرت هذه الواقعة ليس فقط في التصدي إلى هجوم الأعداء ودفع الخطر، بل في وضع الأساس لانتصارات لاحقة، وتطهير ما علق في النفوس من آثار سلبية للانتكاسة في احد، ومنح المسلمين الأمل في حياتهم الجديدة بالتوكل على الله تعالى. ويستفاد من الآية الشريفة أعلاه أن عملية الارهاب الاعلامي الذي قام به بعض الشياطين لبث الرعب والخوف في قلوب المسلمين من جيوش قريش، ليس فقط لم يؤثر في زعزعة إيمانهم وثقتهم بالله تعالى وبالاسلام، بل إزداد إيمانهم واشتدت ثقتهم بالله وتوكلهم عليه، كل ذلك كان بسبب أنهم كانوا يعيشون الثقة بوعد الله وصدق النبي الأكرم وأنهم لو عملوا بارشادات النبي في واقعة احد فإن النصر سيكون حليفهم لا محالة. ومن عجائب هذه الواقعة هو أن النبي صلى الله عليه وآله أمر المسلمين الذين اشتركوا في احد فقط بالحضور إلى حمراء الأسد دون غيرهم، لكي يفهم العدو أن جيش المسلمين في احد مازال قوياً رغم وجود الكثير من الجرحى في صفوفه، وما زال مستعداً للقتال دون ضعف وفطور رغم استشهاد العديد من ابطاله وأفراده، وهذا هو الذي أخاف الأعداء وزرع الخوف والقلق في قلوبهم. ونقرأ في الآيات اللاحقة وفي الآية ١٧٥ من هذه السورة إشارة للتفاوت بين الأفراد الذين يعيشون الخوف والجبن وبين المؤمنين الذين يعيشون الشجاعة والتوكل، حيث تقول الآية: «إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». ونستوحى من هذه الآية الشريفة أن مثل هذا الخوف يتسم بصفة شيطانية والغرض منه تضعيف روحية المؤمنين واهتزاز معنوياتهم واتخاذ موقف انفعالي أمام تحديات الظروف وبالتالي التهرب من ضغط المسؤولية والتكليف، والحال أن المؤمنين الحقيقيين لا يشعرون بالخوف إلا من الله تعالى. وطبقاً لهذه العبارات الواردة في الآية الشريفة فإن الجبن يمتد في جذوره إلى عناصر الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٨ الشر في واقع الإنسان في حين أن الشجاعة تسترشد مقوماتها من عنصر الإيمان وتعد من معطياته وثماره، لأن المؤمن وبالتوكل على الله القادر المطلق يرى نفسه منتصراً في جميع الميادين. أما الأشخاص الذين يعيشون الاهتزاز في إيمانهم ويعتمدون على قدراتهم الذاتية فإنهم منهزمون على أية حال لما يروا من محدودية قدراتهم وهزال امكاناتهم، ولذا يستولى عليهم الخوف والاضطراب أمام تحديات الواقع ومشكلاته المتزايدة. لقد تكافتت قوى الشر والانحراف في واقعة «حمراء الأسد» لإظهار قوة جيش قريش وتفخيمها بأكثر حجم لإخافة المؤمنين والقاء الرعب في قلوبهم، إلما أن القرآن الكريم يقرر أن أولياء الشيطان واتباعه هم الذين يتأثرون بهذه المظاهر الخداعية، بينما يعيش أولياء الله الثبات والاستقامة في خط الحق والرسالة (١). وتنطلق الآية السابعة والأخيرة من الآيات مورد البحث للتذكير بهذه الحقيقة، وهي أن إحدى صفات المبلغين الرساليين هي طهارتهم من رذيلة الجبن والخوف من غير الله تعالى، وتقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» (٢). إن تبليغ الرسالة الإلهية من أهم وظائف الأنبياء والمرسلين، وهذا لا يتسنى إلا بخلو النفس من أية شائبة من شوائب الخوف والجبن والتردد. هذه الآية الشريفة الناظرة إلى الأنبياء الماضين تحذر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالدرجة الأولى، واتباعه المخلصين بالدرجة الثانية من مغبة الشعور بالخوف والتردد حين إبلاغ الرسالات السماوية وأن عليهم أن لا يخشون أحداً إلا الله تعالى، ومفهوم هذا الخطاب الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢١٩ القرآني هو أن الأشخاص الجبناء والذين يعيشون الخوف والتخاذل في الموقف غير لائقين لتولى هذه المهمة وأداء هذه الرسالة. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية تدل على أن الأنبياء الإلهيين لا ينبغي لهم استعمال التقيّة، ولكن هذا الرأي إنما يكون صحيحاً إذا فسرنا التقيّة بمعناها السلبي من الخوف والخشية من المخالفين، والحال أن التقيّة لا تستوحى مقوماتها من الخوف دائماً، بل قد تكون بدافع من الحرص على جذب المخالفين إلى سواء السبيل وإيصال الناس

إلى الغايات الإلهية بصورة تدريجية، ولعل قول إبراهيم عليه السلام «هذا ربي» أمام الوثنيين من قومه كان من هذا القبيل (فتأمل).

## النتيجة النهائية:

تبين من خلال استعراضنا لجملة من الآيات الكريمة أهمية الشجاعة والشهامة في حركة الإنسان المؤمن، ودور هذه الفضيلة الأخلاقية في صياغة مصير الإنسانية على المستوى المادى والمعنوى، وكذلك تبيين في الجهة المقابلة الآثار السلبية لرذيلة الجبن وعواقبها السيئة على حياة الإنسان. وصحيح أن هذه الآيات الكريمة لم تفصل البحث عن الشجاعة والجبن بصورة مستقلة وبشكل مباشر، إلّا أنها أشارت إلى دور هذه المفاهيم الأخلاقية في حياة الإنسان بشكل ضمنى وبيان دقيق وجميل.

## الجبن والخوف في الروايات الإسلامية:

### إشارة

ونقرأ انعكاساً واسعاً في الأحاديث الشريفة لهذه الرذيلة الأخلاقية من موقع الذم والتحذير الشديد من الاتصاف بها، من قبيل: ١- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا وَلَا حَرِيصًا وَلَا شَحِيحًا» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٠ ويستفاد جيداً من هذا التعبير أن «الخوف» و «الحرص» و «البخل» لا- تنسجم مع روح الإيمان، لأن المؤمن يتوكل في جميع اموره على الله تعالى، ومن كان يملك مثل هذا الأساس المتين في حركة الحياة لا- يمكن أن يعيش الخوف ولا- البخل ولا الحرص، لأنه يعيش الأمل برحمة الله وفضله فلا يتعلق قلبه بشيء من حطام الدنيا. ٢- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ» (١). وهذا الحديث في الحقيقة بيان آخر لما ورد في الحديث السابق حيث يبين الجذور الأصلية لهذه الصفات الرذيلة. ٣- وقد نهى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اتباعه من استشارة الجبناء لأن خوفهم يؤثر في صياغة الرأي ويبعده عن جادة الصواب: «لَا تُشْرِكَنَّ فِي رَأْيِكَ جَبَانًا يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأَمْرِ وَيُعْظِمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ» (٢). ونفس هذا المعنى ورد في عهد الإمام لمالك الاشتهر بشكل آخر حيث نهى الإمام على مالك الاشتهر عن مشورة البخلاء والجبناء والحريصين. ٤- وهذا الموضوع إلى درجة من الأهمية بحيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بعدم اشتراك الأفراد الجبناء في أى جهاد ضدّ المشركين لئلا يضعفوا معنويات الآخرين، فقال: «مَنْ أَحْسَسَ مِنْ نَفْسِهِ جَبَانًا فَلَا يَغْزُو». ٥- وفي حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوضح الحديث أعلاه ويقول بصراحة: «لَا يَحِلُّ لِلْجَبَانِ أَنْ يَغْزُوا، لِأَنَّهُ يَنْهَزِمُ سَرِيعًا وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ مَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَغْزُو بِهِ فَلْيُجَهِّزْ بِهِ غَيْرَهُ» (٣).

## ١- الخوف المعقول وغير المعقول

لاشك أن المراد من الجبن والخوف هنا ليس هو الجبن المعقول والخوف المنطقي بل يقع في دائرة اللامعقول واللامنطقي، وتوضيح ذلك: إن الخوف من الامور التي تتضمن الخطر واقعاً هي أحد الحالات الروحية والطبيعية في الإنسان وأحد المواهب والنعم الإلهية الكبيرة، وانه لولا هذه الحالة تجاه الخطر فإنّ الإنسان لا يشعر بالخوف إذا واجهه الخطر حيث يفقد حياته سريعاً، وهذا هو ما ورد في كلمات علماء الأخلاق باسم (التهور) في مقابل الخطر والتي هي صفة ذميمة من قبيل أن يعبر الشخص الشارع المزدهم بالسيارات بدون أن ينظر يمينا أو يساراً ولا يحاذر من الخطر، فمثل هذا الشخص سيتعرض للحوادث الخطرة التي سرعان ما تؤدي بحياته. مثل هذا النوع من الخوف في حياة الإنسان اليومية، وهكذا في موارد الخوف من تناول الأطعمة المشكوكه أو الخوف في دائرة المسائل السياسية والاقتصادية وغيرها، يُعتبر خوفاً منطقياً، ويتسبب في نجات الإنسان من الأخطار التي تهدد حياته في حركة الحياة والواقع. أما الخوف المذموم فهو أن يخاف الإنسان من المظاهر والعناصر التي لا تستبطن خطراً في حد ذاتها، بل يتصور الخطر الموهوم فيها،

فيخاف من كل خطر وهمي وكل عدو خيالي ويخاف من كل شيء حتى من خياله، مثل هذا الإنسان يعيش حالة التردد في كل عمل يريد الاشتراك به مخافة عدم نجاحه في ذلك العمل وبالتالي يمنعه هذا الخوف من تصعيد طاقاته وقابلياته ويعيش التخلف والكسل والفشل والذلة والمهانة. إن هذه الحياة الدنيا في حقيقتها ميدان للصراع مع الموانع والمشكلات والأخطار الموجودة دائماً في مفاصل وزوايا هذه الحياة، ومالم يواجه الإنسان هذه الأخطار والموانع من موقع الجرأة ويستعد بجديته لمقابلتها فإنه لا يوفق في حياته. والغالب إننا لا- يمكننا تحقيق النجاح والنصر في كل عمل نعمله أو نضمن عدم وجود الخطر فيه، فهذا من الخيال المحال وهو من الأوهام الزائفة، وهنا يتجلى الدور المهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٢ للشجاعة والشهامة في واقع الإنسان تجاه التحديات الصعبة، وتتجلى كذلك الآثار السلبية لرديلة الخوف والجبن أيضاً. إن كل مزارع يحتمل الجفاف والأمراض الزراعية التي تصيب مزرعته، وكل تاجر يحتمل تغيير الأسعار وتحول أوضاع السوق، وكل مسافر يحتمل وقوع الحوادث الخطرة في الطريق، وفي كل عملية جراحية يُحتمل وجود الخطر، فإذا عملت هذه الاحتمالات على منع الإنسان من القيام بشطاته الحياتية فلا بد أن يجلس الإنسان جانباً ولا يقدم على أي عمل من الأعمال بل ينتظر الموت فقط. ومن المعلوم أن الإنسان في مثل هذه الموارد يجب أن يتوقع الأخطار الجدية ثم يضع لها ما يقابلها من العلاجات والحلول ويتجنب التهور وإلقاء نفسه بالتهلكة، ولكن في نفس الوقت لا- ينبغي للاحتتمالات الموهومة واللامعقولة التي تكتنف العمل دائماً أن تكون مانعة له من الإقدام على سلوك هذا الطريق. وهذا هو أفضل تعريف لمسألة الشجاعة بعنوانها صفة من الصفات الأخلاقية الفاضلة، والخوف بعنوانه من الصفات الأخلاقية الرذيلة. وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام في تعريف الجبن قوله: «الْجُبْنَ أَعْلَى الصِّدْقِ وَالنُّكُولُ عَنِ الْعَيْدِ» (١). ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أنه قال في جوابه على سؤال عن الشجاعة: «مُؤَافَقَةُ الْأَقْرَانِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الطَّعَانِ» (٢). القرآن الكريم يقول أيضاً في إحدى آياته: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (٣). ويقول في مكان آخر في وصف المؤمنين: «... اسْتِدَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ ...» (٤) ولا يخالجهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٣ خوف موهوم في هذا الطريق. إنما تقدم أنفاً يوضح جيداً أن الشجاعة هي الفضيلة التي تقع في الحد الوسط بين (التهور) و (الجبن).

## ٢- الآثار السلبية للجبن في حركة الحياة الفردية والاجتماعية

ويترتب على هذه الصفة الرذيلة آثار سلبية كثيرة في حياة الإنسان والتي تعد من الأسباب والعوامل المهمة في فشله وذلته. إننا نقرأ الكثير عن حالات الشعوب والامم على طول التاريخ البشري، ونقرأ أن الكثير منها رغم امتلاكها لوسائل القوة والمنعة من العدة والعدد، إلا أنها كانت تعيش الذلة والمهانة والأسر لسنوات طويلة، ولكن بمجرد أن ينبري من بينها قائد شجاع وشهم يتخطى بها صفوف التقدم والنهضة ويُعَبِّي طاقاتها وأفرادها في سبيل الكرامة والتقدم فإنها سرعان ما تنفض عن نفسها رداء الذلة والمهانة والتخلف وترتقى إلى أوج العزة والعظمة. إن شجاعة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في مختلف موارد سيرته العملية من هجرته إلى المدينة وموقفه في بدر واحد والأحزاب وسائر الغزوات الاخرى يُعد من أهم العوامل لانتصار المسلمين وتقدمهم السريع، ولهذا ورد في الأحاديث الإسلامية عن الإمام على قوله: «الشُّجَاعَةُ عِزٌّ حَاضِرَةٌ وَالْجُبْنُ ذُلٌّ ظَاهِرٌ» (١). ويقول في مكان آخر أيضاً: «الشُّجَاعَةُ نَصْرَةٌ حَاضِرَةٌ وَفَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ» (٢). وأحد الآثار السلبية الاخرى لهذه الرذيلة الأخلاقية هو أنها تمنع الإنسان من التصدي لكثير من الأعمال والنشاطات المهمة، لأن هذه الأعمال الكبيـرة تقترن عادة مع مشاكل كبيرة أيضاً وتتطلب رجالاً يقفون أمام هذه المشكلات والموانع من موقع الشجاعة والجرأة، فلا يتسنى للشخص الجبان أن يخوض في اطار هذه الأعمال إطلافاً. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٤ وعليه فإن مثل هؤلاء الأشخاص وعلى فرض حصولهم على بعض الموفقية المحدودة والتافهة في الحياة فإنهم يعجزون عن التصدي للأعمال المهمة على المستوى الاجتماعي والتغيير الإصلاحي الذي يحتاجه الناس. وهذه المسألة من الأهمية إلى درجة أن الإسلام نهى عن المشورة مع الجبناء والذين يعيشون حالة الخوف والرعب الوهمي في دائرة مديريه المجتمع والأعمال المهمة في عملية التغيير



والإصلاح الإجتماعي، لأن هؤلاء من شأنهم أن يقرأوا آية اليأس فقط وبذلك يُحبطوا عزم المدراء الموقنين ويشبطوا من إرادتهم القوية. وكما رأينا أن أمير المؤمنين عليه السلام يوصي مالك الأشر في عهده المعروف ان لا يستشير أحداً من الجبناء لئلا يُصاب بالضعف والإحباط ويقول: «لَا تَدْخُلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ ... جَبَانًا يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ»<sup>١</sup>. ويقول في مكان آخر أيضاً: «وَيُعْظِمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ».

### ٣- دوافع الجبن

١- ضعف الإيمان وسوء الظن بالله، لأن الشخص الذي يعيش الإيمان بالله والثقة به وينطلق في حياته من موقع التوكل والأمل برحمة الله ولطفه والتصديق بوعدده، مثل هذا الشخص سوف لا يذوق طعم الذلّة والمهانة والضعف ولا يتردد أو يخاف أمام الحوادث الصعبة ولا يهتز لتحديات الواقع الثقيلة، وهذا هو ما ورد في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر حيث يقول: «إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ عَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ»<sup>٢</sup>. ٢- الشعور بالحقارة وضعف الشخصية لدى الفرد، ولهذا نجد انه كلما كانت شخصية الإنسان نافذة وقوية وشعر الإنسان معها بالكرامة واحترام الذات فإن ذلك ممّا يزيد في شجاعته وشهامته، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «شِدَّةُ الْجُبْنِ مِنْ عَجْزِ النَّفْسِ وَضَعْفِ الْيَقِينِ»<sup>٣</sup>. ٣- الجهل وقلّة المعرفة حيث تسبب للإنسان غالباً الخوف الموهوم، كما نرى في خوف الإنسان من الأشخاص أو الحيوانات التي لا يعرفها على وجه الدقة ولكن عندما تتضح له الصورة ويتعرف عليها تذوب حالة الخوف في نفسه تدريجياً. ٤- (طلب الراحة والعافية) يُعد أحد الأسباب للخوف المذموم، لأن الشجاعة تتطلب الخوض في دوامة المشكلات واللاملائمات لكي يتسنى للإنسان أن يخرج منها منتصراً، وهذا المعنى لا يتلائم ولا ينسجم مع مزاج من يطلب الراحة والعافية. ٥- إن دروس الحوادث المرّة والمؤلّمة قد يتسبب غالباً في أن يعيش بعض الناس حالة الخوف والرعب، لأن هذه الحوادث المرّة ترسخ في أذهانهم وتمتدح بالخوف الذي قد يستمر بالإنسان إلى آخر حياته ولا يمكنه التخلص منه إلا ببعض العلاجات النفسية. ٦- إن الإفراط في سلوكك طريق الحذر من شأنه أن يورث الخوف أيضاً أو هو عامل من عوامل ايجاد الخوف في النفس، لأن مثل هذا الإنسان يتوقى كلّ ما يحتمل فيه الخطر، وهذا يؤدي به إلى أن يعيش حالة التردد والخوف من الإقدام. ٧- ومما لا ينبغي إنكاره أن الحالة الروحية والمزاجية والبدنية للأفراد أيضاً مؤثرة في بروز هذه الحالة السلبية، فترى بعض الأشخاص وبسبب ابتلائهم بضعف الأعصاب أو ضعف القلب يخافون من كلّ شيء، في حين يشعرون في نفس الوقت بالتفرد من هذه الحالة والإمتعاض لوجودها في واقعهم ولكنهم لا يستطيعون التخلص منها. هؤلاء يقولون: أن الخوف المتسرب في أعماقنا ليس باختيارنا بل نجده مفروض علينا، ولكن الصحيح أن هذه الحالة قابلة للعلاج أيضاً.

### ٤- طرق العلاج والوقاية

إن أحد الطرق الأصلية لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، كما في سائر الرذائل الاخرى، أن يتفكر الإنسان من جهة في آثارها السلبية وعواقبها الوخيمة على المستوى الفردي والاجتماعي للإنسان، فعندما يطالع الشخص الجبان والذى يعيش حالة الخوف والرعب الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٦ من كلّ إقدام مثمر، الآثار السلبية للخوف الموهوم وما يترتب عليه من ذلّة وحقارة وتخلف وحرمان من الكثير من مواهب الحياة في حياته أو حياة الآخرين، فإنه سيتحرك في الغالب لتجديد فكرته ونظراته عن هذه الحالة ويسعى لتطهير نفسه منها. ومن الطرق المهمة الاخرى في عملية العلاج هو السعى إلى قطع دوافع وجذور هذه الرذيلة من واقع النفس، فعندما تزول السحب المظلمة لسوء الظن بالله من سماء القلب، وتشرق شمس التوكل على الله في أجواء الروح الإنسانية، فإن ظلمات الخوف الموهوم ستزول بسرعة عن النفس البشرية، ولكن قد يحتاج هذا الأمر إلى مطالعة ودقّة أكثر. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو

أن يتورط الإنسان في الميادين المثيرة للخوف والوحشة ويعمل على إقحام نفسه مرات عديدة في مثل هذه الميادين والأجواء المثيرة، وعلى سبيل المثال فعندما يجد الإنسان نفسه يخاف من تناول الدواء أو زرق الابز فعليه أن يقحم نفسه مرّات عديدة في مثل هذه الأعمال كيما تزول حالة الخوف. والبعض الآخر يستوحش من السفر في السفينة أو الطائرة، ولكن تكرار مثل هذه السفرات من شأنه أن يزيل الخوف منه. وبعض الناس يجد حالة التردد والخوف في نفسه عند حضوره أمام الآخرين أو عند إلقائه لمحاضرة أو كلمة أمام الجمع، ولكن هذا الخوف والتردد يزول غالباً بتكرار مثل هذه الأعمال. وأحد أهداف التمرينات العسكرية والمناورات التي تُجرىها الحكومات لجيوشها وقواها العسكرية هو إزالة آثار الخوف من قلوب أفراد الجيش من الحروب. ونجد هذا المعنى بصورة جميلة ورائعة في الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «إِذَا هَبْتَ أَمْرًا فَقَعْ فِيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوْقِيهِ أَغْظَمَ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ» (١). ويقول العلّامة المرحوم الخوئي في شرحه لنهج البلاغة عند شرح هذه العبارة: «كثيراً ما يستوحش الإنسان من بعض الامور بسبب جهله وجبنه فيمنعه ذلك الخوف من نيل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٧ الموقية في الحياة، وهنا الإمام عليه السلام يحرضه على خلع حالة الجبن عن نفسه لأن تحمل ضغط هذه الحالة قد يكون في كثير من الحالات أشد على الإنسان من التورط في ذلك الأمر المخوف». ثم يضيف: «إن المخترعين والمكتشفين في العالم نالوا أوسمة الفخر بالعمل بهذه التوصية الحكيمه، حيث توغلوا إلى أعماق الغابات الاستوائية والصحارى الأفريقية وخاضوا لجج البحار ووصلوا إلى الجزر البعيدة وحصلوا على ثروات طائلة وشهرة عظيمة مضافاً إلى ما قدّموا إلى البشرية من علم ومعرفة لا يستهان بها» (١). وقد ورد في المثل المعروف: «أُمُّ الْمُقْتُولِ تَنَامُ وَأُمُّ الْمَهْدَدِ لَاتَنَامُ». وقيل أيضاً: «كُلُّ أَمْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيَسْمَاعُهُ أَغْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ» (٢). وأحد الطرق الاخرى لعلاج حالة الجبن والخوف هو أن يعيش الإنسان بطهر ونقاء من شوائب الرذيلة والأعمال الذميمة، لأن الأشخاص الملوّثين يخافون غالباً من نتيجة أعمالهم، وبما أن نتيجة هذه الأعمال سوف تتجلى إلى الملام يوماً من الأيام فإنهم يعيشون حالة الخوف في أنفسهم، ولذلك ورد في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَا أَشْجَعُ الْبَرِيَّ وَأَجْبَنُ الْمُرِيبُ» (٣). ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّرَتِ الْأَشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكُذْبِ» (٤).

## ٥- معطيات الشجاعة في حياة الإنسان

والنقطة المقابلة لصفة الجبن الرذيلة، هي الشجاعة والشهامة والجرأة على الخوف في الأعمال المهمة كما تقدّمت الإشارة إليه ضمن حديثنا عن الجبن والخوف، فكل واحد من هاتين الصفتين المتقابلتين تتضح بدراسة ما يقابلها من الحالات الأخلاقية، فمعرفة مفهوم الجبن لا تتسنى بدون معرفة مفهوم الشجاعة، وكذلك العكس فإن من العسير أن ندرك مفهوم الشجاعة بدون أن نُحيط علماً بمفهوم الجبن والخوف. وبهذا نرى من اللازم ولغرض تكميل الأبحاث السابقة أن نتحدث أكثر عن صفة الشجاعة وآثارها الايجابية ومعطياتها في حركة الحياة وخاصة من وجهة نظر الأخبار والأحداث الإسلامية: ١- ما ورد في عهد الامام على عليه السلام لمالك الأشتر (والذي يُعدّ أشمل دستور إلهي وسياسي) في عملية إدارة الحكومة في موارد متعددة أن أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى هذه المسألة، فيحدّر في أحد الموارد مالك الأشتر من المشورة مع الأشخاص الجبناء والمّذين يعيشون حالة الخوف والحرص والبخل. ويقول في مكان آخر بالنسبة إلى قادة الجيش (أو معاونين والموظفين والمسؤولين): «ثُمَّ الصَّقْ بِبَدْوِي الْمُرْوَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبَيْتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّيْمَاخَةِ، فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكُرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ» (١). وهنا نجد أن الإمام يرى أن صفة الشجاعة والشهامة تُعد من الاصول الأساسية والقيم الأخلاقية المهمة للإنسان المدير والمدبّر وخاصة على مستوى قادة الجيش أو المسؤولين الكبار في الحكومة. ٢- ويقول هذا الإمام في حديث آخر: «الشَّجَاعَةُ زَيْنٌ، الْجُبْنُ شَيْنٌ» (٢). ٣- وورد عن هذا الإمام الهمام قوله في حديث آخر: «السَّخَاءُ وَالشَّجَاعَةُ غَرَائِزُ شَرِيفَةٌ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٢٩ يَضَعُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي مَيْنِ أَحَبِّهِ وَأَمْتَحِنَهُ» (١). ٤- وورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في ذكره لفضائل أهل بيته أنه ذكر سبع صفات

وأحدها الشجاعة. وفي حديث آخر ذكر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فضائله وفضائل أهل بيته في كلمتين، وأحد هاتين الفضيلتين هي الشجاعة. ٥- ونقرأ في حديث ليلة المبيت (وهي الليلة التي بات فيها الإمام على عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله في ليلة الهجرة إلى المدينة) أنه عندما حاصر المشركون بيت النبي صلى الله عليه وآله ليلاً، ثم هجموا في الصباح الباكر إلى داخل الدار رأوا علياً نائم في فراش النبي، فقال أبو جهل: أما ترون محمداً كيف أبات هذا ونجا بنفسه لتشتغلوا به وينجو محمد، لا تشتغلوا بعلي المخدوع لينجو بهلاكه محمد... فقال على عليه السلام: «أَلَيْ تَقُولُ هَذَا يَا أَبَا جَهْلٍ؟ بَلِ اللَّهُ قَدْ أَعْطَانِي مِنَ الْعَقْلِ مَا لَوْ قَسَمَ عَلَيَّ جَمِيعَ حُمَقَاءِ الدُّنْيَا وَمَجَانِينِهَا لَصَارُوا بِهِ عُقْلَاءَ، وَمِنَ الْقُوَّةِ مَا لَوْ قَسَمَ عَلَيَّ جَمِيعَ ضُعَفَاءِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ أَقْوِيَاءَ، وَمِنَ الشَّجَاعَةِ مَا لَوْ قَسَمَ عَلَيَّ جَمِيعَ جُبْنَائِ الدُّنْيَا لَصَارُوا بِهِ شَجْعَانًا» (٢). ٦- ونقرأ في الخطبة المعروفة للإمام زين العابدين في الشام أن هذا الإمام ابتداء خطبته التاريخية بقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ: اعْطِينَا سِتًّا وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ اعْطِينَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالسَّمَاخَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» (٣). ٧- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام (رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب) قال: «الغيرة الشديدة على حرمتك، والسخاء، وحسن الخلق، وصِدْقُ اللِّسَانِ وَالشَّجَاعَةُ». الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٠ ويتبين من الأحاديث المذكورة آنفاً وكذلك الآيات والروايات الكثيرة في هذا الباب أهمية هذه الفضيلة الأخلاقية وقيمتها من بين القيم الإنسانية الرفيعة التي يراها الإسلام في مجمل تعاليمه الأخلاقية والإنسانية. ومما يجدر ذكره هو أن (الشجاعة) لها معنى واسع وتمتد لمساحات شاسعة من السلوكيات الإنسانية، والشجاعة في ميدان الحرب والقتال هو أحد فروعها ومصاديقها، ومنها الشجاعة في ميدان السياسة، وفي المسائل العلمية وإبداع النظريات الجديدة المنطقية والاختراعات العلمية، والشجاعة في مقام القضاء والحكم وأمثال ذلك، فكل واحد منها يعد من فروع هذه الشجرة الأخلاقية والصفة الكريمة للإنسان، ولذلك نقرأ في بعض الروايات «الصَّبْرُ شَجَاعَةٌ» (١). وورد في حديث آخر عن الإمام على عليه السلام قوله: «اشْجَعِ النَّاسَ اسْحَاهُمْ» (٢). ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّرَتِ الْأَشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكُذْبِ» (٣). فهذه الأحاديث الشريفة تقرر في كل واحد منهما فرعاً من فروع الشجاعة التي تندرج تحت المفهوم العام لهذه الكلمة. ١٢

## ضعف النفس والتوكل على الله

### تنويه:

وردت الإشارة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الإسلامية وكذلك سيرة الأنبياء والأولياء والصالحين وفي كتب علماء الأخلاق وأرباب السير والسلوك إلى مسألة «التوكل» بعنوان أنها من الفضائل الأخلاقية المهمة التي لا يتسنى للإنسان الوصول إلى مقام القرب الإلهي بدونها. والمراد من التوكل هو: تفويض الأمور إلى الله والاعتماد على لطفه، لأن (التوكل) من مادة (وكالة) بمعنى اختيار الوكيل والاعتماد عليه في تسيير الأمور، وبديهي أنه كلما كان الوكيل يتمتع بقدره أكبر واحاطة علمية أكثر فإن الشخص الموكل يشعر في قرارة نفسه بالهدوء والسكينة أكثر، وبما أن الله تعالى وقدرته لا-محدودة، فعندما يتوكل الإنسان عليه يشعر بالطمأنينة والسكينة تدغدغ قلبه وتنفذ إلى أعماق روحه، فتمنحه القدرة على التصدي للمشكلات والحوادث الصعبة، وأن لا يعيش الخوف من الأعداء والأخطار المختلفة، ولا- يرى نفسه في مأزق في حركة الحياة، فيسير بالتالي بقلب مطمئن وبطريق مفتوح متجهاً صوب أهدافه ومقاصده. الإنسان الذي يعيش التوكل على الله لا يشعر إطلاقاً بالحقارة والضعف بل يرى نفسه الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٢ وبالاعتماد على لطف الله وعلمه وقدرته المطلقة منتصراً وناجحاً في حياته الفردية والاجتماعية، وحتى أنه لو أصيب بالفشل أحياناً فإن ذلك لا يفرض عليه اليأس والقنوط. وعندما يتجلى مفهوم التوكل بمعناه الصحيح في واقع الإنسان وعلى سلوكياته فإن ذلك من شأنه أن يثير الأمل في القلب ويبعث على تقوية الإرادة وتحكيم دعائم المقاومة والشجاعة. إن مسألة التوكل لها دور

مهم في حياة الأنبياء الإلهيين، فعندما نستعرض الآيات القرآنية في هذا الباب نجدها تشير إلى أن هؤلاء الأنبياء واجهوا سلسلة الحوادث والمشكلات المدمرة والعظيمة بسلاح التوكل على الله، وكانت أحد الأسباب المهمة لانتصارهم وتغلبهم على هذه المشكلات هو كونهم يتمتعون بهذه الفضيلة الأخلاقية. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دروساً من سيرة الأنبياء الإلهيين في مسألة التوكل ودورها المهم في حياتهم العملية وذلك بالترتيب: (بدأ من نوح عليه السلام و انتهى إلى نبي الإسلام صلى الله عليه و آله). ١- «وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ» (١). ٢- «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» (٢). ٣- «رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (٣). ٤- «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٣-٥ «وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُكُمْ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (١). ٦- «وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ\* فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (٢). ٧- «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (٣). ٨- «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لِمَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» (٤). ٩- «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (٥). ١٠- «... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...» (٦).

### تفسير واستنتاج:

### معطيات التوكل في حياة الأنبياء

عندما نطالع القرآن الكريم في اطار حديثه عن سيرة الأنبياء نلاحظ أن القرآن يستعرض من صفات الأنبياء الإلهيين صفة (التوكل) بعنوان ابرز ظاهرة وصفه تتجلى في سيرة الأنبياء على طول التاريخ، حيث نجدهم يعيشون روح الاعتماد على الله والتوكل عليه في مقابل المصاعب والمشاكل الجمة التي يواجهونها في خط الرسالة والدعوة إلى الله، الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٤ وأنهم كانوا لا يرتبطون بأي شيء برابطة الاعتماد والتعلق سوى بالقدرة المطلقة للذات المقدسة. وبتبدأ من النبي نوح عليه السلام: «الآية الاولى من الآيات محل البحث تستعرض حياة نوح مع قومه المتعصبين والمعاندين حيث واجههم بكل شجاعة ودعاهم بالكلام الهادي والمتمرن والمنطقي من موقع الاعتماد على الله والتوكل عليه، فنقول الآية الشريفة مخاطبة نبي الإسلام: «وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ» (١). فما هو العامل المذى دفع بنوح مع قلة المؤمنين من حوله إلى التصدي لكل قوى الانحراف والأعداء المعاندين من قومه بهذه الشهامة والشجاعة والسخرية من قوتهم وعدم الاهتمام بقدراتهم وبمخططاتهم وأوثانهم؟ وبالتالي فقد وجه إليهم ضربة قاصمة على المستوى الروحي والنفسي. أجل لم يكن هذا العامل سوى الإيمان بالله والتوكل عليه، والعجيب أن نوح لم يكتف فقط بمواجهتهم من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام بقدراتهم ومعبوداتهم بل دعاهم إلى مبارزته وشجعهم على مواجهته، أجل فمثل هذا الإظهار للقوة واستعراض العضلات لا يتسنى في الحقيقة إلا لمن المتوكلين. ونظراً إلى أن سورة يونس التي تستبطن هذه الآية محل البحث، مكيّة، فإن الله تعالى أراد من المسلمين في مكة أن يلتفتوا حول نبي الإسلام صلى الله عليه و آله كالفراس الذي يدور حول المصباح ويظهرها من أنفسهم القوة والقدرة أمام الأعداء الشرسين وأن لا يعيشوا الخوف والرعب من هذه القدرات الموهومة مقابل قدرة الله ومشيبته. وعبارة (شركائكم) يمكن أن تكون إشارة إلى الأصنام التي جعلوها شريكاً لله تعالى، الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٥ وقد ورد هذا التعبير أيضاً في موارد اخرى كثيرة من القرآن الكريم. أو يكون المراد منه هو أتباعكم وأصدقائكم وأعوانكم، أى اجمعوا جميع قواكم وقدراتكم لتتحركوا بها في التصدي لى ولمواجهتى. وتأتى «الآية الثانية» للتحديث على لسان النبي هود الذى

عاش بعد عصر نوح عليه السلام وقد هدده قومه الوثنيون بالموت، ولكنه انطلق من موقع القوّة والتوكل على الله وقال لهم بصراحة كما تقول الآية: «... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ\* مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونِ\* أَنَّى تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» (١). واللطيف أن هود لم يكتف بعدم الاهتمام والاعتناء بقوى مخالفه من عبادة الأوثان وقدراتهم ومؤامراتهم بل انه سعى لتحريكهم وإثارتهم للتصدى له ومواجهته لكي يثبت لهم أن قلبه وروحه يرتبطان بقوة أخرى وانه بالتوكل على الله تعالى لا يعيش في نفسه أي شعور بالخوف من مؤامراتهم مهما عظمت قوتهم واشتدت قدرتهم، وهذا يدل على أن التوكل على الله يقود الإنسان إلى حيث المواقف الشجاعة والبطولية والسير في خط الاستقامة والحق. فما أعجب أن يقف رجل واحد بمفرده أو مع القليل من أصحابه مقابل هذه الكثرة الكاثرة من قوى الانحراف والأعداء الأشداء مثل هذا الموقف البطولي ويتحرك في مواجهته لهم من موقع الاستهزاء بتهديداتهم والسخرية بمؤامراتهم!! أجل فإن هذه من معطيات الإيمان والتوكل على الله في حياة الإنسان. وقد ذكر أحد المفسرين القدماء وهو (الزجاج) أن هذه الآية تعد من أهم الآيات التي تتحدث عن الأنبياء العظام والتي استعرضت فيها قصة نبي من الأنبياء يقف هذا الموقف البطولي في مقابل جماعات كثيرة من مخالفيه ويتحدث معهم مثل هذا الحديث الشجاع، ومثل هذا التعبير ورد في قصة نوح عليه السلام وكذلك في الحديث عن سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٦ والجدير بالذكر أن القرآن الكريم وبعد هذه الآية يتحدث عن أن هود عليه السلام خاطب قومه المعاندين بخطاب من موقع العقل والاستدلال وقال: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصَتِهَا» (١). ثم أضاف: إن قدرة الله تعالى ليست بالقدرة التي توحى لصاحبها بالغرور والانحراف عن خط الحق بل «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وعليه فأنا أعتد على من قدرته مطلقه وافعاله عين الصواب والعدالة. وتأتي «الآية الثالثة» لتشير إلى جانب من سيرة النبي إبراهيم عليه السلام وتوكله على الله في أحلك الظروف وأصعب الحالات التي يواجهها الإنسان وتقول: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ آبَائِي بَادِيًا غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (٢). فلو لم يكن إيمان إبراهيم كالجبل الشاهق، ولم يكن له قلب كالبحر المتلاطم، ولم يكن يعيش التوحيد والتوكل في أعلى مراتبه، فهل يمكنه كإنسان طبيعي أن يسكن زوجته وابنه الحبيب في صحراء قاحلة ومحرقة بلا ماء ولا كلاء ليس لشيء إلا مأمثالاً لأمر الله تعالى ثم يعود من هناك إلى وطنه الأصلي؟ هذه الحادثة العجيبة تذكرنا بحادثة أخرى في سيرة إبراهيم عليه السلام العظيم، وهي عندما وضعه مخالفوه وأعداؤه المعاندون في قفص الإنهام بسبب تحطيمه أصنامهم، فكان إبراهيم على وشك أن يقتل ولكنه مع ذلك لم يترك السخرية من أصنامهم وعقائدهم الزائفة وكان ينطلق في حوارهم معهم من موقع المنطق والدلائل القوية في عملية إبطال منطقتهم الخرافي وإثبات زيف مدّعاتهم الواهية. «الآية الرابعة» تشير إلى قصة شعيب عليه السلام الذي جاء بعد فترة من النبي هود عليه السلام وقبيل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٧ موسى عليه السلام، حيث وقف مقابل المشركين من قومه وتصدى لعقائدهم وتهديداتهم ومؤامراتهم من موقع الاستهزاء والسخرية، وكان يقول لهم في حكايته عن دعوته ورسالته السماوية: «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (١). أجل فأنا لا أخاف من شيء لاعتمادى على إيماني بالله والتوكل على ذاته المقدسة وسأستمر في خط الرسالة والدعوة إلى الله والإصلاح ما أمكنني ذلك وبالالتكال على الله. والجدير بالذكر أن شعيب ولغرض تنفيذ عملية الإصلاحات الواسعة التي كان يتحرك باتجاهها في مجتمعه الفاسد كان يعتمد على ثلاث دعائم: الأولى: تهيئة المقدمات للعمل من قبل الله تعالى حيث تشير إلى ذلك كلمة «توفيقى»، ثم بالإنطلاق من عزم راسخ واردة قوية بالشروع بالعمل والإصلاح، وذلك بقوله «عليه توكلت»، ثم أن تكون للإنسان المصلح دوافع سليمة وبناءة للقيام بعملية الإصلاح، وهو ما أشار إليه بقوله (إليه انيب). وتتحرك «الآية الخامسة» لتستعرض لنا كلام يعقوب لأولاده، ويعقوب هو الجد الأعلى لبني إسرائيل والذي كان يعيش في مضيقة شديدة في ذلك الزمان، فمن جهة فقد ابنه العزيز يوسف، ومن جهة أخرى كان يعيش القحط الشديد في كنعان الذي أصاب الناس في تلك المناطق، فكانوا يواجهون التحديات والظروف الصعبة بسبب ذلك، وبالتالي وجد نفسه مجبراً على أن يودع ابنه الآخر (بنيامين) بيد ابناؤه الآخرين الذين كانوا يعيشون الجفاف الروحي

والعاطفي، وذلك لغرض تحصيل القوت والطعام من أرض مصر ويحصلوا على المساعدة من عزيز مصر، وهنا أوصى يعقوب ابناؤه المتجهون إلى مصر بقوله: «وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَاتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَآ حِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ...» (٢). ثم أضاف: انني بهذه التوصية لا أستطيع أن أصدد عنكم البلاء أو أمنع عنكم ما قدر الله الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٣٨ لكم، «... وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (١). وعلى هذا الأساس فإن يعقوب أوصى أولاده بوصايا خاصة لمقابلة الحوادث المتوقعة، ولكنه أكد عليهم أنه بهذه التوصية لا يستطيع أن يقف مقابل الحوادث أو يضع تدبيراً حاسماً لجميع المشكلات والمصاعب التي سيواجهونها في سفرهم هذا، بل إن عليه أن يضع ما يمكنه من الحلول والتوصيات، وأما الباقي فيجب أن يتوكلوا على الله تعالى. وبهذا فإن يعقوب في الحقيقة قد أوصاهم بالتوكل على الله، وقد ذكر الدليل والسبب في تأكيده على هذا المعنى، وهو أن جميع الامور بيد الله تعالى: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ». إذن فينبغي على الإنسان أن يعيش التوكل والاعتماد على هذه القدرة المطلقة والتي لا توجد أية قدرة اخرى في مقابلها في عالم الوجود. ومن الواضح أن المراد بكلمة (الحكم) هنا هو (الحكم التكويني) لله تعالى في عالم الخلقة والتي تعود جميع الأسباب لديه وليست ناظرة إلى الحكم التشريعي. (فتأمل). وتعرض «الآية السادسة» إلى ما جرى بين موسى عليه السلام وقومه بنى إسرائيل، وذلك عندما أظهر موسى دعوته الإلهية وأبرز معجزاته العظيمة ولكن مع ذلك لم يؤمن به جميع بنى إسرائيل بل آمن به واتبعه جماعته منهم، في حين أن بنى إسرائيل كانوا مستضعفين بأجمعهم من قبل الفراعنة وكانوا يعيشون الخوف وشدة العذاب من قبل فرعون وقومه، فعندما نرى أن زوجة فرعون وبسبب اعلانها الإيمان بموسى عليه السلام قد وضعت تحت طائلة العذاب الشديد من قبل زوجها فرعون، فمن الواضح ما كان تعامل فرعون مع سائر بنى إسرائيل، ولهذا السبب فإن موسى بن عمران ولغرض ايجاد حالة من الطمأنينة والهدوء النفسى في قومه وإزالة عنصر الخوف والرعب المسلط عليهم أمرهم بالتوكل على الله، «وَقَالَ مُوسَى الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٣٩ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» (١) وهذا يعنى انكم لا يمكنكم التصدى لمثل هذا الحاكم الجائر ومواجهته من موقع القوة والخلاص من شره إلا بالتوكل على الله تعالى. ومن البديهي أن موسى عليه السلام نفسه كان في مرتبة متقدمة من هذا الأمر من حيث تجسيده لمعنى التوكل في ممارساته العملية، ولو لم يكن يتمتع بمقام التوكل فكيف يستطيع وهو راع للأغنام بدون أن يتمتع بأية قدرة ظاهرية مواجهته أعتى قوة وحكومة في ذلك الزمان؟ وهكذا لبى المؤمنون من بنى إسرائيل نداء موسى عليه السلام «فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا...» (٢). ثم توجهوا إلى الله تعالى وقالوا: «... رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (٣). والمقصود من (فتنة) في الآية الأخيرة هو ما قد يتعرضون له من التعذيب والتنكيل على يد أزام فرعون، وقد وردت هذه الكلمة في سورة (البروج) في مورد أصحاب الأخدود، وكذلك في الآية ٨٣ من هذه السورة مورد البحث والتي أشرنا إليها سابقاً. ويحتمل أن المراد من (الفتنة) في كلا الموردين هو عملية الإنحراف عن خط التقوى والطاعة والإيمان، لأن الفراعنة لو تسلطوا على المؤمنين لرأوا ذلك دليلاً على حقايتهم ولاستمروا في طريق الإنحراف بأقدام ثابتة وعزم راسخ أكثر من السابق. وتستعرض «الآية السابعة» في إطار الحديث عن الأزمنة التي تلت عصر موسى عليه السلام حيث كان بنو إسرائيل يعيشون العناء والظلم على يد سلطان جبار يُسمّى (جالوت)، فكان أن اضطروا إلى اللجوء لنبى لهم يُدعى (إشموئيل) وطلبوا منه أن يُعين لهم قائداً يقود جيوشهم نحو مواجهة جالوت والتخلص منه واستعادت أراضيهم وبيوتهم منه، فعين إشموئيل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٠ طالوت ملكاً وقائداً عليهم والذي كان شاباً قوياً وعارفاً بالامور ولاثقاً لهذا المقام من كل جهة، ولكن بنى إسرائيل رفضوا الإذعان لهذا التعيين، ثم قبلوا به أخيراً بعد أن بين لهم نبيهم الخصوصيات والمميزات الفريدة في طالوت. أمّا طالوت فقد اختبر جيشه بعدة اختبارات ليهيئهم أكثر من الناحية النفسية والروحية لجهاد العدو. والآية مورد البحث تتحدث عن الفترة اللاحقة لذلك حيث تستعرض منظر الواقعة بين طالوت وجيشه من جهة، وجالوت وجيشه العظيم من جهة اخرى، وتقول: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَائِياً وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَأَنْصَبْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (١). فصحيح أن جيش طالوت كان يعانى القلة في أفرادها بالنسبة لجيش جالوت الجرار وما يتمتعون به من سلاح وامكانات حربية واسعة، ولكن الشيء الذى أخل بالموازنة وأربك المعادلة لصالح

المظلومين من بنى إسرائيل وبالتالي كتب لهم النصر والغلبة على عدوهم القوي هو الإيمان بالله والتوكل عليه ومواجهة العدو من موقع الصبر والاستقامة في طريق نصره الحق. ولهذا السبب فإن الآية التي تليها تُصرح بهذه النتيجة الباهرة وتقول: «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ». وبديهي أن حالة الصبر والاستقامة هي السبب في ثبات القدم ورسوخ المواقع، وثبات القدم سببٌ لتحقيق النصر، ولهذا ورد ذكر هذه الامور الثلاثة بالترتيب في دعائهم المذكور في الآية الشريفة، ومعلوم أن روح هذه الامور الثلاثة تكمن في الإيمان والتوكل على الله تعالى. وتأتي «الآية الثامنة» لتتحدث عن نبي الإسلام ومقام توكله على الله تعالى، فعندما كان يواجه المشكلات والضغوط الصعبة في حركته التبليغية علمه الله تعالى كيف يتغلب على الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤١ هذه المشكلات الكبيرة وقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَمَا لَهُ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» (١). وهذه الآية توضح جيداً أن الإنسان مهما كان وحيداً فريداً مقابل تحديات الظروف الصعبة فإنه إذا كان يعيش التوكل على الله فلا يشعر بصعوبة هذه المشاكل، لأن الله تعالى هو رب العرش العظيم وذو القدرة اللامتناهية التي لا تعتبر القوى الاخرى شيئاً بالنسبة لها ولا تأثير لها في مقابل قدرة الله ومشيتته، فمن كان العرش والعالم الأعلى في قبضته فكيف يسمح لعباده المتوكلين عليه أن يخوضوا لوحدهم أمواج المشكلات أو يتركهم لوحدهم أمام أعدائهم الشرسين؟ ومما يجدر ذكره أن البعض يرون أن هذه الآية والتي هي آخر آية من سورة التوبة والآية التي قبلها هي من آخر الآيات التي نزلت على نبي الإسلام، واللطف أن الآيات الشريفة التي نزلت في أول البعثة تحوي هذا المضمون أيضاً وتدل على أن رأس المال الأصلي والدعامة الحقيقية لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك الزمان هي التوكل على الله، فنقرأ في الآية ٣٨ من سورة الزمر التي نزلت في تلك الأزمنة من بداية البعثة قوله: «... قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» وعليه فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يعيش التوكل في بداية البعثة وفي نهايتها وفي جميع الأحوال، وهذا الأمر هو السبب الأول في حركة النبي الأكرم في خط الاستقامة والثبات والنصر. «الآية التاسعة» تتعرض للحديث عن جميع الأنبياء السابقين من زمان نوح عليه السلام إلى الأنبياء الذين جاءوا بعده وتقول عندما واجه هؤلاء الأنبياء المخالفة الشديدة لأقوامهم ورأوا أنفسهم لوحدهم وقالوا: «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٤٢ مَاءً أَذِيتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (١). ونستوحى من هذه الآية أن التمسك بالتوكل على الله مقابل المشكلات والمصاعب الشديدة التي تفرضها الظروف الصعبة كان عمل جميع الأنبياء على طول التاريخ. وفي الواقع أنهم كانوا يقفون أمام طوائف الأعداء والمشاكل الكبيرة بالاستمداد من عنصر التوكل وينتصرون في نهاية المطاف، ومن هنا يتبين دور التوكل في حياة البشر وخاصة على مستوى القادة والمصلحين من الناس. وفي الحقيقة إنما يمنح الأنبياء القدرة والقوة رغم عدم وجود العدة والعدد في مقابل قدرة الحكومات الكبيرة وقوى الانحراف المختلفة ولا يشعرون مع ذلك بالتراجع والضعف والخوف هو حالة التوكل على الله والتي تجعل «ما سوى الله» في نظرهم صغيراً وتافهاً. والملفت للنظر أن الآية الواردة قبل هذه الآية (الآية ١١ من سورة إبراهيم) تقول: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». وفي هذه الآية الشريفة محل البحث نقرأ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». ومن إدغام هاتين الآيتين يستفاد أن المؤمن الواقعي هو المتوكل على الله، وكذلك يستفاد من هذه الآية أن التوكل وليد المعرفة والهداية الإلهية كما أن الصبر والاستقامة في مقابل اعتداءات الأعداء وتحركاتهم وليد التوكل (فتأمل). وتعرض «الآية العاشرة» إلى ذكر نتيجة واضحة للتوكل على الله بحيث تعمل على حث الجميع لطلب هذه الحالة في واقعهم، وتعددهم بالنجاة والنصر أيضاً وتقول: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (٢). وفي الواقع فإن الله تعالى أوعد جميع المتوكلين عليه بحل مشكلاتهم بشكل حتمي، ثم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٣ استعرضت الآية الشريفة الدليل على ذلك وقالت: «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ». وبديهي فإن مثل هذه القدرة المطلقة بإمكانها الوفاء بجميع الوعود وحل جميع المشكلات مهما كانت ثقيلة وصعبة، فكلها تحت إرادته ومشيتته. وجمله قد جعل الله لكل شيء قدراً يمكن أن تكون جواباً على سؤال مقدر، وهو لماذا نعيش أحياناً غاية التوكل على الله تعالى ولكن الحل والنصرة قد يتأخر؟ القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال بأنكم لا تعلمون مصالح الامور، فكل شيء يكون بحساب ويتطلب زمان وفرصة مناسبة، وكل حالة تكون مطلوبة في ظرفها الخاص،

ولهذا وبمقتضى أن «الأمور مَرْهُونَةٌ بِأَوْقَاتِهَا» فأحياناً تقتضى المصلحة تأخير النتيجة، وعليه فإنَّ العجلة والتسرع في مثل هذه الامور غير صحيح. ويشبه هذا المعنى ما ورد في الآية (١٦٠) من سورة آل عمران حيث نجد أن القرآن الكريم يقرر بأن النصر والهزيمة كليهما من الله تعالى وأنَّ طريق الوصول إلى النصر يمر من خلال التوكل على الله فتقول الآية: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

### النتيجة النهائية:

ونستوحى من الآيات المذكورة آنفاً والتي استعرضت سيرة أقدم الأنبياء الإلهيين إلى أن وصلت إلى نبي الإسلام أن مسألة التوكل في حياة البشر وجهاد الأنبياء وانتصارهم على المشكلات والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع بمثابة الأساس لكل هذه التحركات الإيجابية والمثمرة في سلوك الإنسان على المستوى المادى والمعنوى، وتدلل على أن هذه الفضيلة الأخلاقية بإمكانها أن ترتفع بالإنسان إلى مستويات عالية في سلم الكمال المعنوى، والنقطة المقابلة لها، أى عدم الاعتماد والتوكل على الله تعالى يتسبب في السقوط الحضارى والمعنوى للفرد والمجتمع.

### التوكل في الأحاديث الإسلامية:

#### إشارة

وتولى الروايات الإسلامية أهمية كبيرة إلى هذه الفضيلة إلى درجة أننا قلما نجد من الآثار الإيجابية والبركات على صفة من الصفات الأخلاقية الفاضلة مثلما ورد في حق هذه الفضيلة، وما سنذكره من الروايات الشريفة عبارة عن نماذج مقتطفة من كثير مما ورد في هذا الباب مما لا يسمح لنا المجال لاستيعابها جميعاً. ١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فِي التَّوَكُّلِ حَقِيقَةٌ الْإِيقَانِ» (٢). ٣- وفي حديث آخر عميق المعنى ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام في تفسير على بن إبراهيم حيث تقول الرواية: أنه لما وضعوا إبراهيم في المنجنيق، جاءه عمه آذر وصفعه على وجهه بشدة وقال له: ارجع عما أنت عليه، ولم يبق شيء إلا طلب إلى ربه، أن ينجي إبراهيم وقالت الأرض يا رب ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق، وقالت الملائكة مثل ذلك وجاء إليه جبرئيل في الهواء، وقد وضع في المنجنيق، فقال يا إبراهيم هل لك إلى من حاجة؟ فقال إبراهيم أما إليك فلا، وأما إلى رب العالمين فنعم. فدفن إليه خاتماً عليه مكتوب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، الْجَبَّتْ ظَهْرِي إِلَى اللَّهِ، اسْتَبَدَّتْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ» فأوحى الله إلى النار (كونى برداً وسلاماً) فاضطربت اسنان إبراهيم من البرد حتى قال (سلاماً على إبراهيم) فهبط جبرئيل وجلس معه يحدثه في النار وفي روضة خضراء، ونظر إليه نمرود فقال: «مَنْ اتَّخَذَ إِلَهاً فَلْيَتَّخِذْ مِثْلَ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ» (٣). أجل فإنَّ التوكل على الله تعالى قد حوّل النار إلى بستان جميل وجنته خلاية، هذا التوكل الذي منح إبراهيم القوة على ضبط النفس والهدوء والسكينة حتى انه لم يجد حاجة إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٥ التوسل بجبرئيل واعتبر ذلك ابتعاداً عن الله وخلافاً لمقتضى الإيمان والتوكل وانه لا بد من تحصيل الماء من العين الصافية نفسها. ٤- ويقول الإمام الصادق عليه السلام في تعبير آخر: «أَنَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَمَاذَا ظَفَرَا بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ أَوْطَانًا» (١). وهذا يعنى أن القلب الذي تحوّل إلى مركز للتوكل على الله فإنه يشعر بالغنى وعدم الحاجة لما سوى الله تعالى، وكذلك فإنَّ مثل هذا الإنسان يعيش العزة والقدرة لأنه يتحرك من موقع الاعتماد على القدرة المطلقة التي تتعالى على جميع القدرات الاخرى ولا تقبل الضعف والتردد واليهزاز. ٥- ونقرأ في حديث آخر بهذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَا يُغْلَبُ وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَا يُهْزَمُ» (٢). ٦- وورد في حديث آخر عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: «مَنْ



تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصَّعَابُ وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْأَسْبَابُ» (٣). وكيف لا يكون كذلك في حين أن (مسبب الأسباب) هو الله تعالى وكل شيء خاضع وخاشع له. ٧- وفي حديث آخر عن هذا الإمام انه أشار في كلامه إلى هذه الحقيقة، وهي أن التوكل ليس فقط يُعَدُّ من العوامل الخفية في باطن الكون بل من العوامل المؤثرة في نفس الإنسان وباطنه أيضاً حيث يمنحه القوة التي تتجيه من الوسواس والشبهات فقال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اضْأَنَّتْ لَهُ الشُّبُهَاتُ» (٤). ٨- وأيضاً ورد عن هذا الإمام في خطابه للناس جميعاً «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٤٦ وَأَتَّقُوا بِهِ فَإِنَّهُ يَكْفِي مِمَّنْ سِوَاهُ» (١). ٩- وعن جابر بن يزيد الجعفي أنه قال: خدمت سيد الأنام أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام ثمانية عشرة سنة فلما أردت الخروج ودعته فقلت له: افدني، فقال: بعد ثمانية عشر سنة يا جابر؟ قلت: «نَعَمْ أَنْكُمْ بَحْرٌ لَا يُتْرَفُ وَلَا يُبْلَغُ قَعْرُهُ». قال عليه السلام: يا جابر بلغ شيعتي عنى السلام وأعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عز وجل، ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة له، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا. يَا جَابِرُ مَنْ هَذَا الَّذِي سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْفِهِ؟ أَوْ وَتَقَّى بِهِ فَلَمْ يُنْجِهِ؟» (٢). ونجد في هذا الحديث الشريف أن التوكل على الله والثقة بوعده وكرمه، ودعاءه والطلب منه بعنوان ثلاث وسائل للنجاح والفلاح. أجل فإن الإنسان إذا توجه إلى العين الصافية واعترف منها الماء الزلال فلا حاجة له لأن يمدَّ يده إلى هذا وذاك. ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن لقمان الحكيم رغم وجود أحاديث كثيرة تقرر أهمية التوكل وآثاره الإيجابية الكبيرة على حياة الإنسان المادية والمعنوية، وذلك عندما أوصى لقمان ابنه بقوله: «يَا بُنَيَّ! تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ سَلْ فِي النَّاسِ، مَنْ ذَا الَّذِي تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟!» (٣). إن عظمة هذه الفضيلة الإنسانية الكبيرة، يعنى التوكل على الله في الأحاديث الإسلامية والنصوص الدينية الشريفة إلى درجة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح أكثر من الإخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٧ هذا، وبخلاف ما يقابلها من الحالة الدميعة التي تربط الإنسان بالقوى الأخرى الزائفة وتهبط به من أوج العزة والافتخار والاستقلال في أبعاد شخصيته الإنسانية إلى حيث الضعف والذلة والمهانة وبالتالي عدم القدرة على التغلب على التحديات التي يفرضها الواقع وعدم حلّ المشاكل التي تواجه الإنسان في حركة الحياة. وبعد بيان أهمية التوكل في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية نصل إلى مسألة تحليل هذه الفضيلة في أبعادها المختلفة وتوضيح بعض الزوايا المعتمة منها:

## ١- حقيقة التوكل

رأينا في ما تقدم أن (التوكل) من مادة (وكالء)، بمعنى ايداع الامور إلى الله تعالى والاعتماد على لطفه ورحمته، وهذا لا يعنى أن يعيش الإنسان حالة التكاسل وعدم التحرك في نشاطات الحياة بل عليه أن يبذل ما يمكنه من السعى والجهد في سلوك طريق الحياة بجديّة ولكنه في نفس الوقت يعيش حالة التوكل على الله بالنسبة إلى ما لا يجد في نفسه القدرة على تذليل الصعاب ويستمد من لطفه الجليل والخفية في ما يمنحه القدرة على الإستمرار في هذا الطريق. ويقول أحد علماء الأخلاق المعروفين في تفسير التوكل: «اعلم أن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معاني درجات المقربين، وهو في نفسه غامض من حيث العلم وشاق، وقال عليه السلام: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، بل انظروا إلى خلقه وعمله. ووجه غموضه من حيث العلم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتباعد عنها بالكلية طعن في السنّة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب انغماس في غمرة الجهل. والتحقق فيه أن التوكل المأمور به في الشرع هو اعتماد القلب على الله في الامور كلّها وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله تعالى دونها مجوزاً أن يؤتبه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب التي الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٨ حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها». ثم يضيف قائلاً: «وليس معنى التوكل - كما يظنه الحمقى أنه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم، فإن ذلك جهل محض، وهو حرام في الشرع، فإن الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك ممّا أحله الله» (١). ونقرأ في (المحجّة البيضاء) في بحث حقيقة التوكل قوله: «إعلم أن التوكل

من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا- تنتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، ومن عمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل». ثم يشرح بذكر بعض التفاصيل عن عنصر العلم الذي يمثل الأساس للتوكل، وبعد بيان مطول يصل إلى ذكر حقيقة التوكل التي هي عبارة عن الأساس الذي يبتنى التوكل عليه، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياء وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك فالمفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فإنه الفاعل على الافراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض» (٢). وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سئل: «مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطَى وَلَا يَمْنَعُ وَاشْتِغَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ». ثم قال صلى الله عليه وآله: «فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ وَلَمْ يَزُجْ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي أَحَدٍ سِوَى اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٤٩ ونقرأ في حديث آخر أنه سئل الإمام عليه السلام عن حقيقة التوكل فقال: «لَا تَخَافُ سِوَاهُ» (١). ويستفاد من هذه العبارات أن روح التوكل هي الانقطاع إلى الله وهجر التعلق بالمخلوقات والأسباب، وما لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فهو بعيد عن حقيقة التوكل، وكذلك يستفاد من الروايات الرافض الأکید للمفهوم السلبي من التوكل، أي ترك الاستفادة من الأسباب المادية، فقد ورد في حديث معروف أن رجلاً اعرابياً ترك ناقته وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «اغْلِقْهَا وَتَوَكَّلْ» (٢). ولهذا السبب ورد في الآيات الكريمة والسنة النبوية نصوص كثيرة توجب على المؤمنين الأخذ بالأسباب الظاهرية وأن ذلك لا يتقاطع مع روح التوكل من قبيل قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...» (٣). ومن جهة أخرى نرى أن القرآن الكريم يبين للمسلمين كيفية صلاة الخوف ويقول: «... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...» (٤). وعلى هذا الأساس نرى أن القرآن الكريم يوجب على المسلمين الأخذ بأدوات الحذر والحيطه تجاه العدو حتى في حال الصلاة، فكيف الحال في الموارد الاخرى؟ إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نفسه لم يتحرك في هجرته من مكة إلى المدينة من موقع اللامبالاة بالخطر وبدون تخطيط مسبق والاكتفاء بقول «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ»، بل تحرك على مستوى اغفال العدو بأن طلب من الإمام على عليه السلام من جهة أن ينام على فراشه إلى الصباح، ومن جهة أخرى خرج من مكة ليلاً وعلى أتم السريه والخفاء، ومن جهة ثالثة لم يتوجه شمالاً صوب المدينة مباشرة، بل توجه نحو الجنوب قليلاً وبقي في غار ثور لثلاثة أيام مختفياً عن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٠ الأنظار، وعندما بأست قريش من العثور عليه خرج من الغار متوجهاً إلى المدينة مستديراً حول مكة وكان يسير ليلاً وأحياناً يسلك الطرق غير السالكه حتى وصل إلى المدينة. إذن، فروح التوكل التي كان يعيشها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بجميع وجوده واحساساته لم تمنعه من الأخذ بالأسباب الظاهرية. وأساساً فإن مشيئة الله تعالى قائمة على أساس أن يأخذ الناس في حركتهم لتحقيق مقاصدهم بالأسباب والوسائل الموجودة كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «أَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْرِيَ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بِأَسْبَابٍ فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» (١). وعليه فإن اهمال عالم الأسباب والمسببات ليس فقط لا يعد من التوكل، بل هو في الواقع اهمال للسنن الإلهية الموجودة في عالم الخلقه، وهذا ممّا لا ينسجم مع روح التوكل. ونختم هذا الكلام برواية تتعلق بزمان النبي موسى عليه السلام حيث ورد «أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَلَّ بَعْلَةً فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَعَرَفُوا عِلَّتَهُ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ تَدَاوَيْتَ بِكَذَا لَبُرَأْتَ. فَقَالَ: لَا- أَتَدَاوَى حَتَّى يَعْافِنِي مِنْ غَيْرِ دَوَاءٍ، فَطَالَتْ عِلَّتُهُ فَقَالُوا لَهُ: إِنْ دَوَّاهُ هَذِهِ الْعَلْمَةُ مَعْرُوفٌ مَجْرَبٌ وَإِنَّا تَدَاوَى بِهِ فَنَبْرَأُ. فَقَالَ: لَا أَتَدَاوَى، فَدَامَتْ عِلَّتُهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَأُكَ حَتَّى تَدَاوَى بِمَا ذَكَرْتَهُ لَكَ»، فَقَالَ لَهُمْ: دَاوُونِي بِمَا ذَكَرْتُمْ، فَدَاوَاهُ فَبْرَأَ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: «أَرَدْتَ أَنْ تَبْطُلَ حِكْمَتِي بِتَوَكُّلِكَ عَلَيَّ، فَمَنْ أَوْدَعَ الْعَقَاقِيرَ مَنَافِعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِي» (٢). هذا الحديث الشريف يوضح لنا حقيقة التوكل. وعندما نرى أن إبراهيم الخليل عليه السلام لا يمدّ يده إلى الملائكة في اللحظات الحرجة ولا يطلب إليهم انقاذه من نار نمرود فإن ذلك لا يتعارض مع مسألة الاستفادة من الأسباب الطبيعية التي قرأناها في سيرة النبي

موسى عليه السلام، لأن التوسل بالأسباب المادية والطبيعية لم تكن واردة في قصّة إبراهيم عليه السلام بل تحكى عن نوع من الاستمداد وطلب النجاة من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥١ الأسباب الغيبية وغير الطبيعية، ولهذا لم يقبل إبراهيم عليه السلام في هذه المرحلة بالذات أن يمد يده إلى ما سوى الله تعالى (فتدبر).

## ٢- معطيات التوكل وآثاره الإيجابية

بما أنّ التوكل على الله في الحقيقة يفوض أمره وحاله وعمله إلى الله تعالى، ويعلق أمله بالقدرة اللامتناهية والذات المقدسة العالمة بكل شيء، ويعتمد على الله الذي بإمكانه أن يحلّ له جميع المشكلات ويسهل عليه ما عسر من الصعوبات، فإنّ أثر إيجابى يخلقه التوكل في واقع الإنسان هو أن يثير في نفسه مسألة الاعتماد على الذات ومقاومة المشكلات والوقوف على قدميه أمام سيل الحوادث الكبيرة في حركة الحياة. ولو أنّ شخصاً وجد نفسه وحيداً في ميدان القتال مع الأعداء فإنه مهما كان قوياً ومستعداً للقتال فإنه سرعان ما يجد الضعف يدبّ في نفسه ويفقد اعتماده على نفسه، ولكن إذا أحسّ بأنّ جيشاً قوياً يدعمه من الخلف فإنه سيشعر بالقدرة الفائقة والشجاعة رغم عدم امتلاكه لأدوات القوة ورغم ضعفه الذاتى. وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في الأحاديث الإسلامية أيضاً، ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «كَيْفَ أَخَافُ وَأَنْتَ أَمَلِي وَكَيْفَ اضْمَأْمُتُ وَأَنْتَ مُتَكَلِّبِي» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَمَّا يُعْلَبُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَمَّا يُهْزَمُ» (٢). أجل فكلّ إنسان يتوكل على الله فإنه يعيش الغنى وعدم الحاجة ويشعر بالعزة والكرامة كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أَنَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يُجُودَانِ فَإِذَا ظَفَرَ الْإِحْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٥٢ بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ أَوْطَأْنَا» (٣). ومضافاً إلى ذلك فإنّ التوكل يُبعد عن الإنسان كثير من الصفات الرذيلة من قبيل الحرص والحسد وحب الدنيا والبخل وغير ذلك، لأنّه عندما يفوض الإنسان أمره إلى الله تعالى ويعلم انه القادر على كلّ شيء والعالم بحاجته وفقره فإنه سوف لا يبقى أثر لهذه الحالات السلبية في واقعه ونفسه. فعندما يقرأ المؤمن هذه الآية الشريفة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (٤) يجد نفسه غارقاً في أسر التوفيق وغير محتاج إلى أى إنسان، كما ورد في بعض الأدعية قوله: «اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْثَقِينِ وَاكْفِنِي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ» (٥). ومن جهة رابعة فإنّ التوكل يزرع في قلب الإنسان نور الأمل الذي بإمكانه أن يمنح الإنسان القدرة والقوة في حركته ويذهب عنه عنصر التعب المسلط عليه، ويشعر بالاستقرار والهدوء النفسى في كلّ الأحوال، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كلام مختصر وعميق المعنى «لَيْسَ لِمُتَوَكِّلٍ عَنَاءٌ» (٦). ومن جهة خامسة فإنّ التوكل على الله يزيد من ذكاء الإنسان وقدرته الذهن على التفكير الخلاب، ويفتح آفاقه المعرفية، فيرى الأشياء من موقع الوضوح فى الرؤية، لأنّه ومع غضّ النظر عن البركات المعنوية لهذه الفضيلة الأخلاقية فإنّ التوكل يتسبب فى أنّ الإنسان لا يجد فى نفسه قلقاً واضطراباً مقابل المشكلات التى تفرزها الظروف الصعبة فى حركة الواقع، وبذلك تحفظ له قدرته على التصميم الجدى والهادف الذى ينطلق من موقع التفكير المتزن بحيث يجد طريق الحلّ أمامه بسهولة. ومن ذلك نقرأ فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الْإِحْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٥٣ اضْمَأْمُتْ لَهُ الشُّبُهَاتِ وَكَفَى الْمُؤُونَاتِ وَإِمْنِ التَّبَعَاتِ» (٧).

## ٣- أسباب التوكل

إن التوكل كسائر الفضائل الأخلاقية له أسباب ودوافع عديدة، ويمكن القول أنّ أهمّ الأسباب والعوامل التى تمثل البنى التحتية لصرح التوكل هو الإيمان واليقين بالذات المقدسة والمعرفة بصفات الجمال والجلال الإلهية. عندما يقف الإنسان على قدرة الله وعلمه الواسع من موقع الوضوح والإدراك التام وأنّ جميع المخلوقات فى عالم الوجود ما هى إلا أدوات مسخرة للقدرة الإلهية المطلقة، ويدرك جيداً مفهوم «لَمَّا مُؤْتَرِّفِي الْوُجُودِ أَلَّا اللَّهُ»، فإنه يرى نفسه وقلبه معلقاً بهذا الواقع الغيبى، ويرى عالم الوجود ميدان واسع

للألطاف الإلهية العظيمة، ومن هذا المنطلق يجد في نفسه حالة التوكل على الله تعالى ويفوض أمره إليه ويترك باباً في الأزمات والشدائد والمشكلات التي تواجهه في واقع الحياة، ويطلب منه أن يعينه في حلها والتغلب عليها (مع اقتران ذلك بسعيه وعمله). وبعبارة أخرى إن التوكل هو ثمرة لشجرة (التوحيد الأفعالي) هذه الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن أهم ما يتناول الإنسان منها هو ثمرة التوكل. وقد أشارت الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية كراراً إلى هذه العبارة الشريفة، ومن ذلك أنها وردت في سبع آيات من القرآن الكريم وهي: «وَعَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». أي إن الإنسان الذي يعيش الإيمان يجب عليه أن يتوكل على الله فقط، وهذه العبارة تبين جيداً الرابطة الوثيقة بين الإيمان والتوكل. ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «التَّوَكُّلُ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٤ ويقول في حديث آخر: «أقوى الناس إيماناً أكثرهم توكلاً على الله سبحانه» (١). وقد ورد في الحديث الشريف عن الأصمغ ابن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام في ما يقرأه الإنسان في سجوده يقول: «وَاتَوَكَّلْ عَلَيْكَ تَوَكَّلْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢). ومما يجدر ذكره أن الأشخاص الذين يعيشون الخوف والجبن ليسوا من أهل التوكل، لأن التوكل على الله يُزيل من روح الإنسان ونفسه ظلمة الخوف والجبن ويمنحه الشجاعة والشهامة في التصدي لمعالجة الظروف الصعبة. عندما تتأمل جيداً في هذه المسألة يتضح لنا دور اليقين والإيمان بصورة أكبر في منح الإنسان عنصر التوكل وتطهير نفسه من شوائب الخوف والجبن، لأنه كلما كان إيمان الفرد أقوى وأشد ابتعد عنه الخوف والجبن مسافات أكبر. ولا ينبغي إهمال هذه الملاحظة، وهي أن مطالعة معطيات التوكل والتدبر في آثاره الإيجابية وقراءة حالات المتوكلين على الله وتاريخ حياتهم بإمكانه أن يورث الإنسان روح التوكل على الله ويقوى في وجوده وقلبه هذه الشجرة الطيبة المثمرة.

#### ٤- درجات التوكل

رأينا ممّا تقدّم من البحوث السابقة السبب الذي يدفع بعض الناس لأن يعيشوا التوكل في مرتبة الشديدة والبعض الآخر في مرتبة أدنى حيث تبين لنا أن التوكل هو وليد الإيمان، وكلما اشتد إيمان الفرد بالله تعالى وصفاته واسمائه الحسنى فإن ذلك من شأنه أن يزيد من نسبة توكله بهذا المقدار، فالتوكل المذموم كان يعيشه إبراهيم كان وليد إيمانه الراسخ، وكذلك التوكل العجيب لأmir المؤمنين عليه السلام الذي تجلّى في (ليلة المبيت) (ليلة المبيت) (الليلة التي نام فيها أمير المؤمنين عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله وهاجر فيها النبي إلى المدينة). كذلك وليد إيمانه القوى والراسخ، وهذه الحالات من التوكل نجد لها لدى المؤمنين في مراتب متوسطة أو أقل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٥ من ذلك بنسبة إيمانهم بالله تعالى. وقد سأل شخص الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن مفهوم هذه الآية: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» فقال له الإمام عليه السلام: «التَّوَكُّلُ دَرَجَاتٌ» ثم أضاف: «مِنْهَا أَنْ تَتَّقَى بِهِ فِي امْرُوكِ كُلِّهِ فِي مَيَا فَعِيلَ بِحِكِّ فَمَا فَعَلَ بِكَ كُنْتَ رَاضِيًا وَتَعَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَأْلَكَ خَيْرًا وَنَظْرًا، وَتَعَلَّمَ أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ لَهُ، فَتَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِتَقْوِيصِ ذَلِكَ إِلَيْهِ» (١). وقد ذكر بعض علماء الاخلاق للتوكل ثلاث مراتب: الاولى: أن يعيش الإنسان الاعتماد والاطمئنان والثقة بالله تعالى كما يطمئن الإنسان ويثق بوكيله عندما يجده لائقاً ومخلصاً فيفوض اموره إليه (دون أن يفقد اصالته واستقلاله بهذا الاعتماد والثقة) وهذه هي أضعف مراتب التوكل. الثانية: أن يكون حاله في اعتماده على الله وثقته بنفسه كحال الطفل بالنسبة لأمه، فالطفل في بداية الأمر لا يرى شيئاً سوى أمه ولا يعتمد على غيرها إطلاقاً، فما أن يراها حتى يتعلق بها، وعندما يجد نفسه لوحده فإنه بمجرد أن يصيبه شيء أو حادثه فإنه يطلب أمه فوراً ويبكى أيضاً في طلبها. ولاشك أن هذه المرتبة من التوكل أعلى من السابقة، لأن الإنسان في هذه الحالة يجد نفسه غارقاً في تجليات الحق ولا يرى أحداً غيره ولا يطلب من أي أحد حل مشكلاته إلا من الله تعالى. المرتبة الثالثة: وهي بدورها أعلى من المرتبة الثانية في سيلم الكمال المعنوي، وهي أن يجد الإنسان نفسه عديم الإرادة والاختيار، فكلماً أراد منه الله شيئاً ورضى به كان رضاه بذلك الشيء وتعلقت إرادته بذلك الشيء أيضاً، وكلما علم أن الله لا يريد ذلك الشيء فإنه لا يُريده أيضاً.

بعض العلماء يرى أن توكل إبراهيم عليه السلام كان يحكى عن هذه المرتبة الثالثة، عندما الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٦ وضعوه في المنجنيق وأرادوا قذفه في النار المهيبه، ولكنه مع ذلك لم يطلب شيئاً من الملائكة على مستوى انقاذه من الهلكة، وعندما قالت له الملائكة: هل لك حاجة؟ قال: لي حاجة ولكن ليست إليكم، وعندما قيل له: اطلب حاجتك من الله لينقذك من هذه النار المحرقة، فقال: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي» (١). وهذه الدرجة العاليه من التوكل يندر وجودها بين الناس، وهي من خواص مقام الصديقين الذين يعيشون الذوبان والعشق للذات المقدسه والغرق في صفات جماله وجلاله.

## ٥- طرق تحصيل التوكل

لقد ذكر علماء الأخلاق طرقاً للتوصل إلى حالة التوكل وكل منها بمثابة عامل مؤثر لاكتساب هذه الفضيلة الأخلاقية الكبيرة، ومن ذلك: التوجه إلى حالة (التوحيد الأفعالي) وأن يعلم الإنسان يقيناً بأن كل شيء في عالم الوجود متصلًا بذاته المقدسه ومرتبطة بها وأن الله تعالى هو مصدر عالم الوجود والعلمه التامه لوجوده ووجود الكائنات وانه مسبب الأسباب، فلا- مؤثر في الوجود إلا بأمره وكل المخلوقات إنما تفتتت من صفات مائده فضله ورحمته وكرمه. فبعد التأمل والتدبر في هذه الامور يعود ينظر إلى حالاته الذاتيه ليرى كيف أن الله تعالى اخرجه من صقع العدم والظلمه إلى نور الوجود وألبسه رداء الوجود ومنحه كل تلك القوى والمواهب الكثيره الماديه والمعنويه ورعاه عندما كان في رحم امه في (ظلمات ثلاث) حيث لم تكن تصل إليه يد إنسان، ومع ذلك فإنه كان يتقلب في نعمه الله وفضله ولم يحتج إلى شيء إلا وأنعم الله به عليه. وبعد أن خرج من عالم الرحم إلى فضاء هذه الدنيا فإن الله تعالى وهب له كلما يحتاجه من شرائط الحياه وما يفتقر إليه في بقائه وسلامته، من لبن الام إلى محبتها ورعايتها والسهر الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٧ عليه ودفع الخطر عنه وأمثال ذلك. لقد وهب له الله تعالى معرفه كيف يرتضع من صدر امه وهداه إلى معرفه الطريق إلى تفعيل عواطفها وتسيير محبتها وحنانها تجاهه بحيث جعلها تخدمه ليل نهار في حين انها لا تجد في نفسها التعب من ذلك بل تحس باللذة وتشعر بالرضا بهذه الخدمه الشاقه والمتواصله. وعندما بلغ به العمر سن الرشد تواترت عليه نعم الله ومواهبه المختلفه من السماء والأرض واغرقتة في ألطافه وعاياته اللامتناهيه. أجل عندما يتفكر الإنسان بكل هذه الامور يتبين له جيداً أن كل شيء في عالم الوجود خاضع ومطيع لله تعالى، وينبغي عليه أن يفوض جميع اموره إلى الذات المقدسه ويتوكل عليه كما هو مضمون الآيه الشريفه: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (١). إن الإيمان الراسخ بهذه الحقائق بإمكانه أن يوصل الإنسان إلى مرتبه (التوكل) ويصعد به في هذه الصفه الكماليه إلى مراتب اخرى ويجعله في زمرة المتوكلين الحقيقيين. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٥٨ و ١٣ و ١٤

## الشهوه والعاف

### تنويه:

«الشهوه» في اللغة لها مفهوم عام يطلق على جميع اشكال الرغبات النفسانيه والميل إلى التمتع واللذة الماديه وأحياناً تطلق كلمه الشهوه على العلاقه الشديده بأمر من الامور الماديه. إن مفهوم الشهوه مضافاً إلى المفهوم العام يطلق أيضاً على خصوص «الشهوه الجنسيه»، وأما في القرآن الكريم فنلاحظ أن مفرد «الشهوه» استعملت بالمعنى العام وبالمعنى الخاص، وفي هذا البحث فإن مقصودنا من هذه الكلمه هو المعنى الخاص لأن تأثيراتها المخربه والمدمره أكثر من سائر أشكال الرغبات الجسديه الاخرى. «الشهوه» تقع في مقابل «العفه» والعفه أيضاً لها مفهوم عام ومفهوم خاص، فاما المفهوم العام هو ضبط النفس في مقابل الرغبات والميول النفسانيه والأفراط في اتباعها، واما المفهوم الخاص فهو ضبط النفس في مقابل متطلبات الغريزه الجنسيه والتحلل الأخلاقي. «العفه» تعتبر من الفضائل

الأخلاقية المهمة التي تساهم في ترشيد وتكامل المجتمعات البشرية بعكس الشهوة التي تقع في مقابلها والتي يوجب اتباعها سقوط الفرد أخلاقياً وانحطاط المجتمع في حركته الحضارية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٠ إن التحقيقات التاريخية تشير إلى أن المجتمعات التي كانت تتمتع بمقدار كافٍ من العفة كانت تتمتع بطاقات وقدرات حضارية وإنسانية وتعيش حالة من التقدم والتكامل على المستوى الفردي والاجتماعي وتعيش الأمن والهدوء والاستقرار في مستويات عالية، ولكن وبالعكس ذلك الأشخاص أو المجتمعات التي كانت غارقة في مستنقع الشهوات فإنها فقدت طاقاتها البناءة وقواها الحيوية وبالتالي أضحت مستسلمة لتداعيات قوى الإنحراف والسقوط الحضاري. وطبقاً لنظر الحقوقيين فإن «الشهوة الجنسية» تعتبر دعامة رئيسية في التورط في الجريمة والعدوان إلى درجة أنه قيل: إن في كل جريمة هناك عنصر «الشهوة الجنسية»، ولعل هذا التعبير مبالغ فيه، ولكن الحقيقة أن طغيان «الغريزة الجنسية» وطلب الشهوة يعتبر منشأً ومصدراً للكثير من الجرائم والانحرافات الفردية والاجتماعية، فقد سفكت بسببها الكثير من الدماء واتلفت الكثير من الأموال والثروات، وتم تسريب الكثير من الأسرار المهمة للحكومات والدول بواسطة النساء الجاسوسات من خلال استخدامهن لعنصر الجمال والجنسية، وبالتالي كانت هذه الغريزة هي السبب في التورط في الفصائح الأخلاقية على مستوى الشخصيات والدول. ومن خلال الآيات والروايات الشريفة، يمكننا أن نستوحي هذه الحقيقة، وهي أن «الشهوة الجنسية» تعتبر إحدى الوسائل والأدوات المهمة للشيطان، ونجد في القرآن الكريم اشارات متعددة لمفهوم العفة والشهوة في موارد مختلفة، وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تستنطق هذا المفهوم القرآني: ١- «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا»، (١) ٢- «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٦١ ٣- «وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ \* أَنْتُمْ كُنْتُمْ لَيَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١). ٤- «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَتَىٰ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ \* وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هُوَ لِي بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ \* قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بِنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانَرِيدٌ \* قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ \* قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَلُوا إِلَيْكَ فَاثْبِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مَنْ الْإِيلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِئَةٌ مِمَّا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا \* مَنْ سَجَلٍ مَنصُودٍ \* مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ» (٢). ٥- «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْبُدْرِ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ» (٣). ٦- «وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ \* إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ \* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مَنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ \* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ \* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» (٤).

## تفسير واستنتاج:

### آثار اتباع الشهوات في التاريخ البشري

«الآية الاولى بعد أن تذكر أسماء بعض الأنبياء الإلهيين وتستعرض صفاتهم الكريمة وخصالهم الحميدة تقول: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا» (١). وهنا تستثنى الآية المذكورة فوراً بعض الأشخاص الذين يحملون صفات متميزة وتقول: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» (٢). والجدير بالذكر أن الآية محل البحث تتحدث عن اتباع «الشهوات» بعد مسألة إضاعة الصلاة وتتبعها حالة الضلال والغي، ويمكن أن نستوحي من هذه العبارة أنها تشير من جهة إلى أن الصلاة تعد عاملاً مهماً في الحد من طغيان الشهوات وبالتالي العمل على تقويم سلوك الإنسان في طريق الحق

والانفتاح على الله بعيداً عن اشكال الإنحراف الأخلاقي وافرازات الأهواء النفسانية، وكما جاء في الآية ٤٥ من سورة العنكبوت: «... انَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» ومن جهة اخرى تشير الآية إلى أن عاقبة «اتباع الشهوة» هي الضلال والانحراف، كما نجد ذلك في الآية ١٠ من سورة الروم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّؤَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». أجل أن عاقبة هؤلاء هي الضلالة والزيف وما يستتبع ذلك من النتائج الوخيمة، أى الغضب الإلهي والعقاب الاليم في الآخرة. ومعلوم أن «الشهوات» في الآية محل البحث لها مفهوم واسع ولا تنحصر في «الشهوة الجنسية»، بل تستوعب في مفهومها كل أشكال الميول النفسانية والنوازع الدنيوية والأهواء الشيطانية، وطبعاً فإن الأشخاص الذين تابوا من بعد ذلك واستدركوا تورطهم في الذنوب بالعمل الصالح وتحركوا على مستوى تقوية إيمانهم القلبي الذي تعرض للاهتزاز بسبب الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٣ الولوغ في الخطيئة فإن عاقبتهم أنهم سيكونون من أهل الجنة بعد تطهير قلوبهم من الآثار السلبية لاضاعة الصلاة واتباع الشهوات. «الآية الثانية» وضمن بيان التقابل بين «الرجوع إلى الله» و «اتباع الشهوات»، والإشارة إلى أن هذين المفهومين لا يلتقيان في الإنسان في جهة واحدة بل يسيران به في جهتين مختلفتين تقول: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً» (١). أجل فالأشخاص الذين غرقوا في وحول الخطايا والشهوات يريدون أن يورطوا الآخرين في الخطيئة وممارسة الاثم ليكونوا من أمثالهم ويتلوثوا بالذنوب، في حين أن الله تعالى يريد للناس الطهر والنقاء القلبي بتركهم الشهوات وبعودتهم إلى الله، وبالتالي لينالوا المعرفة والصفاء والتقوى والسعادة الدائمة، ويقول الأعظم من المفسرين أن المراد من «الميل العظيم» هو هتك الحدود الإلهية والتلوث بأنواع الذنوب والخطايا، والبعض منهم يرى أن المقصود منها هو نكاح المحارم وأمثال ذلك التي ورد النهي عنها في الآية السابقة والتي هي في الواقع أحد مصاديق المفهوم أعلاه. والجدير بالذكر أن اتباع الشهوات الوارد في الآية الكريمة يمكن أن يكون له مفهوم عام، وكذلك يمكن أن يكون إشارة إلى الشهوة الجنسية بالخصوص، لأن هذه الآية وردت بعد آيات تحدثت عن حرمة نكاح المحارم والنساء المحصنات والجوارى والبغايا من الجوارى، وعلى أى حال فإن هذه الآية تقرر حقيقة مهمة في هذا المجال، وهي أن طريق «اتباع الشهوات» تتقاطع تماماً مع طريق «الانفتاح على الله». الآيات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة من الآيات محل البحث تتحدث عن قصة قوم لوط وتورطهم في إنحراف أخلاقي في دائرة الغريزة الجنسية، فالشهوة هنا امتزجت مع انحرافات جنسية كثيرة على طول التاريخ، وفي كل آية من هذه الآيات الكريمة هناك نكتة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٤ خاصة تشير إليها الآية القرآنية حيث نستعرضها ونشير إلى هذا المضمون الكامن فيها: «الآية الثالثة» تتحدث عن النبي لوط وتعرض خطابه لقومه في اطار التوبيخ الشديد حيث تقول: «وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ» (١). «الفاحشة» كلمة تطلق على كل عمل قبيح جداً، رغم أن المتعارف في المفهوم منها هو «الفحشاء الجنسي»، والآية الكريمة تشير إلى أن هذه الفاحشة قد بدأت من قوم لوط وأن إتيان المذكر أو ما يعبر عنه باللواط لم يكن قبل ذلك متداولاً في المجتمعات البشرية. ويستمر لوط في التحدث مع قومه بلسان الذم والتفريع ويقول: «أَأَنْتُمْ لَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ...» (٢). في هذه الآية نجد انها تشير إلى أحد العلل والأسباب لتحريم «اللواط» ألا وهو ظاهرة انقطاع النسل، لأنه لو تصورنا سريان هذا السلوك المنحرف إلى جميع أفراد المجتمع فإن هناك خطر انقطاع النسل البشري، وسوف تعيش الإنسانية حالة التهديد بالفناء والاندثار. بعض المفسرين ذهبوا إلى أن جملة «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» المذكورة في الآية أعلاه هي إشارة إلى عمل السرقة وقطع الطريق الذي كان يمارسه قوم لوط، وبعض ذهب انها إشارة إلى التعرض الجنسي للآخرين وللمارة الذين كانوا يمرون في طريقهم. «نادى» من مادة «ندى» بمعنى المجلس العام أو مجلس التفريح والترفيه حيث يتنادى الناس فيه وينادى بعضهم الآخر في مثل هذه المجالس. وبالرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر أن قوم لوط في مجالسهم الترفيحية هذه ماذا كانوا يرتكبون من منكرات اخرى، ولكن من الواضح أن أعمالهم الاخرى كانت متناغمة مع عملهم الشنيع هذا، وقد ورد في الروايات الشريفة أنهم كانوا يخلعون ملابسهم أمام الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٥ الآخرين ويمارسون حالة التعري والتلفظ بالألفاظ الموهنة والركيكة ويتحدثون بالكلمات القبيحة في ما بينهم ويقومون بأعمال وقحة

وممارسات قبيحة يخجل القلم عن ذكرها. قوم لوط هؤلاء كانوا قد غرقوا في مستنقع الشهوة إلى درجة أنهم أخذوا يستهزئون بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، ولهذا السبب فعندما سمعوا كلام لوط تعجبوا من ذلك وأنكروا عليه هذا التوبيخ والذنب لأفعالهم وقالوا له كما تقول الآية: «... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١). وبهذا فإنهم استهزؤا بعذاب الله وسخروا من كلام النبي لوط. وفي «الآية الرابعة» من الآيات محل البحث نجد إشارة إلى جانب آخر من قصة قوم لوط حيث تتحرك الآية لبيان حادثة الضيوف الإلهيين الذين نزلوا بهممة انزال العذاب في قوم لوط وجاءوا على شكل شباب ذى وجوه مليحة وجميلة إلى النبي لوط عليه السلام الذى لم يكن يعرفهم، ولهذا أبدى خوفه وأزعاجه لهذه الضيافة لما يعلم من سوء نية قومه اتجاه الغلمان والشبان فتقول الآية «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» (٢). وفي هذه الاثناء تسامع قوم لوط بالخبر فأرادوا السوء بهؤلاء الضيوف الكرام: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...» (٣). فلما رأى لوط ذلك منهم تألم بشدة لهذا الموقف المخزى من قومه تجاه ضيوفه وأراد التخلص منهم بشتى الطرق، ومنها انه عرض على هؤلاء الأشرار وبايثار عجيب بناته ليطم الحجة عليهم ويكفوا عن ممارساتهم الشنيعة: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ مِنَ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٦٦ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» (١). إن هؤلاء الأشرار أجابوه بمنتهى الوقاحة «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتْنَا مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ» (٢). أى انك تعلم إننا لا نحب مقاربه النساء وتعلم انحرافنا عن هذا المسلك الطبيعى فى إشباع الغريزة. وعندما رأى لوط هذه الوقاحة من قومه وتملكه اليأس من إصلاحهم أو دفعهم عن ضيوفه نادى من صميم قلبه ووجوده: «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ» (٣). أى يا ليتنى كنت امتلك القوة لأريكم جزاء عملكم الشنيع هذا أو أن لى عشيرة واتباع أقوياء يعينونى على دفعكم عن ضيوفى .. وتتحرك الآيات فى هذا السياق لتبين أن هؤلاء الضيوف الكرام اخبروا لوطاً بأنهم رسل الله لأنزال العذاب على قومه وأنهم مانعوه عن إيذاء قومه وعن أى تحرك عدوانى اتجاهه واتجاه ضيوفه، وأخبروه أن العذاب نازل على قومه حتماً غداً صباحاً، وسوف لا- يفلت أحد منهم من هذا العذاب الإليم والعقاب المخيف حيث ستقلب مدينتهم رأساً على عقب وتمطر السماء عليهم حجارةً من سجيل، وحين ذاك امروا لوطاً بالخروج مع أهله من هذه القرية باستثناء زوجته التى كانت مدهانة مع الأشرار ويتركوا مدينتهم إلى حيث ينجوا بأنفسهم من العذاب الإلهى. «الآية الخامسة» من الآيات محل البحث وضمن الإشارة إلى إنزال العذاب الإلهى على قوم لوط بسبب أعمالهم الشنيعة تقول: «كَذَبْتَ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذُرِ\* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٦٧ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ» (١). وهكذا تم اهلاك هؤلاء القوم الظالمين وإنقاذ آل لوط من هذا العذاب الإلهى المقيم وطبعاً باستثناء زوجته الخائنة التى شملها العذاب مع قوم لوط. وبالطبع كما ذكر فى هذه الآية كان يمثل قسماً من العذاب الإلهى على هؤلاء الأشرار، لأن القرآن الكريم يقول فى آية اخرى: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...» (٢). أى أن الزلزلة التى أصابتهم لم تدع لهم بناءً ولا أرضاً إلا قلبته رأساً على عقب ثم يقول: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ» (٣). هذا المطر من الحجارة يمكن أن يكون قسماً من الشهب المتناثرة فى الفضاء حيث نزلت هذه الشهب والنيازك بأمر من الله على اطلال هذه المدينة وأجساد أهلها المتناثرة. وهناك احتمال آخر فى معنى هذه الجملة، وهو أن كلمة «حاصب» تعنى العاصفة من الرمل حيث تنقل الرياح العاتية فى الصحراء كثبان الرمل من منطقة إلى اخرى فتظهر فى منطقة من الصحراء تلال من الرمل لم تكن موجودة قبل ذلك، بل تتكون فجأة من خلال مطر من الرمال والحجارة التى تحملها العاصفة الرملية بحيث تدفن معها قرى كاملة، وأحياناً تدفن تحتها قافلة من القوافل التجارية التى تجوب الصحراء. والجدير بالذكر أن هذه العواصف الرملية أو أمطار الحجارة قد تحدث بين الفينة والاخرى فى عالم الطبيعة، ولكن هذه المرة حدثت هذه العاصفة الرملية بأمر من الله تعالى بوقتٍ مخصوص ومكان معين كما أخبر بذلك ملائكة الله الذين ارسلوا إلى نبي لوط عليه السلام. ويوجد احتمال آخر فى هذا الصدد، وهو انه من الممكن أن تكون الزلزلة الشديدة قد أصابت هذه المدن والقرى ودمرتها عن آخرها ثم نزل عليهم مطر الحجارة السماوية، ثم الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٦٨ حلت بهم العاصفة الرملية لتمحو آثارهم وتفى ما تبقى من وجودهم، وهذا العذاب الإلهى بهذه المراحل



الثلاثة الشديدة يبين غضب الله تعالى على هؤلاء القوم الظالمين. «الآية السادسة» والأخيرة في هذه الآيات وضمن الإشارة الموجزة إلى قصة قوم لوط من بدايتها إلى منتهاها تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ لَفَاحِشَةً مَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ» (١). أجل، فإنكم تأتون الذكور لاشباع غريزتك الجنسية دون النساء، ولذلك فأنتم منحرفون عن السبيل القويم لأنكم تركتم القوانين والمقررات الطبيعية والسنن الإلهية لاشباع الغريزة وسلكتم مسلك الانحراف والزيف الذي من شأنه أن يؤدي إلى انقطاع النسل واشاعة أنواع المفساد الاجتماعية والأمراض التناسلية، ورغم أن مرض «الايديز» الموحش يعتبر أحد الأمراض العصرية الذي اكتشف مؤخراً، ولكن لا يبعد أن يكون هذا المرض موجوداً من ذلك الزمان أيضاً وقد أصيب به بعض هؤلاء الأشرار من قوم لوط، ولهذا السبب فإن الله تعالى بحكمته ورحمته قد دفن أجسادهم تحت كتبان الرمل والحجارة ليكون ذلك عبرة للآخرين من جهة، ونعمة للناس من جهة أخرى لمنع انتشار وسرايه هذا المرض إلى أنحاء أخرى من المعمورة. وعلى أي حال فإن هؤلاء القوم المجرمين كانوا على درجة من الوقاحة وعدم الحياء بحيث أنهم مضافاً إلى عدم اصغائهم لكلمات لوط عليه السلام، أرادوا إخراجهم مع أهله من مدينتهم بتهمته الطهر والنقاء حيث تتحدث الآية القرآنية في هذا السياق عن موقفهم المخزي هذا وتقول: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ» (٢). ولكن الله تعالى يحكي لنا عاقبة قوم لوط هؤلاء ومصير نبيهم الكريم حيث يقول: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ \* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ الْاِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٦٩ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» (١). أجل، إن هؤلاء كانوا قد غرقوا في وحول الخطيئة وتلوثوا بأدران الإثم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرون أن الطهر والنقاء من الإثم والذنب اثماً وخطيئة بحد ذاته، ولهذا كانوا يرون إنزال العقوبة على الأبرياء والطاهرين من الناس بتهمته الطهر وعدم التلوث بالمعاصي ويحكمون عليهم بالنفي إلى مناطق بعيدة ويخرجوهم من بيوتهم ولكن العذاب الإلهي كان لهم بالمرصاد، وقد حل بهم قبل أن يطبقوا أحكامهم المزرية على لوط وأهله. إن القسم المهم من هذه الآيات وضمن بيان العاقبة المخزية لاتباع الأهواء والشهوات بالمعنى والمفهوم العام والخاص يشير إلى أن هذا العمل الشنيع يعد منبعاً للكثير من الذنوب والممارسات الخاطئة التي تورث الفرد والمجتمع الانحطاط والسقوط الأخلاقي والاجتماعي وتدمر وتشتت على من يمارسون هذه الخطيئة.

### اتباع الشهوات في الروايات الإسلامية:

لقد أولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه المسألة اهتماماً كبيراً حيث نجد أن الكثير من المصادر الروائية تشير إلى عواقب هذا الفعل الشنيع وتحذر الناس من افرازات مثل هذه الممارسات الخطرة على الصعيد الديني والآخرى بحيث يجد القارئ نفسه متأثراً بشدة من عمق مدلول هذه الروايات الشريفة، فهي تقرر أن التلوث بالشهوات سواءً بمفهومها العام أو الخاص يعد من الموانع الأساسية التي تصد الإنسان عن سلوك طريق السعادة والكمال، وكذلك من الأسباب المهمة لاشاعة الفحشاء والمنكر في المجتمعات البشرية، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الروايات والأحاديث الشريفة: ١- ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مِمَّا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنَ آلِهِ يُعَذِّبُ مِنْ دُونِ اللَّهِ الْاِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٧٠ اعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ» (١). وبهذا يتضح أن اتباع الشهوة وهوى النفس يُعَذِّبُ من أخطر العوامل التي تقود الإنسان نحو منزلقات الخطيئة والانحطاط الأخلاقي. ٢- ويقول الإمام على عليه السلام «الشَّهَوَاتُ سِيمُومٌ قَاتِلَاتٌ» (٢) (حيث تقتل وتدمر شخصية الإنسان وإيمانه ومروته). ٣- وجاء في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «الشَّهَوَاتُ مَصَائِدُ الشَّيْطَانِ» (٣) (حيث يصطاد الشيطان أفراد البشر بهذه الوسيلة بكل زمان ومكان وفي جميع سنوات العمر). ٤- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام قوله «امْتَنِعْ نَفْسَكَ مِنَ الشَّهَوَاتِ تَسَلَّمَ مِنَ الْآفَاتِ» (٤). ٥- وجاء في حديث آخر عن الإمام «تَزُكُّ الشَّهَوَاتِ أَفْضَلُ عِبَادَةٍ وَأَجْمَلُ عَادَةٍ» (٥). ٦- يقول الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا غَضِبَ وَإِذَا رَغِبَ وَإِذَا رَهَبَ وَإِذَا اشْتَهَى حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ» (٦). ٧- يقول الإمام على عليه السلام في حديث آخر «ضَادُّوا الشَّهْوَةَ مُضَادَّةً الضِّدِّ ضِدَّةً وَحَارِبُوهَا مُحَارِبَةً الْعُدُوَّ الْعُدُوَّ» (٧). وهذا الكلام يقرر بمنتهاى الصراحة هذه الحقيقة وهي أن اتباع الشهوة يقع في الطريق المقابل

للسعادة والكمال الإنساني.

### عواقب اتباع الشهوة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام:

اما بالنسبة إلى عواقب اتباع الشهوات والأهواء الشيطانية فقد وردت تعبيرات عميقة للأحاديث الإسلامية ونحن نكتفي في هذا المجال ببعض ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ١- يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام «اهْجُرُوا الشَّهَوَاتِ فَإِنَّهَا تَقُودُكُمْ إِلَى رُكُوبِ الذُّنُوبِ وَالتَّهْجُومِ عَلَى السَّيِّئَاتِ» (١). ٢- وفي حديث آخر نجد أن هذه المسألة تشتد لعاقبة اتباع الشهوات أن الإنسان يخرج من الدين والایمان كلياً فتقول الرواية «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ تُفْسِدُ الدِّينَ» (٢). ٣- ويقول عليه السلام أيضاً: «طَاعَةُ الْهَوَى تُفْسِدُ الْعَقْلَ» (٣). ٤- «الْجَاهِلُ عَبْدٌ شَهْوَتِهِ» (٤) يعني إن الإنسان الجاهل يكون كالعبد الذليل المطيع لشهواته ونوازعه الرخيصة فلا اختيار له ولا حرية في مقابلها. ٥- وفي حديث آخر «عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَسِيرٌ لَا يَنْفِكُ اسْرَهُ» (٥). ٦- ويقرر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عاقبة اتباع الشهوة وانها تمثل الفضيحة والعار على صاحبها «حَلَاوَةُ الشَّهْوَةِ يُنْغَضِيهَا عَارُ الْفُضِيحَةِ» (٦). ٧- وفي حديث آخر يقرر الإمام عليه السلام أن الشهوة هي مفتاح جميع الشرور «سَبَبُ الشَّرِّ غَلْبَةُ الشَّهْوَةِ» (٧). ونظراً إلى أن كلمة «الشر» وردت بالألف واللام للجنس وذكرت بشكل مطلق فانها تدلّ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٢ على العموم وأن اتباع الشهوة يمثل منبعاً لجميع الشرور وأنواع الشقاء. ٨- ويشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديث آخر إلى هذه الحقيقة وهي أن غلبة الأهواء والشهوات على الإنسان تفضي إلى إيباد سبيل السعادة والهدى أمام الإنسان ويقول «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهَوَى» (١). ٩- يقول هذا الإمام في حديث آخر مشيراً إلى أن غلبة الشهوات يؤدي إلى ضعف شخصية الإنسان فيقول «مَنْ زَادَتْ شَهْوَتُهُ قَلَّتْ مُرُوتُهُ» (٢). ١٠- وفي حديث آخر يبين الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهي أن طريق الجنة يقع في الجهة المقابلة لاتباع الشهوة فيقول «مَنْ اشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سِوَا عَنِ الشَّهَوَاتِ» (٣). ١١- وفي رواية أخرى يقرر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة، وهي أن الحكمة تتقاطع دائماً مع الشهوة في قلب الإنسان ويقول «لَا تَسْكُنُ الْحِكْمَةُ قَلْبًا مَعَ شَهْوَةٍ» (٤).

### النتائج الوخيمة لاتباع الشهوة:

#### إشارة

ومن خلال الأبحاث السابقة اتضح بأن «الشهوة» لها مفهوم عام وواسع بحيث يشمل كل رغبة وميل نفساني يتيح للإنسان اللذة، وبهذا لا تختص بالشهوة الجنسية رغم انها أحياناً وردت بمعنى الشهوة الجنسية بالخصوص. وقد ورد هذا المفهوم في القرآن الكريم في أحد عشر مورداً بالمفهوم العام، ولكن يستفاد المفهوم الخاص في موردين، وأما في الروايات الإسلامية وكلمات علماء الأخلاق فقد وردت هذه الكلمة في الأغلب بمفهومها العام، وفي مقابل مفردة «العفة» التي تعنى الجام النفس وغض الطرف عن اللذائذ والذنوب. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٣ وقد ورد هذا المفهوم في النصوص الدينية في الأغلب بمعناه السلبي، ولكن أحياناً ورد بمعناه الإيجابي من قبيل قوله تعالى مخاطباً لأهل الجنة «... وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ...» (١) أو يقول في مكان آخر «... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُكُمْ وَتَلْمِذًا لَأَعْيُنٍ...» (٢). وعلى أي حال فإن هذه المفردة وردت في الأغلب بمعناه السلبي والذى يدل على الافراط في اتباع الأهواء والنوازع النفسانية وغلبة الميول المخربة والمفضية إلى الوقوع في الخطيئة والمعصية. وهكذا نجد أن هذه المفردة ومشتقاتها قد وردت في ثلاثة عشر مورداً في القرآن الكريم، ستة موارد منها تحمل المفهوم الإيجابي عن هذه المفردة، وسبعة أخرى تحمل في مضمونها المعنى السلبي. وعلى أي حال فإن «الشهوة» بأى معنى كانت إذا قصد منها المفهوم الخاص فإنها تستبطن الافراط في اشباع الشهوة وبالتالي يترتب عليها الآثار المخربة والنتائج الوخيمة المترتبة على هذا السلوك المفرط في طلب اللذة، وقد مرّت الإشارة إلى

هذه العواقب الوخيمة في الروايات والأحاديث المذكورة آنفاً، ولا بد من الازدعان إلى أن مسيرة التاريخ مملوءة من هذه النتائج والعواقب الوخيمة للأفراط في اشباع الشهوات ويمكننا الإشارة إلى هذه العواقب بشكل مختصر في ما يلي:

### ١- التلوث بالذنب

إن طلب اللذة وعبادة الشهوة يسوق الإنسان باتجاه منزلقات الإثم وارتكاب أنواع الذنوب، وفي الحقيقة انه يعد المصدر الأساس للذنب ومعصية الله تعالى لأن الشهوات إذا تغلبت على الإنسان فيمكنها أن تعمي وتصم الإنسان عن رؤية المخاطر ويكون مصداقاً للحديث النبوي الشريف حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» (٣) وبذلك تنقلب المفاهيم والحقائق الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٤ لدى العقل فيصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً. ولهذا السبب بالذات رأينا في الروايات السابقة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام (الرواية الثامنة) أن الإمام عليه السلام يصرح متسائلاً «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهَوَى (١)». ويشير الإمام عليه السلام في الحديث العاشر أيضاً إلى هذه الحقيقة وهي أن اتباع الشهوة يفسد شخصية الإنسان ويضعف مروثته، وكذلك قرأنا قوله في الحديث التاسع أن اتباع الشهوات بمثابة عبادة الوثن وبإمكانه أن يحطم إيمان الفرد ويتلف دينه، هذا وقد اورد المفسرون وأرباب الحديث في ذيل الآيات ١٦ و ١٧ من سورة الحشر قصة العابد من بنى إسرائيل والذي يدعى «برصيصا» الذي يُعَدُّ شاهداً حياً على هذا المدعى ولا بأس من استعراض هذه القصة النافعة رغم انها قد وردت في الكثير من الكتب المعروفة حيث نقل بعض المفسرين أن رجلاً من بنى إسرائيل يدعى «برصيصا» قد عبد الله زماناً من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعودهم فيبرؤون على يديه، وانه أتى بامرأة قد جُنَّتْ وكان لها أخوة فأتوه بها فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزئِن له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذهب الشيطان حتى لقي أحد اخوتها فأخبره بالمدى فعل الراهب وانه دفنها في مكان كذا، ثم أتى بقيه أخوتها، وهكذا انتشر الخبر فساروا إليه فاستنزله فأقر لهم بالمدى فعل، فأمر به فصلب، فلما رفع على خشبة تمثل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا الذي أوقعتك في هذا، فأطعني فيما أقول أخلصك مما أنت فيه، قال: نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة. فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة، فقال: اكنفى منك بالإيماء، فأومى له بالسجود فكفر بالله وقتل. فهو قوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر...». الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٥ نعم هكذا هو مصير من ابتلى بوسوسة الشيطان وسار في خطه.

### ٢- فساد العقل

إن اتباع الشهوات والأهواء النفسانية يُلقى على عقل الإنسان وفكره حجاباً قائماً يمنعه من التمييز بين الحق والباطل، وأكثر من ذلك حيث يقلب الحق في نظره إلى باطل ويجعل الباطل حقاً، وقد قرأنا في الروايات السابقة قوله عليه السلام «طَاعَةُ الْهَوَى تُفْسِدُ الْعَقْلَ» (١) ولهذا السبب فإن الكثير من طلاب الشهوة واتباع الهوى بعدما يرتكبون الممارسات القبيحة وتهدأ في باطنهم سورة الشهوة وتخمد نار الهوى فإنهم يعيشون حالة الندم الشديد على ما صدر منهم وأحياناً يتعجبون من أنفسهم على الحمافة التي ارتكبوها. وفي هذا الصدد نقرأ قول أمير المؤمنين عليه السلام «إِذَا ابْصَرْتَ الْعَيْنُ الشَّهْوَةَ عَمِيَ الْقَلْبُ عَنِ الْعَاقِبَةِ» (٢).

### ٣- تحقير شخصية الإنسان الاجتماعية

إن طلب الإنسان على اللذة من شأنه أن يهدم شخصية الإنسان ويحطم كيانه ومكانته الاجتماعية ويسوقه إلى هاوية الذلّة والمسكنة، لأن مثل هذا الإنسان يسعى في تحقيق رغبته وارضاء شهوته إلى تحطيم الاطر الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع ويرتكب الحماقات التي تفضي إلى أن يكون مهاناً وحقيراً في أنظار الناس، ومن البديهي أن الإنسان المذمى يعيش احترام الذات والمروءة فإنه

يشعر بنفسه على مفترق طرق عند اشتداد النوازع والشهوات، فأما أن يرضخ لمتطلبات الشهوة ويذعن لتحديات الهوى، أو يحتفظ باحترامه لذاته وكيانه الاجتماعي بين الناس، ومن العسير غالباً الجمع بين هذين الاتجاهين. وفي حديث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «زِيَادَةُ الشَّهْوَةِ تُزْرِي بِالْمُرُوءَةِ» (٣).

#### ٤- أسر النفس

وأحد النتائج الوخيمة لاتباع الشهوات والأهواء هو أن الإنسان يقع اسيراً لنوازع النفس ومقيداً بقيود الشهوة، فالإنسان الشهواني نجده يرضخ تحت اغلال الشهوات إلى درجة أن الابتعاد عنها وكسر هذه القيود يضحى بالنسبة له أمراً قد يصل إلى درجة المحال أحياناً، والمثال الواضح على هذه الحقيقة هو ما نراه من الحياة التعيسة والدليلة للمدمنين على المواد المخدرة، فإنهم في ظاهر الحال أحرار، ولكنهم في الواقع أسرى العادة والادمان الناشئة من أتباعهم لدواعي الشهوة فيعيشون حالة الأسر ويرزحون تحت قيود المواد المخدرة بحيث تمنعهم من أي حركة إيجابية ونافعة لأنفسهم ومجتمعهم وتطوقهم بأطواق حديدية تمنعهم عن أي انفلات ونجاة من هذا السجن المظلم، وخاصة إذا كان الهوى لدى الإنسان بمثابة أنواع من العشق الجنسي والشهوة الرخيصة للجنس الآخر، فحينئذ يصل الإنسان في عبودية الشهوة إلى الحد الأقصى يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد: «عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَسِيرٌ لَا يَنْفُكُ اسْرِرُهُ» (١). وفي حديث آخر يقول هذا الإمام عليه السلام: «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٌ تَحْتَ هَيْوَى أَمِيرٍ» (٢). وأيضاً ورد في حديث آخر أنه قال: «الشَّهَوَاتُ تَسْتَرْقُ الْجُهُولُ» (٣).

#### ٥- الفضيحة والعار

الفضيحة الاجتماعية هي أحد نتائج وافرازات الشهوة والرضوخ تحت مطالبها الرخيصة، وتاريخ البشرية مفعم بنماذج من حياة الشخصيات الممتازة والتي لها رصيد اجتماعي وافر ولكنهم وقعوا تحت تحديات الشهوة ومطالب الهوى فافضى بهم الحال إلى الفضيحة والعار. وقد ورد في هذا الصدد الكثير من النصوص الدينية والأدبية في تراثنا الإسلامي الأخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٧ والشعبي والتي توضح هذه العلاقة بين اتباع الشهوة وبين الفضيحة والمذلة والمهانة التي تصيب هذا الإنسان المنحرف كما نقرأ ذلك في قصة يوسف وزوجه عزيز مصر وكيف أن زوجه العزيز قد أدّى بها الأمر إلى الفضيحة والخزي رغم مقامها الشامخ لدى المجتمع المصري وكما يقول الشاعر: ان الهوى هو الهوان قلب اسمه فاذا هويت فقد لقيت هوانا (١)

#### عوامل وأسباب عبادة الشهوة:

#### إشارة

سبق وقلنا في البحوث السابقة، أن علاج المفسدات الأخلاقية يجب أن يبدأ من أسباب العلل والجذور، وتقدم أن علماء الأخلاق يهتمون اهتماماً كبيراً في مباحث هذا العلم بالبحث عن العلل والدوافع للسلوك الأخلاقي لدى الفرد، ولهذا السبب لابد من التطرق إلى العوامل والأسباب المؤدية إلى أن يسلك الإنسان طريق عبادة الشهوة. إن الرغبات والميول النفسانية والتي يعبر عنها بالشهوات وخاصة الشهوة الجنسية أمر طبيعي وموهبة الهية ومن عوامل حركة الإنسان نحو الكمال والتقدم في حركة الحياة والمجتمع، ولهذا لا يمكن إزالتها نهائياً من واقع الإنسان ولا يصح كبتها والسعي إلى تهميشها والغائها، والتحرك في سبيل ارضاء هذه الشهوات بالمستوى المطلوب وفي حد الاعتدال ليس فقط لا يوجد أي مشكلة في حركة الإنسان بل يُعد أحد العوامل التي توجب للإنسان التكامل والرقى

على المستوى التربوي والاجتماعي. وأما المفسد الأخلاقية المترتبة على اشباع هذه الشهوات فتكمن في طغيان الشهوة وخروجها عن موازين العقل والاعتدال في ارضائها. والآن لابد من النظر في العوامل التي تسبب خروج هذه الرغبات والميول الباطنية من سيطرة العقل بحيث تشكل للإنسان قوة مخربة وتكون من أدوات الانحراف، وهذه العوامل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٨ المؤثرة في ازدياد ظاهرة الانحراف في سلوك الإنسان الأخلاقي هي كما يلي:

### ١- ضعف الإيمان

إن ضعف الإيمان هو العلة الأصلية لتغافل الإنسان عن الأوامر والتشريعات الإلهية، فلو أن الإنسان كان يعيش بوجود الله دائماً في واقعه وقلبه ويراها حاضراً وناظراً إلى سلوكياته وأفعاله، ويرى محكمة العدل الإلهية يوم القيامة بعين البصيرة فإنه لا يمكن أن يتجرأ على كسر طوق الحدود الإلهية ويتجاوز على التشريعات الدينية ويتلوث بالشهوات والمفسد الأخلاقية. وهذا المعنى هو البرهان الإلهي الذي رافق يوسف في أحلك الظروف وانقذه من التورط في الإثم والمعصية التي توفرت جميع مقتضيات ارتكابها وارتفعت جميع الموانع لممارستها مع امرأة العزيز. فمع ضعف الإيمان وضعف التوجه إلى المبدأ والمعاد تتوفر حينئذ الأرضية الكافية لطغيان الشهوات بحيث يضحي الإنسان كالوحش الذي خرج لتوه من القفص، فلا يرى أمامه أي رادع ومانع حيث يهجم على كل شخص ويفترس كل ما يجده في طريقه من الأحياء. وهنا نلقى نظرة فاحصة على ما ورد في الحديث الشريف الذي قرأناه فيما سبق «مَنْ اشْتَقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنْ الشَّهَوَاتِ» (١). أحياناً يتحرك الإنسان لاشباع الشهوة والتحرر من قيود الدين والأخلاق إلى كسر سد الإيمان، وفي هذا يقول القرآن الكريم «يَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ- يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» (٢)؛ الإنسان هنا يريد أن يتحرر من القيود المعنوية لممارسة الخطايا بدون خوف من يوم القيامة، ولهذا يسأل سؤال انكار وترديد.

### ٢- عدم الاهتمام بالكرامة الاجتماعية والشخصية الإنسانية

إن عدم اهتمام البعض بالكرامة الاجتماعية وعدم اهتمامهم بشخصيتهم الإنسانية هو أحد العوامل التي تسبب للإنسان التلوث بأنواع الخطايا والتورط في وحل الشهوات، في حين أن احترام الإنسان لنفسه ولشخصيته الإنسانية وحيثيته الاجتماعية بإمكانه أن يقف حاجزاً ورادعاً عن ممارسة الخطيئة وطغيان الشهوة حتى عُدَّ من عدم الإيمان بالله والآخرة. ولهذا السبب نجد أن الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية في المجتمعات غير الدينية لا يستسلمون لطغيان الشهوة بسهولة ولا يقعون ضحية الأهواء والنوازغ الرخيصة وخاصة التحلل الجنسي أو غريزة الغذاء واشباع البطن، لأن مكانتهم الاجتماعية وسمعتهم وماء وجههم يقف سداً قوياً أمام طغيان هذه الشهوات، وعليه فإن من يستسلم لنداء الشهوات ويرضخ لتحدياتها هم فقط الأشخاص الذين يعيشون الحقارة وضعف الشخصية والدناءة.

### ٣- الغفلة والجهل

وأحد العوامل الاخرى للتلوث بهذه الرذيلة الأخلاقية هو الغفلة والجهل عن معطيات اتباع الشهوة وتأثيراتها السلبية في حركة الإنسان والحياة، لأن أكثر الرذائل الأخلاقية تترتب عليها آثار سلبية في دائرة السلامة البدنية والصحية، الشخص الذي يفرط في الطعام ويعيش حالة النهم إلى الغذاء واشباع البطن فإنه يبتلى بأنواع الأمراض البدنية، وكذلك الشخص الذي يفرط في الغريزة الجنسية فإنه يبتلى بضعف القوى البدنية ويورثه هذا السلوك تدميراً لشبكة الأعصاب ويورثه قصر العمر، وبالتالي يعرض سلامته الروحية والجسمية إلى الارباك والخلل. ولهذا نجد كثيراً من الأشخاص في المجتمعات غير الدينية يلتزمون في حياتهم بالموازين الصحية ويقيدون انفسهم

برعاية الاعتدال بالأكل والجنس، لأن الأطباء يوصون كثيراً في رعاية هذه الامور وينبهون الناس إلى نتائج الإفراط في إشباع هذه الشهوات الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٠ وعواقبها الوخيمة، وكذلك فإن المشكلات الاجتماعية الناشئة من اتباع الشهوات غير قابلة للانكار، فمن المعلوم أن افراط البعض في طلب التنوع في الأطعمة والاكثر من الغذاء هو السبب في أن يعيش البعض الآخر من الناس حالة الجوع وقلمة الغذاء، وهكذا الحال في التحلل الأخلاقي في المسائل الجنسية حيث يسبب القلق والاضطراب لدى أفراد الاسرة، وما أكثر ما يتسبب في سريان التلوث بالخطيئة إلى داخل الاسرة الواحدة. وعلى هذا الأساس فإن كل إنسان يلتفت جيداً إلى هذه الامور فسوف يحصل لديه العلم اليقيني بضرورة تقييد هذه الشهوات وضبطها من الانفلات والتحلل.

#### ٤- المعاشرة مع رفاق السوء

ومن العوامل الاخرى للانحراف في اشباع الشهوات هو العشرة مع رفاق السوء والمحيط الملوث وادوات الاعلام الفاسد وأمثال ذلك، فإن الغالب على رفاق السوء أنهم يدفعون من يعاشروهم إلى ارتكاب المحرمات والتلوث بالذنوب من خلال تعليمهم على الطرق المتنوعة لاشباع الشهوات بطرق ممنوعة بحيث يمكن القول أن أهم أسباب التلوث بالخطيئة والانحراف في اشباع الشهوة هو الاختلاط مع الملوئين والمنحرفين. وهكذا بالنسبة إلى أدوات الاعلام الفاسد والمحيط الاجتماعي الملوث تعتبر من العوامل المهمة للتلوث والانحراف، وفي هذا المجال تحدثنا في الجزء الأول عن «الأرضية المساعدة للفساد الأخلاقي» بشكل وافر وذكرنا بشكل مفصل أن العشرة والاختلاط مع الملوئين لا تفسد أخلاق الإنسان فحسب، بل قد تصل به إلى حد الكفر في دائرة العقيدة أيضاً، ويتحدث القرآن الكريم عن بعض أهل النار شارحاً لحالهم «وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا \* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا \* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا» (١). وهكذا نرى أن البيئة الفاسدة وعنصر التربية وما يقوم به الوالدان من أساليب خاطئة في مجال تربية الطفل بسبب ممارستهم للذنوب وانحرافهم عن الحق تعتبر من العوامل المؤثرة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨١ في تلوث الإنسان بظاهرة الانحراف وعبادة الشهوة، ولهذا نرى أن أغلب الأشخاص الذين كانوا يعيشون الأمان والطهر في حياتهم عندما يلج في مثل هذه البيئة الفاسدة والمحيط المنحرف سوف يتلوثون بالخطيئة ويفقدون إيمانهم السابق ويغرقون في بحر الذنوب والمفاسد الأخلاقية. وبما إننا بحثنا هذا المطلب في الجزء الأول في موضوع «كليات المسائل الأخلاقية» بشكل مفصل، فلذلك نكتفي بهذا المقدار من الإشارة إلى هذا المطلب المهم.

#### طرق علاج اتباع الشهوات:

#### إشارة

إن الطرق الكفيلة بعلاج المفاسد الأخلاقية تكاد تكون متشابهة في الاصول في جميع الموارد، وتتلخص هذه الطرق بنحوين: علمي وعملي.

#### ألف) الطريق العلمي

والمراد من الطريق العلمي هو أن الإنسان يفكر ويتدبر بالنتائج والآثار السلبية لطلب اللذة واشباع الشهوة ويرى كيف إن الإنسان المستسلم لشهواته يعيش الذل والأسر وإنهزام الشخصية والشعور بالدونية والحقارة والابتعاد عن الله تعالى، وهذا المعنى نجده واضحاً على سلوك اتباع الشهوة وطلاب اللذة الرخيصة وأنهم كيف يعيشون الضعف والوهن في شخصيتهم الإنسانية وكرامتهم الاجتماعية.

وعلى هذا الأساس فإن التأمل في هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية وكذلك التفكير في حال وسيرة «اولياء الله» واتباعهم المخلصين وكيف أنهم وصلوا مقامات سامية من التكامل الإنساني والأخلاقي بسبب محاربتهم للشهوات وامتناعهم عن سلوك طريق الخطيئة وصمودهم أمام تحديات الشهوة، مضافاً إلى ذلك فإن تقوية أركان العقل ودعائم الإيمان في قلب الإنسان يجعله قادراً على كبح جماح شهواته وغرائزه، وفي هذا المجال قال أمير المؤمنين عليه السلام «مَنْ كَمَلَ عَقْلُهُ اسْتَهَانَ بِالشَّهَوَاتِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٢ وفي حديث له عليه السلام «مَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ ظَهَرَ عَقْلُهُ» (١). وكذلك قال عليه السلام «كُلَّمَا قَوَّيْتَ الْحِكْمَةَ ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ» (٢). وفي حديث آخر يقول عليه السلام «أَذْكَرُ مَعَ كُلِّ لَذَّةٍ زَوَالُهَا وَمَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ انْتِقَالُهَا وَمَعَ كُلِّ بَلِيَّةٍ كَشْفُهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ ابْقَى لِلنَّعِيَةِ، وَأَنْفَى لِلشَّهْوَةِ، وَأَذْهَبُ لِلْبَطْرِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْفَرَجِ وَأَجْدَرُ بِكَشْفِ الْعَمَّةِ وَدَرْكِ الْمَأْمُولِ» (٣). وعليه فإن التفكير في العاقبة السيئة والآثار المخربة لاتباع الشهوات بإمكانه أن يصد الإنسان عن سلوك هذا الطريق، ولذلك نجد أن الأنبياء والقادة الإلهيين بذلوا جهوداً كبيرة في هذا السبيل ليخلصوا الناس من التورط في الخطايا والذنوب وينقذوهم من أسر الشهوات والأهواء. وفي حديث شريف عن رسول الله يقول «حَمْسٌ أَنْ أَدْرَكْتُمُوهُنَّ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوها، أَلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي سِيْلِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ أَلَّا أَخَذُوا بِالسُّنَنِ وَشَدَّةِ الْمُؤَنَّةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الرِّكَاءَ أَلَّا مَنَعُوا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ أَلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ وَأَخَذُوا بِعَضِّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَحْكُمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَلَّا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَسْهُمِهِمْ بَيْنَهُمْ» (٤). ولا شك أن التأمل والتدبر في هذه المعطيات والنتائج الخطيرة لها تأثير مستمر أو مؤقت في منع الإنسان عن ممارسة الخطيئة لارتكاب الذنب.

### (ب) الطريق العملي

ومن جهة اخرى فإن الطريق العملي لعلاج حالة «عبادة الشهوة» له وجوه وانحاء مختلفة منها: ١- إن أفضل الطرق العملية للنجاة من مستنقع الشهوة هو الاشباع الصحيح للغرائز البدنية والرغبات الجنسية بالخصوص، لأنه إذا تم اشباع هذه الرغبات الباطنية والميول البدنية من طرق سليمة وبأدوات صحيحة فإن بإمكانها أن تنقذ الإنسان من النتائج السلبية والمخربة المترتبة على اتباع الشهوات، وبعبارة اخرى انه لا- ينبغي للإنسان كبت هذه الغرائز والرغبات والتغافل عن ارضائها بل يجب أن يسير بها المسار الصحيح والبناء لتكون مفيدة ونافعة في حركة الحياة، وفي غير هذه الصورة يمكنها أن تتبدل إلى سيل مدمر ومخرب يهلك الحرث والنسل ولا يبقى للإنسان أى أثر من آثار الخير والصلاح. ولهذا السبب نرى أن الإسلام لم يهتم بالتسليّة والترفيه السليم والمعتدل فحسب بل عمل على حث الناس وترغيبهم في هذا الطريق لارضاء الغرائز، ومن ذلك ماورد في خطبة معروفة للإمام الجواد التي قرأها عند عقد زواجه حيث قال «أما بعد فقد كان من فضل الله على الأنام ان اغناهم بالحلل عن الحرام» (١). وفي هذا الحديث المعروف هناك إشارة إلى هذا المعنى أيضاً حيث تقول «للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يتأجى فيها ربه، وساعة يرمم معاشه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحرم» (٢). ٢- ومن الطرق الاخرى للنجاة من قيود الشهوات هو أن يضع الإنسان لنفسه برنامجاً دقيقاً لحياته، لأنه كلما سعى لبرمجة أوقاته في اليوم والليله «حتى لو كان البرنامج يتضمّن جانب الترفيه والرياضة البدنية» فإنه لا يكاد يجد برنامج للإنسياق وراء طلب اللذة وفراغاً كافياً لسلوك طريق الشهوة. ٣- ومن العناصر الاخرى لعلاج هذه الظاهرة أو الوقاية منها هو إزالة عوامل التلوث الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٤ بالخطيئة، لأن إمكانية التلوث بالشهوات في البيئه الملوثة يكون أكثر، أى لو كانت أسباب المعصية متوفرة وطرق الانحراف مفتوحة ووجود الحرية النسبية في ارتكاب الذنوب واتباع الشهوات فإن النجاة من التلوث بالخطيئة ولا سيما للشباب الذين لا يمتلكون من المعرفة الدينية إلا القليل سيكون أمراً عسيراً للغاية. ٤- احياء الشخصية المعنوية والإنسانية لأفراد المجتمع يعد من الطرق المهمة للعلاج أو الوقاية من التلوث بالشهوات، لأنه عندما يدرك الإنسان قيمة وجوده واعتباره وشخصيته ويعلم بانّه يمثل عصاره الخلقة والغاية العليا بعالم الكائنات وخليفه الله في الأرض فلا يبيع نفسه بسهولة ولا يسلمها إلى عناصر الشهوة

وقوى الإنحراف. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال «مَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ» (١) وفي حديث آخر يقول عليه السلام «مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْنَاهُ صَانَهُ عَنِ دَنَائِهِ شَهْوَتِهِ...» (٢). وآخر ما يقال في هذا المجال هو انه لابد من الاهتمام بالطريق العملي ليس للتصدى إلى الشهوات فحسب بل في جميع موارد مكافحة المفسد الأخلاقية لدى الفرد والمجتمع، بمعنى انه كلما سلك الإنسان طريق مكافحة أهوائه الفاسدة وأخلاقه المنحرفة وسار في الطريق القويم فإن هذه القوى والعناصر السلبية ستخف وستندثر في وجوده ونفسه وسوف ينتقل الإنسان في هذا السلوك إلى أن يعيش الحالة النفسية السليمة، ومن هذه الحالة ينتقل إلى العادة، ومن العادة ينتقل إلى الملكة حيث تتحول هذه الحالة والعادة إلى ملكة راسخة في نفسه وتكون بمثابة الطبع الكامل له، وعلى سبيل المثال إذا تحرّك الإنسان البخيل في علاج هذا المرض الأخلاقي نحو البذل والعطاء في دائرة الفعل والعمل، فإن نار البخل ستضعف وتخبو تدريجياً في باطنه إلى أن تنطفئ تماماً. فإذا تحرّك اتباع الشهوة أيضاً في هذا الطريق وسلوكوا مسلك التصدي والمقاومة أمام طغيان الشهوات، فإن هذه الشهوات والقوى المنحرفة الموجودة في باطنهم ستضعف وتخبو الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٥ تدريجياً ويحل بدلها عنصر العقيدة ويعيش الإنسان حينئذ روح الطهارة والنقاء والانفتاح على الله والمعنويات السامية. وهذا المعنى نجده واضحاً بكلام أمير المؤمنين عليه السلام «قَاوِمِ الشَّهْوَةَ بِالْقَمْعِ لَهَا تَظْفَرُ» (١).

### شهوة الأكل والجنس:

لقد أورد الأعاظم من علماء الأخلاق كالفيض الكاشاني في «المحجّة البيضاء» والمحقق النراقي في «معراج السعادة» والعلامة السيد شبّر في كتاب «الأخلاق» كلاً من شهوة البطن وشهوة الجنس بصورة مستقلة وبحوثهما كلاً على انفراد، وفي الحقيقة اتبعوا في ذلك ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في هذا المجال حيث ورد الاهتمام الكبير بهاتين الغريزتين. الفيض الكاشاني يذكر في كتابه «المحجّة البيضاء» هاتان الشهوتان ويقول: «أما بعد، فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذلّ والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبذت لهما سواتهما، والبطن على التحقيق مصدر الشهوات ومنبت الأدوية والآفات. إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه اللذين هما الوسيلة إلى التوسع في المطاعم والمنكوحات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسبات، ثم يتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى إلى ذلك الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم يفرض ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطن الشبع والامتلاء، ولو ذلّ العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٦ ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وايشار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا. وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحدّ وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها» (١). والأخطر من ذلك أن الأشخاص من اتباع شهوة البطن والفرج يفقدون دينهم ويتركون إيمانهم في هذا السبيل حيث نقرأ في ذيل الآية القرآنية «وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ» (٢). إن الله تعالى يذم اليهود الذين كانوا يشترون آيات الله ويبيعونها بثمن بخس، فقد كانت هناك مجموعة من علماء اليهود وأخبارهم يقومون بتحريف آيات الله من أجل اشباع نهم شهواتهم لغرض دعوتهم لمجالس البذخ وموائد الترف التي كان يقوم بها اليهود اتجاه علمائهم، وبهذا فهم باعوا عملياً آيات الله بثمن بخس «ولهذا انكروا وجود ذكر النبي الّذي يظهر آخر الزمان والّذي كان ينتظره اليهود والمذكور عندهم بالتوراة». وفي الروايات الإسلامية نجد بحثاً واسعاً عن اخبار هاتين الشهوتين حيث تشير إلى بعض هذه الموارد: ١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله «ثَلَاثٌ أَخَافُهُنَّ بَعْدِي عَلَىٰ أُمَّتِي الضَّلَالَةُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وَمُضَيِّمَاتُ الْفَتَنِ وَشَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ» (٣). المقصود من الضلالة بعد المعرفة هو أن يترك الإنسان الحق والطريق المستقيم



بسبب وساوس المنحرفين وشبهات المخالفين ويسلك سبيل الانحراف والزيغ والضلالة، وهذا المعنى موجود دائماً وفي كل زمان وخاصة في زماننا هذا. والمقصود من «مضلات الفتن» هو اشكال الامتحان الإلهي والاختبار الرباني لعباده الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٧ حيث يقع الإنسان أحياناً بسبب اتباعه للشهوات والأهواء في الخطيئة ويسقط في الامتحان، والمراد من «شهوة البطن والفرج» هو الإفراط في الأكل وطلب اللذة والأفراط في طلب اللذة الجنسية. إن سياق الحديث الشريف يوحى لنا بهذه الحقيقة، وهي أن الخطر المتوجه للناس والذي يهدد وجودهم بسبب هذه الامور الثلاثة هو خطر عميق وجدي. ٢- يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث آخر «أَكْثَرُ مَا تَلِيحُ بِهِ أُمَّتِي النَّارَ الْأَجْوَفَانِ الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ» (١). ٣- ويقول الإمام الباقر عليه السلام «إِذَا شَبِعَ الْبَطْنُ طَغَى» (٢). ٤- أيضاً يقول هذا الإمام في حديث آخر «مَا مِنْ شَيْءٍ ابْتَضُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَطْنٍ مَمْلُوءٍ» (٣). ٥- وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَا تَجْتَمِعُ الْحِكْمَةُ وَالشَّهْوَةُ» (٥). ٧- وقال هذا الإمام عليه السلام أيضاً في حديث آخر «مَا رَفَعَ أَمْرًا كَهَمَّتِهِ وَلَا وَصَعَهُ كَشَهْوَتِهِ» (٦).

## العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية

### تنويه:

تقع «العفة» في النقطة المقابلة ل «شهوة البطن والفرج» وتعتبر من أهم الفضائل الإنسانية والأخلاقية على السواء. ويقول الراغب الاصفهاني في كتاب «المفردات» في معنى العفة أنها حصول حالة للنفس تمتنع بها من غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطى لذلك. ويقول صاحب مقاييس اللغة في معنى العفة: «العفة في الأصل تأتي لمعنيين، الأول، الاجتناب عن القبائح، والآخر قلته الشيء، ولذا يقال للبن المتبقى في الرضع - عَفَّة - على وزن مَدَّة». ويقول مؤلف كتاب «التحقيق» عن مفهوم العفة: «مادة عَفَّة في الأصل بمعنى حفظ النفس من الميول والشهوات النفسانية، كما أن التقوى بمعنى حفظ النفس من ارتكاب الذنوب، وعلى هذا فالعفة صفة باطنية، في حين أن التقوى ناظرة إلى الأعمال الخارجية». وقد ذكر علماء الأخلاق في تعريف العفة انها الحد الوسط بين الشهوة والخمود. وما ذكرنا آنفاً من معنى العفة كان في مفهومها العام، لأن البعض قد أورد في تعريف العفة النقطة المقابلة لها، أي الوقاحة وتمزيق ستار الحياء، ولهذا السبب نجد أن أكثر موارد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٠ استعمال مفردة «العفة» تختص للمسائل الجنسية. وعلى أي حال فإن الاستفادة من آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية أن العفة (بكلتا المعنيين) تعد من أعظم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، ولا يمكن لأي شخص أن يسير نحو الكمال الإلهي ويسلك مسلك الانفتاح على الله من دون التحلي بهذه الخصلة الشريفة، ونجد في حياتنا الدنيوية أن كرامة الإنسان وشخصيته وسمعته رهينة بالتحلي بهذه الفضيلة الأخلاقية. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الكريمة هذا المفهوم السامي: ١- «لِلْفَقْرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ لَا يُسْئَلُونَ النَّاسَ إِنْ حَافُوا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» (١). ٢- «وَرَأَى وَدَّتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (٢). ٣- «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (٣). ٤- «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَى وَدَّتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيَشْجَنَنَّ وَيَكُونَا مِنَ الصَّاعِرِينَ \* قَالَ رَبِّ السَّيِّئُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ \* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩١ ٥- «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (١). ٦- «... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ...» (٢).

## التفسير:

## الفقر المتعش

في الآية الأولى يتحدث القرآن الكريم عن أفضل موارد الانفاق ويقول مخاطباً المؤمنين بأن انفاقكم يجب أن يختص بالفقراء الذين هاجروا من بيوتهم واطنانهم ولم يستطيعوا تأمين نفقاتهم واحتياجاتهم عن طريق الجهاد في سبيل الله أو السفر للكسب والتجارة «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَأَيْسَرَ تَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ» (٣). ثم يشير إلى خصوصية مهمة أخرى من خصوصيات هؤلاء الفقراء، وهي أنهم لشدة تعففهم وضبطهم لأنفسهم يحسبهم الناس أغنياء «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ...» (٤). أجل فإن هؤلاء يعيشون الضبط الأخلاقي لنوازع النفس ولا يرسلون السننهم بالشكوى رغم احتياجهم الشديد، ويسلكون مسلك الأغنياء بين الناس ولكن المطلع على أحوالهم يعرف حاجتهم ومسكنتهم من سيماهم. وبين القرآن الكريم سمة أخرى من سماتهم ويقول «لَأَيَسَّلُونَ النَّاسَ إِخْفًا...» (٥). فهؤلاء لا يطلبون قضاء حاجتهم من الآخرين مهما أمكنهم ذلك، ولو اشتد بهم الحال واضطروا إلى المسألة، فإنهم يفضلون اقتراض ما يحتاجونه من المال على السؤال من دون الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٢ أن يكون لديهم اصرار على الآخرين. وفي ختام الآية يقول تعالى «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» (١). أجل، فإن الأنفاق عمل إنساني وفضيلة أخلاقية وخاصة على من يتمتع بعزة النفس وعلو الطبع وعفة الروح. وبديهي أن المراد من «العفة» في هذه الآية هي العفة في المسائل المالية لا الامور الجنسية، وقد ذكر بعض المفسرين في شأن نزولها انها نزلت في «أصحاب الصفة» هؤلاء كانوا جماعة يبلغ عددهم أربعمئة نفر تقريباً من المسلمين المهاجرين من مكة وضواحي المدينة الذين لم يكن لديهم دار في المدينة ولا معارف وأقرباء فيها ولا عمل يتكسبون فيه، ولكنهم في نفس الوقت يعيشون في غاية التعفف في مكان خاص إلى جوار مسجد النبي صلى الله عليه وآله، وكان هؤلاء يتحركون نحو الجهاد في سبيل الله متى ما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا يتمتعون بعزة النفس والتعفف الشديد بالرغم من حاجتهم الشديدة وما يشعرون به من جوع. وعلى أي حال فالقرآن الكريم ذكر هؤلاء في الآية محل البحث بتعبيرات مختلفة من المدح والثناء وجعلهم اسوة لجميع المسلمين. في «الآية الثانية والثالثة» يتحدث القرآن الكريم عن عفة يوسف وطهارة ذيله في أحلك الظروف التي توفرت فيها جميع أسباب التورط في الإثم والمعصية ولكن يوسف حفظ نفسه أمام تحديات الواقع وضغوط الحالة واستعاذ بالله تعالى، فنجح في هذا الامتحان الإلهي الكبير وخرج منه مرفوع الرأس، وكما يذكر القرآن الكريم واصفاً هذه الحالة والحادثه التي حدثت ليوسف وامراه العزيز فيقول: «وَرَأَى دَرْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْمَأْتُونَ ابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٣ فلم تجذب ملامح يوسف ووجهه الجميل عزيز مصر فحسب، بل احبته زوجته العزيز أيضاً وعشقتة بشدة إلى درجة أن هذا العشق أثر اثره في نفس هذه الامراه وامتد إلى أعماق قلبها، وشيناً فشيناً تعمق في وجودها إلى درجة انها لم تعد تطيق كفته، ولكن النبي يوسف الذي كان يعيش العفة والطهارة والتقوى كان قد عشق الله تعالى ولا غير. هذا وقد استخدمت امراه العزيز الشابة الجميله شتى الطرق بمختلف الوسائل للوصول إلى هدفها، هذه الوسائل التي كان يكفي بعضها في تحريك أي شاب أعزب في عمر النبي يوسف، ولكن يوسف عاش حالة الصمود أمام تحديات الشهوة الشديدة وفوض نفسه وسفينه حياته إلى ذكر الله تعالى ورحمته، وإلا لكان الغرق في الخطيئة من نصيبه كما تصرح الآية التي تليها «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (١). إن عبارة «من عبادنا» وكذلك «مخلصين» من العبارات العميقة المعنى والتي وردت في هذه الآية بعنوان اوسمه افتخار ليوسف على موقفه الشجاع هذا. ورغم أن يوسف كان قد اتهم من قبل زوجته عزيز مصر بالخيانة مع عفته وطهارته بحيث يمكنها أن تودي بحياته، إلا أن الله تعالى قد وعد المؤمنين الطاهرين بالنجاة وانقذ يوسف بواسطة شهادة طفل رضيع في المهدي براءته وطهارته من التهمة بصورة إعجازية. وهناك مسطورات لبعض الأفراد الجهلة والمغرضين الذين ذكروا في تفسير هذه الآيات أن المقصود بقوله

«همَّ بها» هو أن يوسف بدوره همَّ بالمعصية ومقاربه زليخا، وكما هو المعلوم أن هذا المعنى لا يليق بمقام عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع سياق الآيات المذكورة أعلاه بل إن القرآن الكريم يصرِّح بأنه لولا برهان الله الذي أعان يوسف في وقت الشدة لكان قد همَّ بها، ولكن بما إن برهان الرب حلَّ في الوقت المناسب فإنه لم يقصد الخطيئة. وللغفر الرازي تعبير جميل في تفسير هذه الآية حيث يقول: «وأما أن إبليس أقرَّ بطهارته، فلائنه قال: فبعزتكم لأغوينهم أجمعين لإلِّعبادك منهم المخلصين، فأقرَّ بأنه لا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٤ يمكنه اغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: «انه من عبادنا المخلصين» فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام الفضيحة إن كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من اتباع إبليس فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته» (١). «الآية الرابعة»

تحدّث عن سيره النبي يوسف المليئة بالأحداث بعدما حصل بينه وبين امرأة العزيز ما حصل، وتشير إلى محنة أخرى وامتحان آخر للنبي يوسف «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَىٰ وَدَّتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَأَشْتَتِعَصَمَ» فعندما امتد خبر وقوع هذه الحادثة ليشمل جميع بيوت المدينة وعلم الناس بقضية العشق الملتهب الذي ألمَّ بقلب امرأة العزيز اتجاه غلامها، فإنَّ نسوة مصر اطلقن السستهنَّ باللوم والتوبيخ لامرأة العزيز، ولكنها لما رأت ذلك أرادت إثبات براءتها فأعدت مائدة كبيرة واستضافت النسوة المعروفات ونساء الشخصيات الكبيرة في مصر، ثمَّ طلبت من يوسف أن يخرج عليهن ويدخل عليهنَّ ذلك المجلس الحافل. وعندما وقعت أعينهنَّ على الجمال العجيب ليوسف ارتبكن بشدة وفقدن اختيارهنَّ وجرحنَّ أيديهنَّ بالسكين التي كانت بأيديهنَّ لتقطع الفاكهة وقلن جميعاً «حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ» (٢). فعندما رأت امرأة العزيز منهن ذلك ورأت انها قد انتصرت في هذا الموقف، توجهت إليهنَّ بالخطاب وقالت «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَىٰ وَدَّتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَأَشْتَتِعَصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيَشْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ» (٣). وكان هو ثاني امتحان صعب يمر بيوسف حيث وقع بين أمرين وطريقين، فاما أن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٥ يستسلم لنوازع امرأة العزيز ويُرضى هيامها وعشقها منه، وبالتالي يعيش حالة الترف والدلال والنعمة الدنيوية، واما أن يقاوم هذه الرغبة الممنوعة ويكون مصيره السجن وتحمل أنواع الضغوط والصعوبات. ولكن يوسف ومن دون أي ترديد انتخب الطريق الثاني وسأل الله تعالى أن يوفقه لذلك وقال «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ» (١).

ويتضح من سياق هذه الآية أن نسوة مصر اللواتي حضرن في مجلس امرأة العزيز قد دعون يوسف إلى التسليم لامرأة العزيز والرضوخ لطلبها، فكلَّ واحدة تحدّثت معه بأنواع الوسوسة فأحدهنَّ تقول: ايها الشاب ألم تر الجمال الأسر لامرأة العزيز، ألسنت تلتذ بالجمال وممارسة العشق معها؟ والاخرى تقول: إذا لم يؤثر في قلبك جمال هذه المرأة فلا ينبغي أن تنسى انها زوجة عزيز مصر، فلو استطعت أن تكسب قلبها فسوف يكون بإمكانك التمتع بالثروة والمقام وتمازج ما تريد في الحياة. الثالثة تحذره من أنك لو لم يؤثر فيك جمال هذه المرأة، ولم تكن تهم بمقامها ومكانتها الاجتماعية ولكنك يجب أن تعلم بأن هذه المرأة سوف تغضب عليك وتتحول إلى موجود خطر يهدد حياتك، وسوف تنتقم بنفسها وترسلك إلى قعر السجون المظلمة حيث تنسى إلى الابد. وبما أن الطريق الأخير الذي يقف أمام يوسف وهو الوقوع في السجن الموحش فإنَّ يوسف طلب من الله تعالى ذلك فوراً، وخاطب ربّه بأن السجن أحبُّ إليَّ من الوقوع بالمعصية والإثم، فانا مستعد لدخول السجن اطاعة لأمره وحفظاً لحدوده ومن أجل المحافظة على شرفي وعفتي في مقابل طلب هؤلاء النسوة، وكان تهديد هؤلاء النسوة ليوسف بصورة جديّة، وقد تمَّ ذلك عملياً وألقى يوسف في السجن، وبذلك انقذ نفسه وشرفه من تلوثات القصر ومفاسد المحيط حيث تذكر الآيات التي تلي هذه الآية أن ذلك السجن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٦ الموحش كان في الحقيقة سلماً لنيل يوسف مراتب سامية من الكمال الإلهي والمعنوي، وأخيراً تمكن يوسف بمشيئة الله أن يجلس على عرش مصر واستطاع بمحافظته على تقواه وعفته وشرفه أن ينال كلَّ شيء، في حين أن جميع الملوئين افتضحوا ولم ينالوا مرادهم، فكان هذا هو جزاء الله تعالى وثوابه الدنيوي للشرفاء والمخلصين من عباده، ويقول القرآن الكريم في سياق هذه الآيات فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١).

## العفة السمة الأخلاقية للمؤمن:

«الآية الخامسة» من الآيات محل البحث تتحدث عن الصفات البارزة للمؤمنين حيث يذكرها القرآن الكريم بعبارات قصيرة ومليئة بالمعنى ضمن بيان قسم مهم من صفات المؤمنين، ويذكر صفة العفة والطهارة بأنها إحدى الصفات والخصال الممتازة لهؤلاء المؤمنين ويقول «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَارِغُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (٢). والملفت للنظر أن القرآن الكريم يذكر من ضمن الصفات الممتازة للمؤمنين صفة العفة بعد الصلاة والزكاة والامتناع من اللغو وحتى انه يذكرها قبل صفة الأمانة والوفاء بالعهد أيضاً.

## العفة مفتاح النجاة:

وفي (آخر آية) من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم عشرة طوائف من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٧ الرجال والنساء الذين نالوا المغفرة من الله تعالى والأجر العظيم، فتذكر الآية في سياقها أن الطائفة التاسعة من هؤلاء الرجال والنساء هم الذين يعيشون العفة والطهارة من التلوث بالذنوب والذين حفظوا اذيا لهم وشرفهم من وحل الخطيئة. وتشير الآية الكريمة إلى الطائفة العاشرة من هؤلاء في سياق بيان أوصافهم أنهم كثيراً ما يذكرون الله تعالى ولا يصعب أن تكون هذه الصفة مرتبطة مع الصفة السابقة، وهي العفة لوجود الارتباط الوثيق بين العفة وذكر الله تعالى، فتكون من نتائج التحلى بهذه الصفات هي المغفرة الإلهية والأجر العظيم الذي لا يعلم عظمته إلا الله تعالى. وقد وردت في النصوص الدينية إشارة أخرى إلى أحد الطرق لحفظ النفس أمام تحديات الشهوة وطغيان الغريزة الجنسي، وهو «الصوم»، فعليه يكون بين العفة والصوم ارتباط وثيق ومباشر حيث يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةُ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ» (١).

## العفة في الروايات الإسلامية:

وقد ورد في المصادر الروائية الاهتمام الشديد بالعفة حيث نشير إلى بعض ما ورد فيها: ١- ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِفَافُ» (٢). ٢- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «مَا عَبْدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ» (٣). ٣- وفي رواية أخرى عن هذا الإمام في تفسيره للرواية السابقة انه جاء رجل إلى الإمام عليه السلام وقال: إني ضعيف العمل قليل الصيام ولكنني أرجو أن لا آكل إلا حلالاً. فقال له الإمام عليه السلام: «إِنِّي إِجْتَهَادًا أَفْضَلُ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٩٨ ٤- ويقول الإمام على عليه السلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدٍ خَيْرًا عَفِيفٌ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ» (١). ٥- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضل في وصف الشيعي الواقعي: «أَنَّ مَا شِيعَةُ جَعْفَرٍ مَنْ عَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَاشْتَدَّ جِهَادُهُ وَعَمَلٌ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَ أَوْلَئِكَ فَأَوْلَئِكَ شِيعَةُ جَعْفَرٍ» (٢). ٦- ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام: «قَدَرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُورَتِهِ، وَشُجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ انْفِتَتِهِ وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ» (٣).

## النتيجة:

لقد تحصل لدينا من خلال الآيات والروايات الشريفة أن الإسلام يهتم اهتماماً بالغاً بمسألة عبادة شهوة البطن والفرج وجعل من مسألة الغيرة على العرض علامة الشخصية المؤمنة وظاهرة من ظواهر سلوك الإنسان الشيعي الموالى لأهل البيت عليهم السلام، والتاريخ البشري حافل بالحوادث المأساوية التي تمتد جذورها إلى هذين العاملين «شهوة البطن والفرج» لأن شهوة البطن لا تسمح للإنسان في التفكير المشروع لتحصيل الغذاء ورعاية حقوق الآخرين وسلوك طريق العدالة في تحصيله، ولهذا السبب فإنها تدفع الإنسان إلى أنواع

الخطايا والذنوب في سبيل ارضائها، مضافاً إلى ذلك فإن شهوة البطن تعد مصدرًا وسبباً أكيداً إلى الكثير من الأمراض الجسمية والأخلاقية إلى درجة أن هذه الغريزة تصبح بمثابة الوثن الذي يدعو صاحبه إلى عبادته وطاعته في جميع سلوكياته في حركة الحياة والواقع الاجتماعي. وفي هذا المجال يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في معرض حديثه عن آخر الزمان «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ وَنِسَائُهُمْ قِبَلَتُهُمْ وَدَنَائِرُهُمْ دِينُهُمْ، وَشَرَفُهُمْ مَتَاعُهُمْ، لَا يَبْقَى مِنَ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٢٩٩ الْإِيمَانِ إِلَّا اسْمُهُ وَلَا مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا رَسِيمُهُ وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا دَرَسُهُ، مَسَاجِدُهُمْ مَعْمُورَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ عَنِ الْهُدَى» (١). وقد ورد في ذيل هذا الحديث أن الله تعالى سوف يتلى هؤلاء الناس بأربع بلايا: جور السلطان، وقحط الزمان، وظلم الامراء والحكام. والفرق بين الظلم والجور «كما ورد التقابل بينها في الكثير من الروايات» يمكن أن يكون من جهة أن مفردة الجور في الأصل تعني الإنحراف عن طريق الحق، وعليه فإن جور السلطان يطلق على إنحراف سلوكيات أصحاب السلطة، في حين أن الظلم يعني عدم العدالة. وفي حديث آخر عنه يقول «إِيَّاكَ وَادِمَانَ الشَّبَعِ فَإِنَّهُ يَهَيِّجُ الْأَشْقَامَ وَيُثِيرُ الْعِلَلَ» (٢). وروى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «من وقى شر بطنه ولسانه وفرجه فقد وقى من جميع البلايا» (٣).

### طرق الوقاية من التحلل الأخلاقي:

#### إشارة

ومن أجل الوقاية من التحلل الأخلاقي وضبط الشهوات وخاصة الشهوة الجنسية وشهوة البطن، هناك عدّة طرق عامة وكلية، أي سارية في عملية الوقاية من جميع المفاسد الأخلاقية من قبيل تطهير المحيط الاجتماعي، دور الرفاق والأصدقاء، تربية الاسرة، العلم والمعرفة بنتائج وآثار الرذائل الأخلاقية، المسائل الثقافية وأمثال ذلك. وقد تحدثنا في هذا المجال بصورة مفصلة وكاملة في الجزء الأول من هذه الدورة الأخلاقية تحت عنوان الشرائط اللازمة لتربية الفضائل الأخلاقية وهناك طريق آخر خاصّ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٠ يتعلق بمسألة «العفة» في المسائل الجنسية وسائر الشهوات النفسانية حيث يمكن استعراض عدّة امور للوقاية من استفحال وطغيان هذه الغريزة وضبط النفس على مستوى السلوك الأخلاقي:

### ١- الحجاب وترك الزينة أمام الأجانب

لا شك أن أحد الامور التي تفعل الغريزة الجنسية وتزيد من ضراوتها هو «التعري والتزين بالنسبة للرجال والنساء» حيث يقع تأثير أحدهما بالآخر بشدّة وخاصة بالنسبة إلى الشباب العزاب بحيث يمكن القول أن التلوث بالخطايا الجنسية والإنحراف الجنسي يرتبط مباشرة بعدم الحجاب والتعري والتزين أمام الأنظار حتى انه طبقاً لبعض الأحصائيات أن هناك علاقة طردية بين زيادة واشتداد هذا العامل وبين زيادة التلوث الجنسي والتحلل الأخلاقي، مثلاً في فصل الصيف وبسبب حرارة الجو فإن النساء يخفن من البستهن، وبهذه النسبة يتعرضن إلى التحرشات اللاأخلاقية من قبل الشباب، وعلى العكس من ذلك فإن النساء في فصل الشتاء وبسبب الملابس الشتوية وارتداء الثياب التي توفر لهنّ الحماية من برودة الجو فإنّ التعرض والتحرش بهنّ يقل عن فصل الصيف، ولهذا فقد ورد التأكيد في الشريعة الإسلامية على الحجاب حيث يذكر القرآن الكريم في آيات متعددة منها الآيات ٣١ و ٦٠ من سورة النور، والآيات ٣٣ و ٥٣ و ٥٩ من سورة الأحزاب على مسألة الحجاب ويخاطب أحياناً النساء المؤمنات، وأحياناً أخرى نساء النبي، وثالثة يستثنى العجائز والمسنتات منهّن حيث يتضح من ذلك التكليف الشرعي لسواهن، وعلى هذا يبين القرآن عبارات مختلفة أهمية هذه الوظيفة الشرعية في حركة الحياة والمجتمع الإسلامي. وبديهي أن ترك الحجاب أي السفور والتبرج هو مقدمة للتعري والتحلل الجنسي الذي يترتب عليه نتائج وخيمة ومفاسد كبيرة في كلّ عصر وزمان. إن التبرج وعدم الإلتزام بالحجاب يسبب أن تتحرك بعض النسوة في

حالة منافسة ومساوقة مستمرة لبدء وعرض مكامن اجسادهم وتحريك الشبان من هذا الطريق، وهذه الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٠١ الظاهرة تكاد تستفحل فى هذا العصر والزمان بسبب مشاكل التحصيل العلمى وما يرافق الزواج من مشكلات اقتصادية وارتفاع سن الزواج بحيث إن الغالبية من أفراد المجتمع هم من العزاب، وبهذا فإن المخاطر والأزمات الاجتماعية والنفسية التى يعيشها الناس فى هذا الزمان هى أكثر من أى وقت مضى مضافاً إلى ذلك فإن التبرج والسفور من الناحية الأخلاقية والاجتماعية يتسبب فى ارباك العوائل على مستوى الأمن والاستقرار ويؤدى إلى بروز الجرائم الجنسية والأزمات العائلية، ويؤدى أيضاً إلى ازدياد الانفعال العصبى والأمراض النفسية الاخرى أيضاً التى تعد أحد افرازات ونتائج ضعف الوشائج الاسرية والروابط العائلية وضعف قيمة شخصية المرأة فى المجتمع.

## ٢- عدم اختلاط الرجل والمرأة

لا- شك أن المجتمعات البشرية المعاصرة لا- تتمكن من الفصل التام بين الرجل والمرأة فى حركة الواقع الاجتماعى، ولكن يمكن توقي الاختلاط فى الموارد غير الضرورية وبذلك يتسنى للمجتمع التوصل إلى حفظ العفة الاجتماعية والتقوى الجنسية أكثر، والسبب الذى يحتم هذه الضرورة هو كثرة المفاسد الأخلاقية والفضائح الاجتماعية فى مجتمعاتنا المعاصرة كما هو الملاحظ فى المجتمعات الغربية التى تبيح اختلاط الذكور والإناث بصورة فاحشة.

## ٣- رؤية التماوير الخلية والأفلام الرخيصة

إن للأفلام الخلية وبعض البرامج التلفزيونية دور مؤثر وكبير فى تحريك الغريزة الجنسية وخاصة بين الشباب، حيث يقوم الانتهازيون والفئات المنحرفة بالتكسب والتجارة عن هذا الطريق اللامشروع ويعملون على نشر الفحشاء والمنكر من خلال صناعة الأفلام المبتدلة أو كتابة القصص الخلية ونشرها بين أفراد المجتمع بالوسائل المختلفة فتنتقل عبر الأمواج إلى شتى بقاع المعمورة من دون أى رادع ووازع شرعى أو قانونى، وبهذا يتمكنون من خلق التعقيدات النفسية والأخلاقية للمجتمع البشرى، وأى غفلة عن الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٢ هذه السلوكيات المنحرفة تؤدى إلى السقوط الأخلاقى والحضارى للمجتمع الإنسانى. ومع غاية الأسف أن بعض الكتياب وأهل العلم والمعرفة راجعوا هذه المسألة من موقع الانفعال، واستسلموا لهذه الفتنة، وسكنوا فى مقابل تحديات الواقع المنحرف بحجة أن مخالفة هذه الظواهر المنحرفة غير ممكنة، أو مخافة الظهور أمام الناس بمظهر مختلف ورجعى أو مخافة الاتهام بالاصولية والرجعية، ولهذا فقد تركوا التصدى لقوى الإنحراف هذه وسلموا المجتمع الإسلامى إلى أمواج الخطر. ١٦

## عامل الغفلة

### تنويه:

«الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل بحيث تستوعب فى طياتها الجهل بشرائط الزمان والمكان وظروف الواقع الذى يعيش فيه الإنسان وتشمل الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلية، وكذلك أفعال الشخص وصفاته وسلوكياته وما يظهر له من آيات الحق والنذر والعبر التى تترامن مع حوادث المعيشة والوقائع التى تصيب الإنسان فى حركة الحياة، والغفلة عن هذه الوقائع والحوادث وعدم اتخاذ موقف صحيح منها يمثل خطراً كبيراً يواجه سعادة الإنسان وشخصيته، هذا الخطر الذى يمكن أن يحيط بالإنسان ويبتلعه ويهوى به فى مطاوى النسيان والعدم، الخطر الذى بإمكانه أن يهدر أتعاب الإنسان بسنوات لذيذة من عمره فى لحظة واحدة. ولعلكم سمعتم كثيراً بأن الشخص الفلانى الذى كان يمتلك ثروة طائلة قد فقدتها فى لحظة من لحظات الغفلة، وهكذا حال الإنسان فى طريق السعادة والحياة

المعنوية، فيمكن أن يعيش الإنسان الغفلة في لحظة واحدة حتى تتحول ثروته المعنوية وملكاته الإنسانية إلى رماد وتراب. ولهذا السبب فإن علماء الأخلاق قد تحركوا في كتاباتهم لاستعراض مسألة «الغفلة» الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٤ وما يقابلها من «التذكر» وبحثوا أسباب هذه الظاهرة والعوامل التي تؤدي إلى استفحالها في وجود الإنسان أو الطرق الكفيلة بإزالتها والحد من نتائجها السلبية. وبهذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحي من آياته الإلهية ما يسلط الضوء على هذه المسألة المهمة في حياة الإنسان، والآيات الكريمة التي تتحدث عن ظاهرة الغفلة كالتالي: ١- «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (١). ٢- «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» (٢). ٣- «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَآلِ عَيْشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا» (٣). ٤- «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ\* أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٤). ٥- «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (٥). ٦- «سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٥-٧- «فَانتَمَنَّا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (١). ٨- «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (٢). ٩- «وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (٣). ١٠- «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ». (٤). ١١- «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». (٥). ١٢- «وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْحَشِيرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». (٦)

## تفسير واستنتاج:

### «الغفلة» المنبع الأصلي للمشكلات

«الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدث عن أسوأ أفراد البشر وتعرض في طياتها فئة من الناس هم أشقى الناس جميعاً وتصفهم بعدة أوصاف وتقول «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (٧). في هذه الآية الشريفة نجد أن عنصر الغفلة يمثل العامل الأساس لشقاء الإنسان والسبب الأصلي الذي يدفع الإنسان إلى جهنم وبئس المصير، الغفلة التي تنشأ من ترك الإنسان بالتفكير والتدبر وعدم استخدام بصيرته وعدم إصغائه لصوت الحق حتى يصل به الأمر إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٦ أن يصل إلى مستوى الانعام بل اضل منها واتعس، لأن الأنعام إنما تعيش الغفلة في حياتها بسبب انها خلقت كذلك وعدم وجود ملكة التنبه والتعقل في ذاتها، في حين إن الإنسان إذا عاش الغفلة في حياته مع وجود عوامل التنبه بأدوات التذكر والتعقل فسيكون أضل من الأنعام بالتأكيد. إن مفهوم الآية أعلاه لا يعني أن الله تعالى يجبر بعض الناس على سلوك طريق جهنم بل كما ورد التصريح في الآية نفسها أن أهل النار عندما صاروا من أهل النار بسبب اختيارهم لهذا الطريق والسلوك الشائن، لأن الله تعالى قد أعطاهم العقل ولكنهم لم يستخدموا عقولهم، وأعطاهم السمع والبصر ولكنهم لم يصحوا إلى الحقائق الإلهية في آذانهم ولم يروا آيات الله بأبصارهم، إذن فكلمنا يواجهونه من مشاكل دنيوية أو اخروية فهو بسبب اختيارهم ومن ناحيتهم، وغاية الأمر أن الله تعالى قد قرر قانوناً وناموساً يحكم عالم الوجود في دائرة الإنسان، وهو أن كل من لم يستخدم المواهب الإلهية في مجالها الخاص ولم يتحرك في سبيل استخدام قابلياته الذاتية في طريق التكامل المعنوي فسيكون مصيره إلى جهنم في الآخر، فحصول هذا الشرط في هذا القانون يرتبط بإرادة الإنسان ذاته. «الآية الثانية» تتحدث عن الكتاب في عرصات يوم القيامة، في ذلك الوقت الذي يقترب فيه وعد الله حيث تسرى فيه الوحشة ويملك الخوف

جميع وجودهم وتتحجر عيونهم من الرعب، وهناك يتعالى صراخهم وعويلهم وينادون بالويل والثبور على ما كانوا في غفلة من هذا الحال «وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» (١). وعلى هذا فإن هذه الفئة من الناس يُقرون بأن «الغفلة» هي العامل الأساس في انحرافهم عن جادة الحق، الغفلة التي دعتهم إلى أن يتحركوا من موقع الظلم على أنفسهم وعلى الآخرين وتركهم لدعوة الأنبياء والكتب السماوية والقاءها وراء ظهورهم. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٧ هؤلاء يتحدثون بهذا الكلام عندما تصيب الزلزلة جميع عالم الوجود وتتجلى يومئذ علامات القيامة وتزول حجب «الغفلة»، وهناك يعيش هؤلاء الندم حيث تكون أبواب التوبة والانابة إلى الله مؤسدة أمامهم (١). «شاخصه» من مادة «شخص» وهي في الأصل بمعنى الخروج من المنزل أو المدينة إلى مدينة اخرى، وبما أن الإنسان عندما يستولى عليه الرعب تشحب عيناه وتتوقفان عن الحركة حيث يظل ينظر إلى نقطة معينة في حالة من البهت بحيث تكاد تخرج حدقة العين من مكانها، فهذه الحالة يطلق عليها بالشخص. «الآية الثالثة» تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من موقع الارشاد لمن يصح معاشرتهم والحياة معهم وتقول «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (٢). في هذه الآية نقرأ صفات الأشخاص الذين يمتلكون اللياقة ليكونوا في صحبة النبي ورفقته من موقع اتصافهم بالايمن والعبادة وذكر الله تعالى في الصباح والمساء، وتحذر الآية الشريفة أيضاً من اطاعة الغافلين عن ذكر الله والذين يتحركون من موقع الأهواء والشهوات إلى درجة الافراط، ومن خلال مضامين هذه الآية الكريمة نستوحى وجود علاقة بين اتباع الهوى وبين الغفلة، أجل فإن الغافلين عن ذكر الله هم الذين يتبعون أهوائهم ويعيشون حالة الافراط في سلوكياتهم، ولو لم يكن في ذم «الغفلة» الا هذا لكفى وطبقاً لما بينته الآية أعلاه من أن الله تعالى قد أغفل قلوب هؤلاء «أغفلنا قلبه عن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٨» يتضح جيداً أن ذلك كان نتيجة أعمالهم السيئة في الحياة الدنيا وعلى شكل عقوبة إلهية. والمعروف أن الآية محل البحث نزلت في طائفة من الأثرياء والمتكبرين في عصر النزول حيث جاءوا إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقالوا له: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنّا هؤلاء وأرياح جبابهم - يعنون بذلك سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: إنا اعتدنا للظالمين ناراً ... (١). إن الله تعالى كان يعلم ما في نفوس هؤلاء الغافلين وأنهم يعيشون الادعاءات الفارغة والشعارات الجوفاء وأنهم ليسوا بقابلين للاعتماد والثقة لا في حالة الصلح ولا في زمن الحرب ولا يمكن الاستفادة من أفكارهم، ولهذا حذر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله من وساوسهم. «الآية الرابعة» تتحرك في سياقها من خلال استعراض بعض أوصاف أهل النار وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ \* أُولَئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢) في هذه الآية الكريمة نقرأ أن السبب الأساس لانكار المعاد لدى بعض الناس ورضاهم بالحياة الدنيا ونسيان الآخرة هو «الغفلة» عن آيات الله والتي تمثل هذه الحالة المحور والمصدر الحقيقي لشقاء الإنسان وتورطه في المشاكل والمصائب، في حين أن السبب الحقيقي لسعادة المؤمنين وأصحاب النعيم في الآخرة يمتد في جذوره إلى حالة التنبأ والتذكر والانفتاح على الله تعالى كما ورد ذلك في الآيات التي تلي هذه الآية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٠٩ ونقرأ في تفسير روح البيان في ذيل هذه الآية حديثاً قدسياً يقول: العجب ممن يؤمن بالنار كيف يضحك؟ وممن يتعلق بالدنيا وهو يعلم أنه مفارقها، ومن الغافلين كيف يلهون في حين أنهم يعلمون أنه لا يُغفل عنهم. ويتحدث صاحب التفسير المذكور في ذيل هذا الحديث الشريف عن قصة «النعمان بن المنذر» الذي كان أحد ملوك الحيرة في عصر الجاهلية، ويقول: في أحد الأيام كان هذا الملك جالساً للهو واللعب تحت شجرة وارفه الظلال، فقال له «عدى» وكان أحد أقربائه: أيها الملك أن هذه الشجرة تغني فهل تعلم ما تقول؟ هذه الشجرة تقول: رَبِّ رَكِبْ قَدْ اناحوا حولنا يمزجون الخمر بالياء الزلال ثم اضحوا اسف الدهر بهم وكذلك الدهر حالاً بعد حال (١) «الآية الخامسة» تتحدث عن الأشخاص الذين يعيشون «الغفلة» عن أسرار وقضايا عالم الوجود ولا يرون إلا ظواهر الامور، ويقنعون بهذا الظاهر الجذاب لهذه الحياة الدنيا عن حقيقتها مع



الغفلة عن باطنها الذي يشير إلى الحياة الأخرى وتقول «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ». «٢» فلو أن الغفلة لم تلق عليهم بظلالها ولم تكبل عقولهم بقيودها لرأوا في كل شيء وفي كل كائنٍ وموجود من هذا العالم آية من الآيات التي تدل على الله تعالى والمعاد، فالقرآن الكريم يستعرض أسرار عالم الخلقه ويقرر أن هذا النظام المدهش للعديد من عالم المادّة والطبيعه إنّما هو آية وعلامة على وجود الله تعالى وعلامة كذلك على المعاد والحياة بعد الموت من خلال الحوادث المشاهدة والملموسة في حركة الحياة والواقع، غاية الأمر انه لا يدرك مغزى هذه الآيات والعلامات ولا يقرأ مضمونها الباطني سوى أصحاب البصيرة الذين قرؤوا نعمة التوحيد والمعاد في باطن هذه الحوادث لا الأشخاص الذين يتعاملون مع الحياة الدنيا من موقع الأهواء والنوازع المادية الرخيصة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٠ هذا وإن تكرار ضمير «هم» في الآية الشريفة يعد تأكيداً على هذا المطلب، وهو أن «الغفلة» هي السبب في أن يتحرك الإنسان من موقع الظواهر فحسب ولا يرى واقع الحال ويتوغل في باطن الامور. والجدير بالذكر أن مفردة «الغفلة» وردت في موارد تكون فيها أسباب ومقدمات التذكر والتنبه متوفرة لدى الإنسان، ولكنه وبسبب اتباعه للأهواء أو بسبب ضعف الإيمان أو لأسباب أخرى فإنه يتغافل عنها، والشاهد على ذلك الآيات التي وردت بعد هذه الآية من سورة الروم حيث يستعرض الله تعالى فيها نماذج من آثار التوحيد والمعاد في عالم الخلقه وفي واقع الإنسان ويحذر الغافلين عن التمداد في غفلتهم وينذرهم من عاقبة هذه الحالة الوخيمة. «الآية السادسة» تتحدث عن أخطر فئة من الكفار، وهم الذين يعيشون حالة التكبر والعناد مضافاً إلى كفرهم، وفي آخر الآية تقرر السبب الذي ساقهم إلى الشقاء الدائم، وهو الغفلة عن آيات الله وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَاءِ لَّا يُتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» «١». وقد وقعت هذه الجملة من الآية الكريمة «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» مورداً لبحث المفسرين ومناقشاتهم، ولعله كان بسبب أن من المسلم أن الله تعالى يهدي الناس إلى طريق الحق، وأساساً فإن جميع الأنبياء والأوصياء كانوا يهتمون بارشاد الناس وهدايتهم إلى الله تعالى، فكيف يجتمع هذا المعنى مع قوله تعالى «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» وانه تعالى هو الذي يحرم هؤلاء عن الهداية والتوفيق لرؤية هذه الآيات على نفسها، ولهذا نجد أن الكثير من المفسرين قد تكلفوا تأويل هذه الآية بما لا يتناقض مع الاصول والمبادئ المسلمة. ويتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال استعراض الآيات القرآنية الأخرى في هذا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١١ المجال، حيث تمثل بعض اعمال الإنسان وحالاته النفسية من قبيل التكبر والعناد أمام الحق والتعصب الشديد حججاً مظلماً على قلب الإنسان تمنعه من مشاهدة جمال الحق، وفي الواقع أن هذه الأعمال والصفات القبيحة هي التي تسبب حجبتهم عن الحق وتمنعهم من رؤية آيات الله، وعندما تنسب الآية عملية الحجب هذه إلى الله تعالى فإنما ذلك بسبب أن الله تعالى قد جعل هذه النتيجة كعقوبة طبيعية واثر طبيعي مترتب على تلك الأعمال والصفات، أي أن الانصراف عن آيات الله هو نتيجة طبيعية مقررة في قانون الخلقه لمن يمارس تلك الأعمال والصفات القبيحة. والجدير بالذكر أن الآية الشريفة تقرر في ختامها وتؤكد على أن سبب انصرافهم عن آيات الله هو تكذيبهم وغفلتهم عن هذه الآيات. «الآية السابعة» تتحرك من خلال استعراض حالة العناد لدى الفراعنة في مقابل الآيات الإلهية والبلايا المتنوعة التي أنزلها الله على هؤلاء القوم الفاسقين لينتهوا من غفلتهم ويؤوبوا إلى رشدهم ويتبعوا نبيهم «موسى بن عمران» وتقول «فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» «١». ومن خلال السياق القرآني في هذه الآية نستوحى أن مصدر شقاء قوم وهلاكهم هو تكذيب الآيات الإلهية والغفلة عنها، ويمكن أن تكون «الغفلة» سبباً للتكذيب، فإن الجذر الأصلي لشقائهم هو «الغفلة» عن آيات الله، أو أنهم قد تحركوا في مقابل الدعوة السماوية من موقع التكذيب أحياناً والغفلة أحياناً أخرى، وبهذا يكون كل من التكذيب والغفلة سبباً مستقلاً للشقاء والهلاك. بعض المفسرين يرى أن ضمير «عنها» يعود إلى النعمة الإلهية والعذاب الإلهي، ففي هذه الصورة يكون عنصر التكذيب بآيات الله هو الموجب لشقائهم، ولكن هذا الاحتمال ضعيف جداً لأن هذا الضمير ورد إلى جانب الآيات، وحسب الظاهر انه يعود عليها، وقد أورد بعض الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٢ المفسرين سؤالاً هنا، ولعل هذا السؤال كان هو السبب في احتمال عودة الضمير إلى النعمة

والعذاب، وهو أنّ «الغفلة» حالة غير اختيارية ولذلك لا يمكن أن تستوجب عذاب الله للإنسان. ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح، لأن «الغفلة» في كثير من الموارد تكون اختيارية في جذورها ومقدماتها، فعندما يتحرك الإنسان باتجاه آيات الله ولا يتدبر فيها ولا يصغي لكلمات الأنبياء، فمن الطبيعي أن تستولي عليه حالة الغفلة، ومن هذا المنطلق نجد الناس كثيراً ما يذمون المجرمين والمنحرفين بسبب غفلتهم. «الآية الثامنة» وبالرغم من انها لم تذكر كلمة «الغفلة» في سياقها، إلا أنّ محتواها العام يتضمّن مفهوم الغفلة، فهذه الآية تتحدّث عن المشركين في عصر النزول الذين كانوا يتحركون من موقع الغفلة الشديدة وأحياناً ينتبهون من غفلتهم ويتجهون نحو التوحيد في حالات خاصّة، وأحياناً أخرى يغرقون في مستنقع الشرك والضلالة تماماً، فتقول الآية «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (١). أجل، فإنّ اعصار الحوادث والأخبار من شأنه أن يزيد حُجب «الغفلة» عن أبصار هؤلاء ويتجلّى لهم حقيقة الأمر وواقع الحياة الدنيا، فطائفة منهم تستثمر هذا التنبيه وهذه اليقظة في حركتها التكاملية والمعنوية ويتحركون لاصلاح أخطائهم وجبران ما فاتهم من العمر، ولكن هناك طائفة أخرى وهم الأكثرية ينتبهون في هذه اللحظات فحسب وبعد انتهاء الحادثة يعودون اذارجهم نحو ما كانوا يعيشونه من الغفلة واتباع الهوى في خط الباطل والانحراف. بعض المفسّرين يذكر في ذيل هذه الآية أنّ المشركين كانوا يصطحبون معهم أصنامهم في أسفارهم البحرية ليحفظونهم من الغرق ولكنهم عندما يواجهون الخطر ويرون أمواج البحر الرهيبة التي تتقاذفهم من كلّ جانب كالريشة في مهب الريح فإنهم يلقون بأصنامهم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٣ في البحر ويتجهون نحو الله بكلّ اخلاص ويتعالى صراخهم «يا الله يا الله» (١). «الآية التاسعة» تقرر حكماً عاماً وكلياً بالنسبة إلى جميع أفراد البشر وتقول «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (٢). أجل، فإنّ التوجه إلى الله تعالى يتسبب أن يكون الذاكر جليس الملائكة بمقتضى قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ...» والحال أنّ التغافل عن ذكر الله يفضى بالإنسان أن يكون قرين الشياطين الذين يسوقونه إلى حيث يريدون كما تقول الآية الشريفة «نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» وفي الواقع أنّ عمله هذا أي «الغفلة» عن آيات الله يورثه البعد عن رحمة الله وبالتالي يكون قرين الشياطين البعيدة عن رحمة الله، وبعبارة أخرى: أنّ هذه الحالة هي جزاءه الديني على حالة الغفلة هذه. وبالنظر إلى أنّ كلمة «يعش» من مادة «عشو» على وزن «نَشَرَ»، بمعنى ضعيف النور في بصره فلا يرى شيئاً بوضوح وكأنما يغطي عينه حجاب فلا يرى الحقيقة بوضوح، ومفهومها ليس هو سوى الغفلة والاعراض عن الله تعالى، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرًّا قَبَّلَ مَوْتَهُ بِسَيْئِهِ، فَلَا يَرَى حَسَنًا إِلَّا قَبَّحَهُ عِنْدَهُ حَتَّى لَا يَعْمَلَ بِهِ، وَلَا يَرَى قَبِيحًا إِلَّا حَسَّنَهُ حَتَّى يَعْمَلَ بِهِ» (٣). وفي «الآية العاشرة» تتحدّث القرآن الكريم عن المتقين والذين يقابلون امواج الوسواس الشيطانية ويعالجون حالات الغفلة مهما كانت قليلة بذكر الله تعالى، فتكون النتيجة أنّ حجب الغفلة وتراكمات الوسواس تنقشع عن القلب وتفتح البصيرة فتقول الآية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٤ «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْتَعِرُونَ» (١). هذا التعبير في الآية الكريمة يشير إلى أن ذكر الله تعالى يورث الإنسان بصيرة في قلبه في حين أنّ الغفلة عن ذكر الله تمهد الطريق لنفوذ الشياطين إلى قلبه. «طائف» يعني من يطوف حول شيء معين، والمراد به كما ذكره جمع من المفسّرين الكبار هو الوسواس الشيطانية التي تطوف حول قلب الإنسان لتتمكن من العثور على منفذ لها في كعبة القلب وتحول هذا القلب إلى معبد للأوثان، وعملية النفوذ هذه لا تتسنى لهؤلاء الشياطين إلّا في حالة «الغفلة» عن ذكر الله، لأن الإنسان بمجرد أن يذكر الله تعالى فإنّ الوسواس والخطرات الشيطانية سوف تبتعد وتتلاشى ويتجلّى حينئذٍ نور الحقّ أمام بصيرة الإنسان في حركته المنفتحة على الله والحقّ. «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن الغافلين الذين يعيشون حالة الغفلة والجهل المطلق إلى آخر عمرهم، ولكن عندما يحين أجلهم ويقعون في سكرات الموت ويرون بأمّ أعينهم آثار أعمالهم السيئة حينئذٍ يعيشون الرعب والقلق الشديد، فيقال لهم حينئذٍ «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (٢). إن الآيات القرآنية هذه توحى بوجود ملكين يصطحبون الإنسان في عرصات المحشر، أحدهما يسوقه إلى محكمة العدل الإلهي، والآخر يحضر بعنوان الشاهد على أعماله، ويحتمل أن يكون هذان الملكان هما الذين كانا يصطحبان الإنسان في الحياة الدنيا ويكتبون أعماله

الصغيرة والكبيرة، ففي القيامة يأخذان بيد المجرمين ومعهما كتابهما هذا إلى حيث المحكمة الإلهية الكبرى ولكن هؤلاء المجرمين لم يكونوا يحسون بوجود هذين الملكين في الحياة الدنيا بل لم يكونوا يؤمنون بوجودهما بالرغم انهما يصحبون كل إنسان في هذه الحياة، ويوم القيامة حيث تراح الحجب وتزال الاستار وتفتح عين البصيرة يرى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٥ الإنسان هذه الحقيقة الناصعة. «الآية الثانية عشر» والأخيرة من هذه الآيات محل البحث تتحدث عن يوم القيامة وتبين حالات الغافلين في هذا اليوم المليء بالحسرات واشكال الحزن وتقول «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسِيرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (١). وأحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحسرة، لأن الغافلين الذين كانوا يعيشون في هذه الدنيا بعيداً عن الحق سوف ينتبهون من نومتهم هذه ويرون جميع أعمالهم، فهناك سيجدون أمامهم كتاب يقرر ما ارتكبه من أعمال، فهناك من جهة أخرى الملائكة الذين يشهدون عليهم، ومن جهة ثالثة والأشد من ذلك هو شهادة أعضاء الإنسان حتى الجلد على ما ارتكبه في الحياة من أعمال وسلوكيات شائنة، وهناك ترتفع نار الندم والحسرة وتستولى على وجود الإنسان ولكنهم لا يجدون طريقاً سوى مزيد التحسر على ما فاتهم من فرص ثمينة في الحياة الدنيا، فليس لهم الرجوع للعودة لجبران ما فات لأن الطريق موصد من خلفهم والكتب قد اغلقت، فلا مجال للتوبة والانابه، ولذلك سيملاً الحزن وجودهم وخاصية عندما يسمعون نداء الملائكة الموبخ لهم حيث يقولون «لقد كنت في غفلة من هذا». وبديهي أن هذه الغفلة لا تتعلق بحالات يوم القيامة ولا-عالم البرزخ، لأن الإنسان وبمجرد أن ينتقل من هذه الدنيا ويعانق الموت فإن سحب الغفلة ستزول أمام عينه ويرى حقائق العالم كما هي، وحينئذ لا يبقى معنى لمفهوم «الغفلة» كما تقول الآية ٩٩ و ١٠٠ من سورة المؤمنون «حَتَّىٰ إِذَا حَيَاءُ أَحْيَاهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

### النتيجة:

ومما نستوحيه من الآيات المذكورة آنفاً أن الخطر الذي يعيشه الإنسان بسبب الغفلة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٦ عن ذكر الله وتجاهل الحقائق التي تستبطن عالم الوجود أكثر مما يتصور عادةً حيث بإمكان «الغفلة» أن تدمر جميع اركان سعادة الإنسان وتحرق في أجوائها جميع الآمال الإيجابية في حياة كريمة وتهدر جميع طاقاته وقابلياته التي يمكنه التوصل بها إلى أعلى مراتب الكمال المعنوي والإنساني وتحولها إلى رماد وهباء منشور.

### الغفلة في الروايات الإسلامية:

وقد ورد في النصوص الروائية أحاديث ماثرة حول عواقب الغفلة وآثارها السيئة والمدمرة في حياة الإنسان، وبسبب كثرة هذه الروايات فسوف نختار منها ما يلي: ١- عندما توجه النبي صلى الله عليه وآله في معرجه إلى السماء سمع الخطاب الإلهي له يقول «يَا أَحْمَدُ أَنْتَ لَا تَغْفُلُ أَبَدًا مَنْ غَفَلَ عَنِّي لَا إِبَالِي بِأَيِّ وَادٍ هَلَكَ» (١). وهذا الحديث يبين بوضوح أن عاقبة الغفلة هي الهلاك والدمار والمحق. ٢- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في عبارة مختصرة ومليئة بالمعنى «الْغَفْلَةُ اضْرَبُ الْأَعْدَاءُ» (٢) لأن الغفلة هي السبب في الكثير من الذنوب والآثام في واقع الإنسان وسلوكه. ٣- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً في حديث آخر «الْغَفْلَةُ تَكْسِبُ الْإِعْتِرَارَ وَتُذِنِي مِنَ الْبُورِ» (٣). ٤- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «الْغَفْلَةُ ضَلَالُ النَّفْسِ وَعُنْوَانُ النَّحُوسِ» (٤). لأن الطريق الوحيد للنجاة من الضلال هو التفكير والتدبر ولكن الغفلة هي التي تصد الإنسان عن هذا الطريق المنفتح على الله والحق. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٧ ٥- وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ فَنَسِيَ الرَّحْلَةَ وَلَمْ يَسْتَعِدْ» (١). ٦- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ كَانَ الشَّيْطَانُ عَمِدًا فَالْغَفْلَةُ لِمَاذَا» (٢). وتقدم في الأحاديث السابقة أن الغفلة تارة تكون عن الله، واخرى عن يوم القيامة، وثالثة عن وساوس الشياطين وهكذا. ٧- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «فِيهَا لَهَا

حَسِيرَةً عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ إِنْ يَكُونُ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَإِنْ تُؤَدِّيهِ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ» (٣). والمقصود من الغفلة في هذا الحديث هو الغفلة عن أداء الوظائف والواجبات الدينية طيلة العمر. ٨- وقد ورد في بعض الروايات أن هذه المسألة إلى درجة من الأهمية حتى أنها اعتبرت هي الهدف لبعثه الأنبياء، أي لعلاج مرض «الغفلة» بين الناس، كما نقرأ في الخطبة ١٠٨ من خطب نهج البلاغة في بيان صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ» (٤). ٩- وفي حديث آخر عن هذا الإمام العظيم يتحدث فيه عن آثار الغفلة المخربة ونتائجها المدمرة في حياة الإنسان ويقول: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُوعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغَرَّةِ» (٥). ١٠- وقد ورد في الروايات الإسلامية عن حالات عيسى ابن مريم أنه مر على قرية مات أهلها بسخط الله، فأحيا عيسى بن مريم واحداً منهم وسأله عن أعمالهم. قال: عبادة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٨ الطاغوت وحب الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب» (١). ١١- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة للآثار الاجتماعية لحالة الغفلة «مِنْ دَلَائِلِ الدَّوْلَةِ قَلَّةُ الْغَفْلَةِ» (٢). أجل فإن الغفلة وتجاهل الامور الاجتماعية ستفضي إلى ضياع الدولة. ١٢- ونختم هذا البحث بحديث عن أمير المؤمنين حيث يبين للناس مخاطر الغفلة ويحذرهم من سوء عاقبتها ويقول «اتَّقِ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَيِّئَاتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ» (٣). وطبقاً لهذا البيان الشامخ فإن السبب الأساس لشقاء الإنسان يكمن في ثلاث أشياء: سكر الشهوة، الغفلة عن حقائق العالم، العجلة في الامور، حيث نجد أن الإمام أمير المؤمنين يحذر في هذا الكلام المختصر أفراد الإنسان من كل طائفة وقوم من هذه العناصر الثلاثة ليكونوا من أهل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

### النتيجة:

وبالرغم من أن أكثر الناس يعيشون الغفلة عن نتائج حالة الغفلة، ولكن أئمة الدين كانوا يرون الفاجعة المترتبة على هذه الحالة المأساوية، وبيّنوا للناس بعبارات مختلفة وخامه هذا المرض العضال كما تقدم آنفاً في الأحاديث الشريفة ودعو الناس إلى التدبر والتفكير. والجدير بالذكر أن «الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل، أي أن هذه المفردة وهذا المفهوم يشمل موارد كثيرة منها الغفلة عن الله، والغفلة عن يوم القيامة، والغفلة عن كون الحياة الدنيا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣١٩ مهزوزة وغير مستقرة، والغفلة عن الشيطان ووساوسه، وبشكل عام فإن الغفلة تستوعب جميع الامور التي تتعلق بشكل أو بآخر بسعادة الإنسان في حركة الحياة.

### ملاحظات مهمة حول الغفلة:

#### إشارة

بالرغم من أن هذه الصفة لها تأثير كبير في حياة الإنسان ومصيره وتعد من الصفات الرذيلة، ولكن قد يثار هذا السؤال، وهو انه لماذا لم يتعرض علماء الأخلاق لهذه الرذيلة في كتاباتهم وكلماتهم، وحتى لو تعرضوا لها بالكلام فلا يكون كلاماً وافياً لهذا الموضوع المهم، وعلى أي حال فهناك عدّة مباحث في هذا الموضوع تستحق الدراسة والبحث كلاً على انفراد وهي:

#### ١- عوامل الغفلة

ألف) الجهل «الغفلة» لها مصادر وأسباب كثيرة، من أهمها الجهل وعدم الاطلاع على حقيقة الحال، وكذلك عدم معرفة الله في مقام الربوبية وعدم الاهتمام بمسألة المعاد وكذلك عدم معرفة وهمية الثروة والمناصب الدنيوية والجهل بوساوس الشيطان وأمثال ذلك. ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال «إِنَّ مَنْ عَرَفَ الْإِيَّامَ لَمْ يَغْفَلْ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ» (١). ب) الغرور والانانية يعتبر الغرور أحد عوامل الغفلة وأحياناً يكون الغرور نتيجة للغفلة أيضاً، لأن الإنسان المغرور لا يرى إلانقاطه الإيجابية ولا يفكر بالميزات

الذاتية، وقد يتصور أحياناً أنها باقية له مدى الحياة، وهذا الأمر يسبب له الغفلة عن الحقائق في عالم الوجود والتي يكون لها دور هام في أن يتعرض هذا الإنسان للهزيمة والاندحار. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٠ وقد شوهد في التاريخ البشري شخصيات كثيرة قد وقعت في أسر «الغفلة» بسبب الغرور والعجب وتعظيم الذات حيث سلبتهم هذه الحالة القدرة على رؤية الواقع كما هو فتعرضوا للهزيمة أمام الأعداء ولم يتمكنوا من الصمود لأنهم لم يكونوا يروا نقاط ضعفهم. (ج) سكر النعمة سكر النعمة (والذي يشبه الغرور إلى درجة كبيرة ولكنه يختلف عنه في الواقع) قد يوقع الإنسان في مستنقع الغفلة أيضاً، فعندما تفتح الدنيا على بعض الأشخاص فسوف يصابون بسكر النعمة، وسكر النعمة هذا يوقعهم في مهاوى الغفلة عن الواقع المحيط بهم وتستم هذه الغفلة حتى يحين أجلهم ويستيقظون من نومتهم وسكرهم كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ غَفَلَ عَنْ حَوَادِثِ الْإِيَّامِ ائْتَقَضَهُ الْجَمَامُ» (١). ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً «أَنَّ قَسْوَةَ الْبُطْنَةِ وَفَتْرَ الْمَيْلَةِ وَسَيِّئَ الشَّبَعِ، وَعِزَّةَ الْمُلْكِ مِمَّا يُجِبُّ وَيُطِي عَنِ الْعَمَلِ وَيَسِي الذِّكْرَ وَيُلْهِ عَنِ اقْتِرَابِ الْاِحْتِجَالِ حَتَّى كَانَّ الْمُبْتَلَى بِحُبِّ الدُّنْيَا بِهِ خَبْلٌ مِنْ سِيِّئِ الشَّرَابِ» (٢). (د) العافية والسلامة البدنية بالرغم من أن السلامة البدنية والعافية الجسمانية تعد من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان، ولكنها من جهة أخرى تعد من عوامل الغفلة أيضاً، وهذا فإن من اللطاف الإلهية الخفية أن تؤخذ هذه السلامة البدنية من الإنسان ويبتلى بألوان المحنة والمرض لكي تزول عن بصيرته سُحِب الغفلة، فيرى بعين القلب حقائق العالم، ويتحرك حينئذ في سلوكياته وأفكاره بالاتجاه المناسب والطريق الصحيح. ولهذا أيضاً نجد أن الحديث الشريف الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر فيه منافع وبركات المرض ويقول مخاطباً سلمان الفارسي حينما عاده في مرضه «أنت من الله بذكرٍ ودُعَاؤِكَ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢١ فِيهِ مُسْتَجَابٌ» (١). أي أنك الآن تعيش حالة التذكر والتنبه وقد زالت منك حجب الغفلة ولهذا فإن دعائك مستجاب. (ه) طول الأمل وأحد العوامل الاخرى للغفلة هو طول الأمل والتمنيات الدنيوية الموهومة، حيث تستولى على قلب الإنسان وفكره وتجعله غافلاً عما يراد به، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المعروفة بالديباج «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْأَمَلَ يَذْهَبُ الْعَقْلَ وَيُكْذِبُ الْوَعْدَ وَيَحِثُّ عَلَى الْغَفْلَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ» (٢).

## ٢- العواقب المشؤومة للغفلة

إن الغفلة عن ذكر الله والمعاد وما يتعرض له الإنسان في هذه الحياة من محن وابتلاءات بسبب الذنوب والآثام كل هذه الامور تؤدي بالإنسان إلى الوقوع في منزلقات الخسران والفناء وتسبب له اضراراً غير قابلة للجبران والتدارك، كما ورد هذا المعنى في كلمات المعصومين وأئمة الدين عليهم السلام ومن ذلك: (أ) الف) الغفلة تورث قساوة القلب إن قساوة القلب ليست سوى نتيجة للغفلة والابتعاد عن المعارف الإلهية، لأن العامل المهم في لطافة الروح وانعطاف القلب أمام الحق هو ذكر الله تعالى، فعندما ينقطع مطر الرحمة الإلهية عن أرض القلب بانقطاع الذكر فسيتحول القلب إلى صحراء قاحلة مليئة بالاشواك والحجارة كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَيُفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ» (٣). (ب) الغفلة وموت القلب الغفلة تفضي في النهاية إلى موت القلب أيضاً، أي أن الإنسان بعد أن يعيش حالة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٢ القساوة وعدم الانعطاف في قلبه وروحه فسوف يقترب من موته المعنوي بحيث لا تعد المواعظ والنصائح تأثر في مثل هذا الإنسان، وفي هذه الصورة سوف يوصد باب العودة والانابة إلى الله أمامه ولا يبقى هناك أمل في نجاته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام «مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ مَاتَ قَلْبُهُ» (١). وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْعِزَّة» (٢). (ج) الغفلة وفساد الأعمال كما وأن «الغفلة» تسبب في بطلان أعمال الإنسان وفسادها، ولهذا نجد أن الأشخاص الذين يعيشون الغفلة عن الله والآخرة قلما يتحركون في سلوكياتهم في دائرة الخيرات والمبرات، ولو أنهم تحركوا في هذا السبيل فإن الغفلة لا تسوغ لهم أن يتمتعوا بحالة الأخلاص في طريق الانفتاح على الله، فلا يصدر منهم ذلك العمل بنية خالصة. ومن ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام «إِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ وَالِاغْتِرَارَ بِالْمُهْلَةِ فَإِنَّ الْغَفْلَةَ تُفْسِدُ الْأَعْمَالَ» (٣). ويحتمل في تفسير هذا الحديث أن المراد منه فساد الأعمال السالفة للإنسان بسبب الغفلة اللاحقة، لأن الغفلة تسبب في

ارتكاب الذنب والوقوع في وادي الخطيئة، والخطيئة بدورها تستوجب حبط الأعمال وفسادها. (د) الغفلة والقرب الإلهي مضافاً إلى ذلك فإن الغفلة تستوجب سلب الإنسان للياقة لنيل مرتبة القرب من الله تعالى ولقائه، لأن الوصول إلى هذه المرتبة ونيل هذا المقام السامي لا يتسنى للإنسان إلا في ظل المعرفة والتذكر والتفكير وأن يعيش الإنسان حالة الوعي والاتصال مع المبدأ. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٣ وقد ورد في بحار الأنوار للعلامة المجلسي إشارة إلى هذا الموضوع في مناجات أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الهي ان أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك فقد تبهتني المعرفة بكرم آلائك» (١). «من طالت غفلته تعجلت هلكته» (٢). هذه العبارة هي مقطع للمناجات المعروفة بالمناجات الشعبانية حيث يقول العلامة المجلسي عنها انها المناجات التي كان أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام يدعون الله بها في شهر شعبان. (ه) الغفلة سبب الوقوع في الهلكة «الغفلة» كذلك تسبب للإنسان الهلاك في الدنيا والآخرة، لأن الإنسان الغافل سوف لا يدرك جيداً منافعه «سواء المادية أو المعنوية» وبالتالي فسوف يضيع الفرص الثمينة التي تتعرض له، وسوف يؤدي به هذا الحال إلى اتلاف طاقاته وقابلياته الحيوية، ومن هذا المنطلق نقرأ في الحديث الشريف الوارد عن الإمام علي عليه السلام «من طالت غفلته تعجلت هلكته» (٣).

### ٣- علائم الغفلة

الكثير من الناس يمكن أن يترددون في كونهم من الغافلين ولا يعلمون بهذه الحقيقة وهي هل أنهم يتسمون بسمه الغفلة أم لا؟ إذا فمن الضروري أن يفحص السالك إلى الله ويتدبر حالته في كل مرحلة من حياته لئلا يقع في زمرة الغافلين، ولذلك لابد من الالتفات والانتباه إلى علائم «الغفلة» حتى لا يتورط في الوقوع في مخالبتها وأسرها. ولحسن الحظ فإن النصوص الشريفة والأحاديث الإسلامية قد أوردت علائم كثيرة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٤ للغافلين نكتفي بالإشارة إلى بعضها: ١- ورد في الحديث الشريف والمفصل عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جوابه لشمعون بن لاوي أحد أقطاب النصارى في ذلك الزمان عندما سأل شمعون النبي الأكرم عن علائم الغافلين فقال: «أما علامه الغافل فاربعه العمى والسهو واللهو والنسيان» (١). ونفس هذا المضمون نجد في حكم ونصائح لقمان الحكيم لولده حيث يقول: يا بني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها ... وللغافل ثلاث علامات: السهو والنسيان (٢). والفرق بين السهو والنسيان هو أن النسيان بمعنى عدم تذكر الحوادث والامور السابقة، ولكن السهو يعني عدم التوجه والانتباه للامور التي ينبغي التوجه والانتباه لها. ٢- وإحدى علائم الغفلة هي أن الإنسان يتحرك في معاشرته ومجالسته مع الفاسدين والمفسدين ويتعد عن مجالس العبادة، وفي ذلك يقول الإمام الحسن عليه السلام «الغفلة تركك المسجد وطاعتك المفسد» (٣). ٣- ومن العلامات المهمة الأخرى للغفلة هي عدم الاكتراث بالنذر، مثلاً عندما يمر الشخص على مقبرة فإنه لا يخطر في ذهنه انه سوف يكون من أهالي هذه المقبرة غداً، أو عندما يشترك في تشييع جنازة أحد أقربائه أو أصدقائه فإنه لا يفكر في أنه سوف يتعرض يوماً لمثل هذا الموقف ويكون هو المشيع ويسير الآخرون وراء جنازته. وقد ورد في نهج البلاغة أن الإمام علي عليه السلام كان يسير خلف جنازة لأحد المؤمنين فسمع أحدهم يضحك بصوت عال فتألم الإمام من ذلك وقال: «كأن الموت فيها على غيرنا كتيب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان المذنب نرى من الأموات سيفراً عما قليل أينا راجعون». الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٥ ثم أضاف: «نبؤتهم أجيادتهم ونأكل تراثهم كأننا مخلدون بغيدهم» (١). ٤- ومن العلامات الأخرى للغفلة أن الإنسان ينفق وقته وعمره الثمين في امور موهومة لا تنفعه لحياته الآخروية، أو يتلف السنوات المديدة من عمره وشبابه في مواقف وأعمال لا تعود عليه بالنفع الدنيوي ولا الآخروي، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كفى بالرجل غفلة أن يضيع عمره في ما لا ينجي» (٢). وفي رواية أخرى عنه أنه قال: «كفى بالمرء غفلة أن يصرف همته في ما لا يعنيه» (٣).

### ٤- الطرق الكفيلة بمكافحة الغفلة

تعتبر «الغفلة» من الأمراض الأخلاقية الخطرة، ولا بد في علاجها من استخدام الأصول الكلية والمبادئ العامية المستخدمة في هذه المباحث الأخلاقية. ففي المرحلة الأولى علينا التفكير في عواقب ونتائج الغفلة وخاصة ما تقدم ذكره من الروايات الشريفة والمباحث الأخلاقية السابقة في هذا الموضوع، فإن التدبر في العواقب الوخيمة هذه له أثر كبير في التنبيه في أن يعيش الإنسان حالة التنبيه والوعى ويعود إلى سلوك طريق المعرفة واليقظة، مثلاً عندما يريد التخلص من الأدمان على المواد المخدرة أو يريد الوقاية من الوقوع في أسرها، فعليه أن يتفكر في الأشخاص الذين ابتلوا بهذه البلية السوداء، وما كانت نتيجة حالهم وعاقبة أمرهم، وما حل بهم وبأسرهم وابنائهم من الدمار والارباك والاهتزاز في العلاقة العائلية، وحينئذ سوف يتسنى له التوقف والانتباه وسلوك طريق العودة بل وتقديم النصح للآخرين وتحذيرهم من الوقوع في هذا الوادي المهلك، وكذلك لا بد من الرجوع إلى جذور هذه الحالة والعمل على علاجها وقطع جذورها و... فما دامت أسباب المرض باقية في روح الإنسان فإن العلاج سوف يكون ابتداءً. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٦

وقد تقدم في المباحث السابقة تفصيل الكلام عن جذور الغفلة وأسبابها، فلا حاجة إلى التكرار، ولكن نواصل إلى المطالب السابقة نذكر فيما يلي بعض النقاط النافعة لإزالة الآثار السيئة للغفلة في واقع الإنسان. ١- كسب العبرة من التاريخ يجب دراسة التاريخ بدقة وتأمل وكسب العبرة من حوادثه ومجرياته، فأيوان كسرى في المدائن واطلال قصور الملوك واهرام مصر تحدثنا بلسانها غير الناطق وتخبرنا عما جرى على الأقسام السالفة لناخذ العبرة منهم، والخاصة لا بد من استطلاع تاريخ البشرية ومشاهدة آثارهم الباقية واستيحاء العبرة من كل ذلك. القبور المندثرة للباطل وقادة الحروب بالأمس تزرع أبدانهم المترفة أسيرة التراب، رؤية المسنين والعجائز الذين كانوا بالأمس القريب شباباً ممتلئين حيوية ونظارة وهم الآن يعيشون العجز وعدم القدرة على ممارسة نشاطاتهم اليومية، كل هؤلاء كانوا بالأمس القريب أشخاصاً أقوياء وممتلئين بالفتوة والحيوية، ولكن حوادث الأيام والسنين قد أخذت منهم ما أخذها وأكلت منهم قوتهم وسلبتهم نشاطهم، ونحن الآن على آثارهم وسوف نبلى بحالتهم. ومن الواضح إننا كلما تفكرنا في هذا الموضوع أكثر وتأملنا في تحول الأيام وتبدل الحكومات وانتقال الثروات وتبدل المناصب الدنيوية فإننا سوف لا نعيش حالة الغفلة. الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أَنْ مَنْ عَرَفَ الْيَوْمَ لَمْ يَغْفَلْ عَنِ الْآسِئَةِ غَدًا» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال «اغْفَلِ النَّاسَ مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِتَغْيِيرِ الدُّنْيَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ» (٢). ٢- استمرار ودوام الذكر والعامل المؤثر الآخر لطرد آثار الغفلة هو استمرار ودوام الذكر، لأن ذكر الله تعالى يحيي الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٢٧ القلب ويجلي الروح ويفتح نور البصيرة حيث يرى الإنسان حقائق عالم الوجود ويرى الحق حقاً والباطل باطلاً، وحينئذ يتمكن من تشخيص الصديق والعدو لسعادته وكمال المعنوي في حركة الحياة. ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام «بِدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنَجَّبُ الْعَفْلَةُ» (١). ٣- الصلاة مع حضور القلب إن أداء الصلاة في الوقت المقرر مع حضور القلب والتوجه إلى مضامينها السامية ومفاهيمها العالية والتعامل مع الله تعالى في الصلاة من موقع الفقر والمناجاة كل ذلك من شأنه أن يطهر القلب من أدران «الغفلة» ويجلي مرآة الروح الإنسانية في حركة الانفتاح على الله والكمالات الإلهية. إن طبيعة الحياة الدنيوية موجبة للغفلة عادةً، ولذلك قد ينشغل الإنسان أحياناً إلى درجة انه ينسى ويغفل عن كل شيء حتى عن نفسه، والصلاة تعتبر فرصة مناسبة جداً للعودة إلى الذات والتدبر في واقع النفس وكيفية انقاذها من مخالب «الغفلة»، ولذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «أَيُّمًا مَوْمِنٍ حَافِظٍ عَلَى الصَّلَاةِ الْمَقْرُوضَةِ فَصِيْلًا مَاهَا لَوْ قَتَلَهَا فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْعَافِلِينَ» (٢). ٤- التفكير والتدبر الطريق الآخر للوقاية من الغفلة وعلاجها هو التفكير والتدبر في الامور، فكلما تحرك الإنسان في أعماله وأفعاله من موقع التدبر في نتائجها الإيجابية والسلبية وتفكر فيما يترتب عليها من نتائج معنوية في دائرة النفس والروح فإن ذلك من شأنه أن يبعد أمواج «الغفلة» الظلمانية عن الإنسان. وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف في خطابه لأبي ذر قال «يَا أَبَا ذَرٍّ! هَمٌّ بِالْحَسَنِهِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٢٨ وَأَنْ لَمْ تَعْمَلْهَا لِيْكَ لَا تُكْتَبَ مِنَ الْعَافِلِينَ» (١). التفكير بالموت ونهاية الحياة من جملة الأفكار التي تورث الإنسان اليقظة وتبعده عن الغفلة وخاصة عندما يمر الشخص على مقبرة من المقابر ويتصور انه في الغد القريب سيكون أحد سكنة هذه المقبرة وينقطع عن الحياة الدنيا، فهذا التفكير من شأنه أن يزيل استتار الغفلة التي تتراكم على القلب بسبب الأهواء والشهوات والنوازع الدنيوية الأخرى.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في أحد وصاياه لابنه الإمام الحسين عليه السلام «أَيُّ بُنَى الْفِكْرَةِ تُورِثُ نُورًا وَالْغَفْلَةُ ظُلْمَةٌ» (٢). ٥- تغير المحيط إن الكثير من الاجواء الاجتماعية والطبيعية تورث الإنسان الغفلة وخاصة الاشتراك في مجالس الغافلين والباطلين، وجلسات اللهو واللعب، والسكن في القصور الفخمة والمزخرفة وأمثال ذلك، فكلها تقود الإنسان باتجاه الغفلة عن حقائق الامور، وحتى الكثير من المدن في عالمنا المعاصر قد تبذلت إلى مركز من مراكز الفساد والغفلة. وأحد الطرق للخلاص من قيود الغفلة هذه هو ترك المشاركة في مثل هذه الجلسات والاماكن، والهجرة من المدن الملوثة بالفساد، وفي غير هذه الصورة فإن التخلص من سلطان الغفلة عسير جداً. فلذلك نرى أن الإمام السجاد يقول لأبي حمزة الثمالي عند بيان أحد عوامل سلب التوفيق: «أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي آلِفٌ مَجَالِسَ الْبَطَّالِينَ فَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خَلَيْتَنِي». ونختم هذا البحث بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال «أَحْذَرُ مَنْزِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةِ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ» (٣).

### ٥- اليقظة والانتباه

«اليقظة» هي اليقظة المقابلة للغفلة وتأتي بمعنى الانتباه من النوم البدني أو النفسي، وقد ذهب بعض العرفاء إلى أن اليقظة هي أول منازل السير والسلوك لأرباب المعرفة. واليقظة في مصطلح العرفاء الإسلاميين هي الانتباه من نوم «الغفلة» والتوجه للأعمال والأفعال من موقع الضبط والوعى ولجبران الأخطاء السالفة وتصحيح المسيرة في حركة السلوك المعنوي للإنسان. الإمام الخميني يرى في كتاب «الجهاد الأكبر أو جهاد النفس» ضمن اعتقاده بان اليقظة هي الخطوة الأولى في تهذيب النفس يقول في ذيل بحثه عن اليقظة «إلى متى تريد أن تبقى في نوم «الغفلة» وأنت غارق في لجة الفساد والشر، اتق الله وأحذر عواقب الامور وانتبه من نوم الغفلة، فأنت لحد الآن لم تخطو الخطوة الأولى في سلوكك إلى الله تعالى فالقدم الأول في دائرة السلوك هو «اليقظة»، ولكنك مازلت في حالة النوم، فافتح عينيك وقلبك واترك نومك، فلو أن قلبك لم يكن ملوثاً بأفانق الذنوب السوداء لم تقع وتستمر على هذا النوم وكأن شيئاً لم يكن، فلا تشعر ماذا يجري حولك بل تستمر في سلوكك وأعمالك وأقوالك الباطلة، فلو أنك تفكرت قليلاً في أمر آخرتك وعاقبتك المخيفة يوم القيامة لتحركت من موقع الاهتمام بالتكاليف وأداء المسؤوليات الثقيلة الملقاة على عاتقك». أمّا الآيات والروايات الشريفة التي تقرر هذا المضمون والمحتوى فكثيرة، وأساساً فإن جميع آيات الإنذار والبشارة هو من أجل الوصول إلى هذه الغاية والهدف، أو إزالة آثار الغفلة عن قلب الإنسان وإيقاظه إلى ما ينتظره في الغد ولكي لا يبقى في نوم الغفلة والجهل. إن من جملة التعبيرات القرآنية في دائرة الإنذار والتحذير هي «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١) «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٢) و «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» و «أَوْ لَمْ يَنْدَبَرُوا الْقُرْآنَ» وأمثال ذلك. فكلها بمثابة الاعلام عن الخطر المحدق بالإنسان وإيقاظه من النوم العميق الذي يعيشه الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٠ في أجواء الطبيعة المادية، ولذلك كان لابد له من منبه وجرس إنذار ليستعد للمسير في خط الإيمان والصلاح والتقوى وكذلك الآيات التي تؤكد على ذكر الله تعالى لأن الاعراض عن ذكر الحق من شأنه أن يفسد حياة الإنسان، ويعيش بالتالي «معيشة ضنكا» في هذا العالم ويحشر يوم القيامة أعمى ولذلك نجد أن المفاهيم القرآنية تتحرك باتجاه تحذير المسلمين من اسباب اللهو أو الغفلة وتسوقهم باتجاه ذكر الله تعالى وكل ذلك من شأنه انعاش حالة «اليقظة» والوعى بالمصير في واقع الإنسان وفكره. وقد أشارت الروايات الإسلامية بشكل واسع إلى مسألة «اليقظة» منها: ١- ما ورد عن أمير المؤمنين في خطبته لدى الإشارة إلى الهدف من بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقال «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ ارْسَلَنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا لِيُرِيحَ بِهِ عِلَّتْكُمْ وَيُوقِظَ بِهِ غَفْلَتَكُمْ» (١). وليس هذا الهدف مخصص بنبي الإسلام فحسب بل يشمل جميع الأنبياء فإنهم بعثوا لهذا الغرض أيضاً، وإيقاظ الناس من غفلتهم، أو على الأقل أن هذا الهدف هو أحد الأهداف الأساسية من دعوتهم. ٢- ويقول الإمام الحسن عليه السلام في خطبته لأهل الكوفة: «أَيُّهَا النَّاسُ تَيَقَّظُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ وَمِنْ تَكَاشُفِ الظُّلْمَةِ، فَوَالَّذِي خَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ وَتَرَدَّى بِالْعَظْمَةِ، لَنْ قَامَ إِلَيْكُمْ عَصَبَةٌ بِقُلُوبٍ صَافِيَةٍ وَتِيَابٍ مُخْلِصَةٍ، لَا يَكُونُ فِيهَا شَوْبٌ نِفَاقٍ وَلَا- نِيَّةٌ اقْتِرَاقٍ لِجَاهِدِنَ السَّيْفِ قَدَمًا قَدَمًا وَلَا ضَيْقٌ مِنَ السُّيُوفِ جَوَابِئِهَا وَمِنَ الرِّمَاحِ اطْرَافِهَا وَمِنَ الْحَيْلِ سَيْنَابِكِهَا



فَتَكَلَّمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ» (٢). وهنا نرى أن الإمام الحسن عليه السلام فى هذا الكلام يدعو أهل الكوفة إلى جهاد معاوية وجيش الشام فى حين أنهم قد تمكنوا منهم «الغفلة» فلم يستجيبوا له. ٣- ونقرأ فى كتاب «فلاح السائل» الدعاء الذى أقره الإمام الصادق عليه السلام أيضاً بغرض الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣١ جبران الأخطاء والغفلة فى الصلاة حيث قال «فَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ مَكَانَ نُفُصَانِهَا تَمَامًا وَعَجَلَتِي تَشْبَهُ وَتَمَكُّنًا، وَسَيَهْوِي تَيَقُّظًا، وَعَفَلَتِي تَذُكُّرًا، وَكَسَلِي نَشَاطًا» (١). ٤- وورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة قوله مخاطباً للإنسان اللأبالي «أما من دائك بلول أم لئس من نومك يقظة» (٢). ٥- ويقول أمير المؤمنين فى حديث آخر أيضاً «ألا مُسْتَيَقِظٌ مِنْ غَفَلَتِهِ قَبْلَ نَفَادِ مُدَّتِهِ» (٣). وفى جميع هذه الروايات نجد أن «الغفلة» شبهت بنوع من النوم تارة، واخرى بنوع من السكر، وشبه قصد التذكر بنوع من الانتباه واليقظة، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المجال: «سُكْرُ الْغَفَلَةِ وَالْغُرُورِ ابْتِعَادُ آفَاقِهِ مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ» (٤). ٦- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين فى تشبيهه اليقظة بالمصباح المنير حيث قال «فَاسْتَضْبِحُوا بِنُورِ يَقِظَةٍ فِى الْإِبْصَارِ وَالْإِسْمَاعِ وَالْإِفْتِدَاءِ» (٥).

### التغافل الإيجابى:

كما تقدم أن الغفلة فى نور الحياة سبب للشقاء والانحطاط المادى والمعنوى فإن «التغافل» بالنسبة إلى هذه الامور يؤدى إلى نفس هذه النتيجة، أى أن الإنسان يجب أن يعلم بأن الواقع الدنيوى متزلزل وأن هذا العالم غير ثابت على أمر واحد، وعليه أن يعبره إلى حيث الحياة الخالدة، وأن الموت هو قانون طبيعى حتمى على الأشياء ولا اعتبار بالقوى الطبيعية والثروات المادية، ولكن مع كل ذلك فإن الإنسان الذى يعيش الغفلة و «التغافل» يمر على هذه الحقائق من الكرام ولا يعنيه من أمرها شىء. هذا هو التغافل السلبي الذى قد يترتب عليه آثار ونتائج مضره أكثر من الغفلة نفسها، الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٢ لأن «الغافلين» قد يقعون فى دوامة الحوادث والمشاكل عن جهلٍ وعدم علم بواقع الحال، اما «المتغافل» فهو يخطو باتجاه هذه المشاكل عن وعى وعلم مسبق، وبذلك تكون مسؤوليته الإلهية أكثر وظلم الناس له أشد. اما «التغافل الإيجابى» فهو أن يعيش الإنسان بحاله يخفى معها الأشياء التى ينبغى اخفاؤها، أى أن يقوم الشخص باظهار عدم اطلاعه وعدم علمه بالأشياء التى يعلم بها ولكن اظهارها له عواقب سيئه، ويتصرف معها تصرف المتغافل ويمر عليها مَرَّ الكرام من موقع سعة الصدر وقوة الشخصية، لغرض حفظ ماء وجه الآخرين واحترامهم وحيثتهم الاجتماعيه. ومن جملة موارد التغافل الإيجابى هو اخفاء عيوب الآخرين، فإن لكل شخص عيوباً وأخطاءً لا يحب أن يطلع عليها الآخرون، ولذلك يسعى لكتمانها، ولكن أحياناً يعلم بها بعض الأشخاص الأذكياء، ففى مثل هذه الموارد يكون التغافل مطلوباً، وفى الحقيقة هو نوع من ستر العيوب الخفية التى لا ينبغى اظهارها إلا فى موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بشكل لطيف ومستور أيضاً. وهناك بعض الموارد يكون الكشف عن العيب فيها مؤدياً إلى تسقيط شخصية الأفراد وكذلك يؤدى إلى حث الآخرين على المعصية، فالفضيحة قد تؤدى إلى زيادة الايغال فى ارتكاب الذنوب، وبعبارة اخرى: إذا زال حجاب الحياء عن المدنيين فإنهم سوف يقدمون على ارتكاب الذنوب المختلفة، ولهذا ففى مثل هذه الموارد يكون «التغافل» مانعاً عن تفشى هذه الظاهرة الاجتماعيه السلبية. وبيان عام يمكن القول أن أحد الاصول المهمة بالحياة الهادئة والواعدة هى أن يعيش الإنسان «التغافل» عن بعض الامور لا سيما بالنسبة إلى المدراء وأصحاب المناصب الحساسة فى المجتمع حيث يجب عليهم الاستفادة من هذه المسألة بشكل جيد لحل الكثير من المشاكل التى تعترضهم فى عملهم الاجتماعى، وهذا يعنى انه كلما احتاج الأمر إلى تحذير وتنبه فعليهم أن يقوموا بهذا الأمر، وكلما احتاجت المسألة إلى «تغافل» لحلها أو الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٣ جعلها تراوح فى مكانها ولا تنتشر وتنفشى وتتعاظم فإنه عليهم سلوك هذا الطريق، ومن المعلوم ان المدير الذى لا يرى للتغافل شيئاً حاسماً فى سلوكه الإدارى ولا يعير له اهتماماً فإنه سيوقع نفسه فى مشاكل وصعوبات غير موجهة وبدون مبرر. ولهذا السبب فإن الأئمة المعصومين عليهم السلام أكدوا على هذه المسألة فى أفعالهم وأقوالهم، فمثلاً نجد أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يتعامل مع بعض الامور من موقع التغافل بحيث أدى ذلك إلى اعتراض بعض

المسلمين الجهلة، فمثلاً اعترضوا على النبى بأنه سريع التأثر بما يسمعه من كلمات من هنا وهناك، فلو قيل له إن فلان يقول عنك كذا وكذا لأسرع فى تصديقه وقبوله وأرسل خلف ذلك الشخص معاتباً إياه، ولو أن ذلك الشخص أقسم له انه لم يقل هذا الكلام فى حقه لاسرع كذلك إلى تصديقه أيضاً. القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى الآية ٦١ من سورة التوبة ويقول «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُقُولُونَ هُوَ اذَّنْ قُلْ اذُنُّ قُلُّ اذُنُّ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...». ومن البديهي أن نبى الإسلام مع كل ذلك الذكاء والحركة والدراية التى اعترف بها الأعداء والأصدقاء لم يكن بالشخص الساذج إلى هذه الدرجة، بل كان يرى أن وظيفته فى بعض الموارد هى «التغافل» وهذا التغافل يُعد مصدر رحمة لجميع المؤمنين.

### التغافل فى كلمات المعصومين عليهم السلام:

١- ورد فى الحديث المعروف عن الإمام زين العابدين عليه السلام وكذلك الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عن «التغافل» قولهم «صَلِّحْ حَالِ التَّعَائِشِ وَالتَّعَاشِرِ مِلَّ مِكْيَالٍ ثَلَاثَةٌ فَطَنَةٌ وَثَلَاثَةٌ تَعَافُلٌ» (١). هذه الرواية فى الواقع ضمن تأكيدها على التغافل الايجابى تحذر الإنسان من التغافل السلبي، وفى البدايه تؤكد على الفطنة والانتباه واليقظة فى الامور وترك الغفلة وأن ذلك يعد الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٤ ثلثى مكيال المعاشرة، ومفهومه هو أن الإنسان لا- ينبغى أن يعيش الغفلة وعدم الاطلاع بالنسبة إلى مسائل الحياة والمعيشة بل يجب الانتباه واليقظة والتعامل مع الامور بدقة متناهية ليحرز بذلك خيره وصلاحه، ولكن من جهة اخرى يجب عليه أن يعيش «التغافل» بالنسبة إلى الامور التى ينبغى عليه التغافل عنها وجعلها فى زاوية النسيان والاهمال من قبيل التفكير فى المسائل الجزئية للحياة التى ليست بذات قيمة، لأن التفكير فى مثل هذه الامور والسفاسف بإمكانه أن يمنع الإنسان من التفكير فى المسائل الأهم منها، وكذلك اخفاء عيوب الآخرين المستورة فى الموارد التى تستوجب المصلحة ذلك فإن التغافل فى مثل هذه الموارد يعتبر أمراً محموداً. ٢- وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ» (١). ٣- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ لَمْ يَتَغَافَلْ وَلَا يُعْضَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ تَنَغَّصَتْ عَيْشَتُهُ» (٢). وبديهي أن الحياة الدنيا لا تخلو من بعض الامور التى قد تحدث للإنسان من غير توقع أو لا- تسير الحياة كما هو المطلوب وكما يريد لها الإنسان، فلو أن الشخص قد تحرّك فى تعامله مع الحياة من موقع الفحص والدقة فى جزئيات الامور وعاش الفضول فى حياة الآخرين وأخذ يحاسبهم ويعاتبهم على كل صغيرة وكبيرة فإن حياته ومعيشته سوف تتنقص ويتفرق الآخرون من حوله. ونختم هذا البحث بالحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً حيث يقول «وَعَظْمُوا أَقْدَارَكُمْ بِالتَّغَافُلِ عَنِ الدُّنْيَا مِنَ الْأُمُورِ ... وَلَمَّا تَكُونُوا بَحَائِنَ عَمَّا غَابَ عَنْكُمْ، فَيَكْتُمُوا عِيَابَكُمْ ... وَتَكَرَّمُوا بِالتَّعَامِي عَنِ الْأَسْرِيَّةِ» (٣). ومن هذا الحديث وكذلك بعض الأحاديث الاخرى يستفاد جيداً أن هذا المفهوم «التغافل» لا يرد إلأى الموارد الجزئية والصغيرة من سفاسف الحياة والواقع الاجتماعى. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٥ وعلى هذا الأساس فإن «التغافل» لا يتقاطع مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والانتقاد البناء فى حركة الحياة الاجتماعية لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتعلقان بالواجبات والمحرمات التى هى خارجة عن دائرة «التغافل»، واما الانتقاد البناء فيتعلق بالامور المصيرية فى حياة الفرد والمجتمع والتى يترتب عليها نتائج مهمة، فى حين أن التغافل لا- يتعلق بالامور الجسيمة وذات الأهمية أو الامور التى تكون المصلحة فى سترها والتغاضى عنها. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٦

### البخل والشح

#### تنويه:

إن النعم والمواهب الإلهية على الإنسان تكون فى كثير من الموارد أكثر من حاجة الإنسان نفسه بحيث يمكنه أن يسهم الآخرين بها

ويشاركهم في الاستفادة منها بدون أى ضرر يلحق به، ولكن بعض الناس وبسبب البخل والشح يمتنعون من ذلك ولا يجدون في أنفسهم رغبة في العطاء والجود بما لديهم من نعم كثيرة، وأحياناً يتحركون من موقع التفرج والتفاخر بهذه النعم والثروات الدنيوية إلى درجة أنهم يثيرون حفيظة المحرومين ويجرحون قلوبهم بذلك وكأن هؤلاء يجدون لذة خاصة في إثارة المحرومين هؤلاء. وأحياناً تقترب هذه الصفة مع حالة «الانانية» و «التكبر» و «الحرص» وأمثال ذلك من الصفات السلبية القبيحة. إذا نظرنا إلى عالم الوجود من موقع التدبر والتأمل فسوف نشاهد آيات البذل والكرم والجود والافتقار في كل مكان، الشمس تحترق دائماً وتبدل بعض وجودها إلى نور وحرارة وترسله إلى جميع المنظومة الشمسية حيث تعيش المخلوقات والأحياء بهذا النور الساطع وتستدفي بهذه الحرارة الكافية. الأرض بدورها تُخرج ما في باطنها من أنواع الكنوز والمعادن الثمينة والمواد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٣٨ الغذائية والمياه الجوفية، كل ذلك تضعه تحت اختيار الإنسان مجاناً وتعيه بذلك على مصاعب الحياة، وهكذا الحال في سائر موجودات هذا العالم الفسيح فإن كل واحدة منها يعطى للإنسان ما لديه مظهراً بذلك كرمه وجوده. ومضافاً إلى هذا العالم الكبير نرى في العالم الصغير، أى الإنسان أيضاً نفس هذه المسألة، فالقلب، والجهاز التنفسي، والمعدة، العين، الاذن، اليد والرجل كلها لا تعمل من أجل ذاتها فقط بل تخدم في حركتها وحياتها جميع أجزاء البدن، فلا معنى للبخل في وجودها، بل كلما هناك هو الكرم والجود يترشح من جميع أجزاء البدن وجميع خلاياه. في هذا العالم المذى تحكم فيه معالم الكرم والسخاء فهل هناك من مكان للإنسان البخل؟ ألا يتقاطع وجود هذا الإنسان البخل مع عالم الوجود وبالتالي فإنه محكوم بالموت والاندثار والزوال؟ على هذا الأساس نرى ذم «البخل» ومدح «السخاء والكرم» بشكل واسع في الآيات والروايات الإسلامية حيث نرى أن «الجود والسخاء» بعنوان أنهما من الصفات والأسماء الإلهية البارزة في عالم الوجود وتمثل سمة من سمات الأئمة المعصومين عليهم السلام أيضاً. بهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحى منها ما يضيف على مفهوم «البخل» و «السخاء» ضوءاً وجلاءً أكثر: ١- «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (١). ٢- «أَنَا بَلُونَاهُمْ كَمَا بَلُونَا اضْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ \* وَلَا يَسْتَشْنُونَ \* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ \* فَاصْبِرْ كَمَا صَبَّرَ اللَّهُ لَنَا وَمَا نَرَى مِنْ عَهِدِ اللَّهِ لَنَا إِنَّا كَانُوا مِنْ قَوْمٍ كَاذِبِينَ \* فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَاصْبِرْ إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ طَائِفًا لِيَلْقَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ يُخَوِّفُونَ نَارًا كَالَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا عِزًّا بِأَمْوَالِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ فَلَمَّ اللَّهُ بِهَا لَوْلَا رَبُّهُمْ لَمَنَوا بِأَمْوَالِهِمْ لَمَّا هُمْ مَرْغُوبُونَ \* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (١). ٣- «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (٢). ٤- «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا» (٣). ٥- «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى فَسَنَسْتَرِيحُ لِعُسْرِي» (٤). ٦- «هِيَ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ» (٥). ٧- «... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٦). ٨- «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» (٧). ٩- «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» (٨).

## تفسير واستنتاج:

### مصير البخل

«الآيات الأولى من الآيات محل البحث تستعرض حادثة مهمة من الحوادث التي جرت على بني إسرائيل، فكانت عبرة لمن اعتبر ذلك أن أحد أثرياء بني إسرائيل وبسبب البخل والتكبر والغرور، ابتلى بمصير عجب وموحش. لقد كان «قارون» من أقرباء النبي موسى عليه السلام ومن الوجوه والشخصيات الثرية المعروفة لبني إسرائيل، وحسب الظاهر كان من أول المؤمنين بموسى عليه السلام أيضاً وكان

مطلعاً وعارفاً بالتوراة، ولكنه كان كمثل الكثير من الأثرياء انانياً ومحباً للدنيا وبعيداً عن الله، وكان يحب بشكل عجيب اظهار مالديه من الثروة أمام فقراء بنى إسرائيل، وكان فى كل مرة يظهر عليهم بزینته و ثروته الهائلة يخفق قلوب أصحاب الدنيا وأهل الطمع من بنى إسرائيل حتى وصل بهم الأمر إلى أن يكون أملهم الوحيد أن يكونوا مثل قارون من حيث الثراء وكثرة المال. يقول القرآن المجيد فى هذه الآيات «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ» (١). لقد كان ظلمه وبغيه على قومه بسبب «البخل» الشديد حيث لم يكن راغباً فى بذل شىء منها، وفى نفس الوقت كان يخرج على الناس والفقراء بزینته و ثراءه الفاحش ويجد بذلك لذة فى نفسه، والأمر الآخر أيضاً الذى زاد من بغيه هو مخالفته الشديدة للنبي موسى عليه السلام وتعامله مع الفراعنة وخاصةً عندما طلب منه موسى عليه السلام اداء الزكاة. وأساساً أن الأثرياء وأصحاب الدنيا لديهم علاقة شديدة فى تقوية نفوذهم وقدرتهم فى المجتمع، وهذه العلاقة تارة تكون بدافع من حب التكاثر، واخرى بسبب الخوف من القدرات السياسية والاجتماعية الاخرى لكى لا يلحق بثروتهم الضرر من قبل هذه القدرات وقوى السيطرة والسلطة، ولهذا السبب كانوا يقفون من الأنبياء ودعوتهم السماوية التى كانت تستوعب الناس وتظلمهم تحت خيمة الحكومة الإلهية، كانوا يقفون منها موقف العناد والرفض. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٤١ القرآن الكريم فى إدامه حديثه عن قارون و ثروته يقول فى هذه الآية «وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ» (١). لقد كان قارون فرحاً جداً من وضعه الاجتماعى وكان يعيش دائماً حالة اللهو واللذة ولا يشعر بما يجرى على البؤساء والفقراء ولا يعيش محتتهم وحرمانهم وحتى عندما قال له العقلاء من قومه «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَمْرِحْ إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» (٢). هذه التعاليم الخمسة والنصائح المشفقة ليس لم تؤثر إطلاقاً فى قلب قارون الأسود، بل زادته طغياناً وضلالاً إلى درجة انه انكر بصراحة التوحيد الأفعالى لله تعالى وقال: «إنما اوتيته على علم». ويتحدث القرآن الكريم فى آيات اخرى من هذه السورة عن إحدى الرذائل الأخلاقية لقارون التى تتمثل تقريباً بدرجه من الجنون الذى يبتلى به جميع الأثرياء المغرورين والذين يتحركون فى خط الإنحراف وطلب المزيد من الثروة والمال بعيداً عن الله تعالى فتقول الآية: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (٣). وأخذ يتبرج بهذه الثروة الطائلة من موقع الغرور والتفاخر حيث استعرض معه الجياد الغالية المزينة بالذهب وحمل معه الجوارى الجميلات الغارقات بأنواع الزينة والمجوهرات وكذلك سائر أنواع الأموال والثروة وزخارف الدنيا وبريقها الخداع حتى أن طائفه من المؤمنين نصحوه بترك هذه السلوكيات الذميمة، إلا أنه بدلاً من أن يستمع إليهم ويسلك مع الفقراء والمعدمين مسلك اللطف والكرم والمواساة فانه انطلق من موقع العناد الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٢ والإصرار لوضع الملح على جراح هؤلاء الفقراء والبؤساء ويجعلهم حيارى غارقون بالحسرة أمام هذا الغرور العجيب. وعندما ازدادت حدة طغيانه لم يمهل الله تعالى أكثر من ذلك، فكان أن اصابت زلزلة قصره ومحل إقامته فقط فخسفت به الأرض وغاص فى أعماقها هو وجميع ثروته، وهكذا صار حديثاً بعد عين وعبرة لمن اعتبر على طول التاريخ البشرى. إن الجذور الأصلية لشقاء «قارون» هو حالة «البخل» التى كان يعيشها بعمق بكامل وجوده، البخل الذى صار منشأً وسبباً لانكاره لنبوة موسى عليه السلام وتعامله مع عقيدة التوحيد الإلهى من موقع الاعتراض والرفض، وأخيراً أدى به الحال إلى اتهام نبي الله موسى عليه السلام بالعمل المنافى للعفة مع زانية معروفة، ولكن الله تعالى فضح أمره سريعاً، فكان يتصور انه مع تملكه لهذه الثروة العظيمة فإنه لا أحد يقدر على إيصال الضرر إليه، ولهذا السبب فلم يكن يمتنع من أى ظلم وجور على قوم بنى إسرائيل إلى أن نال جزاءه وعقابه. «الطائفه الثانية» من الآيات محل البحث تشير إلى قصة اخرى من قصص هؤلاء البخلاء ومصيرهم الأسود حيث يتحدث القرآن الكريم هنا عن جماعة يسموهم «أصحاب الجنة» ويرى بعض المفسرين أنهم كانوا جماعة من بنى إسرائيل يسكنون «اليمن» على مقربة من «صنعاء»، وذهب بعض المحققين إلى أن كلمة «حرد» الواردة فى سياق هذه الآيات يعنى «المنع» وهى من الكلمات المتداوله فى اليمن وتشير إلى أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن. لقد كان عدد هؤلاء عشرة أشخاص وكان لديهم بستان كبير و ثروه من أبيهم الذى كان رجلاً كريماً وسخياً وصالحاً، وكان عندما يحين قطف الثمار يفتح باب البستان على

مصراعيه للفقراء والمساكين لينالوا منه حاجتهم، وبذلك كانت البركة وسعة المال والثراء تزداد في أموال الأب، ولكن أبناءه البخلاء كانوا يتصورون أن مثل هذا البذل والعطاء الكثير المذموم يصب في جيوب الفقراء والمحتاجين لا مسوغ له، ولا مبرر لأن ينفق الإنسان من أمواله بهذه الدرجة، وبذلك لقد عزموا على أن يمنعوا كل فقير من الدخول إلى هذا البستان الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٣ الكبير، وقرروا أيضاً فيما بينهم أن ينهضوا في الصباح الباكر ومن دون اعلان أو سخط ليقطفوا ثمار هذا البستان مع مجموعة من العمال وقبل أن يستيقظ الفقراء والمساكين من نومهم ويصل إليهم الخبر فإنهم يقومون بنقل هذا المحصول الكثير. يقول البرسوي في «روح البيان»: «إن هذه الحادثة وقعت بعد عصر عيسى بقليل حيث كان لهم أب كريم جداً، فكان يأخذ من بستانه ما يكفيه لسنته ويوزع الباقي على الفقراء، ولكن ما أن توفي الأب حتى قال الأولاد: إننا إذا سرنا بسيرة والدنا فإن حياتنا ستكون شاقه، لكثرة عيالنا وأطفالنا، فأقسموا أن يعجلوا في الصباح الباكر على قطف الثمار وحتى أنهم لم يقولوا: إن شاء الله» (١). وقد أنزل الله تعالى عليهم عذاباً أليماً وعاقبهم بأشد العقاب كما تقول الآية «طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» (٢). أجل، إن صاعقه محرقة ونار رهيبة نزلت على ذلك البستان وأحرقته من أوله إلى آخره «فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» (٣). «الصريم» هو الشجرة غير المثمرة، أي أن الصاعقه اتلفت الثمار فقط دون الأشجار التي بقي منها الجذوع فقط، وفي الغد عندما نهض الاخوة وذهبوا في الصباح الباكر إلى بستانهم ترجموا خطتهم على أرض الواقع، فلما وصلوا إلى ذلك البستان ورأوا ذلك المنظر المهيب والمفجع قالوا: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ» بل نحن مخرؤمون» (٤). جملة «انا لضالون» إشارة إلى أنهم لم يكونوا يصدقون أن هذا البستان قد احترق بأكمله بعد ما كان قبل قليل زاهراً ومليئاً بالثمار ولكن عندما دققوا النظر أدركوا من خلال القرائن أن هذا البستان المحترق هو بستانهم الذي أصبح بهذه الصورة لذلك قالوا «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ». الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٤ وهناك احتمال آخر، وهو أن المراد بالضلالة هنا هي الانحراف عن طريق الله والحق لأنهم كانوا يتصورون إن السعادة تكمن في عنصر «البخل»، والحال أن الطريق الصحيح لنيل السعادة الحقيقية هو الطريق الذي سلكه أبوهم الكريم من قبل. وجاء في الآيات التالية إن هذه المجموعة من البخلاء انتبهوا من نوم الغفلة بسرعة وأخذوا يلومون أنفسهم واعترفوا بذنبهم وعزموا على عدم تكراره في المستقبل بعد أن طلبوا من الله تعالى بستاناً أفضل من السابق، وقد ورد في بعض الروايات أن الله تعالى قبل توبتهم ووهبهم بستاناً أفضل وأحسن من بستانهم السابق. وعلى أية حال فإن الآية أعلاه تبين العواقب المؤلمة لحالة «البخل» والشح بحيث إن هذه الرذيلة تضر الإنسان حتى في أمر دنياه العاجلة. والملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول في بداية هذه الآيات «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة» ولعل هذا التعبير إشارة إلى حالة القحط الشديد الذي أصاب مكة المكرمة بسبب البخل وترك الانفاق من قبل أثرياء قريش. «الآية الثالثة» تتحدث عن مصير شخص بخيل في عصر رسول الله، وطبقاً للكثير من التفاسير فإن هذا الشخص كان من الأنصار ويدعى «ثعلبة بن حاطب» والذي كان في بداية أمره معسراً وفقيراً بشده وكان يتمنى أن يكون يوماً من الأثرياء ولذلك طلب من النبي بالحاح شديد أن يدعو له بذلك ليكون من الأثرياء. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، ولكنه أصر على ذلك وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لا أعطين كل ذي حق حقه وهو قوله «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين» (١). ثم إن النبي الأكرم دعا لهذا الرجل بعد إصراره الشديد ليكون عبرة لغيره فلم تمض فترة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٥ إلماً وانفتحت عليه أبواب الرزق والثراء ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وآله وحصل على ثروة طائلة غير متوقعة، فملك قطعان كبيرة من الأغنام والإبل وأصبح من الموسرين جداً، ولكن عندما نزلت آية الزكاة وسمع بها وعلم انه يجب عليه أن يدفع مقداراً قليلاً من هذه الأموال بعنوان الزكاة إلى الفقراء والمساكين، فما كان من هذا الرجل البخيل إلا أن نقض عهده مع الله تعالى ومع رسوله الكريم ونسى وعده بمساعدة الفقراء وامتنع من دفع الزكاة. وهنا يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحالة بايجاز فيقول «فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ» (١)، وبالرغم من أن «ثعلبة» لم يكن سوى رجل واحد، ولكن عندما ازدادت أمواله وكثرت ثروته استخدم بعض الأشخاص لحفظها ورعايتها، ولذلك فمن المحتمل أن تكون صيغة الجمع الواردة

في الآية إشارة إلى هذا المطلب. وهناك احتمال آخر وذلك بأن مثل هذه الحالات لا تختص بثعلبة وطلبه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، بل إن هذه الحالة تكثر بين الناس في المجتمعات البشرية حيث يطلبون من الله تعالى هذا الطلب ويعدون بشئ الوعود ولكنهم لا- ينجحون في الامتحان الإلهي ويتحركون بعد ذلك من موقع نقض العهود هذه، والسلوك في خط الانانية والبخل وحب الدنيا وعلى أية حال فإن النتيجة الحتمية لنقض العهد والبخل هو أن تدب ريح النفاق في قلوب هؤلاء البخلاء وتستمر معهم إلى يوم القيامة كما تقول الآية «فَأَعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (٢). أجل، فإن الرجل كان في أحد الأيام من العباد والزهاد وكان يسمى بحمامة المسجد وكانت جبهته متورمة كثفنت البعير من أثر السجود ولكن بسبب البخل والانانية والشح فإنه أصبح في مواجهة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بحيث إنه اعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله بسبب الأمر بالزكاة وقال بأن الزكاة تشبه الجزية التي تؤخذ من أهل الكتاب، وبهذا أصبح في عداد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٦ المنافقين وأخيراً تم طرده من المجتمع الإسلامي. «الآية الرابعة» تبين في سياقها العقوبة الإلهية الشديدة للبخلاء، وما ورد في هذه الآية من المجازات والكنايات بالنسبة إلى البخل لم ترد في سائر آيات القرآن الكريم حيث تقول الآية «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ...» (١). ثم تضيف الآية «سَيَطُوقُونَ مَابِخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢). فتكون الأموال التي جمعوها على شكل سلسلة ثقيلة تكبلهم وتمنعهم من أي حركة في عرصات المحشر، وفي ختام الآية يقول تعالى «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (٣). هذه الآية تشير إلى أن المحافظة على المال والسعي لاكتنازه والبخل به لا ينفع الإنسان شيئاً في حياته الدنيوية لأنه سوف يضطر إلى ترك كل ما لديه ويرحل. وبالرغم من أن بعض الروايات فسرت الآية أعلاه بمسألة منع «الزكاة» ولكن حسب الظاهر فإن مفهوم الآية يستوعب في مضمونه جميع أشكال البخل وحتى مضافاً إلى البخل بالأموال يشمل البخل بالعلم والمعرفة وأمثال ذلك كما ذكر بعض المفسرين. أما تصوير الحالة التي تجعل هذه الأموال على شكل حلقة وطوق حول رقبة البخل يوم القيامة، فينبغي القول طبقاً لما ورد في بعض الروايات أن تلك الأموال تأتي يوم القيامة على شكل طوق من نار كما ورد في تفسير العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ما من عبد منع زكاة ماله إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله: «سَيَطُوقُونَ مَابِخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قال: ما بخلوا به من الزكاة» (٤).

الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٧ ومن التعبير أعلاه يستفاد بوضوح أن التعبير بكلمة «الطوق» هو في الواقع من قبيل تجسم الأعمال التي يسلكها الإنسان ويعملها في الدنيا. لأن «الطوق» لا يتعد ولا ينفصل عن الإنسان بأية حال، وعلى كل حال فإن التعبيرات المختلفة للآية كلها تحكى عن قبح «البخل» وحسن «الانفاق» في سبيل الله والسخاء في المال وسائر المواهب الإلهية على الإنسان. والملفت للنظر أن أموال «البخل» لا تطوق الإنسان البخل يوم القيامة فحسب، بل في الدنيا أيضاً تكون بمثابة القيود التي تثقل كاهل الشخص بسبب الاهتمام بحفظها وحسابها والخوف من نقصانها أو تلفها وأمثال ذلك حيث يتلف الإنسان السنوات العزيرة من عمره من أجلها، ثم يضطر إلى تركها والتوجه للحياة الأخرى محملاً بالمسؤولية بسببها. «الآية الخامسة» تتحدث عن الأشخاص الذين لا يعيشون البخل لوحدهم فقط وإنما يدعون الناس إلى البخل أيضاً، وتبين حالهم من موقع الذم والتقيح وأنهم مصداق عنوان «مختال فخور»، وقد صرح القرآن الكريم في عدة مواضع أن الله تعالى لا يحب من كان مختالاً فخوراً، ويقول الله تعالى أيضاً بالنسبة إلى هذه الطائفة من الناس «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا» (١). ومن البديهي أن الله تعالى لا يحب الشخص الذي يعيش التضاد المطلق مع صفاته الحسنى وأسماء الجلال والجمال لله تعالى، وبالتالي فإن مثل هذا الإنسان يخرج من دائرة سبل عنايات الله الخاصة. والملفت للنظر هو أن الآيات التي سبقت هذه الآية تشير إلى ما يصيب الإنسان من المصائب والبلايا وأن لا يتعلق الإنسان بهذه الحياة ولا يغتر بما لديه من امكانيات مادية وقابليات دنيوية، وليعلم أن «البخل» لا يجديه شيئاً في عملية الثراء والغنى بل إن الحياة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٨ الدنيا تتقلب من شكل إلى آخر، وبذلك قد يكون أثرى الناس وأكثرهم مالاً في يوم آخر من أفقر الناس، ويتبدل حال الفقير كذلك بين عشية وضحاها ليكون من أغنى الناس، إذ فلا داعي إلى

الفخر والمباهات والغرور بهذه الثروات المتنقلة لأنها لا تحل مشكلة حقيقة للإنسان في واقعه النفسي. والملاحظة المهمة الأخرى هي دعوة هؤلاء البخلاء الآخرين لسلوك طريق البخل أيضاً ليصبح الناس كلهم مثلهم، فلا يفتضح أمرهم ولا يعيب عليهم الناس حالة الشح والبخل فيهم، مضافاً إلى أن مثل هؤلاء الأشخاص قد سحقوا العواطف الإنسانية تحت أقدامهم فهم يعيشون قساوة القلب وعدم الاحساس بالرحمة والعطف تجاه الآخرين، لذلك فإنهم يتألمون عندما يرون سخاء الآخرين وترحمهم وعطفهم على الفقراء والمحتاجين ويودون أنهم لو كانوا مثلهم في البخل. وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر المعيقة، وكان الرجل ممن يرجو نوافله ويؤمل نائله ورفده وكان لا يسأل علياً عليه السلام ولا غيره، فقال رجل لأmir المؤمنين عليه السلام: والله ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لاكثر الله في المؤمنين ضربك اعطى أنا وتبخل أنت، لله أنت، إذا أنا لم اعط الذي يرجوني إلا بعد المسألة ثم أعطيته بعد المسألة فلم أعطه إلا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأنى عرضته أن يبذل لى وجهه الذى يعقره فى التراب لربى وربىه...»

«١». «الآية السادسة» وضمن الإشارة إلى العقوبة الشديدة والعذاب الاليم الذى ينتظر البخلاء تقول «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْتَنَى وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» (٢). الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٤٩ ويتضح جيداً من سياق هذه الآيات ما يلي: ١- إن البخل لا- يتسبب فى رفع حالة الاحتياج والفاقة فى النفس بل إن سلوك هذا الطريق سوف يزيد من مشاكل الإنسان الدنيوية والاخروية (والملفت للنظر أن كلمة «العسرى» فى الآية مطلقة تشمل جميع اشكال العسر فى الدنيا والآخرة). ٢- على فرض أن هذا الإنسان استطاع الحصول على ثروة طائلة من هذا السبيل واستطاع نقلها إلى الآخرة، ولكن ماذا ينفع ذلك عندما يهوى إلى جهنم فى ذلك اليوم؟ وقد ذكر المفسرون فى تفسير كلمة «يسر» وهى النقطة المقابلة للعسر، احتمالات كثيرة تأتى كلها أيضاً فى النقطة المقابلة لها، أى مفهوم «العسر»، الاحتمال الأول: أن المقصود من ذلك تهيئة أسباب التوفيق للتحرك فى خط الطاعة والإيمان والانفتاح على الله تعالى، وعلى العكس من ذلك كلمة «العسر» و التى تعنى سلب التوفيق للطاعة والإيمان، وذهب بعض آخر إلى أن معنى هذه الكلمة هو سهولة الحياة فى الدنيا وعدم مواجهة الإنسان صعوبات ومشاكل مهمة فى امور المعيشة، ويرى البعض الآخر أنها تعنى تيسير طريق الجنة والثواب الإلهى العظيم يوم القيامة، والبعض الآخر فسرها بالامدادات الإلهية الغيبية للإنسان وأمثال ذلك ولكن كما تقدمت الإشارة إليه فإن مفهوم «العسر» وكذلك «اليسر» مفهوم واسع يستوعب جميع هذه الامور المتعلقة بحياة الإنسان الدنيوية والاخروية. وفى «الآية السابعة» نجد خطاباً إلهياً لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله من موقع الذم والتقريع حيث تقول الآية «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْقُوقٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ» (١). ومن أجل أن لا يتصور بعض الجهال أن الله تعالى يحتاج لمثل هذه الأموال والانفاق تقول الآية فى سياقها أيضاً «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» (٢) وعلى هذا الأساس فإن ما ينفقه الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٠ الإنسان من الأموال هو فى الواقع أداء للأمانة الإلهية التى أودعت عنده لغرض اختباره وامتحانه وتربيته، وبذلك فإن الله تعالى أمر عباده بإيصال بعض هذه الأمانة إلى الفقراء والمساكين أو إنفاقها فى طريق الجهاد فى سبيل الله. وفى ختام الآية يتحرك القرآن الكريم من موقع التهديد للأشخاص الذين يعيشون البخل والشح ويقول: «وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» (١). وعلى هذا الأساس تنطلق الآية من موقع التهديد للبخلاء بالفناء والاندثار، وهذا من أشد اشكال التهديد الوارد للبخلاء. وبالرغم من أن مصداق الانفاق فى سبيل الله ومع ملاحظة سياق الآية والقرائن الموجودة هو الانفاق فى طريق الجهاد، ولكن المفهوم واسع ويشمل كل عمل خير يتحرك فيه المؤمن من موقع البذل والعطاء للآخرين. والكثير من المفسرين من الشيعة وأهل السنة ذكروا فى ذيل هذه الآية انه بعد نزولها سأل بعض الصحابة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله عن مراد القرآن الكريم من هؤلاء القوم الذين يأتون بعد البخلاء ويحلون محلهم ولا يكونوا أمثالهم من هم؟ فوضع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله و آله يده على رجل سلمان الذى كان جالساً إلى جنبه وقال «هَذَا وَقَوْمُهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مُنَوَّطًا بِالْثَرِيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ» (٢). «الآية الثامنة» بعد أن تأمر بالانفاق وتؤكد على أن الانفاق يورث الإنسان كل خير وبركة تقول: «... وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ

فأولئك هم المفلحون» (٣). يقول الراغب الاصفهاني في كتابه «مفردات القرآن» الشُّح، (على وزن مخ) بخلٌ مع الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥١ حرص وذلك فيما كان عادة. «الفلاح» بمعنى الشق والقطع، ويستخدم لكل اشكال السعادة والنجاح والنصر والوصول إلى المقاصد والأهداف في حركة الحياة، وينقسم أيضاً إلى الفلاح المادى والمعنوى. وقد ورد في الآيات السابقة لهذه الآية انذار وتحذير للمسلمين بالنسبة إلى الفتنة من الأموال والأولاد، والظاهر انه مع هذا البيان تريد الآية أن تبين موانع الانفاق لانه أحياناً يواجه الشخص الوسواس من قبل الأبناء لكيلا يؤدي بهم انفاق الأب إلى الفقر والحاجة أو يعيشوا بدون ميراث، وأحياناً اخرى يعيش الإنسان الوسواس النفسى من مستقبل ابنائه وأنهم سوف يعيشون حالة الفقر بعده، فيمنعه ذلك من الانفاق، ومن المعلوم أن جميع هذه الوسواس تعد من أحابيل الشيطان ومن موانع «الفلاح» والنجاح في معراج الكمال المعنوى، وتورث الإنسان الحرص والبخل الشديد. وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام انه كان يطوف بالبيت من الليل إلى الصباح ويقول «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي» يقول الراوى فسألته: بأبى أنت وامى لم اسمع منك هذه الليلة غير هذا الدعاء، فقال «وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١). وعلى هذا فصفة «البخل» تعد من الموانع المهمة للفلاح إلى درجة أن الإمام الصادق عليه السلام يدعو الله تعالى في طوافه بالبيت من الليل إلى الصباح بهذا الدعاء ويعتبر أن هذه الحاجة هي من أهم حاجاته في خط الإيمان والطاعة والتربية النفسية. وتعبير «خيراً لأنفسكم» بعد الأمر بالانفاق هو إشارة إلى هذه النكته اللطيفة، وهي أن السخاء والانفاق في سبيل الله تعود معطياته الايجابية على الإنسان نفسه حيث تربى فيه الروح الإنسانية ويتخلص قلبه من ظلمات الحرص وقيود «البخل»، ويترتب على ذلك الكثير من البركات المادية والمعنوية في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٢ ونختم هذا البحث بذكر حديث شريف في تفسير معنى «الشُّح» عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سأل «الفضيل بن عياض»: هل تعلم معنى «الشحيح» فقال: البخيل، فقال له الإمام «الشُّحُّ أَشَدُّ مِنَ الْبُخْلِ أَنَّ الْبُخْلَ يَبْخُلُ بِمَا فِي يَدِهِ وَالشَّحِيحُ يَشُحُّ عَلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَعَلَى مَا فِي يَدِهِ حَتَّى لَا يَرَى فِي أَيْدِي النَّاسِ شَيْئاً إِلَّا تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، لَا يَشْبَعُ وَلَا يَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١). «الآية التاسعة» وضمن استعراضها لمسألة «البخل» تحت عنوان التقدير تقول في ذكر صفات عباد الرحمان: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً» (٢). «يقترؤا» من مادة «قتر» على وزن «صبر» ويقع هذا المفهوم في النقطة المقابلة للاسراف، وأحى وفي الواقع فإ

### النتيجة:

إن الآيات محل البحث تدل على المفهوم الإسلامى والموقف القرآنى بالنسبة إلى «البخل» وقد ذكرت الآيات الشريفة نماذج من سلوك البخلاء ومصيرهم المشؤوم وعاقبتهم الاليمة والنتائج السلبية المترتبة على البخل في حياة الإنسان المادية والمعنوية، وقد ذكرت الآيات الشريفة البخل بعنوان رذيلة أخلاقية شنيعة من شأنها أن توقع الإنسان في ورطة الشقاء والتعاسة وتبعده عن «الفلاح» والسعادة المنشودة.

### البخل في منظور الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الأحاديث الشريفة روايات شديدة، توضح موقف الإسلام من ظاهرة «البخل» منها: ١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله «الْبُخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ» (١). ٢- وفي حديث آخر يقول أمير المؤمنين عليه السلام «النَّظْرُ إِلَى الْبُخِيلِ يُقْسِي الْقَلْبَ» (٢). ٣- ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله انه كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلباغفرت لى ذنبي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما ذنبك؟ صفة لى، قال: هو أعظم من أن أصفه لك، قال: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: ويحك ذنبك أعظم أم الجبال؟



قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال صلى الله عليه وآله: فذنبتك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: فذنبتك أعظم أم الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٥ السماوات؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: فذنبتك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى وأجل. قال: ويحك فصف لي ذنبتك، قال: يا رسول الله، إني رجل ذو ثروة من المال، وأن السائل ليأتيني ليسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إليك عني، لا تحرقني ببارك، فوالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثم صليت الف الف عام، وبكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار، ثم مت وأنت لثيم، لأكبك الله في النار، ويحك أما علمت أن الله يقول: «... وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ...» (١). «... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢) «٣». هذا الحديث يدل بوضوح على أن «البخل» هو مصدر لأنواع الذنوب والمفاسد بحيث يبعده عن الله تعالى إلى هذه الدرجة. ٤- وجاء في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «يَقُولُ قَائِلُكُمْ الشَّحِيحُ أَعِيدَ مِنْ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَاحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ» (٤). ٥- وورد في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ» (٥). ٦- وورد في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله أيضاً قوله «البُّخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلَا يَلْجُ النَّارُ إِلَّا بِخَيْلٍ» (٦). ٧- وورد في أحد الروايات أن أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله استشهد في ميدان الجهاد الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٦ فجاءت امرأه من ذويه وأرحامه تبكيه وتقول يا شهيداه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: من أين علمتي انه شهيد، «فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يَنْفُصُهُ» (١). هذا الحديث يبين أن الكلام بما لا يعني والبخل ولا سيما بما لا يضره يتسبب في سلب أكبر افتخار قد يناله الإنسان ألا وهو الشهادة في سبيل الله. ٨- وقد ورد في النصوص الإسلامية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كذلك قوله «جَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَى الدَّاءِ البُّخْلُ» (٢). هذا الحديث يوضح أن البخل قد يؤدي إلى تلف معطيات العبادة وزوال آثارها الايجابية في حياة الفرد. ٩- وأيضاً نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «المُؤَبَّاتُ ثَلَاثُ شُحِّ مُطَاعٌ وَهُوَ مُتَّبَعٌ وَاعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» (٣). ١٠- ونختم هذا الموضوع برواية اخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله رغم وجود روايات كثيرة في هذا الباب، فقد ورد في الحديث النبوي أن جماعة من الأسرى جرى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بضرب أعناقهم ثم أمره بإفراذ واحد منهم وأن لا يقتله فقال الرجل لم أفردتني من أصحابي والجنانية واحدة؟ فقال: إن الله عز وجل أوحى إلي أنك سخي قومك ولا اقتلك. فقال الرجل: فاني أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله (٤).

### جذور البخل وعلائمه:

إن الجذور الأصلية لهذه الرذيلة الأخلاقية مثل سائر الرذائل الأخلاقية الاخرى تتمثل في ضعف دعائم الإيمان ومعرفة الله لدى الشخص، فالإنسان إذا اعتقد بأن الله تعالى قادر الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٧ على كل شيء وإن جميع مفاتيح الخيرات والبركات بيده تعالى يجب أن يتيقن من أن الله سيوفى بوعده بالنسبة إلى ما يترتب على الانفاق في سبيل الله إلى النتائج المادية والمعنوية، فإذا عاش الإنسان بهذه العقيدة، فلا مجال لأن يتلوث قلبه بالبخل أو يتصف قلبه بالامسак. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «البُّخْلُ بِالْمَوْجُودِ سُوءُ الظَّنِّ بِالْمَعْبُودِ» (١). أي أن الإنسان يسيء الظن بما وعد الله تعالى من الثواب على الانفاق والبذل في سبيله. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ان كَانَ الْخَلْفُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ حَقًّا فَالْبُخْلُ لِمَاذَا» (٢). ونقرأ في كتاب «فقه الرضا» «يَاكُمْ وَالْبُخْلُ فَإِنَّهَا عَاهَةٌ لَا تَكُونُ فِي حُرِّ وَلَا مُؤْمِنٍ إِنَّهَا خِلَافُ الْإِيمَانِ» (٣). وورد في الحديث القدسي عن رسول الله تعالى صلى الله عليه وآله يقول «يَا عَبْدِي اتَّبِعْنِي أَمْ تَتَّهْمُنِي أَمْ تَنْظُرُنِي أَمْ تَعَايِرُنِي قَادِرٌ عَلَيَّ إِثَابَتِكَ» (٤). أجل، إن الأحرار والمؤمنين والمؤمنون يؤمنون بوعده الله تعالى فإنهم يعيشون الاطمئنان لقدرة الله تعالى على جميع أنواع الثواب، فلا تهتر لهم يد في عملية الانفاق في سبيل الله، ولا- يجد البخل إلى أنفسهم سبيلاً، بل يتحركون دائماً في خط الانفاق والوجود على عباد الله من الفقراء

والمساكين والمحتاجين ولا يطلبون الأجر إلا ممن هو قادر على كل شيء وكريم بذاته وعليم بحال عباده. ومن العلامات الأخرى للبخل هي الاعتذار بالأعذار المختلفة لتبرير الامساك ومنع البذل للآخرين، البخلاء يتحركون دائماً في عملية التغطية على هذه الرذيلة الأخلاقية المترسخة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٨ في أنفسهم من موقع التذرع بالأعذار الواهية بل أنهم يخدعون أنفسهم أيضاً بمثل هذه الأعذار، وعلى سبيل المثال من كان لديه مالٌ كثير ولكنه غير مستعد للانفاق منه أو إقراض الغير فإنه يتمسك في هذا المنع بالأعذار من قبيل انه يحتمل اننى سأواجه مشكلة احتاج فيها إلى هذا المال، أو يحتمل أن يقع ابني مريضاً على الفراش، أو من المحتمل أن يرد عليّ بعض الضيوف، أو أن المستقبل الاقتصادي للسوق يتجه إلى الكساد وأمثال ذلك. يقول الإمام على ابن أبي طالب عليه السلام في هذا الصدد «الْبَخِيلُ مُتَحَجِّجٌ بِالْمَعَاذِيرِ وَالتَّعَالِيلِ» (١). ويقول في مكان آخر «كَثْرَةُ الْعَلَلِ آيَةُ الْبُخْلِ» (٢). فمن العلامات الأخرى للشخص البخيل هي ستر النعم والموهب الإلهية بحجج وذرائع مختلفة عن أنظار الناس لكيلا يطلب الناس منه شيئاً منها، وبالطبع فإن هذه الحالة في الكثير من الأوقات تلبس لباس المنطق والدليل من قبيل الخوف من الحسد أو الخوف من الأخطار غير المتوقعة وأمثال ذلك. العلامة الأخرى للبخل هي انه عندما يواجه الأمر الواقع وينفق شيئاً في سبيل الله فإنه يجد في نفسه ألماً وحرزاً كبيراً وكأنه قد فقد شيئاً عزيزاً عليه أو أحد أحبته.

### آثار ونتائج البخل:

إن من بين الصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية قلما نجد صفة من الصفات تورث الإنسان مشاكل ومصاعب كالبخل بما له من افرازات سلبية كبيرة في حركة الحياة والمجتمع، ومن جملة ذلك فان البخيل بالرغم من سعيه لحفظ أمواله وثروته فإنه يتنازل ويفقد الكثير من شخصيته وحرمة بين الناس، وفي هذا الصدد نجد أن الروايات الإسلامية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٥٩ قد أشارت إلى هذا المعنى على نحو الاجمال ومنها: ١- يقول الإمام على عليه السلام «الْبُخِيلُ يَسْمَحُ مِنْ عِزِّهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا امْسَكَ مِنْ عِزِّهِ» (١). ٢- إن البخيل سوف يفقد باستمرار أصدقائه ورفاقه وبالتالي يصبح وحيداً غريباً أمام المشكلات الكبيرة التي تفرزها تحديات الواقع الصعب، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام «لَيْسَ لِبُخِيلٍ حَبِيبٌ» (٢) ؛ وعلى فرض انه كان له صديق لمدة قصيرة من الزمان فإن «البخل» يتسبب في الحاق الذل لأصدقائه والعزة لأعدائه كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام «الْبُخْلُ (البخيل) يُذِلُّ مُصَاحِبَهُ وَيُعِزُّ مُجَانِبَهُ» (٣). ٣- إن «البخيل» يوقع نفسه في التعب والضعف دائماً، وفي نفس الوقت فإن ورثته هم المستفيدون من عمله وتعبه، فهو في الدنيا يتعب نفسه في جمع الأموال، وفي الآخرة يجد نفسه مسؤولاً عنها كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام «الْبُخِيلُ خَازِنٌ لُورَثَتِهِ» (٤) الورثة الذين قد لا ينفقون من أمواله درهماً في سبيل الله وفي سبيل بذل الخيرات والمثوبات له. ٤- «البخيل» يعيش عيشة الفقراء لأن البخل عندما يشتد على الإنسان فإنه يبخل حتى على نفسه، وبذلك لا يجد السعادة والحياة الطيبة والمريحة لأنه يعيش التفكير الدائم في كيفية حفظ أمواله وزيادتها، وأحياناً تعرض عليه حالات نفسانية سلبية من قبيل سوء الظن الشديد بمن يحيط به، مثلاً يتصور أن الناس ينظرون إليه بعين الطمع ويحسدونه على ما لديه من الأموال والثروات بل ويعادونه أيضاً، وفي الأحاديث الإسلامية نجد أشارات جميلة إلى هذه المسألة، ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عَجِبْتُ لِشَقِي الْبُخِيلِ يَتَعَجَّلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ وَيَقُوتُهُ الْغِنَى أَيَّاهُ طَلَبَ فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ وَيَحَاسِبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْغَنِيَاءِ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٠ وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَقْلُّ النَّاسِ رَاحَةَ الْبُخِيلِ» (١). ٥- «البخل» يوجب سوء الشهرة والسمعة ويؤدي إلى تهكم الناس ولعنهم لهذا الشخص البخيل كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «بِالْبُخْلِ تَكْتُرُ الْمَسَبَّةُ» (٢). ٦- «البخل» جامع للكثير من الأخلاق الرذيلة والصفات الذميمة ويعتبر مصدراً للكثير من الرذائل الأخلاقية من قبيل سوء الظن، الحسد، الخوف، الجبن، سوء النية وتلوث الباطن وقساوة القلب وما إلى ذلك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد «النَّظْرُ إِلَى الْبُخِيلِ يُفْسِدُ الْقَلْبَ» (٣). وورد حديث آخر جامع لمساوىء البخل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام «الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ وَهُوَ زِمَامٌ

يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ» (٤).

## درجات البخل:

إن حال «البخل» كحال سائر الصفات الرذيلة في أن له درجات ومراتب، وبعض هذه المراتب قد تكون خفية إلى درجة تخفى حتى على الشخص نفسه وتخفى على الآخرين أيضاً، وهناك بعض المراتب إلى درجة من الوضوح بحيث إن كل إنسان يدركها حتى الأطفال. بعض الناس يبخلون بأموالهم فحسب أي أنهم غير مستعدين بأن ينتفع الآخرون بأموالهم بأي مقدار كان، والبعض الآخر يتجاوز هذا الحد فيبخل بأموال الناس أيضاً، أي انه لو رأى أن شخصاً يقوم بالبذل والانفاق على الآخرين فإنه يتألم بذلك، وبعض آخر يتجاوز هذه المرحلة أيضاً فكلما رأى كرمًا من الناس حتى على نفسه فإنه يتألم بذلك وهذا أعجب أشكال البخل. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦١ ومن جهة اخرى فإن البعض يبخلون في الامور المادية، والبعض الآخر في الامور المعنوية كمن يبخل في بذل العلم والمعرفة، وبعض الناس يبخلون في الموضوعات المهمة من قبيل بذل الاموال الكثيرة، في حين أن البعض الآخر يبخلون حتى بالمسائل الجزئية من قبيل السلام، والبعض قد يبخل في العطاء والانفاق المستحب في حين أن هناك من يبخل حتى في الواجبات مثل أداء الخمس والزكاة، وبعض البخلاء لا يتحركون في تبرير بخلهم وامساكلهم بينما نجد البعض الآخر يتسترون على هذا الامساكل والافتقار بالتمسك بعناوين ظاهريه من قبيل عدم الاسراف أو تأمين نفقات الابناء أو الابتعاد عن الرياء والتظاهر أو التشكيك في استحقاق المستحقين وأمثال ذلك. وعلى هذا فإن للبخل فروع متعددة وأشكال مختلفة، وينبغي على المؤمن المتقى مراقبه جميع هذه الاشكال والحذر منها والتصدي لها بإبعادها عن نفسه والحذر من التلوث بها كيما يحصل على مقام القرب الإلهي والكمال المعنوي في حركة الحياة. ونجد في الروايات الإسلامية اشارات لطيفة إلى أشكال وفروع البخل هذه ومنها: ١- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْبُخْلُ بِإِخْرَاجِ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ سَبِيحَانَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ اقْبَحُ الْبُخْلِ» (١). ٢- وورد في حديث آخر أن الإمام على عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر... فقال رجل لأميرالمؤمنين عليه السلام: واللّه ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: لاكثر الله في المؤمنين ضربك، أعطى أنا وتبخل أنت...» (٢). ٣- وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ ابْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٢-٤ وفي الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «الْبُخِيلُ حَقًّا مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» (١). ٥- ويستفاد من بعض الروايات أن بعض مراحل البخل ينطوي تحت عنوان «اللثيم» وهو الذي يعيش الدرجة الشديدة من البخل كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الرَّجَالُ أَرْبَعَةٌ سَخِيٌّ وَكَرِيمٌ وَبَخِيلٌ وَلَثِيمٌ، فَالسَّخِيُّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيُعْطِي وَالْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَيُعْطِي وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يُعْطِي وَاللَّثِيمُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يُعْطِي» (٢).

## الوقاية من البخل وعلاجه:

كما أن الأمراض البدنية يتم التصدي لها والوقاية منها بالبحث عن جذورها وأسبابها فكذلك الحال في الأمراض الأخلاقية، لأنه ما لم تقلع جذور المرض فإن عناصر المرض تراوح في مكانها وسوف تظهر في آونة اخرى بالرغم من زوال آثارها بشكل مؤقت. وبما أن دوافع «البخل» متعددة وكثيرة، فينبغي البحث عن جذور هذا المرض لأن البعض يعيشون التعلق الشديد بشهوات الدنيا، وبما أن الأموال هي الوسيلة للوصول إلى هذه الشهوات فإنهم يتعلقون بها ويعشقونها إلى درجة أنهم غير مستعدين لبذل أي مقدار منها، هؤلاء الأشخاص يجب عليهم قطع هذه العلاقة الشديدة بتوجيه النفس واشغال العواطف بامور اخرى والتفكر في العواقب الأليمة للخوض في الشهوات وما يقع فيه أهل الدنيا من المشاكل والازمات، وعند ذلك يتحفظون من السير في هذا الخط المنحرف. الدافع الآخر للبخل هو طول الأمل، فإن الآمال الطويلة تدعو الإنسان إلى جمع المال والبخل في انفاقه، فلو أن هذا الإنسان قطع آماله وطموحاته وأدرك

أهتزاز الدنيا وتذبذبها وعدم استقامتها على حالٍ واحد، ورأى الأشخاص الذين رحلوا عن هذه الدنيا بحوادث الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٣ مختلفه وأمراض متنوعه بدون انذار أو مقدمات وقد كانت لديهم أعمال وطموحات طويلة وعريضة في هذه الدنيا، فإن ذلك من شأنه أن يحد من حالة «البخل» لدى هذا الإنسان. الباعث الآخر للبخل هو التعلق والعشق للأولاد والأهل والعيال حيث يدفعه ذلك إلى جمع الأموال وادخارها تحسباً لمستقبلهم في حين أن الله تعالى قد ضمن رزقهم ومعيشتهم، فلو كانوا من أولياء الله وأحباءه فإن الله تعالى سوف لا- يتركهم لوحدهم ولحالهم، ولو كانوا من أعداء الله فإن جمع المال لمثل هؤلاء الأشخاص سيكون أداة لتوغلهم في الذنوب والآثام وستقع مسؤوليه ذلك عليه، فليس من العقل والمنطق أن يجمع الإنسان المال ويدخره لمثل هؤلاء الأشخاص، وبالطبع أحياناً نجد بعض الأشخاص وبسبب لياقتهم الذاتية فإنهم يتمتعون بعيشه حسنه وطيبه من دون أن يرثوا درهماً واحداً من والديهم بل قد يعيشون أفضل من حياة الذين ورثوا أموالاً طائلة من أبيهم. والباعث الآخر لذلك كما يقول بعض علماء الأخلاق هو ما يشبه المرض من دون علاج، أي أن البعض يحب المال من أجل نفس المال ويعشقه ويسعى دائماً لجمعه والاكثار منه ويستوحش من بذله وانفاقه، هؤلاء اصابتهم حالة من النسيان والغفلة عن أن المال إنما هو وسيلة للتوصل إلى الأغراض المادية أو المعنوية، وألا فلو استخدم في غير هذا السبيل وأصبح بحد ذاته هدفاً يجمعه الإنسان فإنه لا يختلف حاله مع الحجر والخشب والآجر. أما الطريق إلى الوقاية من «البخل» فإن على الشخص البخل أن يجاهد نفسه وبعض على نواجذه وينفق من أمواله مهما مانعته نفسه من ذلك، وكلما تكرر منه هذا العلم فإن العشق للمال سوف يذوب ويتلاشى من قلبه ومشاعره، كما هو الحال في الشخص الجبان الذي إذا دخل ميادين الحياة من موقع مواجهة التحديات للواقع والمعيشه، فإن ذلك الخوف سوف يزول ويتلاشى بالتدرج، وهكذا بالنسبة إلى الشخص الخجول حيث إنه إذا دخل مجالس الكبار ودفع بنفسه إلى التحدث في مثل هذه المجالس مرات عديدة فسوف تزول منه حالة الخجل هذه. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٤ ومن الطرق الاخرى هي التفكير في كراهية الناس وانزجارهم من الشخص البخل والأشخاص الذين لا يعيشون حالة الكرم والبذل، فإن الناس يتعاملون معهم على مستوى أنهم أشخاص غير مرغوب بهم ولا يحترمونهم كما يحترمون الاسخياء والكرماء من الناس، وأحد طرق علاج «البخل» والابتعاد عن هذه الرذيلة الأخلاقية هو التفكير في العواقب الوخيمة والآفاق السلبية الكبيرة لحالة البخل حيث يترتب على ذلك أن يتخلص الإنسان تدريجياً من هذه الحالة الذميمة. وفي هذا الصدد يقول أمير المؤمنين عليه السلام «البخلُ يَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ دُنْيَاهُ وَيَسْمَحُ لُوْرَاتِهِ بِكُلِّهَا» (١). وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ بَرَّ مِنْ الْبُخْلِ نَالَ الشَّرْفَ» (٢). فالتفكير في كل هذه الامور بإمكانه أن يخلص الإنسان من أسر البخل وخاصة إذا التفت إلى الروايات الشريفة التي تقرر أن البخل لا يجتمع مع الإيمان إطلاقاً. ١٨

## الجود والسخاء

### تنويه:

تقع هاتين المفردتين «الجود والسخاء» في مقابل البخل، وتستعملان غالباً بمعنى واحد، ولكن أحياناً يستفاد من بعض كلمات العلماء أن الجود لنفس المرحلة أعلى من السخاء، لانه ورد في تعريف الجود انه «البذل بدون طلب وفي نفسه يرى ما بذله قليلاً» وقيل أيضاً في تعريفه «الجود هو الفرح من طلب الناس والسرور من العطاء لهم» وقال البعض أيضاً «الجود هو بذل المال بأن يراه مال الله والسائل عبدالله ويرى نفسه فيما بينهما واسطة فقط» في حين أن السخاء له معنى واسع ويشمل كل أنحاء البذل والعطاء. وذكر البعض في تعريفهما أن «الشخص الذي يهب قسماً من أمواله إلى الغير ويبقى لنفسه القسم الآخر فهو السخي، والشخص الذي يهب أكثر ماله إلى الغير ويبقى مقداراً قليلاً منه لنفسه فهو الجواد» ويتبين طبقاً لجميع هذه التعاريف أن «الجود» مرحلة أعلى من «السخاء». وعلى أية حال فإن «الجود والسخاء» من الفضائل الأخلاقية المهمة، وكلما كان «البخل» من علامات الدناءة والحقارة وضعف الإيمان وفقدان

الشخصية للإنسان البخيل كان الجود والسخاء من علائم الإيمان وقوة الشخصية وسمو المكانة الاجتماعية للشخص. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٦ اما في القرآن الكريم رغم أن كلمة «الجود» أو «السخاء» لم تستخدم في سياق الآيات الكريمة، ولكن التعبيرات الاخرى للآيات تنطبق على هذين المفهومين حيث يتبين جيداً أن القرآن الكريم يعطى أهمية بالغه لهما، وكنموذج على ذلك نورد هذه الآيات الشريفة: ١- «... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...» (١). ٢- «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا\* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِمَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا» (٢). ٣- «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَاجِدًا فِي كُلِّ سَبْتٍ لِمَا تُهْبِئُ مَائَةٌ حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (٣). ٤- «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٤). ٥- «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» (٥). ٦- «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (٦). ٧- «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا» (٧).

### تفسير واستنتاج:

### سِمَاءُ الْكِرْمَاءِ فِي الْقُرْآنِ

«الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدث عن طائفة من الكرماء الأنصار في الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٧ المدينة الذين استقبلوا المهاجرين إليهم من مكة برحابة صدر واستضافوهم في بيوتهم وفضلوهم على أنفسهم بل حتى أنهم قالوا: نحن على استعداد لتقديم أموالنا وبيوتنا بيننا وبين المهاجرين ولا نطمع بشيء من الغنائم الحربية. القرآن الكريم يستعرض حالة هؤلاء المؤمنين في الآية الشريفة فيقول «... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...» (١). وقد ذكر بعض المفسرين المعروفين أن التاريخ البشري لم يعرف مثل هذا الاستقبال والحفاوة لجماعة من الغرباء لدى دخولهم إلى مدينة من المدن حيث استقبلهم المؤمنون استقبالاً عظيماً حتى أنهم كانوا يفضلوهم على أنفسهم وسعوا إلى تقسيم كل ممتلكاتهم معهم بالسوية بل ورد في بعض الروايات أن عدد المهاجرين كان أقل من المستعدين لضيافتهم وكان ذلك سبباً في حدوث خلاف بينهم في نيل افتخار الضيافة. فكانوا يترعون فيما بينهم على ذلك (٢). وعلى أية حال فإن الله تعالى قد مدح هذا الخلق الكريم وأثنى على هذا الايثار والسخاء بهذه العبارات الكريمة. «الآية الثانية» تتحدث عن الكرماء الذين قدموا طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير في حين أنهم محتاجون إليه بشدة ومن دون طمع في أجرٍ وثناء من الطرف المقابل («وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا\* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِمَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا» (٣). وهناك روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة تتحدث عن أن الآيات ٨- ٩ من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٨ سورة الدهر نزلت في أهل البيت عليهم السلام، كما ذكر العلامة الأميني في كتابه «الغدِير» عن أربع وثلاثين نفر من علماء السنة المعروفين وأنهم ذكروا هذا الحديث الشريف في كتبهم (مع ذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة). وعلى هذا فإن الحديث المذكور مشهور بين أهل السنة بل متواتر، وأما علماء الشيعة فهو محل اتفاق وأن جميع سورة الدهر أو قسم مهم منها نزلت في أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهم «علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام». ولدى التأمل والتدقيق في آيات سورة الدهر يتضح جيداً أن الله تعالى قد ذكر هؤلاء الكرماء من موقع التمجيد والثناء والمدح ووعدهم جزيل الثواب في الآخرة ووصفهم بأوصاف سامية، فتارةً وصفهم بأنهم «أبرار»، وفي مكانٍ آخر ذكروهم بعنوان «عباد الله». «الآية الثالثة» تتحرك من موقع التشويق والترغيب الشديد لمسألة الانفاق والبذل وتثنى على الكرماء والاسخياء بتعابير في غاية العلو والجمال وتقول «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَاجِدًا فِي كُلِّ سَبْتٍ لِمَا تُهْبِئُ مَائَةٌ حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (١). فلو أننا أخذنا بظاهر الآية ولم نرتكب بعض التأويل والحذف والتقدير للمفهوم منها فإن الآية الشريفة تدل على أن روح المنفق والمحسن تنمو أو تشتد إلى درجة كبيرة بعملية البذل والانفاق كما أن أمواله تتضاعف وتتكاثر عدده أضعاف بسبب الانفاق

وكذلك يتصاعد الإنسان الكريم في مدارج الكمال بسرعة كبيرة وحتى أن الخطوات الصغيرة في هذا السبيل تترتب عليها آثار عظيمة ونتائج كبيرة. وعلى هذا الأساس فإن الانفاق والبذل مضافاً إلى أنه يُعد قوة تصعد بالإنسان في مدارج الرشد والكمال المعنوي والإنساني للمجتمع البشري، فكذلك هو الحال بالنسبة إلى الشخص نفسه. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٦٩ وقد ورد في الرواية الشريفة عن الإمام زين العابدين عليه السلام انه كلما جاءه سائل وأعطاه من ماله فإنه يُقبل يد السائل، فلما سُئِلَ عن سبب ذلك قال «لِأَنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ يَدِ الْعَبْدِ» (١). «الآية الرابعة» وضمن الإشارة إلى نكتة مهمة في دائرة الانفاق تقول «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْيَدِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢). وعلى هذا الأساس فإن «السخاء» و «الانفاق» في سبيل الله بأى شكل كان فإنه مطلوب ومحبوب، ومن جهة أخرى فإن «الانفاق» يورث الإنسان الأيمن من عذاب الله ويزيل لهم والحزن من قلبه، فالأشخاص الكرماء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون لأن الله تعالى قد ضمن رزقهم وسعادتهم فلا يحزنون على ما بذلوه في سبيل الله لانهم يعلمون انما ينتظرهم من فضل الله تعالى أكثر وأكثر مما بذلوه في هذه الحياة الدنيا. «الآية الخامسة» تقرر هذا المعنى بتعبير آخر وتحدثت عن الانفاق بالقول «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» (٣). وفي لغة العرب فإن كلمة «بر» تأتي بمعنى الاحسان المقارن للقصود والاختيار، وهذه من علامات شخصية الإنسان ومعنويته، واللطف أن «البر» في هذه الآية جاء بشكل مطلق، وهذا يدل على أنه ما لم يكن الإنسان سخياً و كريماً فإنه لا يصل إلى حقيقة البر والاحسان، رغم أن بعض المفسرين فسّر كلمة «البر» بمعنى الجنة، وبعض آخر ذكر أنها بمعنى «التقوى» و «الثواب الجزيل» ولكن الظاهر أن مفهوم البر واسعٌ يشمل جميع ما ذكر له من مصاديق. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٠ «الآية السادسة» تقرر أن الانفاق مضافاً إلى انه أحد الأركان المهمة للتقوى وأنه مصدر الهداية الإلهية للمؤمنين، تقول: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (١). ومع ملاحظة أن «ينفقون» جاءت بشكل فعل مضارع، ومفهومها أن هؤلاء ينفقون من المواهب الإلهية والعطايا الربانية التي لديهم بصورة مستمرة، وهذا يدل على كرمهم وسخائهم المتجذر في نفوسهم بحيث اصبح ملكة إنسانية وصفه كريمة لديهم. فتعبير «مما رزقناهم» يشير إلى نكتة لطيفة في المقام، وهي أن هؤلاء يرون أن جميع ما لديهم من الأموال والنعم هي مواهب إلهية ومن مال الله، وعليه فلا دليل على البخل في بذل شيء منها إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، ويتضح أيضاً من ذلك أن «الانفاق» لا ينحصر بالزكاة بل يستوعب معنى أكبر من ذلك بحيث يشمل الصدقات الواجبة والمستحبة. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث وضمن الأمر بضرورة رعاية الاعتدال في البذل والعطاء والابتعاد عن الافراط والتفريط تصور لنا صياغة للسخاء والكرم الذي هو الحد الوسط بين البخل والإسراف وتقول: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا» (٢). وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام بيان هذا المطلب في مثال جميل حيث قال أخذ الإمام عليه السلام قبضة من التراب من الأرض وأمسك عليها بشدة وقال: هذا هو البخل، ثم أخذ قبضة أخرى وفتح يده إلى درجة أن جميع التراب انثال على الأرض فقال: هذا هو الإسراف، وفي الثالثة أخذ قبضة وقلب كفه نحو السماء وفتحها فوق شيء من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧١ التراب من بين أصابعه وأطراف كفه على الأرض فقال عليه السلام: «القوام ما يخرج من بين الأصابع ويبقى في الراحة منه شيء» (١). وفي الآية مورد البحث ورد التعبير عن البخل بأنه «اليد المغلولة إلى العنق»، وعبرت الآية عن الإسراف بقولها «تبسطها كل البسط»، وبذلك تحدثت عن هذين المفهومين من موقع الذم والتوبيخ وذكرت في هذا السبيل عاقبة هذين السلوكين بقولها «ملوماً محسوراً». ومن مجموع الآيات الشريفة المذكورة آنفاً والتي تحدثت عن السخاء والانفاق والبذل وما ورد في تفسيرها يتضح جيداً عظمتهم وأهميته هذه الصفة الإنسانية والسامية من بين الصفات الأخلاقية والقيم الإنسانية حيث إن الجود والكرم والسخاء لا- تتسبب في سعادة المجتمعات البشرية ومحاربة الفقر وأنواع الحرمان والتي هي بدورها تكون منشأً للكثير من الذنوب والسلبيات الأخرى فحسب، بل لها دورٌ مهم في تكامل الإنسان المعنوي والروحي في خط التقوى والانفتاح على الحق.

وقد ورد في الروايات الإسلامية تعبيرات كثيرة وشامخة حول الجود والسخاء يقل نظيرها بالنسبة إلى الصفات الأخرى، ونختار منها نماذج لبيان هذا المضمون والمحتوى ١- ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «السَّخَاءُ خُلِقَ اللَّهُ الْاِعْظَمُ» (٢). وفي الحقيقة أن جميع أشكال السخاء والكرم في عالم الوجود ما هو إلا تجليات للكرم الإلهي الواسع لأن كل ما لدينا فهو من الله تعالى من أنواع النعم والمواهب، الأرض والسماء، الحياة ومترقاتها الكثيرة وكل شيء فهو من نعمه وكرمه، وكل كرم فهو فرع من ذلك الأصل اللامتناهي والأبدى، لأنه لو لم نحصل على نعمه وموهبه من الله تعالى فليس بإمكاننا بذل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٢ شيء منها، وحتى صفة الجود والكرم هي من مواهبه ونعمه على الإنسان. ٢- يقول الإمام الصادق عليه السلام «السَّخَاءُ مِنْ اخْتِلاَقِ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ عِمَادُ الْإِيمَانِ وَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا سَخِيًّا وَلَا يَكُونُ سَخِيًّا إِلَّا ذُو يَقِينٍ وَهَمَّةٌ عَالِيَةٌ لَأَنَّ السَّخَاءَ شُعَاعُ نُورِ الْيَقِينِ، وَمَنْ عَرَفَ مَا قَصِدَ هَانَ عَلَيْهِ مَا بَدَلُ» (١). ويستفاد من هذا الحديث أن هذه الصفة السامية تتمثل أولاً في وجود الأنبياء كصفة كريمة من الصفات الأخلاقية العالية ومن علامات الإيمان واليقين للمؤمن. ٣- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «تَحَلَّلَ بِالسَّخَاءِ وَالْوَرَعِ فَهُمَا حِلْيَةُ الْإِيمَانِ وَاشْرَفُ خَلَالِكِ» (٢). وهذا الحديث يبين أن هذه الصفة الشريفة من أفضل صفات المؤمن على الاطلاق. ٤- وورد في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «السَّخَاءُ ثَمَرَةُ الْعَقْلِ وَالْفَنَاءُ بُرْهَانُ الثَّبَلِ» (٣). فالأشخاص الذين يمتنعون عن بذل شيء مما لديهم إلى الآخرين ويسعون لجمع الأموال الطائلة ثم يتركونها ويرحلون إلى العالم الآخر، فهم في الحقيقة ليسوا بعقلاء لأنهم لم يحصلوا من جزاء ذلك سوى على التعب والنصب ولن يتفعلوا من أموالهم على المستوى المادى والمعنوى، فأى عقل يرتكب مثل هذه حماقة؟! ٥- وفي تعبير آخر عن هذا الإمام في بيانه لأهمية «السخاء» يشير إلى نقطة لطيفة أخرى ويقول «عَطُوا مَعَايِبِكُمْ بِالسَّخَاءِ فَإِنَّهُ سِتْرُ الْعُيُوبِ» (٤). وقد ثبت بالتجربة صدق هذا الكلام الحكيم حيث نرى أشخاصاً لهم عيوب كبيرة ولكن الناس مع ذلك يحترمونها من أجل كرمهم وجودهم. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٣ ٦- وفي تعبير آخر عن هذا الإمام عليه السلام يقول «السَّخَاءُ يَمْحُصُ الذُّنُوبَ وَيَجْلِبُ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ» (١). وهذا التعبير يدل على أن السخاء كفارة للكثير من الذنوب. ٧- ويقول مولى الموحدين الإمام على عليه السلام في بيانه للتأثير العميق للسخاء في جذب قلوب الناس ومحبتهم «مَا اسْتَجَلَبَتِ الْمَحَبَّةُ بِمِثْلِ السَّخَاءِ وَالرَّفْقِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ» (٢). ٨- ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الصدد «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ» (٣). ٩- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «شَابُّ سَخِيٍّ مَرْهُقٌ فِي الذُّنُوبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ شَيْخٍ عَابِدٍ بَخِيلٍ» (٤). ومن المعلوم أن «السخاء» هو يتسبب في الامدادات الإلهية للإنسان وبالتالي فإنه يفضى إلى انقاذ ذلك الشاب الملوث بالذنوب من واقعه المزمري، ولكن ذلك الشيخ العابد والبخيل يفرق في الذنوب بسبب بخله. ١٠- ونختتم هذا البحث بحديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يقول «تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللَّهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثُرَ» (٥). ومن مجموع الأحاديث الشريفة المذكورة آنفاً تتبين الأهمية الكبيرة للسخاء في كلمات المعصومين عليهم السلام حيث رأينا أن هذه الفضيلة تتميز من بين سائر الفضائل الأخلاقية على مستوى الأهمية والفضيلة.

### معطيات السخاء:

إن الآفاق والمعطيات الإيجابية للسخاء ثابتة بالتجربة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد مرّت الإشارة إليها في الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهي معطيات كثيرة منها: ١- ما يستفاد من الروايات المتعددة والتجارب الكثيرة ان السخاء يولد المحبة في قلب الصديق والعدو وبالتالي فإنه يزيد من كثرة الأصدقاء ويقلل من عدد الأعداء. ٢- إن «السخاء» يعد ستاراً على عيوب الشخص وبالتالي يحفظ ماء وجهه وحيثيته في أنظار الناس والمجتمع. ٣- إن السخاء في الوقت الذي هو ثمرة من ثمار شجرة العقل فإنه يزيد من عقل الإنسان أيضاً، فالعقل يقول: انه لا معنى لأن يتعب الإنسان في جمع الأموال وتكديسها وبالتالي تركها للورثة بدون أن يستفيد منها في

تحصيل الثواب وكسب الواجهة بين الناس، ومن جهة أخرى فإنّ «السخاء» بإمكانه أن يجمع العلماء حول هذا الإنسان السخي وبالتالي يمكنه الاستفادة من أفكارهم وعقولهم وعلومهم. ٤- إن «السخاء» يتسبب في تقليل الفاصلة بين طبقات المجتمع وبذلك يعمل على إزالة حالات التوتر النفسي المتولدة من حالات الصراع الطبقي أو يقلل من حدتها وتأثيرها، ويطفىء نار الحقد على الأثرياء في قلوب المحرومين ويقلل من حس الانتقام لديهم، وبذلك يعمل على توطيد عنصر المحبة والمودة بين أفراد المجتمع. ٥- إن «السخاء» يؤدي إلى زيادة أنصار الإنسان السخي ويحفظ له وجاهته وسمعته في المجتمع، ويدفع عنه شرّ الأعداء والمغرورين، فلذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام «الْجُودُ خَيْرُ الْأَعْرَاضِ» (١). ٦- إن الجود و«السخاء» لهما من الآثار والمعطيات المعنوية الكبيرة جداً، ولهذا السبب فإنها من صفات الأنبياء بالخصوص كما قرأنا في الروايات السابقة، والسخاء شعاع لنور الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٥ اليقين، وحتى لو كانت هذه الفضيلة لدى الأشخاص الذين يعيشون البعد عن الإيمان والتقوى فإن ذلك سيكون مفيداً لهم، وفي حديث شريف أن الله تعالى أوحى للنبي موسى عليه السلام بأنه «لَا تَقْتُلُ السَّامِرِيَّ فَإِنَّهُ سَخِيٌّ» (١). ومن المعلوم أن السامري تسبب في فساد عظيم في بني إسرائيل واشاع فيهم دين الوثنية وعبادة الاصنام وفي النهاية عاش طريداً وحقيراً إلى درجة انه ربما رجح الموت على الحياة، ولكن مع ذلك فإن الله تعالى أوحى لموسى عليه السلام أن يحفظ دمه ولا يقتله لسخاءه وكرمه. وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعدي ابن حاتم الطائي «دُفِعَ عَنْ أَبِيكَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِسَخَاءِ نَفْسِهِ» (٢). وفي ذيل هذا الحديث ورد أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل جماعة من الجنّة القتلة في أحد الغزوات واستثنى منهم واحداً، فتعجب ذلك الرجل وقال: إن جنائنا واحدة، فلماذا لم تأمر بقتلي؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إن الله تعالى أوحى إليّ بانك كريم قومك ولا ينبغي أن أقتلك. فلما سمع الرجل هذا الكلام من النبي اسلم وتشهد الشهادتين، أجل فإن سخاء هذا الرجل قاده إلى الجنّة. ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «السخيّ محبب في السماوات، محبب في الأرض ... والبخيل مبغض في السماوات ومبغض في الأرضين» (٣).

### حدود السخاء:

إن السخاء كسائر الصفات والأفعال الحسنة لا بد له من مقدار بحيث إذا تجاوز الإنسان ذلك المقدار وقع في الإفراط وبالتالي يكون من الرذائل، فلا ينبغي أن يؤدي السخاء إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٦ الاضرار بشخصية الإنسان ووجاهته وحيثته ووجاهة من يلوذ به أيضاً. يجب أن يكون «السخاء» في الأموال الحلال لا- في الأموال التي يحصل عليها الإنسان من الطريق الحرام والظلم والعدوان مثل سخاء الكثير من السلاطين والملوك الجابرة وامراء الجور. وكذلك لا ينبغي أن يكون «السخاء» في الأموال المتعلقة ببيت المال، لأن أموال بيت المال ينبغي فيها الدقة في الحساب ورعاية العدالة فيها.

### طرق تحصيل ملكة السخاء:

إن هذه الفضيلة الاجتماعية كسائر الفضائل الاخرى تحصل في نفس الإنسان بالتعليم والتربية والتفكير والممارسة العملية. إذا توجه الإنسان والتفت إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه الأموال والثروات أمانة إلهية بيده ولا دوام لها، فهذا العلم يدفع الإنسان إلى البذل والعطاء ويحسب ذلك وكأنه يضع هذه الأموال في صندوق أمين يحفظها ليوم الحاجة والفاقة، وكذلك التأمل في آثار وبركات السخاء ومعطياته المهمة في واقع الإنسان وحياته فإن ذلك يمكنه أن يكون مؤثراً في تحريك عامل الشوق بالبذل والسخاء. إن مطالعة تاريخ حياة الكرماء والبخلاء وسيرتهم والمقارنة بين هاتين الطائفتين من الاحترام الكبير والشخصية النافذة لدى الناس بالنسبة إلى الطائفة الاولى، والذلة والحقارة والدناءة وسوء السمعة التي تحقد بالطائفة الثانية، كل ذلك من شأنه أن يورث الإنسان «السخاء» في دائرة السلوك الأخلاقي. هذه الامور هي من البعد النظري للمسألة، اما من حيث البعد العملي فإن الإنسان كلما مارس هذا العمل أكثر وتمرن عليه في واقعه الاجتماعي فان هذه الفضيلة سوف تتعمق في نفسه حتى تحصل له ملكة الجود والسخاء، لأن تكرار



الأعمال الكريمة والتحرّك من موقع البذل والعطاء في التعامل مع الناس حتى لو كان ذلك شاقاً على النفس فإنه سيكون الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٧ بالتدرّج عادة، ثم يتحول إلى حالة، وبالتالي يكون ملكة أخلاقية في واقع النفس. وضمناً فإن عملية تربية الوالدين والمعلم والاستاذ مؤثرة كثيراً في هذا المجال، فلو أنهم عودوا الطفل حالة الجود والسخاء منذ الطفولة فإن هذه الملكة الأخلاقية سوف تمتد جذورها إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم وتكون في الكبر جزءاً من شخصيتهم، ويذكر في حالات «الصاحب بن عباد» أنه كان في أوان صغره إذا أراد المضى إلى المسجد ليقراً تعطيه والدته ديناراً ودرهماً كل يوم وتقول له تصدق بها على أول فقير تلقاه فجعل هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وماتت والدته. وكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلّا بعد الافطار عنده وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة (١). ونختم هذا البحث في بعض الأحاديث الشريفة: ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الْجَنَّةُ دَارُ الْأَشْيَاءِ» (٢). ويقول الإمام الصادق عليه السلام أن الله تعالى يقول «أَنْتِي جَوَادٌ كَرِيمٌ لَا يُجَاوِرُنِي لَيْثٌ» (٣). وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ» (٤). وأحد العرفاء يدعى «ابن سَمَاك» (٥) يقول «عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْمَمَالِيكَ بِمَالِهِ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٧٨ وَلَا يَشْتَرِي الْبَاحِرَارَ بِمَعْرُوفِهِ» (١). وقيل لابن عربي: من هو سيدكم؟ فقال: «مَنْ اخْتَمَلَ شَتْمَنَا وَاعْطَى سَائِلَنَا وَاعْضَى جَاهِلَنَا» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٧٩

## العجلة والتسرع

### تلويح:

إن لكل عمل مقدمات بحيث إذا لم تتوفر هذه المقدمات فالاقدام عليه يكون بغير طائل وبلا نتيجة ثمرة، وإذا توفرت هذه المقدمات ولم يقدم الشخص عليه وأفلتت الفرصة من بين يديه فالنتيجة تكون كذلك، فالشخص المدير والمدير هو الذي ينتظر ويصبر إلى أن تحين اللحظة المناسبة وترتب المقدمات ثم يقدم على العمل لتحقيق النتيجة المرجوة ولا يتكاسل أو يهمل الموضوع حتى تفلت منه الفرصة، ولهذا ورد في معنى العجلة والتسرع، أن هذه الحالة من الصفات الرذيلة حيث يقدم الإنسان على عمل بدون توفر المقدمات المطلوبة وبدون أن تنهيا الأرضية اللازمة لذلك، وفي مقابل هذه الحالة ورد «الصبر والتأني» الذي يعد من الفضائل الأخلاقية ودليلاً على عقل الرجل وحركته «وبالطبع فإن الصبر له أقسام أخرى سنشير إليها في الفصول اللاحقة». إن الخسارة العظيمة التي تلحق بالأفراد والمجتمعات من جهة العجلة والتسرع أكثر من أن تحصى والقرآن الكريم يوصي الناس من موقع صياغة برنامج جامع للحياة بالصبر والتأني والاجتناب من «العجلة والتسرع» مستعيناً بذلك بقصص من سيرة الأنبياء والقادة المصلحين للمجتمعات البشرية السالفة ليبين من خلال هذه القصص والوقائع اضرار الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٠ العجلة المخربة ومعطيات الصبر والتأني الطيبة. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ومن سيرة الأنبياء الماضين مفاهيم مؤثرة في حركة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان: ١- «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا» قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا \* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا \* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا \* (١). ٢- «وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ \* ... وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» (٢). ٣- «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ \* لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ \* فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٣). ٤- «... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» (٤). ٥- «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» (٥). ٦- «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» (٦). ٧- «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ

لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» (٧). ٨- «وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَمَّا بَرَّوْا لِقَاءَنَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٨). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨١-٩ «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ\* ... فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيَّاهُمْ مُنْتَظِرُونَ» (١). ١٠- «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَأْتُونَكَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُتُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» (٢).

### تفسير واستنتاج

في الآيات الأولى من الآيات محل البحث يستعرض القرآن قصة الخضر عليه السلام والنبى موسى عليه السلام، وطبعاً فإن القرآن الكريم لم يذكر اسم الخضر بل عبر عنه بقوله «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا»، هذه القصة مشهورة ومعروفة لدى القارىء الكريم، وما هو محل نظرنا وبحثنا منها هو أن النبى موسى عليه السلام طلب العلم وذهب إلى حيث ينال العلم بسفرٍ خاصٍ وجاء إلى الخضر ليستقى من علومه ومعارفه ما يختلف عن العلوم التي اكتسبها عن طريق الوحي، وهي العلوم المتعلقة بأسرار الطبيعة وحقائق الامور والحياة البشرية التي لا بد أن يطلع على قسم منها نبى من اولى العزم مثل موسى عليه السلام لتتضح له الصورة جيداً في عملية التفاعل الإنساني والاجتماعي وليكون على بينة من هذه الامور. وهنا قال الخضر لموسى عليه السلام بعد طلب موسى عليه السلام التعلم منه: بانك لا تتحمل ولا تطيق ما تراه من هذه العلوم لأنك لم تدرك حقائق الامور في باطنها، ولكن النبى موسى عليه السلام وعده بالصبر والتأني واجتباب العجلة والتسرع، فشرط عليه الخضر هذا الشرط وانه إذا صحبتني فيجب أن تلتزم السكوت اتجاه أى فعلٍ يصدر مني مهما كان عجباً ومنافياً للمقررات والاصول السائدة بين الناس، ولا بد أن تعلم أن في ذلك حكمة سوف أطلعك عليها، فتقول الآيات وهي تحكى هذه الحادثة «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ... قَالَ فَإِنَّ الْاِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٨٢ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ اٰحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» (١). وعلى هذا الأساس أراد الخضر عليه السلام أن يعلم موسى عليه السلام درساً في روح الصبر والتأني أمام الحوادث والمسائل المختلفة في حركة الحياة ليتربى موسى عليه السلام على هذه الصفة الأخلاقية، ويسلك حياته الاجتماعية بعيداً عن حالة «العجلة والتسرع» في تعامله مع الواقع والحياة «خاصة العجلة في القضاء والحكم ولا سيما بالنسبة إلى أعمال شخصيات كبيرة مثل موسى عليه السلام ومع هذا الوعد والشرط تحركا في مسيرهما وسفرهما حتى وصلا البحر فوجدا سفينة تريد أن تتحرك وترحل فركبا فيها، فلما مضت مدّة رأى موسى عليه السلام أمراً عجباً من الخضر عليه السلام حيث شاهد الخضر عليه السلام وهو يحاول ايجاد ثقب في اسفل السفينة سراً، فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه أمام هذا العمل الشنيع واعترض على الخضر بشدة، ولكن الخضر عليه السلام ذكره بوعد والشرط الذي اشترط عليه، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن تراجع واعتذر عن فعله. ثم استمر في طريقهما وسفرهما، وفجأة ارتكب الخضر عملاً أعجب من الأول حيث شاهد صيماً فقطله، وهنا صرخ به موسى عليه السلام محتجاً عليه بانك لماذا تقتل الأبرياء، ولماذا ترتكب هذه الأفعال القبيحة؟ وهنا نجد الخضر عليه السلام يذكره مرّة اخرى بعهده ووعد السابق من إلتزام الصبر والسكوت، فأجابه موسى معتذراً عن هذا التسرع وقال له: إذا رأيت مني اعتراضاً للمرّة الثالثة فإن لك الحق في أن تنفصل عني. ثم تحركا متنقلين من مدينة إلى اخرى إلى أن وصلا إلى قرية يتسم أهلها بالبخل الشديد وعدم اعتنائهم بالضيف، ولكن الخضر عليه السلام لم يهتم لذلك بل شرع في ترميم جدار وجده في حالة الانهيار والسقوط، فرأى موسى عليه السلام أن مثل هذا العمل تجاه ما رأوه من جفاء أهل هذه القرية هو عمل سخيف، ولذلك نسي مرّة اخرى عهده مع الخضر عليه السلام واعترض عليه في هذا العمل. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٣ وهنا جلس الخضر عليه السلام ليشرح لموسى عليه السلام أسرار هذه السلوكيات والأفعال الغريبة ويبين له الحقائق الخفية لعالم الوجود بحيث إن موسى عليه السلام شعر بأنه قد فتحت أمامه نافذة جديدة على أسرار حياة الناس، وعندها ودع الخضر عليه السلام موسى عليه السلام بعد أن حملة معارف جمّة من هذه العلوم الغريبة. وأخيراً تقول الآيات الكريمة في استعراضها لما حدث بين الخضر وموسى عليهما السلام حيث تبين تفاصيل ورموز العلل الكاملة وراء هذه التصرفات

العجيبه للخضر عليه السلام وتقول على لسان الخضر عليه السلام «أَمَا السَّفِينَةُ فَكَأَنَّتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا». «وَأَمَا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا» فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا». «وَأَمَا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْرِخَ كَرَاهًا رَحِمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» (١). ولو أن موسى عليه السلام لم يستعجل بحكمه على أفعال الخضر عليه السلام لكان قد بقي مع الخضر واستفاد أكثر من علومه، ولكن «العجلة والتسرع» كانا السبب لأن يحصل على هذه الثمار الثلاثة فقط ويحرم من الزيادة. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تستعرض واقعه اخرى لأحد الأنبياء العظام حيث تسببت العجلة والتسرع في القضاء والحكم أن يقع مورد العتاب الإلهي. والقصة هي انه بينما كان داوود عليه السلام يوماً في محرابه إذ دخل عليه رجلان أحدهما يشتكى من الآخر ويقول: «أَنَّ هَذَا اخِي لَهُ تَسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ الْاِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٨٤ كُفِّلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» (١). وقبل أن يتحقق داود من المسألة ويدرس كافة تفاصيلها تسرع في الحكم «... لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ...» (٢). وهنا انتبه النبي داوود عليه السلام إلى انه ارتكب الترك الأولى «وَلَقَدْ دَاوُودُ أَنْتَمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَعْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» (٣). وليس هذا البحث محلاً مناسباً لدراسة هذه الواقعة بتمام تفاصيلها الدقيقة «وقد بحثناها في التفسير الأمثل بالتفصيل» ولكننا نقتصر على بيان هذه الحقيقة، وهي أن «العجلة والتسرع» وخاصة بالنسبة إلى القضاء والحكم بين الناس سيفضي حتماً إلى تعقيد الامور والفضيحة وتعميق المشكلة على المستوى الفردي والاجتماعي. وتعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات محل البحث إلى قصة النبي يونس عليه السلام ومسؤوليته العظيمة في الدعوة إلى الحق وهداية الناس إلى الله، ولكنه في لحظة من اللحظات تساهل في أمر هذه المسؤولية الإلهية وارتكب الترك الأولى وبالتالي أصابه العقاب الإلهي بسبب ذلك. والقصة هي أن النبي يونس عليه السلام عاش مدة طويلة مع قومه كالأب الحنون حيث تحمل مسؤولية انقاذ قومه من الضلالة والانحراف، ولكنه لم يواجه منهم أمام منطقه الحكيم سوى السفسطة والمغالطة والسخرية، ولم يؤمن له من قومه إلا عدد قليل جداً، ولعله لم يتجاوز الرجلين «أحدهما عابد والآخر عالم»، وأخيراً فإن النبي يونس عليه السلام أصابه اليأس من إيمان قومه، فدعى عليهم باقتراح من الرجل العابد، واستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه انه سينزل عليهم العذاب الإلهي في اليوم الفلاني، وعندما اقترب زمان نزول العذاب ترك النبي يونس الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٥ عليه السلام هؤلاء القوم وصحب معه الرجل العابد بدون أن يتم الحجية عليهم فلعلهم يتوبون تلك اللحظات الأخيرة ويعودون إلى الله تعالى، ولكن الرجل العالم بقي معهم واستمر في تبليغ الرسالة الإلهية. وقد أثمر هذا التبليغ وهذه الدعوة من الرجل العالم ثمره تزامناً مع اقتراب لحظات نزول العذاب، فحدث أن أوجب كلام هذا العالم وعلامات نزول العذاب تحولاً كبيراً في أعماق نفوس هؤلاء القوم، وأثابوا إلى رشدهم وخرجوا مصطحبين معهم ذلك العالم إلى الصحراء ليعلموا توبتهم وانابتهم إلى الله وسلوكهم في طريق الإيمان والتقوى، فعمل الله يرحمهم ويغفر لهم، وهكذا قبل الله تعالى توبتهم وتاب عليهم ولكنه وبخ يونس عليه السلام على تسرعه وعجلته في ترك هؤلاء القوم. القرآن الكريم يخاطب نبي الإسلام في هذه الآيات الكريمة أن لا يستعجل في طلب العذاب الإلهي على المشركين من قريش ولا يكون كيونس عليه السلام «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ\* لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» (١). ولكن الله تعالى قبل توبته من هذا الترك الأولى، وعندما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت كان قد تطهر من كل ذنب وترك للأولى، ولهذا نقرأ بعد هذه الآية قوله تعالى «فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٢). فالبرغم من أن يونس لم يتم الحجية على قومه بالمقدار اللازم، ولكن الله تعالى كان يتوقع من هذا النبي الكريم أن يصبر ويتأني أكثر من ذلك، ولذلك عاقبه على عجلته وتسرعه في مقابل عناد اولئك القوم. وتتحرك «الآية الرابعة» من موقع منع نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من «العجلة والتسرع» وتقول الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٦ «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» (١). ويستفاد من بعض الآيات القرآنية الاخرى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي كان يعيش حالة خاصة من الشغف والشوق والحرارة

تقوده إلى الاستعجال في استلهاهم الوحي، ولذلك تصدت هذه الآية الشريفة لتذكير النبي صلى الله عليه وآله بذلك ومنعه .. وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» (٢). ورغم أن المفسرين ذكروا احتمالات عديدة في تفسير هذه الآية الشريفة، ولكنهم متفقون على أن الآية ناظرة إلى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا ينبغي أن يستعجل في استلام الوحي بالرغم من أن أصل الموضوع هو عمل إلهي ويتضمن هداية الناس إلى الله تعالى. وعلى الرغم من أن استعجال النبي صلى الله عليه وآله في استلام الوحي أو تلاوة الآيات القرآنية على أصحابه أو طلبه بنزول الوحي كل ذلك كان بسبب عشقه وشوقه لهداية الناس، ولكن حتى هذا العمل الإيجابي والإنساني لا ينبغي أن يتم من موقع العجلة بل ينبغي أن يكون مترامناً مع الصبر والتأني. «الآية الخامسة» تتحدث عن جميع الناس، أو بتعبير آخر عن طبيعة الإنسان وتقول: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون» (٣). وكان الإنسان في سلوكه وحركته في حياته إلى درجة من العجلة وكان ذاته ونفسه قد عجت بالعجلة فهي عين العجلة. وتشير هذه الآية إلى أن طبيعة الإنسان مخلوقة منذ اليوم الأول بالعجلة والتسرع، ولكنه يجب عليه استخدام هذه الحالة وسلوك طريق التسرع والعجلة بعد توفر المقدمات للعمل لا الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٧ قبل ذلك. وعبارة «بآياتي» يمكن أن تكون إشارة إلى معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو آيات القرآن الكريم أو علائم العذاب الإلهي أو حلول القيامة أو جميع ذلك من الآيات الإلهية، فلا يختلف الحال في أخذنا لكل هذه التفاسير المذكورة لهذه الآية، لأن جميع هذه الامور من نزول آيات القرآن وظهور المعجزات وحصول علائم القيامة وكذلك نزول العذاب الإلهي كلها تتفق مع الحكمة الإلهية في ظرف نزولها الخاص، ولا تقترن مع العجلة والتسرع لأن الله الحكيم لا يعمل عملاً على خلاف حكمته، وعليه فلا ينبغي الاستعجال في طلب هذه الامور. أما قوله تعالى للآية الشريفة «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ» فهو إشارة إلى الأشخاص الذين لم يتحركوا في خط التربية الإلهية ولم يربوا أنفسهم في عملية تهذيب النفس وجهادها، وبعبارة أخرى: إن طبع الإنسان الأولي هو أن يتحرك بسرعة باتجاه اشباع حاجاته ورغباته البدنية والنفسية، وقد ورد هذا المضمون أيضاً في الآية ١٩ من سورة المعارج حيث يقول تعالى «انَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا» أي حريصاً وقليل الصبر. ولذلك نجد أن بعض الآيات التي تشير إلى كون الإنسان عجولاً فإنها تتحدث عن هداية الإنسان قبل ذلك كما في الآية ١١ من سورة الإسراء والتي ستأتي الإشارة إليها لاحقاً. وهذه الخاصية في الإنسان «كونه عجولاً» حالها حال الأهواء النفسية والنوازع البدنية الاخرى التي هي بناءً وضرورية ومفيدة فيما لو تحرك الإنسان على مستوى تعديلها وتهذيبها والاستفادة منها في خط السعادة والتكامل المعنوي والإنساني، وبذلك تخرج هذه الحالات السلبية في الظاهر كونها مخربة وسلبية، فهي مثل السيل الهادر فإنه رغم ظاهره المدمر ولكنه إذا بنى الإنسان أمامه السدود لضبطه والاستفادة من قوته فإنه يتحول إلى قوة ايجابية تؤدي إلى العمران والنور والرقى في حركة الحياة الدنيوية. ونفس هذا المضمون ورد أيضاً في «الآية السادسة» من الآيات محل البحث مع تفاوت الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٨ يسير وهو أن في هذه الآية نجد إشارة إلى أحد الافرازات السلبية والسيئة للعجلة والتسرع حيث تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» (١). وهنا أيضاً نجد مفردة «الإنسان» التي تشير إلى طبيعة الإنسان الأولية، وقد تكررت هذه الكلمة في أول الآية وفي آخرها أيضاً. «دعا» في هذه الآية بمعنى طلب وأراد، سواءً كان باللسان أو بالعمل، وبما أن الإنسان يتصف بالعجلة في ذاته والتسرع في تحصيل المنافع الشخصية فإن ذلك قد يتسبب في أن لا يدرس جوانب المدرسة بشكل جيد ولا يدرك خيره وشره وبالتالي يقع نفسه في المخاطر والمشاكل المتنوعة. وهذا «الدعاء» تارةً يكون بصورة لفظية، يعنى أن الإنسان يطلب من الله تعالى وباصرار شديد بعض الامور التي لا تكون خيراً له في الواقع بل هي شرٌّ له وإن كانت في ظاهرها أنيقة ومطلوبة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام «وَاعْرِفْ طَرِيقَ نَجَاتِكَ وَهَلَاكِكَ كَيْ لَا تَدْعُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ عَسَى فِيهِ هَلَاكُكَ وَأَنْتَ تَظُنُّ انَّ فِيهِ نَجَاتُكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» (٢). وأحياناً يتحرك الإنسان على مستوى العمل في طلب شيء بدافع من وحى الأهواء والشهوات ويكون شقاه في ذلك ولكنه بسبب تزيين النفس وتسويلات الشيطان يحسب ذلك خيراً له وموجباً لسعادته ويحزن عندما لم يحصل عليه، في حين انه سيتضح له بمرور الزمان انه إذا كان الله قد استجاب له طلبه ذلك

ونال حاجته وحقق هدفه فإن ذلك سيكون سبباً لشقائه مدى الحياة. وتعرض «الآية السابعة» مطلباً جديداً على مستوى عجلة الإنسان، وهو أن هذا الإنسان العجول أحياناً بدلاً من أن يستعجل في طريق الخير واكتساب الحسنات على الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٨٩ الأقل فإنه يستعجل في طريق الشر والفساد، كما نرى هذا الحال لدى الكفار المعاندين عندما يحذرهم النبي الأكرم صلى الله عليه و آله من عذاب الله وعقوباته الدنيوية، فتجدهم يستعجلون بهذا العذاب ويطلبون من النبي أن يسرع في نزول العذاب المهلك، وفي الحقيقة يطلبون موتهم وهلاكهم من النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كما تتحدث الآية مورد البحث عن ذلك: «وَيَسِّرْ يَجْعَلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَذُومٌ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» (١). أجل، إذا اقترنت العجلة لدى الإنسان بالعناد والإصرار، فالنتيجة هي ما قرأناه في هذه الآية الشريفة، فبدلاً من الاستعجال لطلب الخير واكتساب الحسنات فإنهم يستعجلون في طلب الشر ويوقعون أنفسهم بأموج البلاء والشقاء كما نجد هذا المضمون في الآية الأولى من سورة المعارج «سَيَلَّ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ \* لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ». وقد ذكر الكثير من المفسرين وأرباب الحديث أن هذه الآية نزلت في «النعمان بن الحارث الفهري» عندما نصب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله الإمام على في غدير خم خليفته له وقال قولته المشهورة «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيُّ مَوْلَاهُ» فلما سمع بذلك هذا الرجل اغتاظ من ذلك وجاء إلى النبي معترضاً بشدة، وعندما سمع من النبي أن هذا الأمر إنما هو أمر إلهي ازداد غيظاً وقال: إلهي إن كان هذا هو الحق من عندك فانزل علينا حجارة من السماء، فلم يمكث مدة حتى نزلت عليه حجارة من السماء فأصابته في رأسه وقتلته، وقد نزلت الآية في هذه الواقعة (٢). ألم يكن من الأفضل لمثل هؤلاء الأشخاص أن يطلبوا من الله تعالى بدلاً من العناد واللجاجة، الهداية والمغفرة وإزالة حالة التعصب والعناد في ذاتهم؟ وطبقاً للآية مورد البحث فإن مغفرة الله تسبق عذابه «سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ عَذَابَهُ» وهكذا فإن الله تعالى لا يعذب أحداً ما دام احتمال هدايته موجوداً، ولكن مع الأسف فإن بعض الناس المعاندين الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٠ والمتعصبين يستعجلون بالعذاب الإلهي بدلاً من المغفرة والرحمة. وتتحرك «الآية الثامنة» من الآيات مورد البحث للكشف عن بعد آخر من أبعاد صفة العجلة لهذا الإنسان وتقول: «وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ...» (١) ولكن بما أن الله تعالى غفور رحيم كريم فإنه لا يسرع في عقاب القوم الفاسقين فلعلهم ينتبهون من غفلتهم ويسيروا في خط التقوى والإيمان والتوبة. ويضيف القرآن الكريم في ذيل هذه الآية الشريفة «فَيَذَرُ الَّذِينَ لَمَّا زُجِرُوا لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٢) إلى أن يحين وقت مجازاتهم وعقوبتهم. وعليه فإن الله تعالى لا يعمل مثل عملكم، فانتتم تستعجلون باكتساب الخيرات والمنافع، ولكن الله تعالى لا يسرع في عقابكم، لأن المقصود الأصلي لله تعالى ليس هو عقابكم بل غرضه هدايتكم وأنزال الرحمة عليكم. وطبقاً للآيات القرآنية الأخرى فيحتمل في تفسير هذه الآية أن يكون المراد منها هو أن هؤلاء الناس يستعجلون بطلب نزول العذاب الإلهي عليهم كما يستعجلون في طلب الخيرات والمنافع الدنيوية، ولكن القرآن الكريم يقول لهم: «لو أن الله تعالى استجاب لطلبكم في مسألة التسريع بنزول العذاب لم يبق أحداً منكم» (٣)، ولكن المعنى الأول أو التفسير الأول للآية ينسجم أكثر مع ظاهرها. وفي «الآية التاسعة» وضمن الإشارة إلى حالة الاضطراب والقلق لدى الكفار والمشركين في مقابل وعد الله تعالى للمسلمين بالنصر وهزيمة أعدائهم الكافرين الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩١ ومعاقبتهم تقول: «وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١). أي لماذا لم تتحقق هذه الوعود الإلهية؟ أليس هذا دليل على كذبكم وانكم تخادعون أنفسكم بهذه الوعود الزائفة؟ ويجب القرآن الكريم على هذا التساؤل ويأمر النبي صلى الله عليه و آله بأن يقول لهم «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ...» (٢). فلا تستعجلوا بنزول العذاب، لأنه في ذلك اليوم لا يجد هؤلاء الكافرون فرصة للعودة إلى الحق. إن الله تعالى بلطفه وكرمه وعنايته قد أمهلكم هذا اليوم لتعودوا إلى وجودكم وتسلكوا في طريق الحق والإيمان، ولكن عندما يأتي ذلك اليوم فإن العذاب الإلهي سينزل عليكم وتوصد أمامكم أبواب التوبة فلا تستطيعون العودة والانابة إلى الله، إذاً بدلاً من أن تستعجلوا نزول العذاب عليكم، لا بد أن تستثمروا هذه الفرصة والمهلة الإلهية وتتحركوا من موقع إصلاح الذات والسلوك في خط التوبة والإيمان والانفتاح على الله تعالى. ثم تأمر الآية الشريفة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ

مُنْتَظِرُونَ» (٣)، فعليك أن تنتظر رحمة الله ونصره وهؤلاء ينتظرون عذابه وعقوبته. وقد ذكر بعض المفسرين أن جملة «أنهم منتظرون» هي إشارة إلى ما كان ينتظره الكفار من موت نبي الإسلام أو هزيمته في ميدان القتال، ولكن التفسير الأول المذكور أعلاه أنسب إلى جو الآية. «الآية العاشرة» تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتوصيه بالصبر والاستقامة كما هي حالة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٢ الأنبياء الماضين، وبالرغم من أن التاريخ شاهد على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يتحرك من موقع العجلة والتسرع بل كان يسلك في خط المثابرة والصبر والاستقامة في كل أعماله وأفعاله، ولكن الآية الشريفة جاءت لتؤكد هذا المعنى على نبينا الكريم وتقول «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعِيَةً مِنْ نَهَارٍ» (١). ونظراً إلى أن جميع عمر الدنيا في مقابل الآخرة لا يعد سوى ساعة واحدة من الزمان، فعليه لا تستعجل في الأمر إلى أن تتم الحجّة عليهم، ويستفاد من هذا التعبير إلى أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا يعيشون الصبر والمثابرة والاستقامة مقابل عناد أقوامهم وجهالتهم ولجاجتهم وكانوا يمهلون أقوامهم حتى النفس الأخير لغرض اصلاحهم وهدايتهم. ولم يكن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله إلا كأحد هؤلاء الأنبياء اولى العزم، وما ورد في الآية أعلاه هو في الواقع يعبر عن تأكيد الآية على هذا المعنى أو أن مضمون الآية له بعد تعليمي أو تربوي للآخرين، أو هو إنذار إلى الكافرين بأن لا يهمل هذه الفرصة الثمينة ولا يسيء الاستفادة من الامهال الإلهي. وهذه الآية شاهد أكيد على أن الصبر والاستقامة وترك العجلة من الفضائل الأخلاقية المتوفرة لدى جميع الأنبياء العظام الذين كانوا طيلة التاريخ البشري أسوةً وقُدوةً لأقوامهم في التحلي بهذه الصفة الأخلاقية السامية.

### النتيجة:

ويتضح من مجموع الآيات أعلاه أن العجلة والتسرع لدى الأقسام والشعوب البشرية المختلفة في نظر الإسلام صفة سلبية، وتقع في مقابل القيم الأخلاقية الايجابية من الصبر والمثابرة والتأني إلى أن تتوفر مقدمات العمل، وأن الصبر والتأني يعد من أهم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، وهي الفضيلة التي كانت متوفرة لدى جميع الأنبياء العظام وقادة البشرية في خط الحق والإيمان.

### العجلة والتسرع في الروايات الإسلامية:

وقد وردت بحوث كثيرة في الروايات الإسلامية في ذم العجلة ومدح التأني والصبر ونقرأ في مضامينها نكات دقيقة في هذا الموضوع من قبيل: ١- ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَأَنَا مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» (١). ٢- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث آخر «أَنَا أَهْلَكَ النَّاسَ الْعَجَلَةَ وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ تَشَبَّهُوا لَمْ يُهْلِكْ أَحَدٌ» (٢). وطبعاً أن المقصود من الهلكة هو الموت بسبب الحوادث غير المتوقعة والتي تكون معلولة بالعجلة وعدم الثبوت من الامور. ٣- وقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ فَإِنَّكَ إِنْ عَجَلْتَ أَخْطَأْتَ حَظَّكَ» (٣). ٤- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَعَ الْعَجَلِ يَكْثُرُ الزَّلَلُ» (٤). ٥- وفي وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام عندما كان الإمام على فراش المرض قال: «أَنْهَاكَ عَنِ التَّسْرُعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ» (٥). ٦- وقد ورد أيضاً عن الإمام أمير المؤمنين قوله «الْعَجَلُ قَبْلَ الْأَمْكَانِ يُوجِبُ الْغَضَبَ» (٦)؛ لأن العجلة تهدر أتعاب الإنسان وسعيه ولا يصل إلى نتيجة مطلوبة. ٧- وورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَنْ رَكِبَ الْعَجَلَ رَكِبَتْهُ الْمَلَامَةُ» (٧). ٨- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَعَ التَّيْبَتِ تَكُونُ السَّلَامَةُ وَمَعَ الْعَجَلَةِ تَكُونُ النَّدَامَةُ» (٨). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٤ ٩- وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْعَجَلَةُ مَذْمُومَةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ إِلَّا فِي مَا يَدْفَعُ الشَّرَّ» (٩). ١٠- ونختم هذا البحث بحديث شريف عميق المغزى عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «مَنْ اسْتِطَاعَ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءٍ فَهُوَ خَلِيقٌ بَانَ لَا يَنْزِلُ بِهِ مَكْرُوهٌ أَبَدًا. قِيلَ وَمَا هِيَ؟ قَالَ: الْعَجَلَةُ وَاللَّجَاجَةُ وَالْعُجْبُ وَالْتَوَانِي» (١٠). وقد رأينا في هذه الأحاديث الشريفة أن التأني هو عطية إلهية وموهبة ربانية للإنسان بينما «العجلة» هي صفة شيطانية تدفع بالإنسان إلى طريق الخسران والزيغ في حركة الحياة وتضيع عليه الفرصة الثمينة،

وتكثر اشتباهاته، وتكون عاقبته إلى الندم والهلكة، في حين أن النقطة المقابلة لها، أي التأني والصبر والتدبر يقود الإنسان إلى الفلاح والسعادة والاستفادة الكبيرة من الفرص الثمينة في حياته الدنيوية.

### ملاحظات مهمة:

#### ١- مفهوم العجلة والتسرع

إن العجلة بما هي صفة ذميمة في سلوك الإنسان تظهر بأشكال مختلفة، بمعنى أن الإنسان وقبل أن يوفر مقدمات العمل يُقدم على تحصيل النتيجة، وهذا العمل لا يترتب عليه سوى الفشل أو يثمر ثمرة ناقصة. وهذا كما لو أن الإنسان قطف الثمرة قبل نضجها فإنه يحرم نفسه من طيب هذه الثمرة أو تكون ذات فائدة قليلة، أو أنه يقوم بنثر البذور على الأرض قبل أن يحرقها فتكون النتيجة تلف البذور أو قلة المحصول الزراعي، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد: «وَمُجْتَنِيِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٣٩٥ الثَّمَرَةُ لِعَيْرِ وَقَتِ اِنْعَائِهَا كَالزَّرْعِ لِعَيْرِ اَرْضِهِ» «١». أي انه يتلف طاقاته ورأس ماله بدون أن يعود عليه بالفائدة المطلوبة، والعجول: يقال للأشخاص الذين لا يتمتعون بحالة الصبر في أعمالهم وأقوالهم وتعاملهم مع الآخرين ولغرض الوصول إلى هدفهم لا يسلكون الطريق الصحيح لذلك، فلهذا السبب فإنهم يقعون في دوامة من المشكلات والنواقص في حركتهم الاجتماعية وسلوكهم في خط التكامل المادي والمعنوي. والصفة المقابلة للعجلة والتسرع هي «التأني» والتريث والتحمل والطمأنينة والوقار. ولا ينبغي أن تؤخذ «العجلة» بمعنى السرعة في الأقدام على العمل والذى يحمل مضموناً إيجابياً في حركة الحياة، فالسرعة في العمل تكون بعد ترتب وتوفر المقدمات المطلوبة لذلك العمل وأن لا يدع الإنسان الفرصة تفلت من يده للحصول على النتيجة والثمرة، فمثل هذا العمل من الواضح أنه يعد أحد العوامل المهمة للفلاح والنجاح والموفقية، ولكننا نرى في موارد كثيرة وجود الاشتباه والخلط بين مصاديق العجلة وموارد السرعة، أو نرى أن البعض ولغرض تبرير كسلهم واهمالهم يضيعون الفرص الثمينة ويقولون انه لا ينبغي العجلة في الأمور وأن العجلة من الشيطان، في حين أن هناك فرقاً واضحاً بينهما، ففي بعض الروايات نقرأ أن العجلة تعد من أسباب الندم، وأن التأني من أسباب السلامة، وهذا هو ما أشرنا إليه آنفاً. ونختم هذا الكلام بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام يبين فيه الفرق بين مفهوم العجلة والسرعة أو مفهوم التسرع والسرعة ويقول «إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ اوانِهَا، وَالتَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ امْكَانِهَا» «٢».

#### ٢- المسارعة في الخيرات

ونقرأ في القرآن الكريم في آيات متعددة انه يدعو إلى المسارعة في الخيرات والمسابقة في الحسنات، ومن ذلك ما ورد في الآية ١١٤ من سورة آل عمران في وصف بعض المؤمنين الحقيقيين حيث يقول «... وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ...». ويقول في سورة الأنبياء الآية ٩٠ في وصف جماعة من الأنبياء العظام مثل زكريا ويحيى ويقول عنهم «... أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...». ويقول في الآية ٦١ من سورة المؤمنين في شرح الصفات البارزة لهؤلاء المؤمنين ويقول: «أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ». وجاء في الآية ١٣٣ من سورة آل عمران أن هذه المسألة بعنوان خطاب عام لجميع المؤمنين أن يتحركوا من موقع المسارعة، ويقول: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ اعِدَدْتُمُ الْمُتَّقِينَ». ونفس هذا المعنى ورد في الآية ١٤٢ من سورة البقرة تحت عنوان المسابقة في الخيرات حيث تقول الآية «... فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...». وبديهي أن المسارعة في الخيرات كلها إشارة إلى هذه الحقيقة الواحدة، وفي الواقع أنها من قبيل اللزوم والملزوم لأن المسابقة لا تتحقق بدون المسارعة، وكلما طوى الشخص الطريق إلى مقصوده بسرعة أكثر فإنه بلا شك سيصل إلى مقصوده أسرع. وقد ورد في الروايات الإسلامية إشارات جميلة وعميقة المعنى بالنسبة إلى هذا الموضوع، نختار منها نماذج معينة وهي: ١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ

الْخَيْرِ مِمَّا يُعَجَّلُ» (١). ٢- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «يَا دُرُورُ بَعِّمِلِ الْخَيْرِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا عَنْهُ بِغَيْرِهِ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٧-٣. وفي أحاديث متعددة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ هَمَّ بِخَيْرٍ فَلْيُعَجِّلْهُ وَلَا يُؤَخِّرْهُ» (١). ٤- وجاء هذا المعنى أيضاً في حديث آخر بصورة مفصلة، قال الإمام الصادق عليه السلام «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِخَيْرٍ أَوْ صِلَةٍ فَإِنَّ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ شَيْطَانَيْنِ فَلْيُبَادِرْ لَا يَكْفَاهُ عَنْ ذَلِكَ». ٥- وقال أمير المؤمنين عليه السلام «لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْكِرَامِ تَأْخِيرُ الْأَنْعَامِ» (٢). ٦- وقال الإمام الباقر عليه السلام «مَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَيْرِ فَلْيُعَجِّلْهُ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ تَأْخِيرٌ فَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَظْرَةً». وخالصة الكلام فَإِنَّ الموانع النفسانية والوساوس الشيطانية تصد الإنسان دائماً عن أعمال الخير، ولهذا فعندما تتوفر مقدمات ذلك العمل تجب المسارعة إليه قبل أن يضع بعض الجهال الضيقوا الافق العوائق في طريق الحركة نحو الخير ويشبطوا الإنسان عن سلوك طريق الكمال المعنوي، ولا بد أيضاً أن يفرق الإنسان بين السرعة والمسارعة في أعمال الخير، وبين العجلة المذمومة التي تكون قبل توفر مقدمات العمل. ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال «لَا تُؤَخِّرْ أُمَّةً الْمُحْتَاجَ إِلَى عَدِّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَعْزُضُ لَكَ وَلَهُ فِي عَدِّهِ» (٣).

## الآثار السلبية للعجلة والتسرع:

### ١- اتلاف الوقت والطاقات

إن هذه الصفة الذميمة يترتب عليها آثار مخربة كثيرة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، والأضرار التي تعود على الإنسان بسبب هذه الحالة السيئة هي أكثر من أن الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٣٩٨ تحصى ومن ذلك أنها تعمل على اهدار طاقات الإنسان واتلافها وبالتالي تمنعه من الوصول إلى مقصوده ومطلوبه، مثلما إذا قصد جيش العدو بلاد الإسلام ولم يترث جيش الإسلام لكي يباغت العدو في موقف من مواقف الضعف والعسر بالنسبة للعدو، أو قبل أن ينتهي جيش الإسلام من حيث العدة والعدد والخطئة العسكرية يقوم هذا الجيش بالهجوم على العدو، فتكون النتيجة الاندحار والهزيمة لجيش الإسلام واتلاف الكثير من الطاقات والقوى وبالتالي تقوية جيش الأعداء وجرأتهم أكثر. وهذا المعنى يصدق أيضاً بالأعمال الفردية، لأن كل حركة تتصف بالعجلة فإنها تتسبب في اهدار الطاقات واتلاف الامكانيات للإنسان. وينقل الفيض الكاشاني في «المحجزة البيضاء» حديثاً جميلاً ويعتبر شاهداً ناطقاً على ما تقدم آنفاً، حيث جاء في هذا الحديث انه عندما ولد المسيح عليه السلام فإن الشياطين جاءوا إلى إبليس فقالوا: أصبحت قد نكست رؤوسها، قال: هنا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى جال خافقي الأرض ولم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفت حوله، فرفع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت انثى قط ولا وضعت إلاً وأنا بحضرتها إلهذا فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة» (١).

### ٢- اليأس

ومن المعطيات السلبية الاخرى للعجلة، هو حالة اليأس التي تصيب الإنسان عندما لا ينال مقصوده ولا يتسنى له تحصيل النتيجة من عمله، وقد يفرض به هذا الحال إلى أن يسىء الظن بكل شيء حتى بالتقدير الإلهي، ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: «لَا تَعْجَلْ عَلَى ثَمَرَةٍ لَا تَدْرِيكَ وَأَنْمَا تَنَالُهَا فِي أَوَانِهَا وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ لَكَ أَعْلَمُ بِالْوَقْتِ الَّذِي يُصَلِّحُ حَالَكَ فِيهِ، فَيُتَّقِ بِخَيْرَتِهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، يُصَلِّحُ حَالَكَ، وَلَا تَعْجَلْ بِحَوَائِجِكَ قَبْلَ وَقْتِهَا فَيَضَيِّقُ قَلْبَكَ وَيَصِدْرُكَ وَيَخْشَاكَ (يغشاك) القنوط» (٢).



## ٣- الندامة

الثالث من الآثار السيئة للعجلة هي الندم كما مرت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة، فما أكثر الأشخاص الذين استعجلوا فى تحصيل النتيجة قبل أن تتوفر المقدمات وقبل أن تنهيا الأرضية لذلك، فكانت النتيجة هى اتلاف طاقاتهم وامكانياتهم وعدم تحصيل مقصودهم الحقيقى، فى حين أنهم لو مكثوا وصبروا قليلاً فسوف لا يتورطون فى ما وصلوا إليه، وما أكثر الأشخاص الذين اتجهوا من موقع العجلة فى طريق خاص وإذا بهم يرون الخسارة تحيط بهم من كل جانب وعندها أدركوا خطأ هذا الطريق بعد فوات الأوان فاصبحوا يتحسرون على ما صدر منهم ويقولون يا ليتنا لم نسلك هذا الطريق. وفى ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَكَمْ مِنْ مُسْتَعِجِلٍ بِمَا ان ادْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ» «١».

## ٤- الحزن والغم

الرابع من العواقب السلبية للعجلة فى الأعمال هو أن يعيش الإنسان امواج الحزن والهجم، لأن الفشل فى حركة الحياة الاجتماعية المترتب على العجلة والتسرع تكلف الإنسان غالباً فى كثير من الأوقات وتجعل الإنسان يعيش دائماً القلق والاضطراب والحزن. وقد ورد هذا المعنى فى إحدى الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال «العَجَلُ قَبْلَ الإِمْكَانِ يُوجِبُ الغُصَّةَ» «٢».

## ٥- زيادة الخطأ

إن من الآثار السيئة الأخرى للعجلة والتسرع هو كثرة ما يقع فيه الإنسان من الخطأ والاشتباه بسبب ذلك، لأن التخطيط الصحيح يحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر والدقة، وهذا المعنى يتقاطع مع العجلة والتسرع، ولذا نرى الأشخاص الذين تستولى عليهم حالة العجلة فى تصرفاتهم وسلوكياتهم فإنهم يبتلون عادة بأخطار كثيرة سواء على مستوى تشخيص الهدف أو على مستوى المنهج والطريق للوصول إليه. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٤٠٠ يقول أمير المؤمنين عليه السلام «مَعَ العَجَلِ يَكْتَبُ الزَّلَلُ» «١». وكذلك يقول عليه السلام: «مَنْ عَجَلَ كَثُرَ عِثَارُهُ» «٢».

## ٦- كثرة الزلل

السادس من آثار العجلة والتسرع «كثرة الزلل» والذى يمكن أن يكون بمعنى واحد مع كثرة الأخطاء ويمكنه أن يكون قسماً مستقلاً «الخطأ فى تشخيص الهدف والزلل فى طريق الوصول إليه». ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «اصَابَ مُتَأَنَّ أَوْ كَادَ، وَاخْطَأَ مُسْتَعِجِلٌ أَوْ كَادَ» «٣». وعلى أية حال فإن الأضرار الناشئة من العجلة والتسرع أكثر من أن يتصورها الإنسان، والضرر والخسارة التى يدفعها الإنسان العجول فى واقع الحياة من الامكانيات المادية والأضرار النفسية والمعنوية أكثر من أن تحصى

## جذور هذه الصفة الذميمة:

## ١- اتباع الهوى

إن هذا الخلق الذمىم حال سائر الأخلاق الرذيلة الأخرى ينبع من اتباع الهوى فى الأساس، فالإنسان إذا تحرّك بوحى أهوائه فإنه عادةً ولأجل تحصيل مطامعه ورغباته النفسية يستعجل فى ذلك، والغالب أن الهوى لا يسمح له بأن يتدبر عواقب الامور ويتأمل فى الطريق

السليم فى الوصول إلى مقصده، ولهذا السبب فإنه يلقى بنفسه بصورة عشوائية فى هذا الانجاه ويركض خلف ارضاء النوازع الذاتية والأهواء النفسية وبالتالي يتورط فيما لا يحمد عقباه.

## ٢- حب الدنيا والتعلق بها

الثانى من أسباب العجلة والتسرع هو حب الدنيا والتعلق بها الذى يعد رأس كل خطيئة، الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٤٠١ فمن كان عبداً للدنيا فإنه لا يرى غيرها وكأنما يغلق عينه واذنه عن رؤية عواقب الامور ويلقى بنفسه وبدافع من العشق للدنيا والشوق إلى تحصيل زخارفها من موقع العجلة والتسرع وهو يتصور إنما يسعى لخيره ومصالحته ولكن الأغلِب هو أن هذه العجلة تتسبب فى تورطه بالمشاكل واصطدامه بالموانع التى لم يكن يراها بسبب العجلة ولم يكن مستعداً نفسياً لمواجهةها، ولهذا السبب فإنه يمنى بالهزيمة والفشل الذريع.

## ٣- ضيق الصدر وسعته

ومن الدوافع الاخرى للعجلة والتسرع هو ضيق الصدر وافق التفكير، فالأشخاص الذين يعيشون ضيق الصدر وضيق الافق هم الذين يسلكون طريق العجلة فى تحصيل مبتغاهم، واما من كان يعيش سعة الصدر ويتسم بسعة الافق فى تفكيره فنجده يخطو فى حركته الاجتماعية بتأنٍ ووقار وتدبر فيما يصدر منه من سلوكيات وأعمال ويتجه لتحصيل مقاصده بعزم قوى وفى نفس الوقت ببرودة أعصاب، ولهذا فإنه قلما يصاب بالفشل والهزيمة. إن تسويلات الشيطان وخداع رفاق السوء والمتملقين والكاذبين والحساد والناممين هى بدورها من العوامل المهمة للوقوع فى دائرة الاستعجال والتسرع. يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد «وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَىٰ تَصَدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَأَنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ» (١).

## ٤- الجهل

وأحد العوامل الاخرى للاستعجال بالامور الجهل والسفه، فان الشخص الجاهل والسفيه يعيش فى الغالب فى دائرة الأوهام والخيالات الباطلة فيتصور أن مقدمات هذا العمل الفلانى متهيئة وأن الأرضية مساعده لذلك فيلقى بنفسه فى دوامة الحوادث ولا يرجع منها إلّا بخف حنين ولا- يكون مصيره منها سوى الفشل، فى حين أن الشخص العالم بالامور والعامل الذكى فإنه يسعى لبرمجة خطواته العملية فى سبيل الوصول إلى هدفه ومقصده وبالتالي فسوف يحصد ثمار هذا التانى والتدبر ولا يصيبه سوى الفلاح. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٤٠٢ يقول أمير المؤمنين عليه السلام «مِنَ الْحُمُقِ الْعَجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ» (١).

## طرق العلاج:

ولغرض التصدى لهذه الرذيلة الأخلاقية وعلاجها أو الوقاية منها فقبل كل شىء يجب التفكير فى هذه العواقب الوخيمة والآثار السيئة لحال الاستعجال والتسرع، فحنن نشاهد الكثير من الوقائع المؤلمة والحوادث والمشاكل الكثيرة التى تكون بسبب التسرع ... وهناك نماذج كثيرة من ذلك ذكرها لنا تاريخ الانسانية. فلو أن الشخص تفكر فى هذه الامور والآثار السيئة، فإنه سيدرك حتماً أن الاستعجال فى العمل مضافاً إلى انه لا يوصله إلى مقصده ولا يحصل على غايته بسرعة فإنه قد لا يحصل عليها أبداً فيما بعد. وما تقدم من العبارات العميقة فى الروايات الشريفة من قبيل «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» و «وَالْعَجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ يُوجِبُ الْعُصِيَّةَ وَمَعَ الْعَجَلَةِ تَكُونُ النَّدَامَةُ» (٢). يجب أن تكون بمثابة الشعار لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية يضعه نصب عينه كى يحد ذلك من عجلته فى الامور،

ويضع في خاطره دائماً الحديث الشريف الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنما أهلك الناس العجلة ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد» (٣). ومن جهة أخرى يجب عليه أن يمارس عملية التأني ويتمرن عليها ويلقن نفسه بها حتى يمتزج هذا الخلق الحسن بروحه ويمتد إلى أعماق وجوده، فيكون له كالطبيعة الثانية، لأن كل عمل يتبدل بالممارسة والتمرن إلى عادة، وكل عادة تتبدل إلى خلق وطبيعة في نفس الإنسان.

## الصبر والتأني

### تنويه:

إن الحياة الدنيوية مليئة بالمشاكل والمصائب التي تستوعب حياة الإنسان في واقعه الفردي والاجتماعي، ولو انه تصدى لهذه المشكلات وواجه هذه المخاطر والتحديات للواقع العملي بصبرٍ ومقاومةٍ ومثابرةٍ فإنه سوف يتجاوزها وينتصر عليها قطعاً، وإلا فإنه لن يصل إلى مقصوده أبداً، وسيجد نفسه يعيش الخنوع والخضوع للتحديات الصعبة التي يفرضها عليه الواقع. والمراد من الصبر هو الاستقامة أمام المشاكل والحوادث المختلفة، والصفطة المقابلة له هو «الجزع» ويعنى افتقاد عنصر المقاومة والاستسلام أمام تحديات الواقع والمشاكل الاجتماعية والنفسية في حركة الحياة على المستوى المادي والمعنوي، فلو أن الإنسان لم يقف أمام أهوائه الطاغية ونوازع النفس ولم يقاوم الجوانب الدنيوية ولم يسلك في طريق «معرفة الله» واطاعته، فإنه لن يصل إلى أى مرتبة من مراتب الكمال المعنوي والإنساني، ولذلك قسم علماء الأخلاق الصبر إلى ثلاثة أقسام: ١- الصبر على الطاعة، أى على المشكلات التي تواجه الإنسان في خط التقوى والإيمان وطاعة الله تعالى. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٢٠٤-٢ الصبر على المعصية، ويعنى الصمود أمام النوازع النفسية والأهواء الشيطانية ومقاومتها والتصدي لها. ٣- الصبر على المصيبة، ويعنى الصمود أمام المصائب والحوادث المرة التي تصيب الإنسان في حركة الحياة وعدم الانفعال عند حدوثها والخضوع لتحدياتها وترك الجزع والفرع في عملية مواجهتها. ويعتبر «الصبر» من أهم أركان الإيمان حيث يشبه الإمام على مكانة الصبر بالنسبة إلى الإيمان كمكانة الرأس بالنسبة إلى الجسد، وقد لا نجد في القرآن الكريم مورداً اهتم فيه القرآن من موقع التأكيد والمدح مثل ما نجد ذلك بالنسبة إلى الصبر، فقد وردت سبعون آية تقريباً في هذا الموضوع، عشرة منها مختصة بتوصيات القرآن للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله نفسه. ونقرأ في آيات القرآن أن الله تعالى وعد الصابرين أجراً عظيماً وبدون حساب «أَنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (١). وأن الصبر هو مفتاح الجنة كما تقول الآية «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (٢). وجاء في الحديث النبوي المعروف اشارات إلى هذا المعنى وأن الصبر نصف الإيمان، كما سيأتي تفصيله لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم بدراسة هذا الموضوع الأخلاقي المهم من جوانبه وابعاده المختلفة.

### آيات الصبر:

١- «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (٣). ٢- «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْاِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٤٠٥ الْمُشْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (١). ٣- «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (٢). ٤- «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسِيَّطِعَ مَعِيَ صَبْرًا» (٣). ٥- «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلِقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِيهَا كَثِيرَةٌ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (٤). ٦- «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعِيَةً مِنْ نَهَارٍ...» (٥). ٧- «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا» (٦). ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٧). ٩- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (٨). ١٠- «قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ

اللَّهُ وَاسْمَعُهُ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (٩). «١١- سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١٠). «١٢- أَوْلَيْكَ يُجَزُونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا» (١١). «١٣- وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٤٠٦ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (١). «١٤- .. وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (٢).

## تفسير واستنتاج:

### أسوة الصبر والمقاومة

«الآية الأولى تستعرض حياة أحد الأنبياء العظام الذي صار مثلاً للصبر والاستقامة في مواجهته للبلايا والمصائب في الحياة، في حياته الفردية والاجتماعية، ولهذا فإننا نقرأ في حالاته وسيرته المذكورة في سورة «ص» إن القرآن الكريم يضربه مثلاً للمسلمين في أوائل البعثة الذين كانوا يعيشون التحديات الصعبة والضغط المستمر من قبل المشركين في مكة ويتعلموا منه درس الصبر والاستقامة والصمود في مواجهة المشاكل والمصاعب المفروضة عليهم. وصحيح أن اسم النبي أيوب عليه السلام أو سيرته قد وردت في عدة سور في القرآن الكريم، ولكن ما ورد في سورة «ص» يعدو شرحاً وافية لسيرته الكريمة حيث تقول الآية ٤٤ من هذه السورة: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (٣). وهكذا واجه النبي أيوب عليه السلام مصائب عظيمة لغرض اختباره وامتحانه لمعرفة درجة شكره وطاعته لله تعالى وليصعد بهذا الطريق إلى مقامات سامية من القرب الإلهي، فقد كانت له ثروة كبيرة وبساتين وأغنام كثيرة وأبناء صالحون، ولكن كل ذلك فقدته بين عشية وضحاها حتى أبناءه أيضاً ونفس أيوب ابتلى بمرض شديد ومزمز إلى درجة أنه كان يتلوى في فراشه من شدة الألم الذي أوقعه في الفراش أسيراً، ولكن أي واحد من هذه الأمور لم يستطع أن يقلل من شكره لله تعالى، ولم يتمكن أن يخذش في صبره واستقامته في الإخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٠٧ خط الإيمان والطاعة. هذا وقد سمع أيوب الكثير من التعريض به وبشخصيته، ولعل هذه المصيبة كانت عليه من أعظم المصائب، وأحياناً كان عبداً بنى إسرائيل وربانهم يأتون لرؤيته ويقولون له بصراحة: ما هو الذنب العظيم الذي ارتكبته حتى ابتلاك الله بهذا الابتلاء والعذاب الشديد؟ ولكن هذا النبي العظيم لم يفقد صبره بل كان يعيش الانضباط الأخلاقي أمام نوازعه النفسية ويلهج لسانه بشكر الله تعالى ويتعامل مع كل هذه المصائب من موقع الشكر لا من موقع كفران النعمة والشكوى والجزع، وبعد أن مضت عليه سنوات عديدة وهو يتحدى هذه الصعاب العظيمة دعا الله تعالى لأن يكشف عنه هذا البلاء كما تقول الآية: «وَأذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ». فعندما ختم هذا النبي العظيم جميع مراحل هذا الامتحان الإلهي الكبير ووقف أمام البلايا والمصائب المختلفة كجبل من الصبر والاستقامة وأخجل الشيطان الرجيم من أن ينال منه ولو كلمة جزع وشكوى واحدة حتى ينس منه، عندها فتح الله تعالى أبواب رحمته عليه، وعاد عليه كل ما فقدته من المال والأولاد والمواهب الدنيوية الأخرى بل ضاعفها له أضعافاً مضاعفة، والأهم من ذلك أنه نال من ذلك مقاماً عظيماً في دائرة القرب الإلهي ونال وسام «نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». وذكر المفسر المعروف «ابن مسعود»: إن أيوب عليه السلام كان «رَأْسَ الصَّابِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١) وهكذا سجّل أيوب لنفسه هذا الشرف والافتخار على طول التاريخ البشري. ولا ينبغي التساهل في المرور على هذا المطلب، وهو أن إنساناً كان يتمتع بجميع الامكانيات المادية والدنيوية، وفجأة فقد كل شيء وجلس صفر اليدين حتى أنه لم يسلم من تعريضات قومه من الأصدقاء والأعداء وكناياتهم الموجهة التي كانت تؤلمه أكثر من طعنات السيوف والخناجر ومع ذلك لم يصدر منه حتى كلمة واحدة على خلاف رضى الله تعالى بل كان لسانه لهجاً بذكر الله وشكره، وفي نهاية أمره قال كلمة واحدة تعبر عن دعاءه الإخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٠٨ وتضرعه إلى الله تعالى لا-غير، وهي العبارة التي تصور البعض أنها من قبيل الشكوى ولكنه خطأ فاحش لأنها لا تتضمن أي نوع وأي أثر للشكوى فيها حيث تقول: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ». وتأتي «الآية الثانية» لتستعرض صبر «النبي يعقوب» الذي يُعد اسطورة في الصبر والاستقامة، فقد فقد ابنه وأعر ما لديه في الحياة، وهو «يوسف» الذي كان يحبه حباً جماً، وعاش سنوات مديدة بعين باكية وصبرٍ عظيم حتى أنه عميت عيناه، ولكن

رغم ذلك فإنه لم تفلت منه كلمة مخالفة لرضى الله تعالى وكان شاكراً وصابراً دائماً وكما تعبر الآية على لسان يعقوب نفسه بكلمة «صبرٌ جميل» حيث تقول «وَجَاءَ عَلِيٌّ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (١). وهكذا نرى إن الاخوة الكذابين غفلوا عن تمزيق قميص يوسف عندما جاءوا به ملطخاً بالدم وقالوا لأبيهم إن الذئب قد أكل يوسف في غفلة منا، ولهذا لم يصدق يعقوب كلامهم هذا وقال: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا»، ولكن بما انه لم يكن يملك أى شىء اتجه هذه الحادثة المؤلمة فاكتفى بالبكاء على يوسف وقال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أى الصبر المقترن مع الشكر لله على هذه المحنة دون أن تمتد إلى قلبه حالة الجزع الذميمة. وبالنسبة لعبارة «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» فللمفسرين بيانات مختلفة في تفسيرها، فذهب البعض إلى أن «الصَّبْرُ الْجَمِيلُ» هو الصبر الذى لا يخالطه الجزع ولا الشكوى للناس من المصيبة، وذهب البعض الآخر إلى أن الصبر الجميل أن يكون بدافع إلهي وطلباً لرضى الله تعالى وقد ورد في الروايات انه سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله عن الصبر الجميل ما هو؟ وقال «هُوَ الَّذِي لَا شَكْوَى مَعَهُ» (٢). وذهب آخرون إلى أن الصبر الجميل هو ما لم يقترن مع الشكوى إلى الناس، وأجمل منه الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٠٩ أن يعرض حاله على الله تعالى ويلتجى إليه في هذه المصيبة ويؤدى حق الطاعة والعبودية له. فعندما اعترض أبناء يعقوب على أبيهم بسبب كثرة البكاء على يوسف وتذكره الدائم قال لهم إننى لا أشكو حالى إلى الناس وإليكم بل «قَالَ أَنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (١). «الآية الثالثة» تتحدث عن طائفة اخرى من الأنبياء الإلهيين الذين سلكوا في دعوتهم لأقوامهم وفي مواجهة المشكلات والمصاعب في خط الاستقامة والتحمل، من أجل ذلك فإن الله تعالى أغرقهم برحمته وجعلهم في زمرة الصالحين: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (٢). أما صبر إسماعيل فواضح، وذلك بانه أولاً: استعد لأن يضحي بنفسه في طاعة الله وامثال أمره وامثل لما أمره به أبوه من ذبحه كما أمر الله، ولكن الله تعالى شملهما بعنايته وأرسل لإبراهيم خروفاً أو كبشاً ليذبحه بدل إسماعيل. وثانياً: لبقائه في الصحراء المحرقة في منطقة مكة وإلى جانب بيت الله الحرام كى ما يقوى ويشدد أمر هذا المركز الإلهي ويشيع أمره بين الناس. وأما بالنسبة إلى صبر إدريس فقيل: أنه أول من بعث من بين قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ولكنه بالرغم من ذلك واجه صعوبات كبيرة في هذا السبيل ولم يستجب له أحد من قومه. وأما «ذى الكفل» فإنما سمي بهذا الاسم وصار في زمرة الصابرين الكبار من الأنبياء الإلهيين فبسبب انه كان يعيش في بنى إسرائيل، وكان يحكمهم نبياً من الأنبياء، وفي يوم من الأيام جاء الوحي إلى ذلك النبي وأخبره بحلول أجله وأن عليه أن يسلم مقاليد الحكم إلى الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٠ شخص آخر تتوفر فيه هذه الصفات الثلاثة: أن يقوم في كل ليلة بالعبادة والصلاة، وأن يصوم كل يوم، وأن يحكم بين الناس دون أن يغضب، فقال شاب من المؤمنين: أنا تكفل بكل هذه الامور، قال ذلك واستمر على الوفاء بعهده والاتيان بهذه الثلاثة (مع جميع ما تتضمنها من مشاكل وصعوبات) وبذلك نال مقام النبي أيضاً فسمى: «ذى الكفل». أجل، فإن هؤلاء العظماء الثلاثة كانوا اسطورة للصبر والاستقامة بحيث إن القرآن الكريم جعلهم اسوة لجميع المسلمين في العالم وأشار إليهم بذلك في هذه الآية الكريمة. وتعرض «الآية الرابعة» إلى الحديث عن «قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام» ونقرأ في هذه القصة دروساً وعبراً مهمة ونافعة حيث جاء موسى عليه السلام إلى الخضر عليه السلام لطلب العلم وسأله أن يعلمه من العلوم والأسرار الإلهية، لأن هذه العلوم والأسرار هي غير «علم الشريعة» الذى تلقاه موسى عليه السلام بطريق الوحي وكان على اطلاع عام به، ولكن تلك العلوم والمعارف متعلقة بأسرار عالم التكوين والحوادث الواقعة في عالم الوجود، ولكن على أية حال فإن الخضر عليه السلام كان قلقاً من عدم تحمل موسى عليه السلام بهذه العلوم والمعارف وقال له كما تذكر الآية «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» (١). فكان أن وعد موسى عليه السلام معلمه بأن يصبر ويتريث ولا يعترض على شىء، ولكن الحوادث والوقائع التى رآها فيما بعد كانت عجيبة وغريبة إلى درجة أن موسى عليه السلام لم يطق صبراً إلى أن يخبره الخضر عليه السلام عن أسرارها، وفتح فمه بالاعتراض على معلمه، فما كان من الخضر عليه السلام إلا أن ذكره بوعدة بالصبر والتريث، فاعتذر موسى عليه السلام بذلك ولكنه في المرة الثالثة قرر الانفصال إلى الأبد. وهذه القصة العجيبة تتضمن دروساً ومعارف كثيرة، ولكن ما يرتبط ببحثنا هذا هو أن

موسى عليه السلام لو صبر أكثر ولم يعترض على الخضر عليه السلام لكان يكتشف أسراراً جديدةً ويزداد علماً إلى علمه، ولكن عدم صبره هذا تسبب بأن لا يتعلم سوى ثلاثة أمور فقط، في حين انه الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١١ وكما يقول بعض المفسرين المعروفين أن موسى عليه السلام لو صبر أكثر لكان يتعلم من الخضر عليه السلام آلاف الأسرار والمعارف الموجودة في عالم التكوين والخلق. وعلى هذا فإن الصبر يعد أحد مفاتيح العلوم والمعارف. ويمكن أن يتساءل البعض: ألم يكن الأنبياء أعلم الناس في زمانهم؟ فكيف طلب موسى من الله تعالى أن يتعلم بعض العلوم من الخضر وحتى انه فارقه بعد ذلك ولم يتعلم منه سوى بعض الامور والأسرار القليلة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، وهو أن كل نبي يجب أن يكون أعلم الناس بالنسبة إلى دائرة مهمته ووظيفته في تحمل مسؤولية الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى الحق، وهكذا كان موسى أعلم الناس بنظام الشريعة والدين، ولكن مسؤولية الخضر ودائرة علومه ترتبط بعالم التكوين وعمله وهو كعمل الملائكة «المدبرات أمراً» المأمورين بتدبير عالم الوجود، ولهذا فإن الأعمال التي صدرت من الخضر قد لا تكون مطابقة لموازين الشرع في الظاهر حتى أن موسى عليه السلام اعترض عليه في ذلك، ولكن عندما شرح الخضر عليه السلام الأسرار الكامنة في أعماله قبل موسى عليه السلام منه ورضى بذلك. وأساساً فإن القوانين الحاكمة على عالم التكوين رغم أنها تصب في نتيجة واحدة مع قوانين عالم التشريع إلا أنها منفصلة عنها في الظاهر، ولهذا السبب فإن صداقة موسى والخضر عليهما السلام لم تدم طويلاً. ومن الممكن أن يكون لبعض الأنبياء وكذلك الأئمة إحاطة بأسرار عالم التكوين أيضاً «كما يستفاد ذلك من الروايات بالنسبة إلى نبي الإسلام والأئمة المعصومين عليهم السلام» ولكن هذا الأمر لا لزوم له في توكيد مرتبة النبوة للأنبياء وكذلك مرتبة الإمامة للأئمة لأن ذلك يعد مجرد فضيلة لا شرطاً للرسالة والإمامة. «الآية الخامسة» تتحدث عن أحد أنبياء بني إسرائيل الذي ورد اسمه في التفاسير والتواريخ انه «اشموئيل» لكي يعين لهم رئيساً وقائداً للجيش ليحاربوا معه جالوت، فاختار الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٢ لهم رجلاً يدعى «طالوت» لانه يمتاز ببعض المميزات والصفات الإيجابية الموجودة فيه بتفاصيل قد تخرج عن موضوع هذا البحث. وعندما جاء طالوت بذلك الجيش العظيم من بني إسرائيل لحرب جالوت أدرك جيداً بفراسه من الله تعالى أن هذا الجيش العظيم غير قابل للاعتماد، لانه رأى كثيراً من أفراده يعيشون حالة الكسل والخمول وعدم الهمة، فمضافاً إلى أن وجودهم ليس فقط لا يبعث على تقوية الجيش، بل سيؤدي إلى تضعيف روحية الآخرين أيضاً، لذا عزم على تصفيه جيشه بالعديد من الاختبارات والامتحانات، وبعد أن نجح في ذلك وأتم اختباره لجيشه لم يبق منه إلا عده قليلة. وهذه الفئة القليلة كانت تعيش القلق والاضطراب من قلة الأفراد، فكان أحدهم يقول للآخر: نحن لا نستطيع مقاومة جيش جالوت العظيم ولا نتمكن من الصمود أمام قوته وجحافله، ولكن البعض منهم كما يقول القرآن الكريم «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (١). ثم إن هذه الفئة القليلة عندما برزوا لجالوت دعوا الله تعالى أن يرزقهم حسن الصبر كما تقول الآية: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (٢). وعلى هذا فقد اثبتوا أن الجماعة الكثيرة للجنود والجيش العظيم إذا كانوا فارغين من الدوافع المعنوية والاستقامة والصبر فإنهم سينالهم الفشل الذريع في ميدان القتال، بخلاف الفئة القليلة، التي تعيش الاستقامة والصبر والثبات فإنه يمكنها الانتصار على الجيش العظيم في العدة والعدد، وبذلك استطاعت هذه العدة القليلة مع قائدهم طالوت بالانتصار على جالوت وجنوده الكثيرين وبهزمهم شر هزيمة، وهناك قتل داود الذي كان شاباً قوياً في جيش طالوت، «جالوت» واستطاع بنو إسرائيل العودة إلى ديارهم وأهليهم فتخلصوا من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٣ سيطرة عدوهم جالوت وتحرروا من أسرهم، وبهذا فقد خلفوا للتاريخ البشري درساً آخر عن أهمية الصبر والاستقامة في سلوكهم العملي. ويستفاد من هذه الآيات الشريفة أن التوكل على الله بالإيمان بالآخرة والثواب الإلهي يشكل دعامة قوية للصبر والاستقامة في واقع النفس، ونقرأ في بعض الروايات أن عدد جيش جالوت ٣١٣ نفرًا كما كان أصحاب بدر كذلك في العدد، واللطف أن داود مع صغر سنه ولكنه كان مسلحاً بقوة الإيمان، وكان قد أخذ معه مقلعاً وعدة أحجار ورمى بأحدها باتجاه جالوت فأصابته بجبينه وخرّ جالوت صريعاً بسبب ذلك، فلما رأى جيشه ذلك أسرعوا بالفرار يحدوهم خوف عظيم وتلاشى ذلك الجيش

الكبير الذي يبلغ عدده كما ورد في بعض الروايات «منه ألف نفر» مسلحين بأنواع الأسلحة. وتعرض «الآية السادسة» خطاب الله تعالى للنبي الكريم صلى الله عليه وآله موصية له بالاستقامة وأن يقتدى بذلك بسيرة الأنبياء أولى العزم من قبله وتقول: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ...» (١). ورغم أن هذه الآية الشريفة تتحدث عن الصبر والتأني في مقابل طلب نزول العذاب الإلهي على المخالفين والأعداء إلى أن تتم الحجرة عليهم فلعله يوجد من بينهم من له رغبة في سلوك طريق الحق ويهتدى بالتالي إلى الإيمان ويكون في زمرة السعداء، ولكن هذا الأمر الإلهي بمثابة دستور عام ودليل واضح على فضيلة الصبر بعنوان منهج عام لجميع الأنبياء من أولى العزم. أجل فإن جميع الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع السماوية عندما كانوا يواجهون أعدائهم المعاندين والأشخاص الذين يعيشون الجهل والسفه والعناد كانوا يتسلحون بالصبر والاستقامة أكثر ليمكوا من هداية الأمة إلى ساحل النجاة بصورة أفضل. النبي نوح عليه السلام دعا قومه إلى طاعة الله «(٩٥٠ سنة)» ليل نهار في الخفاء والاجهار الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٤ ووعظهم وحذرهم طيلة هذه المدة المديدة ولكنه لم يؤمن له سوى بضعة أفراد معدودين. النبي إبراهيم عليه السلام ألقى في النار الملتهبة، والنبي موسى عليه السلام تعرض هو والمؤمنين من قومه إلى أشد العذاب من قبل فرعون وأتباعه، وكذلك ما واجهه عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل من الأذى والاتهام والطرده إلى أن أرادوا صلبه وقتله ولكن الله تعالى انقذه في اللحظة الأخيرة، والخلاصة أن الحياة الدنيا هي دائماً محل التضاد بين الحق والباطل حيث لا يمكن التغلب على المشكلات والمصاعب التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة إلباقوة الصبر والاستقامة. أمّا المراد من الأنبياء أولى العزم من هم؟ فقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به هم الأنبياء الذين يأتون بشريعة جديدة وعددهم مع نبي الإسلام خمسة أشخاص، وأما اختيار هذا الأسم والعنوان لهم فهو من أجل ارادتهم القوية وعزمهم القاطع في الدعوة إلى الحق وهداية الناس إلى الله تعالى، ولا شك أن هذه الفئة من الأنبياء كانوا يواجهون من المشاكل والمصاعب في حركة التغيير بالرسالة الإلهية أكثر من غيرهم، لأن عرض شريعة جديدة تتقاطع مع كل ما يألفه الناس من الشرائع والقوانين السائدة لديهم يتضمن مشكلات كثيرة وصعوبات يقوم بها المتعصبون من هذه الأقوام البشرية. وذهب بعض آخر إلى أن عددهم «(١٨ نفر)» حيث ورد اسمهم في الآيات ٨٣ إلى ٩٠ من سورة الأنعام، وذهب البعض الآخر إلى أنهم تسعة أشخاص، وآخرون إلى سبعة أشخاص، بينما ذهب البعض إلى ستة أشخاص، وبعض قال بأنهم خمسة أشخاص، وذكر آخرون أن جميع الأنبياء الإلهيين هم «اولى العزم»، لأنهم يرون أن جميعهم يتمتعون بالعزم الراسخ في أداء المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقهم، ولكن القول الأخير بعيد حسب الظاهر، وسائر الأقوال لا دليل عليها سوى ما ورد من الروايات الشريفة عن المعصومين عليهم السلام في تفسير هذه الآية وأن عددهم مع نبي الإسلام هو خمسة أشخاص. وأما «الآية السابعة» فتعود لتخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله من موقع الأمر بالصبر مقابل الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٥ استهزاء وتكذيب المشركين واذاهم وتقول: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا» (١). وقد ذكر المفسرون في تفسير «صبراً جميلاً» تفاسير مختلفة وقد تقدم البحث عنها في تفسير الآية الثانية في هذا البحث وستابع الكلام فيها في حديث آخر لاحقاً، ويقول الإمام الباقر عليه السلام في الجواب عن معنى الصبر الجميل في هذه الآية، «صَبْرٌ لَيْسَ فِيهِ شَكْوَى إِلَى النَّاسِ» (٢). وفي «الآية الثامنة» يخاطب الله تعالى جميع المؤمنين ويأمرهم بالصبر والمثابرة وأن ذلك هو مفتاح السعادة والنجاة ويقول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٣). فنقرأ في هذه الآية أربع أوامر تمثل مفتاح السعادة ومصدر الخيرات والبركات على الإنسان في حياته المادية والمعنوية. الأول: الصبر والاستقامة والصمود أمام الحوادث والمشكلات والمصائب والموانع التي يجدها الإنسان في حركته الدنيوية لتحديات الواقع وصعوبة الظروف. الثاني: المصابرة، وهي من باب «مفاعلة» وتأتي بمعنى الصبر والاستقامة مقابل صبر واستقامة الآخرين، وفي الحقيقة فإن الدستور الأول ناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام أنواع المشكلات والحوادث التي يفرضها الواقع على الإنسان، أما الدستور الثاني فناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام الأعداء، وعليه فكلما بذل الأعداء جهداً في سبيل المقاومة في ميدان القتال، فعلى المؤمنين أن يبذلوا جهداً أكبر من ذلك ويعيشوا الصبر بأقوى مما لدى العدو كي ينالوا النصر والغلبة عليه. «رابطوا» من مادة «مرابط» وهي في الأصل من «رباط» بمعنى شد الشيء إلى مكان معين، وتستعمل هذه

المفردة «مرابطة» عادةً بمعنى مراقبة الحدود والثغور لأن جنود الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤١٦ الإسلام يضعون مراكبهم وأدوات حربهم وامتعهم في ذلك المكان. وآخر دستور إلهي في هذه الآية هو الأمر بتقوى الله الذي هو من قبيل الخيمة التي تستوعب بظلالها جميع الأوامر والندساتير السابقة، فعندما يكون الصبر والمصابرة والمرابطة من أجل الله وبعيداً عن أى أشكال الرياء والأمراض الشخصية وتكون مقترنة بالتقوى فإن ذلك سيتسبب في الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة. بعض المفسرين ذكر في تفسير «المصابرة» أنها الصمود ومقاومة العادات والأهواء النفسانية، لأنها تقف في المقابل أمام الإنسان لتمنعه من سلوك طريق الهدى والصلاح والسير في خط التقوى والإيمان، فيجب على الإنسان أن يقف في مقابلها بالمثل، وقالوا في تفسير «المرابطة» أن المراد منها هو ربط النفس بطاعة الله أو ربط القلب بالله تعالى وقد نقل عن أحد العرفاء انه كان يتجه إلى الحج مشياً على الأقدام، فالتقى بأعرابي راكباً جملة فقال له الأعرابي: أين تذهب يا شيخ؟ فقال له: إلى بيت الله الحرام. فقال: لماذا أنت راجل؟ فقال: بل لدى مراكب كثيرة، فتعجب الأعرابي من ذلك فسأله: وما هي هذه المراكب؟ فقال العابد: عندما تنزل على مصيبة فسأركب مركب الصبر، وعندما تنزل على نعمة أركب مركب الشكر، وعندما يداهمنى القضاء والقدر أركب مركب الرضا، وعندما تطغى نفسى وتطلب منى شيئاً فأعلم أنه لم يبق من عمرى شىء وما مضى منه أكثر ممياً بقى. فقال الأعرابي: فى الواقع أنت الراكب وأنا الراجل والسلام عليكم، فودعه وانصرف.

«الآية التاسعة» تخاطب جميع المؤمنين بتعبير جديد وتتحرك ضمن توصيتهم بأن يلتزموا الصبر ويستعينوا بالاستقامة والتحمل في مقابل تحديات الواقع الصعبة والمشكلات المفروضة عليهم وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (١). وهذه الآية لها مفهوم واسع بحيث تشمل كل أشكال الصبر والاستقامة، سواء الصبر على الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٤١٧ الطاعة أو الصبر على المعصية أو الصبر على المصيبة، فوجب على الإنسان أن يستعين بكل عمل مهم بالصبر سواء كان ذلك العمل هو الجهاد فى سبيل الله أو غير ذلك، فلا بد من الاستعانة بأحد أقسام الصبر بما يتناسب مع المشكلة التي تواجه الإنسان. ولا بد من القول فى من فسّر الصبر بالصوم أن الصوم أحد المصدايق البارزة للصبر لأنه يستوعب جميع مفهوم الصبر فى هذه الآية الشريفة. وهنا يثار سؤال، وهو أنه ما هى الرابطة بين الصبر بمعناه الواسع، وبين الصلاة؟ ذكر بعض المفسرين فى مقام الجواب أن الرابطة بينهما هو أن الإنسان قد يفقد صبره أحياناً أو يتضعع أمام المشكلات وضغط الواقع الصعب فتأتى الصلاة لتمنحه قوة القلب الإرادة والعزم والتوكل على الله تعالى، وبذلك فإن الصلاة تزيد الإنسان قوة فى عملية الصبر والمقاومة. وبتعبير آخر: عندما يتجه الإنسان إلى البارى تعالى من خلال الصلاة فإنه يجد نفسه مرتبطاً بالقدره اللامتناهية والحق الأزلى، وهذا العمل يزيد من مقاومة الإنسان فى مقابل المشكلات بحيث يبلغ به مرتبه أن يتغلب على جميع ما يواجهه من صعوبات ومشاكل ويستمر فى خط الاستقامة والتحمل والمثابرة، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وأحياناً عن أمير المؤمنين عليه السلام، وكلا الحديثين صحيحان من حيث السند: «إِذَا أَهَالَهُ أَمْرٌ فَرِحَ، قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَى هَذِهِ الْآيَةَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» (١) «٢». وعلى أية حال فإن هذه الآية من أوضح الآيات القرآنية التي تبين أهمية الصبر وكونه عاملاً مهماً فى نجاح الإنسان فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية. «الآية العاشرة» تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه وآله «من جانب الله تعالى» بأن يقول لجميع عباده المؤمنين: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَلَئِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَلْيَمْسِكُوا بِهَا صَافِرِينَ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّابِرِينَ ۗ» (١). وهذه الآية الشريفة تدل من جهة على أن الإنسان يجب عليه أن يستعين بقوة الصبر والاستقامة فى مقابل الصعوبات التي يفرضها الواقع وتفرضها عليه عملية الصراع مع الظالمين والجبابرة، لأنه بدون ذلك فلا يوجد منفذ أمام الإنسان سوى الاستسلام للظالمين وقوى الانحراف والخضوع لهم. ومن جهة اخرى فإنها تشير إلى ثواب الصابرين عند الله وأنه لا يقبل العد والحساب. عبارة «بغير حساب» تشير إلى أن الله تعالى سوف يجازى هؤلاء الصابرين بالثواب العظيم إلى درجة أن أحداً لا يقدر على عدّه واحصائه إلا الله تعالى، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن رسول الله أنه قال: «إذا نشرت الدواوين ونُصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان، ثم تلا هذه الآية: إِنَّمَّا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (٢). وهذه العبارة «بغير حساب» وردت فى



آيات متعددة أغلبها يتعلق بالرزق الدنيوي الكثير الذي يهبه الله تعالى لبعض الناس، ولكن فقط في هذه «الآية ٤٠ من سورة المؤمن» فتحدثت عن الثواب الإلهي للمؤمن والصابر يوم القيامة، ومن المعلوم انه إذا كان الرزق الدنيوي بدون حساب فإن ذلك لا يعنى انه يتناسب مع كمية العمل أو كفيته، بل يتناسب مع لطف الله تعالى وعنايته لعبده، وبالتالي تكون ثمرته سامية جداً في مقام القرب الإلهي والكمال المعنوي. ونقرأ في «الآية الحادية عشر» تعبيراً جميلاً جداً عن أهمية الصبر والاستقامة، وذلك أن الملائكة عندما تستقبل أهل الجنة من كل باب يردون إليها يقولون لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا إِخْلَقْنَا فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٤١٩ صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١). واللطف أن الملائكة هنا أشاروا من بين جميع الأعمال والطاعات والعبادات التي أتى بها أهل الجنة إلى الصبر والاستقامة لأن ذلك كان سبب دخولهم الجنة، ولو دققنا النظر لرأينا أن الصبر بحد ذاته له دور مهم في سعادة الإنسان ونجاته في الآخرة ودخوله الجنة لانه بدون الصبر فلا يستطيع الإنسان أن يتوقى من الذنوب ولا يؤدي العبادات والطاعات ولا جهاد النفس أو جهاد الأعداء، ولهذا السبب فإن الملائكة في أول سلام وتبريك لهؤلاء ذكروا مسألة الصبر. والشاهد على هذا الكلام أن جميع الطاعات يأتي بها الإنسان في ظل عنصر الصبر ونقرأ في الآية ٢٢ من هذه السورة قوله تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُتُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ...». وجاء في تفسير هذه الآية حديثاً جميلاً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة ينادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم جمعي من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا، قال علي بن الحسين عليه السلام: فتقول لهم الملائكة: «سلام عليكم بما صبرتم فنعمة أجر العاملين» (٢). وذكر بعض رواة هذا الحديث أن الملائكة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» (٣). «الآية الثانية عشر» تكرر هذا المطلب بصورة جذابة، وهذه الآية هي استمرار للآيات الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٠ التي تحدثت عن صفات «عباد الرحمان» واستعرضت في سياقها اثني عشر صفة ايجابية تبين شخصيتهم السامية في جميع الأبعاد «وَأُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا» (١). «غُرْفَةٌ» من مادة «غَرَفَ» على وزن «ظرف» بمعنى حمل الشيء وأخذه باليد ولذلك يقال لمن يتناول الماء من العين بيده انه: اغترف من الماء، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الأقسام العلوية من البناء فيقال لها «غرفة» وفي هذه الآية اطلقت هذه الكلمة على أعلى المنازل في الجنة وأنها من نصيب الصابرين. ويستفاد من تعبير الآية أعلاه أن الصبر هو العنصر المشترك الممتد في جميع الصفات الاثني عشر لهؤلاء العباد المخلصين «عباد الرحمان». وتأتي «الآية الثالثة عشر» وهي من الآيات المعروفة في مسألة الصبر لتشير في أجواء الصابرين البشارة بالثواب الإلهي الجزيل وتقول: «وَلَتَبْلُغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ \* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» (٢). وبالرغم من أن هذه الآيات تشير إلى غصن واحد من اغصان شجرة الصبر، وهو الصبر على المصائب والمشكلات، ولكن تتضح أهمية ذلك من خلال ما يترتب على هذا اللون من الصبر من صلوات الله ورحمته على هؤلاء الصابرين وأنهم يسرون في خط الهداية والاستقامة والتوجه إلى الله تعالى من خلال حالة الاستقامة والصبر أمام البلاء والمصائب. فنظراً إلى أن الامتحان الإلهي للإنسان في هذا العالم الدنيوي يُعد من السنن الحتمية في عالم التكوين، وأن العبور من هذا النفق والوادي العسير لا يتسنى إلا بالاستعانة بالصبر، الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢١ وحينئذ يتضح دور الصبر والاستقامة في حركة الحياة الدنيوية والنتائج المترتبة على ذلك، فما أعظم أن يجد الإنسان نفسه مشمولاً بثلاث عنايات إلهية في مقابل الصبر وهي: الاولى: الصلوات والتحيات الإلهية من النوع الذي يصلى فيه الله تعالى على نبيه الكريم، ثم شمول رحمته الواسعة لهذا الإنسان ودخوله في دائرة اللطف الإلهي، والأهم من ذلك أن الهداية الإلهية ستكون من نصيب هؤلاء والتي هي مصدر جميع النعم والمواهب وأشكال السعادة الدنيوية والاخروية. وأما لماذا وردت كلمة «صلوات» بصورة جمع؟ هنا ذكر تفسيران كل منهما محتمل في معنى الآية، الأول أن ذلك إشارة إلى أنواع الاكرام الإلهي والاحترام الرباني لهؤلاء، والآخر انه إشارة إلى تكرار

هذه العملية وأن الله يصلي عليهم عدّة مرّات، أما التعبير بالرحمة بصورة نكرة فهو إشارة إلى الأهمية والعظمة لهذه النعمة. وأما الفرق بين الصلوات والرحمة فقد ذكر البعض أن الصلوات إشارة إلى مدح الله ولطفه ومغفرته، في حين أن الرحمة إشارة إلى النعم المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة. «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات مورد البحث والتي وردت في سورة العصر فإنها ضمن بيان هذه الحقيقة، وهي أن جميع الناس سيكون مصيرهم إلى الخسران حتماً ما عدا الأشخاص الذين يتمتعون بأربع صفات، وأحدها: الصبر والاستقامة وتقول «وَالصَّابِرِينَ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* أَلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (١). جملة «تواصوا» من مادة «تواصى» وتشير إلى انه ينبغي على المؤمنين بعد الإيمان والمعرفة والعمل الصالح أن يتحركوا من موقع التكاتف والتعاون لاحقاق الحقوق والانصاف والعدالة في التعامل مع الغير والتوصية بذلك فيما بينهم، لأنّ إحقاق الحقّ واجراء العدالة في المجتمع الإنساني لا يتسنى إلا بالاستقامة والصبر أمام تحديات الواقع الصعبة الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٢ والموانع العسيرة، ولذلك أوصت الآية الشريفة بالصبر على مستوى العامل الرابع من العوامل المؤدية إلى النجاة، وفي الحقيقة أنّ هذا العامل هو دعامة وأساس للعوامل الثلاثة الأخرى، وعليه فإنّ الصبر يعد أحد الأركان الأصلية لسعادة الناس وتحركهم في خطّ الإيمان وتعميق شجرة الأخلاق والصالح في قلوبهم، وبدونه سوف لا- تثمر القيم الأخلاقية والأعمال الصالحة في واقع الإنسان والمجتمع شيئاً، ولا يمكن احقاق الحقوق واجراء العدالة في المجتمع البشري، ولا شكّ أنّ احقاق الحقوق واجراء العدالة يعد من أهم الامور والوظائف، لأنّه أحياناً يكون الحقّ في الطرف المقابل للإنسان أو لأحد أحبته وأقربائه، وهنا تكون اجراء العدالة والعمل بالحقّ بحاجة إلى الاستمداد والاسترفاد من عنصر الصبر. ومن مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة تتضح هذه الحقيقة، وهي أنّ أهمية الصبر والاستقامة والمثابرة في خطّ العدالة والحقّ إلى درجة من الأهمية أكثر ممّا نصور، وكما يقول بعض المفسّرين أنّ الصبر في القرآن الكريم ورد أكثر من سبعين مرّة أو تكرر بما يقرب من مئة مرّة، في حين اننا لا نجد فضيلة من الفضائل الأخلاقية والإنسانية قد وردت بمثل هذا التأكيد في الكتاب العزيز، وهذا إنما يدلّ على أنّ القرآن الكريم يولى هذه الفضيلة الأخلاقية أهمية كبيرة ويعدها عصارة جميع الفضائل والأساس لجميع أشكال السعادة الدنيوية والآخرية والاداة الحاسمة للوصول إلى أي نوع من أنواع الفلاح والنجاح والموفقية.

### الصبر في الأحاديث الإسلامية:

وكما يقول بعض علماء الأخلاق أنّ الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في فضيلة الصبر والاستقامة أكثر من أن تحصى وقد ورد في بعض الكتب الأخلاقية ما يقرب من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٣ تسعمائة حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام في هذا الموضوع، ولذلك نختار بعض النماذج من هذه الأحاديث الشريفة لنستوحي منها درساً في هذه الفضيلة: ١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله «الصَّبْرُ خَيْرٌ مَرَكَبٍ مَا رَزَقَ اللَّهُ عَبْدًا خَيْرًا لَهُ وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» (١). وعبارة «خيرٌ مركب» الواردة في هذا الحديث الشريف تشير إلى أنّ الصبر هو أفضل وسيلة للوصول إلى السعادة والنجاة وأنّ الإنسان بدونه لا يصل إلى شيء من المقامات الاجتماعية والمعنوية في الدنيا والآخرة. ٢- وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ» (٢). وهذا الحديث يدلّ على أنّ الصبر يعد مفتاحاً لجميع الأبعاد الحيوية في حركة الإنسان المادية والمعنوية، ولهذا ورد في ذيل الحديث المذكور «لا إيمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ». ٣- وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «لا- يَعِيدُ الصَّبْرُ الظَّفَرَ وَإنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ» (٣). ومع الالتفات إلى أنّ الصبر ذكر هنا بشكل مطلق وكذلك الظفر والنصب، فهذا يدلّ على أنّ هذه الحكم يستوعب جميع الأبعاد المادية والمعنوية في حياة الإنسان. ٤- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في باب الصبر «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ» (٤). وجاء في بعض الروايات الأخرى أنّ نصف الإيمان هو الشكر والنصف الآخر هو الصبر. أي الصبر والاستقامة للوصول إلى النعم والمواهب الإلهية ثمّ الشكر على هذه النعمة، أي الاستفادة الصحيحة من المواهب والنعم الإلهية. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٤ ومن الواضح أنّ هذا الحديث لا يتنافى مع الأحاديث السابقة، لأنّه كما تقدّم أنّ المؤمن

إذا لم يتمسك بالصبر فإن إيمانه سوف يتعرض للاهتزاز والارتباك بسبب الموانع الكثيرة التي يجدها في طريقه، وكذلك لو لم يكن شكوراً على نعم الله تعالى، فإن هذه النعم ستزول وتهرب من يده كما ورد في الآية: «وَلَيْتَن كَفَرْتُمْ أَنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ». ٥- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الصَّبْرُ كَثْرٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» ١. «١». ٦- ودليل هذا المعنى ما ورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يوضح هذا المعنى ويقول «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ» ٢. «٢». لأنه كما تعلمون أن نظام الحياة في الدين والدنيا يضع أمام كل عملٍ مهم بعض الموانع التي لا يتجاوزها ولا يعبرها إلا بالاستعانة بالصبر والاستقامة. ٧- أما بالنسبة للصبر عند المعصية فورد في الحديث الشريف «وَمَنْ صَبَرَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ٣. «٣». أجل فكليهما مجاهد في سبيل الله، مع فارق أن أحدهما يجاهد العدو الخارجي «الجهاد الأصغر» والآخر يجاهد العدو الداخلي «الجهاد الأكبر». ٨- وورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين قوله: «أَنْ صَبَرْتَ أَدْرَكَتْ بِصَبْرِكَ مَنَازِلَ الْإِبْرَارِ وَأَنْ جَزَعْتَ أَوْ رَدَكَ جَزَعَكَ عَذَابِ النَّارِ» ٤. «٤». ٩- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال في الصبر في مقابل البلياء والمصائب «مَنْ ابْتُلِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الْفِ الشَّهِيدِ» ٥. «٥». ويقول العلامة المجلسي بعد ذكر هذا الحديث في الجزء ٦٨ من بحار الأنوار انه كيف يعقل أن للصبر مثل هذا الثواب في حين أن للشهيد بنفسه أحد الصابرين لانه صبر أمام الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٥ العدو حتى استشهد؟ ويمكن في مقام الجواب عن هذا السؤال أن نقول: إن الشهيد يصبر أمام هجوم الأعداء، وهؤلاء الصابرون إنما يصبرون في مقابل الصعوبات المرة التي تعترضهم في الحياة من قبيل أنواع المرض، الفشل، وفقد الأحبة وأمثال ذلك. والدليل الآخر على أفضلية الصابر بالنسبة إلى الشهيد هو أن الشهادة تحدث مرة واحدة للإنسان، ولكن صعوبات الحياة تتكرر آلاف المرات. ١٠- ويقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالنسبة إلى الثواب المعنوي للصابرين «مَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ وَاعْطِيَ فَشَكَرَ وَظَلِمَ فَغَفَرَ وَأُولِيَكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ١. «١». ١١- ويقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «الصَّبْرُ يُظْهِرُ مَا فِي بَوَاطِنِ الْعِبَادِ مِنَ التُّورِ وَالصَّفَاءِ وَالْجَزْعِ يُظْهِرُ مَا فِي بَوَاطِنِهِمْ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشَةِ» ٢. «٢». ١٢- ونختم هذا البحث عن أحاديث الصبر بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُؤُا وَالْقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُؤُا» ٣. «٣».

### معطيات الصبر ونتائجها:

كما تقدّم في المباحث السابقة فإن طبيعة الحياة الدنيا تقترن بالموانع والمشكلات والبلياء، فلو أن الإنسان لم يلتزم بالمقررات والقوانين التي تنسجم مع هذه الحياة ويحل بذلك ما يواجهه من مشكلات فإنه سوف لا يصل إلى مقصده ولا يحقق غايته، وكذلك فإن الآفات والمصائب موجودة في ضمن النعم والمواهب وتتسبب في فقدانها أو الاضرار بها من الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٦ قبيل المصائب التي تواجه الإنسان في أولاده وأقربائه وأمثال ذلك. فالإنسان بدون الاستعانة بالصبر والاستقامة سوف لا يتمكن من سلوك طريق الكمال والسعادة في بعده الإيجابي، وكذلك لا يتمكن من الصمود أمام عناصر الشر في حركة الحياة، ولهذا السبب فإن المفتاح الأصلي للموفقية والنجاح في الحياة هو الاستعانة بالصبر والاستقامة، وبما أن الدين هو عبارة عن مجموعة الواجبات والمحرمات، أو الطاعات وترك المعاصي، فإن الإيمان والالتزام بالدين لا يكون ولا يتحقق بدون الصبر والاستقامة، لانه وطبقاً لما تقدّم من البيان فإن الصبر بالنسبة للإيمان كالرأس بالنسبة إلى الجسد، ولذلك ورد في بعض الأحاديث الإسلامية «ومنها الأحاديث الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام» أن الصبر قرين الظفر «الصَّبْرُ الظَّفَرُ» ١. «١». ونقرأ أيضاً في الآيات القرآنية أن الشرط المهم لانتصار المجاهدين في سبيل الله هو الصبر والاستقامة في هذا الطريق ومن ذلك قوله تعالى «... إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَا تَبَيْنَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَا نَفَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ٢. «٢». ما هذه القوة التي تمنح رجلاً واحداً القدرة على مقابلة عشرة أشخاص، وتمنح مئة شخص القدرة على مقابلة ألف شخص؟ إن هذه القوة هي قوة الصبر والاستقامة التي ورد التصريح بها في الآية الشريفة. فالأشخاص الذين يعيشون ضعف الإرادة وقلّة العزيمة سوف يواجهون الحوادث والمشاكل من موقع الازعان والخنوع أو يديرون ظهورهم لها ويجمعون عن مقاومتها، ولكنه لا الدنيا تتحقق للإنسان بدون الصبر والاستقامة ولا الآخرة، ولهذا السبب فان الشعوب

التي حَقَّت تقدماً علمياً وتطوراً حضارياً فإنما تحقق لها ذلك بواسطة الاستقامة والمثابرة والصبر، ويذكر في حالات العلماء الكبار، سواءً الشخصيات الدينية التي فتحت أبواب العلوم والمعارف الدينية أمام الناس، أو علماء العلوم الطبيعية الذين حققوا للبشرية الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٧ اكتشافات واختراعات مهمّة، أنّهم كانوا يعيشون قبل كل شيء حالة الصبر والاستقامة والمثابرة في أعمالهم ودراساتهم، فأحياناً يضطر أحد العلماء للكشف عن قانون علمي إلى اختيار العزلة والانزواء في المكتبة أو المختبر لعدّة سنوات حتّى يوفق أخيراً إلى هدفه واكتشافه. وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَكِبَ مَرَاكِبَ الصَّبْرِ اهْتَدَى إِلَى مَيْدَانِ النَّصْرِ» (١). وكذلك ورد عن هذا الإمام قوله «مِفْتَاحُ الظَّفَرِ لُزُومُ الصَّبْرِ» (٢). ومن جهة أخرى نجد أنّ الأشخاص الذين يشكون ضعف العزم وقلة الصبر والاستقامة فإنهم يتلوثون بسرعة بأنواع الذنوب، لأنّ الذنوب لها جاذبية قوية للنفس الأمارّة في الإنسان، فلو لم تكن في الإنسان قدرة على مقاومتها لأسرع الإنسان الخطي في منزلقات الانحطاط والرديلة. وورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله «كَمْ مِنْ صَبْرٍ سَاعِيَةٍ قَدْ أُوْرَتْتْ فَرَحًا طَوِيلًا وَكَمْ مِنْ لَمَدَةٍ سَاعِيَةٍ قَدْ أُوْرَتْتْ حُزْنًَا طَوِيلًا» (٣). ومن الممكن أن يبتي الإنسان في مسيرة حياته بأنواع الضرر والخسارة المادية والمعنوية والاجتماعية، مثلاً بالنسبة إلى موت الأحبة يجب القول: إن هؤلاء الأحبة من الأصدقاء والاقرباء لم يتولدوا في وقت واحد وسوف لا يرحلون من هذه الدنيا في وقت واحد أيضاً، فهناك من يرحل قبل الآخر وهناك من يتأخر، والأشخاص الذين يرحلون من هذه الدنيا أسرع سوف يخفون في قلوب أحبّتهم حالات الغم والحزن على فراقهم، فلو أنّ الإنسان لم يتحل بالصبر فسوف يفقد سلامته النفسية وصحة الجسمية ويعيش اليأس في الحياة ويتأخر عن القافلة. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٨ أجل فإنّ الصبر مع وجود جميع هذه الحوادث والمصاعب يمنح روح الإنسان وقلبه القدرة على الاستمرار في حركة الحياة وإدامة السلوك في خطّ التكامل الإنساني. وقد رأينا في الأحاديث السابقة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول إنّ ثواب الصبر لدى الشيعة مقابل المصائب والبلايا يعادل ثواب ألف شهيد، وهذا المعنى يدل على ما تقدّم آنفاً من أهمية الصبر. والخلاصة هي إنّنا كلّما تحدّثنا عن أهمية الصبر ودوره في الصعود بالإنسان في مدارج الكمال المادي والمعنوي، الدنيوي والأخروي، فلا نصل إلى غايه الكلام ولا نحيط بتمام الموضوع، ولهذا فلا ينبغي أن نتصور أنّ ما ورد في الروايات الشريفة عن ثواب الصابرين هو مبالغة في الكلام، وبعبارة أخرى: يمكن التمسك بالحديث الشريف الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال «أَنَّهُ مَنْ صَبَرَ نَالَ بِصَبْرِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَدَرَجَةَ الشَّهِيدِ الَّذِي ضَرَبَ بِسَيْفِهِ قُدَّامَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

### أقسام الصبر:

وقد ورد في الكثير من كتب الأخلاق وكلمات علماء الأخلاق أنّ الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ١- الصبر على الطاعة. ٢- الصبر على المعصية. ٣- الصبر على المصيبة. والمراد من «الصبر على الطاعة» هو مقاومة المشكلات التي تعترض طريق الطاعة لله تعالى وامثال أوامره من قبيل أداء الصلاة والصوم والحجّ والجهاد ودفع الحقوق المالية مثل الخمس والزكاة، وكذلك الصبر والاستقامة مقابل المشكلات التي تقع في طريق طاعة الأوامر الاستجابية والتي تستوعب دائرة عريضة، والمقصود من «الصبر على المعصية» هو الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٢٩ الوقوف أمام الأهواء والدوافع النفسية والنوازع الدنيوية التي تستعر في قلب الإنسان وباطنه، وقد تستعر نيرانها إلى درجة أن تتحول إلى اعصار يدمر جميع عناصر الخير في الإنسان، ويتلف ما لديه من الإيمان والتقوى والطهارة والصدق والصفاء وأمثال ذلك. والمقصود من الصبر على المصيبة هو أن يتحلّى الإنسان بالصبر في حياته مقابل الحوادث المؤلمة من قبيل فقد الأحبة، الخسارة المالية الكبيرة، وقوع شخصيته وسمعته الاجتماعية في الخطر، وقوع الإنسان في مخالاب المرض العسير والمؤلم، والابتلاء برفاق السوء أو الشريك الخائن أو الحكومة الظالمة وأحياناً الزوج والزوجة الفاسدة وأمثال ذلك. وقد أورد علماء الأخلاق هذا التقسيم للصبر اقتباساً من الروايات الشريفة كما ورد في الحديث الشريف النبوي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ، صَبْرٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثَ

مَائَةٌ دَرَجَةٌ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتِّ مَائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تَحُومِ الْأَرْضِ إِلَى الْعَرْشِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَ مَائَةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تَحُومِ الْأَرْضِ إِلَى مُتَهَيِّ الْعَرْشِ» (١). ويستفاد من عبارات هذا الحديث الشريف الصبر على المعصية أهم من الجميع، ثم الصبر على الطاعة، ثم الصبر على المصيبة اللمدى يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية والثواب. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديث آخر بعد أن يقسم الإيمان إلى أربع «الصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ، عَلَى الشُّوقِ وَالشَّفَقِ وَالرُّهْدِ وَالتَّرْقُبِ» (٢). ومع قليل من التأمل يتضح أن هدف الإمام عليه السلام من هذا البيان هو شرح دوافع الصبر والاستقامة لا فروعه وأغصانه، وهو مثل ما تقدم من الحديث النبوي الشريف.

### دوافع الصبر والاستقامة:

إن العوامل والعناصر التي تمنح الإنسان القدرة على الصبر مقابل مشكلات الطاعة وترك المعصية أو مقابل المصائب هي كثيرة، ولكل واحد منها تأثير خاص في تقويته وتعميق هذه الفضيلة الأخلاقية في واقع النفس، وأهمها: ١- تقوية دعائم الإيمان واليقين في القلب، وخاصية مع ملاحظة هذه النكته، وهي أن الله تعالى هو أرحم الراحمين وهو المتكفل لرعايته مصالح عباده والعناية بهم، ومن هذا المنطلق قد يتلى الإنسان ببعض الحوادث التي تكون أسرارها ومنافعها خفية على الإنسان ليقوى به روح الصبر، وهنا ينبغي الالتفات والتفكير بالثواب العظيم الذي أعده الله تعالى للمطيعين والورعين عن ارتكاب المعاصي فإن ذلك من شأنه أن يرسخ في عزم الإنسان عنصر الصبر والاستقامة. ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «أَضَلُّ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ» (١). وبديهى انه كلما اشتد إيمان الإنسان وكثرت معرفته بحكمه الله ورحمته فإن صبره سيزداد تبعاً لذلك، وبتعبير آخر: أن تحمل الصبر سيكون أسهل وأيسر، ولهذا ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه «أَنَا صَبْرٌ وَشَيْعَتُنَا اصْبِرُوا مِنَّا» فقال له الراوى: جعلت فداك كيف يكون شيعتكم أصبر منكم؟ فأجابه الإمام عليه السلام «لَأَنَا نَصْبِرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشَيْعَتُنَا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُونَ» (٢). ٢- إن تحصيل ملكة الصبر واكتساب هذه الفضيلة حاله حال الفضائل الأخلاقية الأخرى لا بد فيه من الممارسة والتمرن ومقابلة الحوادث الصعبة ومواجهة التحديات المفروضة على الإنسان، ولهذا ورد عن أمير المؤمنين قوله «مَنْ تَوَالَّتْ عَلَيْهِ نَكَابَاتُ الزَّمَانِ اكْتَسَبَتْهُ فَضِيلَةُ الصَّبْرِ» (٣). وبعبارة أخرى: إن الإنسان في بداية مواجهته للمصيبة قد يصرخ ويحزن بشدة، وكذلك الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣١ عندما يتحرك في خط الطاعة والاتيان بالعبادة فإنه قد يواجه مشكلة من ثقل هذه العبادة ويشعر بالتعب، ولكن تكرار هذه الحوادث وممارسة هذه العبادات سوف تكسبه بالتدريج فضيلة الصبر وتمنحه القوة في ذاته على الاستمرار في خط الاستقامة. ٣- ومن العوامل المهمة في تقوية ملكة الصبر في الإنسان أن يلتفت الشخص إلى هذه الحقيقة، وهي أن الدنيا دار الحوادث والمشكلات، ولا يتسنى له الحصول على أية موهبة من المواهب المادية والمعنوية من دون عبور هذه الموانع المختلفة والتغلب على تلك المشكلات، وأيضاً يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهي أن الأفراد الذين يعيشون النزق وقله الصبر وسرعة الانفلات لا يصلون إلى مرتبة من مراتب الكمال النفسى والاجتماعى، كل ذلك من شأنه أن يقوى في الإنسان العزم والإرادة والصمود أمام المشكلات والحوادث. وكما تقدمت الإشارة إليه انه لا بد لقطف الورد من تحمل ألم الوخزة، ولتناول جرعة من العسل لا بد من تحمل لسع النحل، وأن الكنوز موجودة عادة في الخراب، والجنة كامنة في أعماق المشاكل والحوادث المؤلمة. ومن المعلوم أن كل إنسان يتفكر جيداً في هذه الامور فإنه سيجد في نفسه القدرة على الصبر أكثر وتعمق فيه هذه الفضيلة الأخلاقية، ومن ذلك ورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لِكُلِّ نِعْمَةٍ مِفْتَاحٌ وَمِعْلَاقٌ وَمِفْتَاحُهَا الصَّبْرُ وَمِعْلَاقُهَا الْكُسَلُ» (١). ٤- وأحد العوامل والدوافع الأخرى للصبر وسبيل تقويته في وجود الإنسان هو أن يتشبه الإنسان بالصابرين، وهذا الأمر يصدق على جميع الفضائل الأخلاقية، فكلمة تحلى الإنسان في الظاهر بصفة معينة فسوف تنفذ وتمتد إلى باطنه بالتدريج ويكتسب بذلك هذه الملكة. وورد في حديث شريف عن

رسول الله صلى الله عليه وآله «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يَغْفِرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنْ الصَّبْرِ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٢-٥- الصبر له علاقة وثيقة بسعة وجود الإنسان وشخصيته، فكلمة اتسعت ظرفية الإنسان وقويت شخصيته فإنه يعيش الصبر والاستقامة أكثر وأشد، ولهذا السبب فإن الأطفال وكذلك الكبار الذين يعيشون حالة الطفولة يجزعون لأقل حادثه، في حين أن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية قوية وسعة صدر فإنه يهضمون المشكلات ويتغلبون عليها. إن المسيح الصغير قد يتماوج بأدنى نسيم وأقل ريح بينما البحر الكبير لا يتماوج بهذه السهولة، وإنما سمي أكبر المحيطات في الدنيا بالمحيط الهادي لأن هيجان أمواجه هي أقل من هيجان الأمواج في المحيطات الأخرى. إن مطالعة سيرة الشخصيات المهمة في التاريخ البشري وخاصة الأنبياء والأولياء الإلهيين الذين وصلوا إلى مقامات عالية ومراتب سامية في دائرة الكمال المعنوي بسبب الصبر والاستقامة، يمكنها أن تكون من العوامل المؤثرة في تقوية هذه الملكة الحميدة في الإنسان ويكون دافعاً له على التحلي بهذه الفضيلة أسوةً بهؤلاء العظام. إن مسألة الصبر والاستقامة مقابل الحوادث المؤلمة والمشكلات الكبيرة التي تواجه الإنسان في حركة الحياة لا تقتصر على البعد الأخلاقي والمعنوي فحسب بل هي مؤثرة بالنسبة إلى سلامة البدن وقواه الحيوية، فالأشخاص الذين لا يملكون حالة الصبر أمام الحوادث فإن حياتهم عادةً تكون مقترنة بأنواع الأمراض وأهمها الأمراض القلبية والعصبية، في حين أن الصابرين يتمتعون بعمر طويل مع سلامة بدنية نسبية، ولذلك فإن علماء النفس يرون أن الدين بصورة عامة «والذي يقوى في الإنسان حالة الصبر أمام المشكلات» يعد أحد شروط سلامة الجسم والصحة النفسية. وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فَلْيَعِدِّ لِلْمَصَائِبِ قَلْبًا صَبُورًا» (١). «الجزع» يقع في النقطة المقابلة للصبر، وهو الحالة النفسية التي لا تنضبط فيها النفس أمام الحوادث والمشاكل بحيث يعيش الإنسان الرضوخ والإذعان بالأمر الواقع وتحدياته الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٣ الصعبة وتملكه حالة اليأس من الخلاص، أو تمنعه هذه الحالة من التحرك والسعي نحو المقصود والهدف. إن الجزع يعد من اشنع الصفات الأخلاقية وأسوأ الحالات النفسية للإنسان حيث تفضي به إلى الشقاء في الدنيا والآخرة وتمنعه من تحصيل المقامات والمراتب العالية في معراج الكمال، وتؤدي كذلك إلى فقدان شخصيته وحيثيته في المجتمع وتكون حياته مليئة بالمنغصات والمؤلمات فلا يرى للراحة والسعادة وجهاً. وقد وصف القرآن الكريم الإنسان في سورة المعارج بأنه موجود حريص وقليل الصبر عندما يدهمه بلاءٌ وسوء، وعندما يحصل على شيء من النعمة والخير فإنه يتحرك فيه عنصر البخل ويمنعه من البذل والعطاء كما تقول الآية: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا\* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا\* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا\*» (١). والمراد من الإنسان في هذه الآية «كما وردت هذه الكلمة في آيات قرآنية أخرى تصف الإنسان بصفات سلبية مشابهة» هو الإنسان الذي لم يصل بعد إلى مستوى النضج الأخلاقي والعاطفي ولم يسلك في خط تهذيب النفس، ولذلك ورد في ذيل هذه الآيات استثناء الأشخاص الذين يعيشون الإيمان ويسلكون في خط الصلاة ومساعدة المحرومين ومراعاة اصول العفة والأمانة كما تقول الآيات «إِنَّمَا الْمُصَلِّينَ ..... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (٢). إن تعبير الآيات أعلاه لعله إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن الأشخاص الذين يعيشون الجزع وقلبة الصبر هم عادةً من البخلاء أيضاً، كما أن البخلاء يتسمون بالجزع أيضاً، وبعبارة أخرى: أن هاتين الصفتين يرتبطان برابطة وثيقة ويجتمعان في دائرة مفهوم «هلوع». وقد ورد في الروايات الإسلامية أيضاً بحوث عميقة وجذابة تتضمن ملاحظات دقيقة في هذا المجال، وفيما يلي نشير إلى بعض النماذج منها:

الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٤-١- ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذم الجزع قوله «إِيَّاكَ وَالْجَزَعَ فَإِنَّهُ يَقَطُّعُ الْأَمَلَ وَيُضَعِّفُ الْعَمَلَ وَيُورِثُ الْهَمَّ» (١). ٢- وقد ورد أيضاً عن هذا الإمام يقول في حديث آخر ضمن الإشارة إلى نكتة لطيفة أخرى: «الْجَزَعُ اتَّعِبُ مِنَ الصَّبْرِ» (٢). والسبب في ذلك واضح، وهو أن الجزع وقلبة الصبر لا يحل أيه مشكلة وليس له أثر سوى أن يحطم عناصر القوة والاستقامة في روح الإنسان وجسمه، ولهذا فإن الذي يعيش الجزع يوقع نفسه في التعب أكثر من الصابر، مثلاً عندما يفقد الإنسان عزيزاً له يمكن أن يصرخ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالجدار أو ينتحر أخيراً، ولكن أية واحدة من هذه السلوكيات لا تعيد له عزيزه، بل من شأنها أن تدمر دعائم الإيمان في قلبه وتحطم أركان سلامته البدنية والروحية، مضافاً إلى انه سيتلف ثوابه الأخرى. ٣-

ويقول الإمام على عليه السلام أيضاً «الْجَزَعُ لَا يَدْفَعُ الْقَدَرَ وَلَكِنْ يُحْبِطُ الْأَجْرَ» (٣). وبالنسبة إلى سبب احباط الأجر فلا بد من القول: أن الجزع وعدم الصبر علامة على عدم الرضا وعدم التسليم لقضاء الله وقدره، فهو فى الواقع اعتراض على عدل الله وحكمته حتى لو كان الجازع غافلاً عن هذا المطلب. ٤- وورد فى حديث آخر عن الإمام الهادى عليه السلام وضمن الإشارة إلى نكتة اخرى «الْمُصِيبَةُ لِلصَّابِرِ وَاحِدَةٌ وَلِلْجَازِعِ اثْنَانِ» (٤). وكما تقدم أن الجزع وعدم الصبر من شأنه مضافاً إلى زوال أجره وانعدام ثوابه أن يزيد فى مشكلته، وعليه فإن المصيبة على الجازع مضاعفة. ٥- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام فى بيانه لأحد وصايا المسيح عليه السلام «وَلَا تَجْعَلُوا قُلُوبَكُمْ مَأْوَى لِلشَّهَوَاتِ إِنَّ الْجَزَعَ كَمِ عِنْدَ الْبَلَاءِ لَأَشَدُّكُمْ حُبًّا لِلدُّنْيَا وَإِنَّ اصْبِرْكُمْ عَلَى الْبَلَاءِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٢، ص: ٤٣٥ لَأَزْهَدُكُمْ فِي الدُّنْيَا» (١). ويستفاد من هذه الرواية أن المصدر الأساس للجزع وعدم الصبر هو الحرص وحب الدنيا، ولأجل أن يخفف الإنسان من شدة الجزع عليه أن يخفف من حبه للدنيا وتعلقه بزخارفها. ٦- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنْ تَحْتَسِبُوا وَتَصْبِرُوا تُوجِرُوا، وَإِنْ تَجَزَعُوا تَأْتِمُوا وَتَوَزَّرُوا» (٢). ٧- وفى حديث مختصر وعميق المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول «مَنْ لَمْ يُنْجِه الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ» (٣). ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بعنوان «مسك الختام» فقد ورد فى هذا الحديث أن رسول الله كتب إلى بعض أصحابه يعزیه بانه: «أما بعد فعظم الله جل اسمه لك الأجر والهمك الصبر... فلا تجمعن أن يحبط جزعك أجرك وأن تندم غداً على ثواب مصيبتك وانك لو قدمت على ثوابها علمت أن المصيبة قد قصرت عنها واعلم أن الجزع لا يرد فائتاً ولا يدفع حزن قضاء فليذهب أسفك ما هو نازل بك مكان ابنك والسلام» (٤). وينقل المرحوم المحدث القمى فى «سفينه البحار» قصة جميلة عن «بزرجمهر» وزير كسرى تتعلق بمسألة الصبر هذه ويقول: «حكى عن بعض التواريخ أنه سخط كسرى على بزرجمهر، فحبسه فى بيت مظلم وأمر أن يصفد بالحديد، فبقى أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر مطمئن النفس، فقالوا له: أنت فى هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال. فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهى التى ابقنتى على ما ترون. الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٦ قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلنا نتفجع بها عند البلوى. فقال: نعم، أما الخلط الأول فالثقة بالله عزوجل. وأما الثانى: فكل مقدر كائن. وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن. وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع ولا أعين على نفسى بالجزع. وأما الخامس: فقد يكون أشد مما أنا فيه. وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج. فبلغ ما قاله كسرى فأطلقه وأعزه (١)».

## علاج الجزع وقله الصبر:

### إشارة

إن هذا المرض النفسى والأخلاقى مثل بقية الأمراض الاخرى له طرق للعلاج ونشير إليها فيما يلى:

### ١- تشخيص المرض

عندما يتوجه المريض إلى الطبيب الروحانى يقوم هذا الطبيب بالفحص عن علامات المرض الأخلاقى والروحى من قبيل: الضرب على الرأس والوجه، عض الأنامل، الصراخ والعيويل، سوء الأخلاق والجفاف فى التعامل مع الآخرين، سوء المعاملة مع الزوجة والأطفال وكذلك الشكوى وعندها يدرك هذا الطبيب وجود مرض الجزع فى مثل هذا الشخص وبالتالي يقوم بعلاجه بطرق مختلفة.

### ٢- التفكير بالعواقب السلبية للجزع وقله الصبر

إن تفكير المريض بعواقب الجزع الوخيم والآثار السلبية لقلّة الصبر له دورٌ مهم في علاج هذا المرض الروحي، وقلما يسمع الإنسان بعواقب هذا المرض الوخيم ولا ينزجر لهذه الحالة ويتصدّى لرفعها من نفسه وإزالتها من أخلاقه. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٧ أجل، فعندما يعلم الإنسان أنّ الجزع يذهب بأجره وثوابه عند الله تعالى من دون أن يحل له أية مشكلة، وكذلك يحطم أعصابه وقواه النفسية ويسلب منه سلامته البدنية والروحية، والأسوأ من ذلك انه يوصد أمامه أبواب حلّ المشكلة، لأن الإنسان إذا احتفظ ببرودة أعصابه عند بروز المشكلات والمصائب وتسلط على نفسه فإنّ ذلك من شأنه أن يفتح أمام عقله أبواب الحلّ لذلك المشكل أو على الأقل يقلل من شدّة المصيبة، ولكنّ الإنسان وبسبب حالة الجزع والاضطراب وعدم التسلط على الأعصاب وبالتالي عدم تمرکز الفكر فإنه لا يجد أمامه نافذة مفتوحة للأمل والحلّ، بل حتى لو فتحت له الأبواب والنوافذ ليرى حلًا لهذه المشكلة فإنه وبسبب ما يعيشه من حالة الاضطراب والتوتر لا يرى هذه الأبواب والنوافذ، بخلاف ما إذا هدأ لحظة وضبط نفسه لفترة وجيزة ونظر إلى ما حوله فسيجد طريق النجاة والحلّ أمامه يسيراً. إن النظر الدقيق إلى هذه الحقائق والتدبر فيها له تأثير مهم في تغيير حالة الجزع لدى الإنسان وبالتالي مع تكرارها سينطوي الشخص تحت لواء الصابرين.

### ٣- مطالعة الآيات والروايات الواردة في هذا الباب

إن مطالعة الآيات والروايات الشريفة التي تتحدث عن أجر الصابرين وثوابهم ومقامهم عند الله له دور مهم في تقوية عناصر الصبر والاستقامة في روح الإنسان، ومن ذلك ما ورد في الآية الشريفة التي تبشر الصابرين بأعظم بشاره وتقول: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» \* أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» (١). وعبارة «أولئك هم المهتدون» تتضمن معنى عميقاً ولها تفاسير مختلفة، وأحدها هو ما ذكر آنفاً من أنّ الصابرين سيجدون حلًا لمشكلاتهم أسرع من الآخرين وتفتح أمامهم أبواب النجاة والخلاص من الأزمات والبلايا، لأن أحد العوامل الأصلية للجزع هو «ضعف النفس» فكلما سعى الإنسان في تقوية معنوياته وتكريس عناصر الشد والقوة في نفسه فإنّ الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٨ ذلك من شأنه أن يمنحه التوفيق لإزالة عناصر الجزع وقلّة الصبر من نفسه.

### ٤- مطالعة حالات الأنبياء والأولياء

وأحد الطرق لعلاج حالة الجزع هي مطالعة حالات الأنبياء والأولياء في دائرة صبرهم واستقامتهم أمام المصائب والبلايا الكثيرة وما كانوا يتحملونه من أعدائهم وأقوامهم، وتذكر هذه الحالات ومطالعتها يلهم الإنسان القوة في الصمود أمام حجم التحديات المفروضة عليه من الواقع الخارجي والداخلي.

### ٥- تلقين الاعتماد على النفس في تحمّل الصعاب

ولا ينبغي أن ننسى هذه الحقيقة، وهي أنّ التلقين سواء كان من طرف الشخص نفسه أو من قبل الآخرين فإنه يشكل عاملاً مؤثراً في إزالة الأخلاق السيئة والصفات الذميمة من واقع النفس، فلو أنّ الشخص الذي يعيش قلّة الصبر والجزع يلقي نفسه كل يوم بضرورة أن يتحمّل بالصبر، وكذلك يسعى ممن حوله من افراد الاسرة أو الأصدقاء في تعميق هذا التلقين لديه، فلا شكّ في ظهور آثار الصبر على سلوكياته وحالاته النفسية. ونختم هذا البحث بدعاء شريف للإمام زين العابدين عليه السلام يقول فيه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هَذَا صِيلاً وَآخِرَهُ فَلَاحاً وَآخِرَهُ نَجَاحاً وَاعُوذُ بِكَ مِنْ يَوْمٍ أَوَّلُهُ فَرْعٌ وَأَوْسَطُهُ جَزَعٌ وَآخِرُهُ وَجَعٌ» ويستفاد من هذا الحديث أنّ الجزع يورث الإنسان الألم والوجع، فمضافاً إلى انه لا يزيل همه وألمه فإنه من شأنه أن يزيده ألماً وهمّاً.



## الفرق بين الجزع والعواطف المعقولة:

إن قلب الإنسان هو مركز العواطف والاحساسات الإنسانية، وكلما فقد الإنسان عزيزاً له فإنه يتألم لذلك ويجرى دمع عينه من شدة التأثر، ولكن لا ينبغي الخلط بين إظهار التأثر والحزن مع الجزع وقلمة الصبر، لأن قلب الإنسان يتأثر بالحوادث المؤلمة بطبيعته الحال، ويمكن أن تعكس عينه حالة التأثر هذه وتبكي بسبب ذلك. الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٣٩ وعليه فإن البكاء والحزن على فقد الأختبة يعد أمراً طبيعياً وإنسانياً. فالمهم هو أن الإنسان لا يسلك في المصيبة في خط الجزع والشكوى وعدم الشكر ويتكلم بكلمات لا تنسجم مع الإيمان والعبودية لله تعالى والرضا بقضائه، وفي هذا المجال نقراً حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» (١). وقد ورد في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله انه عندما توفي ولده إبراهيم عليه السلام بكى النبي صلى الله عليه وآله عليه و آله عليه بحيث جرت دموعه على خديه وصدره الشريف فقالوا: يا رسول الله أنت تنهانا عن البكاء ولكنك تبكي لوفاء إبراهيم؟ فقال «لَيْسَ هَذَا بُكَاءً وَأَنْ هَيْدِهِ رَحْمَةٌ وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ» (٢). أى هذا نوع من إظهار المحبة والرحمة الصادرة من العاطفة الإنسانية التي يعيشها الإنسان الواقعي. وقد ورد هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتاب «بحار الأنوار» حيث ذكر المجلسي أنه عندما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ابنه إبراهيم وهو يوجد بنفسه فوضعه في حجره فقال له: يا بني أتى لا أملك لك من الله شيئاً وذرفت عيناه، فقال له عبدالرحمن: يا رسول الله تبكي أو لم تنه عن البكاء، قال: إنما نهيت عن النوح عن صوتين أحمرين فاجرين صوت عند نعم لعب ولهو ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة خممش وجوه وشق جيوب ورنه شيطان إنما هذه رحمة، من لا يرحم لا يرحم، لولا أنه أمر حق ووعد صدق وسبيل بالله وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزننا عليك حزناً أشد من هذا وأنا بك لمحزونون»، «وإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ تَبْكِي الْعَيْنُ وَيَدْمَعُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ» (٣). وأحياناً يمكن أن يفقد الإنسان انضباطه وإلتزامه ويشق جيبه ويخمش وجهه ولكن كل ذلك يكون بالمقدار المعقول والطبيعي لغرض إيجاد الهيجان العام وتعبئة العواطف الاخلاق في القرآن، ج ٢، ص: ٤٤٠ والاحساسات في مقابل الأعداء فإن ذلك قد يكون ضرورياً أيضاً ويستثنى من الأصل، إذاً فما ورد من بعض الحالات الاستثنائية لبعض العظماء يكون من هذا الباب. ونختم هذا الحديث بحديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «النِّيَاحَةُ عَمَلُ الْجَاهِلِيَّةِ» (١). والمراد من النياحة هنا ليس إقامة المآتم أو ذكر المصيبة والبكاء على الميت بصورة فردية أو جماعية بل هو إشارة إلى ما كان مرسومًا ومتداولًا في زمان الجاهلية بين العرب عندما كان يفقدون أحد الأختبة، فإنهم يدعون نسوة لإقامة النياحة والتحدث بكلمات لزيادة النوح والبكاء على الميت، وفي الغالب يصفونه بأوصاف كاذبة ومبالغ فيها وقد يعملن على تمزيق ثيابهن فيلظمن وجوههن ويخدشن خدودهن، وبذلك يسعين إلى تشوير عواطف أهل الغزاء وتفعيل حرارة المجلس.

## نهاية الجزء الثاني:

اللهم! أنت تعلم جيداً بأننا إذا وفقنا لسلوك طريق أوليائك في تهذيب النفس وحسن الأخلاق وصفاء الباطن فأنا نطلب ذلك ونتعشقه من صميم القلب، فزدنا توفيقاً في سلوك هذا الطريق وأعنا في سلوك خط الإيمان والتقوى وحسن الأخلاق والحقنا بجماعة «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» واجعلنا من جملة «وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا». (آمين يا رب العالمين) الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤

## الجزء الثالث

### الإعراض عن الأخلاق إعراض عن كل شيء

#### مقدمة:

في هذا الوقت الذي أكتب فيه هذه المقدمة، يدور الحديث في الأوساط العالمية عن العمليات الإرهابية التي وقعت في أمريكا وأضرارها على ذلك البلد وعلى جميع العالم، ثم الحديث عن الحملات الانتقامية التي ترمع أمريكا القيام بها ضد أفغانستان ومناطق أخرى. الجميع يتحدث عن الآثار السياسية والاقتصادية المترتبة على هذه العمليات الإرهابية المدمرة على المدى القصير والبعيد، ولكن قلما نجد من يتحدث عن المعطيات الأخلاقية لهذه الحادثة الفريدة. واحدى هذه المعطيات هو أن أكبر قدرة عالمية يمكنها أن تكون الأضعف بين دول العالم بحيث ينهار رمز عظمتها وشموخها فجأة بواسطة هجوم عدّة أشخاص. والمعطى الآخر يشير إلى عدم إمكان الاعتماد على شيء في هذا العالم، حيث يمكن أن تتبدل جميع الحسابات والمعادلات بواسطة حادثة إرهابية قام بها أشخاص معدودون بحيث أدلت رقاب المقتدرين وفضحت إدعاءات المستكبرين ودوّخت أذهان المدبّرين واستغفلت عقول الحاكمين بحيث لم ينتبهوا إلّا بعد أن انتهى كل شيء. والآخر، أنّ الإنسان المعاصر وبسبب ضعف دعائم الأخلاق الفردية والاجتماعية يدفع ثمناً باهضاً في حركة الحياة ويرى كل شيء في خطر المحق والانهيار. عندما ينهار قصر «العدالة» البهيج وتحل محلّه اطلال الظلم والجور، وافرزات الأنانية وحبّ الجاه والسلطة لقوى الانحراف ويصل النصل إلى العظم لدى المحرومين والمعدمين ويعيشون الاختناق في هذه الظروف العصيبة. وعندما لا تسمح حالات الغرور والتكبر بإدراك الحقائق الموجودة على أرض الواقع من موقع الوضوح في الرؤية بحيث يعجز الإنسان عن إدراك ما يجري حوله من تفاصيل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦ الحياة، فإنّ مثل هذه الحوادث لا تكون خارج اطار التوقع، الحوادث التي أحدثت اهتزازاً في صرح قوى الاستكبار والظلم وجعلتهم يعيشون التخيط والتشجج لأيام وشهور عديدة. ألم يحن الوقت الذي ينكشف لنا أنّ العالم المادى قد وصل إلى طريق مسدود، ولا بدّ له من العودة إلى أجواء المعنويات والأخلاق الإنسانية ليتسنى لها تجميد عناصر الارهاب من جهة، وإشاعة أجواء الحب والودّ والصفاء من جهة أخرى. إنّ التغافل عن الواقعيات لا- يؤدّي إلى زوالها، فما دامت أشكال الظلم والجور والعدوان والأنانية موجودة في العالم، فلا بدّ أن تتوقع حدوث مثل هذه الوقائع بل أشدّ منها. إنّ الحديث في هذا المجال واسع وكثير التفاصيل والتحليل لا يسعنا استعراضها في هذه المقدمة القصيرة، والغرض هو الإشارة فقط إلى هذه المسألة لنعيش اليقظة، ولنعلم جميعاً أنّ إصلاح الوضع الخطير في العالم المعاصر لا يجدى فيه القيام بعمليات انتقامية حيث تؤدّي إلى إلقاء الزيت على النار وتفوضى إلى زيادة الهجمات الإرهابية، ولإلقاء اللائمة على هذا وذاك. لا بدّ أن يتحمل الجميع مسؤوليتهم ويتحركوا من موقع الإذعان لمبادئ الأخلاق الإنسانية ولزوم تجسيدها في حياة الفرد والمجتمع لنيل الحياة السعيدة والمفعمة بالأمن والتقدم. ومن هنا نمدّ أيدينا إلى الباري تعالى ونبتهل إليه ونشكره لتوفيقه لإتمام الجزء الثالث والأخير لكتاب «الأخلاق في القرآن» حيث يمكننا أن نخاطب البشرية من هذا الموقع ونقول: \* هذه هي أخلاقنا الإسلامية! \* هذه هي طريقة حياتنا ومعالم مسيرتنا! \* هذا هو دستور النجاة من الأزمات والمشاكل! قم/ الحوزة العلمية ناصر مكارم الشيرازي ١٣٨٠ هـ ش الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧

## حبّ الجاه

### تنويه:

تختلف الميول الإنسانية من شخص إلى آخر فالبعض يحب المال والبعض الآخر يحب الجمال وآخر يحب الكمال، وآخر يطلب المقام والجاه، أى يطلب الوجاهة، فيجب أن يحترمه الناس وينحون له، ويريد أن يشيرون إليه بالبنان ويطلبون منه حوائجهم، وبعبارة أدق يحس بأنّه أرفع شأنًا من الباقين، له الكلام الأول والأخير وإن كان أقلّ فهماً ودرايةً، ويسمى مثل هذا الشخص بالراغب للوصول لأعلى المراتب أو محبّ الجاه. هذه الصفة تتوفر في الكبار أكثر منها لدى الشباب والصغار، وفي بعض الأحيان ترافق الإنسان حتى الممات، فتتلاشى كل قواه إلّا حبّ الجاه فهو راسخ في القلب بل يزداد رسوخاً وقوة كلما امتد العمر في الإنسان. هذه الرذيلة هي

مصدر لكثير من المفاسد والفردية، فهي تبعد الإنسان عن الخلق والخالق، ولأجل الوصول لأهدافه المشؤومة تقمحه في المهالك، والأُنكى من ذلك أنها تظهر في الغالب بصورة حسنة مثل الاحساس بالمسؤولية والعزم على أداء الواجبات الاجتماعية ولزوم الإرادة الصحيحة وما شابه ذلك، فقد جاء في الحديث: «آخِرُ مَا يَخْرُجُ مِنْ قُلُوبِ الصَّادِقِينَ حُبُّ الْجَاهِ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨ وبيّن هذا الحديث خطورة هذه الرذيلة الأخلاقية. والجدير بالذكر أن هذه الصفة لها صلة وثيقة مع الرياء والتكبر والعجب وغالباً ما يُشبه بينها وبين مثيلاتها. وبهذه الإشارة نعود لنستوحي ما ورد عن علها وعواقبها في القرآن الكريم: ١- في حادثة السامري التي جاءت في سورة طه في الآيات ٨٥ و ٨٨ و ٩٥ و ٩٦ تبين أن حبّ الجاه هو السبب في ضلال السامري وجمع غير معه من بني اسرائيل حيث قال: «قَالَ فَاَنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانْسَى ... قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» (١). ٢- «وَأَذَقْنَاكُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» (٢). «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا» (٣). ٣- «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ\* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» (٤). ٤- «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَمُدُو حَظٌّ عَظِيمٌ» (٥). ٥- «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهُ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩ ٦- «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُرْحٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ» (١). «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٢).

## تفسير واستنتاج:

## ذم طلاب الجاه

كما أشرنا سابقاً أنّ حبّ الجاه يعنى التعلق الشديد بالمكانة والمنزلة الاجتماعية والسعى لنيلها بأى صورة كانت، وهو من الرذائل الخطيرة التي لا تؤثر على الجوانب الروحية للانسان فحسب بل تجعل الشخص منبوذاً اجتماعياً، ويعيش العزلة القاتلة. ولقد رأينا على مدى تاريخ الأنبياء عليهم السلام والأقوام السالفة، كم كانت هذه الرذيلة منتشرة ومتفشية فيهم، بحيث تحدث عنها القرآن الكريم في أكثر من آية وسورة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كثيراً من الرذائل لها مفاهيم مشتركة، وكما يقول المثل وجهان لسكة واحدة، بحيث يمكن أن يصدر فعل قبيح من الإنسان يكون مصداقاً لعدّة صفات رذيلة، وقد نزلت في مثل ذلك آيات من القرآن الكريم تعكس هذا المعنى لبعض الرذائل كالتكبر والغرور والأنانية والعجب والرياء وحب الجاه. وعلى أية حال، نرى في الآيات الاولى قصة السامري المعروفة لدى الجميع، فللسامري سمعة قبيحة عند بني اسرائيل، وكان محباً للجاه بشكل غريب، حيث استغل غياب النبي موسى عليه السلام وذهابه للقاء ربه في طور سيناء، فصنع من حلّى بني اسرائيل عجلًا جسداً له خوار، فعندما كانوا يضعونه في اتجاه الهواء تصدر منه أصواتاً غريبة، أو يقال أنّه جمع مقداراً من التراب الذي كان تحت أقدام جبرائيل عليه السلام أو مركبه الذي ظهر به عندما الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠ اغرق فرعون وجنوده في اليم، فوضع ذلك التراب داخل العجل الذهبي، والصوت الذي كان يصدر منه من بركة ذلك التراب. وبعدها دعى السامري الناس لعبادة ذلك العجل ولم يمرّ وقت طويل حتى استجاب له بعضهم وعبدوا العجل وسجدوا له. وقال الله تعالى في القرآن الكريم: «قَالَ فَاَنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ». فرجع موسى غضباناً أسفاً إلى قومه وعاتب أخاه هارون عتاباً شديداً، وتبرأ القوم من فعلهم واتهموا السامري فقال سبحانه وتعالى: «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانْسَى ...». وتوجه بعدها موسى عليه السلام إلى السامري: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي». كان هدف السامري من تلك الفتنة

المضلة هو الوصول إلى الجاه والمنصب والمقام، فعاقبه الباري تعالى بالطرد من المجتمع والإنزواء «قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ». فكان في الشريعة الموسوية وقوانينها الجنائية، أن الإنسان، إذا ما أذنب ذنباً كبيراً، ينظر إليه وكأنه رجس خبيث نجس فلا يحق أن يمسه أحد ولا يمس هو أحداً. ويقال: إن السامري ابتلى بمرض نفسي ووسواس شديد بحيث كان يخاف من جميع الناس وإذا ما تقرب إليه أحد يصيح ويقول «لا مساس»، نعم فهذا هو جزء من حب الجاه ويتلاعب بالدين لأجل أغراضه الدنيوية. وتتطرق الآيات القرآنية في «الآية الثانية» إلى نوع آخر من حب الجاه والمقام لبني اسرائيل، فقد طلبوا أمراً عجبياً من موسى عليه السلام، فقالوا: «ارنا الله جهرة» وإلما لن نؤمن لك أبداً، فأخذتهم الصاعقة، ولولا- لطف الباري تعالى لماتوا إلى الأبد، وفيها قال تعالى في قرآنه الكريم: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١ «وَأَذَقْتُمُ يَا مُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». ولكن ما هي الصاعقة؟ إنها رعد وبرق ينتج نتيجة اصطدام الغيوم ببعضها، فهي تحمل الكهرباء الموجبة وعند وصولها للأرض تبحث عن الكهرباء السالبة فتتحد معها بدرجة حرارة تصل إلى ١٥٠٠٠ مئوية فتحدث صوتاً مهيباً وإذا ما أصابت مكاناً ما فستدمره تدميراً كاملاً. في قصة بني اسرائيل عندما وقعت الصاعقة على بني اسرائيل وتجلّى الباري للجبل وجعله دكاً مات جميع من اختارهم موسى عليه السلام من بني اسرائيل وعددهم (٧٠) نفرًا من شدة الخوف والهلع الذي أصابهم، وبقي موسى على قيد الحياة ولكنه غاب عن الوعي وعندما أفاق، طلب من الباري تعالى العفو والمغفرة ودعا لهم بالحياة فاستجاب الباري دعاءه وأحياهم وعلم هؤلاء القوم المعاندين إلى أنهم ليسوا بشيء أمام قدرة الباري تعالى. أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في مكان آخر وآية أخرى فقال: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ». فيمكن أن يكون ذلك الطلب من التذرع أو من حب الجاه أو من الاثني معاً، ويستمر القرآن الكريم ويقول قد سألوا أكبر من ذلك «١» «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ». فهذه التعبيرات وما شابهها تبين مدى تغلغل حب الجاه والكبر والغرور والعناد في قلوب بني اسرائيل، ولذلك كانوا دائماً يتذرعون ويتحججون في كل وقت، وهي نفس الصفات الرذيلة التي نراها عند اليهود في وقتنا الحاضر، ولحد الآن يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، ويفكرون في السيطرة على اقتصاد العالم، مع عدم قدرتهم وكفائتهم على ذلك. ولم يكن حب الجاه متغلغلاً في قلوب بني اسرائيل فحسب، فالفراعنة ونمرود كانوا الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢ أيضاً من مصاديق ذلك، فنقرأ في القسم الثالث من الآيات، أن الباري تعالى قال عن فرعون: «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ\* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ قَوْلًا لِقَائِهِ عَلَيْهِ السُّورَةُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ». وقد جمع فرعون في هذه الآية عدّة رذائل، الغرور، التكبر، حب الجاه واغفال البسطاء من الناس، والغريب في الأمر أن فرعون شاهد معجزات النبي موسى عليه السلام بعينه ولكنه أصرّ واستكبر وتمسك بمسألة الطبقة الاجتماعية والأسورة من الذهب، ولثغته موسى عليه السلام في الكلام (بالرغم من أن اللثغة قد زالت منه بعد البعثة بعد ما طلب موسى ذلك من الله تعالى). وعلى أيّة حال فإن فرعون لم يزد قومه إلا ضلالاً. وفي «الآية الرابعة» من هذه الآيات نواجه قصة «قارون» فهو من النماذج البارزة للأشخاص الذين يعيشون حب الجاه عند بني اسرائيل، وهي الصفة القبيحة التي أودت بحياته وأرسلته إلى الحضيض. فإيا للعجب من الغرور وحب الجاه كيف يضع الحجب على بصيرة وفهم الإنسان ويمنعه من درك أكثر الامور بدهاءً، فعندما وعظه بعض بني اسرائيل وقالوا له: بما أن الله قد أنعم عليك فابتغ فيما آتاك الله من النعم الدار الآخرة، ولا تتس نصيبك من الدنيا، فكل شيء آيل إلى الزوال وإيّاك أن تستعمل هذه الأموال للإفساد في الأرض ومحاربة الرسول عليه السلام. فقال ذلك الرجل المغرور في جوابه: «قَالَ أَوْتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي...» قال ذلك واستمر في عناده وجموحه، ولأجل أن يرضى غريزة حب الجاه عنده، خرج على قومه بزينة من الخيل والخدام وكثرة الغلمان الذين كانوا يجلسون على سرج من ذهب ويلبسون أنواع الحلّي الذهبية. وقد أخذ مثل ذلك المنظر البراق والمخادع بقلوب وعقول بني اسرائيل فقالوا: «قَالَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣ ولكن وكما صرح القرآن الكريم في هذه الآيات فإن الله تعالى خسف بقارون الأرض

ودفنت كل أمواله وقصوره والزينة التي كانت عليه وكأن شيئاً لم يكن، لا-قارون ولا أمواله ولا زينته المبهرة للعقول!! وعندها انتبه الذين تمنوا مقام قارون، انتبهوا من غفلتهم ورجعوا عن قولهم واستعاذوا بالله تعالى من أقوالهم. نعم فإنَّ حبَّ الجاه والغفلة والغرور، تغوى الإنسان وتورثه الغفلة عن أبسط الأمور البديهية للحياة، وبما أنَّ الإنسان خلق ضعيفاً، فإنَّ أوهى عنوان أو امتياز يعرض عليه يغير حياته ويقلبها رأساً على عقب ويفضى به إلى الهلكة لأنه سرعان ما يدعى القدرة والاستقلال، بل يتعداها إلى مقام اللوهمية. وفي «الآية الخامسة» من الآيات تتحدث عن فرعون، وتصور لنا حبَّ الجاه وأعماله الجونية حيث خاطب موسى عليه السلام قائلاً: «قالَ لئن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» بلا شك، أنَّ فرعون بادعائه للربوبية لم يكن من السذاجة بدرجته لا يدرك فيها دعوة موسى عليه السلام المنطلقة من التعريف بالله ربِّ العالمين، فهو الحاكم على أرض مصر الوسيعة. وبديهي أن الأناية والتكبر وحبَّه للجاه، لم تكن لتسمح له بقبول الحق والمنطق السليم الصادر من الله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام. وهذا هو طريق الطغاة وأفعالهم فدائماً ما يقابلون الحق بالقوة، والدليل والبرهان بالسجن! ولكن عقوبة السجن في مثل هذه المواد لم تكن أداة رادعة في دائرة التصدي لخط الرسالة والنبوة بقيادة موسى عليه السلام الذي ضعضع أركان حكومة فرعون، ولهذا ذكر بعض المفسرين أنَّ سجن فرعون لم يكن بالسجن الذي يخرج منه الإنسان حيّاً، فالمسجون فيه يلقى شتى أنواع العذاب حتى يموت فيه. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤ و يدور الحديث في «الآية السادسة» من هذه الآيات، عن مشركي العرب فبدلاً من أن يطلبوا الدليل والبرهان والمعجزة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كانوا يتذرعون بأنواع الذرائع من موقع الإنكار والجحود، فتارة يطلبون منه تفجير الينابيع والعيون من الصحارى المقفرة اليابسة والحارة من أرض الحجاز، وتارة يطلبون جنات من أعناب ونخيل تجرى من تحتها الأنهار، وتارة يطلبون انزال الحجارة من السماء واخرى حضور الباري تعالى والملائكة والبيوت من الذهب؟ وبعدها يقولون: «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُيُوتِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ». فاولئك بطلباتهم تلك، قد كشفوا عن واقعهم الزائف حيث يعيشون منتهى الكبر وحبَّ الجاه الذي ملأ قلوبهم، واثبتوا أنَّ الإنسان عندما يقع في سلوكه الأخلاقي والفكري تحت تأثير تلك الصفات الذميمة، فسوف يتحرك بعيداً عن العقل والمنطق. اختلف المفسرون بأن ما المراد من كلمة (بيت من زخرف)؟ فاحتملوا فيها أمرين: الأول أنَّ المراد من الكلمة هو بيت مليء بالذهب أو أشياء مصنوعة من الذهب، والثاني: أنَّ المراد هو بيت منقوش بالزخارف الذهبية، ولكن التفسير الأول أوفق لسياق الآية وذلك بالنظر إلى عبارة (من زخرف) (من زخرف). في «الآية السابعة» والأخيرة من هذه الآيات التي وردت عقب الحديث عن قارون، صدر أمر إلهي عام فقال: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». نعم فإن عاقبة محبِّ الجاه والمستكبرين، نفس عاقبة قارون الذي باع كل شيء من أجل حبَّه للجاه والمقام وعاش مغضوباً عليه، وختم حياته باللعن الإلهي إلى الأبد. ويمكن الاستفادة من عطف الفساد على العلو في الأرض في الآية أنَّ المتكبرين الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥ ومحبِّ الجاه والمقام سيفسدون في الأرض في نهاية المطاف كي يشبعوا عطشهم وغرائزهم، ولن يتوقفوا عند أى جنائية يرتكبونها. ومن الجدير بالذكر أنَّ الإمام على عليه السلام عندما آلت إليه الخلافة كان يخرج بنفسه إلى السوق، فيرشد الضال ويساعد الضعيف وعند مروره بجانب الباعة والكسبة كان يقرأ عليهم هذه الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه عندما تلا هذه الآية بكى وقال: «ذَهَبَتْ وَاللَّهِ الْأَمَانِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ» (١). ويمكن أن يكون مراد الإمام على عليه السلام أنه بما أنَّ الباري تعالى جعل الآخرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا يريدون الرئاسة، وهو أمر صعب جداً، فسوف لا تبقى امنية للشخص المؤمن في حركة الحياة الدنيوية. ويستفاد من مجموع الآيات التي ذكرت سابقاً وما شابهها من الآيات أن طلب الجاه والرئاسة، وخصوصاً إذا ما اقترن بالكبر والغرور والعناد فإنه سيفضى بالحياة الإنسانية إلى السقوط، وسوف لا تؤثر على الفرد فقط بل تطلال المجتمع ايضاً.

ورد الحديث عن هذه الرذيلة مرةً تحت عنوان (حُبّ الجاه) ومرةً تحت عنوان (حُبّ الرئاسة) واخرى بعنوان «الشرف»، ونختار قسمًا من تلك الروايات الكثيرة: ١- الروايات التي تتحدث عن مدى تأثير وتخريب هذه الرذيلة في دائرة الدين والمعتقد، بحيث جاء في الحديث النبوي الشريف: «ما ذنبان ضاريان ارسلا في زريته الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦ غنم أكثر فساداً فيها من حُبّ المال والجاه في دين الرُّجُلِ المُسْلِمِ» (١). وتأسيساً على ذلك، فإنَّ حُبّ الجاه والثروة وعبادة المقام تمثل عناصر خطيرة على مستوى عملية هدم الدين وتخريب الإيمان في أعماق النفس، كما هو الحال في علاقة الذئب والغنم. ٢- ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «حُبُّ الجاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ» (٢). ٣- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ طَلَبَ الرِّئَاسَةَ هَلَكَ» (٣). ٤- قد أولت الروايات الإسلامية أهمية كبرى لهذه المسألة من موقع التحسس لظهور أبسط العلامات لحُبّ الجاه وحدّرت منها، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إِيَّاكُمْ وَهَوْلَاءِ الرُّؤْسَاءِ الَّذِينَ يَتْرَأُونَ قَوْلَ اللَّهِ مَا خَفَقَتِ النَّعَالُ خَلْفَ رِجْلِ إِيَّاكُمْ وَأَهْلَكُمْ» (٤). ويجب التنويه إلى أن المستضعفين والمحرومين غالباً ما كانوا حفاة الأقدام في ذلك الزمان والنعال مختص بالغنى، ومن البديهي أن هؤلاء لا يتبعون شخصاً في سبيل الله ومن أجل الخير! ٥- في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وفي معرض حديثه عن الجذور الأصلية للذنوب: «أَوَّلُ مَا عُصِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِسِتِّ خِصَالٍ حُبُّ الدُّنْيَا وَحُبُّ الرِّئَاسَةِ وَحُبُّ الطَّعَامِ وَحُبُّ النِّسَاءِ وَحُبُّ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ» (٥). ٦- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ حُبَّ الشَّرَفِ وَالذِّكْرِ لَا يَكُونَانِ فِي قَلْبِ الْخَائِفِ الرَّاهِبِ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧ ٧- وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ طَلَبَ الرِّئَاسَةَ بِغَيْرِ حَقِّ حُرْمِ الطَّاعَةِ لَهُ بِحَقِّ» (١). ومن ذلك البيان يتبين أن حُبّ الجاه والمقام يتقاطع دائماً مع الحق، ومنه يتبين أيضاً أن حُبّ الرئاسة على نوعين:

### الرئاسة بالحق والرئاسة بالباطل:

نقرأ في بعض الآيات أن «عباد الرحمان» يطلبون من الباري تعالى أن يجعلهم للمتقين إماماً «واجعلنا للمتقين إماماً» (٢). ومنه يتبين أن حُبّ الرئاسة لا يقع في الدائرة الذميمة دائماً، كما ذكر هذا المعنى العلامة المجلسي قدس سره في كتابه بحار الأنوار، حيث قسم الرئاسة إلى نوعين: «رئاسة بالحق» و «رئاسة بالباطل»، بعدها ضرب مثلاً لرئاسة الحق وهو التصدي لمقام الفتوى والتدريس والوعظ، ويعقب قائلاً: إنَّ الذي له الأهلية لذلك وهو عالم بالكتاب والسنة وهدفه هداية الخلق وتعليم الناس، فيجب عليه إما عيناً أو كفاية التصدي لذلك المقام، ولكن الذي لا علم له ولا اطلاع بالمسائل وليس له هدف إلا الشهرة وتحصيل المال والمقام، فتلك الرئاسة الباطلة، وهذا هو فعل المبتلين بالصفة الرذيلة وهي حُبّ الجاه. وبعدها نقل عن بعض المحققين أن معنى كلمة «الجاه» هو تملك القلب والتأثير عليه، فحكمها حكم تملك الأموال، كل هذه الامور هي من أهداف الحياة، وتنتهي بالموت، والدنيا مزرعة الآخرة، فالذي يجعل من تلك زاداً له في الآخرة فهو السعيد والمنعم، والذي يجعل منها وسيلة لإتباع الأهواء فهو الشقي الفقير (٣). وفي الواقع أن الذين يطلبون الرئاسة لأغراض اجتماعية وإنسانية، أو بعبارة اخرى الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨ يطلبون الجاه للوصول للاهداف الإلهية وليس لحب المقام والرئاسة بالذات، اولئك في الحقيقة السائرون على خط الإمام على عليه السلام الذي يقول: «أما وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبِيَّةَ وَبَرَأ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورِ الْحَاضِرِ وَقيامِ الْحُجَّةِ بِوَجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُوا عَلَى كِطَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَعْبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أُولِهَا» (١).

### علامات حُبّ الجاه:

يمكن معرفة الأفراد الذين يحبون الجاه والمقام عن طريق حركاتهم وكلماتهم وسلوكهم، فكل ما يفعلوه من خير يرغبون في اظهاره والإعلان عنه، حتى تكون لهم المنزلة والمقام عند الناس. وعلى هذا فالذين يحبون الجاه يتحرّكون في سلوكهم الأخلاقي نحو الرياء

غالباً، لأنَّ حُبَّهم للجاه لا يمكن اشباعه إلا بالرياء، ولذلك فإنَّ بعض كبار علماء الأخلاق، ادرجوا عنوان الرياء وحب الجاه سويةً في كتبهم (٢). وكثير من الذين يحبون الجاه يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا وبهذا جاءت الآية الشريفة: «يُحِبُّونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» (٣) فهدفهم الشهرة والوجاهة والإشارة إليه بالبنان، عن أى طريق كان، وليس هدفهم من الوجاهة هو التحرك باتجاه تفعيل الخير في المجتمع من موقع الإصلاحات الاجتماعية، ولكن الهدف هو مدح الناس وخضوعهم لهم والإشارة إليهم بالبنان كما قلنا، فهم يسعون للأعمال التي فيها الشهرة وإن كان مردودها قليلاً، ولا يسعون أبداً للأعمال التي لا تحقق لهم الوجاهة والسمعة وإن كانت تلك الأعمال تعود بالنفع الكثير للمجتمع. محبو الجاه يتوقعون أن يُمدحوا دائماً، ولا يرغبون بالنقد والتأنيب وينتظرون الاحترام الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩ من الجميع في المجالس وغيرها ولا يحبون أن يجلس أحد في مكان أعلى منهم، أو يقاطعهم في أثناء كلامهم ويجب أن يكون كلامهم هو الكلام الأول والأخير، ومن قدّم إليهم صنوف المدح وآيات الاحترام والتبجيل فهو إنسان شريف ويعترف بالجميل، ومن لم يكن كذلك فهو لئيم وناكر للجميل، ولذلك فإن مثل هؤلاء الأشخاص غالباً ما يكونون منبوذين ومكروهين، ورجوع بعض المحتاجين إليهم هو من باب الإجماع وعدم الحيلة. مثل هؤلاء الأفراد يعرفون بسرعة، وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ شِرَارَكُمْ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوطَأَ عَقْبَهُ» (١). ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَثَّلَ لَهُ الرَّجَالُ فَلْيَتَّبِعْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (٢). ومن العلامات الاخرى لهم، أنهم يعيشون في حالة الوهم والشخصية الخيالية الضاربة في أحلام اليقظة، فما لا يحصلونه في عالم الواقع من المنزلة والجاه والاحترام يجدونه حاضراً في عالم الوهم والخيال.

### أسباب ومقاصد حب الجاه:

في بحث «حب الجاه» علّق المرحوم «الفيض الكاشاني» تعليقاً لطيفاً، فقال: «إنَّ تعلق الناس بحب الجاه والمقام، أو بعبارة اخرى أنَّ حبَّ التسلسل على القلوب أقوى من حبَّ المال والثروة، لأنَّ الوصول للمال والثروة يكون عن طريق الجاه، أسهل منه عن طريق المال للجاه، حيث يوجد الكثير من المتمولين لكن لا- سيطرة لهم على قلوب الناس، ولكن الذين يستطيعون التأثير على القلوب، يكون تحصيل المال والثروة أسهل لهم. ثانياً: الأموال تكون معرضة للتلف والحفاظ عليها يعدّ أمراً صعباً لكن الذي يملك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠ القلوب يكون المحافظة عليها أسهل (وإن كانت في هذا الطريق أسهل). ثالثاً: التسلسل على القلوب يزداد يوماً بعد يوم بدون تجشم عناء كبير، ونفس مدح وثناء الناس كفيلاً بنشرها، ولكن جمع وزيادة الأموال يحتاج إلى تجشم العناء الكبير» (١). ولقد ذكر المرحوم الفيض الكاشاني هذا الكلام لبيان ميل الإنسان لحالة «الجاه والمقام»، ولكن إذا دققنا النظر فسنرى أنه يمكن أن نعتبرها من الدوافع «لحب الجاه»، لأنه عندما يكون الجاه والمقام سبباً لزيادة الأموال والوصول إلى جميع الأمانى والأهواء، علاوةً على خضوع الناس وتواضعهم، فمن الطبيعي أن تتوجه الأنظار إليه، بحيث يمكن القول أنه لا يكاد أن ينجو منه أحد، وإن كان بمرتبةٍ أضعف عند بعض الناس، وقد ورد في كلمات أهل المعرفة والحكمة أنه: «آخِرُ مَا يَخْرُجُ مِنْ قُلُوبِ الصُّدِّيقِينَ حُبُّ الْجَاهِ» (٢). ومن الأسباب الاخرى لحب الجاه هو «حب الذات» المفرط عند الإنسان، حيث يتحرّك الإنسان لارضاء هذا الدافع المترسخ في أعماق النفس بكل وسيلة تمكنه من تحصيل ذلك الغرض، ومنها المقام والمنزلة في واقع المجتمع. وهناك دوافع اخرى لهذه الحالة النفسية مثل الشعور بالحقارة والدونية، فالأشخاص الذين ذاقوا مرارة الحقارة وعاشوا الإهانة من الآخرين لأي سبب كان فإنهم يسعون وعن طريق حب الجاه والأمانى الكاذبة لتعويض ذلك النقص. وكذلك الحسد والحقد والانتقام يمكنها أن تكون من الأسباب وعلل حب الجاه، فإن من يعيش الحسد تجاه الآخر يتحرّك من موقع طلب الرياسة والمنزلة الاجتماعية ليكون الآخر في موقع أسفل منه في دائرة العلاقات الاجتماعية ويستغل الفرصة لتنفيذ ما في قلبه من الحسد والحقد والانتقام. والخلاصة أنَّ حب الجاه من الرذائل المعقدة التي لها جذور ومشاركات مع كثير من الرذائل الاخرى

### علاج حب الجاه:

بالنظر للأبحاث التي مرّت بنا في الوقاية أو معالجة الرذائل الأخلاقية اتضح لدينا أصل كلّي وهو أن المبتلين بتلك الرذائل الأخلاقية إذا ما تنبهوا للعواقب السيئة لهذه الصفات، فإنهم في الأغلب الأعم سيفكرون في طرق العلاج لها وتركها. وهذا الأصل يصدق أيضاً في مورد حب الجاه، فإذا ما انتبه المبتلى بحب الجاه الى أنّ هذه الرذيلة لا تبعده عن الخالق فحسب بل عن المخلوق ايضاً، فيهرب منه الصديق ويتعد عنه الناس، وأن هذه الصفة ستجرّه للرياء الذي هو من أخطر الذنوب أو ربّما يصبح «كالسامري» و«قارون» اللذان كفرا وعادا نبي الله عليه السلام، وإذا ما علموا أنّ تأثير حب الجاه على الإيمان القلبي للإنسان كمثل الذئب الضاري في قطع الغنم، فلا يسلم دين وإيمان للإنسان في حركة الحياة الروحية ويستبدله بالنفاق الذي ينبت في قلب المحب للجاه كما ينبت الزرع في الأرض السهلة، فإذا علم الإنسان بكل هذه المخاطر والآثار المخزبة لهذه الرذيلة فسوف يجدد النظر في سلوكياته وأعماله قطعاً. وإذا فكر هذا الشخص بعدم ثبات هذه الدنيا والتفت إلى قصر العمر وأنّ النعم مواهب مؤقتة وعارية مستردة أو على حد تعبير بعض علماء الأخلاق، أنّ كل الناس شرقاً وغرباً لو سجدوا للإنسان لمدة طويلة فلا يلبث أن يموت الساجد والمسجود له، فمن الأكد أنه سينتبه من غفلته ويرعوى من سلوكه. ومن الدروس الاخرى النافعة في التخلص من حب الجاه والسلطة هو مطالعة أحوال وحياة فرعون ونمرود وقارون والسامري، ونهاية حياتهم المؤسفة، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ حب الجاه ناشىء من ضعف الإيمان خصوصاً الاعتقاد بالتوحيد الأفعالي، فبتقوية دعائم الإيمان في أعماق القلب سيزول حب الجاه، فمن يدرك عظمة الله تعالى، يوقن أنّ العالم بأسره لا يساوى شيئاً في مقابل ذاته المقدّسة، وأن العزة والذلة والعظمة والحقارة بيد الله تعالى، والأهم من ذلك كلّ أن القلوب بيد خالقها، فلا يمكن الاعتماد على اقبال الناس وإدبارهم، فإن إقبالهم وإدبارهم لا ثبات فيه مطلقاً ولا يعتمد عليه، فالبعض الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٢ يمثله بالقدر فيه ماء وصل الى درجة الغليان فهو في حالة تغيّر مستمر، ومن يتحرّك في تدبير اموره على ذلك الأساس فمثله مثل الذي يريد البناء على أمواج البحر، والمراهنة على معطيات رضا الناس وحالة الاعتماد عليهم لا ينتج الضرر الاخرى فقط، بل لا ينسجم حتى مع خط العقل في سلوكياتنا الدنيوية أيضاً. كل ما ورد في طرق العلاج من الناحية العلمية، وأما من الناحية العملية، فطريقة علاج حب الجاه هو أن يضع الشخص نفسه في حالة يميّ فيها «حب الجاه»، فمثلاً يجلس في المجالس العامة مع الأفراد العاديين وليس مع الشخصيات المرموقة، وعلى مستوى اللباس، يجب أن يتّخذ من النوع المتوسط وكذلك بيته ومركبه وطعامه وأمثاله ذلك. ويعتقد بعض اعظم علماء الأخلاق، أنّ أفضل طريقة لقطع حب الجاه هو العزلة عن الناس، بشرط ان لا تكون العزلة بدورها وسيلة لكسب الجاه عند الناس بطريقة غير مباشرة. وقد كان كثير من المتصوفة ودعاة العرفان، ولأجل كسر حب الجاه في نفوسهم يتصرفون في واقع الممارسة بسلوكيات لا يقبلها الشرع، والعجيب أنّهم كانوا يسمّون مثل هذه الذنوب الجلية بالذنوب «الصورية» القابلة للصفح والتسامح، وينقل المرحوم «الفيض الكاشاني» أنّ أحد الملوك القدماء قرر الذهاب الى زاهد زمانه، وعندما أحسّ ذلك الزاهد قرب وصول الملك أمر بأن يأتوه بالخبز والخضروات، وأخذ يأكل بنهم وحرص ويكبر اللقمة في يده، وعندما رأى الملك ذلك المنظر، سقط الزاهد من عينه وعاد إدراجه بدون أن يكلمه بشيء، فقال الزاهد: «الحمد لله الذي صيرفك عني». وينقل عن بعضهم أنّهم كانوا يأخذون بعض الأشربة ويضعونها في آنية ملوثة كي يتصور الناس أنّهم يشربون الخمر وبذلك يسقطون من أعينهم. وينقل أيضاً عن آخر عرف بالزهد بين الناس وأصبح محطاً للأنظار، فدخل الحمام يوماً ولبس ثياب شخص آخر تعمداً ووقف في وسط الطريق فعرّفه الناس فأخذوه وضربوه واخذوا الثياب منه وأعادوها لصاحبها، وقالوا هذا رجل كذاب ومخادع، وابتعدوا عنه!! الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٣ بلا شك أنّ هذه الأعمال وما شابهها قد تكون من الموارد المحرمة قطعاً وفي اخرى من المكروهات، ولم يبيح الشارع المقدس أبداً أن يضع الإنسان المسلم نفسه في هذه المواضع حتى يلوّث سمعته ويسقط من أعين الناس، وكما أنّ سوء الظن بالناس محرم في الاسلام، فكذلك توفير عوامل سوء الظن هو بدوره من المحرمات. وعليه يجب أن تكون الطرق في تهذيب الأخلاق مشروعاً ومطابقة للموازين الإسلامية والعقلية، ومع وجود الطرق الشرعية لا داعي لسلوك السبل غير



المشروعة. والعجيب في الأمر أن المرحوم «الفيض الكاشاني» عندما ذكر تلك الأمور عقب قائلاً: إن وضع الشراب المحلل في آنية توهم الناظر بالشرب للمحرم هو محل تأمل من الناحية الفقهية ولكن أهل الحب والهوى يمكن أن يعالجوا أنفسهم بأمور لا يفتى بها الفقيه أبداً، ويعتبرونها من طرق إصلاح القلب، فبعد ارتكابهم لتلك الذنوب «الصورية» كانوا يجبرونها بالأعمال الخيرية، وبعدها يذكر قصة سارق الحمام (١). لو كان هذا الكلام من بعض المتصوفة لما كان محلاً للتعجب، ولكن يصدر من فقيه معتبر كالفيض الكاشاني، فهو غير متوقع منه، فالتسلط على أموال الآخرين ولبس ثياب شخص آخر في الحمام هو من الذنوب القطعية، وهو ليس بالذنب الصوري، وارتكاب الذنب لا يناسب أهل الحب والهوى ولا يصلح القلب، علاوة على ذلك فمع وجود الطرق المشروعة فما الداعي للتوسل بتلك الطرق الملتوية؟ والأقرب للحق أن هذا العالم الكبير تأثر بكلمات الغزالي في كتابه «إحياء العلوم» فالغزالي لديه كثير من هذه الشطحات في دائرة السلوك والممارسة الصوفية، ولعل قصد المرحوم الفيض الكاشاني هو نقل الكلام عن الغزالي وليس تأييداً لمثل تلك السلوكيات. وهناك فرقة «الملامتية» (٢) وهي من الفرق الصوفية المعروفة، حيث انتخبوا تلك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤ الطريقة لتخريب سمعتهم وتشويه شخصيتهم أمام الغير، ومن المؤكد أن الإسلام لا يقَر مثل هذه الأعمال البعيدة عن المنطق والعقل والشرع، ويريد من الإنسان الوصول للحق عن طريقه المشروع لا غير. إن المرحوم الفيض الكاشاني لم يقَر أعمال وطرق الملامتية، الذين كانوا يرتكبون الكبائر لكي يسقطوا في أعين الناس، بل حرّمها في أماكن أخرى من كتابه. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥

## التبرير والعناد

### تنويه:

إن حالة التبرير للأخطاء تعتبر من أهم الموانع لدرك الحقيقة، لأنها السبب في عدم وصول الإنسان للحق بل وتركسه في أو حال الباطل. والقصد من أسلوب التبرير والعناد، ليس هو الاصرار على مستوى كشف الحقائق وطرح السؤال تلو السؤال، بل إن السؤال هو المفتاح لكشف الحقائق، ولكن المقصود هو أن الإنسان وبعد انكشاف الحقائق والبراهين، يبقى مصراً على الباطل ويتهرب من الحق بتشبهه بالحجج الواهية وإيراد المغالطات الغير المنطقية. يمكن أن تظهر هذه الرذيلة في فرد ما بصورة خاصة، أو تصبح سيرة وعادة لقوم من الأقسام. وقد أثبت التاريخ من بين الأقسام السابقة، أن قوماً من بني اسرائيل كانوا أكثر عناداً من من غيرهم، ولذلك تطرقت كثير من آيات القرآن الكريم لعنادهم واصرارهم في خط الزيغ والخطأ وستنطرق لبحثها في تفسيرنا للآيات إن شاء الله تعالى. ويمكن القول أننا نجد هذه الرذيلة متمكنة ومتجذرة في جميع الأقسام الذين يعيشون الجهل والانانية حيث لا يتكون أعمالهم القبيحة ولا يقلعون عنها بسهولة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦ وعلى أية حال فإن هذا الخلق القبيح من أسوأ الأخلاق الشيطانية، ويمكن القول إن أول درس تلقاه المعاندون على مستوى الاصرار على الخطأ كان بواسطة الشيطان، أما نتائج وافرارات هذا الخلق الذميمة فكبيرة جداً لدرجة أن الكثير من الحروب الدامية التي ذهبت بالأنفس والأموال ودمرت فيها المدن العامرة كانت بفعل هذه الخطيئة. بهذه الإشارة نعود للقرآن الكريم والروايات الإسلامية ونستعرض العوامل المسببة لهذا الخلق القبيح وآثاره الضارة وطرق علاجه: ١- «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (١). ٢- «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» (٢). ٣- «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ\* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أَعُوذُنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» (٣). ٤- «قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا\* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا\* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا إِسْتِكْبَارًا» (٤). ٥- «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ\* ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ\* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ... قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» (٥). ٦- «وَإِذْ

قال موسى لِقَوْمِهِ أَنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ... فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» (٦). ٧- «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ بِالْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٧ تَنْظُرُونَ \* ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعِيدِ مَرَاتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١). ٨- «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ» (٢). ٩- «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ \* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ» (٣). ١٠- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (٤).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى تتكلم عن الكفار المعاندين، فإذا ما أنعم الله عليهم ورحمهم وكشف عنهم البلاء لغرض تنبيههم لأخطائهم نراهم على العكس يزدادون غروراً، ويصرون على غيهم وطغيانهم «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ». نعم فإن هذه الفئة التي تتعامل مع الحق والواقع من موقع العناد والاصرار على الباطل، مرّة يتهمون الرسول صلى الله عليه وآله بالجنون وتارة يطلبون منه التسليم لكلامهم، وعندما يرون المعجزات كانوا يصرون ويستكبرون وينكرون كل شيء. فالله تعالى شأنه ولأجل تنبيههم، جعلهم عرضة للبلاء والتمحيص مرّة، ومرّة أخرى يغدق عليهم من نعمه ورحمته، فلم ينفع كل ذلك لا البلاء والتمحيص ولا اغداق النعم، وكل ذلك كان بسبب جهلهم وعنادهم وتعصبهم. وقال بعض المفسرين: إن الطغيان له أشكال مختلفة، طغيان العلم هو التفاخر، وطغيان الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨ المال البخل، وطغيان العبادة الرياء، وطغيان النفس اتباع الشهوات (١)، فيصاب الإنسان بكل هذه الامور على أثر اللجاج والعناد. وتحرك «الآية الثانية» لتتناول بالبحث المشركين اللجوجين ايضاً الذين لم يكونوا ليسلموا بأية قيمة كانت للمنطق السليم والواضح للرسول صلى الله عليه وآله، ولا استعداد عندهم لترك آلهتهم المصنوعة بأيديهم. فيقول القرآن الكريم في هذه الآية: «أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ». كثر القرآن الكريم هذا القول مراراً للمشركين من أن أصنامكم لا فائدة منها، فلا يدفون عنكم عدواً، ولا يرزقونكم، ولا يكلمونكم، ولا ينفعونكم ولا يضررونكم ولا- عقل لهم ولا شعور. ومع ذلك كلّه أي دليل لديهم لعبادة تلك الأصنام؟ وعلى الرغم من فقدان الدليل الحاسم على سلوكهم المخالف للعقل والفطرة، استمروا بلجاجه على عبادة الأصنام. وتعرض «الآية الثالثة» من هذه الآيات إلى أول لجوج ومتعصب في مقابل الحق، ألا وهو الشيطان، عندما تكبر وطرده من قبل الباري تعالى وفقد مقامه الرفيع والمنزلة التي كانت لديه بين الملائكة، وقد كان عليه أن يلتفت لخطأه الكبير، ويعود إلى الله تعالى من موقع الندم، ويغسل ذنبه بماء التوبة، ويطفىء النار التي أوججها بدموع الخجل، ولكنه أبى واستكبر وأصرّ على البقاء في دائرة المعصية أكثر وأكثر ولم يكن ذلك إلا بسبب التكبر والحسد واللجاجه، وقدر أن ينتقم من آدم عليه السلام وذريته، ويضلّهم بوساوسه، وليس ليوم أو ساعة أو شهر ولكنه سيستمر إلى نهاية الدنيا، في تكريس الإثم والخطيئة وعناصر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩ الانحراف والزيغ في كل المجتمعات فلا يسلم من منزلقات البؤس والفساد لا الكبير ولا الصغير ولا الرجل ولا المرأة. فطلب من الله تعالى: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ \* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ». ومن المؤكّد أن العمر الطويل له فائدة كبرى لكل شخص يزيد من حسناته، ويصحح أخطاءه، وإذا كان له ماضٍ أسود يبده إلى مستقبل سعيد ونوراني، ولكن العمر الطويل للطغاة والصعاليك والمعاندين على العكس من ذلك فله نتائج عكسية. ولعل إجابة دعائه بالعمر الطويل من رحمة الله تعالى التي تستوعب الخاطئين، أو ربّما كان تقديراً من الله وجزاءً لعبادته لله آلاف السنين، ولعله يعود عن غيّه، لكن هذه النعمة عندما تقع في أيدي الطغاة والصعاليك والمعاندين فستتحول إلى نعمة عليهم. وتأتي «الآية الرابعة» لتتحدث عن قوم نوح عليه السلام وعنادهم في مقابل دعوة نبيهم الرحيم بهم، فدعاهم ليلاً ونهاراً في الخلاء والملاء لينجيهم من العذاب، وكلما ألح عليهم في قبول دعوة الحق، ازدادوا غيياً وعناداً. فاشتكى نوح عليه السلام إلى الله وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي

دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا\* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا\* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا وَشَآءَ لِيَابَهُمْ وَأَصْرُرُوا وَأَسْتَكَبَرُوا اسْتِكْبَارًا». فأى تعصب وعناد هذا الذى يضع الإنسان اصابعه فى آذانه حتى لا يسمع الحق ويلف وجهه ويغطيه بثوبه حتى لا يرى من يدعوه إلى الحق والسعادة والخير، بل يتحرك بعيداً عنه ويتهرب من مواجهته؟! فالهروب من الحق له حدود، ولكنهم تعدواها إلى أبعد شىء ولم يتخذوا غير طريق المعاندة والتعصب والاستبداد. فكيف يجوز للإنسان المريض أن يفر من الطبيب، وللغارق فى الظلمات أن يتهرب من النور، وللغريق أن يتملص من المنقذ له؟ إنه أمر محير حقاً، ولكن العناد واللجاج الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣٠ والاستكبار يقف وراء الكثير من هذا القبيل من السلوكيات الغارقة فى الوهم والزيغ. ولا نجد أحداً من الأنبياء عليهم السلام دعا قومه كما دعا نوح عليه السلام إذ عمّر فيهم ٩٥٠ سنةً وأكد عليهم دعوته الإلهية مراراً وتكراراً، وعبارة «الليل والنهار» يمكن أن تكون إشارة إلى مجالسهم العمومية التى كانوا يجلسون فيها بالليل والنهار، فكان يدعوهم إلى الله تعالى فى كل وقت، ولم يؤمن له إلا قليل، وعلى حد تعبير البعض أن معدل من كان يؤمن به من قومه فرد واحد لكل اثنى عشرة سنةً. تعبير: «جعلوا أصابعهم فى آذانهم»، هو وضع رؤوس الأصابع فى الآذان لمنع السماع، أو هو إشارة لشدة موقفهم فى الهروب من الحق، وكأنهم كانوا يريدون أن يدخلوا أصابعهم كلها فى الآذان حتى لا يسمعو الحق. تعبير: «فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً»، يبين أن دعوة نوح النبى عليه السلام كانت لها نتيجة عكسية عندهم، نعم فإن المشاكسين والمستكبرين يصرون على أفعالهم عند سماعهم للحق، ومثلهم كمثل المزابل عند هطول المطر عليها حيث تزداد عفونةً وتشتد رائحتها النتنة. «الآية الخامسة» تشير إلى عناد قوم ابراهيم عليه السلام من عبدة الأوثان فى بابل بعدما أثبت لهم ابراهيم عليه السلام بدليل قاطع زيف آلهتهم، فحطم الأصنام كلها إلا كبيرهم وطلب منهم أن يسألوا الكبير عمّن فعل بالهتهم تلك الفعلة الشنيعة؟! لقد تنبهوا للأمر فى واقعهم ولأموأ أنفسهم واستيقظوا للحظة، ولو قدر أن تستمر هذه اللحظة لتغير موقفهم من الشرك إلى الإيمان، ولكن عنادهم ولجاجتهم وتعصبهم لم يمنحهم الفرصة للتفكير السليم وتقول الآية: «ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ». فقال ابراهيم عليه السلام: «أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣١ إذا تجرد الإنسان من تعصبه وعناده، ورأى بأم عينيه أن الذى كان يعول عليه دائماً فى المحن والصعاب، أصبح لا قيمة له اليوم وتبين زيفه بحيث لا يستطيع معرفته من عمل على تخريبه وتحطيمه، أليس من الجدير بذلك الشخص أن يستيقظ من نومته تلك ويتحرك بعيداً عن تلك السلوكيات الغارقة فى الزيف ويتجنب هذه الخرافات والاعتقادات السخيفة ويظهر فكره منها؟! نعم فإن التعصب واللجاج يضع حجاباً قوياً على عين وقلب الإنسان فينكر اوضح المسائل. واللطف فى الأمر أن الآية الاولى ذكرت: «فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ» وهو تعبير حاكى عن الاستيقاظ والانتباه، ولكن الآية الثانية تقول: «ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ» وهو تعبير عن تراجع من موقع الوضوح فى الرؤية وبدوافع جاهلية وغير منطقية مترسبة فى دوافع النفس. «الآية السادسة»، تستعرض عناد بنى اسرائيل الذى يضرب به المثل فى، هذه الآية وما قبلها اشارة إلى قصة القتل المبهم الذى وقع فى قوم بنى اسرائيل، وكاد أن يفضى إلى إقتال الطوائف فيما بينها. فقال موسى عليه السلام: بأمر من الله سوف نعزف القتال، فاذبحوا بقرة ولامسوا بقسم من بدنها ببدن المقتول، فسيقول لكم من هو القتال. حير هذا الاقتراح العجيب بنى اسرائيل، ولكنه فى نفس الوقت بعث الأمل فى نفوسهم، وحان الوقت لتنفيذ أوامر النبى موسى عليه السلام وانهاء المسألة، ولكن بنى اسرائيل وبصورة غريبة أخذوا يستشكلون ويتساءلون من موقع العناد وعدم الرغبة فى الامتثال، فمرّة يسألون عن عمرها ومرّة عن لونها واخرى عن نوعها وعملها، فبأسألتهم تلك ضيقوا فرصة العثور على مثل هذه البقرة لحظة بعد لحظة وبالتالي وبعد عناد كبير وسعر خيالى وجدوا البقرة بتلك الأوصاف المطلوبة، ولو أنهم لم يسألوا ولم يستشكلوا وذبحوا أول بقرة وقعت فى أيديهم، لأنحلت المشكلة، لأنه لو كان (المأمور به) مشروطاً بشرائط معينة لوجب البيان الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣٢ فى مقام الحاجة، وكما يقول الاصوليون: «أن تأخير البيان عن وقت الحاجة قيح». وفى الحقيقة إن هذه الأسئلة والتدقيق فى المسألة يدل على عدم إيمانهم بحكمة الله تعالى، والحكيم لا بد وأن يبين كل ما هو لازم وضرورى من الشرائط والقيود، ولا يحتاج للسؤال، ويمكن أن يكون قصدهم من ذلك هو عدم وجود تلك

البقرة حتى يستمروا بمغامراتهم التي يتحركون من خلالها في دائرة العناد دوماً في مقابل الإمتثال للحق، فقال القرآن الكريم: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ». فبتبين هذه الآيات مدى النزاع الذي حصل بين بني اسرائيل لمعرفة القاتل، وعلى ذلك كان يتوجب عليهم تنفيذ أوامر موسى عليه السلام بسرعة ليجدوا القاتل، ولكن اللجاج الذي دخل فيه بنو اسرائيل لم يعطهم الفرصة لانهاء الأمر فسألوا وسألوا حتى صعب عليهم الباري تعالى الأمر فأصبح البحث عن تلك البقرة أمراً مستعصياً جداً، فهي بقرة، صفراء بالكامل تسرُّ الناظرين، لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك، ولا ذلول وتثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلماً لاشيئه فيها، فمن البديهي عدم توفر مثل هذه الأوصاف في بقرة واحدة إلا بصعوبة، ولكن كان عليهم أن يدفعوا ثمن لجاجهم وعنادهم، فاضطروا لشرائها بثمن باهظ جداً، فذبحوها وضربوا بعضها ببدن الميت فعادت الحياة إليه باذن الله ودلهم على قاتله. «الآية السابعة» أيضاً تتحدث عن بني اسرائيل وعنادهم العجيب حيث أخذوا باطراف موسى عليه السلام وطلبوا من نبيهم المحال وقالوا: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً». الظاهر أنهم كانوا يعلمون أن الله تعالى ليس بجسم ولا جهة له ولا- مكان، ولكن كلامهم كان بسبب طغيانهم وعتوهم، ومن أجل أن يبين الله تعالى جيداً مسألة استحاله رؤيته، ولتأديب اولئك القوم المعاندين أمر بسبعين من رؤوسائهم أن يخرجوا مع موسى عليه السلام للميعاد في جبل الطور، ليتلقوا الجواب على سؤالهم العجيب هناك وينقلوا ما سيشاهدوه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣ لقومهم، وعند وصولهم لجبل الطور، سأل موسى عليه السلام بالنبأ عنهم أن يتجلى الله تعالى لهم جهرة، فقال: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي»، فأخرج هذه الفكرة من رأسك الى الأبد. فصعقت صعقة شديدة ملأت الكون، وزلزل الجبل وتلاشى، ومات ال ٧٠ نفر إلا موسى عليه السلام فقد فقد الوعي كما ذكر القرآن في ذيل الآية: «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَسْتُمْرُونَ». وعندما استيقظ موسى عليه السلام، طلب من الباري تعالى إعادة الحياة إليهم، لئلا تعود المشاكل بينه وبين بني اسرائيل: «قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنِي بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنِّي» واستجاب الله دعاءه وأعادهم للحياة كما صرح بها القرآن الكريم فيما بعدها من الآيات «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». ويتبين مما ذكر آنفاً أن موسى عليه السلام لم يطلب هذا الأمر من تلقاء نفسه، ولكن نزولاً عند رغبة بني اسرائيل، حتى يُلقنوا درساً عملياً ويفهموا ان الذي لا يستطيع أن يشاهد الصاعقة كيف يمكن له أن يرى الباري تعالى شأنه؟ وهو أيضاً عقاباً وتأديباً لهم حتى لا يطلبوا اموراً مستحيلة. «الآية الثامنة» من الآيات التي وردت في مقام الحديث عن عناد بني اسرائيل بعدما نصرهم الله على عدوهم وخلصهم من شر فرعون وجنوده حيث توجهوا نحو الديار المقدسة يعنى بيت المقدس، التي كانوا يتمنون الوصول إليها، وعندما وصلوا على مقربة من الأرض المقدسة جاءهم الأمر أن ادخلوا هذه الأرض ولا- تخافوا مما سيحدث فيها، ولكنهم قالوا لموسى عليه السلام: إن فيها اناس يسمون (بالعمالقة) أشداء أقوياء ولن ندخلها حتى يخرجوا منها. فقال لهم بعض المؤمنين من موقع النصيحة والمسؤولية بأنكم إذا دخلتم الباب عليهم فسينصركم الله على العمالقة بفضلهم وعنايتهم. ولكن بني اسرائيل ظلوا على غيهم وكما جاء في الآية الكريمة «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَإِخْلَاقٌ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٤ لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ». وهنا أيضاً ذاق بنو اسرائيل طعم عنادهم ولجاجتهم، فأخذ الله تعالى النصر عنهم ودخول بيت المقدس أربعين سنة، وتاهوا في الصحارى القريبة منها، فسَمُوا تلك الصحارى بأرض «التيه» التي كانت قسماً من صحارى (سيناء). والمسألة المهمة والتي يجب الإشارة إليها هو أن اللجاج وعدم الانصياع يفضي إلى التعامل مع الباري تعالى من موقع الاهانة والاستهزاء، حيث قالوا: «فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ»، فالإهانة والاستهزاء في هذا الكلام يتجليان بكل وضوح، ولكن الجاهل والأناني واللجوج لا يعرف منطق أفضل من هذا. والواقع أن التيه أربعين سنة في تلك الصحارى، كان حكمه ورحمة إلهية، وبهدف تغيير النسل الذي نشأ في مصر، والذي لم يستطع عمل موسى عليه السلام الثقافي والفكري الدؤوب أن يغيّر فيه الكثير، فجاء نسل جديد نشأ في الصحراء وفي وسط المشكلات فحصلت فيه التغييرات الداخلية اللازمة لتحرير الديار المقدسة من الاعداء وإقامة الحكومة الإلهية، وفي الحقيقة أن هذه العقوبة كانت في الواقع رحمة ربانية ولطف إلهي، وأكثر العقوبات الإلهية هي من هذا القبيل.

في «الآية التاسعة» من الآيات نقرأ حديثاً عن قوم فرعون الذين آتاهم الله تعالى «بتسع آيات» (١) إلهية على مستوى الاعجاز، ولم يكونوا بأقل عنادٍ واصرار على الانحراف من بنى اسرائيل حتى أنهم قالوا لموسى «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ\* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ». تعبيرات الآية واضحة جداً، فكلها تبيّن وتعكس العناد الذي كانوا عليه، فأولها نعتوا موسى عليه السلام بالساحر ومع ذلك يلجأون إليه لكي يخلصهم من البلاء، وتعبير «رَبِّكَ» علامة اخرى على العناد. وتأكيدهم على الإيمان بموسى عليه السلام على فرض انقاذهم من البلاء واضح الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥ من كلمة (إننا لمهتدون) وتعبير (ينكثون) التي وردت بصورة الفعل المضارع تبيّن أنهم أبرموا العهود ونقضوها مرّات عديدة، وهو دليل على عنادهم أيضاً. وبالتالي فإنهم ذاقوا عقاب عنادهم ولجاجتهم، حيث اغرقهم البارئ تعالى بجميع عدّتهم وعددهم ورؤسائهم في اليمّ (١). «الآية العاشرة» والأخيرة من هذه الآيات، نظرة لعناد المشركين العرب حيث كانوا يصرون على عنادهم ويتهبون من قبول دعوة الرسول صلى الله عليه وآله والتي كانت مدعمة بالآيات والمعجزات، ولو كان عندهم ذرّة من روح الحب للحقيقة، لقبّلوا احدى تلك المعجزات الكبيرة التي اتى بها الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ومن جملتها القرآن الكريم المعجزة الخالدة للرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ولكنهم كانوا في كل يوم يطلبون معجزةً جديدة، ومع ذلك لا يؤمنون بها أيضاً، إلى أن وصلوا إلى أقصى درجات اللجاجه والعناد، «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ». هذا الكلام هو دليل واضح على التعامل مع الموقف من موقع العناد، وفيه أيضاً نقطة مهمّة، ألا وهي أنهم كانوا يتصوّرون أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: إني افعل ما اشاء ومتسلط على جميع الكون، لكن الحقيقة أنّ المعجزات دائماً تتحقق بأمر إلهي وكيفما يشاء البارئ تعالى، لذا نقرأ في آخر الآيات: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا». ويذكر في شأن النزول أنّ قوماً من مشركي مكّة وعلى رأسهم (الوليد بن المغيرة وابو جهل) اجتمعوا عند الكعبة الشريفة وأخذوا يتحدثون عن النبي وكيفيه مواجهته، وبالتالي قرّروا أن يذهب أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقترح عليه أن يتوجّه إليهم يكلمهم ويكلمونه حول الدين الجديد، فأسرع إليهم الرسول على أمل قبولهم للحق، لكنّه سمع الكلام الأنف الذكر، بالإضافة إلى مجابتهم له بامور واهية ومهينه أخرى ومن المؤكد أنّهم لو كانوا يطلبون الحق ويريدونه، لتوجب على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦ النزول عند رغبتهم، أو على الأقل تنفيذ إحدى المعجزات، ولكنهم طالما شاهدوا المعجزات من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يذعنوا للحق، اضافة إلى أنّهم بطلبهم هذا اعترفوا إنّهم لن يؤمنوا لرقى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في السماء أمام أعينهم حتى ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرووه، ولو نزل الرسول صلى الله عليه وآله عند رغبتهم وآتاهم بالمعجزة هذه لما آمنوا، لأنّ سابقه عنادهم ومواقفهم السلبية من الدعوة هي أفضل دليل، فعندما كانوا يشاهدون المعاجز الباهرة، يقولون هذا من السحر وإنّ الرجل لساحر، وهكذا يجهضون أى أثر للمعجزات في وعيهم بتعاملهم معها بلغة الاتهام الذي ينطلق من موقع العناد. فتبيّن من مجموع الآيات الأنفة الذكر أنّ مسألة اللجاج والعناد على مرّ العصور وتاريخ البشر كانت ولا تزال من أهم الموانع في طريق الحق، حيث كان وجود هذه الحالة النفسية السلبية يمثل مشكلة عويصة تمتد في أعماق نفوس المشركين في الأقوام السابقة، وعليه فلو تحرك الإنسان في عملية الوصول إلى الحق والحقيقة فعليه أن يزيل هذه الصفة الذميمة من محتواه الداخلي ويتخلص منها.

### اللجاج والمماراة في الروايات الإسلامية:

أشرنا فيما تقدم إلى الأبحاث المتعلقة بالتعصب واللجاج، وأوضحنا ما يترتب على هذه الحالة الأخلاقية من خلال الآيات الكريمة، من العواقب الوخيمة الناشئة من التعصب والتقليد الأعمى أما في هذا البحث فسنستكلم عن المماراة واللجاج في دائرة الجدل، أو بتعبير آخر التمسك بمسألة خاطئة لا للتعصب القومي الاعمى، ولكن بسبب تجذّر العناد الطفولي في النفس والذي قد نشاهده في بعض الأفراد، فلا- يسلمون للحق بل يريدون التهرب منه. وكما رأينا في الآيات السابقة فإن هذه الرذيلة الأخلاقية أحرقت فرص السعادة والحياة

الكريمة لكثير من الأقسام. فوقعوا في مستنقع البؤس والرذيلة، ونرى في الأحاديث الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧ الإسلامية ابحاث موسعة حول هذا الموضوع: ١- في حديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «الْحَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ» (١). ٢- في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِيَّاكَ وَمِذْمُومَ اللَّجَاجِ فَإِنَّهُ يُبَيِّرُ الْحُرُوبَ» (٢). فتعبير اللجاج المذموم يعني أن الإنسان ربما يصير على امور الخير وبصورة منطقية فهو بلا شك أمر محمود ورمز للموقفية. ولكن الاصرار على اللجاج المذموم، هو سبب لاستفزاز الآخرين، والمداومة عليه يؤدي إلى التعامل مع الآخرين من موقع العقدة والخصومة وإثارة الحروب وسفك الدماء. ٣- في حديث آخر عن الإمام على عليه السلام: «جَمَاعُ الشَّرِّ اللَّجَاجُ وَكَثْرَةُ المُمَارَاةِ» (٣). وفي الواقع أن كثيراً من المشكلات والمصائب الاجتماعية لا مصدر لها إلا هذه الامور، فيقوم البعض بمناقشة الامور بدافع البحث والجدال والمماراة، ويقوم البعض الآخر ونتيجةً للجهل بالرد عليهم من هذا المنطلق نفسه، فينشأ النزاع والصداع دون أن يكون لهم هدف معين على مستوى الكشف عن الحقيقة وتحصيل الواقع، ولو أنهم سلكوا طريق العقل والتدبر، لاستطاعوا القضاء على كثير من المفاسد الاجتماعية من خلال الحوار المشترك الذي ينطلق من دوافع إنسانية في واقع الإنسان والحياة. ٤- وفي حديث آخر عن نفس الإمام الهمام عليه السلام: «خَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَبْعَدُهَا عَنِ اللَّجَاجِ» (٤). يستفاد من هذا التعبير أن روح اللجاج والمماراة لها علاقة وثيقة بجميع الصفات الرذيلة، فإما أن يتأثر بها أو يؤثر بواسطتها. ٥- ونقل عنه عليه السلام أيضاً: «لَا مَزَكَبَ أَجْمَحَ مِنَ اللَّجَاجِ» (٥). ويستفاد من هذا الحديث، أن اللجاج يؤدي بصاحبه إلى منزلقات سحيقة في حركة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨ الواقع الأخلاقي للإنسان، فمرة يجزه الى الكذب، واخرى إلى التكبر، وثالثة إلى الخداع والحيلة، ورابعة إلى الحرب والجدال كما جاء في الروايات السابقة. ٦- جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أن موسى بن عمران عليه السلام عندما أراد أن يترك استاذة الخضر عليه السلام، طلب منه النصيحة والموعظة، فقال له: «إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ أَوْ تَمْشِي فِي غَيْرِ حَاجَةٍ أَوْ تَضْحَكُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَادْكُرْ حَطِيئَتَكَ وَإِيَّاكَ وَحَطَايَا النَّاسِ» (١). في هذا الحديث وضع اللجاج موضع من يمشى بلا هدف والتدخل بما لا يعني الإنسان، وهو دليل على أن اللجوج لا يتبع العقل والمنطق بتاتاً. ٧- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ لَمَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ رَاكِسٌ الَّذِي رَانَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَصَارَتْ دَائِرَةُ الشُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ» (٢). وعلى أيّة حال فإن الأحاديث في ذم هذه الرذيلة كثيرة جداً. والأحاديث التي أوردناها هي غيض من فيض، وهي تبين أن هذه الرذيلة لا تسلك بصاحبها سوى سبيل البؤس والدمار وتبعده من الحق وتقربه من الباطل، وتكون عاقبته أليمة وموحشة.

### دوافع وعواقب اللجاج والمماراة:

من المعلوم أن هذه الصفة الأخلاقية هي من أخلاق الصبيان، ولكنها قبل كل شيء تنشأ من الجهل وقصر النظر، فذوا العقول يتحرّكون في حركة الواقع من خلال التدبّر والتفكر الذي ينطلق من موقع المنطق والدليل، فإذا ما ثبت لهم بالبرهان المنطقي، أن أمراً ما لا يتوافق مع الحقيقة فسرعان ما يتركونه ويقنعون عنه رغم اعتقادهم به لسنوات متمادية. ولكن الأفراد الجهال والقصيري النظر لا يقلعون عن شيء يعتقدون به ويمثل لديهم مفردة على مستوى المعتقد والدين، ولا يفيد معهم الدليل ولا المنطق. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩ ومن الأسباب الاخرى لتكريس حالة اللجاج والعناد هو مواجهة الشخص الذي ارتكب مخالفة معينة باللوم المفرط والتقريع الزائد عن الحد وأمام الملاء العام، فإن ذلك من شأنه أن يدفعه نحو الاصرار والعناد لإثبات أنه ليس على خطأ ويتحرّك في مواجهة الآخرين من خلال التمسك برأيه، وبالتدريج يعتقد أنه على صواب ويبقى على ما هو عليه، والعكس صحيح فإذا ما عمل بلطف ولين ومحبّة فسيرتدع ويعود إلى رشده. ولذلك نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الإِفْرَاطُ فِي المَلَامَةِ يَشُبُّ نِيرَانُ اللَّجَاجَةِ» (١). العامل الثالث لظهور هذه الصفة: هو احساس الإنسان بالحقارة والدونية، فعقدة الحقارة تمنع الأفراد من الاستماع والإنصياح للآخرين توكيداً لشخصيتهم، فلا يقبلون الكلام المنطقي ويصرون على سلوكهم وعملهم الباطل. أما الأفراد الذين لا يعيشون هذه العقدة ويمتازون بشخصية قوية، فلا حاجة لهم إلى هذا السلوك الباطل وسرعان ما يسلمون للبرهان والمنطق السليم ولا يجدون في أنفسهم

حاجة للاصرار على أفعالهم الخاطئة. ضعف الإرادة واهتزاز الشخصية يمكن اعتباره عامل رابع للجاج، ومن البديهي أن إقلاع الشخص من عادة تعودها لمدة طويلة ليس بالأمر السهل، والإعتراف بالخطأ ليس بالأمر الهين أيضاً، ويحتاج إلى قوة الإرادة والشجاعة، والأشخاص الذين يعيشون الحرمان من تلك الفضيلتين سيجدون في أنفسهم دوافع لا شعورية لسلوك طريق العناد واللجاج. «حب الراحة» يمكن أن يكون العامل الخامس، لأن ترك المسير الذي سار عليه الإنسان ولمدة طويلة ليس بالأمر السهل، وخصوصاً لدى الشخص المنعم والمحب للراحة. ومن اليقين أن التحرك على خلاف حالة الاسترخاء الفكري والكسل النفسي لا يلائم مذاقهم. فهذه من العوامل التي يمكن الإشارة إليها في دائرة اللجاج والممارسة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠ وأما آثارها السلبية فليست خافية على أحد، فهي تورط الإنسان في مشاكل بعيدة عنه كل البعد، كما تورط بنو اسرائيل بالبقرة من خلال البحث عن التفاصيل الدقيقة في دائرة الطاعة وامتنال الأمر، وما ترتب من صعوبة البحث عنها وثمرتها الباهض، فقد جاء في الحديث أنهم جمعوا أموالهم كلها لشرائها، وبعدها جاؤوا لموسى عليه السلام ويكون ويشتكون بأننا قد أفلسنا وافتقرت قبيلتنا وأصبحنا نستعطي من الناس بسبب العناد، فرَّق لهم النبي موسى عليه السلام وعلمهم دعاءً يعينهم على مشاكلهم «١». ومن افرازات هذه الرذيلة ومردوداتها السلبية على النفس هو الحرمان من فهم الحقائق التي تتولى تهيئة الأرضية لتكامل الإنسان، لأن اللجاج لا يعطي الفرصة للإنسان لإصلاح الخطأ والإذعان للحقائق، وعلى أثرها لا يستطيع التقدم والرقى في درجات الكمال. والأثر الثالث لهذا الخلق الرديء، هو العزلة الاجتماعية وابتعاد الناس عن الشخص الذي يعيش حالة العناد، فالناس عموماً لا يحبون اللجوج وينفرون منه، وليس لديهم استعداد للتعاون معه والدخول معه في أجواء حقيقية من التكافل الاجتماعي، لأن التعاون الاجتماعي يحتاج للمرونة والسماحة وغض النظر، وهي أمور لا تتوفر في اللجوج. وفوق هذا وذاك فمثل هؤلاء الأشخاص المغرورين ينعنون بالجهل وخفة العقل في المجتمع، ونفس سوء السمعة هذه يكون سبباً في عزلتهم وانزوائهم، كما هو معروف في حديث دعائم الكفر عن الإمام علي عليه السلام حيث قال: «وَمَنْ نازَعَ فِي الرَّأْيِ وَخَاصَمَ شَهْرًا بِالْمَثَلِ (بالفشل) مِنْ طُولِ اللَّجَاجِ» «٢». وخلاصة القول أن اللجاج والممارسة يبعد الإنسان عن الله والناس، بل حتى عن نفسه، ولن تصبح للإنسان مكانة بين الناس إلا بترك هذا الخلق السيء.

### الفرق بين الإستقامة واللجاج:

إذا ما اختار الإنسان طريق الخير ومسير الحق وثبت عليه، فيكون قد عمل بأفضل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١ الامور وهي بعينها فضيلة الصبر والاستقامة والتي تحدثنا عنها سابقاً، وإذا ما اختار الإنسان طريق الباطل وسبيل الانحراف مع عدم المرونة للتغيير بحيث إنه يعتبر الجميع على خطأ وهو وحده الصحيح، ولا يتحرك في سبيل تصحيح الخطأ وجبران الزيف، فيكون قد اختار طريق اللجاج، وهو من أسوأ الأخلاق.

### طريقة العلاج:

بصورة عامة وكما هو معلوم فإن طريق العلاج للأمراض الأخلاقية يتمثل في أمرين: «الأول»: الطريق العلمي وذلك من خلال تحليل عواقب تلك الرذيلة الأخلاقية، ومن هذا الطرق يمكن للشخص أن يعرف آثارها السلبية، ويعلم أنها ستبعده من الله تعالى والناس وتقف عقبة في طريق تكامله وتمنعه من إدراك الحقائق وتعزله عن الناس، وتضع الحجب على القلب، وحينئذ يتحرك هذا الإنسان من موقع الابتعاد عن هذه الرذيلة ويقطع جذورها من نفسه. اللجاج والممارسة لا ينسجم مع الإيمان كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «سَيِّئَةٌ لَا تَكُونُ فِي الْمُؤْمِنِ قِيلَ وَمَا هِيَ؟ قَالَ الْعُسْرُ وَالنَّكَدُ وَاللَّجَاجَةُ وَالْكَذِبُ وَالْحَسَدُ وَالْبَغْيُ» «١». و «الطريق الآخر» لمحاربة تلك الرذيلة هو الحل العملي والتصدي لها في ميدان الممارسة والعمل، فعندما يرى نفسه قد توفرت على عناصر ومقدمات ظهور الرذيلة في دائرة الحوار والنقاش، فعليه أن يسلم فوراً للحق ويشكر المتحدث، وإذا ما عاند وشاكس فليعتذر، ولا يعيد الكلام من لجاجه أبداً،

وإذا ما تكلم سهواً فليسكت ويستعد بالله من الشيطان الرجيم، وتكرار هذا البرنامج العملي ستتكسر حدة اللجاج في نفسه وتندثر. ثم عليه أن يبتعد عن الأفراد اللجوجين، ولا يترك الجدال والبحث أو المراء، وليقرأ عن العظماء كيف كانوا يقبلون الحق ولو من الصغير أو العبيد أو تلامذتهم، ويجلوهم ويحترمهم لأنهم قالوا الحق. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٢ وبما أن من آثارها المباشرة هو الرياء والجهل فكلمة استطاع الإنسان أن يكسر شوكة هاتين الصفتين في نفسه فستقل لجاحته، ولتذكر حالات الأقوام السابقة وكفرهم ومقابلتهم للأنبياء واختيارهم الكفر على الإيمان واستحقاقهم العذاب الإلهي لا لشيء إلا لأنهم لجوا في باطلهم وأصروا على زيفهم، ولثلاثاً يصاب بما أصاب أولئك القوم من قبل، وكيف أن بنى اسرائيل باعوا كل ما لديهم ليشتروا تلك البقرة بحيث أفضى بهم إلى الاستجداء وذهبوا لموسى عليه السلام ليساعدهم في التخلص من هذه الورطة، فعلمهم دعاء يعينهم على دنياهم (١)، وكل ذلك كان بسبب لجثهم وعنادهم. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٣

## الشكر وكفران النعمة

### تنويه:

«شكر النعمة» يمكن أن يكون باللسان أو بالعمل، وعليه فإن «الكفران» هو عدم الاعتناء بالنعمة وتحقيرها وتضييعها، وهو أيضاً من الرذائل الأخلاقية ذات العواقب الوخيمة، سواء كانت على الصعيد الفردي أو الاجتماعي، والواقع أن الشكر يقرب القلوب ويحكم المحيية في المجتمع، والكفران يقطع أواصر المحيية والوئام ويجعل من المجتمع جهنماً لا يطاق يعيش فيه الانسان حالات من العداوة والبغض والحقد! كفران النعمة مانع كبير أمام تكامل الروح الإنسانية وتهذيبها والسير إلى الله تعالى، حيث يتسبب في ذبول عناصر الخير في الضمير ويطفئ النور الباطني الممتد في أعماق الوجدان ويلوث الروح. و «شكر النعمة» هو قضية فطرية، اودعت في الإنسان لتفتح له آفاق التوحيد ومعرفة الله تعالى، ولهذا نجد أن كثيراً من علماء العقائد يفتحون بحوثهم بمسألة «ضرورة معرفة المنعم»، وسيأتي شرحها في المستقبل إن شاء الله تعالى. بهذه الإشارة نعود للقرآن الكريم لنستعرض فيه الآيات التي تدم حالة الكفران، وتمدح حالة الشكر للنعمة: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٤-١ «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (١). ٢- «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (٣). ٤- «وَلَئِن أَدَقْنَا لِلإِنسَانِ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورٍ \* وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعِيدَ صَرَءَاءَ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ» (٤). ٥- «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً» (٥). ٦- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدُلُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفُوراً وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ \* جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا وَبُنَسِ الْقَرَارُ» (٦). ٧- «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَوْمِيَّةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (٧). ٨- «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غُفُورٍ \* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سَدْرٍ قَلِيلٍ \* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكُفُورَ» (٨).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» تستعرض كلام النبي موسى عليه السلام مع بنى اسرائيل، حيث يذكرهم بأمر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٥ إلهي مهم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»، فذكرهم النبي عليه السلام بقضية الشكر ومعطياته والكفران وآثاره السلبية وذلك بعدما انتصروا على فرعون ونالوا الاستقلال وذاقوا طعم الحرية والعظمة وظهرت منهم بوادر كفران



النعمة. جملة «لأزيدنكم» فيها أنواع من التأكيدات، فهي وعد إلهي قطعي للشاكرين، بأنه سيزيدهم من فضله، واللطيف في الأمر أن الله تعالى لم يخاطب كفار النعمة بالقول: «لأعدبنكم» بل قال: «إن عذابي لشديد» وهو نهاية اللطف والرحمة في دائرة التعامل المولوى تجاه المخلوقين، وفي نفس الوقت تهديد شديد ووعيد مخيف لكفار النعم بأن عليهم أخذ العبرة من قصة بنى اسرائيل عندما كفروا أنعم الله «فتاهوا» في الصحراء أربعين سنة. في «الآية الثانية» يدور الحديث عن النبي سليمان عليه السلام وقومه، عندما اقترح عليهم أن يأتوه بعرش ملكة «سبأ»، فقال له أحد حواريه وكان عنده علم من الكتاب: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»، فشرع سليمان عليه السلام بالفرح يغمر نفسه لوجود مثل هذه الشخصيات في بلاطه ولديهم الروحيات والمعنويات القوية، فقرر أن يشكر الخالق تعالى، فقال: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ». والجدير بالذكر أن ثواب الشاكر ذكر في هذه الآية بوضوح، ولكن عقاب من يكفر بالنعمة ذكر بصورة غير مباشرة «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» حيث ركزت الآية على كرم الله تعالى، وهو نهاية رحمة الله ولطفه في دائرة التخاطب مع الإنسان. ويمكن الاستفادة نقطة مهمة أخرى من الجملة الانفة الذكر، وهي أن الله تبارك وتعالى يحذر عباده من الكفر ويدعوهم للشكر لا لحاجه منه إليهم، وحتى على فرض كفران النعمة فإنه يفيض من كرمه ولطفه على الناس لعلهم يرجعون عن غيهم ولا يحرمون أنفسهم من أنعم الله تعالى. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٦ وأساساً فإن الكتب الإلهية تعود بالنفع على العباد أنفسهم، فهي بمثابة دروس لهم، لتربية أنفسهم، فالبارى تعالى غني بذاته ولا يحتاج إلى أحد، لا لطاعة العباد ولا عصيانهم ولا يضره بالعصيان شيئاً. «الآية الثالثة» تحمل مضمون الآية السابقة حيث تستعرض لنا قصة «لقمان الحكيم»: «وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ». الحكمة التي أتاها الله تعالى للقمان تشمل معرفة أسرار الكون والعلم بطرق الهداية والصالح، والطريقة المثلى للحياة الفردية والاجتماعية، التي جاءت بصورة نصائح لقمان لابنه في سورة لقمان، وهي موهبة إلهية ونعمة روحية أكد الله تعالى على أهميتها، كما ذكر في الآية التي قبلها على إحدى النعم المعنوية، حتى لا يغرق الناس في منزلقات النعم المادية ويتصورون أن النعم والمواهب الإلهية تنحصر في الماديات فقط. ويجدر هنا الإشارة إلى نقطتين: «الأولى» إن الشكر أتى بصورة الفعل المضارع، والكفران بصيغته الماضي، وهي إشارة إلى أن مسير التكامل والرقى والقرب إلى الله تعالى يحتاج إلى المداومة على الشكر في حين أن لحظة من كفران بإمكانها أن تفضي إلى نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة. و «الثاني» إن الآية ركزت على صفتي (الغنى الحميد)، بينما كان التركيز في آية النبي سليمان عليه السلام على صفتي (الغنى والكريم) وهذا الفرق يمكن أن يكون إشارة إلى أن الله تعالى غني عن شكر المخلوقين، فالملائكة تسبح بحمده وتقده على الدوام، وإن كان غنياً عنهم أيضاً، ولكن العباد بشكرهم يستوجبون المزيد من النعم عليهم. «الآية الرابعة» انطلقت للحديث عن الأشخاص الذين يعيشون ضيق الاقلاق وعدم الإيمان والتقوى، فهم يعيشون الكفران للنعمة بكل وجودهم: «وَلَيْتُنَّ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ\* وَلَيْتُنَّ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ الْاِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٤٧ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ». نحن نعلم أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن الإنسان في واقعه السيء ويصفه بصفات ذميمة بصورة مطلقة، إنما يقصد الإنسان المنفصل عن الله في حركة الحياة ومن يعيش عدم الإيمان أو ضعف الإيمان، ولهذا ورد في الآية التي جاءت بعد الآيات مورد بحثنا: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ». بهذا الاستثناء يتبين أن الأفراد الذين يعيشون حالة اليأس من رحمة الله والغافلين والكفورين، أفراد لم يصلوا في واقعهم النفسى لمرحلة الإيمان بعد. وعلى العموم يمكن أن نستنتج من الآيات الانفة الذكر، أن الكفران وعدم الشكر تؤدي بالإنسان إلى التلوث بصفات سيئة أخرى تحرمه المغفرة والأجر الكبير. تعبير «لئن أذقنا» تعبير لطيف في الموردين فيقول: إن ضعاف النفوس والإيمان إذا سلبت منهم نعمة من النعم، فسرعان ما يجرى على ألسنتهم الكفر ويدب اليأس في قلوبهم، وإن جاءتهم نعمة إذا بهم يغترون ويتحركون في أجواء الغفلة والطغيان، والدنيا هي كلها شيء صغير وحقير، وما يصل إلى الإنسان منها أصغر وأحقر، ومع ذلك فإنهم يتأثرون بسرعة لضعف نفوسهم وضيق آفاق إيمانهم. ولكن الإيمان بالله تعالى ومعرفة ذاته المقدسة اللامتناهية في القدرة والعلم، تمنح الإنسان عناصر القوة والحركة وتعيه على مواجهة أكبر الحوادث السيئة والحسنه دون

أن تؤثر في نفسه شيئاً. وتطلق «الآية الخامسة» لتشير إلى الأفراد الذين يتوجهون إلى الله تعالى عند وقوع المصيبة ويدعونه ويتوسلون بلطفه بكل وجودهم، وبمجرد انقشاع سحاب الأزمة ينسون كل شيء ويكفرون مرة أخرى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٨ وطالما جربنا هذا الأمر في حياتنا الشخصية وشاهدنا ضعيفي الإيمان عندما يحصون بالبلاء، كالمرض والفقر والمصائب الأخرى، يتوجهون باخلاص للباري تعالى وبمجرد انكشاف تلك المصائب وعودة المياه إلى مجاريها تراهم يتغيرون ويسلكون طريق الكفر والحال أن الإنسان في هذه الأحوال أيضاً يجب عليه التوجه والالتجاء إلى الذات المقدسة أكثر من ذي قبل. وفي تكملة الآية الكريمة يعبر القرآن الكريم بتعبير جميل جداً حيث يقول: «أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا». فهنا إشارة إلى أنه كيف يمكن أن تكفروا وتتغيروا فأينما تذهبوا فأنتم تحت سلطته، وبإمكانه أن يعذبكم في أي مكان كنتم فيه سواء في البر أو في البحر؟ ويجب التوجه إلى أن كلمتي «الخسف» و «الغرق» في هذه الآية لهما مفهوم مترادف فالأولى يراد بها الاختفاء في الأرض، والثانية الاختفاء في البحر. «الآية السادسة» من الآيات تتوجه بالخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتشرح عاقبة كفران النعم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدُّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» وبعدها يضيف: «جَهَنَّمَ يَصِوْنُهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ». هذه التعبيرات تبين أن كفران النعم الإلهية، يمكن أن يؤدي بقوم أو بمجتمع بأكمله إلى قعر جهنم ولا يستبعد نزول العذاب الدنيوي فيها حيث تبدل دنياهم إلى جحيم لا يطاق. وقد اختلف المفسرون في المقصود من النعمة في هذه الآية، فبعض قال: إنها بركة وجود الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فالعرب المشركون قد كفروا بالنعمة بانكارهم لدعوته ورفضهم الادعان لرسالته فاحلوا قومهم دار البوار، وفسرنا البعض الآخر بأهل البيت عليهم السلام حيث كفر بهم البعض أمثال بنى امية، ولكن على الظاهر أن مفهوم الآية أوسع من هذه الدوائر والاطر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٩ في مصاديق الآية ويشمل جميع النعم الإلهية، وما ذكر آنفاً يعد من مصاديقها الواضحة، على الرغم من تصريح الآيات التي وردت بعدها بالأشخاص الذين تركوا الإسلام والتوحيد واختاروا الشرك وعبادة الأصنام، ولكن هذه النماذج تعتبر أيضاً من مصاديقها البارزة. وقال البعض الآخر: مثل الفخر الرازي والمرحوم الطبرسي في مجمع البيان، إن سبب النزول لهذه الآية ناظر لأهل مكة الذين أعطاهم الله تعالى أنواع النعم وأهمها بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من بين ظهرانيهم، ولكنهم لم يقدرُوا تلك النعمة وكفروا بها، فأصبحت عاقبتهم أليمه، فكفرهم بنعمة الرسول صلى الله عليه وآله هو نفس كفرهم بالله والرسالة! ولكننا نعلم أن شأن النزول لا يخص مفهوم الآية بمورد خاص. وتأتي «الآية السابعة» لتتحدث عن جماعة أنعم الله تعالى عليهم بنعمة ظاهرة وباطنة، نعمة الأمان والرزق الكثير والنعم المعنوية والروحية التي نزلت عليهم بواسطة نبيهم ولكنهم كفروا تلك النعم فعاقبهم الله تعالى بعقاب الجوع والخوف: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» اختلف المفسرون بأن هذه الآية هل تشير إلى مكان بالخصوص أم إنها مثال عام كلي، فبعض يعتقد أنها أرض مكة، وتعبير «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ...» يقوى ذلك الاحتمال، لأنه ينطبق بالكامل على أحوال وشرائط مكة، إذ هي أرض جافة وصحراء قاحلة غير ذات زرع وماء ولكن الله سبحانه قد باركها وأنزل عليها النعم من كل مكان. وتعبير «كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً» هو قرينه أخرى على أنها مكة، فأرض الحجاز غالباً ما كانت أرضاً غير آمنة إلامكة وذلك ببركة وجود الكعبة الشريفة. وعندما وصلت النعم المادية على أهل مكة إلى الذروة أتمها الله تعالى ببعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكنهم كفروا النعم المادية والمعنوية، فابتلاههم الله تعالى بالقحط والخوف، وهذا هو مصير من كفر بأنعم الله تعالى. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٥٠ ومع ذلك فإن مفهوم الآية يمكن أن يكون أعم فيستوعب في مضمونه جميع من يكفر بالنعمة وأرض مكة هي أحد مصاديق هذه الآية، حيث ورد في الروايات أن القحط والجوع أخذ منهم مأخذاً كبيراً بحيث كانوا يتغذون على أجساد الموتى لسد جوعهم، وكذلك في الغزوات الإسلامية، حيث أضرت بهم كثيراً. «الآية الثامنة» من الآيات، تنطرق إلى قوم من أكفر الناس، وهم (قوم سبأ) حيث حباهم الله تعالى: بأفضل النعم وأحسنها، ولكن غرورهم وغفلتهم واتباعهم لأهوائهم،

أعماهم وأصلهم، فكفروا، فأخذهم الله بذنوبهم ومحق تلك النعم من أيديهم، فقال: «لَقَدْ كَانَ لِسَيِّبٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جِئْتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ». وقد ذكر المفسرون أنه على الرغم من أن أرض اليمن خصبة ولكن لفقدان الأنهار فيها، كانت أغلب أراضيها باثرة لا يستفاد منها، ففكر القوم ببناء سد يمنع السيول القادمة من الجبال، فبنوا عدة سدود وأهمها (سد مأرب) حيث كان يقف أمام السيول بين جبلى بلق العظيمين، فتجتمع خلفه مياه كثيرة استطاعوا بواسطتها أن يزرعوا ويسقوا به جنائن وبساتين كثيرة قامت على طرفى السد، ونشأت حولها القرى وأصبحت مركزاً عظيماً للنشاط التجارى وتجمع الناس، فالقرى كانت متصلة ببعضها بحيث أن ظلال الأشجار كانت متصلة على طول الطريق ووفور تلك النعم كان مقترناً مع الأمان الاجتماعى والرفاه الاقتصادى، فكانت حياتهم هانئة جداً، اجتمعت فيها كل متطلبات الحياة آنذاك ومثل هذه الأجواء كان من شأنها أن تفضى لإطاعة الله تعالى والتكامل الروحى. ويستمر القرآن الكريم، فيقول إن النعم أصبحت كثيرة جداً مما حدى بهم لأن تتحرك فيهم عناصر الطغيان فنسوا ذكر الله تعالى وأخذوا يتفاخرون ويقسمون الناس إلى طبقات، ولكنهم بالتالى ذاقوا وبال أعمالهم فأرسل البارى تعالى عليهم سيل العرم: «فَاعْرُضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَا لَهُم مَّجْرِيَّ مَنِّينَ ذَوَاتِى أَكُلِ حَمِيْطٍ وَأَثَلِ الْاِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٥١ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيْلٍ \* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِيْ اِلَّا الْكٰفِرُوْنَ». ومن عجائب هذه القصة أن المفسرين ذكروا هجوم الجرذان الصحراوية على السد فأخذت تنخر فيه من الداخل دون أن يراها الناس المغرورون المشتغلون بالملذات وكفران النعم، وفجأة أمطرت السماء مطراً شديداً، وتحرك سيل عظيم وتجمعت المياه خلف السد، ولكن جدران السد لم تتحمل كل هذا الضغط، فانهارت وأخذ السيل طريقه للقرى والأراضى الزراعية، فلم يبق لها شيء، لا مزارع ولا أنعام، وتبدل كل شيء إلى صحراء قاحلة لا- ينمو فيها سوى النباتات البرية، ففرت الطيور الجميلة وحلت محلها الغربان والبوم، وتفرق الناس إلى الأطراف وأصبحوا من أفقر الناس يأسفون على ماضيهم الجميل، ولكن هيهات، حيث لا تفيد ساعة ندم. نعم فهذه هى حال الأقوام التى تغفل عن ذكر الله وتكفر بأنعمه. والظريف فى الأمر أن الأثرياء منهم اعترضوا على قرب المسافات بينهم، حيث يستطيع أن يسافر كل أحد لقرب المسافة ووفرة الخير فى الطريق، فقالوا: أصبح بإمكان الفقير أن يسافر معنا أيضاً، فطلبوا من الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم حتى لا يستطيع الفقراء السفر معهم أيضاً، نعم فقد وصلوا إلى أعلى مراتب الطغيان، فعاقبهم الله تعالى بأشد العقاب، فتفرق جمعهم وأصبحوا مضرباً للأمثال وخصوصاً فى الفرقه، فقالوا فيهم: (تفرقوا أيادى سباً). من مجموع الآيات محل البحث تتبين خطورة وبشاعة كفران النعم، حيث تناولت الآيات هذه المسألة وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع وخاصة ما أحل الكفران بالأقوام السابقة من نتائج مدمرة وعواقب مشؤومة فى حركة الإنسان والحياة.

### كفران النعم فى الروايات الإسلامية:

#### إشارة

تناولت الروايات الإسلامية هذه المسألة بصورة واسعة ومفصلة وتكلمت عن آثار حالة الكفران المشؤومة وأضرارها، وكذلك تناولت بركات الشكر للنعم والمواهب الإلهية، ومنها: الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٥٢-١ جاء فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَسْرَعُ الذُّنُوبِ عُقُوبَةً كُفْرَانُ النَّعْمَةِ» (١). ٢- ونقرأ فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «سَبَبُ زَوَالِ النَّعْمِ الْكُفْرَانُ» (٢). ٣- وعنه أيضاً عليه السلام: «كُفِرَ النَّعْمَةَ مُزِيلُهَا وَشُكِرَها مُسْتَدِيمُهَا» (٣). ٤- فى حديث آخر عنه عليه السلام: «كُفْرَانُ النَّعْمِ يُزِيلُ الْقَدَمَ وَيَسْلُبُ النَّعْمَ» (٤). ٥- وأيضاً عنه عليه السلام: «أَفَةُ النَّعْمِ الْكُفْرَانُ» (٥). ٦- وعنه عليه السلام أيضاً: «كَافِرُ النَّعْمَةِ كَافِرٌ فَضِلَ اَللّٰهُ» (٦). ٧- والاستدراج هو أحد عقوبات البارى تعالى ويعنى أن الله تعالى يغدق على عبده الكافر نعمه ثم يسلبها منه حتى يحس بالألم والعناء الشديدين، وقد جاء فى حديث عن الإمام الحسين عليه السلام: «اَلِاسْتِدْرَاجُ مِنَ اَللّٰهِ سُبْحَانَهُ لِعَبْدِهِ اَنْ يُسَبَّحَ

عَلَيْهِ النَّعْمَ وَيَسْلُبُهُ الشُّكْرَ» (٧). ٨- عن الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «الذُّنُوبُ الَّتِي تُغَيِّرُ النَّعْمَ الْبَغْيُ عَلَى النَّاسِ وَالزَّوَالُ عَنِ الْعَادَةِ فِي الْخَيْرِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ، وَكُفْرَانُ النَّعْمِ وَتَرْكُ الشُّكْرِ» (٨). ٩- وفي حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «كُفْرُ النَّعْمَةِ لَوْمٌ وَضِيبَةٌ الْأَحْمَقِ شَوْمٌ» (٩). ١٠- وختاماً نختم بحثنا بهذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في معرض حديثه عن جنود العقل وجنود الجهل، حيث أمر أصحابه بأن يتعرفوا على جنود العقل وجنود الجهل، وعندما سأله بعض أصحابه عنه قال: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعَقْلِ خَمْسًا وَسَبْعِينَ جُنْدِيًّا وَضِدَّهُ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٥٣ الْجَهْلُ إِلَى أَنْ قَالَ- وَالشُّكْرُ وَضِدَّهُ الْكُفْرَانُ» (١). ما ذكر في الروايات العشر السابقة، يبين مدى خطورة هذه الرذيلة وآثارها السيئة على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وكيف أن الإنسان ينحدر من أوج الكرامة وذروة النعمة إلى قعر الذلّة والمسكنة، وتسلب منه التوفيقات الإلهية ويتعد عن الله تعالى ويقرب من الشيطان. وهنا يجدر الإشارة إلى عدّة نقاط:

### ١- معنى كفران النعمة

الكفر يعني في الأصل الإخفاء، وبما أن الكافر يسعى في إخفاء وتغطية النعمة، وقيمتها فسُمّي عمله بالكفران. ومن البديهي أن الكفران مرّة يكون بالقلب واخرى باللسان واخرى بالعمل. ففي قلبه لا يستشعر الإنسان أهمية تلك النعمة، ويصرّح بلسانه بقلبه النعمة وعدم أهميتها، وفي العمل لا يتحرك من موقع الاهتمام بمواهب الله عليه، وبدلاً من أن يستعملها بالخير، يستعملها بالشر ولذلك قال كبار علماء الأخلاق: «الشُّكْرُ صِرْفُ الْعَبْدِ جَمِيعٌ مَا أَنْعَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَا خُلِقَ لِأَجْلِهِ». لذلك فالكفران هو استعمال النعم في غير محلها، فالعين التي وهبها الله تعالى للإنسان ليرى بها طريق الحق والآيات الإلهية ويشخص بها الطريق السوي من البئر لثلا يقع فيه، فإذا به يستعملها في موارد الحرام، وكذلك اليد والاذن وغيرها من الجوارح أو المال والثروة. وكأنّ هذا الكلام مقتبس من كلام الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول: «شُكْرُ النَّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ» (٢). وبهذا يتبين لنا معنى الشكر وعدم الشكر.

### ٢- عواقب الكفران

الكفران بالنعمة يفضي إلى نتائج سيئة كثيرة في دائرة الماديات والمعنويات في حياة الإنسان فمن ذلك أنه يتسبب في زوال النعم، لأنّ البارئ تعالى حكيم، لا يعطى شخصاً شيئاً بدون حساب ولا يسلب أحداً شيئاً بلا مبرر، فالذين يكفرون بالمنعم فلسان حالهم يقول: بأننا لا- نليق ولا نستحق هذه النعم، فتوجب الحكمة الإلهية سلب تلك النعم منهم، والذين يشكرون النعم فلسان حالهم يقول: إننا نستحق تلك النعم الإلهية وزد علينا يا رب، مثلاً عندما يرى الفلاح أنّ في بستانه أشجاراً مورقة أكثر من غيرها فسوف يعتنى بها أكثر من غيرها حتى تنمو وتكبر بسرعة وتثمر، وإذا شاهد أشجاراً لا تثمر ولا تورق ولا ظلّ لها مهما أهتم بها وبذل لها العناية في مجال السقي والتهذيب، فكفران الأشجار للنعمه يدعو الفلاح لعدم الاعتناء بها وتركها لحالها. وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ شَكَرَ النَّعْمَ بِجَنَانِهِ اسْتَحَقَّ الْمَزِيدَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى لِسَانِهِ» (١). وجاء في روايات اخرى نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام أنه وبمجرد الحمد والثناء يصدر البارئ تعالى أمره بزيادة النعم على ذلك العبد، فقال: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ وَحَمِدَ اللَّهَ ظَاهِرًا بِلِسَانِهِ فَتَمَّ كَلَامُهُ حَتَّى يُؤْمَرَ لَهُ بِالْمَزِيدِ» (٢). وبديهي أنّ الكفران يفضي إلى نتائج معاكسة كذلك، ويمكن أن يلفظ به الله تعالى ويؤخر عنه سلب النعمة ولكن وعلى أية حال إذا لم ينتبه الإنسان وبقي على ما هو عليه في دائرة الغفلة والجحود للنعمه، فستسلب منه بالتأكيد، لأنّ ذلك من لوازم الحكمة الإلهية. ومن جهة اخرى فإنّ الكفران يسبب البعد من الله تعالى وهو الخسران الأكبر، فعظماء علماء الكلام في أول أبحاثهم ذهبوا إلى أن شكر المنعم هو من أول الدوافع لمعرفة البارئ تعالى وأنّ شكر المنعم أمر وجداني، فعندما يرى الإنسان نفسه غارقاً بالنعم الظاهرة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٥٥ والباطنة، وأنّها ليست منه

فيسعى لشكر المنعم من خلال البحث عن مصدر النعمة، وهذا هو الذي يُمهد الطريق لمعرفة الله تعالى، ولكن الناكرين لأنعم الله والذين لا يقدرون المنعم فسيحرمون من معرفة الله تعالى، بالإضافة إلى ذلك فإن عدم شكر الخالق يفضي بدوره إلى عدم شكر المخلوق، فلا يقيم وزناً لجميل الآخرين ومعرفهم، وكأنه هو الذي له الحق عليهم، مما يسبب نفور الناس منه وكرهيتهم له، وبالتالي سيؤدي إلى العزلة والإنزواء في حركة الواقع الاجتماعي وقلة الصديق والناصر في مقابل المشكلات وتحديات الواقع الصعبة.

### أسباب ودوافع الكفران وطرق علاجه:

التقصير في الشكر ينشأ من عدم معرفة الإنسان بالمنعم بصورة كاملة، وأساساً فإنه لا يتحرك في طريق التدبر في النعم الإلهية، فمثلاً عندما ننظر إلى بدننا وما فيه من عجائب ودقائق وتفصيل على مستوى الخلقه فسننوجه إلى أهمية تلك النعم ويتحرك فينا حس الشكر لله تعالى. وعلى سبيل المثال إذا استطاع البشر أن يصنع مثل الأجهزة الموجودة في الإنسان (مثل القلب والكبد والكلى والرئتين) فستكون قطعاً أقل كفاءً من صنع خالقها، وستكلفه الكثير جداً، وعلى هذا فإذا أردنا حساب قيمة ما يوجد لدينا من أعضاء وجوارح بدنية فسيبين أن لدينا وبحوزتنا ثروة كبيرة جداً. أما النعم الخارجية، فيمكن أن تكون جرة ماء تساوي الدنيا بما فيها، وقد نقل عن بعض العلماء أنه دخل على أحد الملوك وكان بيد الملك قرح ماء فأراد أن يشرب فتوجه للعالم الكبير وقال له عطني، فقال له العالم: إذا كنت في يوم من الأيام عطشاناً لدرجة الموت وجاؤوك بالماء بشرط أن تتنازل عن الملك، فهل ستنازل؟ فقال نعم، فلا حيلة في ذلك. فقال له: كيف تتعلق بملك وحكومة تساوي شربة ماء؟ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٥٦ ويرى الإنسان حيناً آخر مريضاً يصرخ من شدة الألم بحيث يتمنى الموت على هذا الألم، فلو اعطيت للإنسان الدنيا بأسرها وهو على ذلك المرض، فلن يقبل بذلك، بل يرضى أن يأخذوا منه كل شيء إلا العافية. هناك نعمٌ ظاهرها غير مهم لكنّها إن فقدت فستعرض حياة الإنسان للخطر، مثل غدد اللعاب التي ترطب الشفاه والفم وتلين الأكل وتسهل عملية البلع، فإذا توقفت هذه الغدد في يوم ما فسيجف الفم ويعسر عليه الأكل ويتوقف عن الكلام وتصبح الحياة مستحيلة، فذلك الجزء الصغير من بدن الإنسان أهم بكثير من ثروات الدنيا أجمع. وكذلك في نعمة الشمس والهواء والنباتات والموهب الاخرى العظيمة وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (١). ويجب التنبه أن كثيراً من النعم الإلهية لا يتسنى للإنسان معرفتها، لأنها لن تُسلب منه، فبعض النعم والموهب تعيش مع الإنسان فإذا سلبت منه عرفها وأقر بعظمتها، وبعضها سيبقى في الكتمان وهي كثيرة جداً. مثلاً مسألة الجاذبية فلم يكن أحد يعرف قبل السفر إلى الفضاء وفقدان الجاذبية هناك، كم هي مهمّة هنا على الأرض، إذ لولاها لما استطاع الإنسان أن يفعل شيئاً لا زراعة ولا صناعة ولا حركة، فأقل حركة من الإنسان سيرتطم بالسقف والجدار وستتناثر الأطعمة والأشربة من المائدة ولن يستطيع الإنسان أن يأكل أو يشرب شيئاً، فحركة الأرض تؤدي إلى قذف كل شيء في الفضاء لولا الجاذبية وستتحول الأرض إلى صحراء قاحلة محرقة، فتفكروا إننا لو قضينا العمر في شكر هذه النعمة فهل سنؤدى شكرها؟ وإذا أضفنا إليها النعم المعنوية وهداية الأنبياء وكلام المعصومين عليهم السلام ونزول الكتب الإلهية، والتي هي أعلى وأهم من النعم الماديّة، فسنعرف مدى عظمتها وقيمتها مواهب الرحمن وسنعرف قدرتنا على الشكر كم هي ضعيفة وضئيلة. فالتوجه لهذه الامور تقلع جذور الكفران وتحبى فيه روح الشكر. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٥٧ ومنها نعرف طريقة العلاج، ولذلك قالوا: إن أول طريق للشكر هو المعرفة والتفكير بالموهب والصنائع الإلهية وأنواع نعمه الظاهرة والباطنة (١). الطريقة الاخرى: هي النظر في دائرة النعم والموهب المادية إلى المستويات الدنيا للناس، فكلما فكر الإنسان فيها فستبعث فيه روح الشكر، ولكن إذا نظر إلى من هو أعلى منه من حيث الثروة والنعمة فسوف تستولى عليه الوسواس الشيطانية وتؤذيه. ومن جهة ثالثة إذا ابتلى بمصائب الدنيا، فليعلم أنه يوجد مصائب أكبر من التي اصابته وليشكر الله أنه لم يتورط بالأكثر والأشد منها. وقد نقل عن شخص أنه اشتكى عند أحد العظماء أن السارق قد أتى وسرق كل شيء، فقال له: اذهب واشكر الله تعالى إذ لم يأت الشيطان الي بيتك بدلاً من السارق، فلو أخذ منك إيمانك فما كنت تفعل؟ (٢) وقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في كتاب

«التوحيد» المعروف بتوحيد المفضل حقائق توحيدية هامة من موقع تحليل ماهية النعم الإلهية في تفاصيلها الدقيقة ومن خلالها يفتح الإنسان على المنعم الحقيقي. ومن جملتها نعمة الكلام والكتابة وقد اعتبرها الإمام الصادق عليه السلام عمود الحضارة الإنسانية: وبعد شرح طويل لها قال: «فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام وذهن يهتدي به للأمر لم يكن ليتكلم أبدأ، ولو لم يكن له مهيأ وأصابع للكتابة ليكتب أبدأ، واعتبر ذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة، فأصل ذلك فطره الباري عز وجل وما تفضل به على خلقه، فمن شكر أثيب، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» (٣).

### الشكر قناة موصلة للنعم الإلهية:

النقطة المقابلة للكفران، هي شكر الإله، ومفهومها تقدير النعم بالقلب واللسان والعمل، أما التي بالقلب فهي معرفة الخالق والتسليم إليه والرضا بعباده وذكر الأمور التي تبين تقدير وشكر الخالق من قبل المخلوق في مقابل نعمه تبارك وتعالى، أما من الناحية العملية فهو وضع النعم والمواهب الإلهية في المكان اللائق والذي خلقها الله تعالى لأجله. يقول الراغب في المفردات: الشكر هو بمعنى التصور للنعمه وإظهارها، وقال البعض أن الكلمة في الأصل كانت «كشر» بمعنى الإظهار والابراز (والدابة الشكورة) تطلق على الحيوان الذي يواظب ويهتم بالزرع والماء وتسمن يوماً بعد يوم، و «العين الشكراء» بمعنى العين المليئة بالماء ولذلك فإن الشكر بمعنى امتلاء وجود الإنسان من ذكر المنعم للنعم. والشكر على نوعين: شكر تكويني وشكر تشريعي، الشكر التكويني هو شكر المخلوق للمواهب والنعم التي بحوزته وتحت تسلطه، لتنمو كالشجر والورد والثمرة تكون تحت إشراف الفلاح الخبير الذي يعرف كيف تثمر الثمار الجيدة، والكفران هو عدم ظهور أثر للمحافظة والمراقبة فيها من قبل الفلاح. لذلك فإن الذي يستعمل النعم الإلهية في طريق العصيان فقد كفرها تكويتياً. الشكر التشريعي هو أن يقوم الإنسان بشكر الخالق بالقلب واللسان. وذكرنا سابقاً أن الإنسان لا يستطيع أن يؤدي شكر الخالق ونعمه، لأن نفس هذا التوفيق للشكر هو نعمة منه تعالى وهو نفسه يحتاج لشكر آخر، ولذلك جاء في رواياتنا الإسلامية أن أفضل شكر الإنسان هو إظهار العجز عن شكر الله في مقابل نعمه والمعذرة عن ذلك التقصير، لأنه لا يستطيع أحد أن يؤدي ما يستحقه الباري تعالى. وذكرنا سابقاً الكثير من مطالب الشكر وما يقابلها من الكفران، ولتكميل هذا البحث نذكر بعض من الآيات والروايات عن المعصومين عليهم السلام، ونكتفي بهذا القدر منها: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ\* إِنَّ يَسْأَلُ سِيشَ كِنِ الرِّيحِ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٥٩ وشبيه لهذا التعبير جاء في آيات اخرى. ومرة يشير إلى العين والسمع والعقل فإنها أهم وسيلة للمعرفة الإنسانية فيقول: وأما القرآن الكريم فقد جعل الصبر والشكر أحدهما قرين للآخر وهما وسيلتان لتفتح العلم والإيمان في قلب الإنسان فقال: «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١). فالقرآن الكريم أشار في موارد عديدة لوجود هذه الفضيلة (فضيلة الشكر عند الأنبياء العظام)، وأمرهم بالشكر (٢) ومرة يخاطب آل داوود: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» (٣). ويقول في مكان آخر أن شرط رضا الباري تعالى هو الشكر: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» (٤). الآيات حول الشكر في القرآن الكريم كثيرة وتصل إلى حوالي ال ٧٠ آية، والجدير بالذكر أن صفة الشكور نسبت لله تعالى في سورة النساء الآية ١٤٧: «مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعِدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا». مفهوم الآية يبين أن الشكر إذا صدر بصورة ومعنى حقيقي فإن العذاب الإلهي سيرتفع بالكامل، علاوة على أن صفة الشكور نسبت لله تعالى، فإن الشكر هو من الصفات المشتركة مع الباري تعالى، والفرق أن الإنسان بوضع النعمة في موضعها السليم يكون قد أدى شكرها، وفي المقابل يكون شكر الباري تعالى بزيادة المواهب لعباده. وجاء في بعض الآيات القرآنية أن التوجه والانتباه للنعم الإلهية هو السبب في حث الإنسان على الشكر ويكون هو الرادع عن الذنوب، ونقرأ في سورة الأعراف في خطابه للاقوام السابقة، الآية ٧٤: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٠ وفي الآية ٦٩ من نفس السورة يقول: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وهذا التعبير صريح بأن الشكر يكون سبباً للفلاح.

خلاصة القول، أن أساس كل سعادة وبركة إلهية هو الشكر، لأنه يقرب الإنسان يوماً بعد يوم من الله تعالى، ويحكم أواصر المحبة بين العباد وخالقهم، وهو طريق التقوى والفلاح.

### فلسفة الشكر:

الإنسان المنعم قد يتوقع الشكر من الطرف الآخر، أو ربما يحتاجه في بعض الأحيان، سواء كان احتياجاً مادياً أو معنوياً، أو لأجل موقعه ومركزه الإجتماعي. ولكن الباري تعالى، هو الغني عن العالمين، حتى ولو كفر الناس جميعاً، فهو لا يحتاج لشكرهم، ومع ذلك فقد أكد على الشكر، فمثله كمثل باقى العبادات، ونتيجته تعود على نفس الإنسان، وإذا ما دققنا النظر قليلاً فستوضح فلسفته. إذا قدر الشخص النعم الإلهية سواء كان بالقلب أو اللسان أو بالعمل، فهو يستحق تلك النعمة، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم لا يسلب النعمة من أحد من دون دليل ولا يعطى لأحد من دون دليل، فعندما يشكر الإنسان النعم فليسان حاله يقول إننى مستحق للنعم، وحكمة الباري لا- توجب له النعمة فقط بل تزيده أيضاً. ولكن لسان حال الكافر يقول: إننى غير مستحق للنعمة وحكمة الباري تعالى توجب سلب تلك النعمة منه، وإذا شكر يوماً وكفر يوماً، فسيتعامل معه كالتالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (١). وعندما نقول أن الشكر سبب فى دوام النعمة فدليله هذا بعينه، وفى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «بِالشُّكْرِ تَدْوُمُ النُّعْمِ» (٢). الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٦١ وفى حديث آخر قال: «ثَمَرَةُ الشُّكْرِ زِيَادَةُ النُّعْمِ» (١). وعلاوة على ذلك عندما يتم غرس روح الشكر عند الإنسان، فتصل إلى شكر المخلوق، فشكر المخلوق فى مقابل ما يؤديه من أعمال جيدة، يكون سبباً مؤثراً فى حركة المجتمع وتفتح الاستعدادات الخلاقية وفى أعماق الإنسان وبالتالي فستتحرك المجتمع لشكر الخالق ومنه يفتح باب معرفته، فتتعمق العلاقة بين الإنسان وربّه، وكما أشرنا سابقاً فإن أول مسألة تبحث فى علم الكلام هى معرفة الله عز اسمه، وأهم دليل فيها هو مسألة شكر المنعم والتي هى بدورها نابعة من الوجدان أو كما يقال بأن: قياساتها معها. عملية الشكر بالإضافة إلى أنها تعرف الواهب، فإنها تعرف النعم نفسها أيضاً، فالنعمه كلما ازداد حجمها وكيفيةها، تستدعى شكراً أكبر وأكثر، ولأداء شكر المنعم تكون معرفة النعمة أمراً ضرورياً، وبالتالي تؤدى إلى توثيق الأواصر بين الخالق وعباده وتشغل نيران الحب له فى القلوب، وكم استتبع المواهب المادية، مواهب معنوية أعلى وأسمى!

### الشكر فى مصادر الحديث

الروايات فى هذا المجال لا تعد ولا تحصى، ونختار طائفة منها للقارىء الكريم: ١- فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الصَّائِمِ الْمُحْتَسِبِ وَالْمُعَافَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمُبْتَلَى الصَّابِرِ وَالْمُعْطَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمَحْرُومِ الْقَانِعِ» (٢). ٢- فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَكْتُوبٌ فِي التَّوَرَاةِ الشُّكْرُ مِنَ النُّعْمِ عَلَيْكَ، وَأَنْعِمَ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ فَإِنَّهُ لَا زَوَالَ لِلنُّعْمَاءِ إِذَا شَكَرْتُمْ وَلَا بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرْتُمْ» (٣). ٣- فيبين هذا الحديث أن الله تعالى وحده لا يزيد النعم فقط عند الشكر، بل وعلى الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٦٢ الإنسان أن يزيدها عند الشكر أيضاً. ٣- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثٌ لَا يَضُرُّ مَعَهُنَّ شَيْءٌ، الدُّعَاءُ عِنْدَ الْكَرْبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ عِنْدَ الذَّنْبِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النُّعْمَةِ» (١). وأهمية الدعاء والاستغفار فى الثقافة الإسلامية معلومة، ومع ما تقدم من الروايات أعلاه تتبين أهمية الشكر للإنسان وأن أمامه ثلاث حالات لا رابع لها، فإما أن يكون قد اصيب بمصيبة، أو وصلته نعمة، فهو خائف بسبب الحفاظ عليها، أو يزل ويصدر منه ما يغضب الرب، ودواء كل واحد منها ذكر فى الروايات، فالمشاكل تزول بالدعاء والذنوب بالاستغفار، وتثبيت النعم بالشكر، وجاء فى هذا المجال حديث عن الإمام عليه السلام: «نِعْمَةٌ لَا تُشَكَّرُ كَسَيِّئَةٍ لَا تُغْفَرُ» (٢). ٤- فى حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً، أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان فى يوم من الأيام راكباً ناقته و فجأة نزل وسجد خمس سجعات، وعندما قام وركب مركبه، قلت له: يا رسول

اللَّهُ رَأَيْتَ مِنْكَ الْيَوْمَ أَمْرًا لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ: «نَعَمْ إِسْتَقْبَلَنِي جِبْرِئِيلُ فَبَشَّرَنِي بِإِشَارَاتٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَسَجَدْتُ لِلَّهِ شُكْرًا لِكُلِّ بَشَرٍ» (٣). ونستوحى من هذا الحديث أن القادة الإلهيين يؤدّون شكر كل نعمة على حدة مهما استطاعوا. ٥- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أمر بشكر جامع وكامل فقال: «إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ فَقُلْ عَشْرَ مَرَّاتٍ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحْتُ بِبِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ عَافِيَةٍ مِنْ دِينٍ أَوْ دُنْيَا فَمِنْكَ وَحَدِّكَ لِأَشْرِيكَ لَكَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ بِهَا عَلَيَّ يَا رَبَّ حَتَّى تَرْضَى وَبَعْدَ الرِّضَا» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٣ وبعدها قال الإمام الصادق عليه السلام: إنك إن فعلت ذلك فتكون قد أذيت شكر النعم التي وافتك في ذلك اليوم. ٦- عن أمير المؤمنين عليه السلام في أحاديثه القصار والمليئة بالمعاني الجميلة، فيقول: «شُكْرُ النُّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ تَحْلِيلِهَا وَكَفَيْلٌ بِتَأْيِيدِهَا» (١). ٧- وقال عليه السلام في حديث آخر: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْكُرُ النُّعْمَةَ وَلَا يَرعى الحُرْمَةَ» (٢). والأحاديث في هذا المجال كثيرة جداً ولا يسعها هذا المختصر وما ذكر سابقاً هو نزر يسير منها.

### الشكر في سيرة المعصومين عليهم السلام:

نحن نعلم أن إحدى أشكال الحديث، هو فعل وتقرير المعصوم، وكما أن قوله يوضح ويبين لنا معالم الدين ومعارفه، فكذلك بعمله وسكوته في المواقع والمواضع التربوية المختلفة، سيرسم لنا معالم الطريق الصحيح للأحكام والمعارف والأخلاق خصوصاً في مجال الشكر، والأمثلة عليه كثيرة: ١- قال الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَ عَائِشَةَ لَيْلَتَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَتَعَبُ نَفْسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» (٣). ومنه يتبين أن الدافع لعبادة الأولياء هو الشكر، ونقلت هذه الجملة كثيراً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أحاديثه المختلفة، وهي «أَفَلَا أَكُنْ عَبْدًا شَكُورًا». ٢- في حديث عن هشام بن الأحمر أنه قال: «كُنْتُ أَسِيرٌ مَعَ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (الكاظم) فِي بَعْضِ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ إِذْ تَنَى رِجْلَهُ عَنْ دَابَّتِهِ فَحَرَّ سَاجِدًا، فَأَطَالَ وَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ الْأَخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٦٤ وَرَكَبَ دَابَّتَهُ فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ قَدْ أَطَلْتَ السُّجُودَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي ذَكَرْتُ نِعْمَةَ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيَّ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَشْكُرَ رَبِّي» (١) ويعلم من هذه الرواية أن الأئمة عليهم السلام، كانوا ملتزمين بأداء الشكر لكل نعمة، وكانوا يوصون مريديهم ومحبيهم بذلك أيضاً، حيث جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا ذَكَرَ أَحَدُكُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ شُكْرًا لِلَّهِ، فَإِنْ كَانَ رَاكِبًا فَلْيَنْزِلْ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْدِرْ عَلَى التُّزُولِ لِلشُّهْرَةِ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى قَرْبُوسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى كَفِّهِ ثُمَّ لِيَحْمِدِ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ» (٢). ٣- في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه واسمه أبو بصير: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لِيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ مِنَ الْمَاءِ فَيُوجِبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لِيَأْخُذُ الْإِنَاءَ فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ فَيَسْمِي ثُمَّ يَشْرَبُ فَيُنْحِيهِ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَشْرَبُ، ثُمَّ يُنْحِيهِ فَيَحْمَدُ اللَّهَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَشْرَبُ، ثُمَّ يُنْحِيهِ فَيَحْمَدُ اللَّهَ، فَيُوجِبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ» (٣).

### كيف يتم الشكر:

قلنا في تعريف الشكر أنه التقدير وعرفان الحرمة سواء كان باللسان أم بالقلب، والكفر هو التحقير للنعمة، وتضييعها، وعدم الاعتناء بالمنعم لها. وأهم قسم من مراحل الشكر، هو الشكر العملي، وكم يوجد أفراد يشكرون باللسان ولكنهم يخالفون عملاً، ويكفرون بأنعم الله تعالى. فالمسرفين والمبذرين والبخلاء والمتفاخرين والطاغين كل اولئك من مصاديق الجاحدين للنعم الإلهية، ويمشون في طريق كفران النعم، بعكس اولئك الذين ينفقون أموالهم سرّاً وعلانية، ويتواضعون لله وللناس رغم سعة أموالهم وتراثهم، ولا يريدون تضييع ما آثرهم الله تعالى به من فضله ويضعون الشيء موضعه، أو كما قال الله تعالى: «فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلنَّاسِ وَالْمَحْرُومِ» اولئك المؤدّون شكر النعم حقها في مقابل المعطى الحقيقي الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٥ لها، بل ويستحقون الزيادة، «وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» وورد في الروايات الإسلامية اشارات لطيفة لمراحل الشكر الثلاثة. نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام



أنه قال: «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ آدَى شُكْرَهَا» (١). ومن البديهي أن معرفة النعمة وأهميتها وقيمتها، يؤدي إلى معرفة الواهب لها ويحث على تأدية شكرها بالعمل واللسان. وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال لأحد أصحابه: «ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ صَغُرَتْ أَوْ كَبُرَتْ فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا آدَى شُكْرَهَا» (٢). ومن المؤكد أن القصد من القول الحمد لله، ليس هو لقلقه اللسان بل الحمد الحقيقي النابع من القلب والروح. ولذلك فإننا نقرأ في حديث ثالث عنه عليه السلام، أن أحد أصحابه سأله: «هَلْ لِلشُّكْرِ حَدٌّ إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ شَاكِرًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: يَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلِ وَمَالٍ وَإِنْ كَانَ فِيهَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقُّ آدَاهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ»...» (٣). وكذلك في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «شُكْرُ الْعَالِمِ عَلَى عِلْمِهِ، عَمَلُهُ بِهِ وَبَدَلُهُ لِمُسْتَحِقِّهِ» (٤). فهذه اشارات للشكر العملي في مقابل النعم الإلهية، وبالطبع إن العالم الذي لا يعمل بعلمه، أو يحجب علمه عن الآخرين، فهو عبد لا يؤدي شكر النعم، ولسان حاله يقول: أننى لا أستحق هذه النعم العظيمة. ويجب الإشارة إلى أن الشكر العملي يختلف باختلاف الأفراد ويتغير شكله من مكان الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٦ إلى مكان، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه القصير القيم، حيث أشار إلى أربع نماذج، فقال: «شُكْرُ الْإِهْكَ بِطُولِ الثَّنَاءِ، شُكْرُ مَنْ فَوْقَكَ بِصِدْقِ الْوَلَاءِ، شُكْرُ نَظِيرِكَ بِحُسْنِ الْإِحَاءِ، شُكْرُ مَنْ دُونَكَ بِسَبَبِ الْعَطَاءِ» (١). واحدى فروع الشكر العملي، وهو عندما ينتصر الإنسان على عدوه، أو بعبارة اخرى العفو عند المقدرة على العدو ما لم يكن خطراً فعلياً، وليجعل العفو عنه هو علامة لشكر الله تعالى وانتصاره عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ» (٢). كما وتجدر الإشارة إلى أن أفضل طرق الشكر العملي للنعم، هو الانفاق منها في سبيل الله تعالى، وقال على عليه السلام في هذا المجال: «أَحْسَنُ شُكْرِ النَّعْمِ الْإِنْعَامُ بِهَا» (٣). والطريقة الاخرى لشكر النعم العملي هي العبادة والدعاء، بل هو وحسب ما جاء في الروايات الإسلامية أفضل دافع للعبادة، والحال أن العبادة لأجل الحصول على الجنة هي من عبادة التجار والعبادة خوفاً من النار تعتبر من عبادة العبيد، فإذا كان الدافع للعبادة هو الشكر، فتلك هي عبادة الأحرار، وقال على عليه السلام: «إِنْ قَوْمًا عَبَدُوهُ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ» (٤).

### دوافع الشكر:

يمكننا تقوية روح الشكر ودوافعه، بطرق مختلفة متعددة، وأولها معرفة النعم، نحن نعلم أن الله تعالى قد أغرق الإنسان بنعمه ظاهرة وباطنة وفردية واجتماعية، ولحسن الحظ فإن تقدم العلوم من عجائب ونعم الله المحيطة بنا، من عجائب صنع الكون الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٧ والعالم إلى عجائب خلقه الإنسان وكل واحدة منها تعتبر نعمة عظيمة كبيرة تستحق الإجلال والوقوف عندها، فمثلاً الكل يعرف في وقتنا الحاضر جسم الإنسان وتركيبه وأنه مكوّن من مليارات الخلايا الصغيرة، وهي بدورها لها هيكل وشكل معقد محير للعقول، وكل خلية منها تعتبر نعمة تستحق الشكر، هذا بالنسبة للخلايا، وأما الدم فهو أيضاً يتكون من مكونات عديدة أحدها كريات الدم البيض والتي القى على عاتقها مهمة الدفاع عن الجسم في مقابل الميكروبات والأمراض المختلفة التي تهجم عليه نتيجة لتعامل الإنسان مع البيئة التي يعيش فيها، وإذا ما قيل قديماً أن كل نفس يستنشقه الإنسان يتألف من نعمتين وكل نعمة تستحق الشكر، اليوم وفي وقتنا الحاضر استحدثت آلاف بل ملايين النعم وكل واحدة منها تستحق الشكر فعلاً وحقاً. وإذا قال القدماء بأن العوامل الأربعة من الشمس والأرض والمطر والرياح تلتقى مع بعضها لتولّد لك رغيف الخبز، فنحن اليوم وبسبب تقدم العلوم نعلم جيداً أن العوامل التي تهب لنا رغيف الخبز لا تقتصر على هذه العوامل الأربعة بل هناك الآلاف من العوامل البيئية والبشرية تلتقى لتولّد لنا هذه النعمة والموهبة الإلهية. وعليه فإن دوافع المعرفة التي تتصل من خلال المعرفة تتسع يوماً بعد آخر وتأخذ أبعاداً جديدة ومتنوعة، وعلى هذا الأساس فإن استمرار حالة الشكر للنعم الإلهية يحصل ويتعمق في وجود الإنسان من خلال التدبّر ودوام التفكّر في هذه النعم الإلهية في حركة الحياة والواقع. الدافع الآخر للشكر هو أن الإنسان لا بد أن ينظر في الموارد الدنيوية إلى ما دونه من الناس

ليدرك عظيم نعمة الله عليه وما حباه من كثير المنّة وما أعطاه من القابليات والقوى والإمكانات التي يفتقدها الآخرون لأسباب مختلفة، وفي ذلك نقرأ في الحديث الشريف الوارد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لأحد أصحابه المعروفين (حارث الهمداني) يقول: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٨ «وَأَكْثَرُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فَضَّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ» «١» في حين أنّ الإنسان لو نظر إلى من فوّه من الأشخاص المثرين فإنّ ذلك سوف يتسبب له بتفعيل روح الطمع وعدم الشكر وبالتالي تتحرّك الوسوس الشيطانية في نفسه لتثير فيه حالة الابتعاد عن الله تعالى ونسيان النعمة، ومن الدوافع المهمّة الأخرى مطالعة بركات وآثار شكر النعمة والمنعم وما يترتب عليه من زيادة النعمة ودوامها كما تقدم ذلك بالتفصيل في الأبحاث المتقدمة. ومن أفضل الطرق لتفعيل حالة الشكر بين الناس تجاه أحدهم الآخر أن يتحرك الناس باتجاه مكافأة المحسن وتقدير الأشخاص الذين يساهمون في حركة الخدمة والإحسان في المجتمع سواءً كان التشجيع والثناء كلامياً أو فعلياً ولذلك قال الإمام علي عليه السلام في عهده المعروف لمالك الأشر: «وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسْتَيْءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سِوَاهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيْدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَدْرِيْبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ» «٢».

### شكر الخالق وشكر المخلوق:

لا شك أنّ الشكر للنعمة كما هو خلق جميل بالنسبة لله لشكر الله تعالى فكذلك هو خلق جميل ومطلوب من الإنسان تجاه المخلوق أيضاً، فالشخص الذي يؤدّي خدمة إلى الآخر ويتحرك في سبيل إيصال نعمة أو يتنازل عن خير من نفسه إلى الآخر فإنّ وظيفته الآخر الذي حصل على هذا الخير أن يشكر هذا الإنسان الذي تسبب في إيصال النعمة له رغم أنّه لا يريد ولا يتوقع الشكر من الآخر، فقد ورد في الرواية المعروفة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعِمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ» «٣». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٦٩ إن العبارة المعروفة: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمَخْلُوقَ لَمْ يَشْكُرِ الْخَالِقَ» رغم أنّها لم ترد في الروايات الإسلامية بهذا النص إلّا أنّ هذا المضمون والمفهوم قد ورد في الروايات الشريفة عن المعصومين، ويمكن أن يكون لها معنيان وتفسيران: الأول: أنّ ترك شكر المخلوق هو شاهد ودليل على روح العناد وكفران النعمة لدى هذا الشخص وبسبب ذلك فإنّه لا يعيش التقدير والاحترام للآخرين بل أحياناً تستولى عليه حالة انتظار الاحسان من الناس ويرى أنّهم مقصّرون في حقّه، ومثل هذا الإنسان سوف لا يعيش الشكر للخالق جلّ وعلا، ولا سيّما أنّ النعم والخيرات التي تصل إلى الإنسان عن طريق الآخرين تكون محدودة ولذلك يشعر بها الإنسان ويلمسها من قريب لأنّها تقع بين الفينة والأخرى، أمّا المواهب الإلهية فكثيرة ولا متناهية وتحيط بوجود الإنسان تماماً ولذلك فإنّها لشدة ظهورها تكاد تخفي على الإنسان الغارق في النعمة فلا يكاد يشعر بها. والآخر: أنّ شكر المخلوق هو في الواقع شكر الله تعالى، لأنّ شكر المخلوق ما هو إلّا واسطة للفيض وانتقال النعمة من الله تعالى إلى الآخرين، وعليه فإنّ من لم يشكر المخلوق فهو في الواقع لم يشكر الله تعالى. وعلى كل حال فقد ورد التأكيد على هذا المعنى في الروايات الإسلامية وأنّ المسلم لا بدّ أن يعيش الشكر للمخلوق الذي أوصل إليه النعمة، وللخالق الذي هو أصل النعمة بل وينبغي اعطاء الشاكر مزيداً من النعمة تشجيعاً لواقع الشكر كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله، أنّه ورد في التوراة: «اشْكُرْ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ» «١». ونقرأ في المفاهيم القرآنية أنّ الله تعالى يأمر بتقديم الشكر للمخلوقين إلى جانب شكره تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» «٢». ولا شك أنّ الوالدين لا يختصون بإيصال الخير للإنسان أو أنّهما أصحاب الحق فقط عليه (رغم أنّ حقهما عظيم) فإنّ كل من كان له حق معنوي أو مادي على الإنسان فلا بدّ من تقديم الشكر له. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٠ ونشاهد هذا المعنى في حالات وسيرة القادة الإلهيين حيث يشكرون الآخرين على أيّة خدمة مهما كانت ضئيلة ويجزلون العطاء على أقل نعمة تصل إليهم من الغير ومن ذلك ما ورد في قصة إحدى جوارى الإمام الحسين عليه السلام التي أهدت له وردة جميلة فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن أعتقها جزاء صنيعها هذا، وعندما سئل عن سبب

ذلك وأن هذا الجزاء الكبير لا يتلاءم مع تلك الخدمة الصغيرة من الجارية قال: «كذا أذنبنا الله» (١). وكذلك القصة المعروفة الاخرى عن الثلاثة الكرام وهم الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وعبدالله بن جعفر الذين كانوا في قافلة فتأخروا يوماً عنها فلجأوا في الصحراء إلى خيمة عجوز منفردة فسقتهم الماء وأطعمتهم من لحم الشاة الوحيدة لديها فلما انتهوا من الطعام وأرادوا الرحيل عنها قالوا لها: إذا وردت المدينة فأتي إلى دورنا لنجازيك على هذه الخدمة الكبيرة، ثم مضت أعوام من القحط الشديد في تلك الصحراء إلى درجة أن الأعراب وأهل الخيام في تلك الصحراء جاءوا إلى المدينة طلباً للطعام والغذاء، وفي أحد الأيام وقعت عين الإمام الحسن عليه السلام على تلك العجوز في أزقة المدينة تطلب لها طعاماً، فناداها الإمام وذكرها بنفسه وأنه قدم عليها مع أخيه وابن عمه إلى خيمتها فاطعمتهم من ذلك الطعام ولكن العجوز لم تذكر شيئاً ورغم ذلك فإن الإمام قال لها: إذا لم تذكرى ذلك فأنا أذكره ثم إنه وهب لها مالاً كثيراً وأغناماً كثيرة وبعثها إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام، فقام الإمام الحسين عليه السلام بمثل ما قام به أخيه الإمام الحسن عليه السلام من العطاء والكرم إلى هذه المرأة الكريمة، ثم أرسلها إلى عبدالله بن جعفر الذي صنع مثل ما صنع الحسن والحسين عليهما السلام حتى أن هذه المرأة (صارت من أغنى الناس) كما ورد في ذيل الحديث (٢). ونقرأ أيضاً قصة (شيماء) بنت حليمة السعدية وأخت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من الرضاعة حيث حباها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله وتقدم لها بفائق الاحترام والشكر جزاء للخدمة التي تقدمت بها أمها حليمة السعدية للنبي صلى الله عليه وآله في طفولته، فقد ذكر المؤرخون بأن طائفة كبيرة من قبيلة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧١ بنى سعد قبيلة حليمة السعدية وقوا أسرى بيد المسلمين في حرب حنين، وعندما رأى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله شيماء بين الأسرى تذكر خدماتها هي وأمها في أيام طفولته، فنهض من مكانه إحتراماً لها وفرش عباءته على الأرض وأجلس شيماء عليها وأخذ يسألها بكل لطف ومحبة عن أحوالها وقال: أنت صاحبة الفضل على وكذلك أمك، في حين أنه قد مر على ذلك ستون سنة تقريباً، وهناك طلبت شيماء من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يطلق سراح أسرى قبيلتها فقال: أنا اوافق على هذا الطلب من سهمي، فعندما سمع المسلمون ذلك وهبوا حصيتهم كذلك من الأسرى لشيماء، وبالتالي تم تحرير جميع أسرى هذه القبيلة بسبب تلك المحبة والخدمة التي عاشها النبي صلى الله عليه وآله في مرحلة الطفولة (١). ومثال آخر على ذلك هو ما ورد في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أنه كانت هناك امرأة تدعى (ثوبية) التي نالت شرف ارضاع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل «حليمة السعدية» من لبن ولدها «مسروح»، فعندما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وآله ورزقه الله المال كان يرسل لها بعض الثياب والهدايا إلى آخر حياتها حيث توفيت بعد واقعة «خيبر». والعجيب أنه جاء في بعض التواريخ أن هذه الامراة «ثوبية» كانت أمه «أبي لهب» وعندما بشرت أبا لهب بولادة رسول الله أعتقها أبو لهب (ومعلوم أن أبا لهب في ذلك الزمان قام بهذا العمل بسبب رابطة القرابة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث فرح أبو لهب لمّا رزق أخوه عبدالله). وعندما مات أبو لهب بعد سنوات من العداة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله وآله رآه أخوه العباس في عالم الرؤيا، فسأله عن حاله، فقال: أنا معدّب في النار، ولكن يخفف عنى العذاب في ليالي الأثنين بحيث أشرب الماء من بين أصابعي، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله ولد يوم الأثنين، وعندما بشرتني أمي ثوبية بولادته وعلمت أنها أرضعته لعدة أيام أعتقتها» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٢

## الغيب، التنازع بالألقاب وحفظ الغيب

### تنويه:

تقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب والذي يبحث عن الاصول العامة للقيم الأخلاقية بحث حول علاج آفات اللسان على أساس أنها أول خطوات إصلاح الأخلاق وتهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله تعالى، وقد وعدنا هناك أن نفضل الحديث عن هذه الحالة

ونذكر جزئيات اخرى في البحوث اللاحقة، وأحد افرازات آفة اللسان هذه هي مسألة (الغيبه) التي هي من أخطر المفسدات الأخلاقية وأكثرها إتساعاً وشيوعاً حيث تتسبب في هتك حرمة الآخرين، وكشف أسرارهم، وإشاعة الفحشاء، وتمادى المذنبين والمجرمين في سلوكهم، وبالتالي تفضى إلى تزلزل اعتماد الناس وثقتهم بالبعض الآخر، ولا ريب أن لكثير من الناس عيوب ونقاط ضعف مستورة غالباً، فإذا اتضحت هذه العيوب ونقاط الضعف فسوف تزلزل الثقة العامة بين الناس وتنتشر المفسدات الأخلاقية العديدة التي ذكرناها آنفاً في الوسط الاجتماعي، ولذا نهى الإسلام عن ذلك بشدة، وجاء في كتب علماء الأخلاق أن الغيبه من أسوأ آفات اللسان (رغم أن الغيبه لا- تنحصر بذكر الطرف الآخر باللسان، بل قد تتحقق بالقلم أو الإشارة أو التعرض بشكل من الأشكال للآخر). وبما أن السلوك إلى الله تعالى لا- يمكن أن يتحقق للإنسان ولا يرى المجتمع الإنساني الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٤ السعادة والصلاح بدون إزالة هذه الرذيلة الأخلاقية بين أفراد المجتمع فلذلك نجد أن النصوص الدينية قد اهتمت بهذا الأمر إهتماماً بالغاً. إن تسمية الأشخاص الآخرين بأسماء وقحة وألقاب قبيحة في غيابهم يعتبر فرع من فروع الغيبه المحرمة، رغم أنه قد يذكر بعنوان مستقل، ولذلك ذكرناهما تحت عنوان واحد. النقطة المقابلة للغيبه حفظ الغيب، أي أن الإنسان يذكر الآخرين من موقع المدح والثناء ويدافع عنهم في حال تعرضهم للغيبه لحفظ كرامتهم وسمعتهم بما ستأتي الإشارة إليه، وهذه احدى الفضائل الأخلاقية المهية وتتضمن بركات كثيرة على مستوى الفرد والمجتمع. على أية حال ونظراً لأهمية الموضوع، فقد تطرق القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى هذه المسألة وأصدر أحكاماً مشددة عليها: ١- «وَلَمَّا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (١). ٢- «وَيَلْبَسُ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُحْمًا» (٢). ٣- «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (٣). ٤- «لَأَيُّحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا» (٤).

### تفسير واستنتاج:

تنطلق «الآية الاولى» لتحدث بصراحة عن ثلاث أشياء نهى القرآن الكريم عنها، الأول: سوء الظن، ثم التجسس، ثم الغيبه، ومعلوم أن سوء الظن يقود الإنسان إلى التجسس على أحوال الآخرين وكشف أسرارهم، وبما أن كل إنسان لا يخلو من نواقص ونقاط الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٥ ضعف، فسوف تنكشف من خلال التجسس، وبالتالي تكون موضوعاً للغيبه. هذا وأن القرآن الكريم اهتم بمسألة الغيبه في هذه الآية أكثر من اهتمامه بمسألة سوء الظن والتجسس حيث تحرك في استجلاء مضمونها من موقع الاستدلال وقال: «وَلَمَّا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ». هذا التشبيه يشكل في الواقع دليلاً منطقياً يبين جميع أبعاد المسألة، فالشخص الغائب قد شبه هنا بالميت، والرابطة معه هي رابطة الاخوة، وسمعتة وشخصيته بمثابة جسده، وغيبته بمثابة أكل لحمه، وهو العمل الذي ينفر منه وجدان كل فرد مهما كان ضعيفاً، ولا يجد كل إنسان الاستعداد لارتكابه حتى في أشد الظروف وأقسى الحالات. وهذا التشبيه يمكن أن يكون إشارة إلى نكات اخرى كثيرة: فمن جهة أن الشخص الغائب مثل الميت في عدم قدرته على الدفاع عن نفسه، والتهجم على من لا يقدر على الدفاع عن نفسه يعدّ من أسوأ الحالات الأخلاقية في الدناءة والحقارة. ولا شك أيضاً أن تناول الميتة لا يتسبب في سلامة البدن والروح، بل يفضى إلى الابتلاء بأنواع الأمراض، وعليه فإن المستغيب إذا ما استطاع اطفاء نار حسده وحقده بواسطة الغيبه وبصوره مؤقتة، فسوف لا يمضى وقت طويل حتى تورق بذور المفسدات الأخلاقية التي زرعها في قلبه وتعمل على زيادة قلقه وتوتره النفسى. وكما أن الحيوان أو الإنسان الآكل للميتة يتسبب في انتشار الأمراض والميكروبات في الوسط الذي يعيش فيه، فكذلك الشخص المستغيب يعمل على إشاعة الفحشاء والمنكر بين المسلمين بذكره عيوب وذنوب الآخرين المستورة. عندما يذكر القرآن الكريم هذا المثال بتفاصيله الدقيقة فإنه يروم إلى توير وجدان الإنسان وفطرته تجاه هذا الذنب الكبير، ولعل هذا هو السبب في حكاية الآية المثال المذكور بصيغة سؤال لكي يجد الإنسان الجواب بنفسه في أعماق وجدانه وبالتالي يكون تأثيره أكبر في واقع الإنسان وأحاسيسه حيث تقول الآية: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا؟». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٦

وضمناً فإن الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن موارد الاستثناء من حكم الغيبة وجوازها (من قبيل التظلم والمشورة وإصلاح ذات البين) هي في الواقع من قبيل المضطر لتناول الميتة حيث ينبغي به أن يقنع بالحد الأقل منها. ولكن قد يثار هذا السؤال، وهو أننا لا نرى في جميع أنحاء العالم من يتناول لحم إنسان ميت (فكيف إذا كان أخاه)، فإن شناعه هذا الفعل وقبحه مما لا يكاد يخفى على أحد، في حين أن ممارسة الغيبة تعدّ من الأمور المتعارفة والمنتشرة في المجالس إلى درجة أنها تعدّ أحد وسائل الترفيه والفكاهة، فكيف نفسّر هذا الاختلاف بين هذين الحالين؟ الظاهر أن هذا الأمر لا دليل له سوى تفضي الغيبة وكثرة تداولها بين الناس بحيث أدى إلى التقليل من قبحها إلى هذه الدرجة. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع التهديد الشديد لمن يمارس الغيبة (السخرية والاستهزاء) في حق الآخرين وتقول بأن العذاب العظيم ينتظر هؤلاء الأشخاص الذين يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم بألسنتهم أو حركات أيديهم أو يغمزونهم بأعينهم من موقع التهمة والخصومة: «وَيَلْبَسُ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُْمَزَةً». كلمة «لمزة» من مادة لمز على وزن رمز وكلمة «همزة» بنفس الوزن كليهما من صيغ المبالغة، واختلفوا هل أتهما بمعنى واحد، أو يختلفان في المعنى؟ هناك كلام بين المفسرين، بعض يرى أتهما بمعنى واحد، وبعض آخر يرى أن الهمزة بمعنى الغيبة واللمزة بمعنى التعمير، وذهب ثالث إلى عكس هذا المعنى، ورابع إلى أن الهمزة تقال لمن يعيب على الآخرين بالإشارة بينهما اللمزة تقال لمن يقوم بهذا العمل باللسان، وخامس يرى بأن الأولى هي تعبير الشخص بالعلن والثانية وبالخفاء وبعض يرى أن «الهمزة» تقال لمن يعيب الشخص في حضوره بينما «اللمزة» تقال لمن يعيب شخصاً في غيابه. ويذكر بعض المفسرين أن مقولة «الهمز واللمز» عبارة عن صفتين رذيلتين مركبتين من حالات الجهل والغضب والتكبر، لأنهما تسببان في إيذاء الآخرين وجرح عواطفهم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٧ وشخصيتهم وكذلك تتضمنان نوع من حالة التفوق وطلب العلو، وبما أن مثل هذا الإنسان لا يرى في نفسه فضيلة وصفه حسنة فإنه يتحرك لجبران هذا النقص من موقع ذكر عيوب الآخرين ونقائصهم ليحرز بذلك تفوقه «١». وقد ذكرت بعض التفاسير وطبقاً لحديث شريف أن هاتين الصفتين هما من صفات المنافقين «٢»، والتعبير بكلمة (ويل) في بداية هذه الآية والتي وردت في سبع وعشرين مورداً في القرآن الكريم هي إشارة إلى اللعن والهلاك وأنواع العذاب لمن يرتكب مثل هذه الأفعال، وما يقال من أن هذه الكلمة إشارة إلى بئر أو وادي عميق في جهنم ملتهب بالنيران هو في الواقع من قبيل تفسير الكلي بمصداقه. وهذه الكلمة وكذلك كلمة (ويس) و (ويح) كلها تأتي لبيان حالة التأسف التي تصيب الإنسان، غاية الأمر أن (الويل) تأتي في الموارد الشديدة القبح و (ويس) تأتي في مقابل حالة التحقير، و (ويح) تأتي في مقام الترحم «٣». ومع الالتفات إلى موارد استعمال كلمات (ويل) في القرآن الكريم يتضح جيداً أن هذه المفردة تستخدم في الموارد التي يكون فيها العمل قبيحاً جداً، ومنه يتضح كذلك أن الغيبة والتنازع بالألقاب يعتبر في دائرة المفاهيم القرآنية من أقبح الأعمال. «الآية الثالثة» تتحدث عن الذين يشيعون الفحشاء بين الناس من موقع الدم لهم والتهديد الشديد بالعذاب الأليم لمرتكب هذه الرذيلة وتتضمن كذلك ذم الغيبة لأن إشاعة الفحشاء تتم غالباً من خلال الغيبة أو التهمة فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وبالطبع فإن شأن نزول هذه الآية إنما هو في مورد التهمة التي نسبها المنافقون لبعض زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكن مسألة إشاعة الفحشاء بين الناس لها مفهوم عام يستوعب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٨ موارد كثيرة لا سيما الغيبة. وفي الحقيقة إن الآية الأولى من الآيات المذكورة آنفاً تتحدث عن البعد الفردي لحق الناس بالنسبة إلى الغيبة ومن هذه الآية نستوحى الآفاق السلبيه الاجتماعية لظاهرة الغيبة، لأنه في كل مورد يقوم الناس بارتكاب الخطايا والذنوب في الخفاء ثم يفتضح أمرهم فإن الكثير من الأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان واهتزاز القيم الأخلاقية في واقعهم سوف يجدون في أنفسهم ميلاً ورغبة لإرتكاب مثل هذه الذنوب. «الفاحشة» من مادة فحش، وهي في الأصل تعني كل فعل خرج عن حد الاعتدال وأضحى فاحشاً، وعليه فإن هذه الكلمة تشمل جميع المنكرات والسلوكيات القبيحة في دائرة الاخلاق رغم ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم في عدة موارد وكذلك في المصطلح المتداول بين الناس بمعنى الانحراف الجنسي والتلوث بأنواع المحرمات للشهوة الجنسية، ولكن هذا لا يمنع من عمومية الفاحشة لموارد اخرى، وفي الحقيقة إن استعمالها في خصوص الانحرافات

الجنسية هو من قبيل استعمال الكلى في مصداقه البارز، وعليه فإن اشاعة الفحشاء الوارد في هذه الآية لا ينحصر بالانحراف الجنسي، بل يرد في موارد اخرى تأتي غالباً عن طريق الغيبة. وفي الآية ٤٥ من سورة العنكبوت نقرأ عن الصلاة: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». ولهذا السبب ورد في ذيل هذه الآية حديثاً شريفاً يقول: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يذكر في الآية أعلاه أن جزءاً مثل هؤلاء الأشخاص هو العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وهذا يؤكد أن الغيبة وإشاعة الفحشاء لها آثار مخربة في حياة الإنسان على المستوى الفردي والاجتماعي. وآخر ما يقال في تفسير الآية محل البحث أن القرآن الكريم ولغرض التأكيد على هذه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٧٩ المسألة المهمة لم يقل إن الذين يشيعون الفحشاء لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة بل قال: «إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وفي «الآية الرابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث نقرأ إستثناءً لحرمة الغيبة، وهو ما إذا كانت الغيبة صادرة من مظلوم يريد أن يأخذ بحقه من الظالم ومن ذلك يتضح جيداً أن الغيبة لا تجوز بدون مبرر ومسوغ فتقول الآية: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً». والمراد بالجهر من القول هو أي نحو من الإظهار اللفظي سواء كان بصورة شكوى أو حكاية أو غيبة أو لعن واذم وأمثال ذلك، وعليه فإن وقوع مظلوماً يحق له ولغرض الدفاع عن نفسه أن يفضح هؤلاء الظالمين ويذكر أعمالهم العدوانية للآخرين. ومن أجل، أن لا يسىء الناس الاستفادة من هذا الاستثناء ويتحركون من موقع الغيبة والوقعية بالآخرين بحجة أنهم مظلومون فإن الآية الكريمة تعقب في آخرها بقوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، فهو مطلع على نيات الأشخاص وأفكارهم ودوافعهم في أعمالهم هذه. ومما تقدم من الآيات الكريمة نستوحى قبح وشناعة الغيبة وبالتالي فإن عواقبها الدنيوية والاخرية ستكون اليمه للغاية.

### الغيبة في الروايات الإسلامية:

وقد ورد في المصادر الروائية وكتب الأخلاق روايات كثيرة في ذم الغيبة، حيث تقرّر هذه الروايات في مضامينها حقيقة مذهلة حول الآثار الوخيمة للغيبة وعقوبتها الأليمة إلى درجة أنه قلما نجد بين الذنوب والمحرمات ما ورد في حقه مثل هذه الكلمات والتعابير، ونحن نختار منها عشر روايات: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٠-١ نقرأ في حديث شريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خطب يوماً في المسلمين ونادى بصوتٍ رفيع بحيث سمعته النساء في بيوتهن وقال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ» (١). ٢- وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنه خطب يوماً بالمسلمين وتحدث عن ذم الربا حتى أنه ذكر أن الدرهم من الربا أشد من ستة وثلاثين زينة ثم قال: «إِنَّ أَرْبَا الرِّبَا عَرَضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ» (٢). هذا التعبير الذي يقرّر أهميته ووخامة الغيبة بالنسبة إلى الزنا حيث ورد في روايات متعددة وفي بعضها ذكر السبب في ذلك وهو: «أَمَّا صَاحِبُ الزَّانَا فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا صَاحِبُ الْغَيْبَةِ فَلَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ صَاحِبَهُ الَّذِي يَحْلَهُ» (٣). ٣- في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الْغَيْبَةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهَا لِتَأْكُلَ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» (٤). وهذه الخصوصية تترتب على الغيبة وكما سيأتي في البحوث اللاحقة بسبب أن الغيبة تتعرض لحق الناس وبالتالي فإن حسنات المغتاب سوف تنتقل إلى صحيفة أعمال الشخص الآخر الذي وقع مورد الغيبة لجبران الخسارة والضرر الذي تحمله من هذه الغيبة. ٤- وجاء في حديث قدسي أن الله تعالى خاطب نبيه موسى عليه السلام وقال: «مَنْ مَاتَ تَائِباً مِنَ الْغَيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِراً عَلَيْهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ» (٥). وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد تعبيراً مذهلاً عن مخاطرة الغيبة حيث قال: «مَنْ مَشَى فِي غَيْبَةِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتَهُ كَانَ أَوَّلَ خَطْوَةِ خَطَايَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨١-٦ وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «مَا عَمَرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبَةِ إِلَّا خَرَّبَ بِالذِّينِ فَتَزَهُوا أَسْمَاعَكُمْ مِنْ اسْتِمَاعِ الْغَيْبَةِ فَإِنَّ الْقَائِلَ وَالْمُسْتَمَعَ لَهَا شَرِيكَانِ فِي الْإِثْمِ» (١). ٧- وفي حديث آخر أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله و

آله يتحدث فيه عن الأضرار المعنوية الكبيرة للغيبة ويقول: «مَنْ إغتاب مُسْلِماً أَوْ مُسْلِمَةً لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ صَلَاتَهُ وَلَا صِيَامَهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً إِلَّا أَنْ يُعْفَرَ لَهُ صَاحِبُهُ» (٢). ٨- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ رَوَى عَلَى مُؤْمِنٍ رَوَايَةً يُرِيدُ بِهَا شَيْنَهُ وَهَدَمَ مُرُوتَهُ لَيْسَ قَطُّ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَأَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وِلَايَتِهِ إِلَى وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ فَلَا يَقْبَلُهُ الشَّيْطَانُ» (٣). ومن الواضح أن المصداق البارز للرواية أعلاه هو الشخص المغتاب الذي يهدف من الغيبة إظهار عيوب المؤمنين المستورة ويعمل على هدم شخصيتهم الاجتماعية واسقاطهم بين الناس، فعذاب مثل هؤلاء الأشخاص عظيم إلى درجة أن الشيطان نفسه يستوحش من قبول ولايته هؤلاء ويتبرأ من رفقته وصحبته. ٩- وفي الحديث الوارد في مناهي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «نَهَى عَنِ الْغَيْبَةِ وَقَالَ مَنْ إغتاب امرءً مُسْلِماً بَطَلَ صَوْمُهُ وَنَقُضَ وَضُوءُهُ، وَجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَوُّهُ مِنْ فِيهِ رَائِحَةٌ أَنْتَنَ مِنَ الْجِيفَةِ يَتَأَذَى بِهِ أَهْلُ الْمَوْقِفِ» (٤). ١٠- ونختم هذا البحث بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام رغم وجود روايات كثيرة أخرى في هذا المجال ولكننا نكتفي بهذا المقدار الممكن من بيان عواقب الغيبة وآثارها الوخيمة الدنيوية والاخرية حيث يقول: «إِذَا كَ وَالْغَيْبَةُ فَإِنَّهَا تُمَقِّتُكَ إِلَى اللَّهِ وَالنَّاسِ وَتَحْبِطُ أَجْرَكَ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٢ ومن المعلوم أن حديثاً واحداً من هذه الأحاديث يكفي للأحاطة بأهمية هذه المعصية وخطرها على واقع الإنسان وحياته المعنوية فكيف لو ضممنا وجمعنا هذه الأحاديث بعضها إلى البعض الآخر؟ ولا شك أنه مضافاً إلى القرآن الكريم وتواتر الروايات الإسلامية وإجماع المسلمين على حرمة الغيبة، فإن العقل أيضاً يقرّر قبح هذه الخطيئة ويذمها باعتبارها أنها من المصداق البارزة للظلم والعدوان الذي هو من المستقلات العقلية، وعليه فإن حرمة الغيبة تقوم عليه جميع الأدلة الأربعة الفقهية. وبقيت هنا مسائل مهمّة لا بدّ من استعراضها وبحثها:

### تعريف الغيبة:

ورد تعريف الغيبة لأرباب اللغة والفقهاء وعلماء الأخلاق تعاريف وتفسيرات مختلفة تعود في حقيقتها إلى معنى واحد رغم اختلافها على مستوى التعميم والتخصيص وغير ذلك. يقول في صحاح اللغة أن الغيبة هي أن يذكر الإنسان عيب الآخر وعمله في حال عدم حضوره بحيث لو سمعه ذلك الشخص لتألم وتأثر. ويقول في المصباح المنير: أن الغيبة هي كشف العيوب المستورة للآخرين بحيث يتألمون منها وذلك غيبتهم. وينقل الشيخ الأنصاري قدس سره عن بعض كبار العلماء أن الإجماع والأحاديث الشريفة تدلّ على أن الغيبة في حقيقتها هي (ذكر أخاك بما يكره) في غيبته (١). وهذا المضمون ورد أيضاً في حديث نبوي شريف، وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تعريف الغيبة يقول: «الْغَيْبَةُ أَنْ تَقُولَ فِي أَخِيكَ مَا قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ...» (٢). ويستفاد ممّا ذكر آنفاً أن للغيبة عدّة أركان، أولها أن يكون الكلام في حال غيبة الشخص الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٣ المذكور، فلو قيل هذا الكلام في حضوره فإنه يكتسب عنواناً آخر (كعنوان الايذاء أو التهتك وأمثال ذلك) والآخر أن يكون الكلام من قبيل ذكر عيوب الشخص المستورة والخفية فلو كانت من العيوب البارزة والظاهرة لم تكن من الغيبة رغم أنها قد تكون محرّمة بعناوين أخرى، والثالث أن يكون الكلام بحيث إذا سمعه الشخص المذكور بالغيبة فسوف يتألم ويتأثر، ولكن الظاهر أن هذا القيد توضيحي فحسب، لأنّ إظهار العيوب المستورة للآخرين وخاصة في غيبتهم تورث التألم والأذى، وقد يكون هناك بعض الأراذل الذين لا يمتعضون بذكر معاييبهم ونشر فضائحهم بين الناس ولكن مثل هؤلاء الأشخاص قلّة نادرة. وممّا تقدّم آنفاً تتضح لنا هذه الحقيقة جيداً، وهي أنه عندما يقال لبعض العوام من الناس: لماذا ترتكب غيبة الشخص الفلاني وتذمّه وراء ظهره؟ يقول: إنني أتحدث بهذا الكلام أمامه أيضاً وفي حضوره، فهذا من قبيل العذر أقبح من الذنب، لأنّ التحدّث بذلك أمامه وفي حضوره لا يجوز غيبته أبداً، فذلك أيضاً ذنب كبير بدوره لأنّه يدخل تحت عنوان أذى المؤمن وكذلك هتك حرمة بين الناس وهدم شخصيته في المجتمع. ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ذكر بين يديه رجل فقال بعض الحاضرين: أنه رجل عاجز وضعيف فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد اغتبتموه، فقالوا: يا رسول الله لقد ذكرنا صفته فقال: «إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَمْتُمْ» (١). والعذر الآخر الذي يذكره

بعض الجهال كمنسوخ للغيبة ويتذرعون به أمام من ينهاهم عن الغيبة يقولون: إنما نقوله هو حق وليس بكذب، فالشخص الفلاني لديه هذا العيب، وهذه الذريعة لا تقل قبحاً عن سابقتها لأنه لو لم يكن هذا العيب في الطرف الآخر لدخل تحت عنوان التهمة لا الغيبة، فالغيبة كما ذكرنا هي ذكر العيوب الخفية للآخرين في غيبتهم. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه يستفاد من بعض كلمات الأعظم وعلماء الأخلاق أن الغيبة لا تقع بالنسبة إلى جميع المؤمنين، بل تقع في مورد الأشخاص الذين تابوا من ذنوبهم وندموا على خطيئتهم وعادوا إلى جادة الصواب، وأما الفاسق والمذنب والمتجاهر بالإثم، الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٤ فإن غيبته مباحة حتى لو كان ذنبه مستوراً ويتمسك به في هذا الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث أنه قال: «مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ كَمَا كَانَ مِمَّنْ حُرِّمَ غَيْبَتُهُ وَكَمَلَتْ مُرُوتُهُ وَظَهَرَتْ عِدَالَتُهُ وَوَجِبَتْ إِخْوَتُهُ» (١). وبهذا فإن الغيبة تكون محرمة إذا كانت بالنسبة إلى الشخص العادل بينما الشخص الفاسق فيجوز غيبته حتى لو كان يمارس الذنب في الخفاء. العلامة المجلسي قدس سره يميل إلى هذا الرأي أيضاً في الجزء ٧٢ من بحار الانوار باب كتاب العشرة رغم أنه عدل عن هذا الرأي في ذيل كلامه أيضاً (٢). ولكن من المسلم أن هذه الرؤية تسبب في أن يكون أكثر الناس تجوز غيبتهم وهذا على خلاف اطلاق الآية القرآنية والروايات العديدة في مجال حرمة الغيبة. ومضافاً إلى الروايات الكثيرة التي تقرّر أن عدّة طوائف من الناس تجوز غيبتهم أو لا غيبة عليهم ومنهم الفاسق المتجاهر بالفسق ومن جملة ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَرْبَعَةٌ لَيْسَتْ غَيْبَتُهُمْ غَيْبَةً، الْفَاسِقُ الْمُعْلِنُ بِفِسْقِهِ، ...» (٣). ونفس هذا المضمون ورد في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً. ويقول الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدق: «إِذَا جَاهَرَ الْفَاسِقُ بِفِسْقِهِ فَلَا حُرْمَةَ لَهُ عَلَى غَيْبَتِهِ» (٤). ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ» (٥)، وهناك أحاديث متعددة أخرى صريحة في هذا المعنى، وبمقتضى مفهوم الوصف لهذه الأحاديث، بل مفهوم الشرط حيث يكون الكلام في مقام الاحتراز ونفى الغير يتضح جيداً أنه إذا ارتكب الشخص الذنب في الخفاء فلا يجوز غيبته، وكما سوف يرد الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٥ في بحث إستثناءات الغيبة أن الشخص المتجاهر بالفسق تجوز غيبته في خصوص الذنب الذي تجاهر به لا بالنسبة إلى جميع أفعاله الأخرى. ومضافاً إلى أن حرمة الغيبة ثابتة بدليل العقل أيضاً لأنها نوع من الظلم والعدوان على الآخرين وإفشاء أسرارهم وإسقاط شخصيتهم بين الناس، ولا شك أنه لا فرق بين الفاسق والعادل في هذا المجال إلماً أن تكون الغيبة في موارد النهي عن المنكر أو دفع الخطر أو الضرر عن المجتمع الإسلامي وحينئذ لا فرق أيضاً بين الفاسق والعادل. وسيأتي في بحث إستثناءات الغيبة تفصيل أكثر حول هذا الموضوع.

### أقسام الغيبة:

أحياناً يتصور أن الغيبة تقع باللسان فحسب، في حين أن حقيقة الغيبة كما إتضح آنفاً هي اظهار العيوب المستورة للشخص الآخر بحيث إذا سمع بذلك تألم وتأثر منها، وهذا العمل يمكن أن يحصل بواسطة اللسان أو بواسطة القلم أو حتى بالإشارة باليد والعين والحاجب، وأحياناً تتخذ الغيبة صبغة المزاح وأخرى صبغة الجسد، وكم من الذنوب والآثام التي يرتكبها البعض في لباس المزاح والسخرية حيث تكون أخطر من الذنوب التي تلبس لباس الجسد، لأن الإنسان يتحرك بحرية أكثر في حالة المزاح بخلاف حالة الجسد، حيث لا يكون قادراً على بيان المطلب المراد بصورة وافية فيذكره بصيغة المزاح والإثارة للفتك والضحك. مضافاً إلى أن الغيبة تارة تقع بتعابير صريحة (وبالاصطلاح المنطقي بالدلالة المطابقية والتضمنية) وأخرى بالدلالة الالتزامية والتعابير الكنائية التي قد تكون أبلغ من التصريح، مثلاً عندما يتحدث الشخص عن أحد المؤمنين يقول: سامحه الله لنسكت عن هذا فإنّ الشرع المقدس قد أغلق أفواهنا، وبهذه الكلمات يريد أن يفهم الآخرين على أن ذلك الشخص قد ارتكب أفعالاً قبيحة وعظيمة، وقد يكون التصريح بها لا يثير المستمع كما هو الحال في الكناية، ولكن بما أن مثل هذا الكلام يثير تصورات مجملته عن الموضوع فإنّ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٦ ذهن المستمع قد يتصور ذنوباً متنوعة وكثيرة يكون الشخص المذكور بريئاً منها. أو يقول: إن الشخص الفلاني له صفات



جميلة وأفعال حسنة ولكن ... ويسكت عن إكمال الحديث. وأحياناً أخرى يتحرك المتكلم من موقع النصيحة والتحرق القلبي ويقول: سامح الله فلان وجعل عاقبته إلى خير، أو يقول: أنا خائف من عاقبة أمره، فهو في الحقيقة يعرض الذنب بلباس الطاعة والشر بثياب الخير، وكما يقول بعض العلماء أنه بذلك يكون قد ارتكب إثماً مضاعفاً، فيكون قد اغتاب من جهة وارتكب الرياء من جهة أخرى، فمن جهة قد اغتاب الشخص الآخر بتلميحه لمعايب كثيرة ونسبها إلى الطرف الآخر، وتحرك من موقع الرياء حيث تظاهر بأنه ليس من أهل الغيبة، بل من أهل التقوى والطاعة لأوامر الله تعالى.

### دوافع الغيبة:

إنّ للغيبة عوامل كثيرة ودوافع متعددة يكاد كل واحد منها يكون سبباً كافياً لإرتكاب الغيبة، ومن ذلك: ١- الحسد. ٢- الأنانية والعجب ورؤية الذات. ٣- الغرور والكبر. ٤- الحرص. ٥- الحقد. ٦- حبّ الجاه. ٧- حبّ الدنيا والثروة والمقام. ٨- الرياء. ٩- تركية النفس واظهار الطهارة والتقوى. ١٠- طلب الترفيه عن النفس بأمور غير مشروعة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٧ ١١- سوء الظن. ١٢- حبّ الانتقام. ١٣- التشفي وإطفاء سورة الغضب. ١٤- السخرية والاستهزاء، وغير ذلك من أمثال هذه الدوافع النفسية. والقدر المشترك بين هذه الامور هو أنّ الإنسان يسعى لتسقيط الشخص الآخر وكسر شخصيته وموقعيته الاجتماعية ليضحى في أنظار الناس ذليلاً ولا-قيمة له، ومن هذا الطريق يجبر نقصه ويهدأ غضبه ويشيع حالة الانتقام من الطرف الآخر، أو يتحرك لحرمانه من المقام والثروة أو لاطهار الزهد والقداسة الزائفة أو يتحرك من موقع إثارة الضحك والسخرية أو يرى لنفسه امتيازاً ومقاماً على الآخرين. ومن هنا يتضح أولاً: أنّ الغيبة مفهوم واسع الأطراف ولها عوامل متنوعة وكثيرة، ففي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أصلُ الغيبةِ تنوعُ بعشرةِ أنواع، شفاءُ غيظٍ ومُساغِدَةٌ قومٍ وتَهْمَةٌ، وتَصْدِيقُ خَبْرٍ بلا كَشْفِهِ، وسُوءُ ظَنٍّ وحَسَدٍ وسِخْرِيَةٍ وتَعْجُبٍ وتَبَرُّمٍ وتَزَيُّنٍ، فأن أردتَ السَّلامَةَ فاذكُر الخالقَ لا المخلوقَ فيصيرُ ذلكَ مكانَ الغيبةِ عبرةً ومكانَ الإنثمِ ثواباً» (١). ومن الواضح أنّ الإمام هنا في صدد بيان قسماً من العوامل المهمة للغيبة لأنه كما تقدّم أنّ دوافع الغيبة متعددة وكثيرة غير ما ذكر في الحديث الشريف.

### العواقب السلبية للغيبة:

للغيبة آثار سلبية ونتائج مخربّة كثيرة على الفرد والمجتمع البشري فلو تساهل الناس معها لأزداد الحال خطورة، ومضافاً إلى ذلك العواقب الوخيمة المعنوية والعقوبات الإلهية المترتبة على هذه المعصية كما سبقت الإشارة إليها في الروايات الشريفة. وبالنسبة إلى المورد الأول يمكن الإشارة إلى مايلي: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٨ ١- إنّ الغيبة تقوم بأتلاف أهمّ رأسمال للمجتمع البشري، والذي يتمثل بتبادل الثقة والاعتماد بين الأفراد، لأنّ أغلب الأشخاص لديهم نقاط ضعف يسعون لكتمانها وسترها ليحفظوا ثقة الناس واعتمادهم، وقبح هذه النواقص ونقاط الضعف من شأنه أن يقطع أواصر الاعتماد والثقة بين الناس. ومن المعلوم أنّ الأساس في ظاهرة التعاون الاجتماعي والتفاعل الإيجابي والعاطفي بين الناس يتمثل في الاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع وبدون ذلك يتبدل المجتمع إلى جحيم لا-يطاق من كثرة المشاكل الاجتماعية. ٢- إنّ الغيبة تتسبب في سوء الظن بين الأفراد، لأنّ العيوب المستورة للأشخاص عندما تنكشف للناس فتسبب في زوال حسن الظن لدى الإنسان بالنسبة لجميع الأسوياء والصالحين أيضاً حيث يقول: إنّ هؤلاء قد يمارسون مثل هذه الأعمال الشنيعة في الخفاء ويتظاهرون بالصلاح والخير فلا نعلم من حقيقة حالهم. ٣- إنّ الغيبة هي أحد أسباب إشاعة الفحشاء والمنكر، لأنّ الذنوب المستورة إذا ظهرت بسبب الغيبة فإنّ ذلك سيؤدي إلى تشجيع الآخرين على إرتكابها، وأساساً فإنّ إظهار الذنوب والكشف عنها من شأنه أن يزيل حالة الخشية منها فيستصغرها الناس ويكون ذلك عذراً للفساق في تبرير ذنوبهم وممارساتهم الخاطئة وأنه إذا قمنا بارتكاب هذا الذنب فإنّ غيرنا ومن هو أفضل منا وأعلم قد إرتكبه قبلنا. ونقرأ في حديث شريف عن الإمام الصادق أنه قال: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسَمِعَتْهُ أذناه فهو من الذين قال الله عزّ وجلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ

الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم» (١). ٤- إن الغيبة من شأنها أن تبعث الجراء في نفوس المذنبين على ارتكاب الذنوب وكسر حاجز الحياء، لأن أعمال الإنسان مادامت مستورة فإن الحياء يمنعه من ارتكاب الأشنع منها والتجاهر بها خوفاً من الفضيحة والخزي أمام الآخرين، فلو أنه إفتضح أمره، فحينئذ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٨٩ يزول مانع الحياء من نفسه ويتجرأ أكثر على ارتكاب الذنب. ٥- إن الغيبة تورث الحقد والعداوة والبغضاء بين الناس لأن أهم رأسمال للإنسان في المجتمع هو حيثيته وشخصيته الاجتماعية، والغيبة بإمكانها أن تذيب وتحرق رأس المال هذا فلا يبقى للإنسان شيئاً يعتد به في حركة الحياة الاجتماعية، ولذا تسبب الغيبة العداوة الشديدة والحقد العميق في قلب الشخص المستغاب (فيما لو سمع بذلك). ٦- إن الغيبة من شأنها أن تسقط المستغيب في أنظار الآخرين، لأنهم سوف يتصورون أن هذا الشخص الذي يتحدث لهم عن عيوب الآخرين سوف يتحدث عن عيوبهم أيضاً للآخرين ويغتابهم، ولذلك ورد في الرواية عن أمير المؤمنين أنه قال: «مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ نَقْلَ عَنكَ» (١). وفي حديث آخر نقراً: «لا مُرُوَّةَ لِمُغْتَابٍ» (٢). ٧- إن الغيبة من شأنها أن تكون عذراً لتبرير خطايا وذنوب الشخص المستغيب، فمن أجل أن يكون في أمان من اعتراض الناس وهجومهم، فإنه يتحرك لممارسة هذا الذنب ويستغيب الآخرين لدفع التهمة عن نفسه. (وأما الآثار المعنوية السلبية) للغيبة فأكثر من أن تحصي في هذا البيان، ولكن نشير إلى بعض ما ورد في الروايات الإسلامية عن ذلك: ١- تقدّم في الروايات السالفة أن الغيبة تمحق الحسنات وتبطل الأعمال الخيرة كما تحرق النار الحطب، ويقول العالم الكبير الشيخ البهائي قدس سره في أحد كتبه: إن الغيبة كالصاعقة التي تحوّل الحسنات إلى رماد في لمح البصر ثم يقول: إن الشخص الذي يرتكب الغيبة هو كمن نصب منجنيقاً واستهدف به حسناته لتحطيمها وتدميرها (٣). ٢- إن الغيبة تعمل على تدمير إيمان الإنسان ودينه وتشويه قلبه كما يصنع مرض الجدرى بجلد الإنسان. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٠-٣ إن المرتكب للغيبة في حالة العفو عنه سيكون آخر شخص يدخل الجنة، وفي حالة عدم العفو عنه سيكون أول من يدخل النار. ٤- إن الغيبة تتسبب في فضيحة الإنسان، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مِنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي حُرُوفِ بَيْتِهِ» (١). ٥- إن الغيبة تؤدي إلى انتقال حسنات الشخص المغتاب إلى كتاب أعمال الطرف الآخر، وكذلك تؤدي إلى انتقال سيئات الطرف الآخر المستغاب إلى كتاب أعمال المستغيب فنقرأ في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يُؤْتَى بِأَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَلَا يَرَى حَسَنَاتَهُ فَيَقُولُ إِلَهِي لَيْسَ هَذَا كِتَابِي فَإِنِّي لَا أَرَى فِيهَا طَاعَتِي فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ لَا يُضِلُّ وَلَا يَنْسِي ذَهَبَ عَمَلِكَ بِإِغْتِيَابِ النَّاسِ ثُمَّ يُؤْتَى بِآخَرَ وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَرَى فِيهَا طَاعَاتٍ كَثِيرَةً، فَيَقُولُ إِلَهِي مَا هَذَا كِتَابِي فَإِنِّي مَا عَمِلْتُ هَذِهِ الطَّاعَاتِ، فَيَقُولُ: إِنَّ فُلَانًا إِغْتَابَكَ فَدَفَعْتُ حَسَنَاتَهُ إِلَيْكَ» (٢). ومن هذا المنطلق نقل عن بعض الشخصيات المعروفة السالفة أنه أرسل إلى شخص إستغابه طبقاً من التمر كهديته له وقال: إنك قد أرسلت إلي حسناتك وأهديتها لي فأردت جبران صنيعك هذا بهذه الهدية. ونقل عن شخص آخر أنه كان يقول: أنني إذا أردت أن أستغيب أحد الأشخاص فإن أمتي هي الأولى بذلك لأنها أولى بحسناتي من الآخرين. ٦- إن الغيبة تتسبب في أن لا تقبل صلاة المغتاب وصومه لمدة أربعين يوماً كما ورد هذا المعنى في الحديث النبوي الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ إِغْتَابَ مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ تَعَالَى صَلَاتَهُ وَلَا صِيَامَهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِلَّا أَنْ يُغْفَرَ لَهُ صَاحِبُهُ» (٣).

### علاج الغيبة:

### إشارة

إن علاج هذا المرض الأخلاقي الخطير يشبه من جهات علاج سائر الأمراض الأخلاقية الأخرى، ويختلف عنها من بعض الجهات، وفي المجموع لا بد من رعاية الأمور التالية للوقاية من الوقوع في هذا المرض أو علاجه: ١- إن العلاج الحقيقي لكل مرض بدني أو نفسي

أو أخلاقى يتمثل بالعثور على الجذور والأسباب الكامنة وراء الابتلاء بهذا المرض والسعى لإزالتها والقضاء عليها، وبما أن عوامل حصول هذه الصفة القبيحة في النفس كثيرة ومتعددة فلا بد من التوجه إلى تلك العوامل والأسباب، وقد رأينا أن من العوامل المهمة هو: الحسد، الحقد، الأنانية، حب الانتقام، التكبر والغرور وأمثال ذلك، وما دامت هذه الحالات النفسية السلبية موجودة في أعماق النفس ومادام الإنسان لا يتحرك على مستوى إزالتها من واقعه وذاته فإن هذه الحالة الرذيلة أي - الغيبة - لا تنقل ولا تزول. وعندما لا يجد الإنسان في نفسه حسداً على أحد ولا يعيش حالة الحقد والكرهية والمقت تجاه الآخرين ولا يرى في نفسه إمتيازاً ولا تفوقاً على الغير فلا مسوغ له للتلوث بخطيئة الغيبة ولا يجد في ذاته رغبة وميلاً إلى ارتكاب هذا الفعل الذميمة. ٢- ومن الطرق الأخرى لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية هو الالتفات والتفكير في عواقبها السلبية على المستوى المادى والمعنوى، والفردى والاجتماعى، فإن الإنسان متى ما إلتفت إلى أن الغيبة ستؤدى به إلى المهانة والسقوط في أنظار الناس فيعرفونه بأنه شخص خائن، ضعيف النفس، ويشعر بالدونية والحقارة، فإنهم سوف يتحركون في الإرتباط معه من موقع عدم الثقة وسوف تهتر شخصيته ومكانته الاجتماعية لدى الآخرين، وأن الغيبة سوف تلتف حسناته وتهدر طاقاته وتنقل سيئات الآخرين إلى صحيفه أعماله، ولا تقبل عباداته لمدة أربعين يوماً وهو أول من يدخل النار، وفيما لو تاب وقبلت توبته يكون آخر من يدخل الجنة. وأيضاً عليه أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أن الغيبة هى حق الناس لأنها تتسبب فى الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٩٢ هدم سمعتهم والذهاب بماء وجوههم، ونعلم أن قيمة ماء الوجه مثل قيمة النفس والمال لدى الإنسان أو أكثر وما لم يرض عنه صاحب الحق، فإن الله تعالى لا يرضى عنه، وربما لا يتسنى له التوصل إلى كسب رضى الطرف الآخر أبداً وحينئذ سيتحمل وزر هذا الفعل مدى الحياة. أجل، فلو أن الإنسان تدبر في هذه الامور جيداً فسوف يندم بالتأكيد على عمله ويتحرك بعيداً عن هذا السلوك المنحرف، والأشخاص الذين يعيشون ممارسة الغيبة في مجالسهم وبهدف الترفيه والتفريح واللغو إذا ما فكروا في عواقب الغيبة فسوف يتحولون عنها بالتأكيد ولا يقتربون من ممارسة هذا السلوك السلبى والعدوانى. ٣- يجب أن ينتبه المستغيب إلى هذه الحقيقة، وهى أن طاقات الإنسان محدودة، فلو أنه بدلاً من إتلاف هذه الطاقات وصرها في تسقيط شخصية الآخرين وهدم مكانتهم الاجتماعية كان يستخدم هذه الطاقات والقابليات والموهب الإلهية في خط الكمال المعنوى والمنافسة السلمية والصحيحة بينه وبين الآخرين فقد لا تمضى فترة قصيرة إلّا وبحرز التوفيق فى الكمالات الإنسانية والمعنوية على الخير ويصل إلى مراتب سامية فى حركة الحياة والتكامل المعنوى والمادى من دون أن يجد حاجة إلى تسقيط الآخرين والعدوان عليهم وبالتالي سوف ينقذ نفسه من نتائج الغيبة وعواقبها الوخيمة فى الدنيا والآخرة. وبعبارة اخرى أن الأفضل للإنسان أن يقوم باعمار بيته وبناء داره بدلاً من تخريب بيوت الآخرين ليعيش فى منطقة عامرة وفى دار مشيدة، ولكن الشخص الذى يتحرك دائماً من موقع تخريب بيوت الآخرين فإن نتيجته سوف تكون تخريب بيوت المنطقة وتخريب بيته أيضاً فيعيش فى الأطلال والخرائب. يجب أن يلتفت المستغيب إلى هذه الحقيقة وهى أن الغيبة هى احدى العلامات البارزة لضعف الشخصية وفقدان الهمة والمروءة وأنه يعيش عقدة الحقارة والدونية، ولذلك فهو يمارس الغيبة لجبران هذا الضعف النفسى وفى الحقيقة يقوم باظهار هذه العيوب الذاتية الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٩٣ والصفات الباطنية ويجهر بها أمام الناس، فهو يقوم بتدمير شخصيته وتحطيم كيانه قبل أن يحطم شخصية الآخرين الذين يفتابهم. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أنه لا بد لتترك الغيبة وخاصة فيما لو أصبحت عادة لدى الشخص، أن يقوم قبل كل شىء بفرض الرقابة الشديدة على لسانه وكلماته ويتحرك من موقع الضغط الأخلاقى فى دائرة الكلام، وكذلك ينبغى له أن يتجنب معاشره الأصدقاء الذين لا يجدون حرجاً فى ممارسة الغيبة ويدفعونه بهذا الاتجاه ويترك المجالس المهيئة للغيبة، بل وجميع الامور التى توسوس له فى ممارسة الغيبة. وفى حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما عَمَّرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبَةِ إِلَّا خَرِبَ مِنْ الدِّينِ» (١). الملاحظة الأخرى هى أن أحد دوافع الغيبة هو السعى لتبرئة الذات والدفاع عنها، مثلاً أن يقول: إذا كنت قد ارتكبت هذا الذنب، فإن من هو أفضل منى وأعلم قد ارتكبه أيضاً، والحال أن تبرئة الذات لها طرق اخرى كثيرة لا تنتهى بهذا الذنب الكبير أى - الغيبة - وأساساً فإن الاعتراف بالخطأ فى هذه الموارد يكون أسلم عذر وأفضل سبيل لتدارك

الخطأ، مضافاً إلى أن أحد الأخطاء الكبيرة لدى الإنسان أن يقارن بينه وبين الفاسقين والأراذل من الناس ويترك المقارنة بينه وبين الأخيار والصلحاء من أفراد المجتمع. أحياناً يتحرك الشخص لثبته نفسه وتبرير سلوكه إلى التشبث بهذا العذر وهو أنني عندما رأيت العالم الفلاني قد إنحرف على مستوى السلوك وارتكب الذنوب زالت عقيدتي وضعف إيماني وأصبحت في أمر العقيدة بالمبدأ والمعاد غير مكترث، هذه المعاذير والتبريرات هي المصداق الأتم لمقوله العذر أقبح من الذنب، ويترتب على ذلك عواقب خطيرة جداً، فما أحرى بالإنسان أن يعترف بخطئه ويسعى في تعامله مع الآخرين في حمل سلوكياتهم وأفعالهم على الصحة، وعلى فرض أن أحد القادة أو العلماء أو الجهال تصرف من موقع الإنحراف وارتكب بعض الذنوب، فلا يكون ذلك مسوغاً للآخرين على سلوك هذا الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٤ المسلك وتبريره بتلك الذريعة الشيطانية، بل يجب على الإنسان أن يجعل الصلحاء والأولياء أسوة له في دائرة السلوك والتكامل المعنوي والأخلاقي. بقي من موضوع الغيبة عدّة امور مهمّة لا بدّ من التعرّض لها:

### ١- استماع الغيبة

كما أن التحدّث بالغيبة من الذنوب الكبيرة فكذلك المشاركة في مجلس الغيبة والاستماع للمغتاب في تعرّضه للمؤمنين والوقية بالآخرين أيضاً من الذنوب الكبيرة، لأن جميع المفسد المترتبة على الغيبة تتعلق بطرفين، المغتاب والمستمع للغيبة، فلو أن الشخص لم يجد في نفسه استعداداً لسماع الغيبة فمضافاً إلى أنه قد تقدّم خطوة في طريق النهي عن المنكر، فكذلك لا يمكن للغيبة أن تتحقّق في الواقع، فلا يجد المغتاب من يستمع له ليكشف عن عيوب الناس ولا يتمكن من تسقيط شخصية الآخرين ولا هتك حرمتهم ولا يترتب على ذلك المفسد الاجتماعية الأخرى. ولهذا السبب نجد الروايات الإسلامية قد شاركت المستمع للغيبة وجعلته أحد المغتابين كما ورد في أحد الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «المُستمعُ أحدُ المُغتَابين» (١). وورد عن الإمام على عليه السلام قوله: «السامعُ للغيبةِ أحدُ المُغتَابين» (٢). وفي حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه عندما رأى أحد الأشخاص يرتكب الغيبة في حضور ولده الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «يا بني نزه سيمعك عن مثل هذا فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغته في وعائك» (٣). وكذلك ورد في الروايات الشريفة أن المستمع للغيبة يجب أن يتحرك من موقع الدفاع عن أخيه المسلم وذلك من خلال حمل سلوكه على الصحة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٥ وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «من أغتیب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره ولم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة» (١). وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا وقع في رجلٍ وأنت في ملاءٍ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً وقم عنهم» (٢). وأيضاً ورد في الحديث النبوي الشريف قوله: «الساكتُ شريكُ المُغتَاب» (٣). ونختم هذا البحث بالحديث الشريف الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً حيث قال: «ألا ومن تطول على أخيه في غيبته سيمعها فيه في مجلس فردّها عنه ردّ الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة فإن هو لم يردها وهو قادر على ردها كان عليه كوزر من إغتابه سبعين مرّة» (٤). ويمكن أن تكون هذه الرواية ناظرة إلى الموارد التي يكون فيها الشخص المستمع من أصحاب النفوذ والمكانة الاجتماعية في حين أن المغتاب ليس كذلك، ومن الواضح أن سكوت مثل هذا الشخص يترتب عليه نتائج وخيمة على مستوى هتك حرمة ذلك الشخص المسلم حيث يكون استماعه لذلك أكثر ضرراً من كلام المغتاب نفسه.

### ٢- الغيبة حق الناس أو حق الله؟

وطبقاً لما ورد في تعريف الغيبة سابقاً يتضح أن الغيبة من حقوق الناس لأنها تتسبب في هتك حرمتهم وتسقيط شخصيتهم وإزهاق سمعتهم: ونعلم أن ماء وجه المسلم له من القيمة كما هو الحال في روح المسلم وماله وعرضه. ومن التشبيه الوارد في الآية من سورة

الحجرات حول الغيبة وأنها كمن يأكل لحم أخيه ميتاً يتضح جيداً أن الغيبة من حق الناس؛ ومن الأحاديث الكثيرة يمكننا أن نستوحي هذا الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٦ المفهوم أيضاً وهو أن الغيبة نوع من الظلم والعدوان على الآخرين والذي يجب التحرك على مستوى جبران هذا العدوان وتعويض الطرف الآخر لجبران الظلم الذي وقع عليه، ومن ذلك: ١- أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حجة الوداع: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْغَيْبَةَ كَمَا حَرَّمَ الْمَالَ وَالْدَّمَ» (١). ولا شك أن كل دم برىء يسفك لا بد من جبرانه، وكل مال مشروع يتم اتلافه من قبل شخص آخر يجب عليه أن يقوم بتعويضه، والغيبة أيضاً ومن خلال هذا المنطلق يجب العمل على تلافيتها وجبرانها بأى نحو ممكن. وأساساً فإن جعل عرض المؤمن إلى جانب ماله ودمه لهو دليل واضح على أن تسقيط شخصية الإنسان وهتك حرمة إنمها هي من حق الناس.

٢- وفي حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد أن قارن الغيبة بالزنا وأنها أشد إثمًا منه قال: «إِنَّ صَاحِبَ الْغَيْبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ» (٢). ٣- وجاء في كتاب مجموعة ورام أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ وَدَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ، وَالْغَيْبَةُ تَنَاوُلُ الْعَرَضِ» (٣). العبارة الأخيرة من هذا الحديث الشريف وهي أن (الغيبة تناول العرض) مصداق التعرض لنا موسى الشخص سواء كانت من كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو كلمات الرواة، فإنها على أى حال يمكن أن تكون شاهداً على المقصود. والشاهد الآخر على هذا المعنى هو الروايات الشريفة التي تتحدث عن أن الغيبة تسبب في نقل حسنات المغتاب من صحيفته أعماله إلى صحيفته أعمال المغتاب، ونقل سيئات المغتاب إلى الشخص المرتكب للغيبة (كما تقدمت الإشارة إلى ذلك) وهذا يعنى أن الغيبة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٧ هي من حق الناس، لأن نقل الحسنات والسيئات لجبران الضرر الذي لحق بالمستغاب يعنى أن الغيبة من حقوق الناس. وبعد أن اتضح هذا المفهوم وأن حق الناس يجب أن يجبر ويعوض يثار في الذهن هذا السؤال، وهو أن المغتاب كيف يتمكن من جبران خطئه وذنبه؟ ويستفاد من بعض الروايات أن المغتاب لو علم بذلك وسمع بأن المستغيب يذكره بسوء، فيجب على المستغيب أن يذهب إليه ويطلب منه أن يرضى عنه ويجعله في حل وإلا لو لم يتصل به فيجب عليه أن يستغفر الله تعالى، ويدعو للمستغاب بالرحمة والمغفرة (ليتيم له التعويض عن ذلك الظلم في حق أخيه المؤمن) وهذا المضمون ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «فَإِنَّ اغْتِيَابَ قَبْلَ الْغَيْبَةِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْتَجِلَّ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ وَلَمْ يَلْحَقْهُ عِلْمٌ ذَلِكَ فَاسْتَعْفِرِ اللَّهَ لَهُ» (١). ويتضح من هذا الحديث الشريف أنه لو لم تصل الغيبة إلى مسامح المستغاب فإن نقل هذا الخبر إليه قد يتسبب في أذاه أكثر ويترتب على ذلك مسؤوليه أكبر، ولهذا السبب نجد أن الوارد في الحديث الشريف هو الاستغفار فحسب، وعليه ففي الموارد التي لا يتأثر فيها المستغاب من خبر الغيبة فلا يبعد وجوب طلب التحلل منه وكسب رضاه. ومن هنا يتضح جيداً ما ورد في الروايات الشريفة أنه: «كَفَّارَةُ الْإِغْتِيَابِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمَنْ إِغْتَيْبْتَهُ» (٢). والشاهد الآخر ما ذكر آنفاً هو الحديث الشريف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرْضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا مَا يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَرِيدَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ» (٣).

وجاء في أدعية أيام الاسبوع للإمام زين العابدين عليه السلام الواردة في ملحقات الصحيفة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٨ السجادية عبارات واضحة لهذا المفهوم في دعاء يوم الإثنين حيث يقول فيه الإمام (من خلال كونه اسوة للآخرين): «وَأَسْأَلُكَ فِي مَظَالِمِ عِبَادِكَ عِنْدِي، فَأَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِكَ، أَوْ أَمَةٍ مِنْ إِمَائِكَ كَانَتْ لَهُ قَبْلِي مَظْلَمَةٌ ظَلَمْتُهَا إِيَّاهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ عَرْضِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، أَوْ غِيْبَةٍ اغْتَبْتُهُ بِهَا، أَوْ تَحَامُلٍ عَلَيْهِ بِمَيْلٍ أَوْ هَوَى، أَوْ أَنْفَةٍ أَوْ حَمِيَّةٍ أَوْ رِيَاءٍ أَوْ عَصِيْبَةٍ غَائِبًا كَانَ أَوْ شَاهِدًا، حَيًّا كَانَ أَوْ مَيِّتًا، فَاقْضِرْ يَدِي وَضَاقَ وَسْعِي عَنْ رَدِّهَا إِلَيْهِ، وَالتَّحَلَّلِ مِنْهُ. فَاسْأَلُكَ يَا مَنْ يَمْلِكُ الْحَاجَاتِ وَهِيَ مُسْتَجِيْبَةٌ لِمَشِيئَتِهِ وَمُسْرِعَةٌ إِلَى إِرَادَتِهِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تُرَضِّيَهُ عَنِّي بِمَا شِئْتِ...» (١). وعلى أئمة حال فإن احتمال كون الغيبة من حق الناس قوى جداً، ولذلك فإنه لو لم يكن أمامه مشكل في طلب الرضا والتحلل منه وجب عليه ذلك. وهناك ملاحظة مهمة وهي أن أحد طرق جبران الغيبة هو أن يقوم المستغيب بالحضور في مجلس يحوى الأشخاص الذين كانوا قد حضروا مجلسه السابق، فيقوم بإعادة الشريط وتبرير

سلوك أخيه المؤمن بما يوافق الأخلاق الحسنة والشرع المقدس ويحملة على الصحة بحيث تزول من الأذهان آثار الغيبة وتعود المياه إلى مجاريها.

### ٣ - مستثنيات الغيبة

يتفق علماء الأخلاق وكذلك الفقهاء على أن هناك موارد تجوز فيها الغيبة وقد تصبح واجبة أحياناً، وذلك بسبب طروء عوارض معينة على الغيبة مما يغير حكمها الأصلي. وبعبارة أخرى أن الغيبة بعنوانها الأولى حرام بلا شك ومن الذنوب الكبيرة وفي ذلك يتفق علماء الإسلام، ولكن هناك عناوين ثانوية تطرأ على هذا الفعل بإمكانها أن تكون حاكمة على العنوان الذاتى والأولى مما يفضى إلى أن تكون الغيبة جائزة بل واجبة، وذلك في الموارد التي تكون فيها المصلحة أهم ويكون حفظ هذه المصلحة غالب على المفساد الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٩٩ الكبيرة المترتبة على الغيبة. ومن جملة هذه الموارد التي تدخل في مستثنيات الغيبة ما يلي: ١- أن يكون الإنسان في حالة التظلم وطلب حقه من الآخر ويسعى لرفع هذه الظلامة بحيث لو أنه لم يتعرض لذكر الطرف الآخر بالسوء ولم يصرح للآخرين بسلوك ذلك الظالم فإنه لا يصل إلى حقه. وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» (١). ٢- في موارد النهي عن المنكر، أى في حالة ما إذا لم يتحرك الإنسان لفضح الطرف الآخر ويكشف عن أعماله السيئة، فإن ذلك المذنب سوف يستمر في غيه ويقوم على ذنبه، فهنا ترجح مصلحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مفسدة الغيبة، بل قد تكون واجبة في بعض الحالات. ٣- في مورد أهل البدع وكذلك الذين يحيكون المؤامرات ضد المسلمين بحيث لو أن أعمالهم الخفية تجلّت وكشفت للمسلمين، فإن الناس سوف يتصدون لهم ويتحركون من موقع دفعهم وإبطال مؤامراتهم، فهنا تكون غيبة مثل هؤلاء الأشخاص جائزة، بل واجبة. ٤- في مورد ما إذا كان المسلم يعيش الخطر على نفسه أو ماله أو عرضه من شخص آخر وهذا المسلم لم يكن على علم بالخطر المحيط به، وهنا يكون إخباره بهذا الخطر جائزة، بل واجبة أحياناً. ٥- في مورد المشورة، بمعنى أن أحد الأشخاص أراد مثلاً الزواج من مسلمة وأراد طلب يدها من والديها أو أراد شخص تشكيل شركة أو السفر إلى أحد البلدان، وطلب من شخص آخر أن يشير عليه بما يراه صلاحاً له، فهنا لا يمكن القول بأن الكشف عن عيوب الطرف الآخر حرام، بل إن أمانة المشورة تقتضى أن يقول المستشار ما يعلمه وما هو مطلع عليه من نقاط القوة والضعف، ولا ينبغي أن يحجم عن النصيحة والمشورة لأخيه المؤمن خوفاً الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٠ من الوقوع في الغيبة، لأن ستر مثل هذه المعايير يعتبر خيانة للمستشير والخيانة في المشورة حرام. ٦- في مورد الشهادة، وذلك عندما يطلب من الإنسان أن يدلي بشهادته في موقع التحكيم أو المحكمة، فهنا تجوز الغيبة، لأن مصلحة الشهادة أقوى، وكذلك في موارد إجراء الحدود الإلهية، فلو أن عدّة أشخاص رأوا بأن الشخص الفلاني يشرب الخمر أو يزنى فلهم أن أتوا إلى حاكم الشرع ويشهدوا عليه بذلك ليجرى عليه الحد، وكذلك فيما لو شهد أشخاص على أمر معين وكان هؤلاء الشهود في الواقع فساق ولم يكن الحاكم يعلم بخبرهم وحالهم، وهنا يجوز فضح هؤلاء الشهود، وبعبارة أخرى يجوز جرح الشهود (وطبعاً فإن جميع هذه الموارد هي فيما لو كان عدد الشهود كافياً لإثبات الموضوع).

### ٤ - حكم المتجاهر بالفسق

يتفق علماء الأخلاق والفقهاء العظام عادةً على جواز غيبة المتجاهر بالفسق ويرون أنها من مستثنيات الغيبة ويصريحون بأن غيبة مثل هؤلاء الأشخاص الذين مزّقوا ستار الحياء وأجهروا بالمعاصي أمام الناس، فإنهم لا غيبة لهم وقد تمسكوا في ذلك بروايات في هذا الباب. ففي حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «أَرْبَعَةٌ لَيْسَتْ غَيْبَتُهُمْ غَيْبَةُ الْفَاسِقِ الْمَعْلُنِ بِنَفْسِهِ...» (١). وفي حديث

آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهُمْ حُرْمَةٌ صَحِبَ هَوَى مُبْدِعَ وَالْإِمَامَ الْجَائِزَ وَالْفَاسِقَ الْمُعْلَنَ الْفِسْقَ» (٢). وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠١ وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَتَزَعُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ أَنْ تَذْكُرُوهُ، فَادْكُرُوهُ يَعْرِفُهُ النَّاسُ» (١). والأحاديث في هذا الباب كثيرة. ولكن الظاهر أن مثل هؤلاء الأفراد خارجون بالتخصص من موضوع الغيبة لا أن حكم الغيبة يشملهم أولاً ثم يدخلون في مستثنيات الغيبة، لأن للغيبة شرطين: الأول: أن يكون العيب مستوراً وهذا الشرط لا يتوفر في هؤلاء الأشخاص. الثاني: كراهية الطرف الآخر لأن يذكر بسوء، وهذا الشرط أيضاً غير متوفر فيما نحن فيه لأن المتجاهر بالفسق لو كان يتأثر ويتألم من ذكره بسوء لم يكن يرتكب ذلك العمل علانيةً وجهرًا، وبتعبير علماء الأصول أن خروج مثل هؤلاء الأشخاص يكون بالتخصص لا بالتخصيص. وهنا تثار عدّة أسئلة في هذا الصدد، الأول هو أنه هل أن جواز غيبة المتجاهر بالفسق يختص بالذنوب التي تجاهر بها أو يستوعب جميع الذنوب فتكون غيبته جائزةً مطلقاً؟ والآخر هو أنه إذا كان يتجاهر بالفسق عند جماعة معينة أو في مكان خاص ولكنه لا يرتكب ذلك المنكر أمام جماعة أخرى أو في مكان آخر فهل يجوز غيبة هذا الشخص أيضاً؟ والثالث هو هل أن جواز غيبة المتجاهر بالفسق مشروط بوجود شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي أن تكون الغيبة مؤثرة في عملية الردع وإلا فلا تجوز؟ ونظراً لما تقدّم من بيان حاله هؤلاء الأفراد من الناحية الشرعية يتّضح الجواب عن هذه الأسئلة جميعاً، وهو أن غيبة هؤلاء الأشخاص إنما تجوز في موارد التجاهر بالفسق، ولكن بالنسبة إلى الأعمال الأخرى أو الوسط الآخر والأجواء الأخرى، فلا تجوز، لأن أدلة حرمة الغيبة لا تشمل المتجاهر بالفسق ومن المعلوم أن حاله التجاهر لا يستوجب توفر شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ضرورة لها لأن عناصر تشكيل الغيبة غير متوفرة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٢ ويحتمل كذلك أن المقصود بالمتجاهر بالفسق هو الشخص الذي قام بتزويق ستار الحياء وتحرك في ارتكابه للمعاصي والذنوب من موقع الجرأة على الدين والمجتمع الإسلامي، فمثل هؤلاء الأفراد لا احترام لهم، بل يجب التعريض بهم وفضحهم ليكون الناس على حذر منهم وفي أمان من أعمالهم كما ورد في الحديث الشريف المتقدم: «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ» فحينئذ يقول الحديث «فادكروه يعرفه الناس» فهو ناظر إلى هذا المعنى. و على هذا الأساس يمكن القول بأن المتجاهر بالفسق على نحوين: الأول: أن يكون متجاهراً بعمل معين فحينئذ تجوز غيبته في ذلك العمل بالخصوص، والآخر: الأشخاص الذين قاموا بتزويق لباس العفة والحياء وانطلقوا وراء ارتكاب الذنوب بكل صلافة وجرأة من دون رعاية القيم الاجتماعية والدينية، فمثل هؤلاء الأشخاص لا احترام لهم أبداً من فضحهم وكشف واقعهم أمام الناس كيما يحذر الآخرون من أخطارهم ومفاسدهم. وتتخّم هذا الكلام بذكر ملاحظتين: الأولى: هي أننا نعلم أن أحد العلوم الإسلامية المعروفة هو علم الرجال حيث يبحث فيه صدق وكذب الرواة وحالتهم على مستوى كونهم ثقة أو غير ثقة، وهناك بعض من لا خبرة له بالأمور يتجنّب الخوض في علم الرجال ويفرض تعلّم هذا العلم لأنه بحسب تصوّره أنه يفضي إلى الخوض في الغيبة في حين أن من الواضح أن حفظ حريم الشرع والأحكام الإسلامية من المواضيع الكاذبة والأخبار المختلفة أهمّ كثيراً من التعرّض لبعض الرواة وجرحهم، وهذا الهدف السامى هو الذى يبيح لنا أن نتحرّك على مستوى التحقيق في سوابق الرواة وحالاتهم والبحث عن نقاط ضعفهم وإثباتها في كتب الرجال لكي نأمن على الشريعة المقدّسة من الأخبار المزيفة ولكي تكون الأحكام الإلهية في مأمن من تدخل الأهواء والنوازع الذاتية لبعض الرواة. والآخرى: هي أن المسائل الاجتماعية والسياسية والمناصب الحساسة في المجتمع الإسلامي تقتضى أحياناً إفشاء بعض نقاط الضعف للمسؤولين، فهذا المعنى وإن كان في حدّ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٣ ذاته مشمولاً لعنوان الغيبة ومصدّقاً من مصاديقها إلا أن أهمية حفظ النظام الإسلامي وكشف وإبطال المؤامرات الموجهة إلى المجتمع الإسلامي أهم بكثير ولذلك لا إشكال في ذلك، بل قد يكون واجباً أحياناً، والأشخاص الذين يتسترون على عيوب هؤلاء لكي لا يقع في ورطة الغيبة هم في الواقع يضحون بمصالح المجتمع الإسلامي من أجل الأفراد، وقد تقدّم في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه ذمّ هؤلاء وقال: «أَتَزَعُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ أَنْ تَذْكُرُوهُ، فَادْكُرُوهُ يَعْرِفُهُ النَّاسُ»، وأمر بفضحهم ليعرفهم الناس. ولكن هذا لا يعنى أن يقوم بعض الناس

بهتك حرمة الأفراد وفضحهم بدون مبرر أو يتحرّكون في هذا السبيل أكثر من اللازم ويتعرّضون لحيثية الأفراد ويتجاوزون حدودهم الشرعية. وما تقدّم آنفاً يوضح وظيفة الأجهزة الخبرية والمخبرانية في الدولة الإسلامية، فإن كان نشاط هذه الأجهزة والمجاميع التجسسية تصب في غرض الكشف عن الخطر الذي يهدّد سلامة المجتمع الإسلامي وسلامة المناصب الحساسة في غ الدولة الإسلامية، فلا ينبغي أن يتجاوزوا الحدود المشروعة، وحينئذٍ فإنّ عمل هؤلاء لا يحسب في دائرة التجسس ولا يكون مشمولاً لعنوان الغيبة المحرمة، بل هو أداء للوظيفة الشرعية والواجب الإنساني.

## ٥- شمول دائرة الغيبة

لا شك في حرمة غيبة الشخص المؤمن البالغ العاقل، ولا شك في جواز غيبة الكافر الحربى الذى ينوى هدم الإسلام ويتحرّك من موقع التعرّض للمجتمع الإسلامى، لأنه لا حرمة لمثل هذا الشخص. ولكن هل أن غيبة سائر فرق المسلمين وأهل الذمة (وهم الذين لديهم كتاب سماوى من غير المسلمين ويعيشون في داخل إطار المجتمع الإسلامى) جائزة أو أن غيبتهم حرام كما هم محترمون في أنفسهم وأموالهم؟ بعض الفقهاء مثل المحقق الأردبيلي والعلامة السبزواري يرون حرمة الغيبة بشكل عام الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٤. ويتمسكون بالروايات الواردة بعنوان (المسلم) أو الناس وذهبوا إلى أن حرمة غيبة هؤلاء ليست عجيبة، لأنّ أموالهم وأنفسهم محترمة فلماذا لا يكون عرضهم كذلك؟ ولكن المرحوم صاحب الجواهر قدس سره خالف ذلك بشدة وقال: «بأنّ ظاهر الروايات يدلّ بضم بعضها إلى بعض على أن حرمة الغيبة مختصة بالمؤمنين وأتباع أهل البيت عليهم السلام وحتى أنّه استدل بالسيره المستمرة بين العلماء والعوام أيضاً. إذا كان مقصود هذا الفقيه الكبير من المخالفين لأهل البيت عليهم السلام هم النواصب وأعداء المؤمنين والمسلمين فلا- شك في عدم حرمتهم وحرمة غيبتهم، ولكن إذا كان الكلام عن الفرق الإسلامية التي من المقرر حفظ واحترام أنفسهم وأموالهم وكذلك أهل الكتاب من أهل الذمة فإنّ رأى المحقق الأردبيلي قدس سره هو الأقرب إلى الصواب، لأنه في كل مورد تكون نفس الإنسان وماله محترماً، فكذلك عرضه وماء وجهه فلا يجوز التعرّض له بالغيبة، وتوجيه الخطاب للمؤمنين في الآية ١٢ من سورة الحجرات (آية الغيبة) أو التعبير بالمؤمن في بعض الروايات لا يدلّ على عدم شمول حكم الغيبة بالنسبة إلى الآخرين، وبعبارة اخرى إن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه. وعلى هذا الأساس يجب اجتناب غيبة جميع الأشخاص الذين تكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم محترمة وجميع هؤلاء يشملهم حق الناس، وطبعاً هذا في صورة ما إذا لم يكن متجاهراً بالفسق ولم يكن يتحرّك من موقع المؤامرة والدسيسة على الإسلام والمسلمين، بل كانت لهم عيوب وذنوب مستورة وخاصة بهم، فيكون فضحهم والكشف عن هذه العيوب وإراقه ماء وجههم ليس مسوّغ شرعى قطعاً. وأما بالنسبة إلى الطفل المميز الذى يتألم من الغيبة فأيضاً يجب القول بأنّ غيبته حرام كما أشار إلى ذلك الشيخ الأنصارى قدس سره في المكاسب المحرّمة وقال: إنّ عنوان الأخ المؤمن صادق عليه أيضاً كما قال تعالى عن الأيتام: «وإنّ تخالطوهم فأخوانكم» (١). ولكن الصواب هو أنّه لا ينبغي تقييد المورد بالمميز، لأنّ كشف العيوب المستورة للطفل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٥ غير المميز يعدّ هتكاً لشخصيته المستقبلية أو هتكاً لحيثية اسرته، وهو عمل مخالف للقيم الأخلاقية، ولهذا السبب فإنّ الشهيد الثانى قدس سره في كتابه (كشف الريبه) لم يفرّق بين الصغير والكبير، بعبارة اخرى أنّ أطفال المؤمنين كالمؤمنين أنفسهم من حيث حرمة النفس والمال والعرض. ومن هنا يتّضح حكم المجانين والسفهاء أيضاً.

## ٦- الغيبة العامة والخاصة

أحياناً تكون الغيبة عن شخص خاص أو أشخاص معينين حيث تبين حكمها في الأبحاث السابقة من جهات مختلفة، ولكن هناك موارد اخرى تكون الغيبة ذات جهة عامة وكنية، مثلاً يقول: إنّ أهل المدينة الفلانية بخلاء، أو جهلاء، أو سفهاء، أو يقول إنّ أهالى



القرية الفلانية لصوص أو مدمنين أو متحللين أخلاقياً وأمثال ذلك. فهل أن جميع أحكام الغيبة ترد في مثل هذه الموارد أم لا؟ يمكن القول أن الغيبة لها عدة صور ووجوه: ١- فيما إذا كانت الغيبة متوجهة لشخص أو أشخاص معدودين لا يعرفهم المخاطب، كأن يقول: إن في المدينة أو القرية الفلانية عدة أشخاص يشربون الخمر أو يرتكبون الأعمال المنافية للعفة، فلا شك في عدم جريان أحكام الغيبة هنا، لأن المتكلم لم يذكر في كلامه عيباً مستوراً عن شخص معين. ٢- أن يكون المورد من قبيل الشبهة المحصورة (وكما يصطلح عليه شبهة القليل بالقليل أو الكثير بالكثير) مثلاً يقول: أنى رأيت أحد هؤلاء الأربعة أشخاص يشرب الخمر (أو يذكر أسماء هؤلاء الأربعة أو يقول أن أولاد زيد وأمثال ذلك) أو يقول: أن جماعة كثيرة من أهالي القرية الفلانية يرتكبون هذا العمل بحيث أن التهمة تتوجه إلى الجميع من موقع الشك فيهم. والظاهر أن أدلة حرمة الغيبة تشمل هذا المورد، وعلى فرض عدم اطلاق اسم الغيبة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٦ عليها من حيث أنها تعدّ كشفاً ناقصاً عن العيب المستور، فهي حرام من جهة هتك احترام المؤمن وجعله في قفص الإتهام. ٣- أن ينسب إلى جميع أهل البلدة أو القرية أمراً قبيحاً ومخالفاً للشرع والأخلاق، فلا شك في جريان أحكام الغيبة على هذا المورد أو على الأقل صدق عنوان هتك احترام المؤمنين سواء كان مقصوده جميع أهالي البلدة بدون استثناء أو الأكثرية منهم. وعلى هذا الأساس لا يجوز نسبة بعض الصفات أو الممارسات القبيحة لأهالي بلدة معينة إلا أن يكون هناك قرينه على أن مقصوده بعض الأشخاص القلمة منهم، وكما يصطلح عليه شبهة القليل في الكثير أو الشبهة غير المحصورة، أو يكون كلامه عنهم معروفاً لدى الجميع وفي نفس الوقت لم يكن قاصداً لهتكهم وذمهم.

## ٧- الدفاع في مقابل الغيبة

هل يجب على الشخص المستمع للغيبة أن يدافع عن أخيه المؤمن الذي تعرّض للغيبة ويرد على المستغيب أم لا؟ مثلاً يقول في دفاعه: أن الإنسان غير معصوم وكل شخص يتعرّض لارتكاب الخطأ أو يقول: أن من الممكن أن يكون قد صدر هذا الفعل منه سهواً أو نسياناً أو كان في نظره حلالاً وهكذا يحمل فعل أخيه المسلم على الصحة، وعليه فلو كان الفعل قابلاً للتبرير فإنه يتحرّك في تبريره وتوجيهه، وإن لم يكن كذلك قال: من الأفضل أن نستغفر له بدل أن نقع في غيبته لأننا جميعاً معرضين لمثل هذه الأخطاء. بعض الفقهاء الكبار يرون وجوب الدفاع ومنهم شيخنا الأعظم العلامة الأنصاري قدس سره في بحث الغيبة في المكاسب المحرّمة. وهناك روايات كثيرة أيضاً تتحدّث عن لزوم ردّ الغيبة وقد ذكرها المرحوم صاحب كتاب وسائل الشيعة في الباب ١٥٦ من أبواب أحكام العشرة في الحج ومنها: في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يا عليّ من اغتیب عنده أخوه المسلم في الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٠٧ فاستطاع نصره ولم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة» (١). ونفس هذا المضمون أو ما يشبهه ورد في روايات متعددة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام الصادق عليه السلام. وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في خطبة له أمام الناس: «من ردّ عن أخيه في غيبته سيمعها فيه في مجلس ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدنيا والآخرة فإن لم يردّ عنه وأعجبه كان عليه كوزر من إغتابه» (٢). وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «من ردّ عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار» (٣). ولكن الصحيح أنه لا يستفاد وجوب الدفاع من هذه الروايات، بل غاية ما يستفاد منها هو الاستحباب المؤكّد، لأن التعبير لكلمة (خذله الله) الوارد في عدة روايات من هذا الباب لا يقرّر أكثر من أن الله تعالى لا يعين هذا الشخص ويتركه لحاله (لأن معنى الخذلان هو ترك النصرة والمساعدة) وكذلك ما ورد في الثواب والجنّة أو النجاة من النار في بعض الروايات فإنه في قوله: «كان عليه كوزر من إغتابه» قد تدل على وجوب الدفاع ولكن الوارد في هذه الرواية هو أن الإثم لا يقتصر على الاستماع وعدم الدفاع فقط بل ينشرح ويفرح من سماعه لهذه الغيبة، وعلى أية حال فسواء كان الدفاع عن المسلم في مقابل الغيبة واجباً أو مستحباً مؤكداً فإنه يعدّ وظيفة مهمّة في دائرة المفاهيم الإسلامية، وإذا كان الدفاع نهياً عن المنكر فهو واجب قطعاً.

## ٨- غيبة الأموات

أحياناً يتصور البعض أنّ مفهوم الغيبة الوارد في الروايات الشريفة ناظر إلى الأحياء من المسلمين ولا يشمل الأموات، وعليه يجوز غيبة الأموات، ولكنه خطأ فاحش، لأنّ الوارد في الروايات الإسلامية أنّ «حرمة الميت كحرمة وهو حي» بل يمكن القول بأنّ غيبة الميت أقرب وأشنع من بعض الجهات من غيبته وهو حي لأنّ الأحياء يمكن أن يصل إليهم خبر الغيبة ويتحرّكون من موقع الدفاع عن أنفسهم ويردّون على من إغتابهم، ولكنّ الميت غير قادر على الدفاع أبداً، مضافاً إلى أنّ الشخص المرتكب للغيبة قد يرى الطرف الآخر فيما بعد ويطلب منه الصفح وأن يكون في حلّ ولكن هذا المعنى لا يصدق على الأموات. ومضافاً إلى ذلك الأوامر والإرشادات الدينية الواردة في ضرورة احترام جسد الميت المسلم من قبيل الأمر بغسله وتكفينه والصلاة عليه والمفاهيم الواردة في الصلاة عليه ودفنه وزيارة أهل القبور وحرمة هتك قبر المؤمن وأمثال ذلك كلّها يدلّ على وجوب حفظ حرمة الميت المسلم.

## حسن الخلق وسوء الخلق

## تنويه:

حسن الخلق بمعناه الخاص هو أن يعيش الإنسان في تفاعله الاجتماعي وعلاقاته مع الآخرين بصورة حسنة وكلام طيب ووجه بشوش وسلوكيات قابلة للمرونة والتلاءم مع الآخرين ويتحدّث معهم من موقع المحبّة واللطف وترسم على شفّيته الابتسامه والانفتاح، وكل هذه تعتبر من الفضائل الأخلاقية المؤثرة إيجابياً في تعميق الروابط الاجتماعية. (وعلى العكس من ذلك سوء الخلق ومواجهة الآخرين بوجه خشن والتقطيب في وجوههم والجفاف في معاملتهم والخشونة في التحدّث معهم، فهو من الرذائل الأخلاقية التي تمتد في جذورها إلى أعماق النفس الإنسانية وتبعث على تنفّر الآخرين وإبتعادهم عن هذا الشخص وتؤدّي بالتالي إلى إرباك العلاقات الاجتماعية وضعف الروابط الأخوية بين الأفراد. وهناك مطالب كثيرة في هذا المجال في القرآن الكريم والروايات الشريفة وسيرة المعصومين عليهم السلام تحكى عن الأهمية البالغة لهذه الفضيلة وتلك الرذيلة على مستوى الفرد والمجتمع. ومن المعلوم أنّ جانباً مهماً من نجاح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في مهمته ورسالته، وكذلك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٠ سائر المعصومين وكبار العلماء والقادة المصلحين مدين لهذه الخلّة الحسنة في تعاملهم مع أفراد المجتمع وهي (حسن الخلق)، ومن الأسباب المهمة في عدم موفقية بعض القادة والعظماء في التاريخ البشري رهين لسوء خلقهم أيضاً، إنّ تاريخ الأنبياء والأولياء والمعصومين وسائر القادة المصلحين في العالم ملئ بشواهد حية على هذا الموضوع. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ما يرشدنا في هذا الطريق ويسلّط الضوء على زواياه المعتمنة: ١- «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (١). ٢- «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٢). ٣- «وَلَا تُصَيِّرْ كُفْرًا لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لِأُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» (٣). ٤- «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» (٤). ٥- «أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى \* فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» (٥). ٦- «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ» (٦).

## تفسير واستنتاج:

«الآية الاولى» وردت مسألة (حسن الخلق) بعنوان أنّها أحد الخصوصيات للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأحد العوامل المهمة لتقدّم

وتكامل الدعوة الإسلامية في المجتمع العربي آنذاك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١١ فتقول الآية: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...». وعلى هذا الأساس فإن حسن خلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو في الحقيقة رحمة إلهية له ولأمته، وبديهي أن هذا الخلق الحسن وقابلية الانعطاف ومداراة الآخرين تعد من البركات والمواهب الإلهية على كل إنسان يتحلّى بهذه الخصال والسلوكيات الحميدة. ومن التعبير أعلاه في الآية الشريفة نجد النقطة المقابلة لهذا السلوك، وهو أن يكون الإنسان غليظ القلب وسىء الخلق وخشناً في التعامل مع الآخرين حيث تشير الآية إلى نتائج مثل هذا السلوك السلبي، وهي تفرّق الناس وانفصاضهم عن هذا الإنسان الخشن وإبتعادهم عنه، وبعبارة أخرى أن (حسن الخلق) يمثّل اللبنة الأساسية في شد أوصال المجتمع وتقوية وشائج المحبّة بينهم، وسوء الخلق عامل لتفرّق الأفراد وإيجاد الخلل في العلاقات الاجتماعية ويؤدّي إلى نفور الناس. إن كلمة (فظ) و (غليظ القلب) يأتيان بمعنى واحد ويراد بذلك التأكيد، ويمكن أن يكون لهما معنى مختلف عن الآخر، ويقول (الطبرسي) في مجمع البيان في كلمة جامعة: «وقيل إنّما جمع بين الفظاظ والغلظة وإن كانا متقاربين لأنّ الفظاظ في الكلام فنفي الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه» وعليه فكلا الكلمتين تردان بمعنى الخشونة والجفاء، وأحدهما في الكلام، والآخرى في السلوك والفعل. وعلى أي حال فإنّ الله تعالى قد وهب نبيه الكريم حالة اللبونة والانعطاف والبشاشة وحسن التعامل مع الآخرين بحيث أنه كان يسلك هذا السلوك مع أعتى الناس وأخشنهم وأقساهم قلباً، وبهذه الطريقة جذب هؤلاء القساء إلى الإسلام فاعتنقوا الإسلام من موقع الرغبة والشوق والإنجذاب لهذا الخلق الرفيع. وتتبع ذلك توجه الآية لسلسلة إرشادات وأوامر عملية تخرج حالة (حسن الخلق) والبشاشة من صورتها الظاهرة وتلبسها ثياباً عملية على مستوى الممارسة والتطبيق وتقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٢ وعلى هذا الأساس استقطب رسول الله صلى الله عليه وآله أبعده الناس عن الله تعالى والدين والأخلاق وجذبهم إليه وأصبح قدوتهم وأسوتهم في حسن الأخلاق. إن سياق هذه الآيات يشير إلى أن هذه الآية متعلقة بالآيات النازلة في معركة أحد حيث كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين يعيشون أشد الظروف وأقسى الحالات النفسية طيلة هذه الحرب، وبديهي إنّ عملية العفو والاستغفار والانفتاح على الآخرين من موقع المحبّة واللطف جعلت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أسمى مراتب حسن الخلق وحسن التعامل الكريم مع الغير، ولما نجد إنساناً يتمكّن في مثل تلك الظروف الصعبة والتحديات الشرسة أن يحافظ على حسن أخلاقه ولا ينفعل أمام تحديات الواقع الصعب. وتأتي «الآية الثانية» لتشير إلى حسن الخلق العجيب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث تعبر عنه بالخلق العظيم وتقول: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ». (خلق) على وزن أفق، مفرد وهو مع كلمة خلق (على وزن كُفر) بمعنى واحد، ويستفاد من مفردات الراغب أن خلق (على وزن خلق) تشترك في جذر واحد معها غاية الأمر أن (خلق) تطلق على الصفات الظاهرية، و (خلق) تطلق على الصفات الباطنية. ويرى بعض أرباب اللغة أن كلمة (خلق) و (خلق) تردان بمعنى الدين والطبع والسجية حيث يقصد بها الصورة الباطنية للإنسان «١». وعلى آية حال فإنّ وصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأنه ذو خلق عظيم يدلّ على أن هذه الصفة الأخلاقية من أعظم صفات الأنبياء، ويرى بعض المفسّرين أن الخلق العظيم للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله يتمثل في صبره وتحمله في طريق الحق وسعة بذله وكرمه، وتديبر امور الرسالة والدعوة، والرفق والمداراة للناس وتحمل الصعوبات الكبيرة في مواجهة تحديات الواقع الصعب في طريق الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وترك الحرص والحسد والتعامل مع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٣ الأعداء والأصدقاء من موقع العفو واللطف والمحبّة «١» وكل هذه الامور تشير إلى أن الخلق العظيم لا ينحصر بالبشاشة والانعطاف في مواجهة الآخر، بل هو مجموعة من الصفات الإنسانية السامية والقيم الأخلاقية الرفيعة، وبعبارة أخرى: يمكن القول بأن جميع الأخلاق الحسنه الرفيعة جُمعت في عبارة (خلق عظيم). ومما يؤيد هذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَدَبَ نَبِيِّهِ فَأَحْسَنَ أَدَبُهُ فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُ الْأَدَبَ قَالَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «٢». وعندما نقرأ في بعض الروايات أن الخلق العظيم يراد به الإسلام أو الآداب القرآنية إنّما هو لأنّ الإسلام والقرآن يحويان جميع الفضائل الأخلاقية، في حين أنّ بعض الروايات الواردة في تفسير هذه الآية

فسيرت (حسن الخلق) بالبشاشة والمداراة ومن ذلك الحديث الذي أورده (نور الثقلين) في ذيل هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن حسن الخلق في هذه الآية فقال: «تَلِينُ جَانِبِكَ وَتَطْيِيبُ كَلَامِكَ وَتَلْقَى أَحَاكَ بِبُشْرِ حَسَنِ» (٣). ولكن الظاهر عدم التنافي بين هذين المعنيين. وآخر ما يقال في هذا المورد والجدير بالتأمل في هذه الآية هو أن بعض المفسرين استفادوا من كلمة (على) في قوله «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» والتي تفيد مفهوم التسلُّط والقدرة أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله له تسلط كامل على الفضائل الأخلاقية وكأن الأخلاق والقيم الإنسانية جزء من كيانه الشريف حيث يتحرَّك من هذا الموقع بدون تكلف وتصعق. وتستعرض «الآية الثالثة» وصايا ونصائح (لقمان الحكيم) لولده حيث يذكر له أربعة أمور مؤكداً عليها: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٤ الأول: قول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». ثم أضاف «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» وفي الثالث والرابع من هذه النصائح القيمة يوصي لقمان ابنه بالاعتدال في المشى وعدم رفع الصوت ويقول: «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ». وهذه الامور الأخلاقية تمثل جزءاً مهماً من (حسن الخلق) في التعامل مع الآخرين وطريقة السلوك الاجتماعي بين الناس والمقتدرته بالبشاشة والتواضع والإتزان في الكلام والسلوك، ونستوحي من ذلك أن الله تعالى قد إهتم بكلمات لقمان الحكيم هذه بحيث ضمَّنها في كتابه الكريم. (تصعر) من مادة (صَعَرَ) على وزن خطر، وهي في الأصل نوع من الأمراض التي تصيب الابل فتلوي أعناقها، ثم اطلقت على أي نوع من ميل العنق، وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى وهو أن سوء الخلق نوع من المرض الذي يشبه في سلوكه سلوك الحيوان، والملفت للنظر أن هذا النهي عن هذا العمل لا يقتصر على المؤمنين بل يستوعب جميع أفراد البشر ويقول: «وَلَا تُصَيِّرْ عَزْرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». وعلى أي حال فإن جعل هذه الصفة الرذيلة إلى جانب التكبر والافراط في المشى والصوت يبين أن جميع الصفات الرذيلة تؤدي بشكل من الأشكال إلى نفور الناس وامتعاضهم. وفي الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير عبارة «وَلَا تُصَيِّرْ عَزْرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» قال: «أى لا تدل للناس طمعاً فيما عندهم ولا تمشي في الأرض مَرَحاً أى فرحاً» (١). «الآية الرابعة» من هذه الآيات محل البحث نقرأ خطاباً إلهياً لبنى اسرائيل على أساس من العهد الإلهي للمخاطبين بعد التأكيد على التوحيد الخالص والاحسان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، يقول تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». فهذا الخطاب يبين التوحيد من جهة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من جهة أخرى يبين الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٥ أهمية حسن المعاملة ومداراة الناس والتعامل بالأخلاق الحسنة، وبهذا يكون حسن الخلق في عملية التفاعل الاجتماعي وعلى مستوى الروابط الأخلاقية الحسنة للآخرين في عداد أهم التشريعات الإسلامية والمقررات الدينية. وفي الواقع بما أن مال الإنسان محدود ولا يمكن أن يصل باحسانه المادى إلى المحتاجين كافة من الأقرباء والأصدقاء وسائر الفقراء فقد ورد جبران ذلك بالبشاشة وحسن الخلق مع الناس حيث يمثل كنزاً لا يفنى كما ورد في الحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّكُمْ لَا تَسْعَوْنَ النَّيَاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسَعِيهِمْ مِنْكُمْ بَسْطَ الْوَجْهِ وَحُسْنَ الْخُلُقِ» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الباقر في تفسير هذه الآية أنه قال: «قُولُوا لِلنَّاسِ أَحْسَنَ مَا تَحِبُّونَ أَنْ يُقَالَ لَكُمْ» (٢). وصحيح أن المخاطبين بهذه الآية هم بنو اسرائيل، ولكن خصوصية المورد لا تخصيص الآية بهؤلاء المخاطبين حيث إن هدف القرآن الكريم هو بيان أصل كلى لجميع أفراد البشر. «الآية الخامسة» تتحرَّك من خلال بيان مسألة البشاشة والتعامل مع الآخرين حتى لو كانوا أعداءً ولا سيما في مقام دعوتهم إلى الحق والطريق القويم، ومن ذلك نجد أن الأمر الإلهي لموسى عليه السلام بايصال الرسالة الإلهية إلى فرعون الطاغية الذي إستعبد بنى اسرائيل وأن الآية تتحدث عن خطاب الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: «أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى». هذا التعبير يبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الحق لا بد أن تكون مقرونة باللين واللفظ والتعامل من موقع المحبة والرحمة لا سيما مع الاشخاص الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٦ المنحرفين بأمل أن يؤثر هذا السلوك الأخلاقي والإنساني في قلوبهم. وهنا يثار هذا السؤال، وهو ما الفرق بين قوله: «يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»؟ ويمكن القول بأن المقصود من ذلك أنكما إذا حدثتما بكلام لين وفي نفس الوقت ذكرتم له بصراحة ووضوح مضمون الدعوة الإلهية وبدلائل منطقية فعله يقبل ويؤمن بها من أعماق قلبه، ولو لم يؤمن فلا

أقل فانه سيخاف من العقوبة الإلهية بسبب العناد والاصرار على الكفر والابتعاد عن طريق الحق: ويقول (الفخر الرازي): «نحن لا نعلم لماذا أرسل الله تعالى موسى إلى فرعون مع أنه يعلم أنه لا يؤمن أبداً؟ ثم يقول: في مثل هذه الموارد ليس لنا سوى التسليم في مقابل الآيات القرآنية ولا سبيل إلى الاعتراض» (١). ولكن جواب هذا السؤال واضح ولا ينبغي أن يخفى على من مثل الفخر الرازي، لأن الله تعالى يهدف إلى إتمام الحجّة، أي حتّى بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يؤمنون قطعاً فإنّ الله تعالى يتمّ الحجّة عليهم كي لا يقفوا في الآخرة موقف الاعتراض على العقاب الاخرى وأنهم لم يصل إليهم النداء الإلهي ولم يجدوا رسولاً أو نبياً يخبرهم بالخبر كما ورد هذا المضمون في الآية ١٦٥ من سورة النساء حيث يقول تعالى: «رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ». وأمّا قوله لعله (يتذكر أو يخشى) فهو بمعنى أنّ طبيعته التبليغ لا بد وأن تكون مقرونة باللين والمدارة ليصل الإنسان إلى النتيجة المتوخاة، رغم أنه قد يواجه النبي الإلهي موانع صعبة تنبع من ذات الأفراد، وبعبارة أخرى أنّ التبليغ المقرون باللين والمحبّة هو مقتضى للقبول لا علمه تامّة. وبديهي أنه بالرغم من أنّ المخاطب في هذه الآية هو موسى وهارون فحسب ولكن مفهوم الآية شامل لجميع المبلّغين لرسالات الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهكذا يتّضح أنّ الإنسان قد يتحرّك من موقع هداية الناس باللين والعطف والمدارة ويحقّق الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٧ نجاحاً أكبر بكثير ممّا لو استخدم طرق أخرى مقرونة بالخشونة والجفاء الروحي لتحقيق هذا الهدف، وهذا المعنى مجرّب على مستوى الممارسة بكثرة. «الآية السادسة» والأخيرة من الآيات محل البحث تقرّر أنّ المدارة واللين محبّذة حتى مع الأعداء الشرسين وتؤثر في أعماق نفوسهم تأثيراً بالغاً وتقول الآية: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». وبالطبع فإنّ دفع السيئات بالحسنات له طرق ومصاديق مختلفة، أحدها أن يتعامل الشخص من موقع المدارة والأدب والبشاشة مع عدوّه المعاند والحقود إلى درجة بحيث يمكن أن ينقلب هذا الإنسان الحقود إلى صديق محبّ ويتحوّل بصورة تامّة من حالة العداوة والبغضاء إلى حالة الصداقة والمحبّة. والملفت للنظر أنّ الآية التي تليها تؤكد على أنّ هذه المرتبة هي من شأن الصابرين والذين يتمتّعون بحظ وافر من الإيمان والتقوى والتوفيق وتقول: «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِزْبٍ عَظِيمٍ». وطبعاً فالوصول إلى هذه المرتبة من حسن الخلق بحيث يواجه الإنسان السيئات بعكسها من الحسنات ليست من شأن كلّ إنسان لأنها تحتاج إلى تسلط كامل على قوى النفس ولا يستطيع ذلك إلا من اوتى حظاً عظيماً من سعة الصدر وتخلّص من عقدة الانتقام. ومن مجموع الآيات محل البحث نستوحي هذا المفهوم القرآني في دائرة الأخلاق الإسلامية وهو أنّ القرآن الكريم دعى الناس إلى حسن الخلق والتعامل فيما بينهم من موقع المحبّة والمدارة، وفي ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله أسوة ونموذجاً كاملاً في هذا السلوك الإنساني بحيث يمكن القول بأنّ أحد معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي سلوكه الأخلاقي العظيم.

### أهمية حسن الخلق في الروايات الإسلامية:

هناك روايات كثيرة مذكورة في المصادر الإسلامية حول حسن الخلق مع الناس وكيفية التعامل معهم في حركة التفاعل الاجتماعي، والتعبيرات الواردة في هذه الروايات عن هذه الفضيلة الأخلاقية إلى درجة من الكثرة والتأكيد أننا قلّمنا نجد نظيراً لها في النصوص الإسلامية، وهذا يبيّن مدى إهتمام الإسلام في هذه الخصلة الحميدة، ونختار من بين الروايات الكثيرة ما يلي: ١- ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «الإسلامُ حُسْنُ الخُلُقِ» (١). ٢- ونقرأ عن الإمام علي عليه السلام في حديث لطيف يقول: «عنوانُ صَحِيْفَةِ الْمُؤْمِنِ حُسْنُ خُلُقِهِ» (٢). ونعلم أنّ ما يذكر في عنوان الصحيفة وكتاب أعمال الإنسان هو أفضل ما يمكن ذكره في هذه الصحيفة، وبعبارة أخرى يكتب في العنوان القدر الجامع والمشارك لجميع مفردات الأعمال والسلوك الأخلاقي في واقع الإنسان ونفسه. ٣- وفي حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَكْثَرُ مَا تَلَجُّجُ امْتِي الْجَنَّةَ التَّقْوَى وَحُسْنُ الخُلُقِ» (٣). ٤- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أَكْمَلُكُمْ إِيمَانًا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا» (٤). وما ذكر آنفاً من الأحاديث الشريفة هو بعض

الروايات في أهميته حسن الخلق. والآن نستعرض قسماً آخر من الروايات التي تتحدث عن النتائج والآثار المادية والمعنوية على هذا السلوك الأخلاقي: ١- نقرأ في حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال: «الْخُلُقُ الْحَسَنُ يُذِيبُ السَّيِّئَةَ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١١٩-٢ وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ صَاحِبَ الْخُلُقِ الْحَسَنِ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الصَّائِمِ» (١). ٣- ورد في حديث ثالث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ كَمَا يُعْطَى الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٢). وبهذا يتبين أن صاحب الخلق الحسن يتميز على من يقوم الليل في العبادة والمجاهد في سبيل الله ويضاهيهما في الثواب حيث يظهر حسن الخلق النفس الإنسانية من أدران الذنوب وتلوثات الأهواء والنوازع الدنيوية، هذا بالنسبة إلى النتائج المعنوية لحسن الخلق، أما بالنسبة إلى الآثار والنتائج المادية والدنيوية فقد وردت تعبيرات مهمة في النصوص الدينية منها: ٤- نقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «حُسْنُ الْخُلُقِ يُثَبِّتُ الْمَوَدَّةَ» (٣). ٥- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لَا- عَيْشَ أَهْنَأُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» (٤). ٦- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْبِرُّ وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» (٥). ٧- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «حُسْنُ الْخُلُقِ يُدِرُّ الْأَرْزَاقَ» (٦). ٨- وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «فِي سَعَةِ الْأَخْلَاقِ كُنُوزُ الْأَرْزَاقِ» (٧). ومن مجموع هذه الروايات الإسلامية المذكورة أعلاه ندرك جيداً الأهمية البالغة لحسن الخلق في حركة الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويتضح من خلال ذلك تأكيد الإسلام على هذا الأمر المهم، وفي الواقع أن جميع النتائج الإيجابية والبركات المادية والمعنوية مترتبة على حسن الخلق مع الناس بحيث يمكن القول بأن حسن الخلق أحد الاسس في الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٠ دائرة المفاهيم الإسلامية والتعليمات الدينية. وهنا ينبغي الإشارة إلى بعض النقاط:

### تعريف حسن الخلق:

لعل من الامور الواضحة هو مفهوم حسن الخلق فلا حاجة إلى تعريفه لوضوح معناه ومداه لدى الناس، ولكن لغرض إستجلاء هذا المفهوم أكثر نقول: إن حسن الخلق عبارة عن مجموعة من الصفات والسلوكيات التي تتمثل بمداراة الناس، البشاشة، الكلام الطيب وإظهار المحبة، ورعايته الأدب، التبسم، والتحمل والحلم مقابل أذى الآخرين وأمثال ذلك، فلو إمتزجت هذه الصفات مع العمل وترجمها الإنسان في حركة الواقع الخارجي سمي ذلك حسن الخلق. وفي حديث جامع جميل عن الإمام الصادق عليه السلام في تعريف حسن الخلق ورد أن أحد أصحاب الإمام سألته: ما خيدٌ حُسنِ الخلقِ؟ قال الإمام عليه السلام: «تَلِينُ جَانِبِكَ وَتَطْيِيبُ كَلَامِكَ وَتَلْقَى أَخَاكَ بِبُشْرٍ حَسَنٍ» (١). وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير حسن الخلق قال: «إِنَّمَا تَفْسِيرُ حَسْنِ الْخُلُقِ مَا أَصَابَ الدُّنْيَا يَرْضَى وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ لَمْ يَسْخَطْ» (٢).

### النتائج المترتبة على حسن الخلق:

قرأنا في الروايات المذكورة آنفاً نقاط مهمة تتحدث عن النتائج والآثار المادية والمعنوية لحسن الخلق في حركة الإنسان والواقع الاجتماعي وتحتاج إلى شيء من التفصيل والتحليل. ومن الآثار الاجتماعية والدنيوية لهذه السمة الأخلاقية هو أن حسن الخلق يتسبب في الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢١ كسب محبة الآخرين وتعاطفهم مع صاحب هذا الخلق، وهذه المسألة ثابتة بالتجربة للجميع تقريباً وأنه يمكن اصطياذ قلوب الناس من خلال التعامل معهم من موقع المحبة وحسن الخلق ورعايته الأدب وليس فقط أن الأشخاص العاديين ينجذبون إلى حسن الخلق بل أهل النظر والمعرفة والعلم كذلك. ومن النتائج الاخرى أن حسن الخلق والبشاشة تعمّر الديار وتطيل العمر، لأنّ خراب الديار معلول للتضارب والنزاع وحالات الصراع بين الأفراد، فإذا أخلى النزاع والصراع الاجتماعي مكانه لحسن الخلق والتعامل باللطف والمحبة بين الأفراد، فإن ذلك كفيل بتعميق أواصر الاخوة وتعميق عنصر التعاون بين الأفراد والذي يعتبر محور الخير وعامل مهم من عوامل البناء، مضافاً إلى ذلك فإن حسن الخلق يورث الإنسان الهدوء النفسى والاطمئنان الروحي

الذي يعتبر من النتائج المباشرة للتعامل الأخلاقي الحسن مع الناس وعاملاً مهماً من عوامل طول العمر، لأن من الثابت علمياً هو أن من العوامل المهمّة لسرعة الموت وكثرته هو عنصر القلق والاضطراب الروحي الذي يعيشه الإنسان في مقابل تحدّيات الواقع الصعبة وبالتالي تكون منشأ لكثير من الأمراض المختلفة، ومن المسلم أن حسن الخلق والتعامل باللطف والمحبة مع الناس يقلل من شدة الضغط العصبي والقلق النفسي وبالتالي يسبب طول العمر، والشىء الآخر أن حسن الخلق يسبب زيادة الرزق وكثرة العوائد المادية والموقفيّة في الكسب والتجارة، لأن التاجر والكاسب أو الطبيب لا يكون موفقاً في عمله إلا بالكسب المراجعين والمشتريين، وأحد عوامل كسب الثقة والاطمئنان بالشخص هو حسن خلقه وأدبه مع الطرف الآخر، فالكثير من الأشخاص يفضّلون شراء البضاعة وما يحتاجونه من السوق من أمور المعاش من الكاسب الحسن الاخلاق والمعاملة مع المشتري ويرجحونه على الشخص العبوس والحاد المزاج، ولهذا السبب فإن المؤسسات والشركات الاقتصادية الكبيرة تسعى إلى تعليم موظفيها على كيفية التعامل مع الزبائن بالصورة المطلوبة، ومن خلال ذلك يتحرّكون في كسب ثقة الزبائن بمؤسساته التجارية وشركاته الصناعية. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٢ وقد رأينا كثيراً في الرحلات الجوية أن بعض الشركات تقدّم لزبائنها ومسافريها بعض لعب الأطفال وقطع الحلوى مجاناً لأطفالهم المسافرين معهم، ولعلّ قيمة هذه اللعب ليست بكثيرة ولكنها ذات أثر عميق في نفسيّة الأفراد وهذه الطريقة من التعامل مع الزبائن تورث في أنفسهم حسن الظن والثقة للطرف الآخر. وطبعاً فالإسلام يؤيد حسن الخلق من موقع الصفاء الذاتي والتعامل الإنساني لا كما هو السائد من الرياء والتظاهر في العالم المادي المعاصر، ولكن في نفس الوقت فإنه يعتبر أن حسن الخلق له آثار مادية ودينية كثيرة تمثل في زيادة النعمة والبركة في حركة الحياة والواقع المادي. وبالنسبة إلى البعد المعنوي فإن الثواب المترتب على حسن الخلق يعادل ثواب المجاهدين في سبيل الله، ودليل ذلك واضح لأن المجاهد يسعى لنشر راية الإسلام ويتحرّك في هذا السبيل لأعلاء كلمة الله، وصاحب الخلق الحسن أيضاً يتسبب في تعميق الثقة والانفتاح على الإسلاك في قلوب الناس، وقد ورد في الروايات الشريفة أيضاً أن أجر صاحب الخلق الحسن مثل أجر الصائم القائم، لأن الصائم القائم يتحرّك في هذا السلوك العبادي من موقع تهذيب النفس وتصفيتها، فلكذلك الأشخاص الذين يتعاملون في مواجهة تحدّيات الواقع الصعب من موقع غلبة الأهواء وحفظ النفس في اطار الضوابط الأخلاقية والشرعية في سبيل الله تعالى. والخلاصة أن صاحب الخلق الحسن يكون محبوباً عند الله تعالى وعند الخلق كذلك، ويكون موفقاً في حياته الشخصية والفردية وكذلك موفقاً في حياته الاجتماعية. ومن المعلوم أن حسن الخلق يعدّ أحد أركان عناصر الإدارة ولو أن عشرات من الشروط المتوفرة في المدير المدبّر من دون عنصر حسن الخلق لما تسنى لهذا المدير أن يكون موفقاً في عمله وتدييره في حين أنه لو كان حسن الخلق فإن هذه الصفة بإمكانها العمل على ستر الكثير من نقاط الضعف أو جبرانها.

### منابع حسن الخلق:

إنّ بعض الناس يتمتعون بحسن الخلق بشكل طبيعي، وهذا يعدّ من المواهب الإلهية للإنسان التي لا تكاد تكون من نصيب كل شخص، وعلى هذا الإنسان أن يشكر الله تعالى بجميع وجوده على هذه الموهبة العظيمة. ولكن الكثير من الناس ليسوا كذلك، فعليهم أن يقوموا بتعميق وتوكيد حسن الخلق في نفوسهم من خلال التمرين والممارسة على أرض الواقع العملي بحيث يكتسبوا طبيعة ثانية لهم ويكون حسن الخلق نافذاً وراسخاً في وجودهم وواقعهم النفسي، وأفضل طريق إلى نيل هذه الصفة الأخلاقية والمرتبة الكمالية هو أن يتفكّر الإنسان في الآثار المعنوية والمادية لهذه الصفة الأخلاقية ويطالع الروايات الشريفة المذكورة سابقاً في هذا الباب ويتأمل فيها ويقوم بتكرارها بين الحين والآخر لتترسخ مضامينها في أعماق نفسه. ومن جهة أخرى يجب أن يتحرّك الإنسان على المستوى العملي لتطبيق وترجمة هذه الصفة في سلوكه الخارجي، لأن الفضائل الأخلاقية كالقابليات البدنية تقوى وتشتد بالتمرين والتكرار كما نرى في الرياضيين أنهم بعد مدّة من التمرين يتمتعون بأبدان قوية وجميلة فكذلك الرياضة الأخلاقية بإمكانها أن تقوى روح الإنسان.

ويقول علماء الأخلاق في صدد تربية الأفراد البخلاء على صفة الكرم أن الإنسان البخيل يجب أن يضغظ على ميوله النفسى وحرصه على الأموال، ويتحرّك على مستوى بذل المال للآخرين في البداية، ورغم أن هذا العمل يكون عسيراً في البداية إلا أنه تدريجياً يصبح ميسوراً وبالتالي يعتاد الإنسان على حاله البذل والكرم بحيث أنه لو لم يبذل من أمواله يوماً لوجد في نفسه امتعاضاً. وكذلك يوصى علماء الأخلاق الشخص الجبان بأن يحضر إلى ميادين القتال والمواجهة مع العدو حتى تزول عنه حالة الخوف والجبن بالتدرج ويحل محلها صفة الشجاعة والجرأة والإقدام. وهكذا بالنسبة لأصحاب الخلق السيء، فإنهم من خلال التمرين والممارسة المستمرة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٤ لموارد ومصاديق حسن الخلق فإنهم سيتمكنون في المستقبل من توفير رأس مال كبير من هذه الصفة الإنسانية وينتفعون من بركاتهما ونتائجها الإيجابية في حياتهم النفسية والاجتماعية. ومضافاً إلى كل ذلك ونظراً إلى أن أحد عوامل سوء الخلق هو التكبر والغرور وكذلك الحدة والغضب وروح الانتقام وأحياناً يكون بسبب الحرص والبخل والحسد، فلو أن الإنسان أراد أن يكون حسن الخلق في جميع موارد الحياة الفردية والاجتماعية لوجب عليه أن يدفع ويزيل هذه الصفات والحالات السلبية عن واقعه النفسى. عليه أن يراعى حد الاعتدال في القوة الغضبية والشهوية وأن تكون له سعة الافق وشرح الصدر ليتمكن بذلك من تطهير قلبه وروحه من الأنانية والحسد والبخل وبالتالي يورثه ذلك حسن الأخلاق ويكون في أمان من سوء الخلق مع الناس. وعليه فإن تحصيل هذه الفضيلة الأخلاقية الكبيرة تتطلب وجود وتوفر مجموعة من الصفات الحسنة في واقع الإنسان النفسى حيث إنه بدونها لا يكون حسن الخلق في سلوكه الأخلاقى. ويقول (الغزالي) في هذا الصدد: كما أن صاحب الوجه الحسن لا يكون كذلك بجمال العين فقط بل لابد أن يضم إليه جمال الأنف والفم وجميع أعضاء الوجه، ليكون جميلاً وكاملاً في مجال الجمال البدنى والمادى، فكذلك حال الجمال الباطنى والمعنوى فما لم يصل الإنسان إلى حد الاعتدال في قواه الأربعة ... العلم والغضب والشهوة والعدالة، فإنه لا يصل إلى مقام الجمال الباطنى. ولا شك أن عامل (الوراثة) يؤثر في سلوك الإنسان الأخلاقى حيث يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «حُسْنُ الْخُلُقِ بُرْهَانُ كَرَمِ الْأَعْرَاقِ» (١). ويقول عليه السلام في مكان آخر: «أَطْهَرُ النَّيَاسِ أَعْرَاقًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا» (٢).

الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٥ وهناك ملاحظة ينبغي الالتفات إليها في البحوث الأخلاقية وهى، أن الفضائل الأخلاقية لا يمكن إكتسابها وتحصيلها من دون التوفيق الإلهى والامداد الربانى، فيجب الاستمداد من الله تعالى في سبيل تحصيل هذه الملكات الأخلاقية الفاضلة وغرسها وتنميتها في واقع الإنسان وروحه. ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الأخلاق مَنَائِحٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا مَنَحَهُ خُلُقًا حَسَنًا وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا مَنَحَهُ خُلُقًا سَيِّئًا» (١).

### سيرة الأولياء:

ومن أفضل الطرق لكسب فضيلة حسن الخلق وملاحظة نتائجها الإيجابية على واقع الإنسان هو التحقيق في سيرة الأولياء العظام. ١- نقرأ في حديث عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دَائِمًا الْبُشْرَ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بَفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَيْخَابٍ، وَلَا فَحَّاشٍ، وَلَا عِيَابٍ، وَلَا مِدَاحٍ، وَلَا يَتَغَاوَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤَيِسُ مِنْهُ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا، وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَرَقَ جُلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ سَكَتُوا وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا لَا يَسَارِعُونَ عِنْدَهُ بِالْحَدِيثِ، مَنْ تَكَلَّمَ نَصَتْوَا لَهُ حَتَّى يَفْرَغَ حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثَ إِلَيْهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، يُصَبِّرُ الْغَرِيبَ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي الْمَنْطِقِ، وَيَقُولُ: (إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَأَرْفُدْهُ)، وَلَا يَقْبَلُ الشَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيءٍ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَهُ فَيَقْطَعُهُ بِانْتِهَاءِ أَوْ قِيَامِ» (٢). ٢- ونقرأ في حالات الإمام على عليه السلام في الرواية المعروفة أن الإمام كان قاصداً الكوفة فصاحب رجلاً ذمياً فقال له الذمى: أين تريد يا عبدالله، قال: أريد الكوفة، فلما عدل الطريق الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٦ بالذمى عدل معه على عليه السلام، فقال له الذمى: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال: بلى. فقال له الذمى: فقد تركت الطريق، فقال عليه السلام: قد علمت، فقال له: فلم عدلت معى وقد علمت ذلك؟ فقال له على عليه



السلام: «هذا من تمام الصُّحْبَةِ أَنْ يُشَيِّحَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ هُنَيْئَةً إِذَا فَارَقَهُ وَكَذَلِكَ أَمَرْنَا نَبِيَّنَا». فقال له الذمي: هكذا أمركم نبيكم؟ فقال: نعم، فقال له الذمي: لا جرم إنَّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهد على دينك، فرجع الذمي مع الإمام على عليه السلام، فلما عرفه أسلم» «١». ٣- وفي حديث آخر في تفسير الإمام الحسن العسكري أنه قال: حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: إن لي والده ضعيفه وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء وقد بعثتني إليك فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك فثنت فأجابت ثم ثلثت إلى عشرة فأجابت ثم خجلت في الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنه رسول الله صلى الله عليه وآله قالت فاطمة: هاتي وسلي عما بدا لك، أرأيت من اكرتري يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكرهه مائة ألف دينار يثقل عليه؟ فقالت: لا، فقالت: اكرتري أنا لكل مسألة بأكثر من ملاً ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول: «علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله..» «٢». وهذا الصبر العجيب والتعامل المليء بالمحبة واللفظ وهذا التشبيه الجميل الباعث على إزالة الحياء من السائل من كثرة سؤاله كل واحدة منها مثال جميل على حسن خلق الأولياء العظام حيث ينبغي أن يكون درساً بليغاً وعبرة نافعة في طريق إرشاد الناس إلى سلوك مثل هذه الممارسات الأخلاقية. ٤- ومما ورد عن حلم الإمام الحسن عليه السلام أن شامياً رآه راكباً (في بعض أزقة المدينة) الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٧ فجعل يلعنه والحسن لا يرد، فلمّا فرغ أقبيل الحسن عليه السلام فسلم عليه وضحك فقال: «أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شُبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت غريباً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة فقصيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت إرتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضة ما رجباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال أشهد أنك خليفه الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت وأبوك أحب خلق الله إليّ، وحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم «١». ٥- وجاء في كتاب «تحف العقول»: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يسأله حاجة، فقال عليه السلام: «يا أبا الأنصار صن وجهك عن يذيل المسألة وارفع حاجتك في رقعة فإني آت فيها ما سارك إن شاء الله»، فكتب الأنصاري: يا أبا عبد الله إن لفلان عليّ خمسمائة دينار وقد الحجّ بي فكلّمه ينظرنى إلى ميسرة، فلما قرأ الإمام الحسين عليه السلام الرقعة، دخل إلى منزله فأخرج صرّة فيها ألف دينار وقال عليه السلام له: «أما خمسمائة فاقض بها دينك وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرِكَ ولا ترفع حاجتك إلّا إلى أحد ثلاث: إلى ذى دين، أو مروءة، أو حسب، فأما ذو الدين فيصون دينه، وأما ذو المروءة فإنه يستحي لمروءته، أما ذو الحسب فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبدله في حاجتك فهو يصون وجهك أن يردك بغير قضاء حاجتك» «٢». ٦- ونقرأ في حالات الإمام زين العابدين أنه وقف على بن الحسين عليه السلام رجل من أهل بيته فأسمعه وشمته فلم يكلمه، فلما انصرف قال لجلسائه: قد سمعتم ما قال هذا الرجل وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردى عليه. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٨ فقالوا له: نفعل ولقد كنا نحب أن نقوله له ونقول، قال: فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: «... وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «١». فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً قال: فخرج إلينا متوثباً للشر وهو لا يشك أنه إنَّما جاءه مكافياً له على بعض ما كان منه فقال له على بن الحسين عليه السلام: «يا أخى إنك كنت قد وقفت على أنفاً قلت وقلت فإن كنت قد قلت ما فيّ فأنا استغفر الله منه وإن كنت قلت ما ليس فيّ فغفر الله لك». قال (الراوي) فقبل الرجل بين عينيه وقال: بلى قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحق به. قال الراوى الحديث: والرجل هو الحسن بن الحسن عليه السلام «٢». ٧- ونقرأ في حالات الإمام الباقر: عن محمد بن سليمان عن أبيه قال: كان رجل من أهل الشام يختلف على أبي جعفر عليه السلام (الإمام الباقر) وكان مركزه بالمدينة يختلف إلى مجلس أبي جعفر يقول له: يا محمد ألا ترى أني إنَّما أغشى مجلسك حياء منك ولا أقول أن أحداً في الأرض أبغض إليّ منكم أهل البيت، وأعلم أن طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أمير المؤمنين في بغضكم ولكن أراكم رجلاً فصيحاً لك أدب وحسن لفظ، فإنما اختلافي إليك لحسن أدبك. وكان أبو جعفر عليه

السلام يقول له خيراً ويقول: لن تخفى على الله خافية فلم يلبث الشامي إلّا قليلاً حتى مرض واشتدّ وجعه، فلمّا ثقل دعا وليه وقال له: إذا أنت مددت عليّ الثوب فأنت محمد بن علي عليه السلام وسله أن يصليّ عليّ واعلمه إنّي أنا الذي أمرتك بذلك. قال: فلمّا أن كان في نصف الليل ظلّوا أنّه قد برد وسجّوه، فلمّا أن أصبح الناس خرج وليه إلى المسجد، فلمّا أن صلّى محمد بن علي عليه السلام وتورّك وكان إذا صلّى عقب في مجلسه، قال له: يا أبا جعفر إن فلان الشامي قد هلك وهو يسألك أن تصليّ عليه. فقال أبو جعفر عليه السلام: كلّما إن بلاد الشام بلاد صرد والحجاز بلاد حرّ لهبها شديد انطلق فلا الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٢٩ تعجلنّ على صاحبك حتى آتيكم ثم قام عليه السلام من مجلسه فأخذ وضوءاً ثم عاد فصلّى ركعتين ثم مدّ يده لتلقاه وجهه ما شاء الله ثم خرّ ساجداً حتّى طلعت الشمس ثم نهض فانتهى إلى منزل الشامي، فدخل عليه فدعاه فأجابته ثم أجلسه وأسنده ودعا له بسويق فسقاه وقال لأهله: املؤوا جوفه وبزّدوا صدره بالطعام البارد. ثم انصرف عليه السلام، فلم يلبث إلّا قليلاً حتّى عوفى الشامي فأتى أبا جعفر عليه السلام فقال: اخلني فأخلاه، فقال: أشهد أنّك حجّة الله على خلقه وبابه الذي يؤتى منه فمن أتى من غيرك خاب وخسر وضلّ ضلالاً بعيداً. قال له أبو جعفر عليه السلام: وما بدا لك؟ قال: أشهد أنّي عهدت بروحي وعانيت بعيني فلم يتفاجأني إلّا ومناد ينادي اسمعه بأذني ينادي وما أنا بالنائم ردّوا عليه روحه فقد سألتنا ذلك محمد بن علي. فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أما علمت أنّ الله يُحبُّ العبدَ ويُبغضُ عمَلَهُ ويُبغضُ العبدَ ويحبُّ علمه؟»، (أى كما أنّك كنت مبغوضاً لدى الله لكنّ عملك وهو حبنا مطلوباً عنده تعالى). قال الراوي: فصار بعد ذلك من أصحاب أبي جعفر عليه السلام «١». ٨- ورد في الحديث المعروف في حالات الإمام الصادق المذكور في مقدمة (توحيد المفضل) أنّ المفضل بن عمر قال كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة وبين القبر والمنبر وأنا مفكّر فيما خصّ الله به سيّدنا محمداً من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرفه به وحباه لا يعرفه الجمهور من الامة، وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطر مرتبته، فإني لكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه، فلمّا استقرّ به المجلس إذا رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه فتكلّم ابن أبي العوجاء؟ فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العزّ بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله، فقال له صاحبه: إنّه كان فيلسوفاً يدّعي المرتبة العظمى والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بهجرات بهرت العقول، وضّلت فيها الأحلام، وغاصت الأبواب على طلب علمها في بحار الفكر فرجعت خاسئات وهي حسير، فلمّا استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٠ دخل الناس في دينه أفواجاً فقرن اسمه باسم ناموسه، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع في جميع البلدان ... فقال ابن أبي العوجاء: دع ذكر محمد، فقد تحيّر فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري، وحدثنا في ذكر الأصل الذي يمشى به، ثم ذكر ابتداء الأشياء وزعم أنّ ذلك باهمال لا صنعته فيه ولا تقدير، ولا صانع له ولا مدبّر، بل الأشياء تتكوّن من ذاتها بلا مدبّر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال. قال المفضل: فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدوّ الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصوّرك في أتم صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلغ بك إلى حيث انتهيت. فقال ابن أبي العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كَلَمناك، فإن ثبت لك حيّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد (الصادق)، فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه للحلوم الرزين العاقل الرصين لا يعتربه خرق ولا طيش ولا نزق، ويسمع كلامنا ويصغى إلينا ويستعرف حجّتنا حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننا أن قد قطعناه أدحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير يلزمننا به الحيّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه «١». ٩- ونقرأ في حالات الإمام موسى بن جعفر أنّ رجلاً من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذيه ويشتم علياً عليه السلام قال: وكان قد قال له بعض حاشيته دعنا نقتله فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر وسأل عن العمرى فذكر له أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه في مزرعته فوجده فيها فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمرى لا تطأ زرعنا فوطئه بالحمار حتى وصل إليه فنزل فجلس عنده وضاحكه وقال له: كم غرمت في زرعك هذا قال له: مائة دينار قال: فكم ترجو أن يصيب، قال له: أنا لا أعلم

الغيب، قال: إنما الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣١ قلت لك كم ترجو أن يجيئك فيه قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار، قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، قال: فقام العمرى فقبل رأسه وانصرف. قال الراوى: فراح المسجد فوجد العمرى جالساً فلما نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته، قال: فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتُك؟ قد كنت تقول خلاف هذا، قال: فخاصمهم وشاتمهم، قال: وجعل يدعو لأبى الحسن موسى كلما دخل وخرج، قال فقال أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام لحاشيته الذين أرادوا قتل العمرى: «أيما كان خير ما أردتم أو ما أردت أصلح أمره بهذا المقدار» (١). ١٠- وهكذا ورد في سيرة الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وكيفية تعامله مع الناس من موقع المحبة والطف، نقل عن اليسع بن حمزة، قال: كنت في مجلس أبى الحسن الرضا عليه السلام احده وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم فقال: السلام عليك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله من محبيك ومحبي آباءك وأجدادك مصدرى من الحج وقد افتقدت نفقتى وما معى ما أبلغ به مرحلة، فإن رأيت أن تنهضنى إلى بلدى ولله على نعمه، فإذا بلغت بلدى تصدقت بالذى تولينى عنك فليست بموضع صدقة. فقال له الإمام عليه السلام: اجلس يرحمك الله، واقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفرى وخيثة وأنا، فقال: أتأذنون لى فى الدخول؟ فقال له سليمان: قدم الله أمرك، فقام ودخل الحجره وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، وقال ابن الخراسانى؟ فقال: ها أناذا. فقال عليه السلام: خذ هذه المأتى دينار فاستعن بها فى مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عنى واخرج فلا- أراك ولا- ترانى، ثم خرج، فقال سليمان الجعفرى: جعلت فداك لقد اجزلت ورحمت فلماذا استرت وجهك عنه؟ فقال عليه السلام: مخافه أن أرى ذل السؤال فى وجهه لقضائى حاجته، أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «المستتر بالحسنه تعدل سبعين حجه، والمذيع بالسيئه مخذول، والمستتر الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٣٢ بها مغفور له»، أما سمعت قول الأول: متى آتته يوماً اطالب حاجه رجعت إلى أهلى ووجهى بمائه (١). ١١- ونقرأ فى حالات الإمام الجواد عليه السلام، عن على بن جرير قال: كنت عند أبى جعفر ابن الرضا عليهما السلام جالساً وقد ذهبت شاء لمولاه له فأخذوا بعض الجيران يجزونهم إليه ويقولون: أنتم سرقتم الشاء، فقال أبو جعفر الإمام الجواد عليه السلام: ويلكم خلوا عن جيراننا فلم يسرقوا شاتكم الشاء فى دار فلان، فاذهبوا فأخرجوها من داره، فخرجوا فوجدوها فى داره، وأخذوا الرجل وضربوه وخرقوا ثيابه، وهو يحلف أنه لم يسرق هذه الشاء إلى أن صاروا إلى أبى جعفر عليه السلام فقال: ويحكم ظلمتم الرجل فإن الشاء دخلت داره وهو لا يعلم بها، فدعاه فوهب شيئاً بدل ما خرق من ثيابه وضربه (٢). ١٢- وكذلك ورد فى سيرة الإمام الهادى عليه السلام عن أبى هاشم الجعفرى قال: أصابنى ضيقه شديده فصرت إلى أبى الحسن على بن محمد (الإمام الهادى عليه السلام) فأذن لى فلما جلست قال: يا أبا هاشم أى نعم الله عزوجل عليك تريد أن تؤدى شكرها؟ قال أبو هاشم: فوجمت فلم أدري ما أقول له. فابتدأ عليه السلام فقال: «رزقك الإيمان فحرم يدنك على النار، ورزقك العافية فأعانتك على الطاعة، ورزقك القنوع فصانك عن التبذل، يا أبا هاشم إنما ابتدأتك بهذا لأنى ظننت تريد أن تشكو لى من فعل بك هذا، وقد أمرت لك بمائه دينار فخذها» (٣). ١٣- وأورد (الكلىنى) فى الجزء الأول من اصول الكافى- حول الإمام العسكرى عليه السلام- أنه قال: «حُبس أبو محمد (الإمام العسكرى) عند على بن نارمش وهو أنصب الناس وأشدهم على آل أبى طالب وقيل له: افعل به وافعل- يعنى من السوء والأذى- فما أقام- الإمام- عنده إلا يوماً حتى وضع خديته له، وكان لا يرفع بصره إليه إجلالاً وإعظاماً فخرج الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٣٣ من عنده وهو أحسن الناس بصيرة وأحسنهم فيه قولاً» (١). ١٤- وجاء فى الروايات عن الإمام المهدي أرواحنا فداه وحسن خلقه وعنايته بالأشخاص الذين يتشرفون بلقائه روايات وقصص كثيرة، منها ما ذكره المرحوم (المحدث النورى) فى كتابه (جنة المأوى) عن أحد علماء النجف الأشرف أنه قال: كان فى النجف الأشرف رجل مؤمن يسمي الشيخ محمد حسن السريره، وكان فى سلك أهل العلم ذانية صادقة، وكان معه مرض السعال إذا سعل يخرج من صدره مع الأخطاط دم، وكان مع ذلك فى غاية الفقر والاحتياج لا يملك قوت يومه، وكان يخرج فى أغلب أوقاته إلى البادية إلى الأعراب الذين فى اطراف النجف الأشرف ليحصل له قوت ولو شعير وما يتيسر ذلك، وكان يكفيه مع شدة رجائه وكان مع ذلك قد تعلق قلبه

بتزويج امرأة من أهل النجف، وكان يطلبها من أهلها وما أجابوه إلى ذلك لقلمة ذات يده، وكان في هم وغم شديد من جهة ابتلائه بذلك، فلما اشتد به الفقر والمرض وأيس من تزوج البنت عزم على ما هو معروف عند أهل النجف من أنه من أصابه أمر فواظب الرواح إلى مسجد الكوفة أربعين ليلة أربعاء، فلا بد أن يرى صاحب الأمر عجل الله فرجه من حيث لا يعلم ويقضى له مراده، فواظب على ذلك أربعين ليلة أربعاء، فلما كان الليلة الأخيرة وكانت ليلة شتاء مظلمة وقد هبت ريح عاصفة فيها قليل من المطر وأنا جالس في الدكة التي هي داخل باب المسجد وكانت الدكة الشرقية المقابلة للباب الأول تكون على الطرف الأيسر عند دخول المسجد ولا يتمكن الدخول في المسجد من جهة سعال الدم ولا يمكن قذفه في المسجد وليس معي شيء اتقى فيه عن البرد وقد ضاق صدري واشتد عليّ همّي وغمّي وضقت الدنيا في عيني وافكر أن الليالي قد انقضت وهذه آخرها وما رأيت أحداً ولا ظهر لي شيء وقد تعبت هذا التعب العظيم وتحملت المشاق والخوف في أربعين ليلة أجيء فيها من النجف إلى مسجد الكوفة ويكون لي الاياس من ذلك، فبينما أنا افكر في ذلك وليس في المسجد أحد أبداً وقد أوقدت النار الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٤ لأسخن عليها قهوة جئت بها من النجف لا أتمكن في تركها لتعودي عليها وكانت قليلة جداً إذا بشخص من جهة الباب الأول متوجهاً إليّ، فلما نظرت من بعيد تكدرت وقلت في نفسي هذا اعرابي من أطراف المسجد قد جاء إليّ ليشرب من القهوة أبقى بلا قهوة في هذا الليل المظلم ويزيد عليّ همّي وغمّي، فبينما أنا افكر إذا به قد وصل إليّ وسلّم عليّ باسمي وجلس في مقابلي فتعجبت من معرفته باسمي وظننته من الذين أخرج إليهم في بعض الأوقات من أطراف النجف أسأله من أي العرب يكون؟ قال: من بعض العرب، فصرت أذكر له الطوائف التي في أطراف النجف فيقول: لا- لا وكلما ذكرت له طائفة قال: لا لست منها فاعضبي، وقلت له: أجل أنت من طريظة مستهزءاً هو لفظ بلا- معني، فتبسّم عليه السلام من قولي ذلك وقال: لا عليك من اين كنت ما الذي جاء بك إلى هنا، فقلت: وأنت ما عليك السؤال عن هذه الامور؟ فقال: ما ضرّك لو أخبرتنى فاعجبت من حسن أخلاقه وعذوبته منطلقه فمال قلبي إليه وصار كلما تكلم ازداد حبي له فعملت له السبيل من التتن وأعطيته فقال: أنت اشرب فأنا لا اشرب وصببت في الفنجان قهوة وأعطيته فأخذه وشرب شيئاً قليلاً منه ثم ناولني الباقي وقال: أنت اشربه فأخذته وشربته ولم التفت إلى عدم شربه تمام الفنجان، ولكن ازداد حبي به آناً فآناً. فقلت له: يا أخي قد ارسلك الله إليّ في هذه الليلة تأتيني أفلا تروح معي إلى أن نجلس في حضرة مسلم عليه السلام وتحدث؟ فقال: أروح معك فحدّث حديثك. فقلت له: أحكى لك الواقع أنا في غاية الفقر والحاجة مذ شعرت على نفسي ومع ذلك معي سعال أنتزع الدم وأقذفه من صدري منذ سنين ولا أعرف علاجه وما عندي زوجه وقد علق قلبي بامرأة من أهل محلتنا في النجف ومن جهة قلّة ما في اليد ما تيسّر أخذها. وقد غزني هؤلاء الملائيّة وقالوا لي: اقصد في حوائجك صاحب الزمان وبت أربعين ليلة أربعاء في مسجد الكوفة فانك تراه ويقضى لك حاجتك وهذه آخر ليلة من الأربعين وما رأيت فيها شيئاً وقد تحملت هذه المشاق في هذه الليالي فهذا الذي جاءني هنا وهذه حوائجي. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٥ فقال لي وأنا غافل غير ملتفت: أمّا صدرك فقد برأ وأمّا المرأة فتأخذها عن قريب، وأمّا فقرك فيبقى على حاله حتى تموت وأنا غير ملتفت إلى هذا البيان أبداً. فقلت: ألا تروح إلى حضرة مسلم؟ قال: نعم فقممت وتوجّه أمامي فلما وردنا أرض المسجد فقال: ألا تصلّي تحية المسجد، فقلت: افعل فوقف هو قريباً من الشاخص الموضوع في المسجد وأنا خلفه بفاصلة فاحرمت الصلاة وصرت أقرأ الفاتحة. فبينما أنا أقرأ وإذا يقرأ الفاتحة قراءة ما سمعت أحداً مثلها أبداً، فمن حسن قراءته قلت في نفسي لعله هذا هو صاحب الزمان وذكرت بعض كلمات له تدل على ذلك ثم نظرت إليه بعدما خطر في قلبي ذلك وهو في الصلاة وإذا به قد أحاطه نور عظيم معني من تشخيص شخصه الشريف وهو مع ذلك يصلّي وأنا أسمع قراءته وقد ارتعدت فرائصي ولا استطيع قطع الصلاة خوفاً منه فأكملت على أي وجه كان وقد علا النور من وجه الأرض فصرت اندبه وأبكي واتضجر واعتذر من سوء أدبي معه بباب المسجد وقلت له: أنت صادق الوعد وقد وعدتني الرواح معي إلى مسلم. فبينما أنا اكلم النور وإذا بالنور قد توجّه إلى جهة مسلم فتبعته فدخل النور الحضرة وصار في جو القبة ولم يزل على ذلك ولم ازل أندبه وأبكي حتى إذا طلع الفجر عرج النور. فلما كان الصباح التفت إلى قوله، أمّا صدرك فقد برأ وإذا أنا صحيح الصدر وليس معي سعال

أبدأ، وما مضى اسبوع إلّا وسهّل الله على أخذ البنت من حيث لا أحتسب وبقي فقري على ما كان كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين (١). وما ذكر أعلاه نماذج ونقاط مضيئة من سيرة الأئمة والأولياء العظام وبما يكون بمثابة تجليات نورانية لسلكهم الأخلاقي السامي وحسن تعاملهم مع الصديق والعدو، وهذه النماذج القليلة تدل على مدى تأكيد هؤلاء العظام والقادة على هذه السجية وأهميتها في حياة الإنسان المعنوية، وما ورد في القرآن الكريم حكاية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حسن الخلق العظيم نجده مترجماً في سلوكيات الأئمة الكرام عليهم السلام في دائرة العمل والسلوك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٦ الأخلاقي، نعم فإن الدعوة إلى حسن الخلق لا تكون باللسان فقط ومن خلال التوصيات والإرشادات الكلامية، بل إن الممارسة الأخلاقية والتحرّك الأخلاقي العملي يمثل أسمى نداء أخلاقي وإرشاد تربوي في عملية التكامل المعنوي والحضاري للبشرية.

### نتائج سوء الخلق:

النقطة المقابلة لحسن الخلق في واقع الإنسان وسلوكه الأخلاقي هي (سوء الخلق) حيث يمكن أن يفسر على مستوى الخشونة والحدّة وسوء الكلام. الأشخاص الذين يعيشون سوء الخلق مع الناس هم بمثابة بلاء عظيم على أنفسهم واسرتهم ومجتمعهم الذي يعيشون فيه. إن سوء الخلق من أهم عوامل إيجاد الكراهية والتنفّر والتفرّق بين أفراد المجتمع، والأشخاص الذين يعيشون الابتلاء بهذه الحالة السيئة، فإنهم غالباً ما يعيشون الانزواء في المجتمع حيث يتعدّد الناس عنهم ويتجنّبون معاشرتهم، وحتى لو اجبروا على معاشرتهم بسبب بعض الواجبات الاجتماعية أو بسبب مقامهم ومكانتهم الاجتماعية فإنهم يشعرون بالنفور منهم في قلوبهم ويجدون في أنفسهم الرغبة في الابتعاد عنهم مهما أمكنهم ذلك. وعندما يتوفّر هذا الخلق السيء والمرض النفسي لدى علماء الدين ورجال المذهب، فإن ذلك يمثل خطراً كبيراً على الدين والمجتمع ويتسبب في سوء ظن الناس بأساس الدين وفرارهم من التعاليم والإرشادات الدينية وهذا بحدّ ذاته ذنب عظيم جدّاً لا يمكن جبرانه. ولهذا السبب ورد في الروايات تعبيرات شديدة تتحدّث عن سوء الخلق وأحياناً نقرأ فيها كلمات مذهلة ومخيفة عن النتائج الوخيمة والآثار السلبية لهذا المرض الأخلاقي، ومن ذلك نقرأ ما ورد في بعض هذه الروايات: ١- جاء في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِيَّاكُمْ وَسُوءَ الْخُلُقِ فَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ فِي النَّارِ لِمَحَالَّةٍ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٧ ٢- وفي حديث آخر- عبّر عنه بأنّه لا توبة لصاحب الخلق السيء- وعنه صلى الله عليه وآله قال: «أَبَى اللَّهُ لِصَاحِبِ الْخُلُقِ السَّيِّئِ بِالتَّوْبَةِ» قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال: «لأنّه إذا تاب من ذنب وقّع في أعظم من الذنب الذي تاب منه» (١). ويمكن أن يكون المقصود من هذا الحديث الشريف أنّ الشخص السيء الخلق عندما يتوب في مورد من الموارد ويقطع عن بعض الممارسات الأخلاقية، فإن ذلك من شأنه أن يوقعه فيما هو أسوأ من ذلك، لأنّ جذور هذا المرض لا زالت موجودة في أعماق نفسه ممّا يزيد في عقده النفسية، ولهذا السبب فإنّه لا يوفّق للتوبة الكاملة إلا بالاقلاع عن هذه الرذيلة الأخلاقية واجتثاث جذور من واقعه النفسي وباطنه المعنوي. ٣- وجاء عن الإمام على عليه السلام في تقريره لحالة سوء الخلق أنّ: «أشدّ المصائب سُوءُ الْخُلُقِ» (٢). وهل هناك مصيبة أعظم من أن يكون الإنسان منزوياً ومعزولاً في مجتمعه وبين أرحامه ومعارفه ويقطع الصلّة بينه وبين الخلق والخالق على السواء. ٤- ونقرأ في الرواية الواردة عن هذا الإمام العظيم أنّه قال: «لَا وَحْشَةَ أَوْحَشُ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ» (٣). ودليل ذلك واضح وهو أنّ الإنسان السيء الخلق يغرق في الوحدة الموحشة ويعيش وحيداً منقطعاً عن الآخرين، ولهذا السبب ورد في حديث آخر أنّه قال: «لَا عَيْشَ لِسَيِّئِ الْخُلُقِ» (٤). لأنّه يعيش دائماً حالة الضجر والتعب في نفسه ويودّي أيضاً إلى تعب المعاشرين له. ٥- وشبهه هذه الرواية مع اختلاف يسير ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام أمير الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٣٨ المؤمنين أيضاً أنّه قال: «لَا سُودَدَ لِسَيِّئِ الْخُلُقِ» (١). فالإنسان السيء الخلق لا يكون كبيراً في مجتمعه ودليل ذلك واضح أيضاً، لأنّ من أول شروط تحصيل المكانة الاجتماعية والسيادة والعزّة لدى الأهل والعشيرة هو التعامل الأخلاقي الحسن مع الآخرين ومراعاة الأدب والليونة واللطافة، فمن إفتقد رأس المال هذا فإنّه لا يصل إلى ذلك المقام. ٧- وورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «المؤمن لئن أرى ريكة، سهل

الْخَلِيقَةَ، وَالْكَافِرُ شَرِّسُ الْخَلِيقَةِ سَيِّئُ الطَّرِيقَةِ» (٢).

### علاج سوء الخلق:

إنّ ما أوردنا فى الروايات أعلاه وروايات اخرى كثيرة لم نذكرها حرصاً على الايجاز وعدم الأطلالة هو شاهد على أنّ سوء الخلق يعتبر أحد أسوأ الصفات النفسية والأخلاقية فى واقع الإنسان وسلوكه الاجتماعى حيث يترتب عليها نتائج وخيمة فى حركة الإنسان والمجتمع ويفضى إلى تدمير افق الحياة السعيدة ويبدّل عناصر الخير والسعادة فى حياة الإنسان إلى الشر والشقاء. وعلى هذا فإنّ الأشخاص الذين يعيشون هذه الرذيلة الأخلاقية يجب عليهم علاج أنفسهم بأسرع ما يمكن، والاستفادة من كلمات ونصائح علماء الأخلاق فى هذا المجال ومنها قولهم: إنّ من يتلى بهذه الصفة الرذيلة يجب عليه أن يفكر ويتدبّر فى عواقبها الوخيمة فى كل يوم ويقرأ باستمرار الروايات التى تتحدّث عن آثارها السلبية فى الدنيا والآخرة كما تقدمت الإشارة إليها، ويشاهد ما يجرى فى حياة المبتلين بهذا المرض وكيف أنّ الناس تنفر منهم وتبتعد عنهم وبذلك يعيشون حالة الوحشة والصعوبة فى مقابل تحدّيات الواقع فلا الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٣٩ يشاركهم أو يواسيهم أحد من الناس فيما يصيبهم من بأساء وضراء فى حركة الحياة، والخلاصة أنّه يتعظ من حياة هؤلاء الذين يعيشون العزلة على الله والخلق. وما يجدر ذكره هو أنّه ينبغى لغرض قلع جذور الصفات الأخلاقية القبيحة من واقع الإنسان وروحه أن يتحرّك الإنسان على مستوى التمرّن وممارسة الرياضة المعنوية والاصرار فى سلوك هذا الطريق وإن كان بواسطة التصنّع ليكون حسن الخلق له بصورة عادة وملكة، وفيما إذا وجد فى نفسه عناصر وعوامل نفسية تبعث على سوء الخلق فأنّه يتحرّك فوراً لازالتها وتطهير نفسه منها وذلك من خلال ممارسة الصلاة والعبادة وزيارة المراقد المقدّسة أو يتحرّك من موقع الترفيه السليم والألعاب المسلية المشروعة ليدرأ هذا المرض وهذه العوامل السلبية من كيانه وشخصيته. وكذلك يتحرّك الإنسان فى طريق تهديد نفسه من خلال التلقين، وذلك بالايحاء إلى نفسه بأنّه صاحب خلق حسن ويتّصف بحسن التعامل والطيبة واللطف مع الآخرين، فمن شأن هذا التلقين أن يؤثّر أثره بالتدرّج فيغرس فى قلبه نبتة حسن الخلق ويعمل على تقويتها وتعميقها وإزالة عناصر الشر وعوامل سوء الخلق من ذاته. وأحياناً يتحقّق سوء الخلق فى النفس بسبب الجوع والعطش أو بعض الأمراض البدنية حيث ينبغى على هذا الإنسان أن يعالج هذه المسألة من الأساس والجذور ويحاول الابتعاد عن الناس والتعامل معهم فى هذه الحالة الاستثنائية مهما أمكن. وأحياناً تنقل هذه الرذيلة الأخلاقية الإنسان من رفاقه وأصدقائه من الأراذل والأخلاء السيّء الخلق، فينبغى عليه أن يقطع أواصر الصداقة مع هؤلاء ويحاول الإرتباط من موقع الصداقة والمودة مع من هم أهل لذلك ويعيشون الفضيلة وحسن الخلق مع الناس، وهكذا فإنّ أسوأ الناس أخلاقاً إذا تحرّك فى اصلاح نفسه فى علاج مرضه الأخلاقى من خلال ممارسة هذه التعليمات المذكورة آنفاً وعزم على تحقيق هذه الملكات الأخلاقية فى نفسه بإرادة قويّة وسعى لإصلاح نفسه بتصميم راسخ فإنّه سوف يحصل على النتائج المرجوة حتماً.

### المزاح:

لقد ورد فى الروايات الإسلامية وكذلك كلمات علماء الأخلاق بحوث واسعة عن (المزاح) حيث يتوصّل الإنسان من خلال مطالعتها ودراستها إلى هذه النتيجة، وهى أن المزاح إذا كان فى حدّ الاعتدال ولم يكن ملوّثاً بالإثم والمعصية فإنّه ليس فقط غير قبيح، بل يمكن اعتباره من مصاديق حسن الخلق والأخلاق الفاضلة وحسن المعاشرة مع الناس، ولا شك أن الافراط فى ذلك إمّا أن يوقع الإنسان فى المعصية والإثم يتحول إلى أحد الرذائل الأخلاقية، وأحياناً يكون خطره أكثر من خطره فى الكلام إذا كان من موقع الجد، لأنّ فى المزاح نوع من الحرية لا توجد فى الكلام الجدّى والذى ينطلق من موقع المسؤولية. ويستفاد من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وعلماء الدين أنّهم كانوا يمارسون المزاح بشكل معتدل فى معاشرتهم مع الناس. وبهذه

الإشارة نستعرض بعض الروايات التي تقرر حسن المزاح بصورة عامة، ثم نستعرض الروايات التي تدم المزاح، ثم نذكر طريق الجمع بين هاتين الطائفتين من الروايات الشريفة: ١- ما ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَيْسَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذَا رَأَهُ مَغْمُومًا بِالْمُدَاعِبَةِ» (١). أجل فإنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يستخدم المزاح لتحقيق الأغراض الإنسانية وادخال السرور على القلوب المهمومة والنفوس الكئيبة. ٢- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: «كَيْفَ مُدَاعِبَةٍ بَعْضُكُمْ بَعْضًا». قلت: قليل. فقال الإمام عليه السلام: «أَفَلَا تَفْعَلُوا فَإِنَّ الْمُدَاعِبَةَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّكَ لَتَدْخُلُ بِهَا السُّرُورَ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ١٤١ على أَخِيكَ وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُدَاعِبُ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يَسْرَهُ» (١). ٣- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِيهِ دُعَابَةٌ، قلت: وَمَا الدُّعَابَةُ؟ قال: الْمَزَاحُ» (٢). ويستفاد من هذا التعبير أن المؤمن لا- ينبغي أن يكون جافاً، بل إنَّ أغصان حسن الخلق هو المزاح وطبعاً مقرون بالتقوى. ٤- ويستفاد من الروايات الشريفة أن المعصومين عليهم السلام أحياناً كانوا يتحرَّكون لحث الآخرين للمزاح في مجلسهم ليتمَّ بذلك إدخال السرور على قلوب المؤمنين، ففي كتاب الكافي للمرحوم (الكليني قدس سره) نقرأ حديثاً شريفاً يرويه عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام قلت: جعلت فداك الرجل يكون مع القوم فيجرب بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال عليه السلام: «لا بأس ما لم يكن، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ عَنِ الْفَحْشِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَأْتِيهِ الْأَعْرَابِيُّ فَيَهْدِي لَهُ الْهَدْيَةَ ثُمَّ يَقُولُ مَكَانَهُ: أَعْطَانَا ثُمَّ هَدَيْتَنَا فَيُضْحِكُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكَانَ إِذَا اغْتَمَّ يَقُولُ: مَا فَعَلَ الْأَعْرَابِيُّ لَيْتَهُ أَتَانَا» (٣) ٥- وقد ورد في الأحاديث الشريفة نماذج من موارد مزاح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع أصحابه منها ما ورد عن امرأه تدعى (ام أيمن) جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: إنَّ زوجي يدعوك، فقال: ومن هو الذي بعينه بياض، فقالت: واللَّه ما بعينه بياض، فقال: بلى أنَّ بعينه بياضاً، فقالت: لا واللَّه. فقال صلى الله عليه وآله: ما أحد إلَّا وبعينه بياض». وفي مقابل هذه الأحاديث هناك أحاديث كثيرة تنهى عن المزاح منها: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٢ ١- في الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْمَزَاحَ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِمَاءِ الْوَجْهِ وَمَهَابَةِ الرَّجَالِ» (١). ٢- وأيضاً في حديث آخر عن هذا الإمام أنه قال: «إِذَا أَحْبَبْتَ رَجُلًا فَلَا تُمَازِحْهُ وَلَا تُمَارِهِ» (٢). ٣- وفي حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْمَزَاحَ فَإِنَّهُ يَجْرُ السَّخِيمَةَ وَيُورِثُ الضَّغِينَةَ وَهُوَ السَّبُّ الْأَصْغَرُ» (٣). ٤- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَا تُمَازِحْ فَيَجْتَرَّ عَلَيْكَ» (٤). \*\*\* وعلى هذا الأساس يمكن القول أنَّ المزاح يبعث على الذهاب بوقار الإنسان والحط من شخصيته أمام الناس ويسبب العداوة والبغضاء بينهم ويوجب تجرؤ الجهال ويعرض شخصيته الإنسان إلى المهانة والضعف والاهتزاز. ومن خلال مطالعة التعبيرات الواردة في روايات الطائفة الاولى المادحة للمزاح وروايات الطائفة الثانية الناهية عنه يمكن معرفة السبل إلى الجمع بين هاتين الطائفتين، وتوضيح ذلك أنَّ المزاح أمر معقد وأحياناً يتسم بأنه أشد من حالة الجدية في الكلام وبعبارة اخرى أنَّ المزاح أمر رقيق جداً بحيث أنه إذا خرج قليلاً عن حدِّ المقرَّر، فإنَّ له آثار مخربة مدمرة. إذا كان المزاح في الأطار المقبول ولم يخرج عن حدِّ الاعتدال وكان لغرض رفع السأم والتعب والحزن عنهم مع رعاية الجهات الشرعية فإنه يقع مطلوباً ومورد رضا الله تعالى. ولكن إذا كان المزاح لغرض الانتقام والسخرية بالطرف الآخر وبدافع الحقد والكراهية وخاصة إذا كان بلباس الجدية فإنه لا يحقق الامور المذكورة فحسب، بل إنَّ البعض قد يهدف إلى أغراض شيطانية من خلال المزاح فلا شك في أنه يقع مبغوضاً ومنفوراً وأحياناً الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٣ يكون أشد من السب والشتم. وكذلك إذا استخدمت في المزاح كلمات واهنة ومبتذلة فلا شك أنها تتسبب في هتك حرمة الإنسان وإزهاق شخصيته. وهكذا إذا كان المزاح أمام أشخاص ليست لهم قابلية على تقبله أو لا يحفظون حريم شخصيته الإنسان ممَّا يؤدِّي إلى جرأتهم وتناولهم على الكبير فيقولون من موقع المزاح ما يوهن شخصيته ويطعن في احترامه. ومثل هذه الانحاء من المزاح ليست فقط غير مطلوبة بل أحياناً تقع في دائرة الذنوب الكبيرة أيضاً. فعلى السالكين طريق الحق والذين يتحرَّكون في تهذيب النفس وتزكيتها يجب عليهم الانتباه فلا يشطبون على المزاح تماماً ويحذفونه من حياتهم ويتحوَّلوا إلى أشخاص جامدين ويعيشون الجفاف

الروحي والعواطف البشرية واللطافة والمحبة مع الآخرين، ولا يتوزنون مقابل ذلك في الذنوب أو الأعمال المنافية للمروءة عند ممارسة المزاح، فكثيراً ما رأينا بعض الأشخاص المتدينين حسب الظاهر عندما يتحدثون في مجالسهم ويتمازحون مع الآخرين يطلقون ألسنتهم بالحكايات المبتذلة التي يشم منها رائحة الغيبة أحياناً أو التهمة أو إشاعة الفحشاء أو يتسبب كلامهم في إهانة بعض المسلمين وجرح كرامتهم. وحتى لو كان المزاح يخلو من أي مطلب منافي للشرع، فإن الإكثار منه يسبب آثار سلبية وكما يقول بعض العلماء (المزاح في الكلام كالملاح في الطعام)، فلو كان أكثر من اللازم أو أقل منه لما كان الطعام سائغاً وطيباً. ومضافاً إلى ذلك فإن من يكثر من المزاح فإن كلامه الجدي سوف يكون بدون قيمة، ولا يقبل الناس كلامه الجدي كما يرام، وهذا المضمون ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين قال: «مَنْ كَثُرَ هَزْلُهُ بَطَلَ جِدُّهُ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٤ والملاحظة الجديرة بالذكر أن المزاح أحياناً يهدف إلى أغراض معقولة ومهمة، فلو كانت هذه الأهداف الجدية تدخل في المسائل التربوية والبناءة لكان مفيداً جداً، مثلاً أن يسعى الشخص لفهم الطرف الآخر من خلال المزاح أن يواظب على المسائل الدينية والقيم الأخلاقية، فمثل هذا العمل مفيد جداً، ولكن لو كان الهدف الجدي المتضمن للمزاح يؤدي إلى مفسدة أو كان لغرض الانتقام وتخريب شخصية الآخرين، فإن ذلك المزاح يكون مبعوضاً ومذموماً جداً وذلك بأن يقوم الإنسان بهتك حرمة الأشخاص في لباس المزاح ويهدم شخصيتهم ويعمل على تسقيطهم بهذه الوسيلة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٥

## الأمانة والخيانة

### تنويه:

(الأمانة) من أهم الفضائل الأخلاقية والقيم الإسلامية والإنسانية والتي وردت كثيراً في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وقد أولاها علماء الأخلاق والسالكون إلى الله تعالى أهمية كبيرة على مستوى بناء الذات والشخصية، وعلى العكس من ذلك (الخيانة) التي تعد من الذنوب الكبيرة والرذائل الأخلاقية في واقع الإنسان وسلوكه الإجتماعي. الأمانة هي في الحقيقة رأس مال المجتمع الإنساني والسبب في شد أو اضرار المجتمع وتقوية الروابط بين الناس في نظامهم الاجتماعي وحياتهم الدنيوية والاخروية في حين أن الخيانة بمثابة النار المحرقة التي تحرق جميع العلاقات الاجتماعية وتؤدي إلى الفوضى والفقر والشقاء وبالتالي تخريب الاطر الإنسانية والحضارية في المجتمعات البشرية. الأمانة من الصفات التي تربط الإنسان من جهة مع الله تعالى وكذلك تربطه مع غيره من أفراد البشر، ومن جهة ثالثة ترسم علاقته مع نفسه أيضاً ومع الطبيعة والبيئة كذلك وقد اعتبرت الكتب السماوية والشرائع الإلهية أنها أمانة بيد البشر. إن جميع النعم المادية والمواهب المعنوية الإلهية على الإنسان في بدنه ونفسه هي في الحقيقة أمانات بيد الإنسان. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٦ وهكذا الأموال والثروات المادية والمقامات والمناصب الاجتماعية والسياسية هي أمانات بيد الناس ويجب عليهم مراعاتها من موقع الحفاظ وأداء المسؤولية. الأولاد أمانة أيضاً بيد الوالدين، والطلاب أمانة بيد المعلمين، الماء والتراب والهواء وجميع ما خلقه الله تعالى من الكائنات الطبيعية لتيسير حياة الإنسان في حياته الدنيا كل ذلك يعتبر أمانة غالية بيد الإنسان والتي يعد التفريط فيها وعدم أداء حقها خيانة بالنسبة إلى هذه المواهب ومن الذنوب الكبيرة. ونظراً إلى سعة مفهوم الأمانة والخيانة وإستيعابها لأبعاد مختلفة وواسعة من حياة الإنسان ندرج جيداً أهميته هذه الفضيلة الأخلاقية. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحي من آياته الحكيمه ما يلقي الضوء على صفة الأمانة والخيانة في حركة الإنسان والمجتمع. إن «الأمانة» وردت في القرآن الكريم مرّات متعددة بصورة مفردة أحياناً وبصورة جمع أحياناً أخرى. وقد وردت بالنسبة إلى ستة من الأنبياء الكبار بعبارة: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» عن النبي نوح عليه السلام في سورة (الشعراء، ١٠٧) والنبي هود عليه السلام (الشعراء، ١٢٥) والنبي صالح عليه السلام (الشعراء، ١٤٣) والنبي لوط عليه السلام (الشعراء، ١٦٢) والنبي شعيب (الشعراء، ١٧٨) والنبي موسى (الدخان، ١٨) وهذا يدلّ دلالة واضحة على أهميته



هذه الفضيلة الأخلاقية إلى جانب مهمّة إبلاغ الرسالة الإلهية، وبدون ذلك لا يمكن لهؤلاء الأنبياء من كسب ثقة الناس واعتمادهم على أقوالهم. ومضافاً إلى ذلك فهناك آيات متعددة في سور مختلفة تتحدّث عن أهميّة الأمانة ولزوم رعايتها في سلوك الإنسان الفردى والاجتماعى حيث نستعرض الآن هذه الآيات ونفسرهما: ١- «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٤٧-١ «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» (١). ٣- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتُخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢). ٤- «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» (٣). ٥- «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (٤).

### تفسير وإستنتاج:

«الآية الاولى» تتحرّك من خلال بيان أوصاف المؤمنين الحقيقيين وضمن تبشيرهم بالفلاح والنجاه في الآخرة، وبعد بيان أهميّة الصلاة والأبتعاد عن اللغو والكلام لفارغ وأداء الزكاة واجتتاب أى لون من ألوان الانحراف الجنسي يشير القرآن الكريم في الآية الخامسة والسادسة إلى مسألة حفظ الأمانة والالتزام بالعهد ويقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». ونفس هذا التعبير ورد في سورة المعارج الآية ٣٢ ضمن بيان أوصاف الإنسان الجميلة والفضائل الأخلاقية ومنها الأمانة والوفاء بالعهد. والملفت للنظر أن (الأمانات) الواردة في هذه الآية ذكرت بصورة الجمع وهى إشارة إلى أن الأمانة لها أنواع وأشكال مختلفة والكثير من المفسرين ذكروا أن مفهوم الأمانة في هذه الآية لا يقتصر على الأمانة المالية بل يشمل الأمانات المعنوية كالقرآن الكريم والدين الإلهى والعبادات والوظائف الشرعية وكذلك النعم الإلهية المختلفة على الإنسان فى حركة الحياة المادية والمعنوية. الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٤٨ ومن هنا يتضح أن المؤمن الواقعى والإنسان الذى يتمتع باللباقة الكاملة هو الذى يتحرّك فى سلوكه من موقع مراعاة الأمانة بصورها المختلفة ويهتم بالحفاظ عليها من موقع المسؤولية وأداء الوظيفة. أما عطف الوفاء بالعهد على حفظ الأمانة فيبين هذه الحقيقة، وهى أن هذين المفهومين يعودان إلى جذر واحد ويشتركان فى الأصل، لأنّ نقض العهد يعتبر نوع من الخيانة فى العهد والميثاق، ورعاية الأمانة نوع من الوفاء بالعهد والميثاق أيضاً. وتعبير (راعون) مأخوذ من مادة (رعاية) وهى من مادة (رعى) التى يراد بها رعى الأغنام ومراقبتها فى عملية سوقها إلى حيث الماء والكلاء فى الصحراء، وهذا إنّما يدلّ على أنّ المقصود من هذه العبارة فى الآية الكريمة هو أكثر من أداء الأمانة فى مفهومها الظاهرى، أى النظر والمحافظة والمراقبة للشىء من جميع الجوانب. وبديهي أن الأمانة تارة تكون ذات بعد فردى وتسلم بيد شخص معين (كالأمانات المالية التى يودعها الإنسان لدى الآخرين) وتارة اخرى لها بعد جماعى مثل حفظ القرآن الكريم من التحريف والدفاع عن الإسلام والمحافظة على كيان الدول الإسلامية، فهى كلّها أمانات وضعت بيد المسلمين وعليهم أن يتحرّكوا بصورة جماعية ويتكاتفوا فيما بينهم من أجل حفظ وصيانة هذه الأمانات الإلهية. وتتحرّك «الآية الثانية» لتثبيت أمرين إلهيين: الأول: يتحدّث عن أداء الأمانة. الثانى: يتحدّث عن الحكم بالعدل فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا». ومع أنّ مسألة الحكومة العادلة أو التحكيم الصحيح والسليم بين الناس له مكانة سامية فى نظر القرآن الكريم، ولكن فى نفس الوقت ورد الأمر بأداء الأمانة قبله وهذا يبيّن الأهميّة الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٤٩ العظيمة للأمانة وأنّ لها مفهوم عام يستوعب فى مضمونه التحكيم بين الناس من موقع العدل وأنّه أحد مصاديق أداء الأمانة، لأنّ الأمانة بمفهومها العام تشمل جميع المقامات والمناصب الاجتماعية التى تعتبر أمانات إلهية، وكذلك أمانات بشرية من قبل الناس بيد أصحاب المناصب هذه. والتأكيدات الواردة فى ذيل الآية الشريفة تقرّر من جهة أنّ الأمر بالأمانة والعدالة ما هى إلا موعظة إلهية حسنة للناس، ومن جهة اخرى تحذّر الجميع بأنّ الله تعالى يراقب أعمالكم وسلوكياتكم، وهذا يعطى أهميّة مضاعفة على هذين المفهومين وهما رعاية الأمانة والعدالة. ونقرأ فى التفسير الكبير للفخر الرازى أنّ الأمانة لها ثلاث

موارد وفروع: الأمانة الإلهية، وأمانة الناس، وأمانة النفس، ثم يتطرق الفخر الرازي إلى شرح كل واحدة من هذه الفروع والأغصان للأمانة بالتفصيل ومن جملتها أداء الواجبات وترك المحرمات حيث يعتبرها من موارد الأمانات الإلهية، ويقسمها إلى تقسيمات عديدة، منها أمانة اللسان، أمانة العين والاذن (أى أن الإنسان يجب أن لا يتحرك بالمعصية، والعين لا تنظر بنظر الخيانة، والاذن لا تسمع الكلام المحرم). أما الأمانات البشرية فهي من قبيل الودائع التي يضعها بعض الناس لدى البعض الآخر وكذلك ترك التطفيف في الميزان وترك الغيبة ورعاية العدالة من جهة الحكام والامراء وعدم تحريك العوام من موقع التعصب للباطل وأمثال ذلك، أما أمانة الإنسان بالنسبة إلى نفسه فيرى الفخر الرازي أن على الإنسان أن يختار لها خير الدين والدنيا ولا يستسلم لدوافع الشهوة والغضب وما يترتب عليهما من ذنوب وآثام. «١» إن سعة مفهوم الأمانة وشمولها لكثير من الوظائف المهمة والنعم الكثيرة قد ورد في الكثير من التفاسير المهمة، منها تفسير (أبو الفتوح الرازي) و (القرطبي) وتفسير (في ظلال القرآن) وتفسير (مجمع البيان) وغيرها من التفاسير الأخرى. الإفلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٠ وقد ورد التصريح بهذا المعنى أيضاً في الروايات الإسلامية التي سوف نشير إليها لاحقاً.

أما ما ورد في شأن نزول هذه الآية فإنه يشير بوضوح إلى سعة مفهوم الأمانة أيضاً، لأن سبب نزول هذه الآية كما ورد في الروايات هو أن النبي صلى الله عليه وآله عندما دخل مكة منتصراً جاءه (عثمان بن طلحة) خازن الكعبة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه مفاتيح الكعبة ليظهرها من الأصنام الموجودة في داخلها، وبعد أن تم تطهير الكعبة من الأوثان جاء العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بما حدث، وأن يسلمه مفاتيح الكعبة والذي يعتبر منصباً مهماً لدى المجتمع العربي والإسلامي آنذاك، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يوافق على هذا الطلب وأعاد المفاتيح إلى (عثمان بن طلحة) ثم تلى هذه الآية الشريفة ( «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...» هذا في حين أن عثمان بن طلحة لم يعتنق الإسلام بعد. «الآية الثالثة» تتحرك من موقع النهي عن ثلاثة أشياء مخاطبة المؤمنين في هذا النهي وهي: خيانة الله، خيانة الرسول، خيانة أمانات الناس، وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ «١» وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». والمشهور بين المفسرين أن المقصود بحفظ أمانة الله ورسوله والنهي عن خيانتها هو عدم إفشاء أسرار المسلمين حيث قام بعض الأفراد من ضعفاء الإيمان إلى إفشاء أسرار المسلمين إلى المشركين بهدف حفظ منافعهم الشخصية ولكن الله تعالى أعلم بينة ذلك، وكنموذج على هذا المضمون هو قصة (أبو لبابة) الذي أخبر عن بعض الأسرار العسكرية للمسلمين وكشفها لأعدائهم من اليهود من (بنى قريظة)، أو قصة حركة النبي لفتح مكة وإفشاء هذا السر لأبي سفيان، والمراد من الخيانة في أماناتكم الوارد في الآية الشريفة هو الإفلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥١ الأمانات المتداولة بين الناس. ويرى بعض آخر من المفسرين أن المراد من خيانة الله هي ما يتعلق بالوظائف والواجبات الدينية والشرعية، أما الخيانة للنبي فهي ما يتعلق بالسنن والسلوكيات الأخلاقية، وأما خيانة أمانات الناس فهي ما يتعلق بأمورهم المودعة لدى الآخرين. وهناك احتمال آخر أيضاً أفضل وأشمل من الاحتمالات السابقة، وهو أن مفهوم الآية عام وشامل لجميع مصاديق ومفردات الأمانات المعنوية والمادية وغير المالية، وعلى هذا الأساس فالخيانة محزمة لجميع أشكال الأمانة: الإلهية منها وأمانة النبي وهو الدين الذي أودعه النبي لدى أمته، وكذلك أمانات الناس بيد بعضهم للبعض الآخر سواء كانت متعلقة بالأمور المالية أو بأسرار المعيشة والحياء الشخصية لدى الأشخاص، ولذلك ورد في الحديث النبوي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي ذر رضى الله عنه: «يا أبا ذر المجالس بالأمانة وإفشاء سر أخيك خيانه» «١». وتوضح الآية ٢٨ من سورة الأنفال هذه اللاحقة لهذه الآية أن الخيانة محزمة حتى لو عرضت أموال الإنسان ومنافع أولاده إلى الخطر (كما قرأنا في قصة أبي لبابة وأن وجود أمواله وأولاده لدى اليهود هو السبب في إفشاء أسرار المسلمين العسكرية للعدو) فتقول الآية «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» وعلى هذا فالأمانات الإلهية والبشرية ليست شيئاً يمكن التضحية والتساهل معه وخيانه هذه الأمانات بأعذار وتبريرات مختلفة. «الآية الرابعة» تتعرض للأمانات والودائع المالية لدى الناس وتحدث في سياقها عن لزوم تنظيم الوثائق والمستندات بالنسبة إلى هذه الودائع وتقول: «فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ قَلْبِيؤدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ». أى يمكنه ذلك بدون كتابة السند أو أخذ

الرهن، وفي هذه السورة على الأمين حفظ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٢ الأمانة وردها إلى صاحبها بالموقع المناسب وعليه أن يخاف الله فيما لو تحدّث له نفسه بالخيانة. أن تعبير الأمانة في الآية أعلاه يمكن أن يكون إشارة إلى القروض المالية التي يقترضها المسلم لأخيه المسلم من دون كتابة وثيقة أو تأمين وديعة ورهن وذلك بسبب الثقة المتبادلة بين الأفراد، أو أنها إشارة إلى الأموال التي توضع لدى الشخص بعنوان الرهن، أو كليهما، وعلى كل حال فإن الآية فيها دلالة واضحة على لزوم احترام الأمانة وأدائها في أيّة حالة. أما «الآية الخامسة» والأخيرة من الآيات مورد البحث فتحدّث أيضاً عن الأمانة الإلهية العظيمة التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وحفظها ولكن الإنسان حملها لوحده وتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا». فما هي هذه الأمانة العظيمة التي خشيت السماوات مع عظمتها والأرض مع سعتها والجبال مع صلابتها أن يحملنها في حين أن الإنسان الضعيف والصغير جداً قد حملها؟ ولقد أورد المفسرون من القدماء والمعاصرين احتمالات كثيرة في تفسير هذه الآية، ولكن ما يقرب للنظر هو أن المقصود من الأمانة الإلهية الكبيرة هذه هو المسؤولية والتكليف الملقى على عاتق الإنسان حيث لا يتيسر ذلك إلا بوجود العقل والحرية والإرادة. أجل فإن التكليف والمسؤولية أمام الله تعالى والناس والنفس هي وظيفة ثقيلة لا يكاد يتحملها ولا يليق بحملها أي موجود آخر سوى الإنسان، وبتبع ذلك فقد جعل الله تعالى العقل والحرية والإرادة في عملية الانتخاب هي الثواب والعقاب، ومجموع هذه الصفات الثلاث تبين عظمة الإنسان بين المخلوقات بحيث إختاره الله لمقام الخلافة الإلهية وميزه على سائر المخلوقات الأخرى في عالم الوجود. ولكن هذا الإنسان الظلوم والجهول لم يقدر هذا المقام الرفيع وتورط في منزلقات الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٣ الشهوة والأهواء الرخيصة وبذلك ظلم نفسه وحرمها من نيل السعادة العظيمة التي تنتظره في حركته التكاملية نحو الحق والانفتاح على الله. وعلى هذا الأساس فكون الإنسان ظلوماً وجهولاً إنما هو لم يكن بسبب قبول هذه الأمانة الإلهية، لأن قبولها علامة العقل وسبب الافتخار، ومن دون ذلك لا يصل إلى مقام الخلافة الإلهية، بل كونه ظلوماً وجهولاً بسبب عدم حفظ هذه الأمانة وسلوكه طريق الخيانة في أداء هذه المسؤولية الكبيرة. أجل فإن الأمانة التي من شأنها أن توصله إلى ذروة السعادة الحقيقية في حال حفظها، فإن خيانتها يتسبب كذلك في سقوط هذا الإنسان في مستنقع الذلّة والمسكنة والشقاء حتى أنه يكون مصداق (بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْدَّوَابِّ). وبعبارة أخرى: أن السماوات والأرض والجبال مع عظمتها وسعتها ليست لها القابلية على قبول هذه الأمانة الإلهية، وأعلنت عدم صلاحيتها لذلك بحالتها التكوينية وبلسان حالها، ولكن الإنسان وبسبب وجود هذه القابلية والقوى الكريمة التي منحه الله تعالى إياها أصبح لانقاً تكوينياً لقبول هذه المنحة والأمانة الإلهية، وهذا بحد ذاته إفتخار عظيم للإنسان من بين المخلوقات. ولكن بما أن أكثر الناس لم يراعوا حق هذه الأمانة الإلهية ولم يتحرّكوا في سبيل حفظها وأدائها فلذلك إستحقوا عنوان الظلوم والجهول، لأنهم ظلموا أنفسهم أشدّ الظلم بحرمانها من نيل هذا الإفتخار العظيم الذي منحه الله تعالى للإنسان وعاشوا الغفلة عن هذه الموهبة الإلهية العظيمة وتركوها وراء ظهورهم. وفي ذيل هذه الآية نجد إشارة إلى هذه النقطة المهمة، وهي أن الخيانة في الأمانة إنما تنشأ من الظلم والجهل، وهذا هو ما نسعى لتحقيقه وتقريره في هذا البحث الأخلاقي، أجل فإن حفظ الأمانة يدل على العقل والعدالة، بينما الخيانة هي دليل على الظلم والجهالة. ومما تقدّم آنفاً يتّضح جيداً أن المراد من كون الإنسان ظلوماً وجهولاً هم الأشخاص الذين يعيشون حالة الكفر أو الذين يعيشون ضعف الإيمان والتقوى، وإلا فإن أولياء الله الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٤ تعالى والصالحين من العباد الذين يتحرّكون في سلوكهم الأخلاقي والاجتماعي تبعاً للأبياء والأولياء فإنهم يراعون حق هذه الأمانة ويسعون لأدائها والقيام بهذه المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقهم، وفي الحقيقة إن هؤلاء يمثلون الهدف الأسمى من وجود عالم الخليقة ووجود الإنسان. ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه يتّضح جيداً أهميّة حفظ الأمانة (سواء الأمانات الإلهية أو الإنسانية) وجعله من علامات العقل والإيمان والعدالة.

أما ما ورد من الأحاديث الشريفة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام فإنه يحكى عن الأهمية البالغة لهذه المسألة حيث وردت الأمانة تارة بعنوان أنها من الاصول والمبادئ الأساسية المشتركة بين جميع الأديان السماوية، وتارة أخرى بعنوان أنها علامة للإيمان، وثالثة بعنوان أنها سبب نيل الرزق والثروة والثقة والاعتماد لدى الناس وسلامة الدين والدنيا والغنى وعدم الفقر وأمثال ذلك، وفيما يلي نختار من هذه الروايات الشريفة ما يتضمّن هذه المعاني والمفاهيم العميقة: ١- ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال للإمام على عليه السلام: «يا أبا الحسن أدّ الأمانة للبرّ والفاجر في ما قلّ وجلّ حتى في الخيط والمخيط» (١). ويقول الإمام على عليه السلام أن النبي قال لي ذلك في الساعة الأخيرة من حياته وكررها على ثلاث مرّات. ٢- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له» (٢). ٣- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ لم يبعث نبياً إلّا بصِدْقِ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٥ الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر» (١). وهذا التعبير يوضح أن جميع الأديان السماوية قد جعلت الصدق والأمانة جزءاً مهماً من تعليماتها الدينية والإنسانية ومن الاصول الثابتة في الأديان الإلهية. ٤- ورد عن الإمام أيضاً على مستوى إمتحان إيمان الناس أنه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرّجل وسجوده فإن ذلك شيءٌ اعتاده فلو تركه استوحش لذلك ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته» (٢). ٥- ومثل هذا المعنى ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعبير شديد حيث قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحجّ والمعروف وطمنتيتهم بالليل ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة» (٣). والهدف من هذا التعبير ليس هو أن هؤلاء لا يهتمون بصلاتهم وصومهم أو يستخفون بحجّتهم وإنفاقهم بل الهدف هو أن هذه الامور ليست هي العلامة الوحيدة لإيمان الفرد بل هناك ركنان أساسيان لدين الشخص أى الصدق والأمانة. ٦- وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا المجال تعبير عجيب حيث يقول لشيعته: «عليكم بأداء الأمانة فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق نبياً لو أن قاتل أبي الحسين ابن عليّ عليه السلام ائتمنى على السيف الذي قتله به لأدبته إليه» (٤). ٧- ومثل هذا المعنى ولكن بتعبير آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إن ضارب عليّ بالسيف وقاتله إذا ائتمنى واستصحبني واستشارني ثم قبلت ذلك منه لأدبته إليه الأمانة» (٥). ٨- وفي حديث آخر عن الإمام أيضاً استفاد أن الوصول إلى المقامات السامية حتى الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٦ للأئمة المعصومين عليهم السلام مثل الإمام على عليه السلام يتم عبر صدق الحديث وأداء الأمانة، حيث يقول الإمام الصادق لأحد أصحابه ويدعى (عبد الله بن أبي يعفور): «انظر ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله فألزمه» ثم قال: «فإن علياً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة» (١). ٩- ونقرأ في حديث آخر بالنسبة إلى الآثار والنتائج الدنيوية المهمة للأمانة والخيانة فقد ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «الأمانة تجرّ الرزق والخيانة تجرّ الفقر» (٢). ١٠- وفي حديث مختصر وعظيم المعنى عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «رأس الإسلام الأمانة» (٣) ١١- وورد شبيه لهذا الحديث مع اختلاف يسير عن لقمان الحكيم حيث أنه قال: «يا بني أدّ الأمانة تسلّم لك الدنيا وأخرتك وكُن أميناً تكن غنياً» (٤). ١٢- ونختم هذا البحث بحديث شريف آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تزال امتي بخير ما تحابوا ونهادوا وأدوا الأمانة واجتنبوا الحرام ووقروا الصيف وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين» (٥). \* \* \* هذه الروايات ما هي إلا موارد مختارة من المصادر الإسلامية الواردة في باب الأمانة وتوضّح جيداً أن هذا المفهوم الأخلاقي على درجة عالية من الأهمية من بين التعليمات الإسلامية، وكذلك الصفة التي تقع في مقابل الأمانة أى الخيانة ومدى اضرارها بدين الإنسان وشخصيته من موقع تخريب الإيمان وأنها تورث الشقاء والبعد عن الله تعالى، وكل واحدة من هذه الروايات المذكورة آنفاً تشير إلى أحد الأبعاد والآثار البناءة للأمانة أو الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٧ الأبعاد والنتائج السلبية والمخرّبة للخيانة، بحيث إن الإنسان عند مطالعتها والتأمل والتدبّر فيها يستوحى الكثير من المفاهيم الإسلامية والقيم الأخلاقية والاجتماعية المهمة والبناءة في حركة الحياة والمجتمع.

عندما نتحدث عن الأمانة فإن أغلب الناس يتبادر إلى أذهانهم الأمانة في الأمور المالية، ولكن كما تقدم في تفسير الآيات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أن الأمانة لها مفهوم واسع جداً بحيث تستوعب جميع المواهب الإلهية والنعم الربانية على الإنسان. هذه النعم والمواهب الإلهية المندرجة في مفهوم الأمانة تشتمل على مصاديق لا تعد، فهي ترد بالنسبة إلى القرآن الكريم والإسلام والإيمان والولاية وحتى إلى أقل النعم والمواهب المادية والمعنوية. الأحاديث الشريفة التي تؤكد على أن الأمانة تورث الغنى، وأن الخيانة تورث الفقر ناظرة إلى الأمانة المالية والمادية، ولكن الآية الشريفة وبعض الروايات التي تشير إلى عرض الأمانة على السموات والأرض لا تقصد الأمانة المادية والمالية قطعاً بل تمتد أبعد من ذلك وتنظر إلى الأمانات المعنوية. ونقرأ في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما يحين وقت الصلاة فإن حاله يتغير وعندما سئل عن ذلك قال: «جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبيل الأجساد بالفي عام فجعل أعلاها وأشرفها أرواح محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة بعدهم صلوات الله عليهم فعرضها على السموات والأرض والجبال... الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٨ إلى أن يقول: فولائتهم أمانة عند خلقها» (١). ويستفاد من أحاديث أخرى أن مفهوم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله «٢» أيضاً مصداق مهم من مصاديق الأمانة. وكذلك الصلاة والزكاة والحج هي أمانات وودائع إلهية. (٣) وكذلك الزوجة أيضاً أمانة إلهية (٤). ونقرأ في نهج البلاغة في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى الأشعث بن قيس، يقول له: «وإن عمالك ليس لك بطعمية ولكِنَّه في عُقْبِكَ أمانة» (٥). وكذلك نقرأ في الحديث النبوي الشريف الذي ذكرنا فيما سبق أن «المجالس بالأمانة»، لأن في المجالس الخصوصية تذكر أسرار تخص المجلس. وحتى ورد في بعض الروايات أن غسل الجنابة (بعنوان أنه تكليف إلهي) هو أمانة إلهية لدى المسلم (٧). وعلى أي حال فإن الأمانة والخيانة لا تختصان بعمل معين ومصداق خاص ومحدود، لأن النتائج المترتبة على هاتين الصفتين لا تتحدد بالأمانة والخيانة المالية.

### معطيات الخيانة والأمانة:

إن أهم معطيات الأمانة على المستوى الاجتماعي هي مسألة الاعتماد وكسب ثقة الناس، ونعلم أن الحياة الاجتماعية مبنية على أساس التعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٥٩ لحل المشاكل والتخفيف من تحديات الواقع والظروف القاهرة والاستفادة الأفضل من مواهب الحياة والطبيعة، ولهذا فإن مسألة الثقة والاعتماد لها دور أساس في تأصيل هذا المفهوم الاجتماعي لأنه لولا وجود الاعتماد المقابل فإن المجتمع سيتحول إلى جهنم لا يطاق، ويتعامل الأفراد بينهم من موقع التوحش والأناية، ويسود قانون الغاب في مثل هذا المجتمع، وبدلاً من أن تتكاتف القوى والطاقات على مستوى بناء المجتمع والتصدي لتحديات الظروف القاهرة فإن هذه القوى سوف تتحرك بالجهة المقابلة لتعميق التوحش والتفرد في المجتمع. وبعبارة أخرى: إن المجتمع البشري سيفقد كل شيء بدون وجود حالة الاعتماد المتقابل بالرغم من توفر كافة الأمانات والمواهب الطبيعية الأخرى، وبالعكس ذلك إن المجتمع الذي تتوفر فيه حالة الاعتماد المتقابل سيحصل على كل شيء بالرغم من فقدانه للإمكانات والموارد الطبيعية. وهذا الاعتماد الاجتماعي يرتكز على ركبتين: ١- الأمانة. ٢- الصدق. وما ورد في الروايات المذكورة آنفاً أن الأمانة تورث الغنى وعدم الحاجة والخيانة تورث الفقر فإن ذلك إنما يشير إلى هذا الدليل. وأما ما ورد في الروايات الشريفة أن جميع الأنبياء الإلهيين جعلوا من الأمانة وصدق الحديث محورياً لتعليماتهم فهو أيضاً ناظر إلى هذا المعنى. ويذكر الكليني في (الكافي) قصة جميلة في هذا الصدد ويقول: عن الحسين بن محمد، عن محمد بن أحمد النهدي، عن كثير بن يونس، عن عبدالرحمن بن سيابة قال: لما هلك أبي سيابة، جاء رجل من إخوانه إلى فضرب الباب علي، فخرجت إليه فعزاني، وقال لي: هل ترك أبوك شيئاً فقلت له: لا، فدفع

إلَيَّ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دَرَاهِمٍ وَقَالَ لِي: أَحْسَنُ حِفْظُهَا وَكُلُّ فَضْلُهَا، فَدَخَلْتُ إِلَى أُمِّي وَأَنَا فَرِحٌ، فَأَخْبَرْتُهَا، فَلَمَّا كَانَ بِالْعَشِيِّ، أَتَيْتُ صَدِيقًا كَانَ لِأَبِي فَاشْتَرَى لِي بِضَاعًا سَابِرِي، وَجَلْتُ فِي حَانُوتِ فَرَزَقِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ فِيهَا خَيْرًا كَثِيرًا، وَحَضَرَ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ١٦٠ الْحِجَّ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي، فَجِئْتُ إِلَى أُمِّي وَقُلْتُ لَهَا: إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي قَلْبِي أَنْ أُخْرَجَ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقَالَتْ لِي: فَرَدَّ دَارَهُمْ فَلَا نَ عَلَيْهِ فَهَاتِيهَا، وَجِئْتُ بِهَا إِلَيْهِ فَدَفَعْتَهَا إِلَيْهِ فَكَأَنِّي وَهَبْتُهَا لَهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكَ اسْتَقْلَلْتَهَا فَأَزِيدُكَ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ وَقَعَ فِي قَلْبِي الْحِجَّ فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ شَيْئَكَ عِنْدَكَ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَقَضَيْتُ نَسْكَي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَدَخَلْتُ مَعَ النَّاسِ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ يَأْذُنُ إِذْنًا عَامًّا - فَجَلَسْتُ فِي مَوَاقِيرِ النَّاسِ وَكُنْتُ حَدِثًا، فَأَخَذَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ وَيَجِيبُهُمْ، فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ عَنْهُ، أَشَارَ إِلَيَّ فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَيَّابَةَ، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلَ أَبُوكَ؟ قُلْتُ: هَلَكَ، قَالَ: فَتَوَجَّعَ وَتَرَخَّمَ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ لِي: أَفْتَرَكُ شَيْئًا قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَنْ أَيْنَ حَجَجْتَ؟ قَالَ: فَابْتَدَأْتُ وَحَدَّثْتُهُ بِقِصَّةِ الرَّجُلِ، قَالَ فَمَا تَرَكَنِي أَفْرَغَ مِنْهَا حَتَّى قَالَ لِي: فَمَا فَعَلْتَ فِي الْأَلْفِ؟ قَالَ: قُلْتُ: رَدَدْتُهَا عَلَى صَاحِبِهَا، قَالَ: فَقَالَ لِي: قَدْ أَحْسَنْتَ، قَالَ لِي: أَلَا أُوصِيكَ؟ قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَلَيْكَ بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ تُشْرِكُ النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ هَكَذَا - وَجَمَعَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ -»، فَحَفِظْتُ ذَلِكَ عَنْهُ، فَزَكَيْتُ ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ «١». وَنَحْنُ أَيْضًا رَأَيْنَا فِي حَيَاتِنَا أَشْخَاصًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ تَاجِرٌ مَتَدِينٌ فِي النِّجْفِ الْأَشْرَفِ يَعْرِفُهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ أَيْضًا وَبِسَبَبِ إِشْتِهَارِهِ بِالْأَمَانَةِ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يُوَدِّعُونَ عِنْدَهُ أَمْوَالَهُمْ وَوَدَائِعَهُمْ مَطْمَئِنُونَ إِلَى حَدِّ أَنْ الْكَثِيرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ وَطَلَّابِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ كَانُوا يَسْجُلُونَ سِنْدَاتِ بِيوتِهِمْ بِاسْمِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَمْتَلِكُ الْجِنْسِيَّةَ الْعِرَاقِيَّةَ وَلَعَلَّهُ كَانَ عِنْدَ وَفَاتِهِ قَدْ بَلَغَ عِدَدُ الْبِيوتِ الْمَسْجَلَةِ بِاسْمِهِ مَا يَرِبُو عَلَى الْخَمْسِمِائَةِ بَيْتٍ لِهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ وَالطَّلَّابِ وَلَمْ يُوَاجِهْ أَى وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَشْكَلَةً فِي هَذَا الْمَوْرَدِ. وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى عِنْدَمَا تَسْوَدُ الْأَمَانَةُ فِي الْمَجْتَمَعِ وَفِي الْعَائِلَةِ فَإِنَّهَا سَتَكُونُ سَبَبًا لِمَزِيدٍ مِنَ الْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ، لِأَنَّ مَجْرَدَ احْتِمَالِ الْخِيَانَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسَبِّبُ الْقَلْقَ وَالْخَوْفَ لِلْأَفْرَادِ بِحَيْثُ يَعِيشُونَ حَالَهُ مِنَ الْإِرْتِبَاكِ فِي عِلَاقَاتِهِمْ مَعَ الْآخَرِينَ وَمِنْ الْخَطَرِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ١٦١ الْمَحْتَمَلِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَمْوَالَهُمْ أَوْ أَنْفُسَهُمْ أَوْ أَغْرَاضَهُمْ أَوْ مَكَانَتَهُمْ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْاسْتِمْرَارَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَرْبُكَةِ وَالْمَوْحِشَةِ عَسِيرٌ جَدًّا وَقَدْ يُوْرَثُهُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجَمْسِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ أَيْضًا. وَمِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ فَإِنَّ الْأَمَانَةَ تَقَلُّلٌ كَثِيرًا مِنْ نَفَقَاتِ الْمَعِيشَةِ وَمَصَارِيفِ الْحَيَاةِ وَتَسَبِّبُ فِي الْاِقْتِصَادِ فِي الْوَقْتِ وَالْعَمْرِ وَالْمَالِ، لِأَنَّ الْخِيَانَةَ إِذَا فَتَحَتْ طَرِيقَهَا إِلَى الْمَجْتَمَعِ فَإِنَّ الْمَسْؤُولِينَ وَأَصْحَابَ الْمَوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يَضْطَرُونَ إِلَى تَخْصِيصِ نَفَقَاتِ بَاهِظَةٍ لِإِيجَادِ سَجَّالَاتٍ خَاصَّةٍ وَمَحَاسِبِينَ وَمَفْتَشِينَ لِدَرءِ احْتِمَالِ الْخِيَانَةِ فِي حِسَابَاتِهِمْ، وَأَحْيَانًا يَضْطَرُونَ إِلَى إِيجَادِ مَفْتَشِينَ عَلَى الْمَفْتَشِينَ الْأَوَائِلِ لِمَنْ لُصِبَتْ أَعْمَالُهُمْ وَيَشْرَفُوا عَلَى حِسَابَاتِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْلُلَ الْمَشَاكِلَ النَّاشِئَةَ مِنَ الْخِيَانَةِ تَمَامًا، وَلَكِنْ عَلَى أَى حَالٍ يَقْتَضِي الْوَاقِعَ الْمَفْرُوضِ تَخْصِيصَ هَذِهِ النِّفَقَاتِ لِلتَّصَدِّيِّ إِلَى هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ، وَنَشَاهِدُ فِي مَجْتَمَعِنَا الْحَالِي أَيْضًا مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ الْأَلِيمَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ وَعَدَمِ الْأَمْنِ الْاِقْتِصَادِيِّ وَكَثْرَةِ مَنْ يَلْقَى فِي السِّجْنِ بِسَبَبِ زَوَالِ الثَّقَةِ وَعَدَمِ الْاِعْتِمَادِ الْمَتَقَابِلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَوْ أَنَّ أَفْرَادَ الْمَجْتَمَعِ تَحَلَّوْا بِقَلِيلٍ مِنَ الصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ بَدَلًا مِنْ هَذِهِ النِّفَقَاتِ وَالْمَصْرُوفَاتِ وَالْجُهُودِ الْمَهْدُورَةِ، فَانَّا سَوْفَ لَا نَبْتَلِي بِمِثْلِ هَذَا الْاِسْرَافِ الْفَضِيحِ وَإِتْلَافِ الثَّرَوَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْكَبِيرَةِ. وَمِنْ جِهَةٍ رَابِعَةٍ فَإِنَّ الْأَمَانَةَ قَدْ تَسَبَّبَتْ فِي كَسْبِ الْمَحَبَّةِ وَتَعْمِيقِ أَوَاصِرِ الصَّدَاقَةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، فِي حَيْثُ أَنَّ الْخِيَانَةَ تَعْتَبَرُ عَامِلًا لِلْكَثِيرِ مِنَ الْجَرَائِمِ وَالْحَوَادِثِ السَّلْبِيَّةِ وَأَشْكَالِ الْخَلَلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَإِذَا طَالَعْنَا وَثَائِقَ الْمَحَاكِمِ وَالسِّجُونِ لَرَأَيْنَا أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْجَرَائِمِ مَعْلُولَةٌ لِحَالَةِ الْخِيَانَةِ، وَعِنْدَمَا نَدْرُسُ ظَاهِرَهُ كَثْرَةَ الطَّلَاقِ وَحَالَةَ اِنْحِلَالِ الْأُسْرِ وَتَلَاشِي الْعَوَائِلِ نَرَى أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ يَعُودُ إِلَى خِيَانَةِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ بِالنِّسْبَةِ لِلْآخَرِ. وَفِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا تَحَابُّوا وَتَهَادُّوا وَأَدُّوا الْأَمَانَةَ وَاجْتَنَبُوا الْحَرَامَ وَوَقَرُّوا الضَّيْفَ وَأَقَامُوا الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ١٦٢ الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَمَاذَا لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ إِبْتَلَوْا بِالْقَحْطِ وَالسُّنِينِ» «١». وَمِنْ جِهَةٍ خَامِسَةٍ فَإِنَّ مَفْهُومَ الْأَمَانَةِ يَمْتَدُّ وَيَتَسَّعُ لِيَشْمَلَ الْمَوَارِدَ وَالْمَسَائِلَ الْعِلْمِيَّةَ، فَإِنَّ تَطَوُّرَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْبَشَرِيَّةِ كَانَ بِسَبَبِ وَجُودِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّكُونَ مِنْ مَوْقِعِ الْأَمَانَةِ وَالصَّدَقِ فِي تَحْقِيقَاتِهِمْ وَمَطَالَعَاتِهِمْ وَتِجَارِبِهِمْ الْعِلْمِيَّةِ فَكَانُوا يَقْدِمُونَ لِلْآخَرِينَ مَا اِكْتَسَبُوهُ مِنْ

تجارب ثمينه وعلوم جديدة بأمانة وصدق، وهذا هو الذي أدى إلى التطور الحضاري والعلمي في عالمنا المعاصر في حين أنه لو لم يكن أصل الأمانة في المطالعات العلمية فإن ذلك قد يفضي إلى التيه العلمي ويتسبب في اضلال الناس ووقوعهم في التخبط الثقافي والعلمي. ونقرأ في هذا الصدق حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كُلُّ ذِي صِنَاعَةٍ مُضْطَرٌّ إِلَى ثَلَاثِ خِلَالٍ يَجْتَلِبُ بِهَا الْمَكْسَبَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حَازِقًا بِعَمَلِهِ مُؤَدِّيًا لِلْأَمَانَةِ فِيهِ، مُسْتَمِيلًا لِمَنْ إِسْتَعْمَلَهُ» (٢). والجدير بالذكر أن الأمانة تدعو الإنسان إلى صدق الحديث أيضاً كما أن صدق الحديث يدعو الإنسان إلى الأمانة في الجهة المقابلة، لأن صدق الحديث نوع من الأمانة في القول، والأمانة نوع من الصدق في العمل، وعلى هذا الأساس فإن هاتين الصفتين يرتبطان بجذر مشترك ويعبران عن وجهين لعملة واحدة، ولذلك ورد في الأحاديث الإسلامية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الأمانة تُؤدِّي إلى الصُّدْقِ» (٣). وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «إِذَا قَوِيَتْ الْأَمَانَةُ كَثُرَ الصُّدْقُ» (٤).

### دوافع الأمانة والخيانة:

إن أغلب الأشخاص الذين يتحرّكون في سلوكياتهم من موقع الخيانة ويفضّلونها على الأمانة فإنهم يعيشون ضيق الافق في منافعهم ومصالحهم ويفكّرون في المنافع العاجلة فحسب، لأن الخيانة تؤفّر لهم في الكثير من الموارد هذه المنافع العاجلة وتحقق لهم بعض المصالح الفردية على حساب اهتزاز كرامتهم المعنوية ومن دون أن يتفكّروا في العواقب الوخيمة لهذا السلوك في المستقبل على المستوى الدنيوي والاخروي ومكانتهم الاجتماعية. هؤلاء الأفراد يعيشون في سجن الحرص والطمع فلذلك قليلاً ما يفكّرون في عواقب الخيانة، لأن المنافع العاجلة حجبت أعينهم وعقولهم عن مشاهدتها ما يترتب على ذلك من سلبيات كثيرة في المستقبل. هؤلاء وبسبب ضعف الإيمان وعدم الالتفات إلى القدرة الإلهية المطلقة التي تكفّلت برزق الناس جميعاً ووعدت من يعيش الأمانة والصدق منهم بالثواب العاجل والآجل فإنهم قد حجّبوا بصيرتهم عن ذلك جميعاً وتحزّكوا من موقع التغافل عن الوجدان وعن تحذيرات الشرع وتورّطوا في شراك الخيانة وفخاخ الشيطان. وعلى هذا الأساس يمكننا في هذا الصدق ذكر دوافع الخيانة فيما يلي: ١- ضعف الإيمان وإهتزاز العقيدة وعدم التوجّه إلى حالة التوحيد الأفعالي لله تعالى وحاكميته المطلقة على جميع الأشياء. ٢- غلبة الأهواء والشهوات وحبّ الدنيا. ٣- تسلّط حالة الحرص والطمع على الإنسان. ٤- عدم التفكّر في نتائج الخيانة في حركة الحياة المادية والمعنوية. ٥- ترك السعي المستمر والعمل الدؤوب لتحقيق المقاصد الدنيوية بطرق مشروعة وذلك بسبب التكاسل وحبّ الراحة وضعف الإرادة. وعند الالتفات إلى هذه الأمور تتضح النقطة المقابلة لها، وهي دوافع الأمانة وذلك: إن الأمانة تنبع من الإيمان واليقين بقدرة الله تعالى وعلمه المطلق والاعتماد عليه في جميع الامور. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦٤ الأمانة تعدّ من معطيات العقل والتدبّر السليم والالتفات إلى عواقب الامور ونتائج الأفعال. الأمانة هي دليل على أن الإنسان يعيش الواقع الحاضر ويرى حقائق الامور ويترك الخوض في الأوهام والخرافات والتصورات الزائفة. الأمانة تنبع من شخصيّة الإنسان السامية وتمثّل نتيجة لحالة التفاني والتعالى في الروح الإنسانية، لأن مثل هذا الإنسان لا يكون مستعداً لئب بيع شخصيته ووجدانه لتحقيق المال والمقام وزخارف الدنيا عن طريق الخيانة. وبكلمة واحدة فإن الأمانة وليدة الفهم والشعور والعقل والإيمان والاحلاص وأصالة الشخصية، وأحياناً يكون الفقر والظلم عاملان من عوامل الخيانة، فمن لا يحصل على حقوقه المشروعة في المجتمع من الطرق الصحيحة ويقع تحت طائلة الفقر والعوز فإنه قد يؤدّي به إلى التلوث بالخيانة، ولهذا نرى أن التعاليم الدينية أكدت على أن يمّول القاضى من بيت المال بشكل تام كيما يحفظ أمانته في القضاء بين الناس، ونقرأ في عهد الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر أنه يقول: «وَأَفْسَحْ لَهُ فِي الْبَدْلِ مَا يُزِيلُ عِلْتَهُ، وَتَقَلِّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لِمَدِيكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِأَمَنْ بِبَدْلِكَ إِغْتِيَالَ الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا» (١). ونختتم هذا البحث بحديث مهم عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدق يشير فيه إلى مصادر الخيانة المتنوعة ويوصى بالتوجّه إليها لحفظ الأمانة في واقع الإنسان والمجتمع فيقول: «مَنْ أُوْتِمِنَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدَّاهَا فَقَدْ حَلَّ أَلْفَ عُقْدَةٍ

مِنْ عَقْدِ النَّارِ، فَبَادِرُوا بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَإِنَّ مَنْ أَوْثَمَنَ عَلَى أَمَانَةٍ وَكَلَّ بِهٖ إِبْلِيسَ مِائَةَ شَيْطَانٍ مِنْ مَرَدَّةِ أَعْوَانِهِ لِيُضَيِّعَ لَوْهُ وَيُوسِسُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُهْلِكُوهُ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ» (٢).

### طرق الوقاية والعلاج:

إنَّ تعميق روح الأمانة في أفراد المجتمع والوقاية من الخيانة لا يتسنى إلّا في ظل التقوى والإيمان والالتزام الديني والأخلاقي، لأنّه كما تقدّم في الأبحاث السابقة أنّ أحد جذور الخيانة هو الشرك وعدم الاعتقاد الكامل بقدرة الله تعالى ورازقته، ولهذا فالأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان ويتصوّرون أنّهم سوف يعيشون الفقر في حالة تحلّيهم بالأمانة والصدق وأنّهم سوف لا يحصلون على ما يحتاجونه إلّا بواسطة الخيانة يكبلون أنفسهم بطوق الخيانة، ولكن عندما يتحرّكون من موقع تقويته دعائم الإيمان في قلوبهم وتعميق حالة التوكّل والاعتماد على الله تعالى والثقة بوعده، فإنّ ذلك يتسبب في تصحيح مسارهم في عملية الوصول وتحصيل مواهب الحياة. ومن جهة أخرى فبما أنّ أحد العوامل المهمّة للخيانة هي الحاجة فاذن لا بدّ للإنسان من تدبير حاجاته وحاجات من يلوذ به المعقولة والمشروعة بصورة حسنة لئلا يضطرّ إلى كسر قيود الأمانة والتلوث بالخيانة بدافع من حاجاته المادية والنفسانية. ومن جهة ثالثة فإنّ من الأسباب والعوامل المهمّة في الوقاية من التورط بالخيانة هو التفكير في عواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة وما يترتب عليها من فضيحة وحرمان وزوال الثقة وماء الوجه أمام الخلق والخالق وبالتالي الابتلاء بالفقر المزمن الذي سعى إلى الفرار منه بارتكاب الخيانة، ومن المعلوم أنّ التأمل في هذه النتائج والافرازات السلبية لسلوك طريق الخيانة سوف يضعف الدافع في الإنسان لارتكابها. عندما يتأمل الشخص نصيحة لقمان لابنه على مستوى بيان معطيات الأمانة حيث يقول: «يَا بُنَيَّ أَدِّ الْأَمَانَةَ تَسْلُمَ لَكَ الدُّنْيَا وَآخِرَتُكَ وَكُنْ أَمِينًا تَكُنْ عَتِيًّا» (١). فعندها يعيش الشوق في وجوده نحو تحصيل هذه الفضيلة الأخلاقية أي الأمانة ويجتنب التحرك في خط الخيانة، ولو تأملنا كذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦٦ «رَأْسُ الْكُفْرِ الْخِيَانَةُ» (١). ويقول في مكان آخر: «رَأْسُ النِّفَاقِ الْخِيَانَةُ» (٢). ويقول أيضاً في حديث آخر: «جَانِبُ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا مُجَانِبَةُ الْإِسْلَامِ» (٣) فعندها يسيطر عليه الخوف من الخيانة ويدرك عظمه هذا الذنب الكبير الذي يساوق في إثمه وابتعاده عن الله تعالى والإسلام الكفر والنفاق، وحينئذ سيتحرّك بعيداً عن ممارسة الخيانة أو التفكير بها. وإذا أردنا أن نتمكّن في خطر الخيانة وشؤمها فلنستمع إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حديثه المثير عن بعض عناصر الشر وعوامل الانحراف حيث يقول: «أَرْبَعٌ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا وَاحِدَةً مِنْهُنَّ إِلَّا خَرَبَ وَلَمْ يَعْمُرْ بِالْبَرَكَةِ الْخِيَانَةُ وَالسَّرِقَةُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ وَالزُّنَا» (٤). ومن المعلوم أنّ المجتمع الذي يعيش أحد هذه العناصر الأربعة أو كلها فأنّه يكون مصداقاً لهذا الحكم النبوي وسوف يخلو من البركة وبالتالي يصيبه الدمار والاندثار. ومن الملفت للنظر أنّه كما أنّ الشخص الأمين يجب أن لا يخون الأمانة، فكذلك المودع للأمانة وصاحب المال يجب أن يكون ذكياً ولا يودع أمانته عند أي شخص كان، فإذا وضع أمانته تحت تصرّف شخص سيء السمعة ثمّ خانته هذا الشخص فعليه أن يلوم نفسه كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم أنّه قال: «من أئتمن غير أمين فليس له على الله ضمان لأنّه قد نهاه أن يأتمنه». ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «من إئتمن غير مؤتمن فلا حجة له على الله». وعلى هذا الأساس يجب على جميع الإداريين وأصحاب المسؤوليات في المجتمع الإسلامي أن يكونوا على درجة من الذكاء والحنكة ولا يضعوا أمور الناس والمناصب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦٧ الحساسة في الحكومة والتي هي أهم أمانة إلهية بيدهم عند الأشخاص الذين يشم منهم رائحة الخيانة، فإنّه عند ذلك سوف يفسد دينهم وديانهم ويكونون مسؤولين أمام الله تعالى.

### الأمانة والخيانة في بيت المال:

إنّ الأمانة خلق محمود ومطلوب في أي مكان ومورد، ولكن بالنسبة إلى بيت المال ورؤوس الأموال المادية والمعنوية المتعلقة بالمجتمع لا بشخص معيّن فقد ورد التأكيد على الأمانة فيها بشكل خاص في النصوص الدينية، والحكمة في ذلك واضحة لأنّه أولاً:



أن البعض يتصور أن مثل هذه الأموال بما أنها لا تقع في دائرة الممتلكات لشخص معين بل هي ملك عموم الناس فإنهم أحرار في تصرفاتهم وتعاملهم بها. وثانياً: إذا تفشت الخيانة بالنسبة إلى الأموال العامة وبيت المال فإن نظم المجتمع سوف يتلاشى وينهار، فلا يرى مثل هذا المجتمع البشري وجه السعادة أبداً. ومن أجل ذلك أهمية هذا الموضوع يكفى مطالعة قصة (الحديده المحماة) حيث ورد أن عقيل رضى الله عنه جاء إلى أخيه على بن أبي طالب عليه السلام وطلب منه أن يزيده قليلاً من حصته وسهمه من بيت المال دون مراعاة ضوابط العدالة والمساواة بين المسلمين على أساس العلاقة الاخوية بينه وبين الإمام على عليه السلام، فما كان من الإمام على عليه السلام إلا أن أحصى له حديده وقربها منه، صرخ عقيل من حرارتها فقال له الإمام عليه السلام: «يا عقيل أتيت من حديده أحمهاها إنسانها للعبي وتجرتني إلى نار سجرها جبارها لعضبه، أتيت من الأذى ولا أئ من لظى» (١). وقال أمير المؤمنين عليه السلام في مكان آخر كلاماً مشيراً بالنسبة إلى عطايا عثمان من بيت المال إلى أقربائه وذويه حيث عزم الإمام على عليه السلام على ردها جميعاً إلى بيت المال وقال: «والله لو وجدتته فمذ تزوج به النساء ومليك به الإماء لرددته، فإن في العبد سعة، ومن ضاق عليه العبد فالجور عليه أضيء» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨ وعندما اقترح عليه استخدام الأشخاص المعروفين في تدبير أمر الحكومة وزيادة رواتبهم وعطاياهم من بيت المال لغرض الإستعانة بهم في امور الدولة والحكومة (ولا أقل في بدايه خلافته) فقال: «أتأمرني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليهم والله لا أطور به ما سمر سيمير وما أم نجم في السماء نجماً، ولو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله» (١). بل إن الإمام على عليه السلام تحرك لحفظ الأمانة في بيت المال من موقع التهديد الشديد لأقرب المقرين إليه حتى يتعظ بذلك الأبعد من الناس ويعلم أن المسألة هنا جديده فلا مهاده في بيت المال، ولذلك نقرأ في الكتاب الذي أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض امرائه في البلد الإسلامي الذي أساء الاستفادة من بيت المال وأنفقه في موارد اخرى، فكتب له الإمام يقول: «فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرني إلى الله فيك ولأضربك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار، والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هواده، ولا ظفراً مني بأرادته حتى آخذ الحق منهما» (٢). ونعلم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما فتح مكة قد عفى عن قريش وجميع المجرمين والجناة من قريش وغير قريش الذين حاربوه قرابة عشرين سنة وسفكوا دماء الكثير من المسلمين ورغم ذلك فقد أصدر النبي أمره بالعفو عنهم وإسدال الستار على ما مضى من جرائمهم وعداوتهم، ولكن مع ذلك فقد استثنى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من هذه عده أشخاص من هذا العفو وأهدر دمهم وأمر بقتلهم في أي مكان كانوا، وأحد هؤلاء هو (ابن خطل) وكان ذنبه أنه اعتنق الإسلام في الظاهر وهاجر إلى المدينة، فجعله النبي صلى الله عليه وآله على الزكاة وجمعها وأرسل معه شخصاً من قبيلة خزاعة، فعندما ذهب لجمع الزكاة واجتمع لديه مقدار مهم من الزكاة قتل صاحبه وهرب بالأموال إلى مكة، وعندما سأله المشركون في مكة عن سبب رجوعه قال: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٦٩ «لم أجد ديناً أفضل من دينكم»، وأخذ يهجو النبي بقصائد من الشعر وكانت لديه بعض الجوارى المغنيات والراقصات، فكان يجلس مجالس الطرب واللهو ويشترك معه مجموعة من المشركين فيشربون الخمر ويهجون النبي بهذه الأشعار، وبما أنه بلغ من الوقاحة والخيانة في بيت المال إلى هذه الدرجة العظيمة حتى أن هذه الخيانة تسببت في إرتداده عن الإسلام وهتكه لحرمة النبي الأكرم، فلذلك أصدر النبي أمره هذا، فلما سمع بذلك التجأ إلى الكعبة، وبما أن من يلوذ بالكعبة سوف يصاب دمه، فلذلك سحبوه إلى خارج الحرم وقتلوه» (١). فهذه التصريحات الشديدة والأحاديث المثيرة تشير إلى أن الخيانة في بيت مال المسلمين ورغم أن البعض يتصور أنها سهلة ويسيرة فإنها من أعظم الذنوب والخطايا، وعقوبتها من أشد أنواع العقوبات الدنيوية والاخروية. ونختم هذا البحث بالإشارة إلى حادثه وقعت في زمان رسول الله حيث تبيّن الأهميه الكبيره لبيت المال، والحادثه هي أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما عاد من خيبر ووصل إلى وادي القرى كان معه غلام أهده له رفاعه بن زيد الجذامي قال: فوالله إنّه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أتاه سهم غرب فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلًا والذي نفس محمد بيده إن شملتة الآن لتحترق عليه في النار كان غلها من فيء المسلمين يوم

خير». قال: فسمعها رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاه فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي، قال: فقال عليه السلام: «يُقد لك مثلهما من النار» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧٠

## الصدق

### تنويه:

إن هذه الصفة هي أحد العلامات المهمة في عناصر الشخصية لكل إنسان، وعندما يجتمع الصدق مع الأمانة تشكل من ذلك أساس الشخصية الإنسانية السوية والكاملة بحيث لا يمكن اطلاق اسم الإنسان الحقيقي عند من يخلو من هاتين الصفتين الأخلاقيتين. وهاتان الصفتان لهما جذر وأصل مشترك، لأن الصدق ليس شيئاً سوى الأمانة في القول، والأمانة ليست شيئاً سوى الصدق في العمل، ولهذا السبب فقد وردت في الروايات الإسلامية وكلمات المعصومين عليهم السلام هاتان الصفتان أي (صدق الحديث وأداء الأمانة) سوية. وإلى جانب هذه الصفة نرى وجود صفات ممتازة أخرى في منظومة القيم الأخلاقية لدى الإنسان والتي هي في الواقع من قبيل اللزوم والملازم، لأن الصادقين هم عادة يتحلون بالشجاعة، صراحة اللهجة، قلمه الطمع، الأخلص، الابتعاد عن الافراط في الحب والبغض والتعصب، في حين أن من يعيش الكذب في سلوكه وأقواله فهو يتحلى عادة بصفة الخوف، الرياء، التعصب واللجاجه، الطمع، والافراط في الحب والبغض. الإنسان يعيش الانضباط في حياته باصول أخلاقية ويتحرّك من موقع المسؤولية مع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧٢ الآخرين في حين أن الشخص الكاذب منافق عادة ويعيش الحالة الانتهازية في تعامله مع الناس. وبكلمة واحدة يمكن القول: إن الصدق والأمانة مفتاحان للكشف عن باطن الأشخاص في أبعاد مختلفة، ولذلك كما سوف يأتي في البحث الروائي في كلمات المعصومين أن هاتين الصفتين يمثلان الأداء البليغة لأختبار الأشخاص، فلو أردت معرفة حسن الشخص أو سوءه فعليك بأمثانه واختباره بالصدق وأداء الأمانة. وبهذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الشريفة التي تتحدث في أجواء الصدق والدوافع والنتائج المترتبة على هذه الصفة الأخلاقية وبعض النقاط المتعلقة بهما ثم نستعرض بعض ما يتعلق بصفة الكذب وآثاره السلبية في حركة الإنسان والمجتمع. وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن أهمية الصدق منها: ١- «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (١). ٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» (٢). ٣- «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا» (٣). ٤- «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (٤). ٥- «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صِدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» (٥). ٦- «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» (٦).

### تفسير واستنتاج:

إن العبارات الواردة في الآيات الكريمة التي تتحدث عن أهمية الصدق لا نجد مثيلاً لها في دائرة المفاهيم القرآنية الكريمة، ومن جملة التعابير الشديدة الواردة في هذه الصفة الأخلاقية هو ما ورد في «الآية الاولى» من الآيات محل البحث والتي جاءت بعد بيان مفصّل عن ظاهرة انحراف النصارى عن دائرة التوحيد وسؤال الله تعالى المسيح يوم القيامة عن سبب هذا الانحراف وتبرئه المسيح لنفسه عن هذه التهمة وحينئذ تقول الآية: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» وهذه إشارة إلى أن اتصافهم بالصدق في الحياة الدنيا سوف ينفعهم في حياتهم الاخرية يوم القيامة ويكون سبباً لنجاتهم من النار (لا أن صدقهم يوم القيامة سيكون سبباً لنجاتهم في ذلك اليوم لأنه لا تكليف يوم القيامة). ثم تستمر الآية الشريفة في استعراض ما يترتب من النتائج الايجابية والثواب العظيم على هؤلاء الصادقين

وتقول: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». فمن جهة سوف ينالون الجنة ويتمتعون بعظيم نعيمها ومواهبها الخالدة، ومن جانب آخر ينالون رضا الله تعالى عنهم، والتعبير بالفوز العظيم في الآية يدل بوضوح على عظمة مقام الصادقين، ولعله لهذا السبب فإنه بالإمكان جمع كافة أعمال الخير والصلاح وإدخالها في دائرة الصدق، أو بتعبير آخر أن الصدق هو مفتاح لكافة أعمال الخير والصلاح. ومن البديهي أن الله تعالى إذا رضى عن عبد فإنه سوف يعطيه ما يريد، وطبيعي أن الإنسان إذا أعطى كل ما يريد فإنه سيعيش حالة السعادة المطلقة وعليه فإن رضى الله تعالى سيتسبب في رضا العبد، وهذا الرضا المتقابل يعدّ نعمة عظيمة لا تصل إليها أى نعمة أخرى، وهى موهبة إلهية للصادقين من الناس. وعبارة (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وردت في القرآن الكريم فى أربع موارد والتوفيق فيها يبين عظمة هذا المفهوم السامى، ففى أحد الموارد يتحدث القرآن الكريم عن الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٧٤ المهاجرين والأنصار والتابعين، وفى مكان آخر يتحدث عن حزب الله تعالى، وفى مورد ثالث يتحدث عن (خير البرية)، وفى هذه الآية محل البحث يتحدث عن الصادقين، وهذا يدل على أن الصادقين هم حزب الله تعالى وخير البرية، ومن المهاجرين والانصار والتابعين. «الآية الثانية» تخاطب جميع المؤمنين من موقع الأمر بتقوى الله تعالى الذى يقترن مع الصدق وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». ونظراً إلى أن مثل هذه الخطابات القرآنية وكما ورد فى الاصطلاح أنها خطابات المشافهة فإنها تستوعب فى دائرتها ومصاديقها جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان، ومن الواضح أن الكون مع الصادقين وظيفته وواجب على الجميع فى أى مكان وزمان، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أراد التحرك فى خط التقوى والإيمان والاستقامة فعليه أن يعيش مع الصادقين ويلتزم بهم. أما المقصود من الصادقين فى هذه الآية ما هو؟ فهناك تفاسير متعددة لذلك، فالبعض ذكر أن المقصود هو النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه، وذهب البعض الآخر إلى أن مراد الآية من الصادقين هم الأشخاص الذين يتمتعون بصدق التية والصلاح فى العقائد والأعمال، وأورد آخرون تفاسير أخرى لهذه العبارة. ولكن عند الرجوع لسائر الآيات القرآنية نجد أن القرآن نفسه يفسر المراد من هذه الآية حيث يقول فى سورة الحجرات: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» (١) وهكذا نرى أن هذه الآية قد ذكرت للصادقين صفات سامية كالإيمان الذى لا يشوبه أى شك وريب والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس وأمثال ذلك. وقد ذكرت الآية ٨ من سورة الحشر أحد المصاديق البارزة للصادقين وهم المهاجرون الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٧٥ الذين تركوا أموالهم وبيوتهم وهاجروا فى سبيل الله وكانوا ينصرون دين الله ونبية الكريم دائماً. ونقرأ فى الآية ١١٧ من سورة البقرة صفات مهمّة أخرى لهؤلاء الصادقين من قبيل الإيمان بالله تعالى ويوم القيامة والكتب السماوية والأنبياء وإنفاق الأموال فى سبيل الله وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر على المشكلات والصعوبات التى يواجهها المؤمن فى حالات الجهاد. ومن مجموع هذه الصفات الكريمة يتبين جيداً أن الصادقين ليس هم الصادقين فى الكلام فقط، بل الصدق فى الإيمان والعمل من خلال التقوى والتضحية وطاعة الله تعالى والتحرك فى خط الإيمان، رغم أن هذا المفهوم يمتد ليستوعب دائرة واسعة من المفاهيم الأخلاقية لكن النموذج الأكمل والأتم لذلك هم المعصومون عليهم السلام ولذلك ورد فى الروايات الشريفة من طرق الشيعة وأهل السنة فى تفسير هذه الآية أن المقصود بها على بن أبى طالب عليه السلام وأصحابه، وكذلك ورد أن المقصود على بن أبى طالب وأهل بيته عليهم السلام. وقد أورد العلامة (الثعلبى) فى تفسيره عن ابن عباس أنه قال: «مَعَ الصَّادِقِينَ يَعْنِي مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ» (١). وقد ذكرت جماعة أخرى من علماء أهل السنة مثل العلامة الكنجى فى كفاية الطالب وسبط ابن الجوزى فى التذكرة نفس هذا المعنى والمضمون مع تفاوت أنه بدل كلمة الأصحاب وأورد ذكر أهل البيت عليهم السلام حيث يقول فى ذيل هذه الرواية: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلِيُّ سَيِّدُ الصَّادِقِينَ» (٢). وجاء فى الرواية الشريفة عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير الآية أنه قال: «أَيُّ آلِ مُحَمَّدٍ» (٣). وقد استوحى الكثير من المفسرين من اطلاق هذه الآية أن هذا الأمر يشمل جميع الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ١٧٦ المسلمين فى كل زمان ومكان، وبما أن الصادق المطلق هو الإمام المعصوم فالآية تدلّ على أنه يجب وجود إمام معصوم فى كل زمان (والتعبير

بصيغة الجمع «الصادقين» لغرض أن المخاطب هو كافة الناس في كل زمان). والنتيجة المستوحاة من هذه الآية هي أننا جميعاً مطالبون في أن نكون دائماً مع الصادقين، وهم الذين وردت أوصافهم في الآيات أعلاه والمصدق الأكمل لهم هم المعصومون عليهم السلام. «الآية الثالثة» تتحدث عن الثواب الذي ينتظر الصادقين يوم القيامة وقد جعلتهم الآية في مقابل المنافقين، وبعد أن بينت حال المؤمنين الصادقين والذين استشهدوا في سبيل الله وكذلك من ينتظر الشهادة منهم فتقول: «لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ بِمَا كَانُوا تَفْعَلُونَ خَبِيرًا». وبهذا يتبين الثواب العظيم على المستوى المادي والمعنوي الذي ينتظر الصادقين في الجنة، وهم الصادقون في القول والعمل والعقيدة، وأما من خرج من دائرة الصدق وسلك في خط الباطل والكذب فإنه يسقط في وادي النفاق والضلال. «الآية الرابعة» من الآيات محل البحث تشير إلى عشرة طوائف مبشرة إياهم بالمغفرة والثواب الجزيل، والطائفة الرابعة منهم هم الصادقون والصادقات، وهذا يعني أن الإنسان بعد اعتناق الإسلام والإيمان والطاعة لله تعالى فلا فضيلة بعدها أعلى من الصدق في السلوك العملي حيث تبين هذه الآية إلى أية درجة يرتقى الصدق بالإنسان سواء الرجل أو المرأة، وقد ورد في الحديث النبوي المعروف: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» (١). ويستفاد من هذا الحديث أنه حتى الإيمان الكامل لا يحصل للإنسان إلا بعد الصدق الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧٧ وإصلاح اللسان والقول، وأما الأشخاص الذين يعيشون الكذب في كلامهم فهم الفارغون من الإيمان الكامل. «الآية الخامسة» وبعد الإشارة إلى الحالة السلبية للمنافقين وتذبذبهم وتناقضهم في القول والعمل وخوفهم العظيم من الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو في الحقيقة أصل العزة والفخر للإنسان المؤمن تقول الآية: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ». فهؤلاء كانوا يقولون أننا عندما ينزل علينا الأمر بالجهاد فسوف نتحرك من موقع الطاعة ولا نقول سوى المعروف والصدق، ولكن عندما يحين الوقت وينزل الأمر بالجهاد يتجلى حينئذ عدم صدقهم وتهافتهم وتخاذلهم في حين أنهم لو صدقوا الله لكان خيراً لهم. هذا التعبير يدل على أن الكذب هو أحد علامات المنافقين، فقبل أن يواجهوا الأمر الواقع وتحين لحظة الحسم فأنهم ينطلقون من موقع الوعد بالجهاد والثبات والانطلاق من موقع المسؤولية، ولكن عندما تحين اللحظة الحاسمة يتضح كذبهم ونفاقهم، أي أن هذه الرذيلة الأخلاقية وهي الكذب تعدّ باباً ومفتاحاً للنفاق. «الآية السادسة»: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ». ولا شك أن أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد تجاوزوا اختبارات صعبة في ميدان العمل والواقع، وأحد أهم هذه الاختبارات هي مسألة الهجرة، التي تعنى ترك البيوت والأموال وغض الطرف عن الأوطان وجميع التعلقات التي ألفتها الإنسان في وطنه والانتقال إلى مكان آخر يبدأ فيه الحركة والحياة من نقطة الصفر ويعيش هناك مع أنواع الحرمان والنقص في موارد المعيشة، وفي حالة ما إذا لم تهجر معه الزوجة والأطفال فالصعوبات التي يواجهها هذا الإنسان المهاجر ستتضاعف وتشتد. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧٨ القرآن الكريم يتحرك في هذه الآية من موقع التحذير لأصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذه الهجرة هي إمتحان إلهي كبير (فاذا بقوا في مكة فسوف ينالهم أنواع التعذيب من قبل المشركين ولو هاجروا إلى المدينة فسواجهون أنواع الحرمان والفاقة) فيقول لهم القرآن الكريم أنه لا تتصوروا أن هذا الامتحان العسير في مواجهة تحديات الواقع من تعذيب المشركين أو الهجرة إلى المدينة أو الجهاد في سبيل الله ومواجهة الأعداء في ميدان القتال وأمثال ذلك منحصر بكم، فقد سبق أن اخترنا الأقسام السالفة بأنواع الاختبارات والابتلاءات، وأساساً فإن الحياة الدنيا تدور حول الإمتحان والاختبار الإلهي ليتبين الصادق في إيمانه من الكاذب والمدعى. وفي الواقع أن هذه الآية تتحدث عن الصدق بعنوان أنه علامة الإيمان والكذب علامة النفاق والكفر. وطبعاً إن الصدق والكذب في هذه الآية هو الصدق والكذب في العمل لا في القول، العمل الذي ينسجم ويتوافق مع ادعاءات الإنسان السابقة ويرسم له سلوكه الاجتماعي في حركة الحياة، والكاذب هنا هو الذي لا يتحرك في سلوكه بما ينسجم مع ادعاءاته، وأيضاً الصدق والكذب في العمل وفي القول لهما جذر مشترك، لأن الصدق هو بيان الحقيقة والكذب على العكس من ذلك، وهذا التبين تارة يكون بوسيلة القول واخرى بوسيلة العمل. ومن مجموع الآيات أعلاه يتبين الأهمية الكبيرة للصدق والصادقين وأن هذه الصفة تعد فضيلة أخلاقية من الفضائل التحية للبناء الأخلاقي الفوقاني

للإنسان، نعم فإنه متى ما وجد الصدق فإن الصفاء والأمانة والثقة والاعتماد والشجاعة سوف تحصل للإنسان بالتبع، ولو لم يكن الصدق في واقع الإنسان فإن جميع هذه الصفات ستتبخّر وتتلأشى ويعيش الإنسان بدونها حالة الفراغ الروحي والجفاف المعنوي وحتى أن الإيمان والعقيدة سوف لا تبقى سليمة كما هو المطلوب، والملفت للنظر أن الآيات الكريمة تذكر الصدق بعنوان أنه صفة من الصفات الأصلية للقادة الإلهيين كما أشارت إلى ذلك الآيات أعلاه وهذا إنما يدل على أن سائر فضائل الأنبياء والأولياء تدور حول محور الصدق وعلينا إذا أردنا معرفتهم والأطلاع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٧٩ على أحوالهم أن نتحرك لتتبع أثر هذه الصفة الأخلاقية فيهم.

## الصدق في الروايات الإسلامية:

### إشارة

إن أهميته هذه الفضيلة الأخلاقية في الروايات الإسلامية أكثر من أن يقال أو يذكر في هذا المختصر، فالأحاديث الشريفة الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام في هذا المجال تجاوزت حد الحصر، ولكننا نكتفي في هذا الفصل بذكر نماذج منها لبيان أهميته هذه الصفة من بين الصفات الأخلاقية للإنسان حيث يستفاد جيداً من الروايات أن جميع الفضائل الإنسانية تنبع من حالة الصدق. ١- ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في بيان أهميته الصدق والذي تقدم ذكره في الفصل السابق ولكننا نذكره مرة أخرى لأهميته: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطمأننتهم بالليل ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة» (١). ٢- ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر». ٣- وفي حديث آخر عن هذا الإمام يقول حول تأثير الصدق في جميع أعمال الإنسان وسلوكياته «ومن صدق لسانه زكى عمله» (٣)، لأن الصدق يمثل الجذر والأساس لجميع الأعمال الصالحة، وسوف يأتي لاحقاً بيان هذا المطلب بالتفصيل. ٤- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق أيضاً في كتابه إلى أحد أصحابه ويدعى عبدالله بن أبي يعفور حيث قال له: «انظر ما بلغ عليّ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله فألزمته، فإن عليّاً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٠ هذا التعبير يدل على أن الإنسان حتى لو كان شخصية كبيرة وعظيمة مثل علي بن أبي طالب عليه السلام إنما وصل إلى هذا المقام السامي عند رسول الله صلى الله عليه وآله بركة هاتين الصفتين: صدق الحديث، وأداء الأمانة. ٥- وقد ورد في الحديث الشريف أنه سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «أى الناس أكرم؟ فقال: من صدق في المواطن» (١). ونظراً إلى أن القرآن الكريم يقول: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (٢) يتضح أن روح التقوى هي الصدق في الحديث. ٦- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يتحدث فيه عن تأثير الصدق في نجاة الإنسان من الأخطار والمشكلات حيث يقول: «ألزموا الصدق فإنه منجاة». وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام ورد تشبيهاً جميلاً عن الصدق حيث يقول: «الصدق نورٌ غير متشعشع إلا في عالمه كالشمس يستضيء بها كل شئ يغشاها من غير نقصان يقع على معناها». ويقول الإمام عليه السلام في ذيل هذا الحديث: «الصدق سيف الله في أرضه وسماؤه أينما هوى به يُقَدُّ» (٣). ٧- وعن أهميته الصدق يكفي أن نذكر الحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الصدق رأس الدين». ويقول في حديث آخر: «الصدق صيلاح كل شئ». ويقول في حديث آخر أيضاً: «الصدق أقوى دعائم الإيمان». وفي روايه أخرى يقول: «الصدق جمال الإنسان ودعامته الإيمان». وأخيراً يضيف إلى ذلك تعبيراً مهماً آخر عن الصدق ويقول: «الصدق أشرف خلائق المؤمنين» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨١ ٨- ونختم هذا البحث الطويل بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدث فيه عن مفتاح الجنة والنار ويقول: «إن رجلاً جاء إلى النبي فقال يا رسول الله ما عمل الجنة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد برّ وإذا برّ آمن، وإذا آمن

دَخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا عَمَلُ النَّارِ؟ قَالَ: الْكِذْبُ، إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ فَجَرَ، وَإِذَا فَجَرَ كَفَرَ، وَإِذَا كَفَرَ دَخَلَ النَّارَ» (١). والملفت للنظر أن هذا الحديث الشريف يعدّ الصدق منبع الخير والصلاح وبالتالي فهو منبع الإيمان أيضاً، وما ذلك إلا لأنّ الفاسق يتحرك في تبرير أعماله الدنيئة من موقع الكذب والدجل والخداع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ روح الإنسان ستضعف بسبب الكذب وتدرجياً يضعف الإيمان أيضاً وبالتالي يفضى ذلك إلى الكفر والسقوط من درجة الإنسانية كما قال القرآن الكريم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» (٢). ٩- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَلْهَمَهُ الصِّدْقَ» (٣). ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ أَعْطِيَهُنَّ أَعْطَى خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ صِدْقٌ حَرِيدٌ وَأَدَاءٌ أَمَانَةٌ وَعِفَّةٌ بَطْنٌ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» (٤). ومن مجموع هذه الأحاديث الشريفة يمكننا أن نستوحي نكات مهمّة في دائرة هذه الصفة الأخلاقية: إنّ الصدق هو أحد الطرق التي تتجلّى فيها شخصية الإنسان وإيمانه وبذلك يمكن اختباره من هذا السبيل. إنّ الدعوة إلى الصدق هي إحدى البنود الأساسية لدعوة الأنبياء والمرسلين في خطّ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٢ التكامل المعنوي والإلهي. إنّ الصدق يتسبب في طهارة الأعمال وقبول الأفعال. إنّ المقام المعنوي للإنسان عند الله تعالى يدور مدار الصدق. إنّ أكرم الناس هم الصادقون. إنّ الصدق يتسبب في النجاة في الآخرة. إنّ الصدق أقوى دعائم الدين. إنّ الصدق مفتاح الجنة. الصدق علامة محبوبة الإنسان لدى الله تعالى. إنّ الإنسان الصادق سينال خير الدنيا والآخرة. ونظراً إلى هذه النتائج والمعطيات العشرة للصدق يتضح جيداً أنّ هذه الصفة الأخلاقية المهمّة لا تلحقها صفة أخرى بهذه المعطيات الكثيرة. بقي هنا في هذا الموضوع المهم أن نذكر عدّة أمور (رغم أنه قد أشرنا إليها في ضمن الأبحاث السابقة).

### ١- تأثير الصدق في حياة الإنسان

بالرغم من أن تأثير الصدق في حياة الإنسان يعدّ بديهياً وتوضيح هذا الأمر يعدّ من توضيح الواضحات، ولكن عندما ندخل تفاصيل المسألة نواجه المعطيات الإعجازية الكبيرة للصدق في جميع مفاصل الحياة البشرية، والالتفات إلى هذه المعطيات المهمّة بإمكانه أن يكون دافعاً قوياً للتحمّل بهذه الصفة الأخلاقية الكبيرة. وأول تأثير للصدق في حياة الإنسان هو مسألة الثقة وجلب الاطمئنان والاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع في حركة التفاعل الاجتماعي. ونعلم أنّ أساس الحياة الاجتماعية للإنسان هو العمل على المستوى الجماعي ولا يتسنى ذلك إلاّ بان يتعامل أفراد المجتمع فيما بينهم من موقع الثقة المتبادلة واعتماد البعض الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٣ على البعض الآخر، وهذا المعنى لا يتحصّل إلاّ بتوفر عنصر الصدق والأمانة بينهم، أجل فإنّ أهم وسيلة مؤثرة في جذب اعتماد الناس هو الصدق، وأخطر وسيلة وأداة لهدم العلاقات الاجتماعية وتخريب أواصر المودّة بين الأفراد هو الكذب، ولا فرق في هذا الأمر بين المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية. فالرجل السياسي المحنك والذي يعتمد عليه الناس إذا تورط في مورد أو عدّة موارد من الكذب وسمع منه الناس ذلك، فإنّهم سيتباعدون عنه وبهذا يخسر نفوذه وشخصيته بين الناس. والعالم أو المكتشف إذا تلوث بالكذب في تحقيقاته العلمية فقد اعتماد المحافل العلمية باختراعاته وتحقيقاته وبالتالي تذهب أرباحه أرباح الرياح وتكون تحقيقاته المدوّنة حبراً على ورق. المؤسسات الاقتصادية أيضاً إذا تعاملت في الأعلان عن منتوجاتها وبضائعها من موضع الكذب والدجل فإنّ الناس سوف لا يثقون بمنتوجاتها بعد ذلك وسوف تخسر هذه المؤسسات زبائنهم سريعاً. وفي دائرة الإدارة إذا لم يصدق المدير مع مرؤوسيه وموظفيه فإنّ نظم هذه الدوائر أو المؤسسة سوف يتلاشى بالتأكيد، وعلى هذا نصل إلى هذه النتيجة وهي أنّ أساس جميع أشكال التقدّم المعنوي والمادي في المجتمع يتمثل بالاعتماد المتقابل بين الأفراد والذي يعتمد بدوره على الصدق. ولذلك ورد في الرواية الشريفة عن أمير المؤمنين أنه قال: «الصِّدْقُ صِلَاحٌ كُلُّ شَيْءٍ وَالْكَذْبُ فَسَادٌ كُلُّ شَيْءٍ» (١). وقال أيضاً في حديث آخر: «الْكَذْبُ وَالْمَيْتُ سِوَاءٌ فَإِنَّ فَضِيلَةَ الْحَيِّ عَلَى الْمَيْتِ الثَّقَةُ بِهِ، فَإِذَا لَمْ يُوْتَقَ بِكَلَامِهِ فَقَدْ بَطَلَتْ حَيَاتُهُ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٤ والأمر الآخر هو أنّ الصدق يهب لصاحبه شخصية اجتماعية مرموقة في حين أنّ الكذب يتسبب

في فضيحتة وذهاب ماء وجهه وسمعته، والإنسان الصادق يعيش حياة العزّة والكرامة دائماً أمّا الكاذب فيعيش حالة الدناءة والحقارة والانتهازية. ولهذا ورد عن أمير المؤمنين أنّه قال: «عَلَيْكَ بِالصُّدُقِ فَمَنْ صَدَّقَ فِي أَقْوَالِهِ جَلَّ قَدْرُهُ» (١). ومن جهة ثالثة نجد أنّ الصدق والأمانة يهبان للإنسان الشجاعة والشهامة في حين أنّ الكذب والخيانة يجزّان الإنسان إلى السقوط في هوة الخوف والفرع من إنكشاف أمره وافتضاح حاله وبالتالي خسران جميع ما أعدّه سلفاً لحياة كريمة وسعيدة من خلال الكذب والخداع والخيانة. ومن جهة رابعة فإنّ الصدق بإمكانه أن ينقذ الإنسان من كثير من الذنوب والآثام، لأنّه في حال ما لو ارتكب ذنباً معيناً ثمّ سأل عنه فإنّه لا يستطيع الإقرار بهذا الذنب والاعتراف به، فمن الأفضل له أن لا يرتكبه سلفاً. وقد ورد في الحديث الشريف المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه جاء رجل إليه صلى الله عليه وآله وقال: «أنا يا رسول الله استسر بخلال أربع، الزنا، وشرب الخمر، والسرقه، والكذب، فأيتهنّ شئت تركتها لك، قال صلى الله عليه وآله: «دع الكذب». فلما ولى هم بالزنا فقال: يسألني فان جحدت نقضت ما جعلت له وإن أقررت حددت، ثم هم بالسرقه ثم بشرب الخمر ففكر في مثل ذلك فرجع إليه فقال: قد أخذت عليّ السبيل كلّ فقد تركتهنّ أجمع» (٢). ومن جهة خامسة نجد أنّ الصدق يعمل على حلّ الكثير من المشاكل والأزمات في المجتمع ويسهّل للإنسان الوصول إلى مقصده ويقبّل من نفقات المسير ويهب الناس هدوءاً وطمأنينةً ويزيل الاضطراب والقلق والتوتر الذي ينشأ من حالات احتمالات الكذب في الافلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٥ أقوال الطرف الآخر ويوطد أركان المحيية ويعمق وشائج المودة بين أفراد المجتمع وبذلك يفضي على شخصيه هؤلاء الأفراد نوراً وبهاءً أكثر، وقد أشارت الروايات الكريمة إلى هذا المعنى أيضاً وأنّ شخصيه الإنسان الذاتية هي التي تدعو لئن يكون الإنسان صادقاً كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أَحْسَنُ مِنَ الصُّدُقِ قَائِلُهُ وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ فَاعِلُهُ» (١). ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام كشاهد صدق على هذا المطلب حيث يقول: «يَكْتَسِبُ الصَّادِقُ بِصِدْقِهِ ثَلَاثًا، حُسْنَ الثَّقَةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُ وَالْمَهَابَةَ مِنْهُ» (٢).

## ٢- دوافع الصدق

إنّ هذه الفضيلة الأخلاقية كسائر الفضائل الأخلاقية الاخرى لها جذور ودوافع في أعماق روح الإنسان منها: الف: الاعتماد على النفس وعدم الشعور بالحقارة والدونية، حيث تدعوه هذه الحالة النفسية الإيجابية إلى الصدق والتعامل مع الآخرين من موقع الثقة بالنفس والواقع. ب: الشجاعة والشهامة الذاتية والإكتسابية فلا يخاف من ذكر الامور الواقعية. ج: الطهارة القلبية من أدران الذنوب وعدم وجود نقطة ضعف في شخصيه الإنسان تدعوه إلى قلب الواقع، في حين أنّ الملوّث بالعيوب والخطايا قد يدعوه ذلك إلى الكذب لتغطية نقاط الضعف هذه. د: والأهم من ذلك جميعاً هو أن يتجلّى الإنسان بالإيمان بالله والآخرة ويتحرّك في خط التقوى والاستقامة، فذلك من شأنه أن يكون عاملاً أساسياً للصدق، ولهذا السبب ورد في الحديث المعروف في نهج البلاغة قوله عليه السلام: «أَنَّ تَوَثُّرَ الصُّدُقِ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكُذْبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ» (٣).

## ٣- مفهوم الصدق

ورغم أننا نفهم من هذه المفردة وضوح المعنى والمفهوم، ولكن في نفس الوقت هناك الافلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٦ خلاف كثير بين العلماء في تعريفها، فالبعض ذهب إلى أنّ الصدق هو مطابقتها محتوى الكلام للواقع، في حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ الصدق هو مطابقتها الكلام لاعتقاد الشخص واستدل بالآية الشريفة من سورة المنافقين حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» (١). ومن البديهي أنّ المنافقين الذين يشهدون على نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تكون شهادتهم هذه مطابقة للواقع، ولكن بما أنّها غير مطابقة لاعتقادهم، فلذلك ذكرهم الله

تعالى بأنهم كاذبون ونسبهم إلى الكذب، لأن هؤلاء يستخدمون هذه الشهادة بنبوّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كأداة للتغطية على شخصيتهم حيث يكون مفهوم كلامهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لاعتقادهم الباطني، وبما أنّ هذا الكلام غير مطابق لواقعهم، فلذلك كانوا كاذبين، أي أنّ هؤلاء يكذبون في ادعاءاتهم أنّ هذه الشهادة مطابقة لمعتقدهم الباطني، وعلى هذا الأساس يتبين أنّ الصدق على كل حال هو تطابق الكلام مع الواقع سواءً كان الواقع الخارجي أو الباطني. ولكننا نقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام تعريفاً آخر للصدق والكذب وهو ناظر إلى بعد العبودية لله تعالى حيث يقول: «الصدقُ مُطَابَقَةُ الْمَنْطِقِ لِلْوَضْعِ الْإِلَهِيِّ وَالْكَذِبُ زَوَالُ الْمَنْطِقِ عَنِ الْوَضْعِ الْإِلَهِيِّ» (٢). والمقصود من الوضع الإلهي ظاهراً هو وضع عالم الخلق والوجود، الذي يتحرك بإرادة الله تعالى، وعليه فإنّ هذا التعريف لا يخرج عن إطار التعريف السابق إلّا بدخوله في دائرة المضمون التوحيدى. وبالطبع فإنّ الصدق والكذب كما يجريان في كلام الشخص فكذلك يجريان في عمله وسلوكه أيضاً، فالأشخاص الذين يخالف عملهم ظاهرهم فإنهم كاذبون من هذه الجهة، والأشخاص الذين يتطابق ظاهرهم مع باطنهم وأعمالهم، فإنهم صادقون أيضاً.

## الكذب وآثاره وعواقبه

### تنويه:

كان من المفروض أن نبحت الصدق والكذب في فصل واحد للملازمة الشديدة بينهما، ولأنّ أحدهما لا يعرف بدون الآخر، ولكن بما أنّ هذه المسألة وردت في الآيات والروايات الشريفة وكلمات علماء الأخلاق بصورة منفصلة رأينا أنّ من الأفضل التفكيك بينهما لتؤدي المطلب حقّه من البحث والتفصيل. أجل فإنّ المفاهيم الإسلامية تؤكد كثيراً على مسألة محاربة الكذب والدجل إلى درجة أنّ الكاذبين في النصوص الدينية في عداد الكفار والملحدين وأنّ الكذب هو مفتاح جميع الذنوب كما ورد التصريح بذلك في الروايات الشريفة، بل إنّ الإنسان ما لم يترك الكذب بشتى أنواعه وأقسامه لن يذوق طعم الإيمان أبداً. ونكتفى بهذه الإشارة إلى آثار الكذب وأخطاره لنعود إلى القرآن الكريم ونستوحى من آياته ما يتعلّق بهذا المفهوم والصفة الأخلاقية الذميمة: ١- «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٨ ٢- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» (١). ٣- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (٢). ٤- «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (٣). ٥- «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (٤). وفي مسألة التكذيب الإلهي الذي هو أيضاً نوع من الكذب، وردت تعابير مهمّة في القرآن الكريم، منها: ٦- «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» (٥). ٧- «ثُمَّ نَبْهَلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» (٦).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى» تتحدّث عن أنّ الكاذب هو الشخص الذي إنعدم فيه الإيمان بالله تعالى وأنّ الكاذب الحقيقي هو غير المؤمنين فتقول: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ». وهذا في الوقت الذي كان فيه أعداء الإسلام من المشركين الجاهليين عندما يرون بعض آيات القرآن الكريم قد نسخت بسبب تغيير الظروف الزمانية وإستبدلت الأحكام السابقة بأحكام جديدة، فكان ذلك ذريعة لديهم في إتهامهم النبي صلى الله عليه وآله بالكذب، وقولهم أنّ هذا النبي له معلّم يعلمه هذه الآيات (ومرادهم من المعلّم غلامين نصرانيين أحدهما يدعى يسار، والآخر جبر، أو رجل نصراني يدعى بلعام الرومي) في حين أنّ القرآن الكريم نزل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٨٩ بلسان عربي فصيح وهؤلاء كانوا من الأعاجم. القرآن الكريم في مقام الجواب على إدعاءات المشركين الواهية يقرّر أنّ النبي الأكرم يتلقى الوحي الإلهي الذي ينزل به روح القدس من الله تعالى وأنّ آثار الإيمان والصدق جليّة في كلامه، والأشخاص الذين يكذبون في كلامهم لا يؤمنون بالله تعالى، أي أنّ الإيمان لا يجتمع مع الكذب، والمؤمن الحقيقي لا



يتحرّك لسانه من موقع الكذب اطلاقاً. وجملة (يفترى الكذب) في الواقع تأكيد على كذبهم، أي أنهم يرتكبون الكذب والتهمة في نفس الوقت، أو كما يقول الطبرسي في مجمع البيان بمعنى (يخترع الكذب) وهذا يعني أنهم يخلقون كلاماً لا أصل له (الافتراء بمعنى فريء، هو في الأصل بمعنى قطع، ثم استعمل في كل عمل سلبي ومذموم ومنه الشرك والكذب والتهمة). وفي الواقع فإن النسبة بين الكذب والافتراء هي نسبة العموم والخصوص المطلق، فالكذب يعني كل كلام مخالف للواقع، ولكن الافتراء أو التهمة هي أن يكون الكلام يحتوي في مضمونه على نسبة عمل مذموم إلى شخص معين. ويحتمل أن قوله (يفترى الكذب) إشارة إلى رؤساء المشركين وقادة الكفر حيث يخلقون الكذب والعناوين من قبيل شاعر وساحر وينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وآله ويتبعهم الآخرون بذلك. وعلى أية حال فإن الآية أعلاه تبيّن بوضوح أن الكذب لا يجتمع مع الإيمان اطلاقاً، ولذلك ورد في تفسير هذه الآية رواية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سُئل: «يا رَسُولَ اللَّهِ الْمُؤْمِنُ يَزْنِي؟ قال: بلى، قالوا: الْمُؤْمِنُ يَسْرِقُ؟ قال: بلى، قالوا: الْمُؤْمِنُ يَكْذِبُ؟ قال: لا، ثُمَّ قرأ هذه الآية ..» (١). وبالطبع فلا بدّ من ملاحظة أن الإيمان له مراحل ومراتب مختلفة. «الآية الثانية» من الآيات محل البحث تصرّح «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٠ ومن المعلوم أن الهداية والضلالة هما بيد الله تعالى حتى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا يتمكن أن يهدي شخصاً ما لم تتعلّق بذلك مشيئة الله تعالى وإرادته كما ورد في الآية الشريفة: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (١). ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى يجبر بعض الناس على الهداية والبعض الآخر على الضلالة والانحراف، ثم يهب الجنة ونعيمها الدائم الى الطائفة الاولى ويرسل الطائفة الثانية الى النار، فهذا هو مذهب الجبر الذي لا ينسجم مع العقل والمنطق ولا مع العدل الإلهي. والمقصود من ذلك أنه متى ما تهيأت الأرضية للهداية والضلالة في الإنسان بواسطة أعماله وأفعاله فإن الله تعالى سيمدّه بما يتوافق مع لياقته وقابليته، فيعين الطائفة الاولى للوصول إلى كمالهم المعنوي في خط الإيمان والعبودية والطاعة ويزيدهم من فضله ولطفه، ويرفع يده عن الطائفة الثانية ليقوا في حيرتهم وفي دوامة من السلوكيات المنحرفة والعقائد الباطلة التي لا يصلون معها إلى مقصودهم النهائي. ومن أهم الامور التي توفر الأرضية للضلالة والزيغ والانحراف هو الكذب والاسراف وكفران النعمة التي وردت في هاتين الآيتين حيث يفهم بوضوح من سياق هاتين الآيتين أن من يقول بالجبر وأن الله تعالى هو الذي يهدي ويضل عباده دون أن يكون لهم الخيرة في ذلك فإن كلامهم هذا واعتقادهم بجانب للحق والصواب كثيراً وأن استدلالهم بهاتين الآيتين هو في الواقع خلاف الظاهر من جو هاتين الآيتين وسياقهما. أجل، فإن الكذب يعتبر من أهم العوامل في اضلال الإنسان وشقائه. ويمكن أن يكون مورد هاتين الآيتين هو نسبة الكذب إلى الله تعالى والانحراف عن أصل التوحيد، ولكن المورد لا يخصص الوارد كما في الاصطلاح، أي أن خصوصية المورد لا تمنع من عمومية الحكم الوارد في هاتين الآيتين. أما العلاقة بين الكذب وكفران النعمة الوارد في الآية الاولى فهو يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن بنى اسرائيل كفروا بنعمة وجود موسى عليه السلام فيما بينهم لهدايتهم وكذبوه، والعلاقة بين الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩١ الاسراف والكذب في الآية الثانية هو من جهة أن الفراعنة تحرّكوا من موقع عصيان الأمر الإلهي وظلمهم لبنى اسرائيل وقتل اولادهم، فهؤلاء سلكوا طريق الاسراف وكذبوا بنوّه موسى عليه السلام. «الآية الرابعة» تستعرض اسلوب المنافقين في التظاهر بالإيمان والعمل الصالح وتحدّث عن (ثعلبة بن حاطب الأنصاري) الذي كان قد عاهد الله تعالى أنه إذا رزقه مالاً كثيراً فإنه سيتصدّق على الفقراء والمساكين ولكنّ سلوكه العملي كان مخالفاً لقوله ووعدته حيث نقض عهده مع الله تعالى بعد أن رزقه المال والثروة وأصبح من الموسرين، ويقول الله تعالى في هذه الآية: «فَأَعْتَبْهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ». ثم تضيف الآية أن ذلك كان بسبب نقضهم للعهد وكذبهم على الله تعالى: «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». والجدير بالذكر أن نقض العهد مع الله تعالى يعتبر نوع من الكذب العملي. وعلى أية حال فالآية أعلاه تصرّح بأن نقض العهد كذب يورث الإنسان روح النفاق في قلبه إلى آخر حياته، وما أشدّ هذه العقوبة في دائرة أركان الشخصية ودعائمها. أما العلاقة بين هذين الذنبيين (نقض العهد والكذب) وبين النفاق فواضحة، لأنّ النفاق ليس شيئاً سوى اختلاف الظاهر والباطن وأن يكون الإنسان ذا لسانين كما في اصطلاح الروايات، ونقض العهد

والكذب أيضاً هو عبارة عن التظاهر بالتمسك والانضباط بالوعد وبالميثاق من موقع المسؤولية والتعهد القلبي في حين أن الواقع الباطني لا يتطابق مع هذا الظاهر الخادع. أجل، فإن الكثيرين من أمثال ثعلبة بن حاطب الأنصاري عندما يعيشون حالة الضيق والعسر في حركة الحياة يلجأون إلى الله تعالى بجميع وجودهم وكيانهم ليحل لهم مشكلاتهم ويبدلون له العهود والمواثيق والنذور في هذا السبيل، ولكن عندما يستجيب الله تعالى لهم وتفرج الأزمة ويحصلون على ما يريدون يتعاملون مع عهودهم ومواثيقهم من الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٢ موقع النسيان والتغافل، وهذا هو المصداق لنقض العهد والكذب والنفاق في عملية التعامل مع الحياة والواقع (نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شر هذه الآثام والسلوكيات الدنيئة). «الآية الخامسة» تتحدث عن صفات وأعمال المنافقين القبيحة وتسلط الضوء خاصة على مسألة الكذب وتقول: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». فهذه الآية لم تتحدث بشكل دقيق عن نوع الكذب الذي كانوا يرتكبونه ولعله إشارة إلى الكذب الذي أشارت إليه الآية السابقة، ومن ذلك إدعائهم الإيمان بالله في حين أنهم غير مؤمنين في قلوبهم، والآخر الخداع والغش الذي كانوا يمارسونه مع المؤمنين ويستغفلونهم في عملية التعامل معهم، والأهم من ذلك أنهم كانوا يستفيدون من كل فرصة في سبيل تكذيب الرسالة الإلهية والرسول الكريم، ولكن على أية حال، فإن هذه الآية تقول: إن العذاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء هو بسبب كذبهم، وهذا يدل على أن أشد وأشنع أعمال المنافقين هو أنهم كانوا يرتكبون الكذب ويخترعون الإفك، بالرغم من أنهم كانوا يرتكبون ذنوباً كثيرة إلى جانب الكذب. ومن الواضح أن المقصود بالمرض في هذه الآية هو مرض النفاق الذي يعد مرضاً أخلاقياً ناشئاً من انفصام شخصية المنافق واهتزاز وجدانه بحيث يعيش بين الناس بلسانين ووجهين وظاهره يختلف عن باطنه. «الآية السادسة» تتحرك على مستوى بيان قسم خاص من أقسام الكذب، وهو الكذب على الله تعالى، حيث تخاطب الآية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ». أساساً فإن الكذب لا يجتمع مع الفلاح والموفقية في حركة الحياة وخاصة إذا كان الكذب على الله والأنبياء الإلهيين، والمراد من الكذب على الله في هذه الآية (وبقرينة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٣ الآيات السابقة لها) هو أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الملائكة هم بنات الله، وقيل أن المراد هو دعوى المسيحيين بأن المسيح ابن الله، وكذلك دعوى اليهود بأن عزير ابن الله، وعلى أية حال فإن نسبة هذه الامور إلى الله تعالى من الكذب الفاضح والجلبي، لأن الله تعالى ليس بجسم ولا- يتصف بالعوارض الجسمائية وليست له زوجة وأبناء. وأساساً فإن فلسفة وجود الابن تكون معقولة في دائرة نظام الخلق على مستوى الإنسان وحاجاته الفطرية والطبيعية، فإن الإنسان يحتاج إلى الأبناء لبقاء النسل والقيام بمعونه وإسناده في حركة المعيشة الشاقة أمام تحديات الواقع والحياة، أمياً مفهوم الأبن بالنسبة إلى الله تعالى وهو الغنى على الاطلاق والقادر على كل شيء فلا معنى له في دائرة العقل والمنطق. ومن الجدير بالتأمل أن الآية المذكورة اعتبرت عمل المشركين مصداقاً للكذب والإفراء، وهذا يعني أن الكذب له مفهوم واسع يستوعب في مضمونه الإفراء أيضاً (وكما في الاصطلاح أن النسبة بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق) فالكذب هو أن يتحدث الإنسان بكلام مخالف للواقع سواء كان يتحدث عن شخص معين أو شيء آخر، ولكن التهمة والإفراء هو نسبة عمل قبيح وغير واقعي إلى شخص معين، فهنا يتحقق مصداق الكذب ومصداق التهمة أيضاً. ونفس مضمون هذه الآية ورد في الآية ١١٦ من سورة النحل حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث تستعرض واقعة المباهلة المعروفة والتي تستبطن في طياتها الكلام عن قسم خاص من أقسام الكذب، أي نسبة الكذب إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ويترتب على ذلك لعنة الله على الكاذبين حيث تقول الآية: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٤ (المباهلة) في الأصل من مادة بهل (على وزن سهل) بمعنى الترك للشيء، وقد ورد في التفاسير أن المباهلة تعني في المصطلح الديني أن تجتمع فتان كل واحد منهما على مذهب معين فيتحاجون وأخيراً يتلاعنون ويدعون الله تعالى بأن ينزل لعنته على الطرف الآخر الكاذب، وأي فته تحقق في موردها اللعن ونزل عليها العذاب فهذا دليل على حقايتة الطرف الآخر، وقد حدث ذلك في صدر الإسلام

بين نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ونصارى نجران، فعند ما تقررت المباهلة بينهما جاء النبي صلى الله عليه وآله ومعه الإمام على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام إلى ساحة المباهلة وكانت تبدوا على سيماهم المباركة آثار إستجابة الدعاء، فراجع النصارى عن إدعائهم وصالحوا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على أمور مذكورة بالتفصيل في التفاسير الشريفة ذيل هذه الآية ولذلك لا حاجة إلى الإطالة والتفصيل. والمراد من قوله: «فَنَجَعِلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»، لبيان عظمة الكذب وأنه يستحق نزول اللعنة على صاحبه. والآية أعلاه والتي إستعرضت تأكيدات قرآنية مهمة بالنسبة إلى قبح الكذب وآثاره المشؤمة وعواقبه الوخيمة توضح جيداً أن هذا الذنب إلى أى درجة من القبح والشر في دائرة المفاهيم القرآنية، فينبغى على المؤمنين في المجتمع الإسلامى أن يعيشوا حالة التنفر والكراهية لهذا النوع من السلوك الخاطيء والخلق الذميم ويتحرروا على مستوى تطهير مجتمعهم من شر هذه الخطيئة.

### الكذب في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الروايات الإسلامية تعابير مثيرة ومدهشة تتحدث عن قبح الكذب وشناعته وفيما يلي نماذج منها: ١- يستفاد من بعض الروايات أن الكذب مفتاح الذنوب، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ الشَّرَّابَ، وَالْكَذِبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرَّابِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٥ ٢- وورد في حديث آخر عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قوله: «جَعَلَتِ الْخَبَائِثُ كُلُّهَا فِي بَيْتٍ وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الْكُذْبَ» (١). والعلّة في ذلك جليّة، وهي أن الإنسان الكاذب عندما يجد نفسه في معرض الفضيحة فإنه يتحرك في عمليّة التغطية على نقائصه ومعاييه من موقع الكذب والخداع، وبعبارة اخرى: إنّ الكذب يبيح له ارتكاب أنواع الذنوب من دون أن يخاف الفضيحة، في حين أن الإنسان الصادق سيجد نفسه مضطراً إلى ترك سائر الذنوب لأنّ الصدق لا يسوغ له ارتكاب الذنوب، والخوف من الفضيحة بسبب الصدق يدعوّه إلى ترك الذنوب. وكما سبق وأن ذكرنا الحديث المعروف عن الرجل الذي جاء إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو ملوث بأنواع الذنوب وطلب منه النبي صلى الله عليه وآله أن يترك الكذب فقط فقبل منه ذلك، وكان هذا سبباً في أن يترك جميع الذنوب (٢). ٣- ويستفاد من الأحاديث الاخرى أن الكذب لا ينسجم اطلاقاً مع الإيمان كما نقرأ في الحديث الشريف: «سَيَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُجَانِبًا؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قِيلَ وَيَكُونُ بَخِيلًا؟ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ يَكُونُ كَذَابًا؟ قَالَ: لَا». ونفس هذا المضمون ورد بصورة اخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «لَا يَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرَكَ الْكُذْبَ هَزْلَهُ وَجِدَّةً» (٤). ولكن لماذا لا ينسجم الكذب مع الإيمان؟ لأنّ الكذب إمّا أن يكون لغرض تحصيل الإنسان لمنفعة معينة أو للخلاص من مشكلة وأزمته، فلو كان إيمان الإنسان قوياً ومستحكماً في القلب فإنه يرى أنّ الخير والشر كلاهما بيد الله تعالى وهو الذي بإمكانه حلّ مشكلاته وإنقاذه من الازمات التي يمر بها في مواجهة تحديات الواقع والحياة وهو الذي يدفع عن الإنسان أنواع البلايا والمخاطر، فلو أنّ الإنسان تمسك بغصن من أغصان التوحيد الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٦ الأفعالي واعتقد بذلك بصدق فلا يجد نفسه بحاجة إلى التمسك بذيل الكذب حينئذ. ٤- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكُذْبُ» (١)، لأنّ آثاره السلبية والمدمرة أشد من كل ذنب آخر. ٥- ونقرأ أيضاً في حديث آخر عن الإمام على عليه السلام حيث يقرر أنّ الكذب من أعظم الخطايا ويقول: «أَعْظَمُ الْخَطَايَا عِنْدَ اللَّهِ الْإِسَانُ الْكَذُوبِ وَشَرُّ النَّدَامَةِ نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٢). ٦- وورد في حديث آخر أنّ الكذب مصدر الفجور ومنبع الفحشاء وسبب الدخول في النار كما في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يقول: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكُذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ» (٣). ٧- إنّ الكذب لا يتناغم ولا ينسجم مع العقل كما ورد هذا المضمون في الحديث الشريف عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَكْذِبُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ هَوَاءٌ» (٤). ٨- إنّ الكذب يبعد ملائكة الرحمة عن هذا الإنسان الكاذب ففي حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ مِنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ تَبَنٍ مَا جَاءَ بِهِ» (٥). لأنّ الإنسان إذا تحرك في تعامله مع الآخرين من موقع الكذب، فإنه يتظاهر في نفس الحال بمظهر الصدق في حين أنّ باطنه يختلف عن ذلك،

وهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن نوع من أنواع النفاق، ولذلك كان الكذب من جملة الأعمال الشائعة لدى المنافقين. ١٠- إن الكاذب يخسر اعتماد الناس وثقتهم به كما نقرأ ذلك في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ عُرِفَ بِالْكَذِبِ قَلَّتْ الثَّقَةُ بِهِ» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٧ والنقطة المقابلة لذلك وردت أيضاً في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ تَجَنَّبَ الْكَذِبَ صَدَّقَتْ أَقْوَالُهُ» (١). ١١- ونختم هذا البحث الطويل بحديث آخر من الأحاديث الحكيمه لأمر المؤمنين عليه السلام حيث يحذر الناس من الصداقة والتعامل مع الكاذبين ويقول: «وَأَيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرَّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبْعَدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ» (٢). ويستفاد من الروايات أعلاه أن الكذب منبع الذنوب والمعاصي المختلفة وعنصر اهتزاز الإيمان بالله والثقة بين الناس ويعتبر أشنع أقسام الكلام وفرع من فروع النفاق ويفسد العلاقة بين أفراد المجتمع ويعمل على هدم إتحادهم ومروءتهم وقلما نجد مثل هذه الآثار الذميمة لذنب آخر من الذنوب الفردية والاجتماعية. بقيت هنا نقاط مهمة نذكرها بشكل مختصر:

### الآثار السلبية للكذب:

بالرغم من أن الآيات والروايات المذكورة آنفاً قد درست هذه المسألة بشكل مفصل وكشفت الستار عن نقاط مهمّة فيها، ولكن أهميّة هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أكثر وأعمق. وأول: أثر من الآثار المضرة والسلبية للكذب هي الفضيحة وذهاب ماء الوجه وانهايار المكانة الاجتماعية للشخص الكاذب وسلب الثقة منه لدى الناس. وكما يقول المثل المعروف: (الكاذب قرين النسيان) فإن التجارب تثبت أن الكلام الكاذب لا يمكن أن يستمر لمدة طويلة في حجب الحقيقة عن الناس، وقد تطوى المسألة في زاوية النسيان إذا لم تكن ذات أهميّة، ولكن إذا كانت المسألة مهمّة فإن الحقيقة سوف الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٨ تتجلى في دائرة ويفضح الكاذب حينئذ لا من أجل أن الكاذب ينسى ما قاله سابقاً، بل من أجل أن الكذب بنفسه لا يتأطر بأطار الحافظة، لأنّ الحادثة الواقعة في الخارج ترتبط بسلسلة من الحوادث الأخرى ومن موقع العالمة والمعلول وترتبط بما حولها من الحوادث بروابط عديدة وحميّة، فالشخص الذي يصوغ حادثه مختلقه يجد نفسه مضطراً إلى أن يربطها بما قبلها وبعدها من ظروف الزمان والمكان والأشخاص والحوادث المحيطة بها وكل ذلك يجب أن يختلقه بما ينسجم مع هذه الحالة الكاذبة، وبما أن هذه الروابط ليس لها حد وحصر، وعلى فرض أنه استطاع أن يختلق عدّة حوادث وروابط منسجمة مع بعضها إلا أنه قد يترك ثغرات في كلامه حيث يتضح من ذلك كذبه مثل ما رأينا من قصّة يوسف عليه السلام حيث جاء الأخوة بقميصه الدامي إلى أبيهم واختلقوا قصّة أكل الذئب له، ولكنهم نسوا أن يمزقوا القميص من عدّة أماكن، وهكذا إتضح كذبهم من بقاء القميص سالمًا، أو مثل زوجة عزيز مصر عندما ادّعت كذباً بأن يوسف كان يقصد بها سوء ولكنها نسيت أن قميص يوسف عليه السلام قد قُدم من خلفه، وهذا دليل واضح على كذبها وأنها هي التي كانت تلحق يوسف عليه السلام لا العكس. وفي هذا العصر فإنّ المحققين في عالم الجريمة يستطيعون بكل سهولة ومن خلال الأسئلة المتعددة عن الحادثة ولوازمها وخصوصياتها أن يكشفوا صدق أو كذب المدعى بحيث نادراً ما يفلت منهم كاذب دون أن يفتضح، أجل فإنّ الكاذب ليست له حافظة قويّة، وسوف يفتضح سريعاً على أيّة حال. الثاني: من النتائج السلبية للكذب هو أنه يجر الإنسان إلى أن يكذب مرّات عديدة أو يرتكب ذنوباً أخرى للتغطية على كذبه الأولى أو يرتكب حماقات خطيرة لهذا الغرض. الثالث: من مضرّات الكذب هو أنه يبيح للشخص الكاذب أن يغطي على خطيئته وإثمه ولو بشكل مؤقت ويستتر على سلوكياته المنحرفة في حين أنه لو كان يتحرّك من موقع الصدق فإنه يجد نفسه مضطراً إلى ترك هذه الأعمال القبيحة. الرابع: من مضرّات الكذب هو أنه يدفع بصاحبه إلى أن يسلك في خط النفاق ويصبح من الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ١٩٩ زمرة المنافقين، لأنّ الكذب فرع من فروع النفاق، والكاذب هو الذي يظهر غير ما يبطن ويتكلم بخلاف الواقع وبخلاف ما يعلمه في نفسه، فهذا الاختلاف بين الظاهر والباطن سوف يسرى بالتدرج إلى سائر أعماله وسلوكياته حتى يمسي منافقاً كاملاً. وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الكذب يؤدي إلى النفاق». الخامس: من مضرّات الكذب هو أنه لو كان الشخص يتمتع بلياقات

كثيرة وطاقت ايجابية يمكنه إستخدامها في حركة التفاعل الإجتماعي فأنه لو كان كاذباً في هذا المجال فسوف لا يستطيع الناس الإستفادة من لياقاته وطاقاته الإيجابية لأنهم سوف يتعاملون معه من موقع الشك والترديد في سلوكياته وكلماته. ولهذا السبب نجد أن الروايات الإسلامية إعتبرت الكاذب مثل الميت حيث ورد: «الكَذَّابُ وَالْمَيْتُ سَوَاءٌ فَإِنَّ فَضِيلَةَ الْحَيِّ عَلَى الْمَيْتِ الثَّقَةُ بِهِ، فَإِذَا لَمْ يُوثَّقْ بِكَلَامِهِ فَقَدْ بَطَلَتْ حَيَاتُهُ» (١). السادس: من النتائج السلبية المترتبة على الكذب هو أن الإنسان وبالاستفادة من أداة الكذب يمكنه أن يرتكب أعمالاً قبيحة أخرى، فالحسود والحاقد والبخيل كل منهم يجد في الكذب وسيلة للتغطية على أعمالهم وسلوكياتهم وهكذا الحال في سائر الذنوب الأخرى، مثلاً عند ما يأتي إليه شخص ويطلب منه قرصاً فإنه يكذب عليه ويقول: لقد إقتضت الآن مبلغاً من المال وليس لدى ما أعطيك منه، أو عندما يطلب منه أن يصف شخصاً من الأشخاص فإنه وبسبب الحسد لا يذكر منه سوى صفاته السلبية والحال أن ذلك الشخص هو إنسان شريف وثقة. السابع: هو ما نراه من الآثار المخربة في دائرة العلوم والمعارف البشرية، فلو أن المحققين والمخترعين والعلماء تحرّكوا من موقع الكذب في تحقيقاتهم واكتشافاتهم فإن جميع الكتب والدراسات العلميّة سوف يلحقها فيروس الشك والترديد وبالتالي لا- يضحى الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٠ هناك إعتداد على تحقيقات ودراسات الآخرين فتتوقف حركة التطور الحضارى والعلمى فى المجتمع البشرى. وهناك نتائج سلبية ومضرات كثيرة أخرى تترتب على الكذب فى حركة الحياة الفردية. ومضافاً إلى هذه النتائج والآثار فى حركة الحياة للإنسان فإن هناك مضرات معنوية تترتب على الكذب وردت الإشارة إليها فى الروايات الشريفة ومن ذلك: أن الملائكة تبتعد عن الإنسان كما قرأنا ذلك سابقاً فى الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ مِنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنٍ مَا جَاءَ بِهِ» (١). والآخر إن الكاذب يحرم من صلاة الليل كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أَنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ فَيُحْرَمُ بِهَا صِيَةَ اللَّيْلِ، فَإِذَا حُرِمَ صِيَةَ اللَّيْلِ حُرِمَ بِهَا الرَّزْقُ» (٢). والثالث أن الكذب يؤدى إلى عدم قبول بعض العبادات، كما ورد فى الصوم فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «فَإِذَا صُمْتُمْ فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ عَنِ الْكِذْبِ وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ» (٣). وهذا الحديث يدل على أن مثل هذه الأعمال المنافية للأخلاق تقلل من قيمة الصوم. والآخر أن الكذب يتسبب فى قطع البركات الإلهية على الإنسان كما نقرأ ذلك فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إِذَا كَذَبَ الْوَلَاءُ حَبَسَ الْمَطْرُ» (٤). وقد وردت بعض الآثار السلبية للكذب فى الروايات والتي لها بعد معنوى مضافاً إلى البعد الاجتماعى والظاهرى، ومن ذلك ما إستفاد من الروايات المتعددة من أن الكذب يتسبب فى حرمان الإنسان من الرزق ويؤدى به إلى الوقوع فى هوة الفقر والمسكنة. الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٠١ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين قال: «إِعْتِيَادُ الْكِذْبِ يُورِثُ الْفَقْرَ» (١). وفى حديث آخر عن رسول الله أنه قال: «الْكَذْبُ يُنْقِصُ الرَّزْقَ» (٢). وهذا النقصان فى الرزق يمكن أن يكون له نتائج وخيمة فى دائرة الرزق المعنوى أو فى العلاقات الاجتماعيه، لأن الكذب يسلب اعتماد الناس وثقتهم من هذا الشخص الكاذب، وبذلك سوف تتحدّد فعاليته الاقتصادية ويتراجع نشاطه الاقتصادى وبالتالي يؤدى إلى نقصان رزقه المادى أيضاً.

### دوافع الكذب:

إن الكذب كما هو فى سائر الصفات الرذيلة له أسباب ودوافع مختلفة وأهمها: ١- ضعف الإيمان والعقيدة، لأنه لو كان الكاذب عالماً بأن الله تعالى قادر رحيم وعالم بأمره فإنه لا يجد فى نفسه حاجة إلى الكذب فى سبيل تحصيل المال أو نيل الجاه والمقام، ولا يرى أن توفيقه فى حركة الحياة مرتبط بالكذب ولا يخاف من الفقر ولا من تفرق الناس من حوله وزوال موقعيته الاجتماعيه وقدرته على الكسب والرزق بل يرى ذلك مرتبط بالله تعالى فلا يحتاج إلى الكذب فى نيل تحصيلها ولذلك ورد فى الرواية الشريفة عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «جَائِئُوا الْكِذْبَ فَإِنَّ الْكِذْبَ مُجَانِبُ الْإِيمَانِ» (٣). ٢- والآخر من دوافع الكذب هو ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من ضعف الشخصية والحقارة يضطرون إلى التستر على ضعفهم ودناءتهم من خلال

استخدام الكذب، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا يكذب الكاذب إلا من مهانه نفسه عليه» (٤). ٣- ومن دوافع الكذب أيضاً حالات الحسد والبخل والتكبر والغرور والعداوة بالنسبة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٢ إلى الآخرين حيث يدفعه ذلك إلى إتهامهم بما ليس فيهم أو التحدث عنهم من موقع الكذب، وما دامت هذه الحالات السلبية تعتلج في ذات الإنسان وباطنه فإنه سوف لا يجد خلاصاً من الكذب. ولهذا نرى أن المنافقين يتوسلون بحبل الكذب للتغطية على واقعهم السيء كما تقدمت الإشارة إليه سابقاً. ٤- ومما يورث الكذب لدى البعض هو الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والتلوث بأنواع الذنوب والانحراف عن خط الحق والفتنة بحيث يصل به الحال إلى أن يقول: إنني إذا لم أكذب فسوف لا أستطيع التعامل مع الآخرين ونيل الموفقية في حركة الحياة الاجتماعية من الكسب والتجارة وأمثال ذلك. ٥- الدوافع الاخرى لشيوع الكذب هو العلاقة الشديدة بالدنيا وحفظ المقامات الاجتماعية وحتى أنه قد يتوسل إلى ذلك بالكذب على الله ورسوله. ونقرأ في الخطبة ١٤٧ من نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنه سيأتي عليكم بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله».

### طرق علاج الكذب:

لابد لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية وقطع جذورها من واقع النفس من سلوك الطريق المستخدم لعلاج سائر الرذائل الأخلاقية الاخرى، أى التعرّف في البداية على جذورها ودوافعها، فما لم يستطع الإنسان من إقتلاع جذور هذه الرذيلة من نفسه فإن هذه الشجرة الخبيثة سوف تبقى وتشتد في المستقبل، فلو كان الدافع للكذب هو ضعف الإيمان والاعتقاد بالنسبة إلى التوحيد الأفعالي، فيجب عليه تقوية دعائم الإيمان في نفسه وباطنه وليعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء وأن مفاتيح الرزق والموفقية والعزة والكرامة بيده فقط، ولذلك يتسنى له جبران عناصر الضعف في دائرة الإيمان وبالتالي يصده ذلك عن الكذب، وإذا كان الدافع لذلك هو الحسد والبخل والتكبر والغرور وأمثال ذلك من الحالات الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٣ السلبية في دائرة الأخلاق، فيجب عليه السعي لعلاجها، وليعلم أنه ما لم يقطع عن نفسه جذور هذه الحالات السلبية ويداوى هذه الأمراض الأخلاقية فإنه لا يتسنى له أن يعيش الصدق والكرامة والشرف في حياته الفردية والاجتماعية. ومن جانب آخر يجب عليه التفكير في الآثار السيئة والأضرار الوخيمة للكذب والتي تسبب له الفضيحة في الدنيا والآخرة، ومن المعلوم أن كل شخص يتفكر ويتدبر جيداً فيما ذكرناه سابقاً من هذه الأضرار للكذب وخاصة ما ورد في الروايات الشريفة في هذا الباب فإن ذلك سيكون رادعاً قوياً له عن سلوك هذا الطريق المنحرف. إن لقادة المجتمع وكبار الأشخاص في الاسرة دوراً مهماً في دفع الناس والأفراد نحو سلوك طريق الصدق، لأنه لو رأى الناس أو أفراد الاسرة أن كبيرهم وقائدهم لا يتحرك في تعامله مع الآخرين إلا من موقع الصدق، فإنهم سوف يتحركون كذلك في تعاملهم وسلوكهم الاجتماعي، بخلاف ما لو رأوا أن الكبار يتعاملون مع الآخرين بالكذب والدجل والخداع، فإن أفراد المجتمع والاسرة سرعان ما يتلوثوا بهذه الصفة الرذيلة. كما نقرأ في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ضمن بيانه عدم تلقين الناس الكذب حيث يقول: «لا تلقنوا الناس فيكذبون فإن بنى يعقوب لم يعلموا إن الذئب يأكل الإنسان فلما لقنهم إني أخاف أن يأكله الذئب، قالوا أكله الذئب» (١). أجل، فإن ترك الأولى هذا قد صار ذريعة بيد أبناء يعقوب ليتحركوا من موقع الكذب في مواجهتهم للمشكلة. وأحد الطرق المؤثرة في علاج الكذب هو إيجاد قوة الشخصية لدى الأفراد لأنه كما سبقت الإشارة إليه أن أحد العوامل المهمة للكذب هو الشعور بالحقارة وضعف الشخصية، فالكاذب يريد جبران هذا النقص من خلال الكذب، فلو أنه كان يجد الثقة في نفسه ويعيش حالة قوة الشخصية ويرى أنه قادر على كسب المقامات العالية في المجتمع بما لديه من قابليات وملكات إيجابية فلا يجد في نفسه حاجة إلى اختلاق شخصية كاذبة عن نفسه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٤ والظهور إلى الآخرين بغير واقعه. وخاصة إذا التفت المرءون والمصلحون إلى هذه الحقيقة في دائرة تربية الأفراد على الصدق، وهي أن الصادق في كلامه سيكون في مرتبة المقربين والصدّيقين عند الله تعالى، يحشر مع الأنبياء والشهداء يوم القيامة، فبديهي أن ذلك سيكون مشجعاً وحافزاً على إقبال الناس نحو الصدق، ويقول

القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا» (١). والجدير بالذكر أن توغل حالة الكذب الذميمة في باطن الإنسان كما هو الحال في الصفات الذميمة الأخرى يبتدأ من صغائر الأمور وبالتدريج تجرّه إلى ما هو أخطر وأعظم كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «اتَّقُوا الْكِذْبَ فِي صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي كُلِّ جِدٍّ وَهَزَلٍ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَذَبَ فِي صَغِيرٍ اجْتَرَأَ عَلَى الْكَبِيرِ» (٢).

### إستثناءات الكذب:

وبالرغم من أن الكذب من أهم الذنوب وأخطرها بحال الإنسان على المستوى المادى والمعنوى، والفردى والاجتماعى، ولكن مع ذلك هناك موارد عديدة وردت في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء وعلماء الأخلاق على شكل إستثناء من قبح الكذب. وهذه الموارد عبارة عن: ١- الكذب لإصلاح ذات البين. ٢- الكذب لخداع العدو وفي ميادين القتال. ٣- الكذب في مقام التقيّة. ٤- لدفع الظالمين. ٥- الكذب في جميع الموارد التي يجد الإنسان نفسه وناموسه في خطر محقق ولا نجاة له إلا بالتوسل بالكذب. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٥ ففي جميع هذه الموارد يمكننا استخلاص قاعدة كلية، وهي أنه إذا كانت الأهداف الأهم في خطر ولا يجد الإنسان لدفع هذا الخطر إلا بواسطة الكذب فيجوز له ذلك، وبعبارة أخرى: إن جميع هذه الموارد مشمولة لقاعدة الأهم والمهم، وعلى سبيل المثال فلو ابتلى الإنسان بجماعته متعصبه وجاهله ومتوحشه وسألوه عن مذهبه، فلو أنه قال الحقيقة لهم فأنهم سوف يسفكون دمه فوراً، فالعقل والشرع هنا لا يبحان له أن يصدقهم في جوابه بل يجوز له الكذب حينئذٍ لإنقاذ نفسه من شرهم، أو في الموارد التي يكون هناك اختلاف شديد بين شخصين ووجد الإنسان لحل هذا الاختلاف والمشكلة العالقة بينهما طريقاً إلى ذلك بالاستعانة بالكذب (كأن يقول لأحدهما أن الشخص الفلانى يحييك ويدركك بالخير دائماً في المجالس) مما يثير في نفس الطرف الآخر أجواء المحبة والصفاء والصلح بينهما، وهكذا في أمثال هذه الأهداف المهمة والغايات الخيرة، لا أن الإنسان وبدافع من منافعه الشخصية والمصالح الجزئية يستخدم الكذب، فهذا الاستثناء لقبح الكذب تدخل في دائرة الضرورة ولا يصح أن تكون مسوغاً وذريعة بيد الأفراد لاستخدام أداة الكذب في كل مورد من الموارد الجزئية. وفي الحقيقة فإن اباحه الكذب في هذه الموارد الضرورية هي من قبيل حلية (أكل الميتة) في المواقع الضرورية حيث يجب التناول منها بمقدار الضرورة ولا يسلك الإنسان هذا الطريق إلا في مواقع الضرورة. والدليل على هذه الاستثناءات مضافاً إلى القاعدة العقلية المذكورة أعلاه (قاعدة الأهم والمهم) هو الروايات المتعددة المذكورة في المصادر الإسلامية عن المعصومين عليهم السلام: ١- ففي حديث معروف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا وَقَدْ أَحَلَّهُ لِمَنْ اضْطُرَّ إِلَيْهِ» (١). ٢- وقد ورد عن الإمام على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «إِحْلَفَ بِاللَّهِ كاذِباً وَنَجَّ أَحَاكَ مِنَ الْقَتْلِ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٦-٣ وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «كُلُّ الْكِذْبِ يَكْتُبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا» (١). ٤- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْكَذِبُ مَيْدُومٌ إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ دَفَعُ شَرَّ الظُّلْمَةِ وَإِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ» (٢). ٥- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «كُلُّ الْكِذْبِ مَكْتُوبٌ كَذِباً لَمْحَالَةً إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ أَوْ يَكُونُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ شَحْنَاءَ فَيُصْلِحُ بَيْنَهُمَا أَوْ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ بِرِضَتِهَا» (٣). والمراد من الجملة الأخيرة ليس هو أن الإنسان متى ما أراد الكذب على زوجته جاز له ذلك، بل ناطرة إلى موارد تكون الزوجة لها توقعات كثيرة وغير معقولة من زوجها أو أن إمكانات الزوج لا تستوعب كل هذه التوقعات ولذلك يتحرك الزوج في تعامله معها من موقع الكذب والوعد بتحقيق مطالبها ليسكت اعتراضها وليهدىء من ثورتها ويحتمل أن تنسى ذلك فيما بعد وتنتهى المنازعة فيما بينهما. ويصدق هذا المعنى أيضاً على توقعات الزوج غير المنطقية كما وردت الإشارة إلى ذلك في بعض الروايات أيضاً.

### طريق الفرار من الكذب (التوربة):

التورية (على وزن توصية) تقال للكلام الذي يثير في نفس المستمع معنى آخر غير ما يقصده القائل، أو بتعبير آخر: الكلام الذي يحتمل وجهين، ويتعلق به الأشخاص الذين يجدون في أنفسهم حرجاً من الكذب، فمن جهة لا يرتكبون ذنب الكذب، ومن جهة أخرى لا يخبرون السامع بسرهم. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٧ والأمثلة التالية توضح هذا المعنى بصورة كاملة: ١- إذا سأل الإنسان: هل ارتكبت المعصية الفلانية، فيقول في مقام الجواب: استغفر الله، (فالمستمع يفهم من هذه العبارة النفي في حين أن مراد المتكلم هو الاستغفار من ارتكابه لذلك العمل). ٢- وقد يسأل شخص من آخر: هل أن فلاناً قد استغابني وتكلم عني بسوء أمامك؟ فيجيب: وهل أن هذا ممكن ومعقول (فالمستمع يفهم من هذا الكلام النفي في حين أن مقصود المتكلم هو الاستفهام لا غير). ٣- إذا جاء شخص إلى باب دار شخص آخر وقال: هل أن فلاناً موجود في البيت؟ فيقول الآخر في مقام الجواب مشيراً إلى مكان معين: كلا ليس هنا (فالمستمع يتصور أنه غير موجود في البيت في حين أن مراد القائل أنه غير موجود في ذلك المكان بالخصوص). ٤- وقد سئل من أحد العلماء عن الخليفة الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من هو؟ ولم يكن ذلك العالم في حالة تسمح له بالجواب بصورة صحيحة وشفافة فقال في جوابه: (من بنته في بيته). فتصور المستمع أن المراد هو أبا بكر الذي كانت ابنته عائشة في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في حين أن مراد القائل هو أنه ابنته أي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة في بيته، أي بيت علي بن أبي طالب عليه السلام. ٥- ونقرأ في قصة محادثة سعيد بن جبير مع الحجاج عندما سأله الحجاج عدّة أسئلة كذريعه لقتله فكان ممّا سأله: كيف تجدني في نظرك؟ فقال: أنت عادل (والعادل في نظر العرب ترد في معنيين) أحدهما بمعنى العدالة والآخر بمعنى العادل عن الحق، أي الكافر أو الذي يرى عديلاً أو شريكاً لله تعالى كما ورد ذلك في القرآن الكريم: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (١). أي يجعلون له عديلاً وشريكاً. ومما تقدّم آنفاً يتضح أن التورية ليست من الكذب، لأن القائل ليس في نيته سوى الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٨ الصدق وإرادة الجانب الصادق من كلماته، رغم أن المستمع يتصور المعنى الآخر من ذلك الكلام، ومن الواضح أن اشتباه المستمع في فهم معنى كلام القائل لا ربط له بالقائل نفسه. وهنا يتضح أيضاً أنه في الموارد التي يجد الإنسان ضرورة للاستفادة من الكذب إذا يمكن من التورية وجب عليه استخدامها للتخلص من الوقوع في الكذب، وعلى هذا الأساس فإن الكذب لا يكون مباحاً في موقع الضرورة إلا فيما لو كانت أبواب التورية موصدة أيضاً، والاصطلاح العلمي أنه لا تكون لديه مندوحة. ومن هنا يتضح أيضاً خطأ ما ذهب إليه الغزالي من عدّه التورية من مصاديق الكذب، ولكنه قال بأن قبورها وفسادها أدق من مصاديق الكذب الأخرى، إلا أن يكون مراده من التورية أمر آخر بحيث تعدّ من مصاديق الكذب واقعاً. وعلى أيّة حال فإن قبح الكذب وفساده إلى درجة كبيرة بحيث أن الإنسان لا بد له من إجتنابه بالمقدار الممكن حتى لو تمكّن إجتنابه عن طريق التورية. ونلاحظ في كلمات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم والروايات الشريفة أنهم قد يتخلّصون من الكذب بالتورية في بعض الحالات من قبيل ما نراه من محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه من عبدة الأوثان عندما سألوه عن الشخص الذي ارتكب عملية تحطيم الأوثان والأصنام فقال في مقام الجواب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» (١). فرغم أن السامع لهذا الكلام يمكن أن يفهم منه أن إبراهيم عليه السلام نسب تحطيم الأصنام إلى كبيرهم أي الصنم الكبير ولكن جملة (إن كانوا ينطقون) جاءت بعنوان شرط للمراد من الكلام، أي أنهم لو كانوا ينطقون فإن هذا الفعل من فعل كبيرهم. وكذلك جملة «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» التي قالها عمال يوسف لأخوته، فمع ملاحظة الآيات السابقة قد ينعكس إلى الذهن أن هؤلاء الأخوة هم الذين سرقوا مكيال الملك في حين أن مرادهم هو سرقة الأخوة ليوسف من أبيهم في كنعان. وخلاصة الكلام أن التورية والتكلم بكلام يحتمل وجهين ليس من مصاديق الكذب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٩ اطلاقاً رغم أن السامع قد يفهم منه شيء آخر غير ما يقصده المتكلم وغير ما يتطابق مع الواقع، ويكون مراد المتكلم صحيحاً ومتطابقاً للواقع، وأما من يرى في معيار الصدق والكذب هو ظاهر الكلام لا المراد والمقصود القلبي للمتكلم فيمكن أن يعتبر التورية نوع من الكذب الخفيف في حين أنها ليست كذلك، فمعيار الصدق والكذب هو المراد الجدى للمتكلم الذي يتطابق مع محتوى ومضمون العبارة.



مثلاً قد يسأل شخص من آخر: هل أن هذا اللباس قد أهده لك الشخص الفلاني؟ في حين أن المخاطب قد لا يكون راغباً في نفى هذا المطلب بصراحة فيقول في جوابه من موقع التورية: أطال الله عمره، فيحسب السامع من هذا الكلام أن المتكلم قد أجاب بالإيجاب في حين أن المتكلم لم يكن يقصد ذلك بل دعا إلى ذلك الشخص فقط. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٠

## الوفاء بالعهد ونقض العهد

### تنويه:

رأينا سابقاً أن أهم رأسمال وأقوى دعامة في حياة المجتمع الانساني هو الاعتماد المتبادل بين الأفراد، فكل شيء يؤدي إلى تقوية هذا الإعتدال والثقة المتبادلة فإن ذلك من شأنه أن يحقق للجميع السعادة والتطور الحضاري والإنساني، وعلى العكس من ذلك فإن كل شيء يفرض على ارباك هذا العنصر المهم فإنه يؤدي إلى انحطاط المجتمع وسقوطه. ومن أهم الامور التي تعمل على تقوية دعائم الثقة العامة والخاصة بين الأفراد هو (الوفاء بالعهد والميثاق) الذي يعد من الفضائل الأخلاقية المهمة في حركة الإنسان التكاملية، وبالعكس ذلك (نقض العهد) الذي يعد من أسوأ الخصال والردائل الأخلاقية. إن لزوم الوفاء بالعهد يعد ركناً من أركان الفطرة الإنسانية السليمة، وبتعبير آخر إن هذا المفهوم هو من الأمور الفطرية غير القابلة للإنكار. والفطرة هي من الامور التي يدرکها كل إنسان ويقبلها كل شخص بدون الحاجة إلى دليل وبرهان، من قبيل حسن العدل وقبح الظلم وكذلك أهمية الوفاء بالعهد وقبح نقض العهد حيث تعتبر من أوضح الامور الفطرية لدى الناس، وكل إنسان عندما يراجع وجدانه يرى صحة هذه المفاهيم ويسلم بها من موقع القبول والإذعان الوجداني، ولهذا السبب فإن هذه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٢ المفاهيم يقبل بها كل قوم من الأقسام البشرية سواء كانوا على دين معين ومذهب سماوي أولم يكونوا كذلك، فإن الوفاء بالعهد مطلوب عند جميع الأمم والشعوب حتى أن الذي يتحرك على مستوى نقض العهد يسعى إلى ذريعة وحجة لتبرير هذا التصرف حتى لا يتهم بنقض العهد ولا يزول إعتباره وشخصيته بين الآخرين، لأنه يعلم أن الناس لا ترضى بنقض العهد ولا تحب المرتكب لهذا الفعل حيث لا تبقى قيمة وإعتبار لديهم لمن يتهم بنقض عهده ووعدده وسيفقد بذلك تأييد الناس وحبهم وتعاونهم معه. وحتى في الأقسام الجاهلية نرى أن الوفاء بالعهد والميثاق يعد من الوظائف والواجبات الحتمية للأفراد حيث نجد سعيهم الكبير في حفظ عهودهم والتعامل مع الآخرين من موقع الوفاء بالعهد والميثاق، ونقرأ في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية في هذا الباب تعبير قوية وشديدة تبين الوفاء بالعهد وتذم الذين ينقضون العهد والميثاق. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحي من آياته ووضوحاً أكثر في هذا الباب: ١- «وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» ١. «٢- «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» ٢. «٣- «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» ٣. «٤- «بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» ٥. «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ وَعَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» ٥. «٥- «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» ٦. «الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٣ ٧- «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» ١. «٨- «أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لِأَيُّمُونَ» ٢.»

### تفسير وإستنتاج:

«الآية الأولى» من الآيات محل البحث تتحدث عن الأساس والأصل لجميع أعمال الخير والصلاح وتذكر ستة صفات وعناوين لذلك، الأول منها هو الإيمان بالله تعالى ويوم القيامة والملائكة والأنبياء والكتب السماوية، ثم تأتي بعدها مسألة الأنفاق في سبيل الله وتشير أيضاً إلى إقامة الصلاة وأداء الزكاة، وتذكر في الصفة الخامسة من هذه الصفات (الوفاء بالعهد) وفي الصفة السادسة تأتي أهمية الصبر

والاستقامة في مقابل تحديات الواقع الصعبة والمشاكل التي تواجه الإنسان في حركة الحياة والصبر في ميدان القتال، وبالنسبة إلى الوفاء بالعهد تقول «وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا». وهذا التعبير يوضح، أن الوفاء بالعهد في دائرة المفاهيم الإسلامية والقرآنية مهم إلى درجة أنه وقع رديفاً للإيمان بالله والصلاة والزكاة. ومع ملاحظة أن المادة الأصلية لهذه الكلمة (وفى هي أن يصل الشيء إلى حد الكمال والتمام، فعندما يترجم الشخص عهده ووعده عملياً على أرض الواقع يقال له (وفى بعهده) أو (أوفى بعهده)، وعليه فإن الثلاثي المجرد أو المزيد لهذه المفردة يأتيان بمعنى واحد. وكلمة (عهد) تأتي في الأصل بمعنى (الحفظ) ولهذا فإنها تقال لكل شيء لا بد من حفظه والاهتمام به فيقال (عهد) لذلك. والجدير بالذكر أن القرآن الكريم حث على وجوب الوفاء بالعهد في هذه الآية بدون أي قيد وشرط، وعليه فإنه يشمل جميع أشكال العهد مع الله تعالى ومع الناس، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، أي مادام الشخص قد ارتبط بعهد وميثاق مع المسلمين، فيجب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٤ عليهم مراعاة عهده والوفاء به. «الآية الثانية» تستعرض صفات المؤمنين الحقيقيين وتفتح السورة آياتها بالقول «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» ثم تذكر سبع صفات من الصفات المهمة والأساسية للمؤمنين، وفي الصفه الخامسة والسادسة تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». وفي هذه الآية والتي وردت في القرآن الكريم في سورتين نجد أنها أشارت إلى الأمانة والعهد بصورة مقترنة، ولعل ذلك إشارة إلى أن الأمانات هي نوع من العهد والميثاق كما أن العهد هو نوع من الأمانة. والتعبير بكلمة (راعون) المأخوذة في الأصل من (رعى) يتضمن مفهوماً أعمق من مفهوم الوفاء بالعهد، لأن الرعاية والمراعاة تأتي بمعنى المراقبة الكاملة من موقع المحافظة بحيث لا يصل أي مكروه أو ضرر للشيء، فالإنسان الذي قبل الأمانة أو ارتبط مع غيره بعهد وميثاق يجب عليه مراعاته بحيث لا يصل أي ضرر لهذه الأمانة والعهد. وطبعاً فإن الأمانة لها مفهوم واسع جداً وكذلك العهد أيضاً حيث ستأتي الإشارة إلى ذلك لاحقاً. «الآية الثالثة» تتحدث عن مسألة لزوم الوفاء بالعهد بتعبير جديد وتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً». وقد ذكر المفسرون تفسيرات عديدة في جملة «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً». أحدها: ما ذكرنا آنفاً من أن الإنسان هو المسؤول، والعهد مسؤول عنه، يعني أنه يسأل الإنسان عن وفائه بعهده. والآخر: أن نفس العهد يكون مسؤولاً، كما ورد في عبارة المؤودة التي يسأل عنها «إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ» وكأنه إشارة إلى الموجودات العاقلة والحيه التي يسأل منها، هل نالت حقها ووفى الإنسان لها أم لا؟ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٥ وهذا هو نوع من المجاز الذي يستعمل للتأكيد. ولكن التفسير الأول أقرب لسياق الآية وأكثر إنسجاماً معها. وضمناً يجب الالتفات إلى أن سورة الاسراء وردت في بيان أهم الأحكام الإسلامية من الآية ٢٢ إلى ٣٩، من مسألة التوحيد إلى حق الوالدين إلى قتل النفس والزنا وأكل أموال اليتامى والوفاء بالعهد وحتى مسؤولية العين والاذن والقلب، وهذا يبين أن مسألة الوفاء بالعهد جاءت ضمن إطار أهم الأحكام الإسلامية. واللطف أن هذه الأحكام ختمت بقوله تعالى: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ». وفي «الآية الرابعة» بعد أن يذم القرآن الكريم طائفة من أهل الكتاب الذين لم يراعوا الأمانة في تعاملهم تقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ». وهنا نجد أن الوفاء بالعهد وقع رديفاً للتقوى التي هي أفضل زاد السالك إلى الله تعالى وسبب ورود الإنسان إلى الجنة والمعيار الأتم لشخصية الإنسان ومقامه عند الله تعالى. وهذا التعبير يدل على أن الوفاء بالعهد هو أحد الفروع المهمة للتقوى، وتعبير الآية هنا هو من قبيل ذكر العام بعد ذكر الخاص. «الآية الخامسة» من الآيات مورد البحث تتحدث عن ضرورة احترام العهود من قبل المسلمين تجاه المشركين وتأمرهم بالوفاء بعهودهم ما دام المشركون لم يتحركوا في تعاملهم مع المسلمين من موقع النقص لهذه العهود (رغم أن الصارف المقابل هم من الكفار المشركين)، فتقول الآية: (بعد إعلان البراءة من المشركين كافة) «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمَا إِيَّاهُمْ وَعَاهِدْتُمَا إِلَىٰ مِدْيَاتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ». ونعلم أن مراسم البراءة من المشركين وقعت في السنة التاسعة للهجرة وبعد فتح مكة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٦ واستقرار الإسلام في ربوع الحجاز والجزيرة العربية حيث أمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الإمام على عليه السلام بقراءة الآيات الأولى من سورة براءة لمراسم الحج أمام جميع الناس والإعلان للمشركين بأنه بقيت لهم فرصة أربعة أشهر فأما أن يتركوا الشرك ويدخلوا في الإسلام أو يمتنعوا من الدخول إلى المسجد الحرام، وبعد انقضاء الأشهر الأربعة عليهم

فيما لو لم يتركوا الشرك وعبادة الأوثان أن يستعدوا لمواجهة المسلمين عسكرياً. ولكن مع هذا الحال فإن بعض المشركين كانت تربطهم بالمسلمين رابطة العهد والميثاق فأمر الله تعالى أن يحفظوا لهم عهودهم إلى انتهاء مدتهم. وهنا يتبين من خلال إستثناء هذه الطائفة إلى جانب ما ورد من التعبير الشديد في بداية سورة التوبة، يتبين من ذلك الأهمية الكبيرة التي يوليها الإسلام للوفاء بالعهد، ويتبين أيضاً ضمن هذا الاستثناء أنه عندما يلغى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عهداً وميثاقه مع بعض الطوائف الأخرى فالسبب في ذلك أنهم كانوا قد بدأوا بنقض العهد أولاً، وإلّا فلا دليل على اختلاف تعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله معهم عن غيرهم. وفي ذلك اليوم كانت وظيفة الإمام على عليه السلام هي أن يعلن للناس في مراسم الحج أربع مواضع: ١- إلغاء العهود مع المشركين الذين سبق وأن نقضوا عهودهم مع المسلمين. ٢- منع المشركين من الاشتراك في مراسم الحج للسنة القادمة. ٣- منع ورود المشركين إلى بيت الله الحرام. ٤- منع الطواف في حالة التعزى والتي كانت سائدة في ذلك الزمان. وعلى أية حال ونظراً إلى أن هذه الواقعة كانت بعد فتح مكة وأن المسلمين كانوا قد سيطروا على تلك المنطقة سيطرة تامة ولا تستطيع أى قدرة أن تقف في مقابلهم إلا أنهم في نفس الوقت احترموا عهودهم مع طائفة من المشركين، وبذلك يتضح أن مسألة الوفاء بالعهد لا تقبل المساومة تحت أية ظروف «١». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٧ والملفت للنظر أن مدة العهد الباقية لهذه الطائفة (قبيلة بنى خزيمه) عشر سنوات منذ صلح الحديبية، وكان قد بقي لديهم من هذا الزمان وهو عام الفتح سبع سنين، حيث يجب على المسلمين تحمّل وجودهم إلى نهاية هذه المدة الطويلة، فمع أن موقف الإسلام الشديد تجاه مسألة الشرك والوثنية إلا أنه مع ذلك أوجب على المسلمين رعاية هذا الحق في هذه المدة الطويلة. «الآية السادسة» تخاطب جميع المسلمين وتأمروهم بالوفاء بعهد الله وتقول: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا». أما المراد من عهد الله تعالى في هذه الآية ما هو؟ فهناك اختلاف بين المفسرين، فمنهم من ذهب إلى أن معناه هو العهود التي يبرمها الناس مع الله تعالى، أو البيعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، في حين ذهب البعض الآخر إلى أن المراد هو جميع العهود التي يبرمها الإنسان مع الله تعالى أو مع الناس أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعليه يكون لها مفهوم عام وأن الله تعالى أمر بذلك، فهو نوع من عهد الله تعالى، أو يكون المراد العهود التي تبرم بين الأشخاص في ظل اسم الله تعالى كما يشبه الإيمان القسم الذي يورده الإنسان باسم الله مع الآخرين. وعلى كل حال فإن مفهوم الآية سواء كان عاماً أو خاصاً فإنه يدل على أهمية الوفاء بالعهد في دائرة المفهوم القرآني والإسلامي. واللطف أن القرآن الكريم بعد أن ذكر مسألة الوفاء بالعهد والقسم في هذه الآية فإنه يتابع ذلك بالقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» «١». ويستفاد من هذا التعبير أن عدم الالتزام باليمين والعهد من موقع الوفاء والانضباط هو نوع من حماقة والسفه، وكذلك الحال في الاستفادة من العهود لغرض الخيانة والخداع والفساد. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٨ ودليل ذلك واضح، لأنه لو تزلزلت أركان الوفاء بالعهد واليمين في المجتمع البشري فإن ذلك من شأنه أن يثير الفوضى وعدم الثقة بالآخرين، وفي الواقع فإن الناقضين للعهود يضررون جذورهم بأيديهم، ولهذا فلا يوجد عاقل يرتكب مثل هذه حماقة. ونظراً إلى أن بعض الأقوياء أو الفئات المتنفذة في المجتمع تبيح لنفسها أحياناً نقض العهد بذرائع واهية وتتحزّر من قيود القيم والتعهدات الفردية والاجتماعية لذلك يقول القرآن الكريم: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» وهو في الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنه إذا كانت فئة من الناس أقوى وأكثر عدداً من فئة أخرى فلا ينبغي ذلك أن يكون مسوغاً لنقض العهد من قبلهم، لأن ذلك سوف يتسبب فيما بعد بالحاق الضرر لهم، فالآخرون عندما تسنح لهم الفرصة ويكونون أقوياء في المستقبل سوف يعاملوهم بنفس المعاملة. وهذه الآية لا تقرّر ضرورة الوفاء بالعهد في الإطار الفردي فحسب، بل تتسع لتشمل البنود والمواثيق الجماعية والعالمية أيضاً كما تشير إلى ذلك هذه العبارة من الآية الشريفة: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ». وفي «الآية السابعة» يشير القرآن الكريم إلى سيرة الأقسام السالفة وعاقبتهم المؤلمة ويذكر بعض نقاط ضعفهم وانحرافهم، ومن ذلك يشير إلى أمرين مهمين في دائرة السلوكيات السلبية الذميمة، يقول: «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ». وهذا العهد هو العهد العام الذي أخذه الله على الامم السابقة ولكنهم نقضوه ولم يفوا به، ولكن ما هو ذلك

العهد العام؟ هناك اختلاف وكلام بين المفسرين في هذا المجال، فذهب البعض إلى أن المراد منه العهد والميثاق الفطري الذي قرره الله تعالى في واقع الفطرة لجميع الناس أن يتحرّكوا في خط التوحيد والتقوى والاستقامة، مضافاً إلى أن النعم والمواهب الإلهية المعطاة للإنسان الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢١٩ من العقل والعين والاذن وغير ذلك، فإن مفهومها أن الإنسان يستخدمها في طريق الخير والصلاح ويفتح أبواب عقله وفكره على الحقائق والامور الواقعية ويدعن لها من موقع الطاعة والإيمان ولا يستسلم أمام الأوهام والخرافات ولا يتحرّك بوحى الأهواء والشهوات. وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى العهد والميثاق الذي أخذه الأنبياء عليهم السلام على الناس في بداية الدعوة ولكن الكثير من الناس الذين يقبلون بهذه الدعوة السماوية في البداية، فإنهم ينقضونها فيما بعد ويتحرّكون في خط الانحراف والباطل. ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع العهود والمواثيق المذكورة آنفاً سواء الفطرية والتشريعية. وعلى أية حال فإن الآية الشريفة محل البحث شاهدة على هذه الحقيقة، وهي أن مسألة نقض العهد وعدم الالتزام بالمواثيق هي أحد العوامل المؤثرة في شقاء الأمم وانحطاطهم وسلوكها في خط الانحراف والضياع كما نجد هذا الحال في الامم الدنيوية المعاصرة التي تلتزم بالعهود والمواثيق مادامت ضعيفة ولكن إذا وجدت في نفسها قوة وقدرة على الطرف الآخر فإنها لا تعترف بأى عهد وميثاق، بل تكون الرابطة بينهما هي رابطة القوة، والقانون هو قانون الغاب. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث بعد أن تتحدث عن بعض جرائم اليهود وأزلامهم تقول: «أَوْ كَلَّمَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبِيَّهُمْ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»، ونقض العهد هذا من جانبهم يدل على كفرهم وعدم إيمانهم. فمن جهة نرى أنهم قد أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا بالنبى الموعود الذى وردت البشارة به فى التوراة، ولكنهم ليس لم يؤمنوا به فحسب بل أنهم نقضوا العهد مع هذا النبى بعد هجرته إلى المدينة وانضموا إلى صفوف أعدائه وخاصة فى حرب الأحزاب حيث إتحد اليهود مع المشركين ضد رسول الله والمسلمين فى المدينة وأجهروا بعداوتهم واستعدوا الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٠ للمشاركة فى قتال المسلمين. وهذا هو خلق اليهود القديم حيث ينقضون العهود والمواثيق دائماً؛ وينسون جميع المقررات والعهود فيما لو تعرضت مصالحهم إلى الخطر فى أى زمان ومكان. وفى هذا العصر أيضاً نجد صدق قول القرآن الكريم فى هذا الوصف لليهود والصهانية وأنهم كلما تعرضت منافعهم إلى الخطر فإنهم يسحقون جميع العهود والمواثيق التى أمضوها مع مخالفيهم وحتى إنهم لا يلتزمون بالمعاهدات الدولية فى دائرة الروابط بين الشعوب والدول التى اشتركت فى تدوينها وإمضاؤها جميع الدول، فنجدهم يتمسكون بذرائع واهية وتبريرات سخيفة ليتحرّكوا فى تعاملهم من موقع نقض العهود والمواثيق، وهذه المسألة واضحة فى عصرنا الحاضر إلى درجة أن بعض المفسرين ذكر فى تفسير الآية أعلاه أن هذه الآية معجزة قرآنية حيث أخبرت عن المستقبل البعيد وكأنا نرى بأم أعيننا نقض العهود والمواثيق لنبى إسرائيل حاضراً، كما كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله. لقد كان لهؤلاء عهود ومواثيق كثيرة مع نبيهم موسى والأنبياء الذين جاءوا من بعده وكذلك مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكنهم لم يفوا بواحدة من تلك العهود والمواثيق. والتعبير بكلمة (فريق) فى بداية الآية، وكذلك التعبير (أكثرهم) فى ذيل الآية يشير إلى أن المراد بالفريق هنا هو أكثر هذه الطائفة من الناس، وكذلك يشير إلى أن العلاقة بين نقض العهد وعدم الإيمان هى علاقة وثيقة. إن سياق الآيات الشريفة المذكورة آنفاً يدل بصراحة على أن الوفاء بالعهد والميثاق له منزلة رفيعة ومكانة سامية من بين المفاهيم الإسلامية والتعاليم القرآنية، فهو أحد علائم الإيمان ويقع فى مرتبة التقوى والأمانة، وعلى درجة من الأهمية بحيث أن المسلمين وغير المسلمين سيان فى ذلك، أى أن المسلم أو جماعة المسلمين إذا إرتبطوا بعهد وميثاق مع آخرين فيجب عليهم الألتزام بذلك العهد والميثاق سواء كان الطرف الآخر مسلماً أو كافراً مادام ذلك الطرف ملتزماً بذلك العهد، وأيضاً تدل هذه الآيات على أن أحد أهم العوامل الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٢١ والأسباب فى شقاء الإنسان وإنحطاطه هو نقض العهد وعدم الوفاء به.

**الوفاء بالعهد فى الروايات الإسلامية:**

وقد وردت في النصوص الدينية تعبيرات مهمية ورائعة جداً في هذا الباب يمكنها أن تكون درساً لنا في تبين معالم هذه الصفة الأخلاقية الكريمة. وهنا نختار بعض النماذج من هذه الأحاديث لنضعها بين يدي القارئ الكريم: ١- ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله في جملة مختصرة: «لَا دِينَ لِمَنْ لَاعَهَدَ لَهُ» (١). وهذا التعبير يشير إلى أن جميع معالم الدين وأركانه يتلخص بالوفاء بالعهد بالنسبة إلى الخالق والخلق وعلى الأقل أنه أحد الأركان المهمة للدين، ولذلك ورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أصل الدين أداء الأمانة والوفاء بالعهد» (٢). ٢- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «ما أيقن بالله من لم يرع عهده وذمته» (٣). لأن الناقض للعهد يرى منافعه ومصالحه في دائرة عصيان الله تعالى ومخالفته، وهذا إنما يدل على عدم توحيده واهتزاز عقيدته في دائرة التوحيد الأفعالي. ٣- ونقرأ في عهد الإمام على عليه السلام المعروف لمالك الأشتر رضى الله عنه حيث أكد الإمام على عليه السلام على مسألة الوفاء بالعهد في مقابل أى إنسان وأى طائفة من البشر باعتباره من أهم المسائل على مستوى الحكومة والتعامل مع الناس حيث قال: «وإن عقدت بينك وبين عدوك أو أليسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهد وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٢ استوبلوا من عواقب الغدر» (١). ٤- ونقرأ في حديث آخر قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقربكم عدداً منى في الموقف أصدقكم للحديث وأداكم للأمانة وأوفاكم وأحسنكم خلقاً وأقربكم من الناس» (٢). ٥- ونقرأ في حديث آخر حول أهمية الوفاء بالعهد والعواقب الوخيمة لنقض العهد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أيها الناس إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوفى منه وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان أتخذ أكثر أهل الغدر كيساً، ونسبتهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه» (٣). فهنا نجد أن الإمام عليه السلام يشكو من تغير الحال في عصره وزمانه وكيف أن الناس يرون في المنكر والحيلة ونقض العهود من كمال العقل والتدبير ويعتبرون التقوى والصدق والوفاء بالعهد نوع من الضعف وكما يقول الشاعر: غاض الوفاء وفاض الغدر واتسعت مسافة الخلف بين القول والعمل ونجد في عصرنا الحاضر أن الوفاء بالعهد قليل جداً، بل نادر حيث يسود نقض العهود في ما يتعلق بالروابط بين الأفراد والمجتمعات البشرية وأن الفاصلة بين القول والعمل كبيرة جداً. ٦- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين» (٤). وجاء نفس هذا المضمون في رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٣ وهذا الحديث يدل بوضوح على أن قانون الوفاء بالعهد وأداء الأمانة والإحسان إلى الوالدين لا يقبل الاستثناء أبداً. ٧- وجاء في حديث آخر عن الإمام عليه السلام يشبه العهد بالطوق المحيط برقبته الإنسان ويقول: «إن العهود فلا تد في الأعناق إلى يوم القيامة فمن وصّلها وصّله الله، ومن نقضها خذله الله» (١). ٨- وجاء في حديث آخر أن شخصاً سأل الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «أخبرني بجميع شرايع الدين» قال الإمام في جوابه: «قول الحق والحكم بالعدل والوفاء بالعهد» (٢). ٩- وورد في حديث مختصر وعميق المحتوى عن أمير المؤمنين أنه قال: «أشرف الخلائق الوفاء» (٣). ١٠- ونختم هذا البحث بحديث مهم آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله (و رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب) حيث قال: «إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم» (٤). وهنا نرى حقائق مهمة فيما ورد من الروايات الشريفة أعلاه عن أهمية الوفاء بالعهد ومعطياته الكثيرة وآثاره العميقة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية بحيث أن الوفاء بالعهد يعد (أساس الدين) و (علامة اليقين) و (سبب القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة) و (الدرع الحصينة مقابل الحوادث الاجتماعية)، مضافاً إلى الروايات الإسلامية التي تصرح بأن الوفاء بالعهد هو قانون إلهي شامل للمسلم والكافر، وأن الوفاء بالعهد (علامة الفلاح والنصر والعزة) وأن نقض العهد سبب في (الحرمان من الألفاظ الإلهية).

## ١- المعطيات الفردية والاجتماعية للوفاء بالعهد

رأينا فيما تقدم أن جميع أشكال التطور العلمي والثقافي والاقتصادي الذي ناله الإنسان إنما هو وليد الحياة الاجتماعية للبشر، حيث تلتقى تجارب الأفراد وتنظم أفكارهم بعضها إلى بعض وتتلاقح عقولهم وبذلك تتولد المنتجات الصناعية المتنوعة وأشكال التمدن والحضارة البشرية في حركة الامم الحضارية. فلو أن أفراد البشر عاشوا متفرقين كل على إنفراد فعلى فرض أن يكسبوا تجارب في حركة حياتهم الفردية، إلا أنهم سوف يذهبون بها معهم إلى القبر، فلا حركة ولا علامة على وجود تحوّل حضارى وتطور علمى فى البشرية، ولهذا السبب بالذات فإن الإسلام أعطى أهميّة فائقة لتحكيم وتقوية دعائم الحياة الاجتماعية بين الأفراد وتعميق أواصر العلاقات بينهم، ومن المعلوم أن كل شيء يؤدي إلى تقوية هذه العلاقات الاجتماعية، فإنه مطلوب وممدوح فى نظر الإسلام، وكلّ شيء يتسبب فى أضعاف هذه العلاقات فإنه منفور ومذموم. وبديهي أن أول عنصر يتسبب فى تقوية هذه الروابط والعلاقات بين أفراد البشر وبالتالي يترتب عليه زيادة التعاون والتكاتف فى المجتمع هو مسألة الوفاء بالعهود والمواثيق، فلو أن هذه المسألة قد تركت ليوم واحد بين الأفراد وبين الشعوب العالميّة فإنّ مفاصل الحضارة البشرية سوف تتعرض للأهتزاز والارتباك وتتوقف بذلك مسيرة الحضارة الإنسانية والتكامل البشرى، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تَعْتَمِدَ عَلَى مَوَدَّة مَنْ لَا يَفِي بِعَهْدِهِ» (١). وأساساً يمكن القول بأنّ ميزان موفقيّة الأشخاص فى حياتهم الدنيوية يرتبط بمدى التزامهم بعهودهم، فما كان منهم أكثر وفاءً بعهدة فهو أعزّ وأشرف فى نظر الناس، وفى ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث آخر: «الْوَفَاءُ حِصْنُ السُّودِدِ» (٢). وفى النقطة المقابلة نجد أن نقض العهد إذا ساد فى أجواء المجتمع البشرى، فإنه يفضى الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٥ إلى سلب الثقة بين أفراد المجتمع ويتلاشى عنصر الإتحاد والتكاتف فيما بينهم وبالتالي فإنهم لا يستطيعون التصدى للعدو، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ» (١). إنّ الوفاء بالعهد يتسبب فى أن يعتمد الناس على هذا الشخص وبذلك يضعوا عنده رؤوس أموالهم من موقع الثقة به للإتجار بها فينتفع هو وكذلك الآخرون من نشاطه الاقتصادى، فينال بذلك الرفاه والسعة فى معيشته، ولهذا نجد أن جميع الدول فى العالم تسعى إلى تحقيق هذا المعنى أى الالتزام بالعهود والمواثيق من أجل ترشيد وضعهم الاقتصادى والاجتماعى وإلّا يكون نصيبهم الانزواء والعزلة والتلف عن الحركة الصناعية والتجارية فى العالم، وحتى بالنسبة إلى الدول التى عاشت حالة الثورة على النظام السابق، فإنّ قادة الثورة عندما يستلمون زمام الامور يعلنون التزامهم بجميع العهود والمواثيق التى كانت من النظام السابق حتّى لو كانت تلك العهود على خلاف ذوقهم ومسيرتهم، لأنّه ليس لهم طريق سوى كسب الثقة العالمية من خلال هذا الالتزام الإنسانى والأخلاقى، وهذه المسألة تصدق أيضاً على الأفراد والأشخاص، ومضافاً إلى ذلك فإنّ أصل العدالة الذى هو من بديهيات الأصول الأخلاقية والاجتماعية لا يتحقق بدون الوفاء بالعهد فى دائرة المجتمعات البشرية، وبذلك فإنّ ناقضى العهد يعدون من زمرة الظالمين وكل إنسان يتعامل معهم من موقع الذم والتحقير واللوم وذلك بدافع من الفطرة الإلهية فى وجوده، وهذا يدل على أن لزوم الوفاء بالعهد هو أمر فطرى.

## ٢- دوافع الوفاء بالعهد ونقضه

بما أن معرفة دوافع الصفات الأخلاقية الإيجابية والسلبية له دور مهم فى تحصيل الفضائل الأخلاقية، وعلاج الرذائل، فمن الجدير بنا فى هذا البحث أن نتبع الدوافع للوفاء بالعهد والدوافع على نقضه. الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٦ لا- شك أن الإيمان الحقيقى والإعتقاد بالتوحيد الأفعالى فى واقع الإنسان وقلبه يعد أحد الأسباب المهمة للوفاء بالعهد والالتزام به، لأنّ من ينقض العهد فإنه يرتكب هذه الخطيئة من موقع الجهل بقدره الله ورازقته وبدافع من منفعتة العاجلة فينسى ما وعد به الله تعالى على الوفاء بالعهد. ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ دَلَّيْلِ الْإِيمَانِ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ» (١). وفى حديث آخر عنه أيضاً

يقول: «ما ائقن بالله من لم يوع عهوده ودمته» (٢). مضافاً إلى ذلك فإن شخصية الإنسان الذاتية تستدعى الوفاء والالتزام بالعهد أيضاً، ولذلك فإن الأشخاص الذين يتمتعون بقوة الشخصية لا يسيحون لأنفسهم نقض العهد مع أى شخص كان اطلاقاً ويرون أن نقض العهد علامة الضعف والحقارة وفقدان الشخصية، ولهذا نقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يشير إلى أن الوفاء بالعهد هو أحد علائم الصالحين والپاهرين من الناس حيث يقول: «يُحسِنُ الوفاءِ يُعرَفُ الأبرارُ» (٣). ومن الدوافع النفسية على إرتكاب نقض العهد هى الجهل والغفلة وعدم الاطلاع على العواقب المشؤومة لنقض العهد فى حياة الناس الفردية والاجتماعية، كما هو حال الشخص الذى يتناول طعاماً لذيذاً فى الظاهر ولكنه مسموم فى الحقيقة، فيتناوله بشوق ورغبة بدون أن يعلم عاقبته المؤلمة. والأشخاص الذين يتمتعون بعقل أكبر وعلم أوفر ويرون المعطيات الحسنة للوفاء بالعهد والأضرار المترتبة على نقض العهد فأنهم لا يتركون هذه الفضيلة الأخلاقية اطلاقاً ولا يذلون أنفسهم بأرتكاب تلك الصفة الرذيلة وهى نقض العهد أبداً كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الوفاء حلية العقل وعنوان النبيل» (٤).

### علاج نقض العهد:

رأينا فيما تقدم (من بحث الدوافع) أنه بالإمكان معرفة الطرق لتحصيل فضيلة الوفاء بالعهد وكذلك يمكن معرفة طرق الوقاية من ضدها وعلاج مرض نقض العهد. إن الإنسان الناقض للعهد إذا أراد واقعاً إصلاح هذا الخلل فى نفسه وشخصيته فيجب عليه قبل أى شىء العمل على تقوية دعائم الإيمان فى قلبه، لأننا نعلم أن نقض العهد هو من إفرازات ضعف الإيمان أو فقدانه كما تقدم، فلو أن معرفة الإنسان بالله تعالى وإيمانه وصل إلى درجة بحيث يرى أن جميع الامور بيد الله تعالى فإنه لا يتحرك اطلاقاً بصدد تحصيل المال والمقام والجاه من خلال التوسل بهذه الرذيلة الأخلاقية. وكذلك إذا فكر فى النتائج المشؤومة على هذا الفعل القبيح فرغم أنه يترتب عليه بعض الربح والمنفعة على المدى القصير، ولكنه وعلى المدى الطويل يتسبب فى سقوط شخصيته ومكانته بين الأصدقاء والأقرباء وأخيراً يتسبب فى فضيخته فى المجتمع ويخسر بذلك أهم رأس ماله أى اعتماد الناس وثقتهم به، وكذلك يفتضح أمام الله تعالى وأمام خلق الله، وقد رأينا نماذج عينيه فى حياتنا المعاصرة وفى طول تاريخ الحياة البشرية لأمثال هذه الموارد، أجل كلما تفكر الإنسان وتدبر فى هذه الامور فإنه سيزداد قوة وعزماً على ترك هذه الرذيلة حتماً، وهذا هو ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام على أنه قال: «وَالْخُلْفُ يُوجِبُ الْمَمْتَّ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ» (١). ولهذا السبب نجد أن الكثير من المجتمعات البشرية التى تعيش الجهل بالدين والابتعاد عن الله تعالى فإنها تسعى للتعامل فيما بينها من موقع الإلتزام بالعهود والمقررات والمواثيق، وكذلك ما نراه فى الشركات الأقتصادية العالمية والمنظمات الدولية فإنها ومن أجل جذب الزبائن وكسب حسن السمعة وبالتالي زيادة الأرباح والمكاسب يهتمون بمسألة الوفاء بالعهد، ويترتب على ذلك أيضاً النتائج الإيجابية المثمرة.

### أقسام العهد:

هناك أنواع وأقسام للعهد حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: ١- العهد مع الله. ٢- العهد مع الناس. ٣- العهد مع النفس. أما العهد مع الله تعالى فالكثير من الفقهاء ذكروا فى كتبهم الفقهية بحث العهد إلى جانب بحث النذر، وذكروا أنه لو أراد الشخص أن يعاهد الله على أمر من الامور فعليه إجراء صيغة العهد وهى أن يقول مثلاً: «عاهدتُ الله أنه متى شفانى الله أصوم ثلاثة أيام أو أتصدق بكذا وكذا». وحينئذ يجب عليه الوفاء بعهده هذا ولو إرتكب ما ينقض هذا العهد عليه دفع كفارة، وكفارته على المشهور هى كفارة إفطار يوم من شهر رمضان المبارك. وعلى هذا فإن العهد مع الله تعالى ليس لازماً من الناحية الأخلاقية فقط بل من الناحية الفقهية أيضاً ونقضه يستوجب الكفارة، وحتى إذا لم يقرأ المكلف صيغة العهد هذه بل نوى فى قلبه ذلك فمن الأفضل له أن يوفى بعهده مع الله تعالى. القرآن الكريم يقول فى ذم طائفة من المؤمنين الضعيفى الإيمان أو من المنافقين الذين لم يشتركو فى حرب الأحزاب: «وَلَقَدْ

كأنوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤَلِّونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا» (١). يقول في مكان آخر: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ». وبعض المفسرين ذكروا في تفسير هذه الآية أن العهد هنا يعنى البيعة مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وذهب بعض آخر إلى أنه يعنى الجهاد في سبيل الله، وذهب آخرون إلى أن معناه هو القسم بالله تعالى، وبعض آخر ذهب إلى أنه يعنى كل عمل واجب بحكم العقل أو النقل (٢). الإفلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٢٩. وأما العهد مع الناس فيشمل كل أشكال العقود والمواثيق بين أفراد البشر، وفيما لو تأطرت بقوالب شرعية وعقلانية فالوفاء بها واجب، ولكن بعض أشكال العهد الذى يقع من جانب واحد كأن يتعاهد الإنسان أن يبذل المعونة لشخص آخر فمثل هذه العهود تسمى (عهود ابتدائية) وكذلك أشكال الوعد الذى يقوم من جانب واحد، فالوفاء بهذا العهد أو الوعد غير واجب من الناحية الفقهية بل مستحب مؤكد، ولكن فى المنظور الأخلاقى فالالتزام بها واجب ولازم وإلا فيحرم الإنسان من نيل الفضائل الإخلاقية والمقامات العالية الإنسانية. وقد ورد فى بعض الروايات أن الإنسان المؤمن إذا وعد غيره بشيء فإنه بمنزلة النذر رغم عدم وجوب الكفارة عند عدم الوفاء به، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عِدَّةُ الْمُؤْمِنِ أَخَاهُ نَذْرٌ لَا كَفَّارَةَ لَهُ فَمَنْ أَخْلَفَ فَيُخْلِفِ اللَّهَ يَدَّهَ وَلَمَقَّتْهُ تَعَرَّضَ وَقَوْلُهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» (١). وفى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُفِ إِذَا وَعَدَ» (٢). أما عهد الإنسان مع نفسه فهو أن يتعاهد الإنسان بأن يلتزم خط تهذيب النفس وإصلاحها فى طريق التكامل الأخلاقى والمعنوى والتحلّى بالصفات الحسنة والأعمال الصالحة، وهذا العهد له دور مؤثر وبناء فى سلوك خط التهذيب النفسى، وقد ذكره العرفاء الإسلاميون بأنه أول مراتب السير والسلوك وذكره تحت عنوان المشاركة، وهو أن الإنسان يتعاهد مع نفسه كل صباح بأن يسير فى خط الطاعة والإيمان وإجتنب الذنوب والإبتعاد عن الموبقات والآثام، ثم يتحرك فى سلوكه اليومى من موقع المراقبة الدقيقة لأعماله وسلوكياته ليطمئن على وفائه بذلك الشرط والعهد الذى أخذه على نفسه صباح اليوم، ثم تصل النبوة إلى المحاسبة فى آخر اليوم وقبل النوم وهل أنه قد ارتكب ما يخالف الأخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٠ ذلك الشرط الذى إشرطه على نفسه أم لا؟ ولا شك أن الإنسان القوى الشخصية ومن يتمتع بوجدان يقظ يهتم كثيراً بمثل هذه العهود والشروط مع نفسه وغير مستعد لنقضها بسهولة. وعليه يمكن القول أن الالتزام بالعهود التى يقطعها الإنسان مع نفسه يعدّ أحد طرق تهذيب النفس ونيل الفضائل الأخلاقية فى حركة التكامل المعنوى للإنسان.

### إلتزام المسلمين بالعهود والمواثيق:

إنّ التقدم المذهل للمسلمين فى العصور الأولى من تاريخ الإسلام كانت ولا زالت مثار تعجب المؤرخين فى الشرق والغرب، ولكنهم إذا تفكروا فى أسباب وعوامل هذا التقدم السريع لأدركوا بسرعته سرّه. ومن البديهي أن أحد علل التقدم السريع هو التزام جيش الإسلام بالمواثيق والعهود وهذا هو ما أكد عليه القرآن الكريم ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله مراراً، وهذه المسألة على درجة من الأهمية بحيث كان الجيش الإسلامى يضحى من أجلها بالكثير من الانتصارات السريعة على الكفار. أن القانون المهم (الأمان) الذى يعد أحد التعاليم الإسلامية يؤكد هذا المعنى أيضاً وأن كل جندي من جنود الإسلام وفى أى رتبة كان يمكنه أن يعطى الأمان لبعض رجال العدو بشكل مؤقت ويجب على جميع المسلمين فى الجيش الإسلامى إحترام هذا الأمان وكأنه عهد مقطوع ولازم الوفاء. وهناك نماذج كثيرة ذكرها المؤرخون فى تاريخ الإسلام تحكى هذا المعنى ومنها: ١- ما ذكره ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) عن فتح مدينة (سهرياج) (١) من القصّة الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٣١ العجيبة حيث بعث الخليفة فى ذلك الزمان الجيش إلى هذه المدينة لفتحها. يقول فضل بن زيد الرقاشى: حاصرنا سهرياج فى أيام عبد الله بن عامر وقد سار إلى فارس افتتحها، وكنا ضمنا أن نفتحها فى يومنا وقاتلنا أهلها ذات يوم فرجعنا إلى معسكرنا وتخلف عبد مملوك منا فراطنوه، فكتب لهم أماناً ورمى به فى سهم فرحنا إلى القتال وقد خرجوا من حصنهم وقالوا: هذا أمانكم فكتبنا بذلك إلى عمر، فكتب إلينا: إن العبد المسلم من المسلمين ذمته



كذمتكم، فلينفذ أمانه، فأنفذناه». ومصدر هذه القصة هو ما ورد من الحديث النبوي المعروف في حجة الوداع حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين كافة: «الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَائُهُمْ وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ يَشْعَى بِدِمَتِهِمْ أَدْذَانُهُمْ» (٢). ٢- وورد في التواريخ الإسلامية أن المسلمين في عصر الخليفة الثاني هزموا الساسانيين وقبضوا على (هرمزان) قائد الجيوش الفارسية وجاءوا به إلى عمر بن الخطاب، فقال له الخليفة: لقد نقضت العهود معنا دائماً فلماذا ارتكبت هذا العمل؟ فقال الهرمزان: أخاف أن تقتلني قبل أن أقول لك سبب ذلك، فقال له الخليفة: لا تخف. وفي هذه الأثناء طلب الهرمزان الماء فجيء له بإناء فيه ماء فقال الهرمزان: لو أعلم بأبني أموت من العطش فأبني لا أشرب من هذا الإناء أبداً. فقال لهم عمر: إذهبوا وأتوه بماء في إناء يقبل أن يشرب منه، فجاؤوا له بقدر فيه ماء وناولوه بيده، فنظر إلى ما حوله ولم يشرب وقال: أنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء. فقال له عمر: لا تخف فأنا أعطيتك الإيمان من القتل إلى أن تنتهي من شرب الماء. فما كان من الهرمزان إلا أن ألقى بالقدح من يده فانسكب الماء على الأرض، فقال عمر وهو يتصور أن القدح سقط من يده بدون اختيار: ناولوه قدحاً آخر ليشرب. فقال الهرمزان: أنا لا أريد الماء بل كان مقصودي أن أحصل منك على الإيمان، فقال له الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٢ الخليفة: ولكني سأقتلك لا محالة. فقال الهرمزان في جوابه: إنك قد أعطيتني الإيمان من القتل. فقال الخليفة: أنت تكذب فأنا لم أعطك الإيمان. وكان (أنس) حاضراً فقال: صدق الهرمزان لقد أعطيته الإيمان إلى أن ينتهي من شرب الماء. فتفكر الخليفة في ذلك وقال للهرمزان: لقد خدعتني ولكني سوف أقبل خدعتك هذه لكي تعتق الإسلام، فلما رأى الهرمزان هذه الحالة (وهي إلتزام المسلمين بعهودهم ومواثيقهم) شع نور الإيمان في قلبه وأسلم «١». والملفت للنظر أنه يستفاد من الروايات الإسلامية أنه حتى شبهة العهود والأمان يجب الوفاء بها، ففي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ أَنَّ قَوْمًا حَاصِرُوا مَدِينَةَ فَسَأَلُوهُمْ الْأَمَانَ فَقَالُوا: لَا فَطَنُوا أَنَّهُمْ قَالُوا: نَعَمْ فَزَلُّوا إِلَيْهِمْ كَانُوا آمِنِينَ» (٢). وبهذا ترى أنه ليس فقط العهد والأمان يجب الوفاء به بل احتمال وجود العهد الوفاء به أحياناً. ١٠

## البحث المنطقي والجدال والمراء

### تنويه:

إن أفضل طريق لتبيين الحقائق والوصول إلى الأفكار الصحيحة والنتائج السليمة هو البحث المنطقي الخالي من كل أشكال التعصب والعدا، لأن الأفكار عندما تتلاقح وتضم بعضها إلى البعض الآخر وتتصل القابليات والعقول فسيسطع نور المعرفة ليضيء كل شيء. ولكن إذا كانت أجواء البحث يسودها التعصب واللجاجه والأنانية والخشونة، وبكلمة واحدة المراء، فإن ذلك من شأنه أن يغطي على الحقائق الواضحة ويسدل ستار الظلمة على الواقعات، فمهما استمر البحث والجدال فإن الحجب تزداد على وجه الواقع. ولهذا السبب فإن الإسلام وقف من الجدال والمراء، أو بتعبير آخر: التعصب بالبحث وإثبات تفوق الأنا على الطرف المقابل وليس ذلك لغرض تبين الحق وكشف الحقيقة، موقفاً سلبياً وعد ذلك من الذنوب الكبيرة، لأن المراء بإمكانه أن يجعل سداً كبيراً في طريق فهم الحقيقة والوصول إلى الواقعات. وبالطبع سوف نشير لاحقاً إلى الفرق بين الجدال والمراء باذن الله تعالى، ولكن الهدف هنا الإشارة السريعة إلى موقف الإسلام السلبي من هذا الخلق الذميم أي الجدال والمراء، وموقفه الإيجابي وثنائه على الأشخاص الذين يتحركون في بحثهم العلمي ومناقشاتهم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٤ الفكرية من موقع البحث المنطقي لغرض الكشف عن الحقيقة وتوخي العدالة. وبهذه الإشارة السريعة نعود إلى القرآن الكريم لنرى موقفه من هاتين الخصلتين: ١- «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسِيقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» (١). ٢- «وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» (٢). ٣- «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» (٣). ٤- «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ» (٤). ٥- «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

«البصير» (٥). ٦- «وَقَالُوا آلَآهِتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصَصَ مُونَ» (٦). ٧- «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (٧). ٨- «الْحِجْجُ أَشْهُرٌ مَغْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحِجْجَ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحِجْجِ» (٨). ٩- «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يِمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» (٩). ١٠- «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ» (١٠).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى»: من الآيات محل البحث تتعرض لطائفة من المؤمنين الضعيفى الإيمان من موقع الذم والتوبيخ بسبب ترددهم وجبنهم فى ميدان القتال وتناقلهم عن الجهاد فى سبيل الله فتقول: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». القرائن تشير إلى أن جماعة من المسلمين الجدد الذين لم تكن لهم تجربة كافية فى الحرب قد تملكهم الخوف وسيطر عليهم الجبن عندما سمعوا الأمر بالجهاد فى سبيل الله، ومع أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال لهم بصراحة: أنا مأمور بأمر من الله تعالى فى هذا الطريق، ورغم ذلك فإنهم يجادلون النبى صلى الله عليه وآله ليشنوه عن عزمه ويعيدوه إلى المدينة وكأنما يرون الموت على بعد خطوات منهم، وفى الواقع فإن ضعف الإيمان والخوف من الموت والشهادة فى سبيل الله دفعهم إلى التذرع بالحجج الواهية والتبريرات المختلفة لإضعاف عزم النبى صلى الله عليه وآله، القرآن الكريم يذم هذه الحالة ويصرح فى الآيات اللاحقة أن مشيئة الله قد قررت تقوية الحق وقطع جذور الكافرين (رغم سيطرة الأوهام والتخيلات على هذه الفئة من ضعفاء الإيمان). ويستفاد جيداً من هذه الآية أن أحد أسباب الجدل والمراءى والمناقشات غير المنطقية هو ضعف النفس والخوف من تحديات الواقع والحالة الإنهزامية لدى الشخص فى مواجهة الظروف الصعبة. وقد ورد فى التواريخ الإسلامية المعروفة أنه عندما سمع المسلمون بخبر تحرك جيش قريش من مكة لأنفاذ القافلة التجارية المتحركة فى الطريق إلى مكة حيث تعرضت لتهديد المسلمين فإن جماعة من ضعفاء المسلمين أصروا على النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن يعود إلى مكة لأن المسلمين فى نظرهم ليست لديهم القدرة الكافية على مواجهة جيش المشركين، وأساساً أنهم لم يخرجوا طلباً للحرب والقتال. ويذكر أن أبا بكر قام فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، وما الأخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٦ ذلت منذ عزت، ولم تخرج على هيئة حرب .. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اجلس، فجلس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اشيروا على. فقام عمر فقال: مثل مقالة أبى بكر. فأمره النبى صلى الله عليه وآله بالجلوس فجلس. ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمنت بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا (نوع من الشجر الصلب) وشوك الهراس لخصناه معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتل إنا ها هنا قاعدون، ولكننا نقول: إذهب أنت وربك فقاتل، وإنا معكم مقاتلون ... الخ. فأشرق وجه النبى صلى الله عليه وآله ودعا له وسر لذلك «١» والعجيب أن ابن هشام فى سيرته والطبرى أوردتا قصة الشورى التى شكلها النبى صلى الله عليه وآله قبيل غزوة بدر ولكن عندما وصلا إلى كلام الخليفة الأول والثانى قالوا بكثير من التلخيص: «قال أبو بكر وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب وقال وأحسن». واكتفيا بذلك دون أن يذكر كلام الأول والثانى فى حين أنه لو كان الأول والثانى قد أحسنا فى كلامهما لكان المفروض من هذين المؤرخين أن يذكرنا مقولتهما، والحال أنهما ذكرنا كلام المقداد بتمامه، ومن هنا يتبين أن نقل هذين المؤرخين لا يخلو من تعصب مذهبى بإمكانه تزييف الحقائق التاريخية. «الآية الثانية»: تتحدث عن جميع الأشخاص الذين يتحركون فى حياتهم من موقع العناد والتعصب وعدم النضج الفكرى والنفسى وتقول: «وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدلاً». فلأجل هداية الناس فقد صرفنا وذكرنا فى القرآن الكريم قصص الأوائل وحوادث الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٧ التاريخ البشرى وحياء الأقسام التى عاشت الظلم والجور، ولكن الإنسان يعيش حالة الجدل أمام الحق وبذلك يقطع على نفسه طريق الوصول إلى الحقيقة ويوصد أبواب نور المعرفة أمامه ويستفاد جيداً من هذا التعبير أن الأشخاص الذين يعيشون الطفولة الفكرية وعدم النضج فى شخصيتهم هم أكثر الموجودات جدلاً ومراءاً، وعلى أية حال فإن هذا التعبير يشير إلى

أنّ الإنسان إذا انحرف عن فطرته السليمة فإنه يتجه صوب الجدل ويتحرك في خط المرء والباطل ويقف أمام الحق بدافع من التعصبات والأهواء الذاتية ويوصد طريق الهداية أمامه، وهذا يمثل أكبر بلاء على الإنسان في طول التاريخ البشري. وتستعرض «الآية الثالثة»: تعريفاً واضحاً للمجادلة بالباطل وتبين مصير أهل الجدل والمرء وتقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ». ورغم أنّ شأن نزول هذه الآية كما ذكره جماعة من المفسرين أنها نزلت في (النظر بن الحارث) الذي كان من المشركين المعاندين والمتعصين جداً وكان يتحدث عن القرآن بكلمات واهية ويتصور أنّ الملائكة هم بنات الله، ولكن من الواضح أنّ مفهوم هذه الآية عام وشامل لجميع الأشخاص الذين يناقشون ويجادلون بدافع من التعصب والعناد ومن دون علم ومعرفة. واللطيف أنّ الآية تذكر في آخرها أنّ هؤلاء المجادلين يتحركون في خط الشيطان المتمرد ويتبعونه، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الجدل بالباطل هو طريق الشيطان، بل إنّ الشيطان الرجيم ينفذ في كل شخص يسعى لإثبات وجهة نظره من موقع التعصب والعناد فيسيره إلى حيث يريد. أما وصف الشيطان بأنه (مرید) أي المتمرد، فهو يبين هذه الحقيقة، وهي أنّ الذين يتحركون من موقع الجدل والمرء هم في صف واحد مع المتمردين على الله والحق ويمثلون جبهة واحدة مقابل جبهة الحق. والمراد من جملة (يجادل في الله) هو الجدل في صفة من صفات الله أو في أصل وجود الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٨ الله أو في قدرته وعلمه أو في أفعاله، وعلى أية حال فإنّ الآية الشريفة تنطلق من موقع الذم الشديد للجدال بالباطل. قد ورد وهذا المعنى نفسه مع بعض الإضافات كذلك في (الآية الثامنة) من سورة الحج حيث تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ» وهذه إشارة إلى أنّ البحث والنقاش إذا كان مقترناً مع العلم والمعرفة، أو مع هداية أولياء الدين والإنبياء الإلهيين، أو يكون مستنداً إلى كتاب من الكتب السماوية فليس لا ضرر فيه فحسب بل يمكنه أن يكون مفتاحاً لحل الكثير من المشاكل والأزمات الفكرية والعقائدية. ولكن عندما لا تكون هذه العناصر الثلاثة الإيجابية على طاولة البحث والنقاش (أي العلم الشخصي، وهداية الأولياء، والإستناد إلى الكتب السماوية) فإنّ الجدل سوف ينزل في طريق الأهواء والتعصبات ويتحرك الإنسان معه في خط الباطل والانحراف وبالتالي لا تكون نتيجته سوى الضلال والشقاء. ويستفاد من الآية التاسعة من هذه السورة التي وردت بعد هذه الآية محل البحث أنّ أحد دوافع الجدل بالباطل هو التكبر والغرور والعجب والذي يتسبب في إضلال الآخرين أيضاً، فمثل هؤلاء الأشخاص يكون مصيرهم إلى الفضيحة في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة كما تقول الآية: «ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ». «الآية الخامسة»: من الآيات محل البحث وضمن وصفها وتعريفها لمفهوم المجادلة بالباطل تشير إلى أحد الدوافع والجنود الأصلية لهذه الرذيلة الأخلاقية في واقع الإنسان وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» هؤلاء لا يوجد في قلوبهم سوى التكبر والغرور حيث يريدون تحقيق نظراتهم من وحى الأهواء والتعصب ولكنهم لا يصلون إلى مرادهم ومقصودهم: «إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِمَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ». كلمة (سلطان) تستعمل في مثل هذه الموارد بمعنى الدليل والحجة والبرهان والتي الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٣٩ وردت في الآية السابقة وتشمل العلم الشخصي، وهداية الأولياء، وإرشاد الكتب السماوية، ومن الملفت للنظر أنّ الآية تقول: أنّ المصدر الأصلي للمجادلة والعناد هو حالة التكبر التي يعيشها هؤلاء الأشخاص حيث يريدون التوصل إلى غاياتهم وطموحاتهم الدنيوية من خلال المجادلة بالباطل ولكنهم بدلاً أن يحققوا ذلك لأنفسهم في حياتهم فأنهم سوف يعيشون الذلة والمهانة. وبما أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية هي أحد المصائد الخطرة للشيطان الرجيم فإنّ الآية الكريمة تقول في ختامها: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وتنطلق «الآية السادسة»: لتتحدث عن المشركين الذين يتحركون في شركهم وكفرهم من موقع الأصرار والعناد ويجادلون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في عمليته تبرير أعمالهم وسلوكياتهم الخاطئة وعندما يقول لهم القرآن الكريم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فأنهم يجادلون في ذلك ويقولون: «وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». ثم إنّ القرآن الكريم يضيف إلى ذلك أنّ هؤلاء يدركون الحقيقة جيداً ولكنهم يتكلمون معك من موقع الجدل والخصام والعناد: «مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا حَيْدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ». ثم يبين القرآن الكريم الفرق بين المسيح والأصنام فيقول بالنسبة إلى المسيح: «إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» (١). وهو إشارة إلى أنّ المسيح هو

عبدٌ من عبيد الله لا- يقبل أن يعبد النصارى أبداً، ولو أن بعض الناس إنحرف عن جادة الصواب وتصور أن المسيح أحد الأقانيم الثلاثة في مقام الألوهية فلا- ذنب على المسيح نفسه ولا- ينبغي أن يكون من أهل النار، وعليه فإن هذا المثل لا يقبل المقارنة مع الأصنام أو الأشخاص من أمثال فرعون وجملته: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» تشير إلى أن أحد مصادر ودوافع الجدل الباطل هو حالة الخصومة والعداوة التي يعيشها الإنسان الجاهل وغير المنطقي، والغالب أنه يعلم أنه يسير في خط الباطل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٠ ولكن الحق والعداوة لا يسمحان له بالتسليم في مقابل الحق والإذعان للحقيقة. «الآية السابعة»: وبعد الإشارة إلى حرمة الميتة والأنعام التي ذبحت للأصنام أو ما ذبح بدون أن يذكر اسم الله عليه فتقول «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» (١). ثم تشير إلى أن الشياطين يوحون إلى أتباعهم بمفاهيم خاطئة لتبرير أفعالهم وتقول: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ». المجادلة بالباطل هنا كما يذكر جماعة من المفسرين الكبار أمثال الطبرسي وأبو الفتوح الرازي وسيد قطب هو أنهم كانوا يقولون أننا إذا أكلنا من لحوم الميتة، فإن ذلك بسبب أن الله تعالى قد قتلها وبالتالي فهي أفضل من لحوم الحيوانات التي نقتلها بأيدينا، وفي الحقيقة فإنهم أهملوا تحريم الميتة الوارد في الشريعة الإلهية من هذا الموقع الزائف. وهذا التبرير السخيف والباطل لأكل الميتة هو ما أوحى به شياطين الإنس والجن لأوليائهم وأتباعهم ليعينوهم على مجادلة كلام الحق بمثل هذه التبريرات الزائفة ويقارنوا بين اللحوم الملوثة والميتة مع اللحوم الطاهرة التي ذبحت على اسم الله تعالى ويفضلون الأولى على الثانية. ويستفاد من هذه العبارة أن مثل هذه المجادلة بالباطل تنطلق من دوافع شيطانية. ويستفاد من بعض الروايات أن هذه التبريرات الواهية قد كتبها بعض المجوس في كتاب وأرسلها إلى المشركين من قريش. «الآية الثامنة»: تتحدث عن الجدل في حالة الاحرام للحج وتقول: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ». ونعلم أن حالة الاحرام هي حالة معنوية وروحانية سامية تصعد بالإنسان إلى حيث القرب الإلهي وأن يعيش أجواء الملكوت، ولهذا السبب فإن الكثير من الأعمال المباحة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤١ تصبح ممنوعة في حالة الاحرام هذه، بل إن بعض الامور المحرمة تتضاعف حرمتها في هذه الحالة المقدسة. والمعروف حرمة ٢٥ عمل أثناء الإحرام وأحدها هو الجدل، ورغم أن المشهور بين الفقهاء هو أن المراد من الجدل هنا هو قول (بلى والله) أو قول (لا والله) فالأول لإثبات المطلب والثاني لنفي المطلب، والمراد من فسوق الكذب والتهمه والسب والشتم وإظهار التفوق على الآخرين في حال الإحرام، ولكن لا يبعد أن تكون كلمة (جدال) شاملة لكل أنواع المجادلة والمخاصمة الكلامية، وعلى أية حال فإن المنع من الجدل في حال الإحرام يشير إلى أن هذا العمل يتقاطع بشدة مع هذه العبادة الروحانية المهمة وتبعد الإنسان عن الله تعالى. وتتابع الآية بالقول في جملة خبرية بأنه (لا جدال في الحج) مما يبين تأكيداً أكثر على هذا الموضوع وكأنها تقول: (إن هذا العمل يتنافى مع روح الحج). «الآية التاسعة»: تتحدث عن (المراء) وهو كلام يشبه الجدل وتقول: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ». وبديهي إن الهداية تنفر في واقعها على أن يكون الإنسان طالباً للحق بحيث يقبله من أي مكان ويتقبله برحابة صدر دون أن يجد في نفسه تعصباً وتكبراً عليه، وكلما عاش الإنسان حالة الكبر والغرور والتعصب فإن ذلك من شأنه أن يكون مانعاً جدياً من التسليم أمام الحق وأن ينزلق الإنسان في وادي الضلالة والانحراف الشديد. أما الفرق بين الجدل والمراء وكذلك النقاط المشتركة بينهما فسيأتي لاحقاً. «الآية العاشرة»: والأخيرة من الآيات مورد البحث تتحدث عن عناد قوم لوط وأن نبيهم الكريم حذرهم من عذاب الله وأن هذا العذاب ينتظرهم بالتأكيد إذا استمروا على غيهم وعصيانهم، فلم يقبلوا كلامه وقاموا بوجهه من موقع المجادلة والمراء، تقول الآية: «وَلَقَدْ أَخْلَقْنَا فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٤٢ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ». وكان هذا هو السبب في أن يبقى قوم النبي لوط عليه السلام في حجاب الغفلة والجهل إلى أن صدر أمر الله تعالى بعذابهم فأصاب الزلزال الشديد مدنهم وأمطرت عليهم السماء حجارة فلم يبق من بيوتهم وأجسامهم إلا الدمار والخراب، أجل فإن هذه هي نتيجة الجدل والمراء في مقابل الحق. هذه الآيات الشريفة توضح جيداً أخطار هاتين الرذيلتين الأخلاقيتين وتبين كيف أن الإنسان وبسبب الجدل والمراء يتأخر عن قافلة الهداية والرشاد ويكون من أتباع الشيطان ويلبس ثياب ولايته ويتحرك في الضلال البعيد ويقع بالتالي في دوامة العذاب الإلهي الخالد.

## الفرق بين الجدل والمراء والخصومة:

إن كلمة (جدل) و (جدال) كما يقول الراغب في مفرداته (جدلت الحبل) أي شدته والجدل شدة الفتل، وكأنّ المجادل يريد من خلال كلامه الجاد مع الخصم أن يبعده بالقوة من أفكاره وعقائده. وذكر البعض أنّ (الجدال) في الأصل بمعنى المصارعة والسعي للتغلب على الآخر وطرحة على الأرض، وبما أنّ الشجار اللفظي والكلامي يشبه هذا المعنى إلى حد كبير استخدمت هذه الكلمة في هذا المعنى. وبالطبع فإنّ الجدال على قسمين: الجدال بالحق والجدال بالباطل، والأول ممدوح والثاني مذموم، ومن ذلك نجد أنّ القرآن الكريم يقول في مورد: «وَجَادِلْهُمْ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (١). وهنا نجد أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمور بجدالهم بالحق وورد ذلك إلى جانب الحكمة والموعظة الحسنة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٣ أمّا الجدال بالباطل فهو ما ورد في الآيات المذكورة آنفاً من أنّ بعض الأشخاص يتحرّكون في كلامهم ونقاشهم من موقع التعصب والعناد، وبذلك ينكرون أوّضح دلائل الحق من خلال هذا الجدال، وأما (المراء) على وزن حجاب، فهو بمعنى المحادثة والمكالمة في شيء يكون فيه مريّة أي شك وترديد، ويقول الراغب في مفرداته: إنّها في الأصل من (مريت الناقة) أي حلبتها، ثم قيلت لكل كلام يكون في موضوعه الشك والترديد (ولعل ذلك يتناسب مع كون الإنسان متردداً في وجود اللبن في ضرع الناقة أو لا) وذهب بعض إلى تعبير أدق من ذلك حيث يرى أنّ الجذر الأصلي لهذه الكلمة في قولهم (مريت الناقة) هو فيما لو حلبت الناقة قبل ذلك ثم جاء أحدهم بأمل أن يكون من اللبن بقيّة في الضرع فيحلبها مع هذا الشك والترديد، وهكذا أطلقت على المناقشة الكلامية في البحوث المقترنة مع الشك. ولكن هذه المفردة استخدمت بعد ذلك في كل نوع من البحث الكلامي وعن أي موضوع كان محل شك وترديد سواءً كان بحثاً إيجابياً وطلباً للحق، أو كان بدافع من العناد والخصومة واللجاجة. ومن الموارد التي استخدم فيها المراء بالمعنى الإيجابي ما ورد في الآية الشريفة ٢٢ من سورة الكهف حيث تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حول مجادلته عن أصحاب الكهف مع مخالفيّة وتقول: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ أَلَا مِرَاءً ظَاهِرًا» (١). أمّا الموارد المستعملة في المعنى السلبي فكثيرة ومنها ما تقدم من الآيات أعلاه. والجدير بالذكر أنّ مفردة (مريّة) على وزن جزيّة وقرية، بمعنى التردد في العزم والتصميم، وبعض ذهب إلى أنّها بمعنى الشك المقترن بقرائن التهمة مثل (الريّة).

## الجدال والمراء في الروايات الإسلامية:

نظراً إلى أنّ الجدال بالباطل يتسبب في إخفاء الحق وزيادة عناصر التعصب والخشونة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٤ وما يترتب على ذلك من المفساد والاضرار الكثيرة، نرى أنّ الروايات الإسلامية قد نهت عن الجدال والمراء بشدة خاصة إذا كان بالنسبة إلى الامور الدينيّة ومن ذلك: ١- ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ» (١). ٢- وهذا المضمون ورد أيضاً في حديث آخر مع تفاوتٍ يسير عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً حيث قال: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أَوْتَقُوا بِالْجِدْلِ» (٢). ٣- وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَعَيْنَ اللَّهُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي دِينِهِ أَوْلِيئِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ» (٣). ٤- وفي حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «الْجِدْلُ فِي الدِّينِ يُفْسِدُ الْيَقِينَ» (٤). ٥- في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَةَ فِي الدِّينِ فَإِنَّهَا تُشْغِلُ الْقَلْبَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتُورِثُ النِّفَاقَ، وَتَكْسِبُ الضَّغَائِنَ، وَتَسْتَجِيرُ بِالْكَذِبِ» (٥). والتعبير بالخصومة في الدين رغم أنّها لا تنطوي تحت عنوان الجدال ولكنها من الموارد الشبيهة بهذا المعنى. ٦- ونظير هذا المعنى ما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكَ وَالْخُصُومَةَ فَإِنَّهَا تُورِثُ الشُّكَّ وَتَحْبِطُ الْعَمَلَ وَتُرْدِي بِصَاحِبِهَا» (٦). ٧- ومن نصائح لقمان الحكيم لابنه في ترك الجدال: «يَا بُنَيَّ لَا تُجَادِلِ الْعُلَمَاءَ فَيَمُوتُوكَ» (٧). ٨- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْجِدْلِ تَرَدَّقَ» (٨). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٥ ٩- قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لأحد أصحابه: «أَبْلُغْ عَنِّي أَوْلِيَاءِي السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ أَنْ لَا يَجْعَلُوا لِلشَّيْطَانِ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ سَبِيلًا وَمُرْهُم بِالصُّدْقِ فِي الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَمُرْهُم بِالسُّكُوتِ وَتَرْكِ الْجِدَالِ فِيمَا لَا يَعْينُهُمْ» (١). ١٠- نختم هذا البحث بحديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن نسبة الإيمان والمراء والجدال، حيث يقول: «لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَالْجِدَالَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» (٢). أما المراء الذي سبق وأن قلنا بالفرق بينه وبين الجدال فحاصل الكلام هو أن الجدال يعنى كل شكل من أشكال الشجار اللفظي والنزاع الكلامي، في حين أن المراء يأتي بمعنى المباحثة في شيء يكون فيه شك وترديد، فتارة تكون هذه المباحثة بدافع من طلب الحق وتوضيح المطلب، واخرى تكون بدافع من التعصب واللجاج وإظهار التفوق والفضل على الطرف الآخر، وهذه الحالة مذمومة جداً، وفي الروايات الإسلامية ينصب الذم على هذا النوع من المباحثة اللفظية، رغم عدم وجود تفاوت كبير بينه وبين الجدال. ١- ورد في الحديث الشريف معنى المراء بما تقدم أعلاه، فعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَالْجِدَالَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» (٣). وهذا إشارة إلى أن المناقشة والمنازعة اللفظية من موقع اللجاج وبدافع من إظهار التفوق والفخر على الآخر حتى في المسائل الحقّة تكون سبباً في سقوط الإنسان على المستوى الأخلاقي والعقائدي. ٢- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً بواسطة عدّة أشخاص من الصحابة الذين قالوا: دخل رسول الله يوماً علينا ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم قال: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِإِخْلَاقٍ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٤٦ يُمَارِي، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّ الْمِمَارِي قَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَانَا الْمِمَارِي لَا أَشْفَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَانَا زَعِيمٌ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ فِي الْجَنَّةِ فِي رِيَاضَتِهَا وَأَوْسَطِهَا وَأَعْلَاهَا لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ صَادِقٌ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا نَهَانِي عَنْهُ رَبِّي بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الْمِرَاءَ» (١). ٣- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ لَا تَفْهَمُ حِكْمَتَهُ وَلَا تُؤْمِنُ فِتْنَتَهُ» (٢). وهو إشارة إلى أن الشخص المماري يرى أنه لم يعرف نفسه ولا الآخرين، ومثل هذا الشخص يعيش أجواء الحرمان من إدراك الحقائق الدينية قطعاً. ٥- وجاء في حديث آخر أن رجلاً قال للإمام الحسين عليه السلام اجلس اناظرك في الدين، فأجابه الإمام: «يا هذا أَنَا بَصِيرٌ بِبَدِينِي مَكْشُوفٌ عَلَيَّ هُدَايَ فَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا بِدِينِكَ فَادْهَبْ وَاطْلُبْهُ، مَالِي وَلِلْمَمَارَاتِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوسِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنَاجِيهِ وَيَقُولُ نَاطِرِ النَّاسِ فِي الدِّينِ كَيْ لَا يَظُنُّوا بِكَ الْعَجْزَ وَالْجَهْلَ» (٦). وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَرْبَعٌ يُمِثَّنُ الْقُلُوبَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ وَكَثْرَةُ مُنَاقَشَةِ النِّسَاءِ يَعْنِي مُحَادَثَتَهُنَّ وَمُمَارَاتِ الْأَحْمَقِ تَقُولُ وَيَقُولُ وَلَا- يَرْجِعُ إِلَى خَيْرٍ وَمُجَالَسَةُ الْمَوْتَى فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمَوْتَى قَالَتْ: كُلُّ غَنِيٍّ مُتِرَفٍّ» (٤). ٧- جاء عن أمير المؤمنين قوله: «إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ وَالْخُصُومَةَ فَإِنَّهُمَا يَمْرُضَانِ الْقُلُوبَ عَلَى الْإِيْخْوَانِ وَنَبَتْ عَلَيْهِمَا النَّفَاقُ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٧-٨ ولهذا فقد ورد في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال في خطاب له أمام حشد من المسلمين: «أَوْرَعُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» (١). ٩- وفي روايه عن الإمام أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله أنه قال: «جِمَاعُ الشَّرِّ اللَّجَاجُ وَكَثْرَةُ الْمِمَارَاةِ» (٢). ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن سلمان الفارسي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ رَجُلٌ حَتَّى يُحِبَّ أَهْلَ بَيْتِي وَحَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا عَلَامَةُ حُبِّ أَهْلِ بَيْتِكَ؟ قَالَ: هَذَا، فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ» (٣). ولا شك أن هذين الموضوعين يرتبطان ببعضهما برابطة وثيقة حيث ذكرهما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في كلامه مقترنين، ولعل هذه الرابطة من جهة أن دلائل فضل الإمام على أهل بيته عليهم السلام إلى درجة من الوضوح والبدهة بحيث يقبلها كل إنسان يتحرّك من موقع الإنصاف ويتعد عن الجدال والمراء والخصومة ويهدف إلى طلب الحقيقة. \*\*\* إن الروايات الشريفة في ذم المراء كثيرة جداً، وما ذكر من الروايات العشر أعلاه إنما هي نماذج وعينات من هذا الباب والنظر الدقيق في هذه الأحاديث والروايات يكفي لكي يحيط الإنسان بأخطار هذا الخلق الذميم وعواقبه الوخيمة وآثاره المخزبة على المستوى الفردي والاجتماعي.

إنّ التأكيدات الكثيرة الواردة في الآيات القرآنية والروايات المتواترة الإسلامية في ذم الجدل والمراء والخصومة في المباحثات الكلامية إنما هي من أجل أن أول نتائج هذا العمل المضرة وهذا الخلق السيء هو التسرّ والتغطية على الحقائق بحيث يجعل بين الإنسان وبين الحقيقة حجاباً سميكاً وسحابة سوداء على بصيرة الإنسان بحيث لا يدرك معها أوضح البديهيات ويتحرّك في مناقشاته من موقع إنكار الأمور الضرورية أو يدافع عن الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٨ بعض المواضيع التي تدعو للسخرية، وليس هذا إلّا بسبب أن الإنسان عندما تتصاعد عنده روح الجدل وتشتد حرارة الكلام فيه فأنه يقوم بإنكار كل ما لا يراه مصيباً في نفسه ولا يتوافق مع كلامه. وبما مرّ علينا من الروايات الشريفة تقرّر أنّ الخصومة والجدال والمراء تمرض القلب فإنّه من الممكن أن تكون إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ القلب يأتي بمعنى العقل، ومرض القلب بمعنى عدم درك الحقائق والواقعات، ولذا رأينا في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأشخاص الذين يعيشون الجدل والمراء تكون عاقبتهم ومصيرهم إلى الكفر، أو أنّ الجدل يسبب الشك في دين الله وفساد اليقين، كل هذا إشارات لطيفة إلى ما تقدّم آنفاً من أضرار الجدل والمراء. والآثار السلبية لهذه الصفة الأخلاقية الذميمة هو إيجاد العداوة والبغضاء بين الأصدقاء ونسيان ذكر الله تعالى وجرّ الإنسان إلى الكثير من أنواع الكذب في الكلام حيث مرّت الإشارة إلى ذلك في الأحاديث الشريفة السابقة، والسبب في ذلك واضح، لأنّ الشخص الذي يريد إثبات تفوّقه على أقرانه من خلال الجدل والمراء فإنه يعمل على تحريك الطرف الآخر ضدّه ليحمي ويطيس النقاش وغالباً ما نجد في كلامه عناصر التحقير والسخرية بالطرف الآخر، وهذه من أسوأ أسباب النفاق وإيجاد العداوة بين الأشخاص وحتى أنه أحياناً ومن أجل تبرير كلامه يتوسّل بأنواع الكذب، وهذا بحد ذاته بلاء كبير آخر، ومجموع هذه الأمور تؤدّي بالإنسان إلى الابتعاد عن الله تعالى ويسقط في فخاخ الشيطان وشراكه وبالتالي يكون مصيره إلى الهلاك المعنوي والسقوط الإنساني. ولهذا قرأنا في الأحاديث السابقة أنّ الإنسان لا يصل إلى حقيقة الإيمان إلّا إذا ترك المراء والجدال حتى لو كان محقّقاً، لأنّ النزاع اللفظي حتى في مسائل الحق والدين يتسبب في إيجاد أنواع الخصومات والعدوان وأحياناً يجرّ الإنسان إلى ارتكابه الكثير من الذنوب من قبيل: تحقير المؤمن وإهانته بالكلام أو بالإشارة باليد والعين والكذب والتكبر وحبّ التفوّق وأمثال ذلك. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٤٩ مضافاً إلى هذا أنّ الجدل والمراء يذهب وقار الإنسان ويكسر من شخصيته ومروءته بحيث يفتح عليه لسان الجهلاء إذا اشترك في مجادلة معهم ويتسبب في هتك حرمة والإهانة له، وإذا جادل العلماء فإنه يذوق مرارة الهزيمة ويفتضح أمره ويكشف عن جهله وحقارته. ومن مجموع ما مرّ وكما قرأنا في الروايات السابقة أنّ الجدل والمراء يعدّ أحد الأمور الأربعة التي تؤدّي إلى مرض قلب الإنسان وروحه. فما أحسن بالإنسان أن يتباحث مع الآخرين من موقع المحبّة والصدّاقه والتواضع وبدافع من طلب الحق والحقيقة حيث يؤدّي ذلك إلى زيادة علمه ومعرفته والاستفادة من علوم الآخرين لإيضاح الحقيقة أكثر وحل المشاكل العلميّة العويصة والقيود المعرفيّة التي بإمكانها أن توصل الإنسان إلى أجواء المعرفة والإطلاع على المجهول، وهذا هو الجدل بالحق.

### دوافع الجدل والمراء:

ونظراً إلى وجود علاقة وثيقة بين الصفات الرذيلة في واقع الإنسان حيث ترتبط غالباً فيما بينها بعلاقة العلة والمعلول، يتّضح من ذلك أنّ هذه الصفة الذميمة، أي الجدل والمراء والخصومة من موقع الجهالة، تنشأ من صفات قبيحة أخرى: ١- إنّ من العوامل المهمّة للجدال والمراء هو حالة الكبر والغرور في النفس والتي لا- تسمح للإنسان أن يدعن أمام الحق، بل تدفعه لغرض حفظ التفوّق على الطرف الآخر إلى سلوك طريق الجدل والمراء وإنكار ما يتّضح له أنّه الحق، ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام: «إِنَّ مِنَ التَّوَّاضِعِ أَنْ يَرْضَى الرَّجُلُ بِالْمَجْلِسِ دُونَ الْمَجْلِسِ وَأَنْ يَسَلَّمَ عَلَى مَنْ يَلْقَى وَأَنْ يَتَرَكَّ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً وَلَا- يُحِبُّ أَنْ يُحَمِّدَ عَلَى التَّقْوَى (١)». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٠-٢ وأحد الدوافع الاخرى للجدال والمراء والنزاعات اللفظية هو الظهور بمظهر العالم المتفوّق وإظهار الفضل على الآخرين، وهذه الحالة متداولة كثيراً في

أجواءنا الاجتماعية وخاصة في المجلس الذي يحضره جماعة من العوام ويريد هذا الشخص أن يظهر نفسه وفضيلته أمامهم أو يريد أن يفتح له مكاناً بين أرباب العلم والمعرفة، وجاء في الحديث الشريف الذي ذكرناه سابقاً عن الإمام الحسين عليه السلام قوله: «وإنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوسِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنَاجِيهِ وَيَقُولُ نَاطِرِ النَّاسِ فِي الدِّينِ كَيْ لَا يَظُنُّوا بِكَ الْعِزَّ وَالْجَهْلَ» (١). وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقسم طلماب العلم إلى ثلاثة أقسام، وطائفة منهم طلبوا العلم للجدال والمراء، وطائفة أخرى للفخر على الناس، وثالثة لغرض فهم الحقيقة والتعلم والعمل بذلك، ثم يصف الإمام حال الطائفة الأولى ويقول: «فَصَاحِبُ الْجَهْلِ وَالْمِرَاءِ مُؤَذِّمٌ مَارٍ مُتَعَرِّضٌ لِلْمَقَالِ فِي أُنْدِيَةِ الرَّجَالِ». وفي ذيل هذا الحديث الشريف يلعب الإمام مثل هذا الشخص ويقول: «فَدَقَّ اللَّهُ مِنْ هَذَا خَيْشُومَهُ» (٢). ٣- ومن الدوافع الأخرى للجدال والمراء والتعصب الكلامي هو الجهل بمقام الذات ومقام الآخرين، لأنه يرى نفسه أكبر وأعلم من واقعه ويرى الآخرين يعيشون الجهل وعدم العلم، ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام والذي ذكرناه فيما سبق بعد أن يعد الإمام المراء بأنه أحد الأمراض الخطرة لقلب الإنسان وأنه من الأخلاق الشيطانية يقول: «فَلَا يُمَارِي فِي أَىِّ حَالٍ إِلَّا مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ» (٣). ٤ و ٥- حب الانتقام والحسد يعتبران من العوامل المهمة الأخرى التي تدفع بالإنسان إلى الجدل والمراء، فلغرض تسقيط شخصية الطرف المقابل والانتقام منه وإشباع حالة الحسد في نفسه أو تضعيف مكانة الطرف الآخر أمام الانظار فإنه يستخدم أداة الجدل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥١ والبحث العلمي المقترن مع الأهانة والتحقير ليستطيع بهذه الوسيلة أن يروى ظمأه إلى الانتقام من الطرف الآخر ويصب الماء على نار الحقد والحسد المستعرة في قلبه. ٦- ومن العوامل المهمة الأخرى التعصب واللجاجه، لأن الشخص المتعصب واللجوج غير مستعد أن يقبل التنازل عن عقائده الفاسدة بسهولة، ولذلك يجد في نفسه تعصباً للتوقف عليها وحفظها والدفاع عنها بالمجادلة والبحث الكلامي ويتشبه بكل وسيلة لإثبات صحة كلامه وبطلان كلام الطرف الآخر، وهذا هو ما نجده في سلوك الكثير من الكفار والمشركين أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء الكرام عليهم السلام حيث تقدم مثال واضح لذلك من مباحثه عبدة الأوثان ونمرود مع النبي ابراهيم عليه السلام، وذلك عندما وجدوا أنفسهم أمام الكلام المنطقي والرصين لأبراهيم عليه السلام فوقعوا في حيرة من الأمر وانتبهوا مؤقتاً من نوم الغفلة ولكن حالة التعصب واللجاجه أسدلت على عقولهم وقلوبهم سحابة ظلمانية منعتهم من قبول الحقيقة والإذعان وانطلقوا مرة أخرى في تأكيد معتقداتهم السخيفة من موقع الدفاع عنها بالأدلة الواهية والجدال الأجوف. ٧- ومن العوامل المهمة للجدال والمراء أيضاً (حب الدنيا) الذي يعد عاملاً أساسياً لجميع الذنوب أو أكثرها، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الصفة الرذيلة يريدون كسب المقام والوجهة الاجتماعية من خلال سلوك هذا الطريق لإثبات أعلميتهم وذكائهم وبذلك يتمكنوا من نيل أهدافهم الدنيوية وتحصيل بعض المقامات الوهمية والعناوين الزائفة. وخلصه الكلام هي أن العوامل السلبية الكثيرة تتفق مع بعضها لدفع الإنسان إلى الخوض في الجدل والمراء بعيداً عن الأدب والخلق الإنساني والإنصاف وتجره إلى الدخول في دائرة اللجاجه والعناد أمام الحق والدفاع عن الباطل.

### أقسام المراء والجدال:

يمكن تقسيم الجدل والمراء إلى قسمين: الجدل والمراء على المستوى الإيجابي، أي أن يتباحث مع الآخرين على مستوى البحوث المنطقية لغرض تبين الحقائق وتوضيح ما أشكل من المسائل الغامضة والأطلاع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٢ على نظرات الآخرين والوصول إلى الواقعات من هذا الطريق. أما المراء والجدال على المستوى السلبي فيعني المباحثات والنزاعات الكلامية التي تنطلق بوحي من عقدة الخصومة والتي لا تهدف إلى غرض معين وصحيح ولا تسير في خط تبين الحقائق، بل الهدف منها هو تكريس الخصومة والتعصب واللجاجه وإثبات التفوق وإظهار الفضل على الآخرين. وهذا التقسيم نجده منعكساً في آيات القرآن الكريم حيث يقول في الآية ٤٨ من سورة العنكبوت: «وَلَمَّا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول في مكان آخر في الآية ١٢٥ من سورة النحل: «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ويقول في مكان آخر في مقام الذم لجماعة من الكافرين: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ



بَعِيدَ مَا تَبَيَّنَ». وأما في مورد المراء الإيجابي فنقرأ في (قصة أصحاب الكهف) وعددهم قوله تعالى: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا» (١). أي بالنسبة إلى عدد أصحاب الكهف فلا ينبغي أن تتباحث حولهم إلا بالكلام المنطقي المقترن بالدليل. وأما في مورد المراء السلبي فيقول تعالى: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعِيَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» (٢). وهناك تقسيمات أخرى أيضاً على حسب الأشخاص في طرفي المباحثه وكذلك بالنسبة إلى المواضيع والمسائل التي تدور في أجواء البحث والجدال. ومن ذلك أن يكون طرف المناظره إنساناً عاقلاً وفاهماً لكي تكون المباحثه معه مثمره من خلال الاستدلال المنطقي والعلمي كما ورد في وصيته أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «دَعِ الْمُمَارَاةَ وَمُجَارَاتَ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا عِلْمَ» (٣). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٣. ويجب أن يكون المناظر إنساناً مطلعاً على الامور، لأن الأشخاص الذين يعيشون الجهل بالامور إذا أرادوا الدفاع عن الحق والورود في ميدان المجادله، فإنهم وبسبب ضعف معلوماتهم وقله إطلاعهم سوف يذوقون الهزيمة ويغلبوا في هذه المبارزه، وبالتالي ينعكس ذلك سلبياً على الحق والحقيقه. ولذلك نقرأ في الحديث الشريف أن محمد بن عبدالله المعروف بالطيار جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «بَلَّغْنِي أَنْتَ كَرِهْتَ مُنَازَرَةَ النَّاسِ»، قال الإمام عليه السلام: «أَمَّا كَلَامٌ مِثْلِكَ فَلَا يَكْرَهُ، مَنْ إِذَا طَارَ يَحْسُنُ أَنْ يَقَعَ وَإِنْ وَقَعَ يَحْسُنُ أَنْ يَطِيرَ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا لَا تَكْرَهُهُ» (١). أما لقب الطيار الذي يطلق على هذا الصحابي المعروف للإمام الصادق عليه السلام، فهو إشارة إلى هذا المعنى أيضاً، لأنه كان قوياً جداً في مجال المباحثه والجدل وكان يتحرك في دفاعه عن الحق بكل قدره ومهاره. وهنا ينبغي على جميع الأشخاص الذين ليس لديهم إطلاع كافٍ حول مسائل الدين ومعارفه العميقه ولا يجدون في أنفسهم القدره على الدفاع عنه أن لا يدخلوا في مناظره ومباحثه مع المخالفين، لأنهم سوف ينهزمون في هذه المباحثه، وهزيمتهم توجب وهن مباني المذهب الحق في نظر الآخرين. ومن هنا فإن الافراط والتفريط غالباً موجود في سلوكيات هؤلاء الأفراد الجهلاء، فهناك الأشخاص الذين يسلكون طريق الافراط عن جهل ويقولون: بما أن الجدال والمراء مذموم في الإسلام ومحرم بشده، فنحن لا ندخل في أي بحث علمي وكلامي مع أي شخص من الأشخاص حتى لو كان البحث مستدلاً ويقوم على قواعد منطقيه من الأدله والبراهين في طريق إثبات الحق والدفاع عنه، ويختارون السكوت بدل البحث أو الاستدلال، ويسمون ذلك من باب القيل والقال. وهذا أيضاً انحراف كبير عن جاده الصواب، لأن تبين الحقائق لا يتسنى إلا في ظل الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٤. البراهين المنطقيه والدلائل المتينه، وإبصار هذا الطريق على الناس يعني حرمانهم أو حرمان طائفه كبيره منهم من الوصول إلى الحقائق وتحصيل الواقعيات. ونختم هذا الكلام بحديث جميل عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن جدّه الإمام الصادق عليه السلام حيث وقعت في محضره مجادله كلاميه في أمر الدين وأن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا قد نهوا عن ذلك، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمْ يَنْهَهُ عَنْهُ مُطْلَقًا لِكِنَّهُ نَهَى عَنِ الْجِدَالِ بِغَيْرِ التِّي هِيَ أَحْسَنُ، أَمَا تَسْمَعُونَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (١)، وقوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (٢)، فالجدال بالتي هي أحسن قد قرنه العلماء بالدين والجدال بغير التي هي أحسن محرّم وحرمه الله تعالى على شيعتنا، وكيف يحرم الله الجدال جملةً وهو يقول: «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٣). فجعل علم الصدق والإيمان بالبرهان وهل يؤتى بالبرهان إلا في الجدال بالتي هي أحسن؟ قيل: يا ابن رسول الله فما الجدال بالتي هي أحسن والتي ليست بأحسن؟ قال: أما الجدال بغير التي هي أحسن أن يجادل مبطلاً فيورد دليلاً باطلاً فلا تردّه بحججه قد نصّبها الله تعالى ولكن تجعده قوله... وأما الجدال بالتي هي أحسن فهو ما أمر الله تعالى به نبيّه أن يجادل به من جعده البعث بعد الموت وإحياءه له فقال الله حاكياً عنه: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (٤) (٥).

### طرق علاج هذه الرذيلة الأخلاقية:

كلّما وجد الإنسان نفسه يعيش حالة الخصومه في مباحثه مع الآخرين ويكثر من الجدال والبحث العقيم وتعبير الروايات: الجدال غير

الحسن بحيث أصبح هذا السلوك بمثابة العادة والخلق له، فإنَّ إيمانه وتقواه ودينه يتعرّض لخطر الذوبان والمحق، وينبغي عليه الإسراع في انقاذ نفسه من هذه الرذيلة والتخلّص من هذا الخلق الذمّيم والتحرّك بصدد العلاج قبل أن تتجذّر هذه الصفة في أعماق نفسه. والطريق الأول للعلاج ولعلّه يعدّ من مقدمات العلاج لتسكين هذه الحالة المؤذية كيما يتسنى للإنسان علاجها فيما بعد هو اختيار السكوت في كل مورد يحتمل فيه أن يكون الجدل بالباطل، وكلّما استمر هذا السكوت مدّة أطول وتحمل الضغط النفسي وتحديات الحالة المزاجية، فإنّ ذلك سيوفّر الأرضية المساعدة للتخلّص من شرّ هذه الحالة السلبية ومعالجة هذه الصفة في النفس. وطبعاً فإنّ السكوت يعدّ علاجاً للكثير من الرذائل (من قبيل الحسد والحقد والنميمة والرياء وكفران النعمة والتهمّة والكذب وحبّ التفوّق وغيرها من الرذائل الأخلاقية التي تتجلّى في سلوك الإنسان من خلال الكلام والنطق) فالسكوت يمكنه أن يكون عنصر الوقاية من جميع هذه الموارد، ولهذا السبب فإنّ الروايات الإسلامية قد مدحت السكوت كثيراً وقد تقدّم تفصيل هذا الموضوع في الجزء الأول من هذا الكتاب. الطريق الآخر لعلاج هذه الفضيلة الأخلاقية هو التفكير الدقيق في النتائج السلبية والعواقب الوخيمة المترتبة على هذه الصفة من قبيل أن يكون الإنسان محجوباً عن درك الحقائق ويعيش في زحمة الأوهام والتعصّبات والعداوات بين الأصدقاء وابتعادك عن حقيقة الإيمان وبالتالي سيكون مورداً للغضب الإلهي وزهوق شخصيته وسقوط حيثيته بين الخاص والعام. ومن اليقين أنّ التفكير في مثل هذه العواقب السيئة سيكون له تأثير عميق في وقاية الإنسان عن الوقوع في متاهة الجدل بالباطل، فكيف يمكن أن يعلم الإنسان بأنّ هذا الغذاء الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٦ مسموم ويتناوله في نفس الوقت؟ فالشخص الذي يتناول غذاء مسموماً هو الذي لا يدرك آثاره وعواقبه ولا يعلم بحاله. إنّ إصلاح جذور الخلل في واقع النفس وتطهير الذات من الدوافع والنوازع التي تجرّ الإنسان للخوض في الجدل يعدّ أحد طرق العلاج لهذا الخلق الذمّيم، وعندما نقول الدافع للجدال والمراء فهذا يعني التكبر وحب التفوّق والتظاهر والحسد وحبّ الانتقام وحبّ الدنيا والتعصّب واللجاجه، ومن المعلوم أننا إذا استطعنا أن نبعد هذه الحالات السلبية والصفات الذميمة عن أنفسنا ونظهر قلوبنا من أدرانها فإنّ ذلك من شأنه أن يقلع جذور حالة الجدل والمراء من النفس، ولكن مع وجود هذه الصفات في أعماق النفس، فإنّ إزالة هذه الصفة الأخلاقية سيكون عسيراً جداً. ومن الطرق الأخرى للعلاج هو إبتعاد الشخص عن الأفراد المتعصّبين والذين يحبّون الخوض بالباطل وكذلك الامتناع عن مناقشة مثل هؤلاء الأشخاص حيث سيجرّ الإنسان إلى الجدل والمراء وإن كان غير قاصد لذلك. وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ جالَسَ الجاهِلَ فَلَيْسَتَعِدَّ لِقَبْلِ وَقَالَ» (١). ومن البديهي أنّ الإنسان قبل كل ذلك يجب عليه أن يوقظ في نفسه الإرادة والعزم القاطع على ترك المراء والجدال واجتناب هذه الرذيلة الأخلاقية، فاذا وجد الإنسان في نفسه ذلك وعزم بجديته على ترك المراء فأنه سيفلح في النهاية.

### الإنصاف في الكلام:

النقطة المقابلة للمراء والجدال هي الانصاف في البحث والكلام، أي أنّ الإنسان ينظر إلى كلام الآخرين كما ينظر إلى كلامه ويدافع عنه كما يدافع عن كلامه، وبتعبير آخر أن يكون طالباً للحق فيبحث عنه ويطلبه من أي شخص كان ومن كل مكان حتّى لو كان الناطق الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٥٧ به شخصاً من العوام وكان هو عالماً كبيراً ومعروفاً، بل حتى لو سمع كلام الحق من طفل أو كافر أو ظالم فعليه قبوله من موقع الإذعان للحق والحقيقة. وأما الانصاف في الروايات الإسلامية الذي ورد الثناء البالغ عليه فالمراد منه أن يرى الشخص مصالح الآخرين كمصالحه، ولكن أحد أغصان شجرة الانصاف هو الانصاف في الكلام، حيث ورد في الحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لَا تَرْضَى بِشَيْءٍ إِلَّا رَضِيَتْ لَهُمْ مِثْلَهُ وَمُؤَاسَاةُكَ الْأَخِي فِي الْمَالِ وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» (١). والملفت للنظر أنّ بعض الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام تتحدّث عن أنّ الإمام عندما ضمن أربعة قصور في الجنّة لمن يعمل أربعة أعمال، فإنّه عدّ ترك المراء ثالث عمل وانصاف الناس من النفس العمل الرابع، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الانصاف في الكلام.

## النميمة وإصلاح ذات البين

## تنويه:

إن الحياة الاجتماعية تتزامن دائماً مع أشكال التضاد والنزاع بين أفراد المجتمع، وأحد فروع التضاد والتراحم بين الأفراد هو النزاع الكلامي الذي قديمته ويتعمق إلى أن يصل إلى شجار وصراع بين الأطراف وقد يصل أحياناً إلى سفك الدماء أيضاً. فالواجب على أفراد المجتمع أن يتحرّكوا من موقع إصلاح ذات البين ورفع سوء التفاهم وتهيئة الأرضية ليجاد جو حسن الظن بين الأطراف المتنازعة وكما في الاصطلاح: يصبوا الماء على نار الصراع ويعملوا على تهدئة التوتر الناشئ من حالات الشجار والتضاد. ولكن مع الأسف فإن بعض الناس وبدوافع مختلفة يتحرّكون على العكس من هذا الاتجاه وكأنهم يريدون صبّ الزيت على النار ويرغبون في إتساع دائرة الحريق، ومن المعلوم أنهم سيشترون في جميع المفاصل المترتبة على هذا النزاع والصراع بين أفراد المجتمع، هؤلاء يتحرّكون في هذا الإطار على مستوى إيصال كلام هذا الطرف إلى الطرف الآخر وبالعكس وقد يضيفون بعض الكلام من أنفسهم ويوصلونه إلى الطرف المتخاصم، وهذا هو معنى (النميمة) التي هي من أسوأ الأخلاق الذميمة في النفس البشرية في حين أن الفئة الأولى هم المصلحون الاجتماعيون الذين يعدّ عملهم في مرتبة الجهاد في سبيل الله. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٠ وقد ورد في الروايات الشريفة أنه: «أَنَّ أَجْرَ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ» (١). إن النميمة كلما تركزت في سلوك الفرد فإن من شأنها أن تكون خلقاً وملكاً وسجئته في هذا الإنسان، ومن رذائل الأخلاق القبيحة، وقد وردت في الآيات الكريمة والروايات الإسلامية إشارات كثيرة إلى هذه الرذيلة الأخلاقية على مستوى ذمها وتقيح المرتكب لها، وعلى العكس من ذلك فقد ورد المدح الكثير لعملية إصلاح ذات البين. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته ما يتعلق بهاتين الصفتين الأخلاقيتين ثم نستعرض كل واحدة منهما من موقع الدوافع والنتائج والآثار الإيجابية والسلبية وطرق علاج صفة النميمة وكذلك تقوية ضدها وهي إصلاح ذات البين: ١- «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» (٢). ٢- «وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ \* هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ \* مَنَاعٌ لِخَيْرٍ مُّغْتَدٍ أَثِيمٍ \* عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ» (٣). ٣- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» (٤). ٤- «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتِبًا» (٥). ٥- «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٦). ٦- «وَلَمَّا تَجَعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦١-٧. ٧- «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». (٨) ٨- «... إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (٢).

## تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى»: تحذّر الأشخاص الذين يتحرّكون في تعاملهم مع الآخرين من موقع السخرية والإستهزاء: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ». أما تفسير (همزة) و (لمزة) والفرق بينهما هناك كلام كثير بين المفسرين وقد تحدثنا عنه في التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، والمهم هو أنه على أحد التفاسير فإن المراد من الآية أعلاه هو الإشارة إلى الأشخاص الذين يتحرّكون على مستوى النميمة بين الأفراد، وقد سئل ابن عباس عن المقصود من هذه الآية، ومن هم هؤلاء الذين يهددهم الله تعالى بالويل، فقال: ابن عباس: «هُمُ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ النَّاعِتُونَ لِلنَّاسِ بِالْعَيْبِ». ويذكر المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان) هذا المعنى بعنوان أول تفسير له لهذه الآية، والفخر الرازي يذكره بعنوان التفسير التاسع والأخير لهذه الآية، ونظراً للمفهوم الواسع الذي يدخل في مضمون (همزة ولمزة) فإن كل أشكال الغيبة والنميمة والسخرية تندرج تحت مفهوم هذه الآية، وهنا نرى أن الله تعالى قد وعد هؤلاء الأشخاص بالعقاب الشديد وهو

(الحطمة) وهي النار التي سَعَرها الله تعالى في قلوب هؤلاء بحيث تندلع من قلوبهم لتستوعب كل وجودهم. ويستفاد من هذه الآية أنّ نار الآخرة بخلاف نار الدنيا، فإنّها تنبع من داخل النفس وأعماق القلب ثم تسرى إلى الظاهر، ولعلّ ذلك بسبب أنّ الرذائل الأخلاقية والأعمال الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٢ القبيحة تنبع من ذات الإنسان وأعماقه ثم تظهر على السطح على شكل ممارسة عملية في الواقع الخارجي. «الآية الثانية»: تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتنهاه عن إطاعة هؤلاء النمامين بعد عدّه أقسام وتقول: «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ \* هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ» وتبعاً لهذه الصفات الأخلاقية القبيحة تضيف الآيات التالية صفات اخرى من قبيل المنع من عمل الخير، العدوان، الحقد، الخشونة، الكفر بآيات الله تعالى، ثم تقول: «سَنَسِيئُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ» وهكذا سيفتضح أمره في الدنيا والآخرة. أمّا ذكر النميمة في تسلسل الرذائل المهمة الاخرى وكذلك الكفر بآيات الله تعالى يدل على قبح هذه الخصلة الشنيعة في سلوك الإنسان. وعبارة «مَشَاءٍ بَنِيمٍ» جاءت بصيغة المبالغة، وهي إشارة إلى الأشخاص الذين يتحرّكون دائماً بين الناس بالنميمة ويشيرون بالعداوة والبغضاء فيما بينهم، وهذا بحدّ ذاته يعدّ من أهم الذنوب الكبيرة. (حلّاف) يطلق على الشخص الذي يحلف ويقسم بالله كثيراً، وعادةً فمثل هؤلاء الأشخاص لا يعتمد الناس عليهم ولا هم يعتمدون على أنفسهم، ووصفهم بكلمة (مهين) أيضاً شاهد آخر على هذا المعنى، ولهذا فإنّهم وبدافع من شعورهم بالحقارة والذلة يعيبون على الآخرين ويمشون بينهم بالنميمة والفساد وكأنّهم يتألّمون ممّا يرون من المحيية والالفة والتكاتف بين الناس ويريدون ايقاع العداوة والحقد بين الأشخاص كما هو حالهم في أنظار الناس حيث ينظر الناس إليهم نظرة الحقارة والازدراء. «الآية الثالثة»: وطبقاً لسبب نزولها المعروف تتحدّث عن (الوليد بن عقبة) الذي أرسله رسول الله صلى الله عليه وآله لجمع الزكاة من قبيلة (بنى المصطلق): إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث إليهم بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم فرجع الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٣ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره أنّ القوم قد همّوا بقتله ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم فأكثر المسلمون في ذكر غزوه حتى همّ رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يغزوهم، فبينما هم على ذلك قدّم وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: «يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ما قبلنا من الصدقة فانشمر راجعاً فبلغنا أنّه زعم لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنا خرجنا إليه لنقتله ووالله ما جئنا لذلك، فأنزل الله تعالى فيه وفيهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ فَأَنْتُمْ نَادِمِينَ» (١). فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونهم، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنّهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحته ما ذكره، فعاد إلى نبي الله صلى الله عليه وآله فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبي الله صلى الله عليه وآله: «التَّائِبِينَ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ» (٢). وطبقاً لحديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام فإنّ الآية محل البحث تشير إلى النمام. ومن هنا يتضح أنّ النميمة تشمل الكذب أيضاً. «الآية الرابعة»: من الآيات محل البحث أو ردها بعض العلماء كالعلامة المجلسي في بحث النميمة وقال: إنّ من يشفع شفاعة سيئة الوارد في هذه الآية «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» له مفهوم واسع ويشمل النميمة أيضاً لأنّها شفاعة سوء بالحقيقة، بل هي أسوأ حيث يشعل النمام نار العداوة بين الرجلين من المسلمين فيتحرّكوا فيما بينهما من موقع سوء الظن والحقد والكراهية، ولذلك ورد في الحديث النبوي الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَمَرَ بِسُوءٍ أَوْ دَلَّ عَلَيْهِ أَوْ أَشَارَ فَهُوَ شَرِيكٌ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٤ «الآية الخامسة»: تتحدّث عن إصلاح ذات البين والذي يقع في النقطة المقابلة للنميمة وإفساد ذات البين، وتقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّها نزلت بعد غزوة بدر حيث حدثت بين رجلين من الأنصار مشاجرة لفظية على الغنائم الحربية، وصرّحت الآية بأنّ الغنائم الحربية أمرها بيد النبي صلى الله عليه وآله وعليكم أن تسعوا لإصلاح ذات البين وإزالة الفرقة والاختلاف بين المسلمين. «الآية السادسة»: تشير إلى الذين يجعلون الله عرضة لأيمانهم في تقواهم وإصلاح ذات البين: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». وقد ورد في تفسير هذه الآية رأيان: الأول: أنّ هذه الآية ناظرة إلى

الأشخاص الذين تملكهم الحدة أحياناً فيقولون: سوف لا نعمل الخير أبداً لفلان وفلان، أو لا نتحرك لغرض الإصلاح فيما بينهم، فنزلت الآية الشريفة وقالت إن هذه الإيمان باطلة فلا شيء يمكنه أن يمنع عمل الخير والإصلاح بين الناس (وقد ذكر لهذه الآية سبب لنزولها يؤيد هذه الرؤية حيث ذكر أنه حصل اختلاف بين زوجين أحدهما بنت أحد الصحابة ويدعى (عبدالله بن رواحة) وقد حلف هذا الصحابي أن لا يقدم على إصلاح ما بينهما من الخلاف والنزاع، ونزلت الآية وأكدت على بطلان مثل هذا القسم). الثاني: هو أن هذه الآية تنهى عن القسم لغرض أعمال الخير والتقوى والإصلاح بين الناس، لأن رجحان مثل هذه الأعمال وفضلها إلى درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى القسم. وعلى أية حال فإن أهمية إصلاح ذات البين يتضح من هذه الآية جيداً وخاصة أنها ذكرت هذه الفضيلة إلى جانب أعمال الخير والتقوى والبر. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٥ تتحرك «الآية السابعة»: من موقع الحديث عن النجوى بين الأشخاص والذي قد يتسبب أحياناً في أذى الآخرين وسوء ظنهم، وأحياناً يوفر الأرضية المساعدة لتنفيذ خدع الشيطان ولذلك تقول الآية: «لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ». ولكنها تضيف مباشرة هذا الاستثناء: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». إن استثناء مسألة إصلاح ذات البين من الذم للنجوى من جهة، وجعل الإصلاح إلى جانب الصدقة والمعروف من جهة أخرى، وكذلك بالوعد بالثواب العظيم عليه من جهة ثالثة كلها شاهد على أهمية هذا الفعل والسلوك الإنساني. أما ما الفرق بين الصدقة والمعروف؟ فقد ذهب البعض إلى أن الصدقة تعنى المعونة المالية بلا عوض، والمعروف هو القرض الحسن، وذهب بعض آخر إلى أن المعروف له مفهوم عام يشمل جميع أفعال الخير (وعليه تكون النسبة بين الصدقة والمعروف نسبة العموم والخصوص المطلق). وجاء في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن أحد أفضل الصدقات التي يحبها الله ورسوله صلى الله عليه وآله هو (إصلاح ذات البين) ويقول: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصَلِّحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَرَّبَ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا» (١). وعليه فإن إصلاح ذات البين ذكر بشكل مستقل تارة، واخرى بعنوانه أحد المصاديق البارزة للصدقة والمعروف، وبتعبير آخر أن إصلاح ذات البين هو المصداق الكامل للمعروف والصدقة في هذا المورد. وجاءت «الآية الثامنة»: والأخيرة من الآيات محل البحث لتتحدث عن منهج أحد الأنبياء العظام باسم (شعيب عليه السلام) حيث يبين للناس هدفه «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ»، وهذا الهدف يشترك فيه جميع الأنبياء الإلهيين على مستوى إصلاح العقيدة، الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٦ إصلاح الاخلاق، إصلاح العمل، وإصلاح الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع. وذهب بعض المفسرين في تفسير كلمة الإصلاح أن مفهومها هو أنني أريد إصلاح دنياكم بالعدالة وأخرتكم بالعبادة، ولكن من الواضح أن الإصلاح له مفهوم واسع يستوعب العدالة وغيرها أيضاً. ثم إن الآية الشريفة تذكر أن النبي شعيب عليه السلام ولغرض التوفيق في هذا الأمر المهم، أي إصلاح دين ودنيا الناس في جميع الموارد يطلب من الله تعالى التوفيق لذلك يقول: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». واللطف أن النبي شعيب عليه السلام قال هذا الكلام في حين أن قومه كانوا قد غرقوا في دوامة الفساد المالي والأخلاقي، بحيث كانوا يعدون نهى شعيب إياهم عن عبادة الأصنام والتطفيف في الميزان والفساد المالي مخالف لحريتهم ويقولون: نحن نتعجب منك ومن عقلك أنك تريد أن تقف أمام حرّيتنا على مستوى الفكر والعمل، وكأنهم مثلما نجده من بعض الناس في هذا الزمان الذين لا يدركون جيداً المفهوم الصحيح للحرية ولا يعلمون أولاً يريدون أن يعلموا أن الحرية التي يفتخر بها الإنسان لا بد وأن تكون مؤطرة باطار القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية وإلا فإن مصير الناس إلى الضلال والانحراف والسقوط، وبذلك أجابهم النبي شعيب عليه السلام أن هدفى هو الإصلاح بالمعنى الواقعي للكلمة لا الاستسلام لأهوائكم وطموحاتكم الدنيوية. والملفت للنظر أن قوم شعيب وصفوا نبيهم بأنه إنسان عاقل ورشيد «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ»، ولكنهم بمجرد أن رأوا هذا النبي يقف أمام مطامحهم ويتصدى لإصلاح فسادهم المالي والعقائدي، فإنهم برزوا له بالمخالفة والعناد. ومن مجموع الآيات أعلاه تتضح نقطتين مهمتين: الأولى: هي أن النسيمة والسعي لإيجاد الاختلاف بين الناس يعدّ من أكبر الذنوب وأقبح الصفات الأخلاقية الرذيلة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٧ الثانية: أن الإصلاح بين الناس يعدّ أحد الوظائف المهمة الإلهية والإنسانية والتي لا يمكن إهمالها والتغاضي عنها بأي دليل.

## النميمة في الروايات الإسلامية:

نظراً لأنّ النميمة تعدّ أشنع الظواهر الاجتماعية التي تنخر في مفاصل المجتمع البشري وتكون مصدراً ومنبعاً لكثير من المفاسد الأخرى وحتى القتل وسفك الدماء، فلذلك نجد أنّ الأحاديث الإسلامية قد نهت عن هذا السلوك الذميم بشدة وجاء في مضامين هذه الروايات ما يثير العجب من وخامة هذه الظاهرة وبشاعة هذا السلوك ومنها: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً لأصحابه: «أَلَا اتَّبِعُكُمْ بِشَرَارِكُمْ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ وَالْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَاءِ الْمَعَايِبِ» (١). النميمة بمعنى الصوت الواطئ الهاديء والذي يصدر من حركة شيء أو اصطدام قدم الإنسان في الأرض حال المشي، وبما أنّ النمام عادة يتحدّث من موقع النميمة بهدوء وإخفات لكي يلقى في نفس السامع أنّه يحمل إليه خبراً مهماً، ولذلك أطلقت هذه الكلمة على النمام ومن يسعى بين الأشخاص من موقع التفرقة وإثارة الاختلاف (٢). وذهب البعض إلى أنّ النميمة في الأصل بمعنى تزيين الكلام الباطل والكاذب (لأنّ الشخص النمام يسعى إلى أن يلبس لكلامه الكاذب لباساً جميلاً) (٣). وشبه هذا المعنى ورد أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام (٤). ٢- وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الْجَنَّةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْقَتَاتَيْنِ الْمَشَائِيْنِ بِالنَّمِيمَةِ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٨ (فتايات) من مادة قت (على وزن شط) وهي في الأصل بمعنى الكذب وإستراق السمع، سواءً كان يحمل في طياته النميمة أم لا، وعليه فإنّ القتات هو الشخص الذي يريد أن يطلع على أسرار الناس ويسعى بينهم لإفساد ذات البين والذي يقترن أحياناً بالنميمة أيضاً. وقد ورد في بعض الروايات وكتب اللغة أنّ القتات والنمام بمعنى واحد. ٣- وجاء في حديث آخر عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ صَاحِبُ النَّمِيمَةِ لَا يَسْتَرِيحُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ» (١). ٤- وورد في حديث آخر تعبير أشدّ عن الأشخاص النمامين حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد خطبه: «وَمَنْ مَشَى فِي نَمِيمَةٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ نَاراً تُحْرِقُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٢). ٥- وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَحْطٌ فَاسْتَسْقَى مُوسَى مَرَاتٍ فَمَا أَحْيَبَ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ إِنْ لَأَسْتَجِيبُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ وَفِيكُمْ نَمَامٌ قَدْ أَصَرَ عَلَى النَّمِيمَةِ، فَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ مَنْ هُوَ حَتَّى تُخْرِجَهُ مِنْ بَيْنِنَا؟ فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنَهَاكُمْ عَنْ النَّمِيمَةِ وَأَكُونَ نَمَاماً فَتَابُوا بِأَجْمَعِهِمْ فَسَقُوا» (٣). ٦- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أنّه قال: «أَرْبَعَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْكَاهِنُ وَالْمُنَافِقُ وَمَيْدَمُنُ الْخَمْرِ وَالْقَتَاتُ وَهُوَ النَّمَامُ» (٤). ٧- ورد عن أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله قوله: «النَّمَامُ جِسْرُ الشَّرِّ» (٥). ٨- وفي حديث آخر عن الإمام صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا تَجْتَمِعُ أَمَانَةٌ وَنَمِيمَةٌ» (٦)، أي الشخص النمام هو خائن أيضاً. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٦٩-٩ ونختم البحث بحديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله رغم وجود أحاديث كثيرة في هذا الباب، قال: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ الَّذِينَ يُؤَلَّفُونَ وَيَأْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَّكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ» (١). ومن مجموع هذه الأحاديث يستفاد جيداً أنّ النميمة تعتبر من الذنوب الكبيرة والخطرة جداً وتسبب خسران الدنيا والآخرة، والأشخاص الذين يرتكبون هذا الفعل الشنيع ويفرقون بين الأحية والأقرباء لا يرون سيماء الجنة أبداً إلاّ بأن يتوبوا من ذنوبهم ويتحرّكون على مستوى جبران أعمالهم وإصلاح ما أفسدوه، ومن خلال هذه الروايات نرى إشارات عميقة إلى حكمه تحريم هذا العمل السيء وآثاره السلبية على الفرد والمجتمع حيث سيأتي تفصيل ذلك في الأبحاث اللاحقة أيضاً.

## النتائج السلبية للنميمة:

سبق وأن قلنا أنّ الأساس والقاعدة الأصلية التي يقوم عليها المجتمع البشري هو الاعتماد المتقابل بين الأفراد، وهذا الاعتماد المتقابل هو سبب إتّحاد الصفوف والتعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع وبالتالي يتسبب في تقدّم المجتمع وتكامله على جميع الصّعيد. وقد أولى الإسلام أهميّة كبيرة لحفظ هذا العنصر الأساس وهو اعتماد الناس ووحدة صفوفهم وحرّم أي فعل من شأنه أن يلحق الضرر

بوحدة المجتمع وقوته، وأوجب كذلك كل فعل يسبب في تقوية شرائح المجتمع وشد أركانه (تارة من خلال الحكم الوجوبي واخرى من خلال الحكم الاستجابي). ولا شك أن النميمة هي من العوامل المهمة للترفة وإيجاد سوء الظن بين أفراد المجتمع وتفضي إلى العداوة وتعميق حالة الحقد والكرهية بين الأفراد، وتارة تؤدي إلى تلاشى الأسر وتمزق العوائل، ولهذا السبب فإن الروايات المذكورة آنفاً تعد الشخص التمام أشر أفراد المجتمع وأسوأهم. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٠ ونقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إِيَّاكُمْ وَالنَّمَائِمَ فَإِنَّهَا الضَّغَائِنُ» (١). ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أيضاً قوله: «إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ الضَّغِينَةَ وَتُبْعِدُ عَنِ اللَّهِ وَالنَّاسِ» (٢). وجاء في أحاديث اخرى التعبير بكلمة (شحناء) والتي تأتي بمعنى العداوة والضغينة أيضاً، ويتضح من الأحاديث الشريفة السابقة أن النمام هو أسوأ خلق الله تعالى بسبب سعيه للترفة بين الأحنه والأصدقاء وتحركه من موقع إتهام الأشخاص الظاهرين. ومضافاً إلى ذلك فإن الشخص التمام يعيش في المجتمع منفوراً ومطروداً، لأن طرفي النزاع اللذين استمعا لكلامه وصدقا به فإنهما غالباً يندمان بعد ذلك ويجدان في أنفسهما الكراهية الشديدة للشخص الذي سبب الفرقة بينهما ويلعنانه ويحذران الناس من الاتصال مع هذا الشخص والتصديق بأقواله، وقد مر علينا في أحد الأحاديث الشريفة أن النمام بعيد عن الله وبعيد عن خلق الله. والإمام الصادق عليه السلام يشبه التمام بالساحر الذي يفرق بين الأحنه ويقول في حديث مختصر وعميق المغزى: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ السَّحْرِ النَّمِيمَةَ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ وَيَجْلِبُ الْعَدَاوَةَ عَلَى الْمُتَصَافِّينَ وَيَسْفِكُ بِهَا الدِّمَاءَ وَيَهْدِمُ الدُّوْرَ وَيَكْشِفُ بِهَا السُّتُورَ، وَالنَّمَامِ أَشْرُّ مَنْ وَطَأَ عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمٍ» (٣). وطبعاً النميمة ليست بسحر، ولكنها تحمل في نتائجها آثار السحر، ولذلك فإن الإمام قال عنها أنها من أكبر أنواع السحر. والجدير بالذكر أن النميمة لها أثر تخريبي كبير وعادة تكون العناصر المخزبة أقوى أثراً وأسرع نتيجة من العناصر الخيرة والمصلحة، لأن الأرضية لسوء الظن موجودة في القلوب، وعندما يتحرك التمام في إثارتها وتفعيلها فإنها تتحرك بسرعة وتستيقظ بذلك عناصر الشر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧١ في واقع الإنسان ونفسه، ومن الممكن أن تقوم كلمات قليلة بعملية التفرقة بين صديقين حميمين مضى على صداقتهما أربعون سنة، كما أن بناء سد مفيد لخزن المياه يمكن أن يستغرق عشرات السنين ولكن تخريبه وإنهاده بواسطة الديناميت والمواد المتفجرة قد لا يستغرق سوى بضع ساعات، ونختم هذا الكلام بالحديث الشريف عن الإمام الصادق حيث قال: «السَّاعِي قَاتِلٌ ثَلَاثَةً، قَاتِلٌ نَفْسِهِ وَقَاتِلٌ مَنْ يُسْعَى بِهِ وَقَاتِلٌ مَنْ يُسْعَى لَهُ» (١). الكثير من الموارد المشهودة في حالات الامراء والملوك تبين أن من سعى إليهم بالنميمة ضد شخص آخر فإنه يلاقى حتفه على يدهم، وبهذه الصورة يكون الساعي أي التمام قاتل نفسه أمام الله تعالى، وكذلك الشخص الذي سعى إليه بالوشاية لأجل عدم التحقيق الكافي فكأنه قتل بيد ذلك الساعي لأنه قتل بريئاً. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض العلماء وأرباب اللغة ذهبوا إلى إشراك السعاية والنميمة في المعنى في حين أنه من الممكن وجود فرق بينهما (رغم أنهما متشابهان جداً) فالنميمة هي التفرقة بين صديقين أو بين قرييين أو شريكين، ولكن السعاية هي أن يتحدث الشخص بعيوب شخص آخر عند كبير من الكبراء، وبهذا يعرض ذلك الشخص إلى الخطر، ولذلك وردت السعاية في كثير من الروايات بعنوان السعاية عند السلطان وأمثال ذلك، ولكن تشابههما في المعنى تسبب في أن يذكران تحت عنوان واحد.

### دوافع النميمة:

وهذا الصفة الرذيلة كسائر الصفات الاخرى ترتبط مع الكثير من الرذائل الاخلاقية برابطة وثيقة، ومنها الحسد، لأن الشخص الحسود لا يتمكن أن يتحمل سعادة الآخرين وراحتهم والمودة التي تحكم بين الأفراد المتحابين والتعاون والتكاتف الذي يرى في تعاملهما وحياتهما المشتركة، ويتألم مما يرى من روابط المودة وشائج المحبة بين الزوجين والعوائل فيما بينهم، ولذلك يسعى من خلال النميمة أن يزرع بذور الفرقة وسوء الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٢ الظن بين هؤلاء الناس ويغرس العداوة والنزاع بين الأفراد. ومن الدوافع الاخرى للنميمة هو حب الدنيا، لأن المحب للدنيا والعاشق لها يرغب في زرع نبتة الاختلاف والفرقة بين الناس ويرى أن كسبه

وعمله الاقتصادي والاجتماعي في تقوية عناصر الشر والكراهية بين الأفراد. النفاق يعدّ عاملاً مهماً آخر من عوامل النسيمة ودوافعها، يقول القرآن الكريم عن المنافقين: «أَلَمْ إِنْتَهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ» (١). أجلّ فعلهم هو إيجاد الفساد والفتنة بأى وسيلة كانت، ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام الصادق قوله: «عَلَامَةُ النَّفَاقِ الْحَثُّ عَلَى النَّيْمَةِ» (٢). فمثل هذا الشخص يذهب إلى تلك الجهة، ويبدأ ببيان معائب الجهة الأخرى ويذمها ويتظاهر بأنه إنما يريد الخير لهذا الطرف دون ذاك، فيلقى بكلامه المسموم لدى هؤلاء، ثم يتوجه إلى الطرف المقابل ويكرّر نفس هذا العمل أيضاً، فهذا الشخص هو مصداق للإنسان ذي الوجهين وذو اللسانين والذي يهدف إلى إيجاد التفرقة والاختلاف وزيادة حدة الصراع الاجتماعي والتضاد الفئوي كيما يجد له فرصة من العيش وفسحة من الوقت. العامل الآخر من العوامل الموروثة للنسيمة هو ما يسمّى في هذا العصر بالمرض الأخلاقي (السادية)، فبعض الأفراد وبسبب عقدة الحقد أو حب الانتقام أو الانحرافات والأمراض النفسية الأخرى يجدون لذّة وراحة من أذى الآخرين والإضرار بهم، ويتألّمون ويحزنون عندما يرون الناس يعيشون براحة ونعمة، فهؤلاء الأشخاص يتحرّكون لهدم وحدة المجتمع وتدمير سعادة الناس من خلال السعاية بالآخرين والنسيمة ثم يجلسون جانباً ويشاهدون بلذّة الصراع والنزاع الدائر بين الأطراف والفئات الاجتماعية. ويستفاد من بعض الروايات أنّ أحد الأسباب في تفعيل حالة النسيمة وإيجاد هذه الصفة في النفس هو عدم طهارة المولد وعدم نقاء النطفة (وطبعاً هذا العامل لا يعدّ عاملاً اجبارياً، بل الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٣ يهوى الأرضية لذلك أى من العوامل المساعدة لظهور المرض) كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «السَّاعِي إِلَى النَّاسِ لِغَيْرِ رُشْدِهِ» (١). أى يسير في مسير الباطل، ذكر البعض أنّ (لغير رشده) يعنى أنّه ليس بولد حلال. ومن الأسباب الأخرى الاعتقاد على الكذب، فالإنسان الذي يعتاد على الكذب ويتعامل في حياته مع الآخرين من موقع الإصرار على الكذب يجد في نفسه دافعاً، لأنّ ينقل لهذا الشخص خبراً كاذباً عن ذلك الشخص ويوقع بينهما بحيث يؤدّي إلى ارباك العلاقة بينهما وفسادها. وفي الحديث المطول عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حول علائم الصفات الإيجابية والسلبية نقرأ: «أَمَّا عَلَامَةُ الْكَذَّابِ فَأَرْبَعَةٌ ... إِنْ قَالَ لَمْ يَصِدُقْ وَإِنْ قِيلَ لَهُ لَمْ يُصِدِّقْ وَالنَّمِيمَةُ وَالْبُهْتُ» (٢). يعنى عندما تتجدّر صفة الكذب في أعماق الإنسان يظهر على سلوكه هذه الأفعال الأربعة.

### طرق العلاج:

ولابدّ لغرض علاج هذه الظاهرة المشؤمة في سلوك الفرد الأخلاقي وقطع جذورها من واقع الإنسان ونفسه من الذهاب والتوجه إلى العلل والدوافع، ومن المعلوم أنّه مادام عنصر الحسد، وحبّ الدنيا، والنفاق، وحبّ العدوان، والانتقام، التي تمثّل الدوافع الأصلية لهذه الظاهرة الذميمة، باقية في وجود الإنسان فإنّ هذه الرذيلة الأخلاقية باقية كذلك ولا يمكن إزالتها بسهولة من باطن الإنسان، ومن الممكن للإنسان أن يحدّد أو يزيل هذه الخصلة بعزم شديد وتصميم قوى لمدّة محدودة ولكنها تظهر في مواطن معينة لاحقاً. ولا ننسى أنّ الكثير من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية بينها تأثير متقابل وكل واحد منها الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٤ يعدّ سبباً وعلّة للآخر وأحياناً مسبباً ومعلولاً، وذلك في حالات ومواطن مختلفة. ومن جهة أخرى فإنّ التأمل في الآثار السلبية الكثيرة المترتبة على النسيمة والسعاية والتي تورث المجتمع الدمار والخراب وتفضي إلى عواقب وخيمة على مستوى العوائل والأسر كما تقدّم تفصيل ذلك في الأبحاث السابقة، وكذلك ما يترتب على النسيمة من العذاب الإلهي في الدنيا والآخرة فإنّ ذلك يشكل عاملاً مهماً من عوامل التصدي لاستفحال هذه الظاهرة والحالة الذميمة وبالتالي إزالتها من موقع النفس. إنّ الشخص التمام وخاصة إذا كان قد اعتاد على النسيمة يجب عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار الآثار الوخيمة الاجتماعية والعقوبات الإلهية المترتبة على هذا العمل ويعيد إلى ذهنه هذا المعنى كل يوم ويلقّن نفسه أنّ عاقبة النسيمة والسعاية هي هذه وهذه، وإلا فإنّ الوسواس الشيطانية والأهواء النفسية لا تدعه لحاله. معاشره الأفراد المؤمنين يمكنها أن تكون عاملاً آخر من عوامل التصدي للنسيمة، لأنّ الشخص المبتلى بهذا المرض عندما يتحدّث في مجالس المؤمنين ويرى أنّهم لا يعتنون بكلامه ولا يهتمون لأقواله وقد يطردونه من مجالسهم بسبب ذلك، فإنّه سينته بسرعه إلى عدم



وجود المشتري لكلامه، بل إن كلامه تسبب في نفرة الناس من حوله وسوء ظنهم به، ونفس هذا الأمر يقوى فيه الإرادة على ترك هذا العمل القبيح وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَكْذِبِ السَّعَايَةَ وَالنَّمِيمَةَ بَاطِلَةٌ كَأَنَّتْ أَوْ صِيْحِحَةٌ» (١). ونقرأ في حديث آخر أن رجلاً جاء بكتاب له إلى أمير المؤمنين عليه السلام كتب فيه النميمة عن شخص آخر فقال له الإمام عليه السلام: «إِنْ كُنْتَ صَادِقًا مَقْتَنَّاكَ وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا عَاقَبْنَاكَ وَإِنْ أَحْبَبْتَ الْقَيْلَ أَقْلْنَاكَ، قَالَ: بَلْ تُقِيلُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢). ومن الجدير بالذكر أن الأشخاص الذين يتحرّكون نحوك بالنميمة والتحدّث بالسوء عن شخص آخر فإنهم سوف يتحدّثون عنك بسوء لدى ذلك الشخص أيضاً كما ورد في روضة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٥ بحار الانوار عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وَمَنْ نَمَّ إِلَيْكَ سَيُئِمُّ عَلَيْكَ» (١). وآخر كلام في هذا الباب هو أن أغلب المفاسد الأخلاقية الكامنة في الصفات الرذيلة ناشئة من ضعف الإيمان، فكلما سعى الشخص لتقوية دعائم إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، فإن هذه الرذائل سوف تتلاشى وتزول من باطنه تدريجياً.

### موارد الاستثناء:

إن حرمة النميمة بعنوان أنها من الذنوب الكبيرة والقيحة في نظر علماء الأخلاق يعدّ أصلاً أساسياً يجب الإهتمام به دائماً، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يكون لهذا الحكم استثناءات كما هو الحال في سائر الأحكام الشرعية حيث يكون نقل الكلام من هذا إلى ذاك ليس جائزاً فحسب، بل يكون واجباً، ومن تلك الموارد ما إذا شعر الإنسان أن الشخص الفلاني أو الفئة الفلانية تريد قتل زيد من الناس وكانت المسألة جدية، فهنا يكون نقل كلامهم إلى زيد ليتخذ جانب الحذر والاحتياط ويتعد عن الخطر من الواجبات لإنقاذ نفس بريئة، كما حدث ذلك لموسى عليه السلام بعدما قتل القبطي المعتدى فجاء أحد الأشخاص وقال له: «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» (٢). وأحياناً تؤدي النميمة نتائج إيجابية للمؤمنين تعمل على إيجاد الفرقة والاختلاف في صفوف الأعداء، فهذا المورد من موارد الجواز أو الوجوب كما ورد في قصّة (نعيم بن مسعود) في حرب الأحراب حيث أوقع الفرقة والاختلاف بين طائفتين من أعداء المسلمين وهم المشركون واليهود بما نقل من كلمات هؤلاء لهؤلاء وبالعكس فكانت النتيجة إساءة الظن بينهم وتخاذلهم عن قتال المسلمين. ولكن مثل هذه الاستثناءات نادرة جداً فلا ينبغي أن تكون ذريعة للتلوث بهذه الخطيئة وقبول كلام من يسعى بالنميمة بين الناس، ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٦ قال: «لَا تَعَجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ وَاشٍ وَإِنْ تَشَبَهَ بِالنَّاصِحِينَ» (١). النقطة المقابلة للنميمة والسعاية هي إصلاح ذات البين بأن يسعى الإنسان بكلامه الجميل إلى إقرار الصلح والصفاء بين شخصين متخاصمين ومتعاديين، وهذه الصفة تعدّ أحد الفضائل المهمة الأخلاقية والتي وردت الإشارة إليها في آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية. وقد تمّ استعراض الآيات القرآنية التي تتحدّث عن هذا المعنى في ذيل الآيات المتعلقة بدم النميمة والسعاية على المستوى السلبي، وهنا نشير إلى طائفة من الروايات الشريفة في هذا المجال:

١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ مَشَى فِي صَلْحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَلَّى عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ وَاعْطَى ثَوَابَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ» (٢). ٢- وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام في آخر وصاياه لولديه الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام أنه قال ضمن وصيته لهما بعدم ترك إصلاح ذات البين: «فَإِنِّي سَجَعْتُ جَدُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ» (٣). ٣- وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ» (٤). ٤- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارَبَ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا» (٥). ٥- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال للمفضل بن عمر: «إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شِيَعَتِنَا مُنَازَعَةً فَأَقْتَدِهِ مِنْ مَالِي» (٦). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٧٧ وعلى هذا الأساس فإن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى أبو حنيفة سأل الحجاج قال: «مَرَرْنَا بِالْمُفْضَلِ وَأَنَا وَخِيتِي

نتشاجر في ميراث، فَوَقَفَ عَلَيْنَا سَاعِيَةً ثُمَّ قَالَ لَنَا: تَعَالَوْا إِلَى الْمَنْزَلِ فَاتَّبِئْنَاهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَنَا بِأَرْبَعِمِائَةٍ دِرْهَمٍ فَدَفَعَهَا إِلَيْنَا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى إِذَا اسْتَوْتَقَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِنْ صَاحِبِهِ، قَالَ: أَمَّا إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مَالِي وَلَكِنْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَنِي إِذَا تَنَازَعَ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِنَا أَنْ أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا وَأَفْتِدِيَهُمَا مِنْ مَالِهِ، فَهَذَا مِنْ مَالِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ»<sup>٦</sup>. وورد في تفسير الآية الشريفة: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ» أَنَّ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِذَا دُعِيَ لِصُلْحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَلَا تَقُلْ عَلَيَّ يَمِينِي أَنْ لَا أَفْعَلَ»<sup>٢</sup>. وهذا الحديث يشير إلى أنه لو واجه الإنسان حين إقدامه لإصلاح ذات البين بعض المشاكل ثم حلف أن يترك هذا السلوك الإصلاحي فَإِنَّ الْإِمَامَ يَقُولُ بَأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَسْمِ وَالْحَلْفِ لَا يُعْتَابَرُ لَهُ وَإِنَّ الْمَشَاكِلَ الْمُحِيطَةَ بِمِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَمْنَعِ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ وَالْعَمَلِ عَلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ. ٧- وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ اسْتَصْلَحَ الْأَضْدَادَ بَلَغَ الثَّرَادَ»<sup>٣</sup>. والمراد من الأضداد في الحديث الشريف ليست الأضداد الفلسفية التي لا تقبل الجمع، بل الأضداد العرفية، وطبعاً هناك تفسير آخر لهذا الحديث أيضاً وهو أن يكون المراد أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَطَاعَ التَّنْسِيقَ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ وَالْفِئَاتِ الَّتِي تَعِيشُ أَفْكَارَ مُخْتَلِفَةً وَمْتَنوعَةً، فَإِنَّهُ يَبْلُغُ مَرَادَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ نَعْمَ الْعَوْنُ لَهُ عَلَى إِدَارَةِ أُمُورِ الْمَجْتَمَعِ لِكُلِّ هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْمُتَضَادَّةِ. ٨- إِنَّ أَمَمِيَّةَ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ الْكُذْبَ قَدْ يَكُونُ مَبَاحاً فِي هَذَا السَّبِيلِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «الْكَلَامُ ثَلَاثَةٌ صِدْقٌ وَكِبْرٌ وَكَذِبٌ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٧٨ وَإِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ قِيلَ جُعِلَتْ فِدَاكَ مَا الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ؟ قَالَ: تَسْمَعُ مِنَ الرَّجُلِ كَلَاماً يَبْلُغُهُ فَتَخَبُّتُ نَفْسُهُ فَتَلْقَاهُ فَتَقُولُ سَمِعْتُ مِنْ فُلَانٍ قَالَ فَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ كَذَا وَكَذَا خِلَافَ مَا سَمِعْتُ مِنْهُ»<sup>١</sup>. ويقول المرحوم العلامة المجلسي في شرح هذا الحديث: «وهذا القول وإن كان كذباً لغوياً وعرفاً جائزاً لقصد الإصلاح بين الناس، وكأنه لا خلاف فيه عند أهل الإسلام، والظاهر أنه لا تورية ولا تعريض فيه وإن أمكن أن يقصد تورية بعيدة كأن ينوى أنه كان حقه أن يقول كذا، ولو صافيته لقال فيك كذا، ولكنه بعيد»<sup>٢</sup>. ولا شك أَنَّ الْكَلَامَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ، فَمَا مَطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ وَمُخَالَفٌ لَهُ، فَالْأَوَّلُ يَدْعِي صِدْقاً وَالثَّانِي كُذْباً، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ الْكَلَامَ الْمُخَالَفَ لِلْوَاقِعِ بِدَوْرِهِ عَلَى قَسْمَيْنِ: فِيمَا أَنْ يَكُونُ مَوْجِباً لِلْفُسَادِ أَوْ مَوْجِباً لِلْإِصْلَاحِ، فَإِنَّ الْإِمَامَ قَدْ فَضَّلَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَسْمَيْنِ وَقَرَّرَ أَنَّ الْقَسْمَ الْمَوْجِبَ لِلْإِصْلَاحِ هُوَ قَسْمُ ثَالِثٍ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ. وَمِنْ مَجْمُوعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ يَتَّضِحُ جَيِّداً أَنَّ مِنْ بَيْنِ أَعْمَالِ الْخَيْرِ يَنْدُرُ وَجُودَ عَمَلٍ مَهْمٌ وَفَضِيلَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ تَكُونُ فِي مَرْتَبَةِ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَهِيَ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصَلِّيَ عَلَى هَذَا الشَّخْصِ الْمَصْلُوحِ وَيَكُونُ عَمَلُهُ أَسْمَى وَأَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصُّوْمِ بَلْ يَكُونُ فِي مَرْتَبَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمِنْ الْبَدِيهِ أَنْ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ لَا يَتَسَبَّبُ فِي الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ عَلَى الْمَسْتَوَى الْفَرْدِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ يَتَسَبَّبُ فِي إِسْجَامِ طَوَائِفِ الْمَجْتَمَعِ وَتَقْوِيَةِ دَعَائِمِهِ وَتَوْطِيدِ أَرْكَانِ الْمُجْتَمَعِ وَالْمُؤَدَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ، وَهَذَا الْإِتِّحَادُ وَالْإِسْجَامُ يَتَسَبَّبُ فِي انْتِصَارِ وَعِزَّةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي حَرَكَةِ التَّقَدُّمِ الْحَضَارِيِّ وَالْإِنْسَانِي.

### طرق إصلاح ذات البين:

إنَّ عَمَلِيَّةَ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى شَكْلِ أَفْرَادٍ أَوْ جَمَاعَاتٍ وَطَوَائِفٍ هُوَ عَمَلٌ مَعْقَدٌ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٧٩ ودقيق ولا سيما إذا كانت العداء والكراهية قد توغلت في الأعماق، ولهذا فقد يستغرق تحقيق هذا المعنى وقتاً طويلاً، ولا بد من مراعاة بعض الدقائق والنكات الظرفية في هذا السبيل، وكذلك يحتاج إلى التعرّف على بعض مبادئ علم النفس وتوصيات علماء النفس في هذا المجال، ومن المعلوم أَنَّ الْوَصُولَ إِلَى هَذَا الْهَدَفِ الْمُؤَثِّرِ لَا يَبْدَأُ لَهُ مِنْ رِعَايَةِ بَعْضِ الْأَصُولِ وَالنَّقَاطِ الْمَهْمِيَّةِ، وَمِنْهَا: ١- العُثُورُ عَلَى جُذُورِ الْإِخْتِلَافِ وَالنَّفَاقِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْرِفِ الْأَسْبَابَ وَيُبْحَثْ فِي جُذُورِ الْمَشْكَلَةِ، فَإِنَّ عِلَاجَهَا يَكُونُ عَسِيرًا لِلْغَايَةِ، فَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَحَرَّكَ عَلَى مَسْتَوَى الْبَحْثِ عَلَى جُذُورِ الْخِلَافِ وَالنِّزَاعِ وَسَعَى إِلَى إِزَالَةِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَالْجُذُورِ مِنْ وَاقِعِ النَّفْسِ لَدَى الْمُتَخَاصِمِينَ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ عَلَى النَّتِيجَةِ أَسْرَع. ٢- إِنَّ التَّسِيرَ فِي عَمَلِيَّةِ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَارِدِ تَعْطَى نَتَائِجَ مَعْكُوسَةً، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ الْإِخْتِلَافَاتُ عَمِيقَةً وَمُتْجَذِرَةً، فَفِي هَذِهِ الْمَوَارِدِ يَجِبُ دِرَاسَةٌ أَوْجَهُ الْإِخْتِلَافِ بِدَقَّةٍ وَأَحْيَانًا يَتَطَلَّبُ ذَلِكَ كِتَابَتَهَا فِي

دفتري وبالارقام ثم تحليلها ودراستها وحلها واحدة بعد الاخرى، ويعطى لكل طرف من المتخاصمين إمتيازات معقولة وبهذا يوجد التعادل والانسجام بينهما ويترتب على ذلك النجاح في عملية الإصلاح. ٣- يجب الاستفادة من المسائل العاطفية والدينية أفضل استفادة من خلال تلاوة بعض الآيات القرآنية والروايات الشريفة التي من شأنها تحريك عناصر الخير وعواطف المحبة في نفوس المتخاصمين، والسعي لدعم شخصية كل طرف لكي يتحرك باتجاه الطرف الآخر على مستوى العفو والصفح من موقع الاحساس لشخصيته وكرامته لا من موقع الاجبار والإذعان للأمر الواقع. ٤- وأحياناً يجب على المصلح أن يضحى بشيء من الأشياء وعلى سبيل المثال يدفع للطرفين المتخاصمين مبلغاً من المال أو يهدى لهما هدية كما قرأنا في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام الذي خاطب فيه المفضل، ومن المعلوم أن المال الذي ينفق في هذا السبيل يعدّ من أفضل أنواع الانفاق في سبيل الله. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٠ ٥- إن المصلح يجب أن يتوقى التحيز إلى أحد الطرفين ويتجنب ذلك مهما أمكن وبعبارة اخرى أن يكون محايداً وفي نفس الوقت محبباً ونصوحاً إلى كل واحد من الطرفين، لأن أي تحيز إلى أحدهما سوف يمنعه من الوصول إلى النتيجة المطلوبة، وطبعاً يستثنى من ذلك الأشخاص الذين لم يتعلموا المنطق الإنساني ولا- يتعاملون إلا من موقع الجهل والتعصب والعناد أمام الحق وعملية الإصلاح فإنه ينبغي سلوك طريق آخر معهم كما تقدّم في تفسير الآيات أعلاه. ٦- وفي كثير من المواقع يحتاج الإصلاح إلى سلوك طريق طويل محفوف بالمكاره ويحتاج إلى الصبر والتأني والتعامل مع القضية ببرود الأعصاب، فالشخص المصلح لا ينبغي أن ييأس بسرعة ويوصلد الأبواب أمامه، بل يجب أن يعلم أن أشدّ التعقيدات الاجتماعية وأعمق المشكلات يمكن حلها بالصبر والتأني والتفكير والتدبير، وعليه فإذا لم يفلح في مرحلة من المراحل فلا ينبغي أن يعلن فشله ويتراجع عن مسيرته الإصلاحية. وبتعبير آخر: إنّ الافساد بين الناس عمل تخريبي يسير ولكن الإصلاح له بعد بناء ومعقد، فالبناء العظيم يمكن تدميره بعدة قنابل فيغدوا تراباً في لحظات، ولكنّ تشييد مثل هذا البناء يحتاج إلى سنوات مديدة، وهكذا الحال في بناء الثقة والمحيّة والاعتماد المتقابل بين أفراد المجتمع البشري، فتخريب مثل هذا البناء الاجتماعي سهل يسير، ولكنّ بناءه وتشييده هو عملية معقدة تحتاج إلى مدّة طويلة وصبر كبير، وعليه فإنّ عملية الإصلاح لا تنسجم مع التسرع والعجلة. ونختم هذا الكلام بحكاية ذات مغزى أوردها المجلسي في كتاب بحار الانوار، نقلها عن بعض العلماء وهو أنه: باع بعضهم عبداً وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النميّة، قال رضيت به، فاشتراه فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجه مولاه: إن زوجك لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسيقى واحلقى من قفاه شعرات حتى أسحر عليها فيحبيك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف، فتناوم فجاءته الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨١ المرأة بالموسى فظنّ أنّها تقتله فقام الزوج وقتلها، فجاء أهل المرأة وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر «١».

أجل فإنه بهذه السهولة ممكن إيقاع الحرب والنزاع الدموي بين قبيلتين ولكنّ الإصلاح بينهما ليس بهذه السهولة قطعاً. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٢

## سوء الظنّ وحسن الظنّ

### تنويه:

إنّ سوء الظن عندما يتحوّل إلى حالة باطنية وخصلة أخلاقية فإنه يعدّ من أشنع الرذائل الأخلاقية التي تؤدّي إلى الفرقة بين العوائل وتمزّق المجتميع البشرية والإنسانية. وأول ثمرة سلبية لسوء الظن هي عدم الاعتماد وزوال الثقة بين الناس، وعندما تزول الثقة فإنّ عملية التعاون والتكاتف في حركة التفاعل الاجتماعي ستكون عسيرة للغاية، ومع زوال التعاون والتكاتف في المجتمع البشري فسوف يتبدّل هذا المجتمع إلى جحيم ومحرقه يعيش فيه الأفراد حالة الغربة والوحدة من الأفراد الآخرين ويتحرّكون في تعاملهم من موقع الريبة والتشكيك والتآمر ضدّ الآخر. ولهذا السبب فإنّ الإسلام ولأجل توكيد ظاهرة الاعتماد المتقابل بين الأفراد والامم إهتمّ بهذه

المسألة اهتماماً بالغاً، فهي بشدة عن سوء الظن ومنع الأسباب التي تورث سوء الظن لدى الأفراد، وعلى العكس من ذلك فإنه مدح وأيد بشدة حسن الظن الذي يفضى إلى زيادة المحبة والاعتماد المتقابل والثقة بالطرف الآخر، وبالتالي تحرك المجتمع نحو التقدم والتعالى والتكامل فى مسيرته الحضارية، واعتبر أن حسن الظن من الصفات والأعمال الإيجابية جداً ودعى الناس إلى ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٤ ولا- شك أن حسن الظن قد يؤدى إلى بعض الخسارة أحياناً، ولكن هذه الخسارة لا- تقبل القياس مع الاضرار الوخيمة والآثار السلبية الكثيرة المترتبة على سوء الظن. وطبعاً، فإن لسوء الظن فروعاً وأقساماً، وأحد أسوأ هذه الفروع هو سوء الظن بالله والذى يأتى بحثه لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة دروساً فى دائرة سوء الظن وحسن الظن: ١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا» (١). ٢- «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنَّ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» (٢). ٣- «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذِئْرَةُ السَّوْءِ وَعَذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (٣). ٤- «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ» (٤). ٥- «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» (٥). ٦- «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» (٦).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى»: تستعرض الحديث عن سوء الظن وتنتهى المؤمنين بصراحة وبشدة عن الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٥ سوء الظن فى تعاملهم الاجتماعى فيما بينهم وتشير إلى أنه قد يكون بمثابة المقدمة إلى التجسس والغيبة وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا». ولكن لماذا ورد التعبير (كثيراً من الظن)؟ لأن أكثر أشكال الظن بين الناس بالنسبة إلى الطرف الآخر تقع فى دائرة السوء والشر، لذلك ورد التعبير بقوله (كثيراً). ويحتمل أيضاً أن يكون المراد من كلمة (كثير) أن أغلب الظنون هى من جنس الظنون السيئة بل إن الظنون السيئة كثيرة بالنسبة لها رغم أنها بالمقاييس إلى ظنون الخير لا تكون كثيرة، ولكن ظاهر الآية ينسجم مع المعنى الأول أكثر. والملفت للنظر هو أن هذه الآية بعد النهى عن كثير من الظن ذكرت العلة فى ذلك وقالت بأن بعض الظنون هى فى الحقيقة إثم وذنب، وهو إشارة إلى أن الظنون السيئة على قسمين: فمنها ما يطابق الواقع ومنها ما يخالف الواقع، فما كان على خلاف الواقع يكون إثماً وذنباً، وبما أن الإنسان لا يعلم أيهما المطابق للواقع وأيها المخالف، وعليه فيجب تجنب الظن السيء اطلاقاً حتى لا- يتورط الإنسان فى سوء الظن المخالف للواقع وبالتالي يقع فى الإثم وممارسة الخطيئة. وبما أن سوء الظن بالنسبة إلى الأعمال الخاصة للناس يعد أحد أسباب التجسس، وأحد الدوافع التى تقود الإنسان إلى أن يتجسس على أخيه، والتجسس بدوره يتسبب أحياناً فى الكشف عن العيوب المستورة للآخرين وبالتالي سيكون سبباً ودافعاً للغيبة أيضاً، ولذلك فإن الآية الشريفة تتحدث عن سوء الظن أولاً، وفى المرحلة الثانية ذكرت عنصر التجسس، وفى الثالثة نهت عن الغيبة. وهناك بحث سنأتى عليه فى ختام البحث عن الآيات والروايات الشريفة وهو أنه هل أن سوء الظن أمر اختياري أو غير اختياري؟ وإذا كان غير اختياري فكيف يمكن النهى عنه؟ وإذا كان اختياريًا فهل يحرم مطلقاً حتى إذا لم يرتكب الإنسان عملاً بدافع من سوء الظن هذا، أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٦ وتأتى «الآية الثانية»: لتتحدث عن المنافقين من موقع الذم والتوبيخ، وهم الذين إمتنعوا من السير فى ركب النبى صلى الله عليه وآله والخروج معه فى واقعة الحديبية وتوهموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين الذين إنطلقوا إلى مكة سوف لا يعودون إلى أهليهم أبداً بل سيقتلون عن آخرهم بأيدي المشركين من قريش فى حين أن القضية إنعكست تماماً وعاد المسلمون بذلك النصر الباهر فى صلح الحديبية وهو سالمون لم يصب أحد منهم بأذى فتقول الآية: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنَّ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا». ومفردة (بور) فى

الأصل بمعنى شدة الكساد، وبما أن شدة الكساد باعثه على فساد الشيء كما في المثل المعروف لدى العرب (كسد حتى فسد) فإن هذه الكلمة تأتي بمعنى الفساد، ثم أطلقت على معنى يتضمّن الهلكة والإنذار، وأطلقت على الأرض الخالية من الشجر والنبات فيقال (بائر) لأنها في الحقيقة فاسدة وميتة. وهكذا نجد أن فئة المنافقين الذين عاشوا هذا الظن السيء في واقعه صلح الحديبية لم يكونوا قلة، ومن المعلوم أنه لم يصيبهم الهلاك بمعنى الموت، وعليه فإن (بور) بمعنى الهلاك المعنوي والمحرومية من الثواب الإلهي وخلو أرض قلوبهم من أشجار الفضائل الأخلاقية والشجرة الطيبة للإيمان، أو يكون المراد الهلاك الأخرى بسبب العذاب الإلهي، والهلاك الديني بسبب الفضيحة، وعلى أية حال فالآية الشريفة تدل بوضوح على النهي عن سوء الظن وخاصة بالنسبة إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وفي «الآية الثالثة»: من الآيات محل البحث نجد بحثاً آخر عن سوء الظن بالنسبة إلى ساحة الربوبية والحقيقة المقدسة الإلهية في حين أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن سوء الظن بالنسبة لأفراد البشر، فتقول الآية بعد أن قررت أن الهدف الآخر من الفتح المبين وهو فتح الحديبية أن الله تعالى يريد أن يعذب المنافقين والمشرّكين فتقول: «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ الْإِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٨٧ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا». إن سوء الظن بالله تعالى من جانب هؤلاء هو لانهم كانوا يتصوّرون أن الوعود الإلهية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله سوف لا تتحقق أبداً وأن المسلمين مضافاً إلى عدم انتصارهم على العدو فإنهم سوف لا يعودون إلى المدينة إطلاقاً، كما كان في ظن المشركين أيضاً حيث توهموا أنهم سوف يهزمون رسول الله وأصحابه لقلة عددهم وعدم توفر الأسلحة الكافية في أيديهم وأن نجم الإسلام منذر بالزوال والافول، في حين أن الله تعالى وعد المسلمين النصر الأكيد وتحقق لهم ذلك، بحيث أن المشركين لم يتجرأوا أبداً على الهجوم على المسلمين (رغم أن المسلمين في الحديبية وعلى مقربة من مكة كانوا تحت يدهم ولم يكونوا يحملون أى سلاح لأنهم كانوا قاصدين لزيارة بيت الله الحرام) وهكذا ألقى الله تعالى الرعب والخوف في قلوب المشركين إلى درجة أنهم خضعوا ووجدوا أنفسهم ملزمين بكتابة الصلح المعروف بصلح الحديبية، ذلك الصلح الذي مهد الطريق للانتصارات الباهرة التي نالها المسلمون فيما بعد. وعلى أية حال فإن القرآن الكريم يذم سوء الظن هذا ذمّاً شديداً ويعد عليه العذاب الأليم والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة. والملفت للنظر في هذه الآية أن مسألة سوء الظن بالله تعالى كانت بمثابة القدر المشترك بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وبينت هذه الآية أن جميع هذه الفئات والطوائف شركاء في هذا الأمر، بخلاف المؤمنين الذين يحسنون الظن بالله تعالى وبوعده وبرسوله الكريم ويعلمون أن هذه الوعود سوف تتحقق قطعاً، ولعلّ تحققها قد يتأخر فترة من الوقت لمصالح معينة ولكنها أمر حتمي في حركة عالم الوجود، لأن الله تعالى العالم بكل شيء والقادر على كل شيء لا يمكن مع هذا العلم المطلق والقدرة اللامتناهية أن يتخلف في وعده، ولهذا السبب فإن الآية التالية لهذه الآية من سورة الفتح تقول: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا». أما السبب الذي دفع المنافقين والمشركين أن يقعوا في حباله سوء الظن في حين أن الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٨ قلوب المؤمنين مملوءة بحسن الظن بالله تعالى فإنما هو لأجل أن المشركين والمنافقين لا يرون من الامور إلّا ظاهرها ولا يتحرّكون إلّا من موقع الأخذ بظاهر الحوادث والوقائع دون الحقائق الكامنة في باطنها، في حين أن المؤمنين الحقيقيين يتوجهون إلى باطن الامور ويأخذون بالمحتوى والمضمون للواقعة. وتستعرض «الآية الرابعة» أيضاً سوء الظن بالنسبة إلى الوعد الإلهي الذي تزامن مع حرب الأحزاب، وهي الحرب التي اعتبرت أخطر الحروب التي واجهها النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون، لأن المشركين كانوا قد اتحدوا مع جميع المخالفين للإسلام وشكّلوا أعظم جيش في ذلك الزمان بهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، وكان هذا الجيش من القوة والعظمة أن ضعيفي الإيمان تزلزلوا لذلك وشككوا بالوعد الإلهي في نصره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين، فتقول الآية حاكية عن هذه الحالة الشديدة التي كان يعيشها المسلمون في ذلك الوقت العصيب: «إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا». ولا شك أن سوء الظن بالله تعالى يختلف كثيراً عن سوء الظن بالناس، لأن سوء الظن بالناس

غالباً ما ينتهي بارتكاب الإثم أو سلوك طريق خاطيء في التعامل مع الطرف الآخر، في حين أن سوء الظن بالله تعالى يتسبب في تزلزل دعائم الإيمان وأركان التوحيد في قلب المؤمن، أو أنه يكون دافعاً وعاملاً من العوامل لذلك، لأن الاعتقاد بأن الله تعالى قد يخلف وعده يقع في دائرة الكفر، لأن خلف الوعد إما ناشيء من الجهل أو العجز أو الكذب، ومعلوم أن كل واحد من هذه الامور محال على الله تعالى وأن الذات المقدسة منزّهة عن هذه الامور السلبية، ولهذا السبب فإن الآيات محل البحث التي تستعرض سوء الظن بالله تدم هذه الحالة بشدة وعنف. «الآية الخامسة» تتحدث أيضاً عن سوء الظن بالله تعالى، وهذه الآية ناظرة إلى الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٨٩ غزوة أحد والتي ابتلى بعض المسلمين فيها بعد هزيمتهم في ميدان الحرب أمام المشركين بسوء الظن بالنسبة إلى الوعد الإلهي بالنصر، فنزلت الآية المذكورة موبخة لهم بشدة على سوء الظن هذا، في حين أن الآيات التي وردت قبلها هي في الحقيقة إشارة إلى أن وعد الله بالنصر على الأعداء قد تحقق في بداية الأمر في معركة أحد، ولكن طلاب الدنيا والطامعين في زخارفها غفلوا عن هجوم العدو وانشغلوا بجمع الغنائم الحربية، وبالتالي تسببوا في الهزيمة المرة لجيش الإسلام، فهنا نجد أن الله تعالى قد وفى بعهده ووعده ولكنهم كما تقول الآية لم يتحرّكوا في خط الإيمان والاستقامة، ثم تأتي الآية محل البحث لتقول للمسلمين: «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا». وفي ذيل هذه الآية إشارة أيضاً إلى أن هذا إمتحان إلهي لكم ليتضح ميزان وفاءكم واستقامتكم ومقدار إيمانكم بالله تعالى وبالإسلام. ويتضح من سياق هذه الآية والآيات التي قبلها هذه الحقيقة، وهي أن مسألة سوء الظن بالله غالباً تصيب الأشخاص الضعيفي الإيمان في مواقع الشدة والأزمة، سواء كانوا في معركة الأحزاب، أو في أحد أو في الحديبية، وفي الحقيقة أن مثل هذه المواقع تعدّ بمثابة المختبر للكشف عن جوهر إيمان الشخص وإخلاصه. وتأتي «الآية السادسة» والأخيرة لتستعرض أيضاً سوء الظن بشكل عام من موقع الذم وتدعو كذلك إلى حسن الظن، وهذه الآية ناظرة إلى قصّة الإفك المعروفة في عصر النزول، ونعلم أن جماعة من المنافقين إتهموا إحدى زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخروجها عن جادة العفاف وشاعوا ذلك بين الناس إلى درجة أن هذه الشائعة وبلحظات قليلة استوعبت جميع من في المدينة، وبالرغم من أن هدف المنافقين حسب الظاهر هو اتهام إحدى زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولكنهم في الواقع كانوا يستهدفون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام والقرآن بالذات، وفي هذه الفترة الحرجة نزلت الآيات أعلاه لتفضح نفاق المنافقين وتزيل الحجاب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٠ عن سلوكياتهم الدنيئة وتبطل مؤامراتهم الخبيثة، ونرى أن عبارات هذه الآيات من القوة والدقّة في المضامين والبلاغة بحيث أنها تثير الاعجاب لدى كل إنسان، والآية مورد البحث هي أحد الآيات الخمسة عشر النازلة في واقعة الإفك حيث تقول الآية: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ». والتعبير بالمؤمنين والمؤمنات يدل على أن من علامات الإيمان هو حسن الظن بالنسبة إلى المسلمين، وتدل على أن سوء الظن يتقاطع مع جوهر الإيمان. وفي الواقع فإن هذه الآية تقسم الناس إلى ثلاث طوائف طائفة المنافقين الذين يشيعون الإفك بين المسلمين، وطائفة منهم هم القادة والكبار من المنافقين الذين تعبّر عنهم الآية: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ». وطائفة ثالثة هم المؤمنون الذين تورطوا في تصديق هذا الإفك المبين من موقع طيبة أنفسهم وطهارة قلوبهم وسداجة عقولهم. فهنا نجد أن القرآن الكريم يتحدّث في هذه الآية مخاطباً الطائفة الثالثة من موقع الذم الشديد والتوبيخ وأنهم لماذا أصبحوا آله وأداة بيد المنافقين الذين يشيعون الإفك والفاحشة بين الناس؟ وفي هذه الآيات الستة التي بحثت في بعضها سوء الظن بالنسبة إلى الناس وفي بعضها الآخر سوء الظن بالنسبة إلى الله تعالى نرى أن هذه الرذيلة الأخلاقية قد وقعت موقع الذم الشديد، وبعض الآيات أشارت إلى بعض ما يترتب عليها من الآثار السلبية على حياة الإنسان، ولو لم يكن في بيان قبح هذه الرذيلة الأخلاقية سوى ما ورد في بعض الآيات القرآنية الشريفة لكفى ذلك، فكيف بما ورد في الكثير من الآيات والروايات الدينية الاخرى والتي سنتحدث عنها لاحقاً؟

أما بالنسبة إلى الروايات الإسلامية فالمتتبع يرى أن تقييح هذه الرذيلة الأخلاقية وذمها الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩١ على أساس أنها من أشنع الخصال الأخلاقية السلبية ولهذه الرذيلة صدى واسع في النصوص الدينية الروائية، ونستعرض هنا بعض النماذج في هذا الباب: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الكِذْبِ» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر أيضاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعَرِضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ الشُّوْءَ» (٢). ٣- وفي حديث مثير عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَا إِيمَانَ مَعَ سُوءِ ظَنِّ» (٣). وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى سوء الظن بكلا قسميه، سوء الظن بالنسبة إلى الناس، أو سوء الظن بالنسبة إلى الله تعالى. ٤- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً قوله: «إِيَّاكَ أَنْ تُسَيِّءَ الظَّنَّ فَإِنَّ سُوءَ الظَّنِّ يُفْسِدُ الْعِبَادَةَ وَيُعْظِمُ الْوِزْرَ» (٤). ٥- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ بِالْمُحْسِنِ شَرُّ الْإِنِّمِ وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ» (٥). ٦- وورد أيضاً عن هذا الإمام عليه السلام نفسه قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفْسِدُ الْأُمُورَ وَيَبْعَثُ عَلَى الشَّرِّ» (٦). ٧- وورد أيضاً عنه عليه السلام أنه قال: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَّقِي بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلَا يَتَّقَى بِهِ أَحَدٌ لِشُؤْءِ فِعْلِهِ» (٧). ٨- ونقرأ في نهج البلاغة قول الإمام علي عليه السلام: «لَا تَنْظُنَّ بِكَلِمَةٍ حَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءَ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٢٩٢ وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا (مَحْمَلًا)» (١). ٩- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «وَاللَّهِ مَا يُعَذِّبُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ مُؤْمِنًا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِسُوءِ ظَنِّهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ» (٢). ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام الهمام عليه السلام نفسه: «مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ سُوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلِيلٍ ضَالِحًا» (٣). وكذلك وردت روايات كثيرة في باب سوء الظن بالله وعدم الإيمان والتصديق بوعده حيث تحكى عن آثار سلبية خطيرة في حياة الإنسان المادية والمعنوية، ومن ذلك: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ مُؤْمِنًا بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ إِلَّا بِسُوءِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَتَقْصِيرٍ مِنْ رَجَائِهِ بِاللَّهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ وَإِغْتِيَابِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ» (٤). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي داود عليه السلام قال: «يَا رَبِّ مَا آمَنَ بِكَ مَنْ عَرَفَكَ فَلَمْ يُحْسِنِ الظَّنَّ بِكَ» (٥). ٣- وقال الإمام علي عليه السلام أيضاً: «الجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سَيِّئَاتُهُ» (٦) ومن المعلوم أن الشخص الذي يعيش الإيمان بالعناية الإلهية ونصرته لعباده المؤمنين فلا يجد الخوف سبيلاً إلى قلبه من الأعداء، والشخص الذي يثق بوعده الله في مسألة الرزق، فلا يجد الحرص سبيلاً إلى نفسه ولا يعيش البخل في حياته، وعليه فإن هذه الصفات الثلاثة المذكورة في هذا الحديث الشريف هي في الواقع تنبع من سوء الظن بالله تعالى. إن ما ورد في الروايات أعلاه يعدّ غيض من فيض الروايات الكثيرة في باب سوء الظن الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٣ الواردة في المصادر المعتمدة والتي تتضمن دقائق لطيفة عن علل ودوافع هذه الرذيلة الأخلاقية وآثارها السلبية الكثيرة، وقد أوردنا في هذا المقطع عشر روايات في سوء الظن بالنسبة إلى الناس وثلاث روايات في مورد سوء الظن بالله وتحتوى على مفاهيم دقيقة ونكات جميلة في تحليل هذا المفهوم الأخلاقي ودراسته أبعاده المتنوعة.

### حسن الظن في الروايات الإسلامية:

كما رأينا أن سوء الظن يفضي إلى إيجاد الخلل والإرتباك في المجتمع البشري ويؤدى إلى سقوط الإنسان الأخلاقي والثقافي ويورثه التعب والألم والشقاء والمرض الجسمي والروحي، ففي الجهة المقابلة نجد أن حسن الظن يتسبب في أن يعيش الإنسان الراحة والوحدة والإطمئنان النفسى، ولهذا السبب نجد أن الروايات الإسلامية الكثيرة تؤكد على حسن الظن بالنسبة إلى الناس، وكذلك بالنسبة إلى الله تعالى، أمّا في مورد حسن الظن بالنسبة إلى الناس، فنتخار من الأحاديث الشريفة ما يلي: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ أَفْضَلِ السَّجَايَا وَأَجْزَلِ الْعَطَايَا» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أنه قال: «حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ أَحْسَنِ الشَّيْمِ وَأَفْضَلِ الْقِسَمِ» (٢). ٣- وأيضاً ورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «حُسْنُ الظَّنِّ يُخَفِّفُ أَلْهَمَ وَيُنْجِي مِنْ تَقْلِيدِ الْإِثْمِ» (٣). ٤- وفي حديث آخر عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أيضاً أنه قال: «حُسْنُ

الظَّنُّ مِنْ رَاحَةِ اللَّبِّ وَسَيِّئَةُ الدِّينِ «٤». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٤ ٥- وأيضاً ورد في حديث آخر عن هذا الإمام أنه قال: «مَنْ حَسَّنَ ظَنَّهُ بِالنَّاسِ حَازَ مِنْهُمْ الْمَحَبَّةَ» (١). أما بالنسبة إلى حسن الظن بالله تعالى، فنقرأ أحاديث كثيرة في هذا الباب مذكورة في المصادر المعتبرة منها: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن بعض المعصومين عليهم السلام أنه قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ قَطُّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِحُسْنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجَائِهِ لَهُ وَحُسْنِ خُلُقِهِ وَالْكَفِّ عَنِ إِغْتِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢). ٢- وكذلك ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِي إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا» (٣). ٣- ويشبه هذا المعنى أيضاً وبشكل جامع ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يَحْسُنُ ظَنَّنِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ إِلَّا كَانَ اللَّهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ بِيَدِهِ الْخَيْرَاتُ يَسْتَجِيبِي أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ قَدْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ ثُمَّ يُخَلِّفُ ظَنَّهُ وَرَجَاءَهُ فَأَحْسِنُوا بِاللَّهِ الظَّنَّ وَارْعَبُوا إِلَيْهِ» (٤). ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم قوله: «رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى الصُّرَاطِ يَرْتَعِدُ كَمَا تَرْتَعِدُ السَّعْصَعَةُ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ وَجَاءَهُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ فَسَيَكُنْ رَعْدَتَهُ» (٥). ٥- وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير حسن الظن بالله تعالى قال: «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَرْجُو إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ» (٦).

### تعريف سوء الظن وحسن الظن:

عندما ترد هاتان المفردتان ويراد بهما سوء الظن أو حسنه بالنسبة إلى الناس فإن لهما مفهوماً واضحاً، فالمفهوم من سوء الظن هو أنه كلما صدر من شخص فعل معين يحتمل الوجهين الصحيح والسقيم، فنحمله على المحمل السقيم ونفسره بالتفسير السيء، مثلاً عندما يرى الشخص رجلاً مع امرأة غريبة فيتصور أن هذه المرأة أجنبية وأن هذا الرجل ينوي في قلبه نية سوء تجاهها ويريد ارتكاب المنكر معها، في حين أن حسن الظن يقود الإنسان إلى القول بأن هذه المرأة هي زوجته أو أحد محارمه حتماً، أو عندما يقدم إنسان على بناء مسجد أو أي عمل من أعمال الخير الأخرى، فإن مقتضى سوء الظن أن يوحى للإنسان بأن هدف هذا الشخص هو الرياء أو خداع الناس وأمثال ذلك، في حين أن حسن الظن يدفعه إلى القول بأن عمله هذا كان بدافع إلهي ونيته خير وصلاح. ومن هنا يتضح أن دائرة حسن الظن وسوء الظن واسعة جداً ولا تنحصر في ممارسة العبادات فقط، بل تستوعب في مصاديقها ومواردها المسائل الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية أيضاً. وعندما تستعمل هاتان المفردتان بالنسبة إلى الله تعالى فالمراد من حسن الظن بالله هو أن يثق الإنسان بالوعد الإلهي في مورد الرزق أو العناية بالعبد أو نصرة المؤمنين والمجاهدين، أو الوعد بالمغفرة والتوبة على المذنبين وأمثال ذلك، ومعنى سوء الظن بالله تعالى هو أن الإنسان عندما يجد نفسه في زحمة المشكلات والمصاعب فإنه يعيش الاهتزاز وعدم الثقة بالوعد الإلهي، وعندما يقع في بعض الابتلاءات العسيرة وفي المسائل المالية وغيرها فإنه ينسى وعد الله تعالى للصابرين والذين يتحركون في خط الاستقامة والانضباط والمسؤولية، ويتحرك عندها في خط المعصية والإثم. وقد رأينا في الروايات السابقة تعبيرات مثيرة وحيية توضح ما ذكرناه آنفاً عن المفهوم من هاتين المفردتين. وهنا لابد من استعراض بعض النكات المهمة وتحليل بعض النقاط في هذا الباب:

### الآثار السلبية لسوء الظن

إن إتساع دائرة سوء الظن في المجتمعات البشرية يترتب عليها آثار سلبية وخيمة ومضرة كثيرة قد لا تكون مستورة على أحد من الناس، ولكن لغرض توضيح هذا المطلوب ينبغي الالتفات إلى ما يلي: (أ) إن من أسوأ الآثار السلبية لهذه الرذيلة الأخلاقية على المستوى الاجتماعي هو (زوال الثقة والاعتماد المتقابل) بين أفراد المجتمع والذي يعد محور المجتمعات البشرية والعنصر المهم في عملية شد مفاصل المجتمع وتقوية الوشائج والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وقد تقدمت الإشارة إليها إجمالاً في الروايات الشريفة



المتقدمة، ومن ذلك قوله عليه السلام: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَّقُ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ وَلَا يَتَّقُ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعْلِهِ» (١). فنجد أن المجتمع البشري الذي يسوده عدم الثقة وعدم الاعتماد بين أفراده فمثل هذا المجتمع تتبخر فيه أجواء التعاون والتكاتف وتزول منه البركات الكثيرة للحياة المشتركة في حياة الإنسان، ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام قوله: «مَنْ سَأَتْ ظُنُونُهُ إِعْتَقَدَ الْخِيَانَةَ بِمَنْ لَا يَخُونُهُ» (٢. ب) إن سوء الظن يؤدي إلى تدمير وتخريب الهدوء النفسي والروحي، لذلك المجتمع كما يمت الهدوء النفسي لأصحاب هذه الرذيلة الأخلاقية، فمن يعيش سوء الظن فإنه لا يجد الراحة والاطمئنان في علاقته مع الآخرين ويخاف من الجميع وأحياناً يتصور أن جميع الأفراد يتحرّكون للوقوع به ويسعون ضده، فيعيش في حالة دفاعية دائماً وبذلك يستنزف طاقاته وقابلياته بهذه الصورة الموهومة. ج) ومضافاً إلى ذلك فإن في الكثير من الموارد نجد الإنسان يتحرّك وراء سوء ظنه ويترجم سوء الظن هذا إلى عمل وممارسة وبالتالي يوقعه في مشاكل كثيرة، وأحياناً يؤدي به إلى ارتكاب جريمة وسفك الدماء البريئة، وخاصة إذا كان سوء الظن يتعلق بالعرض الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٧ والناموس أو يتصور أن الآخرين يتآمرون عليه ويهدفون إلى الوقوع به في ماله أو عرضه، بحيث يمكن القول أن العامل الأصلي للكثير من الحالات الجنائية هو سوء الظن الذي لا يقف على أساس متين والذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب حالات العدوان والجريمة بحق الأبرياء. ولهذا السبب ورد في الروايات السابقة عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ يُفْسِدُ الْأُمُورَ وَيَبْعَثُ عَلَى الشُّرُورِ». والأهم من ذلك أن في الكثير من موارد سوء الظن التي يترتب عليها ارتكاب جريمة بحق الطرف الآخر فإن هذا الإنسان الذي قاده سوء ظنه لإرتكاب هذه الجريمة سوف يثوب إلى رشده ووعيه بعد ذلك ويشعر في قرارة نفسه بتأنيب الضمير ويتسلط عليه الاحساس بالإثم الذي قد يؤدي به إلى الجنون أحياناً. وعلى سبيل المثال نشير إلى حادثة واحدة منها، فعند ما دخل الطبيب النفساني يوماً ليعود مرضاه في مستشفى المجانين والمتخلفين عقلياً رأى رجلاً قد جرى به حديثاً إلى هذا المكان وهو يردد كلمة (منديل) مرّات عديدة، وعند ما بحث هذا الطبيب النفساني عن حاله واستقصى مرضه العقلي رأى أن السبب في جنون هذا الشخص هو أنه رأى يوماً في حقيبه زوجته منديلاً يحتوي على قنينه عطر وبعض الهدايا المناسبة للرجال، فأساء الظن بزوجه فوراً وتصور أنها على إرتباط برجل أجنبي، فكان أن قتلها بدافع من الغضب الشديد وبدون تحقيق وفحص، وبعد أن فتح المنديل رأى في طياته ورقة كتب عليها، هذه هدية مني إلى زوجي العزيز بذكرى يوم ولادته. وفجأة أصابته وخزة شديدة وشعر بضربة عنيفة في أعماق روحه أدت إلى جنونه فكان يتذكر هذا المنديل ويكرّره على لسانه. د) إن سوء الظن هو في الحقيقة ظلم فاضح للغير، لأنه يجعل الطرف الآخر في قفص الاتهام في فكر هذا الشخص وذهنه فيكيل له أنواع السهام ويطعنه في شخصيته وحيثيته، فلو أضفنا إلى ذلك بعض الممارسات العملية المستوحاة من سوء الظن لكان الظلم أكثر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٢٩٨ وأوضح، ومن هذه الجهة قرأنا في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «سُوءُ الظَّنِّ مَنْ أَقْبَحَ الظُّلْمِ». ه) إن سوء الظن يتسبب في أن يفقد الإنسان أصدقاءه ورفاقه بسرعة، وبالتالي يعيش الوحدة والإنفراد والعزلة وهذه الحالة هي أصعب الحالات النفسية التي يواجهها الفرد في حركة الحياة الاجتماعية، لأن كل إنسان متشخص ويحترم مكانته وشخصيته نجده غير مستعد لئن يعيش ويعاشر الشخص الذي يسىء الظن بأعماله الخيرة وسلوكياته الصالحة ويتهمه بأنواع التهم الباطلة، وقد قرأنا في الأحاديث السابقة عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً أنه قال: «مَنْ عَلَبَ عَلَيْهِ سُوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلِيلٍ صَليحاً». و) وقد رأينا في الروايات السابقة أن سوء الظن يفسد عبادة الإنسان ويحبط أعماله ويثقل من كاهله يوم القيامة، فإذا كان المراد بسوء الظن في هذه الرواية هو سوء الظن بالله تعالى قد يتضح حينئذ السبب في فساد العبادة وحبط الأعمال، وإذا كان المراد هو سوء الظن بالناس (كما نستوحى ذلك من ذيل هذه الرواية) فإن ذلك بسبب أن الإنسان الذي يعيش سوء الظن بالناس يرتكب في الكثير من الموارد التجسس على الناس، وبالتالي يترتب على ذلك أن ينطلق في ممارساته الاجتماعية من موقع الغيبة للطرف الآخر والتهمه أحياناً، ومن المعلوم أن الغيبة والتهمه هي أحد الأسباب في عدم قبول الطاعات والعبادات. ز) إن سوء الظن باعتباره انحرافاً فكرياً، فإنه سيؤثر بالتدرج على أفكار الإنسان الأخرى وسيقود تصورات وأفكاره في طريق الانحراف أيضاً، فتكون تحليلاته بعيدة عن الواقع ومجانبة للصواب، فيمنعه ذلك

من التقدّم ونيل الموفقية فى حركة الحياة، وقد ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ سَاءَ وَهْمُهُ».

### الآثار السلبية لسوء الظن بالله:

إنّ سوء الظن بالله تعالى وعدم الثقة بالوعود الإلهية الواردة فى القرآن الكريم والأحاديث المعتمدة له آثار سلبية مخزبة فى دائرة الإيمان والعقائد الدينية حيث يمثّل سوء الظن هذا عنصراً هداماً لإيمان الشخص يبعده عن الله تعالى كما قرأنا فى الروايات السابقة عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فى مناجاة النبي داود عليه السلام قوله: «يَا رَبِّ مَا آمَنَ بِكَ مَنْ عَرَفَكَ فَلَمْ يُحْسِنِ الظَّنَّ بِكَ» (١). ومضافاً إلى ذلك فإنّ سوء الظن بالوعود الإلهية يتسبب فى فساد العبادة وحبط العمل، لأنّه يقتل فى الإنسان روح الاخلاص وصفاء القلب، وقد قرأنا فى الأحاديث السابقة أنّه: «إِيَّاكَ أَنْ تُسَيِّءَ الظَّنَّ فَإِنَّ سَوْءَ الظَّنِّ يُفْسِدُ العبَادَةَ وَيُعْظِمُ الوزرَ» (٢). والملاحظة الأخرى هى أنّ سوء الظن بالله تعالى وعدم الثقة بوعده يورث الإنسان الضعف والاهتزاز أمام الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، كما ورد فى تفسير الآيات الشريفة فى باب سوء الظن أنّ بعض المسلمين الجدد ابتلوا بسوء الظن بالوعد الإلهي بنصر المجاهدين فى ميادين القتال، وبالتالي عاشوا الهزيمة الروحية أمام الأعداء فى حين أنّ المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون حسن الظن بالله كانوا يتصدّون للأعداء وقوى الانحراف والزيغ بمتهمى الشجاعة والشهامة والجرأة. ومضافاً إلى ذلك فإنّ سوء الظن بالله تعالى بإمكانه أن يحرم الإنسان من العنايات الإلهية واللفظ الرباني، لأنّ الله تعالى يتعامل مع عبده بما يتطابق مع حسن ظنه أو سوء ظنه بربه كما قرأنا فى الأحاديث السابقة فى وصية لقمان الحكيم لابنه حيث يقول: «يَا بُنَيَّ أَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ ثُمَّ سَلِ فِي النَّاسِ مِنْ ذَا الَّذِي أَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ ظَنِّهِ بِهِ» (٣). وخلاصة الكلام أنّ الإنسان إذا أراد أن يعيش الهدوء النفسى والاستقامة فى خط الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٠ الصلاح والإيمان والتصدي للنوازع الدنيوية وعناصر الشر وبالتالي ينال الإيمان الخالص وعناية الله تعالى ورعايته ينبغى له أن يعيش حسن الظن بالله تعالى ويثق بوعده.

### أسباب ودوافع سوء الظن:

#### إشارة

إنّ هذه الرذيلة الأخلاقية حالها حال سائر الرذائل الأخرى تنشأ من عدّة عوامل وأسباب:

#### ١- التلوث الظاهري والباطني:

فالأشخاص الذين يعيشون حالة التلوث النفسى فى واقعهم يتصوّرون الآخرين مثلهم من خلال (المقارنة مع الذات) والتي هى حالة تكاد تكون سائدة عند أغلب الناس حيث يتصوّرون أنّ الآخرين مثلهم، فما لم يتطهر الإنسان فى ذاته ونفسه فمن العسير أن يتخلّى من سوء الظن بالنسبة إلى الآخرين، وفى ذلك ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لَا يُظُنُّ بِأَحَدٍ خَيْرًا لَأَنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا بِطَبَعِ نَفْسِهِ» (١).

#### ٢- المعاشرة مع رفاق السوء:

فالشخص الذى يجالس رفاق السوء والفاستدين والأشرار من الناس فمن الطبيعى أن يسىء الظن بجميع الناس لأنه يتصوّر أنّ الناس مثل هؤلاء الرفاق كما ورد فى الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مُجَالَسَةُ الأَشْرَارِ تُورِثُ سَوْءَ الظَّنِّ بِالأَخْيَارِ» (٢).

## ٣- المحيط الفاسد:

عندما يعيش الإنسان في اسره ملوثة أو في مدينه أو مجتمع متخلف وسىء على المستوى الثقافى والأخلاقى، فإن ذلك من شأنه أن يورثه سوء الظن بجميع الأفراد حتى الأختيار منهم، وحتى لو كان يعاشر ويجالس الصلحاء ولكن غلبه الفساد والانحطاط فى المجتمع بإمكانه أن يخلق فيه سوء الظن.

## ٤- الحسد والحقد والتكبر والغرور:

وتعتبر عاملاً آخر من عوامل سوء الظن، لأن الإنسان الحسود والحقود يريد من خلال سوء الظن تسقيط شخصية الطرف الآخر والتقليل الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣٠١ من اعتباره، وكذلك الشخص المتكبر يتحرك من موقع تحقير الآخرين والسخرية بشخصيتهم من خلال إساءة الظن بهم وبذلك يخلق فى ذهنه عن شخصية الطرف الآخر صورة مهزوزة وحقيرة. ٥- عقد الحقارة: وهى أحد العوامل لسوء الظن بالناس، فالشخص الذى يعيش الحقارة فى شخصيته ويشعر بالتفاهة لذاته أو يجد من الآخرين تحقيراً لشخصيته فإنه يسعى كذلك فى التنقيص من شخصية الآخرين واحتقارهم ويتصورهم شخصيات ملوثة وحقيرة ليشبع هذه العقدة فى نفسه ويرضى حالته النفسية المهزوزة، وحينئذ يشعر بالراحة الكاذبة من جراء ذلك. أمياً سوء الظن بالله تعالى فيعتمد فى الأصل على ضعف الإيمان واليقين فى الإنسان واهتزاز صورة الألوهية فى دائرة صفات الذات وصفات الأفعال، فضعف اليقين واهتزاز الإيمان من شأنه أن يخلق فى فكر الإنسان سوء الظن وعدم الثقة بالوعود الإلهية لعباده، وكذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى وقدرته ورحمانيته ورازقته وسائر صفاته الحسنى وبالتالى يوصد أمامه أبواب السعادة والنجاة.

## مراتب سوء الظن:

وأحد الأسئلة المهمية التى تثار على بساط البحث فى هذا المورد هو أنه أساساً هل أن سوء الظن أمراً اختيارياً أو غير اختيارى؟ فلو رأى الإنسان ظاهرة معينة وأساء الظن بشخص أو أشخاص بدون اختيار، فهل هذا المعنى يوجب له الذم والتوبيخ؟ وهل تقع هذه الحالة مورداً للتكليف مع أن مقدماتها غير اختيارية؟ وكيف يمكن تعلق الذم والعقاب بأمر غير اختيارى؟ ويمكن الإجابة عن هذه التساؤلات وعلامات الاستفهام من طريقين: الطريق الأول: أن سوء الظن هذا الذى يقفز إلى ذهن الإنسان بدون اختيار منه لا يكون مورد الذم والعقاب لوحد، فلو أنه لم يتجسد فى مرحلة العمل ولم يرتب الإنسان عليه أثراً الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٢ على مستوى الممارسة والكلام، ولا يصدر منه سلوك يشير إلى سوء الظن هذا فإنه لا يقع مورد الذم ولا العقاب، ولذلك ذكر بعض علماء الأخلاق فى هذا المجال: «وَأَمَّا الْخَوَاطِرُ وَحَدِيثِ النَّفْسِ فَهِيَ مَعْفُوعَةٌ عَنْهُ... وَلَكِنَّ الْمَنْهَى عَنْهُ أَنْ تَظُنَّ، وَالظَّنُّ عِبَارَةٌ عَمَّا تَرَكَّنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الْقَلْبُ» (١). وخلاصة الكلام أن سوء الظن له ثلاثة مراحل: أحدها: سوء الظن القلبي. الثانية: سوء الظن اللسانى. الثالثة: سوء الظن العملى. فأمياً ما كان فى القلب فلا يقع مشمولاً للتكليف لأنه خارج عن دائرة الاختيار، ولكن ما يصدر من الإنسان بلسانه أو بعمله فهو الممنوع والحرام. ولهذا ورد فى بعض الروايات قوله عليه السلام: «وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحَقَّقْ» (٢). الطريق الثانى: إن الكثير من أشكال سوء الظن غير الاختيارية تتضمن مقدمات اختيارية فى البداية أو فى إدامتها واستمرارها، فالأشخاص الذين يجالسون رفاق السوء فيحصل لهم سوء الظن بالأختيار ينبغى عليهم اجتناب مثل هذه المعاشرة ولمثل هؤلاء الرفاق من الفساق والأشرار حتى لا تحصل لديهم حالة سوء الظن تجاه الآخرين، وهذا أمر اختيارى، ولكن لو حصل له سوء الظن بدون مقدمات اختيارية، فيجب على الإنسان أن يتفكر فى حالته هذه ويضع فى تصوّره احتمالات صحيحة إلى جانب الاحتمالات السيئة التى أورتته سوء الظن، مثلاً يقول: إن هذه المرأة الأجنبية التى رآها مع الشخص الفلانى، إما أن تكون أخته أو ابنة أخيه أو ابنة اخته أو زوجته وأمثال ذلك من أقرباء

الشخص الذين لا يعرفهم هو، فلا شك أن مثل هذا التفكير السليم واحتمال هذه الاحتمالات الصحيحة يتسبب في إضعاف سوء الظن عنده أو يزيله تماماً من ذهنه، ولهذا ورد في الحديث الشريف الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٣ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «اطْلُبْ لِأَخِيكَ عُذْرًا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا» (١). وقد مر علينا الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام هو أنه قال: «لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءٌ وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا (مَحْمَلًا)» (٢). وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم سوء الظن إلى ثلاثة أقسام: ١- سوء الظن الذي يتجسد في أفعال الشخص وكلماته وأقواله، وهذا القسم من سوء الظن الحرام. ٢- سوء الظن الذي لا يظهر أثره خارجاً، ولكنه يمكن للشخص إزالته من خلال التفكير السليم وبواسطة إزالة مقدماته الخارجية، فهذا النوع من سوء الظن يحتمل أن يكون مشمولاً لأدلة الحرمة. ٣- سوء الظن الذي لا يترتب عليه أثر خارجي، وهو خارج تماماً عن دائرة اختيار الإنسان وإرادته ولا يمكن إزالته بشتى الوسائل، فمثل هذا الظن السوء لا يكون مشمولاً للتكاليف الشرعية مادام الإنسان لم يرتب عليه أثراً معيناً. والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى في الآية ٣٦ من سورة الأسراء: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». وفي هذه المرحلة يجب التوجه إلى الاصول والمبادئ الحاكمة في دائرة علاج الأمراض الأخلاقية والردائل النفسية، وأهمها التفكير في الآثار السلبية والعواقب الوخيمة لسوء الظن، لأنه عندما يتفكر الإنسان في عواقب سوء الظن وكيف أنه يتلف رأس المال الاجتماعي بين أفراد البشر ويسلب منهم الثقة والاعتماد المتقابل ويربك الهدوء والاستقرار في مفاصل المجتمع، ويتسبب في خسارة الإنسان لأصدقائه وفقده لأحبائه ويورثه الغفلة عن واقعيات الامور والحقائق الاجتماعية، ويقوده إلى إرتكاب الظلم والعدوان في حق الآخرين (كما تقدم تفصيله سابقاً) فحينئذ سوف يتعد عن هذه الرذيلة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٤ الأخلاقية بدون صعوبة، كما أن اطلاع الإنسان على كون الغذاء مسموماً سيخلق في نفسه مناعة شديدة عن تناوله، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنه كلما تحرك الإنسان لقطع جذور هذه الرذيلة وقلع أسبابها من مواقع النفس، أي مجالسة رفاق السوء والتي تسبب سوء الظن بالأخبار أو يتعد مهماً أمكنه عن الأجواء الملوثة والمحيط السوء والفساد، ويطهر قلبه من أدران الحسد والحقد والتكبر والغرور التي هي من العوامل المهمة لسوء الظن وأمثال ذلك من الأسباب والعوامل الأخرى فسوف تنتهي وتزول منه هذه الرذيلة الأخلاقية. ومضافاً إلى ذلك فإن بعض الامور يمكنها أن تساعد الإنسان على إنقاذه من شر هذه الحالة السلبية، وهي: الف: البحث عن الاحتمالات السليمة في تبرير سلوكيات الآخرين المبهمه التي قد تورثه سوء الظن، كما قرأنا في الروايات السابقة عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءٌ وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا (مَحْمَلًا)» (١). ومن الواضح أن الكثير من الأعمال والسلوكيات الصادرة من الأشخاص تقبل التبرير السليم والحمل على الصحة. ب: أن يتعد الإنسان عن التجسس في أعمال الآخرين والذي قد يكون معلوماً لسوء الظن أولاً، ويتسبب كذلك في سوء الظن أيضاً، فلو أن الإنسان تجنّب التجسس في حياة الآخرين الخصوصية فإنه يكون قد تخلص من أحد الأسباب المهمة لسوء الظن. ج: أن لا يرتب أثراً عملياً على سوء ظنه وبذلك يحقق له أحد طرق العلاج لهذه الرذيلة، لأن الإنسان إذا أساء الظن بشخص من الأشخاص وأفعاله ثم جسّد سوء الظن هذا على سلوكياته وأفعاله كأن يتعد عنه ويظهر عدم الثقة به أو يستشّم من أفعاله وعلاقته بذلك الشخص أنه يسوء الظن به، فهذه الحالة تسبب في تقوية سوء الظن وزيادته واشتداده، ولكن إذا لم يهتم لذلك ولم يرتب عليه أثراً، فإنه سيضعف تدريجياً وبالتالي سينتهي ولذلك الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٥ ورد في الروايات الإسلامية: «إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تَحَقُّوْا» (١). ولا شك أن الالتفات إلى العقوبات الإلهية الأخرى والآثار المعنوية السلبية لهذه الرذيلة الأخلاقية والتي سبقت الإشارة إليها في الروايات الشريفة لها أثر قوي أيضاً في الوقاية من الابتلاء بهذا المرض المعنوي، وتمنح الإنسان القدرة على التحرك بعيداً عن ممارسة تداعيات هذه الصفة الأخلاقية الذميمة.

لاشك أن قبح سوء الظن رغم أنه يعتبر قاعدة كليّة وأصل من الاصول الاخلاقيّة في دائرة علم الاخلاق، إلّا أنه هناك إستثناءات لهذا الأصل العام وردت الإشارة إليها في الروايات الإسلاميّة، ومن ذلك: (ألف) إذا ساد الفساد والانحطاط الأخلاقي في مجتمع ما وكان التلوث بالذائل الاخلاقيّة هو السائد لهذا المجتمع البشري فإنّ حسن الظن في مثل هذه الحالات ليس فقط لا- يعدّ من الفضائل الاخلاقيّة، بل يمكن أن يورّط الإنسان بعواقب سلبية ومشاكل حقيقيّة أيضاً، وورد التحذير من هذا النوع من حسن الظن في الروايات الإسلاميّة. فنقرأ في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إذا استتولى الصّلاح على الزّمانِ واهله ثمّ أساء رجلُ الظنَّ برجلٍ لم تظهِرْ منه حويّةً فقد ظلم، وإذا استتولى الفسادُ على الزّمانِ واهله فاحسنَ رجلُ الظنَّ برجلٍ فقد غرّر» (٢). وهذا المضمون ورد أيضاً بتعبيرات مختلفة عن الإمام الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام والهادي عليه السلام (٣). وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «اخترتُ من الناسِ بسوءِ الظنِّ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٦ وهذا أيضاً يمكن أن يكون إشارة لمثل هذه الأزمان والحالات التي يسود فيها الانحطاط الأخلاقي في مفاصل المجتمع البشري، وإلّا فإنّ سوء الظن بعنوانه أصل عام لا يمكن أن يكون مورد المدح والثناء والقبول. ويستفاد من مجموع ما تقدم من الروايات أنّ الأصل في الأجواء الاجتماعيّة السالمة نسبياً هو حسن الظن، وعلى العكس من ذلك فإذا عاش الإنسان في أجواء فاسدة ومتخلّفة فإنّ الأصل يجب أن يبتنى على سوء الظن، وطبعاً هذا لا يعني أن ينسب الإنسان بعض التهم ويلقّ بعض العيوب والنقائص لشخص من الأشخاص، بل ينبغي الاحتياط في مثل هذه الظروف لئلا يتورّط الإنسان في مشاكل ومصاعب يفرضها عليه هذا المحيط الفاسد. وطبعاً لا ينبغي أن يكون هذا الاستثناء وهذه الروايات ذريعة بيد الأشخاص لكي يتحرّكوا من موقع سوء الظن بأيّ إنسان ويقول بأنّ هذا الزمان كثر فيه الفساد وشاع فيه الانحطاط فمن الخطأ حسن الظن بالناس، فحتى في الأزمنة الفاسدة والأجواء المنحطة يجب على الإنسان أن يصنّف الناس إلى عدّة أصناف، فيجعل من الأشخاص الذين يتجلّى في محياهم الصّلاح والخير في دائرة الصالحين، فلا- ينبغي أن يكونوا مورد سوء الظن مادام لم يشاهد منهم أمراً منكراً من موقع الوضوح. ولكنه عليه أن يضع الفئات التي شاهد منها سلوكيات مخالفة وأفعال منكراً بصورة متكررة في صف الأشرار والمفسدين، ولا ينبغي عليه أن يحسن الظن بتياتهم وأفعالهم اطلاقاً. (ب) بالنسبة إلى الامور الأمتيّة في المجتمع الإسلامي والتي يتعلّق بها سلامة المجتمع وأمنه واستقراره لا يجوز حسن الظن بأيّة حركة مشكوكه في هذا المجتمع، بل يجب عليه أن يتعد عن حسن الظن ما أمكنه ذلك، أو بتعبير آخر يجب عليه أن يتخذ جلباب الاحتياط في تعامله مع هذه السلوكيات والحركات الصادرة من بعض الأفراد المشكوكين. ومفهوم هذا الكلام لا يعني أنّه يجوز هتك حرمة الأفراد أو التعامل معهم بسلبية نتيجة سوء الظن، بل المراد أنّ جميع الحركات والسلوكيات المشكوكه يجب أن توضع تحت النظر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٧ ويتمّ دراستها بدقّة، فلو اتّضح بعد التحقيق ومن خلال القرائن والبيّنات الواضحة أنّ مثل هذه الحركات كانت بدافع من سوء النيّة ومقترنة بتصرفات خاطئة ومحرمه هناك ينبغي إتخاذ التدابير العمليّة اللازمه. (ج) ومن الموارد الاخرى التي يجوز فيها سوء الظن، بل قد يكون واجباً أيضاً هو في الحالات التي يكون الإنسان في مقابل العدو، ويمكن أن يطلب العدو الصلح وينادي بالمحيّة والصدقة ويعلم عن رغبته في التعاون وأمثال ذلك، فمثل هذه الموارد لا ينبغي التعامل معه بسداجه وتصديق كلّما يقوله من موقع حسن الظن واسدال الستار عن الماضي نهائياً والتقدّم إلى العدو بابتسامه عريضة والشد على يده ومعانقته، بل ينبغي أن يضع في زاوية الاحتمال أن يكون هذا السلوك من العدو من موقع المكر والحيلة والخدعة لإستغفال الطرف المقابل. ولهذا ورد في عهد مالك الأشتر المعروف قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الحذرُ كُلُّ الحذرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ فَإِنَّ العَدُوَّ رُبَّمَا قاربَ لِيَتَغَفَّلَ فخذُ بِالْحَزْمِ وَاتَّهَمِ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٠٨

### التجسس في الحالات الخاصة للناس

(التجسس) بمعنى البحث والفحص في أعمال الآخرين والامور المتعلقة بهم، وغالباً ما يكون هذا البحث في الامور السلبية ونقاط الضعف والسلوكيات الذميمة، ولكنّ التجسس في لغة العرب يأتي بمعنى البحث والفحص في المسائل الإيجابية أيضاً. وفي الحقيقة أنّ سوء الظن هو السبب في أن يتحرّك الإنسان للكشف عن أسرار الناس وامورهم الخفية، وأحياناً تدخل عوامل اخرى من قبيل: البخل والحسد وضيق الافق وأمثال ذلك في خلق هذه الحالة الذميمة لدى الإنسان. التجسس بالشكل المذكور آنفاً يعتبر حالة ذميمة جداً في دائرة المفاهيم الإسلامية ومن الأعمال المحرّمة حيث يتسبب في سلب الأمن الاجتماعي وخلق أنواع الخصومات والنزاعات بين الأفراد، فلو ابيح لكل شخص أن يتدخل في الكشف عن أسرار الآخرين والتدخل في امورهم الخاصية في حياتهم الفردية والاسرية، فلا- يبعد أن يترتب على ذلك هتك حرمة الكثير من الأفراد وتدمير شخصيتهم الاجتماعية وبالتالي إندلاع نيران الحقد والعداوة والبغضاء في المجتمع بحيث يتحوّل مثل هذا المجتمع إلى جحيم لا يطاق. وبالطبع فإنّ هذا الحكم الأخلاقي والإسلامي لا يتقاطع أبداً مع ضرورة وجود أجهزة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣١٠ أميةً وتجسس في جهاز الحكومة الإسلامية، لأنّ ما تقدّم من التجسس المذموم يتعلّق بالحياة الخاصة للأفراد، وأمّا هذا المعنى الثاني فينتعلّق بمصير المجتمع وأمنه ويهدف إلى التصدي لمؤامرات الأعداء وكشف مخططاتهم والوقاية من تسرب عناصر الشر والانحراف في مفصل المجتمع الإسلامي. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحي منه الدروس الأخلاقية في هذا الباب. نقرأ في القرآن الكريم آية واحدة تنهى عن التجسس، وهي الآية ١٢ من سورة الحجرات حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا». وكما تقدّمت الإشارة إليه في بحث الغيبة وسوء الظن فإنّ الآية الشريفة المذكورة أعلاه تنهى عن ثلاثة أشياء، وهي في الواقع بمثابة العلة والمعلول، فالأول تنهى عن سوء الظن الذي يعدّ العلة والمصدر للتجسس، ثم تنهى عن التجسس الذي يتسبب في الكشف عن عيوب الآخرين المستورة وبالتالي التحرك من موقع غيبتهم وفضح معيبتهم. وكما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً فإنّ (التجسس) له مفهوم سلبي ويراد به عادة سلوك غير أخلاقي تجاه الآخرين، ولكنّ (التجسس) قد يرد في مورد يكون البحث والفحص عن الشيء مطلوباً ومحموداً كما نقرأ في قصة يوسف عليه السلام أن يعقوب عليه السلام أمر أولاده وقال: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَّرُوا مِنِّي رُوحَ اللَّهِ» (١). وذهب البعض إلى أنّ التجسس بمعنى إستراق السمع بالنسبة لكلمات وأحاديث الآخرين، في حين أنّ التجسس هو البحث والفحص العملي عن أسرار وعيوب الآخرين. ومما يلفت النظر أنّ النهي عن التجسس في آية سورة الحجرات لم يتقيّد بقيد أو شرط، وهذا يدلّ على أنّ الأصل هو حرمة التجسس بعنوان قاعدة عامّة، ولو رأينا أحياناً في الأحكام الإسلامية جواز التجسس لأغراض خاصية فإنّ ذلك من قبيل الاستثناء. وقد كان الحكم بحرمة التجسس وبالنظر لهذه الآية الشريفة إلى درجة من الوضوح في الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣١١ الذهنية المسلمة حتى أنّ المسلمين كانوا يستدلون بهذه الآية كدليل على حرمة التجسس، فقد ورد في مصادر أهل السنة من قبيل كنز العمال نقلاً عن (ثور الكندي) حيث يقول: كان عمر بن الخطاب يعسّ في الليل في أزقة المدينة فسمع يوماً صوت رجل يغني في داخل بيته فما كان من عمر إلّا أن تسلق الجدار فصاح به: يا عدو الله أحسبت أنّك ترتكب الذنب في خفاء وأنّ الله تعالى لا يراك؟ فقال له ذلك الرجل: لا تعجل يا أمير المؤمنين، فلو ارتكبت ذنباً واحداً فقد ارتكبت أنت ثلاثة، فإنّ الله تعالى يقول «وَلَا تَجَسَّسُوا» وأنت قد تجسست علينا، ويقول أيضاً: «وَأُتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» (١)، وأنت تسلقت الجدار، والله تعالى يقول: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» (٢)، وأنت دخلت البيت بلا اذن ولا سلام. فما كان من عمر إلّا أن أطرق أمام هذا الاستدلال المتين ثم قال له: إذا عفوت عنك فهل تترك ما أنت عليه؟ فقال: نعم، فتركه عمر وذهب (٣).

### التجسس في الروايات الإسلامية:

إنّ مسألة التجسس ذكرت في الروايات الإسلامية من موقع الذم والتقيح بحيث أنّ القارئ لهذه الروايات يستنتج أهمية وشناعة هذا

العمل والسلوك الأخلاقي الذميمة، ومن ذلك: ١- ما ورد عن رسول الله أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا» (٤). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم أيضاً قوله: «لَا تَحَاسِدُوا وَلَا تَبَاغُضُوا وَلَا إِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣١٢ تَجَسَّسُوا وَلَا- تَحَسَّسُوا وَلَا- تَنَا جَسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» (١). ويتضح من هذا الحديث جيداً أنّ حال التجسس كحال الحسد والحقد والكراهية فإنه يتسبب في تباعد الناس وتمزق أوصال المجتمع الإسلامي والتدهور والإرتباك في العلاقات الاجتماعية بين الناس. وقد أورد الكليني في كتابه الكافي حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُسَلِّمْ بِقَلْبِهِ لَا تَتَّبِعُوا عَثْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَثْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَفْضَحْهُ» (٢). ٣- وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «تَتَّبِعِ الْعُيُوبِ مِنْ أَقْبَحِ الْعُيُوبِ وَشَرِّ السَّيِّئَاتِ» (٣). ٤- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «مَنْ بَحَثَ عَنْ أَسْرَارِ غَيْرِهِ أَظْهَرَ اللَّهُ أَسْرَارَهُ» (٤). ٥- وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «مَنْ تَتَّبَعَ حَفَيَاتِ الْعُيُوبِ حَرَمَهُ اللَّهُ مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ» (٥). ٦- وورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: «لَا تُفْتَشِ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ فَتَبْقَى بِلا صَدِيقٍ» (٦). وهذا يدل على أن أغلب الناس لهم عيوب ونقائص في دائرة العقيدة أو العمل، فعندما تبقى مستورة وخفية، فإن ذلك من شأنه أن يوطد العلاقات بين الأفراد ويتعامل الأفراد فيما بينهم من موقع المحبة والود ويلتزمون بأصالة الصحة والعدالة في الطرف الآخر، ولكن في غير هذه الصورة فإن الإنسان يبقى بلا صديق.

### الآثار والعواقب السلبية للتجسس:

إنّ البحث والتفحص عن حال الآخرين لغرض الكشف عما خفى من معيبيهم ونواقصهم له آثار سلبية كثيرة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية. لأنه من جهة يؤدي إلى نفور الناس وكراهيتهم لمن يتدخل في شؤونهم الخاصة ويتعدى على أسرارهم ويهدف إلى الكشف عن أمورهم الخاصة، فيرون مثل هذا الشخص معتدياً على حرمتهم الخاص ولا يقيمون له احتراماً ولا يرون له شخصية وحيثية في نظرهم ويكرهون من يعيش هذه الحالة الذميمة بشدة. وقد قرأنا في الحديث السابق قول الإمام الصادق عليه السلام أن الشخص الذي يفتش عن عيوب الناس يبقى بلا صديق، فيمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى. ومن جهة أخرى فإن أغلب الناس لديهم نقاط ضعف وعيوب في شخصيتهم وسلوكياتهم وأخلاقهم فهي لو أنها بقيت مستورة وفي حيز الكتمان، فإن ذلك من شأنه أن يدفع بعجلة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد كما يرام، ولكن عند انتشار هذه العيوب ونقاط الضعف فإن ذلك من شأنه أن يتسبب في سوء الظن لدى الأفراد وانفصام علقه الاخوة والصداقة والمحبة بينهم. ومن جهة ثالثة فإن التجسس والتفتيش عن عقائد الآخرين وأسرارهم وعيوبهم يتسبب في تعميق حالة الكراهية والحقد والعداوة بين أفراد المجتمع وأحياناً يؤدي إلى النزاع الدموي الشديد بينهم. فإذا أردنا أن يعيش المجتمع السلامة والاطمئنان والاستقرار فينبغي الحذر والابتعاد عن هذا السلوك السلبي. ومن جهة رابعة فإن أكثر الناس يتحرّكون في مقابل هذا العمل من موقع المقابلة بالمثل، أي يسعون إلى التجسس والفحص عن عيوب الشخص الفضولي والمتجسس على أحوالهم ويكشفونها إلى الملاء، ولعل هذا الحديث الشريف ناظر إلى هذا المعنى وهو قوله: «مَنْ بَحَثَ إِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣١٤ عَنْ أَسْرَارِ غَيْرِهِ أَظْهَرَ اللَّهُ أَسْرَارَهُ» (١). ونقرأ في حديث آخر قوله عليه السلام: «مَنْ كَشَفَ حِجَابَ أَخِيهِ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ»، وهو قد يكون إشارة إلى هذا المعنى بالذات، أو إشارة للأثر الوضعي ونتائج هذا العمل في الدنيا. ونقرأ كذلك في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَنْ تَطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ جَارِهِ انْتَهَكَتْ أَسْرَارُهُ» (٣). أمّا الدوافع على هذه الرذيلة الأخلاقية وهي التجسس والتفتيش في أسرار الناس وأحوالهم الخاصة فكثيرة، ومن ذلك: ١- سوء الظن بالآخرين الذي يقود الإنسان غالباً إلى التجسس عن أحوالهم، فلو أنه استبدله بحسن الظن فإنه لا يفكر عند ذاك بالتفتيش عن عيوب الآخرين، ولهذا السبب كما أشرنا سابقاً أنّ الآية ١٢ من سورة الحجرات تنهى عن التجسس بعد النهي عن سوء الظن. ٢- التلوّث بالذنوب والعيوب المختلفة والذي يعدّ عاملاً آخر يدفع صاحبه نحو التجسس على الآخرين، لأنّ الشخص الملوّث بالذنوب والغارق في العيوب يريد أن يرى جميع الناس مثله،

وبذلك سوف ينطلق من موقع جبران عيوبه وخلق أجواء كاذبة له من الهدوء النفسى وتسكين حالة التوتر التى تفرضها عليه عيوبه الكثيرة فيقول فى نفسه بأنى إذا كنت ملوثاً فسائر الناس كذلك. ونقرأ فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «شَرُّ النَّاسِ الظَّالِمُونَ وَشَرُّ الظَّالِمِينَ الْمُتَجَسِّسُونَ» (٤). وأحد العوامل الأخرى للتجسس هى حالات الحسد والحقد والعداوة والتكبر والعجب فى واقع الإنسان الناقص حيث تدفعه هذه العناصر الشريرة إلى التفتيش عن عيوب الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣١٥ الآخريين واستخدامها كأداة لتسقيطهم وهتكك حيثيتهم لغرض إرضاء الميل إلى التفوق ورؤية الأنا متعالية على الآخريين. ٤- ومن العوامل الأخرى لهذه الرذيلة هو ضعف الإيمان أيضاً، لأن الإنسان الذى يعيش ضعف الإيمان بالله تعالى لا يلتزم باحترام إيمان الآخريين وشخصيتهم الاجتماعية، ولذلك يتدخل بأدنى حجة فى امورهم الخاصة وحريم حياتهم الخصوصية ولا يرى بأساً فى الكشف عن مثالبهم وهتكك حرمتهم وإراقه ماء وجوههم، كما قرأنا فى الأحاديث السابقة عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بأن مثل هؤلاء الأشخاص هو من قبيل: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ».

### استثناءات:

### إشارة

هنا يطرح سؤال وهو: هل أن التجسس يعدّ عاملاً منافياً للأخلاق والشرع فى جميع الموارد، أو هناك بعض الاستثناءات التى تخرجه عن دائرة الحرمة الشرعية؟ فإن جميع الدول والحكومات فى العالم سواء الإسلامية وغير الإسلامية لديها أجهزة أمتية خاصة تعمل فى دائرة التجسس والفحص عن أسرار الناس وحالاتهم وتتدخل فى امورهم وتسعى إلى الكشف عن أسرارهم، وهناك موارد أخرى لا يكون التجسس فى امور الناس ممنوعاً فى نظر عقلاء العالم، بل قد يكون لازماً وضرورياً. وفى مقام الجواب عن هذا السؤال يجب القول إن هذا الأصل العام فى مسألة حرمة التجسس وقبحه فى دائرة القيم الأخلاقية له بعض الموارد الاستثنائية كما هو الحال فى الاصول العامة الأخرى، ومن ذلك:

### ١- الأجهزة الأمتية

إن كل حكومة ودولة تجد نفسها موظفة بحماية شعبها من شر مؤامرات الأعداء فى الداخل والخارج وتستخدم الحذر من جواسيس الأعداء، ولا- شك أن المسؤولين فى هذه الحكومات إذا أرادوا أن يواجهوا الأحداث والوقائع من موقع حسن الظن والحمل على الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٣١٦ الصحة، فإن ذلك من شأنه أن يورطهم فى العواقب الوخيمة لمؤامرات الأعداء من المنافقين فى الداخل ومن تربص بهم الدوائر فى الخارج، لأن مؤامراتهم سرية جداً ويتحركون بمنتهى الحذر والتستر بظواهر طبيعية وأقنعة جميلة ولا- يتسنى للمسؤولين التعرف على حالهم إلا من خلال التفتيش الدقيق والتجسس المستمر لكشف مؤامرات هؤلاء الأعداء وابطال مفعولها. ففى مثل هذه الموارد يجب اجتناب حسن الظن والابتعاد عن الحمل على الظاهر الحسن، بل ينبغى النظر إلى كل ظاهرة اجتماعية وسياسية من موقع سوء الظن لحفظ الأهداف الكبيرة والأغراض المتعالية للمصالح العامة للامة الإسلامية وبذلك تتضح الحكمة من تشكيل الأجهزة الأمتية والتجسس فى الداخل والخارج، وبعبارة أخرى: إن هذا الاستثناء ينبع من قانون الأهم والمهم، فما أكثر الأفراد الذين يقعون مورد سوء الظن وبالتالي تتحرك الأجهزة الأمتية للتفتيش عن أحوالهم الخاصة فيشت برائتهم وسلامتهم من أى عمل شائن، ولكن من البديهي أنه ولغرض العثور على المجرم الواقعى وعملاء الأعداء فى الداخل فلا- مفر من مزاوله البحث والفحص الواسع فى جميع الموارد المحتملة للوصول إلى نتيجة حاسمة. وقد يلزم أحياناً أن تبعث الحكومة ببعض الجواسيس وبتظواهر مختلفة وسط الأعداء أو إدخال بعض عناصر الأمن كموظفين فى المؤسسات المهمة التى تعمل فى الداخل على شكل عامل أو



موظف وأمثال ذلك كما يتسنى لها الكشف عن بذور الفتنة واحباط أئمة مؤامرة قبل تشكلها واشتدادها، وبالتالي تعرض الامة مصالحتها للخطر. وبالطبع فإن هذا لا يعني أنه يمكن إتخاذ هذا الاسلوب ذريعة للتدخل في الحياة الخصوصية لجميع أفراد المجتمع وإذاعة أسرارهم وكشف مساوئهم التي لا ترتبط اطلاقاً بمصالح الامة وأهدافها البعيدة رغم أننا نرى مع الأسف الكثير من التخلفات التي تجرى في إطار هذا الأصل العقلاني فإساءة استخدامه في كثير من الأحيان، ونظراً إلى أن الجواز في عملية التجسس يعتبر حكماً استثنائياً من الأصل العام فلا بد من مراعاة هذه الموارد بدقة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣١٧ والنظر إلى فلسفة هذا الحكم بالذات كما نتجنب الافراط في بعض الممارسات التي تدخل تحت هذا العنوان. ونقرأ في آيات القرآن الكريم وسيرة النبي الأكرم والروايات الإسلامية إشارات واضحة إلى هذه المسألة المهمة. فيقول القرآن الكريم في الآية ٤٧ من سورة التوبة بصراحة أن من بين المسلمين أشخاصاً يمثلون عملاء العدو وجواسيسه، وعلى المسلمين أن يحذروا منهم حيث تقول الآية: «وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ». ومن هذا القبيل ما ورد في قصة المرأة التي أرسلها بعض المنافقين لتوصل أخبار المدينة إلى المشركين في مكة قبيل الفتح وأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد جهز جيوشاً كبيرة للهجوم على مكة حيث أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام ورائها فوجدها في الطريق وهددها لتسلم الرسالة، فاضطرت أخيراً إلى الاعتراف وتسليم هذه الرسالة إلى أمير المؤمنين عليه السلام «١»، وكذلك قصة تجسس حذيفة في معركة الأحزاب لصالح المسلمين ونفذه إلى قلب جيش الأعداء لتفحص الأخبار ونقلها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله «٢». ويستفاد من آيات القرآن الكريم أن هذه المسألة كانت موجودة أيضاً في عصر الانبياء السابقين، وأحياناً تتخذ صبغة إعجازية كما في قصة النبي سليمان عليه السلام عندما استخدم الهدهد ليوصل إليه أخبار المناطق البعيدة. ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا فَاتَّهُمْ أَمِيرًا بَعَثَ مَعَهُمْ مِنْ ثِقَاتِهِ مَنْ يَتَجَسَّسُ لَهُ خَبْرَهُ» «٣». ونقرأ في نهج البلاغة في الكتاب ٣٣ قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام لقشم بن عباس أمير مكة: «أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي إِنَّهُ وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعَمَى الْقُلُوبِ ... الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ... الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣١٨ فَأَقِمَّ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلْبِ». وفي حديث آخر عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أرسل شخصاً يدعى (بسبسه) «١» من أصحابه للتجسس على أحوال قافلة أبي سفيان وإخبار النبي بأخبارها «٢». ونقرأ إشارة واضحة إلى هذا المطلب في عهد مالك الأشتر حيث يأمره أمير المؤمنين عليه السلام أن يجعل العيون والجواسيس على موظفيه وعماله كما يراقب أعمالهم عن كثب من حيث لا يشعرون فيقول: «ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ وَابْعَثْ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصُّدُقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهِدَكَ فِي السَّرِّ لَأُمُورِهِمْ حِدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى إِسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ» «٣». وجاء في الحديث المعروف عن الإمام الحسين عليه السلام في مسألة بقاء محمد بن الحنفية في المدينة أنه عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على التحرك من المدينة باتجاه مكة ومنها إلى كربلاء أراد أخوه محمد بن الحنفية أن يصطحبه في هذا السفر فقال له الإمام عليه السلام: «أَمَا أَنْتَ فَلَا، عَلَيْكَ أَنْ تَقِيمَ بِالْمَدِينَةِ وَتَكُونَ لِي عَيْنًا لَا تَخْفِ عَنِّي شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِمْ» «٤».

## ٢- منظمات التنفيس والتحقيق

هناك الكثير من المنظمات في جميع الإدارات والمؤسسات المهمة في هذا العصر باسم منظمات الفحص والتحقيق والتي تعمل لغرض إعمال النظر على عمل الموظفين والعمال والتصدى لعمليات الاسراف والخلاف وضبط الامور واستطلاع الأحوال في مفاصل هذه الدوائر والمؤسسات. وبديهي أن عملهم ليس هو التجسس على الامور الخاصة والأحوال الشخصية للعمال والموظفين في هذه المؤسسات والدوائر، بل عملهم يهدف إلى النظارة على الامور المتعلقة بأداء العمل والوظيفة الاجتماعية ورعاية مصالح الامة، فلو أنه تم الاستغناء عن هذه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣١٩ المنظمات الاستخباراتية وتعطيل أعمالها فيمكن أن يستشري الفساد والخلل في مؤسسات المجتمع الكبيرة وإداراته المهمة. ومن الواضح أن هذه المسألة لا تختص بزمان ومكان معين بل كانت موجودة منذ

قديم الأيام وفي مناطق مختلفة من العالم. وأما الفرق بين الأجهزة الأمتية وهذه المنظمات التحقيقية فهو أن الأجهزة الأمتية تعمل في الخفاء لرصد أعمال المتأمرين على أمن الوطن والشعب ولكن المنظمات التحقيقية تعمل بوضوح النهار وتدرس الحالات المشكوكة وتتفحص عن ما يثير الريبة والخلاف كيما تكشف عن السلوكيات الخاطئة لدى الموظفين والمدراء والعمال وتسلمهم إلى العدالة.

### ٣- التجسس في المسائل المصيرية

يحق لمن يريد أن يختار له زوجة في حياته أو يسعى للعثور على شريك في أعماله التجارية أو موظف يشتغل في منصب حساس في مؤسسة معينة ولا يتمكن من تحقيق ذلك بدون سلوك التجسس والتحقيق في هذه المسألة والكشف عن زواياها الخفية، فالعقل والشرع يبيحان له أن يتفحص في أحوال هؤلاء الأشخاص من أصدقائهم وأقربائهم وأرحامهم أو يتحرك بنفسه لمراقبة حالاتهم وأوضاعهم من بعيد لكي يحصل له الاطمئنان بصلاح هذا الشخص وأنه مناسب لهذا الغرض الذي يسعى إليه. ومن المعلوم أن مثل هذا التحقيق والتفحص خارج عن دائرة التجسس الحرام، ولكن لا ينبغي اطلاقاً أن يجعل ذلك ذريعة للتدخل إلى حريم الحياة الخاصة للأفراد، فلو أنه لم يصمم فعلاً على الزواج من تلك المرأة أو يستخدم الشريك الفلاني فلا يجوز له بهذه الذريعة أن يتجسس على أحوالهم ولكنه يبرر عمله هذا بالقول بأنه يمكن أن تحصل لديه حاجة يوماً من الأيام لمثل هذه المعلومات التي اكتسبها عن طريق التجسس، فمثل هذه التبريرات الشيطانية لا يمكن أن تعتبر مجوزاً للتعدى على حدود الشرع وارتكاب الحرام. والخلاصة أن كل شكل من أشكال الإفراط والتفريط في هذه المسألة يتسبب في الإفلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٠ الانحراف عن تعاليم الإسلام الأصلية، وبعبارة أخرى: أنه لا يمكن الابتعاد عن التجسس والفحص والتحقيق في امهات المسائل الاجتماعية والضرورات الحياتية للمجتمع بسبب حرمة التجسس وبالتالي تتعرض مصالح الأمة للخطر ومؤامرات الأعداء، ولا يمكن كذلك تعريض مصالح الأمة للخطر من جهة التدخل في خصوصيات الحياة الفردية للأشخاص التي لا ترتبط من قريب أو بعيد بالمصالح العامة وبذريعة جواز التجسس في دائرة الاستثناء، فكلا هذين الأمرين خارج عن حدود الحق والعدالة وبعيد عن مفاهيم الإسلام.

### طرق العلاج:

وما لم يتحرك الإنسان في طريق إزالة جذور هذه الحالة الذميمة من واقع النفس والقضاء على أسبابها ودوافعها فإن تركها والابتعاد عنها سيكون عسيراً للغاية، وعليه فمن أراد التحرك على مستوى تهذيب النفس وتطهيرها من هذه الصفة الذميمة يجب عليه أولاً الابتعاد عن سوء الظن (وفق ما ذكرنا في الأبحاث السابقة) لأن سوء الظن يدفع الإنسان دائماً إلى الفحص والبحث عن أحوال الطرف الآخر الذاتية، وكذلك الحسد والحقد والعداوة والتكبر كل واحد منها يمكنها أن تكون عاملاً من عوامل التجسس على الأمور الخاصة بالآخرين بحيث أن الإنسان لو سعى لقلع عناصر الشر هذه من وجوده وقلبه فإن التجسس سيزول بالتبع. والعامل الآخر (عقدة الحقد) والتلوث بالذنب الذي يدعو الإنسان إلى أن يتصور الآخرين مثله ليكون مصداقاً للمثل الشائع «البلية إذا عمّت طابّت» وليحصل من ذلك على راحة نفسية كاذبة تدغدغ عواطفه وتسكن من وخز ضميره، فلو سعى الإنسان لتطهير نفسه من هذا التلوث وهذه العقدة، فإنه لا يجد في نفسه حاجة للتفتيش والفحص عن حالات الآخرين الخصوصية. ومضافاً إلى ذلك فإن كل شخص يجب أن يفكر في هذه الحقيقة، وهي هل أنه يرضى للآخرين أن يتدخلوا في حياته وأموره الخاصة ويكشف عن أسراره؟ فلو أنه لم يرض عن الإفلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢١ ذلك فلماذا يجد في نفسه الرغبة للتدخل في حياة الآخرين الخصوصية والتجسس عليهم والكشف عن أسراره؟ هذه المقارنة وعملية استنتاج الذات للحكم في هذه المسألة يمكنها أن تمثل رادعاً قوياً للإنسان، وكذلك الإلتفات إلى الآثار السلبية والنتائج السيئة للتجسس على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية وشدة العقاب الإلهي في الدنيا والآخرة، وأن كل شخص يسعى لإذاعة أسرار الآخرين والكشف عن خباياهم فإن الله تعالى سيكشف عيوبه وأسراره على الملأ ويزيل ستره

عن هذا الإنسان في الدنيا والآخرة، فمثل هذه الامور يمكنها أن تخلق أثراً نفسياً قوياً يمنع الإنسان من التورط في هذه الخطيئة. ولكن المهم والضروري ليس في علاج هذه الخصلة الأخلاقية فحسب بل في الصفات والخصال السلبية الأخرى، وهو ضرورة تكرار العمل المانع عن ارتكاب هذه الرذيلة، فيطالع ما ذكرناه آنفاً من الآثار السلبية والعقوبات الإلهية والدوافع الشريرة لهذه الحالة الذميمة ويكررها مرّات عديدة لتحصل له بذلك حالة زاجرة وراذعة بإمكانها أن تقلع جذور هذا المرض من قلبه وتحلّي الروح والنفس بأنوار الفضيلة والهدوء والاستقرار.

### حفظ السر وإفشاءه:

هذه المسألة في الحقيقة تعدّ تكملة للأبحاث السابقة، أو بعبارة أخرى، يمكن أن نضع حفظ السر وإفشاءه بعنوان فضيلة أخلاقية للأول ورذيلة بالنسبة إلى الثاني ودراستهما بشكل مستقل، ويمكن أن نضعهما ضمن بحث التجسس ولكونه مسألة من مسائل موضع التجسس وداخل في إطار هذا الموضوع. وعلى أيّة حال فإنّ تعريف حفظ السر أنّ الكثير من الناس لديهم أسرار خفية على الناس سواء كانت حسنة أو سيئة، فلو اذيعت على الملأ فإنّهم يتعرّضون للخسارة والضرر، مثلاً إذا كان الشخص ذا مكانة اجتماعية كبيرة ومنزلة قويّة في المجتمع ولكن بسبب غلبه الوسواس الشيطانية ارتكب بعض الذنوب الكبيرة، وقد علم بذلك شخص أو عدّة أشخاص الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٢ من الناس، فلو أنّ هذا السر اذيع على الناس وعلم به الآخرون فإنّ ذلك من شأنه أن يهدد شخصيته الاجتماعية ومكانته المرموقة بالسقوط، ولذلك فإنّه يطلب من ذلك الشخص أو الأشخاص الذين علموا بهذا السر أن يتحرّوا إخفاءه ويجتنبوا إذاعته للناس. أو أنّه يقوم بعمل صالح ونافع للناس ولكن إذا علم الناس بذلك وفهموا ما لهذا الإنسان من مقامات عالية وأخلاق سامية فمن الممكن أن تزداد فيهم حالة التمجيد والثناء تجاه هذا الشخص وبالتالي تتعرّض نيته الخالصة إلى التزلزل والتلوث أو يتلى بالعجب والغرور، ولذلك فإنّه يطلب من هذا الفرد أو الأفراد الذين علموا بصدور هذا الفعل الحسن منه أن يكتموا عليه هذا السر ولا يذيعوه للناس. أو أنّه يقوم بعمل مهم على المستوى الاقتصادي ولكن لو علم بذلك منافسوه في السوق فإنّ منافعه ومصالحه المادية تتعرض للخطر، ولذلك يطلب من الشخص الذي علم بذلك أن يكتم عليه هذا العمل ولا يفشى سرّه على الناس، وعليه فإنّ مسألة حفظ السر لا تختص في الذنوب والرذائل الأخلاقية بل قد تتعدّى إلى الفضائل المعنوية أو المنافع والمصالح المادية المهمّة، وبكلمة واحدة فإنّ حفظ السر يتعلّق بالأسرار التي إذا اذيعت فسوف تسبب الضرر والخسارة على صاحبها، سواء كان هذا السر يتعلّق بشخص خاص أو بالمجتمع الإسلامي. وقد لا نجد في الآيات القرآنية الكريمة ما يدلّ بصراحة على ضرورة حفظ السر أو قبح إفشاء السر، وبالطبع فإنّ كلمة (السر) وردت في القرآن الكريم مرّات عديدة ولكن ليس واحد منها يرتبط ببحثنا الحاضر، بل في الغالب تتضمّن علم الله تعالى بجميع الأسرار وخفايا الامور، وعبارة أخرى: إنّها تحكى عن سعة علم الله تعالى، ومع الأسف فاننا نرى بعض الكتاب الإسلاميين بدون الإلتفات إلى مضمون هذه الآيات تصوّروا أنّها تتحدّث عن مسألة حفظ السر. هذا ولكن وردت في القرآن الكريم تعبيرات أخرى تدل على موضوعنا بالأدلة الإلتزامية وتتضمّن مدح فضيلة حفظ السر أو اقيح إفشاء السر، ومن ذلك: ١- ما ورد في الآية ١٦ من سورة التوبة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٢٣ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَمَّا رَسُوهُ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَجْزِيَ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهذه الآية تخاطب المسلمين بأنّ يحفظوا أسرارهم عن الأشخاص الذين لا يثقون بهم ولا يطمئنون إليهم، بل يكشفوا أسرارهم إلى من يطمئنوا إليهم ويثقوا بهم، ومفهوم هذه الآية الشريفة هو أنّ حفظ السر يعتبر فضيلة من الفضائل الأخلاقية بخلاف إفشاء السر الذي يعدّ رذيلة في المقابل. ٢- ونقرأ في الآية ١١٨ من سورة آل عمران قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا». (بطانة) لها مفهوم يماثل مفهوم كلمة (وليجه) فكليهما معنيان محرم الأسرار وأنّ الله تعالى يخاطب جميع المؤمنين ويقول مؤكداً عليهم أن لا يجعلوا غير المسلمين محرم أسرارهم، فهو في الواقع إشارة إلى لزوم حفظ الأسرار والذم لمن يعمل على إفشاء السر، غاية الأمر أنّ هذه الآية والآية التي قبلها ليست ناظرة

للأسرار الخاصة والشخصية، بل نظرة إلى أسرار المجتمع الإسلامي التي يمثل إفشاؤها للأعداء ضربة كبيرة للمسلمين. وقد يتصور أن الآية ٨٣ من سورة النساء التي تقول: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَوْا بِهِ». أن الله تعالى في هذه الآية الشريفه يتحدث عن المنافقين أو بعض الأشخاص الذين يعيشون ضعف الإيمان واهتزاز العقيدة ويذمهم على أنه إذا وصل إليهم خبر انتصار المسلمين أو هزيمتهم في ميدان القتال أذاعوا هذا الخبر ونشروه بين الناس. ولكن ذيل الآية يدل على أنها نظرة إلى إشاعة الشائعات الواهية أو المشكوكه لأنها تقول بعد ذلك: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» (١). والتعبير بالأمن أو الخوف الوارد في هذه الآية هو إشارة إلى أن الأعداء أحياناً يشيعون الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٤ أخباراً تتعلق بانتصار المسلمين لكي تضعف فيهم الرغبة في القتال والجهاد، وأحياناً يثون الشائعات التي تحدث عن هزيمة المسلمين ليذب اليأس في قلوبهم، القرآن الكريم يحذر المسلمين هنا عن تصديق هذه الشائعات لكي لا تؤثر خطط الأعداء ومؤامراتهم في نفوسهم فلا يصلوا إلى مقاصدهم من تضعيف معنويات المسلمين. وبالطبع فإن القرآن الكريم في مورد زوجات النبي ولزوم حفظ السر تحدث بالتفصيل في سورة التحريم التي تعرضت إلى بعض أزواج النبي من موقع الدم والتوبيخ الشديد لأنهن قصيرن في حفظ أسرار بيت النبي صلى الله عليه وآله قالت: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ\* إِنَّ تَوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» (١). أما ما هو السر الذي أذاعته بعض زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله فهناك بحوث مفصلة بين المفسرين يطول إيرادها وذكرها في هذا المقام ويمكن للقارىء الكريم أن يرجع إلى التفسير الأمثل ذيل هذه الآية ٣ و ٤ من سورة التحريم. المورد الآخر الذي تحدث القرآن الكريم فيه عن حفظ السر (وطبعاً بالإشارة لا بالتصريح) هو في مورد قصية أبوالباب الذي إستشاره بنو قريضة (وهم قبيلة من اليهود الذين كانوا يكيدون للمسلمين ويتآمرون عليهم بشدة) وهل أنهم سيتسلمون لحكم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله؟ فأشار إليهم أبوالباب على رقبته بالذبح، أي أنكم لو استسلمتم للنبي فإنه يأمر بقتلكم جميعاً، ثم أنه ندم على ذلك أشد الندم وأدرك أنه ارتكب خيانه كبيرة للمسلمين، فما كان منه إلا أن ربط نفسه بأحد اسطوانات المسجد وتاب من فعلته هذه فتاب الله عليه، ونزلت الآية ٧٢ من سورة التوبة تعلن قبول توبته حيث تقول الآية: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وكلمة (آخرون) إشارة إلى أن محتوى هذه الآية لا يتعلق بشخص خاص أو فرد معين، الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٥ بل يستوعب جميع الذين ارتكبوا بعض الذنوب وانطلقوا من موقع الندم وجبران هذا النقص وتابوا توبه صالحة وصادقة. هذا ما يتعلق بمجموع الإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم بالنسبة إلى مسألة حفظ السر وإفشائه.

### حفظ السر في الروايات الإسلامية:

ونجد في الروايات الإسلامية تعبيرات مختلفة وكثيرة فيما يتعلق بحفظ السر وضرورة الالتزام بعدم إفشائه وإذاعته مما يدل على إهتمام الإسلام بهذا الموضوع حتى أنه قرر أن أسرار الآخرين بمنزلة الأمانة لدى الشخص وإفشاؤها يعنى الخيانة للأمانة: ١- ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ لَتَفَتَ فِيهِ أَمَانَةٌ» (١). هذه الالفتاة تعنى أنه لا يريد أن يسمعه آخر، فحينئذ يكون إفشاء هذا السر بمثابة الخيانة بالأمانة. ٢- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَفْشَى سِرًّا إِسْتَوْدَعَهُ فَقَدْ خَانَ» (٢). ٣- وفي حديث آخر عن الإمام عليه السلام أيضاً أنه قال: «مَنْ كَشَفَ حَجَابَ أَخِيهِ انْكَشَفَ حَجَابَ بَيْتِهِ» (٣). ٤- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «جَمَعَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كُتْمَانِ السِّرِّ وَمُصَادَقَةِ الْأَخْيَارِ وَجَمَعَ الشَّرَّ فِي الْأَذَاعَةِ وَمُوَاخَاةِ الْأَشْرَارِ» (٤). وطبعاً فإن كتمان السر يمكن أن يكون إشارة إلى كتمان سر الإنسان نفسه، ولكن إطلاق الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٦ العبارة يدل على شمول الحديث لكتمان الأسرار الذاتية التي تتعلق بالآخرين.

## أقسام حفظ السر:

لحفظ السر أقسام متعددة منها: ١- حفظ أسرار الآخرين. ٢- حفظ أسرار النفس. ٣- حفظ أسرار أولياء الدين. ٤- حفظ أسرار النظام والحكومة الإسلامية. أما ما ورد في الروايات المذكورة آنفاً فإنه يتعلق بحفظ أسرار الآخرين، ولكن هناك روايات واردة في حفظ أسرار النفس أيضاً حيث توصي المسلمين بحفظ أسرارهم الخاصة في حياتهم الفردية، لأنه قد تكون إذاعتها وإفشائها سبباً لإثارة عناصر الحسد والحقد والمنافسة غير المنصفة، وبالتالي يقع الإنسان مورد عدوان الأشخاص الذين يعيشون الحقد وضيق الاقارب وتتعرض مصالحه إلى خطر كما نقرأ فيما يلي نماذج لهذه الروايات: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سِرُّكَ سِرُّرُوكَ إِنْ كَتَمْتَهُ وَإِنْ أَدَعَيْتَهُ كَانَ تُبُورَكَ» (١). ٢- ويقول عليه السلام في حديث آخر: «سِرُّكَ أَسِيرُكَ فَإِنْ أَفْشَيْتَهُ صِرْتَ أَسِيرَهُ» (٢). ٣- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صِينْدُوقِ سِرِّهِ» (٣). ٤- ونقرأ في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ فَلَا يَجْرِيَنَّ فِي غَيْرِ أَوْدَاجِكَ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٧

٥- وجاء في حديث عميق المعنى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن المؤمن لا يكون مؤمناً إلا إذا توفرت فيه ثلاث خصال: «فَسِدْنَةُ مِنْ رَبِّهِ كِتْمَانُ سِرِّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» (١). ونقرأ في بعض الروايات أيضاً أنها توصي بحفظ الأسرار وعدم إذاعتها حتى لأقرب المقربين من الأصدقاء، لأنه يمكن أن تتغير الظروف والأيام وينقلب الصديق إلى عدو وبالتالي سوف يتحرك على مستوى إذاعة هذه الأسرار وإفشائها. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تَطَّلِعْ صَدِيقَكَ مِنْ سِرِّكَ إِلَّا عَلَى مَا لَوْ أَطَّلَعَتْ عَلَيْهِ عَدُوُّكَ لَمْ يَضُرَّكَ فَإِنَّ الصَّدِيقَ قَدْ يَكُونُ عَدُوًّا يَوْمًا مَا» (٢). أما في مورد إفشاء أسرار أولياء الله تعالى والأئمة المعصومين عليهم السلام فقد وردت روايات مهمة جداً تؤكد بشدة على كتمان هذه الأسرار. وهذه الأسرار يمكن أن تكون إشارة إلى المقامات المعنوية المهمة للمعصومين بحيث أن الأعداء إذا أطلعوا عليها حملوا ذلك على محمل الغلو وكان ذلك ذريعة بيدهم لتكفير الشيعة أو تضعيفهم أو القضاء عليهم في حين أنها ليست من الغلو بل هي مقامات موافقة للقرآن الكريم وللسنة النبوية. أو هي إشارة إلى أسرارهم بالنسبة إلى العمل في نشر مذهب أهل البيت في المناطق المختلفة من البلاد الإسلامية حيث يثير هذا الموضوع حساسية المخالفين فيزدادوا تعصباً ويعملوا على منع هذه الأعمال والنشاطات الدينية. أو أنها إشارة إلى زمن الظهور للإمام القائم عليه السلام من أهل البيت عليهم السلام كما وردت الإشارة إلى ذلك في بعض الروايات الشريفة وأن بعض الأئمة المعصومين عليهم السلام عزم على القيام بوجه الحكومات الظالمة في ذلك الزمان، ولكن بما أن بعض الشيعة أذاعوا أسرار هذه النهضة فإن ذلك أدى إلى فشلها وإجهاضها، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في بعض الروايات التي تحث الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٨ الشيعة على كتمان أسرار المعصومين عليهم السلام ومن ذلك: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا تَقَارَبَ هَذَا الْأَمْرُ كَانَ أَشَدُّ لِلتَّقِيَّةِ» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَنْ أَفْشَى سِرَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَذَاقَهُ اللَّهُ حَرَّ الْحَدِيدِ» (٢). ٣- ونقرأ أيضاً في حديث آخر عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: «أَمْرُكَ أَنْ تَصُونَ دِينَكَ وَعَلَمْنَا الَّذِي أَوْدَعْنَاكَ وَأَسْرَارِنَا الَّذِي حَمَلْنَاكَ فَلَا تُبَدِّ عُلُومَنَا لِمَنْ يُقَابِلُهَا بِالْعِنَادِ ... وَلَا تُفْشِ سِرَّنَا إِلَى مَنْ يَشِيعُ عَلَيْنَا عِنْدَ الْجَاهِلِينَ بِأَحْوَالِنَا» (٣). ويستفاد من هذا الحديث الشريف أن إذاعة أسرار الأئمة المعصومين عليهم السلام أمام أهل الحق ومن يتحرك في سبيل طلب الهداية والحق فإنه لا بأس به ولا مندوحة منه، ولكن المنع الوارد في الروايات يختص بإذاعتها للأشخاص الذين يعيشون العناد والحقد وأنهم لو سمعوا بمقامات أهل البيت وفضائلهم وعلومهم فإنهم سيجدون في أنفسهم الحسد وتحرك فيهم البغضاء فيتكلمون بكلمات غير مسؤولة ويشيرون المصاعب والمشكلات أمام أتباع أهل البيت عليهم السلام. ٤- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إِمْتَحِنُوا شَيْعَتَنَا عِنْدَ ثَلَاثٍ: عِنْدَ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ كَيْفَ مُحَافَظَتُهُمْ عَلَيْهَا، وَعِنْدَ أَسْرَارِهِمْ كَيْفَ حِفْظُهُمْ لَهَا عَنْ عِدُوِّنَا وَإِلَى أَمْوَالِهِمْ كَيْفَ مُوَسَاتِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ عَلَيْهَا» (٤). ٥- وورد في حديث شريف

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما قتلنا من أذاعَ حَدِيثَنَا قَتَلَ خَطَاءً وَلَكِنْ قَتَلْنَا قَتَلَ عَمْدٍ» (٥). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٢٩-٦- وفي الحقيقة أن الكثير من المشكلات والمصاعب التي واجهها الأئمة المعصومين عليهم السلام وتعرضوا بالتالي إلى الوقوع في أسر الظالمين والأعداء بسبب أن بعض أفراد الشيعة لم يكونوا ملتزمين بالانضباط في كلماتهم وأحاديثهم فكانوا يتحدثون عن فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم أو عن رذائل أعدائهم ونقاط ضعفهم ويذيعونها إلى القريب والبعيد، فتصل إلى أسماع الحكام والامراء فتؤدي إلى مضاعفة عمليات التضييق والارهاب في حق أهل البيت عليهم السلام وقد تفضى إلى قتلهم على يد حكومات الجور، وكذلك في إذاعة الأخبار التي تتحدث عن قائم أهل البيت عليه السلام وانتقامه من الأعداء والتي تورث هؤلاء الأعداء الخوف والوحشة، فيتحرّكون في المقابل بالانتقام من أهل البيت عليهم السلام. ٧- وجاء في حديث آخر بهذا المضمون ولكن بصياغة جديدة عن هذا الإمام أيضاً في تفسير الآية الشريفة: «وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» (١)، قال: «أما والله ما قتلوهم بأسيا فيهم ولكن أذاعوا سرهم وأفسحوا عليهم قتلوا» (٢). ٨- ونقرأ في حديث آخر عن المفضل بن عمر قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام يوم صلب فيه المعلّى فقلت له: يا ابن رسول الله ألا ترى هذا الخطب الجليل الذي نزل بالشيعة في هذا اليوم؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: قتل المعلّى بن خنيس، قال: «رحم الله المعلّى قد كنت أتوقّع ذلك أنه قد أذاع سرنا، وليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤونة علينا من المذيع علينا سرنا» (٣). وعلى أي حال فإن حفظ أسرار أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبشكل عام حفظ أسرار المذهب من المسائل المسلمة التي لا ينبغي التردد فيها، لأن هذه الأسرار إذا اذيعت ووصلت إلى أيدي الأعداء فسوف يتحرّك فيهم عنصر الحسد بالنسبة إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم، فيسعون إلى التصدي لنشاطات الأئمة في الدائرة الاجتماعية والتربوية والثقافية ويجهضوا أي عمل نافع للأئمة، ولهذا السبب ورد التأكيد في الروايات الشريفة على حفظ هذه الأسرار. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٠ والقسم الأخير من حفظ السر هو المحافظة على الأسرار العسكرية والسياسية للدولة الإسلامية، ووجوبه من البديهيّات، ولهذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله إهتم بهذا الأمر غاية الاهتمام، وأوصى كذلك أصحابه بالمحافظة على هذه الأسرار أيضاً، والكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون على أعدائهم من المشركين واليهود وقوى الانحراف الأخرى كان بسبب الالتزام والانضباط في هذه المسألة الدقيقة، فمثلاً نقرأ في قصيدة فتح مكة أنه لو أن تلك المرأة (سارة) كانت قد وصلت إلى مكة وأخبرت المشركين بما يعده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمون من الجيوش والقوى العسكرية لفتح مكة، فمن الطبيعي أن فتح مكة لا يتيسر للمسلمين بتلك السهولة، وقد تراق في سبيل ذلك الكثير من الدماء من الطرفين، ولكن تأكيد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على حفظ الطرق وارساله من يعيد هذه المرأة النمامة تسبب في أن يصل جيش الإسلام إلى أسوار مكة بدون أية صعوبة وبسرعة فائقة حتى أن المشركين انبهروا وتخاذلوا لما تفاجئوا من قوة الإسلام وسرعة المبادرة وعملية المباغتة لهم واستسلموا جميعاً. ونقرأ في الروايات الإسلامية إشارات إلى هذه المسألة أيضاً بتعبيرات عميقة المغزى، ومن ذلك: ١- ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الظفر بالخزم بإجاله الرأى، والرأى بتحصين الأسرار» (١). ٢- وورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله عز وجل عيّر قوماً بالإذاعة فقال: إذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به، فأياكم والإذاعة» (٢). ٣- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له»، لأن المخالفين عندما يطلعون عليه فرّبما تحركوا في سبيل المنع من تحقيقه ونجاحه.

### معطيات حفظ السر وإفشائه:

إن جميع الناس في حياتهم الخصوصية لديهم بعض الأسرار المتعلقة بنقاط ضعفهم وعيوبهم، وأحياناً يتعلق بموفقياتهم وأعمالهم الإيجابية، ومن المعلوم أن إفشاء ما يتعلق بنقاط الضعف والعيوب يؤدي إلى سقوط إعتبار وحيشة هؤلاء في نظر الناس، وقد يفضى إلى سلب الثقة منهم وسقوطهم الاجتماعي وإرافة ماء وجههم، ولهذا السبب نراهم يحرصون على التكتّم على تلك الأسرار لتسنّى لهم

الفرصة لإصلاح تلك المعايير وجبران نقاط الضعف في واقعهم. أما إفشاء ما يتعلق بنقاط القوة والصفات الإيجابية فإنه من شأنه أن يسرع نار الحسد في قلب الحساد ويعمل على تحريك عناصر الشر في قلوب البخلاء وأصحاب الشخصيات الهزيلة والمعقدة، وعلى أية حال فإنه سيكون مصدر الشر والفساد والشقاء على المستوى البعيد، ولهذا قد يحرص بعض الناس على التحفظ من الكشف عن هذه الموفقيات والإيجابيات في واقعهم. ولذا ورد في الحديث الشريف عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «إِنْ كَانَ فِي يَدِكَ هَذِهِ شَيْءٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَعْلَمَ هَذِهِ فَافْعَلْ؛ قَالَ: وَكَانَ عِنْدَهُ إِنْسَانٌ فَتَذَاكَرُوا الإِذَاعَةَ، فَقَالَ: إِحْفَظْ لِسَانَكَ تُعْزَّزْ، وَلَا تُمَكِّنِ النَّاسَ مِنْ قِيَادِ رَقَبَتِكَ فَتَذَلَّ» (١). والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام قال في بداية هذا الحديث: «إِنْ كَانَ فِي يَدِكَ هَذِهِ شَيْءٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تُعْلَمَ هَذِهِ فَافْعَلْ» (٢). ومن هنا يتضح أنه إذا علم الإنسان بخبر مكتوم للآخر وانكشف له سر من أسرارهِ فإن ذلك يعدّ أمانةً لديه، فلو أذاعه فإنه قد خان الأمانة وتسبب في أن يقع الطرف الآخر في دوامه من المشكلات والأضرار الكبيرة أو يؤدي إلى أن يتعرض إلى الخطر في شخصيته الاجتماعية ومكانته في الناس أو يؤدي إلى تفعيل عناصر الشر لدى الحساد والبخلاء الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٢ وأصحاب النفوس الضيقة، أو يطمع الاراذل والأوباش في ماله وعرضه. ولذا ورد في الأحاديث السابقة أن الإمام قال: «سِرُّكَ سُرُورُكَ إِنْ كَتَمْتَهُ وَإِنْ أَدَعْتَهُ كَانَ تُبُورُكَ» (١). وعليه فلا بد للإنسان أن يحفظ أسرارهِ مهما أمكن ولا يذيعها إلى الآخرين، وبعبارة أخرى: أن يجعل صدره صندوق أسرارهِ، فلو اضطر في مورد معين أو إتفق له أن اطلع على سر من أسرار أخيه المؤمن فإنه يجب عليه أن يسعى لحفظه ولا يرتكب الخيانة في حق أخيه المؤمن. أما بالنسبة إلى إفشاء أسرار المذهب أمام المتعصبين والحاقدين الذين لا يتحملون سماع الرأي الآخر ولا يرون أي فكر حقاً غير فكرهم القاصر فكذلك، وخاصة بالنسبة إلى فضائل الأئمة المعصومين عليهم السلام التي لا يطبق سماعها الأعداء المعاندين والحاقدون، وهكذا الحال بالنسبة إلى حفظ الأسرار السياسية والعسكرية للبلد الإسلامي حيث يؤدي إذاعتها إلى تعرض مصالح الأمة ومصير النظام الإسلامي إلى الخطر أو يتسبب في إراقة الكثير من الدماء البريئة وتلف الثروات الطائلة أو هتك الشخصيات المرموقة في المجتمع الإسلامي، ولذلك فإن حفظ هذه الأسرار يعدّ من أهم الوظائف الدينية، وفي المقابل فإن إفشاء هذه الأسرار يعدّ من أقبح الرذائل الأخلاقية ويترتب عليه عقوبة شديدة، ولهذا السبب قرأنا في الأحاديث السابقة أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَا قَتَلْنَا مَنْ أَدَاعَ حَدِيثَنَا قَتْلَ خَطَايَا وَلَكِنْ قَتَلْنَا قَتْلَ عَمْدٍ» (٢). وقد أورد العلامة المجلسي في بحار الانوار حديثاً جذاباً حيث يقول ما خلاصته: «دخل على أمير المؤمنين عليه السلام رجلان من أصحابه فوطئ أحدهما على حية فلدغته ووقع على الآخر في طريقه من حائط عقرب فسلعته وسقطا جميعاً فكأنهما لما بهما يتضرعان ويبكيان، فقال لهما أمير المؤمنين عليه السلام: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٣ «مَا اصْتَبَّ وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِلَّا بِذَنْبِهِ. أَمَا أَنْتَ يَا فُلَانًا - وَأَقْبَلْ عَلَى أَحَدِهِمَا - أَتَدْرِكُ يَوْمَ غَمَرَ عَلَى سَيِّلِمَانَ الْفَارِسِيِّ فُلَانًا وَطَعَنَ عَلَيْهِ لِمَوَالِيهِ لَنَا فَلَمْ يَمْنَعَكَ مِنَ الرَّدِّ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ خَوْفًا عَلَى نَفْسِكَ وَلَا عَلَى أَهْلِكَ وَلَا عَلَى وُلْدِكَ وَمَالِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ اسْتَحْيَيْتَهُ، فَلِذَلِكَ أَصَابَكَ. فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مَا بِكَ فَاعْتَقِدْ أَنْ لَا تَرَى مَرْزُئًا عَلَى وُلِّيٍّ لَنَا تَقْدَرُ عَلَى نُصْرَتِهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ الْآنَ صِرْتَهُ، إِمَّا أَنْ تَخَافَ عَلَى نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَوُلْدِكَ وَمَالِكَ. وَقَالَ لِلْآخَرِ: فَأَنْتَ أَتَدْرِي لِمَا أَصَابَكَ مَا أَصَابَكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا تَدْرِكُ حَيْثُ أَقْبَلَ قَبْرِ خَادِمِي وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ فُلَانِ الْعَاتِي فَكُفَّتْ إِجْلَالًا لَهُ لِإِجْلَالِكَ لِي؟ فَقَالَ لَكَ: أَوْ تَقُومُ لِهَذَا بِحَضْرَتِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا بِالِي لِأَقُومَ وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ تَضَعُ لَهُ أَجْنَحَتَهَا فِي طَرِيقِهِ، فَعَلَيْهَا يَمِشِي، فَلَمَّا قُلْتُ هَذَا لَهُ، قَامَ إِلَى قَبْرِ وَضَرَبَهُ وَشَتَمَهُ وَأَذَاهُ وَتَهَدَّدَنِي وَالزَّمَنِي الإِغْضَاءَ عَلَيَّ قَدَى فَلِهَذَا سَقَطَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْحَيَّةُ. فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُعَافِيكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا فَاعْتَقِدْ أَنْ لَا تَفْعَلَ بِنَا وَلَا بِأَحَدٍ مِنْ مَوَالِينَا بِحَضْرَةِ أَعْدَائِنَا مَا يُخَافُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ مِنْهُ» (١). وكذلك نقرأ ما ورد في التواريخ الإسلامية أن بعض قادة الإسلام اعدوا الجواسيس بسبب أن عملهم يؤدي إلى سفك الدماء البريئة ولذلك حكموا بقتلهم وإعدامهم.

أحياناً تدفع الحاجة أو الضرورة الإنسان إلى إخبار الآخر بسرّه، ففي هذه الموارد يجب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٤ على هذا الإنسان أن يختار لذلك الشخص الأمين العاقل ليضع عنده سرّه كما قال الإمام على عليه السلام: «مَنْ أَسَرَّ إِلَى غَيْرِ نَفَقَةٍ فَقَدْ ضَيَّعَ أَمْرَهُ» (١). وحتى أن الإمام أوصى في حالة الضرورة وعندما يريد الإنسان أن يودّع سرّه عند أخيه المؤمن أن يتلقى في المقابل سرّاً من ذلك الشخص لكي يكون بمثابة الضمانة لحفظ سرّه حيث يقول: «لَا تَضَعُ سِرُّكَ عِنْدَ مَنْ لَا سِرَّ لَهُ عِنْدَكَ» (٢). ويجب الانتباه إلى أن الأشخاص الذين لا يعيشون الانضباط في حفظ أسرارهم فإنهم لا يلقون بالثقة والاعتماد لحفظ أسرار الآخرين، فينبغي الاجتناب عن وضع السرّ عندهم. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «مَنْ ضَعُفَ عَنْ حِفْظِ سِرِّهِ لَمْ يُطِقْ سِرَّ غَيْرِهِ» (٣).

### دوافع إفشاء السرّ وعلاجها:

إنّ هذه الرذيلة الأخلاقية تنشأ من دوافع ونقاط ضعف مختلفة منها: ١- إن الشخص الحسود يسعى لإفشاء أسرار الطرف الآخر لتوجيه ضربة إلى نقاط قوته وشخصيته بين الناس، ويسعى لذلك لإراقة ماء وجهه أو تهديد مصالحه الدنيوية والمادية. ٢- إن الأشخاص الذين يعيشون الحقد والعقده تجاه الآخرين فإنهم يسعون أيضاً ولغرض الانتقام من الطرف الآخر وارضاء دافع الحقد في نفوسهم إلى إفشاء أسرار الآخرين. ٣- ومن الدوافع الاخرى لهذه الرذيلة هو عنصر الجهل وضيق الافق، فالأشخاص الذين يعيشون هذه الحالات الوضعية ليست لديهم اللياقة لحفظ أسرار الآخرين. ونقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثٌ لَا يُسْتَوْدَعَنَّ سِرّاً: الْمَرْأَةُ وَالنَّمَامُ وَالْأَحْمَقُ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٥ وفي حديث آخر عن الإمام عليه السلام نفسه أنه قال: «لَا تُسَيِّرَنَّ إِلَى الْجَاهِلِ شَيْئاً لَا يُطِيقُ كِتْمَانَهُ» (١). ٤- وأساساً فإن إفشاء السرّ وبشكل عام نشر الأخبار الخفية والجديدة وأحياناً العجيبه والغريبة تجد في قلوب الناس جاذبية خاصة تقودهم إلى الرغبة الشديدة في الإستماع والإصغاء لهذه الأخبار، هذا المعنى قد يتسبب إلى أن يرغب بعض الناس لإفشاء أسرار الآخرين ليلفتوا إليهم نظر المستمعين. ٥- ومن العوامل المهمّة الاخرى لإفشاء الأسرار هو الأخطاء والاشتباهات وعدم الالتفات إلى كون هذا الأمر من الأسرار، ولهذا السبب فقد يصدر من بعض الناس المنضبطين في مسألة حفظ السر بعض الاشتباهات والزلل في هذا الأمر حتى قيل: «كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ شَاعَ». ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه ويدعى عمّار حيث سأله الإمام الصادق عليه السلام: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ أَحَدًا؟ قَلْتُ: لَا إِلَّا سُلَيْمَانَ بْنَ خَالِدٍ، قَالَ: أَحْسَنَتْ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ: فَلَا يَعْدُونَ سِرِّي وَسِرِّكَ ثَالِثًا أَلَا كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ شَايَعُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاضِحٌ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى أَنْ يَقُومَ كُلُّ شَخْصٍ بِأَخْبَارِ أَحَدٍ أَصْدِقَائِهِ الْمُوثِقِينَ بِأَسْرَارِهِمْ، وَيَقُومُ الشَّخْصُ الثَّانِي بِمِثْلِ الْعَمَلِ، وَهَكَذَا الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ فَلَا تَطُولُ الْمُدَّةُ حَتَّى يَنْتَشِرَ السِّرُّ فِي الْمَجْتَمَعِ كُلِّهِ».

### أما العلاج:

فقد رأينا في الأبحاث السابقة أنه إذا كان موضوع إفشاء الأسرار يتعلق بخصوصيات الأشخاص الآخرين فيترتب على ذلك الآثار السلبية الكثيرة من قبيل سقوط شخصيته ومنزلته الاجتماعية، وزوال ثقة الناس وإعتمادهم عليه قد يصل الأمر إلى سقوط شخصيته الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٦ نهائياً في أنظار الناس وتلف جميع إيجابياته ونقاط قوته في المجتمع. وإذا كان إفشاء السرّ متعلقاً بالمجتمع أو المذهب والدين فقد يؤدي أحياناً إلى تعرّض ذلك المجتمع للخطر أو يتعرّض أتباع ذلك المذهب إلى مشاكل كثيرة وقد تسفك في ذلك دماء بريئة وتهتك حرّمات المؤمنين وتصادر أموالهم من قبل الأشخاص الذين يعيشون التعصّب الأعمى والجهالة والانحراف. إن الالتفات إلى هذه العواقب والآثار السلبية الأليمة في إفشاء الأسرار يعدّ أحد العوامل المؤثرة في الوقاية من هذه الرذيلة الأخلاقية، كما أنّ التدبّر في الآثار السلبية في كل صفة رذيلة من الصفات الأخلاقية الذميمة يعدّ عاملاً للتوقّي من الوقوع والابتلاء في هذه الرذيلة. ومن الطرق الاخرى للعلاج هو القضاء على أسباب ودوافع هذه الرذيلة وإقتلاع جذورها من واقع النفس، أي



عنصر الجهل والحسد والحقد أمثال ذلك. ومن الطرق الأخرى هو سعة ظرفية الإنسان وأفق وشرح صدره وروحه وقوة شخصيته، فهذا من شأنه أن يساعده على المحافظة والانضباط في دائرة الأسرار. وكذلك التفكير في العقوبات الإلهية الشديدة المترتبة على إفشاء أسرار الناس والمجتمع والتي تقدم الحديث عنها سابقاً يمكن أن يعدّ من الأمور النافعة للوقاية من هذه الرذيلة أو علاجها. ومن العوامل المهمة الأخرى هو الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أن إفشاء أسرار الآخرين إذا تسبب في حقوق الضرر والخسارة بهم فإنّ المذيع لشرهم يعدّ مسبباً لهذه الأضرار وفي الكثير من الموارد يعتبر ضامناً شرعاً وقانوناً لها. الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٧

## الحلم والغضب

### تنويه:

(الغضب) من أخطر الحالات والانفعالات في الإنسان التي إذا لم يتصدّ الإنسان لضبطها والسيطرة عليها فإنّها قد تظهر بشكل جنوني على سلوكيات الفرد وتفقدته أيّة سيطرة على أعصابه، وحتى أنّ الكثير من السلوكيات الخطرة والجرائم الكثيرة في حركة الإنسان في حياته الاجتماعية تكون بدافع الغضب ويترتب عليه دفع كفارة وضريبه، وبعبارة أخرى، نرى صفة الحلم وهي من الصفات الأخلاقية الحميدة، ونرى القرآن الكريم قد إهتم بهذه الصفة أيما اهتمام، وقد وردت في الآية ١٣٤ من سورة آل عمران يصف فيها المتقين حيث ذكرت بعد صفة الانفاق، لما لهذه الصفة من آثار إيجابية على وضع الفرد والمجتمع. إنّ حالة الغضب كالنار المحرقة التي قد تأتي على الأخضر واليابس من حياة الإنسان وتكفي شرارة صغيرة منها إلى إحراق بيوت ومدن كاملة وتحويلها إلى رماد. وإذا تصفّحنا التاريخ البشري فإننا نجد أنّ المشكلات الكثيرة التي ابتلت بها المجتمعات البشرية كانت بدافع من قوة الغضب هذه حيث تسببت في الكثير من الحوادث المؤلمة والأزمات الخطيرة والخسارة الهائلة على المستوى الفردي والاجتماعي. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحى منها درساً وعبراً في خطر هذه الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٨ الرذيلة الأخلاقية وكذلك بركات الحلم وآثاره الإيجابية في النقطة المقابلة لها: ١- «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» (١). ٢- «الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (٢). ٣- «وَإِذَا التُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (٣). ٤- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (٤). ٥- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» (٥). ٦- «فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» (٦). ٧- «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (٧). ٨- «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (٨).

### تفسير واستنتاج:

«الآية الأولى» من الآيات محل البحث التي تتحدث عن أوصاف طائفة من المؤمنين الصادقين الذين شملهم الله تعالى برحمته وعنايته الخاصة، فتقول بعد أن تذكر إيمانهم وتوكلهم على الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ». وبعبارة أخرى: أنّ هؤلاء عندما تشتعل في نفوسهم نار الغضب يتحرّكون على مستوى الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٣٩ ضبطها والسيطرة عليها ولا يسمحون لأنفسهم بالتلوث بأنواع الخطايا والذنوب لأجل ذلك. إنّ ذكر هذه الصفة بعد مسألة التوقّي من الذنوب والآثام الكبيرة لعله بسبب أنّ حالة الغضب تقود النفس إلى التحرر من قيود العقل وتفكّك عن قوى الشر جميع الضوابط الأخلاقية والشرعية لتتحرّر وتطلق في كل اتجاه. ومن الملفت للنظر أنّ هذه الآية لا تقول: إنّ هؤلاء لا يغضبون، لأنّ الغضب في مواجهته المصاعب اللاملائمات والتحدّيات هو حالة طبيعية لدى الإنسان، بل تقرر أنّ هؤلاء في حال الغضب يتحرّكون من موقع السيطرة على حالة الغضب هذه وأن لا يخضع الإنسان لايحاءات هذه القوة في نفسه وخاصة أنّ قوة الغضب لا تقع دائماً في جانب الشرّ في الإنسان

ولا تمثل عنصراً سلبياً في دائرة السلوك المخزَّب، فأحياناً تكون قوّة مثمرة وبناءة كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد باذن الله تعالى. وتأتى «الآية الثانية» وبعد أن تستعرض وعد الله تعالى للمتقين بالجنة التي وسع عرضها السموات والأرض لتتحدث عن أوصاف هؤلاء، وأول صفة تذكرها لهؤلاء هي صفة الانفاق وتقول: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» ثم تضيف الآية «وَالكَاظِمِينَ الْغَيْظَ» وفي النتيجة: «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» فمن يعيش هذه الحالات الايجابية والقيم الأخلاقية فهو من المحسنين الذين تقول عنهم الآية في ذيلها: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». والملفت للنظر أن الآية التي تليها وعدت هؤلاء بعفو الله ومغفرته في حال صدور الخطأ منهم، وأنهم عندما يتحرّكون صوب الانحراف وارتكاب الخطأ يتذكرون الله تعالى ويستغفرونه فيشملهم الله بعفوه ومغفرته. وهذا إشارة إلى أن هؤلاء كما أنهم يتحرّكون في تعاملهم مع الآخرين من موقع العفو والصفح عن أخطاء الغير فإن الله تعالى كذلك يعفو عنهم ويصفح عن أخطائهم. وعلى أيّة حال فإنّ (كظم الغيظ) في هذه الآية ورد بعنوان أحد الصفات الإيجابية المرموقة لهؤلاء المتقين. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٠ «الآية الثالثة» تتحدث عن حالة الغضب التي عاشها أحد الأنبياء الإلهيين، وهو النبي يونس عليه السلام تجاه أمته وقومه، وهو الغضب المقدس في ظاهره، ولكنّه في الواقع صادر من التسرع والاستعجال وعدم إدراك بواطن الامور، ولهذا فإنّ الله تعالى قد جعله يواجه ظروفًا صعبة بسبب تركه للاولى وأخيراً فإنّ هذا النبي الكريم قد تاب من ترك الاولى، وتقول الآية: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». وهكذا وبعد تحمّل صعوبات هائلة وقاسية قبل الله توبته ولم تستطع الحوت أن تهضمه في بطنها، بل قذفته إلى الساحل بجسم نحيف وضعيف وهزيل، أما ما هي المدّة التي مكث فيها يونس عليه السلام في بطن الحوت؟ فهناك اختلاف بين المفسرين بين من يقول أربعين يوماً، ومن يقول اسبوعاً واحداً وثلاثة أيام، وطبقاً لرواية عن الامام على عليه السلام أن المدّة تسع ساعات، وعلى أيّة حال فإنّ هذه المدّة مهما طالت أو قصرت فإنّها ممّا لا تطاق حتى للحظة واحدة. ولكن ماذا هو ترك الاولى الذي ارتكبه النبي يونس عليه السلام حتى استحق هذه العقوبة الشديدة، رغم أننا نعلم أن الأنبياء معصومون عن الزلل والذنب؟ إن ما يتبادر إلى الذهن في البداية أن يونس عليه السلام غضب على قومه الضالين الذين لم يقبلوا دعوته الإلهية وتحركوا في مقابله من موقع العناد واللجاجه، فمن الطبيعي أن يغضب يونس عليه السلام لذلك، ولكن هذا الغضب بالنسبة لنبي كبير مثل يونس عليه السلام كان يعدّ من الترك للأولى، أي كان الاولى له بعد إطلاعه على وقت نزول العذاب الإلهي على قومه أن يبقى معهم إلى آخر لحظة ولا ييأس من هدايتهم، فلو أن يونس عليه السلام لم يغضب هناك فلعل قومه يسمعون لكلامه ويلتوبون دعوته في آخر اللحظات، والتجربة تؤيد هذا المعنى حيث إنّته قومه في اللحظات الأخيرة وتابوا إلى الله تعالى فقبل الله توبتهم وأزال عنهم العذاب. فمثل هذا الغضب ليونس عليه السلام (والذي لم يكون بدون دليل أيضاً) فإنّ الله تعالى لم يغفر لنبيه ذلك وعاقبه بتلك العقوبة، فكيف الحال فيما لو كان الغضب الذاتي للإنسان بدافع الحقد الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤١ والانتقام والحسد والدوافع الرذيلة الاخرى؟ ومن البديهي أن المراد من غضب يونس عليه السلام هنا هو غضبه على قومه الظالمين والفاستقين، والمراد من العبارة «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» هو أن يونس عليه السلام تصوّر أن تركه لقومه لم يكن عملاً سيئاً بحيث يستلزم كل تلك العقوبة والتوبيخ، والمقصود من إعراف يونس عليه السلام بظلمه هو ظلمه لنفسه الذي قاده إلى هذه النتيجة الصعبة. وأما الآيات التي تستعرض الحلم من موقع الثناء والتمجيد والمدح فهي كالتالي: «الآية الرابعة والخامسة» من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم حالات النبي إبراهيم عليه السلام من موقع وصفه بعنوان: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» و «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ»، فالعبارة الاولى وردت في واقعة رفض آزر (عم إبراهيم) لدعوة إبراهيم للتوحيد ورفض الأصنام واستغفار إبراهيم عليه السلام له، والثانية وردت في قصّة إخبار الملائكة لإبراهيم عن العذاب الإلهي النازل على قوم لوط وطلب إبراهيم الخليل عليه السلام من الله تعالى أن يخفف عذابهم أو يمهلهم أكثر من ذلك. «أواه» تأتي بمعنى الرحيم والحنون، والذي يتحرّك قلبه لهداية قومه وأمته. وعلى أيّة حال فإنّ ما ورد في القرآن الكريم من وصف النبي إبراهيم عليه السلام ب «أواه حلیم» و «أواه منيب» يبيّن الرابطة الوثيقة بين هاتين الصفتين، ويدلّ على أنّ كظم الغيظ والسيطرة على الغضب والتحرّك من موقع الحلم والمحبّة تجاه

الآخرين حتى لو كانوا مجرمين والسعي لإنقاذهم من الخطيئة والعقوبة كل ذلك يعدّ من الصفات الإيجابية البارزة للأنبياء الإلهيين. إنّ النبي إبراهيم عليه السلام لم يكن حليماً تجاه عمّه آزر فحسب، بل حتى بالنسبة إلى قوم لوط عليه السلام الذين كانوا قد غرقوا في ذلك الوحل العفن من الخطيئة حيث نرى إبراهيم عليه السلام ينطلق من قلب متحرّك ليرفع عنهم العذاب أو يؤجله إلى إشعار آخر كما يتسنى لهم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٢ الخلاص من ادران هذه الخطيئة وترك ذلك السلوك الشائن ويسيروا في خط الإيمان والتقوى والانفتاح على الله. ولكنّ الأمر الإلهي كان قد صدر بحقهم رغم أنّ إبراهيم عليه السلام قد أظهر هذه الرحمة والشفقة تجاه عمّه أو قوم لوط لأنهم لم يكونوا قابلين للهداية وخاصة ما كان عليه قوم لوط من الخطيئة المزمّنة حيث أصابهم العذاب الإلهي أخيراً. «الآية السادسة» تستعرض إحدى المواهب الإلهية الكبيرة على إبراهيم وتقول: إنّ الله تعالى قد استجاب لإبراهيم عليه السلام دعائه: «فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ». واللطف أنّ من بين جميع الصفات الإيجابية الكبيرة للإنسان، فإنّ هذه تشير فقط إلى صفة الحلم لدى هذا الغلام العزيز لإبراهيم عليه السلام. ويقول الراغب في مفرداته بأنّ: الحلم بمعنى ضبط النفس عند هيجان الغضب، وبما أنّ هذه الحالة ناشئة من العقل فإنّه كلّما وردت كلمة الحلم فإنّها قد يراد بها العقل أيضاً. وهذه البشارة تحققت بالنسبة إلى إسماعيل عليه السلام عندما بلغ سن الرشد ووهبه الله العقل والحلم والنضج الكبير، وذلك عندما صدر الأمر الإلهي لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل كما تحدّث الآيات التي بعد هذه الآية وتقول على لسان إسماعيل عليه السلام: «يا أَبَتِ إِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ» فبرى حالة التسليم المطلق أمام الأمر الإلهي، وفي مقابل الذبح الذي صدر لإبراهيم. وتأتي «الآية السابعة» لتبيّن صفات (عباد الرحمن) البارزة، وتستعرض ضمن الحديث عن إثني عشر صفة من الصفات الكبيرة الأخلاقية وهذه الصفة خاصة وتقول: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». أي إذا واجههم الأشخاص الذين يعيشون الحمق والجهل والحقد بكلام غير مسؤول وألفاظ ركيكة فإنّ جوابهم لا ينطلق من موقع الانفعال والرد بالمثل، بل يمزون على كلامهم ذلك من موقع الحلم وسعة الصدر ورغم أنّ كلمة (حلم) لم ترد في هذه الآية، ولكن المفهوم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٣ من مجموع الآية هو أنّ عباد الرحمن لا ينطلقون من موقع الانفعال والغضب للجاهلين الحوادث غير الملائمة وخاصة الكلمات غير المسؤولة للجاهلين والحاقدين ويجنبوا أنفسهم شرّ النزاع والصراع مع هؤلاء الأشخاص بأداة الحلم وسعة الصدر. وقد ورد في الحديث الشريف في تفسير هذه الآية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال يوماً لأصحابه (مضمون الحديث): «هؤلاء جماعة من امتي أحبّهم ويحبّونني سيأتون بعدكم (ثم أخذ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه و آله بذكر أوصافهم) ومن ذلك صفة الصبر والحلم وأنهم يسلكون طريق الرفق والمداراة. فقيل له: يا رسول الله هل يرفقون بغلمانهم؟ فقال صلى الله عليه وآله: ليس لهم غلمان، وإنما يرفقون مع الجهّال والسفهاء: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (١). والمراد من كلمة (سلام) هنا هو أنّهم يتعاملون مع الآخرين من موقع المسالمة لا من موقع الخشونة والتحدّي والرد بالمثل ولا يواجهون كلمات غير مسؤولة لأولئك الجاهلين إلّا من موقع عدم الاعتناء واللأمبالاة وكأنّما لم يسمعوها أصلاً. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث من سورة الأعراف تحدّث عن ثلاثة أوامر مهمّة في خطابها للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله (باعتباره اسوة لجميع المؤمنين) وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ». ومن الطبيعي أنّ الأعراض عن الجاهلين يأتي بمعنى الحلم والصفح وترك أي شكل من أشكال الخصومة والشجار، بل يمكن القول أنّ الجملتين السابقتين في هذه الآية من الأمر بالعفو وقبول العذر والدعوة إلى الأخلاق الحسنة هي نوع من أنواع الحلم كذلك، وبالتالي الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٤ تدلّ وتشير إلى هذا المعنى أيضاً وأنّ سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت كذلك في مقابل الجاهلين والمعاندين حيث كان يظهر أمامهم منتهى الصبر وسعة الصدر والتحمل والحلم، ولا يتملكه الغضب اطلاقاً مقابل ما يسمعه منهم من كلمات غير مؤدّبة وعبارات غير مسؤولة. والآية التي تلي هذه الآية تقول: «وَإِذَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (١). يمكن أن تكون إشارة أخرى إلى هذا المعنى أيضاً وهو أنّ نار الغضب ما هي إلّا نزع من نزغات الشيطان وعلى كل مؤمن أن يستعذ بالله من هذه الحالة الشائنة. والشاهد على ذلك ما ورد في الرواية الشريفة في تفسير روح البيان في ذيل هذه الآية وأنّه عندما نزلت الآية السابقة وأمرت

بالعفو والحلم أمام الجاهلين قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «كَيْفَ يَا رَبِّ وَالْغَضَبُ» (٢). فنزلت الآية التي بعدها وأمرت النبي أن يستعيز بالله من شرّ الشيطان الرجيم. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: إن أجمع آية من آيات القرآن لمكارم الأخلاق هي هذه الآية. وهو كذلك واقعاً، لأن هذه الآية تتضمن العفو والصفح أمام جهل الآخرين وتدعو الناس جميعاً لفعل المعروف، وكذلك مواجهة الجاهلين بالإعراض عنهم وعدم مجادلتهم والتحدّث معهم من موقع الانفعال، فهذه التعاليم الثلاثة تعد ثلاث برامج مهمّة فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعية للإنسان في حركة الحياة بحيث لو تسنى لأفراد المجتمع أن يترجموا هذه الدساتير الثلاثة على أرض الواقع ويجسّدوها في سلوكياتهم وأعمالهم فإن أكثر المشكلات الاجتماعية وما يترتب عليها من سلبيات أخرى ستجد طريقها إلى الحل. ومن مجموع الآيات المذكورة آنفاً يتجلى لنا أهميّة الحلم كفضيلة أخلاقية سامية، وكذلك العواقب الوخيمة المترتبة على حالة الغضب الانفعالي والشيطاني.

### الغضب في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الروايات الإسلامية تعبيرات عجيبة ومثيرة بالنسبة إلى الآثار السلبية للغضب وأضرار هذه الرذيلة الأخلاقية على حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد اخترنا من بين الأحاديث الكثيرة إثني عشر حديثاً: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الغضب جمرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ» (١). ٢- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «الغضب يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبْرَ الْعَسَلَ» (٢). ٣- ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أَعْدَى عَدُوِّ لِلْمَرْءِ غَضَبُهُ وَشَهْوَتُهُ، فَمَنْ مَلَكَهُمَا عَلَتْ دَرَجَتُهُ وَبَلَغَ غَايَتَهُ» (٣). ٤- وفي حديث آخر عن الإمام عليه السلام نفسه قال: «الغضب نارٌ مُوقَدَةٌ مَنْ كَضَمَهُ أَطْفَأَهَا وَمَنْ أَطْلَقَهُ كَانَ أَوَّلَ مُحْتَرِقٍ بِهَا» (٤). ٥- وفي عبارة ناطقة وردت في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «لَيْسَ لِإِبْلِيسَ جُنْدٌ أَشَدُّ مِنْ النِّسَاءِ وَالْغَضَبِ» (٥). ٦- وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في عبارة عميقة المعنى قوله: «الغضب مفتاحٌ كُلُّ شَيْءٍ» (٦). ٧- ونقرأ في أحد الأدعية المعروفة للصحيفة السجادية في بيان الإمام زين العابدين عليه السلام لأخطار وأضرار الغضب وأنها إلى درجة من الشدة بحيث أن الإمام نفسه يستجير بالله منها ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيْجَانِ الْحِرْصِ وَسُورَةِ الْغَضَبِ وَعَلِيَّةِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٤٦ الْحَسَدِ وَضَعْفِ الصَّبْرِ وَقَلَّةِ الْقَنَاعَةِ» (١). ٨- ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكَ وَالْغَضَبُ فَأَوْلُهُ جُنُونٌ وَآخِرُهُ نَدَمٌ» (٢). ٩- وورد عن هذا الإمام عليه السلام في عبارة عميقة أخرى تتعلّق بالتقاطع بين الغضب والعقل ويقول: «عِنْدَ غَلْبَةِ الْعَيْظِ وَالْغَضَبِ تُخْتَبِرُ حِلْمَ الْحُلَمَاءِ» (٣). ١٠- وأيضاً ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام عن عواقب الغضب الأليمة قوله: «عُقُوبَةُ الْغَضُوبِ وَالْحَقُودِ وَالْحَسُودِ تَبْدَأُ بِأَنْفُسِهِمْ» (٤). ١١- وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ» (٥). ١٢- ونختم هذا البحث بحديث شريف آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، رغم وجود أحاديث كثيرة عن المعصومين في هذا الباب: «أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَضِبَ يَقْتُلُ النَّفْسَ وَيَقْدِفُ الْمُحَصَّنَ» (٦).

### الآثار السلبية والمخرّبة للغضب:

إننا قلّمنا نجد صفة من الصفات الرذيلة تتضمن عناصر الشر والتخريب مثلما لرذيلة الغضب، ولو أننا كتبنا تفصيلاً عن الآثار السلبية للغضب لا نوضح لدينا أنها أكثر من الرذائل الأخلاقية الأخرى ومن ذلك: ١- ينبغي الالتفات قبل كل شيء إلى هذه الحقيقة، وهي أن حالة الغضب تقع ضمن أعداء الإنسان حيث أنه يفقد عقله تماماً في ثورة الغضب ويتحوّل إلى كائن غير منسجم التصرفات والحركات بحيث يتعجب منه من حوله من الناس، بل إن الإنسان نفسه وبعد الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٧ هدوء هيجان الغضب يتعجب من تصرفاته وسلوكياته الشائنة أثناء هذه الحالة، وفي تلك الحال قد يهجم الشخص على أقرب المقرّبين إليه من دون أن يتعقل ماذا

يفعل، وقد يتسبب في تلوث يده بدماء الأبرياء أيضاً، فيقتل ويحطم ويسرق ويخرب وكأنه مجنون تماماً. ولذلك ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الغضبُ يُفسدُ الألبابَ وَيُبعدُ مِنَ الصَّوابِ» (١). ولهذا السبب ورد في الروايات الإسلامية أنه إذا أردتم أن تختبروا عقل الأشخاص وحنكتهم ورأيهم فعليكم بالنظر إليهم في حالة الغضب ومدى سيطرتهم على أنفسهم من شر هذه القوة الهائجة، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا- يَعْرِفُ الرَّأْيُ عِنْدَ الغَضَبِ» (٢). ٢- إن الغضب يؤدي إلى إضمحلال إيمان الشخص وتلاشيهِ، لأن الشخص عندما تمتلكه الحدة فلا يرتكب الذنوب الكبيرة فقط بل يخرج من الإيمان أيضاً لأن هذه الحالة تتقاطع تماماً مع الإيمان الصحيح والعميق، بل أحياناً يتجرأ هذا الشخص على الله تعالى أو يعترض على حكمه وتقديره للأمر، وهذه المرحلة من أخطر المراحل التي تمر بالإنسان في حالة سورة الغضب. وقد قرأنا الأحاديث السابقة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الغضبُ يُفسدُ الإيمانَ كما يُفسدُ الصَّبْرُ العَسَلَ». ٣- إن الغضب يعمل على تخريب منطق الإنسان وكلامه الموزون، ويقوده إلى التلفظ بالباطل والكلمات اللامسئولة، وعندما يستند الغاضب مسند القضاء فإن حكمه سيكون غير سليم قطعاً، ولذلك نقرأ في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «شِدَّةُ الغَضَبِ تَعَيِّرُ المَنطِقَ وَتَقطَعُ مادَّةَ الحُجَّةِ، وَتَفَرِّقُ الفَهْمَ» (٣). وقد ورد التصريح في آداب القضاء في الكتب الفقهية هذا المعنى أيضاً وأن القاضي لا ينبغي أن يجلس على كرسي القضاء في حالة الغضب. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٨ وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ ابْتَلَى بالقضاءِ فلا يَقْضِي وَهُوَ غَضبانَ». ٤- والآخر من الآثار السلبية لحالة الغضب هو إشهارها لعيوب الإنسان الخفية، لأن هذا الشخص في حالاته العادية يتحرك من موقع السيطرة على قواه النفسية، فلا تتجلى عيوبه ونقاط ضعفه للآخرين، بل تبقى مستورة ويحفظ بذلك سمعته وماء وجهه في أنظار الناس، ولكن عندما تستعر في نفسه نار الغضب، فإنها تزيل السواتر والأفئدة عن واقع الإنسان وتكسر قيود العقل وتظهر عيوب صاحبها الخفية وتؤدي إلى سقوط شخصيته ومكانته بين الناس. ولذلك ورد في درر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «بئسَ القَرِينُ الغَضْبُ يُبدي المَعايِبَ وَيُديني الشَّرَّ وَيُباعدُ الخَيْرَ» (١). ٥- إن الغضب بإمكانه أن يفتح طريق الشيطان للإنسان ويوقعه في شراكه ومصائده، لأن الإيمان والعقل يعتبران مانعين مهمين يصدان هجمات الشيطان، ولكنهما في حالات الغضب سينكمشان ويدركهما الضعف وعدم الحيلة وبذلك ترتفع الموانع أمام الشيطان لينفذ بسهولة ويصل إلى قلب الإنسان ويحكم سيطرته على قواه، ويفعل عناصر الشر في نفسه وباطنه. ونقرأ في الحديث المعروف: «أن نوح عليه السلام لما دعى ربه عز وجل على قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح إن لك عندي يداً أريد أن اكفيك عليهِ، فقال له نوح عليه السلام: إنهُ لِيُبغِضَ إليَّ أن يَكُونَ لَكَ عِندي يدَ فما هي؟ قال: بلى دعوت الله على قومك فأعزقتهم فلم يبقَ أحدٌ أغويه فأنا مُستريحٌ حتى يَنسَقَ قرنٌ آخرَ واغويهم، فقال نوح عليه السلام: ما الهمدي تريد أن تكافيني به؟ قال: اذكرني في ثلاث مواطنٍ فإنني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدهن: اذكرني إذا غَضِبْتَ، اذكرني إذا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنينِ، اذكرني إذا كُنْتَ مَعَ امرأَةٍ خالياً لَيْسَ مَعَكُما أَحَدٌ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٤٩ ونقرأ في حديث آخر: «عن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال علمني علماً أزداد به إيماناً و يقيناً، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين الغضب» (١). ولا شك أن الغضب مضافاً إلى هذه الآثار السيئة على المستوى المادي والاجتماعي والأخلاقي فإنه تترتب عليه آثار معنوية سيئة كثيرة أيضاً بحيث يستفاد من الروايات المختلفة أن الشخص الذي يسيطر على غضبه ويكظم غيظه له ثواب الشهداء (٢) ويحشر يوم القيامة مع الأنبياء (٣) ويملاء قلبه من نور الإيمان (٤).

### أسباب ودوافع الغضب:

#### إشارة

إن الغضب باعتباره ظاهرة روحية معقدة له عوامل وأسباب مختلفة، ومعرفة هذه العوامل والدوافع ضرورية في عملية الوقاية من أخطار

هذه الحالة السلبية، ومن جملة العوامل والأسباب لتفعيل هذه الحالة في نفس الإنسان وظهور آثارها السلبية الخطيرة هي:

### ١- التسرع في الحكم:

إن كل إنسان في حياته الفرديّة والاجتماعية يسمع يومياً بعض الأخبار غير الميسّرة وقد يحكم عليها مباشرة من موقع حالة الغضب المستعرة في قلبه، وقد يتصرف تصيّراً أحمقاً ويرتكب بعض الأعمال الخطيرة وما أكثر ما يتبين عدم صحّة الخبر أو على الأقل عدم مطابقته للواقعات تماماً لدى التحقيق والتأني، وبالتالي فلا مبرر له على الغضب والحدّة. أجل فإنّ التسرع في الحكم في مثل هذه المسائل يعدّ عاملاً مهماً لبروز حالة الحدّة والغضب على طول التاريخ وترتّب العواقب الوخيمة عليه. وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ طَبَّاعِ الْجُهَالِ التَّسْرُعِ الْإِخْلَاقِ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٥٠ إِلَى الْغَضَبِ فِي كُلِّ حَالٍ» (١).

### ٢- ضيق الافق:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون سعة الصدر وكبر الروح وقوّة الشخصية وسعة الفكر فإنّهم يتحمّلون الحوادث الصعبة ويواجهون تحديات الواقع المرّة بكامل الوقار وحفظ النفس، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون ضيق الافق فإنّهم ينفعلون بأقلّ حادثة غير ملائمة وأحياناً يخرج زمام امورهم من أيديهم ويتصرّفون تصيّراً طائشاً. والحديث الذي قرأناه آنفاً من أنّ سرعة الغضب والحدّة من أخلاق الجهال هو إشارة إلى هذه الحقيقة أيضاً.

### ٣- التكبر والغرور:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون روح التكبر والغرور، ويرغبون دائماً في أن يحفظ لهم الآخرون احترامهم ولا يتجاوزوا حدودهم ويقومون لهم حين دخولهم المجلس إكراماً لهم واحتراماً يرون لأنفسهم إمتيازات خاصة على سائر الناس، ولكن إذا لم يحصلوا على هذه التوقعات ولم يجدوا في الناس ذلك الأحرار والإكرام فسوف تتحرّك فيهم حالة الغضب والحدّة، في حين أنّ عنصر الشر موجود في باطنهم والعامل الأساس لشقائهم موجود في ذواتهم ولا ذنب للآخرين. ونقل في الرواية عن السيد المسيح عليه السلام ضمن بيانه لأسباب الغضب أنّه عدّ التكبر والعجب والغرور من العوامل لذلك (٢). ونقرأ في حديث آخر عن السيد المسيح عليه السلام أيضاً أنّ الحواريين قالوا له: «يا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ، عَلَّمْنَا أَيَّ الْأَشْيَاءِ أَشَدُّ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالُوا: فِيمَ يَنْقَى غَضَبُ اللَّهِ؟ قَالَ: بِأَنْ لَا تَغْضَبُوا. قَالُوا: وَمَا يَدُوّ الْغَضَبِ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْكِبْرُ وَالتَّجَبُّرُ وَمَحَقَرَةُ النَّاسِ» (٣).

### ٤- الحسد والحقد:

إنّ الأشخاص الذين يعيشون الحسد والحقد تجاه الآخرين فإنّ الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥١ المواد الأولية لهذه الحالات الذميمة موجودة في باطنهم كما يخزن البارود والديناميت في مخازن ولا يحتاج إلّا إلى شرارة خفيفة من الخارج حتى ينفجر بركان الغضب ويستولى على جميع كياناتهم، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الْحَقْدُ مَثَارُ الْغَضَبِ» (١).

### ٥- الحرص وحبّ الدنيا:

إنّ الأشخاص الذين يهيمون بحبّ الدنيا ويملاً وجودهم الحرص على تحصيل زخارفها وزبارجها، فإنّهم لا يتحمّلون أن يجدوا أيّة

مزاحمة وخسارة محتملة لمنافعهم الدنيوية، ولذلك نجدهم يثرون لأتفه الأسباب فيما لو تعرّضوا لبعض الخسائر الطفيفة، وبما أنّ الحياة الاجتماعية لا تخلو من أمثال هذه المزاحمات والمضايقات، بل يمكن القول أنّ هذه المزاحمات والمضايقات جزء من كل يوم من أيام الدنيا، ولذلك نجد مثل هؤلاء الأشخاص يعيشون الغضب والحدّة باستمرار وفيما لو لم يستطيعوا إبراز غضبهم في بعض الحالات فإنّ نار الغضب تستقر في ذواتهم وتحرق طاقاتهم الخيرة وإمكاناتهم الإيجابية في عالم النفس. وكما ورد في ذيل الحديث المذكور آنفاً عن السيد المسيح عليه السلام أنّه أشار إلى هذا العامل: «وَشِدَّةُ الْحَرِصِ عَلَى فُضُولِ الْمَالِ وَالْجَاهِ».

### علاج الغضب:

ونظراً إلى أنّ الآثار السلبية والعواقب الوخيمة لحالات الغضب والحدّة كثيرة وخطرة جداً وأحياناً تؤدي إلى تدمير حياة الإنسان على كل المستويات والصعد، لذلك كان من الضروري بذل الجهد لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، وإلا فإنّ الندم ينتظر هؤلاء الأشخاص، وقد ذكر كبار علماء الأخلاق في هذا الباب أبحاثاً مهمّة وكثيرة، والأهم من ذلك ما ورد من التعليمات الدينية في النصوص الإسلامية التي ذكرت إرشادات مؤثّرة لإطفاء نار الغضب في واقع الإنسان، ونختار منها ما يلي: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٢-١- أن يقوم الشخص الحاد المزاج بالتفكير بآثار الغضب السلبيّة وعواقبه السيئة قبل أن تستعر نيران الغضب في قلبه وتلتهم كيانه، فيتحرك على مستوى التلقين والإيحاء لها بأنّ الغضب هو في الحقيقة نار يمكنها أن تأتي على الأخضر واليابس وتحرق إيمانه وسعادته ووجوده، وتسعر غضب الله عليه في الدنيا والآخرة، وأنّ هذه الحالة الذميمة تبعد الناس من حوله وتفترق عنه أصدقاءه وتكون ذريعة بيد أعدائه، وللغضب آثار وخيمة على أعصاب الإنسان ويؤدي إلى قصر العمر ويهدد سلامة الشخص البدنية أيضاً، ويمنعه من الصعود في مدارج الكمال الدنيوي والآخرى. بخلاف حالة الحلم وسعة الصدر التي هي رمز موقّية الإنسان وتقدّمه وتفوقه وصحّته الروحية والبدنية والتي تمنحه الإحترام والمودّة في قلوب الناس وتوجب له رضا الله تعالى والإبتعاد عن الشيطان، وكذلك يتفكر في الثواب الإلهي لمن يعيش الحلم وسعة الصدر، والعقاب الإلهي المترتب على من يعيش الحدّة وسرعة الغضب. وهذه الأمور لا يتفكر فيها الإنسان في حال الغضب فحسب بل عليه أن يتفكر فيها قبل ذلك ويلقّن نفسه باستمرار لكي لا يتورّط في هذه الحالة الذميمة. ٢- أن يفكر في عواقب الغضب والحدّة، وهذه المسألة مجرّبة تماماً، وإذا لم يجربها الإنسان نفسه فقد جربها الآخرون وهي أنّ كل تصميم على عمل معيّن يتخذه الإنسان في حال الغضب فأنه يكون زائفاً وسخيفاً وغالباً ما يوجب له الندم، فما أحسن أن يتذكر هذه العبارة المعروفة عن أحد العلماء، وهي أنّه في حالة الغضب لا ينبغي عليه التصميم ولا التوبيخ ولا العقوبة. ٣- ومن الطرق المهمّة لعلاج حالة الغضب والتي ورد التأكيد عليها في الروايات الشريفة هو (ذكر الله) وقد ورد في بعض الروايات أنّ من ثارت فيه الحدّة عليه بقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٣ وورد في رواية أخرى أن يقول في هذه الحالة: «لا- حَوْلَ وَلَا- قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» (١)، لتهدأ سورة الغضب في أعماقه. وجاء في بعض الروايات أيضاً أنّه ينبغي أن يضع حده على الأرض أو يسجد لله تعالى. ويقول أبو سعيد الخدري نقلًا عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حَمْرَةٍ وَانْتِفَاحِ أَوْ دَاجِهِ فَمَنْ وَجِدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَلِصِقْ حَدَّهُ بِالْأَرْضِ» (٢). ومن المعلوم أنّ كل شخص يسلك في حالة الغضب في خط العمل لهذه التوصيات والتعليمات الدينية ويلتجأ إلى الله تعالى من شرّ الشيطان فإنّ غضبه سيهدأ قطعاً. ومعلوم أيضاً أنّ ذكر الله مؤثّر جداً في مثل هذه الأحوال، ولكنّ ذكر الله بالكيفية المذكورة آنفاً أكثر تأثيراً من علاج هذه الحالة. وقد أورد الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة باباً تحت عنوان (باب وجوب ذكر الله عند الغضب) في أبواب جهاد النفس، حيث يدلّ على أهميّة هذا الموضوع بالذات (٣). ٤- تغيير الحالة الفعلية للشخص إلى حالة أخرى حيث تكون مؤثّرة في علاج الغضب أيضاً كما ورد في الروايات الإسلامية أنّ الشخص إذا تملكه الغضب وكان جالساً فعليه أن يقوم، وإذا كان قائماً عليه أن يجلس، أو يعرض بوجهه عن مواجهة الحدث، أو يستلقى على الأرض، أو إذا أمكنه أن يتعد عن محل الحادث، أو يشغل نفسه بأمر آخر. وهذا التغيير في الحالة

الفعليه يوتر كثيراً في تهدئة الغضب والحدّه فنقرأ في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «كَانَ النَّبِيُّ إِذَا غَضِبَ وَهُوَ قَائِمٌ جَلَسَ وَإِذَا غَضِبَ وَهُوَ جَالِسٌ اضْطَجَعَ فَيَذْهَبُ غَيْضُهُ» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٤ وقد ورد في بحار الانوار عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «وَأَيُّمَا رَجُلٍ غَضِبَ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنَّهُ سَيَذْهَبُ عَنْهُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَقُمْ» (١). وجاء في ذيل هذا الحديث الشريف أنه إذا غضب الإنسان على أحد أرحامه فعليه أن يلمس بدنه ليثير في نفسه عواطف الرحمة مما يقوده إلى الهدوء وعوده حالته الطبيعية. ٥- الوضوء، أو شرب الماء البارد وغسل الرأس والوجه، وكلها تؤثر حتماً في تهدئة الإنسان وزوال حالة الغضب عنه، بل ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» (٢). ويستفاد من هذا التعبير أن الوضوء مستحب في حالات الغضب ومؤثر في تسكينه وزواله. وقد ذكر العلامة المجلسي قدس سره في تحليله المختصر لهذا الحديث الشريف أن: «سَبَبُ الْغَضَبِ الْحَرَارَةُ وَسَبَبُ الْحَرَارَةِ الْحَرَكَةُ إِذْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ أَلَمْ تَرَ إِلَى انْتِفَاحِ أَوْ دَاجِهِ وَحُمَرُهُ عَيْنِيهِ؟ فَإِنْ وَجَدَ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَتَوَضَّأْ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ وَلْيَغْسِلْ فَإِنَّ النَّارَ لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الْمَاءُ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيَغْتَسِلْ فَإِنَّ الْغَضَبَ مِنَ النَّارِ» (٣). فإذا عمل الإنسان على ضم هذه الأمور العملية إلى ما تقدم من ضرورة التفكير في الآثار الخطرة للغضب في الدنيا والآخرة وما يترتب عليه من العقوبات الإلهية فإن ذلك من شأنه أن يطفأ نار الغضب بالتأكيد، ولكن المشكلة تبدأ من أن الإنسان، لا يرغب في تغيير حالته والعمل بالتوصيات المذكورة لإزالة حالة الغضب عن نفسه، وحينئذ فالنجاة والخلص من الآثار السلبية المترتبة على هذه الحالة الذميمة يكون عسيراً للغاية، بل غير ممكن أحياناً.

## أقسام الغضب:

### إشارة

إن حالة الغضب ليست سلبية دائماً، بل قد تترتب عليها آثار إيجابية على المستوى المادي والمعنوي في حياة الإنسان وأحياناً تكون ضرورية ولازمة، وعليه يمكننا تقسيم الغضب إلى إيجابي وسلبي، أو ممدوح ومذموم، فإذا ضمنا إليها الغضب في دائرة اللوهمية تحصلت لدينا ثلاثة أقسام للغضب:

### ١- غضب الله تعالى:

حيث ورد الحديث عنه في الكثير من الآيات القرآنية الشريفة وخاصة بالنسبة إلى بني إسرائيل حيث تشير الآيات إلى أن الله تعالى غضب عليهم، بل ورد (المغضوب عليهم) حيث ذكر جماعة من المفسرين أن المقصود بهذه العبارة هم بنو إسرائيل الفاسقون في كل زمان ومكان حيث سؤدوا صفحة التاريخ البشرية بذنوبهم وأعمالهم الأثيمة. ولا شك أن الغضب بمعنى الانفعال النفسي المقترن مع حب الانتقام والذي يتجلى في ظاهر الوجه على شكل إحمرار الوجه وإحتقان الدم وأمثال ذلك لا يرد قطعاً في مفهوم الغضب في دائرة اللوهمية، لأن الله تعالى منزّه عن الجسم والجسمانية والتغير والتبدل في الحالات، فلا مفهوم لها بالنسبة إلى الذات المقدسة، كما أن الانتقام بمعنى إرضاء حالة الغضب وتهديته حرقه القلب الذي يصطلح عليه بالتشفي المقترن مع تعذيب العدو وإلحاق الضرر به كذلك لا معنى ولا مفهوم بالنسبة إلى الذات الإلهية المقدسة. ومن ذلك فإن المفسرين ذهبوا إلى أن غضب الله تعالى بمعنى إنزال العقوبة العادلة بالمذنبين والمجرمين في الدنيا والآخرة. يقول الراغب في مفرداته بصراحة: أنه عندما يراد بالغضب صفة من الصفات الإلهية فإن المقصود هو الانتقام والعقاب من المجرمين. فقد أشارت الأحاديث الإسلامية أيضاً إلى هذا المعنى، كما نقرأ في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «غَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى عِقَابَهُ يَا عُمَرُو



«١» مَنْ ظَنَّ يُغَيِّرُهُ شَيْءٌ فَقَدْ كَفَرَ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٦ وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ غضب الله تعالى هو عقابه كما أنّ رضا الله هو ثوابه (لا أنّ الغضب حالةٌ نفسيةٌ في الذات المقدسة تقتضي التغيير والتبدل الذي نراه في صفات الممكّنات). وخلاصة الكلام أنّ الآيات والروايات الشريفة التي تتحدّث عن غضب الله وسخطه لا تتعلّق بحالة الغضب لدى المخلوقين ولا تشبهها بشكل من الأشكال، بل هي في الواقع إنزال العقاب العادل في حق المجرمين ولغرض تربية الإنسان وإيصاله إلى كماله اللائق.

## ٢- الغضب السلبي والمخرب،

الذي تقدّم البحث فيه بالتفصيل في الاحاديث السابقة ورأينا الأضرار الكبيرة المترتبة على هذه الحالة النفسية وبحثنا أسبابها وطرق علاجها بما لا حاجة إلى توضيح أكثر.

## ٣- الغضب الإيجابي للإنسان:

ومعلوم أنّ هذه القوّة لدى الإنسان لم تخلق من دون غرض وحكمة، فلو تصوّر شخص أنّ هذه القوّة فد خلقها الله تعالى وجعلها في الإنسان لغرض التخريب والشر فإنّه لم يدرك جيداً حكمه الله تعالى في خلقه، وفي الحقيقة أنّ توحيد الأفعالي ناقص. فمن المحال أن يخلق الله تعالى عضواً من أعضاء بدن الإنسان أو قوّة في نفسه وروحه ليس لها فائدة ومنفعة في حياة الإنسان ومن ذلك قوّة الغضب. عندما يعيش الإنسان حالة الغضب وتسيطر عليه هذه القوّة فإنّها تعمل على تعبئة جميع طاقاته وقواه الفكرية والجسدية تجاه الخطر وأحياناً تتضاعف قدرته أضعاف ما كانت عليه في الحالات العادية، والحكمة الوجودية لهذه الحالة في الواقع هي الدفاع عن الإنسان ومنافعه في نفسه وماله وعرضه تجاه الخطر وتحديات الظروف الخارجية، وهذه نعمة وموهبة إلهية كبيرة جداً. إننا نرى الحيوانات أو الطيور أيضاً عندما يشعرن بالخطر يتحرّكن ويلذّن بالفرار بعيداً عن منطقة الخطر، ولكن هذه الحيوانات عندما تعرّض أطفالهن إلى الخطر فإنّها تتصدى إلى هذا الخطر وتدافع بنفسها عن أولادها ممّا يثير تعجب الكثيرين، وأحياناً قد يرى طائر الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٧ جبان الخطر على فراخه فيهجم باتجاه الخطر ويتصدى إلى المهاجمين ويبيدهم عن أطفاله ويلحق بهم الهزيمة وحتى بعض الحيوانات كالقط إذا رأى نفسه محبوساً في غرفه وتعرّض للهجوم فإنّه يتصدى أيضاً للدفاع عن نفسه ويتبدل إلى حيوان متوحش وخطر حيث يهجم أحياناً على الإنسان ويلحق به أضراراً كثيرة. وعليه فإنّ قوّة الغضب هي في الحقيقة قوّة مفيدة ومهمّة في عملية الدفاع عن النفس وما يتعلّق بالإنسان من الامور المادية والمعنوية، ولذلك فهي ضرورية في بقاء واستمرار الحياة وتكامل الإنسان بشرط أن تستخدم في مكانها وفي الغرض التي خلقت لأجله بدون افراط وتفريط. ونقرأ في الآيات والروايات الإسلامية موارد كثيرة تتحدّث عن الغضب المقدس الإيجابي والغضب الإلهي كذلك، ومنها: ١- نقرأ في قصة موسى عليه السلام أنّه عندما توجه إلى جبل الطور لاستلام الوحي الإلهي والتوراة، فإنّ السامري قد استغل هذه الفرصة في غياب موسى عليه السلام وصنع العجل الذهبي لبني اسرائيل ودعاهم إلى عبادته وقد أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بهذا الحدث العظيم وهو في جبل الطور ممّا جعل موسى عليه السلام يغضب لذلك ويحزن ويعود إلى قومه وهو غارق في الهم ويعتصره الألم، فألقى الألواح التي كتبت فيها التوراة والأحكام الإلهية وأخذ برأس أخيه وبلحيته موبخاً إياه على تساهله مقابل ما صنعه السامري من اضلال بني اسرائيل وحتى أنّه ويخه كما تقول الآية: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا سَبِيلَ الْفِتْنَةِ وَكَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (١). هذه الحالة المثيرة والغضب الشديد الذي استعر في قلب موسى عليه السلام تجاه ما صنعه بنو اسرائيل من عبادة العجل قد أثر أثره الكبير

في قلوب اليهود وهزهم من أعماقهم فانتبهوا من غفلتهم وأدركوا سوء تصرفهم في انحرافهم عن التوحيد وسلوكهم في خط الشرك وعبادة الوثن. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٨ ومعلوم أن مثل هذا الغضب الشديد في مقابل ظاهرة انحراف الناس وضلالهم هو من الغضب الإيجابي والبناء وله بعد إلهي في حركة حياة الإنسان المعنوية. وهكذا الحال في جميع أشكال الغضب لدى الأنبياء الإلهيين في مقابل أقوامهم المنحرفين والضالين. ومن اليقين أن موسى عليه السلام إذا كان قدواجه هذه الظاهرة من موقع برودة الأعصاب وعدم تثوير حالة الغضب في نفسه فإن بنى إسرائيل يستوحون من هذا السلوك إمضاءً وأعتراًفاً من موسى عليه السلام بأفعالهم وسلوكياتهم الخاصة، وبالتالي فإن مواجهه هذا الانحراف قد يكون مشكلاً فيما بعد، ولكن غضب موسى عليه السلام وهيجانه قد أثر أثره الإيجابي الكبير في رجوع بنى إسرائيل عن خط الانحراف. ٢- ونقرأ في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه أحياناً يملكه الغضب الشديد تجاه بعض الحوادث والوقائع بحيث تظهر آثار الغضب على محياه ووجهه المبارك. من قبيل ما ورد في قصيدة صلح الحديبية أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد غضب بشدة لبعض مقترحات (سهيل بن عمر) (وكيل قريش لعقد معاهدة الصلح مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله) وكان غضبه حول بعض الموارد المقررة لمكتوب الصلح بين الطرفين بحيث ذكر المؤرخون أن آثار الغضب ظهرت على وجهه وسيماه (وهذا الأمر تسبب في سحب سهيل اقتراحه وعدم ذكره في بنود الصلح) «١».

٢- وورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أنه غضب بشدة على أحد المسلمين الذي أضرب زوجته وهدهدها بالحرق، فما كان من الإمام على عليه السلام إلما أن تأثر بشدة لذلك وسحب سيفه على هذا الرجل وقال: «أمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر وترد المعروف؟ تب وإلا قتلتك». (ولما علم الشاب أنه أمير المؤمنين عليه السلام) قال: يا أمير المؤمنين اعف عني عفا الله عنك والله لا أكون أرضاً تطأني، فأمرها بالدخول إلى منزلها وانكفاً وهو يقول: لآخير في الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٥٩ كثير من نجواهم إلامن أمر بصدقته أو معروف أو إصلاح بين الناس» «١». ومن اليقين أن مثل هذا الغضب مقدس وإلهي حيث يؤثر كثيراً على مستوى سوق الشخص المذنب بإتجاه الحق والعدالة والسير في خط الإيمان. ٤- ونقرأ في حالات أبي ذر رضی الله عنه عندما لم يتحمل عثمان أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أمر بتبعيده ونفيه إلى صحراء الربذة في أسوأ الظروف والحالات، فما كان من الإمام على عليه السلام إلما أن حضر لتوديعه وقال له: «يا أبا ذر إنك غصبت لله (عز وجل) فأرج من غصبت له إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فأترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه» «٢». وبديهي أن غضب أبي ذر رضی الله عنه كان بالنسبة إلى ما يراه من التلاعب بأموال المسلمين وبيت المال وما يشاهده من الظلم والجور بحق سائر المسلمين فإن مثل هذا الغضب يقع في دائرة الغضب الإلهي المقدس. وفي كلام آخر لأبي ذر رضی الله عنه أيضاً عندما أمر معاوية بنفيه عن الشام وابعاده عنه لشدة انتقاداته اللاذعة وجرأته وشجاعته في الله حيث خاف معاوية على مقامه وسمعته بين أهل الشام، فما كان من أبي ذر رضی الله عنه إلما أن خاطب المسلمين من أهل الشام الذين جاءوا لتوديعه وقال: «أيها الناس إجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضباً لله عز وجل إذا عصي في الأرض» «٣». ٥- ونقرأ في حديث شريف عن سيرة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام عندما جاء إلى والي المدينة الوليد بن عتبة: «فقد كانت بين الحسين عليه السلام وبين الوليد بن عتبة منازعة في ضيعة فتناول الحسين عليه السلام عمامة الوليد عن رأسه وشدها في عنقه وهو يومئذ وال على الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٠ المدينة، فقال مروان: بالله ما رأيت كاليوم جرأة رجل على أميره، فقال الوليد: والله ما قلت هذا غضباً لي ولكنك حسدتي على حلمي عنه وإنما كانت الضيعة له، فقال الحسين عليه السلام: الضيعة لك يا وليد وقام» «١». وهذه إشارة إلى أن غضبه عليه السلام لم يكن للدنيا وحطامها بل لإثبات عجز الوليد عن فرض رأيه بالقوة. ٦- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما بعث بمالك الأشتر والياً على مصر فارسل معه كتاباً إلى أهل مصر يقول فيه: «من عبد الله على أمير المؤمنين عليه السلام إلى القوم الذين غصبوا لله حين عصي في أرضه وذهب بحقه» «٢». ٧- وورد في بعض الأحاديث الشريفة أن الله تعالى أوحى لأشعيا النبي عليه السلام: «إني مهلك من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال عليه السلام: هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال: داهاؤا أهل المعاصي فلم يغصبوا الغصبي».

هذه وأمثالها من الروايات الواردة في المصادر الإسلامية غير قليلة وتحدث جميعها عن الغضب المقدس الذي يكون لله تعالى وللدفاع عن الحق مقابل الظالمين وقوى الانحراف وأصحاب البدع والضلالة. أما الفرق بين الغضب المقدس والمذموم هو أولاً: إن الغضب المقدس يقع تحت سيطرة العقل والشرع ولا يتجاوز هذه الدائرة ويكون بهدف تعبئة جميع قوى الإنسان لمواجهة العمل المنكر الذي يراد ارتكابه لمنع وقوعه وارتكابه، وأما الغضب الشيطاني فإنه ليس فقط لا يقع تحت دائرة العقل والشرع، بل يكون بوحى من الأهواء والشهوات والنوازع الذاتية التي تقود الإنسان في خط الانحراف والباطل. ثانياً: إن الغضب المقدس يتجه لتحقيق أهداف مقدسة ويتقارن مع المنهجية والنظم في دائرة السلوك والعمل، في حين أن الغضب المذموم والشيطاني لا يهدف إلى تحقيق شيء مفيد ومقدس ويفتقد كذلك إلى البرمجة والنظم. ثالثاً: إن الغضب المقدس له حدود معينة لا يتجاوز عنها، في حين أن الغضب الشيطاني الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦١- لا يعرف حدّاً معيناً، وعلى سبيل المثال يمكننا بيان ما تقدّم من الفرق بين هذين النوعين من الغضب بالقول بأن الغضب المقدس حاله حال السيل النازل من الجبال والمجتمع خلف السد حيث يتم الاستفادة منه بشكل منظم ومحسوب، مياهه تجري في قنوات خاصة وتتسبب في عمران المنطقة وزيادة البركة والخير العميم، في حين أن الغضب الشيطاني حال السيول المخزبة التي تسيل من الجبال ولا تجد أمامها مانعاً من الموانع وبالتالي فإنها تدمر كل شيء تجده أمامها. ونختم هذا الحديث بكلام عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ الَّذِي إِذَا غَضِبَ لَمْ يَخْرُجْهُ غَضَبُهُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يَدْخُلْهُ رِضَاؤُهُ فِي بَاطِلٍ» (١).

### الحلم وسعة الصدر:

النقطة المقابلة لحالة الغضب والحدّة المذمومة هي الحلم وضبط النفس وسعة الصدر كما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام عندما سئل عن معنى الحلم فقال: «كَظْمُ الْعَيْظِ وَمَلِكُ النَّفْسِ» (٢)، ومن علاماته حسن التعامل مع الناس والمعاشره بالمعروف مع الآخرين كما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «لَيْسَ بِحَلِيمٍ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ لَأَبْدُ لَهُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ» (٣). أما الأشخاص الذين يتحلّمون بسبب عجزهم وعدم قدرتهم على إظهار الغضب وممارسته فهم يفتقدون في الواقع لفضيلة الحلم وسعة الصدر، لأنهم كلّموا وجدوا القدرة على ممارسة غضبهم وإخراجه إلى دائرة العمل يتحرّكون فوراً للإنتقام من الطرف الآخر كما ورد هذا المعنى في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «لَيْسَ الْحَلِيمُ مَنْ عَجَزَ فَهَجَمَ وَإِذَا قَدَرَ نَتَقَمَ إِنَّمَا الْحَلِيمُ مَنْ إِذَا قَدَرَ عَفَى» (٤). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٢ وعلى أية حال فإن الحلم وضبط النفس يعدّ من أفضل وأكرم القيم الأخلاقية وخاصة للرؤساء والمدراء والأولياء على العوائل حيث يتسبب في تكاملهم المعنوي وقوة مديريتهم وجذب القلوب إليهم وبالتالي بإمكانه أن يحل لهم الكثير من المشكلات ويهون عليهم المصاعب، أما بالنسبة إلى أهميّة هذه الفضيلة الأخلاقية فنختار في هذا المضمون عدّة روايات واردة في هذا الباب: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا اخْبِرُكُمْ بِأَشْبَهُكُمْ بِي أَخْلَاقًا؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: أَحْسَبُ نَكْمَ أَخْلَاقًا وَأَعْظَمُكُمْ حِلْمًا وَأَبْرَكُمْ بِقَرَاتِيهِ وَأَشَدَّكُمْ إِنْصَافًا مِنْ نَفْسِهِ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا» (١). ٢- ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً قوله: «مَا جُمِعَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ» (٢). ٣- وورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَشْجَعُ النَّاسِ مَنْ عَلَبَ الْجَهْلَ بِالْحِلْمِ» (٣). ويشبه هذا المعنى ما ورد أيضاً عن الإمام عليه السلام أنه قال: «أَفْقَى النَّاسِ مَنْ قَوَى عَلَى غَضَبِهِ بِحِلْمِهِ» (٤). ٤- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَفْضَلَ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ الْحِلْمُ» (٥). ٥- وفي حديث شيق عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِالْحِلْمِ وَاللَّيْنِ دَرَجَةَ الْعَابِدِ الْمُتَهَجِّدِ» (٦). وهذا تعبير في الحديث الشريف يبيّن بوضوح أن الحلم وضبط النفس يعدّ من العبادات الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٣ المهمة في دائرة القرب الإلهي. ٦- وجاء في حديث آخر عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ السَّبِيلَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جُرْعَتَانِ جُرْعَةٌ غَيْطٌ تَرُدُّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةٌ مُصَيَّبَةٌ تَرُدُّهَا بِصَبْرٍ» (١). ٧- وسمع

الإمام على عليه السلام يوماً رجلاً يشتم خادمه قنبر وكان قنبر أراد أن يجيبه فقال له الإمام: «مهلاً يا قنبر، دَع شاتِمَكَ، مُهاناً، تَرْضَى الرَّحْمَنَ، وَتُسَخِّطُ الشَّيْطَانَ، وَتُعَاقِبُ عَدُوَّكَ»، فَوَ الَّذِي خَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ مَا أَرْضَى الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ بِمِثْلِ الْحِلْمِ، وَلَا أَسَخَطَ الشَّيْطَانَ بِمِثْلِ الصَّمْتِ، وَلَا عُوقِبَ الْأَحْمَقُ بِمِثْلِ السُّكُوتِ عَنْهُ» (٢). ٨- وورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِنْفَازِهِ وَحَلَمَ عَنْهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ أَجْرَ شَهِيدٍ» (٣). ٩- وورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أن أباه على بن الحسين عليه السلام قال: «إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي الرَّجُلُ أَنْ يُدْرِكُهُ حِلْمُهُ عِنْدَ غَضَبِهِ». ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام (رغم وجود روايات كثيرة في هذا الباب) ورد في هذا الحديث عن حفص ابن أبي عائشة قال: بعث أبو عبد الله عليه السلام (الصادق) غلاماً له في حاجة فأبطأ، فخرج أبو عبد الله عليه السلام على أثره لَمَّا أبطأ، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فلَمَّا تنبه قال له أبو عبد الله: «يا فلان والله ما ذلِكَ لَكَ، تَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَكَ اللَّيْلُ وَلَنَا مِنْكَ النَّهَارُ» (٤). هذا السلوك الممغن في المحبة والتواضع والحلم للإمام عليه السلام يمكنه أن يكون اسوة للأشخاص الذين يعيشون حالة الغضب والحدة وأنهم في مثل هذه الموارد عليهم أن يسدلوا الستار على غضبهم ويسلكوا طريق الحلم وضبط النفس. وهنا ينبغي استعراض بعض الأمور المهمة في هذا الباب: ١- إن الحلم وضبط النفس له آثار إيجابية كثيرة في حياة الناس على المستوى الفردي والاجتماعي، ومن ذلك: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٤ إنه يحفظ الإنسان من أخطار الغضب التي قد تدمر حياته وتجعله يعيش الندم إلى آخر عمره. والآخر أن الحلم يورث الإنسان العزة وقوة الشخصية والشرف، لأن جميع الناس يرون أن الحلم وضبط النفس في مقابل الأشخاص الجهلاء والحاقدين دليل على عظمة النفس وقوة الشخصية ورجحان العقل، ولذلك ورد في بعض الروايات عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «مَنْ حَلَمَ سَادَ» (١). مضافاً إلى ذلك أن الحلم في مقابل الجهلاء يتسبب في أن الناس يهرعون لنصرة الحليم ضدّ الجاهل، ولهذا ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ عَوْضِ الْحَلِيمِ مِنْ خِصْلَتِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى خَصْمِهِ» (٢). ومضافاً إلى أن الحلم يورث الإنسان العزة وماء الوجه في حين أن الغضب العجيز بالجهل يتسبب في إراقة ماء الوجه وهتك حرمة الإنسان، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَا عَزَّ اللَّهُ بِجَهْلٍ قَطُّ وَلَا أَدَلَّ بِحِلْمٍ قَطُّ» (٣) والخلاصة أن فضيلة الحلم وضبط النفس وسعة الصدر لها بركات وإيجابيات كثيرة في حياة الإنسان، وأفضل ما قيل في هذا الباب ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «فَأَمَّا الْحِلْمُ فَمِنْهُ رُكُوبُ الْجَمِيلِ، وَصِيْحْبَةُ الْأَبْرَارِ، وَرَفْعٌ مِنَ الضَّعْفِ، وَرَفْعٌ مِنَ الْخَسَاسَةِ وَتَشَهُّي الْخَيْرِ، وَيُقَرَّبُ صَاحِبُهُ مِنْ مَعَالَى الدَّرَجَاتِ، وَالْعَفْوِ وَالْمَهْلِ وَالْمَعْرُوفِ وَالصَّمْتِ، فَهَذَا مَا يَتَشَدَّبُ لِلْعَاقِلِ بِحِلْمِهِ» (٤). ٢- إن الحلم وضبط النفس حاله حال سائر الصفات الأخلاقية للإنسان من حيث الدوافع والأسباب المتعددة التي تقود الإنسان باتجاه هذه الفضيلة، ويمكننا استعراض بعض هذه الأسباب والدوافع: الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٥ (الف) إن التسلط على النفس وضبط القوى والنوازع النفسية يتسبب في أن يصمد الإنسان أمام المصاعب والأزمات فلا ينهار أمامها، وبالتالي لا يخضع أمام قوة الغضب والانفعال، كما ورد عن الإمام على عليه السلام في تعريف الحلم الإشارة إلى هذا المعنى حيث قال: «كَظَمُ الْغَيْظِ وَمِلْكُ النَّفْسِ» (١). ونفس هذا المعنى ورد أيضاً عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام (٢، ب) ومن الأمور التي تمنع الإنسان من الانهيار والخضوع أمام الغضب وتقوى في واقعه فضيلة الحلم هو علو الطبع وعلو الهمة وقوة الشخصية في الإنسان والتي لا تدعه يواجه الغضب والحدة من موقع الانفعال ويسلك سلوك الجهلاء كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يَنْتَجِبُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ» (٣، ج) ومن الأسباب الأخرى في تقوية هذه الفضيلة الأخلاقية في واقع الإنسان وقلبه هو الإيمان بالله تعالى والتوجه إلى الذات المقدسة من موقع الذوبان في صفاته وأسمائه الحسنى ومنها صفة الحلم الإلهي مقابل العصاة والمجرمين من عباده كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الْحِلْمُ سِرَاجُ اللَّهِ يَسْتَضِيءُ بِهِ صَاحِبُهُ إِلَى جَوَارِهِ وَلَا يَكُونُ حَلِيمًا إِلَّا الْمُوَيْدُ بِأَنْوَارِ اللَّهِ وَبِأَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ» (٤، د) ومن العوامل الأخرى لتفعيل هذه الفضيلة هو مطالعة آثارها الإيجابية ونتائجها الحميدة على حياة الإنسان وكذلك مطالعة الآثار السلبية للغضب والحدة بإمكانه الحد من قوة هذه الحالة النفسية والتقليل من أضرارها، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الْحِلْمُ نُورٌ جَوْهَرُهُ

العقل» (٥). وقال عليه السلام أيضاً في حديث آخر: «يُؤْفُورِ الْعَقْلُ يَتَوَفَّرُ الْحِلْمُ» (٦). الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٦ ونقرأ أيضاً في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «عَلَيْكَ بِالْحِلْمِ فَإِنَّهُ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ» (١). ٣- موارد الاستثناء، رغم أن الحلم يعدّ من الفضائل الأخلاقية البارزة في حياة الإنسان وسلوكه، ولكن هناك بعض الموارد في حركة التفاعل الاجتماعي لا يكون فيها الحلم فضيلة أخلاقية، ومثل هذه الاستثناءات موجودة في سائر الفضائل الأخلاقية أيضاً، مثلاً في الموارد التي يتسبب فيها الحلم وضبط النفس زيادة الجراءة لدى الجهلاء والمتعصبين الذين يستغلون الخلق السامى لدى الطرف الآخر فيتعاملون معه من موقع العقدة والخصومة وزيادة العدوان، فهنا يكون الحلم غير مؤثر في التأثير على الجاهل الجاهل بل ينبغي استعمال طرق أخرى لإسكاته وكبح جماحه وردعه عن غيئه. وكذلك في الموارد التي يؤدى فيها الحلم إلى الإضرار بالمجتمع أو بالمذهب والدين فهنا من الخطأ استخدام صفة الحلم وسعة الصدر والسكوت. وكذلك من الموارد الأخرى هو ما إذا كان سلوكك طريق الحلم يحسب من علامات الضعف والذلة في صاحبه. الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٧

## العفو والانتقام

### تنويه:

إنّ من أكبر الفضائل الأخلاقية التي لا يصل الإنسان إلى مراتب الكمال بدونها هي صفة العفو والصفح عند القدرة على الرد العملي على الطرف المقابل وترك الانتقام منه. إن الكثير من الناس يعيشون حالة الحقد الكامن في قلوبهم وأعماقهم وينتظرون الفرصة السانحة للانتقام من عدوهم والظفر به، فلا يتحرّكون في خط الرد بالمثل وجواب السيئة بالسيئة فقط، بل يردون السيئة الواحدة بأضعافها من السيئات والأعمال الانتقامية، والأسوأ من الجميع أنّ هذه الصفة الرذيلة تتجلى بمظهر الصفة الحسنة التي تبعث على الفخر والاعتزاز فيقول الإنسان إنني قد ظفرت بعدوى وأذقته العذاب الشديد وفعلت معه كذا وكذا. إن التاريخ البشرى مليء بحالات الانتقام والقسوة من قبل السلاطين والامراء ورؤساء القبائل لأقوامهم أو لأقوام أخرى من أعدائهم. والعجيب هو أنّ حالات الانتقام هذه تتشابه مع بعضها بصورة سلسلة وحلقات متواليه، فعلى سبيل المثال أنّ إحدى القبائل تقوم بقتل شخص من القبيلة الأخرى، فتقوم قبيلة المقتول عند توفر الفرصة بالتأثر لنفسها وتقتل خمسين شخصاً من القبيلة الأخرى وهكذا الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٨ يستمر النزاع والصراع وسفك الدماء. إنّ أشكال النهب والسلب وهتك النواميس والأعراض والقتل الفجيع في التاريخ البشرى معلول لهذه الصفة الخبيثة والذميمة في أعماق البشر وتمتد إلى ذواتهم الحيوانية وعناصر الشر فيهم. وبعكس ذلك ما نجده في سيرة الأنبياء والأولياء هو أنّهم عندما تسنح لهم الفرصة ويتغلبون على عدوهم فإنّهم يتحرّكون من موقع العفو والصفح عن جرائمه السابقة وبذلك يعملون على تبديل أشدّ الأعداء إلى أقرب الأصدقاء. إنّ مثل هذه الشخصيات الفذة في التاريخ البشرى لا يعيشون حالة الرغبة في التأثر لأنفسهم والانتقام من عدوهم وغسل الدم بالدم (إلّا في الموارد الاستثنائية) والردّ بالسيئة بمثلهما، بل على العكس من ذلك كانوا يتحرّكون ما أمكنهم على مستوى جواب السيئة بالحسنة، لأنّ هدفهم تربية النفوس وتهذيبها والسير بها في خط الصلاح والإيمان والهداية لا- في خط الانتقام، ولذلك كانوا يهدفون إلى إطفاء الفتنة لا إشعال نار جديدة. ولكن من اليقين أنّ مثل هذا السلوك الإنساني لا- يتسنى من أيّ شخص كان، بل يختص به الأشخاص الذين يعيشون الإيمان والتقوى والتسلط على النفس في أعلى مستوياته، إنّ عمل الأشخاص الذين يعيشون الفضيلة والأخلاق السامية، وإلّا فإنّ من يعيش التوحش والقساوة في قلبه لا يعرف سوى الانتقام ولا يفتخر إلا بالتأثر لنفسه. وأمّا بالنسبة إلى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية فنجدها مليئة في بيان فضيلة العفو والصفح ودم روح الانتقام والتأثر، والشاهد على ذلك ما نقرأه في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام في هذا الباب، ونموذج لذلك ما ورد في قصّة فتح مكّة والعفو العام الذي أصدره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن أعدائه الشرسين

والحاقدين. ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دروساً في العفو والصفح أو ما ورد فيه من ذم غريزة الانتقام والثأر (والجدير بالذكر أن مفردة (الانتقام) لم ترد في القرآن الكريم بالمعنى المذكور آنفاً، بل بمعنى العقاب الإلهي، ولذلك فكل مورد وردت فيه هذه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٦٩ الكلمة فإنه يراد بها ما ينسب إلى الله تعالى من العقاب على المجرمين ولا يرتبط ببحثنا الحاضر): ١- «وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» (١). ٢- «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيُ أَنْ يُوْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢). ٣- «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (٣). ٤- «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» (٤). ٥- «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» (٥). ٦- «وَلَا تَسِيئُوا إِلَى الْحَسَنَةِ وَلَا السَّيِّئَةِ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ» (٦). ٧- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَّةَ إِصْ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْمَأْتِي بِالْمَأْتِي فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٨). ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٨). ٩- «إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا» (٩). ١٠- «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا» (١٠).

### تفسير واستنتاج:

تعرض «الآية الأولى» من الآيات محل البحث إلى الحديث عن مسألة المقابلة بالمثل وجزاء السيئة بالسيئة وأن ذلك من حق المؤمنين (لكي لا يرى المعتدى والمجرم نفسه في أمن من العقاب) ثم أشارت الآية إلى مسألة العفو والصفح وترك الانتقام وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ». ونظراً إلى أن سورة الشورى من السور التي نزلت بأجمعها في مكة المكرمة، ونعلم أن المسلمين في ذلك الزمان كانوا في دائرة العدوان الواسع الموجه إليهم من قبل الأعداء المشركين، ومع ذلك فالقرآن الكريم في الآية ٣٩ من هذه السورة يأمر المسلمين أن لا يستسلموا في مقابل الظلم والعدوان، وعندما يواجهون حالة الظلم هذه فعليهم أن يستمدوا العون من إخوانهم ويتكاتفوا فيما بينهم لردع هذا العدوان، ثم يشير في الآية ٤٠ إلى هذه الحقيقة، وهي أنه لا ينبغي أن يتحركوا من موقع الانتقام والثأر بسبب ما يرونه من العدوان على بعض أصدقائهم ورفاقهم وبالتالي يتجاوزون الحد بالرد بالمثل فيكونون في صف الظالمين أيضاً، وعليهم كذلك أن يتخذوا العفو والصفح سلوكاً إنسانياً لهم فيما لو لم يترتب عليه آثار سيئة. أما المراد من كلمة (وأصلح) في هذه الآية والتي وردت بعد كلمة العفو، فالمفسرون ذهبوا إلى تفسيرات متعددة، فبعض ذهب إلى أن المراد من الإصلاح هو الإصلاح بين الإنسان وربه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن المراد به الإصلاح بين المظلوم والظالم حتى لا تتكرر هذه القضية بينهما مرة أخرى، وذهب ثالث إلى أن المراد به هو إصلاح النفس وتطهيرها من أدران الانتقام وشوائب الغضب والتوتر الذي تفرضه حالات الصراع مع الطرف الآخر، وذهب بعض إلى أن معناه ترك القصاص. ولا يبعد أن يراد بهذه الكلمة جميع هذه المعاني التي ذكرت في تفسيرها، وعلى أية حال فإن الآية تبين بوضوح هذه الحقيقة، وهي أن العفو والإصلاح الذي يأتي بعده بإمكانه أن يقلع جذور الحقد من قلوب الناس، وعبارة (فأجره على الله) بشكل مطلق وبدون تعيين الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧١ حدود لهذا الأجر حتى الجنة أيضاً يدل على أن هذا الأجر والثواب إلى درجة من العظمة والسعة أنه لا يعلم مقداره إلا الله تعالى. أما «الآية الثانية» فناظرة إلى حادثة الإفك التي وقعت في صدر الإسلام، يعني ما قام به بعض المنافقين من إتهام إحدى زوجات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بما ينافي العفة ولغرض الخدشة في شخصيته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وموقعه الإسلام، فتشير الآية الشريفة إلى أن مسألة العفو والصفح مطلوبة في كل الأحوال حتى تجاه المذنبين والملوثين، لأن هذه الآية نزلت عندما أقسم بعض الصحابة بعد قضية الإفك أنهم لن يساعدوا أي شخص من الأشخاص الذين اشتركوا في هذه الواقعة، فممنعتهم عن استخدام أدوات العقاب

وأمرتهم بالعتو والصفح تجاه هؤلاء الخاطئين وقالت: «وَلَمَّا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيَةُ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». ثم تضيف الآية: إن على المؤمنين أن يسلكوا طريق العفو والصفح وتقول: «وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، في حين تأملون من الله الرحمة والمغفرة، فكذاك عليكم أن تسلكوا هذا الطريق تجاه الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فيغفر لكم أيضاً ويرحمكم. والملاحظة الملفتة للنظر هنا أن قضية الإفك كانت بمثابة مؤامرة خطيرة استهدفت الإسلام وشخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث تبنت هذه المؤامرة جماعة من المنافقين، ولكن بعض المسلمين الغافلين إنخدعوا بهذه الحيلة وتورطوا في هذا الإثم، ورغم ذلك فالقرآن الكريم يوصي المؤمنين بالعتو والصفح عن هؤلاء الغافلين الذين تورطوا بهذه المؤامرة من موقع الجهل لا- من موقع الخبث والحقد والنفاق، وعليه فبالنسبة إلى المسائل الشخصية والامور الخاصة بالأفراد فالعتو يكون بطريق أولى. أما الفرق بين (العفو) و (الصفح) فيقول الراغب في مفرداته، إن العفو بمعنى المغفرة والصفح ترك اللوم والتوبيخ والذي هو مرحلة أعلى من العفو، لأنه يمكن أن يعفو الإنسان الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٢ عن الطرف المقابل إلا أنه لا يترك لومه وتوبيخه أو معاتبته، ولكن بما أن الصفتح في اللغة يعني الإعراض بالوجه عن الإنسان المذنب فيمكن أن يكون إشارة إلى لزوم تناسي ذنب المذنب ووضع في زاوية الإهمال والغفلة ولا يكتفى بترك اللوم فقط، أي أن لا يترتب أي أثر سلبي على العلاقة بين الطرفين. وهنا ملاحظة مهمة أخرى وهي أن هذه الطائفة من المؤمنين أقسموا على أن لا يمدوا يد العون لجميع المتورطين في قضية الإفك، أي أن قسمكم بالنسبة إلى مثل هذه الامور لا أثر له على مستوى العمل والممارسة لأنه لا يقع في دائرة التكليف بالنسبة إلى الامور الخيرة. «الآية الثالثة» تأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأوامر أخلاقية ثلاثة ويتضح منها تكليف الآخرين أيضاً وتقول: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ». هذه التعليمات الثلاثة التي وردت في الآية الشريفة بمثابة أوامر صادرة من الله تعالى إلى نبيه الكريم باعتباره قائداً للامة واسوة حسنة لسائر المسلمين وبذلك توضح في مضمونها أهمية العفو والصفح في دائرة المسؤولية الملقاة على عاتق القادة الإلهيين، فالأمر الأول من هذه الأوامر الإلهية هو الأمر بالعتو والصفح، والأمر الثاني إشارة إلى أن على القائد أن لا- يحتمل الناس ما فوق طاقتهم وقدرتهم وأن لا- يطلب منهم سوى المعروف الممكن، وفي الأمر الثالث نجد التوصية بإهمال الكلمات اللامسؤولة الصادرة عن الجاهلين والمخالفين وعدم ترتيب الأثر على مزاحمتهم وما يرتكبونه تجاه أتباع الحق من ممارسات سلبية وكلمات شائنة. إن القادة الحقيقيين والسالكين طريق الحق يواجهون في مسيرتهم الإلهية الكثير من الأفراد المتعصبين والجاهلين والمعاندين الذين لا يجدون فرصة في الوقيعة بأصحاب الحق وإيجاد الأذى والضرر بهم إلا واستغلوا، فالآية أعلاه وكذلك الكثير من الآيات القرآنية الأخرى تؤكد على المؤمنين السالكين في خط الله والتقوى أن يجنبوا أنفسهم الصراع مع هؤلاء وأن الأفضل لهم التعامل مع مثل هذه المسائل من موقع اللامبالاة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٣ والإهمال والإعراض، والتجربة العملية تشير إلى أن أفضل طريق لإيقاظ هؤلاء من غفلتهم وإطفاء نار غضبهم وصداهم وتعصية بهم هو هذه الطريقة في التعامل معهم من موقع قوة الشخصية وكبر النفس. وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عندما نزلت هذه الآية الشريفة سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل عن ذلك فقال: لا- أدري حتى أسأل العالم، ثم أتاه فقال: «يا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ» «١». وينطلق الحديث في «الآية الرابعة» ليخاطب جميع المسلمين ويأمرهم بأنهم إذا أرادوا التعامل بالمثل مع الأعداء الموجه من الآخرين ويعاقبوا عليه فعليهم أن لا يتجاوزوا المقدر المشروع وهو مقدار المثل فقط لا- أكثر، ولكنهم إذا التزموا جانب البر والعفو والصفح فإن ذلك أفضل من الحل السابق وتقول الآية: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». وقد ورد في الروايات الشريفة أن هذه الآية نزلت في معركة احد عندما نظر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى جسد عمه حمزة، وقد استشهد في ميدان المعركة ومثل به الأعداء القساء وشقوا بطنه وأخرجوا كبده وقطعوا اذنه وأنفه، فلما رأى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ذلك تأثر كثيراً وبعد أن حمد الله وأثنى عليه شكى له حاله وقال: «أصبرُ أصبرُ» «٢». والملفت للنظر أن الآية التي تليها تقول: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» وهي إشارة إلى أن على الإنسان الذي يعيش هذه اللحظات

الأليمة وتستولى على وجوده سبحانه من الحزن والهم بسبب ما يواجهه من عدوان القساء وجرائمهم فإن عليه أن يلتحف بالصبر والصفح رغم أنها حالة صعبة وعسيرة لا يستطيعها الإنسان إلا بمدد من الله تعالى ومعونته. وبالطبع فإن السماح بالردّ بالمثل الوارد في أول الآية الشريفة يعود إلى أصل قتل العمد، الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٤ ولكن بالنسبة إلى المثلة والتي هي عمل غير إنساني وصادر من روحية ملوثة فإن المقابلة بالمثل لا تجوز في هذه الحالة، وهذا المعنى ورد بصراحة في الروايات الإسلامية التي تؤكد عدم جواز المثلة حتى بالكلب العقور، فحتى لو استفيد من الآية الشريفة جواز المثلة «١» فإنه يكون المراد منها بمعونة الروايات الصريحة هو أصل القتل فقط لا المثلة، وذهب بعض المفسرين إلى أن مسألة الانتقام بالأكثر من الحد الشرعي والتهديد بالمثلة لم يكن صادراً من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، بل من المسلمين، وعمومية الخطاب في الآية الشريفة تؤيد هذا المعنى وأن هذا التصميم صدر من المسلمين لا من رسول الله صلى الله عليه وآله. وتأتي «الآية الخامسة» لتتحدث إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتأمره بما فوق العفو والصفح وتقول: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُ قُونَ». أما «الآية السادسة» فتؤكد هذا المعنى أيضاً بعبارة أخرى تقول: «وَلَا تَشِدَّوِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». ونقرأ في الآية ٢٢ من سورة الرعد عندما تستعرض صفات اولوا الألباب والعقول أن إحدى صفاتهم هي: «وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى أن هؤلاء يتحرّكون على مستوى جبران أخطائهم وذنوبهم بالحسنات وأعمال الخير، وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلى أن هؤلاء يجيبون الإساءة الموجهة من الغير بالإحسان من جهتهم ولا يردون بالمثل على الطرف الآخر لكي يوقضوا عناصر الخير في وجدان الطرف الآخر ويجعلونه يعيش الندم على ما صدر منه تجاههم. ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الآية أن يكون كلا المعنيين مراداً لها «٢». ويستفاد من هذه الآيات الثلاثة جيداً أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك المؤمنين مأمورون الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٥ بتجاوز حالة العفو والصفح والصعود إلى مرتبة أرقى منها ورد السيئة بالحسنة وهو العمل الذي لا يتيسر من أي شخص كان، ولهذا فإن الآية التي بعدها تقول: «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». وفي الحقيقة فإن مقابلة السيئة بالحسنة عمل ثقيل جداً لا يستطيع النهوض به إلا من اوتى القدرة على النهوض بالأعمال الخيرة المهمة، والذين يعيشون الإيمان والتقوى والقيم الإنسانية بالمستوى الأعلى. والملفت للنظر أن سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام طافحة بمثل هذه النماذج من السلوكيات الأخلاقية والإنسانية حتى أنه أحياناً يؤدي سلوكهم الإنساني هذا إلى انقلاب الطرف الآخر من موقع الشر والعداوة إلى موقع الخير والمحبة، والتجارب العملية الكثيرة تشير إلى التأثير الكبير لهذه الأعمال الأخلاقية في دائرة السلوك الإنساني والعلاقات الاجتماعية. وتعرض «الآية السابعة» إلى الحديث عن مسألة القصاص والتي تعد أحد الأحكام الاجتماعية المهمة للإسلام والتي تضمن حقوق الناس وتحفظ لهم أنفسهم ودمائهم من أشكال العدوان بحيث أن القرآن الكريم يعبر عن القصاص بكلمة «الحياة» ولكنه في نفس الوقت يفضل عليه العفو والصفح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ». وبعد أن تذكر الآية موارد القصاص بالمثل تقول: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ». فلو أن القصاص تبدل إلى الدية فعلى الطرف الآخر أن يتخذ سبيل المعروف في عملية أداء الدية إلى ولي المقتول، وهذا المعنى بمثابة التخفيف والرحمة من الله تعالى للناس. وفي ختام الآية صرح القرآن الكريم أن بعد العفو والصفح أو تبديل القصاص إلى الدية لا حق في الرجوع في ذلك وممارسة سلوك العدوان والقساوة وقتل القاتل عند القدرة الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٦ والاستطاعة، وتحذر المسلمين من هذا الموقف الخطير وتقول: «فَمَنْ اعْتَدَى بِكَ فَلَهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأن بعد العفو عن القاتل أو تبديل القصاص بالدية فإن ذلك يعني إغلاق الطريق تماماً عن العودة وبذلك يسقط حق القصاص تماماً، وعليه يكون الانتقام من القاتل بمثابة القتل العمد الذي يترتب عليه العقوبة في الشريعة الإسلامية. وهذه الآية تضع القاتل بين الخوف والرجاء، فمن جهة تفتح عليه باب القصاص حتى لا يتجرأ أحد على تلوين يده بدماء الأبرياء خوفاً من القصاص، ومن جهة أخرى فإنها قد فتحت باب العفو ثم حذرت من الانتقام بعده ولتقف حائلها في طريق الخشونة والعدوان اللئامسؤول من بعض الجماعات





محل معين، والهجر الجميل له محل آخر. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٧٩ وعلى أية حال فإن هذه الآية توصي بتأخذ سلوك العفو والصفح وخاصة في مقابل الأشخاص الذين ينطق لسانهم دائماً بالكلمات الوقحة واللامسؤولة ولا يمتنعون عن أى كلام وقح وذميم، لأن الهجر الجميل لا يتحقق بدون عملية العفو والصفح. وكما يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان أن هذه الآية بمثابة الخطاب لجميع الدعاة والمبشرين في كل زمان ومكان أن يلتزموا جانب ضبط النفس في مقابل أذى المخالفين والأعداء ولا يستسلموا أمام حالات الانفعال لموقف الجهلاء وكلماتهم اللامسؤولة ويقابلوهم بحسن الأخلاق والمداراة والإغماض «١». وهكذا توضح الآيات أعلاه والتي تخاطب أحياناً جميع المسلمين وأحياناً أخرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعنوان قائد الأمة الإسلامية، المقام السامي للعفو والصفح من بين الفضائل الأخلاقية والمثل الإنسانية العليا في مقابل الحوادث الصعبة وتحديات الواقع الاجتماعي غير الملائم، وتجعل من هذه الفضيلة الأخلاقية أساساً للتعامل الإسلامي بين أفراد المجتمع وحتى في مقابل الأعداء والمخالفين فيما لو لم يترتب على العفو والصفح أثراً سلبياً.

### العفو والانتقام في الروايات الإسلامية:

أمياً في دائرة الروايات الإسلامية فنجد لمسألة العفو وكونه من الفضائل الأخلاقية السامية وكذلك ذم الانتقام إنعكاساً كبيراً، فقد وردت عبارات مثيرة في هذا الباب ومن ذلك: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ يُقَالُ مَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ يُقَالُ الْإِخْلَاقُ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٨٠ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» «١». ٢- ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال في أحد خطبه: «أَلَا خَيْرٌ لَكُمْ بِخَيْرِ خَلْقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَالْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ» «٢». فنرى في هذا الحديث الشريف المرتبة السامية للعفو والصفح، وهو جواب السيئة بالحسنة وأن هذا المقام هو مقام الأنبياء والأولياء والصلحاء من الناس. ٣- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الْعَفْوُ تَأْجُ الْمَكَارِمِ» «٣». ونعلم أن التاج هو علامة العظمة والقدرة والعزة وكذلك يستخدم كزينه ويوضع على أشرف موضع من بدن الإنسان وهو الرأس، وهذا التعبير الوارد في الحديث الشريف يشير إلى أن العفو والصفح له مقام ممتاز من بين الفضائل الأخلاقية الأخرى. ٤- وورد في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنه قال: «شَيْئَانِ لَا يُوزَنُ ثَوَابُهُمَا الْعَفْوُ وَالْعَدْلُ» «٤». إن جعل العفو إلى جانب العدل في الحديث الشريف يوضح من جهة أهمية العفو في عملية التفاعل الاجتماعي والمرتبة المعنوية العالية له، ومن جهة أخرى يدل على أنه قرين العدل، لأن العدل مضافاً إلى أنه سلوك الفرد في خط الحق فإنه يتسبب في تقوية مفاصل النظام في المجتمع، ولكن العفو بما هو فضيلة أخلاقية يتسبب في رفع الحقد والكراهية واستبدالهما بالعواطف الإنسانية والمحبة في العلاقات الاجتماعية، وإقتران هذين العنصرين في الدائرة الاجتماعية يرفع كل أشكال الظلم والتعدى على حقوق الآخرين. ٥- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام في وصفه لأشقى الناس: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا إِخْلَاقَ فِي الْقُرْآنِ، ج ٣، ص: ٣٨١ يَعْفُ عَنِ الزُّلْمِ وَلَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ» «١». ٦- ونقرأ في حديث آخر أنه جاء شخص من الأشقياء إلى المأمون وكان المأمون قد عزم على قتله، وكان الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حاضراً في ذلك المجلس فقال المأمون: «مَا تَقُولُ يَا أبا الحسن، فَسَالَ: أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَزِيدُكَ بِحَسَنِ الْعَفْوِ إِلَّا عِزًّا فَعَفَى عَنْهُ» «٢». وهكذا نجد أن المأمون قد عفى عن هذا الشخص الذي تجرأ على ارتكاب ما هو ممنوع (وباحتمال قوى أنه ارتكب جرماً سياسياً). ٧- وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «قَلْبُ الْعَفْوِ أَقْبَحُ الْعُيُوبِ وَالتَّسْرِعُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ» «٣» ٨- وجاء في نهج البلاغة في الكلمات القصار عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى عَيْدُوكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ» «٤». ونفس هذا المعنى ورد بصورة أخرى ومن ذلك قوله: «الْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفْرِ» «٥». ٩- وورد في حديث الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام (أو الإمام الهادي عليه السلام) أنه قال: «مَا تَلَقَّتْ فِتْنَانٍ قَطُّ إِلَّا نَصِيْرَ اللَّهِ أَعْظَمُهُمَا عَفْوًا» «٦» ١٠- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

أنه قال: «دَعِ الْإِنْتِقَامَ فَإِنَّهُ مِنْ أَسْوَأِ أَفْعَالِ الْمُقْتَدِرِ» (٧). ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث الشريفة الأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام للعفو الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٢ والصفح وكذلك يتضح قبح الحقد والانتقام والثأر، والأحاديث الشريفة في هذا الباب كثيرة لا يمكننا استعراضها في هذا المختصر.

### أقسام العفو:

إن فضيلة العفو والصفح وترك الانتقام والثأر تعتبر أصلاً من الاصول الشرعية والعقلية الواردة في الكتاب والسنة، ولكنه لا يعني عدم وجود الاستثناء في بعض الموارد، بل هناك موارد يكون العفو والصفح فيها سبباً لجرأة المجرمين والمنحرفين، ولا شك أنه لا أحد يرى في العفو في مثل هذه الموارد فضيلة أخلاقية، بل إن حفظ نظام المجتمع والنهي عن المنكر والتصدي لمنع وقوع الجريمة تقتضي عدم التساهل مع المجرم، وترك العفو في مثل هذه الموارد، والعمل بمقتضى العدل وما يفرضه من العقاب على المجرم. ولذلك ورد في القرآن الكريم بالنسبة إلى المقابلة بالمثل في الآية ١٩٤ من سورة البقرة إشارة إلى هذا المعنى حيث تقول: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ». وطبعاً هناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية في مقام جواز القصاص العادل فقط ولا تدل على الوجوب أو الاستحباب (وفي الاصطلاح أن الأمر هنا هو في مقام توهم الخطر والمنع). وعلى أية حال فإن العفو والعقوبة لكل واحدة منهما محلاً خاصاً لا ينبغي استخدام أحدهما مكان الآخر، فالعفو إنما يكون فضيلة فيما لو كان الإنسان قادراً على الانتقام والمقابلة بالمثل وأنه لو سلك طريق العفو لم يكن ذلك من موقع الضعف والتخاذل ولا يرى الطرف الآخر أن هذا الموقف الإنساني نقطة ضعف في هذا الشخص، فمثل هذه الحالة للعفو تكون مفيدة وبناءة للطرفين، فإنها بالنسبة إلى الطرف المظلوم والذي مكنته الظروف من الظالم يسبب في صفاء قلبه وضبط جماح نفسه وسيطرته على نوازعه وأهوائه النفسانية، وكذلك يعتبر مفيداً للظالم المغلوب حيث يدفعه إلى إصلاح نفسه وتهذيبها وعدم تكرار ذلك العمل العدواني. وقد نجد في الأحاديث الإسلامية أيضاً إشارة إلى هذا الاستثناء، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٣ ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «العفو عن الموقر لا عن المصتر عفو» (١). وأيضاً ورد في الحديث الشريف عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً قوله: «جاز بالحسنة وتجاوز عن السيئة ما لم يكن ثلماً في الدين أو وهناً في سلطان الإسلام» (٢). ففي مثل هذه الموارد يجب التحرك على مستوى إلحاق الجزاء العادل بالمسيء. وجاء في حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام في تأييد هذا المعنى حيث قال: «حق من أساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو عنه يضر إنتصرت قال الله تبارك وتعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» (٣). ولكن لا ينبغي أن يكون وجود هذا الاستثناء سبباً لسوء التصرف في بعض الموارد وأن يجعلها بعض الناس ذريعة للانتقام في مورد العفو بحجة أن العفو هنا يتسبب في زيادة الجرأة لدى المذنب والمجرم، بل ينبغي النظر بأخلاص وبعيداً عن حالات التعصب إلى أصل العفو والصفح وموارد الاستثناء بدقة كبيرة والعمل طبق هذه الموارد والاستثناءات. والجدير بالذكر أن العفو في دائرة إجراء الحدود والتعزيرات الشرعية غير جائز إلا في بعض الموارد المنصوصة في الروايات الإسلامية، لأن إجراء الحد والتعزير يعد من الواجبات الشرعية في موارد.

### الآثار الإيجابية والثمار الطيبة للعفو والصفح:

رأينا أن العفو والصفح باعتبارهما من الفضائل الأخلاقية التي وردت كثيراً في الآيات والروايات الشريفة تجتمع فيها آثار إيجابية ومعطيات حميدة كثيرة في حركة الحياة الفردية والاجتماعية حيث يمكن بيان خلاصتها: ١- إن سلوك طريق العفو والصفح يمكنه أن يبدل العدو الشرس أحياناً إلى صديق حميم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٤ وخاصة فيما لو كان مترامناً بالإحسان إلى الطرف المقابل، أي بالإجابة بالحسنة مقابل السيئة كما وردت الإشارة إلى ذلك في الآية ٣٤ من سورة فصلت. ٢- إن العفو والصفح يتسببان

في دوام الحكومات واستمرار القدرة السياسية بين ذلك الحاكم الذي يمارس العفو مقابل أعدائه حيث يقلل من حالة العداء والخصومة لدى مخالفه ويزيد من جماعة الأصدقاء والمحبين، ونقرأ ذلك في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله: «عَفْوُ الْمُؤَلَّكِ بَقَاءُ الْمُلْكِ» (١). ٣- إنَّ العمل بمقتضى العفو والصفح يتسبب في زيادة عزّة الشخص وتقوية مكانته وشخصيته في المجتمع، لأنّ ذلك علامة على قوة الشخصية والشرف وسعة الصدر، في حين أنّ ممارسة الانتقام والتأثر يدلّ على ضيق الأفق وعدم التسلّط على النفس وانفلات قوى الشر وتسلطها على الإنسان، وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ فَإِنَّ الْعَفْوَ لَا يَزِيدُ إِلَّا عِزًّا» (٢). ٤- إنَّ العفو يقطع تسلسل الحوادث اللأخلاقية في واقع الناس من الحقد والبغضاء وكذلك السلوكيات الذميمة والقساوة والجريمة، وفي الواقع فإنَّ العفو بمثابة المحطّة الأخيرة التي تقف عندها كل عناصر الشرّ هذه فلا يتجاوزها، لأنّ الانتقام والتأثر يتسبب من جهة إلى تسعير نار الحقد في القلوب ويدعوها إلى التعامل بقساوة أشد ويفعل فيها الكراهية وعناصر الخشونة، وهكذا يستمر الحال في عملية تصاعديه، وأحياناً يؤدّي الحال إلى نشوب معارك طاحنة بين طائفتين أو قبيلتين كبيرتين أو تسفك في ذلك الكثير من الدماء وتدمر الكثير من الطاقات والأموال والثروات. وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال: «تَعَاوَا تَسْقُطَ الضَّغَائِنُ بَيْنَكُمْ» (٣). ٥- إنَّ العفو يتسبب في سلامة الروح وهدوء النفس وسكينته القلب وبالتالي يتسبب في طول العمر كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ كَثُرَ عَفْوُهُ مَدَّ فِي عُمُرِهِ» (٤). الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٥ وبالطبع فما ذكرنا أعلاه هو من قبيل الآثار الإيجابية الدنيوية والبركات الاجتماعية للعفو والصفح، وأما النتائج المعنوية والأجر والثواب الاخرى فأكثر من ذلك بكثير، ونكتفي في هذا المعنى بحديث عن أمير المؤمنين صلى الله عليه و آله يقول فيه: «الْعَفْوُ مَعَ الْقُدْرَةِ جُنَّةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ» (١). وأما أسباب ودوافع الانتقام والتأثر فكثيرة أيضاً ومنها ضيق الأفق والصدر وعدم النظر إلى المستقبل، والحسد والحقد، وضعف النفس، واتباع الهوى والكثير من الصفات الذميمة الاخرى التي تدفع كل واحدة منها أو بضمها إلى الاخرى الإنسان إلى السقوط في نار الانتقام وحالة الردّ بالمثل للتشفى والأخذ بالتأثر، وبالتالي زيادة النزاعات والصراعات بين الأفراد ممّا يفضي أخيراً إلى هدم نظام المجتمع وتلف الأموال والأنفس وهدر الطاقات والإمكانات للمجتمعات البشرية.

### طرق علاج الانتقام وكسب فضيلة العفو:

إنّ أفضل الطرق لعلاج صفة الانتقام الرذيلة والصعود إلى أوج العزّة والكرامة باكتساب فضيلة العفو والصفح يكمن في الدرجة الاولى بالتفكير السليم حول معطيات وآثار كل واحد من هاتين الصفتين الأخلاقيتين، فعندما يرى الإنسان ما في العفو والصفح من البركات والمواهب والمعطيات الدنيوية والاخرى وكيف أنّه يتسبب في زيادة مكانته وعلو قدره وعزّته في نظر الخلق والخالق ويريح الإنسان من الكثير من المشكلات والمصاعب فيفتح له أبواب الحياة الكريمة ويشير المحبّة له في قلوب الناس، في حين أنّ الانتقام والردّ بالمثل أحياناً يؤدّي إلى انهدام عناصر الخير في حياة الإنسان ويعرّض نفسه وماله وسمعته إلى الخطر الأكيد، فحينئذٍ إذا قارن الإنسان بين هذه المعطيات الإيجابية والسلبية للطرفين فإنّه سيأخذ جانب العفو قطعاً ويرجّحه على جانب الانتقام ويستمر في سلوك هذا الطريق حتّى تحصل لديه ملكة أخلاقية لفضيلة العفو والصفح. الأخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٦ ومن جهة اخرى فعندما يتأمل الإنسان في جذور الحالة السلبية للانتقام والدوافع النفسية التي تثير هذه الحالة في نفسه فإنّه سيتحرّك حتماً نحو علاجها والحد من شرّها وبذلك يتسنى له القضاء على المعلول في القضاء على علته، فيتبدّل الحقد والكراهية وحبّ الانتقام إلى الاخوة والمحبّة والعفو والصفح. وبهذا نأتى على ختام بحثنا في فضيلة العفو والصفح وكذلك رذيلة حبّ الانتقام والتأثر والردّ بالمثل رغم وجود مسائل كثيرة لم يسع المقام لذكرها.

## الغيرة وعدم الغيرة

## تنويه:

إنّ (الغيرة) وردت في الروايات الإسلامية والنصوص الدينية بعنوان أنّها فضيلة أخلاقية مهمة، وهي في الأصل بمعنى الدفاع الشديد عن العرض والناموس أو المال والدين والمذهب والوطن وأمثال ذلك، وخاصةً أنّ هذه المفردة وردت في موارد يكون فيها الحق مختصاً بشخص معيّن أو جماعة، ويريد الآخرون التعرّض لهذا الحق وسلبه من صاحبه أو أصحابه، فيقوم الطرف الآخر بالدفاع الشديد عن حقه. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الصفة إذا تحلّى بها الإنسان وسلك بها طريق الاعتدال فإنّها تعدّ فضيلة كبيرة في دائرة الأخلاق والقيم الإنسانية، فما أعظم حالاً من أن يقوم الإنسان بالتصدّي ومنع الأجنبي عن التخطي إلى حريم عرضه أو وطنه ويقف في مقابل هذا العدوان ويدافع عن حقه إلى حدّ الموت. ومع الأسف فإننا نعيش في العالم المعاصر الذي إفتقد كثيراً من القيم الأخلاقية واستولت عليه الكثير من الانحرافات الأخلاقية في دائرة الاسر والعوائل الخاصة، ولاسيما ما نجده في العالم الغربي من الارتباط اللامشروع بين النساء والرجال بحيث نسيت هذه الصفة الأخلاقية، بل إنّها وصلت لدى البعض إلى حالة معاكسة فأصبحت مخالفة للقيم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٨ والاصول الأخلاقية واعتبرت من قبيل التعصبات العمياء والأنانية، وهذا يعدّ بذاته فاجعة كبيرة على المستوى الأخلاقي والثقافي، في حين أنّ الإنسان والمجتمع البشري لا يستطيع أن يتحرّك باتجاه حماية الأخلاق والقيم والمبادئ الدينية والاجتماعية بدون عنصر الغيرة. وفي هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته دورساً وعبراً في هذه المسألة المهمة والأساسية في حياة الإنسان الاجتماعية: ١- «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لفرغناك منهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً» ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً\* سيئه الله في الذين خلوا من قبل ولكن تجد لسيئه الله تبديلاً» ١. ٢- «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصيرف عني كيدهنّ أضب إليهنّ وأكن من الجاهلين» ٣- ... ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» ٣.

## تفسير واستنتاج:

تحدّث «الآية الاولى» من الآيات محل البحث عن ثلاثة طوائف من الفئات الشريرة في المجتمع الإسلامي الأول في المدينة، فتذكر الآية هذه الطوائف الثلاث بأسم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون، أي الذين يتحرّكون في بث الشائعات والأكاذيب بين الناس لتضعيف معنويات المسلمين وإتهام النساء العفيفات والمحصنات وتحذّرهن الآيه بأشد العذاب الإلهي وتقول: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لفرغناك منهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً» ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٨٩ هذه الغيرة الإلهية التي تقود المسلمين إلى الدفاع الشديد عن أعراضهم ونواميسهم وكيانهم هي اسوة لجميع المسلمين في مسألة الغيرة على الدين والناموس، وتدلّ على أنّ الإنسان الذي يتحرّك في خط الإيمان والحق لا ينبغي أن يواجه ممارسات الأراذل والمنافقين والأشرار من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام والبرودة. وهذا التعبير الوارد في الآية الكريمة يدلّ على أنّ هذه المسألة عبارة عن فضيلة أخلاقية كبيرة ووظيفة اجتماعية للمؤمنين رغم ما أورده التاريخ من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي كان يتشدّد في مثل هذه الموارد مع المخالفين وقوى الانحراف. إنّ الصفات الثلاثة التي ذكرتها الآية لهؤلاء المخالفين: «المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون» يمكنها أن تشير جميعها إلى طائفة معينة تتحرّك باتجاهات مختلفة لتكريس حالة التخاذل والوهن والضعف بين المسلمين، ولكنّ ظاهر الآية وما ورد في شأن نزولها من الروايات يشير إلى أنّ هذه الصفات الثلاث هي لثلاث طوائف من هؤلاء المنحرفين وهم: المنافقون الذين يتحرّكون في بث الشائعات حول غزوات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لتضعيف روحية المسلمين وتقوية عنصر الانهزام والتخاذل في قلوبهم، وطائفة الأراذل والأشرار الذين

يتعرضون لنساء المسلمين ويتسببون في إزعاجهن والتحرش بهن، والطائفة الثالثة يتحركون في عملية بث الشائعات عن النساء المؤمنات وإتهامهن في عفتهم حيث يؤلمهن ذلك بشدة، فنزلت الآية أعلاه من موقع التهديد لهذه الفئات الثلاث بالنفي والقتل. أما قوله: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» فقد يرد في الآيات القرآنية بمعاني مختلفة، فأحياناً يشير إلى النفاق مثل ما ورد في الآية ١٠ من سورة البقرة: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا»، وأحياناً أخرى يرد في مورد الأشخاص الذين يتبعون غريزتهم الجنسية في دائرة الحيوانية كما ورد في الآية ٣٢ من هذه السورة التي تخاطب نساء النبي وتوصيهن بأن لا يخضعن بالقول للأشخاص الأجانب حتى لا تتحرك فيهم الغريزة ويطمعوا بالحرام فيقول: «فَلَمَّا تَخَضَّعْنِ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٠ والملفت للنظر أن القرآن الكريم بعد هذه الآيات (الآية ٦٠ و ٦١) يضيف أن هذه هي سنة الله في الأقوام السالفة (ولا تنحصر بالامة الإسلامية ولا بتبديل لسنة الله). وهذا السياق الشريف يشير إلى حكم عام وارد في جميع الأديان الإلهية، وسنة إلهية قطعية لا تتبدل، وهي ضرورة المواجهة الجادة مقابل المنافقين والانتهازيين والذين يبثون الشائعات المغرضة (طبعاً مع حفظ جميع المقررات الشرعية والعقلية) وهذا هو مفهوم الغيرة بكل وضوح. وتتحرك «الآية الثانية» لتحكي لنا عن نموذج للغيرة الدينية التي تتجلى في سلوك أحد أكبر الانبياء الإلهيين، أي النبي يوسف عليه السلام وذلك عندما تعرض للتحرش من قبل نساء مصر وخاصة زليخا امرأة العزيز حيث طلبت منه الإستسلام والرضوخ لمطالبهن اللامشروعة وارتكاب الفاحشة، وبينما كان يوسف عليه السلام في سن الشباب والمرهقة وتهب في صدره أعاصير الحيوية والغريزة والانجذاب إلى الدنيا، إلا أنه قاوم كل هذه التحديات الداخلية والخارجية الصعبة حتى أنه فضل دخول السجن مع جميع مشقاته وآلامه على الاستسلام لمطالبهن والرضوخ لعناصر الشهوة والمقام والجمال وطلب من الله تعالى أن يوفقه لدخول السجن للخلاص من هؤلاء النسوة وقال: «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ». وهذا السياق الشريف يكشف عن مقام العصمة والعفة ليوسف عليه السلام وكذلك يحكي عن غيرته وتقواه أمام الهزات، فعندما تقارن بين هذه الروحية العالية في دائرة التعفف والصمود والإرادة مع ما نجده لدى عزيز مصر من عدم الغيرة والتساهل في أمر العفة لدى زوجته بعدما ثبت له سلوك زوجته الخائن اكتفى بالقول: «يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَيْدَا وَإِسْتِغْفِرِي لِدُنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» (١). ويتضح جلياً الفرق بين هذين الرجلين من موقع الأمانة والتقوى والعفة النفسية، ولم الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩١ يكن يوسف عليه السلام يقصد طلب السجن من الله تعالى بالذات ولغرض شخصي بل كان هدفه التخلص من ممارسه اللامشروع وأنه إذا خير بين السجن وبين الممارسة اللامشروعة فإنه يفضل السجن على ذلك العمل. وتأتي «الآية الثالثة» لتستعرض الأمر الإلهي للنساء المؤمنات بأنه مضافاً إلى لزوم حفظ الحجاب فيجب عليهن أن لا يضرين بأرجلهن أثناء المشي في الطرقات لكي لا يسمع الأجنبي صوت الخلاخل من الزينة وتقول: «... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ». فترى في هذه الآية الشريفة إقتران الغيرة مع العفة إلى درجة أنه لم يسمح للنسوة أن يضرين بأرجلهن فيسمع الرجال أصوات الخلاخل في أرجلهن، وكما أشرنا آنفاً أن الإسلام يأمر نساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (بعنوان كونهن أسوة وقدوة لسائر النساء المسلمات) أنه عندما يتحدثن مع الغرباء فلا يخضعن بالقول ولا يرى الغريب عنصر المرونة واللطافة في كلامهن ولئلا تتحرك فيه عناصر الشر، كل ذلك يعد تأكيداً لرعاية العفة من جهة، وكذلك الالتزام بفضيلة الغيرة من جهة أخرى.

### الغيرة في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في الروايات الإسلامية الأهمية الكبيرة التي يوليها الإسلام لمسألة الغيرة بعنوانها فضيلة أخلاقية في دائرة القيم والمثل والمعنوية والكمالية للإنسان وحتى أن الله تعالى وصف بالغيور (أي الذي يغار كثيراً) ومن ذلك: ١- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ غَيُورٌ يُحِبُّ كُلَّ غَيُورٍ وَلِيغَيِّرَ حَرَمَ الْفَوَاحِشِ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا». ٢- ونقرأ في حديث آخر عن هذا الإمام أنه قال: «إِذَا لَمْ يَغِرِ الرَّجُلُ فَهُوَ مَنكُوسُ الْقَلْبِ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٢ وقال العلامة المجلسي قدس سره إن المراد بالقلب المنكوس

هنا هو التشبيه بالإناء المقلوب الذي لا يبقى فيه شيء من الطعام أو الماء، فالحديث الشريف يقرّر أن قلب مثل هؤلاء الأشخاص الفاقدين للغيرة خالٍ من الصفات الأخلاقية السامية وفارغ من المثل الرفيعة (١). وهذا التعبير يدلّ بوضوح إلى أن صفة الغيرة ترتبط برابطة وثيقة مع سائر الصفات الأخلاقية العليا للإنسان. ٣- ونقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «كَانَ إِبْرَاهِيمَ أَبِي غَيْرًا وَأَنَا أَعْيُرُ مِنْهُ وَأَرَعَمَ اللَّهُ أَنْفَ مَنْ لَا يَغَارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢). ٤- وجاء في حديث آخر عن هذا النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: «إِنِّي لَعَيُورٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْيُرُ مِنِّي وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْغَيُورَ». ٥- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «إِنَّ الْغَيْرَةَ مِنَ الْإِيمَانِ» لأن الإيمان يدعو الإنسان إلى حفظ الدين والبلد الإسلامي والسلوك في طريق التصدي للأخطار التي تواجه هذه المتعلقات المهمة للإنسان، فمن لم يتحرّك على مستوى الدفاع عنها ولم يتحرك عنصر الغيرة في أعماق ذاته فإنه بعيد عن الإيمان (٣). ٦- وورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «قَدَرُ الرَّجُلِ قَدَرُ هِمَّتِهِ ... وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدَرِ أَنْفَتِهِ وَعِفَّتِهِ عَلَى قَدَرِ غَيْرَتِهِ» (٤). ٧- ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أَتَى النَّبِيَّ بِسَارَى فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَخَلَا رَجُلًا مِنْ بَيْنِهِمْ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَطْلَقْتَ عَنِّي؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَخْبَرَنِي جِبْرِئِيلُ عَنِ اللَّهِ أَنَّ فِيكَ خَمْسَ خِصَالٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْغَيْرَةُ الشَّدِيدَةُ عَلَى حَرَمِكَ وَالسَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَصِدْقُ اللَّسَانِ وَالشَّجَاعَةُ». الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٣ فلما سمع الرجل أسلم وحسن اسلامه وقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى استشهد (١). ٨- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام ضمن توبيخه لأهل العراق الذين تخرج نساؤهم من منازلهم بدون اهتمام بالحجاب ويختلطن مع الرجال فقال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَا يَغَارُ» (٢).

### تعريف أقسام الغيرة:

كما أشرنا آنفاً أن الغيرة هي صفة أخلاقية تدفع الإنسان في طريق الدفاع المستميت عن الدين والمذهب والعرض والبلد، وأساساً فإن كل حالة من الدفاع الشديد عن القيم الإنسانية فهي تتضمن نوع من الغيرة، ورغم أن هذه المفردة تستعمل غالباً في دائرة الغيرة على العرض والناموس ولكن مفهومها واسع يستوعب مصاديق أكثر. وبالطبع فإن هذه الصفة الأخلاقية حالها حال الصفات الأخرى من حيث أنها قد يسلك بها الإنسان سبيل الإفراط والتفريط وبذلك تتبدل إلى خلق ذميم، وذلك في صورة ما إذا كان الدفاع المذكور يتخذ صبغة التعصب الذميمة والوسواس والدفاع غير المنطقي وغير العقلاني. فقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللَّهُ فَأَمَّا مَا يُحِبُّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرَّيَّةِ وَأَمَّا مَا يَكْرَهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ الرَّيَّةِ» (٣). يعني أن الإنسان يتهم زوجته مثلاً بعدم العفة على أساس من الظن والاحتمال وتعمل في صدره عناصر الوسواس والشك تجاه زوجته البريئة، فمثل هذه الحالة السلبية تكون خطرة على سلامة الإنسان والأسرة وتؤدي إلى تشجيع الأشخاص الأبرياء إلى الوقوع في وحل الخطيئة وتقودهم إلى مستنقع الرذيلة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٤ ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أحد كتبه إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام يقول: «وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالتَّوْبِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ» (١). وفي الحقيقة أن الإفراط في كل شيء مذموم وخاصة في أمثال هذه الموارد من السلوك الأخلاقي تجاه العرض والحساسية المفرطة تجاه سلوك الزوجات والأرحام من النساء والنظر إلى سلوكهن من موقع الريبة والشك والتهمه، فقد يكون هذا الأمر هو السبب في وقوعهن في وادي الرذيلة والفساد، وعلى أية حال إن هذه الموارد من الغيرة وسوء الظن تعتبر حراماً شرعاً ويجب اجتنابها والابتعاد عنها تماماً، وقد ورد في الأخبار المتعلقة بزمن الجاهلية أن أحد الأسباب المهمة لوأد البنات هو عنصر الغيرة المنحرف واللامنطقي لدى هؤلاء الجاهلين حيث كانوا يقولون: إن من الممكن أن تكبر هذه البنات وتتعرض للأسر من قبل أفراد القبيلة المعادية فتكون أعراضنا في معرض النهب والتلاعب بيد الأعداء، فالأفضل أن ندفنهن وهن صغار لحفظ العرض.

### آثار الغيرة في حركة الحياة:

إنَّ الغيرة إذا استعملت بصورة صحيحة ومعتدلة إيجابية فإنَّها بمثابة قوَّة دفاعية عظيمة تدفع الإنسان إلى التصدّي للأعداء والانتصار عليهم، لأنَّ مثل هذه القوَّة الباطنية عندما تتعرّض نفس الإنسان وأمواله وناموسه ودينه وإيمانه أو استقلال وطنه إلى الخطر المحقق فإنَّ هذه القوَّة تعبىء جميع الطاقات والقوى الذاتية والباطنية في الإنسان وتوحدها تحت قيادة عنصر الغيرة لتعين الشخص في عملية الدفاع الشريف، وأحياناً يعيش الإنسان الغيور تحت عنصر الغيرة بحيث تتضاعف قوته إلى قوَّة عشرة أشخاص وتدفع به إلى حد التضحية بنفسه والصمود البطولي بشجاعة وشهامة كبيرة، ولهذا السبب كانت الغيرة أحد العوامل المهمّة في طريق العزّة والافتخار والحياة الشريفة. أمّا الأشخاص الذين يعيشون الانحراف والتلوث فعندما يواجهون إنساناً غيوراً في تحرّشهم بأعراض الناس فإنَّهم يفقدون مقاومتهم بسرعة ويتراجعون أمامه في صورة من التخاذل والدلّة، وهذا هو أيضاً من بركات الغيرة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٥ الغيرة تسبب أيضاً في تقوية عناصر الشد للقيم الأخلاقية والمثل الرفيعة للمجتمع الإنساني وتجعله محفوظاً من التلوث والانحراف في منزلقات الخطيئة. إنَّ الغيرة تسبب أيضاً في حفظ أمن المجتمع وإزالة مظاهر الفساد والفحشاء، في حين أنَّ عدم الغيرة يهدم أمن المجتمع ويعمل على تحطيم المثل الإنسانية والقيم الأخلاقية في أفراد المجتمع وبالتالي ينزل مثل هذا المجتمع نحو الفساد والانحطاط الأخلاقي. ونقرأ في سيرة الأنبياء أنّه عندما رأى النبي لوط عليه السلام مظاهر الفساد والتلوث من قومه الأشقياء حتى أنّهم راودوه عن ضيفه (وهم ضيوفه من الملائكة الذين دخلوا عليه على شكل فتيان حسان الوجوه ولم يكن لوط عليه السلام عليهم بواقعهم) تملّكه الخوف والاستياء الشديد ممّا رأى من تعرّض قومه الأشرار إلى هؤلاء الضيوف عندما سمعوا بهم قد دخلوا في بيت لوط، وكلما نصّحهم لوط عليه السلام فإنَّ كلامه ذهب أدراج الرياح ولم يؤثر في هؤلاء الأشرار شيئاً حتى أنّه عرض عليهم الزواج من بناته (فيما إذا تابوا وآمنوا) ولكنَّهم رغم هذا الإيثار العظيم من لوط لم يرتدعوا عن غيهم واستمروا في طلبهم الدنيء وممارسة الضغط على لوط عليه السلام ليسلمهم الضيوف الكرماء، فقال لهم لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» (١). ولكن عندما رأى أنّ كلامه لا يؤثر شيئاً في نفوس هؤلاء الأشرار ولا يرتدعون عن غيهم ازداد حزناً وألماً ونصباً وعندما كشف هؤلاء الضيوف عن واقعهم وأنَّهم من الملائكة وطمأنوه بأن لا يخاف من هؤلاء الأشرار فإنَّ العذاب الإلهي نازل بحقهم وسيتعرّضون للهلاك عمّا قريب. ونختم هذا البحث بحديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إِنَّ الْمَرْأَ يَحْتَاجُ فِي مَنَزِلِهِ وَعِيَالِهِ إِلَى ثَلَاثِ خَلَالٍ يَتَكَلَّفُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي طَبَعِهِ ذَلِكَ: مَعَاشِرَةٌ جَمِيلَةٌ، وَسَبْعَةٌ بِتَقْدِيرٍ وَغَيْرُهُ بِتَحِصَّةٍ» (٢). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٧

## الألفة والانفرادية

### تنويه:

لقد بحث علماء الأخلاق هذا الموضوع تحت عنوان المعاشرة والعزلة في كتبهم الأخلاقية، ونقرأ أحياناً في هذه الكتب اختلاف العلماء في أيهما الأفضل، المعاشرة مع الناس أو العزلة والانزواء؟ فقد يرى البعض أنّ العزلة أو الانزواء عن الناس أفضل من معاشرتهم والاختلاط بهم، وبعض آخر رجّح المعاشرة والاختلاط على العزلة، وذهب ثالث إلى أنّ ذلك يختلف باختلاف الظروف والشرائط، فتارة يكون الأول أفضل من الثاني واخرى بالعكس. ولكن المحققين (وخاصة في عصرنا الحاضر) وبالاقتباس من الكتاب والسنة ودليل العقل يرون أنّ الأصل في حياة الإنسان هو أن يعيش حالة الألفة، وذهبوا إلى أنّ الإنسان موجود اجتماعي ولا يتمكن من الصعود بمستواه الأخلاقي وتكامله المعنوي والنضج العقلي إلّا في ظل المجتمع والاختلاط مع الآخرين، وبذلك يتسنى له التسريع في حلّ مشاكله والتخفيف من آلامه ووصوله إلى السعادة المنشودة. هؤلاء يرون أنّ الانزواء أو العزلة لا تتسجم مع فطرة الإنسان السليمة ولا تتوافق مع روح التعليمات الإسلامية والقرآنية، بل إنّ المفاهيم الإسلامية تؤكد على الروح الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٣٩٨



الاجتماعية لدى الإنسان وتجعل من المعاشرة البناء بشكل عبادة جماعية من قبيل صلاة الجمعة والجماعة والمسائل المتعلقة بحقوق الإنسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإجراء الحدود وإحقاق الحقوق والتعاون على البر والتقوى وأمثال ذلك. إن الإسلام يرى أن «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» كما ورد في الحديث الشريف، وأن أي ابتعاد عن صفوف المسلمين يؤدي إلى نفوذ الشيطان واستيلائه على الإنسان كما ورد في نهج البلاغة: «وَالشَّادُّ مِنَ الْعَنَمِ لِلذَّبِّ» (١). وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستعرض الآيات الشريفة في هذا الموضوع: ١- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (٢). ٢- «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (٣). ٣- «هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَبْضِرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ \* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٤). ٤- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُيُوتًا مَرصُوصًا» (٥). ٥- «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» (٦).

### تفسير واستنتاج:

إن كل واحدة من الآيات الشريفة المذكورة آنفاً تشير إلى جهة خاصة من مسألة أهمية المعاشرة والاجتماع وأهميته الوحدة والائتلاف بين أفراد المجتمع، ففي «الآية الأولى» نقرأ دعوة إلى الاعتصام بحبل الله والتمسك به وعدم سلوك طريق الفرقة والاختلاف وتقول: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» أما ما هو المراد من حبل الله الوارد في الآية الشريفة؟ فإن المفسرين اختلفوا في ذلك، وقد ورد في بعض الروايات الشريفة أن المراد منه هو القرآن الكريم الذي ينبغي أن يتخذ المسلمون محوراً لوحدهم وتمامهم، وفي بعض الروايات الأخرى ذكرت أن المراد من حبل الله هو أهل البيت عليهم السلام، ومعلوم أن كل هذه المعاني تشترك في حقيقة واحدة، وهي أن حبل الله تعالى هو ما يربط الإنسان بالله تعالى سواءً عن طريق القرآن الكريم أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام. وكما نرى أن هذه الآية الشريفة تؤكد على مسألة المودة وشائج المحبة بين المسلمين وترك العداوة والفرقة، ومن المعلوم أن ذلك لا يتوافق مع عزلة الإنسان وإنزوائه عن المجتمع ولا مفهوم حينئذٍ للإعتصام بحبل الله تعالى، واللطف أن القرآن الكريم في الآية أعلاه يقرر أن العداوة هي من سنن الجاهلية وأن المحبة والصدقة هي من خصائص الإسلام ويقول في ذيل الآية الشريفة مؤكداً على هذا المعنى: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا». والجدير بالذكر أن الإسلام لا يرى العلاقة بين المسلمين هي علاقة الصدقة فحسب، بل علاقة الأخوة التي تعمق في الناس الرابطة العاطفية بين الأخوان القائمة على أساس المساواة والمحبة المتبادلة. وبديهي أن هذه المحبة الأخوية لا يمكن أن تتجلى وتتفاعل في حال ابتعاد الأخوة عن بعضهم البعض، فلا بد لتفعيل هذه العاطفة الإنسانية من الحياة المشتركة والمعاشرة فيما بين الأخوة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٠ والملاحظة المهمة الأخرى هي أن الامور المادية والدينية لا يمكن أن تكون محور وحدة المجتمع وأداة قوتية لتعميق الروابط الاجتماعية بين الأفراد، لأن الامور المادية عادة تكون سبباً للتنازع والاختلاف والفرقة، فحاجات الناس الدنيوية والمادية غير محدودة، وأما الامور المادية في الطبيعة فمحدودة، ومن هنا ينشأ التضاد والاختلاف، ولكن حبل الله تعالى والارتباط مع الله تعالى هو أمر معنوي وروحاني ويمكنه أن يحقق أفضل رابطة عاطفية بين أفراد البشر من كل قوم ولون وقبيلة ولغة. وتأتي «الآية الثانية» لتتحدث لنا عن المصير المؤلم للأشخاص الذين يعيشون بعيداً عن جماعة المسلمين ويسلكون سبيلاً مستقلاً ومنفصلاً عن المجتمع الإسلامي وتقول: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا». هذه الآية تدل بوضوح على أن الله تعالى يأمر المسلمين في المجتمع الإسلامي بضرورة الالتزام الاجتماعي وعدم الانفصال والفرقة وأن يسير المؤمنون سوية في خط الإيمان والانفتاح على الله تعالى، ومع الأخذ

بنظر الاعتبار جملة «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ» وكذلك عبارة «سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» يتضح جيداً أن المراد هو التنسيق بين أفراد المجتمع الإنساني من خلال إتباع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والسير إثر خطواته الحكيمه في خط الإيمان والطاعة لله تعالى حيث تكون التقوى والإيمان محوراً للسلوك الاجتماعي، وإلا فلا معنى لأن تعنى الآية مفهوم المعاشرة الاجتماعية بدون هذا المحور المعنوي. ولا شك أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع الجماعة دائماً، فكان يصلّي معهم خمسة مرّات في اليوم ويصلّي صلاة الجمعة في اجتماع أعظم، وكذلك في اجتماع المسلمين العام لمراسم الحج، فكل هذه البرامج العبادية تنضوي تحت مدلول الآية الشريفة، ومعلوم أن الأشخاص الذين يعيشون الإنزواء والعزلة وينفصلون عن جماعة المؤمنين سيكونون مشمولين للتهديد والوعيد وبالعذاب الأليم المذكور في الآية الشريفة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠١ بعض علماء أهل السنة استدّلوا بهذه الآية الشريفة على حجّية الاجماع، ونحن لا نرى مانعاً من الاستدلال بهذه الآية على حجّية إجماع المسلمين، ولكن هذا الإجماع يجب أن يتضمّن حضور الإمام المعصوم أيضاً، وفي الاصطلاح الاصولي يعبر عنه بالاجماع الدخولي أو الإجماع الكشفي الذي يكون هو الحجّة في عملية الاستدلال. «الآية الثالثة» تستعرض أحد المواهب الإلهية الكبيرة على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن الله تعالى هو الذي جمع المؤمنين حول النبي وألف بين قلوبهم بحيث لا يتسنى ذلك أبداً من خلال الوسائل الطبيعية والأدوات العادية فتقول الآية: «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ \* وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْرَ الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». لو أن الإسلام يرى في العزلة والإنزواء عن المجتمع قيمة أخلاقية، فإنه لم يكن يعدّ التأليف بين قلوب المسلمين بعنوان معجزة كبيرة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وهذا التعبير في الآية الشريفة لا يدلّ على مطلوية المعاشرة والاجتماع بين الأفراد فحسب، بل أن تكون الرابطة شديدة وإلى درجة كبيرة من الوثاقه في العلاقات الاجتماعية. وبديهي أنه لا يصحّ أن تقرر الآية هذا المفهوم في زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقط، بل إن هذا المفهوم الإسلامي يستوعب جميع الأزمنة والأمكنه وعلى كلّ طائفة مؤمنه أن تجتمع حول محور واحد وترتبط فيما بينها برابطة وثيقة من الألفة والمحبة كما كان حال المؤمنين في عصر النبوة والبعثه. والملفت للنظر أن الله تعالى نسب تأليف القلوب إليه مباشرة كما ورد هذا المضمون في الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، رغم أننا نعلم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي قام بهذا العمل الإنساني والاجتماعي، وذلك لتشير الآية إلى أن هذا العمل إنما هو معجزة إلهية جعلها الله تعالى في يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأظهرها على يده، وإلا فمن المحال أن تزول وتتلاشى كل تلك الأحقاد والعداوات القديمة والجديدة بين العرب المتعصّبين والجاهلين مهما بلغت الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٢ قدره المخلوق ومهما اوتى من أموال وثروات طائلة كما تقول الآية بأنك لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن تسنى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ذلك من خلال تعليمات الإسلام وأخلاقه الإلهية والإمدادات الربانية واستطاع بذلك من تحقيق أعظم معجزة في عالم العلاقات الاجتماعية، وحقّق الألفة وهي في اللغة بمعنى الاجتماع المقارن للإنسجام والأنس والإلتيام وربط تلك القلوب المتنافرة والمتباغضة مع بعضها وجعلها كالبنيان المرصوص. وتأتى «الآية الرابعة» لتحدّث عن وحدة صفوف المسلمين والتي لا تتسنى ولا تتحقّق اطلاقاً مع العزلة والإنزواء: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ فِي سَبِيلِهِ صِغَةً كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ». (بنيان) بمعنى كل بناء بينه الإنسان لسكنه أو لمآرب اخرى، كأقامة السدود مثلاً، أمّا (مرصوص) فهو من مادة (رصاص) ونظراً إلى أن البشر في ذلك الزمان كان يستخدم الرصاص في عملية البناء ليزيد في قوته وإستحكامه وليملأ الفراغات والثقوب والثغرات الموجودة بين أحجار البناء، فلذلك أطلق على كل بناء محكم أنه (مرصوص) إشارة إلى قوته وإستحكامه. وصحيح أن الآية الشريفة ناظرة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى والتحرّك العسكري في ميادين القتال مع الأعداء، ولكن من الواضح أن هذا المعنى يجري في سائر التفاعلات الاجتماعية على مستوى السياسة والثقافة والاقتصاد وأمثال ذلك، ففي هذه الموارد يلزم أن يكون الناس في المجتمع الواحد منسجمين ومّتحدين إلى درجة أنهم كالبنيان المرصوص، وهذا المعنى يتقاطع حتماً مع العزلة والإنزواء فلا يتسنى للمجتمع الدفاع القوي أمام الأعداء ولا النهضة الحضارية ولا حلّ المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية من دون الألفة والمعاشرة والاجتماع بين الأفراد. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٣

وتأتى «الآية الخامسة» والأخيرة من الآيات محل البحث لتشير إلى مسألة الرهبانية وترك الدنيا والعزلة عن الناس للعبادة والتبئ إلى الله تعالى كما كان شأن جماعة من النصارى، فتأتى هذه الآية لتقول إن هذا السلوك العبادى فى الظاهر إنما هو بدعة من قبل هؤلاء الرهبان ولم يؤمر به فى الشريعة الإلهية وتقول: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ». ونعلم أن جماعة من المسيحيين فى هذا العصر والزمان سلكوا طريق الانقطاع عن الناس والرهبنة والعيش فى الأديرة وعدم الزواج، كل ذلك لغرض العبادة فى هذه الأماكن التى بنيت لهذا الغرض. وهذا الموضوع لا يختص بهذا الزمان بل هو من البدع التى ظهرت فى القرن الثالث الميلادى فى حكومة (ديس يونس) الأمبراطور الرومى الذى شدد النكير على النصارى واتباع السيد المسيح وأخذ بتعذيبهم والتنكيل بهم، فلم يجد هؤلاء بدءاً للخلاص من شر هذا الطاغية من اللجوء إلى الأديرة والهرب باتجاه الجبال والمغارات والكهوف وبذلك زرعوا بذرة الرهبانية فى الديانة المسيحية. وعلى هذا الأساس فإن مثل هذه الرهبانية تتعارض تماماً مع روح تعليمات الأنبياء الإلهيين ولم تكن موجودة فى العصور الأولى للمسيحية، بل كانت بدعة ظهرت على يد الأشخاص الجهلاء والمنحرفين واستمرت إلى يومنا هذا، حيث نجد أن جماعة من المسيحيين يتركون حياتهم الاجتماعية وتأسيس الأسرة والزواج وسائر النشاطات الاجتماعية ويلجئون إلى الأديرة لممارسة الطقوس العبادية ويقوم الأشخاص من أهل الخير بالانفاق عليهم لتأمين نفقاتهم. أما ما يجرى فى هذه الأديرة من الانحرافات والممارسات اللاأخلاقية والبعيدة عن اصول الفطرة الإنسانية فلها حديث مفصّل ومؤلم حتى أن بعض الكتّاب المسيحيين أشار إلى بعض هذه الأديرة وأطلق عليها اسم دار الفحشاء، وأساساً فإن مثل هذه الحياة غير الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٤ الطبيعية للإنسان تؤثر سلباً على روحه وفكره وتسبب له الكثير من الاهتزاز والارتباك فى قواه النفسية والعقلية. وجاء الإسلام وأبطل كل هذه الممارسات العبادية فى الظاهر ودعا الناس إلى ممارسة الحياة الاجتماعية المتزامنة مع التقوى والإيمان. والجدير بالذكر أن الرهبانية فى الأصل اللغوى من مادة (رهبه) على وزن ضربة، بمعنى الخوف والخشية، والمراد منها هنا الخوف من الله تعالى، وكما يقول الراغب فى مفرداته أنها الخوف المقترن بالخشية والاضطراب والقلق، ثم استعملت هذه المفردة فى خصوص سلوك جماعة من المسيحيين أو من غيرهم الذين رجحوا الانزواء والعزلة عن الناس طلباً للعبادة والتبئ إلى الله تعالى، ومن جملة البدع السيئة للمسيحيين فى دائرة الرهبانية هو تحريم الزواج بين النساء والرجال الذين يسلكون فى خط الرهبنة وكذلك ترك جميع المسؤوليات الاجتماعية وأشكال العلاقات بين أفراد المجتمع واختيار الصوامع والأديرة البعيدة لهذا الغرض. ويستفاد من الآية أعلاه أن الرهبانية على قسمين: إيجابية وسلبية، ومن المعلوم أن الرهبانية السلبية هو ما ذكرنا آنفاً، وأما الرهبانية الإيجابية فتتضمن معنى الزهد وعدم التكالب على الدنيا وترك التجملات المادية فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية لكى لا يقع الإنسان فى أسر هذه الزخارف الدنيوية من المال والمقام ولكن ذلك يجتمع مع الحياة الاجتماعية للفرد وإقامة علاقات بناءة فى مسير المجالات المعنوية والمادية، وبعبارة أخرى: إن الآية الشريفة تقرّر وجود رهبانية فى الديانة المسيحية مشروعة من الله تعالى وتتضمن ما كان عليه السيد المسيح عليه السلام من الزهد والترك للدنيا، ولكن المسيحيين فى القرون التالية ابتدعوا نوعاً آخر من الرهبانية لم تكن فى الديانة المسيحية أصلاً، وهى عبارة عن الإنزواء والعزلة عن المجتمع والحياة الاجتماعية وترك الزواج والانقطاع إلى العبادة فى الكهوف والأديرة. ويمكن أن يقال أن السيد المسيح لم يتزوج طيلة حياته أيضاً، ولكن لا ينبغى أن ننسى الاخلاق فى القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٥ أن عمر السيد المسيح كان قصيراً فلم يبلغ من العمر سوى ثلاثين سنة تقريباً، وكان فى هذه المدّة مشغولاً بتبليغ الرسالة الإلهية والترحال من منطقة إلى منطقة أخرى لهذا الغرض فلم يسعه المجال للزواج. وعلى أية حال فإن الإسلام يرى الرهبانية بدعة ويذم النصارى على هذا السلوك السلبى، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف: «لا رهبانية فى الإسلام» فى مصادر موثوقة كثيرة. أما الحديث عن أبعاد الرهبانية وتاريخها ونتائجها فيطول بنا ويمكن لمن أراد التفصيل فى هذا البحث مراجعة التفسير الأمثل ذيل الآية الشريفة، وسوف نشير أيضاً فى البحوث القادمة إلى هذا الموضوع أيضاً.

إذا نظرنا نظرة إجمالية إلى التعليمات الإسلامية والمفاهيم الدينية في هذا الباب ومن زوايا مختلفه نجد أن الإسلام يؤيد تماماً المعاشرة والإجتماع مع الناس وحتى أن العبادات الإسلامية التي يهدف منها توثيق الرابطة بين الإنسان وربّه قد جعلها الإسلام بشكل جماعي، فالإذان والإقامة تدعو الناس إلى الصلاة والفلاح في عبارة «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الفَّلَاحِ» والضمائر في سورة الحمد تقرأ بشكل ضمير الجمع والحديث مع الغير، وعند الانتهاء من الصلاة نقرأ سلاماً عاماً لجميع المؤمنين والمصلين. صلاة الجماعة وكذلك صلاة الجمعة وأعظم منهما مناسك الحج هي حقيقة عبادات ذات أبعاد اجتماعية تماماً. ونقرأ في الروايات الإسلامية تأكيدات كثيرة على لزوم الجماعة والاجتماع وعدم الفرقة عن المؤمنين، ومن ذلك: ١- ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ» (١). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٦ ٢- وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ فَإِذَا إِشْتَدَّ (شَدُّ) الشَّاذِّ مِنْهُمْ إِخْتَطَفَهُ الشَّيْطَانُ كَمَا يَخْتَطِفُ الذُّبُّ الشَّاةَ الشَّاذَّةَ مِنَ النَّعَمِ» (٢) ٤- ونفس هذا المضمون ورد بتعبير آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث قال: «وَالزُّمُومَةُ السُّوَادُ الْأَعْظَمُ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّعَمِ لِلذُّبِّ، أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَاقْتُلُوهُ وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ» (٣). ٥- وقد ورد هذا المضمون أيضاً في رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله يعبر عند مدى أهمية هذا المعنى حيث قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ النَّعَمِ يَأْخُذُ الْفَاصِيئَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَامَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَسَاجِدِ» (٤). ٦- وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ (أَيَّامٍ)، وَالسَّابِقُ بِالصُّلْحِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» (٥). ٧- وهذا المضمون ورد أيضاً بتعبير آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِوَأْتِئُهُ» (٦). وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أنه: «أَيُّمَا مُسْلِمِينَ تَهَاجَرَا ثَلَاثًا لَا يَصْطَلِحَانِ إِلَّا مَا تَا خَارِجِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ ...» (٧). صحيح أن هذه الأحاديث الشريفة وردت في مجال المخاصمة والعداوة بين المسلمين، ولكنها على أية حال تدل على أن الإسلام يؤيد دائماً الحياة الاجتماعية وتعميق الالفه الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٧ والمحبة بين قلوب المسلمين، ومن الواضح أن حالة العزلة والانزواء لا تنسجم مع روح هذه التعاليم الدينية. ٨- وورد في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال عندما أراد أحد الأشخاص التوجه إلى الجبل والاعتزال لغرض العبادة: «لَصَبْرٌ أَحَدِكُمْ سَاعَةً عَلَى مَا يَكْرَهُ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِهِ خَالِيًا أَرْبَعِينَ سَنَةً» (١). ٩- ويستفاد من الروايات المتعددة أن الإسلام نهى عن الرهبانية التي تتضمن الانزواء والعزلة ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله أنه قال: «لَيْسَ فِي أُمَّتِي رَهْبَانِيَّةٌ وَلَا سِيَّيَا حِيَّةٌ» (٢). والمراد من الرهبانية في هذا الحديث الشريف هو اختيار مكان منعزل للعبادة، وأما السياحة فهي الانزواء السيار، لأن بعض الأشخاص كانوا في قديم الأزمان يتركون بيوتهم ومحل معيشتهم ويسبحون في أرض الله الواسعة ويتركون الدنيا ويعتبرون ذلك نوعاً من العبادة، وعلى هذا الأساس فإن الإسلام لا يؤيد العزلة الثابتة ولا العزلة السيار. ١٠- وقد ورد في الحديث العميق المعنى عن أنس قال: توفي ابن لعثمان بن مظعون رضى الله عنه فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فآله فقال له: «يا عُثْمَانُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْنَا الرَّهْبَانِيَّةَ، إِنَّمَا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». ثم إنه صلى الله عليه وآله أخذ يواسيه على فقد ابنه وقال: «يا عُثْمَانُ بِنِ مَظْعُونِ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، وَلِلنَّارِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ أَمَّا يَسْرُوكَ أَنْ تَأْتِيَ بَاباً مِنْهَا إِلَّا وَجَدْتَ ابْنَكَ إِلَى جَنبِكَ آخِذًا بِحِجْرَتِكَ يَشْفَعُ لَكَ إِلَى رَبِّكَ؟ قَالَ: بَلَى» (٣). ١١- ومثل هذا المعنى ورد أيضاً في نهج البلاغة بالنسبة إلى أحد أصحاب الإمام على عليه السلام عندما دخل الإمام البصرة وذهب لزيارة (علاء بن زياد الحارثي) فعندما الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤٠٨ رأى بيته الواسع والمجلل تعجب كثيراً وقال: «مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، أَمَا أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ أَحْوَجُ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تُقْرَى فِيهَا الضَّيْفُ وَتَصَلُّ فِيهَا الرَّحْمُ وَتَطَّلِعُ مِنْهَا الْحَقُوقَ مَطَالِعَهَا فَإِذَا أَنْتَ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ،

فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُوا إِلَيْكَ أَحْيَى عَاصِمَ بْنِ زِيَادٍ، قَالَ: وَمَا لَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ الْعِبَادَةُ وَتَخَلَّى الدُّنْيَا، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «يَا عَدِيَّ نَفْسِي لَقَدْ إِسْتَهَامَ بِكَ الْحَبِثُ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، أَتَرَى أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيْبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا؟ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي حُشُونَةٍ مَلْبَسِكَ وَجَشُونَةٍ مَا كَلِكُ. قَالَ: وَيَحْكُكُ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى أُنْمَةِ الْعَدْلِ أَنْ يَقْدِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ» (١). ١٢- ونقرأ في رواية أخرى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حديثه لعبدالله بن مسعود في مسألة ذم الرهبانية والعزلة عن المجتمع وأنه كان في بني اسرائيل نوع من الرهبانية في ظروف خاصة واستثنائية لم تكن من صميم الديانة المسيحية، قال ابن مسعود: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله في حمار. فقال: يا بن ام عبد هل تدري من أين احدثت بنو اسرائيل الرهبانية. فقلت: الله ورسوله أعلم. فقال صلى الله عليه وآله: «ظَهَرَتْ عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةُ بَعْدَ عِيسَى يَعْمَلُونَ بِمَعَاصِي اللَّهِ فَعَزِبَ أَهْلَ الْإِيمَانِ فَفَاتَلَوْهُمْ فَهَزَمَ أَهْلَ الْإِيمَانِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ فَقَالُوا إِنَّ ظَهْرَنَا لِهَؤُلَاءِ أَفْنُونًا وَلَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ أَحَدٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، فَتَعَالَوْا تَنْفَرُوا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعُونُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَتَفَرَّقُوا فِي غَيْرِ الْجِبَالِ وَأَحْدَثُوا رَهَابِيَّةً». وعلى أية حال لم تكن الرهبانية من صميم الديانة المسيحية، بل كانت سلوكاً خاصاً ظهر في ظروف خاصة على بعض أنصار السيد المسيح عليه السلام حفاظاً على أنفسهم.

### الأحاديث المتعارضة:

وفي مقابل ما ذكرنا من الأحاديث الشريفة هنا روايات وردت في المصادر الحديثية تشير إلى أن الإسلام يؤيد حالة الانزواء والعزلة وتقع على الضد مما ذكرناه من الأحاديث السابقة، ومن ذلك: ١- ما ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: «الْعَزَلَةُ عِبَادَةٌ» (١). ٢- ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ إِنْفَرَدَ عَنِ النَّاسِ أَنْسَ بِإِلَلِهِ سُبْحَانَهُ» (٢). ٣- ما ورد أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فِي اعْتِرَالِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا جَمَاعُ الصَّلَاحِ» (٣). ٤- وعن الإمام عليه السلام نفسه أيضاً قال: «فِي الْإِنْفِرَادِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ كُنُوزُ الْأَرْبَاحِ» (٤). ٥- ونقرأ في حديث عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال لهشام: «الصَّبْرُ عَلَى الْوَحْدَةِ عَلَامَةٌ عَلَى قُوَّةِ الْعَقْلِ فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ إِعْتَرَلَ عَنِ الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا وَرَغِبَ فِي مَا عِنْدَ اللَّهِ» (٥). وهذه الأحاديث تدل على أن الانزواء والابتعاد عن الناس من علامات العقل والمعرفة وسبب لحضور القلب للعبادة والتوصل إلى كثير من المراتب المعنوية والكمالات الأخلاقية. ٦- وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنْ قَمَدَرْتَ أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ فَافْعَلْ، فَإِنَّ عَلَيْكَ فِي خُرُوجِكَ أَلَّا تَغْتَابَ وَلَا تَكْذِبَ وَلَا تَحْسِدَ وَلَا تُرَائِي وَلَا تَتَصَيَّنَّ وَلَا تُدْهِنَ» (٦). ٧- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سَيَلَمَةُ الْإِنْسَانِ فِي إِعْتِرَالِ النَّاسِ» (٧). الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٠-٨ نختم هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام- وإن كانت الأحاديث في هذا الباب كثيرة- قال: «مَنْ إِعْتَرَلَ النَّاسَ سَيَلَمَ مِنْ شَرِّهِمْ» (٨). وقد يستدل أتباع العزلة والانزواء من المتصوف والمتراضين ومؤيديهم ببعض الآيات القرآنية لتبرير مسلكهم الانعزالي، ومن ذلك ما ورد في الآية ١٦ من سورة الكهف حيث تقول: «وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْيَدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا». وكذلك في ما ورد في سورة مريم عليها السلام الآية ٤٨ و ٤٩ من حديث ابراهيم عليه السلام: «وَأَعِزَّتْ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» فَلَمَّا اعْتَرَلْتُمْ وَمَا يُغْيَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا». فكلتا هاتين الآيتين تقرران أن العزلة عن الناس والابتعاد عن المجتمع يتسبب في القرب من الله تعالى ونيل المواهب الإلهية ونزول البركات والرحمة من الله تعالى على هذا الإنسان، وهذا يشير إلى أن العزلة ليست أمراً مذموماً وحسب، بل مطلوبة أيضاً في دائرة المفاهيم القرآنية.

### طريق الجمع بين الآيات والروايات:

ولكن بالنظر الدقيق إلى متون الآيات والروايات الشريفة يتبين جيداً أن مسألة العزلة والانزواء عن الناس تكون بصورة إستثنائية وفي

شرائط اجتماعية خاصة، ومن المعلوم بالنسبة إلى أصحاب الكهف أنهم كانوا يعيشون في أجواء اجتماعية كافرة وفاسدة وكانوا يعيشون الخوف من الحكومة الغاشمة في ذلك الزمان، فلم يكن لديهم طريق سوى الهروب والابتعاد عن ديارهم ومدنهم واللجوء إلى الكهف في الجبال البعيدة. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١١ وبالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام أيضاً نجد هذه الحالة الاستثنائية، فقد رأينا أن إبراهيم عليه السلام سعى بجديّة في خط التصدي لِقوى الانحراف والباطل وتبليغ الرسالة الإلهية بين الوثنيين، ولكن عندما رأى عدم التأثير وعاش حالة الخطر على نفسه فعند ذلك أمر بالهجرة وإعتزال هؤلاء الناس. ومن البديهي أن الإنسان في مثل هذه الظروف الحساسة ليس أمامه سوى الهجرة والاعتزال، ولكن هذا المعنى لا يكون أصلاً أساسياً في التعاليم الدينية بل هو الاستثناء يتعلّق بظروف خاصة. ويمكننا الاستشهاد على هذا الجمع بين الروايات بالقرائن الكثيرة، فعندما يختار الإمام الصادق عليه السلام العزلة عن الناس يذكر الدليل على ذلك وأنّ فساد الزمان وتغيّر الاخوان وعدم إمكان التعاون مع الناس هو السبب في اختيار هذا السلوك الاستثنائي. وقرأنا في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين أن سلامة الدين تكمن في العزلة، فذلك يتعلّق بما إذا كانت المعاشرة مع الناس تهدد إيمان الفرد وتعرض دينه وعلاقته بالله تعالى إلى الاهتزاز والإرتباك والخطر. وأحياناً يعيش بعض الأشخاص ظروفاً خاصة بهم حيث نجدهم يعيشون ضعف الإيمان أمام مظاهر الفساد، فلذلك قد يوحى هؤلاء الأشخاص بأن يعتزلوا المجتمع خوفاً عليهم من الابتلاء بمظاهر الفساد أيضاً كما هو المريض الذي يوصيه الطبيب بعدم الاختلاط مع الناس أو يوصى الطبيب الأفراد المسنين بعدم الخروج إلى الشارع خوفاً من التلوث والتسمم، ومعلوم أن مثل هذه التوصيات لا تشكل قاعدة عامّة وشاملة لجميع الحالات والأفراد بل تختص بحالات استثنائية للمرضى والمسنين والذين يعيشون الابتلاء بضعف القلب وخلل الجهاز التنفسي. وعليه فلا يمكن تعميم هذه الحالات الاستثنائية إلى كل زمان ومكان بحيث يستكشف منها تعليمات كليّة في دائرة المفاهيم الإسلامية، وعندما نرى أن الإمام الصادق يوصي أحد أصحابه باعتزال الناس وأن لا يخرج من البيت حذراً من الوقوع في الغيبة والكذب الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٢ والحسد والرياء والمداهنة وأمثال ذلك، فهذا يدلّ على أن الظروف الاجتماعية في ذلك الوقت كانت على غير ما يرام، أو أنّ هذا الشخص يعيش ضعف الإيمان والتأثر بالنوازع النفسية والذاتية. ومن مجموع ما تقدّم آنفاً يمكننا الخروج بالنتيجة التالية: إنّ الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي يأنس بالآخرين ولكن بالرغم من ذلك فإنه يحتاج في كل يوم إلى ساعة أو عدّة ساعات للخلوّ برّبّه والانس بمناجاته وخاصة في الساعات من الليل ليكرّس هذا الوقت للعبادة والمناجاة والانفتاح على الله تعالى كما هو حال السالكين إلى الله والعرفاء الإسلاميين الذين يحرصون على الخلوّ بالله تعالى والإرتباط معه من موقع الانس والعشق والتوكل بحيث لا يرون غيره ولا يأنسون بغيره. وأحياناً يتخذ بعض الأشخاص سلوك الابتعاد عن الناس من موقع الاعتراض على فساد الحال، ويكون ذلك أحد الطرق المشروعة للنهي عن المنكر والتصدي للمفاسد الاجتماعية حيث يتسبب هذا السلوك السلبي تجاه الناس أن يخلق فيهم صدمة توقظهم من غفلتهم كما قد يشاهد مثل هذه السلوكيات من بعض العلماء الذين تركوا مجتمعهم وهجروا الناس اعتراضاً على بعض ما رأوه من انحرافات في سلوك الناس، ولم تمض فترة حتى أحسّ الناس بحالهم والنقص الذي خلفه رحيل هذا العالم فانتبهوا من سببتهم وتوجّهوا إلى ذلك العالم وطلبوا منه الرجوع إليهم شريطة أن يصلحوا أعمالهم ويسلكوا جادة الصواب، كل هذه الاستثناءات من القاعدة الأساسية تكاد تكون مقبولة ومعقولة في مقابل الأصل العام وهو ضرورة الاجتماع والمعاشرة مع الناس.

### أسباب ونتائج الاجتماع والانزواء:

إنّ الدافع الأصلي في سلوك الإنسان في حركة الحياة من موقع الاجتماع والمعاشرة مع الآخرين ينبع من طبع الإنسان، ولذلك قيل أنّ (الإنسان مدني بالطبع) كما يقول علماء الاجتماع، وعليه فإنّ العزلة لا تنسجم مع روح الإنسان المنفتحة على الآخرين، وكما يقول الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٣ علماء الاجتماع في مطالعاتهم وتجاربهم عن الأشخاص التاركين للعالم والمجتمع أنّ حالة العزلة تخلف آثاراً سلبية على النفس البشرية وتؤدي بالإنسان إلى أن يعيش اليأس والكآبة المزمنة والتوهّمات الضبابية وقد يورثه هذا الحال

الكثير من الاختلالات العقلية أيضاً. ولهذا السبب فإن أحد أشد أنواع التعذيب للإنسان هو السجن الانفرادي الذي لا ينبغي استمراره مدّة طويلة بأيّة صورة، لأن ذلك يؤدّي به حتماً إلى حالة نفسية من الإرتباك والمرض النفسي إلّا أن يكون له روح عرفانية قويّة فيأنس بالله تعالى وينقطع عن كل شيء إلّا بالعلاقة مع ربّه وخالقه. وطبعاً فإن حياة الإنسان الاجتماعية لا تنبع من طبيعة الإنسان فقط، بل إنّ عقل الإنسان أيضاً يقوده إلى الحياة المشتركة من حيث إنّ الإنسان لا يمكنه أن يسير في طريق التكامل والرقى والحضارة إلّا بالحياة الاجتماعية والتفاعل المشترك مع الآخرين والاستفادة من علومهم البشرية في طريق الرقى والتقدم والحضارة الكبيرة والوصول إلى قمة الترقى والتكامل. وبشكل عام يمكن القول أنّ الانفراد والعزلة والانزواء عن المجتمع بإمكانه أن يكون مصدراً للكثير من المفسد والانحرافات في دائرة السلوك البشري ومن ذلك: ١- إنّ الكثير من الانحرافات الفكرية والذوقية وسوء الأخلاق تنبع من الانزواء والعزلة، ولهذا فإن الأفراد الذين يعيشون العزلة غالباً نجدهم يعيشون سوء الأخلاق واللّجاجة والغرور (وطبعاً فإن هذا الأصل له استثناءات أيضاً كما هو حال الاصول الأخرى). ٢- ومن الآثار السلبية الأخرى للعزلة والانزواء هو حالة العجب التي تسيطر على الإنسان، لأنّ الإنسان يعيش حب الذات غالباً فيحبّ متعلقاته بشدّة، وكلما انخفضت علاقته مع الآخرين ولم يشاهد كما لا يتهم وفضائلهم وبالتالي عُدِم الميزان الذي يوزن به كمالاته الذاتية فإن ذلك يتسبب في أن يرى نفسه أعلى من الآخرين وأفضل منهم. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٤ ولهذا السبب نلاحظ كثيراً من الأشخاص الذين يعيشون العزلة والانفراد، أنّهم يدعون إدعاءات كبيرة عن أنفسهم أكبر من حجمهم الحقيقي وأحياناً تكون إدعاءاتهم عجيبة تحكى بوضوح أن هذا الإنسان غارق في الوهم والخيال ولا يعيش الواقع ومتطلباته. ولكن عندما يعيش الإنسان الاختلاط مع الناس ويعاشر أفراد المجتمع فسوف يرى غالباً أشخاصاً أفضل منه وأعلم وأطهر، وعلى الأقل يرى من هو مثله في الفضل والعلم، ولهذا فسوف يتبعد عن عالم الخيال ويتجنب الإدعاءات الجوفاء والشخصية الطوباوية التي لا تلامس الواقع. ٣- وأحد الآثار السلبية الأخرى للعزلة والانزواء سوء الظن بالناس حتى بأقرب المقربين منه، والعجيب أنّ سوء الظن يورث بدوره العزلة عن الناس كذلك، فكل منهما علّة ومعلول للآخر ويتسبب في تعميق سوء الظن في جميع الناس ويتصور أنّهم حقودين وحسودين وأنانيين، ولكن عندما يدخل إلى المجتمع ويعاشر الناس ويجد فيهم الأصدقاء الجيدين، فسوف يدرك سريعاً أنّ جميع تلك التصوّرات السلبية عن الناس لا حقيقة لها على مستوى الواقع والعمل. ٤- الغفلة عن عيوب الذات، فالإنسان وبسبب حبه لذاته لا يرى عيوبه عادة، بل يرى عيوبه أحياناً امتيازات وحسنات وعناصر قوة في شخصيته، الحقيقة أنّ الإنسان يجب أن يرى عيوبه في مرآة الآخرين ويجلس لينظر إلى حكمهم عليه ويستمع إلى انتقاداتهم وخاصة فيما لو كانوا من المجاهدين، بل قد يرى الإنسان عيوبه ونقاط ضعفه في مرآة الحاقدين والمعاندين بصورة أفضل، لأنهم يتحرّكون جاهدين للعثور على نقاط الضعف في شخصيّة الطرف الآخر وتفاصيل عيوبه الجزئية، وبهذا يحرم الشخص المنزوي من هذه المزايا التي تكشف عن وجهه الحقيقي. ٥- الابتعاد عن تجارب الآخرين والحرمان من الاستفادة من أفكارهم وعقولهم من شأنه تحديد فكر الإنسان وعقله واقتصار حركة الفكر على أمور جزئية وضيقة، ولكن إذا الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٥ تعامل مع الآخرين وانفتح على الناس ولا سيما أصحاب النظر وأرباب الفكر فسوف يفتح أمامه بحر من العلم والتجربة وسيجد ضالته في ذلك ويكون بإمكانه حل مشكلاته بمعونة هذه العلوم والتجارب. إنّ أحد أسرار النهضة الحضارية العلمية الحديثة التي يشهدها العالم المعاصر هو تشكيل المؤتمرات والمجلس والهيئات العلمية بحيث يجتمع فيها أصحاب الفكر والنظر من مختلف مناطق المعمورة في كل عام، وأحياناً في كل شهر، ويتباحثون في مشاكلهم العلمية ومنتوجاتهم الفكرية في هذه المؤتمرات ويتم بذلك انتقال العلوم وتبادل المعارف بين البشر، وأحياناً تقوم بهذه المهمّة بعض الإذاعات وقنوات التلفزيون أيضاً. وبكلمة واحدة: إنّ بركات وآثار الاجتماع الإيجابية ومعطياته الكثيرة أكثر من أن تحصى في هذا المختصر، وما ذكر آنفاً لا يمثل سوى جانباً منها، وهكذا بالنسبة لاضرار العزلة والانزواء والآثار السلبية المترتبة على الابتعاد عن الناس والمجتمع. إلهنا: لك الشكر والثناء أن وفقتنا لبيان اصول المسائل الأخلاقية في دائرة المفاهيم القرآنية- لأول مرّة- وبيان العوامل والأسباب والنتائج والآثار للسلوكيات الأخلاقية في بعدها الإيجابي والسلبي، وطريق تقوية الفضائل الأخلاقية

وكيفية التصدي للذائل الأخلاقية بمقدار وسعنا وافق تفكيرنا. ربنا: إننا نعلم أن بيان الفضائل والذائل الأخلاقية يحملنا مسؤولية ثقيلة في دائرة العمل بها وتجسيدها في سلوكياتنا وأنفسنا أولاً، فارتزنا القدرة والإرادة للعمل بهذه المسؤولية الخطيرة وأعنا في هذا الطريق الصعب. معبودنا: أنت تعلم أن النفس الامارة متمردة وعاصية ولولا نصرك ومعونتك في مجال تهذيب النفس فإننا عاجزون عن التصدي لها والوقوف أمام نوازعها وشهواتها، فنسألك بالخاصة من أوليائك وبالصالحين من عبادك أن لا تتركنا في مقابل عناصر الشر لوحدنا. الاخلاق في القرآن، ج ٣، ص: ٤١٦ ربنا: نحن نعيش في زمان رحلت عنه القيم الإنسانية والفضائل الأخلاقية وسادت في مجتمعاتنا البشرية سيل الرذائل واندرثت فيه سنن الأنبياء ومعالم سيرة الأولياء فامتألت الأرض بالظلم والجور، فانجز لنا ما وعدتنا من ظهور منقذ البشرية ومصلح العالم بقيه الله الأعظم الإمام المهدي عليه السلام واجعلنا من أنصاره وأعوانه والمجاهدين بين يديه في الصف الأول. (آمين يا رب العالمين) نهاية الجزء الثالث لكتاب: الأخلاق في القرآن آخر ذى القعدة ١٤٢١ هـ ق

### تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١). قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَارِ - فِي تَلْخِصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَّامَةِ فَيْضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عِيُونُ أَخْبَارِ الرِّضَا(ع)، الشَّيْخِ الصَّدُوقِ، الْبَابُ ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧). مؤسس مُجْتَمَعِ "الْقَائِمِيَّةِ" الثَّقَافِي بِأَصْبَهَانَ - إِيْرَانِ: الشَّهِيدُ آيَةُ اللهِ "الشَّمْسُ أَبَاذِي" - "رَحِمَهُ اللهُ" - كَانَ أَحَدًا مِنْ جِهَابِذَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي قَدْ اشْتَهَرَ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ) وَلا سِيَّمَا بِحَضْرَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَبِسَاحَةِ صَاحِبِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)؛ وَلهَذَا أُسِّسَ مَعَ نَظَرِهِ وَدِرَايَتِهِ، فِي سَنَةِ ١٣٤٠ الْهَجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٣٨٠ الْهَجْرِيَّةِ الْقَمْرِيَّةِ)، مَوْسَسَةٌ وَطَرِيقَةٌ لَمْ يَنْطَفِئْ مِصْبَاحُهَا، بَلْ تَتَّبَعُ بِأَقْوَى وَأَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ. مَرْكَزُ "الْقَائِمِيَّةِ" لِلتَّحْرِي الْحَاسُوبِيِّ - بِأَصْبَهَانَ، إِيْرَانِ - قَدْ ابْتَدَأَ أَنْشِطَتُهُ مِنْ سَنَةِ ١٣٨٥ الْهَجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٤٢٧ الْهَجْرِيَّةِ الْقَمْرِيَّةِ) تَحْتَ عَنَايَةِ سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ حَسَنِ الْإِمَامِيِّ - دَامَ عِزُّهُ - وَ مَعَ مَسَاعِدِهِ جَمَعَ مِنْ خَرِيجِي الْحُوزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَ طُلَّابِ الْجَوَامِعِ، بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، فِي مَجَالَاتٍ شَتَّى: دِيْنِيَّةٍ، ثَقَافِيَّةٍ وَ عِلْمِيَّةٍ... الْأَهْدَافُ: الدَّفَاعُ عَنِ سَاحَةِ الشَّيْعَةِ وَ تَبْسِيطُ ثَقَافَةِ الثَّقَلَيْنِ (كِتَابُ اللهِ وَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَ مَعَارِفُهُمَا، تَعزِيزُ دَوَافِعِ الشَّبَابِ وَ عُمُومِ النَّاسِ إِلَى التَّحْرِي الْأَدَقِّ لِلْمَسَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ، تَخْلِيفُ الْمَطَالِبِ النَّافِعَةِ - مَكَانَ الْبَلَاتِيْثِ الْمُبْتَدَلَةِ أَوْ الرَّدِيئَةِ - فِي الْمَحَامِلِ (= الْهَوَاتِفِ الْمَنْقُولَةِ) وَ الْحَوَاسِبِ (= الْأَجْهَازَةِ الْكَمْبِيُوتَرِيَّةِ)، تَمْهِيدُ أَرْضِيَّةٍ وَاسِعَةٍ جَامِعَةٍ ثَقَافِيَّةٍ عَلَى أُسَاسِ مَعَارِفِ الْقُرْآنِ وَ أَهْلِ الْبَيْتِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِبَاعِثِ نَشْرِ الْمَعَارِفِ، خَدْمَاتِ لِلْمُحَقِّقِينَ وَ الطُّلَّابِ، تَوْسِعَةُ ثَقَافَةِ الْقِرَاءَةِ وَ إِغْنَاءُ أَوْقَاتِ فِرَاغَةِ هَوَاةِ بَرَامِجِ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ، إِثَالَةُ الْمَنَابِعِ الْلازِمَةِ لِتَسْهِيلِ رَفْعِ الْإِبْهَامِ وَ الشُّبُهَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَامِعَةِ، وَ... - مِنْهَا الْعَدَالَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ: الَّتِي يُمَكِّنُ نَشْرَهَا وَ بَثُّهَا بِالْأَجْهَازَةِ الْحَدِيثَةِ مَتَصَاعِدَةً، عَلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ تَسْرِيْعَ إِبْرَازِ الْمَرَافِقِ وَ التَّسْهِيْلَاتِ - فِي آكْنَافِ الْبَلَدِ - وَ نَشْرِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَ الْإِيْرَانِيَّةِ - فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ - مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. - مِنْ الْأَنْشِطَةِ الْوَاسِعَةِ لِلْمَرْكَزِ: الْف) طَبْعُ وَ نَشْرُ عَشْرَاتِ عُنْوَانِ كِتَبٍ، كِتَابِيَّةٍ، نَشْرُهُ شَهْرِيَّةٌ، مَعَ إِقَامَةِ مَسَابِقَاتِ الْقِرَاءَةِ (ب) إِنتَاجُ مِئَاتِ أَجْهَازَةٍ تَحْقِيقِيَّةٍ وَ مَكْتَبِيَّةٍ، قَابِلَةٌ لِلتَّشْغِيلِ فِي الْحَاسُوبِ وَ الْمَحْمُولِ (ج) إِنتَاجُ الْمَعَارِضِ ثَلَاثِيَّةِ الْأَبْعَادِ، الْمَنْظَرِ الشَّامِلِ (= بَانُورَامَا)، الرُّسُومِ الْمَتَحَرِّكَةِ وَ... الْأَمَاكِنِ الدِّيْنِيَّةِ، السِّيَاحِيَّةِ وَ... (د) إِبْدَاعُ الْمَوْقِعِ الْإِنْتَرْنَتِيِّ "الْقَائِمِيَّةِ" WWW.GHAEMIYEH.COM وَ عِدَّةُ مَوَاقِعٍ أُخْرَى. إِنتَاجُ الْمُنْتَجَاتِ الْعَرْضِيَّةِ، الْخَطَابَاتِ وَ... لِلْعُرْضِ فِي الْقُنُوتِ الْقَمْرِيَّةِ (وَ الْإِطْلَاقِ وَ الدَّعْمِ الْعِلْمِيِّ لِنِظَامِ إِجَابَةِ الْأَسْئَلَةِ الشَّرْعِيَّةِ، الْإِخْلَاقِيَّةِ وَ الْاِعْتِقَادِيَّةِ (الْهَاتِف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤) (ز) تَرْسِيمُ النِّظَامِ التَّلْقَائِيِّ وَ الْيَدَوِيِّ لِلْبَلُوتُوْثِ، وَ بِيْبِ كَشْكِكِ، وَ الرُّسَائِلِ الْقَصِيْرَةِ SMS (ح) التَّعَاوُنُ الْفَخْرِيُّ مَعَ عَشْرَاتِ مَرَاكِزِ طَبِيعِيَّةٍ وَ اعْتِبَارِيَّةٍ، مِنْهَا بِيُوتِ الْآيَاتِ الْعِظَامِ، الْحُوزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، الْجَوَامِعِ، الْأَمَاكِنِ الدِّيْنِيَّةِ كَمَسْجِدِ جَمْكَرَانَ وَ... (ط) إِقَامَةُ الْمَوْتَمَرَاتِ، وَ تَنْفِيْذُ مَشْرُوعٍ "مَا قَبْلَ الْمَدْرَسَةِ" الْخَاصَّ بِالْأَطْفَالِ وَ الْأَحْدَاثِ الْمُشَارِكِينَ فِي الْجَلْسَةِ (ي) إِقَامَةُ دَوْرَاتِ تَعْلِيمِيَّةٍ عُمُومِيَّةٍ وَ دَوْرَاتِ تَرْبِيَّةٍ



المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنّة المكتب الرئيسي: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع "پنج رمضان" ومفتق وفائى/ "بناية" القائمية " تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (=١٤٢٧ الهجرية القمرية) رقم التسجيل: ٢٣٧٣ الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦ الموقع: [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com) البريد الالكترونى: [Info@ghaemiyeh.com](mailto:Info@ghaemiyeh.com) المتجر الانترنتى: [www.eslamshop.com](http://www.eslamshop.com) الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١) الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١) مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١) التجارئة و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩ امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١) ملاحظه هامه: الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميته، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحالية و مشاريع التوسعة الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حدّ التمكن لكل احدٍ منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
أصبحان  
الغائمي



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)  
[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)  
[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)  
[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

